الدكتور أبو القاسم سعد الله

الحركة الوطنية الجزائرية

تأليف

أبو القاسم سعد الله

دار الغرب الإسلامي

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الحركة الوطنية الجزائرية

تأليف
أبو القاسم سعد الله

الجزء الأول

دار الغرب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1992

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

لهذا الجزء من كتاب الحركة الوطنية الجزائرية قصة ، فقد صدر الثاني منذ 1969 والثالث منذ 1975 ، ولم يصدر هذا الأول . وإذا كان المنطق يقتضي البدء بالجزء الأول فإن هناك عوامل جعلت سلسلة الحركة الوطنية تخرج على هذا النحو من عدم الانتظام.

من هذه العوامل ان الجزء الثاني (1900 ـ 1930) كان موضوع أطروحتنا للدكتوراه ، ولم نفكر حين أعددناه أن يكون وسطاً بين أول وثان ، وانما جعلناه موضوعاً مستقلاً بذاته . وعندما ترجمت الاطروحة إلى العربية وأخذت في تدريس مادة الحركة الوطنية بالجامعة ، رأيت أن أواصل البحث في نفس الموضوع بإصدار جزء يبدأ من حيث انتهت الاطروحة ، فكان الجزء الثالث (1930 ـ 1945)[1] ، وأن أصدر جزءاً آخر يغطي الفترة التي كانت مدخلاً فقط في الاطروحة (الفصل الأول منها ـ 1830 ـ 1900) . وبهذه الطريقة ولد الجزء الأول.

وقد ظل تحضير وكتابة الجزء الأول يشغلان فكري منذ أمد طويل ، لسببين : الأول الحاح من اقتنى الثاني والثالث على استكمال الأول ، لأن المنهج والمنطق يقتضيان ذلك . والثاني هو أن البحث قد هداني إلى أن جذور الحركة الوطنية الجزائرية ترجع إلى المصادمات الأولى مع الاحتلال حين تخلت (ولا نقول انهزمت ، لأنها في الحقيقة لم تحارب) حكومة الداي حسين عن مسؤوليتها الاسلامية والوطنية وتركت الشعب وحده وجهاً لوجه أمام الغزاة الفرنسيين.

ورغم إيماني بأحقية السببين المذكورين ، فإني قد شغلت عن كتابة الجزء الأول من الحركة الوطنية بأعمال أخرى ، أهمها تاريخ الجزائر الثقافي الذي صدر منه

---

(1) أنظر مقدمة الجزء الثالث للوقوف على دوافع كتابته .

حتى الآن جزآن . وقد بقيت أتحين الفرصة للشروع في تحرير هذا الجزء من الحركة الوطنية إلى أن وجدتها في صيف سنة 1986 ، فاستطعت بعون الله تحرير ثلاثة فصول ونصف منه ، ثم تجمد العمل فيه إلى صيف السنة الموالية (1987) حين استطعت استكمال تحرير الفصول الباقية ، فكانت جملة فصوله سبعة ، تمتد عبر المرحلة التاريخية (من 1830 إلى 1900) ، واستطعت خلال العام المذكور (1987 ـ 1988) أن أنقح وأرقن أربعة فصول ، أما الفصول الثلاثة الباقية منه فقد سافرت بها إلى الخارج لأنقحها خلال صيف 1988 ومن أجل ذلك حملت معها جميع البطاقات المتعلقة بها وبالكتاب كله.

ولكن الله قدر أن تضيع مني هذه الفصول الثلاثة التي تغطي المرحلة من (1860 إلى 1900) ، وأن تضيع معها البطاقات جميعاً ، بالاضافة إلى الفصول التي حررتها من تاريخ الجزائر الثقافي (الجزء الثالث) وجميع بطاقات الثالث والرابع من الكتاب الأخير ـ الثقافي[2].

وبذلك أصاب الشلل الجزء الأول من الحركة الوطنية بضياع حوالي نصفه من جهة وضياع جميع بطاقاته من جهة أخرى . وقد بقيت في حيرة من أمري . هل انتظر العثور على المحفظة الضائعة وما فيها من فصول وبطاقات ؟ هل أيأس من المحفظة وأشرع في البحث من جديد لتحرير الفصول الضائعة ؟ ومتى أنتهي من ذلك ، والبحث فيه يحتاج إلى وقت وجهد وتفرغ خاص ؟ وفي أثناء هذه الحيرة ساورني الخوف من ضياع الفصول الأربعة الباقية منه . ومن يضمن حفظها في انتظار العثور على المفقود ؟ وهل العمر ممتد إلى ما لا نهاية ؟ وعندما استولت علي هذه الأفكار فاتحت بها بعض الأصدقاء وحتى بعض الناشرين ، فكان رأيهم انقاذ الفصول الأربعة بنشرها على الناس ، في صورة (قسم أول) . وعندما تنجز الفصول الباقية أو يعثر عليها تضاف إلى الكتاب في صورة (قسم ثان) له . وبعد تقليب الأمر على وجهه اقتنعت بوجهة النظر هذه ، وقدمت القسم الأول من الجزء الأول إلى المطبعة . فان أطال الله في العمر وجمعت مادة جديدة لقسمه الثاني أو عثرنا على الفصول الضائعة منه أكملنا الشوط ، وان كان غير ذلك، فاننا نكون بهذه الخطوة قد أنقذنا

---

(2) أنظر تفاصيل ذلك في مقالة (نكبة ثقافية) ، في جريدة الشعب ، عدد 15 سبتمبر 1988 .

على الأقل ما تبقى منه وقدمنا مادة تارخية للقراء نرجو أن تكون مفيدة لهم .

ولا بد لي من القول هنا بأن القارىء قد يلاحظ اختلافاً في طريقة ولهجة معالجة القضايا التاريخية بين الأجزاء الثلاثة من كتاب الحركة الوطنية. والواقع أن لكل جزء منه ظروفاً خاصة لاعداده، سيما وقد كان تحضير كل جزء في ظرف متباعد عن الآخر . وقد شرحت ذلك في مقدمتي الجزئين المطبوعين ، أما هذا الجزء فهو يتناول مرحلة تاريخية مختلفة كثيراً عما بعدها . فإذا كان الجزآن الثاني والثالث يتناولان الحركة الوطنية في صراعها « السياسي » مع المحتلين الفرنسيين فإن الجزء الأول (بقسميه) يعالج الحركة الوطنية في صراعها « العسكري » مع هؤلاء المحتلين . والأمر يختلف اختلافاً جوهرياً . فنحن في الحالة الأولى أمام تنظيمات سياسية وقيادات وصحافة وتأثيرات عالمية الخ . أما في الحالة الثانية فنحن أمام حكم عسكري رهيب إلى سنة 1870 أو حكم مدني متطرف وحاقد جاء في غفلة من أي تدخل خارجي ، وكان مطلق اليدين دون أن تعترض عليه تنظيمات سياسية ولا قيادات ولا صحافة الخ . فكان عهد الاستعمار في شكله العسكري والمدني خلال القرن التاسع عشر صفحة سوداء ملطخة بدماء أطفال ونساء الجزائريين في العوفية وغار الظهرة ونارة والزعاطشة وايشريضان ، دون ذكر الآلاف الذين أكلتهم السجون والمنافي في كورسيكا وسان مرغريت وغويان والمارتنيك الخ . ودون ذكر المحرومين من أراضيهم ومساجدهم وكرامتهم .

ومن الأسف أن تاريخ الجزائر في القرن التاسع عشر ما يزال غير مدروس . فالمؤرخون الفرنسيون أمثال (جوليان ، وايفير ، وآجرون ، . . .) اهتموا « ببطولات » جيشهم ورواد ادارتهم في الجزائر وكذلك تطور الجالية الأوروبية فيها و « انجازات » العهد الاستعماري في ميدان الطرق والزراعة والصناعات ونحو ذلك مما كان يهدف إلى خدمة الدولة الفرنسية واسعاد الجالية الأوروبية . وأما المؤرخون الجزائريون فقد ركزوا حتى الآن على القرن العشرين ، وخصوصاً منذ ظهور التنظيمات السياسية ، وأعطوا اهتماماً كبيراً لمجزرة الثامن من مايو 1945 ، رغم أن مثيلاتها كثيرات في القرن الماضي أيضاً . وهناك من الباحثين من درس جزئيات من هذه المرحلة مثل مقاومة الأمير عبد القادر (التي درست أحسن من غيرها) وعهد أحمد باي ، وثورة بو بلغة ، وثورة 1871 . ولكن دراسة العهد ككل وتتبع مسيرة

الصراع بين الجزائريين والفرنسيين خلاله ، ما تزال في نظرنا مفقودة.

وهذا الجزء من الحركة الوطنية لا يحقق هذا الهدف كله ، ولكنه يقدم أرضية يمكن للباحثين اللاحقين أن يستفيدوا منها وأن ينطلقوا من حيث توقفت . فرغم محاولاتي ، فانني لم أستطع أن ألبي كل ما عزمت عليه في انجاز هذا المشروع . وقد فصلت المجال الثقافي عن هذا الجزء مُنَبِّهاً إلى أني سأعالجه في المشروع الآخر وهو تاريخ الجزائر الثقافي ـ الجزء الثالث ـ (الذي كنت أخطط لاصداره هو وهذا الجزء من الحركة الوطنية في وقت واحد) كما انني سرت فيه كسابقيه ، على منهج واحد وهو الاهتمام بتفاعلات الحركة الوطنية وردود الفعل السياسي والعسكري أكثر من اهتمامي بالجانب الفرنسي . وأود أن أكرر هنا ما كنت قلته في مقدمة الجزء الثاني وهو ان لهجتي قد يراها البعض حادة أحياناً وان عبارتي قد تكون قاسية ، فليقارن القضاة والمحكمون لهجتي وعبارتي بلهجة وعبارة وأفعال الطرف الآخر عندئذ ، وسيلاحظون انني رغم ذلك ، كنت أقاوم نفسي أشد المقاومة حتى لا تجمح بي فأحكم على المحتلين الفرنسيين نفس الحكم الذي أصدوره هم ضد « الاندجين » الجزائريين.

وكمنهج عام ، فانني لم أقتصر على ردود الفعل ، بل ان الاجراءات الادارية الفرنسية في الجزائر ، وحتى التغييرات السياسية في فرنسا نفسها ذكرتها في الكتاب لأننا لا نستطيع فهم ردود الفعل الاّ من خلالها . كما ان التعريف ببعض القادة الفرنسيين داخل في خطة الكتاب . وهناك خط آخر واضح في الكتاب وهو أولاً : تواصل المقاومة وترابطها وهذا يبين انه ليس صحيحاً ان الثورات والانتفاضات كانت منعزلة عن بعضها، رغم صعوبة المواصلات وقلة وسائل الإعلام ورغم البطش الاستعماري . ثانياً : انه من الممكن القول بأنه لولا تعاون بعض المرتزقة الجزائريين مع الجيش الاستعماري والادارة لما نجح الفرنسيون وحدهم في الاحتلال ثالثاً : رغم فرض العزلة على الجزائريين عندئذ ، فقد تبين ان هناك علاقات متواصلة مع المشرق العربي والاسلامي سواء مع حركاته أو مع زعمائه أو مع مذاهبه وأفكاره. ولذلك حاولنا أن نذيل معظم الفصول باظهار العلاقات المذكورة.

وهناك قضية لا بد من التنبيه عليها منذ البداية ، وهي تداخل معلومات التاريخ السياسي والتاريخ الثقافي أحياناً . فالمؤسسات الدينية والعلماء والطرق الصوفية

وظهور النخبة والمنشآت التعليمية والثقافية كل هذه ستعالج في التاريخ الثقافي . ولكن هناك جوانب منها ، مثل ادعاء العمل الحضاري الفرنسي ، والتشريعات الخاصة بالاعتداء على الأوقاف والمؤسسات الدينية ، ودور الطرق الصوفية العسكري والسياسي ، الخ . قد استحقت منا ادراجها هنا على قدر الحاجة ، مؤجلين التفصيل فيها إلى التاريخ الثقافي ، ان شاء اللّه.

وان كتاباً في هذا الحجم الموضوعي والزمني ، كتب بعد بحث ودراسة وتدريس سنوات طويلة ، لا يمكن ايراد جميع مصادره ومراجعه . يضاف إلى ذلك ان ضياع جميع بطاقات الكتاب قد حرمنا من توثيق عدد من المصادر والمراجع بعد الانتهاء منه ، اذ أن عدداً من البطاقات الضائعة كانت تحمل أسماء مؤلفين وعناوين كتب وأرقام وثائق الخ . وعلى كل حال فقد ارتأينا وضع بعض المصادر والمراجع في آخر كل فصل ، مع ملاحظة أننا حاولنا عدم تكرار المصدر والمرجع الا اذا كان يحتوي على بحث أو مقال ينفرد به الفصل على غيره . كما اننا حاولنا جمع الوثائق والمذكرات والمراسلات والدوريات والصحف والأعمال العامة في أول الكتاب تحت عنوان ملاحظات على المصادر.

والواقع انني غير متفائل بالعثور على الفصول الضائعة من هذا الكتاب ، فإن كانت الأخرى فسنسرع بإلحاق تلك الفصول بأخواتها ، وان تأبد الضياع وانقطع الرجاء فسنبذل الجهد لاعادة الكرة ، وان كانت شاقة مريرة ، لكي نوفي تاريخ الحركة الوطنية حقه ، مؤملين أن يمتد العمر لاكمال الجزء الثالث والشروع في الجزء الرابع الخاص بالثورة المجيدة.

وكثيراً ما سألني السائلون عن سبب عدم كتابة تاريخ الثورة، فكُنْتُ أسارع بالاجابة : ومتى كتبنا تاريخنا الآخر حتى لم يَبْقَ الا تاريخ الثورة ؟ ان تاريخ الجزائر كله ما يزال غير مكتوب . وهذا ما جعلنا نتخبط في التعرف على هويتنا وانتمائنا ، وهذا الذي جعل الغير يجد أرضاً بلا تاريخ مكتوب فأخذ هو يكتب لملء الفراغ ، كما يهوى . وأول المتصدرين لكتابة تاريخ الجزائر في جميع عصوره هم الفرنسيون ، بحكم استعمارهم لبلادنا ومعرفتهم لتفاصيلنا وطمعهم في الابقاء على التأثير علينا والمحافظة علينا في فلكهم . وكل ما نبديه نحو هذه المدرسة الممتدة الجذور والفروع (أعني المدرسة التاريخية الفرنسية التي ابتدأت بكتابات العسكريين

والمستشرقين والكنسيين ثم امتدت عبر كتابات الجامعيين والاكاديميين في جامعة الجزائر ، ثم انتقلت بعد الاستقلال إلى فرنسا نفسها لتبقى على تأثيرها في شبابنا الذين يذهبون إلى هناك لتلقي العلم والتتلمذ) هو المقاومة الشفوية والرفض العاطفي دون تقديم البديل لما تنتج .

وأملنا هو أن تخرج من الجامعة الجزائرية فئة من الباحثين المتمرسين والمسلحين بوسائل العلم والبحث والمقتنعين بضرورة حمل الرسالة ، رسالة كتابة تاريخ الجزائر منذ القديم من وجهة النظر الوطنية ، ولا نعني هنا « الوطنية » الضيقة أو الشوفينية ، ولكننا نعني الكشف عن الذات الجزائرية وتحديد أبعادها وابراز مساهمتها في الحضارة الانسانية عامة والحضارة العربية ـ الاسلامية خاصة . فمتى يتحقق هذا الأمل ؟

الجزائر في 7 ديسمبر ، 1989 .

أبو القاسم سعد الله

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

ملاحظات عامة حول المصادر

ذكرنا مجموعة من المصادر والمراجع في آخر كل فصل . ولكن هناك نوع من المصادر تعتمد عليه الدراسة في عمومها ولا يمكن تكراره في كل فصل ، ونعني بذلك الوثائق الأرشيفية ، والمجاميع ، والمراسلات ، والدوريات ونحو ذلك .

ولذلك رأينا أن نذكر هنا عناوين هذه المصادر العامة مرة واحدة في الكتاب ، وعلى القارىء أن يلتمسها في مكانها بالهامش في كل فصل ، اذا رغب . وقد صنفناها كما يلي :

1 ـ **الأرشيف** (ايكس) ، خصوصاً الأرقام التالية : 1 H 1 ، 1 H 11، 1 H 12 ، 1 H 23 ، 1 I 23 ، 10 H 27 ، 10 H 54 ، 10 H 76 ، 10H 89 ، F 580574 ، F 80/571 ، F 80613 ، F 801732.

2 ـ **المراسلات** ، وخصوصاً :

1 . دمريمون ـ مراسلات ، نشرها ج. ايفير ، 1927 .

2 . دو روفيقو ـ مراسلات ، نشرها غ. ايسكير ، 4 أجزاء ، 1914 ـ 1924 .

3 ـ ديرلون ـ مراسلات ، نشرها غ. ايسكير ، 1926 .

4 . فاليه ـ مراسلات ، نشرها ج. ايفير ، 5 أجزاء ، 1949 ـ 1954 .

5 . فوارول ـ مراسلات ، نشرها غ. ايسكير ، 1924 .

6 . كلوزيل ـ مراسلات ، نشرها ج. ايفير ، جزآن ، 1949 ـ 1950 .

3 ـ **المجاميع** ، وخصوصاً :

1 . **الاكتشاف العلمي للجزائر** ، عمل موسوعي شامل صدر خلال سنوات 1840 ، 1841 ، 1842 ، ثم من1844 إلى 1867 . ويضم 39 مجلداً . وهو يشمل العلوم التاريخية والجغرافية ، والطرق التي سلكها العرب في الجزء الجنوبي من الجزائر وفي ايالة تونس. وأبحاث في الجغرافية والتجارة في الجزائر الجنوبية ،

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

وأبحاث عن أصول القبائل الرئيسية المهاجرة بافريقية الشمالية وخصوصاً الجزائر ، ودراسات حول بلاد القبائل ، ومذكرات تاريخية وجغرافية حول الجزائر ، وتاريخ افريقية لمحمد الرعيني القيرواني ، وغيرها .

2 . **أوضاع (طابلو) المؤسسات الفرنسية في الجزائر** ، ابتداء من سنة 1838 إلى حوالي 1869 ، في شكل تقارير ومسح سنوي لتطور النشاط الاداري والاقتصادي والعسكري الفرنسي في الجزائر.

4 ـ **الدوريات والجرائد** ، وخصوصاً :

المجلة الافريقية (م إ) ـ 1856 ، والمونيتور ألجيريان ، (1832) ، والمونيتور يونيفيرسال ، ودورية (روكاي) ـ قسنطينة ، 1855 ، ودورية (نشرة) جمعية وهران (1878) ، والمبشر (1847) ، والأخبار (1839) ، والتايمس (البريطانية) ، وهناك دوريات أخرى عديدة بالعربية والفرنسية والانكليزية .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الأول

معاول الغزو

1830 - 1837

1 . مقدمات :

لا نعرف أن أحداً قارن بين غزو التتار لبغداد وغزو الفرنسيين للجزائر . ويبدو أن المؤرخين السابقين لم يكونوا في حاجة إلى مثل هذه المقارنة ما داموا يعرفون مسبقاً أن التتار شعب متوحش وأن الفرنسيين شعب متحضر ، وهم متأكدون مسبقاً أيضاً أن الشعب المتوحش لا يقوم الاّ بالتخريب وأن الشعب المتحضر لا يقوم الاّ بالبناء . فاذا أضيف إلى ذلك أن التتار قوم قد مضت عليهم القرون ولم يعودوا موجودين بذلك الوصف الاّ في أحداث التاريخ وأن الفرنسيين قوم ما يزالون يعيشون بين الناس يدافعون عن أنفسهم بكل الوسائل بما في ذلك التهديد والتمويه ـ إذا أضيف ذلك إذن عرفنا لماذا لم يعقد المؤرخون تلك المقارنة حتى الآن بين التتار في بغداد والفرنسيين في الجزائر . ونحن أيضاً لن يكون هدفنا عقد هذه المقارنة ، ولكن إذا وجد القراء أوجه شبه بين ما حدث هنا وهناك فنرجو ألا تقشعر جلودهم أو تصفر وجوههم لأن في مسيرة التاريخ كثيراً من التناقض ، بل ان البعض يجعل التاريخ كله عبارة عن عملية ديناميكية للمتناقضات .

لقد قالوا انها حملة عسكرية تأديبية انتقامية ، تؤدي دورها ثم تعود من حيث أتت . سحابة ثم تنقشع ! ولكن « الحملة » استغرقت قرناً وربعاً وكانت تبدو لأصحابها بلا نهاية . والسحابة تحولت إلى ظلمات بعضها فوق بعض وكلما حاولت الشمس أن تخترقها ازدادت عتواً وسوادا . يا لله ! هل هناك حد للحقد والتعصب والجشع وحب التسلط ؟ ومع ذلك فلم يبق التتار الاّ بضعة أيام ، أما الفرنسيون فقد بقوا أكثر من قرن !

ان طلبة التاريخ الجزائري يحفظون الدرس عن ظهر قلب ، فبعد حصار غير

مجد دام ثلاث سنوات جمع الفرنسيون جيشاً ضخماً (64.000 رجل عند غرينيفيل ، و37.000 رجل ، حسب جليان) وأسطولاً جراراً (675 سفينة)[1] وأعطوا قيادتهم العليا لوزير الحرب بورمون ، وقيادة الأسطول للأميرال دوبيري . وتقدموا نحو شبه جزيرة سيدي فرج الواقعة غربي مدينة الجزائر ، بعد أن أكدت دراساتهم وخرائط جواسيسهم أن تلك البقعة هي نقطة الضعف في الدفاع الجزائري . وإذا كان الكذب رذيلة في جميع الشرائع وعند الأفراد فهو عند بعض الدول فضيلة . لقد تكلم القادة الفرنسيون عندئذ بأفواه عديدة . قالوا لشعبهم انهم سينتقمون لشرفه المهان فأيد وتحمس ، وقالوا للبابا أنهم سيرفعون الصليب ويخفضون الهلال في الجزائر فبارك ودعا ربه بالنصر ، وقالوا لأوروبا الإقتصادية أنهم سيقضون على القرصنة ويفرضون حرية التجارة فاطمأن قلبها وسال لعابها[2] . وقالوا للجزائريين انهم سيحررونهم من « النير التركي » فصدق بعض المغترين وشلت حركة بعض الغافلين ، ولكن عندما صحا المغترون وأفاق الغافلون كان الذئب قد تمكن من الحمل ، واللص قد سطا على الدار . ولات ساعة مندم !

وفي غضون أيام تحولت الحملة إلى احتلال . وتحول تأديب الداي حسين باشا ، إلى تأديب شعب وأرض ، وأطلقوا منذئذ على هذه العمليات اسماً جديداً هو التهدئة (Pacification) ، وتحول الانتقام من « الترك المستبدين الغرباء » إلى انتقام من صاحب الدار نفسه لأنه عربي ولأنه مسلم ولأنه رفع سلاح المقاومة في وجه الاحتلال ، وأخيراً تحول المحررون إلى غزاة نقلوا حربهم من مدينة الجزائر إلى مختلف أنحاء القطر شرقاً وغرباً وجنوباً . وقد شمل هذا الغزو الإنسان والأرض والثقافة والدين . والمراحل التي مرّ بها هذا الغزو هي فترة القرن والربع التي أشرنا اليها . وهذا ما أسميناه (بمعاول الغزو) . وأمام هذا الغزو المتعدد الرؤوس

(1) من الرجال 31.000 خيالة (فنطازية) ، إضافة إلى 2.300 من المدفعيين ، وكذلك 40 مترجماً . أما السفن فمنها 103 سفن حربية من البحرية الملكية ، والباقيات (وهي 572) سفن تجارية من كل نوع وحجم . وكانت الحملة تضم على الأقل 4.546 حصاناً وبغلا .

(2) بارك البابا الحملة على الجزائر ، وباركتها كذلك بعض البلاطات الاوروبية ، ومنها بلاط روسيا ، إذ أن القيصر نيقولا الأول تبرع بأحد رعاياه المختصين في الشؤون الإسلامية ، وهو الضابط الكونت فيلوزولوف Filosolof ليكون ضمن الحملة على الجزائر .

والإتجاهات كانت هناك (جبهات المقاومة) التي امتدت أيضاً عبر نفس الفترة (القرن والربع) ، والتي تشكلت بأشكال مختلفة حسب الجهد والامكانات . وسنحاول في هذا الفصل تتبع المرحلة الأولى من هذا الغزو والمقاومة معاً.

روى جول كامبون الذي حكم الجزائر بين 1891 ـ 1897 أن الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت قد عبر له عن امتنان امريكا لقضاء فرنسا على القرصنة في الجزائر سنة 1830 ، لأن الفرنسيين هم الذين خلصوا أمريكا مما لا يليق بها وهو دفع اتاوات إلى قراصنة الجزائر لحماية تجارتها . ونسب كامبون إلى روزفلت أنه قال له « إنكم بالقضاء على هؤلاء القراصنة قد خدمتم كل الأمم المتحضرة » . والجدير بالملاحظة أن كامبون أضاف بأن احتلال فرنسا للجزائر كان في جملته انسانياً عميقاً . رغم اعترافه بالشقاء الذي يرافق الحروب عادة[3] .

ترى أي حضارة وأي انسانية فيما سنعرضه عليك ؟ يقول أحد الكتاب متحدثاً عن صورة الإنسان العربي في نظر الفرنسيين خلال القرن الماضي : كان الإنسان العربي يثير التقزز عندهم « ان اسم العربي يجرح الآذان » فالعرب في نظرهم « غير مؤدبين، غلاظ ، ظلمة ، عنيفون ، غير أوفياء ، وبدون مشاعر[4] » .

وهناك فكرة أخرى مسبقة كانت تطغى على الفرنسيين ، وهي أن العرب الجزائريين كانوا لا يخضعون الا للقوة وأنهم كانوا طيلة تاريخهم تحت رحمة الغزاة ، وأنهم لم يستطيعوا في يوم من الأيام إعلان استقلالهم أو التمكن من طرد غازيهم ، وانما الغازي الجديد هو الذي يطرد الغازي القديم ، وهكذا دواليك . ألم يكتب صاحب هذا المذهب الغريب وفيلسوف الفرنسيين في تزوير تاريخ الجزائريين ، وهو ايميل فيلكس غوتييه ، قائلاً ان « الأهالي لم ينجحوا أبداً في طرد المنتصرين عليهم » . ألم يقل أيضاً أن الاحتلال الأجنبي يلعب دوراً في كل التاريخ حيث يتحول المحتل الأجنبي (الفرنسي طبعاً ؟) بسرعة إلى قائد وطني الاّ في المغرب العربي

---

(3) بعد أن حكم كامبون الجزائر عينته حكومته سفيراً لها في واشنطن ، ومن ثمة هذا الحديث عن روزفلت . أنظر كتابه (حكومة الجزائر العامة) 1891 ـ 1897 ، باريس ، الجزائر ، 1918 ، المقدمة . اما ثيودور روزفلت فقد حكم الولايات المتحدة بين 1901 ـ 1908 .

(4) نقلاً عن (مذكرات شوفالييه دارفيو ، 1735) من المجلة الافريقية ، 1905 ، ص 149 ، والمقالة عنوانها (العرب في الكوميديا والرواية في القرن التاسع عشر) .

(وهو يعني الجزائر بالدرجة الأولى) لأن ذلك لم يقع مطلقاً ، لأن هذا المغرب لم يكن في يوم من الأيام ذا سيادة وإنما اقليماً في امبراطورية ؟[5].

ان خلفية هذا التفكير هي التي جعلت الفرنسيين لا يكتفون بالحملة العسكرية التأديبية الإنتقامية ولا حتى بالإحتلال الدائم الثقيل ، بل تجاوزوا ذلك إلى الحاق الجزائر بفرنسا واعتبارها اقليماً في امبراطورية (كما يقول فيلسوفهم المدعي) وأزاحوا الإنسان العربي من طريقهم في كل مكان ، لأن اسمه ومنظره يثيران التقزز ويصكان الآذان ويؤذيان العيون . ولكن هل حقاً كان العربي هو الذي يثير فيهم ذلك ؟ ان الأحداث تدل على ان الفرنسيين كانوا يكرهون الشعوب الإسلامية عموماً ، باسم التعصب الديني ، وباسم الشوفينية ، وبإسم التعالي الحضاري الزائف . فهم قد بدأوا حملتهم الظاهرة ضد « الترك » ، ثم انفجر حقدهم على « العرب » أيضاً وعلى جميع الشعوب الإسلامية ، كما تثبت أحداث الاستعمار خلال القرنين التاسع عشر والعشرين والتي مازلنا نشهد آثارها إلى اليوم .

بدأ الفرنسيون اذن بمطاردة الإنسان التركي في الجزائر . وسنعرف ان بعض الجزائريين وقعوا في الفخ وتعاطفوا مع الفرنسيين في ذلك ، وأن بعض الجزائريين نادوا بوحدة الكفاح وتفطنوا للعبة ، وأن بعضهم أيضاً قد أظهر اللامبالاة في البداية واعتقد أن الأمر لا يعنيه أصلا . سنعرف كل ذلك في حينه ، أما الآن فدعنا نروي كيف تصرف الفرنسيون مع الفريق الأول ـ الأتراك ـ.

2. طرد الأتراك :

بعد تقدم الغزاة من سيدي فرج نحو مدينة الجزائر جرت مفاوضات بين الجزائريين أنفسهم ثم بين الجزائريين والفرنسيين . ويهمنا الآن نتيجة المفاوضات الثانية . فقد أرسل حسين باشا ممثليه إلى دي بورمون يستطلع شروطه وغرضه . وكان الوفد الجزائري مؤلفاً من عناصر حضرية وعناصر رسمية اذ نجد من ضمنه : كاتب الباشا ، مصطفى القادري ، وزعيم الحضر عندئذ احمد بوضربة ، والحاج حسن (أحد أبناء حمدان بن عثمان خوجة) . والاتفاق الذي توصل اليه الطرفان

(5) غوتييه ، المجلة الافريقية ، 1927 ، ص 66 ـ 67 .

معروف وموقع رسمياً من قبلهما ، وهو الاتفاق الذي ضرب به الفرنسيون عرض الحائط قبل أن يجف حبره . وهي الظاهرة التي سكت عنها كل من جول كامبون وثيودور روزفلت.

وعلى أية حال فالاتفاق ينص ، في أحد بنوده ، على أن يغادر حسين باشا القطر الجزائري إلى جهة أخرى يختارها بنفسه . وتردد الباشا ، فاختار مالطة ولكن يبدو أن العلاقات مع الانكليز جعلته يغيرها إلى ليفورنيا ، ولا ندري لماذا عاد فاختار نابولي بديلاً عنها ، ولكن المؤكد أن الباشا لم يختر مسقط رأسه (أزمير) ولا بلداً اسلامياً آخر، لماذا ؟ هل كان يخشى غضب السلطان عليه ؟ هل كان يشعر بالأمن على حياته في أوروبا أكثر من الشعور بالأمن في بلد اسلامي ؟ هل كان يأمل في استعادة حكمه ؟ ربما . وماذا نتوقع من حاكم باع أرضاً وشعباً وسيادة فأصبح لاجئاً ؟ ومن غريب الأقدار أن هذا الباشا قد مات حتف ظلفه في الاسكندرية ولم يجد سوى بلد اسلامي يلفظ فيه أنفاسه الأخيرة[6] .

---

(6) تذكر الوثائق أن حسين باشا ولد سنة 1764 في مكان يدعى ندرلة ، (وتذكر أخرى أنه ولد سنة 1773 في ازمير) ، ونشأ في اسطانبول . وخدم هناك في المدفعية وترقي فيها بسرعة ، وعندما تعرض لعقوبة قاسية فر إلى الجزائر وانضم إلى أوجاقها ، وتولى فيها عدة وظائف قبل أن يصبح وزيراً وصديقاً للباشا الذي سبقه (وهو على باشا) ، وهو الذي أوصى بخلافته سنة 1818 . وبعد أن بقي في الحكم اثنى عشر سنة وفي المنفى حوالي ثماني سنوات توفي في الإسكندرية سنة 1838 .
أنظر ستيفان ديستري (تاريخ الجزائر) ط . مدينة تور ، 1851 ، ص 208 . وأيضاً (مذكرات شانغارنييه) .

ومما يذكر أن الباشا اصطحب معه مائة وعشرة أشخاص من المقربين اليه . وأوصى دي بورمون خيراً بهؤلاء : محمود بن عثمان خوجة (وهو ابو زوجته) ، وابن أخيه حمدان بن عثمان ، ومصطفى القادري ، كاتب الباشا الخاص ، ومترجمه حامد بن شلب ، والحاج محمد أمين السكة ، الخ .
أنظر : (احتلال الجزائر من أوراق بورمون) .

ومما يذكر أيضاً ان الباشا قد حملته باخرة فرنسية باسم (جان دارك) في اليوم العاشر من يوليو 1830 . وتذكر المصادر الفرنسية أن السكان قابلوه ببرودة ، وأن أحداً لم يأت لوداعه يوم رحيله ، وأن عينيه فاضت بالدموع عند المغادرة . وبعد أن أقام الباشا فترة قصيرة في نابولي ، انتقل إلى ليفورنيا للإقامة بأهله في منزل تملكه عائلة بكري وبوشناق اليهودية . أنظر عن رحلة الباشا إلى فرنسا سنة 1831 ، كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، جـ 3 ، بيروت 1990 . ومن سخريات القدر أن دي بورمون لم يبق بعده سوى شهر إذ عزل من منصبه ، وغادر الجزائر منفياً أيضاً على باخرة نمساوية بالأجر ولم يودعه أحد من قومه أيضاً .

إنّ المؤرخين غير متفقين في الحكم على شخصية حسين باشا ، فمنهم من يحمله مسؤولية ما حلّ بالجزائر من حملة واحتلال ونكبات ، لأنه أحمق (غضبه غير الدبلوماسي على القنصل الفرنسي) ، ومعاند ، ومهمل (سيما عدم اتخاذ الحيطة عسكرياً واسناد القيادة لغير الاكفاء الخ) . ومنهم من يبرئه من ذلك بناء على أنه بذل قصارى جهده إلى آخر لحظة وانما وجد نفسه مخذولاً من الجيران ومن السلطان ، ومعزولاً من السكان (خصوصاً الحضر الذين سنتحدث عنهم) الذين كانوا ناقمين على تتريك الحكم في الجزائر ونشر الظلم والاستبداد.

ومهما كان الأمر فاننا لا نعتقد أن حسين باشا كان يحس احساساً وطنياً بإنتمائه إلى الجزائر ، كما لا نعتقد أنه كان يحس أحساس الحاكم البطل الذي يقدر دوره في التاريخ ، ولا الحاكم المسلم الذي يفهم بعمق معنى الجهاد . وفي اعتقادنا انه كان « مجرد حاكم » مثل كل الحكام الذين نشاهدهم هذه الأيام في الوطن العربي والاسلامي ، اذ لا يثبتون أمام أية عاصفة سواء كانت داخلية أو خارجية ، ما داموا يعيشون فارغين من القيم الدينية والوطنية والبطولية .

وبعد اخراج حسين باشا جاء دور الترك الأخرين . فكان ترحيلهم يوم 11 يوليو بطريقة تثير الشفقة والحزن . كان عدد الانكشارية في مدينة الجزائر عندئذ حوالي 5.092 من بينهم 891 مدفعياً ، وبين هذا العدد متزوجون وعزاب . ويبدو أن بعض المتزوجين سمح لهم في البداية بالبقاء ، أما بقية الانكشارية فقد حملتهم جماعياً سفن فرنسية إلى آسيا الصغرى (أناضوليا) لأن معظمهم ، كما تقول المبررات ، كانوا قد ولدوا هناك . ويذكر أحد الكتاب الفرنسيين أنهم هم الذين طلبوا ترحيلهم إلى أناضوليا كما يذكر أن بورمون قد قرر لهم أجرة شهرين ليعيشوا منها دون أن يطلبوا هم ذلك منه[7]. وهذا في الظاهر ليس كرماً كبيراً منه ما دامت النقود ستخرج من ميزانية

---

(7) أنظر بول غافاريل ، (الجزائر) ، ص 91 .

وكان الترحيل الأول قد شمل ألفين من الإنكشارية العزاب . وبعد حوالي شهر (أي 16 أوت 1830) سرى قرار الطرد حتى على الأتراك المتزوجين ، فكانت السفن تعج بالنساء والأطفال والجنود ، ولا تسمع الاّ العويل والبكاء لتمزيق العائلات وتشتيت الأقارب . وكان القرار الأخير قد اتخذ من بورمون بعد أن علم عن طريق الوشاة (ومنهم بعض الحضريين واليهود) أن الأتراك الباقين قد فرحوا بهزيمة بورمون في البليدة وأخذوا يروجون الإشاعات عن قرب جلاء الفرنسيين عن =

الجزائر التي استولى عليها . كما تذكر المصادر الفرنسية أن هؤلاء الجنود لم يظهروا أية مقاومة بعد 5 يوليو حتى عندما طلب منهم بورمون وضع أسلحتهم .

3. نوعية الجيش الفرنسي ونهب الخزينة :

وهذا الجيش الذي غزت به فرنسا الجزائر ، من أي الناس هو ؟ ان معرفتنا لعناصره وأهدافها ومستواها الثقافي هي التي تفسر لنا تصرفاتها وعلاقاتها بالجزائريين فقد ادعى بعضهم ان الجزائر أصبحت مسرحاً يستعرض عليه الجنود الفرنسيون ، بدون هوادة ، المجد العسكري وحضارة فرنسا[8] . فمن هو هذا الجيش الذي جاء لنشر المجد والحضارة ؟ ان شهادات المعاصرين ، ومنهم اسماعيل اوربان وويلسون ايسترهازي ، تذهب الى أن جنود الحملة الفرنسية كانوا من الفلاحين ، وأنهم كانوا تماماً جهلة . وقد أثبتوا أن عدد المتعلمين في الجزائر كان يفوق عدد المتعلمين في فرنسا عندئذ ، وهي التي بلغت فيها الأمية نسبة 45٪[9] .

ويذهب آخرون الى أن هؤلاء الجنود كانوا متحمسين للغزو وقطع البحر لمحاربة الترك وتخليص المسيحيين منهم . وقد استخدمت مختلف الوسائل لاشعال نيران التعصب الديني في هؤلاء الشباب الجهلة ، حتى أنهم كانوا « يهرعون الى الانضمام للحرب ، تماماً كما فعل أجدادهم من قبل أثناء الحروب الصليبية » . ومن أكثر المناطق الفرنسية حماساً واندفاعاً للحرب وممارسة الغزو سكان المناطق الجنوبية الفرنسية التي كانت تحس بالخوف الدائم من الجزائريين ، فكان هؤلاء السكان

الجزائر . وتصور بعض المصادر الفرنسية عملية الترحيل بطريقة إنسانية فتقول أن بورمون قرر خمس فرنكات لكل جندي مدة شهرين ، وأن المفتي بأزمير قد اعترف بالجميل للسلطات الفرنسية على كرمها .

أنظر مثلاً غوستاف غوثرو G. Gautherot (احتلال الجزائر 1830) بناء على أوراق الماريشال بورمون ، باريس 1929 ، ص 182 . أما قطع الروابط العائلية وعملية الطرد خلال بضع ساعات فقط ، والاستيلاء على أملاك المطرودين ، والتفريق بين الزوج وزوجه ، والزوجة وأهلها ، والآباء والأبناء ، الخ كل ذلك لا تكاد تتعرض له هذه المصادر .

(8) أنظر مقدمة كتاب (الجزائر المصورة Pittoresque) ، تولوز ، 1845 .

(9) ايمريت (الحالة العقلية) في R.H.M.C، 1957 ، ص 207 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

يستقبلون المشاركين في الحملة بتعصب وحماس كما لو كانت الحملة هي مسيرة الخلاص الديني . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان منهم من يأمل في الحصول على تعويضات مادية سواء مما فقده في الماضي أو مما يأتي به المستقبل[10].

وبالإضافة إلى الجنود النظاميين الذين كانوا على النحو الذي وصفناه اندفع الى الحملة أناس من نوع آخر ، أناس مغامرون بشتى أنواع المغامرة . فهم كانوا بدون مهمة محددة في الجيش ، ولكنهم شاركوا في صنع الحملة وفي آثارها على الجزائريين ، اذ هناك من شطح خياله فاعتقد أن فرنسا قد استيقظت من جديد لتلعب دورها الديني والعسكري ، حتى أن شاتوبريان قال أن فرنسا كلها قد استيقظت على صوت أبواق الحرب فاندفع للتطوع أناس من مختلف القطاعات ، أشباه الجنود ، وقدماء المحاربين في جيش نابليون الأول ، والمتسكعون ورواد مقهى شارتر ودي قان الخ[11].

أما المدنيون الذين شاركوا في الحملة تحت عناوين مختلفة فسنتحدث عنهم بعد قليل ، ويكفي هنا أن نقول ان منهم الأدباء ، والمؤرخين ، والطباعين ، والكتاب ، والصحافيين ، والمحامين ، والرسامين ، والمترجمين . وكان منهم من دفع للجيش أموالاً لكي يسمح له بالمشاركة على أن يدفع له راتب شهري بعد ذلك . وكل منهم كان يعرض خدماته على النحو الذي يقدر عليه . ورغم مشاركتهم وحماسهم فقد اعتبروا من الخياليين وغير المنضبطين[12] . وعندما نزل الجنود الفرنسيون أرض الجزائر وأخذوا يحاربون الجزائريين كان هؤلاء المدنيون يرافقونهم ويختلطون بهم ويقومون بالأمور التي ارتضوها لأنفسهم والتي سنتحدث عنها ، كالرسم ، والكتابة ، والترجمة ، وغيرها . ولكن أكبر هدف أثار طمع الطامعين ونهب الناهبين هو خزينة الدولة الجزائرية.

تذكر المصادر المعاصرة ان خزينة الجزائر كانت تحتوي على ما لا يقل عن خمسين مليون دولار سنة 1830 . وأن الداي علي باشا الذي كان قد نقل مقر الحكم من قصر الجنينة الى أعالي القصبة ، استعمل لنقل محفوظات الخزينة خمسين بغلاً

---

(10) بول غافريل ، ص 61 .

(11) أنظر غبريال ايسكير (بداية الصحافة الجزائرية) في المجلة الافريقية ، 1929 ، ص 255 .

(12) بليفير (جلادة المسيحية) ، ص 281 .

كل ليلة لمدة خمسة عشر يوماً[13] . ويفتخر الفرنسيون بأنهم لم يقوموا بحملة رابحة في أي مكان مثل حملة الجزائر اذ أن الحملات الأخرى كانت تكلفهم ، ولو نجحوا فيها ، أموالاً طائلة وخسائر مالية معتبرة ، بينما حملة الجزائر قد فاضت على تعويض التكاليف .

ان المعروف من دوافع الحملة ان الفرنسيين كانوا يطمعون في خزينة الجزائر التي سمعوا بثرائها ، والتخلص من ديونهم للجزائر التي أصبحت تلح في تسديدها . كما أن الفكرة الرائجة لدى الفرنسيين قبيل الحملة هي أن الجزائر بلد ثري ببضائع القرصنة وتحف الشرق وذهب أفريقية وعبيدها . فكان كثير من المشاركين في الحملة يحلمون بملء الجيوب والبطون والاستثراء من هذه الأرض التي تثير في خيالهم الخوف والسحر معاً .

لقد كثر الحديث والخلاف بين الفرنسيين أنفسهم عما نهبوه من خزينة الجزائر والطريقة التي عالج بها قائدهم بورمون هذا الموضوع ، وقد أشارت أصابع الاتهام حتى اليه هو ، بل حتى الى ملكه شارل العاشر ، ثم الى الملك لويس فيليب . أما ضباطه وجنوده فقد اتهم كل منهم الآخر ، وتدخلت الصحافة والتقارير السرية والعلنية لتلقي الضوء على قضية انتهاب الخزينة . ولكن يبدو أن الجميع متفقون على أن النهب قد وقع ، وأن ما بقي من الخزينة قد استولت عليه قيادة الحملة وضمته الى أموال الدولة الفرنسية لتستعمله في أغراض عدوانية أخرى ضد الجزائريين . (ولو كنت من أصحاب السلطات والصلاحيات لطالبت الفرنسيين اليوم وغداً بمحتويات خزينة بلادي ، سواء أخذوها بحق الغزو أو بحق النهب ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع !) وسنعرف أن النهب لم يكن مقصوراً على الخزينة بل تعداها الى مختلف الميادين في البلاد بعد الاستيلاء عليها .

ومهما كان الأمر فإن المصادر الفرنسية تذكر أن الخزناجي (وزير المالية) في حكومة الداي حسين باشا قد انتظر بورمون عند باب الخزينة ليسلمه مفاتيحها بنفسه[14] . وعندئذ وقع الاستيلاء عليها وعدها ونهبها ، فإذا هي على النحو التالي :

---

(13) نفس المصدر .

(14) أنظر مذكرات شانقا رنييه ـ تعليق ـ . والملاحظ أن اتفاق الجزائر بين الداي وبورمون لم ينص على مصير الخزينة .

قدر الفرنسيون رسمياً قيمة الخزينة : 55.684.527 ف. موزعة على النحو التالي :

ذهب وفضة وجواهر : 48.684.527 ف .

صوف وبضائع أخرى : 3.000.000 ف .

قيمة مدافع أرسلت الى فرنسا : 4.000.000 ف .

أما الحسابات التي أجراها الخاصة (غير الرسمية) للخزينة فقد أثبتت أن قيمتها : 400.000.000 ف[15].

وقد تبادل المسؤولون الفرنسيون عندئذ التهم ، كما أشرنا ، حتى أن بعض مؤرخيهم ادعى أنهم نسوا ما جاؤوا من أجله ، وأخذوا في المناقشات ، وظهرت بينهم الغيرة ، واتهام بعضهم البعض بالسرقة والاستحواذ على الأشياء الثمينة ، ومكثوا في فيلاتهم العربية التي استولوا عليها غصباً ، يكتبون الرسائل لذويهم[16] ويعدّون انتصاراتهم ومنهوباتهم . وسنرى أن نفس الظاهرة حدثت عند الاستيلاء على قسنطينة وغيرها من المدن.

وبينما كان بورمون يحصي أموال الخزانة ويضع في جيبه منها ما حلا له[17] (حسب بعض المصادر) ، كان ضباطه وجنوده منطلقين ، في شره ، يعيثون الفساد في المدينة . فقد دخلوا قصر الباشا في القصبة وانتزعوا البلاد وقشروا الجدران في الغرف بحثاً عن المال المخبأ[18] والكنوز التي قرأوا عنها أو سمعوا بها من كتب ألف ليلة وليلة . وتمتلىء الكتب التي أرخت للحملة بهذه الأوصاف ، ليس فقط بالنسبة لقصر الباشا ، ولكن لمختلف القصور والفيلات والدور التي استولوا عليها ، سواء في مدينة الجزائر أو البليدة أو المدية أو غيرها . وماذا نتوقع من جنود همج ممتلئين حباً

---

(15) غرينفيل تامبل (جولة في البحر الأبيض) ، لندن ، 1835 ، ج1 ، ص 37 . عن تفاصيل ما حدث للخزينة أنظر عمار حمداني (الحقيقة حول الحملة الفرنسية) . 1985 ؟

(16) بول أزان (الإحتلال والتهدئة) ، ص 18 ـ 20 .

(17) مما يذكر أن الديوانة (الجمارك) الفرنسية في مرسيليا فتحت الصندوق الذي كان يضم جثمان ابن بورمون الذي قتل في وهران ، لترى ما اذا كان فيه ذهب أو أشياء ثمينة مهربة من الجزائر . أنظر يوجين بيري (رحلات جزائرية) 1830 ـ 1848 ، بدون تاريخ ، ص 100 ـ 101 .

(18) أنظر تامبل (جولة . .) ، ص 23 .

في المال وحقداً على الدين وأهله ؟ ومع ذلك يقول لنا جول كامبون وثيودور روزفلت وأضرابهما إن الفرنسيين جاؤوا الى الجزائر لنشر الحضارة والمبادىء الإنسانية العميقة !

ولنستمع الى مؤرخ الجيش الفرنسي في الجزائر والغيور على شرفه أكثر من اللازم ، وهو بول أزان ، يصف لنا حالة هذا الجيش خلال شهر يوليو سنة 1830 . فقد قال ان الجنود ارتكبوا أعمالاً تخريبية حول مدينةِ الجزائر ، فخربوا الفيلات (الاحواش) وقطعوا أشجار الحدائق ، وخلعوا أعمدة المنازل لإيقاد النار ، وثقبوا أنابيب المياه لملء أوانيهم منها ، وهدموا سواقي المياه لكي يسقوا حيواناتهم ، وتسببوا في تفجير مخزن للبارود ، مما أدى إلى عدة جرحى ، ولم يحافظوا حتى على صحتهم ونظافتهم . وقد كثر المرض فيهم حتى أن المتصرف (دينييه) أعلن يوم 24 يوليو أن المستشفيات قد دخلها ألفان وخمسمائة مريض وأنها لم تعد كافية لاستقبال المرضى ، وبتعبير آخر فقد اشتغل الجنود بالتخريب ولم يكن في حسبانهم أي مشروع للبناء[19] . وواضح من هذا ومن غيره أن عمل الحملة الأول كان نشر الرعب والخراب وليس نشر الحضارة والانسانية.

4. معاملة سكان المدينة :

ان أعيان المدينة الذين رضوا بالتفاوض مع الفرنسيين وألحوا على حسين باشا بعقد اتفاق مع قائد الحملة ، والذين اغتروا منهم ، على الخصوص ، بالكلام المعسول الذي جاء في البيان الذي وزعه الفرنسيون عشية الحملة بهدف التأثير المعنوي على السكان وعزل حسين باشا عن الشعب ، هؤلاء الأعيان قد واجهوا أول صدمة لهم وهم يشاهدون دعاة التحرير وقد أصبحوا هواة تخريب . صحيح أن بعضهم لم يصدق عينيه بعد ، وأن آخرين ما يزالون واقعين تحت أثر الصدمة ، ولكن ما كانوا يشاهدونه ويسمعون عنه ويعانونه كان حقيقة لا خيالاً ، وهي أنه لا حرية ولا أمن ولا كرامة مع هؤلاء الغزاة الشرهين.

---

(19) بول أزان (الإحتلال . . .) ، ص 20 .

يصف (بول غافريل) حالة المدينة وأهلها على هذا النحو فيقول : كـانت الدكاكين مغلقة الأبواب ، وكان أصحابها يجلسون أمامها في انتظار ساعة الفرج . أما الجنود الانكشارية فقد تراجعوا لبيوتهم ، ومنهم من ركب البحر ورحل ، وليس هناك جنود في الشوارع . وكانت نظرات السكان مليئة باللامبالاة . وأما اليهود فقد أظهروا اغتباطاً بالاحتلال ، واستغلوا ما تركه الباشا وراءه . فلا توجد مـدينة احتلت بهـذا الشكل كما احتلت الجزائر[20] . ويقول كاتب آخر عن نشاط اليهود في هذه الأثناء : انهم كانوا يقومون بدفن الموتى بطريقة غريبة ، اذ كانوا يغطون الجثة بغطاء خفيف ويحملها أربعة أشخاص منادين « بالك ! بالك ! » وكانوا أحياناً يدخلون في نقاش حاد وهم على ذلك المنوال . وعندما يصلون بالجثة الى المقبرة كانوا يضعونها في حفرة ويرمون عليها قليلاً من التراب ، ثم يجرون لنقل جثة أخرى ، وهكذا[21] .

ولا شك أن هذا وصف لظاهر الأشياء ، أما ما وراء الظاهر ، فان الناس كانوا على أنواع[22] . فمنهم الخائف الممتعض من رؤية هؤلاء « الخنازير » وهم ينهبون ويعربدون ويتلفون ويمتهنون ويغتصبون . اذ المعروف أن بورمون قـد كافـأ جنوده بإباحة المدينة لهم والسكوت عن أفعالهم فيها ، بينما كان يحصي نقود الخزينة وينتظر أوامر حكومته فيما سيفعل بعد الحملة . وهناك نوع آخر من الناس شعر أن الخطر محدق لا محالة فخرج من المدينة نحو أقاربه أو نحو ما لديه من الأحواش الريفية .

ولعل هناك نوعاً آخر من الناس فضلوا الاعتكاف في بيوتهم أو في المساجد داعين الله الخلاص والنجاة مما حل بالبلاد من لعنات . حتى أولئك الذين صدقوا ما جاء في بيان الفرنسيين وما جاء في بنود اتفاق الباشا ـ بورمون ، كانوا غير واثقين من

---

(20) بول غافريل ، ص 89 .

(21) بول آزان (الاحتلال . . .) ، ص 19 .

(22) اختلفت التقديرات حول عدد سكان القطر الجزائري وسكان العاصمة بالذات ، فسكان القطر قدرهم البعض بعشرة ملايين (حمدان خوجة) ، وقدرتهم احصاءات الفرنسيين الأولية بثلاثة ملايين أو دون ذلك بقليل . أما سكان العاصمة فقد تراوحت التقديرات بين مائة ألف واربعين الفا . وستعرف أن حوالي ربع هؤلاء قد هاجر منها بعد قليل . ويبالغ دي رينو (حوليات الجزائر) 1/9 ، ط 2 ، إذ يذكر الاحصاء التالي : 250 ألف سكان القطر الجزائري كله ، منهم سكان العاصمة حوالي 50 ألف نسمة . ولا شك ان هذه مبالغة في التقليل من عدد السكان وليس في التكثير منهم .

المستقبل وكانت تطلعاتهم في التحرير وتولي وظائف ومسؤوليات الاتراك معلقة على أمل واه . ومن يدري ، فان حديث الناس عندئذ لم يكن عما كان يفعل الفرنسيون في المدينة من نهب وغصب وفساد ، ولكن عن إنسحاب الحاج احمد ، باي قسنطينة ، إلى مقر حكمه وما عساه يخطط لاستعادة الحكم الإسلامي ، وعما سيفعله مصطفى بومزراق ، باي التيطري ، بعد سقوط العاصمة ورحيل حسين باشا ، وعن فلول الجيش الإحتياطي التي انتشرت في متيجة أو عادت مع جيوش البايات الثلاثة (وهران ، التيطري ، قسنطينة) ، وعن تنظيم المقاومة الشعبية اذا ما تحرك الفرنسيون خارج المدينة المحتلة . ان الناس لم يكونوا ، كما تنعتهم الوثائق الفرنسية ، متفرجين على المأساة التي حلت بهم ، ولكنهم كانوا ، أو على الأقل معظمهم ، كانوا يعملون ويفكرون في رفع هذا الكابوس وتغيير المنكر.

5. تنظيمات بورمون :

يزعم الفرنسيون أنهم كانوا يجهلون كل شيء عن الجزائر ، الا ما قرأه بعضهم في تقارير الجواسيس ورحلات الرحالة الاوروبيين . فلم يكونوا يعرفون لغة أهلها ولا عاداتهم ولا آدابهم ولا نظام الحكم عندهم ولا ميولهم السياسية . حقاً انهم يعرفون بالسماع عن الترك والقرصنة والارقاء المسيحيين والتعصب الديني ونشاط بعض القناصل وتجارة بعض الشركات ، وحتى بعض « الامتيازات » الفرنسية على ساحل الجزائر الشرقي . وهذا الجهل بالسكان والبلاد هو الذي أوقعهم ، حسب هذا الزعم ، فيما لا تحمد عقباه وجعلهم يعانون من التخبط الإداري والفوضى في تثبيت وجودهم والتعسف في أحكامهم . كما جعلهم عرضة للشك والتهجم والرفض من قبل السكان . ومن مظاهر ذلك الجهل ، بناء على هذه الرواية ، هو الترحيل الجماعي « للاتراك » الذين حكموا البلاد ثلاثة قرون ، والذين جربوا الحياة والإدارة في الجزائر ، وكانوا يعرفون عنها الوثائق والسجلات والرسوم ، ومن مظاهره أيضاً الإعتماد على الطامعين والمغامرين ، والركون إلى فئة اليهود التي كانت تبدي الغبطة والتودد نحو المحتلين والتي كانت على صلة منذ القديم باللغات والتجارة والعادات الاوروبية.

ومهما كان الأمر فإن من أوائل ما فعله بورمون هو «تحرير» الأرقاء الفرنسيين المسجونين في الجزائر . وكان الفرنسيون يعتقدون بوجود عدد كبير منهم ، ولكنهم

وجدوا فقط (122) مائة واثنين وعشرين شخصا . وقد « نسوا » أن يطلقوا سراح الأسرى المسلمين الذين كانوا مصفّدين في مجاذيف السفن الفرنسية حتى فنيت أعمارهم ويئس ذووهم منهم.

كما أنشأ بورمون نواة للإدارة الفرنسية في الجزائر ، حين كلف لجنة مالية (حكومية) برئاسة المتصرف دينيه وجعل أعضاءها من الفرنسيين والعرب واليهود ، وأبعد منها العناصر التركية . وقد كانت مهمة هذه اللجنة تسيير شؤون المدينة وتوفير الحاجات للجيش والسكان والمحافظة على الأمن والمرافق . وبعبارة أخرى فان اللجنة هي نواة الحكومة الفرنسية العامة بالجزائر التي ستلد بعد توصيات اللجنة الافريقية سنة 1834 ، ومن أعضاء اللجنة المالية البارزين (دوبينيوس) الذي كان مكلفاً بالشرطة ، وهو وظيف جعله على احتكاك أكثر من غيره بالسكان . وكان دوبينيوس من المغامرين الذين قاموا بكل الأدوار المشبوهة تقريباً قبل حلوله بالجزائر. وقد عانى منه أعيان البلاد، سيما وان عبارة «الشرطة» كانت عندئذ تشمل أيضاً العدالة (!؟) ومصالح الضرائب. . . الخ. وهكذا كانت لهذا المغامر صلاحيات الشرطي والقاضي والجابي معاً . ويبدو أنه كان يميل إلى اليهود على الخصوص ، وهو الذي أعطى نفوذا كبيراً لزعيمهم عندئذ ، وهو بكري ؛ وكان الفرنسيون عندئذ يبحثون عمن يتلفظ بكلمات من لغتهم بقطع النظر عما اذا كان كفئاً أو غير كفء مخلصاً أو غير مخلص[23] . وقد أكد (بول غافريل) بأن الشرطة في الجزائر كانت ، على عهد دوبينيوس ، مضرب المثل في الغش والاهمال ، فكثرت السرقات والإحتيالات ، وكان المتضررون بالدرجة الأولى من ذلك هم السكان المسلمين[24] .

أما اللجنة الثانية التي برزت في عهد بورمون فهي اللجنة البلدية . وليس هناك جديد حول وظيفة هذه اللجنة أيضاً . فان وظيفة اللجنة المالية كانت تقوم بها الحكومة المركزية (حكومة الداي) ، أما وظيفة اللجنة البلدية فقد كانت تقوم بها

---

(23) أنظر بول آزان (الاحتلال . .) ، ص 21 .

(24) أنظر كتابه (الجزائر) ، ص 102 .

مما يذكر أن دوبينيوس كتب سلسلة من المقالات وصف فيها (عهده) وتجربته في الجزائر ، أنظر مجلة باريس (R. de Paris) ، أعداد 22 ، 23 ، 24 ، (1831) .

مشيخة المدينة ، وهي عبارة عن مؤسسة البلدية اليوم . ولعل الجديد في هذه اللجنة هو تركيبها ، فقد سمى فيها بورمون أعضاء من أعيان الحضر ومن كبار اليهود وجعل رئاستها لأحد الفرنسيين . وبينما كانت مشيخة المدينة في السابق لا تشمل اليهود ، أصبحت اللجنة الجديدة خليطاً من الفئات الاجتماعية ويلعب فيها اليهود دوراً بارزاً عدداً ونفوذاً . ويزعم البعض ان هذا التصرف من الفرنسيين جعل الجزائريين يبتعدون عنهم ويشكون في نواياهم . ونحن في الواقع نجد صدى ذلك في عرائض الشكوى التي كتبها أعيان مدينة الجزائر عندئذ[25] . ومهما كان الأمر فان أعضاء اللجنة البلدية قد تبدلوا من حين لآخر ، ومن الأسماء التي دخلتها نجد : احمد بوضربة ، وحمدان خوجة ، وابراهيم بن مصطفى باشا[26] . . . وكان كل منهم مكلفاً بمصلحة معينة داخل هذه اللجنة . ولعل بعض الجزائريين الذين قبلوا العمل في هذه اللجنة اعتقدوا أن الفرنسيين قد أخذوا في تنفيذ وعدهم بتحريرهم من الترك وذلك بتوليتهم هذه الوظائف .

وهناك لجنة ثالثة أنشأها أيضاً بورمون ، وهي لجنة دينية ـ مالية تقوم بالسهر على الأوقاف ومواردها ، وقد سموها اللجنة الخيرية للغوث ، وكانت مؤلفة من تسعة أشخاص ، وكانت أيضاً لجنة مختلطة فيها خمسة من الجزائريين ، منهم ، حسب بعض المصادر ، حمدان بن عثمان خوجة[27] ، ومما يلاحظ أن بعض أعضاء هذه اللجنة كانوا أيضاً أعضاء في اللجنة البلدية ، كما نلاحظ أن كلتا اللجنتين (البلدية والخيرية) كانت تحت سلطة اللجنة الأولى ـ الحكومية أو المالية[28] . وسنرى أن لجنة الأوقاف ، كلجنة البلدية ، لم تكن سوى صورة للتمويه وكسب الوقت واسترضاء بعض العناصر الضعيفة التي حسبت أن الغيرة على الوطن تكمن في عضوية احدى اللجان ، وأن الحرية تأتي من التحالف مع الجلادين . وسنرى ان هذا التحالف غير

(25) أنظر مثلاً العريضة التي قدمها على لسانهم وبتوقيعاتهم احمد بوضربة ، سنة 1831 ، ارشيف ايكس 1H1 .

(26) أنظر كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث) ، ط . 3 ، 1982 ، الفصل الثالث .

(27) أما الأعضاء الأربعة الآخرون فهم : عبد الرحمن اسطانبولي ، ومصطفى السائجي ، واحمد بن شيطاب (كذا) ، ومحمدُ بن عبد اللطيف .

(28) أنظر (أوراق بورمون) باريس ، 1929 ، نشرها غوستاف غوتيرو (Ghautherot) .

المقدس سرعان ما انفسخ وأن أولئك الأعضاء المغرورين سيساقون إلى المنافي والسجون أو سيجبرون على اختيارات أخرى.

6. بداية الخروج من العاصمة :

كاد الشؤم يرافق هذه الحملة كما رافق الحملات السابقة ضد الجزائر. فالمعروف أسطورياً أن العواصف الهوجاء هي التي أدت إلى الهزائم النكراء التي مني بها جيش الامبراطور شارل الخامس (شارلكان)، وجيش لويس الرابع عشر الذي قاده دوكيني، الخ. حتى أن بعض المؤرخين جعل العاصفة والجوائح الطبيعية تقف وراء كل فشل عسكري أوروبي أمام الجزائر[29]. وكان بعض الخرافيين الاوروبيين يعتقدون أن « الجزائر المحمية » كانت تنصرها ضدهم قوات خارقة لا قبل لهم بها. والغريب أن هذه الصورة لم تكن تغيب عن أهل هذه الحملة أيضاً، خصوصاً وقد عرفنا أن فيهم الجهلة والخرافيين والمندفعين بالحماس الديني الصليبي. فقد ذكر بول غافريل تعليقاً لطيفاً على ذلك حين قال انه في صبيحة اليوم السادس عشر يونيو (جوان)، أي بعد يومين من الانزال على شاطىء سيدي فرج هبت عاصفة كبيرة هددت الاسطول الفرنسي حتى صرخ القوم بأنها عاصفة شارل الخامس! وكاد الاسطول يتمزق كما تمزق أسطوله، ولو دامت الريح فترة أخرى لتفرق هذا الاسطول وحلت الهزيمة، ولكن الريح غيرت اتجاهها وهدأ البحر[30]، فكان ما كان.

ولكن عاصفة من نوع آخر حلت بعد شهر من ذلك اليوم. وكانت العاصفة هذه المرة سياسية وفي فرنسا نفسها. وأي عاصفة أهوج من الانقلاب الذي حدث ضد الملك شارل العاشر الذي كان يحلم بأن الحملة على الجزائر ستجلب اليه رضى الله برضى البابا عليه ورضى الشعب الفرنسي بتحقيق انتصار عسكري ضد القراصنة. فالريح التي هدأت على الشاطىء الجزائري اذن انما انتقلت بكل عنفها إلى الشاطىء الفرنسي، ولم تمزق أسطولاً فقط وانما مزقت ملكاً وحكومة ونظاماً سياسياً. وهكذا كانت الحملة على الجزائر دائماً نذير شؤم على الفرنسيين حتى ولو

---

(29) أنظر تعليقنا ومقدمتنا لكتاب جون وولف (الجزائر وأوروبا)الذي ترجمناه، وصدر سنة 1986 .
(30) غافريل، ص 71 .

ظنوا انهم نجحوا هذه المرة ! ولكن مؤرخيهم وكتابهم ينسون أو لا يريدون أن يذكروا هذه المقارنة التي تبعث الشعور بالغثيان وتحول حلاوة النصر إلى مرارة الهزيمة .

ولم تكن حملة الجزائر نذير شؤم على شارل العاشر وحكومته ونظامه فقط ، بل كانت أيضاً كذلك على قائدها الجبان[31] ، بورمون ؛ فرغم الانتصار الظاهر الذي حققه بورمون على حسين باشا ، فانه لم يحقق أي انتصار عسكري على الجزائريين ، كما سنرى . ثم ان فرحته بالنصر قد شابتها مرارة العلقم عندما فقد ابنه (اميدي) في وهران ، ثم عندما جاءه قرار العزل من الحكومة الجديدة التي خلفت حكومة شارل العاشر . وأخيراً ذاق بورمون مرارة الإهانة والإحتقار عندما رفض خلفه في القيادة، كلوزيل، أن يسمح له حتى بركوب سفينة فرنسية تحمله إلى منفاه، بإسبانيا . فلم يسعه الا تأجير سفينة نمساوية دفع لها أجرها من حسابه الخاص (من خزانة الجزائر المنهوبة ؟) ثم حمل بورمون قلب ابنه القتيل في علبة بين يديه ، وسافر غير مأسوف عليه من أحد ، حتى من قومه . ترى لماذا لم يعقد الفرنسيون مقارنة « إنسانية » بين رحيل حسين باشا ورحيل الكونت دي بورمون ؟[32] .

وعلى كل حال فلنترك بورمون الآن في نشوة النصر ، يحاول الخروج من القفص الذي فرضه عليه الجزائريون ، فماذا انجز ؟ وأين اتجه ؟ وكيف وجد الإستقبال من الجزائريين ؟

لقد أحس الفرنسيون في مدينة الجزائر بالإختناق الإقتصادي والعزلة السياسية . ذلك أن الجزائريين ضربوا عليهم حصاراً وقاطعوا العاصمة ، فأخذ الخوف والجوع والتذمر يفتك بالجيش الذي كان محاصراً (بالكسر) فأصبح هو المحاصر (بالفتح) . كما ساور التذمر سكان العاصمة من هذا الضيف الثقيل الذي حل بينهم ، فخرج منها القادرون على الخروج وهم الذين كانوا يملكون أحواشاً في سهل

---

(31) ليس هذا الوصف من مخترعاتنا ، بل ان مؤرخ الجيش الفرنسي في الجزائر ، بول آزان ، هو الذي ذكر في كتابه (الإحتلال . .) ص 21 أن دي بورمون كان قد فر من الجيش سنة 1815 .

(32) تذكر المصادر أيضاً أن مما بالغ في إهانة بورمون ان بلدية طولون كانت قد خصصت فندقاً وجعلته تحت تصرفه أثناء سفره إلى الجزائر ، وعندما عزل من وظيفه ووصل إسبانيا منفياً ، لحقته مذكرة من نفس البلدية تخبره بأن عليه أن يدفع مبلغ ألف وخمسمائة فرنك اجرة الفندق الذي استعمله ! أنظر يوجين بيري Perret (رحلات جزائرية) 1830 ـ 1848 ، بدون تاريخ، باريس ، ص 100 ـ 101 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

متيجة وما حولها . وبقي الآخرون يتململون ويعانون من المقاطعة الإقتصادية ومن التوقعات المزعجة . وفي أثناء ذلك كثرت الإعتداءات على الدور والحرمات ، وارتفعت الأسعار ، وكثرت المضاربات ، وكانت شرطة دوبينيوس تزيد في الغش والإرهاب والفوضى . وعلى كل فإننا سنعود بعد قليل لدراسة أحوال العاصمة على عهدي بورمون وخلفه كلوزيل وانطلاقة المقاومة السياسية .

وأمام هذا الوضع حاول بورمون أن يفك الحصار ويجرب حظه العسكري فخرج على رأس حملة نحو مدينة البليدة الرابضة عند قدمي الأطلس الشامخ . وكان عليه أن يعبر أثناء ذلك أوطاناً (اعراشا) مسكونة بأقوام غيورين على ممتلكاتهم الزراعية وحريمهم ويأنفون من الغريب مهما كان ، فما بالك اذا كان هذا الغريب رومياً (نصرانياً) رافعاً علامة الصليب وراية الإحتلال . وكان على رأس كل وطن من تلك الأوطان شيخ يسيّر أموره ويرعى مصالحه ويحمي ضعفاءه ويوفر حاجاته ، وكان أولئك الشيوخ يدينون بالولاء لسلطة الجزائر المركزية عن طريق شخصية « آغا العرب » أو وزير الحربية في حكومة الداي التي لم يعد لها وجود الآن[33] . ولذلك أحسّ أولئك الشيوخ من جهة بالاستقلال والمسؤولية ومن جهة أخرى بالفراغ السياسي الذي لا يعرفون عواقبه بعد .

كان خروج بورمون نحو البليدة يوم 23 يوليو . وقد تمكن من الوصول اليها ، واعتقد أن الامور سهلة ولكنه فوجيء بهجوم منسق شارك فيه آلاف الجزائريين من سكان البليدة وأوطان متيجة ، وأجبروه على الدفاع عن نفسه ثم الفرار أمامهم مخلفاً وراءه على الأقل خمسة عشر قتيلاً و43 جريحاً ، بالإضافة إلى خسائر معنوية فادحة[34] . ولعل هذا هو أول هجوم شعبي يواجهه الفرنسيون بعد إحتلال العاصمة . وقد عاد بورمون لاهثاً إلى العاصمة يمسح عرق الصيف ، وعرق الهزيمة والخوف . ولم يفكر أثناء بقية أيامه (حوالي شهر آخر) في الجزائر في معاودة التسرب إلى سهل متيجة وأوطانه واكتفى بارسال قطعتين من الأسطول احداهما نحو عنابة والأخرى نحو وهران .

---

(33) عن هذه الأوطان (الأعراش) أنظر كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر . . .) ، الفصل الخامس .
(34) بول آزان (الاحتلال . . .) ، ص 22 .

لقد كانت تحركات قنصل فرنسا بتونس قوية ومنسقة مع أجهزة الحملة . وكان الجواسيس والمفاوضون قد تسربوا نحو قسنطينة وعنابة ، محاولين خلق الشقاق وايجاد الثغرات وعزل سلطات الاقليم الشرقي عن السكان . والمعروف انه كان للفرنسيين مصالح تجارية وحتى عسكرية جهة عنابة (القالة واستورا الخ .) وكانت لهم معرفة بالمنطقة وعادات السكان وحتى ببعض التجار والعملاء . ولكن منذ الحصار الفرنسي (1827) ضربت تلك المصالح وتقلص النفوذ الفرنسي هناك . ومع ذلك فإن صلة الفرنسيين القديمة بالمنطقة لم تكن خافية على بورمون وضباطه ومستشاريه . ومن ثمة لا نستغرب أن يحاول الفرنسيون ، بعد احتلال العاصمة مباشرة ، احتلال عنابة . وبالاضافة إلى ذلك فعنابة كانت تمثل نقطة استراتيجية هامة على البحر الأبيض ، فهي الميناء الرئيسي لاقليم قسنطينة الذي ما يزال حاكمه (الحاج أحمد) رافضاً للاحتلال ورافعاً راية المقاومة . وهي أيضاً قاب قوسين من تونس التي يبدو أن تحركات الفرنسيين فيها كانت قوية . ثم ان عنابة هي بوابة الجزائر على شرقي البحر الأبيض وخصوصاً مضيق صقلية - تونس الذي قد تحاول السلطات العثمانية الدخول منه بأسطولها نحو الجزائر وضرب قواعد الحملة الفرنسية هناك أو على الأقل مساعدة الثائرين ضدها ، كما سنرى.

من أجل ذلك كله حاول بورمون الاستيلاء على عنابة بتاريخ الثاني من أغسطس 1830 ، أي أقل من شهر بعد احتلال الجزائر . وكان (دامريمون) هو الذي قاد هذه الحملة ضد عنابة من البحر . ويبدو أن هذا الضابط (دامريمون) كان مكتوب له سوء الطالع شخصياً في الجزائر أيضاً ، لأنه بعد هذه الحملة الفاشلة سيقود حملة أخرى ضد قسنطينة سنة 1837 تكون فيها نهايته الدموية . وعلى كل حال فإن سكان عنابة ونواحيها قاوموا حملة دامريمون بكل شجاعة ووحدة وأجبروها على الانسحاب من مدينتهم يوم الثامن عشر من الشهر المذكور.

أما الحملة الثانية التي وجهها بورمون فقد كانت في اتجاه مدينة وهران والمرسي الكبير . وقد جعل على رأسها ابنه ، أميدي الذي سبقت اليه الاشارة . لقد كانت مدينة وهران حديثة عهد بالحكم الاسلامي العثماني اذ بقيت تحت الحامية العسكرية الاسبانية حوالي قرنين ونصف . ولم يسترجعها منهم الجزائريون نهائياً الا سنة 1791 . وقد أصبحت منذ هذا التاريخ هي قاعدة حكم البايات لاقليم الغرب

الجزائري كله ، بعد أن كانت قاعدة الحكم هي مدينة معسكر (أم العساكر) . فكان الفرنسيون يعرفون الكثير عن مدينة وهران والمرسي الكبير من تقارير قناصلهم ومن السجلات الاسبانية وخرائطها . كما كانوا يعرفون بالخصوص المطامع الاسبانية هناك ، وحتى مطامع سلاطين المغرب الذين لم يكونوا دائماً على علاقات طيبة مع باشوات الجزائر . فاحتلال مدينة وهران والمرسي الكبير يقطع الطريق أمام تلك المطامع من جهة ويعطي لفرنسا فرصة التعرف والتحكم أيضاً في تحركات مضيق جبل طارق . وبالإضافة إلى ذلك فإن الفرنسيين كانوا يعرفون بدون شك ضعف أداة الحكم العثماني في وهران . فالباي حسن بن موسى كان عجوزاً مريضاً في حدود الثمانين سنة ، ولم يكن قادراً على نجدة صديقه حسين باشا الا بخليفته فقط وبعدد غير كبير من الجنود . وكان الباي حسن على علاقات سيئة مع سكان إقليمه ، ولا سيما زعماء الطرق الصوفية منهم ، حيث حدثت ثورات عديدة في إقليمه بقيادة الدرقاوة والتجانية . فكان يعيش في خوف دائم من ثورات جديدة ، وآخر ذلك الخوف كان من الطريقة القادرية ممثلة في شيخها محيي الدين بن مصطفى ، والد الأمير عبد القادر الذي سيكون له شأن عظيم في تاريخ المقاومة الوطنية .

واذن فإن هذه الخلفية السياسية والاستراتيجية لم تكن خافية على بورمون ومستشاريه في الجزائر فقد جرت مفاوضات بين الفرنسيين والباي حسن وعرفوا من خلالها أنه عاجز عن الحركة وأنه محاصر من قبل السكان وأنه في عزلة تامة ، وقد حصل بينه وبين الفرنسيين اتفاق يضمنون له فيه سلامة شخصه واختيار منفاه وحمله إلى ذلك المنفى على إحدى سفنهم مع ضمانات مادية مناسبة . ولكن بعد تسليم مفاتيح المدينة إلى الفرنسيين[35] . ومهما كان الأمر فان فرقة فرنسية جاءت يوم 13 من اغسطس واحتلت المرسي الكبير وحصون مدينة وهران ، ولكن مقاومة السكان جعلت الحملة تعود منهزمة ، رغم أن الفرنسيين يقولون إنهم هم الذين تخلوا عنها ،

---

(35) يقولون عنه إنه كان عازفاً عن السلطة ، لكبر سنه ، وكان كثير الثروات ، ولم يطلب سوى العيش في أمان . وقد عبر للفرنسيين عن استعداده للتنازل عن كل وظائفه والذهاب إلى آسيا لقضاء بقية أيامه . وقد ركب البحر إلى الجزائر حيث بقي إلى ما بعد مغادرة كلوزيل لها (أي بعد فبراير 1831) . وبعد ذلك توجه إلى الاسكندرية ومنها إلى مكة المكرمة حيث توفي . ولو كان الباي حسن والداي حسين وأضرابهما من الجزائريين الغيورين على أرضهم ووطنهم لما تخلوا بسهولة للعدو عن مناصبهم القيادية والتي ترمز للسيادة . أنظر ديرينو ، ج 1 ، ص 158 وما بعدها ، ط 2 .

ومن سوء طالع هذه الحملة أيضاً أن قائدها ، اميدي بورمون ، ابن القائد الوزير ، قد فقد رأسه في وهران . وهكذا تلقى أبوه بورمون وهو في الجزائر ، بشرى النصر في وهران ممزوجة بنعي ابنه العزيز . فطغى عنده أثر النعي على تأثير البشرى . وظهر عليه الاكتئاب وساءت أحواله النفسية حتى تأثرت بذلك تصرفاته القيادية .

هذه هي حصيلة أعمال بورمون في الجزائر ، احتلال مدينة الجزائر وظهور أمام حصون مدينة وهران (بما فيها المرسي الكبير) وحملتان فاشلتان على البليدة وعنابة . ورغم ذلك فإن عهده قد شهد أول مواجهة بين الفرنسيين والجزائريين ، على المستويين العسكري والمدني ، فإلى جانب المقاومة العسكرية التي عبرت عنها معارك سيدي فرج واسطاويلي والبليدة وعنابة ، هناك المواقف المدنية التي عبر بها سكان مدينتي الجزائر ووهران . ان الشعب الجزائري قد أخذ يحس ربما لأول مرة ، من شرق البلاد إلى غربها أن العدو قد تمكن من احتلال جزء من البلاد هذه المرة ، وأن الحملة الفرنسية لم تكن مثل الحملات السابقة التي تضرب وتعود أدراجها وأن عليه أن يتجاوب وينظم نفسه للمقاومة ، وأن يبحث عن قيادة جديدة بعد أن سقطت القيادة العثمانية المركزية ، كما سقطت القيادة الاقليمية في الغرب . انها لمرحلة صعبة بالنسبة لشعب ظل قروناً لا يشارك في الحكم ولا يمارس الحقوق السياسية ولا يعرف عن العالم الخارجي الا القليل الغامض ، فاذا به يجد نفسه وجهاً لوجه أمام أكبر دولة في العالم جيشاً وسلاحاً وعدة وعلماً وتقنية .

لم يتمتع بورمون اذن بانتصاره في الحملة لأن الجزائريين نغصوا عليه اقامته وهزموا جيشه في البليدة وعنابة ، وقتلوا ابنه في وهران ، ولأن حكومته قررت عزله يوم 7 اغسطس . ولكنه لم يعلم بهذا العزل الا يوم 20 منه . وبعد وصول خلفه غادر الجزائر يوم 3 سبتمبر 1830 غير مأسوف عليه لا من الجزائريين الذين أهانهم واعتدى عليهم ولا من قومه الذين حقق لهم بعض الانتصار، فقد غير الفرنسيون،وهو ما يزال في الجزائر ، حتى العلم والنشيد والولاء . وقد ذكرنا أن خلفه كلوزيل ، رفض منحه حتى سفينة فرنسية تحمله إلى اسبانيا. فلم يجد بدأ من استئجار سفينة نمساوية وحمل قلب ابنه في علبة بين يديه والرحيل بمأساته ، تاركاً لخلفائه مأساة أخرى دائمة في الجزائر، اذ أن لكل واحد منهم تقريباً قصة تشبه قصة زميله مع الجزائر .

7. عهد كلوزيل الأول :

ان خليفة بورمون في قيادة الحملة (وما يزال اسمها كذلك) هو الكونت كلوزيل المولود سنة 1772 . فيكون عمره عندما تولى وظيفته في الجزائر حوالي 58 سنة[36] . امتاز عهده بالغطرسة والارتجال والمغامرة والعنف ضد الجزائريين في المدن والأرياف . وعرف عن كلوزيل التبجح والطموح الخيالي ، وحب التسلط والاستعمار . ولعله أراد بذلك أن يكفر عن ذنوبه العسكرية بعد أن حكم عليه (سنة 1816) بالإعدام ولم يسعه إلا الفرار إلى أمريكا . وكأنه بمحاولاته الارتجالية وشطحاته العسكرية أراد أن يبرهن لقومه أن فيه بقية وطنية ، ولكن جيشه نفسه كان يعرف ماضيه فكان لا يحترمه[36م] ولا يحظى بثقته . فكيف باحترام وثقة الجزائريين ؟ ان كلوزيل تولى الجزائر مرتين : الأولى هي هذه والتي بقي أثناءها بضعة شهور فقط (من اغسطس 1830 إلى فبراير 1831) . وقد عزل من جراء تصرفاته العشوائية كما سنرى . والثانية سنة 1835 ولكنه لم يمكث الا سنة ونصفاً ثم عزل من جديد لفشله الذريع في حملة قسنطينة الأولى وهزائمه الأخرى سواء في الميدان العسكري أو في المدني على أيدي الجزائريين.

ودعنا الآن نتتبع تصرفاته العسكرية في مرحلته الأولى أما تصرفاته المدنية فستظهر في حديثنا عن المقاومة المدنية وعن موقفه من المؤسسات الدينية وغيرها . في الإعلان الأول الذي وجهه كلوزيل إلى « سكان مملكة الجزائر » قال لهم كلاماً فيه الوعد والوعيد وفيه السم والعسل ، فهو يطالبهم بمواقف كان الأولى به أن يبرهن هو عليها قبل الحديث عنها ، وكان حقه أن يخجل من نفسه قبل أن يقول لهم أنه « سيحمي دينهم وتقاليدهم وعاداتهم » ومن هو حتى يفعل ذلك ؟ وهل طلب منه

---

(36) Bertrand Clauzel ولد يوم 12 ديسمبر 1772 في ميريبوا Mire poix بفرنسا . تولى عدة وظائف في الجيش والسفارة الفرنسية في إسبانيا ، وقيادة الجيش في سان دومينيك ، وأرسل إلى هولندا وإيطاليا ، حكم عليه بالموت عسكرياً سنة 1816 ثم عفي عنه بعد اربع سنوات . (وقد فرّ بعد الحكم عليه إلى امريكا وعاد منها بعد العفو عليه سنة 1820) ، ثم أصبح نائباً في البرلمان ، وتولى القيادة بدل بورمون يوم 7 اوت (اغسطس) 1830 . أصبح ماريشال فرنسا سنة 1831 ، ثم عين مرة اخرى في الجزائر سنة 1835 ، وعزل منها بعد فشله في حملة قسنطينة ، 12 فبراير 1837 . ومات سنة 1843 . أنظر مراسلات كلوزيل ، 1/1 ـ 2 .

(36 م) أنظر بول آزان ، (الإحتلال . . .) ص 29 .

الجزائريون القيام لهم بهذا الدور ؟ وزاد فحذرهم من الاستماع إلى المشوشين الذين يقولون لهم ان فرنسا ستتخلى عنهم وتتركهم لمن كانوا يضطهدونهم قديماً (يعني الأتراك طبعاً) ، وأعلن لهم أنه قد حكم بمعاقبة أولئك المشوشين « عقاباً يعطيهم درساً قاسياً » .[37]. ان من أمثال هؤلاء المشوشين الذين يقصدهم كلوزيل بخطابه : المفتي ابن العنابي ، وحمدان خوجة ، كما سنرى.

وهكذا ظل كلوزيل طيلة الشهور الأولى التي قضاها في الجزائر يهدد ويتوعد ، ويصدر الأوامر والنواهي بدون حساب ، ويتصرف في الجزائر كما لو كانت مزرعة في أمريكا وكما لو كان أهلها من الهنود الحمر . وسنرى ذلك في مجالات أخرى غير عسكرية . أما الجانب العسكري فقد وجد كلوزيل أكثر من ثلاثين ألف جندي فرنسي ، منهم 1.800 مريض . أما الباقون فقد عادوا من حيث أتوا بعد أن تبخرت أحلامهم في شمس الجزائر المحرقة ، عادوا وفي أيديهم المسروقات التي قدروا عليها ، غير أنهم لا يسمونها كذلك ، بل يسمونها ، على ألسنة مؤرخيهم ، تحفاً وذكريات وهدايا . عادوا بعد أن أرعبوا السكان وأحرقوا الديار وعاثوا فساداً بدعوى نشر الحضارة في الأرض الافريقية . وقد حاول كلوزيل ترميم جيشه الافريقي[38] ، وبعث الحياة فيه ، خصوصاً بعد هزائمه في عنابة والبليدة . فكان كلوزيل يوزع الأرض المغتصبة على الفرق العسكرية (أربع هكتارات لكل فرقة) لكي تقوم بزراعة الخضر وتربية المواشي بعد أن ضاقوا ذرعاً بوجودهم وذاقوا الجوع والحرمان من جراء مقاطعة الجزائريين لهم.

ومن جهة أخرى أنشأ كلوزيل فرقة مشاة من بعض الجزائريين المرتزقة سماها فرقة (الزواف) ، وذلك في أول اكتوبر 1830 . وكان يطمح إلى تكوين فرقة أخرى من الفرسان ولكن الهروب من الفرقة الأولى جعله يتوقف عن طموحه . وسنرى أنه حاول انشاء فرقة محلية (مليشيا) عند دخوله مدينة المدية . وكان الهدف من وراء

---

(37) نفس المصدر ، وفيه نص البيان وصورة كلوزيل .

(38) هكذا كانوا يسمونه ، وبقيت التسمية كذلك مدة طويلة ، وشاعت كلمة « الافريقي » في عدة استعمالات أخرى ، فكان هناك : قناصة افريقية ، واللجنة الافريقية ، والمطبعة الافريقية وهلم جرا . فكأن الجزائر كلها أصبحت رمزاً لافريقية أو كأن الفرنسيين كانوا يخططون لإحتلال افريقيا كلها من الجزائر .

هذه الفرقة هو التخفيف عن فرنسا من المصاريف العسكرية ، واستعمال تلك الفرق في الاستيلاء على مدن جزائرية أخرى . وفي نفس المهمة أصدر كلوزيل أمره بمنع الجزائريين من حمل السلاح وحكم بعقوبة الموت حتى على من يحاول نقله ، ونفس العقوبة انسحبت على من اعتدى على فرنسي ، مدنياً كان أو عسكرياً ، وكانت الأوامر تشمل أيضاً منع استيراد السلاح من الخارج حتى لا يتسلح به الجزائريون ، ويستعينوا به على المقاومة . وخوفاً من ذلك جعل بنادق الصيد تخضع لاجراءات معقدة[39] .

كان كلوزيل يعرف جيداً أن سلفه (بورمون) قد فشل في وهران وعنابة والبليدة ، وكان يعرف مدى الحصار المضروب على قواته الباقية في مدينة الجزائر ، وشدة التذمر والتوجس الذي كان عليه سكان هذه المدينة نتيجة غلاء المعيشة وسوء المعاملة ، ولذلك عزم على فعل شيء يثبت للجزائريين قوة الفرنسيين ويعيد بعض معنويات الجيش المنهارة . فأما الجزائريون فقد عرفنا كيف وعدهم ومناهم وحذرهم وتوعدهم ، وأما الجيش فقد وجهه نحو البليدة والمدية في حملة ذاق فيها كلوزيل أول كؤوس العلقم التي تجرعها هو ومن جاء بعده في الجزائر على يد المقاومين (المجاهدين) . وقد جعل ذريعته تأديب الذين اجبروا بورمون على الجلاء عن البليدة وتأديب باي التيطري (المدية) ، مصطفى بومزراق ، الذي خلع الولاء الذي كان قد أعلنه لبورمون ، وأعلن استقلاله ، كما تلقب بلقب الباشا الذي كان خاصاً بالدايات[40] .

---

(39) نفس المصدر ، ص 31 .

(40) تولى بو مزراق ولاية اقليم التيطري من 1819 إلى 1830 ، بلقب (الباي) . وكان شجاعاً وحازماً حسب روايات المعاصرين . حضر بنفسه على رأس جيش ولايته معركة اسطاويلي . وبعد هزيمة سيدي خالف (خلف) عينه الباشا قائداً للجيش كله ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أي نصر . وبعد دخول العدو مدينة الجزائر أعلن بومزراق الإلتزام بالاتفاق المبرم بين الباشا وبورمون . وقد أبقاه هذا في مكانه (بايا على التيطري) ، ولكنه سرعان ما أعلن الحرب على العدو بعد معركة البليدة . وادعى بومزراق لقب الباشا لنفسه بعد رحيل الداي حسين وراسل الباي احمد بقسنطينة ودعاه لطاعته . ولكن هذا رفض الاعتراف به وادعى الباشوية لنفسه . وقد حارب بومزراق جيش كلوزيل ايضاً فعزله هذا وعين بدله مصطفى بن الحاج عمر ، وأخذ بومزراق أسيراً إلى الجزائر . ولم يسع بومزراق الا الرضى بالنفي فاختار الاسكندرية حيث مات في تاريخ غير معروف .

أنظر ديرينو (حوليات الجزائر)، جـ52/1، ط. 2، وهنا وهناك. أنظر أيضاً (مذكرات أحمد =

خرجت حملة كلوزيل من الجزائر في شهر نوفمبر 1830 ، وكانت قيادتها في يد ضابط يـدعى (بوابيـه) ، وأبى كلوزيل إلا أن يـرافق الحملة بنفسه . ويقـول المثل : إن الطيور على أشكالها تقع . ذلك أن كلوزيل اختار مترجمه شاباً طائشاً ومغامراً فاتكاً وصعلوكاً مجهول النسب والهوية، وهو اللقيط يوسف (جوزيف)، الذي ادعى للفرنسيين عندئذ (وما أكثر مدعيهم!) أنه ابن زنى لنابليون الأول ، وأنه هرب من تونس إلى الجزائر بعد أن سمع باستيلاء الفرنسيين عليها . والغريب في الأمر أن هذه الشخصية المغامرة هي التي حملت لواء الشرف الفرنسي في الجزائر عدة عقود وترقت في الجيش الأفريقي حتى وصلت إلى رتبة جنرال[41] ! تحرك الجيش اذن يوم 17 من الشهر المذكـور ودخل البليـدة في 18 منه . وهنـا عبر كلوزيـل عن روح التعصب الديني وروح الانتقام من الجزائريين الذين هزموا بورمون ، فاحتل مسجد البليدة وجعله مستشفى عسكرياً ، وأطلق العنان لجيشه يطارد السكان حيثما كـانوا وتعقبهم حتى دخل غابات الجبال المجاورة . وكان السكـان قد أظهـروا التراجـع قصداً ، كما فعلوا مع سلفه قبل أن ينقضوا على المعتدين . وقد اعتبر كلوزيل ذلك ، فيما يبدو ، نوعاً من الرياضة لجيشه الذي ظل محاصراً ومحروماً من التحـرك عدة شهور (يوليو - نوفمبر) . فأطلقه وراء ضحاياه كما تطلق كلاب الصيد وراء صيدها . ومن ثمة لا نستغرب أيضاً أن نجد بول آزان ، مؤرخ هذا الجيش المسعور والفخور به ، يقول ان كلوزيل قد أمر الجيش أيضاً أن يجمع أثناء ذلك الحبوب واللحوم[42] . وممن سيجمع ذلك ؟ طبعاً من منازل المقاومين الذين رفضوا الاحتلال ولجأوا إلى الجبال . وهل هناك اسم آخر للسرقة والغصب غير ذلك ؟ ولكن الفرنسيين يسمون ذلـك غنيمة . ويفتخـرون بها أمـام العالم المتحضـر . على أن أولئك المقـاومين سيلقنون كلوزيل وبوابيه واللقيط يوسف وبقية الجيش درساً لن ينسوه ، حتى لقد كاد القائد غير المحنك أن يفقد صوابه ، وكان ذلك الدرس القاسي سبباً في اقدام حكومة

= باي) نشر مارسيل ايمريت ، (م . إ) ، 1949 ، ص 79 هامش 7 .

(41) تنـاول عدد من الكتـاب حياة (الجنـرال) يوسف ، واختلفت الآراء حـوله ، ولكن دعـاة (المهمة الحضارية) الفرنسية اعتمدوا عليه في الجزائر كثيراً ، وسيرد اسمه في هذا الكتاب حسب الادوار التي لعبها في حملة قسنطينة وزمالة الأمير وثورة اولاد سيدي الشيخ الخ .

(42) بول آزان (الإحتلال . . .) ، ص 35 .

باريس على عزله ، كما سنعرف.

فلنترك اذن كلوزيل في غروره وزهوه إلى حين . فهو ما يزال لا يعرف طبيعة الأرض الجزائرية ولا سلوك الانسان الجزائري . وإنما كان يظن أن كل البلاد غير الفرنسية (والأوروبية) عبارة عن أراضٍ شاسعة كأمريكا يقطنها أناس كالهنود الحمر الذين تكفي فلول من الجيش لمطاردتهم وردهم على أعقابهم . وها هو كلوزيل يعلن لجيشه عند مغادرته البليدة في اتجاه المدية «انكم ستقطعون أول سلسلة من جبال الأطلس ، رافعين العلم المثلث من داخل أفريقية ، جاعلين بذلك طريقاً للحضارة وللتجارة وللصناعة . . . ان أنظار العالم المتحضر كلها تتابعكم . . . » وهل بعد هذا غرور وزهو ؟ لقد كان كلوزيل يتخيل في نفسه أنه القيصر أو شيبيو الأفريقي . ولم يكن يدري من أعماق الغيب أن العلم المثلث الذي يشير اليه أصبح في أفريقية ، وفي كل البلاد التي رفرف عليها ، رمزاً للاضطهاد والعسف والطغيان ، وأنه في النهاية خرج منها ممزق الأشلاء دامي الألوان مداساً عليه بالأرجل الغليظة . ولكن المغرور يفعل ما يشاء ، ما دام لا يعرف الحياء ! ويحدثنا مؤرخو الفرنسيين أن كلوزيل اختار نقطة عالية في الجبال ووقف عليها في اتجاه فرنسا وحياها وأطلق لها 25 طلقة احتراماً واكباراً . وقد أصبح هذا تقليداً يتبعه ضباط فرنسا بالجزائر ، ومن بينهم راندون الذي وقف موقفاً مشابهاً على قمة جرجرة بعد تغلبه على رمز المقاومة الوطنية هناك .

وفي مضيق موزاية وقعت معركة حامية بين المقاومين وجيش العدو . ويقول الفرنسيون إن المقاومين كانوا جزءاً من جيش الباي بومزراق . وفي هذه المعركة سقط للفرنسيين 27 قتيلاً ، بينهم ثلاثة ضباط ، وجرح لهم 80 جندياً . وقد وصف كلوزيل المقاومين الجزائريين بأنهم « متعصبون وبرابرة »(43) أما جيشه فقد اعتبره منتصراً وحاملاً لمشعل الحضارة إلى الساحل الأفريقي ! ومهما كان الأمر فإن بومزراق خرج من المدية قبل وصول كلوزيل اليها . ويزعم الفرنسيون أن مرسولاً جاءهم وهم في الطريق ليخبرهم أن السكان هم الذين طردوه(44) .

---

(43) نفس المصدر ، ص 36 .

(44) شخصية الباي ، مصطفى بومزراق ، كثر حولها الكلام ، ولم تدرس دراسة تاريخية حتى الآن . وبناء على المعلومات الأولى فان دوره كان مضطرباً تبعاً لاضطراب الأحوال في سهل متيجة والتيطري =

دخل كلوزيل مدينة المدية يوم 22 نوفمبر ، ونصب عليها باباً جديداً ، ثبت أنه إمّعة من الإمعات التي حاول الفرنسيون أن يختفوا وراءها في حكم الجزائر واضطهاد السكان. وهو مصطفى بن الحاج عمر[45]. ولم يكن ابن الحاج عمر هذا، كما ستعرف عند حديثنا عن المقاومة المدنية ، من أهل المدية وانما من أهل مدينة الجزائر الحضريين ، الذين اغتر بعضهم بمعسول الوعود الفرنسية قبل أن تصبح كالحنظل . وقد أقام كلوزيل حوالي خمسة أيام في المدية ، حاول خلالها تنظيم إدارة محلية تابعة للفرنسيين ، فجند بعض الجنود المرتزقة المحليين (ميليشيا) لمساعدة الباي الجديد ، وترك له أيضاً 1.200 جندي كحامية للدفاع عن المدينة ، لكن بدون ذخيرة . ولكن دلائل التدهور كانت واضحة نتيجة الارتجال الذي تميزت به تصرفات كلوزيل . فقد كانت الحملة سيئة التنظيم ، وكانت في حاجة إلى الذخيرة والتموين قبل رجوعه هو إلى الجزائر . ويبدو أن الاستيلاء على الحبوب واللحم الذي أمر به من قبل لم يكن كافياً ، أو أن صياديه كانوا عاجزين عن الصيد.

يبدو أن هدف كلوزيل من حملة المدية كان تسجيل اسمه في قائمة الذين

= القريب من مقر السلطة الفرنسية (خلافاً لباي الشرق والغرب) فهو مرة يقبل التعاون مع الفرنسيين ومرة يحاربهم ، إلى أن قبل بالأمان الذي اعطوه اياه، وغادر الجزائر نحو الشرق حيث مات. وقد بقي ولده احمد الذي سيرد ذكره في الكتاب مع كل من الحاج احمد والأمير عبد القادر . للمزيد أنظر كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر) ، ط 3 .

(45) كان مصطفى بن الحاج عمر من التجار في مدينة الجزائر ، وصاحب ثروة كبيرة ، وله خدم . ولم يكن من أصحاب القيادة والحكم ، ولكن اعضاء بلدية الجزائر من الحضر هم الذين نصحوا به كلوزيل ، فعينه بايا على التيطري مكان مصطفى بومزراق ، وقد رافق ابن عمر حملة كلوزيل إلى المدية ، وهناك نصبه وترك له حامية صغيرة بدون ذخيرة . وكان احمد بومزراق ، ابن الباي السابق ، هو الذي حارب ابن الحاج عمر ولم يترك له الوقت للاستقرار حتى انه دخل دار الباي دون أن يجرؤ ابن عمر على التعرض له . وقد بقي شبه محاصر في المدية إلى أن جاء الجنرال (بيرتزين) الذي حكم بعد كلوزيل (1831) فقرر التخلي عن المدية تماماً وحمل معه ابن عمر إلى مدينة الجزائر . ثم ذهب ابن عمر إلى فرنسا حيث اعطى وسام الشرف ، وكان موضع فضول المتطفلين . وكان في بداية كهولته (48 سنة) . قال عنه توماس كامبل (رسائل من الجنوب ، جـ 1/227) بـأنه كـان سنة 1834 حوالي 47 سنة ، وانه كان قد سافر إلى فرنسا وإيطاليا وأنه كان يلبس الشاش ، وله منزل بمدينة الجزائر وآخر بالريف . وله حوالي 84 خادماً ، وقال عنه انه كان يطعم بالإضافة إلى ذلك حوالي 500 شخص من فقراء المسلمين . ونقل كامبل وصف ابن عمر لمعاناة الجزائريين تحت العثمانيين ، وأشاد له بالداي حسين واعتبره سجيناً في قصره الذي لم يغادره مدة حكمه .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

صعدوا جبال الأطلس وقطعوا مضيق الشفة وموزاية والتشبه بزعماء الرومان . ولو كان هدفه غير ذلك أو كان قائداً محنكاً لاحتاط للأمر وقدّر خطواته قبل الابتعاد عن خطوطه . لقد ثبت أنه كان مخطئاً كل الخطأ في تقديره . فبالإضافة إلى نقص التموين والذخيرة . وضعف الحامية والادارة التي نصبها في المدية (وهي الادارة التي ستسقط قبل عودته هو إلى الجزائر) كانت الأوضاع في البليدة لا تبشر بخير بالنسبة اليه . فالسكان كانوا يعرفون هدف كلوزيل فتراجعوا ، كما ذكرنا ، إلى الجبال ، وعندما غاب جيش العدو في اتجاه المدية ، وعرفوا ضعف الحامية التي تركها بقيادة (روليير) ، هاجموها من كل حدب وصوب وكادوا يفتكون بها جميعاً .

كان عدد المهاجمين الجزائريين ، حسب المصادر الفرنسية ، بين سبعة وثمانية آلاف شخص . وكان قائدهم عندئذ هو ابن زعموم(46) الذي سيرد اسمه بكثرة في هذه المرحلة من المقاومة الوطنية (1830 ـ 1837) . لقد كانت معركة من أبرز المعارك بين الوطنيين وجيش العدو ممثلاً في الحامية التي تركها كلوزيل في البليدة بقيادة روليير . وكان القتال قد بدأ على الساعة السادسة صباحاً ، وضاقت السبل بهذا الضابط في غياب نجدة كلوزيل الذي كان في المدية . فالتجأ إلى مسجد المدينة الذي كان قد جعله مستشفى ، واحتله كما احتل المقبرة المجاورة . واشتد القتال بين الطرفين في الشوارع وبالسلاح الأبيض . وعنما انهارت معنويات جيش العدو وفقد جنوده شجاعتهم ، استعمل روليير المدفعية اذ ضرب المهاجمين من الخلف ، فتراجعوا ثم هاجمتهم بقية الحامية الملتجئة إلى المسجد والمقبرة من الأمام . ويخبرنا مؤرخ الجيش الفرنسي في الجزائر ، أن المهاجمين الوطنيين قد وقع الاضطراب في صفوفهم نتيجة ضرب المدفعية لهم من الخلف وضرب رجال الحامية لهم من الأمام ، حتى لقد استشهد منهم حوالي ثمانمائة شهيد . وفر الباقون حوالي الساعة الحادية عشر بعد أن دام القتال خمس ساعات ، وذلك يوم 25 نوفمبر . أما من جانب العدو فقد قتل تسعة عشر ، منهم ضابطان ، وجرح خمسة وخمسون(47) .

---

(46) وجدناه تارة يكتب ابن زعمون وتارة زعموم ، اخترنا الأخير لوجوده في ختمه الرسمي . وحياة ابن زعموم السياسية ايضاً مضطربة ، إذ نجد له ادواراً مختلفة ، ولكنه خلال هذه الفترة ما يزال على رأس المقاومة في سهل متيجة . وكان زعيماً لقبيلة فليسة العتيدة . وسنذكر بعض أدواره فيما بعد .
أنظر عنه أيضاً كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر) .

(47) أنظر بول آزان (الاحتلال . . .) ، ص 38 .

وهكذا كانت المقاومة عنيفة وقوية ولولا المدفعية لأبيدت الحامية عن آخرها . ومما زاد في عمق مأساة كلوزيل أن الخمسين مدفعياً الذين أرسلهم للبحث عن الذخيرة قد فتك بهم المقاومون بالقرب من بوفاريك . وقد عثر عليهم كلوزيل أثناء رجوعه من حملته الفاشلة على البليدة والمدية حيث وجدهم أشلاء مبعثرة هنا وهناك . ولذلك رجع كلوزيل منكسر الرأس من هذه الهزائم المتلاحقة ، فبدل أن يرفرف على رأسه العلم المثلث حام عليه غراب البين يتتبع جثث قتلاه في معركتي البليدة وموزاية وبوفاريك . فأي فخر له بعد ذلك ؟

لقد لجأ إلى الانتقام طبعاً . انتقم من سكان البليدة الباقين بعد انسحاب المقاومين إلى الجبال . وترك العجزة والأطفال والنساء هناك بلا حماية ولا تموين . وانتقم في الجزائر ممن كان يسميهم الحزب الاسلامي ، وعلى رأسه المفتي ابن العنابي ، الذي حكم بنفيه بصفة لا انسانية . ودخل في دوامة بوليسية مع الحضريين أمثال احمد بوضربة وحمدان خوجة . وحاول اعادة تنظيم اللجنة الحكومية التي أنشأها بورمون . ومن سخريات القدر أنه جعل القنصل السابق دوفال ، صاحب قصة المروحة (الذي حكم عليه قومه بأنه تعلم الغش والرشوة وفساد الذمة في المشرق الذي ولد فيه !) جعله مسؤولاً على العدالة في الجزائر . وجعل رئيس اللجنة المذكورة هو المتصرف البارون فولان Volland بدل دينييه ، والمكلف بالشؤون الداخلية هو كادي دو فو Vaux ، الذي كان في نفس الوقت رئيس اللجنة البلدية ، والمكلف بالمسائل المالية هو المفتش العام فوجرو.

ومنذ وصوله إلى الجزائر إلى مغادرته لها كان كلوزيل يمطرها بالقرارات المتناقضة والمرتجلة والتي كان يعلن فيها عن تنظيم المدينة واصلاح الأحوال . فاتهم اللجنة البلدية بترك المدينة في حالة وسخة للغاية ، والمعروف أن هذه اللجنة كانت مؤلفة من الحضر واليهود برئاسة فرنسي (وهو دي فو) ، فأعاد كلوزيل تركيب العضوية فيها وضرب هذا بذاك وخلق الحساسيات بين الأعضاء ، وسمى عليها ممثلاً للملك ومساعداً له . واهتم بنظافة المدينة والشرطة حيث جعل كل من يدخل المدينة غريباً عنها يسلم جواز سفره إلى مفتش السفن الذي يسلمه بدوره إلى محافظ الشرطة ، وعلى المعني بالأمر أن يذهب بنفسه في اليوم التالي لاستلام جواز سفره وورقة الاقامة بعد التأكد من هويته . وجعل محكمة اسلامية يرأسها قاض جزائري.

ومحكمة يهودية برئاسة أحد الربيين . أما في المسائل التجارية والمدنية فالمحكمة كانت برئاسة دوفال نفسه ، كما جعل محكمة جنائية يرأسها محافظ الشرطة (وهو دوبينوس الشهير بتعفنه) .

وفي ميدان الزراعة والتجارة وضع كلوزيل أسس الفكر الاستعماري ، رغم أن مؤرخي العهد يقولون لنا إن فرنسا لم تكن قد قررت بعد ماذا ستفعل بالجزائر . فقد اغتصب مزرعة ضخمة (ألف هكتار) تقع عند وادي الحراش وتسمى (حوش الداي) وجعلها تحت تصرف جمعية مغفلة الاسم يشارك الجنود في رأس مالها ، وسماها (المزرعة النموذجية الأفريقية). وجعل على هذه المزرعة حراسة مشددة من المشاة والفرسان لأن المقاومين الجزائريين كانوا يغيرون على ضواحي مدينة الجزائر . وسنعرف أن هؤلاء المقاومين أجبروا أولئك المتسللين على الانجحار داخل أبواب المدينة في المرحلة الأولى . كما شجع كلوزيل التجارة بين فرنسا والجزائر ، وجعل الاستيراد حكراً على فرنسا حتى أنه فرض ضريبة على الاستيراد من غيرها وصلت إلى 20٪ . وكانت أطماع كلوزيل المالية تشبه أطماع سلفه ، هذا نهب خزينة الجزائر ، وذاك نهب أموال الأوقاف الاسلامية . وسنرى عند حديثنا عن موقف الفرنسيين من الشؤون الدينية كيف أصدر كلوزيل قراراً يجعل أملاك الأوقاف واحصاءها وادارتها وحساباتها ترجع إلى ادارته الجديدة . وهي قضية ستشغل الرأي العام الجزائري طيلة الوجود الفرنسي .

ولكن الفشل العسكري الذي مني به كلوزيل حيثما حل ، جعله يفكر في مغامرة جديدة ، يربح بها مالاً ويخسر بها شجاعة ، وهي « بيع » (هكذا أطلق عليها المعاصرون) اقليمي وهران وقسنطينة إلى تونس والمغرب إذا أمكن ، أو إلى تونس فقط ، في مقابل مليون فرنك عن كل إقليم . ومن حق المؤرخ أن يتساءل : كيف يبيع إنسان شيئاً لا يملكه ؟ إن البائع والمشتري في هذه الحالة كلاهما لِصٌ من الدرجة الأولى ! ذلك إن إقليم وهران كان ما يزال في يد الباي حسن ، رغم عجزه وتخلي الفرنسيين عنه ، بعد احتلالهم للمرسي الكبير وبعض حصون المدينة . وما دام الرجل قد أبدى ، على ما يقول الفرنسيون ، الإستعداد للبقاء والإعتراف بالسيادة الفرنسية ودفع اتاوة ، فلماذا يبحث كلوزيل عن جهة أخرى يبيع لها اقليماً في حوزة غيره ؟ ومن فوض له القيام بهذه السمسرة ؟ أما إقليم قسنطينة فقد كان تحت

حكم الحاج أحمد الذي رفض من الوهلة الأولى التعامل مع الفرنسيين وعدم الإعتراف بسيادتهم على اقليمه ، وحتى مرسي عنابة الذي كان الفرنسيون قد دخلوه بعض الوقت فقد أجبرتهم المقاومة العنيفة على مغادرته خائبين.

ومع ذلك فقد قرر كلوزيل بيع الإقليمين والحصول على المال من الدولتين الإسلاميتين أو من إحداهما ، تقول الروايات الفرنسية أن كلوزيل أحس بتفكير أهالي إقليم وهران في مبايعة سلطان المغرب أمام الفراغ السياسي الذي تركه سقوط الحكم العثماني المركزي في الجزائر ، ذلك أن هؤلاء السكان كانوا في حاجة إلى حماية إسلامية أمام التهديد الخارجي . فأرسل كلوزيل مبعوثاً إلى السلطان في هذا الشأن (بيع وهران) ولكنه لم يتجاوز طنجة ولم يبلغ الرسالة . ومن جهة أخرى نصحه (ديليسبس) القنصل الفرنسي بتونس بعرض الصفقة على باي هذه البلاد ، وأوحى إليه بأنه (أي باي تونس) مستعد لذلك أمام الغيرة التي كانت بينه وبين الحاج أحمد . ومهما كان الأمر فقد قبل الطرفان (كلوزيل وباي تونس) بالصفقة ، وتمت المفاوضات والإتفاق . وبيع إقليم قسنطينة إلى باي تونس بمليون فرنك سنوياً يوم 18 ديسمبر 1830 ، على أن يتولاه صهره مصطفى . كما بيع اقليم وهران[48] إلى نفس الباي بمليون فرنك آخر سنوياً على أن يولي عليه ابن أخيه ، أحمد ، وذلك يوم 6 فبراير 1831[49] .

وبعد عرض الصفقة على الحكومة الفرنسية رفضتها . فقد عارضها وزير الحربية (الذي تتبعه إدارة كلوزيل) ، ولم يكتف الوزير بمعاقبة ديليسبس على نصائحه غير الحكيمة ، بل طلب المبعوث إلى سلطان المغرب للإستفسار ، وأخيراً

---

(48) عند التفكير في صفقة وهران ، أرسل كلوزيل الضابط دامريمون ، الذي هزم في عنابة ، لاحتلال المرسي الكبير ووهران يوم 8 يناير 1831 . وقد اتهم سكان الاقليم الباي حسن ببيع بلادهم إلى الكفار .

(49) هناك عدد من الكتابات عن هذا الاتفاق الغريب . منها (المرآة) لحمدان خوجة ، 268 ـ 275 . ومقالة عبد الجليل التميمي في (المجلة التاريخية المغربية) عدد يناير ، 1980 ، ص 17 ـ 24 .
وفعلاً جاء إلى وهران خير الدين آغا من تونس على رأس فرقة من 200 جندي ليمهد لحضور الأمير أحمد ، ولكن الاستقبال أفهمه أنه غير مرغوب فيه ، فعاد في أوت من حيث أتى ولم يحضر الأمير أحمد طبعا .

جاء دور كلوزيل نفسه إذ وضع الوزير حداً لمهمته في الجزائر يوم 20 فبراير 1831 . فقد اتهم بالذاتية والإستقلالية وعدم الدبلوماسية وهذا طبعاً كلام المدافعين عنه أمثال بول آزان . أما نحن فقد قلنا أنه كان عشوائياً في تصرفاته ، شرها في جمع المال من حلاله وحرامه ، فاشلاً في حملاته العسكرية وفي تنظيماته المدنية. وإذا كانت هذه هي صفات كلوزيل في الشهور الأولى للإحتلال وفرنسا ـ كما يقولون ـ مترددة في البقاء وعدمه في الجزائر ، فكيف ستكون صفاته يوم يعود (1835) إلى الجزائر وقد « قررت » بلاده الإحتفاظ بالجزائر « فرنسية » وانفتحت أمامه أبواب الإستعمار على مصراعيه ؟

8. خلفاء كلوزيل إلى 1837 :

قبل أن يعود كلوزيل إلى الجزائر ويعلن افلاسه النهائي في الحرب وفي القضاء على المقاومة ، تداول على الحكم في الجزائر جنرالات آخرون لا يختلفون عنه إلا في الإسم . فكلهم جاءوا غزاة مضطهدين ، يدعون دعاوى أكبر من أفواههم ، وهي أنهم حاملون لرسالة حضارية في أرض متوحشة ومتعصبة ، وأن القوة هي الحل الوحيد لترويض المتوحشين وتليين المتعصبين . حتى الجنرال (بيرتزين) الذي وصفه بعض المؤرخين بالطيبة أو بالضعف نحو الجزائريين، كان لا يختلف عن زملائه كثيراً . فقد حل بالجزائر يوم مغادرة كلوزيل لها يوم 20 فبراير 1831 ، ولم يبق فيها إلا بضعة شهور .

قام بيرتزين بنجدة باي المدية ، ابن عمر ، الذي تركه كلوزيل محاصراً فيها هو والحامية الفرنسية التي يقودها (ماريون) . وكان المحاصرون له بقيادة أحمد ابن الباي السابق بومزراق . وقد طلب ابن عمر من الجنرال الفرنسي مرافقته إلى الجزائر لعجزه عن إدارة المدية . وهكذا أجبرت المقاومة الفرنسية على التخلي عن المدية . بل إن المقاومين ظلوا يتابعون مقاتلة جنود بيرتزين أثناء مرورهم بمضائق موزاية والشفة ، وفي الطريق من البليدة إلى الجزائر حيث كان المقاومون هناك قد هاجموا (المزرعة النموذجية) بالقرب من الحراش بقيادة ابن زعموم .

ومن جهة أخرى فشل بيرتزين في محاولة انزال جديدة في عنابة بقيادة (بيقو)

و (هودير) ، فبعد دخولهما المدينة على رأس قطعة من الأسطول قتل الاثنان وتفرقت قواتهما وجلت عن المدينة من جديد بقتلاها (سبعة حسب بول آزان) وجرحاها . وكانت مدينة عنابة هذه المرة قد هاجمها الباي إبراهيم الكريتلي الذي كان ينافس الحاج أحمد على حكم قسنطينة (وسنتحدث عنه بعد حين) .

أما المحاولة العسكرية الثالثة التي قام بها بيرتزين فهي دعم إحتلال وهران والمرسي الكبير (الذي وقع في أيدي القوات الفرنسية في السادس من فبراير 1831 كما عرفنا) . فقد أرسل الجنرال (بواييه) هناك وعينه « حاكماً » لوهران . فقام هذا بوضع تنظيمات تشبه تلك التي طبقت في الجزائر . ولكنه كان يتلقى الهجومات المتتالية من المقاومين ، وهي الهجومات التي كان على رأسها ، كما سنعرف ، الشيخ محيي الدين والد الأمير عبد القادر . ورغم تمسك بواييه بالبقاء في وهران فإنه كان في وضع لا يحسد عليه ، وكانت قواته تعاني من نقص التموين والأمن .

أما من الجانب الإداري فإن بيرتزين لم يحدث ما يجعل العلاقات تتحسن ، حقاً إن حمدان خوجة يفضل حكمه على حكم كلوزيل ، بالنسبة للسكان ، ولكن ذلك لا يجعله حاكماً ناجحاً من الوجهة الجزائرية . أما الفرنسيون فقد حكموا ضده وقالوا انه كان ضعيف الشخصية قليل التجربة . ومهما كان الأمر ، فقد أعاد تنظيم لجنة الحكومة السابقة التي أصبحت في عهده تسمى (اللجنة الإدارية للايالة الجزائرية)(50) . ورأس عليها المتصرف العسكري (بوندوران Bondurand ، وشجع الإستعمار في ضواحي مدينة الجزائر ، سيما سطاويلي والحراش وسيدي خالف . وطلب من وزيره (وزير الحربية) عدم السماح للفرنسيين الذين لا مال لهم بالسفر إلى الجزائر لأنهم يصبحون عالة عليه . ولكن هؤلاء استمروا في التدفق حتى وصل عددهم في مارس 1831 إلى 529 مدنياً ، كانوا يضاربون في الأرض . كما لاحظ أن الجنرال (مانديري) الذي كان مكلفاً بالأمن تحت اسم (آغا العرب) لا يعرف اللغة العربية ولا الدين الإسلامي ولا عادات السكان . فاستبدله بالحاج محيي الدين

---

(50) مما يذكر أن القوة العسكرية الفرنسية في الجزائر لم تعد تسمى قوات الحملة ، أو (الجيش الافريقي) كما في عهد كلوزيل ، ولكن أصبح اسمها (فيلق الاحتلال Devision d'occupation) ، وهذا اللقب هو الأولى في الحقيقة بذلك الجيش الذي ادعى قادته انهم ينشرون بواسطته الحضارة ، فهو فيلق احتلال بكل معنى الكلمة ، وسيبقى كذلك حتى بعد أن تغير اسمه مرات إلى 1962 .

ابن الصغير بن مبارك ، وهو من عائلة سيدي مبارك الشهيرة بتصوفها وتدينها في القليعة ، وهكذا أصبح الحاج محيي الدين هو (آغا العرب) الذي كان دوره المحافظة على الأمن في أوطان متيجة والتوسط بين أهلها وبين الفرنسيين في قضاء الحاجات . وكان ذلك بناء على إتفاق بين بيرتزين والحاج محيي الدين . ويقتضي أن لا يخرج الفرنسيون من مدينة الجزائر . وطالما كان بيرتزين موجوداً فإن الحاج محيي الدين كان على علاقة حسنة مع الأوطان المذكورة ومع الفرنسيين . ولكن الأمور تغيرت عندما جاء الدوق دي رفيقو خلفاً لبيرتزين .

وقد رأينا أنه خلال العشرة أشهر التي بقيها بيرتزين في الجزائر ، انتعشت المقاومة في الريف ، خصوصاً في متيجة على يد ابن زعموم ، وسهل وهران ، على يد محيي الدين بن مصطفى ، وضواحي المدية على يد أحمد بومزراق ، كما تململ سكان مدن : الجزائر والمدية وعنابة والبليدة ، وانسحب سكان وهران منها . وبالطبع كثر أيضاً الطامعون في السلطة من الجزائريين الذين أخذ بعضهم يؤلف ما يمكن أن نسميه حزباً موالياً لفرنسا ، أي أولئك الذين أخذوا يعتمدون على السلطة الفرنسية في النفوذ والثروة والبقاء . وقد ظهرت عناصر ذلك في مدينة الجزائر وعنابة والمدية والبليدة ، ولكن بدرجة ضعيفة . ذلك أن التيار الوطني أخذ يتقوى بزعامة القيادات الجديدة : محيي الدين بن مصطفى في الغرب وابن زعموم وأحمد بومزراق في الوسط ، والحاج أحمد وإبراهيم الكريتلي في الشرق. كما أن الحزب الموالي للعثمانيين كان ما يزال قوياً خصوصاً في مدن الجزائر والمدية . وكان على رأسه حمدان خوجة وإبراهيم بن مصطفى باشا . ويفسر الفرنسيون الفشل العسكري الذي حل بقوات بيرتزين وانتعاش حركة المقاومة ضد الوجود الفرنسي بضعف شخصيته وعجزه عن حماية الوجود الفرنسي[51] .

والرجل الذي خلف بيرتزين هو الدوق دي روفيقو . وقد حل بالجزائر في آخر

---

(51) مما يلاحظ أن الذين أشرفوا على نشر (مراسلات) القادة الفرنسيين خلال القرن الماضي عمدوا إلى نشر أوراق دي بورمون ومراسلات كلوزيل وروفيقو ، وفاليه ، الخ . وأهملوا نشر مراسلات بيرتزين . وبعد استقلال الجزائر عاد أنصار الجزائر من الفرنسيين إلى البحث في الأرشيف وأخبرونا أنهم وجدوا بيرتزين هو الذي فهم الجزائريين وسياسة فرنسا نحوهم أكثر من غيره (أنظر ما كتبه عنه آجرون مثلاً) ، وسبحان مقلب الأحوال !

ديسمبر 1831 . ولم يطل هو الاقامة أيضاً . فقد كان يشبه كلوزيل في تصرفاته غير السديدة وفي كرهه لأهل الجزائر وفي سلوكه البوليسي[52] وغلظته وخلفه للوعد. ولذلك أثار الجزائريين ضده أكثر فأكثر ، حتى أولئك الذين كانوا قد ظنوا الخير في الفرنسيين نقموا عليه وعلى السلطة التي كان يمثلها . واشتدت المقاومة في عهده ، وكان عنف معاملته يؤدي إلى عنف المقاومة ضده.

تولى روفيقو السلطة بلقب (القائد العام لفيلق إحتلال افريقية) . وانفصلت في عهده السلطة العسكرية والسلطة المدنية بأمر ملكي . وكانت سلطاته هو تتمثل « في الحفاظ والدفاع وأمن الممتلكات الفرنسية بأفريقية » . ويتبعه حاكم فيلق وهران ـ بواييه . كما تقع تحت أوامره الاجراءات السياسية والأمن العام في الأماكن الواقعة تحت حكمه . أما منصب المتصرف المدني الذي تقلده أثناء هذا العهد كل من البارون بيشون (الذي لم يتفاهم مع روفيقو على التصرفات السياسية في الجزائر) وجنتيه دي بوسي ، فقد كان يشمل السهر على الخدمات المدنية والمالية والعدالة . واذا كان روفيقو يتبع اداريا وزير الحربية فان المتصرف المدني كان يتبع رئيس الوزراء مباشرة والوزارات الأخرى المعنية ـ كالداخلية والعدل . وبناء على هذا التنظيم الجديد انشىء (مجلس إداري) يتألف من أعضاء يمثلون المصالح الأساسية (المتصرف المدني والمتصرف العسكري ، والمفتش العام للمالية ، وقائد الوحدات البحرية ، ومدير الجمارك الخ) . تحت رئاسة القائد العام روفيقو . ورغم هذا التنظيم في العلاقات فان الإدارة الفرنسية كانت تعاني من سوء التفاهم بين المسيرين . فبالإضافة إلى العلاقات السيئة بين روفيقو وبيشون التي أدت إلى عزل الثاني وتعويضه بغيره ، هناك النزاع والحساسية بين روفيقو وبواييه حاكم وهران . وبعد استفحال الخلاف بينهما تدخل وزير الحربية وعزل بواييه وعوضه بديميشال الشهير باسم المعاهدة التي تحمل اسمه . ثم هناك الخلاف الحاد الذي نشب بين روفيقو وقائد الفرقة التي احتلت عنابة من جديد وهو الجنرال (مونك دوزير) . فقد رفض هذا مرتين السماح لمبعوث روفيقو بالنزول في عنابة.

---

(52) كان هو نفسه وزيراً للشرطة قبل توليه الجزائر ، حتى انه فتح أذنيه لسماع الوشايات والتقارير الكاذبة و (لكل امرىء من دهره ما تعودا) كما يقول المتنبي !

واذا كانت هذه هي العلاقات بين أصحاب السلطة الفرنسية ، فكيف تكون بين هذه والجزائريين ! اننا سنتكلم بعد حين عن الإجراءات التي جرحت الجزائريين في الصميم والتي أدت إلى الشك بل الثورة حتى من قبل أولئك الجزائريين وضعوا بعض الثقة في السلطة الفرنسية . ان سياسة روفيقو كانت سياسة بوليسية جائرة . وهذا نموذج من ذلك . في أول عهده وجد أن جنوده ينامون على أسرة حديدية بدون مضربات ، ففرض على سكان مدينة الجزائر غرامة من الصوف قدرها أربعة آلاف وخمسمائة قنطار لتجهيز الأسرة . وبالإضافة إلى الاستيلاء على المؤسسات الدينية التي سنعرض اليها قام بمنح (دار الداي) الريفية إلى السلطات العسكرية لتجعلها مستشفى . وعندما علم أن قبيلة العوفية القاطنة وراء وادي الحراش قد اعتدت على مبعوثي فرحات بن سعيد (من نواحي بسكرة) إلى روفيقو ، قام هذا ليلة الخامس من أبريل 1832 بذبح القبيلة عن آخرها أثناء نومها ، وقبض على شيخها ، الشيخ الربيعة ، وحاكمه محاكمة صورية وأعدمه ، رغم أن التهمة لم تثبت عليه ولا على قبيلته[53]. ولكن هذه الجريمة قد أشعلت المنطقة كلها بنار الانتقام وحفزت روح المقاومة ، كما سنرى ، حتى ان سكان متيجة قاموا في نهاية شهر مايو من نفس العام بذبح 25 رجلاً من اللفيف الأجنبي ، وقد عجز روفيقو حتى عن متابعة الثوار هناك .

ولكن الشك القاتل في ولاء الحاج محيي الدين ـ آغا العرب ، جعل روفيقو يستدرجه لمدينة الجزائر ، فأحسّ الحاج محيي الدين بما يبيت له روفيقو ، فلم يسعه بعد أن راسله وتبرأ مما نسبه اليه ، الا الفرار جهة مليانة والإنضمام إلى الثورة ضد الفرنسيين . وكيف يأمنه الحاج محيي الدين وقد قام روفيقو بإعدام شيخين بارزين وبريئين من شيوخ أوطان متيجة بعد أن أعطاهما الأمان على يد آغا العرب نفسه . فقد

---

(53) يذكر جورج ايفير أن مذبحة العوفية جرت في ليلة 6 ـ 7 ابريل (1832) ، وان القبيلة كانت بريئة وأن شيخها قد سجن ثم اعدم .

ـ أنظر (م . إ .) سنة 1913 ، ص 123 هامش 3 . ويذكر ديرينو نفس العبارات تقريباً ويضيف ان الحكم ببراءة القبيلة كان يعني ادانة الذين ارتكبوا الجريمة ، ولذلك صدر الحكم بتهمة القبيلة . ولاحظ رينو أن تنفيذ الجريمة لم يفرق بين الكبير والصغير ولا بين الرجل والمرأة . وقد ثبت للمحكمة أن الذين قاموا بتجريد وفد فرحات بن سعيد أناس آخرون غير قبيلة العوفية . ومع ذلك قطعت رأس الشيخ الربيعة وحملت هدية إلى الدوق دي روفيقو. أنظر (حوليات الجزائر) جـ1 / 246 .

جلبهما روفيقو إلى مدينة الجزائر ، رغم الضمانات ، وقطع رأسيهما[54] . ولا ندري ان كان روفيقو يفكر عندئذ انه يعلّم الجزائريين الحضارة أو أن التعصب والحقد قد أعمياه فلم يعد يرى الاّ ارتكاب الجرائم ضد المسالمين . ومن ذلك انه أرسل إلى القليعة كتيبة من الجند في غفلة من السكان وخطف رجلين من أقارب الحاج محيي الدين وأحضرهما رهينتين إلى الجزائر وأودعهما السجن حيث بقيا تسعة أشهر ظلماً وعدواناً . ولم يكتف روفيقو بذلك بل فرض غرامات ثقيلة على المدنيين من سكان البليدة والقليعة بدعوى تأييد الثوار في المتيجة ، وعندما عجزت المدينة عن دفع الغرامة دخلها الجند ، وانتزع روفيقو بضائع المتاجر ونحوها من ايدي السكان وأعطاها للجنود . فأي سجل هذا الذي تركه روفيقو وراءه في الجزائر ؟ وأي شرف للحضارة في ذلك؟

اختلف روفيقو وبيشون حول طريقة الإستعمار في الجزائر . فقد كان بيشون يرى ضرورة إعادة الكولون الذين حلوا بالجزائر بدون رأس مال من حيث أتوا ، أما روفيقو فكان يرى بقاءهم في الجزائر وتوزيع أراضي الجزائريين عليهم . وقد انتصر رأيه . كما قرر روفيقو اشراك الكولون في الدفاع عن مصالحهم واعانة الجيش في ذلك ، فأصدر قراراً يجعل كل الفرنسيين بين 20 و 60 سنة يشكلون ما أسماه بالحرس الوطني . فتألفت منهم أربع فرق من المشاة وفرقة من الفرسان لإرهاب الجزائريين . وبالإضافة إلى ذلك فقد تم في عهد روفيقو توسيع وتنظيف شوارع مدينة الجزائر ، وتوسيع ساحة الحكومة (كل ذلك على حساب مؤسسات دينية وخيرية سنذكرها) ، وتهديم جامع السيدة الشهير ، وتحويل جامع كتشاوة إلى كنيسة

---

(54) يقول رينو 257/1 ان الرجلين هما العربي بن موسى قائد بني خليل ومسعود بن عبد الوادي قائد السبت ، وأن روفيقو استجلبهما إلى مدينة الجزائر فلم يأتيا لشعورهما بالخطر فطلب من أهل البليدة ارسال وفد ومعه أشخاص آخرون فيهم الرجلان المذكوران ، ولكنهما رفضا الذهاب الا بعد « عهد أمان » مكتوب ، فأعطاهما روفيقو ذلك على يد صديقهما محمد المخفي قائد الخشنة . وفي الجزائر قبض عليهما روفيقو وأودعهما السجن ، رغم احتجاج المخفي الذي مدّ يديه للقيد معهما لأنهما وثقا في عهد الأمان عن طريقه هو . ورغم مطالبة سكان البليدة ومتيجة بإطلاق سراح الرجلين فإن روفيقو وجد قضاة حاكموا الرجلين وقضوا عليهما بالإعدام الذي نفذ فيهما خلال فبراير 1833 . ويقول رينو أن مقتل الرجلين ظل ذكرى أليمة وعلامة على الخيانة وخلف الوعد من السلطة الفرنسية على يد روفيقو .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

كاثوليكية ، وتحويل بنايات أخرى إلى مستشفيات عسكرية[55] . ومما أنشىء في عهد روفيقو جريدة باسم (المرشد الجزائري Le Moniteur Algérien) لنشر قرارات سلطة روفيقو على السكان بالعربية والفرنسية .

ولم يضف روفيقو أي مجد عسكري الا اذا اعتبرنا احتلال المدن الآمنة وذبح القبائل النائمة مجداً عسكرياً ! ذلك أن (بواييه) بقي محاصراً في وهران ولم تكن له حتى الشجاعة العسكرية لمحاربة الشيخ محيي الدين ورجاله عندما دعاه هذا للنزال خارج جدران المدينة . فقد ظل بواييه خلف الأسوار ينتظر التموين من الجزائر ويتحكم في من بقي بالمدينة من عجزة واسبان ويهود . وقد أخذ يفرق بين السكان لعله يجد ثغرة يدخل منها ، فبعد أن كان الفرنسيون يدّعون سنة 1830 أنهم جاؤوا لتحرير الجزائريين من النير التركي ، وجدناهم سنة 1832 يدعون للأتراك أنهم سيحررونهم من نير الجزائريين ! فقد مدّ بواييه يده إلى « الاتراك » في تلمسان ومستغانم ليتعاون معهم ضد الجزائريين (ونفس الطريقة سلكها اللقيط يوسف اليهودي ودارماندي في عنابة) وقد أحس بواييه بعنف المقاومة الجزائرية ، خصوصاً بعد أن وجدت تأييداً من سلطان المغرب ـ ، فاستنجد (بواييه) بحكومته التي أرسلت إليه نجدة خلال شهر مايو 1832 .

وكان لبواييه متصرف مدني أيضاً ولكنه لم يتفاهم معه ، تماماً مثل سيده في الجزائر ، ويكفي أن تعلم أن هذا المتصرف تغير ثلاث مرات في نصف سنة . وأمام فقدان الأمن فان بواييه لم يحلم بتوزيع الأرض على الكولون في جهته ، فهو لم يخرج خارج جدران المدينة ، كما عرفنا ، أما التجارة فلا حديث عنها ، حتى ان يهود وهران عجزوا عن العيش فيها وأخذوا في الهجرة إلى الشرق ـ نهاية 1832[56] . وكل ما استطاع بوييه أن يفعله عندئذ هو الاحتفاظ بمدينة وهران والمرسي الكبير ، وربطهما بطريق ، ودعم جنده حتى وصل إلى أكثر من 300 . 4 رجل ، بالإضافة إلى حوالي 500 فرس لفرقة (قناصة افريقية) الجديدة . وقد أصلح الثكنات القديمة ، وحول مسجد خنق النطاح إلى ثكنة دفاعية .

أما عنابة التي احتل قصبتها إبراهيم الكريتلي وحاصرها الحاج أحمد، فقد كان لها

---

(55) عن الموقف من المؤسسات الدينية ، أنظر ما سيأتي .

(56) بول آزان (الاحتلال . . .) ، ص 65 .

وضع آخر. ذلك أن روفيقو علم أن الباي إبراهيم (يدعي الكريتلي لأنه كان من جزيرة كريت أصلاً) كان ينافس الحاج احمد ، ولكنه يكره الفرنسيين أيضاً ، غير أنه مستعد للتفاوض معهم لتحقيق هدفه . هكذا يقول مؤرخو هذه الفترة . وليس هناك ما يدل على فتح هذه المفاوضات ، لأن روفيقو تنصل حتى من المفاوضات التي أكد حمدان خوجة أنه كلفه بها مع الحاج احمد نفسه ، في نفس الوقت تقريباً . وقد وقع سكان عنابة بين عدة نيران وتوزع ولاءهم طبعاً ، فيهم الحضر والكراغلة وعرب الريف . فقد أرسل روفيقو ، المغامر اللقيط يوسف (الذي أخذ نجمه يصعد منذ عيّنه الدوق نفسه « خليفة » آغا العرب في متيجة) في مهمة لعنابة واتصل يوسف بالباي ابراهيم ، فوجده مستعداً للتفاهم فأرسل روفيقو دارماندي ، ضابط المدفعية ، إلى عنابة[57] رفقة اللقيط يوسف . وبالتعاون مع من سموهم بالأتراك[58] تمكنوا من احتلال القصبة ورفع العلم الفرنسي عليها . وتقول الروايات الفرنسية إن جيش الحاج احمد ، الذي كان يحاصر عنابة منذ ستة أشهر ، قد أحرق المدينة في الليلة الموالية ، ورفع الحصار وحمل السكان معه وذهب.

وحتى لا تخرج قصبة عنابة من أيديهم مرة أخرى حصن الفرنسيون مواقعهم فيها. فقد أرسل روفيقو نجدة عسكرية من 600 جندي و 17 مدفعاً و 20 رجلاً من سلاح الهندسة وسمى دارماندي قائداً للقصبة . ونفس الموقف وقفته الحكومة الفرنسية . فقد أرسلت بدورها من طولون نجدة عسكرية إلى حاميتها في عنابة خلال شهر مايو بقيادة الجنرال مونك دوزيز الذي قلنا إنه كان على خلاف مع روفيقو . ونتيجة هذا المدد أخذ الفرنسيون في تحصين مواقعهم . ومن بين ذلك تحويل مسجد عنابة إلى مستشفى عسكري . ورغم سمعة اللقيط يوسف عند القادة الفرنسيين ، فإن روفيقو كان يشك فيه ، خصوصاً وقد ظهر أنه يفهم السياسة الأهلية أكثر من غيره . وكان اللقيط يوسف محبوباً ، بالعكس ، لدى دوزيز ، لأسباب نجهلها . وأثناء ذلك أرسل روفيقو وفداً فيه عديل الباي ابراهيم ومعه أحد اليهود إلى عنابة لكي يقوم بتنفيذ

---

(57) كان دارماندي d'Armandy قد شغل قبل ذلك منصب قنصل فرنسا في الحجاز ، وكان يعرف العربية وحياة الشرق .

(58) يقصدون بهم أنصار الباي ابراهيم الكريتلي . وقد كانت القصبة للأتراك (للجيش والسلطة) وكانت المدينة للسكان . . . الأهالي ، وكان عدد الأتراك المشار اليهم حوالي مائتي شخص فقط (200) .

« السياسة الأهلية » التي يريدها روفيقو ، ولكي يتجسس على اللقيط يوسف (وربما على دوزير أيضاً) ولكن دوزير فهم أن ذلك موجه ضده هو ، فرفض السماح لمبعوث روفيقو بالنزول مرتين ، كما سبقت الاشارة. وأمام الوضع العسكري المتردي ومقاومة أهل الريف الذين كانوا يغيرون على قصبة المدينة ويعترضون خروج الفرق الفرنسية إلى خارج الأسوار ، لـم يسجل أي عمل في اعطاء الأرض للكولون في عناية . وكان دوزير يكتب إلى الوزير بأن يهتم بالثكنات والمستشفيات ، لأن الكولون سيموتون اذا جاؤوا ، وضرب له مثلاً بعائلة فرنسية حاولت حظها وفشلت.

وهكذا نرى أن الشهور التي بقيها روفيقـو في الجزائـر كانت لا تختلف عن الشهور التي بقيها كلوزيل . ولولا تدخل الحكومة الفرنسية (التي يقال عنها إنها كانت ما تزال مترددة في الاحتلال !) لنجدة بوايبه في وهران ونجدة دارماندي في عنابـة عسكرياً لما ثبتت للفرنسيين قدم في هذين البلدين نظراً لعنف المقاومة التي أبداها المواطنون على يد قوات الشيـخ محي الدين في الغـرب وقوات الحـاج أحمد في الشرق . أما الوضع في سهل متيجة فقد كان سيئاً للغاية على الفرنسيين ، وعندما عجز روفيقو عن مواجهة المقاومة الشعبية هناك (بقيادة ابن زعموم والحـاج سيدي السعدي والحاج محيي الدين آغا العرب) لجأ إلى الأساليب البوليسية والارهاب ، بالقتل الجماعي (قبيلة العوفية) واختطاف الرهائن (أقارب آغا العرب في القليعة) وخيانة العهد (مقتل قائدي بني خليل والسبت ، رغم اعطائهما الأمان) . وفرض الغرامات الباهظة والجماعية على سكان المدن (الجزائر والبليدة والقليعة) . وأما المدية فإن روفيقو لم يجرؤ حتى على الاقتراب من مضائق الشفة وموزاية بعـد أن جلت الحامية الفرنسية عن المدية ومعها الباي العميل، في عهد بيرتزين. وهكذا بقيت المدية في حالة فوضى من حيث الولاء (للأتراك ، للحـاج أحمد ، للفـرنسيين ، لسلطان المغـرب ، للشيـخ محيي الـدين . . .) ومن حيث التمـوين والصحـة والتجارة . وعلى كل حال فإن قوات المقاومة الشعبية كانت تسيطر على الناحية ، وكان يظهر على رأسها أحياناً أحمد بومزراق ابن الباي السابق مصطفى بومزراق.

وأمام هذا العجز الفاضح وأمام الخلافات الجادة التي نشبت في إدارة روفيقو (عسكرياً ومدنياً ، كما عرفنا) ، وأمام المرض الذي أصبح يعاني منه روفيقو ، عزلته حكومته واستبدلته بالجنرال فوارول . ويقال إن روفيقو كان يعاني من سرطان اللسان ،

فلم يزد عن شهرين بعد رجوعه حتى مات (جوان 1833) . ويقال أيضاً إنه كان يعاني من مرض عصبي ونفسي أصابه نتيجة اقدامه على مذبحة العوفية حتى أنه أصبح يتخيل أرواح الأبرياء أشباحاً تطارده كلما حل الظلام[59].

* * *

ورغم أن فوارول لم يكن في منصبه سوى قائد بالنيابة لجيش الاحتلال فإنه ظل أطول مدة (سبعة عشر شهراً) بقيها قائد فرنسي في الجزائر حتى الآن . وقد عرفنا أن التسمية التي كانت تطلق على قوة الغزو الفرنسي للجزائر هي « جيش احتلال افريقيا » وكان فوارول (Voirol) غير مستقل في تصرفاته خلافاً لزميليه كلوزيل وروفيقو . فهو لا يتحرك الا بتعليمة من وزير الحربية . وكان قواد ناحيتي وهران (ديميشال) وعنابة (دوزير) مستقلين عنه ويتراسلان مباشرة مع الوزارة دون المرور به ، بل إن قائد بجاية (دوفيفيه) كان يتجاوز فوارول رغم أنه ما يزال برتبة عقيد . وقد بقي فوارول محدود النشاط العسكري محصوراً في العاصمة وضواحيها ولم يقم بغزوات أو حملات ذات بال مكتفياً بغارات خداعية ضد الثوار في حجوط والخشنة وغيرهما من أوطان سهل متيجة . وكان الفرنسيون الذين جاؤوا إلى الجزائر حالمين بالسمن والعسل لا يستطيعون مغادرة أسوار العاصمة ، فاذا غامر أحدهم فإنه لا يتحرك الا مرفوقاً بأدلاء مسلحين.

وحتى في النواحي البعيدة عن العاصمة لم يجرؤ جيش الاحتلال على خوض أية معركة ضد المقاومة سواء في نواحي وهران أو عنابة أو بجاية . ففي وهران كان ديميشال يناوش الأمير في مستغانم وأرزيو ، وكان يطمح إلى عقد معاهدة معه تحقق له (أي لديميشال) مجداً شخصياً ، وهي المعاهدة التي وقعت في 26 فبراير 1834 والتي اعتبرت انتصاراً دبلوماسياً كبيراً للأمير[60] ، ولذلك عجل الوزير الفرنسي

---

(59) غادر روفيقو الجزائر يوم 6 مارس ، وتوفي في باريس أواخر شهر جوان 1833 ، كما عرفنا . أنظر رينو ، 291/1 .

(60) تذهب المصادر الفرنسية إلى أن الوسيط في المفاوضات بين الأمير وديميشال كانا يهوديين من وهران، ويقولون إن الأمير قد زاد لهما في حصة مبيعات الحبوب ولذلك عملا لصالحه . ذلك أن (معاهدة ديميشال) قد حصرت الفرنسيين في وهران ومستغانم وأرزيو وجعلت الأمير هو صاحب السيادة على بقية الإقليم الغربي (اقليم وهران) . وقد كان فوارول غائباً عن مفاوضات المعاهدة وانما فوجيء بها .

بتبديل جنراله (ديميشال) حتى لا يظهر بمظهر ضعف آخر أمام المقاومة الوطنية . وكان (دوزير) محاصراً في عنابة من قبل قوات ابن عيسى قائد جيش قسنطينة فاستنجد أولاً بقائده فوارول ثم استغاث مباشرة بوزارة الحربية فلم يحصل على طائل . وساءت أموره هناك حتى لم يجد بدأ من الرجوع إلى فرنسا خائباً مدحوراً . وكانت الأحوال في بجاية على أسوأ ما تكون بالنسبة لجنود (دوفيفييه) . فقد أرسل هذا يستنجد أيضاً ضد هجومات المقاومين ، وزاد الطين بلة وقوع حادثة لباخرة بريطانية هناك فسره المتوجسون من الفرنسيين على أنه محاولة تدخل انكليزي ، ولذلك أسرع فوارول بارسال ضابطين من ضباطه المختارين ، هما لا مورسيير وتريزيل ، لعلّهما ينقذان الموقف ، ولكن سكان بجاية أخلوا مدينتهم وتفرقوا في الجبال المجاورة ، ولم يبق مع الفرنسيين الا رجل اسمه بوسته ، وبعض العجزة واليهود . أما قيادة جيش الاحتلال فقد وقع بينها خلاف أدى إلى كتابة تقارير يتهم فيها كل واحد زميله .

ولكن عهد فوارول لم يشهد فقط معاهدة ديميشال والتطورات المذكورة في عنابة وبجاية ، وإنما شهد أيضاً مجيء (اللجنة الأفريقية) التي حققت في الصراع بين المقاومة والاحتلال منذ 1830 . وهي اللجنة التي تكونت سنة 1833 وظلت تعمل في فرنسا وفي الجزائر وتقوم باتصالات وقراءات ومشاورات مع مختلف الأطراف لتقرر ما اذا كان من صالح فرنسا المحافظة على الجزائر مهما كان الثمن أو الجلاء عنها . وقد تجول أعضاؤها الذين تقاسموا العمل فيما بينهم ، حسب الاختصاصات، في مختلف النقاط التي كان الفرنسيون قد تمركزوا فيها وهي العاصمة ووهران وأرزيو وعنابة وبجاية . أما مستغانم فلم يستطيعوا دخولها لعدم سيطرة جيش الاحتلال فيها على الوضع . وفي الثاني من يوليو 1834 صدر مرسوم المحافظة على الجزائر بناء على توصية اللجنة الأفريقية[61] . ومما شمله المرسوم تعيين « حاكم عام » على الجزائر مسؤولاً عن شؤونها العسكرية والمدنية . وهي الصيغة التي بقي

---

(61) درسنا تكوين وأعمال وتوصيات اللجنة الافريقية في كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال) ، ط. 3 ، الفصل السادس والسابع . وكان الفضل في تكوين اللجنة المذكورة يعود للنشاط السياسي والاعلامي الذي قام به المقاومون الجزائريون ضد الاحتلال ، وعلى رأسهم حمدان خوجة . أنظر كتابه (المرآة) .

عليهـا الحكم الفـرنسي في الجـزائـر إلى سنـة 1870 (بـاستثنـاء سنتي 1858 ـ 1860) . وكان أول حاكم عام هو الجنرال الكونت ديرلون D'Erlon .

أثناء قيام اللجنة الافريقية بنشاطها ظهر تياران قويان : تيار يطالب بالجلاء وتيار يطالب بالبقـاء في الجزائـر . كان التيـار الأول يقوده حمـدان خوجـة في الجزائـر وباريس . فهو الذي أكثر من الكتابة الاعلامية عندئذ مستنداً على ثقة الشعب سيما أهل الحضر والكراغلة ، ومدعوما من الـدولة العثمـانية ومن الانكليـز والمعارضـة الفرنسية . وقد أعانه صديقه حسونة دغيز الطرابلسي علىٰ ترجمة كتابه (المرآة) إلى الفرنسية ، وهو الكتاب الذي طبع ونشر سنة 1833 ، كما ضاعف حمدان خوجـة نشاطه بكتابة العرائض والرسائل إلى مختلف الجهات الفرنسية المعنية وعلى رأسها الملك لويس فيليب. وقد عبر خوجة عن آرائه أيضاً أمام اللجنة الافريقية التي طلبت رأيه. أما الشخصية الفرنسية التي كانت متحمسة للجلاء عن الجزائر والتي كانت عضوة في اللجنة المذكورة فهو ايكسافيه دي صاد (de Sade) نائب (عين Aisne) . فقد تصدى دي صـاد لاظهار سلبيـات البقاء في الجـزائر من نـاحية الاقتصـاد والاسـتـراتيجيـة والأخلاق . وكان على فرنسا أن تكتفي ، اذا كان لا بد من البقاء في الجزائر ، بإقامة حامية فقط في مدينة الجزائر تشبه الحامية العسكرية التي أقامها الاسبان .

وأما التيار المطالب بالمحافظة على الجزائر فقد تزعمـه كلوزيل قـائد جيش الاحتلال السابق والذي كان عندئذ نائباً في البرلمان ، ولم يكن عضـوا في اللجنة الافريقية . فقد كان مقتنعاً بأن الجزائر تتوفر على جميع عناصر النجاح للاستعمار وإقامة المستوطنات وخصوبة الأرض ، مدعياً أمام زملائـه البرلمـانيين بأن الجـزائر « تملك كل عناصر الازدهار » . ولم يرد كلوزيل فقط على زميله دي صاد ولكنه كتب مقالة مطولة في الرد على حمدان خوجة أيضاً في أفكاره الواردة في كتابه (المرآة) والتي تعرض فيها إلى سيئات عهد كلوزيل في الجزائر ونفى فيها صلاحية الجزائر للاستعمار[62] .

---

(62) أنظر ترجمة (المرآة) التي قام بها محمد العربي الزبيري ، طبعت عدة مرات ، الأولى 1975 . وأيضاً ترجمة محمد بن عبد الكريم لها ، و (حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته) لمحمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1972 ، ورد كلوزيل على خوجة ، باريس 1834 ، ورد خوجة على كلوزيل ، باريس 1834 . أنظر أيضاً عبد الجليل التميمي (بحوث ووثائق مغربية) ، تونس 1972 .

كان الحاكم العام الجديد ، ديرلون ، قد بلغ من الكبر عتيا ، اذ كان في السنة السبعين من عمره عندما أصدر وزير الحربية تعيينه على الجزائر في نهاية يوليو 1834 . ولم يكن ديرلون نفسه يتوقع هذا المنصب ، خصوصاً وان ماضيه في معركة واترلو لم يكن مجيدا . فهو اذن من ضباط نابليون المهزومين . وكان من العجز بحيث لا يستطيع ارتداء ثيابه بنفسه أو حتى شد أزراره . ورجل من هذا الطراز لا يمكن أن تكون له مبادرات شخصية فكان ديرلون ينتظر التعليمات من وزيره . ومن سوء حظه أن منصب وزير الحربية قد تغير في فرنسا على عهده القصير (سنة واحدة) ست مرات . وعندما وصل ديرلون الى الجزائر كان الجيش الفرنسي ما يزال محاصراً في بعض المدن الساحلية ، خصوصاً وهران وعنابة . وإذا كانت وهران ومراكزها الساحلية (مستغانم وأرزيو) تتحكم فيها معاهدة ديميشال فان عنابة كانت تحت ضغط قوات قسنطينة والمقاومة الشعبية ، كما كانت هذه المقاومة لا تترك الفرصة لجيش العدو بالاستقرار في بجاية . وقد حاول احتلال البليدة ولكنه فشل في محاولته فاكتفى باقامة معسكر في الدويرة وآخر في حوش شاوش قرب بوفاريك ليكونا مركزين امامين لرد هجومات أهل حجوط وقوات الحاج سيدي السعدي ـ ابن زعموم ـ ومقاومي أوطان متيجة على العموم .

ولكن هجومات أهل متيجة والحرائق التي أشعلوها في مزارع الفرنسيين القريبة من العاصمة لم تكن الا فصلاً صغيراً أمام الهزيمة الساحقة التي لحقت بجيش الإحتلال في معركة المقطع في 28 جوان 1835 . ذلك أن الجنرال تريزيل (أو الأعور كما يسميه الجزائريون لأنه كان بعين واحدة) الذي خلف ديميشال في قيادة اقليم وهران ، كان كثير التبجح بنفسه ، وكان يشبه زميله كلوزيل في الدعوى والفشل . فقد فشل في بجاية وها هو يفشل في وهران أمام قوات الأمير عبد القادر التي جاء لضربها ، مدعياً أن معاهدة ديميشال كانت مجحفة في حق فرنسا وأخذ يتحين كل فرصة للإخلال بها ، فجعل من قضية الدواير والزمالة ذريعة للاطاحة بها ، ثم سولت له نفسه الحرب ضد الأمير فاذا تريزيل يقع فريسة ما جنت يداه . ولم تكن المقطع هزيمة له وحده بل كانت هزيمة أشنع للحاكم العام نفسه ، ولذلك أسرعت وزارة الحربية بتعيين حاكم عام جديد خلفاً للعجوز ديرلون ، فاذا هو كلوزيل صاحب السيرة غير الحميدة في المرة السابقة ، والذي كان عهده الثاني ، كعهده الأول ،

سلسلة من الهزائم أيضاً[63] .

***

وقبل أن نفرغ من الحديث عن عهدي فوارول وديرلون نقول كلمة عن نشأة المؤسسة المعروفة بالمكاتب العربية . لقد كانت الإدارة المحلية في العهد العثماني يتولاها موظفون بدرجات متفاوتة مثل الآغا والقائد والشيخ . وكان الواسطة العليا بين الحكومة وأولئك الموظفين هو (آغا العرب) الذي كان في مقام وزير الداخلية والحربية تقريباً . وعند الإحتلال اعتمد الفرنسيون على وساطة اليهود بينهم وبين القادة الجزائريين . وكان في ذلك ما فيه من الاخطاء والمظالم وسوء التفاهم . ثم عينوا شخصية حضرية في وظيفة (آغا العرب) ، وهو حمدان بن عبد الرحمن ، أمين السكة المعروف بحمدان بوركايب الذي كان صديقاً لاحمد بوضربة وهو الذي اقترحه على بورمون . ومن مؤهلات بوركايب عندئذ معرفته لقليل من الفرنسية وزيارته لمرسيليا وايطاليا قبيل الاحتلال وثروة أبيه . أما مؤهلاته الوظيفية والوطنية فقد كان منها صفر اليدين . ذلك انه كان حضرياً لا يعرف طبائع الريف ، ومدنياً لا يقدر على فرض الطاعة ، وكان بالإضافة الى ذلك مُتَهَوِّراً ، رغم ما قيل عنه من انه كان وسيم الطلعة متوسط القامة صحيح البنية مليء الوطاب . وبعد أن تولى كلوزيل في المرة الأولى ، عزله متهماً اياه بأنه لم يقم بمهمته أثناء حملة البليدة . فذهب بوركايب الى فرنسا وتزوج هناك ولم يقم بدور سياسي لصالح بلاده من المنفى مثل زميله حمدان خوجة أو حتى صديقه بوضربة[64] .

---

(63) قبل وصول كلوزيل ثانية إلى الجزائر ، تولى الجنرال دارلانج حكم الجزائر بالنيابة .

(64) وجدنا في أوراقنا معلومات عن حمدان بوركايب دون أن نسجل المرجع الذي أخذناها منه . وهذا ملخصها : هو حمدان بن عبد الرحمن ، أمين السكة ، من أقدم العائلات بالجزائر ، إذ تعود عائلته إلى القرن السادس عشر ، جاء جده الحاج سعيد من بغداد . وكان والد حمدان من أكبر الصناع في الجزائر بحيث كان يملك عدة مصانع في باب الواد . وكان فارساً ماهراً يكثر من الركوب على الركائب فسمي بذلك (بوركايب) ، وكانت له دار في شارع القصبة رقم 5 تسمى (دار الركايب) . وكان ابنه حمدان يتمتع بالصفات التي ذكرناها سابقاً ، وكان كثير الاطلاع على أحوال أوروبا بعد زياراته المتكررة لها . وقد اشتهر حمدان بالفروسية منذ صغره وبالجسارة حتى أنه أنقذ وهو في الثانية عشرة من عمره شخصاً كانت رأسه في حبل المشنقة غير مبال بالخطر الذي يتهدده . وأثناء إحدى زياراته لمرسيليا قبل الاحتلال شاهد استعراضاً للجيش الفرنسي فأثر عليه وأدهشه . بعد تطور الأحداث بين الجزائر وفرنسا ، خصوصاً بعد 1829 أي بعد ضرب سفينة (لا بروتينير) طلب =

وخلال فبراير 1831 عين كلوزيل الضابط (مانديري في وظيفة آغا العرب ليكون الواسطة بين ادارته والجزائريين . ولكن مانـديري لم ينجـح أيضاً ، لأن المقـاومة الشعبية في متيجة لم تترك أية فرصة للعقيد مانديري بالخروج من اسوار المدينة . فلما جاء بيرتزين مال الى اسناد المنصب (24 يوليو 1831) الى شخصية عربيـة فأشير عليه برجل دين ذائع الصيت وهـو الحاج محيي الـدين بن مبارك القليعي . فأصبح هذا هو (آغا العرب) . وجعل اتفاقاً بينه وبين بيرتزين بحيث يكون الشيخ محيي الدين هو « حاكم » متيجة ولا يخرج الفرنسيون من المدينة ولا يتدخلون في شؤون الأوطان المجاورة . ولكن تصـرفات روفيقـو البوليسيـة جعلت الحاج محيي

= حمدان بـوركايب من صديقه حمدان خوجة وبـوضربة ، طلب منهما الذهاب إلى حسين باشا لإقناعه بإعطاء فرنسا تنازلات ، ولكن حسين أصر على أن لديه قوة ضخمة لمواجهة فرنسا وأن الجزائر أعظم من مرسيليا ، وأن بـوركايب مخدوع . وتفادياً للتصادم مع الانكشارية قرر الثلاثة إتخاذ الحيطة حفظاً لحيـاتهم لأن الإنكشاريـة أصبحت غاضبـة عليهم وعازمـة على التخلص منهم : فاستقـر حمدان بـوركايب في دار يحيّ زقارة الواقع بأعالي ناحية بولوغين (سانت أوجين سابقاً) ، واستقر أحمد بـوضربة في الخروبة قرب الحراش ، بينما استقر حمدان خوجة في الدار الزرقاء (بداية الحامة قرب قاعة حرشة اليوم) . ولا يخرج الثلاثة إلا عند الضرورة ولا يلتقون إلا في نقطة يعينونها ، ولكنهم كانوا يغيرونها من وقت لآخر . وعندما وقعت هزيمـة سطاويلي ودعـا حسين باشـا أعيان المـدينة للإجتماع كان من بينهم الثلاثة المذكورون . والمعروف أن الأعيان فوضوا الداي بفعل ما يراه على أساس أنهم رعاياه . ولم يجرؤوا على قول الحقيقة أمامه . ويفهم من هذا أن الثلاثة المذكورين كانوا من بين « المنافقين » الذين لم يقولوا الحقيقة للداي خوفاً على حياتهم . ولكن حزب الاستسلام قرر الاجتماع في باب البحر وإرسال وفد إلى كل من الداي والقائد الفرنسي داعياً للتفاوض وفي ذلك الوفد كان الثلاثة بـوركايب وخوجـة وبـوضربة . وهكذا كان حمدان بـوركايب من المهيئين لإتفاق الجزائر الشهير ، أو من المخدوعين بالمظهر الحضاري لفرنسا وكلماتها المعسولة المعلنة للحرية والتحرير . ويؤسفنا أننا لا نذكر من المرجع الذي أخذنا منه هذه المعلومات سوى رقم الصفحات وهو من 315 ـ 318 . ويبدو أن الكاتب قد استقى معلوماته من وثائق خاصة بعائلة بوركايب ، وفيها كما لاحظنا تبريرات التقرب من الفرنسيين ، ولعل بوركايب لو عاش بيننا اليوم لنفى عن نفسه كل تلك المبررات ، كما يفعل الذين تعاونوا مثله مع العدو بالأمس القريب . أما دي رينو فقد اتهم بوركايب بعد القيام بما كلف به ، وشكك في سلوكه وشجاعته ، وقال ان كلوزيل أجبره سنة 1831 على التخلي عن مهمته ونفاه إلى فرنسا فأعطي هناك وسام الشرف وأصبح موضع اهتمـام الصحافـة والنساء . وقد تزوج بوركايب من امرأة غسالة . وعاد إلى الجزائر في عهد بيرتزين ، ولكن روفيقو نفاه من جديد إلى فرنسا حيث توفي سنة 1834 في سن مبكرة . أنظر دي رينو (حوليات الجزائر) 100/1 وهنا وهناك ، كذلك جورج ايفير (مذكرات خوجة) في (م . ا .) ، 1913 ، ص 96 هامش 116 .

الدين يستقيل ، خصوصاً وقد أصبح مهدداً في حياته ، وانضم الى مقاومة الأمير عبد القادر الذي عينه خليفة على مليانة . وخلال 1833 انشىء (مكتب الشؤون العربية) في عهد أفيزار Avizard ، وكانت مهمة هذا المكتب هي المراسلات والعلاقات مع العرب خارج المدن ، عن طريق ترجمة الوثائق المتعلقة بهم أو الواردة منهم . وقد قام بهذا الدور أول مرة الضابط لامورسيير الذي كان ما يزال في العقد الثالث من عمره والذي كان يحسن العربية . وقد أصبح المكتب العربي عبارة عن إدارة للإعلام والدعاية . ولم تطل مدة لامورسيير فيه اذ تولاه سنة 1834 ضابط آخر خبير بلغة وعادات الجزائريين ، هو بيليسيه دي رينو مؤلف كتاب (حوليات الجزائر). وكان ذلك لفترة قصيرة لأن الحاكم العام ديرلون حاول ، كما ذكرنا ، اجراء تنظيمات بلدية ، ومنها اعادة العمل بوظيفة (آغا العرب) . وقد أسند هذه الوظيفة الى (ماري مونج) في نفس السنة المذكورة، وكان مونج قائداً سابقاً لفرقة (الفرسان الصبائحية). وعندما تولى الحاكم العام دامريمون (فبراير 1837) أنشأ ادارة مركزية للشؤون العربية وعين على رأسها الضابط دي رينو السابق ، وقد استمر في هذه المهمة حوالي سنتين ، ثم استقال منها سنة 1839 بعد خلاف مع الحاكم العام فاليه ، الذي سنعود الى الحديث عنه . وفاليه هذا هو الذي ربط الشؤون العربية بقيادة الاركان العامة للجيش ، واعطى الاولوية للغزو العسكري على إدارة الجزائريين . غير ان بوجو سيعود سنة 1841 الى الإهتمام بإدارة الشؤون العربية وسيعطي قيادتها ليوجين دوماس E. DUMAS وسيجعل منها إدارة لقهر الجزائريين وتوجيه قياداتهم ، بواسطة « المكاتب العربية » التي زرعت في كل مكان ، والتي كان على رأس كل منها ضابط برتبة عقيد ومعه خلية من الأعوان والمترجمين والجواسيس والجنود .

***

عاد كلوزيل اذن الى الجزائر سنة 1835 خلفا لديرلون ، وأصدر بياناً مزجه بالوعد والوعيد كعادته . ففي 19 اغسطس خاطب الجزائريين فيه بما يلي : انه سيحقق الوعود التي وعد بها سنة 1830 لمالكي الدور التي هدمت للصالح العام ، وانه سيرفع الحجز قريباً عن الممتلكات المصّادرة ، وانه خلال سنة واحدة سيحرر المالكين ، من السكان العسكريين (الذين كانوا الى ذلك الحين عبئاً عليهم) ووعد بتعويض المالكين عن ذلك حين تسمح الوسائل المالية (؟) . كما خاطبهم مهدداً ناصحاً قائلاً انهم لم يقدروا كرم الفرنسيين الذين رفعوهم الى مستواهم (؟) وانهم ما

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

يزالون يحنّون الى العهود السابقة رغم وضعهم المتواضع خلالها ، وقـال انه على اطلاع كامل عما يحيكونه من مؤامرات وما يتراسلون به من مراسلات يظنون انهـا سرية ، وما هي بالسرية عليه[65] ! ومن أبرز ما قال في افتتـاح عهده الجـديد في الجزائر وهو يخاطب الجزائريين : ان دينكم هو الذي ينص على وجوب الطاعة عند الضرورة ، وان القادر على الحماية قادر أيضاً على العقاب . وهكذا تحول كلوزيل الى مفتي إسلام .

أما الجانب الاوروبي في الجزائر فقد وعده كلوزيل بفتح أبواب الاستعمار ، وذلك بتشجيع الهجرة الاوروبية الى الجزائر ليجعل منها أرضاً تضاهي أمريكا (التي فر اليها من حكم الإعدام الذي صدر ضده ، كما عرفنا) . وقال انه جاء لفتح أبواب التجارة والأعمال الإستعمارية واستغلال الأرض[66] . وقد فعـل كلوزيل كلمـا في وسعه ليجعل الجزائر مستعمرة تعج بروؤس الأموال الأوروبية وتوزع فيها الأراضي على كل قادم من اوروبا وتوفر أيضاً مختلف المغريات للإقامة والاستيطان .

وقد تميز عهد كلوزيل الثاني بالصراع مع قوات المعارضة السياسية في المدن الجزائرية ـ سيما مدينة الجزائر ، وبالمغامرات العسكرية التي انتهت جميعها تقريباً بالفشل . أما الجانب المدني فسنعرض اليه عند حديثنا عن التيارات السياسية خلال العهد المدروس . وأما الحملات العسكرية فنذكر منها حملته على معسكر (عاصمة الأمير) التي انتهت بالفشل ، اذ دخلها جيش كلوزيل فوجدها خاوية على عروشها ، فادعى أنها غير ذات أهمية وخرج منها مذموماً مدحوراً . وكان ذلك خلال شهر نوفمبر 1835 . وأما حملة تلمسان (يناير ـ فبراير 1836) فقد كانت أنجح من سابقتهـا وذلك لتعاون الفريق الذي اسميناه الحزب التركي بزعامة مصطفى بن اسماعيل مع العدو . والغريب في الأمر ان الفرنسيين الذين كانوا قد رفعـوا شعار القضـاء على الأتراك وحزبهم في الجزائر ، أصبحوا يبحثون بالمجهر لعلهم يجدون تركيا أو متتركا ليقدموا اليه يد المساعدة ضد العرب الذين ادعى الفرنسيون أنهم جاؤوا لتحريرهم ! وقد زها كلوزيل بنفسه عندئذ فأعلن أن نفوذ الأمير قد انتهى في تلمسان وغيرها ، وأن الحرب نفسها قد انتهت . ثم فرض على أهل تلمسان عقوبة صـارمة بـأن جعلهم

(65) سنعرف كيف كان كلوزيل يطلع على مراسلات الشيفرة التي كان يستعملها قادة المقاومة .
(66) أنظر (مراسلات كلوزيل) 1 / 28 ـ 30 .

يدفعون ضريبة حرب وغرامات أخرى قاسية ، مما جعل السكان يزدادون نفوراً وابتعاداً عن كل ما هو فرنسي. وبعد أن عين كلوزيل ابراهيم بوشناق بايا على تلمسان، (وهو غير الباي إبراهيم الكريتلي الذي ظهر في عنابة...) وترك معه حامية فرنسية تدعمها قوات مصطفى بن اسماعيل، غادر تلمسان متبجحاً بانتصاره الصوري.

وقد شجعه ذلك على تنفيذ طموحه في احتلال قسنطينة أيضاً وافتكاكها من يد الحاج احمد ، كما افتك تلمسان من يد الأمير عبد القادر . وكانت حملة قسنطينة تحتاج الى دعم خارجي (تأييد الحكومة الفرنسية) . أما الدعم الداخلي فقد شرع فيه بتسمية اللقيط يوسف بايا على اقليم قسنطينة ، وعزل (كذا) الحاج احمد من وظيفته (وليست هذه هي أول مرة يتصرف كلوزيل فيما لا يملك ، ومنها بيع الاقليم سابقاً الى باي تونس) . وجعل مقر (الباي) يوسف هو عنابة في انتظار احتلال قسنطينة[67] . وعندما تغيرت الحكومة الفرنسية التي كانت تشك في قدرة كلوزيل على انجاح الحملة ، كان من حسن حظه أو سوء طالعه (لأن الحملة انتهت بالفشل كما نعرف) ان الذي تولى رئاسة الوزارة هو (تيير) البرجوازي الصغير الذي كان ، مثل كلوزيل ، مفعماً بروح العظمة الفارغة التي قرأ عنها في كتب التاريخ (وكان تيير بالمناسبة من أبرز المؤرخين الفرنسيين) ! ولكنه لم يستطع تحقيقها في الميدان . ومهما كان الأمر فقد أيد تيير مشروع كلوزيل في غزو قسنطينة ووقف ضد الإحتلال المحدود للجزائر ، وأظهر بعض المبادىء الدبلوماسية المحفوظة ليقنع زملاءه المترددين في البرلمان قائلاً لهم : ان السلام لا يتحقق الاّ بعد الحرب ، وأن المفاوضات لا تكون الاّ اذا توفرت القوة ! (وكذا تقول دوائر الحرب والسلم اليوم ، ولكن قومنا لا يعتبرون) ! وأخيراً جاء تأييد الملك لويس فيليب نفسه ، لحملة قسنطينة ، وكبرهان على مباركته أرسل الملك ابنه ، الدوق دونمور ، الى عنابة للمشاركة في الحملة وليرفع الروح المعنوية عند كلوزيل وجيشه الخائف .

وكانت نتيجة حملة قسنطينة سنة 1836 معروفة . فقد ارتعدت فرائس هذا الجيش أمام حصون عاصمة الشرق الجزائري . وأبدى المدافعون عنها شجاعة فائقة وصمودا مثالياً ، في وجه جيش جرار وصل ثلاثين ألفا ، تحميه أسلحة متطورة

---

(67) عن الفظائع التي ارتكبها اللقيط يوسف ضد الجزائريين قبل حملة قسنطينة الأولى ، أنظر آزان (الاحتلال . . .) ، ص 165 ـ 175 .

ومدفعية فتاكة . ولم يصل هذا الجيش إلى ضواحي المدينة الا بصعوبة كبيرة اذ اعترضت طريقه مقاومة أهل الريف بين عنابة وقسنطينة ولقنته درساً قاسياً . وكذلك الحال عند تقهقره . وعاد كلوزيل إلى الجزائر يجر أذيال الخيبة والعار بعد أن خسر ماء وجهه وخسر معه العديد من جنوده قتلى (11 ضابطاً قتلوا) وجرحى . ولم يسع حكومة (تيير) التي كانت تنتظر النتائج الايجابية لتفاوض من مركز القوة وتفرض السلام عن طريق الحرب ، الا أن تضع حداً نهائياً لمغامرات كلوزيل في الجزائر بعد أن افتضحت كل أوراقه في المرتين . وقد عينت الجنرال دامريمون خلفاً له ، وسيحاول هذا الجنرال بدوره غزو قسنطينة مرة أخرى فإذا به يلقى حتفه عند أسوارها قبل أن يذوق حلاوة ما دبرت يداه . ولم يكن هذا العار مقصورا على كلوزيل وجيشه بل تعداه إلى الحكومة التي دبرت معه ذلك الغزو ، فأخذت تعد العدة للقيام بغزو جديد يمسح العار ، ويرد الاعتبار ، وتبذل المال والدبلوماسية والجنود والسلاح لإنجاح الحملة الجديدة على قسنطينة .

وقد كان شارل دينيس دامريمون من وائل ضباط الاحتلال الذين حاولوا احتلال عنابة في عهد بورمون (1830) فلم يفلح . ولم يكن تعيينه خلفا لكلوزيل عن جدارة وانما يرجع إلى تدخلات زوجته ، ذلك أن مؤرخي الفرنسيين يقولون عنه بأنه كان متعباً قبل الأوان وأنه كان شخصية بدون محتوى . ولعل أخطاء سلفه واستعداده لتلقي التعليمات ممن هو أعلى منه هو الذي رشحه أيضاً في فيفري 1837 لكي يكون ممثلاً للسيادة الفرنسية في الجزائر . فقد كلفته الحكومة ومجلس النواب أن يعمل على أن يكون الاحتلال محدوداً ومتدرجاً وسلمياً ، وهو تكليف في الحقيقة فوق طاقة دامريمون وضباطه المتعطشين للغزو والتسلط أمثال بوجو وفاليه وبريقو . وكان هذا الثالوث هو العنصر الفعال في جيش دامريمون . فقد تعين بوجو على اقليم وهران خلفا لبروسار في نفس الوقت الذي تم فيه تعيين دامريمون حاكماً عاماً. وكان فاليه معتبراً في ذلك الحين عبقرية جيش الاحتلال في المدفعية . أما بريقو فقد كان متولياً قيادة الأركان ومحل ثقة الحاكم العام الجديد .

وأثناء مناقشة الحكومة لميزانية الجزائر . وخصوصاً ميزانية حملة جديدة ضد قسنطينة ، انطلقت المفاوضات في كل اتجاه . مفاوضات بين الأمير وبوجو التي انتهت بمعاهدة التافنة ، وهي المعاهدة التي قام فيها اليهودي ابن دوران بدور

الوسيط ، وكان يكذب على الطرفين وينال من كل طرف امتيازات له ولقومه . وهي أيضاً المعاهدة التي اتهم فيها بوجو باستلام أموال قبل توقيعها واخفاء بنود خاصة فيها على حكومته ؛ ومفاوضات أخرى بين الحاج أحمد ومبعوثي دامريمون بواسطة اليهودي موسى بوشناق المتهم أيضاً بأنه كان يأخذ من الطرفين وأنه كان في الواقع عميلاً لدامريمون . كما أن السلطات البحرية الفرنسية منعت قطعة بحرية عثمانية من افراغ معونة عسكرية للحاج أحمد ، وفاوضت تونس على الحياد بل وهددتها . وكان هدف المفاوضين الفرنسيين مع الجزائريين الحصول على الاعتراف بالسيادة الفرنسية بدفع اتاوة سنوية لفرنسا. ولكن ذلك قد رفضه الطرف الجزائري سواء الأمير عبد القادر أو الحاج أحمد.

كانت قوات الحملة هذه المرة تبلغ 400 . 20 جندي ، ومعززة بمدفعية كافية، ومؤونة احتياطية معتبرة . وقد توزعت المهام على النحو التالي : تولى الحاكم العام دامريمون قيادة الحملة بنفسه أمام رفض بوجو خوفاً من العواقب ، وكذلك أمام خوف الملك الفرنسي على حياة ابنه وولي العهد الدوق دورليان الذي فضل أن يشارك في الحملة كضابط لا كقائد لها ، ليكون فقط رمزاً على تأييد العائلة المالكة للاحتلال وتنفيذ الحملة على قسنطينة . ولم يكتف الملك بذلك بل انه أرسل ابنه الآخر الدوق دي نمور ليقود فرقة في جيش الحملة ، تشجيعاً للجنود ورمزاً للمباركة كما ذكرنا . أما مهمة قيادة الأركان فقد تولاها ، كما أوضحنا ، الجنرال بريقو ، وأما قيادة المدفعية فقد تولاها الجنرال فاليه . وقد تجمع جيش العدو في مجاز عمار قرب قالمة[68] ، ثم تقدم نحو قسنطينة التي وصلها خلال خمسة أيام ونصب مدافعه حولها .

كان دفاع المدينة مسنوداً إلى القائد ابن عيسى الذي طالما حارب الفرنسيين في عنابة والذي أظهر حنكة ومقدرة فائقة أثناء الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة ، أما الحاج أحمد فقد كان يراقب سير المعركة من على ربوة خارج المدينة . ويقال أنه كان متهيئاً للهروب اذا نجحت الحملة ، وأنه لم يقم بأي دور في الدفاع عن المدينة ، معنوياً كان أو عسكرياً ، كما يقال أنه اصطحب معه عائلته وما هو عزيز عليه من مال ومتاع قبل بدء القتال . وقد صمدت المدينة من جديد رغم تقدم العدو إلى كدية

---

(68) حوالي 13 كم جنوب ـ غرب قالمة .

عاتي وشدة قصف المدفعية التي كانت تحاول التأثير على المعنويات وايجاد ثغرة في سور المدينة . وقبل أن تفتح هذه الثغرة ضربت المدافع الجزائرية بكورها قائد الحملة دامريمون وقائد أركانه بريقو فأردتهما قتيلين في الحين . ولكن فاليه تولى القيادة وواصل ضرب المدينة إلى أن فتح ثغرة في السور، ومنها تسرب الجنود الذين وجدوا أمَامَهم مقاومة عنيدة. وقد سقطت منازل كثيرة نتيجة قصف المدفعية . ووقع الهلع بين السكان بعد أن اختفت قيادتهم . وأباح فاليه المدينة للجنود فنهبوا وحطموا وأقاموا سوقاً للمبادلات في الأشياء المسروقة والمنهوبة[69] . واذا كان دامريمون لم يجد من يقيم له تمثال مجد لشجاعته فانه على الأقل قد وجد في الموسيقار (برليوز) فناناً يذرف عليه الدموع في اللحن الذي سماه (قداس الأموات) على أعتاب كنيسة الانفليد !

9. طمس معالم المدن والتدخل في القيم الوطنية :

منذ غزا الفرنسيون الجزائر أخذوا يطمسون معالمها العربية الاسلامية الشرقية ويُحلّونَ المعالم الفرنسية بدلها . وقد شمل ذلك كل المدن بدون استثناء ولكن بدرجات متفاوتة . وقد شرعوا في ذلك منذ الوهلة الأولى مما يدل على عزمهم على البقاء والاحتلال الدائم خلافاً لمن يزعم أنهم كانوا مترددين في البقاء وعدمه . وشمل الطمس تغيير الشوارع وأسمائها ، وتهديم المنازل والأسواق القديمة وإحداث الساحات مكانها ، وتحويل الدور والفيلات والقصور إلى مؤسسات عمومية للجيش والمستشفيات ونحو ذلك ، وقد بيعت دكاكين وأضرحة وغيرها إلى الأوروبيين ليتاجروا فيها ، كما جرى تحويل المساجد إلى كنائس ومخازن ومستشفيات ، وتهديم بعضها نهائياً دون استبدالها بأخرى . ونفس الموقف كان مع المدارس والكتاتيب والزوايا . وقد ساعد نفي المواطنين وهجرتهم على ذلك . حدث ذلك للأحياء العربية قبل انشاء الأحياء الأوروبية في المدن الجزائرية .

ومن أبرز المدن التي تأثرت بذلك منذ الوهلة الأولى هي العاصمة طبعاً . وقد امتاز الطمس الذي عرفته بالعنف والعنجهية والتعصب لأنها كانت ، في نظر

---

(69) جوليان (تاريخ . . .) ، ص 142 .

الفرنسيين ، رمزاً للقرصنة والقـوة والدين الإسـلامي والجهاد ، ولأنهـا كانت مقـراً للسلطة التي طالما دوخت الأساطيل الأوروبيـة وأرعبت تجارهـا وقناصلهـا . فكان الانتقام من معالم الجـزائر العـربية الاسـلامية هـو انتقام الصليب من الهـلال عند البعض ، وانتقام الفقراء من الأغنياء عند البعض ، وانتقام الجبناء من الأقوياء عند البعض ، بل ان المرء يحس ان في حملة الفرنسيين على الجزائر انتقاماً أيضاً من الهزائم الفرنسية (والأوروبية) ضد الاسلام والشرق ، بما فيها الحملة الفرنسية على مصر، والاّ كيف نفسر ذلك الاستهتار الذي أبداه قادة الحملة وجنودها بالقيم الإسلامية والمؤسسات الدينية والأخلاق العامة والآثار التاريخية وأملاك الناس ؟

من أوائل ما اتخذه الفرنسيون من اجراءات هو نقل المدفع (بابا مرزوق) من الجزائر إلى فرنسا . وقد يظهر لك هذا أمراً بسيطاً ، ولكننا نعتقد أن المدفع كان يرمز إلى أشياء كثيرة . أنه قبل كل شيء رمز الذكورة والقوة . ونقله ، بالاضافة إلى أنه لصوصية عسكرية وثقافية ، كان يعني خلو الجزائر من رمزها الأقوى والأكثر فحولة . والمدفع بابا مرزوق صنع في القرن السادس عشر (1542) ونصب على المرسي احتفالاً بانتهاء الأشغال فيه ، وكان منتصباً كالنسر الجبار على باب الجهاد ، المطل على البحر . وكان الفرنسيون يسمونه (القنصلير) ويرتعدون منه اذا ذكـر لهم لأن الجزائريين في الماضي كانوا قد وضعوا في فوهته قنصل فـرنسا (لـوفاشي) سنـة 1683 وقصفوه به إلى البحر ثم كرروا ذلك مع خليفـة لوفـاشي ، وهو(بيول) سنة 1688 ، أثناء قصف (دوكيني) قائد أسطول لويس الرابع عشر مدينة الجزائر . هكذا تذهب الروايات الفرنسية . ولذلك سارعوا إلى ازالة (بابا مرزوق) من مكانه وحملوه إلى (بـريست) على المحيط الأطلسي ونصبوه هنـاك في احدى السـاحات (27 يوليو ، 1833) كجزء من غنائم الحملة على الجزائر(70) . وقديماً قام زعيمهم ، نابليون الأول ، بالسطو على مسلات مصر وتحف وآثار غيرها . ولم يكن يدري انه (وكذلك خلفاؤه) كان بذلك يبرهن على ضعف حضارته !

وكان الضباط الفرنسيون قد استولوا أيضاً على قصور الباشوات وفيلات أعيان المدينة وجعلوها مساكن لهم باسم الفتح والغلبة ، رغم أن ما كان يريد أولئك الأعيان

---

(70) أنظر ألبير ديفوكس ، (المجلة الافريقية) ـ 1873 ـ ص 1 ـ 3 .

تفاديه من المواجهة هو ذاك حين ضغطوا على الباشا لقبول الصلح . وقد فعل أولئك الضباط بتلك المنازل ما فعلوا بالمدفع بابا مرزوق ، فسلبوها من تحفها الذهبية والفضية والعاجية ، ومن سيوفها وأسلحتها الأخرى ، وأرسلوا بها إلى بلدياتهم وذويهم عنواناً على المجد والانتصار . وكان من المفهوم أن يستولوا على ثكنات الجيش الانكشاري ما داموا قد تغلبوا عليه وحملوه في السفن إلى أزمير . ولكن استيلاءهم على المساجد وجعلها مستشفيات عسكرية ومخازن للجيش لا يبرره الا الاستهتار بالدين الاسلامي الذي وافقوا على احترامه وحماية أهله ، ولا يقره إلاَّ التعصب الديني الأعمى الذي يهدف إلى جرح المسلمين في مقدساتهم . وستعرف كم هي المساجد التي أصبحت مؤسسات عسكرية سواء في مدينة الجزائر أو في وهران أو عنابة الخ .

وأمام عجز الجنود الفرنسيين عن مواجهة المقاومة وحرارة الشمس « الافريقية » (وقع الغزو في أوج الصيف كما هو معلوم) ، فإن قادة الغزو فكروا في تعويض ذلك الجيش الذي تعاونت على هزيمته حرارة المقاومة وحرارة الشمس . ذلك أن كثيراً من الجنود كانوا يظنون أن الحملة نوع من السياحة على الضفة الأخرى من البحر الأبيض . فإذا بهم يواجهون السيوف في صدورهم والبنادق في ظهورهم ونيران الشمس على رؤوسهم . فسقط البعض منهم مريضاً أو متمارضاً ، وعاد البعض إلى بلادهم باسم الخوف والحنين ونهاية أدوارهم في المسرحية . وهكذا تقلص عدد الجند ابتداء من عهد بورمون . وتقول روايات الفرنسيين أن بورمون هو الذي فكر في انشاء قوة عسكرية محلية ابتداء من نهاية أوت 1830 ، ولكنه ترك تنفيذ الفكرة لخلفه كلوزيل . فقد ادعى بورمون أن التقارير أثبتت له صلاحية سكان الجبال الجزائرية للخدمة العسكرية الجيدة ، وأنه تأكد لديه أن حكام الجزائر وتونس كانوا يؤلفون منهم قوة ناجحة باسم (الزواوة) وهو الاسم الذي أصبح عند الفرنسيين (الزواف) وقد استغرق تأليف هذه الفرقة وفرنستها وقتاً طويلاً اذ كان بعض الشبان يدخلونها ثم يفرون منها ، وكان رؤساؤها طبعاً ضباطاً فرنسيين . وقد جعلوا لهذه الفرقة لباساً متميزاً معظمه في اللون الأحمر باستثناء قوادهم الذين تميزوا بلباس (جاكيته) زرقاء .

ومن أغرب ما أنشأه الفرنسيون فرقة احتياطية تسمى (ليجون دي باري) - فرقة باريس - وكانت تتألف من حثالات الناس الذين لم يجدوا عملاً في باريس . وكان

أعضاؤها عنواناً على الجهل وعدم الانضباط والغطرسة حتى لقد سماهم قومهم في الجيش النظامي : (بَدْوُ باريس) . وكانت هذه الفرقة التي كانت تضم حوالي ألفين ، نكبة ثقيلة على الأخلاق ومثالاً للمعاملات المشينة في الجزائر . وهناك أيضاً فرقة (اللفيف الأجنبي) التي تألفت سنة 1833 ، من نفايات كل الأمم ، وكانت لا تشترك في شيء الا القتل والنهب والاعتداء . والعنوان على شجاعتها هو عدد الرؤوس التي كانت تقطعها والغنائم التي تبتزها . وقد عانى الجزائريون طيلة الوجود الاستعماري من هذه الفرقة المشؤومة . أما النوع الرابع من هؤلاء الجنود فهو الذي أطلقوا عليه اسم (شاسور دافريك) ـ قناصة افريقية ، وهو جيش من الفرسان أنشىء للمطاردة والملاحقة والغارات على الآمنين . وقد سبق لنا القول بأن المستوطنين الجدد قد ألفوا منهم أيضاً حرساً وطنياً اشترك فيه أصحاب الأعمار من 20 إلى 60 سنة ، وفيهم المشاة والفرسان . وكانوا يدافعون بالدرجة الأولى على مغتصباتهم وبالدرجة الثانية على مغتصبات بلادهم في الجزائر ، ضد قوات المقاومة الوطنية . وكان عدد هذا الحرس عند انشائه سنة 1832 ، حوالي 500 من المشاة وحوالي 30 فارساً . أما الجيش النظامي فقد كان لا يقل سنة 1832 عن ثلاثين ألفاً ، نصفه في مدينة الجزائر وحدها[71] . ولكن هذا العدد سيأخذ في التضخم بعد أن دعمت الحكومة الفرنسية قوات بوابيه في وهران وقوات مونك دوزير في عنابة . كما ازداد عدده بصورة أكبر أثناء حملة قسنطينة الثانية ، وهكذا .

ان التأثير على معالم الجزائر قد بدأ عن طريق هذا الجيش المخضرم ، ذلك ان المدنيين الفرنسيين لم يؤثروا في الجزائر الا بعد سنوات رغم أن وجودهم قد أخذ يزداد تدريجياً . ففي سنة 1832 (عهد روفيقو) كان عدد الفرنسيين والأوروبيين المدنيين 4.141 شخصاً . يضاف إلى ذلك حوالي 680 شخصاً من الموظفين المدنيين وزوجات الجنود والسواح ، وكذلك اضافة حوالي 520 شخصاً من الجنود المسرحين . وهكذا يكون عدد المسيحيين في مدينة الجزائر سنة 1832 حوالي 5.341 نسمة . وكان هناك أيضاً 6.500 يهودي ، في حين أن العرب الجزائريين فيها أصبحوا سنة 1832 لا يتجاوزون العشرة آلاف (بعد أن كان عددهم مائة ألف

---

(71) إحصاءات الجيش الفرنسي وأنواعه موجودة في مصادر كثيرة ، منها بول آزان (الاحتلال . . .) أنظر أيضاً تامبل (جولة . . .) ص 24 ـ 38 .

عند البعض وسبعين ألفاً عند آخرين ، وأربعين ألفاً عند فريق آخر[71م] . وهكذا تلاحظ أن مدينة الجزائر كانت ما تزال ، وستبقى مدة ، عبارة عن ثكنة عسكرية تحت رحمة جيش الغزو والاحتلال . وقد كانت مهمة الجيش ليس فقط الدفاع عن المدينة ولكن أيضاً تغيير معالمها والشروع في عمليات الاستعمار حولها (استغلال الأرض وإقامة المستوطنات ، وتربية الماشية الخ .).

خلال وقت قصير هدم الفرنسيون مئات المنازل في الجزائر لإقامة ساحة الحكومة وغيرها . وكانت طريقة البناء تجعل سقوط البعض يؤدي بالضرورة إلى سقوط غيره معه بالتتابع ، لأن البنايات كانت متلاصقة ببعضها والشوارع ضيقة . أما اذا هطلت الأمطار أثناء عملية الهدم فإن ركام البنايات يزداد ضخامة . ومن المشاريع التي لجأ فيها الجيش الفرنسي من أجلها إلى هدم المنازل والمساجد والأضرحة هي ساحة الحكومة ، والمسرح ، والكنيسة والفندق ، الخ . وكان الطريق من البحر إلى المدينة يمر بالجامع الكبير ، فوقع مده بطريقة تصدم مشاعر المسلمين اذ وقعت تعرية الأسس التي كان يقوم عليها والتي زعموا أنها من الآثار الرومانية . فكانوا يعتقدون أن هيكل الجزائر القديمة ، (ايكوسيوم) موجود هناك ، وأن المدينة الجديدة قائمة على تلك الأسس ، وكانوا يريدون أن يظهروا أنه مهما تغيرت العصور فان أوضاعاً مشابهة يمكن أن تنتج دائماً تغييرات متشابهة[72].

ومن آثار التغيير أيضاً تبديل أسماء الشوارع والأبواب والمؤسسات الخ . بإعطائها أسماء رومانية وأوروبية ، ودينية مسيحية وتاريخية . وهذه بعض الأسماء التي أصبحت متداولة خلال سنتي 1832 ـ 1833 : شارع يوبا ، شارع شارل الخامس ، شارع دوكين ، شارع دوريا ، شارع كليبر . . . وكذلك تسمية باب المرسى (باب الجهاد) باسم باب فرنسا ، أو أسماء فرنسية مثل : شارع أورليان ، وترواكولار (الألوان الثلاثة) ، ولا شارت ، الخ . وكذلك أسماء أوروبية مثل سيدني سميث . . .

(71م) تامبل (جولة . . .) ، ص 22 . وكان تامبل قد زار العاصمة في سنة 1832 .

(72) أنظر جوزيف بلاكيسلي (Blakesley) (أربعة شهور في الجزائر) ، ص 14 . أنظر أيضاً د . ج . مونتانيو Montagne (وجه مدينة الجزائر = فيزيولوجية . . . مدينة الجزائر) ، 1833 ، ص 17 ـ 21 .

ويروي شاهد عيان خلال سنتي 1832 ـ 1833 أن وجه مدينة الجزائر قد أخذ يتحول من الطابع الشرقي إلى الطابع الغربي . فقد روى السيد تامبل الذي كان بالجزائر سنة 1832 أن الفرنسيين أقاموا حفلة بمناسبة استرجاع الملكية في بلادهم (المعروفة باسم رستوراسيون Restauration) خلال شهر يوليو . ولاحظ أن بعض الموظفين الجزائريين قد دعوا إليها ، وأن الألبسة المحلية والأوروبية قد امتزجت خلال الحفلة . كما لاحظ أن القبعات كانت تختلط بالعمائم ، وأن (السيقار) قد حل محل الغليون (الشيشة) القديم ، وبدأت البزارات الشرقية تترك مكانها للدكاكين الأوروبية ، والمخازن الفرنسية التجارية . كما أصبحت المدينة على عهده تتوفر على احدى عشرة مقهى بالبيليار ، وأربعة فنادق كبيرة ، وثلاثة مطاعم ، ومكتبتين للمطالعة ، وسيرك ، وكوزموراما ، وكابريولات ، وحافلات صغيرة (أو منيبوس)[73] أما مونتانيو فقد ذكر ، سنة 1833 ، أن الفرنسيين قد أخذوا يدخلون عاداتهم وتقاليدهم إلى الجزائر ، فأصبحت تحتوي على الكاباريهات ، والمقاهي ، وكابينات القراءة ، والأماسي الموسيقية ، ومحافل الماسونية ، كما لاحظ وجود السيدات الجميلات الرشيقات (في نظره طبعاً) ، والمراقص والألعاب والمرطبات ، بالإضافة إلى وجود المنتوجات الغذائية للسهرات والمآدب والكحوليات والمشروبات الخ[74] .

وفي مقابل ذلك أخذ الفرنسيون يقلدون الجزائريين أيضاً . وقد رأينا صوراً لكبار الجيش ، خصوصاً أولئك الذين تولوا مسؤوليات تهم العرب مباشرة مثل آغا العرب ، أو وظائف في المكاتب العربية . . . . مثل فيرج ، وماري ، ويوسف ، الخ . الذين ظهروا في لباسهم العربي الجزائري حتى أنك اذا لم تقرأ أسماءهم لا تعرف هل هي صور لجزائريين أو فرنسيين ، فالعمامة (ومعها أحياناً الخيوط السوداء من الوبر أو الشعر) والبرنس والسيف والسروال ، والجاكيته ، وكلها بالألوان الزاهية والمتميزة ،

---

(73) تامبل ، ص 21 ـ 23 .

(74) مونتانيو ، نقلاً عن (المجلة الإفريقية) ، 1927 ، ص 110 .

يذكر (رينال) أن كلوزيل قد أقام سنة 1830 (أثناء عهده الأول) أول حفلة رقص على الطريقة الأوروبية في الجزائر ، وقد حضرتها نساء إنكليزيات واسبانية وإيطالية وبعض اليهوديات بالإضافة إلى الفرنسيات (ولكن من أي مستوى !) .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

يضاف إلى ذلك اطالة اللحى والشوارب ، وتعاطى الشيشة وحلق شعر الرأس تماما الخ . وقد لاحظ أحدهم سنة 1833 بأن الفرنسيين كانوا كالقردة يقلدون غيرهم تقليداً أعمى ، وأنهم شعروا بحرية مطلقة في الجزائر فلم يراعوا حتى العادات المرعية في بلادهم للاحترام والاعتبار ، فهم يدخنون أمام الملأ ، ويستقبلون الناس وهم مستلقون ، ويمشون في الشوارع والسيقار في أفواههم ، واشتروا غليونات أطول من اللازم حتى أصبحت معرقلة ، ومنهم من أطال لحيته إلى ما لا نهاية حتى تغير شكله تماماً[75]. وكانوا بدون شك يعربدون ويصخبون ويعلمون الجزائريين أن الحرية المطلقة تنتج الفوضى المطلقة.

تلك اذن بعض مظاهر الحضارة التي جاء الفرنسيون ليعلموها الجزائريين في مختلف المدن الجزائرية ، وفي الفرق العسكرية .. وذلك هو أول درس في قاعة التعليم . فنحن ما نزال في فاتح العهد الطويل من هذا التحضر الذي دام أكثر من قرن . أما الجزائريون فكانوا يرون ذلك طمسا لحضارتهم وشخصيتهم ، ومساساً بكرامتهم وشرفهم ، وتنجيساً لمقدساتهم وحرماتهم . ولذلك رفعوا عقيرتهم بالمقاومة والاحتجاج والرفض ، كما سنرى.

10. انتهاك حرمة الأملاك :

كانت مدينة الجزائر تضم ، عند غزو الفرنسيين ، أملاكاً متنوعة وكثيرة ، كان بعضها للدولة ، وبعضها للأوقاف ، وبعضها للأفراد ، الخ . ومنذ الغزو لم ينتظر الفرنسيون نتائج حملتهم لتقرير مصير هذه الأملاك بل أخذوا يتصرفون فيها كما لو كانت ملكاً لهم وطبقاً لقوانينهم . ورغم النص الصريح في اتفاق حسين باشا - بورمون على احترام الأملاك الخاصة ، فإن الفرنسيين قد ضربوا بوعودهم عرض الحائط واستهتروا بالاتفاق حتى أن كلوزيل أجاب حمدان خوجة ، عندما احتج له به ، بأن الاتفاق لم يكن سوى « لعبة حرب ».

وحسب المصادر الفرنسية فإن تلك الأماكن كانت سنة 1830 مصنفة على النحو التالي :

(75) نفس المصدر ، ص 111 .

أ ـ أملاك البايليك (الدولة) وعددها خمسة آلاف ملكية ، قيمتها تقدر بأربعين ألف فرنك عندئذ . وقد تحولت جميعها إلى الدولة الفرنسية باعتبارها هي التي حلت محل الدولة الجزائرية . ويشمل ذلك بدون شك الثكنات العسكرية والمباني الرسمية وقصور الحكام والوزراء وكبار الموظفين ، ونحو ذلك.

2 ـ أملاك بيت المال ، وكانت تشمل ما يؤول إلى بيت المال من الأملاك المحتجزة ومن لا ورثة له ، الخ . ولا نعرف قيمة هذه الأملاك لأن هذه المصادر لم تذكرها.

3 ـ الأملاك الخاصة ، وتشمل العقار وغيره . وهي الأملاك التي يملكها الأفراد سواء كانوا حاضرين أو غائبين ولا نعرف أيضاً قيمتها في احصاء سنة 1830 المشار اليه.

4 ـ أملاك الأوقاف ، وتشمل سبعة أنواع ، وهي أضخم وأخطر الأملاك ! وأنواعها هي :

- أوقاف مكة والمدينة (أكثرها وأغناها).
- أوقاف المساجد (مِن أعظمها وقف الجامع الكبير).
- أوقاف الزوايا والقباب (الأضرحة)
- أوقاف الأندلس .
- أوقاف الأشراف .
- أوقاف الانكشارية.
- أوقاف الطرق العامة.
- أوقاف عيون الماء(76).

ولا نعرف أيضاً قيمة هذه الأوقاف في الإحصاء المذكور ، غير أنهم يذكرون أن لها دخلاً عظيماً.

وبمجرد الاستيلاء على المدينة وإباحتها للجند من قبل بورمون ، كما عرفنا ، لم يتحرج الجيش الغالب من سكنى الثكنات التي سارع الفرنسون بإفراغها وترحيل من فيها إلى آسيا الصغرى بدعوى أنهم من مواليدها (كما لو كان الفرنسيون عندئذ قد

---

(76) حسب إحصاء جرى عام 1833 وجدوا 148 عين ماء ، 120 مسجداً وضريحاً ؛ أنظر ج . موريل Morell ، (الجزائر) ، ص 92 .

ولدوا بالجزائر !) ، كما سكنوا واحتلوا القلاع والأبراج والأبواب الرئيسية للمدينة ، ومن ذلك قلعة باب عزون ، وبرج بوليلة (أو قلعة مولاي حسن ـ الامبراطور) ، وباب الجهاد ، الخ . وسكن الضباط في فيلات « الأتراك » السابقين ، وكذلك أحواش ودور أعيان الجزائريين الذين خرجوا من المدينة مؤقتاً حتى تنجلي الغمة . وفي نفس الوقت ضم الغزاة أملاك بيت المال إلى أملاك دولتهم (الدومين) وأصبحت اللجنة التي أنشأها بورمون باسم اللجنة المالية أو الحكومية هي التي تشرف على ذلك . وصادر الفرنسين أملاك الخواص من الأتراك والكراغلة . أما الأوقاف فقد بقيت في يد وكلائها المسلمين إلى مجيء كلوزيل (1830) ، كما سنرى.

وابتداء من سبتمبر 1830 غير كلوزيل الموقف أيضاً من الأوقاف . ومهما كانت الصيغ التي عرفتها مرحلة 1830 ـ 1842 ، فان النتيجة واحدة ، وهي مصادرة الأوقاف وضمها إلى الدومين ، وجعل ريعها لصالح الادارة الاستعمارية ، دون تعويض أصحابها ودون صيانتها ، بل ان الكثير منها قد هدم وأذيب دخله في الميزانية العامة للدولة . ولكن ذلك لم يتحقق فجأة ، بل مرّ بمراحل وقرارات كانت تهدف إلى وضع أيديهم على هذا المصدر المالي الاسلامي الذي كان الغذاء الوحيد (دون تدخل ميزانية الدولة في العهد العثماني) للتعليم والترقية الاجتماعية[77].

وأول قرار أصدره كلوزيل بشأن الأملاك كان في 8 سبتمبر 1830 . ومما جاء فيه (قارنه باتفاق حسين باشا ـ بورمون) :

إن كل الدور والدكاكين والمخازن والحدائق والأراضي والمحلات والمؤسسات ، مهما كانت ، التي كان يشغلها الداي (الباشا) والبايات ، والأتراك الذين خرجوا من ايالة الجزائر (والواقع انهم لم يخرجوا من تلقاء أنفسهم وانما رحلوا ترحيلا) أو التي يشغلها الآن اناس باسمهم ، بالاضافة إلى المؤسسات التابعة لمكة والمدينة (الأوقاف ، وهي بالطبع لا تخص الأتراك بل كان الجميع يساهمون فيها) ـ كل ذلك يدخل في أملاك الدولة (الدومين) ويجب أن تستثمر لحسابها.

---

(77) سنخصص فصلاً للأوقاف الإسلامية في العهد الفرنسي نفصل فيه القول عن عناصرها ، وأهدافها والموقف منها ، في كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الثالث . أما الآن فاننا نتناولها كمصدر مالي وأملاك أثارت الإساءة إليها مشاعر المسلمين ضد الفرنسيين وبعبارة أخرى مدى تأثيرها في العلاقات الجزائرية الفرنسية وتحريكها للضمير الوطني .

ومن أغرب ما نص عليه ذلك القرار الجائر ضربه أجل ثلاثة أيام فقط للاستظهار بإثبات الملكية وإلا فإن سلطات الغزو تصادرها بدون انتظار . وإذا كنت لا تصدق ما في ذلك القرار من جور واعتساف وخلف العهود ، فاقرأ هذا : كل الأفراد الـذين تخضع لهم تلك الأملاك عليهم أن يتقدموا (بما في ذلك حسين باشا الذي أصبح منفياً والوزراء والانكشارية الذين وصلوا إلى أناضوليا ، والبايات الخ . !) في ظرف ثلاثة أيام من نشر القرار بإثبات البيانات التي تحتوي على : طبيعـة ووضع وكميـة الأملاك التي في حوزتهم ، وكمية الدخل منها ، أو الأجر الذي ينجر عنها ، وأخيراً مـدة آخر الـدفع . واتبـاعا لأسلوب البـوليس الذي مهـر فيه كلوزيـل وروفيقو على الخصوص ، وعد القرار الرسمي بأن كل شخص يكشف لكلوزيل وزمرته عن وجود ملك لم يعلنه صاحبه، يكافأ بنصف الغرامـة التي سيفرضهـا كلوزيل على المـالك المتخفي . أما أين تصب هذه الغرامات الجائرة ففي صندوق الجيش طبعاً . . . وهو الصندوق الذي جعله كلوزيل لاسترضاء زمرته وجعل الجيش يساهم بذلـك ، كما عرفنا ، في مشروع استعماري (استثمار الأرض التي استولى عليها وجعلها مزرعة نموذجية) عن طريق رأس مال لشركة مساهمة مغفلة الأسهم(78) .

وماذا ننتظر بعـد هذا من ردود الفعـل ؟ ان كثيراً من أصحـاب تلك الأملاك غائبون ، كما عرفنا ، ولم يعطهم القرار سوى ثلاثة أيام لإثبات حقهم . فأي معنى لاحتجاجهم اذا وقع ؟ وأين هم حتى يحتجون ؟ ذلك جانب كان كلوزيل وزمرتـه يعرفون انهم مطمئنون منه . أما الاحتجاج الذي أزعجهم وأخافهم من العواقب فهو احتجاج الجزائريين على مصادرة أملاك الأوقاف ، التي لها قدسيتها والتي اشتركوا في تنظيمها وتغذيتها مثل كل المسلمين ، كما احتجوا على الطريقة التي عليهم أن يثبتوا بها الملكية الخاصة ، وعدم النص على التعويض الخ . واذا كان الخواص قد تولوا الاحتجاج ضد القرار بأنفسهم فإن الاحتجاج ضـد ضم الأوقاف جـاء من المفتين والعلماء والوكلاء الذين أوضحوا أن الأوقاف لا تمس ، وأن لها أغراضاً دينية وتعليمية واجتماعية أخرى . ولما كان كلوزيل منشغلاً بحملاته الفاشلة التي ذكرناها سابقاً ضد المدية والبليدة ، فإنه طأطأ رأسه للعاصفة ثلاثة أشهر ، ثم عاد الى موضوع مصادرة

---

(78) أنظر القرار في دراسة أوميرا Aumerat في (المجلة الافريقية) ، 1898 ، ص 168 ـ 173 .

الأملاك لأنه وجده أسهل عليه من قيادة مرتزقته في سهل متيجة أو في مضائق الشفة وموزاية . فأصدر قراراً آخر في 7 ديسمبر 1830 طلب فيه من المفتين والقضاة والوكلاء أن يقدموا حساباتهم عن الأوقاف وسجلاتهم وأوراقهم الى مدير الدومين ، وهدد المخالفين بالعقاب الشديد ، وقد وعدهم بأن ادارة الدومين ستدفع لهم من حساب الأوقاف ما يحتاجون اليه شهرياً[79] .

والواقع أن هناك هدفين من مصادرة الأملاك على ذلك النحو ، الأول سياسي والثاني اقتصادي ، وهما متصلان الى حد بعيد . فأما الأول فهو خوف الفرنسيين من أن بقاء المسلمين على أملاكهم وخصوصاً أملاك الأوقاف التي هي مقدسة عند الجميع ، سيجعل من وكلائها وعلمائها ومفتيها زعماء دينيين سياسيين معارضين للوجود الفرنسي ، وهي قوة لم يحسب لها الفرنسيون حساباً عند توقيع الاتفاق مع داي الجزائر . والثاني ان بقاء تلك الأملاك في أيدي المسلمين سيبقيهم أغنياء ومستغنين عن السلطة الجديدة ولن يحصل الأفاقون الفرنسيون الذين رافقوا الجيش والتحقوا به على طريقة لشراء الأملاك والاستقرار في الجزائر . وتذكر المصادر الفرنسية ذلك بكل وضوح ، بينما تأميم الأملاك يسهل عملية نقل الملكية ويفقد المسلمين مصدر ثروتهم الاقتصادية (والعلمية) وقوتهم السياسية ، ويحقق هدف الاستعمار.

فقد شعر الغزاة من أول وهلة أنه لو تركت الأملاك الاسلامية والفردية في يد المسلمين فانه لا يمكن للمهاجرين الأوروبيين (الفرنسيين) شراء الأملاك والاستقرار في البلاد . ومن جهة أخرى شعروا بأنه بواسطة الأوروبيين فقط يمكن انشاء ادارة للحسابات وتوفير مصاريف الصيانة ، واعطاء الوصولات ، ومن ثمة ايجاد العقارات للأوروبيين . وقد حاول الأوروبيون فعلاً شراء الأملاك من المسلمين الجزائريين ، ولكنهم وجدوا صعوبة في ذلك . فقد تدخل اليهود كوسطاء بينهم وبين المسلمين[80] . فارتفعت الأثمان ، وقلت الضمانات ، خصوصاً بالنسبة لشراء أملاك الغائبين ، كما أن حصص البيع معقدة إذ هناك من يبيع فقط الربع أو الخمس من

---

(79) نفس المصدر . وكذلك (طابلو وضع الممتلكات الفرنسية . . .) ، سنة 1838 ، ص 257 .

(80) من أسباب بيع المسلمين أملاكهم عدم الوثوق بالمستقبل ، اذ سنرى أن كثيراً منهم هاجروا تحت وطأة الظروف السياسية والمعاشية .

الحصة[81] ، الخ . أما حين وضع الدومين يده على الأملاك فقد سهل على الأوروبيين الحصول على الأملاك وأعطاهم الضمانات . وكان المشتري الأوروبي (ابتداء من عهد كلوزيل) معفى من كل شيء سوى أن عليه أن يدفع الفائدة للدولة .

وأول ما بدىء في بيعه للأوروبيين المنازل الخاصة ، والمقابر الواقعة عند باب الوادي . ورغم ورود عبارة التعويض في القرارات الرسمية ، فإن ذلك لم يقع[82] . واذا كان الأفراد قد احتجوا ودافعوا عن أنفسهم ، بدونْ جدوى في أغلب الأحيان ، للحصول على تعويضات عن أملاكهم المصادرة، فإن الأوقاف كانت من أكثر المؤسسات ضياعاً ، إذ يقر حتى كتاب الفرنسيين أن مؤسسات الوقف ظلت بدون تعويض . ويدعون أن ذلك راجع الى تقادم العهود وضياع الوثائق واختفاء الورثة . وهكذا اختفت الأوقاف بسرعة ، ولا سيما أوقاف الانكشارية والطرق العامة والعيون الخ ، وذابت في ميزانية الدولة[83] . وعلى كل حال فإن قضية التعويض عن الأملاك الفردية كانت السبب في رفع الشكاوي المستمرة من أعيان الجزائر ، وعندما عجزوا وطغت أيدي الظلم ، هاجر الكثير من أصحابها ، وافتقر الباقون حتى أصبحوا من المتسولين . أما أملاك الوقف المشار اليها فقد وقع اغتصابها قهراً وعدواناً . وكان ذلك سبباً في ضمور حركة التعليم واختفاء المعلمين وغلق المدارس.

ان قرارات الاستيلاء على الأملاك بكل أنواعها قد استمرت في الظهور بين 1830 ـ 1837 ، وازدادت تضييقاً وجوراً أيضاً في قرارات 1839 ، 1842 ، 1848 ، كما سنرى . وكان الهدف ، كما ذكرنا ، تفقير الجزائريين وإجبارهم على الهجرة وترويضهم سياسياً عن طريق الاقتصاد ، والحصول على الأملاك للأوروبيين (منحة وبيعاً) الواردين على الجزائر بقصد الاستيطان والاستعمار . ولم تكن تلك القرارات مقتصرة على الأملاك في مدينة الجزائر بل شملت كل المدن التي وقعت

---

(81) من مشاكل البيع والشراء عندئذ أن الأوروبي قد يشتري ما لا يصح له بيعه (وقف) ، أو يظن أنه اشترى فإذا هو مستأجر فقط .

(82) يزعم الفرنسيون أن الوكلاء الجزائريين كانوا متهاونين في الحسابات وفي صيانة الأوقاف وأن الأمور تحسنت بعد ضمها للدومين (!)

(83) أنظر أوميرا ، المرجع السابق ، ص 176 ، وكذلك (طابلو . . .)، سنة 1838، ج 2، ص 259.

بالتدرج فريسة للاحتلال الفرنسي ، مثل وهران وتلمسان وعنابة وبجاية والمدية والبليدة ثم قسنطينة ، وغيرها . كما شملت القطاع الريفي أيضاً بعد القبض على مقاليد الأمور في المدن.

وكان بعض الفرنسيين أنفسهم يندّدون بتلك الإجراءات ، خصوصاً الاستيلاء على الأملاك الفردية بدون تعويض ، والأملاك الدينية (الأوقاف) وتعطيلها عن أداء وظيفتها . ومنهم (دي صاد) ، عضو اللجنة الافريقية وعضو البرلمان الفرنسي ، الذي استنكر سنة 1834 ، التخريب الكامل لـ 900 منزل بدون إخطار أصحابها مسبقاً وبدون أي تعويض ، مما أجبر ، كما قال ، عشرة آلاف مواطن جزائري على الهجرة من العاصمة ومنهم 300 عائلة من الأعيان(84) . بالإضافة الى ترحيل من أسماهم الفرنسيون « بالأتراك » الذين بلغ عددهم أكثر من خمسة آلاف شخص . وقد استمرت الهجرة من المدن الجزائرية بعد سنة 1834 طبعاً . والمعروف أن اليكسيس دي طوكفيل ، الكاتب والبرلماني الفرنسي ، كان على رأس الذين استنكروا تعطيل الأوقاف عن مهمتها ، رغم إيمانه بضرورة الاستعمار.

وقد كانت المدن الجزائرية ، وعلى رأسها العاصمة ، مضرب المثل في النظافة والأمن وكثرة الحدائق والبساتين ، وبهاء الدور ووفرة المياه ، حتى تغنى بها الأدباء والشعراء العرب ، وسجل ذلك الرحالة الأوروبيون قبل الاحتلال الفرنسي . فإذا بها تصبح بعد الاحتلال بسنوات قليلة مضرب المثل في الأوساخ وذبول الحدائق وانتشار الأمراض المعدية الواردة مع الجنود ، والفساد الأخلاقي ، والغش والمضاربات ، والفوضى وانعدام الأمن ، خصوصاً أيام تولي (دو بينوس) شؤون الشرطة وتولي القنصل السابق (دوفال) شؤون العدل . ذلك أن بورمون قد أباح المدينة لآلاف الجنود والمرافقين لهم من حثالات فرنسا . فعاثوا في المدينة فساداً واعتداءً وتخريباً وحماقة واهانة . وهذا أمر مسجل في كتبهم ، وبينا الأمر كذلك مع الجنود كان الضباط ، كما قال مؤرخهم (بول آزان) قد استولوا على الفيلات والقصور وجلسوا يتفرجون ويكتبون الرسائل لذويهم وخليلاتهم . وها هو النائب دي صاد ، الذي سبق ذكره ، يقول لزملائه في البرلمان سنة 1834 ، ان الجزائر كانت مليئة بالحدائق

---

(84) أنظر (المونيتور يونيفرسال) ، عدد 20 ابريل 1834 .

والمحـلات الجميلة . . . ولكنها الآن (أي بعـد أربع سنـوات) أصبحت جميعـاً خرائب ، وحتى أنابيب المياه التي تسقي المدينة قد خربت[85] . وهل بعـد ذلك نستغرب أن يذكر لنا بول آزان ، في باب المدح والثناء ، سجلات كل من تولى أمور الجزائر في هذا العهد (1830 ـ 1837) منوها بما بذله من أجل الحياة الصحية والنظافة ، بعد أن يقدم لذلك بعبارات تثير الاشمئزاز عما وصلت اليه حالة المدينة قبل توليه من الاهمال والتعفن ، ولكن بول آزان وأمثاله لا ينسببون ذلك الى الاحتلال ونتائجه ، لأن عين الرضى عن كل عيب كليلة . . .

11. الاستهتار بالمؤسسات الدينية .. والتنصير :

ان ردود الفعل التي عرفها العهد المدروس تعود الى الصدمات التي تلقـاها المواطنون في مشاعرهم الدينية وهتك مقدساتهم . وليست المسألة جهاداً قائماً على التعصب الأعمى كما قدمه لنا الكتاب الفرنسيون ، ولكنه جهـاد للدفاع عن النفس والدين والقيم . وستظهر الصفحات الآتية من هو المتعصب الحقيقي ومن هو الذي جاء يعلن الحرب المقدسة (بالمعنى الصليبي) : الجزائريون أو الفرنسيون ؟

ذلك أن الفرنسيين فهموا أن سقوط الجزائر يعني سقوط قلعة إسلامية وعودة المسيحية الى ديارها . ففي يوم الأحد الموالي لدخولهم مدينة الجزائر ـ أي يوم 11 يوليو 1830 ـ أقاموا احتفـالاً دينياً ضخمـاً في الساحـة الرئيسيـة للقصبة ، حضـره الجنـرالات والضباط والجنـود يتقدمهم بـورمون طبعـاً . وها هـو أحـد الفـرنسيين المعاصرين يروي لنا مشاعره في ذلك ، فيقول إن الإحتفال الضخم جرى في القصبة التي بنـاها أبنـاء محمـد (صلى اللّه عليـه وسلم) لمـواجهـة أبنـاء عيسى (عليـه السلام) . وقد رتلوا آيات الإنجيل بأصوات عالية أمام آيات القرآن التي أصبحت ميتة والتي كانت تغطي كل الجدران[86] . وليس هذا الاحتفال خاصاً بمناسبة نجاح الغزو الفرنسي ، بل انه تكرر في مختلف المناسبات ، كما سنرى.

وكانوا يعتبرون الجنود الذين ماتوا في الجزائر شهداء المسيحية . وهذا أحد

---

(85) نفس المصدر .

(86) ستيفان ديستري (تاريخ الجزائر) ، تور ، 1851 ، ط 4 ، ص 211 .

كتاب فرنسا المتحمسين للاستعمار الديني وهو (بوجولا) يكاد يتفجر فرحاً بانتصار الصليب على الهلال في الأرض الافريقية (الجزائر) ويعلن أن الفرنسيين قد علقوا الصليب منذ البداية على ثلاث مآذن في مدينة الجزائر . وفي نظره أن قتلى الحملة من الفرنسيين هم « شهداء الحضارة والوطن والمسيحية » . واعتبر أن دماءهم قد وطدت دعائم الكنيسة المسيحية في الجزائر . وقد دعا اله القديس لويس بتعويضهم على أرواحهم التي أزهقت من أجل المسيحية[87].

وقد حفر الفرنسيون منذ الوهلة الأولى عن الآثار المسيحية ، مستفيدين من الخرافة تارة ومن كتب الرحالة تارة أخرى . فقد كانت الروايات تزعم أن الجامع الكبير (الأعظم) كان مبنياً على هيكل ديني مسيحي قديم ، فعمل الفرنسيون ، كما سبق ، على تعرية أساس الجامع المذكور لعلهم « يكتشفون » آثار ذلك الهيكل ، كما عمدوا الى تغطية الجامع عن الأنظار بعد أن كان يرى من بعيد من المرسي فأصبح وقد غطته الحيطان العالية وكادت تختفي منارته . وزعم منجموهم وكتاب أخبارهم أن الجامع الجديد (الحنفي) قد بناه عبد مسيحي ، وأن الأمر كان قد صدر له لبناء مسجد فبنى هو كنيسة ، ونسبوا اليه أنه قال : عندما يحتل المسيحيون هذه المدينة سيكون لهم هذا الجامع كنيسة . وقد أخذ الفرنسيون يترددون على هذا الجامع بكثرة ، استجابة لنداء ذلك العبد ، رغم ما كان يثيره ترددهم عليه من غضب لدى المسلمين ، انتظاراً لتحويله الى كنيسة[88] . وحين اختار الفرنسيون أحد مساجد الجزائر لجعله كاتيدرالية كاثوليكية اختاروا أوسعها وأحسنها موقعاً وارتفاعاً

---

(87) بوجولا (Poujoulat) ـ دراسات افريقية ـ ج1 ، ص 45 .

(88) نفس المصدر ، ص 29 . يذكر بوجولا أنه كان على فرنسا أن تحول الجامع المذكور إلى كنيسة كاثوليكية . ويشير في مكان آخر ، ص 30 ، إلى أنه كان لمدينة الجزائر في عهد الرحالة (دابر) 700 مسجد معظمها تقع في مواجهة البحر . وقد أخذ هذا العدد يتناقص منذ الإحتلال الفرنسي . وتذكر المصادر أن روفيقو ، قائد جيش الإحتلال ، أنشأ لجنة برئاسة بيربزوجر لاختيار مسجد يحوله إلى كنيسة فاختارت له الجامع الجديد للأمور التي ذكرناها بشأنه ، ولكن روفيقو أصر على أن يكون أجمل وأثمن جامع عند المسلمين هو الكنيسة المسيحية قائلاً « ألسنا نحن المنتصرين وهم المنهزمين » وعندما علم أن آلاف المسلمين قد تظاهروا احتجاجاً واعتصم الكثير منهم بجامع كتشاوة جاء لهم بالجيش وأخرجهم قهراً واحتل الجامع عسكرياً ، بينما أخذ سلاح الهندسة في تحويله إلى كنيسة . أنظر جوليان (تاريخ الجزائر) ، ص 91 .

وأحدثها بناءً وهو جامع كتشاوة الذي بناه حسن باشا سنة 1794 . وسنرى أنهم أسسوا أيضاً (أسقفية الجزائر) سنة 1838 « تتويجاً للفكر المسيحي في قلب الاسلام » حسب قول بوجولا ، الذي اعتبر ذلك هو « حدث العصر » لأنه اتصلت به السلسلة الذهبية التي صنعها « سيبريان واغوسطين » ، والتي انقطعت نتيجة أربعة عشر قرناً من الوحشية[89] !

ومن أبرز الأحداث التي هزت المجتمع الجزائري سنة 1834، قصة تنصير عائشة بنت محمد . فقد دلت على أهداف الغزو المسيحية وتواطؤ رجال الدين ورجال السياسة والعسكرية في ذلك . وتسببت في استقالة القاضي والمفتي ، وقادت إلى مظاهرات شعبية ومحاكمات واحتجاجات من قلب العاصمة . واستعملت السلطات الفرنسية الجديدة كل وسائل التستر والتعمية والتمويه لترك الأمور تتطور على النحو الذي وقعت عليه ، وأخيراً تحدّت تلك السلطات الرأي العام وأبقت المرأة على نصرانيتها وحملتها ، أو بالأحرى هربتها ، إلى فرنسا لتعيش على مسيحيتها .

ويطول بنا الحديث لو عرضنا لتفاصيل هذه القصة ، وحسبنا أن نلخصها فيما يلي : كانت المرأة عائشة بنت محمد متزوجة زواجاً شرعياً ، فطلقها زوجها طلاقاً شرعياً أيضاً ، وكان المفروض أن تبقى في العدة عند أهلها ، ولكنها بقيت عند صديق لها يهودي ، وخافت ، كما قيل ، من عقاب أهلها ، لأنها كانت على علاقة غير شرعية أيضاً مع أحد الأوروبيين ، وقيل أيضاً مع بيليسييه دي رينو مؤلف كتاب (حوليات الجزائر). وقد شكا أهلها إلى القاضي المدعو عبد العزيز والمفتي المدعو مصطفى بن الكبابطي ، وطالبوا بإرجاعها إليهم لقضاء العدة . وقد جاء بها القاضي إلى المحكمة بموافقة الحاكم العام ، فوارول ، وأثناء ذلك دخل المحكمة بيليسييه دي رينو المذكور ، الذي كان متولياً رئاسة المكتب العربي . فلم يسع القاضي عبد العزيز إلا الخروج من المحكمة احتجاجاً على انتهاك حرمة المحكمة ، وقد خرج معه المفتي الكبابطي أيضاً ، ثم قدما استقالتهما للحاكم العام . وأثناء ذلك أخذ بيليسييه دي رينو المرأة المذكورة إلى أحد القساوسة الكاثوليك في الكنيسة وقام

(89) نفس المصدر ، ص 31 . وقد نصح بوجولا أيضاً بالبحث عن الآثار المسيحية في الجزائر عن طريق مصلحة الهندسة العسكرية . وقد قام المهندس (كوفي) (Cauvet) فعلاً بذلك .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

هذا بتعميدها . ثم هربوها إلى فرنسا تحدياً لكل المشاعر ورغم احتجاج أهلها وجمهور المواطنين[90] .

وكثيرة هي المؤسسات الدينية والتعليمية التي مسّحها (من المسيحية) الفرنسيون أو هدموها أو أعطوها إلى الجيش أو بيعت كأملاك للأوروبيين يتصرفون فيها . وليس غرضنا ذكر ذلك هنا بالتفصيل اذ مكانه كتابنا الثقافي .

ونحب أن نصنف مصير المؤسسات على هذا النحو : مساجد بقيت كما كانت، ومساجد حولت إلى كنائس فبقيت أيضاً في هكيلها كما كانت ولكن مع ادخال تعديلات عليها ، ومساجد هدمت في حينها أو أعطيت لمصالح عسكرية ومدنية في أول الأمر ثم هدمت في تواريخ لاحقة ، ثم مساجد هدمت من أول وهلة .

فأما المساجد التي بقيت فلا تتجاوز الخمسة (احصاء سنة 1899) ، بعد أن كان عددها وقت الاحتلال 176 (يذكر (دابر) الهولندي في القرن السابع عشر أن عددها كان 700) وهي : الجامع الكبير ، والجامع الجديد ، وجامع سيدي رمضان ، وجامع سفير (صفر) وجامع عبدي باشا (؟) .

والمساجد التي تحولت إلى كنائس هي : جامع القصبة (أصبح كنيسة الصليب المقدس) وقد تغير شكله كثيراً . جامع بتشنين (أصبح كنيسة سيدة النصر) أيضاً تغير شكله الأصلي كثيراً ، وجامع كتشاوة (أصبح كاتدرائية الجزائر) وقد وقعت له تغييرات داخلية جذرية أيضاً لتحويله من الإسلام إلى المسيحية ولكن مظهره الخارجي بقي كما كان[91] . وهناك مسجد القائد علي الذي أعطي إلى جمعية (أخوات القديس جوزيف) .

---

(90) عن هذه القصة أنظر بالتفصيل (مراسلات ديرلون) - الحاكم العام - ص 122 - 128 . ومما يذكر أن فوارول قام بتعيين قاض جديد ، وهو أحمد بن جعدون ، خلفاً للقاضي عبد العزيز الذي هاجر إلى المغرب احتجاجاً . وقد انهالت الإهانات على القاضي الجديد من الأهالي ، أما المفتي الكبابطي فقد أعيد إلى وظيفته بعد أن استرد استقالته . أنظر دراستنا عن المفتي الكبابطي في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ج 2 . ط. 2 بيروت 1990 .

(91) هناك مراجع كثيرة تحدثت عن مصير المؤسسات الدينية من بينها (ديفوكس ، المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر) ، وكلاين (أوراق الجزائر) ، واوميرا في مقالاته في (المجلة الافريقية) 1897 - 1898 الخ . وجورج مارسي (الآثار الإسلامية) ، الخ . أما الإحصاء المذكور (سنة 1899) فقد ذكره ا. دوتيه Doutté في (المجلة الافريقية) ، ص 346 ، اذ قال أنه كان بالجزائر سنة 1830 ، =

وهناك مساجد هدمت من أول وهلة أو أعطيت لمصالح عسكرية ثم هدمت ، ومنها جامع السيدة الذي كان من أجمل مساجد العاصمة والذي جوّده حسن باشا (1794) برخام أبيض عالي الجودة جلبه من ايطاليا . فقد هدم منذ 1830 بدافع الحقد والتعصب لأن الْهَدْمَ وقع قبل التفكير في إنشاء ساحة الحكومة، وكان بعيداً عنها، وكان هدمه قد استمر أياماً، ثم بقيت صومعته قائمة مدّة سنتين حتى أعجزت المخربين لها وظن الناس في ذلك الظنون ، ويوجد وصف مروع في بعض الكتب لعمليات الهدم ومشاعر الشامتين (الفرنسيين) والغاضبين (المسلمين) معاً . فقد كان جامع السيدة من المساجد القديمة التي وصفها هايدو في القرن السادس عشر ، وجعله الثالث في الأهمية (بعد الجامع الكبير والجديد؟)، وكان مصلى الباشوات لأنه يقع بالقرب من قصر الجنينة (مقر الحكم) ، وعند هدمه سقطت معه منازل مجاورة كثيرة ، تسهيلاً لطريق الوصول إلى القصر المذكور الذي حول بدوره إلى مخزن عسكري . وكان الفرنسيون يخشون من ثورة عامة للسكان فأرادوا انشاء ساحة حرة (أسموها ساحة الحكومة) في قلب المدينة لتكون نقطة تجمع القوات في حالة انتفاضة شعبية .

ويقول أوميرا الذي ترك لنا وصفاً صارخاً لعملية هدم الجامع المذكور أن منارته لم تسقط الا سنة 1832 ، قطعة واحدة . ثم وقع تفتيتها حجرة حجرة بالمطارق والفؤوس وعندما طالت العملية وكثر اللغط جيء بحبال ضخمة وربطت في أعلى المنارة ، وأرادوا جذبها إلى أن تسقط ، ولكن الحبال تقطعت وتحدتهم المنارة التي ظلت شامخة . وعند ذلك اقترح أحدهم اغراقها ، أي جعلها تسقط عمودياً وهي واقفة ، فضربت من الجزء الأسفل ، ثم وضعت المواد الملتهبة ، مثل الخشب والزفت الخ . في الأماكن التي تأثرت بالضرب ، ثم أوقدت النار في تلك المواد ، فسقطت الصومعة قطعة واحدة ولكن نحو الشرق !

لقد كان المسلمون واقفين يشاهدون هذا المنظر المثير . ولاحظ الكاتب المذكور ، انه بالرغم مما كان يعتقد من أن المسلمين متعصبون ، فإنهم لم يقوموا

= 176 مؤسسة دينية منها 13 مسجداً كبيراً (أي بمئذنة وخطبة) ، ولم يبق منها سنة 1862 سوى 21 مؤسسة دينية ، منها 9 فقط مساجد كبيرة ، أما في سنة 1899 (تاريخ كتابة عمله) فلم يبق من هذه التسعة سوى خمسة مساجد .

عندئذ بأية حركة ، بل كانوا يرددون : مكتوب ! مكتوب! ، واستنتج من ذلك انهم قَدَرِيّون . وقد لاحظنا أن كلوزيل قد استغل هذه القدرية في بيانه الأول للجزائريين سبتمبر 1830 ، كما اشتمل عليها بيان الفرنسيين الذي وزعوه عشية الاحتلال . ولعل الكاتب نسي أن يقول انه تبين من ذلك أن قومه هم المتعصبون حقاً بلجوئهم إلى ذلك الفعل وأمثاله . فهو نفسه الذي ذكر ، بعد ذلك ، ان هناك أربعة مساجد أخرى واجهت نفس مصير جامع السيدة ، بين 1830 ـ 1832 فقط ، وهي : جامع الباديستان وجامع الرابطة ، وجامع الصباغين ، وجامع القبائل[92].

وتطول القائمة لو ذكرنا المساجد التي سلمت إلى مصالح عسكرية ومدنية ثم هدمت . فهناك جامع سيدي الرحبي الذي كان من الجوامع الكبيرة التي ذكرها هايدو ، فقد أعطي سنة 1833 إلى الصيدلية المركزية ثم هدم . وجامع السيدة مريم الذي أعطي إلى المتصرف العسكري ثم هدم . وكذلك مسجد الشماعين الذي أعطي للمتصرف العسكري ثم هدم ، ومسجد علي خوجة إلذي أعطي للمصالح العسكرية سنة 1830 ثم هدم ، ومسجد سيدي عمار التنسي الذي أصبح سنة 1830 ثكنة عسكرية ثم حولوه إلى الإدارة المدفعية ثم هدم . ومسجد صباط الحوت الذي أصبح سنة 1830 مخزناً للحبوب ثم ثكنة عسكرية ثم هدم ، ومسجد العين الحمراء الذي أصبح ثكنة عسكرية من 1837 ، وجامع عبدي باشا الذي أصبح ثكنة عسكرية منذ 1830 ، وقد بقي كذلك إلى وقت الكاتب ، أي سنة 1898 ، وجامع القشاش ، وهو أحد المساجد السبعة التي ذكرها هايدو ، بقي سنوات وهو مستشفى مدني ثم سلم إلى السلطات العسكرية فجعلت منه مخزناً مركزياً للمستشفيات العسكرية ثم هدم[93] ، الخ . ولنكتف بذكر هذه النماذج . وما على المهتم الا الرجوع إلى الدراسات التي ذكرناها في الهامش السابق ، أو كتابنا الثقافي الذي ننوي ذكر التفاصيل فيه .

والهدم الذي أصاب المساجد أصاب أيضاً وبالتبعية المدارس الملحقة بها .

---

(92) أنظر أوميرا (المجلة الافريقية) ، 1898 ، 178 ـ 180 (عن كيفية هدم جامع السيدة وسقوط منارته) .

(93) نفس المصدر ، ص 181 ـ 184 .

وبعض هذه المدارس كانت مشهورة بالعلم وفي مقام الثانويات اليوم ، مثل مدرسة القشاش التي تحدث عنها المؤرخ بوراس الناصر ، والتي كان مصيرها مصير الجامع التابعة له . ولنذكر فقط نماذج من هذه المدارس التي هدمت أو بيعت أو أعطيت إلى مصالح أخرى . فمدرسة الجامع الكبير (الذي لم يهدم) حولها الفرنسيون إلى حمام فرنسي اذ منحتها السلطات إلى أحد المستفيدين الأوروبيين ترغيباً له في البقاء والاستيطان بعد أن ضمت أملاك الأوقاف إلى الدومين ، كما سبقت الاشارة . كما هدموا مدرسة الأندلس ومدرسة جامع السيدة مريم (وهو ليس جامع السيدة المذكور أعلاه) . وذهبت المدارس الآتية مع المساجد التابعة لها : مدرسة جامع صباط الحوت ، مدرسة جامع السلطان ، مدرسة جامع خير الدين ، ومدرسة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي (وهي غير مدرسة وجامع اليوم).

وكثير من الزوايا واجهت نفس المصير . والزوايا ، كما هو معروف ، كانت ، سيما في المدن ، مأوى للعجزة والغرباء ، وبعضها كان للتعليم أيضاً وللعبادة . ومن الزوايا المتأثرة بالهدم أو البيع أو الحيازة من قبل المصالح الأخرى ، نذكر : زاوية القشاش إذ كان مصيرها مصير الجامع والمدرسة التي تحمل نفس الإسم ، وزاوية سيدي الجودي التي بيعت لأحد الأوروبيين ، وكذلك زاوية يوب ، وزاوية الشرفة . وقد اعتبر الكاتب ذلك دليلاً على عدم تعصب المسلمين اذ يبيع المسلمون القائمون على تلك الزوايا هذه المؤسسات إلى الأوروبيين لهدمها والبناء على أنقاضها الخ . ولكن من أدرانا أن ذلك البيع تم بطريق التحايل والغش أو أن أصحابها هاجروا ، كما سبقت الاشارة . وهناك زاوية الشبارلية التي أعطيت إلى الدرك سنة 1830 ، وزاوية شختون التي تحولت إلى ثكنة ثم مستشفى عسكري ، وزاوية الصباغين والمقايسية التي هدمت مع الجامع ، الخ . وقد جرى للقباب والأضرحة التي كان معظمها جهة باب الوادي وباب عزون مثل ما حدث للمؤسسات الأخرى (مساجد - مدارس - زوايا) ، فلا حاجة إلى تفاصيل ذلك هنا[94].

وقد بقي علينا أن نذكر من هذه الأمور التي تمس مشاعر المسلمين في الصميم بعض الحوادث المتعلقة بالمقابر وعظام الموتى . فالغازي الفرنسي لم يرع في ذلك

---

(94) عن ذلك أنظر نفس المصدر ، ص 191 - 200 ، وكذلك (المؤسسات الدينية . . .) لديفوكس .

حرمة ولا قواعد الدين ولا مشاعر الناس . فهذا الدوق دو روفيقو ، قائد جيش الاحتلال سنة 1832 ، قد أمر بتخريب المقبرة الاسلامية بدعوى مد الطريق بين قلعة بوليلة (الامبراطور) وباب عزون . ومما يذكر أن المهندس المكلف بذلك مدّ الخط المطلوب وصادف أن كان وسط ضريح مباشرة. وعندما جرى الحفر قطعت عظام الميت إلى نصفين ، نصفها بقي تحت التراب والنصف الآخر أصبح معروضاً للعيان . ويقول أحد الكتاب أن المنظر كان يهز المشاعر ، حتى مشاعر بعض الفرنسيين المشاهدين . ومع ذلك فإن سلطات روفيقو الجائرة لم تحدد حتى المكان الذي تدفن فيه بقايا الموتى[95].

ومن أفظع ما حدث أيام الاحتلال الأولى تلك الفضيحة التي هزت الرأي العام الجزائري والفرنسي ، ونعني بها تهريب عظام الموتى المسلمين من الجزائر إلى مرسيليا لاستخدامها في فحم العظام وتبييض السكر . ومن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع حمدان خوجة الذي ندد بها في كتاباته ضد الادارة الفرنسية ، كما أثبتتها تقارير بعض الأطباء ، مثل الدكتور (سيقو) ، وتناولها بعض الكتاب الفرنسيين المعاصرين أمثال مارسيل ايمريت . يضاف إلى ذلك أن بعض الأوروبيين واليهود كانوا يجمعون الأحجار الكريمة والعظام من المقابر الاسلامية ، بعد أن تمر عليها المجارف الفرنسية اذ تصبح العظام عارية ، كما لاحظنا . وقد عمت اللصوصية والسرقات جميع المجالات والمستويات ، كما أشرنا أيضاً ، حتى أن أحد الضباط (النقيب مارنقو) ثبت عنه أنه سرق المرمر من إحدى المقابر[96].

ولم يكن ذلك الاستهتار بالمؤسسات الدينية مقصوراً على العاصمة ، ولكنها هي الأولى التي واجهت شره الغزاة الفرنسيين . فقد عرفنا كيف سارع بوايبه في وهران إلى تحويل جامع خنق النطاح إلى مستشفى عسكري ، سنة 1831 ، وسارع دارماندي ودوزير إلى تحويل جامع سيدي أبي مروان في عنابة إلى أغراض عسكرية أيضاً ، وهو الجامع الذي واجه الهدم والهتك رغم قدمه ومكانته في تاريخ

---

(95) أنظر القسيس ج . بلاكيسلي (أربعة شهور . . .) ، ص 79 . سبق أن ذكرنا أن اليهود هم الذين كانوا يقومون بدفن الموتى بطريقة عشوائية مثيرة . والغالب أنها كانت جثثاً لموتى غير مسلمين .

(96) أنظر مارسيل ايمريت (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 1 ، ص 9 ـ 11 ، تعريب عبد الجليل التميمي .

المدينة[97] . وقد وقع في بجاية ابتداء من سنة 1833 ، سنة احتلالها ، ما وقع في مدينة الجزائر من الاستهتار بالمقدسات الدينية . فبالإضافة إلى تخريب المدينة (الذي قلما شهدته مدينة أخرى جزائرية حتى لقد جلا عنها سكانها ولم يبق فيها سوى حوالي ثلاثمائة نفر من العجزة) ، هناك هدم المساجد والزوايا ، وتحويل بعضها إلى أغراض عسكرية . ومن المساجد والزوايا التي تحولت إلى هذه الأغراض (قبل أن تهدم): الجامع الكبير، وزاوية سيدي التواتي، وزاوية للا فاطمة التي تحولت إلى مبيت للحرس ، وزاوية سيدي أحمد النجار التي أصبحت ثكنة ، أما الزوايا والمساجد التي خربت تماماً فنذكر منها : جامع سيدي الموهوب ،وزاوية سيدي البصرومي ، وزاوية سيدي عبد الهادي ، وزاوية سيدي الخضر ، وزاوية سيدي المليح[98] ، الخ . ولا يخفى ما قلناه سابقاً من أن جميع المؤسسات الدينية (الأوقاف) قد ضمت بطريق التعسف إلى أملاك الدولة ، سواء تلك التي بقيت أو التي بيعت أو هدمت والتي تحول وقفها إلى أملاك الدولة . ويستوي في ذلك أيضاً ما كان بالمدن وما كان بالأرياف.

وهناك مدينتان كانتا تتمتعان بوفرة المؤسسات الدينية : الأولى تلمسان التي احتلها الفرنسيون سنة 1836 ، والثانية قسنطينة التي احتلوها سنة 1837 ، وهو تاريخ نهاية المرحلة التي ندرسها . أما تلمسان فقد كانت شبه مخربة عند احتلالها[99] اذ طالما واجهت مختلف الضغوط والحروب بين قوات الأمير عبد القادر وقوات الفرنسيين من جهة ، ثم قوات الأمير وقوات الحزب العثماني المستحصن بالمشور من جهة أخرى . وتذهب المصادر إلى أن المؤسسات الدينية الكثيرة في تلمسان لم تعان نفس المصير الذي عانته مختلف المدن الأخرى ، رغم أن تلك الأملاك قد ضمت كغيرها إلى أملاك الدولة ، وكذلك أوقافها . وتذهب هذه المصادر إلى أن الفرنسيين

---

(97) ذكر الكاتب بابيه Papier في (المجلة الافريقية) ، 1890 ، ص 312 أنه لم يبق في عنابة من مساجدها الـ 37 التي كانت موجودة عشية الإحتلال (بناء على تقرير قدمه علماء المدينة إلى صالح باي أواخر القرن 18) سوى جامع صالح باي المسمى أيضاً بالجامع الجديد .

(98) عن خراب بجاية وما حل بمؤسساتها ، أنظر (المجلة الإفريقية) سنة 1858 ، ص 458 ، 462 وسنة 1859 ، ص 299 ـ 302 .

(99) أنظر القسيس بلاكيسلي ، ص 178 .

أرادوا بذلك استجلاب مودة السكان حتى ينحازوا اليهم ضد الأمير عبد القادر . ولا نعرف الآن عدد المؤسسات بتلمسان عند احتلالها ، ولكن بعضهم قدر الجوامع عندئذ فيها بثمانية عشر جامعاً .

أما مع قسنطينة فالأمر يختلف . فقد كان بها ساعة الاحتلال سبعون بيتاً للصلاة (مسجداً) ، ولكن الفرنسيين تصرفوا في ذلك تصرف المالك المستهتر بملكه . فهذا جامع رحبة الصوف حولوه إلى مخزن للشعير ثم أسقطوا منارته ، وكذلك استولت السلطات العسكرية على جامع القصبة الذي كان من المباني المشهورة في العهد الحفصي وفي العهد العثماني وهو الجامع الذي ذكره أحمد بن القنفذ (ق 9 هـ) وعبد الكريم الفكون (ق 11 هـ) ، ثم هدم بعد ذلك[100] . كما هدمت مساجد وزوايا أخرى منها جامع سيدي فرج ، وجامع سيدي الفرجاني ، وجامع سيدي مسلم ، وجامع جبانة الوزناجي ، وجامع سيدي وراد . أما الجوامع التي تحولت إلى ثكنات فهي : جامع سيدي بوناب ، وزاوية العلوي ، وجامع سيدي البيازري ، وجامع سيدي راشد ، الخ . وهناك جامع سوق الغزل الذي كان من أجمل جوامع المدينة[101] ، والذي حوله الاحتلال والتعصب الديني إلى كاتدرالية كاثوليكية . ولسنا في حاجة إلى التذكير بأن جميع أوقاف هذه المؤسسات قد ضمت ، وكذلك ما كان منها في الريف ، إلى أملاك الدولة .

وقد عبر الشاعر الكبير محمد بن الشاهد ، الذي كان قد تولى الفتوى قبل الاحتلال وأصبح بعد سنة 1830 طاعناً في السن فاقداً للبصر ، وفقيراً معدماً ، قال على لسان مواطنيه يرثي مدينة الجزائر بعد أن وقعت فريسة ذلك الغزو ويخاطبها بقوله :

لبستِ سوادَ الحزنِ بعد مَسَرَّة … وعمَّت بواديك الفتونُ بلا حصر
رفضتِ بياضَ الحق يوماً فأصبحت … نواحيك تشكو بالأماني إلى الجور
ولُيِّم درسُ العلمِ والجهلُ عَسْعَسَ … ونادى بتعطيل العلوم على النشر
وناح على الأسواق طيرُ خرابِها … فأصبح فأس الهدم يُنْبِيءُ بالغدر

(100) أنظر شيربونو (التقويم Recueil) ، 1853 ، ص 122 .

(101) أنظر أرشيف ايكس (فرنسا) رقم 23 H 1 حسب تقرير رسمي مكتوب بتاريخ 20 ديسمبر 1849 . أنظر كذلك (طابلو) ، سنة 1840 ، ص 353 ، 358 .

أصبتِ بسهمٍ من عيونٍ سهامُها   تُرادُ عَنِ المعيان بالشفع والوتر
نقضت عهوداً بالوداد تقررت   ووليت أقواماً توالت على ضر
فجاسوا بروجاً للحروب تشيدت   وداسوا دياراً بالنواهي وبالأمر
ونالوا من الأموال يسراً ميسراً   وفازوا بها والقلب يُصْلَى على الجمر
أموت وما تدري البواكي بقصتي   وكيف يطيب العيش والانس في الكفر[102]

12. الغزو العلمي والفكري :

غزا الفرنسيون الجزائر بالسلاح والعلم ، فحققوا الاحتلال والاستعمار والاستيطان بالسلاح والجيوش ، وحققوا نشر لغتهم ودينهم وعاداتهم وصحافتهم ومطبعتهم ومسرحهم الخ ، بالعلم والاختراع . واذا كان الاستعمار شراً كله فإن بعض الشر أهون من بعض ، كما قال الشاعر العربي . ذلك أن في وجود بعض المخترعات التي كانت مفقودة في الجزائر قبل الاحتلال فوائد هامة ، على المدى البعيد ، ومن ذلك المطبعة والصحافة والعلوم المتطورة . وسنحاول هنا ذكر بعض النماذج من هذا الغزو العلمي والفكري بقدر ما عرفته الفترة التي ندرسها ، وهي 1830 ـ 1837 .

لقد شهدت معظم المؤلفات المتعلقة بتاريخ الجزائر خلال هذه الفترة أن الوثائق والمخطوطات كانت من أول ضحايا الاحتلال والغزو . ونحن وإن كنا سندرس هذا الموضوع في كتابنا الثقافي ، فإننا نكتفي بالقول هنا بأن الفوضى التي سادت عملية دخول جيش العدو إلى القصبة وغيرها قد أدت إلى اتلاف العديد من الوثائق والسجلات أمام القائد بورمون نفسه . فكان الجندي البسيط يشعل غليونه بالوثائق المبعثرة ذات الأهمية القصوى . وقد قال أحد الكتاب الفرنسيين (بربروجر) إنه كان لكل جندي قرآنه ، وهو يعني أن الجنود كانوا يعتبرون كل ورقة مكتوبة بالعربية قرآناً ، فكان منهم من يقوم بحرقها واتلافها ، ومنهم من يأخذها ويرسلها « ذكريات » وهدايا إلى أهله . وقد شهد كتاب ذلك العصر أن جيش العدو اعتبر نفسه قادماً للانتقام والتخريب والنهب فقام بذلك خير قيام ، فقطع الأشجار وخرب الحدائق

---

(102) وهي طويلة ، وكانت منشورة في (المجلة الآسيوية) عدد 8 ، سنة 1839 ، ص 506 ، نشرها السيد فانسان ، ثم قمنا بنشرها مع ترجمة لحياة الشاعر في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة) ، 1983 .

وهدم قنوات المياه وأتلف الوثائق والكتب[103].

ومن ركام هذا العيث والعبث بالنتاج الفكري الوطني وبسجلات الدولة ، حاول بعض الفرنسيين فيما بعد أن يؤسسوا نواة لمكتبة عامة في الجزائر يجد فيها ضباط الجيش والمستشرقون والمترجمون أدوات العمل اللازمة لمهمتهم في الجزائر . وكان بربروجر من أوائل من شعر بأهمية جمع الكتب والوثائق الوطنية التي تذهب ضحية الغزوات العسكرية المدمرة . فكان يتتبع جيش بلاده إلى أهم المدن، وبينما الجيش يستولي ويخرب ويبعثر ، كان هو يجمع ما وقعت عليه يداه مما تركه أصحابه الفارون من بنادق العدو أو العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم . إن جمع الوثائق والكتب بهذه الصفة وإن امتدحه البعض على أنه انقاذ لتراث ثمين ، فإنه في الحقيقة لصوصية واعتداء على حق الغير من مالكين وورثة الخ . ولكنه كان غزواً فكرياً على كل حال ! ذلك أن كلوزيل وفاليه وبوجو كانوا يغزون المدن بينما كان بربروجر وديسلان وبريسنييه وأمثالهم كانوا يغزون المكتبات الخاصة ومكتبات الزوايا والمساجد ، بدعوى الانقاذ ، وينشئون بها المكتبة العامة في الجزائر . على أنه تجدر الملاحظة إلى أن كثيراً من هذه الوثائق والكتب قد ذهبت هدايا إلى خارج الجزائر منذ ذلك الحين المبكر . فهذا أحدهم يروي أن المكتبات الفرنسية تضم مخطوطات من قسنطينة بعث بها جنود الحملة هدايا إلى مساقط رؤوسهم[104].

ومن الغريب أن قرار انشاء المكتبة العامة جاء من كلوزيل أثناء عهده الثاني . فقد أمر بانشائها سنة 1835 . وكان موقعها في دار جزائرية جميلة استولت عليها إدارة الدومين . ولكن القرار لا يكفي لجعل المكتبة تؤدي دورها ، فقد ظلت خلال ثلاث سنوات من انشائها فارغة بدون كتب وبدون قراء ، ثم رخص لبربروجر ليقوم بالمهمة التي ذكرناها . ولعل السر في وجود المكتبة فارغة كل ذلك الوقت هو بقاء الفرنسيين محاصرين في مدينة الجزائر ووهران وعنابة إلى 1836 ، ولم يشرعوا في فك هذا الحصار الا هذه السنة والتي تليها حيث غزا كلوزيل معسكر وتلمسان وغزا دامريمون وفاليه قسنطينة ، وكل هذه المدن كانت تضم كتباً ووثائق هامة.

---

(103) أنظر السيدة روجرز (شتاء في الجزائر) ، لندن ، 1865 ، ص 37..

(104) أنظر لالوي في (المجلة الافريقية) ، 1925 ، ص 107 ، نقلاً عن اسكير ، محافظ مكتبة الجزائر عندئذ .

ومن مبتكرات الحملة والغزو الفرنسي للجزائر ميلاد المطبعة وظهور الصحافة . ويظهر أن بورمون فكر في كل شيء يلزم الحملة الا المطبعة . اذ يقال إن ذلك لم يخطر له على بال الا عندما ذُكِّرَ به وهو على ضفة البحر الأبيض الفرنسية ، فأبدى تأسفه وعبر عن أهمية المطبعة في مثل هذه الظروف ، خصوصاً وهو يريد أن يساهم في اسكات المعارضين للحملة في بلاده والمعارضين لصديقه رئيس الوزراء - بولينياك - الذي جاء به وزيراً للحربية ووضعه على رأس الحملة ضد الجزائر . وفي مدينة مرسيليا اشترى (ميرل) كاتب بورمون لوازم مطبعة واتفق مع طباعين يرافقونه ، كما اتفق في طولون مع صاحب مكتبة هناك على انشاء جريدة تهتم بشؤون الحملة وتغطي أخبارها . وصدر اعلان يخبر عن قرب ميلاد هذه الجريدة ، وأن اسمها سيكون (الاسطافيت دالجي) وأنها جريدة « تاريخية وسياسية وعسكرية » لا تطبع في مرسيليا أو طولون ولكن في أفريقية . وقد صدرت فعلاً بعد أربعة أيام من نزول جيش العدو على تراب سيدي فرج . وقد سميت المطبعة التي خرجت منها باسم « الأفريقية » واحتفل بها الجنود على أنها « مطبعة فرنسية في بلاد البدو » بينما وزعت نماذج من الجريدة على الحاضرين[105] . وبقطع النظر عن هذه العواطف المعادية للحضارية نفسها ، نقول إن إنشاء المطبعة « الأفريقية » وظهور الصحافة في الجزائر كان حدثاً رمزياً بارزاً في تاريخ الجزائر الحديث ، رغم أن الصحافة قد استعملها العدو للتخدير لا للتثقيف ، ولذلك ظلت محتكرة له إلى فاتح القرن الحالي .

ومن الجرائد التي ظلت تؤدي رسالة التخدير ، خلال العهد الذي ندرسه جريدة (المونيتور الجيريان) التي طالب بها ، في الواقع ، الجزائريون أنفسهم[106] . فقد ظهرت سنة 1832 ، وكانت تصدر بالفرنسية في صفحتين ثم أضيفت اليها صفحة بالعربية . وكانت فقط للاعلانات والأخبار الادارية ، وقد لاحظ عليها كل من رآها عندئذ أنها ليست جريدة للثقافة ونشر الأفكار والحضارة ، كما

---

(105) عن ذلك أنظر ستيفان ديستري d'Estry (تاريخ الجزائر) ، مدينة تور ، 1851 ، ط 4 ، ص 189 . وكذلك غبريال ايسكير (بداية الصحافة الجزائرية) في المجلة الافريقية ، 1929 ، ص 261 - 278 .

(106) أنظر عريضة أعيان الجزائر بتاريخ 1831 إلى بيرتوزين . وقد طالبت العريضة بأن تكون الجريدة بالعربية .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

ادعى الفرنسيون وأنصارهم[107]. ومن الذين طالبوا أيضاً بانشاء جريدة ، أحمد بوضربة ، أثناء تدخله أمام اللجنة الأفريقية سنة 1833 ـ 1834 ، اذ رأى أن الجريدة السابقة لا تؤدي دورها الحضاري . ولعله بناء على ذلك وغيره أسس الفرنسيون جريدة (المبشر) سنة 1847 التي طال عهدها وصدرت بالعربية والفرنسية ، ومرت بمراحل من التطور ليس هنا محل التعرض اليها[108] .

وتحت الحاح الجزائريين أيضاً تأسست بعض المدارس ذات الطابع الفرنسي . وليس معنى هذا أن الجزائر كانت خالية من المدارس ، بالعكس ، فقد عرفنا أنه كان في مدينة الجزائر وحدها عدد كبير من الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا التي كانت متعاونة على نشر التعليم من مال الأوقاف[109] . ولكن استيلاء الفرنسيين على هذا المال جعل المدارس تختفي والعلماء يهاجرون والتعليم يكاد ينتهي . والواقع أن الفرنسيين كانوا خلال المرحلة التي نحن بصددها منشغلين بالغزو والتجهيل لا بالثقافة والتعليم . فخلال السبع السنوات الأولى من الإحتلال لم يدخل المدرسة العربية الفرنسية الوحيدة (تأسست سنة 1836 فقط) أكثر من 90 تلميذاً . وقد لاحظ الكاتب الذي جاء بهذا الإحصاء أن الأطفال كانوا يأتون ويتغيبون ثم يعودون . ولكن لاحظ (سنة 1837) أن المعارضة الأولى للتعليم بالفرنسية أخذت تخف وتحل محلها روح التسامح[110] ! ان الجزائريين الأولين قد قاطعوا المدرسة الفرنسية الوحيدة في الجزائر خوفاً على أبنائهم من الغزو الفكري والديني. ثم ان كثيراً منهم كانوا ما يزالون ينتظرون الفرج ، أي خروج العدو من بلادهم ، ولذلك ظلوا في حالة ترقب[111] .

---

(107) أنظر مثلاً رأي توماس كامبل (رسائل من الجنوب) في كتابنا (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) ط 3 ، ص 1986 . والمؤسس لها هو المتصرف المدني ، البارون بيشون ، أثناء حكم الدوق دو روفيقو .

(108) أنظر عنها فيليب دي طرازي (تاريخ الصحافة العربية) ج1/51 .

(109) أنظر كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزء الأول ، ط 2 ، 1985 .

(110) أنظر (طابلو) سنة 1838 ، ج 252/2 .

(111) عن موقف الجزائريين الأولين من التعليم بالفرنسية ، أنظر دراستنا « قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا 1843 » في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ج 2 ، ط. بيروت ، 1990 .

وهناك تقرير آخر كتبه برينييه أستاذ كرسي اللغة العربية الذي أسسه الفرنسيون في الجزائر ، جاء فيه أن كوليج الجزائر سنة 1837 كان مقصوراً على التلاميذ الفرنسيين فقط ، وليس بينهم تلميذ مسلم . وكان عددهم في تلك السنة لا يتجاوز الثمانين تلميذاً ، تتراوح أعمارهم بين السابعة والتاسعة عشر . وهذه المدرسة (أو الكوليج) الذي يتحدث عنه لم تنشأ إلا سنة 1836 (أكتوبر) ، اذ دخلها حينئذ 32 تلميذاً فرنسياً أو أوروبياً ثم انخفض ذلك العدد إلى 19 فقط لأن الدراسة فيه كانت باللاتينية بدل الفرنسية والعربية الفصحى . وقد لاحظ صاحب التقرير أن هناك مدارس حضرية تعلم العربية ويذهب إليها معلم فرنسي لتعليم الفرنسية فيها . ولكن التقرير لا يعطي إحصاء لهذه المدارس ولا لعدد تلاميذها[112] .

وما دمنا نتحدث عن الغزو العلمي والفكري والديني للجزائر فلنذكر أيضاً ناحية أخرى اهتم بها الفرنسيون في نهاية العهد المدروس وهي إنشاء لجنة علمية (أواخر سنة 1837) . وقد ضمت هذه اللجنة مختصين في شؤون المستعمرات ومستشرقين وعلماء ، ثم وقع إرسالهم إلى الجزائر ليبحثوا ، كل في مجال تخصصه ، عما فيها من إمكانات تفيد البلاد الغازية ، على أن تقدم نتائج أبحاثها إلى المعنيين وإلى الرأي العام على التوالي ، في عمل يشبه ما قامت به اللجنة العلمية الفرنسية في مصر أثناء الحملة هناك . ولعل المجلدات التي صدرت عن هذه اللجنة[113] ، رغم ما فيها من حيف وابتسار أحياناً وغرور ، تعتبر من أفضل ما خلفته الإدارة الإستعمارية إذ رغم مرور الزمن الطويل على هذا العمل ، فإنه ما يزال مفيداً ولم يتقدمه عمل آخر بعد . وكم نتمنىٰ أن يقوم الجزائريون اليوم بعمل علمي تفوق أهميته أهمية العمل الفرنسي . ويتصل بذلك أيضاً ما قام به الباحث الأثري العسكري ، كوفي Cauvet ، من دراسة لأشكال القباب الدينية أو الأضرحة ، وخطوط هندستها المختلفة ومن دراسة لاختيار أماكنها ومناسبتها للجو والبيئة[114] . وكان كوفي هذا من أوائل من سمح له بالتنقيب الأثري . ولعل هدف الفرنسيين ، كما لاحظ (بوجولا) وغيره ،

---

(112) أنظر هذا التقرير في أرشيف ايكس F 80 1732 . وتاريخه : باريس 25 اكتوبر 1837 .

(113) صدر منها 19 مجلداً (من 1838 إلى 1866) . عن انشاء اللجنة أنظر (طابلو) 1838 ، ج 1 ، ص 113 .

(114) عن عمله أنظر (المجلة الافريقية) ، 1923 ، 274 ـ 329 ، و 448 ـ 522 .

كان البحث عن الآثار المسيحية في البنايات الإسلامية قبل أن يكون هدفهم البحث عن الآثار عامة . وقد بدأ كوفي نشاطه المذكور منذ 1831 .

وبالإضافة إلى الجنود وحثالات الأحياء الباريسية الذين رافقوا جيش العدو ، هناك عدد من الفنانين ، خصوصاً بعض الرسامين الذين اندمجوا في الحملة وأصبحوا جزءاً من تحركات الجيش ، فكانوا يرسمون « معاركه » ويصورون ضباطه ، وأسطوله ومناوراته ، كما رسموا في أشكال رومانتيكية مثيرة بعض مناظر الجزائر التي طالما حدثتهم عنها الأساطير الشرقية . ومن هؤلاء الفنانين يوجين عيسى باي Isa Bey وقودان ، واشسموت ، ولانقلوا ، وتانور ، وجيلبير . . .[115] وسيلتحق بهم الفنانان البارزان دي لاكروا وهوراس فيرني ، وصحفيون[116] ، كما سبقت الإشارة .

ترى هل وجد الفرنسيون الجزائريين بدواً ، كما كان يشاع عنهم أو وجدوهم نصف متحضرين أو وجدوهم في نفس المستوى الذي عليه الأوروبيون ؟ سؤال طالما جالت في جوابه الأقلام الإستعمارية وهي تكاد تتفق على أن الجزائر بلاد البدو ، وأن بركة حثالات الأحياء الباريسية ونفايات المدن الفرنسية الجنوبية ، هي التي حملت إليها جمال الحضارة ورونق الثقافة ورأس الحكمة ! ولا نجد الّا القليل ممن حدثونا عن أن مدارس الجزائريين كانت تفوق مدارس الفرنسيين ، وأن الأمية كانت أكثر رواجاً في فرنسا منها في الجزائر ، وأن نظافة المدن الجزائرية ومنازلها كانت تطغى على نظافة المدن الفرنسية ومنازلها ، وأن جنود الحملة كانوا من الجهل والفاقة والتعصب الأعمى بحيث لا تكاد تجد من يماثلهم في الجزائر . ولكن أحد الفرنسيين ، وهو بول رينال P. Raynal ، فاجأنا بالرأي التالي (الذي لا نستغربه منه نحن ما دمنا قد درسنا حياة أهل الجزائر عشية الحملة ، ولكن ليفاجىء به المتسترين من الفرنسيين والجهلة من الجزائريين بتاريخ بلادهم) اذ يقول رينال : انك لا تستغرب أن تجد في مدينة الجزائر وتحت العمامة والبرنس أناساً يتحدثون الفرنسية ،

---

(115) أنظر ديستري (تاريخ الجزائر) ، ص 190 .

(116) منهم الصحفي والمؤرخ أوغسطين جال الذي كتب سنة 1831 حديثاً مع حسين باشا أثناء زيارته لباريس (مجلة باريس) ، عدد 22 ، 23 ، 24 ، (1831) ، والذي أصبح مؤرخ البحرية الفرنسية الخ . . أنظر أيضاً ايسكير (المجلة الافريقية) ، 1929 ، ص 255 . وكذلك كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، جـ 3 ، ط 1 ، بيروت ، 1990 .

مثل أهل باريس تقريباً ، ومن يعرف الأوبرا الإيطالية ، ومن يشيد بمدينة فراسكاتي (Frascati) . . . فلكم تتسرب الحضارة ! وكم هو صعب غلق جميع المنافذ لبلد ما ! وقد استغرب رينال أن يلقى في الجزائر من أخبره أنه ذهب مع صديق له إلى فرنسا وإنكلترا وتجولا فيهما[117] .

ولكن الذي درس حياة أحمد بوضربة وحمدان خوجة وابن العنابي وأحمد بن سحنون وبوراس الناصر وغيرهم ، يعرف أن الجزائريين كانوا يعرفون الكثير عن « حضارة » أوروبا ، ولكنهم كانوا معتزين بحضارتهم ، رغم أن بعضهم قد دعا (مثل ابن العنابي) إلى الإستعارة من الحضارة الغربية ما تفتقر إليه حضارتهم حتى لا تقع الجزائر ومعها العالم العربي والإسلامي ، فريسة للإستعمار ، ولكن صيحته كانت في واد ، فوق ما وقع !

* * *

(117) أنظر بول رينال (حملة الجزائر) ، باريس ، 1930 ، ص 108 ، 114 .

و(فراسكاتي) مدينة بالقرب من رومة بايطاليا . وكان (رينال) معاصراً بل شاهد عيان للحملة الفرنسية ضد الجزائر ، وكان مشاركاً فيها . وقد نشر كتابه أوغسطين بيرنار سنة 1930 بمناسبة الذكرى المئوية للإحتلال .

مراجع الفصل الأول

ابن عبد الكريم ، محمد ـ حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته ، بيروت ، 1972 .

أحمد باي ـ مذكرات ، نشر هام . ايمريت ، (م. إ.) ، 1949 .

أزان ، بول ـ الاحتلال والتهدئة ، باريس ؟، 1931 .

أوميرا ـ سلسلة مقالات عن وضع أملاك الأوقاف (م.إ.) ، 1897 ـ 1899 .

ايسكير ، غبريال ـ بداية الصحافة الجزائرية (م.إ.) ، 1929 .

ايمريت ، مارسيل ـ (الحالة العقلية والمعنوية بالجزائر) ، في مجلة التاريخ الحديث والمعاصر ، يوليو ـ سبتمبر ، 1954 .

ايمريت ، مارسيل ـ (عن استعمال عظام الموتى الجزائريين) ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 1 ، 1974 .

بابييه ـ (عن مساجد عنابة) ، في (م.ا.) ، عدد 33 ، 34 ، 1889 ، 1890 .

بلاكسلي ، جوزيف ـ أربعة أشهر في الجزائر ، لندن (18؟) .

بليفير ـ جلادة المسيحية ، لندن ، 1884 .

بوجولا ، جان ، دراسات افريقية ، باريس ، 1845 (؟) .

بيري ، يوجين ـ رحلات جزائرية 1830 ـ 1884 ، باريس ؟، بدون تاريخ .

تامبل ، غرينفيل ـ جولة في البحر الأبيض ، لندن ، 1835 .

التميمي ، عبد الجليل ـ بحوث ووثائق مغربية ، تونس ، 1972،.

التميمي ، عبد الجليل ـ عن اتفاق كلوزيل ـ باي تونس ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد يناير 1980 .

جال ، اوغسطين ـ عن حياة الداي حسين وزيارته إلى فرنسا سنة 1831 ، مجلة باريس عدد 30 ـ 31 .

جوليان ، ش. أ. ـ تاريخ الجزائر المعاصر ، 1827 ـ 1871 ، باريس ، 1964 .
حمداني ، عمار ـ الحقيقة حول الحملة الفرنسية على الجزائر ، باريس 1985 (؟).
خوجة ، حمدان ـ الرد على كلوزيل ، باريس ، 1834 .
خوجة ، حمدان ـ مذكرات ، نشرها ج. ايفير في (م.إ.) 1913 .
خوجة ، حمدان ـ المرآة ، ط. باريس 1833 (وترجمتها العربية) .
ديستري ، ستيفان ـ تاريخ الجزائر ، ط. 4، مدينة تور ، 1851 .
ديفوكس ، البير ـ عن المدفع (بابا مرزوق) ، (م.إ.) ، 1873 .
ديفوكس ، البير ـ المؤسسات الدينية لمدينة الجزائر ، الجزائر 1870 .
روجرز (السيدة) ـ شتاء في الجزائر ، لندن 1865 .
رينال ، بول ـ حملة الجزائر ، باريس ، 1930 (المؤلف معاصر للحملة ، والكتاب نشر بعد موته) .
دي رينو ، بيليسييه ـ الحوليات الجزائرية ، ط. 1854 ، 3 أجزاء .
سعد اللّه ـ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، جـ 3 ، بيروت ، 1990 وجـ 2 ، بيروت ، ط 2 ، 1990 .
سعد اللّه ـ محاضرات في تاريخ الجزائر ، ط. 3 ، 1982 .
سعد اللّه ـ تاريخ الجزائر الثقافي ، جزآن ، ط. 2 ، 1985 .
سعد اللّه ـ تجارب في الأدب والرحلة ، الجزائر ، 1983 .
رينيه ، شانقا ـ (مذكرات) ، بيرجي ـ لوفرو ، 1930 .
شيربونو ـ Recueil (المجموع) ، 1853 ، عن مساجد قسنطينة .
دي طرازي ، فيليب ـ تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ، 1967 (مصور) .
غفريل ، بول ـ الجزائر ، تاريخ : احتلال واستعمار ، 1883 .
غوثرو ، غوستاف ـ احتلال الجزائر من أوراق المارشال بورمون ، باريس 1929 .
فانسان ، بول ـ عن شعر ابن الشاهد في بكاء مدينة الجزائر بعد الاحتلال ، (المجلة الآسيوية) ، عدد 8 ، 1839 .
كامبل ، توماس ـ رسائل من الجنوب ، لندن ، 1937 ، جزآن ، وأيضاً في سعد اللّه ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ط. 3 ، 1986 .
كامبون ، جول ـ حكومة الجزائر العامة ، الجزائر ، 1918 .

كلاين ، هـ . ـ اوراق مدينة الجزائر ، الجزائر ، 1913 .
كلوزول ـ الجزائر المصورة (Pittoresque) ، تولوز ، 1845 .
كلوزيل ـ الرد على حمدان خوجة ، باريس ، 1834 .
كوفي ـ عن الحفريات الأثرية ، (م.أ.) ، 1923 .
لالـوي ـ عن حريق مكتبة الاسكندرية ومكتبات قسنطينة ، (م.إ.) ، 1925 .
مارتينو ـ العرب في الكوميديا والرواية في القرن 19 (م.ا.) 1905 ، ص 149 .
مارسيه ، جورج ووليام ـ الآثار الاسلامية في تلمسان ، باريس، 1903 .
موريل ، ج ـ الجزائر ، لندن ، 1854 (؟).
مونتانيو ، د.ج . ـ وجه مدينة الجزائر (فيزيولوجية . . .) ، مرسيليا ، 1834 .
وولف ، جون ـ الجزائر وأوروبا ، ترجمة سعد اللّه ، الجزائر ، 1986 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الثاني

جبهات المقاومة

1837-1830

1. مقدمات :

إن التحدي الذي أبداه الغزاة الفرنسيون للجزائريين قد تولدت عنه ردود فعل مختلفة ، مدنية وعسكرية . فالعنف ، والتعصب الديني ، والتبجح الفارغ بالحضارة والانسانية ، والاستهتار بالدين الاسلامي والقيم الأخلاقية ، وخيانة المواثيق ، والاعتداء على الأملاك الشخصية والدينية ، كل ذلك أدى الى اشكال مختلفة من المقاومة ، كل بحسب طاقته ، وكان ذلك مدعاة للبحث عن وسائل الوحدة وجمع الصفوف والعمل المشترك ضد العدو المشترك ومخاطبة المشاعر العليا التي تحرك الجميع كالدين والوطن، وذلك هو ما يعرف بالضمير الوطني .

وإن القومية بمفهومها الحديث لم يكن قد بلغ عمرها في بعض أجزاء العالم خمسين سنة عندما احتلت الجزائر ، وفي بعض الأجزاء الأخرى لم تظهر بعد . وليس هناك شعب قد ولد ناضجاً بالإحساس القومي وانما القومية قد ولدتها ظروف عرفها كل شعب على حدة . ومن بين تلك الظروف مواجهة الخصم المشترك والاعتداء على ما يراه الشعب المضطهد مقدسات ؛ ولا تظهر القومية فجأة بل تنمو بقدر نمو الشعب وعياً وثقافة وتوحداً سياسياً . ويذكر المؤرخون أن القومية الألمانية مثلاً قد ولدتها ، مع بطء شديد ، اعتداءات لويس الرابع عشر وخلفائه ، وأن القومية الروسية قد ولدتها ، مع بطء شديد أيضاً ، اعتداءات نابليون الأول ، وأن القومية العربية قد ولدتها عمليات التتريك ثم عمليات الغزو الاستعماري الأوروبي ، وهكذا . وقد كانت الجزائر ، في نظرنا من أوائل شعوب ما يسمى اليوم بالعالم الثالث ، تعرضاً للغزو الاستعماري الشرس ، على خلاف الغزو الأوروبي (الهولندي ـ الفرنسي ـ الإنكليزي ـ البرتغالي) للهند مثلاً ، فقد مس الغزو في الجزائر كل القيم والمؤسسات وعوامل الوحدة ، بينما لم يمس في الهند في العهود.

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

المبكرة الا النواحي التجارية تقريباً. فلا غرابة أن تتولد الحركة الوطنية في الجزائر مبكرة تبعاً لشراسة الاستعمار ، وأن تكون هي مقدمة للدعوة إلى القومية العربية والجامعة الاسلامية ، ولكن هذا موضوع آخر.

وقبل أن نركز على موضوعنا الرئيسي ، وهو تولد الضمير الوطني الجزائري في السنوات الأولى للاحتلال نود أن نذكر بأمر كثيراً ما يغفله المؤرخون وهو أن عهد احتلال الجزائر هو عهد الحركة الرومانتيكية الأوروبية التي انطلقت معها العواطف الانسانية بلا حدود ، وتدفقت معها كذلك المشاعر القومية حباً في (الأنا) الأعلى للأمة وتواجداً مع المثل العليا للحضارة في شكلها الانساني الطبيعي الخيالي . إن كثيراً من ضباط الحملة الفرنسية ومن الذين رافقوها أو الذين التحقوا بها بعد ذلك كانوا مدفوعين بهذا التيار القومي ـ الرومانتيكي ، بقطع النظر عن مخططات رجال السياسة والدبلوماسية والاقتصاد في بلادهم.

قلنا إن ردود الفعل الجزائرية على الحملة الفرنسية والاحتلال الذي أعقبها قد اتخذت أشكالاً عديدة . وقد كان من الطبيعي أن تظهر أول ردود الفعل في المدن ، وخاصة مدينة الجزائر ، التي عرفت أول اتصال مع العدو ، واختلطت به واطلعت على اجراءاته التعسفية وتضررت مباشرة باستهتاره وجوره ، وقد كان لسان حال كثير من أهل المدن التي وقعت فريسة للاحتلال قول الحكيم المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بدّ

وقد قسمنا هذه المقاومة (ردود الفعل) إلى قسمين رئيسيين : المقاومة المدنية أو السياسية والمقاومة الريفية أو العسكرية .

2. المقاومة المدنية أو السياسية :

تكاد القيادات السياسية بين الجزائريين أن تكون منعدمة في العهد العثماني . وإذا كان هناك نوع من القيادة للرأي العام فإنها كانت منحصرة في المجال الديني : العلماء والمرابطون ، وفي المجال الاقتصادي : الأغنياء أو كبار التجار وملاك الأرض . وكان هذا الوضع هو الموجود ساعة احتلال الجزائر . وكان يعبر عن القيادة السابقة ، في مجالها الديني والاقتصادي ، بالأعيان . وقد رأينا أن هذا التكتل أخذ في الظهور والتحرك منذ جوان 1830 ، وأصحابه هم الذين ضغطوا على حسين باشا

بقبول الصلح ، وفاوضوا على الاتفاق الذي حصل بين حسين باشا وبورمون . ثم أخذوا في اعداد العدة للاستفادة من الوضع الجديد : خروج الانكشارية وحاميتها سلطة الدايات ، ووجود الفرنسيين الذين أعلنوا بكل وضوح أنهم سيتركون البلاد لهم بعد القضاء على الخصم المشترك.

ولكن هؤلاء (الأعيان) لم يكونوا على درجة واحدة من التفاهم والطموح والمصالح ، بل لم يكونوا ينظرون إلى الغريب الجديد بعين واحدة . فقد كان فيهم البعيد النظر رغم ضعف الامكانات ، وفيهم الضعيف الخائر الذي يكفي لاستمالته وعد كاذب . وكان على هؤلاء الأعيان أن يدخلوا في دوامة البحث عن الذات ، والتعرف على مواقع الاقدام ، ودراسة نوايا العدو الفرنسي ، والتحسس لمصالح العامة واهتماماتها . وقد ظهر في بعض الأحيان أن اللقمة كانت أكبر بكثير من أفواههم ، وأن اللعبة السياسية كانت أعقد بكثير أيضاً مما ملكت أيديهم ومن ذكائهم . ومع ذلك فنحن سنتعامل مع هؤلاء الأعيان كما لو كانوا قوة سياسية ذات نفوذ ولو كان محدوداً . وسنتتبع اهتماماتهم وتياراتهم خلال هذه المرحلة من تاريخ الحركة الوطنية.

ومن البديهي أن يتولد على الوضع الجديد ثلاثة تيارات سياسية ، سنسميها ، تجاوزاً ، أحزاباً : (1) الحزب الوطني ، ونعني به ذلك الذي كان يضم عناصر تنظر داخلياً ، ويعمل للصالح العام والتحرير الوطني واستعمال كل السبل لجمع الشمل . (2) والحزب الثاني هو ما يمكن أن نسميه بالحزب العثماني ، وهو الذي كان أصحابه يهدفون إلى البقاء على ولائهم للخلافة العثمانية وتحرير الجزائر من ربقة الفرنسيين ، وعودة الحكم العثماني إلى الجزائر اذا أمكن أو على الأقل تكوين سلطة في الجزائر موالية للسلطان . (3) وأما الحزب الثالث فهو الذي ارتبطت مصالح أصحابه بالمصالح الفرنسية ، ووجد نفسه مستفيداً من الوضع الجديد ، ونعني به الحزب الفرنسي ، إذا صحّ التعبير . وكانت قيادات هذه الأحزاب ليست على الشكل الذي نفهمه اليوم من القيادات السياسية : زعامة وتنظيماً وبرنامجاً ، الخ . ذلك أن الزعامات كانت غير ثابتة ، والتنظيمات كانت شبه معدومة ، وليس هناك برنامج محدد ، بل حتى الأهداف كانت غامضة إلى حد كبير ، وأحياناً قصيرة المدى ، منطلقة من رؤية آنية.

ومع ذلك فنحن سنغامر فنضع، في المدن، أحمد بوضربة في صف الحزب الوطني ، ونضع ابن العنابي وحمدان خوجة في صف الحزب العثماني ، ومصطفى ابن الحاج عمر في صف الحزب الفرنسي . أما في الأرياف فسنضع الأمير عبد القادر على رأس الحزب الوطني ، وأحمد باي على رأس الحزب العثماني ، ومصطفى ابن اسماعيل على رأس الحزب الفرنسي . وهناك بالطبع زعامات أخرى ستظهر في المدن والأرياف ، سنحاول تحديد اتجاهاتها وتصنيفها كلما كان ذلك ممكناً غير أنه يجب التنبيه من البداية إلى أن الزعامات المذكورة لم تكن كلها ذات مواقف محددة وثابتة من البداية إلى النهاية ، اذ كثيراً ما وقع التحول في الميول من هذا الجانب إلى ذاك والعكس . كما أن هذه الأحزاب (أو التيارات) قد وقع بين زعاماتها مشاحنات وكيد وغيرة أدت إلى إضعافها وإتاحة الفرصة للعدو لضربها جميعاً .

***

بدأ الفرنسيون منذ عهد بورمون بتقريب أنصار الاتجاه الوطني الذين كانوا يسمونهم (الحضر) ، وأبعدوا عنهم كل من كانوا يسمونهم بالكراغلة أو أنصار الاتجاه العثماني . ومن خلال هذا التقريب والابعاد تولد اتجاه جديد وهو الذي أسميناه أنصار الوجود الفرنسي ، اذ أن الفرنسيين كانوا يجرون « عملية فرز » فمن والاهم ، مهما كانت الظروف من أنصار الاتجاه الوطني أو من أنصار الاتجاه العثماني ، قربوه منهم واستفادوا منه ، فاذا ظهر منه ما يدل على طموح أو استقلالية أو غيرة على قوم أو وطن لفظوه وعاقبوه وسلطوا عليه الارهاب النفسي والبدني ، فإن ثارت نفسه فتمرد أو هاجر تخلصوا منه وإن عاد اليهم تائباً مقبلاً لتراب النعال رموا اليه بكسرة وعدّوه من حزبهم.

قلنا إنهم أظهروا التعامل في البداية مع حزب الحضر ، وكان أحمد بوضربة من أبرز عناصر هذا الحزب في الفترة التي ندرسها (1830 ـ 1837) . فهو الذي فاوض الداي وبورمون ، وفرض وجهة الحضر على الأول ونال وعوداً من الثاني لصالح الحضر . وقد كافأه بورمون فجعله على رأس اللجنة البلدية التي أنشأها لادارة شؤون العاصمة . وعين معه بعض الحضر الآخرين.واليهود . وكان بوضربة قد استغل هذا الوضع وأخذ يعين أقاربه وصنفه من الحضر في الوظائف الجديدة ، ومن ذلك تعيين أحد أقاربه (عمه ؟) مصطفى بوضربة وكيلاً لأوقاف مكة والمدينة، واقتراح تعيين

صديقه، حمدان بوركايب، في وظيفة آغا العرب وفي نفس الوقت وجه بوضربة نشاطه ضد عناصر الحزب العثماني وبقايا الأتراك فكان يتهمهم بالتآمر ويشيع عنهم العداء له وللفرنسيين وينصح هؤلاء بطردهم من الجزائر . ومن أجل ذلك اكتسب عداوة اليهود والعناصر العثمانية وكثرت حوله الشكاوي فعزله كلوزيل وشك في نواياه ، وبقي كذلك إلى عهد بيرتزين ، اذ نجده يقوم بنشاط مكثف لصالح أهل الحضر ومصالح العاصمة والعرب عموماً . ونحن نجد عدة عرائض موقعة من أعيان العاصمة تفوضه بالتفاوض لصالحهم مع الفرنسيين سنة 1831 . وقد نُفاه روفيقو سنة 1832 فعاش في مرسيليا ولكنه لم يتوقف عن قضية بلاده . وتكررت أنشطته فنجده أمام اللجنة الأفريقية 1833 ـ 1834 ، وعند الأمير عبد القادر 1834 ـ 35 ، وعضو بلدية الجزائر من جديد سنة 1836 الخ .

لقد لعب بوضربة دوراً حساساً جعل الجزائريين ينقسمون حوله: فهو عند البعض من الموالين للفرنسيين وهو عند البعض الآخر من ضحايا الفرنسيين، كما جعل الفرنسيين أنفسهم ينقسمون حوله ، فهناك من يعتبره صديقاً لهم ومنهم من يعتبره عدواً لدوداً . ولكل طرف مبرراته . ونحن وإن كنا سندرس هذه الشخصية على حدة[1] ، فإننا نقول إن أحمد بوضربة لم يستطع أن يحقق أهدافه الشخصية والوطنية من الوجود الفرنسي ، وخابت آماله في الفرنسيين عموماً فساند الأمير عبد القادر ، وأنشأ علاقات تجارية مع المغرب . ولم يستطع أن يتحرر تماماً من التبعية الفرنسية لأن زوجته منهم وابنه الوحيد (اسماعيل بوضربة) كان يدرس عندهم (ليسيه لويس لو قران في باريس) ، وتجارته في بلادهم . كما أنه عجز عن ايجاد تنسيق مع الأوجه الأخرى للمعارضة ، أمثال حمدان خوجة، وابراهيم بن مصطفى باشا . وأخيراً واجه بوضربة حرباً شعواء من اليهود الجزائريين والفرنسيين والمغاربة لممارساته التجارية ومحاولاته السياسية للتنقيص من شأنهم ، خصوصاً في الجزائر.

ان العرائض التي صدرت عن أعيان الجزائر بين 1830 ـ 1831 كانت مفعمة

---

(1) جمعنا مادة غزيرة عن أحمد بوضربة من عدة مصادر ، وكنا ننوي إفراده بدراسة مطولة في شبه ترجمة ذاتية ، ولكن البطاقات التي سجلنا عليها تلك المعلومات ضاعت ضمن المحفظة التي ضاعت منا خلال صيف 1988 .

بالثقة في بوضربة وفي كفاءته ، ومنها تلك العريضة التي صدرت عن « اذن السادات الأجلة الكرام ، وكافة علماء الجزائر وقدوة أهل الإسلام ، وكبرائها ومشائخها وأشرافها وأعيانها ، وخاصتها وعامتها » بتاريخ 16 شوال ، 1246هـ ، والموقعة من قبل مفتيين وعلماء وضباط وتجار وخوجات وموظفين سامين . . وكلهم يعبرون عن ثقتهم فيه للتحدث بإسمهم مع الفرنسيين[2] . وهناك عرائض أخرى لاحقة في نفس المعنى . وبالإضافة إلى ذلك لجأ أعيان الجزائر (ومنهم بوضربة) إلى كتابة العرائض إلى المسؤولين الفرنسيين في الجزائر يطلبون منهم رفع الضيم ، ويحتجون على بعض التصرفات التعسفية . ومن ذلك العريضة التي أرسلوها إلى الجنرال بيرتزين يطالبونه فيها (1831) باحترام الاتفاق المبرم بين حسين باشا وبورمون ورد الأوقاف إلى المسلمين ، ويحتجون على استيلاء الفرنسيين على أملاك المسلمين دون أملاك اليهود ، وعلى بقاء المنازل محتلة من قبل الجنود.والضباط دون دفع الكراء للمستحقين . كما طالبوا ، حسب بعض الوثائق ، بتهجير بقايا الأتراك إلى بلادهم ومنع حسين باشا من العودة إلى الجزائر[3] ، واحتجوا أيضاً على « بيع » إقليمي وهران وقسنطينة إلى باي تونس[4] . وقد استمرت عملية التفويض هذه وكتابة العرائض والاحتجاجات ضد سوء المعاملة إلى 1836 . ذلك أننا نجد حمدان خوجة أيضاً يتلقى وهو في فرنسا ، عرائض ورسائل من أولئك الأعيان في نفس الغرض[5] .

ويبدو أن برنامج أعيان الحضر لم يَكد يخرج عن هذه الأمور (التي نص عليها في الحقيقة إتفاق الجزائر) :

1 ـ احترام الدين الإسلامي ومؤسساته وأوقافه ، وإنشاء لجنة من المسلمين لإدارة شؤونه.

---

(2) نسخة منها عندنا ، مصورة من أرشيف ايكس 1H1 .

(3) جاء حسين باشا إلى باريس في اكتوبر 1831 . وتقول المصادر أنه جاء يطالب ببعض حاجاته الشخصية ، ولكن الأعيان الجزائريين فهموا من ذلك أنه جاء يتفاوض مع الفرنسيين لكي يرجع إلى سلطته في الجزائر . أنظر ترجمتنا لزيارة الداي لباريس في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) جـ 3 . ط. بيروت 1990 .

(4) هذه العريضة نشرها عبد الجليل التميمي ، في (المجلة التاريخية المغربية) عدد يناير 1980 ، أنظر ص 17 ـ 24 .

(5) سنتناول حمدان خوجة بالحديث فيما بعد .

2 ـ إعادة الأملاك الخاصة التي استولى عليها الجيش الأجنبي ودفع الكراء وتعويض أصحابها .
3 ـ تسيير شؤون المدينة من قبل الحضر وتقديمهم على غيرهم باعتبارهم القوة الكاثرة والأصلية والغنية.
4 ـ تخفيض نشاط اليهود في الجزائر وطرد الأتراك الباقين منها .
5 ـ فتح مجالات العمل والتعلم والصحافة أمام الجزائريين (فتح المدارس بالعربية وإنشاء جريدة ، الخ) .

ويظهر لك من هذا أن البرنامج ما يزال غير متطور ولا طموح . فهو يقبل بالوجود الفرنسي كحقيقة واقعة ولكن يريد أن يستفيد منه لصالح فئة . كما أن صلة هذه الفئة بالمواطنين خارج العاصمة غير مؤكدة ، اللهم إلاّ ما وجدناه في إحدى العرائض المذكورة من أن أهل وهران قد أرسلوا سراً إلى أعيان الجزائر يضمون إليهم أصواتهم في الإحتجاج على « بيع » وهران إلى باي تونس . واللهم أيضاً إلاّ ما لاحظناه ضد اتهامات الفرنسيين لبوضربة والحضر عموماً من أنهم كانوا «يثيرون» سكان متيجة ضد الفرنسيين ، وأنهم كانوا يطلقون الإشاعات هناك عن رحيل الفرنسيين الوشيك عن الجزائر ، والاتصال بآغا العرب ، محيي الدين بن مبارك ، مما ساعد ، في نظر الفرنسيين ، على تنشيط الثورة ضدهم بين أهل الريف.

ان الصراع بين أهل الحضر ، وعلى رأسهم بوضربة في هذه المرحلة ، وبين الفرنسيين ، قد ساعد على إذكائه أيضاً عدة عوامل . من ذلك تبدل ضباط الجيش الفرنسي في مدة وجيزة (ثمانية في ظرف سبع سنوات) واختلاف أمزجة ومعاملة كل واحد منهم ، وجهل الجزائريين بحقيقة الفرنسيين ، واختلاف المصالح بين أهل القطر كله ما دام الاستعمار لم ينجح بعد في بسط نفوذه إلاّ على أجزاء قليلة من الساحل ، وتباعد الشقة بين عواصم الأقاليم ، وقلة الوعي السياسي العام ، وانعدام تدخل قوة إسلامية أو غيرها مما قد يساعد على تحديد المواقف وبلورة الاتجاهات . فتدخل الدولة العثمانية لم ينجح ، وتدخل باي تونس كان مضراً أكثر منه نافعاً ، وتدخل سلطان المغرب سرعان ما تبخر أمام الضغط الفرنسي ، ولم تبد إنكلترا أو غيرها من الدول الأوروبية اهتماماً حقيقياً بمساعدة حزب المعارضة أو تأييد ثورة مسلحة في الجزائر.

هذا بالنسبة للحزب الوطني أو التيار الذي يمثله الحضر ، أما بالنسبة للحزب العثماني أو التيار الذي يمثله بقايا الأتراك والعثمانيين في الجزائر وبعض الكراغلة ، فالأمر يختلف نوعاً ما . لقد كان من الطبيعي أن يتألف حزب من العناصر المعادية للسلطة العثمانية في الجزائر والتي كان الحرمان السياسي يغذيها والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والدينية في الربع الأول من القرن التاسع عشر تزيد من حدتها . وكان من الطبيعي كذلك أن يتجمع من بقايا الأتراك ومن أنصارهم من الحضر ، خصوصاً الكراغلة ، حزب من الأنصار ، يتأذى من سقوط النظام القديم ويفقد مصالحه الذاتية والسياسية بسقوطه ، ويعمل كل ما في وسعه على إعادته إذا تمكن ، أو مساندة القوى التي تمثله إذا عجز عن استرداده كما كان.

وزاد الفرنسيون هذه الأوضاع وضوحاً حين ساندوا أحياناً من لهم طموح وطني معتدل ، وشعور معاد للأتراك . . . أمثال بوضربة . ولكنهم عندما رأوا الخطر في هذا الاتجاه ساندوا منافسيه وحرضوهم على العداء والكيد له . وقد ظهر ذلك في زعزعة (لجنة الحضر) التي ظهرت حول بلدية الجزائر ، ثم ظهر في زرع الشك عندما وضع كلوزيل أحد الحضريين العاصميين ، وهو مصطفى ابن الحاج عمر ، مكان الباي مصطفى بومزراق في المدية ، وكذلك عندما ساءت العلاقات بين حضر تلمسان . فانقسموا بين مؤيد للأمير عبد القادر (الوطنيون) وزعيمهم حمادي الصقال ، ومؤيد للعثمانيين (الكراغلة) . وكلما حلّ الفرنسيون في مدينة فيها العنصر العثماني جعلوا من سكانه الحضر خصوماً للعثمانيين وأنصاراً للفرنسيين.

فقد تبين لنا من سيرة محمد بن العنّابي ، أنه حاول تزعم الحزب العثماني ولكن كلوزيل تفطن له فنفاه بسرعة[6] ، (سبتمبر 1830) . وقد لفق له تهمة في ذلك تثبت أنه كان على اتصال بزعماء القبائل الريفية ليؤلف منهم جيشاً يطرد به الفرنسيين . وقد أكد ذلك ابن العنابي نفسه بعد نفيه . وليس غريباً أن يقوم ابن العنابي بذلك ، فهو ممن عاش هو وآباؤه في الجزائر منذ حوالي قرنين ، وتولوا فيها الوظائف العليا (الإفتاء والقضاء الخ .) وقد تولى هو الفتوى على مذهب الإمام أبي

---

(6) درسنا حياة ابن العنابي في كتابنا (المفتي الجزائري ابن العنابي ، رائد التجديد الإسلامي) ، الجزائر ، 1978 . وقد اطلعنا على آراء جديدة حوله ضمناها الطبعة الثانية بيروت ، 1990 .

حنيفة ، مذهب العثمانيين ، وقام برحلات وبعثات دبلوماسية إلى المغرب الأقصى واسطانبول ، وحج وزار عدة بلدان اسلامية وعربية ، وتولى التدريس بالأزهر عدة سنوات ، وألف الكتب والرسائل ومنح الإجازات ، ولقي علماء المشرق وتعرف على حكامه ، ومنهم السلطان محمود الثاني ومحمد علي والي مصر ، وباي تونس وسلطان المغرب . ويكفي أن كتابه (السعي المحمود) عبارة عن دعوة للنهوض الإسلامي وضرورة تقليد الغرب في العلوم والتكنولوجيا وفي الأسلحة الجديدة رغم أنه ألفه قبل الإحتلال الفرنسي لبلاده (ألفه سنة 1826).

ويبدو أن ابن العنابي خرج من الجزائر قبل الاحتلال بسنوات بنية الحج فإذا به يبقى بعيداً عنها تسع سنوات ، استغلها في التدريس بالأزهر والتأليف . . ويبدو أن سبب البقاء خلاف والده مع قريب لحسين باشا كان قد سافر معهم إلى الحج ، ولعل سبب المكث في المشرق إعجاب ابن العنابي بنهضة محمد علي وجمود حسين باشا . ومما يفسر ذلك أن حسين باشا قد استدعاه استدعاء خاصاً وأرسل إليه باخرة حملته من الإسكندرية إلى الجزائر ، قبيل الاحتلال (سنة 1245هـ) ، وقدمه على العلماء الذين كانوا حوله واسترضاه . وعندما حلت الكارثة بالجزائر (هل كان الباشا يعرف ذلك قبل وقوعها ؟) وهزم جيش الآغا ابراهيم أمام اسطاويلي وغيرها ، نادى الباشا على محل ثقته ابن العنابي وطلب منه أن ينادي في الناس بالجهاد ويجمع كلمة الجيش المتفرق . وقام ابن العنابي بذلك ، ولكن الأمور كانت قد خرجت من يديه ، بعد استسلام الداي حسين ، فبقي في داره يخطط وينتظر إلى أن جاءه النفي المشار إليه[7].

وكان التخطيط هنا من أجل استرجاع الحكم الإسلامي - العثماني سواء في شخص حسين باشا ، الذي نفى أيضاً (يوليو 1830) أو في أي شخص آخر موال للسلطان والخلافة . ولم تطل مدة ابن العنابي لنعرف الرجل الذي كان سيقف وراءه : بومزراق باي التيطري أو الحاج أحمد باي قسنطينة ، اللذين ادعيا معاً خلافة

---

(7) جاء في مخطوطة (تاريخ عبد الحميد بك) أن ابن العنابي لازم بيته ، بعد أن حارب الفرنسيين أياماً ، وكان يتصل بالعرب (أهل الريف) ويتصلون به سراً ، إلى أن أحسّ به الفرنسيون فهاجموا بيته فلم يجدوا دليلاً ضده لأنه رمى بالأوراق التي تدينه في بيت الراحة . . . والظاهر ان هذه المعلومات استقاها المؤلف (عبد الحميد بك) من ابن العنابي نفسه لأنه تتلمذ عليه في الاسكندرية .

حسين باشا بعد فراغ مكانه ، كما لا ندري من هم أصدقاؤه وخصومه من عناصر الحضر ، اللهم إلاّ ما وجدناه من تعاطف حمدان خوجة معه وسعيه له بتأجيل سفره عدة أيام حتى يصفي ديونه . ولا نشك في أن بوضربة وابن العنابي كانا على طرفي نقيض في بداية الاحتلال ، ولعله لو طال الأمد قليلاً لانجلت المواقف على التفاهم المشترك بينهما كما وقع بين بوضربة وحمدان خوجة .

ولكن نفي ابن العنابي لم يترك الحزب العثماني بدون زعامة . فقد ظهرت عناصر جديدة تعبر عن نفس الإتجاه ولكن ليس بنفس القوة . ذلك أن ابن العنابي كان في ظرف حرج وله عاطفة عثمانية حارة ، أما الذين جاؤوا من بعده فقد وجدوا الساحة وقد ملأها الفرنسيون ، وتدعمت قوات شرطتهم وقضاتهم ، وتدعم أيضاً جيشهم ومواقعهم ، وتقيدت حركات العلماء والمثقفين الجزائريين وعدت أنفاسهم عداً دقيقاً . ولذلك فإنه عندما ظهر إبراهيم بن مصطفى باشا (ابن الداي مصطفى الذي تولى حكم الجزائر ومات مقتولاً سنة 1805) . لم يكن في نفس المستوى والوعي الذي كان عليه ابن العنابي ، كما انه لم يكن يتمتع بتجربته السياسية . ولذلك غرق في دوامة المصالح الذاتية من جهة ومصالح اتجاهه من جهة أخرى . وقد استفاد الفرنسيون من ذلك ، فهو ابن عائلة كبيرة ، وهو يعرف أمور مدينة الجزائر وعائلاتها وعادات البلاد ، وهو من أغنياء البلاد ، ولكن الفرنسيين أخذوا كل أملاكه ، وغرموه عشرين ألف فرنك . وعاملوه بقسوة وإذاية ، اذ عندما عجز عن دفع الغرامة دخل عليه شرطيان عنوة وهو بين نسائه ، ووضعوه في السجن ، رغم أنه كما يقول هذا المصدر صديق للفرنسيين[8] فأدخلوه في لجنة البلدية (ماي 1835) حيث كان مساعداً لرئيسها الفرنسي (بعد أن عزلوا بوضربة) ، ووجدناه سنة 1834 يتقرب منهم برسالة بعثها إلى القائد الفرنسي (فوارول) في شأن المرأة الجزائرية المتنصرة ، وينصحهم بنصائح تشبه نصائح بوضربة ، ولكن في اتجاه آخر اذ ينصح بأن لا يتولى السلطة أهل الحضر (أي العرب) وأن تظل السلطة في يد الفرنسيين ، واحتج على الإشاعة التي راجت عندئذ وهي أن بوضربة سيتولى وظيفة سامية إلى جانب الحاكم الفرنسي[9] . ولذلك عبر فوارول عن ثقته فيه قائلاً إنه وجده من أكثر الرجال الذين

(8) أنظر كتاب (الى الأمة ، عن الجزائر) بدون مؤلف ، باريس 1832 ، ص 10 .

(9) أنظر نص هذه الرسالة في (مراسلات فوارول) ، ص 789 ، حين درسنا حياة وكتاب ابنه (مصطفى بن =

يعتمد عليهم في الجزائر .

ولكن حياة إبراهيم هذا مضطربة أيضاً اضطراب حياة بوضربة وغيره من زعماء هذه الفترة، وليس هناك ترجمة وافية لحياته ولا استمراراً في خط مواقفه، فنحن نجده قد استقال من وظيفة مساعد رئيس البلدية بعد عزل زملائه منها ، وبعد رفض استقالته عزل بقرار[10] . ونحن نجده أيضاً منفياً مع زملائه الحضر إلى عنابة في سجن قصبتها . وذلك بعد أن اتهمه كلوزيل بأنه كان يخفي مفتاح الشفرة التي كانت مستعملة في المراسلات بينه (ابراهيم) وبين حمدان خوجة وغيره من زعماء المعارضة . وقد هدده كلوزيل، في مراسلة مع نائبه (رابتيل) في الجزائر، باتخاذ عقوبة صارمة ضده إذا ما أصرّ على كتمانه . وفعلاً نفذ كلوزيل تهديده . فقد أصدر قرار النفي أولاً في يونيو 1836 ، إلى عنابة ، ثم أقام لهم (إبراهيم وعشرة آخرين) محكمة صورية في سبتمبر من هذه السنة[11] ، ثم أصدر قراراً بنفي معظمهم إلى خارج الجزائر (تونس ، الإسكندرية ، وجبل طارق) ، فإذا بإبراهيم وزميل آخر له من المعفى عنهم . ولكن المصادر المعاصرة تخبرنا أن ابراهيم هذا قد مات في سجنه بعنابة ، وعلى كل حال فنحن لا نجد له نشاطاً سياسياً بعد هذا التاريخ (1836) ، كما نجد المرارة في تأليف (حكاية العشاق) الذي كتبه ابنه سنة 1849 اذ يبكي فيه مجد عائلته وعهد العثمانيين في الجزائر .

والملاحظ أن المحكوم عليهم بالنفي كانوا خليطاً من الإتجاهين أو الحزبين ، أما المعفى عنهما فكلاهما من الحزب العثماني . وهكذا ، فإنه بعد أن كان بوضربة وحزبه هو الذي يطلب من السلطات الفرنسية طرد بقايا الأتراك ، كما فعل مع بورمون بعد حملته الفاشلة على البليدة ، اذ اتهمتهم تلك السلطات بتسليح العرب

= ابراهيم) المسمى (حكاية العشاق) ، ط 2 ، 1983 ، ذكرنا تفاصيل عن حياة والده الذي نحن بصدده ، فليرجع إليه من شاء الإضافة . ومن ضمن ذلك رسالة بعث بها إبراهيم من باريس إلى أحد أقاربه بالجزائر (1833) يخبره فيها انه يسعى مع حمدان خوجة وغيره ، لإعادة الحكم الإسلامي إلى الجزائر وانه متفائل بذلك .

(10) عزله الجنرال رابتيل ، نائب كلوزيل في الجزائر ، أنظر (مراسلات كلوزيل) 686/1 ، وكذلك ص 723 .

(11) التهمة التي وجهت إليهم هي الإتصال بالأمير عبد القادر أثناء حملة كلوزيل على تلمسان ، وهي الحملة التي نتج عنها استيلاء الفرنسيين عليها وأخذها من خليفة الأمير .

واثارتهم ضد الفرنسيين(12) ، انعكست الآية تقريباً فأصبح هو المنفي وخصومه هم المرضي عنهم . وسنعرض بعد قليل لمصير زعماء الحزبين بعد أن نكمل الحديث عن الحزب الثالث ، الذي أسميناه الحزب الفرنسي .

اذا كانت عناصر الحزبين السابقين (الوطني والعثماني) تعود أصولهما إلى ما قبل الإحتلال ، فإن عناصر الحزب الفرنسي لم تظهر إلا مع هذا الإحتلال . وكانت تضم مختلف الأفراد والعائلات التي ارتبطت مصالحها بالوجود الفرنسي . وهي بذلك تشمل بعض رجال الدين والعلماء والأعيان والساسة والموظفين الإداريين ونحوهم ، وكان هذا الحزب قد ضم أيضاً أفراداً من ذوي الإتجاه الوطني السابق ومن ذوي الإتجاه العثماني أيضاً ، بمعنى أن الذين دخلوا فيه كانوا من أصول عربية ومن أصول تركية ، ولم يتبلور اتجاه هذا الحزب بسرعة كما تبلور اتجاه الحزبين الآخرين ، بل ان دوره وآثاره لم تظهر إلا بعد أن أخذ العهد يتقادم بالإحتلال ، وهاجر من هاجر وبقي من بقي من الأعيان والعلماء ، وعزل من عزل منهم وثبت من ثبت . فأصبح الذين انجلت الأحداث عن وجودهم على المسرح هم الذين يمثلون هذا الإتجاه .

ولكن يجب التحذير من الحكم بأن جميع هؤلاء كانوا من الحزب الفرنسي قلباً وقالباً . ذلك أن كثيراً منهم لعبوا أدواراً مختلفة ، فبدأو أنصاراً للعدو ثم تحولوا عنه ، ومنهم من كان عدواً له ثم وجد نفسه من أنصاره ، ثم أن الفرنسيين أنفسهم لم يكونوا واثقين تماماً من ولاء هؤلاء ، فكانوا يَحْذَرُونَهم أشد الحذر ، ويعلمون ، خصوصاً في الفترة التي ندرسها والتي تليها ، أن أولئك الناس لم يكونوا موالين لهم إلا في الظاهر لأن الأحداث أجبرتهم على ذلك ، إذ أن التجربة أثبتت أنهم قد انفضوا من حولهم وناصبوهم العداء عندما حانت الفرصة . وسيتضح لك أن الحزب الفرنسي كانت له زعامات في مختلف المدن وعلى مختلف الفترات(13) .

---

(12) قام بورمون فعلاً بنفي عدد آخر من العثمانيين (من غير الانكشارية طبعاً) ، بلغ عددهم (500) من النساء والأطفال والرجال . وكان النفي بطريقة فظة بحيث اضطر أحدهم ، وهو المسمى قائد يوسف ، إلى دفع دراهم إلى المترجمين لكي يسمحوا له بساعتين اضافيتين عن موعد السفر وهو 30 يوليو ، 1830 . أنظر (احتلال الجزائر من خلال أوراق بورمون) ، باريس 1929 ، ص 187 .

(13) من أبرز الأسماء التي ظهرت خلال هذه الفترة 1830 ـ 1837 : مصطفى بن الحاج عمر الذي تولى للفرنسيين وظيفة باي المدية ، . . وحفيظ (حفيز) خوجة الذي تولى لهم وظيفة وكيل الأوقاف مكان =

وقــد اختلف مـوقف القـادة الفـرنسيين الأولين من ممثلي هــذه الأحـزاب والتيارات . فبعضهم كان يضرب هذا بذاك كما في عهد بورمون وعهد كلوزيل الأول وبيرتزين وفوارول وديرلون ، وبعضهم كان يعاديهم جميعاً ويتخذ منهم موقفاً غليظاً كما في عهد روفيقو وعهد كلوزيل الثاني . فقد عرفنا أن روفيقو قام بنفي واضطهاد عدد من الجميع (الا الذين باعوا أنفسهم)، ومنهم بوضربة (عن الحزب الأول) وابراهيم بن مصطفى باشا (عن الحزب الثاني) وحمدان بوركايب[14] ومصطفى بن الحاج عمر (عن الحزب الثالث) . بينما قام كلوزيـل في عهده الثـاني (1835 - 1837) باضطهـادهم جميعاً والتخلص منهم متهمـاً اياهم بمـوالاة الأمير ومعـاداة فرنسا ، وشن ضدهم حملة بوليسيـة وإعلاميـة من الجزائـر وفرنسـا ، فكان يتتبـع عوراتهم ومراسلاتهم وتحركاتهم ويجعل ملفاً سريعاً عن كل واحد منهم .

فها هو يقول لنائبه في الجزائر (راباتيل) عن الحاج حسن بن حمدان خوجة (من الحزب العثماني) أن قنصل فرنسا في تونس أخبره (أي كلوزيل) بأن الحاج حسن كان يستعد لمغادرة تونس عائداً إلى الجزائر ، وانه كان قبل ذلك قد قام بزيارة قسنطينة ، وأن له علاقات وطيدة مع الحاج أحمد باي قسنطينة ، وأنه كان يكثر من الحديث عن هذا الباي وعن امكانياته واستعداداته[15] . . . ولذلك ظهـر لكلوزيل

= علي بوراده (أوقاف سبـل الخيرات) سنـة 1834 ، ثم مكان مصـطفى بوضـربة (أوقـاف مكة والمدينة) منذ 1836 . أنظر أرشيف ايكس 1H1 .

وقد اتهم علي بوراده بالتآمر والغش المالي ، واتهم بـوضربـة (مصطفى) بـالتهاون والفـوضى الإدارية للأوقاف . ونجد ان الأخير قد هاجر إلى المغرب الاقصى .

(14) كان حمدان بوركايب (ابن أمين السكة) قد تولى منصب آغا العرب للفرنسيين في بداية الإحتلال ، ثم اتهم بالتهاون وترك الثورات تحدث ضدهم فعزلوه . . ونفوه إلى فرنسا حيث تزوج الخ . أنظر ما سبق .

(15) الثابت هو أن علي بن حمدان خوجة (وليس أخاه الحاج حسن) هو الذي رافق والده ، رغم صغر سنه ، إلى قسنطينة للتفاوض مع الحاج أحمد باي ، باسم الدوق روفيقو . وقد كتب علي خوجة مذكراته عن الرحلة وترجمها إلى الفرنسية المستشرق دي ساسي، وطبعت في ميتز سنة 1839 . وهو يعرف أيضاً باسم علي رضا ، وهو الذي تولى فيما بعد حكم ولاية طرابلس الغرب ، وألف كتاباً سماه (مرآة الجزائر) ، موجود فقط بالتركية رغم انه مترجم إليها من العربيـة . والمعروف ان الحـاج أحمد ، باي قسنطينة كان متزوجاً من أخت حمدان خوجة وبذلك يكون حديث الحاج حسن (أو علي) هو حديث عن زوج عمتـه .

(وهو الحاكم العام الفعلي للجزائر) ان الحاج حسن شخص مشكوك فيه وانه لا يعود إلى الجزائر من تونس إلا لمصلحة باي قسنطينة ، ومصلحة ما يسميه كلوزيل الحزب العربي (Parti Arabe) وهو تعبير يعني به الحزب المعادي للفرنسيين سواء كان أصحابه من ذوي الإتجاه الوطني أو العثماني . وبناء على هذه المعلومات أمر كلوزيل نائبه في الجزائر أن يراقب باهتمام كبير سلوك وعلاقات الحاج حسن خلال اقامته في الجزائر[16] . وها هو كلوزيل أيضاً يكرر الأمر لنائبه في الجزائر أن يضيق الخناق على إبراهيم بن مصطفى باشا ويحصل منه على مفتاح الشفرة التي يستعملها (الحزب العربي) في مراسلاته ، بعد أن اكتشف كلوزيل رسائل ملغزة بعث بها حمدان خوجة من باريس إلى أصدقائه في الجزائر تتعلق بالوضع العام وخططهم لمواجهة خصومهم . وقد رأينا أن كلوزيل هدد إبراهيم باتخاذ العقوبة الصارمة ضده اذا لم يبح بسر المفتاح[17] .

ثم جاءت الضربة الكبيرة عندما ألقت سلطات كلوزيل القبض على عدد من قادة الحزبين الذين كانوا بالجزائر ولم ينج منهم الا من كان خارجها ، مثل حمدان خوجة . وبعد السجن في عنابة شهوراً ، وبعد المحاكمة التي جرت يوم 24 سبتمبر 1836 ، جاء قرار الطرد[18] على النحو التالي :

1 ـ أحمد بوضربة الذي كان معزولاً من وظيفة مساعد رئيس بلدية الجزائر ، حكم عليه بالنفي هو وزوجه (الفرنسية) إلى ماهون ثم إلى جبل طارق .

2 ـ الحاج حسن بن حمدان خوجة الذي كان عضواً في نفس المجلس البلدي ، حكم عليه بالنفي إلى الاسكندرية مع زوجه وأبنائه .

3 ـ علي بورداه ، الذي كان وكيلاً لأوقاف سبل الخيرات (الحنفية) حكم عليه بالنفي إلى الاسكندرية مع ابنه .

4 ـ الحاج محمد خوجة المعروف بـ(موزوكورته) الذي كان الوكيل الثاني لسبل

---

(16) رسالة من كلوزيل (حاكم الجزائر) إلى نائبه (راباتيل) بتاريخ باريس 24 مايو 1836 . أنظر (مراسلات كلوزيل) 1/694 .

(17) نفس المصدر 1/723 من رسالة بتاريخ باريس 30 مايو 1836 .

(18) وقع محضر الطرد : كلوزيل ، راباتيل ، بريسون ، بلونديل ، الخ . وذلك يوم 26 سبتمبر 1836 . أنظر أرشيف ايكس 1H1 .

الخيرات ، حكم عليه بالنفي إلى تونس مع عائلته .

5 ـ محمد بن أحمد مكوار الذي قيل انه مغربي (مراكشي) كلفه بوضربة بالاتصال بالأمير عبد القادر ومحيي الدين بن مبارك ، حكم عليه بالنفي إلى تونس مع ابنه[19] .

ولم يكتف كلوزيل بطرد هذه العناصر من الجزائر حتى تستتب له الأمور ، بل إنه تابع نشاطه البوليسي ضد الباقين منهم، أمثال ابن تركية، ومصطفى بن الحاج عمر بدعوى اتصال هؤلاء بالأمير عبد القادر وبالحاج أحمد والتآمر معهما ضد الفرنسيين[20] . كما لاحق كلوزيل حمدان خوجة (كان في باريس) بالكتابات ضده وتسليط الشرطة الفرنسية عليه ، إلى أن خرج من باريس هارباً مردداً قولته المشهورة : « اللهم ظلم الترك ولا عدل الفرنسيين ! » وسنعرف في المرحلة الثانية أن عدداً ممن ظنوا خيراً بالفرنسيين أو الذين لهم عواطف وطنية أو عثمانية هاجروا من الجزائر في اتجاهات مختلفة ، مثل هجرة مصطفى بوضربة إلى المغرب ، وطرد حمودة الفكون وأخيه من قسنطينة إلى الاسكندرية بتهمة التآمر أيضاً . وكذلك كان شأن زعماء الحزبين في المدن الجزائرية الأخرى.

وإذا كانت المقاومة في المدن قد كُبِتَتْ على هذا النحو من الكبت التعسفي وسلطت عليها ألوان العذاب والخوف والسجن والطرد الجماعي والمحاكمة ، فإن المقاومة في الأرياف قد انطلقت انطلاقة عملاقة ، خصوصاً بعد أن حصحص الحق وظهر الباطل . وتبين للناس جور الفرنسيين وعملهم على تدعيم بقائهم في الجزائر . وقد التحقت عناصر عديدة من أهل الحزبين بالمقاومة الريفية التي عبرت عن الأمل المكظوم وشع منها نور الحرية . فقدور بن رويلة وأحمد بوضربة وعلي بن الحفاف وحمادي الصقال قد انضموا لجبهة المقاومة الريفية . وتطلع العلماء والمثقفون والموظفون والأعيان الباقون في المدن إلى النصر الآتي من السيف والبندقية في

---

(19) رغم أن قرار القبض قد شمل عشرة (بإضافة إبراهيم بن مصطفى باشا ، واسماعيل بن أمين السكة ، وحسن خوجة ، والحاج أحمد بن محمد الشريف ، وإغفال إسم العاشر) فإن الطرد قد صدر في شأن المذكورين ، ولا ندري الآن مصير الآخرين ، غير أننا نعرف أن ابراهيم وكذلك ابن أمين السكة قد عفت عليهما المحكمة ، وان ابراهيم قد مات بعد ذلك في سجن عنابة .

(20) أنظر ارشيف ايكس 1H1 (تقرير كلوزيل إلى وزير الحربية) ، أول يونيو ، 1836 .

الأرياف بعد أن عجزت العرائض والاحتجاجات والمشاركة في المجالس واللجان عن تحقيق النصر .

3. المقاومة في الأرياف :

لقد كان انطلاق المقاومة من الأرياف أمراً طبيعياً بعد سقوط الحكم المركزي وظهور الفراغ السياسي وعجز المدن عن صنع قيادة جديدة . ومن المفيد للمؤرخ أن يقارن بين الجزائر في أوائل القرن السادس عشر والجزائر في أوائل القرن التاسع عشر . ففي كلتا الحالتين نجد ظروفاً مشابهة أدت إلى ظهور قيادات جديدة بعد اختفاء القيادات القديمة أو عجزها . وكانت القيادات الجديدة هناك قد ظهرت في الأرياف كما ظهرت القيادات الجديدة هنا . وفي ذلك العهد ملأ الفراغ أمثال عبد الرحمن الثعالبي وسالم التومي وأحمد بن يوسف الملياني وآخرين من زعماء الطرق الصوفية وزعماء الأعراش ، وفي هذا العهد أيضاً (القرن 19) ملأ الفراغ أمثال علي السعدي (الحاج سيدي السعدي) ، والحاج محمد ابن زعموم والحاج عبد القادر (الأمير) وآخرين من زعماء الطرق الصوفية وزعماء الأعراش.

وهنا كما هناك ، كان دور الريف قد حل محل دور المدينة ، وتعددت القيادات ، دينية ودنيوية ، وتعاونت واختلفت ، وتحالفت وتحاربت ، إلى أن ملأت السلطة الجديدة الفراغ ، ومركزت الحكم ، ووحدت البلاد على نظام جديد ، وبقوانين والتزامات جديدة . ففي الماضي فعلت ذلك سلطة بني عثمان التي أقامت حكمها المركزي في مدينة الجزائر ثم أخذت تنتشر بالتحالف والقوة والاغراء إلى أن استتب لها الأمر واتجهت اليها الأنظار واعترفت بشرعيتها المدن والأرياف ، وكذلك كان الحال مع العهد الفرنسي ، فقد احتل الفرنسيون مدينة الجزائر واعتبروا أنفسهم ورثة السلطة العثمانية المنهارة ، ولكن الناس لم يعترفوا بهم ولم يمنحوهم الشرعية الا بعد أن فرضها الفرنسيون فرضاً بالحديد والنار ، واستعملوا وسائل فرق تسد ، وهكذا أجبروا الناس جبراً وقهراً ، ريفيين ومدنيين ، على الخضوع لهم والتعامل معهم والالتزام بقوانينهم.

وفي كلتا الحالتين نجد ظاهرة أخرى واحدة أيضاً ، وهي أنه رغم القيادات فإن القيادة الروحية كانت فوق القيادة الدنيوية ، وأن احداهما لا تستطيع مع ذلك ،

الاستغناء عن الأخرى . فلا غرابة أن نجد في عهدنا هـذا قيادة ثنـائية في معـظم الحالات ، أو القيادة الروحية وحدها محاولة أن تتحول شيئاً فشيئاً إلى الجمع في نفسها بين القيادتين . ونموذج الحاج السعدي ـ ابن زعموم (أو الروح والمادة) قد تكرر في المقاومة الجزائرية . ولكن الحاج عبد القادر (الأمير) تقمص القيـادتين معاً ، ولذلك أصبح أميراً للمؤمنين وليس شيخ زاوية (مرابطاً) أو شيخ عرش (قايداً أو آغا . . .) .

وما دام الفرنسيون قد نزلوا مدينة الجزائر فمن المتوقع أن تبدأ مقاومتهم من هناك . غير أننا لاحظنا أن أعيان المدينة ارتضوا الصلح على الحرب ، ونتج عن ذلك اتفاق الجزائر المشهور والذي بقي حبراً على ورق . فلم يسع أعيان المدينة أمـام استهتار الفرنسيين بالاتفاق الا رفع عقيرتهم بالشكوى إلى الظالم نفسه . وهل يرحم الفاجر الفاتك فريسته ؟ إن الشخصيات والحوادث التي سنأتي عليها في ريف مدينة الجزائر قد جرت تلقائية يدفعها حب الأرض وكره الغريب والانتصـار للدين وحفظ العرض والشرف . وسواء كان هناك تنسيق بين أعيان المدينة وقيادات المقاومة (كما ادعى الفرنسيون) أو لم يكن فالذي لاشـك فيه أن دوافـع الطرفين واحـدة (حب الأرض الخ .) وان اختلفت وسائلهم . ومهما كان الأمر فإننا سنتتبع المقاومة الشعبية الريفية حيث ظهرت أولاً بأول تبعـاً لظهـور العدو على المسـرح في كل شبـر من الجزائر.

والظاهر أن المقاومة الريفية حول مدينة الجزائر قد أخذت مرحلتين : الأولى مرحلة المحاصرة والثانية مرحلة المقاتلة عن طريق الكر والفر والاشتباك. ذلك أنه عندما فشلت المقاومة الرسمية التي اشترك فيها آلاف الريفيين كقوات احتياطية[21] ، وسقطت العاصمة في يد العدو ، تراجعت القوات الريفيـة وأخذت مـواقعها حـول العاصمة ، وظلت تنتظر انجلاء الموقف ، ولكنها كانت تعتبر نفسها في حالة حرب وتأهب ، مصممة على أن لا تترك العدو يخرج من المدينة نحو اليابسة . فإذا كان

(21) تذكر بعض المصادر أن حسين باشا قد حارب بجيش قوامه ثلاثون ألفاً فقط . وكان بإمكانه تجنيد عدد أكبر ، ولكنه كان معتزاً بنفسه وبقوته فلم يستدع أكثر من ذلك العدد . ويبدو أن القضية ليست قضية عدد (كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة) ولكن القضية ارادة وغيرة وطنية واستعداد، ولوكان الداي حسين وجيشه الإنكشاري من « الوطنيين » لما سلم الجزائر إلى العدو بتلك السهولة !

العدو قد انتصر بالسلاح الحديث فليمت جوعاً داخل أسوار المدينة . وهكذا نَظَّمَتْ المقاومة الريفية التلقائية محاصرة العدو من كل الجهات الا من جهة البحر . فأخذ الجوع ينهشه وارتفعت أسعار المواد الغذائية إلى درجة مخيفة ، وراح أعيان المدينة يهربون منها إلى مزارعهم بالريف ، ونفد زاد الفرنسيين، ولكن خُضَرَ وألبان ولحوم متيجة لم تدخل المدينة، واشتاقوا قطعة اللحم فلم يجدوها الا في القطط الهائمة من حولهم . وأخذ المرض واليأس يقضان مضاجعهم.

ولكن هذا الوضع لا يمكن أن يدوم طويلاً . فالقيادات الريفية كانت تراجع نفسها وامكاناتها وتوحد صفوفها ، وقيادات العاصمة كانت تبحث عن حل سياسي مع الفرنسيين وعن حل عسكري مع الريفيين. ومن جهة أخرى أراد الفرنسيون أن يجربوا فك الحصار والخروج إلى متيجة والوصول ، اذا أمكن ، إلى البليدة عاصمة هذا السهل الخصيب . بدأ بورمون هذه التجربة وكررها كلوزيل ، الذي وصل حتى إلى المدية ، وكرر ذلك بيرتزين أيضاً ، وفي عهد روفيقو وقعت مذبحة العوفية الفظيعة[22]، وهكذا تحدى العدو المقاومة الريفية، فكيف كانت ردود الفعل؟ وماذا كانت النتيجة ؟ وقبل الاجابة عن ذلك نود أن ننبه إلى أننا لن ندخل في جزئيات الحوادث والمعارك والتواريخ ، ولكننا سنكتفي بذكر الأحداث البارزة ، والاتجاهات المميزة، وبعض الشخصيات التي كانت لها مواقف خاصة أثناء ذلك .

ان الحوادث التي جرت في سهل متيجة الممتد من الحجوط غرباً إلى بودواو شرقاً ومن العاصمة إلى البليدة والأطلس جنوباً ، خلال سنوات 1830 ـ 1837 حوادث تستحق النظر لذاتها ، لعدة اعتبارات : 1) أنها من نوع المقاومة المبكرة التي علمت النواحي الأخرى المنهج الذي عليها أن تتبعه لصد غارات العدو . 2) إنها جمعت بين قيادتين دنيوية وروحية ، كما سنرى . 3) إنها عرفت تجمعات شكلت نواة المؤتمرات الوطنية التي تبلور فيها الضمير الوطني من أجل الدفاع عن الصالح العام . 4) إنها واجهت ، وبوسائل يمكن تسميتها بدائية ، قوة العدو الشرسة التي كانت متمركزة في العاصمة . 5) وأخيراً فإن جبال الأطلس شكلت حصناً منيعاً تجد فيه القوات الريفية غطاءها عندما يشتد عليها ضغط العدو .

---

(22) عن ذلك أنظر ما مضى ، ص 50 .

وكانت المقاومة الريفية حول مدينة الجزائر قد مرت بمراحل نذكر منها :

1) من اجتماع البرج البحري 1830 إلى اجتماع سوق علي 1832 .

2) ومن هذا التاريخ إلى تعيين الحاج السعدي خليفة للأمير ، 1835 .

3) ثم من هذا التاريخ إلى زيارة الأمير لمنطقة القبائل وتعيين أحمد الطيب بن سالم خليفة له هناك ، 1837 ، وهذا التاريخ هو نهاية الفترة التي ندرسها.

لقد عرفنا أن سهل متيجة كان مقسماً إلى أوطان (أعراش) ، وأن على كل وطن شيخاً أو قائداً كان يخضع في العهد العثماني إلى السلطة المركزية عن طريق آغا العرب الذي يقوم بتعيينه وتنصيبه . ومن هؤلاء القادة برز منذ 1830 اسم الحاج محمد بن زعموم . وكان ابن زعموم اذن قائداً على قبيلة فليسة (تسمى أيضاً فليسة أم الليل) وغيرها . وكان طاعناً في السن (حوالي 70 سنة) عندما غزا الفرنسيون الجزائر . وكان له ابنان ، الحسين وحمدان ، لعبا أيضاً دوراً في الأحداث التي نذكرها . وكان يمتاز بالأناة واستشارة غيره فيما يعزم عليه . ويبدو أنه كانت له يد طولى على غيره من قواد الأوطان الأخرى ، ومن ثمة سوء التاهم مع بعضهم أحياناً في حالة السلم أمثال بلقاسم اوقاسي قائد سيباو . كما أننا لا ندري ولاء أو تبعية الحاج ابن زعموم لبايات التيطري ، خصوصاً بعد سقوط العاصمة ومناداة الباي مصطفى بومزراق بالحرب ضد الفرنسيين[23] . وعلى كل حال فقد كان موقف ابن زعموم في أول الأمر واضحاً ، وهو بقاء الفرنسيين في المدينة وترك أهل الريف في أوطانهم دون تدخل في شؤونهم . ويلتزم الطرفان بذلك في معاهدة رسمية قبل فك الحصار ، ولكن الفرنسيين استكثروا هذا واعتمدوا على قواتهم في فك الحصار بدل المعاهدة أو الاتفاق.

علمت قيادات الريف بخروج بورمون نحو البليدة . فاجتمعوا في مؤتمر واحد في البرج البحري يوم 23 يوليو 1830 (وهو نفس اليوم الذي خرج فيه بورمون) ،

(23) بومزراق قبل ، كما عرفنا ، بالحكم بإسم الفرنسيين فثبته بورمون على المدية ، ولكنه انتقض عليهم وهدد بالهجوم على العاصمة بالتعاون مع قوات المقاومة الريفية . ثم واصل ابنه احمد الثورة على الفرنسيين بعد ان نفي ابوه إلى الإسكندرية . ومما يذكر ان بومزراق عندما قبل بالحكم تحت الفرنسيين ارسل ابنه احمد إلى بورمون يطلب عهد الأمان . فجاء احمد واستلم عهد الأمان وعندئذ جاء بومزراق إلى العاصمة واستلم خلعة التولية يوم 15 يوليو 1830 . انظر أيضاً ما مضى .

وهو الاجتماع الذي حضره قوّاد ورؤساء الأوطان والقبائل العديدة في المنطقة . وبعد إلقاء الكلمات وإبداء الآراء تقرر إعلان الحرب على العدو وعدم تركه يخترق أرضهم ويهين كرامة وطنهم . وكان الحاج ابن زعموم حاضراً للاجتماع ونتج عن ذلك الإجتماع أيضاً ارتفاع الروح المعنوية وعودة الأمل بالتحرير . حتى وصلت الأخبار بذلك إلى العاصمة المحتلة ، فاهتزت وسادها الذعر لدى الفرنسيين والأمل والترقب لدى الجزائريين[24] . وتنفيذاً لمقررات الإجتماع المذكور هاجمت القوات الريفية جيش بورمون أثناء عودته الفاشلة من البليدة واستمرت في مقاتلتها إلى أن جنّ الليل[25] وحتى مشارف العاصمة . وكان ذلك درساً للفرنسيين الذين لم يعاودوا الخروج من العاصمة إلاّ في عهد كلوزيل.

حاول كلوزيل القيام بشبه حملة على البليدة والمدية ، خلال نوفمبر 1830 ، ولكن عاقبتها كانت وخيمة ، كما عرفنا . فقد كانت القوات الشعبية في حوالي سبعة آلاف محارب من جميع الأوطان (فليسة ، الخشنة ، بني موسى ، بني مسرة ، بني خليل ، الخ .) تحت قيادة الحسين بن زعموم وكانت مدفوعة بروح الجهاد التي بثها فيها الحاج السعدي ، فهاجمت (قرب بوفاريك) الخمسين مدفعياً الذين أرسلهم كلوزيل لجلب الذخيرة من العاصمة وقضت عليهم ، ثم هاجم الثوار حامية البليدة الفرنسية التي تحصنت ، كما ذكرنا ، في المسجد وكادت أن تقضي عليها لولا حيلة

(24) أخذ الجزائريون في الريف يشترون السلاح من العاصمة (ربما عن طريق وسطاء من الأعيان أنفسهم) فاشتروا الرصاص والكرطوش والبارود ، ونتيجة لذلك شنق الفرنسيون في العاصمة اثنين ممن اتهموهم بتهريب السلاح ، « ردعاً » للباقين ، وشنّوا حملات تفتيش لكل خارج من العاصمة . أنظر كتاب رينال .

(25) كان بورمون ومن جاء بعده يطلقون اسم «النزهة» على حملة بورمون ضد البليدة، ولكنها كانت «نزهة» دامية ، كما عرفنا ، لم ينج منها القائد العام للحملة الاّ بأعجوبة ، حتى ان مساعده (اسمه تريلان Trelan) قد قتل بضربة كرة في بطنه. وقد عرفنا ان ابنه (اميدي) قد قتل ايضاً في وهران . ولعل ما خفف عليه أعباء الحزن ان صديقه (بولنياك) رئيس الوزراء قد أرسل إليه « عصا المارشالية » عندما كان بورمون راجعاً مهزوماً في (بئر التوتة) . ولكن ذلك كله كان سراباً في سراب لأن نظام الحكم كله قد سقط في فرنسا وأطيح بالملك ورئيس الوزراء وبورمون ، وتكسرت مع ذلك عصا المارشالية على صخرة المقاومة في متيجة ووهران وعنابة ، وهي المحطات الأولى لرحلة جيش شارل العاشر وقائده المهزوم .

استعملها أحد جنود العدو إذ خرج من ثقب حائط وهاجم القوات الشعبية من الخلف فاعتقدت هذه أن جيش كلوزيل الذي كان بالمدية قد وصل وأنها وقعت في كماشة فانسحبت قبل أن تعاود الهجوم(26) . وهكذا كاد يقع بالمسلمين في البليدة ما وقع للمسلمين في جبل أحد ، مع خـلاف وهو أنهم كانوا في أحد يجمعون الأسلاب والغنائم بينما كانوا في البليدة في غمرات الحرب.

وتكررت المعارك بين القوات الشعبية والفرنسيين بين العاصمة وجبال الأطلس . وتوحدت جهود القيادات الواقعة في الجهة الشرقية من متيجة على الخصوص ، وقطعوا الطريق على الإمدادات الفرنسية للحامية التي تركوها في المدية مع الباي الجديد مصطفى بن الحاج عمر. وعادت البليدة إلى أحضان المقاومين، وانحشر خليفة كلوزيل (وهو بيرتزين) وجنده من جديد داخل أسوار العاصمة ، إذ ضيقت عليه المقاومة الخناق عندما هاجمت المشروع الزراعي حتى قتلت المزارعين (وهم جنود) وجعلت الباقين منهم يفرون كالأرانب من المزرعة النموذجية (فيرم موديل) التي أنشأها كلوزيل بالقرب من وادي الحراش لتجربة الاستعمار . وانتشر الرعب والأمل من جديد في العاصمة . ودعم ذلك قوات اضافية جاء بها أحمد بن مصطفى بومزراق الذي قام يدافع عن حقه في تركة والده ، الباي السابق للتيطري . وقد نزل بها قرب بوفاريك ، ثم تقدم بها نحو الفحص (ضواحي العاصمة) . وفي منتصف يوليو 1831 عبرت القوات الشعبية بقيادة ابن زعموم (الابن) وادي الحراش وهاجمت المزرعة النموذجية من جديد وأحرقت المحصول الذي طالما حلم كلوزيل بجنيه وأكله فإذا هو هباء تذروه الرياح . وهددت الحاميات الأمامية التي كان الفرنسيون قد نصبوها دفاعاً عن المدينة المحتلة . وقد خرج إليهم بيرتزين بنفسه على رأس قوة من ثلاثة آلاف جندي . فتراجعوا قليلاً ، ولكن في اليوم الموالي هاجمت الفرق المتجمعة في بوفاريك والتي كان يدعمها الحاج السعدي ، هاجمت المزرعة النموذجية من جديد ، إلى أن خرج بيرتزين لمحاربتها مرة أخرى.

وأمام هذا الوضع الذي أصبح لا يطاق لبرتزين ، استجاب للرأي الذي يقول :

---

(26) أنظر عن ذلك ما مضى ، وكذلك روبان (المجلة الافريقية) ، 1876 ، ص 89 . وتدعي المصادر الفرنسية (روبان ، وبول آزان ، الخ .) ان المسلمين قد خسروا في معركة البليدة حوالي 400 شهيد ، نتيجة ضرب المدافع التي كان يفتقدها المسلمون .

« ابقوا حيث أنتم ونبقى حيث نحن » ، وإلاّ فالحرب بيننا لن تنقطع ، إلى أن تعودوا من حيث جئتم . قبل الجنرال الفرنسي بذلك المبدأ وجرت مفاوضات بينه وبين أعيان المدينة فنصحوه بأن الشخص الذي يقدر على أن يكون وسيطاً بين أهل الريف المجاور وقوات الاحتلال هو الحاج محيي الدين بن مبارك ، الذي كان يتمتع لدى أهل الريف بسمعة مؤثرة ويثقون فيه لمكانته الدينية اذ هو من صنف المرابطين وشيخ زاوية عريقة في القليعة . وقد قبل الشيخ محيي الدين بهذه الوظيفة التي رأى فيها حفظاً لمصالح قومه وإبعاد العدو عن الداخل ، وكان ذلك في شهر يوليو 1831 ، وتلقب بلقب (آغا العرب) ، الذي كان في العهد العثماني تخضع إليه القيادات الريفية كما عرفنا . وبذلك توقفت الحرب إلى حين.

وطالما بقي بيرتزين الذي يتهمه قومه بالضعف والخور لقبوله بذلك الإتفاق ، كان سهل متيجة في عافية حذرة . فقد كان على الفرنسيين أن لا يغادروا العاصمة ، ولكن أسواقها وتجارتها مع الداخل مضمونة ، والأمن العام محفوظ . ولكن مجيء روفيقو بخططه البوليسية وغطرسته قلب الأوضاع وجعل المقاومة الريفية تعود إلى الدفاع عن المبادىء التي قررتها في اجتماع البرج البحري ، وهو قطع طريق الداخل أمام العدو ومحاصرته في المدينة وتجويعه إلى أن يعود إلى بلاده أو يموت حتف ظلفه . وكان الشيخ محيي الدين (آغا العرب) من أول الضحايا لهذا العهد . فقد كان روفيقو يريده عميلاً يشي بقومه ويسهل مهمة الجيش الغازي لعبور سهل متيجة إلى البليدة والمدية وما وراءهما . ولكن الشيخ أبى إلاّ التمسك بالإتفاق مع بيرتزين ، ودافع عن ذلك على أساس أن فيه مصلحة الطرفين . وعندما لم تجد التوضيحات ، اتهمه روفيقو بالتواطؤ مع القوات الشعبية التي عاودت اعتراض طريق جيش العدو الذي كان يحاول فك الحصار.

يضاف إلى ذلك أن روفيقو ارتكب الجريمة النكراء ، وهي مذبحة العوفية ، في إبريل سنة 1832[27] . فكانت هي الفتيل الذي فجر الوضع من جديد . بأي وجه

---

(27) أنظر عن ذلك ما مضى ص 50، وكذلك روبان (المجلة الافريقية)، 1876، ص 93. ويذكر هذا المصدر أن قبيلة العوفية فرع من عرش (عريب) ، وان أصلها من عين بسام ، وكانت تقطن في طريق الفندق غير بعيد من مفترق طرق العلمة ، (بودواو) .

يقابل الشيخ محيي الدين عرب متيجة وهو يحمل لقب آغا العرب الذي أعطاه إياه الفرنسيون ؟ وبأي وجه يلقاهم ،وهو المرابط الورع ، بعد أن خان روفيقو عهد الأمان الذي أعطاه بواسطته لصديقيه قائدي السبت وبني خليل اللذين قطع روفيقو رأسيهما بعد وصولهما عنده إلى العاصمة ؟ إذن لقد أصبح الشيخ في موقف حرج أمام زعماء القيادات الشعبية التي تعاهدت في اجتماع البرج البحري على الدفاع عن أرضها وشرفها . وهنا تبرز شخصية الحاج السعدي على المسرح . وتبدأ المرحلة الثانية من المقاومة الشعبية في المتيجة . وليس هناك ، مع الأسف ، ترجمة وافية وواضحة عن هذا الرجل الذي لعب دوراً بارزاً في قيادة المقاومة الأولى وأشعل نار الحمية الوطنية بإسم الجهاد . وها هو ما استطعنا جمعه حوله من معلومات.

***

الحاج علي السعدي هو حفيد سيدي السعدي دفين مدينة الجزائر سنة 1710 ، وكانت زاويتهم في جهة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي اليوم . وهي الزاوية التي هدمها الفرنسيون ، فيما هدموا من مبان دينية سنة 1870 . وكانت وكالتها متوارثة في عائلة الشيخ السعدي المذكور وكان موردها من الزيارات والأوقاف مثل معظم الزوايا في الجزائر . وبذلك كانت عائلة السعدي من أكثر العائلات الدينية ثراء[28] ، وكانت للحاج السعدي علاقات برجال الدين في الجزائر ، مثل سيدي علي بن موسى ، مرابط المعاتقة ، الذي يكن له احتراماً كبيراً . فكان يزوره ، مع بعض الأتباع كل سنة ، فتوطدت العلاقات بين الرجلين وأصبح الحاج السعدي معروفاً في تلك النواحي أيضاً (نواحي المعاتقة) . وقام الحاج السعدي بأداء فريضة الحج سنة 1827 ، وعرف عن الحصار الفرنسي للجزائر ، وهو في الطريق ، فبقي في الاسكندرية برهة من الوقت واغتنم الفرصة فتجول في المشرق الإسلامي حوالي سنتين ، وعرج على ليفورنيا (إيطاليا) والتقى فيها بالداي حسين باشا قبل أن يعود إلى الجزائر عن طريق البحر[29] .

---

(28) يذكر روبان أن المعلومات التي جمعها عن الحاج السعدي استقاها من حسن بن بريهمات ، أستاذ مدرسة الجزائر العربية الفرنسية ، كما يذكر ان للحاج السعدي اخاً كان ما يزال يعيش سنة 1876 وعمره اذاك 90 سنة .

(29) في رسالة الحاج السعدي الى الدوق روفيقو المؤرخة في فبراير 1832 يذكر ان أجداده كانوا سلاطين =

منذ رجوعه إلى الجزائر تزعم الحاج السعدي حزب المقاومة . فقد وجد أعيان الجزائر قد ركنوا إلى الصلح منتظرين احترام المواثيق وجلاء الفرنسيين بعد أن يسلموا إليهم مفاتيح البلاد من أيدي الترك ! فأخذ الحاج السعدي أولاً يتصل بكل من له استعداد للمقاومة ، وحرضهم على جمع الشمل ، ثم خرج إلى الريف فوجد الإستعدادات أكثر ، والطاعة أقرب ، إذ هو من رجال الدين وهم يثقون في هؤلاء ، خصوصاً وقد كان رجلاً متعلماً ويمتاز بالذكاء الحاد وحب الجهاد ، وكانت له سمعة كبيرة في الورع والتقوى ، وقد زاده الحج صيتاً وسمعة . اشترى الحاج السعدي حصاناً وأخذ يطوف به سهل متيجة ويتصل بأصدقائه رجال الزوايا من الحاج محيي الدين بن مبارك القليعي إلى الشيخ علي بن موسى المعاتقي ، وكان يتردد على ضريح الشيخ أحمد بن يوسف الملياني بمليانة ، حيث يجتمع الفقراء والطلبة والعامة بعيداً عن أعين الفرنسيين(30) . ورفض دخول مدينة الجزائر حتى لا يعيش تحت سلطة كافر ، ولذلك حط رحله عند بني خلفون وبالضبط عند عائلة أولاد علي بن موسى .

= المغرب العربي وانهم من نسل السلطان الأكحل ، وانهم منتشرون في نواحي الجزائر والبيبان وبجاية ، وان الناس قد اقترحوا على روفيقو تسمية الحاج السعدي « سلطاناً » عليهم ولكن روفيقو قال لهم انه لا يعرفه . ويظهر من الرسالة ان السعدي راض بذلك اللقب ، حسب تقاليد العائلة ، كما جاء فيها أخبار عن معرفته لملوك فرنسا الذين طردوا منها فتوجهوا إلى امريكا ثم عادوا اليها وتولوا السلطة . واخيراً يخبر السعدي روفيقو بأنه قرأ تاريخ نابليون منذ الحملة على مصر إلى منفاه في جزيرة سانت هيلينا . أنظر هذه الرسالة ، على اهميتها وما فيها من أخطاء تاريخية ، في (مراسلات الدوق دو روفيقو) 3/107 ـ 110 . وهي غير مؤرخة ولكنها وصلت إلى الجهة الفرنسية بتارخ 29 فبراير 1832 . ويفهم منها ان الحاج السعدي كان مطلعاً على احوال العصر ولو بشكل غامض ، وانه كان فخوراً بأصله ، وانه كان يطمح الى السلطة .

(30) يتهمه بيليسييه دي رينو ، المعاصر له ، والذي تولى شؤون (المكاتب العربية) في الجزائر بعد انشائها ، بأنه كان يهدف إلى طرد الفرنسيين وإعادة حسين باشا إلى الحكم .
أنظر روبان ، المرجع السابق ، ص 91 . ولكن ذلك يبدو بعيداً ، لأننا سنرى أن الحاج السعدي كان يجاهد من أجل تطهير البلاد من دنس الفرنسيين (وهو صحيح) ، ولكن من أجل تحرير الوطن إذ وجدناه يعمل لصالح الأمير والوحدة الوطنية ، ولو كان هدفه عودة حسين باشا لإنتهت مقاومته فور إنتهاء الأمل في رجوع الداي بل وموت هذا الداي سنة 1834 بالإسكندرية ، بينما استمر الحاج السعدي يقاوم إلى ان مات سنة 1843 .
أنظر أيضاً (مزاسلات فاليه) 1/173 .

لم يكن الحاج السعدي من المحاربين ولكنه كان من المحمسين للحرب ومن دعاة الجهاد الذين تستجيب لهم الجماهير وتطلب الشهادة على أصواتهم . ونحن لا ندري كيف كان يؤثر الحاج السعدي في جمهور المقاومين ، هل كان يستعمل الخطابة ، أو التأثير الروحي بالظهور فقط بينهم وتوجيههم . ولكن الذي لا شك فيه أن الحاج السعدي استعمل ، مثل معظم المرابطين الدعاة للجهاد (عبد الرحمن الثعالبي مثلاً) الرؤى الصوفية للتأثير على جمهوره . فقد نسب إليه أنه قال انه رأى الرسول (صلى اللّٰه عليه وسلم) في المنام ووعده بقرب هزيمة الفرنسيين في الجزائر . ولعل هذه الرؤيا كانت فقط من أساطير ذلك الوقت لجلب العامة . ومهما كان الأمر فقد أخذ يتصل بأهل النواحي الشرقية (الرغاية ، بودواو ، سباو ، يسر) بالإضافة إلى بني خلفون والمعاتقة وفليسة . واجتمع شخصياً بزعيم هذه القبيلة ، الحاج محمد بن زعموم المشار إليه ، وتواعدا على الجهاد وتنسيق الجهود ، وذلك في العاشر من يوليو 1831 . وبفضل هذا التنسيق تمكن المجاهدون المنطلقون من سيدي الرزين عن يمين وادي الحراش من الهجوم المذكور على المزرعة النموذجية وطرد وقتل معمريها وإحراق محصولها في نفس الشهر ، وتهديد العاصمة . وكذلك بفضل ذلك التنسيق انطلقت الموجة الثانية من الهجوم من بوفاريك في النصف الثاني من الشهر المذكور . فالحاج السعدي اذن كان عندئذ هو الضمير المحرك خلال هذه الهجومات ، وكان أيضاً وراء الهجومات الناجحة على فرقة بورمون التي تجرأت على التوجه إلى البليدة (يوليو 1830) وحملة كلوزيل (نوفمبر 1830) على المدية والبليدة التي انتهت بالفشل الذريع .

وبعد مذبحة العوفية (ابريل 1832) استئنف القتال ضد العدو ، فكان الحاج السعدي على رأس المجاهدين روحياً والحاج محمد بن زعموم قتالياً (بواسطة ابنه الحسين ، كما ذكرنا ، لكبره هو ومرضه)[31] . وكان الاثنان على صلة وطيدة مع

---

(31) هكذا وصفته المصادر ، غير أن شلوصر في كتابه (قسنطينة أيام احمد باي) ترجمة ابو العيد دودو ، 1980 ، ص 18 ، يذكر أن ابن زعموم كان ما يزال قوي البنية ، يتراوح عمره بين الخمسين والستين سنة . وقد شاهده شلوصر وعرفه عن كثب ، ووصفه بأنه كان بادي الصرامة وأنه كان مرهوب الجانب ، وانه لعب دوراً تاريخياً ، وقال عنه انه رجل متوسط القامة . . . بيضاوي الوجه ، ذو نظرة حادة ، ولحية سوداء يشوبها بياض ، . . . يرتدي سروالاً تركياً رفيعاً وحائكاً وبرنساً ، . . . اما في =

الحاج محيي الدين آغا العرب . وهكذا استطاع الحاج السعدي بالخصوص أن يجلب الحاج محيي الدين إلى صف المجاهدين وأن يجعله يرمي بأوسمة الفرنسيين وقفطانهم ويتقلد سيف الجهاد ضدهم . وأول معركة خاضها المجاهدون هي معركة زاوية محمد التوري (قرب العوفية في مفترق الطرق بين الفندق والعلمة بودواو) ، وهي المعركة التي قتل فيها 57 جندياً مرتزقاً (من اللفيف الأجنبي) ولم ينج من الفرقة كلها سوى ألماني اعتنق الإسلام وسماه الناس أحمد المشهد . وعندما أراد الفرنسيون الانتقام أرسلوا قطعة بحرية نحو يسر ولكنهم عادوا منهزمين بعد أن أمطرهم الأهالي هناك بالرصاص .

ثم كان اجتماع القيادة الجديد في شهر سبتمبر 1832 . وهو الإجتماع التاريخي الذي وقع في (سوق علي) بالقرب من بوفاريك ، والذين أدى إلى جمع الكلمة وتكوين قوة كبيرة من المجاهدين انطلقت ضد العدو وبقيادة ابن زعموم أيضاً . وخرجت القوات الفرنسية لتفريق هذا التجمع الوطني ، ولكن المجاهدين نصبوا لها كميناً في المكان المسمى (المرابط سيدي عيد) حيث فاجأوها وقتلوا منها وأصابها الذعر والخوف والفوضى لولا نجدة أعادت إليها أنفاسها ، وذلك يوم الثاني من اكتوبر 1832 . وفي اليوم التالي عاود المجاهدون الكرة على العدو وأجبروه على التقهقر ، ودخول العاصمة والإنحشار فيها . وكانت هذه الهزائم العسكرية هي السبب في جعل روفيقو يتوقف عن حملات القتال ويلجأ إلى حملات الإرهاب في المدينة حيث وجه انتقامه ضد أعيانها ، كما سبق .

وقد استمرت المناوشات بين المجاهدين وقوات العدو في متيجة خلال 1833 ـ 1834 ، وكان العدو قد تعلم استعمال الهجوم الخاطف بفرق صغيرة . وخلال ذلك كان العدو محاصراً في العاصمة ، ولم يقم بغزوات جديدة إلا على المدن البحرية وبعض المعارك في الداخل من الجهة الغربية (اقليم وهران) كما استطاع العدو بين 1833 ـ 1837 أن يولي بعض القياد الموالين له على بعض

= ميدان المعركة فيرتدي سروالاً احمر وصديرياً احمر أو اخضر ، ووشاحاً احمر بحزام مذهب ، علق به مسدسان فضيان وجعبة صغيرة للذخيرة ، ويلتمع إلى يساره يطقان فضي مقوس ويضع على رأسه عدداً من القلنسوات ، يحيط بها خيط او عمامة حمراء ، وفوقها مظلة قشية واسعة الحافة تحميه من الشمس الخ . « وكان ذلك سنة 1832 » .

أعراش متيجة ، ليضمن التجارة معهم وبيع أهل الريف بضاعتهم في أسواق العاصمة . ولحماية ذلك نصب العدو مراكز مراقبة على خطوط أمامية في الإتجاهات الثلاثة لسهل متيجة (الغرب والجنوب والشرق) .

وفي نفس الوقت كانت أخبار الإنتصارات التي حصل عليها الأمير عبد القادر تصل إلى آذان المجاهدين في متيجة وعلى رأسهم الزعماء الثلاثة : الحاج السعدي والحاج محيي الدين والحاج ابن زعموم ، يضاف إليهم بلقاسم أوقاسي الذي أخذت قواته أيضاً تهاجم العدو بقوة . وكانت معاهدة ديميشال (1834) وحلول الأمير بالمدية وتعيين خليفته (ابن مبارك ، من عائلة الحاج محيي الدين) على مليانة ـ كل ذلك جعل أنظار المجاهدين تتجه نحو الأمير وتعلق عليه آمالاً عريضة . فلا غرابة أن ينضم إلى حزبه كل من الحاج محيي الدين والحاج السعدي (وكلاهما من رجال الدين الذين جعل منهم الأمير عمود سلطته) . أما الحاج ابن زعموم فقد أرسل أحد أبنائه (وقد عرفنا أنه كان مُسِنًّا) وهو حمدان بن زعموم إلى الأمير وقابله هذا في مينة ، ولا ندري ما الرسالة التي حملها حمدان من والده إلى الأمير ولا ما الرسالة التي حملها من الأمير إلى والده . ولعل المفاوضة كانت بشأن تنسيق الجهود ضد العدو والإعتراف بالأمير كرمز للجهاد والوحدة الوطنية . ومهما كان الأمر فقد كانت تلك المفاوضة والتحاق الحاج السعدي بالأمير فاتحة لزيارة الأمير الأولى لمنطقة القبائل وتوحيد الجبهة الوطنية ضد العدو . وهي الزيارة التي حدثت سنة 1837 .

وما دام الحديث ما يزال عن الجهاد في سهل متيجة وعن زعمائه، فلنختم ذلك بالقول بأن الأمير قد عين الحاج السعدي خليفة عنه في المنطقة الممتدة من سهل متيجة المذكور إلى ناحية الشرق لتشمل كل النواحي غير الخاضعة للحاج أحمد باي قسنطينة . لقد ذهب الحاج السعدي إلى مدينة معسكر (عاصمة الأمير) وقابله شخصياً وحدثه عن إمكانات الكفاح في النواحي الواقعة شرقي مدينة الجزائر (بلاد زواوة والقبائل الكبرى اليوم) وحرضه على القدوم شخصياً . وكان انتصار الأمير في معاهدة ديميشال 1834 ثم في معركة المقطع على الجنرال الفرنسي (تريزيل) في جوان 1835 ، حادثين عظيمين شجعا المترددين على الإنضمام إليه والتعلق به ، وكذلك معاهدة التافنة 1837 . وعاد الحاج السعدي إلى ناحية خلافته وقام بمهمته خير قيام يحرض على القتال ويجمع الكلمة ويقود الهجومات . وكانت جهوده هي

التي مهدت لزيارة الأمير منطقة القبائل أواخر سنة 1837 . وفي برج حمزة (البويرة اليوم) نزل الأمير وأعاد تنظيم خلافة الشرق وذلك بتعيين أحمد الطيب بن سالم عوضاً عن الحاج السعدي[32] .

لقد شهدت خلافة الحاج السعدي ثم أحمد الطيب بن سالم معارك حامية ضد العدو خلال 1833 ـ 1837 . وتولى قيادتها كل من الحاج ابن زعموم وبلقاسم أوقاسي. وهي المعارك التي اجبرت الفرنسيين على البقاء غربي بودواو. وقد فقد ابن زعموم خلالها ابنه الشجاع الحسين الذي قاد معارك متيجة بإسم والده ، سيما في البليدة وبوفاريك وحول الحراش[33] . ومهما كان الأمر فقد هاجمت قوات ابن زعموم وأوقاسي متيجة من جديد وضربت على أيدي القياد الذين قبلوا المنصب من العدو ، وخربت المزارع التي كان العدو قد بثها هنا وهناك (ماي 1837) . وحاول الفرنسيون وعملاؤهم ضرب القوات المهاجمة من جهة البر (بني عائشة) ومن جهة البحر (يسر) فلقيهم ابن زعموم (لعل القيادة الآن أصبحت لابنه الثاني ، حمدان) في أولاد بوثلجة . وهاجمهم أوقاسي أيضاً قرب بودواو . وكانت زغاريد النساء في الجبال تشجع المجاهدين على القتال ، وقد هزم العدو وفرت فلوله إلى بودواو الذي لم تصله إلا بشق النفس . وعندما أخذ العدو في اقامة حصن دائم في بودواو ليتخذوه مركزاً دفاعياً يرد منه المجاهدين ، هاجمه هؤلاء بشدة ، فكانت قوات ابن زعموم على الضفة اليمنى من وادي بودواو وقوات أوقاسي على ضفة وادي القورصو ، تناوش العدو ولا تترك له فرصة لإقامة الحصن . وقد وقعت معركة دامية يوم 25 مايو 1837 حين هاجم المجاهدون مشروع الحصن ودخلت قوات ابن زعموم قرية بودواو ، بينما قطعت قوات أوقاسي على العدو طريق العودة إلى الجزائر . ولكن وصول النجدة

---

(32) تنتهي معلوماتنا عن الحاج السعدي عند هذا التاريخ . وتذكر بعض المصادر أنه توجه بعد ذلك إلى زاوية أولاد باباس عند المرابط الحاج علال وتزوج احدى بناته ، وتوفي حزالي سنة 1843 . (أنظر روبان ، المرجع السابق ، ص 218) . ترى هل كان ذهاب الحاج السعدي منذ عزله او بعده ؟ وهل ذهب هناك عن كبر ومرض او عن خلاف ورأي ؟ أنظر ايضا (مراسلات فاليه) 173/1 . وفي كتاب دوماس (القبائل الكبرى) معلومات عنه .

(33) تذهب الروايات الفرنسية إلى ان حسين بن زعموم قتل سنة 1835 أثناء خلافات قبلية . أنظر روبان ، المرجع السابق ، ص 207 .

للعدو جعل المجاهدين يفكون الحصار مؤقتاً . وقد لجأ العدو إلى أسلوب السطو والإرهاب المدني بعد عجزه في الميدان العسكري ، اذ توجهت باخرة فرنسية إلى دلس محملة بالجنود ودخلتها وخطفت أعيانها ، وعلى رأسهم حاكمها المولود بن الحاج علال وقاضيها أحمد المفتي ، وأخذتهم رهائن إلى الجزائر .

هذا هو وضع سهل متيجة والناحية الشرقية من العاصمة إلى انعقاد معاهدة التافنة ، والهجوم على قسنطينة . وقد رأينا ان المقاومة الشعبية أثناء هذه الفترة كانت على أشدها . وكان هدفها محاصرة العدو في العاصمة أولاً ، وعندما أخذ في ضغطه عليها واقامة بعض عملائه في قيادات متيجة والمراكز المتقدمة والحصون ، لجأت المقاومة إلى تعطيله ومناوشته ، بل بإذاقته مرارة الهزائم كما في بودواو والجبال المجاورة ، وعند ذلك لجأ العدو إلى الإرهاب المدني بالخطف للرهائن وتخويف السكان المجردين من السلاح النساء والأطفال ، كما وقع في دلس ، وكما وقع للبليدة والمدية والقليعة من قبل . ويبدو أن هذا الوضع قد أثر أيضاً على معنويات بعض القادة أمثال الحاج بن زعموم . فرغم استمراره في قيادة الجهاد إلى سنة 1837 فإن الفرنسيين يدعون انه كان يطلب منهم الصلح وإبرام معاهدة تشبه المعاهدة أو الإتفاق الذي وقع بين بيرتزين والحاج محيي الدين بن مبارك ، سنة 1831 ، بل ان الفرنسيين يتحدثون عن انه كان من أوائل من كتب إلى بورمون يطلب معاهدة معه . ويبدو انه كان يرى نفسه أقوى قائد في المنطقة المثلثة الواقعة بين العاصمة والمدية وقيادة سيباو . ومن ثمة فهو الشخصية القوية في الناحية المذكورة التي على الفرنسيين التفاوض معها بعد سقوط العاصمة وباي التيطري . ونحن نجد هذه الفكرة ما تزال قائمة إلى نهاية العهد الذي ندرسه . فهذا دامريمون يخبر وزيره للحربية ان ابن زعموم كتب إليه رسالة يخبره انه يرغب في لقائه بالجزائر ، وانه (أي دامريمون) قبل العرض وهو في انتظاره ليرى ما الفائدة التي يمكن الحصول عليها منه ، خصوصاً وقد وعده ابن زعموم ، كما قال ، بتسليم الحاج السعدي ممثل الأمير عبد القادر في الناحية[34] .

---

(34) أنظر الرسالة في (مراسلات دامريمون) ، ص 124 ، وهي بتاريخ 16 ابريل 1837 . كما ارسل ابن زعموم رسائل أخرى إلى دامريمون ، منها واحدة بتاريخ 1838 . وأجابه الوزير بأن يستقبله في الجزائر ، ولكننا لا ندري إن كانت الزيارة قد تمت بالفعل . ويظهر من مراسلات الوزير ودامريمون

4. شرشال والمدية :

عـرفت شرشـال عدم الإستقـرار نتيجة تغييـر السلطة . فبعد اختفـاء السلطة العثمانية ، كان على السكان أن يلتفوا حول قيادة تنظمهم وتحميهم . وقد حدث هذا في مختلف أنحاء القطر ، ولم يكن خاصاً بها . كان سكانها سنة 1830 حوالي ثلاثة آلاف نسمة ، وفيها حوالي 400 منزل وحوالي 200 دكان ، وبين أهلها حرفيون من كل نوع ، وفيها عائلات محترمة بين السكان ، خصوصاً العائلات الدينية . ومنهـا عائلة البركاني ، والغبريني ، وابن عودة الخ . وقد اجتمع أعيان البلدة واتفقوا على تعيين الشيخ محمد بن عيسى البركاني قائداً عليهم ، وكان البركاني من عائلة عريقة سكنت شرشال وبني مناصر وبني بو صلاح ، ولها صيت في الناحية كلها . وكـان البـركاني رجـل حرب ، ولكنـه كان عنـدئذ منقـطعـاً للعبـادة ، بعيـداً عن العـالم الخارجي . ولنلاحظ عابراً ان هذا النموذج من القيادات الشعبية سيتكرر في القطر كله .

قبل البركاني هذه المسؤولية الثقيلة وتلقب بلقب القائد . وكان عليه أن يواجه خطر الفرنسيين وعملائهم وأن يحمي المقاومة في الريف ، وأن يربط علاقات مع القيادات الجديدة ، خصوصاً الحاج محيي الدين ، مرابط القليعة الذي تولى وظيفة آغا العرب للفرنسيين ثم تنحى عنها والتحق بالأمير في مليانة . وكان البركاني صديقاً للحاج محيي الدين وعائلة ابن مبارك عموماً وتربطهما علاقات الدين ، والمصاهرة ، وها هي الآن علاقة جديدة تظهر ، وهي علاقة الجهاد ضد العدو المشترك . وبعد حوالي ثلاث سنوات في قيادة شرشال التحق البركاني بالأمير عن طريق صديقه الحاج محيي الدين ، وترك مكانه للشيخ محمد السعيد ابن عودة الذي قبله أهل شرشال قائداً عليهم [35] . وكان البركاني متصلاً بزعماء متيجة ويحرضهم على جمع الشمل

= انهما كانا يشكان في نوايا ابن زعموم ، خصوصاً وهو يجعل الحرب ضرورية عندئذ رغم رغبته في السلام ، ويخبر عن الهدايا التي أرسلها إليه دامريمون ، وعن كونه لم يرسل ابنه للأمير عندما حضر في حمزة إلّا ليرى قوته ، وان الحاج أحمد ارسل إليه هدية وطلب منه معونته بالجنود فقبل الهدية وأجابه بأنه هو أيضاً مشغول بالحرب الخ . يبقى أن نعرف كيف انتهت هذه الشخصية (ابن زعموم) .

(35) يذهب السيد ل . قان Guin الذي وصف حياة شرشال الأولى إلى أن البركـاني عزلـه الناس سنـة 1833 ، فاستظهر للفرنسيين بوثيقة « مزورة » على أن أهلها يؤيدونه قائداً عليهم ، فارسل الحاكم =

وتكثير المجاهدين لمحاربة العدو . وقع ذلك عندما اتصل سنة 1833 ـ 1834 في البليدة بالحاج موسى الدرقاوي وطلب منه اثارة عرب الصحراء . وبعد انضمامه للأمير أصبح البركاني عضده الأيمن ، وجاء معه بمحاربين شجعان من شرشال ومن بني مناصر وحجوط وغيرهم . وقد حارب مع الأمير في معارك عديدة ، وتولى له خلافة المدية منذ 1837 ، وحارب معه ضد خصمه الحاج موسى الدرقاوي (بو حمار) . وقد استشهد البركاني مجاهداً في معركة الزمالة المشهورة (سنة 1843) إلى جانب خليفة الأمير محمد بن علال[36] .

ظل أمر شرشال متأرجحاً بين الاستقلال وضغط الفرنسيين وضغط الأمير . وبعد معاهدة ديميشال ، 1834 ، والإنتصار على الدرقاوي ودخول الأمير المدية أصبح وضع شرشال مختلفا . فقد بلغت سمعة الأمير آذان الخاص والعام ، وانضم إليه أهل حجوط وبنو مناصر وغيرهم من أرياف الناحية ، فتكثر بهم جيش الأمير وخاضوا حروباً ضد تقدم الفرنسيين نحو القليعة وشرشال . وجاءت الرسائل من خليفة الأمير في مليانة ، محمد بن علال (وهو ابن أخ الحاج محيي الدين بن مبارك ـ زاوية القليعة) إلى الشيخ محمد السعيد بن عودة ، قائد شرشال ، تطلب منه الدخول في طاعة الأمير صراحة ودفع الضريبة له ، وخصوصاً وأن الأمير جعل شرشالا تابعة لخليفته في مليانة منذ 1835 . وكان الشيخ ابن عودة يعد بذلك ولكنه كان يخشى الفرنسيين . وظل الأمر كذلك إلى أن حل الأمير شخصياً بمليانة سنة 1836 ، فلم يسع ابن عودة الا ارسال وفد للأمير وإعلان الطاعة له . وجاء الخليفة ابن علال إلى شرشال بنفسه وحقق في أمور الإدارة ، وأقر ابن عودة في قيادته . ولكن ابن عودة لم يتوجه إلى المدية عندما حل بها الأمير سنة 1837 . فأمره بالحضور ، فحضر رفقة وفد من أعيان البليدة ، منهم الحاج الغبريني ، وقابل ابن عودة الأمير في المدية ، وأمر خليفته في

= العام (ديرلون) من يحقق في الأمر فجاءه تقرير يخالف ما زعمه البركاني وبقي الفرنسيون على علاقة مع القائد الجديد ، ابن عودة . أنظر (المجلة الافريقية) ، 1873 ، ص 460 ـ 464 . وابن عودة هذا هو الذي سيعزله الأمير ويلحق شرشال بخلافة مليانة .

(36) أنظر (مراسلات ديرلون) ، ص 20 ، و (مذكرات شانقارنييه) ، هامش ص 18 . ويخبر هذا (شانقارنييه) الذي طالما حارب ضد البركاني ، انه كان من أفضل خلفاء الأمير ، وانه حارب الفرنسيين بعد طرده من المدية (1837) حرباً لا هوادة فيها إلى وفاته .

مليانة بابقاء ابن عودة عنده ، وعزله من قيادة شرشال ، لعدم صراحة موقفه ، ولعله لولا صداقة ابن عودة والخليفة ابن علال لكان مصيره غير ذلك . وعلى كل حال فان ابن علال عين على شرشال قائداً جديداً من بني مناصر ، هو احمد بن بلقاسم ، يعززه القاضي عبد القادر بن ملزي ، الذي اكتسب ثقة الأمير[37] .

وهكذا دخلت شرشال ونواحيها في إطار المقاومة الوطنية ، بحضرها وريفها ، وعندما حاول كلوزيل أن يعين عليها سنة 1835 ، بايا جديداً ، هو مصطفى بن الحاج عمر، رفضه السكان فلم يستطع أن يضع رجله بينهم، وعاد من حيث أتى[38] . وسنعرف أنه عندما احتلها الفرنسيون سنة 1840 غادرها سكانها إلى بني مناصر والجبال المجاورة حتى لا يعيشوا تحت رحمة العدو .

اما المدية فقد بقيت في حالة فوضى إلى أن دخلت في طاعة الأمير سنة 1834 . وتعود أسباب الفوضى إلى انعدام السلطة فيها ، أو بالاحرى إلى تبدل هذه السلطة في أوقات قصيرة بين قيادات مختلفة . كما تعود إلى حالة الإقليم التاريخية ، وهي الموقع السياسي الجغرافي القريب من العاصمة . فبينما احتفظ اقليم قسنطينة بقيادته إلى 1837 ، وبينما ملأ الأمير عبد القادر الفراغ السياسي في اقليم الغرب بعد سقوط حكم الباي ، ظل اقليم التيطري وعاصمته المدية في حالة فوضى . وقد سبق أن قلنا ان السكان الحضر الذين قدرهم البعض بحوالي ستة آلاف كانت لهم صنائعهم وحرفهم ومعاشهم من الأرض والتجارة ، وكانت لهم مساجدهم ومدارسهم وهيئاتهم الدينية ، ومبانيهم التي تعبر عن ثروتهم[39] . وكان فيها بعض البرانية وبعض اليهود . ولكنها بعد سقوط حكم الباي بومزراق لم تكن قادرة على حماية نفسها إذ أن قيادتها الدفاعية كادت تكون منعدمة ، خصوصاً وقد طمعت فيها قيادات جديدة خارجة عنها ، وضغطت عليها الأعراش المجاورة.

---

(37) أنظر قان ، المرجع السابق ، ص 468 .

(38) أنظر (مراسلات داميمون) ، ص 96 . وعن مصطفى بن الحاج عمر أنظر ما مضى . وهو الذي عينوه في البداية بايا على المدية فلم يفلح أيضاً .

(39) أنظر دراستنا (الحياة الإجتماعية والإقتصادية من خلال دفتر محكمة المدية 1823 ـ 1834) في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ،) ج 2 ، ط 2 . بيروت ، 1990 .

ومن أبرز القوى الأجنبية سلطة الفرنسيين التي انتصبت في الجزائر . وقد رأينا كيف حاول كلوزيل منذ 1830 القيام بحملة ضد المدية، وكيف فشل في مشروعه، رغم أنه أنهى حكم الباي مصطفى بومزراق وعين بدله بايا موالياً هو مصطفى بن الحاج عمر وترك معه حامية بقيادة فرنسية . وعندما رفض السكان هذه العلاقة مع العدو ورفضوا الباي الجديد وهاجمت الأعراش المجاورة الحامية الفرنسية بقيادة احمد بومزراق ، أصبحت المدية في حالة فوضى متناهية . ولم يسع بيرتزين الاّ سَحْبُ الباي العميل والحامية من المدية (فاتح 1831) وترك المدية في حالة يرثى لها . ومن ثمة أصبحت بلاداً مفتوحة لمختلف الزعامات . وقد حاول بو مزراق أن ينصب نفسه في مكان والده ، ولكن وجد صعوبة في جعل نفسه مقبولاً لدى السكان والأعراش ، رغم أنه شارك بقوات المدية في المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين في سهل متيجة ، كما رأينا . وحاول الحاج احمد باي قسنطينة أن يمد أيضاً نفوذه نحو المدية فأرسل رسائله ودعاته ، بل أرسل ممثلاً عنه إلى هناك (1833) ، وهو محمد الحاج[40] . ولكن هذا لم يستطع أن يجلب طاعة المدية ونواحيها إلى الحاج احمد .

ذلك أن التيارات الأخرى كانت لا تنفك عن محاولة جذب المدية إليها . فهؤلاء حضر مدينة الجزائر كانوا على صلة كبيرة بحضر المدية[41] ، وكانوا يمنونهم بالنجدة ويستفيدون من التجارة معهم ، ويضمونهم إلى حزبهم ، الحزب الوطني والحزب العثماني ، لأن أهل المدية كان فيهم أيضاً هذان الاتجاهان . وكان الفرنسيون من جهتهم ، رغم هزيمتهم وانسحابهم ، يحاولون دس الفرقة بين الحزبين المذكورين في المدية ويجعلون أنفسهم أصدقاء لهذا دون ذاك . وكانوا (أي الفرنسيين) على صلة ببعض زعماء الأعراش المجاورة للمدية ، كأولاد حسن بن علي ، وأولاد مختار لعلهم يخلقون منهم قوة ثالثة عند الضرورة . يضاف إلى ذلك ظهور شخصيتين غريبتين في المدية وما جاورها ، وهما الحاج المعطى والحاج موسى الدرقاوي .

أما الحاج المعطى فقد ادعى أنه شريف منفي من المغرب الأقصى (1833)،

---

(40) في بعض الوثائق انه (محمد القاضي) . أنظر إسماعيل عربان (اوربان) في طابلو 1843 ـ 1844 ، ص 404 .

(41) نذكر هنا ان احمد بوضربة كان اصلاً من المدية .

وأنه من أهل الوداية ، وهي الفرقة الدينية المعروفة في المغرب، وأنه جاء إلى الجزائر للجهاد ضد الكفار . وكم شهدت الجزائر خلال هذه الفترة من أمثال الشيخ المعطي ! وكم ظهر من الشرفاء ، ومن رجال الساعة المهديين ! وكم أطاعهم اناس ومشوا في ركابهم طمعاً في الدنيا أو طمعاً في الآخرة ! ولكن ذلك جلب أيضاً الفوضى المتناهية لأن أولئك الرجال لم يستطيعوا أن ينظموا دولة أو يخلقوا قيادة سياسية ، وإنما هي فورات عاطفية واستعراضات بطولية فردية ، سرعان ما تبخرت ! ظهر إذن الحاج المعطي في المدية مدعياً الشرف والجهاد في سبيل الله ، وبقي هناك حوالي أربعة أشهر ، وجاءته طاعة الحضر والبدو في أول أمره ، وسمى نفسه (المولى) . ولكن عهده انتهى بسرعة كما بدأ بسرعة ، لأن الحضر انفضوا من حوله لما رأوا انه لا يطبق الإسلام ولا يعدل بين الناس ، وأطلقوا عليه الأطفال يطاردونه في الشوارع كما تقول بعض الروايات ، إلى أبواب المدينة . كما انفض من حوله أهل البادية لأنه لم يقدهم إلى الجهاد الذي جاء من أجله . ولذلك لم يترك الحاج المعطي من أثر على المدية إلّا ماتركه الزوبعة[42] .

وإذا كان الحاج المعطي لم يؤثر في حركة الجهاد ضد العدو فإن الحاج موسى المعروف بالدرقاوي كان له تأثير كبير . ويرجع ذلك إلى طول مكثه في الجزائر إذ لم يستشهد إلا أثناء ثورة الزعاطشة (1849) . كما يرجع إلى قدرته على التنظيم والتأثير على أتباعه . ولكن تنظيمه وتأثيره لم يجعلاه يرقى إلى درجة القائد أو الحاكم ، فهو إذن لا يخرج عن أولئك الذين مارسوا الفورات العاطفية والاستعراضات الفردية البطولية في تاريخ المقاومة . وينتمي الشيخ موسى إلى الطريقة المدنية ـ الدرقاوية الشاذلية . ويذهب من درس الطرق الصوفية في الجزائر بإمعان ، وهو لويس رين[43] ، إلى أن اسم الشيخ الكامل هو موسى بن علي بن حسين ، وأنه مصري البلد ، فر من مصر بعد أن شارك في حركة عسكرية هناك ،

---

(42) عنه أنظر ف . فرعون Pharaoun ، (مذكرات قبائل المدية) في (المجلة الافريقية) ، 1857 ، ص 51 . أنظر ايضاً عربان (طابلو) المرجع السابق ، ص 404 . وتقول بعض المصادر ان الحاج المعطي في الحقيقة كان مبعوثاً من سلطان المغرب ، رغم انه هو نفى ذلك ، وان ضغط فرنسا على السلطان هو الذي جعله يسحب الحاج المعطي .

(43) أنظر لوسى رين (مرابطون واخوان) ، الجزائر 1886 ، ص 241 .

وجاء إلى طرابلس الغرب ولجأ إلى زاوية الشيخ محمد جعفر بن حمزة المدني المصراتي مقدم الطريقة الدرقاوية ـ الشاذلية. وبعد أن تمكن الشيخ موسى من تعاليم الطريقة الدرقاوية أرسل في مهمة إلى المغرب حوالي سنة 1827 ، ثم دخل الجزائر بعد حوالي سنتين واعتقله الأتراك في مدينة معسكر، وبعد إطلاق سراحه توجه إلى الأغواط وأصبح مؤذناً بها في جامع الأحلاف.

ومنذ أن احتلت فرنسا الجزائر لم يعد الشيخ موسى يفكر إلا في الجهاد وتنظيم المقاومة ضدها. ولما كان تأثير الطريقة التيجانية قوياً في الأغواط فإن الشيخ موسى توجه إلى شيخ الدرقاوية في الونشريس، وهو الشيخ العربي بن عطية، فوجد منه استقبالاً بارداً، وذكّره الشيخ ابن عطية بكلمات الشيخ الدرقاوي في عدم طلب الدنيا(44). ولكن ذلك لم يثبط عزيمة الشيخ موسى في طلب الجهاد. فقد استمر في تجنيد الأنصار، وكان يلازم ركوب حمار فأصبح يدعى من أجل ذلك الشيخ موسى «بوحمار». وتحالف، كما عرفنا، مع الشيخ محمد بن عيسى البركاني، والحاج محيي الدين بن مبارك، والحاج السعدي أثناء مقاومة متيجة، والتقى بالشيخ البركاني (1833) في البليدة وتواعدا على الجهاد وتنظيم العباد، خصوصاً في المناطق الجنوبية. ولعل ذلك هو ما شجع الشيخ موسى على دخول المدية سنة 1834، وهي المدينة التي قلنا أنه لا سلطة فيها عندئذ، وقد التقى الشيخ موسى بالأمير في مكان يسمى (العمري) Ouamri، ودار بينهما حديث يبدو انه لم يفض إلى تفاهم، رغم ما عرفناه عن الأمير من تقديم رجال الدين على غيرهم. ولعل الأمير وجد الشيخ موسى كثير الطموح إلى الدنيا، أو أحس منه عدم الانضباط بينما هو حديدي التنظيم، ولعله وجد فيه علاقات خارجية لا يريدها. والمهم انهما لم يتفاهما وظلا كذلك رغم طول بقائهما في الجزائر بعد ذلك بسنوات واستمرارهما على الجهاد ضد العدو المشترك. حارب الأمير إذن الشيخ موسى، الذي يبدو انه كان مستقلاً أكثر من اللازم. وأخرجه من المدية، وشرده، ولكنه لم يتمكن منه. فهل

(44) أنظر مراسلات الأمير مع الشيخ العربي بن عطية. وقد كانت هذه المراسلات تسير على نفس الأفكار التي قيلت للشيخ موسى ايضاً. ولكن الذي يحيّر حقاً هو ان تعاليم الشاذلية وتعاليم الدرقاوية لا تمنع انصارها من طلب الدنيا ومن الجهاد والاستشهاد في سبيل الله. ولعل الشيخ ابن عطية قال ذلك للأمير وللشيخ موسى لأسباب أخرى لا نعرفها الآن.

ذلك كان لعجز قوات الأمير ؟ لا نظن ذلك . فقد تمكنت من خصوم عديدين للأمير ، منهم من أعلن له الطاعة، ومنهم من قتله، ومنهم من سجنه، الخ. فكيف يبقى الشيخ موسى طليقاً ، كما بقي الشيخ بومعزه بعده طليقاً ؟ ذلك سر لم نعرفه بعد.

ومنذ ظهوره في المدية ثم طرده منها من قبل قوات الأمير (1834) بقيت مقاومة الشيخ موسى هامشية إلى حد كبير ، ولكنها ظلت حية ، خصوصاً في الجنوب وبلاد القبائل . وتلك مرحلة أخرى في تطور الحركة الوطنية سنعود إليها في حينها[45] . ومن آثار الشيخ موسى على المدية دخولها تحت طاعة الأمير . فقد عين عليها الأمير أخاه ، مصطفى بن محيي الدين ، خليفة له ، وعين معه محمد البركاني ، قائد شرشال السابق ، نائباً له . وبذلك دخلت المدية في عهد من الاستقرار الإداري والحماية من تسلل الفرنسيين ومن أطماع الطامعين ابتداء من الأعراش المجاورة إلى أحمد بومزراق إلى الحاج أحمد باي قسنطينة ، إلى رجال الساعة من أمثال الشيخ المعطي . ولكن الفرنسيين الذين فشلوا هناك عسكرياً ، كانوا يكيدون ويرسلون الهدايا والجواسيس ويستقبلون وفود الشاكين والموتورين من المدية[46] .

وقد حز في نفس الفرنسيين دخول المدية تحت طاعة الأمير ، ووصول وفوده إلى البليدة ، وصلات أهل حضر العاصمة به ، وانتعاش المقاومة الشعبية حول هذه المدن كلها ، بل حول شرشال والقليعة ودلس ويسر الخ ، فأرادوا تقليص سلطته وضربها بسلطة معارضة لها يرأسها هذه المرة أحد العلماء التابعين لهم . وهكذا عينوا شخصاً اسمه : محمد بن حسين ، بايا على المدية سنة 1835 ، وكأنه لم يكفهم

---

(45) يقول رين ، المرجع السابق ، ان الشيخ موسى لجأ بعد طرده من المدية إلى جبال مسعد في الجنوب وأسس طريقة صوفية ، وكون قيادتين ، واحدة جعل عليها ابن الحاج ، في الجنوب ، والثانية جعل عليها ، قويدر بن محمد ، في الشمال . ثم توجه هو إلى بلاد القبائل عند بني يعلي ، ثم إلى متليلي ، ثم الى الزعاطشة حيث استشهد 1849 . وقد ترك ابنين : ابو بكر ومصطفى ، الأول اصبح مقدم الطريقة المدنية بالاغواط ، والثاني أستاذ اللغة العربية في معهد الآباء البيض بتونس ، سنة 1884 .

(46) يذكر الحاكم العام ديرلون ان أهل المدية أرسلوا إليه شكوى سنة 1834 عن الفوضى التي عليها مدينتهم أمام تنازع السلطات الطامعة فيها ، ولكن ديرلون عاتبهم على تخليهم عن الباي الذي عينه الفرنسيون عليهم سنة 1830 (أي مصطفى بن الحاج عمر) وبدل أن يعدهم بالنجدة أظهر لهم الشماتة . أنظر (مراسلات ديرلون) ، ص 160 .

تعيين مصطفى بن الحاج عمر سابقاً ! .

وكان محمد بن حسين في الأصل من نواحي المدية ، وكان من أصول تركية ، أو بعبارة أخرى من الحزب الذي أصبح الفرنسيون يتعاونون معه بعد أن شنوا عليه الحرب أول مرة . وقد جاء جزء من عائلته إلى العاصمة ، وأصبح محسوباً على الحزب الفرنسي . وبعد تعيينه على المدية ليقاوم إدارة الأمير هناك رفضه أهل الحضر إلا بعض الأعيان من حزبه . ومن سوء حظه أن خليفة المدية قبض عليه ، وأرسله إلى خليفة مليانة . كما أخذ معه بعض الرهائن الذين اتهمهم بإخفاء الأسلحة والذخيرة ، وفرض غرامة على المخالفين . ومن مليانة أرسل (الباي) محمد بن حسين إلى الأمير ليرى فيه رايه ، ويقال انه حكم عليه بالموت ، وقد نفذ فيه الحكم بمدينة وجدة ، كما يقال ان الأمير حكم أيضاً بقتل الشيخ ابن عودة زعيم الحزب الفرنسي في عرش أولاد حسن بن علي(47) . وبعد معاهدة التافنة 1837 جاء الأمير إلى المدية من جديد،وعزل أخاه مصطفى وعين البركاني خليفة على المدية . فكانت المدية خلال السبع سنوات الأولى من الاحتلال منطلق المقاومة الشعبية في الجنوب ، سواء تلك التي قادتها الأعراش في الأربع سنوات الأولى (العبيد ، الدوائر ، أولاد حسن بن علي ، أولاد مختار الخ .) ، أو تلك التي أثارها الحاج موسى الدرقاوي (بوحمار) الذي استمر حتى بعد خروجه من المدية في تأليب الأعراش على محاربة العدو ، أو أثناء عهد الأمير الذي عرفت فيه المدية نفسها استقراراً إدارياً ومالياً ، وعادت إليها الحياة التجارية والزراعية والتعليمية ، واطمأنت النفوس . هذا وقد كان عهد الأمير في المدية قد شجع أيضاً الحزب الوطني في العاصمة على رفع رأسه بعد أن وهنت قواه من سياسة كلوزيل وروفيقو التعسفية .

---

(47) سيكافىء الفرنسيون أبناء وأقارب هؤلاء ، فقد عينوا ابن محمد بن حسين (قايدا) على ربيعة ، وعينوا اخ ابن عودة (قايدا) على عرش حسن بن علي . . . وعن هذه الحوادث انظر : فرعون (المجلة الافريقية) ، 1857 ، ص 54 ، وكذلك عربان ، طابلو ، المرجع السابق ، ص 404 : وكذلك (مراسلات كلوزيل) 684/1 . وابن عودة هذا غير ابن عودة الذي كان قائداً على شرشال .

5. الإقليم الشرقي (قسنطينة) :

اختلف مصير إقليم قسنطينة عن مصير إقليمي الوسط والغرب في الفترة التي نتناولها . فالقاومة فيه كانت رسمية وشعبية . ولم يتغلغل فيه الفرنسيون إلاّ في نهاية الفترة المدروسة إذ بقيت عاصمته (قسنطينة) صامدة شامخة ، رغم محاولة الفرنسيين تكوين حزب موال لهم فيها . وكانت الشخصية البارزة في هذه الفترة هو الباي الحاج أحمد . كما ظهرت إلى جانبه شخصيات أخرى بعضها موال له ، وبعضها ضده . وسنحاول الآن تتبع مجريات الأمور في هذا الإقليم .

إن إقليم قسنطينة من أكبر وأغنى الأقاليم الجزائرية في العهد العثماني . وكان كثير السكان حتى قدرهم البعض بحوالي مليون ونصف نسمة منهم حوالي ثمانين ألف في قسنطينة وحدها[48] ، ومنه كانت تصدر المنتجات الجزائرية إلى الخارج ، خصوصاً من ميناء عنابة، وكان فيه وجود سابق للفرنسيين تمثل في بعض الامتيازات الإقتصادية التي حولوها إلى نوع من الوجود العسكري أيضاً . وكان على رأس الإقليم سنة الإحتلال الحاج أحمد بن محمد الشريف ، وتحته عدد من الشيوخ والآغوات والقياد ، يحكمون باسمه الأجزاء الأخرى من الإقليم . ورغم حضوره لنزول قوات الغزو بسيدي فرج ومشاركته في معركة اسطاويلي وغيرها ، إلا أنه عاد إلى إقليمه عندما تأكد من سقوط نظام حسين باشا ورأى ضعف وانهيار قيادة الآغا إبراهيم . وللمرء أن يتساءل : لماذا فضل الحاج أحمد الرجوع إلى قسنطينة ولم يحاول إنقلاباً في العاصمة ، خصوصاً وهو جزائري المولد والأم والعاطفة ، وهو أيضاً يعرف مدى سخط الناس عن « تتريك » النظام القائم ؟ هل ان صداقته مع حسين باشا منعته من ذلك ؟ هل ان الحزب الوطني كان يعتبره « تركياً » أيضاً ؟

ان حياة الحاج أحمد أصبحت معروفة إلى حد ما ومبسوطة في عدد من الدراسات[49] ، ولذلك فإننا سنحاول أن نلخص بعضها هنا حتى نربط بينها وبين

---

(48) عن تقديرات سكان اقليم قسنطينة والمدينة أنظر التميمي (اقليم قسنطينة في عهد الحاج أحمد) ، ص 55 ـ 59 .

(49) ظهرت كثير من الدراسات عن الحاج احمد اكاديمية وغيرها ، من ذلك عبد الجليل التميمي (قسنطينة في عهد الحاج أحمد 1830 ـ 1837) ، تونس ، 1978 ، وكتابنا (محاضرات) ، 1982 ، =

الأحداث التي سنسوقها . ان حياته غنية وخصبة وجديرة بالإعتبار . ولد حوالي سنة 1786 لأبيه محمد الشريف بن الباي أحمد القلعي الذي حكم قسنطينة حوالي خمسة عشر عاماً . وأمه رقية ابنة الحاج ابن قانة رأس احدى العائلات الصحراوية الكبيرة، وشيخ من أبرز شيوخها (شيخ العرب) ، وتثقف أحمد بن محمد ثقافة عصره ، فأخذ من العربية الأدب واللسان ، ومن التركية الحكم والسلطان ، وتربى مع لداته أبناء الأسر الجزائرية واندمج في حياة المدينة والريف ، وتمرن على الصيد والفروسية ، ومارس الحكم وهو ابن 18 سنة ، اذ عينه أحد البايات قائداً على قبائل العواسي ، وكان إذا عزل من منصبه يذهب نحو الغرب (مليانة ، العاصمة، البليدة ، الخ .) بعيداً عن المؤامرات حتى يصفو الجو ويأتي من يقربه إليه . وعندما تولى حسين باشا الحكم سنة 1818 قربه إليه واعتبره أحد المخلصين له وعينه نائباً لباي قسنطينة عندئذ ، وهو أحمد المملوك ، ولم تأت سنة 1826 حتى أصبح هو باي الإقليم كله .

قليل هم أرباب السلطة الذين أدوا فريضة الحج في العهد العثماني . فطموحاتهم الدنيوية كثيرة وآجالهم قصيرة ومناوراتهم لا تنتهي ، فكيف يبقى لهم وقت للحج وأداء الشعائر والتثقف عن طريق السياحة ونحوها ؟ ولكن أحمد بن محمد تمكن من أداء الحج ، قبل توليه وظيفة الباي . وبقي أكثر من عام في المشرق يجول ويتعرف ويدرس ويقيم العلاقات . وأثناء ذلك درس الحياة السياسية والفكرية في الحجاز ومصر واسطانبول (لا نعرف أنه زار الأخيرة شخصياً) . وقد اجتمع بمحمد علي والي مصر ، وعرف نهضة مصر على يديه ، واجتمع بأبنائه : ابراهيم وطوسون وعباس[50] . وهذا الرصيد من المعرفة جعله يختلف عن البايات الآخرين أثناء

= ومذكراته : أنظر ترجمتها : محمد العربي الزبيري ، الجزائر 1973 . أنظر كذلك شلوصر (قسنطينة أيام أحمد باي) ، ترجمة أبو العيد دودو ، الجزائر ، 1980 ، و (علاج السفينة) لأحمد اللنبيري ، مخطوط ، و (الفريدة المؤنسة) لمحمد صالح العنبري . ط . 1847 .

(50) أنظر دراسة جان لويس جونيفييف المعروف بالدكتورڤيون Guyon (رحلة الجزائر والزيبان) ، الجزائر 1852 ، ص 283 ـ 397 . في هذا المصدر إشارة إلى وجود مقالة عن احمد باي كتبها عنه بعد وفاته الخوجة إسماعيل بن محمد في جريدة الأخبار رقم 1,546 .

والمعروف ان الحاج احمد كان متزوجاً من عدة نساء ، وله ابناء وبنات ، وانه كان يتخذ الزواج طريقة للنفوذ السياسي ، وانه أملى مذكراته على الضابط المترجم روزي Rouzé أثناء اعتقاله بمدينة الجزائر ، وانه دفن في زاوية عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة ، وانه توفي يوم 30 اغسطس سنة =

الإحتلال : الباي حسن بن موسى في الغرب والباي مصطفى بومزراق في الوسط .

ورغم أن الحاج أحمد كان أقرب العناصر التركية في الجزائر إلى الشعب فإنه ظل وفياً للخلافة والسلطان العثماني . فلم يفكر في إعلان الإستقلال وتوحيد البلاد تحت شعار الوطنية، أو على الأقل لم يستقل استقلالاً في درجة محمد علي والي مصر، نحو السلطان. لقد كان الوحيد الذي يملك التجربة والنظام والقوة سنة 1830 . أما من ظهروا بعد هذا التاريخ فقد كان عليهم أن يبدأوا من الصفر أو كانوا لا يملكون إلا الطموح مثل بعض البايات الذين نافسوه . ان الظروف الجديدة جعلت الحاج أحمد يعتمد على العنصر الوطني بدل العنصر التركي ، ولكن ذلك لم يتحول عنده إلى تغيير للنظام كله وإلى مفهوم جديد في العلاقات مع الشعب ومع الخلافة . وكان ما قام به من إجراء نحو « الأتراك » الذين تآمروا عليه أثناء غيابه في الجزائر ، كان اجراء انتقامياً لا سياسياً .

كان من المفهوم أن تتغير درجة الولاء في قسنطينة بعد سقوط النظام المركزي في العاصمة ، وظهور فكرة العداء « للأتراك » . وبداية الشعور الوطني ضدهم من جهة وضد الفرنسيين من جهة أخرى . ومن ثمة فقد ظهرحزبان على الأقل في قسنطينة منذ 1830 : حزب ينادي باستمرار النظام « التركي » العثماني تزعمه المتآمرون على الباي الغائب ، ولا شك أن هؤلاء وعلى رأسهم حمود بن شاكر ، كانوا يعتقدون أن الحاج أحمد ليس منهم وانه « وطني » بالأمومة والعاطفة والتكوين وانهم خافوا منه ليس على مصيرهم فقط ولكن على مصير النظام كاملاً ، أي الولاء لاسطانبول . أما الحزب الثاني فقد تزعمه أعيان قسنطينة وعلى رأسهم الشيخ محمد بن الفكون ، شيخ الإسلام ، الذي كانت كلمته مستجابة ، يضاف إلى هذا أن الحاج ابن قانة خال الحاج أحمد، قد لعب دوراً في إقناع الأعيان المذكورين بجزائرية الحاج أحمد و « عروبته » وكان هو صلة الوصل بينهم وبين الباي قبل أن تفتح له قسنطينة أبوابها من جديد . ان تاريخ عودة الحاج أحمد إلى قسنطينة وتخلصه من الأتراك المتآمرين ضده بالقتل وغيره واعتماده على جيش جديد من الشعب واستيلاءه من

= 1852، وان القائم عليه عندئذ هو الشيخ الحاج بوقندورة . اما أمه فقد توفيت في نقاوس وهي مدفونة هناك .

جديد على مقاليد السلطة، هذا التاريخ معروف عند الدارسين ولا نريد تكراره هنا . ونحن انما نريد أن نشير إلى عناصر الوطنية في ذلك كله ، وبروز المشاعر المعادية للأتراك والفرنسيين معاً ، وظهور روح المقاومة الشعبية . ولذلك نذكر هنا أن من بين الأحزاب الجديدة في قسنطينة ونواحيها هو ما أسميناه من قبل بالحزب الفرنسي أيضاً .

اعتمد الحاج أحمد اذن على العنصر الوطني أكثر من ذي قبل . فقد سقط النظام المركزي بالعاصمة الذي كان يمكن أن يمده بالدعم العسكري ، وبعدت الشقة بينه وبين الباب العالي ، وكثر خصومه المنادون برأسه والساعون إلى منصبه . وها هم الفرنسيون أيضاً يهاجمون عنابة وبجاية ، ويبثون عيونهم ومناشيرهم ، وها هو باي تونس يتآمر عليه مع الفرنسيين . اذن لا مناص للحاج أحمد من الإعتماد على العنصر الوطني : جيشاً وإدارة ومالاً . فأما شيخ الإسلام فقد جلب إليه ولاء الحضر ، وأما زواجه السياسي فقد جلب إليه ولاء القياد ورجال « الصف » : أهل الحرب والفروسية من أمثال أولاد مقران (مجانة) وأولاد ابن قانة (الزيبان) ، وأولاد عز الدين (زواغة) ، وأولاد عاشور (فرجيوة) . كما ان ولاء ابن عيسى وأضرابه جلب إليه أهل زواوة الصغرى والكبرى بجيشهم القوي وصمودهم المثالي ، وقد أعاد الحاج أحمد على ضوء ذلك تنظيم الإدارة والجيش والمالية والنواحي ، ولقب نفسه بلقب الباشا ، وأرسل إلى السلطان يعلن له الولاء ويطلب التأييد المعنوي والمادي ، وراسل أهل إقليم الوسط يطلبهم البيعة له ، ولكننا لا نعرف أنه طمح إلى طلب البيعة له من الإقليم الغربي . ومن أجل هذا التنظيم الجديد وتخلصه من المتآمرين ضده ، اتهم الحاج أحمد بالقسوة والطغيان وحب المال ، كما اتهم حتى بالجبن[51] . ولكن تلك أحكام ما تزال في حاجة إلى تأكيد أو نفي لأنها أحكام صادرة عن أعدائه الفرنسيين وحزبهم من الجزائريين المعاصرين له .

اذا كان الأمير قد اعتمد في إدارته على رجال الدين فإن الحاج أحمد قد اعتمد

(51) يذكر أحد الفرنسيين ان الباي الحاج احمد اعترف لهم بأنه قطع اثني عشر ألف رأس أثناء حكمه (طبعاً من الجزائريين !) ، أنظر (مذكرات شانقارنييه) ، تعليق في هامش منها . ويقول عنه سيروكا في (المجلة الافريقية) ، 1912 ، ص 379 انه كان يقتل الأتراك الذين تآمروا ضده خمسة أو ستة ستة حتى تخلص من جميعهم بطريقة سرية . وكان عددهم حوالي 1.200 .

على رجال السيف . فالأسماء اللامعة في إدارة الأمير هي : البركاني والسعدي وابن التهامي وابن علال الخ . وكلهم من أهل العلم والدين والزوايا . أما الأسماء اللامعة في إدارة الحاج أحمد فهي : ابن عيسى وابن الحملاوي وابن قانة والمقراني الخ . وكلهم من رجال السيف والحرب . تلك إدارة الإقطاع الديني وهـذه إدارة الإقطاع الإقتصادي . تلك إدارة المثقفين وهذه إدارة الحاكمين .

من أبرز الشخصيات التي خدمت الحاج أحمد ، وزيره الأول (الباشحانبه) : علي بن عيسى . وأوليات ابن عيسى مختلف فيها ، كما أنها لا تهمنا كثيراً هنا ، ولكن نهايته كـانت مأسـاة شأن الكثيـرين ممن ركنوا للفـرنسيين بعد محـاربتهم . فبعضهم يذهب إلى انه من عائلة شريفة ومن أغنياء البلاد وذوي النفوذ اذ كـان له أخوان : أحدهما تولى الإفتاء والثاني القضاء . ويذهب بعضهم إلى أن والـده هو عيسى الفرجاني (من قبيلة بني فرجان) ، وانه بدأ حياته فقيراً مدقعاً يبيع الفحم على حمار له في قسنطينة ، ثم ترقى في التجارة فكان يشتري الحياك ويبادلها بالجلود . وأن أحد أبنائه الخمسة هو علي الذي ندرسه والذي اشترك في فرقة الزواوة التي ألفها الحاج أحمد ، والذي كان يملك دكاناً يتاجر فيه مع ذلك . وعندما تعرف عليه الحاج أحمد نال ثقته وكلفه بمهمة في تونس ، ثم عينه (باشحانبه) إثـر عودة البـاي من المشاركة في صد الحملة الفرنسية ضد الجزائر .

وبعد أن خدم علي بن عيسى رئيسه الحاج أحمد بإخلاص وكفاءة ، ودافع بقوة وبطولة عن عنابة وعن قسنطينة ضد الغزو الفرنسي (في الحملتين) ، قبل بـالأمر الواقع أو تظاهر بقبوله ، فعينه الفرنسيون (عينه نيقريبه ، حاكم قسنطينة) سنة 1838 خليفة على المنطقة الواقعة بين اليدوغ وجيجل . ولكنهم لم يكونوا يثقون فيه وكانوا يعتبرونه رجلاً خطيراً ، فلم يصبروا عليه أكثر من ثلاث سنوات ثم لفقوا له تهمة تزوير العملة وأقاموا له مجلس حرب وحكموا عليه بعشرين سنة أشغالاً شاقة ، وحلقوا له رأسه وكبلوا يديه ورجليه بالحديد ، وسيق إلى منفى خارج الجزائر ـ إلى قلعة لامالق أولاً ثم إلى جزيرة سانت مرغـريت (ولو لم يكـونوا خـائفين منه لأبقـوه مكبلاً في الجزائر) . وبعد تدخلات ابنه وتدخلات شخصيات أخرى رأت أن المسألة سياسية لا جنائية ، سمح له الفرنسيون بالتجول في مونبلييه ثم بالعودة إلى مدينة الجـزائر

(ومنعه من قسنطينة) حيث بقي هناك رجلاً مشبوهاً إلى أن توفي دون تاريخ محدد[52] .

وإذا كانت حياة ابن عيسى لا تعنينا كثيراً بعد 1837 ، فإنها قبل ذلك مهمة لنا خصوصاً ونحن نسلط الأضواء على المقاومة في الشرق . فقد قاد ابن عيسى جيش قسنطينة للدفاع عن عنابة عند محاولة احتلالها من العدو . وأبلى ضد الضالعين في ركاب الفرنسيين أمثال إبراهيم باي الكريتلي الذي ادعى حكم عنابة واستنجد ، كما سنرى ، بباي تونس والفرنسيين . كما قاوم ابن عيسى عدو الحاج أحمد الآخر ، فرحات بن سعيد ، الذي قام يطالب باستعادة حق عائلته في مشيخة العرب في الزيبان . وأخيراً حارب ابن عيسى الفرنسيين في كل من عنابة وقسنطينة ، حتى لقد شهد له خصومه أنه كان الشعلة في الدفاع عن المدينة الأولى (عنابة) سنة 1832 ضد اللقيط يوسف والضابطين دارماندي ودوزي ، وعن المدينة الثانية (قسنطينة) سنة 1836 و1837 ضد كلوزيل ودامريمون وفاليه[53] . وقد أظهرت حروب ابن عيسى أنه كان يمثل الحزب الوطني رغم أنه كان يدافع عن الحاج أحمد الذي كان يمثل الحزب الوطني العثماني في الجزائر، ونسب إليه بعض الفرنسيين أنه قال سنة 1832 أن حسين باشا لو عاد إلى الجزائر فسنعتبره رجلاً عادياً ، ولكن إذا حاول فرض حكمه فسنقطع رأسه لأنه تركي[54] .

ومن الشخصيات الأخرى التي كانت تساند الحاج احمد ، الآغا ابن الحملاوي . فقد ولاه منصب الآغا وعينه على الجيش في الهجوم على عنابة سنة 1832 ، وكان محل ثقته . وكان من المدافعين عن قسنطينة في الحملتين . وقد حاول (نيقرييه) حاكم قسنطينة الفرنسي أن يكسبه فعينه في نفس المنصب سنة 1838 ، ولكن الحاكم العام ، المارشال فاليه ، لامه على ذلك وحذره من خطورة

---

(52) أنظر ياكونو (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 1 ، 1974 ، ص 53 ـ 56 . ويذكر ياكونو ان ابنه احمد بن علي بن عيسى قد اكثر من مراسلة وزير الحربية وغيره من السياسيين الفرنسيين لصالح والده . ومما يذكر ان جول كامبون دافع سنة 1897 عن عدم تعيين أحد ابناء ابن عيسى لأن والده قد حارب الفرنسيين ، أنظر كامبون (حكومة الجزائر) .

(53) أنظر ما قاله فيه شانقارنييه في (مذكرات شانقارنييه) ، الهامش .

(54) أنظر شارول فيرو (المجلة الافريقية) ، 1973 ، ص 184 .

ابن الحملاوي وسوء نواياه المشبوهة نحو الفرنسيين ، وأرسل إليه نسخة من التقرير الذي يثبت إدانته والذي قال انه جمع معلومات فيه من أعوانه في مدينة الجزائر ، ومن تلك المعلومات ان ابن الحملاوي بقي على صلة بالحاج احمد بعد خروجه من قسنطينة إلى الأوراس[55] .

وكما كان للحاج احمد أنصار وأصدقاء، كان له أيضاً خصوم وأعداء. وقد كثر أعداؤه بالخصوص بعد فرض الغزو الفرنسي على مدينة الجزائر . إذ تحرك أصحاب النوايا الخاصة وطمع الطامعون في حكم قسنطينة بمساعدة العدو الفرنسي . ولم يكن يجمع هؤلاء الأعداء جامع سوى السخط على الحاج احمد والإطاحة به ، ولم يقدروا ان المستفيد من تناحرهم هو عدو الجميع .

وهؤلاء الأعداء هم: فرحات بن سعيد، وإبراهيم الكريتلي، ومحمد الصغير ابن نعمون، واحمد الشريف الريغي، وعبد الرحمان سلطان تقرت، وغيرهم[56]، يضاف إلى ذلك عداوة الفرنسيين الذين ناصبوه العداء من أول وهلة وعينوا له اللقيط يوسف بايا منافساً له في عنابة ، كما ان باي تونس كان عدواً له يكيد له مع السلطان ومع رعيته ويتحالف ضده مع الفرنسيين . ومما لا شك فيه أن الأمير عبد القادر كان أيضاً من خصوم الحاج احمد ، ولكنه لم يحاربه في الميدان أو يكيد له مع الفرنسيين ، وإنما بدأ يهتم بقسنطينة بعد توقيع معاهدة التافنة ، وأخذ يسعى بالمراسلة ونحوها إلى الإعتراف به سلطاناً وأميراً للمؤمنين على الجزائر العثمانية كلها .

ومهما كان الأمر فان الدخول في تفاصيل المنازعات بين الحاج احمد وخصومه يخرجنا عن الموضوع ، ولذلك سنكتفي من ذلك بما يمس جانب المقاومة الوطنية إيجاباً أو سلباً . ولو عرف أولئك الخصوم والأصدقاء ما كان يضمره لهم العدو المشترك لما توانوا في الوحدة والتعاون على طرده ، ولاعتبروه شيطاناً رجيما ، وما

---

(55) أنظر (مراسلات فاليه) ، 1/438 .

(56) من هؤلاء أيضاً ابن زكري الذي هرب من قسنطينة إلى الفرنسيين في الجزائر فعينوه قائداً على الخشنة ، ومنهم ابن هني شيخ جبل مغريس ، واحمد بن قندوز ، وشيخ مجانة ، وقايد زمورة ، الخ . وكا ابن نعمون المذكور يجبي الضرائب للباي ثم اعتزل وبقي خارج قسنطينة يكشف عن نقاط ضعف الباي للفرنسيين .

يعدهم الشيطان الاّ غرورا .

***

وكذلك كان الحال في عنابة مثلاً ، عندما اغتر بعضهم بوعود العدو فاذا هي سراب بقيعة لا يلوون منه على شيء ، فقد حاول الفرنسيون النزول في عنابة منذ الثاني من اغسطس 1830 ، كما اسلفنا ، ولكنهم فشلوا . غير ان ظهورهم هناك واختفاءهم بعد شهر كان له ردود فعل نحب أن نأتي عليها . فقد واجهوا ثورة داخل المدينة وخارجها ، اما داخل المدينة فقد تزعم إبراهيم الكريتلي ونصب نفسه بايا هناك في انتظار افتكاك قسنطينة من الحاج احمد . وكان إبراهيم معتمداً في البداية على نفسه وعلى بعض الأتراك الموجودين في القصبة . فقد أيده أعيان القصبة الذين منهم : الأخَوَان زروق واحمد ابني الشيخ ، والقاضي الحسين ، ورجم بن راضية قائد عنابة السابق . ولعل جميعهم كانوا متفقين على النفور من الحاج احمد . وفي شهر ديسمبر 1830 وقع كلوزيل على معاهدة مع باي تونس تعطي اقليم قسنطينة إلى أحد أقاربه ، بما فيه عنابة ، ولكن المعاهدة لم تتم لأن الحكومة الفرنسية رفضت المصادقة عليها ، غير أن آثارها كانت قوية ، فقد جعلت عنابة مثلاً لا تأمن باي تونس ، ولا تثق في الفرنسيين . وأثناء ذلك احتل إبراهيم الكريتلي قصبة عنابة يوم 25 سبتمبر 1831 ورفع عليها العلم الإسلامي . وفي نفس الشهر وصل الضابط (هودير) ومعه الضابط (بيقو) في طريقهما إلى تونس في مهمة سرية ، وحاولا دخول القصبة فقابلتهما النيران وعجزا عن الدخول . وقد استنجد أعيان القصبة بالحاج احمد ، فأرسل اليهم نجدة يقودها عمار بن زقوطة ، ودارت معارك أدت الى مقتل الضابطين الفرنسيين ، هودير وبيقو . كما سبق .

عندئذ استعمل روفيقو ، قائد جيش الإحتلال في الجزائر ، أسلوب الخداع ، فأرسل أحد ضباطه ، وهو دارماندي[57] ، إلى عنابة باعتباره قنصلاً لفرنسا لدى الباي إبراهيم الكريتلي وليتمسك بحقه في العودة إلى حكم قسنطينة. ورافق اللقيط يوسف دارماندي ، وظلا يكيدان للباي إبراهيم وأعيان عنابة ويوقعان بين مختلف الأطراف

(57) كان دارماندي قنصلاً لفرنسا في الحجاز قبل التحاقه بالجزائر ، كما سبق . وكان يعرف العربية ومطلعاً على حياة المسلمين والشرق . مات عن حوالي ثمانين سنة ، عام 1873 . أنظر عنه (المجلة الافريقية) ، 1873 ، ص 254 .

لعلهم يجدون ثغرة للإحتلال الفرنسبي . ويلغ بهما الأمر ان مَكّنا إبراهيم من تجنيد 400 جندي « تركي » من ازمير ، من طلب المعونة من باي تونس . وكان دارماندي واللقيط يوسف يشجعان ما اسميناه من قبل بالحزب التركي . وكانا يدفعان إبراهيم الى محاربة الحاج احمد حتى يضطر إلى طلب النجدة من الفرنسيين . وقد حانت تلك الفرصة عندما هزم جيش الحاج احمد « اتراك » إبراهيم الكريتلي ودخل علي بن عيسى إلى عنابة بالإتفاق مع أعيانها ، وهرب منها دارماندي واللقيط يوسف . عندئذ رضخ إبراهيم لشروط الفرنسيين بالدخول تحت حمايتهم ، وكيف لا يقبل ذلك ، وهو ما يزال محاصراً في القصبة مع جنوده « الاتراك » إلى أن وجد منفذاً هرب منه (27 مارس 1832) إلى جبال اليدوغ عند ضريح الشيخ بو معيزة (؟) كما تقول الروايات.

ولكن الفرنسيين الذين كانوا مختفين وراء إبراهيم الكريتلي تسربوا إلى القصبة وحملوا الجنود « الاتراك » المحاصرين هناك على ضرب جيش ابن عيسى معهم . غير أن هذا رفع الحصار على القصبة وأخلى المدينة ليلاً وخرج أهلها معه حتى يجدها الفرنسيون خاوية على عروشها . وقد عاث اللقيط يوسف فساداً في عنابة ، فقتل ثلاثة جنود مسلمين في القصبة بدعوى انهم كانوا يتآمرون للقيام بثورة ، كما كبل ثلاثة بالحديد ووضعهم في السفينة الفرنسية الراسية بالميناء بعدما قتل المتمردين بالرصاص . وبذلك دشن اللقيط يوسف العهد الفرنسي في عنابة (1832) حيث تهاطلت عليها النجدة من الجزائر وطولون (الجنرال مونك دوزير الذي سبق ذكره) ، ولم يعد الفرنسيون في حاجة إلى خدمات الحزب التركي بعد أن مهد لهم طمع إبراهيم الكريتلي الطريق ، فادعوا ان في هذا الحزب بعض « المتعصبين » أي الذين يكرهون الفرنسيين ، وانهم كانوا على صلة بحسين باشا في ليفورنيا الذي وصلت مناشيره إلى مدينة عنابة داعية إلى الجهاد ، وادعى الفرنسيون انهم اكتشفوا على باخرة تونسية أسلحة وباروداً موجهة إلى المجاهدين في عنابة . وهكذا ظهرت لهم « خيانة » الاتراك فصدرت الأوامر بجمعهم وتجريدهم من الأسلحة فوراً وترحيلهم إلى الشرق[58] .

---

(58) أنظر فيرو ، المرجع السابق ، ص 170 ـ 184 . وقد وقع مثل ذلك في مدينة الجزائر ايضاً ، إذ أن بورمون انتقم من بقايا الأتراك اثر عودته من حملته الفاشلة ضد المدية وأمر بطردهم من الجزائر

غير أن تمركز الحامية الفرنسية في عنابة لم يوقف المقاومة . فمن جهة استمرت مناوشات الحملات الرسمية التي كان يبعث بها الحاج احمد من قسنطينة ، رغم انشغاله بالمؤامرات الداخلية ومناورات فرحات بن سعيد ضده . ومن جهة أخرى انطلقت المقاومة الشعبية على يد بلقاسم بن يعقوب وبلعربي وغيرهما . ومن جهة ثالثة كان إبراهيم الكريتلي ما يزال يأمل في التأثير على بعض الأنصار . يضاف إلى ذلك تيارات سكان المدينة الذين كانوا بين حضر واتراك الخ .

لقد خرج إبراهيم من مخبئه في ضريح بومعيزة بعد أن عادت إليه الآمال في الهجوم على القصبة وافتكاكها من يد الفرنسيين . وزاده في تلك الآمال ان المقاومة الشعبية حول المدينة أخذت تتسع ، وان العواطف المعادية للفرنسيين كانت عالية ، فجند إليه المرابط ابن بغريش مآت من مجاهدي الريف واستعد لإستعادة القصبة من الضابط دوزير . وكان الفرنسيون يعلمون باستعداداته فعزلوا عنه الأتراك في المدينة ، وسجنوا ابنه (إسماعيل) في مدينة الجزائر ، وهربوا أسرته إلى الجزائر أيضا . وحدد إبراهيم تاريخ استعادة القصبة يوم 8 مارس 1832 . . ويبدو أن الفرنسيين كانوا على علم بذلك فاستعدوا له ، ووقعت عليه الدائرة . وبعد الهزيمة توجه إبراهيم إلى المديّة . وتذهب بعض المصادر إلى أنه اغتيل هناك على يد رجال الحاج احمد سنة 1834[59] .

ولعل نبذة عن حياة ابراهيم هذا تساعد على فهم دوره عندئذ . فهو بناء على اسمه ، من جزيرة كريت (الكريتلي) ، تولى وظيفة باي قسنطينة بين 1822 ـ 1824 . وبذلك يكون قد عرف إقليم الشرق وكون فيه علاقات رغم قصر مدته. وبعد عزله من حسين باشا بقي سجيناً أو منفياً (على عادتهم في ذلك) في المدية. وبعد الاستيلاء الفرنسي على الجزائر انتعشت آمال ابراهيم في الرجوع إلى حكمه في قسنطينة . والمعروف ان الفرنسيين حاولوا في 1830 الوصول إلى المدية وعنابة معاً

= بدعوى انهم « تحركوا » لإستعادة الحكم الإسلامي في غيابه . وكان الأتراك المتزوجون لم يطردوا أول مرة فحكم بورمون بطردهم أيضاً بعد حملة البليدة . انظر ذلك فيما مضى .

(59) نفس المصدر ، ص 261 . والمعروف ان المدية عندئذ (1834) كانت تتوزعها عدة تيارات أيضاً: الأمير ، والحاج موسى الدرقاوي ، وفرحات بن سعيد ، والحاج احمد . وقد يكون الفرنسيون هم الذين تخلصوا من إبراهيم الكريتلي بعد ان انتهى دوره معهم .

ولكن بدون جدوى . فهل اتصل بهم ابراهيم عندئذ وغضوا أعينهم عن نشاطه في الشرق الجزائري ؟ ومهما كان الأمر فإن إبراهيم أخذ يراسل من يعرفهم في الإقليم الشرقي ، سيما أهل عنابة واعداً إيّاهم بالنزول عندهم وتَوَلّي حكم قسنطينة ، وتوجه بنفسه إلى هناك وخاض معارك ضد الحاج محمد بن قانة ممثل الحاج أحمد في نواحي التلاغمة ، ولكنه انهزم ففر إلى بنزرت ، وعاد منها إلى عنابة رجلاً عادياً عندما سمع بالثورة ضد الفرنسيين ، ودخل القصبة ، وجند الأتراك الباقين واستجلب منهم من الشرق ، وجاءته معونة من تونس ، سلاحاً وذخيرة وجنداً ، ووعده ابنه اسماعيل المقيم عندئذ في المدية بتجنيد أتراك الجزائر معه : من تلمسان ومستغانم والمدية الخ . ولعل ابراهيم كان أيضاً على صلة مع الفرنسيين ، وكان على استعداد للاعتراف بهم إذا اعترفوا به بايا على قسنطينة وأمدوه باللازم ، ولكنه كان يرفض التحالف المباشر معهم . ولا ندري ما مراسلاته ومواقفه مع الباب العالي .

ويظهر أن ابراهيم الكريتلي كان مؤمناً بحقه في الرجوع إلى حكم قسنطينة مهما كانت الأحوال ، وكان مستعداً للتعاون مع أية جهة من أجل ذلك ، ولو كانت فرنسا أو تونس . وها نحن نراه قد وقف نفس الموقف أيضاً مع القوى الشعبية ، فهو تارة يعزل نفسه في القصبة ويحتمي بالأتراك هناك ضد الحضر وضد الفرنسيين معاً ، وتارة نجده يحتمي برجال الدين ، أمثال ابن بغريش ، وينتصر بالفلاحين الذين كان يقودهم بلقاسم بن يعقوب ، كما تحالف مع فرحات بن سعيد للإطاحة بالحاج أحمد[60] . وهكذا نرى ابراهيم قد أعماه الحقد على الحاج أحمد عن رؤية المستقبل ومعرفة العدو الحقيقي ، وجعله قصير النظر شخصي الحركة ، إذ لم يكن له هدف سوى الإطاحة بالحاج أحمد وتولي منصبه ولو كان ذلك سيجعله يخدم أهداف العدو المشترك . أما عن علاقته بالفرنسيين فهي غير واضحة . ويبدو أنه كان في قرارة نفسه ضدهم . ولكن من أجل هدفه كان يقبل التفاوض معهم على مضض ، وقد حاولوا من جهتهم أن يجعلوا منه قنطرة يمرون بها إلى قسنطينة فعاونوه بطريقة غير مباشرة ، ثم احتلوا مكانه (القصبة) ، واستعملوا رجاله ، وعندما ازوّر منهم انقلبوا عليه

---

(60) نفسه أنظر بالإضافة إلى فيرو ، مجلة (روكاي) ، 1916 ، ص 161 ، وسيروكا (المجلة الافريقية) ، 1912 ـ ص 380 .

وجعلوا منه عدواً فأخذوا عائلته رهائن وسجنوا ابنه ، ولعلهم هم الذين اغتالوه سنة 1834 .

أنجبت المقاومة الشعبية حول مدينة عنابة ما أنجبته حول مدينة الجزائر تقريباً . فإذا كان في هذه قد ظهر الحاج السغدي وابن زعموم وبلقاسم اوقاسي فقد ظهر هنا أيضاً بلقاسم بن يعقوب وبلعربي . . وإذا كانت القبائل والأعراش التي واجهت الصدمات الأولى هي أوطان متيجة وفليسة وعمراوة وحجوط ويسر الخ ، فإن القبائل والأعراش التي تحملت الصدمات الأولى حول عنابة هي : أولاد عطية ، وصنهاجة ، والشرفة وزدير الخ . وما تزال هناك ناحية أخرى للمقارنة بين المدينتين في المقاومة الشعبية . لقد ارتكب كلوزيل مذبحة جامع البليدة ، وارتكب روفيقو مذبحة العوفية وأخذ الرهائن من القليعة عن طريق الغارات الغادرة ، وقتل من أعطى له عهد الأمان ، وارتكب دوزير واللقيط يوسف في عنابة ونواحيها نفس الجرائم ، فقتل اللقيط يوسف الأبرياء صبرا ، وأغار هو وسيده دوزير على خيام أولاد عطية وصنهاجة بين منتصف الليل والساعة الثالثة صباحاً ، ولعدة مرات ، واستعملا فيهم السيف والحرق ، وأخذ النساء والأطفال والماشية إلى عنابة . ويبرر أحد الفرنسيين ذلك الجرم بأنه « درس » ضروري[61] .

لقد اتبعت المقاومة الشعبية هنا نفس الطريقة التي اتبعتها هناك تقريباً ، وهي محاصرة العدو داخل أسوار المدينة ومقاطعته اقتصادياً لتجويعه وإجباره على المغادرة ومهاجمته وترويعه . وقد قام بهذا الدور في عنابة بلقاسم بن يعقوب ، شيخ قبيلة دريد ، والذي كان في هذه المهمة (المشيخة) منذ 1825 . ومنذ استولى الفرنسيون على قصبة المدينة من يد إبراهيم الكريتلي وأنصاره من الأتراك (1832) ، أخذ إبن يعقوب يطبق في السياسة المذكورة (وهي أيضاً نفس السياسة التي اتبعها محيي الدين والد الأمير عبد القادر حول وهران ، كما سنرى) . كما أنه كان يضرب كل من تحدثه نفسه بالقرب منهم أو التعامل معهم . ونتيجة هذه المقاطعة المحكمة والمناوشات المستمرة ، جاع الفرنسيون في عنابة حتى أكلوا القطط ، كما

---

(61) أنظر فيرو ، المرجع السابق ، (1877) ، ص 246 ـ 247 .

فعل زملاؤهم في مدينة الجزائر ، وغلت البضائع وانتشرت الحمى بينهم . فأخذوا يطبقون أساليب اللصوص والمجرمين ، ويسمون ذلك « غزوات » ليلية . وكان اللقيط يوسف وبريقو يخرجان أحياناً لمطاردة ابن يعقوب وجيشه من الفلاحين فلا يظفران به ، وازدادا تأكداً من أنه يتمتع بقوة كبيرة داخل أتباعه وأنه قد يكون على صلة بالحاج أحمد . ولما عجزا عن الظفر به ، لجآ إلى الغارات الليلية على الآمنين.

يقول كتابهم ان دوزير الذي تولى شؤون عنابة منذ مايو 1832 ، عزم على إرهاب العرب بالقوة ، فأمر بريقو بالخروج في منتصف الليل على رأس فرقة من 500 فارس لمعاقبة أولاد عطية المناصرين لابن يعقوب . ثم لحق به هو (دوزير) على رأس ألف راجل . ووصلت قوات بريقو إلى نجع أولاد عطية عند الفجر وأحاطت به ، وعند إطلاق النار استيقظ بنو يعقوب أيضاً . ولم يأت الفرنسيون للحرب ولكن جاؤوا للسلب والنهب ، ولذلك أخذوا الماشية والحبوب وغيرها (التي يحتاجون إليها للغذاء) ، وأخذوا أيضاً النساء والأطفال والعجزة ، لأن الرجال كانوا جميعاً في أهبة السلاح ، كما أنهم لم يعثروا لابن يعقوب على أثر لأن عيونه أخبرته بتقدمهم . وقد طارد رجال أولاد عطية وبني يعقوب لصوص العدو بالرصاص بل واشتبكوا معهم بالسلاح الأبيض[62]. وقد تكررت هذه الغارات الليلية على أولاد عطية سنة 1833 ، وكذلك على أولاد مرداس وغيرهم.

وقد روّع ابن يعقوب الفرنسيين خلال السنوات الأولى لاحتلال عنابة . فهو يحاصرهم بقواته داخل المدينة . وإذا أرادوا الخروج إليه يصليهم نيران بنادقه ، وكان معسكره في سهل سيبوس ، وقد حاول الفرنسيون مفاجأته في معسكره ، ولكنه كان في كل مرة يفلت منهم ، لأن له مخبرين يطلعونه على تحركاتهم ، فلا يقع العدو إلاّ على الماشية والحبوب والنساء والأطفال . والظاهر أن بلقاسم بن يعقوب لم يكن يقود المقاومة الشعبية لحسابه ، وإنما كان يقودها في إطار عملية الجهاد ضد العدو ، ومن ثمة فإن كل من تقدم لمحاربة هذا العدو يسانده ، وها نحن نجده ينضم لقوات علي بن عيسى الذي جاء على رأس الحملة التي بعث بها الحاج أحمد ضد الفرنسيين في عنابة سنة 1834.

---

(62) نفس المصدر ، (1873) ، 256 ـ 258 .

ورغم اننا لا ندري كيف انتهت حياة بلقاسم بن يعقوب[63]، فإن شخصية أخرى قد حلت محله في إرهاب العدو، وهو بلعربي. انضم بلعربي أولاً إلى مجاهدي ابن يعقوب وحارب في صفوفه. ثم كون فرقة من المجاهدين تحت لوائه وأخذ يقوم بمحاربة العدو سواء في الميدان العسكري أو المدني. وتقول عنه أخبار الفرنسيين انه كان يكره المسيحيين (كذا!)، وانه أثار الرعب في مدينة عنابة حتى لا يطمع الفرنسيون، ولا سيما المزارعون منهم، في الإقامة. وكان بلعربي شجاعاً وجريئاً، غادر عنابة عند نزول الفرنسيين بها، واحتمى بجبل اليدوغ، وهو يعرف ذلك جيداً، وكان رأسه يغلي « بالتعصب الديني » الذي نسميه نحن غيرة وطنية وحباً في الجهاد. وكانت طريقة بلعربي هي الغارة على أسوار المدينة والتراشق مع العدو وجعله محاصراً لا يقدر على الخروج. وعندما بدأ الفرنسيون في إقامة المزارع والإستيطان بها، كان بلعربي يغير عليها ويخربها، ويقتل من فيها ويخطف من يتعامل معهم، وكان أيضاً يهاجم المواقع الفرنسية ليلاً. وكانت صنهاجة مساندة له فخرج إليها اللقيط يوسف أثناء الليل وقتل من رجالها من تمكن منه، ونهب ماشيتها وحبوبها ونساءها وأطفالها. وتذهب المصادر الفرنسية إلى أن بلعربي قد استشهد في معركة بجبل اليدوغ في العاشر من اغسطس سنة 1836، وان مساعده قد قبض عليه وأحيل على مجلس حربي![64]. ولكن المقاومة الشعبية حول عنابة لم تتوقف رغم دعم الفرنسيين لسلطاتهم هناك استعداداً لغزو قسنطينة.

وقد عانى حضر عنابة كما عانى حضر الجزائر من تسلط الفرنسيين. عانوا أولاً من الفوضى التي عرفتها المدينة نتيجة تقلب السلطات عليها، ومساندة الفرنسيين

---

(63) تثبت مراسلة بين الحاكم العام بالنيابة للجزائر إلى وزير الحربية ان ابن يعقوب كان ما يزال على رأس المقاومة خلال جوان (يونيو) 1836. فقد جاء فيها ان اللقيط يوسف (باي) خرج إليه في عمق الليل على رأس فرقة في الرابع من الشهر المذكور. ولكنها لم تعثر عليه لأن أخبار خروج العدو قد وصلته، فاستولت قوات العدو على الماشية الخ. أنظر (مراسلات كلوزيل)، 1/759.
والظاهر ان دور ابن يعقوب في نواحي عنابة كأن يشبه دور ابن زعموم في نواحي العاصمة كلاهما كان يرغب في اتفاق مبرم مع الفرنسيين قبل السماح لهم بأي تقدم نحو الداخل. وكلاهما كان يعتبر نفسه هو سيد الناحية في غياب السلطة المركزية الإسلامية.

(64) فيرو، المرجع السابق (1887)، ص 246 ـ 247. عن بلعربي أنظر أيضاً (مراسلات كلوزيل)، 1/657.

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

لفريق دون آخر . فهم مرة أصدقاء العرب ضد الأتراك ومرة أصدقاء هؤلاء ضد العرب . وعانوا من محاصرة المدينة من قبل القوات الشعبية ، وكذلك من قبل جيش أحمد باي . فانقطعت عنهم المواد الغذائية أو كادت ، وكسدت تجارتهم ، وشاعت بينهم ، عن طريق اليهود ، المضاربات والرباءات . وانتشرت بينهم الأمراض التي جلب الفرنسيون بعضها ، خصوصاً الحمى . ولم تعد المدينة تحظى بالنظافة ولا بالماء ، وليس هناك أمن على الحريم والديار . وطالما وقع الاقتتال على القصبة بين عدة سلطات أبرزها : الفرنسيون وابراهيم الكريتلي والحاج أحمد . يضاف إلى ذلك الإهانات التي لحقت بالأملاك والمساجد وتعطيل المدارس ، وإذلال رجال الدين . لذلك كثرت في أعيان عنابة الهجرة إلى نواحي عديدة : قسنطينة ، تونس ، أو الخروج من المدينة إلى النواحي المجاورة انتظاراً لانجلاء الموقف . وقد علمنا أن علي بن عيسى قد أجبرهم (أي الحضر) على مغادرة المدينة بعد حملة 1834 .

وقد وجد الفرنسيون بعض ضعفاء النفوس الذين كانوا مستعدين للتعامل معهم بأي ثمن أو بثمن بخس . وعادة ما يكون هؤلاء الأشخاص من المنبوذين قبل الاحتلال ، أو المغامرين الذين لا تربطهم بالبلاد وأهلها سوى مصالح آنية وأغراض دنوية عاجلة . ومن هؤلاء المدعو مصطفى بن كريم الذي لا نعرف أن له أصلاً في عنابة . فقد أصبح هذا الشخص هو معتمد دوزير أثناء 1832 ـ 1836 ، وكان محل ثقته ، لماذا ؟ لا ندري الجواب بالضبط ، ولكن يبدو أن ابن كريم كان متصلاً بالفرنسيين منذ عهد امتيازاتهم بالناحية ، وهم يقولون عنه انه كان يعرف الفرنسية والإيطالية ، وانه كان على دراية بأمور الشركات الفرنسية التي كانت تتعامل هناك ، كما كان على علاقة مع التجار الأوروبيين قبل الاحتلال ، وهم يقرون بأنه ساعدهم كثيراً على معرفة البلاد وأعيانها واتجاهاتها وتحركات أهلها . ويمدحونه بأنه كان عيناً لدوزير على المسلمين في عنابة ، خصوصاً أولئك الذين كانت تحدثهم أنفسهم بالرجوع إلى العهد السابق (العثماني) ، كما يمدحونه بأن أفكاره كانت دقيقة وأحكامه صائبة ، وأنه ممن انضم إلى الفرنسيين منذ 1830 ، أي منذ غارة دامريمون على عنابة في عهد بورمون . وعندما رجع دامريمون مهزوماً مدحوراً إلى مدينة الجزائر حمل معه مصطفى بن كريم خوفاً عليه من عقاب الناس وعقاب الحاج أحمد ، ولكنه عاد مع الفرنسيين سنة 1832 ، أي مع دارماندي واللقيط يوسف .

ويمدحونه أيضاً بأنه كان مقتنعاً أنه بفعله ذلك انما كان يخدم قضية حضارية[65].

وهذه العلاقة بين دوزير ومصطفى بن كريم أدت إلى شبهات جعلت القضاء الفرنسي يتدخل . فقد جرى تحقيق ومحاكمة ، ومع ذلك خرج الإثنان ، كما يقولون ، دوزير ومصطفى ، بريئين . ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى الإستيلاء على أملاك المسلمين من قبل دوزير وتورط مصطفى في ذلك . إذ أن دوزير يقول انه استولى على الأملاك ليوزعها على الفرنسيين القادمين للإستيطان والإستعمار ، بينما كان المسلمون يتهمون مصطفى بأنه رجل مؤامرات ودراهم ، وان له يداً وفائدة فيما يفعل دوزير . وقد جر التحقيق معهما إلى توريط القاضي أيضاً . ولعل للقيط يوسف دخلاً في هذه الحادثة التي أدت في النهاية إلى عزل خصمه دوزير وإبعاده عن عنابة في مارس 1836 .

ذلك أن القيادة الفرنسية في عنابة كانت متباغضة إلى درجة متناهية ولا يوحدها إلا كره العرب والمسلمين وحب الغزو والسطو . ومن سوء حظ هذه القيادة اننا إلى الآن لا نجد فيها رجلاً رشيداً . فقد انتهت غارة دامريمون بالفشل ، كما عرفنا ، وقتل كل من هودير وبيقو أثناء 1831 عند محاولة الغارة على القصبة ، وقتل دارماندي الذي أرسله روفيقو ، 1832 لمحاولة التحالف مع أو القضاء على إبراهيم الكريتلي ، ولم ينج منهم حتى الآن سوى اللقيط يوسف الذي كان روفيقو يشك فيه حتى أنه بعث إلى عنابة سنة 1832 أحد اليهود ليتجسس عليه . وعندما وصل دوزير (من طولون) إلى عنابة وتولى هو القيادة كان أيضاً يبغض اللقيط يوسف أشد البغض[66]. ولعل مصطفى بن كريم كان أيضاً عيناً لدوزير على يوسف. ومهما كان الأمر فإن الخلاف بين دوزير واللقيط يوسف أدى إلى انسحاب الثاني من عنابة بأمر من الأول في يناير

---

(65) نفس المصدر ، 1873 ، ص 349 ـ 351 . أنظر أيضاً (مراسلات كلوزيل) ، 1/384 ، 531 . ومن الغريب ان كلوزيل في مراسلاته مع وزير الحربية دافع عن الأخلاق ، فقال ان مصطفى بن كريم شخص لا اخلاق له وانه جمع مالاً كثيراً في عنابة وليفورنيا ، وان دوزير مخدوع فيه الخ . وفي مراسلة اخرى.دافع كلوزيل عن المصلحة فقال للوزير انه ابقى مصطفى على نفوذه مع اللقيط يوسف ، حتى يحافظ على خدماته لصالح فرنسا .

(66) من الذين كانوا يبغضون اللقيط يوسف أيضاً بيليسييه دي رينو صاحب (الحوليات الجزائرية) ، وقد كتب ضده عبارات جارحة . أنظر أيضاً بول آزان (الاحتلال) .

1835 . غير أن مجيء كلوزيل من جديد على رأس السلطة الفرنسية في الجزائر جعل حظوظ اللقيط يوسف تبدو أكثر لمعاناً . فقد عينه كلوزيل « بايا » على قسنطينة خلفاً للحاج أحمد (كذا) الذي ما يزال في قاعدة حكمه قسنطينة . فرجع اللقيط يوسف إلى عنابة ، مقر حكمه الجديد ، رغم أنف دوزير الذي يبغضه . وإذا كان تعيين اللقيط يوسف بايا على قسنطينة يعتبر تمهيداً للحملة الأولى ضدها ، فإنه من وجهة نظر دوزير يعتبر إهانة شخصية له ، إذ كان عليه أن يجمع حقائبه ويرحل تاركاً مقر قيادته « للباي الجديد » ، وهكذا غادر دوزير عنابة في مارس 1836 غير مأسوف عليه من أحد ، حتى ان المحاكمة التي جرت لمصطفى بن كريم وصديقه القاضي ، اعتبرت في الحقيقة محاكمة له هو وإهانة بالغة في حقه[67] .

* * *

وهناك مدينة ساحلية أخرى كان احتلالها قد مرّ بوضع شبيه بوضع عنابة ، وهي بجاية ، وكانت محاولة احتلالها قد بدأت سنة 1833 ، غير أن ذلك لم يكن سهلاً . فقد حاولوا إنزال قطعة فرنسية بها ، فإذا بها تصلى بنار حامية من القلاع الثلاث التي تحيط بالمدينة . وبعد تبادل طويل للنيران استطاعوا إسكات نيران القلاع ولكنهم وجدوا أنفسهم في أتون من المقاومة العنيدة التي أبداها السكان تعززهم الفرق المنحدرة من الجبال المجاورة . وقد استبسل الأهالي دفاعاً عن المدينة ودام القتال أربعة أيام ، ودارت المعارك من بيت إلى بيت ، واستعصت المدينة على العدو فاستنجد بالجزائر ، فأنجدتهم وبذلك تمكنوا من إحتلال بجاية التي أصبحت شاغرة من سكانها وأصبحت خراباً ، حتى لقد قال عنها أحد الكتاب بعد إثني عشر عاماً ، انها ما تزال مخربة ، بل إزدادت خراباً[68] .

وقد استمرت المقاومة خارج بجاية ، في وضع شبيه بالمقاومة التي ظهرت في سهل متيجة وسهل السيبوس . فقد تراجع السكان إلى النواحي الآمنة ، وظلوا يحاصرون العدو في المدينة المخربة حتى أن قائد الحامية الفرنسي قرر الإنسحاب أمام الخوف والجوع . وفي صيف 1836 كان قائد الحامية هو سلمون Salamon

(67) كان مصطفى بن كريم يشغل وظيفة « قايد » عنابة في عهد دوزير . أنظر (مراسلات ديرلون) ، 156 .

(68) ج . جاك كنيدي Kennedy (الجزائر وتونس) ج 1 ، ص 262 .

ومعاونه دي موزيس . وأثناء استجواب هذا للشيخ أمزيان ، هجم المجاهدون على الفرنسيين فقتلوا الضابطين المذكورين وغيرهما وكادوا يستعيدون المدينة[69] .

6. احتلال قسنطينة ونهاية المقاومة الرسمية :

منذ 1830 تركزت عيون الغزاة على قسنطينة أيضاً ، ولكنهم عجزوا عن غزوها إلا بعد مرور سبع سنوات . وقد سلكوا لذلك عدة سبل ، منها الدبلوماسية ومنها العسكرية . فأما السبل الدبلوماسية فنذكر منها :

1 ـ التفاوض مع الحاج أحمد ، باي قسنطينة ، لعله يقبل الإعتراف بالسيادة الفرنسية ودفع الضريبة لفرنسا مع ابقائه على سلطاته السابقة . حاول ذلك بورمون وكلوزيل وروفيقو الخ . ولكن الباي رفض أي مساومة لا تمر بالباب العالي ولا يرضى عنها السلطان العثماني . وكأنه كان يعرف أن محاولات الفرنسيين معه إنما كانت لكسب الإقليم الشرقي دون حرب ، ثم الإنقضاض عليه في اللحظة المناسبة ، كما فعلوا مع الأمير سنة 1839 .

2 ـ التفاوض مع باي تونس على إعطائه (أو بيعه ، كما جاء في عريضة أهل الجزائر عندئذ) إقليم قسنطينة مع الإعتراف بسيادة فرنسا ودفع ضريبة سنوية لها . وقد صيغت معاهدة من أجل ذلك بين الباي المذكور وكلوزيل في ديسمبر 1830 كما عرفنا ، ولكن الحكومة الفرنسية لم تصادق عليها .

3 ـ التفاوض مع خصوم الحاج أحمد ووعدهم بالمدد والهدايا . ومن هؤلاء إبراهيم الكريتلي في عنابة ، وفرحات بن سعيد في الصحراء (الزيبان) ، وعبد الرحمن ، سلطان تقرت ، الخ .

4 ـ محاولة عزل الشيوخ الأقل شأناً عن الحاج أحمد ، وجلبهم إلى الجانب الفرنسي أو تحييدهم ، كما فعل الفرنسيون مع شيخ الحنانشة (الحسناوي) ، وشيخ دريد (بلقاسم بن يعقوب) ، وشيخ أولاد مقران (محمد بن القندوز) وغيرهم ، والإستفادة أيضاً من المدنيين الساخطين على الحاج أحمد ، كما فعلوا مع محمد بن نعمون .

---

(69) أنظر (مراسلات دامريمون) ، ص 99 هامش .

5 ـ أخيراً معاهدة التافنة بين الأمير وممثل فرنسا (بوجو) ، وهي المعاهدة التي كانت النوايا الفرنسية تريد منها التفرغ لضرب الحاج واحتلال قسنطينة.

أما الجانب العسكري فقد تدرج فيه الفرنسيون من أجل التدخل في إقليم قسنطينة على النحو التالي :

1 ـ ضرب عنابة ضربات متتالية ابتداء من سنة 1830 والإستيلاء على قصبتها ثم المدينة نفسها ، والتوغل في الريف عن طريق الغارات والإشتباك مع الحملات التي كان يبعث بها الباي الحاج أحمد ضدهم .

2 ـ الإستيلاء على بجاية ، سنة 1833 والتوغل منها نحو الداخل والإتصال بالساخطين على الحاج أحمد لتحييدهم أو كسبهم ضده ، وإرهاب الباقين ، وقطع التعامل بينهم وبين قسنطينة .

3 ـ الإستيلاء على قالمة سنة 1837 .

4 ـ رد أي معونة عسكرية تأتي للحاج أحمد من الخارج ، سواء من السلطان العثماني أو من تونس أو باي طرابلس ، أي عزل الحاج أحمد عن المدد الخارجي والتجسس على مراسلاته مع الخارج .

5 ـ تنظيم الحملة الأولى ضد قسنطينة في نهاية خريف ، 1836 . وبعد فشلها تنظيم الحملة الثانية في خريف 1837 ونجاحها .

وقد أقام الفرنسيون كذلك شبكة اتصالات وجوسسة مع أعداء الحاج أحمد سواء في داخل قسنطينة أو في عنابة أو في تونس أو غيرها من الأماكن التي فيها قناصل فرنسيون مثل الاسكندرية وطرابلس واسطانبول ونابولي ، الخ . فكانوا يحاربون تجارته ويتعرفون على حصونه وقواته وذخيرته ، وعلى خطوط مواصلاته ومدى ولاء السكان وشيوخ القبائل التابعين له ، ويحاولون خلق حزب مضاد له داخل المدينة وخارجها ، عن طريق الرسائل والدعاية والهدايا والإرهاب . وهكذا لم تأت سنة 1837 حتى كانت قوة الحاج أحمد في الحقيقة قد اعتراها الضعف والوهن ، وأضرّت بها الفرقة والطمع وقصر النظر عند البعض ، واشتغال الباي نفسه بإطفاء حرائق بيته قبل الإشتغال بالتحضير ومواجهة العدو . كما أن الرجل قد حكم حوالي اثني عشر سنة . واستنفد كل طاقاته الإدارية والعسكرية ، وكاد يصبح سجين عاصمته لا يخرج منها إلا خائفاً يترقب ، فقد عزل نفسه قبل أن تعزله الحملة الفرنسية . كان بعيداً كل

البعد عما نسميه اليوم بالقاعدة الشعبية ، لا يختلط بها ولا يشاورها ولا يعين الرجال منها ، ولا يستثيرها بعاطفة جديدة كالجهاد والوطنية[70] . كان يكرر شعارات قديمة أكل عليها الدهر ، وهو أنه رعية من رعايا السلطان العثماني ، وهي دعوة كانت تنفع في القرن السادس عشر ، ولكنها لم تعد تجدي نفعاً سنة 1837 . لقد ملّ كثير من الناس ظلم الأتراك (العثمانيين) وجمودهم على حالة واحدة ، ونظرتهم الارستقراطية - الدكتاتورية ، وابتزازهم للمال دون تقديم بديله من علم وفكر وتقنيات ، رغم أنهم في قرارة قلوبهم يعرفون أنهم يشتركون معهم في الدين ، ولو لم يبق من هذا الدين المشترك إلا القشور .

وهكذا فإن الحاج أحمد في نظرنا قد سقط قبل 1837 ، أسقطه الجزائريون لا الفرنسيون ، وإنما دور الفرنسيين كان دور الغربان وبني آوى عند الجيفة التي شبعت من لحمها الأسود ، أسقطه الجزائريون لأنه لم يقدم لهم « بديلاً » عن النظام القديم . . . فها هي عاصمة الجزائر لم تعد كما كانت في عهد حسين باشا ، وها هي الناحية الغربية والوسطي أصبحت تحكمها معاهدة التافنة وظهر على مسرحها بطل جديد كل الجدة في شخصه وفي أفكاره وفي تنظيماته ، بطل ليس كأبطال الأمس الذين كانوا يغيرون على سفن القرصنة الأوروبية فيصبحون بعدها رياساً ودايات وباشوات ، أنه بطل كأبطال اليوم يرجع إلى الشعب ويحس بنبضاته ، ويتقمص آماله ، ويحتكم إلى القرآن والسنة وآثار السلف ، وينفتح على الحضارة والعلم والعقل ، ويستمد طموحه من الشرف والجهاد والوطنية . ولذلك شهدت سنة 1837 طلوع نجم وأفول نجم ، أحدهما يمثل المستقبل والثاني يمثل الماضي . ولقد صدق (فاليه) عندما حذر حكومته من الخطر الذي يمثله عبد القادر ولا يمثله الحاج أحمد عندما كتب من الجزائر إلى وزيره للحربية يقول له ان الباي ليس له سوى قوة غير دائمة ، وهو ليس باعثاً للقومية العربية ، كالأمير عبد القادر ، « وهي القومية التي ستقلب أوضاعنا ظهراً على عقب ، وتجعلنا نرى مؤسساتنا مهددة بهذه القوة الجديدة

---

(70) رغم بقاء احمد باي سبع سنوات في الحكم بعد الإحتلال فانه لم يؤسس مطبعة ولا جريدة في قسنطينة ، المدينة التي أراد أن يجعل منها عاصمة القطر كله . وكان قد لمس بنفسه الآثار الإيجابية للاعلام المكتوب ، أثناء حجته ، في مصر ، وها هم الفرنسيون قد أنشأوا إلى جانبه وسائل الإعلام المكتوب ، ومع ذلك لم يتحرك .

مستقبلاً ، بل وتجعلنا نعبر البحر من جديد عندما تتطور وتتقدم نحو الحضارة »[71] . وذلك ما تحقق فعلاً سنة 1962 ، فقد نمت فكرة الأمير القومية حتى أصبحت عملاقاً ضخماً ، واعتنقت مبادىء الحضارة ، وأجبرت الفرنسيين فعلاً على عبور البحر من جديد ! ولكن ما الفكرة الجديدة أو البديل الذي قدمه الحاج أحمد للأجيال الجزائرية التي ولدت وتعاقبت بعد سنة 1837 ؟

لقد كان الأولى بالحاج أحمد ، على الأقل بعد سقوطه ، أن ينضم تحت لواء الأمير ، أو يوصي من بقي له من أتباع بالإنضواء تحت لوائه ، إذا كان هو لا يستطيع ذلك ، ولكننا وجدناه قد أخذته العزة بالإثم ، فاستمر على ركوب رأسه في عدم الخضوع لإبن محيي الدين (كما كان يسمي هو الأمير) حتى سنة 1838 . فها هو يخبر وزيره السابق ، علي بن عيسى ، الذي عاونه على الدفاع عن قسنطينة ، يخبره أن الأمير قد وجه الرسائل إلى أعيان قسنطينة يطلب منهم الدخول في طاعته بعد احتلالها من الفرنسيين ، وأن إحدى هذه الرسائل قد وصلته هو (الحاج أحمد) شخصياً . ومما قاله لابن عيسى انه لن يخضع للأمير لأنه لن يستطيع ، في نظره ، أن يصبح « أميراً » بالفعل ولو وصل إلى السماء ، لماذا ؟ لأن عبد القادر في نظر الحاج أحمد ليس من سلالة تلد الأمراء ! وقد وعد صاحبه بأنه إذا نشبت الحرب (وهو يتكلم أثناء سنة الهدنة ـ معاهدة التافنة) فسيختار جانب الفرنسيين على جانب ابن محيي الدين[72] !

أما أخبار الحملتين الفرنسيتين على قسنطينة فهي مفصلة في الكتب المخصصة لذلك ، وهي أخبار لا تهمنا كثيراً هنا ، ولكن يهمنا منها ردود الفعل التي ترتبت على الحملتين ، ولا سيما الحملة الثانية . وقد أطال الفرنسيون في وصف « بطولاتهم » أثناء الحملة الثانية ، كما أطالوا في وصف « بطولاتهم » أثناء الحملة ضد مدينة

---

(71) أنظر (مراسلات فاليه) ، 297/1 من رسالة له إلى وزير الحربية بتاريخ 16 مارس 1838 . وكان فاليه يخاف من مخططات الأمير المستقبلية ويعمل على منع تحقيقها بكل الوسائل ، بما فيها إعلان الحرب ضده سنة 1839 .

(72) نفس المصدر ، 281/3 . والرسالة بدون تاريخ (أي رسالة الحاج احمد إلى ابن عيسى) ولكنها مضمنة في بريد حاكم قسنطينة (قالبوا) إلى فاليه ، المؤرخ في 26 ديسمبر 1838 . وبناء على هذا المصدر ، فان الأمير قد أرسل حوالي مائتي رسالة إلى اقليم قسنطينة .

الجزائر . ويبدو ان حملة الجزائر لم تكلفهم من الشرف والقتلى والجرحى والمال ما كلفتهم حملة قسنطينة سنة 1837 .

رأينا أن الفرنسيين كانوا يخططون لاحتلال قسنطينة منذ احتلال مدينة الجزائر ، ولكنهم استعملوا لذلك في البداية عدة وسائل ، منها الهجوم على المدن الساحلية للإقليم (عنابة ، بجاية الخ .) ، ومنها التعاون مع أعداء الحاج أحمد في الداخل ، كالرؤساء والشيوخ الساخطين أو الموتورين ، وفي الخارج كالتعاون مع باي تونس . ثم أخذوا يتقدمون نحو عاصمة الإقليم باحتلال مدن داخلية مثل قالمة (1837) . وكانت إمكاناتهم العسكرية والمالية لا تسمح لهم بمواجهة المقاومة الوطنية في الوسط وفي الغرب وفي الشرق في وقت واحد . كما ان الحكام الذين تداولوا على الجزائر منذ 1830 لم يكونوا في درجة واحدة من الطموح والمغامرة .

وعندما حل كلوزيل للمرة الثانية حاكماً عاماً على الجزائر (1835 ـ 1836) جاء وفي رأسه مشاريع كثيرة للاستعمار والغزو ، وفي أعصابه كثير من التشنجات والتوترات . كان يريد إسكات خصومه في بلاده بإحراز انتصار عسكري في الجزائر فهاجم الأمير في معسكر وتلمسان ، 1836 ، ولكن هجومه لم يخلف إلا الرعب والدمار والغرامات الثقيلة والغضب الدائم ضد جيشه ودولته . وما دام هو الذي خطط سنة 1830 « لبيع » قسنطينة لباي قسنطينة ، فلماذا لا يكون هو الآن نابليون الثاني الذي ينتصر على قسنطينة ويحمل إلى بلاده أسلاب النصر حتى يتوج بالأكاليل وتنصب له الأقواس ؟ حلم كلوزيل بذلك وهو ما يزال في تلمسان . وأخذ يمهد له فعين اللقيط يوسف « بايا » على قسنطينة وأعلن عزل الحاج أحمد ، وجعل عنابة هي مقر الباي الجديد المؤقت . كان ذلك منذ مارس 1836 . وتولى القيادة العسكرية في عنابة (دوفيرجي) خلفاً لدوزير الذي كان لا يتفاهم مع اللقيط يوسف . وضربت المدافع ودقت الطبول وأقيمت المراسيم لهذا الباي اللقيط في عنابة حتى يكون ذلك إعلاناً لبقايا السكان هناك ولعامة الفلاحين وزعمائهم المنتشرين في سهل سيبوس . وكاتبه أولئك الخصوم الموتورون من الحاج أحمد يعدونه (يوسف) بالعون إذا وعدهم بالدعم . واشرأبت الأعناق تريد أن تتأكد ماذا يحمل العهد الجديد[73] . فإذا

(73) أنظر فيرو ، المرجع السابق ، 1887 ، ص 248 . ويذكر هذا المصدر ان من بين الرؤساء الذين =

بـاللقيط يوسف يقيم انكشـارية جـديدة من مشـاة الأتـراك والفـرنسيين والفـرسـان (الصبايحية) المرتزقة من اللفيف الأجنبي ، يخرج بهم في حملات ليلية ونهارية مدمرة ومنتقمة ، فيعاقب بلا شرع ، وينهب بلا حدود ، ويغـزو بلا أخـلاق . فإذا الناس يعاملون معاملة العبيد بل أكثر ، وإذا بهم يقولون مع حمدان بن عثمان خوجة « اللهم ظلم الأتراك ولا عدل الفرنسيس ! » .

ذلك هو فاتحة عهد كلوزيل في التحضير للحملة الأولى ضد قسنـطينة . ثم أخذه الغرور وأعجبته قوته فجمع فلول جيشه في عنابة ، ثم سار به إلى محاصـرة قسنطينة آملاً في كسر عنقها ، فإذا هي شامخة الرأس ، مستعصية عليه . قال لجيشه المتعب بعد أيام من الحصار : أيها الجنود : إنكم اليوم ستدخلون قسنطينة ، وإنكم ستجدون أبوابها مفتوحة ! فإذا بالمدينة تسفه أحلامه وتكذب ظنونه وتواجهه بالأبواب المغلقة والمدافع المفتوحة ، وتجعله يرتعد من ضربات الرصاص ومن برد نـوفمبر القاسي ، وأمام الإصرار على المقاومة من أهل المدينة ، وأمام العديـد من القتلى والجرحى والمرضى في جيشه ، لم يسع كلوزيل إلا تنكيس الأعلام وإسكات النار وجمع الفلول والإنسحاب المخذول . ولكن الإنسحاب كان أدهى عليه وأمر ، فقد طارده الفرسان المقاومون بالبنادق الكاوية ونزلوا عليه من الخلف واليمين والشمال يعملون فيه قتلاً وأسراً ، حتى أنه لم يصل إلى معسكره في قالمة ثم عنابة إلاّ بشق النفس . وكانت هذه الهزيمة النكراء هي قبلة الموت لكلوزيل . فقد صحا من سكره وجاء إلى قومه يدافع عن نفسه ويبرر سلوكه المشين أمامهم . فماذا قال ؟

لقد كثر القيل والقال عن أسباب الهزيمة الفرنسية أمام قسنطينة . فـأما نحن فنرى أن سببها الواضح هو المقاومة العنيدة والشجاعة الفائقة والتماسك القوي الذي أبداه المقاومون ، سواء كانوا داخل المدينة أو في أبراجها وحصونها ، أو في أريافها حيث مرّ جيش العدو . إن إيمان المقاومين الراسخ بأنهم كانوا يحاربـون من أجل قضية عادلة ، قضية الجهاد والوطنية ، هو الذي منحهم النصر على عدوهم . وليست

= كاتبوا اللقيط يوسف عندئذ يستعلمون عن سياسته : فرحات بن سعيد ، وعبد السـلام المقراني ، وشيخ ريغة (احمد بن الشريف) ، وشيخ الحنانشة (الحسناوي) الخ . ولكن هؤلاء جميعاً لم يركنوا إليه .

العبرة هنا بقائد معين . فالحاج أحمد لم يلعب أي دور فعّال في هذا الجهاد ، وسواء كان حاضراً أو غائباً فإن روح المقاومة كانت متأججة . ولا نعرف ان الحاج أحمد عندئذ قاد معركة بنفسه أو أطلق ضربة مدفع ، أوحتى خطب في الناس خطبة تحميس أو تشجيع . ومن ثمة فالمقاومة تبدو تلقائية منطلقة من رصيد أهل قسنطينة ، حضراً وريفيين ، في حب الحرية والجهاد والوطنية.

وأما الفرنسيون فقد تنابروا بالألقاب . قال أعداء كلوزيل انه لم يطلع الحكومة على كل تفاصيل الحملة واستعداداته . وانه لم يحضر لها التحضير الكافي أي أنها كانت مرتجلة ، وان هناك نقصاً في المؤونة وفي المدفعية ، وان اللقيط يوسف يتحمل معه النصيب الأوفى ، إذ استعمل الضرب والقتل الجماعي والغزوات الليلية ضد الجزائريين قبل الحملة فتخلوا عنه ساعة العسر وانفضوا من حوله . وان هناك تفاؤلاً أكثر من اللازم لدى رؤساء الجيش المتعب فغرروا به ووعدوه بأنهار اللبن والعسل وفتح أبواب المدينة . . . وقال كلوزيل مدافعاً عن أخطائه : ان سوء الأحوال الجوية هو السبب في هزيمته ، ولعله كان يستعيد أسطورة شارل الخامس (شارلكان) الذي ادعى أن العواصف هي التي هزمت أسطوله العرمرم أمام الجزائر سنة 1541 .

ومهما كان الأمر فإن الفرنسيين جميعاً لم يذكروا شيئاً عن المقاومة الوطنية . فقد كان الجزائريون ، في نظرهم ، متعصبين ، أعداء للحضارة والتقدم ، لماذا ؟ لأنهم لم يفتحوا أبواب مدينتهم لهم ولم يستقبلوهم بالأحضان . ومن نتائج هذه الحملة الفاشلة ان الجزائريين فرحوا بالنصر ، وعادت الآمال في طرد العدو من قالمة وعنابة وبجاية ، وضاعف الحاج أحمد من اتصالاته بالباب العالي ، وانتعشت حظوظ الحزب العثماني . حتى في مدينة الجزائر ، ولكن الاستعداد للعدو الذي قد يعاود هجومه كان ضعيفاً . وإذا كان النصر يولد النصر فإن الهزيمة أيضاً قد تولد النصر . فالنصر الذي حالف قسنطينة هذه المرة لم يجعلها تعمل على المحافظة عليه بكل القوة ، بينما عمل العدو على تحويل الهزيمة نصراً . فقد غير الفرنسيون القائد المخذول ، كلوزيل ، وعينوا بدله الجنرال دامريمون حاكماً للجزائر في 12 فبراير 1837 . وقررت الحكومة الفرنسية القيام بحملة جديدة تمسح بها العار ، وترسي بها قواعد الاستعمار ، خصوصاً وقد ظهر على مسرح السياسة الفرنسية زعماء يؤمنون

بذلك (أي الاستعمار) أشد الإيمان ، وعلى رأسهم تيير وقيزو[74] .

وفرت إذن الحكومة الفرنسية المال والرجال للحملة الجديدة على قسنطينة ، وغيرت القيادة ، ونظمت الاستراتيجية . وها نحن نراها ، بالنسبة للنقطة الأخيرة ، تدخل في مفاوضات مع الأمير عبد القادر لتنتهي بالتوقيع على معاهدة التافنة ، التي تحرر الجيش الفرنسي من حروبه في الغرب والوسط ، وتطلق يده في الشرق . وحول دامريمون أنظاره إلى قسنطينة ، واختار شهر اكتوبر بدل شهر نوفمبر تاريخاً للغزو . وتحركت قواته من عنابة أيضاً في اتجاه قسنطينة في الموعد المحدد . ونصب مدافعه على المنصورة . وأخذ في القصف الذي دام أياماً . ولكن المدينة صمدت من جديد ، وأصابت قائد الحملة دامريمون ، الذي هو الحاكم العام نفسه ، بكرة مدفع فأردته قتيلاً ، وكاد شمل العدو يتشتت . وقد تولى القيادة بدله الجنرال فاليه[75] ، فواصل القصف إلى أن أحدثت المدافع ثغرات في الأسوار تسرب منها جنود العدو والتحموا مع المدافعين سلاحاً بسلاح وجسماً لجسم .

وبعد سكوت المدافع جاء دور المقاومة الشعبية في المنازل والشوارع . فكانت ملحمة دموية تشهد على عمق الإيمان بالحق وإصرار الباطل على الإمعان في الظلم . وقد روى لنا أحدهم شيئاً من ذلك، فقال ان أول ضربة مدفع للعدو أصابت حائط الجامع الكبير فسقط وأصاب العديد من الناس لأن العجزة كانوا محتمين به. وأثناء الضرب كانت الدور تتساقط فتغلق الطرق والممرات بالأنقاض ، وسقط الحاج محمد بن البجاوي ، قائد الدار ، شهيداً أثناء الدفاع عن المدينة ، واختفى الحاج أحمد ووزيره علي بن عيسى ومعهما ما يستطيعان حمله من متاع . وقد شاركت كل الفئات الإجتماعية في الدفاع عن المدينة ، فلم يبق شيخ ولا تاجر ولا جندي الخ . إلاّ خاض الحرب ضد العدو ، حتى النسوة كن يشجعن المحاربين من فوق السطوح .

---

(74) عن أحداث قسنطينة والتحول في السياسة الفرنسية ، أنظر مقدمة (مراسلات كلوزيل) ، الجزء الأول .

(75) شارل سيلفان فاليه Valée ، ولد في برين ـ لوشاتو (فرنسا) في 17 ديسمبر 1773 . ترقي في الجيش وتولى فيه وظائف هامة . واشترك في حرب الراين وبروسيا وإسبانيا . وأحيل على الإيداع سنة 1830 ثم أعيد إلى نشاطه سنة 1834 ، وحصل على المارشالية بعد حملة قسنطينة ، في نوفمبر 1837 . ومات في 15 اغسطس سنة 1846 . أنظر (مراسلات فاليه) ، المقدمة ، الجزء الأول .

وأباح فاليه المدينة لجنوده كما فعل بورمون بمدينة الجزائر ، فكثر النهب والعيث والتخريب والاعتداء . وهرب بعض الناس عن طريق رمي أنفسهم في مهوى وادي الرمال السحيق فاندقت عظامهم وكان أنينهم يصل إلى الآذان فيقطع الأكباد . وأمام ذلك أرسل شيخ المدينة وشيخ الإسلام ، محمد بن الفكون ، إلى فاليه وفداً لتأمين حياة الناس(76).

لقد كشفت الحملة الثانية على قسنطينة اذن عن أمور :

أولها عناد المقاومة واستماتة الناس في الدفاع عن مدينتهم ورمزهم . ولم يبالوا بمدد السلطان ، ولا ببقاء الحاج أحمد أو انسحابه . فقد قاوموا العدو بحضور الباي وفي غيابه .

وثانيها ان مقاومة الحاج أحمد كانت معتمدة على لقبه وعلى بعض الحصون والأسوار والأحكام الإدارية وليس على القلوب والولاء والمبادىء ، ذلك أن خروجه من قسنطينة كان يعني نهايته ، ولو كان يقود مقاومة شعبية تعتمد على المواطنين لقادهم بعد سقوطه في الأرياف ولكون عاصمة جديدة أو حتى عاصمة متنقلة ، كما فعل الأمير ، بعد سقوط معسكر ، ولأصبح رمزاً لحركة جهاد شاملة لا تعرف مدينة ولا تؤمن بباي أو باشا أو سلطان ، ولكن بالدين والوطن والشرف .

وثالثها ان الفرنسيين اعتبروا أنفسهم الآن هم ورثة حكومة حسين باشا التي أطاحوا بها سنة 1830 إذ أصبحت في أيديهم سنة 1837 الجزائر ووهران وقسنطينة ، ما عدا المدية التي كانت ما تزال في يد الأمير . ومن حقهم أن يقولوا إن احتلالهم لقسنطينة قد مكنهم من أراض شاسعة ، ومدينة عريقة وغنية ، ومن ثروات بشرية وزراعية هائلة . ولنستمع إلى فاليه نفسه يقول عن ذلك : « إن سقوط قسنطينة له وقع كبير على العرب ، ذلك أنهم ظلوا إلى آخر لحظة يعتقدون أنها لن تسقط في أيدي الفرنسيين . إن مدينة قسنطينة لها مكانة كبيرة في هذه الناحية ، فهي مركز السوق والإدارة . ورغم أنها الآن (20 أكتوبر 1837) في أيدي المسيحيين ، فإن العرب لا يمكنهم قطع العلاقات معها ، ولا يمكن أن تتجه أنظارهم إلى جهة أخرى

---

(76) أنظر موريلي Morelet (صفحات من التاريخ) في مجلة (روكاي) ، 1936 ، المجلد 63 ، ص 285 ـ 305 ، بناء على معلومات من كتاب الف سنة 1840 بعنوان (حضر قسنطينة) .

غيرها . . . وسكان ناحية قسنطينة كثيرون »[77] الخ .

أما الأمر الرابع الذي انكشفت عنه الحملة على قسنطينة ، فهو استفادة الفرنسيين من الأخطاء التي ارتكبوها في مدينة الجزائر ، ولا ندري الآن هل ذلك راجع إلى طبيعة الأفراد (بورمون ، فاليه) أو يعود إلى الموعظة والدرس والممارسة . فإذا كانوا في الجزائر قد تصرفوا بعشوائية ، فرحلوا الأتراك بالقوة ، وقدموا الحضر ، ثم قربوا اليهود عن الحضر ، ثم ضربوا الحضر بعضهم ببعض ، وكونوا ثلاثة أحزاب متنازعة : حزباً حضرياً عربياً ، وحزباً حضرياً عثمانياً ، وحزباً فرنسياً ـ فإنهم في قسنطينة استعملوا تكتيكاً جديداً نوعاً ما ، وهو الإبقاء في المرحلة الأولى على تقاليد المدينة الإدارية والوظائف ونحوها . ونحن نقول ، في المرحلة الأولى ، لأن الفرنسيين لم يستمروا على ذلك ، إذ سنجدهم يتخذون ذلك فقط ذريعة لكسب الرؤساء والأعيان وتهدئة الأوضاع .

أول إجراء اتخذه فاليه هو تنصيب حمودة الفكون ، وهو ابن شيخ الإسلام محمد بن الفكون الذي تجاوز الثمانين سنة، شيخاً للبلاد، أو كما نقول اليوم رئيس البلدية وقائد المدينة. وها هو فاليه يروي لرئيس وزراء فرنسا في تقرير أرسله إليه لماذا وكيف فضل هذا الإجراء . « إن واجب الشيخ الفكون المسن يحتم عليه أن يظل في داره . وهو مرابط محترم جداً بين الناس ، وإن عائلته تمارس هذه المهمة (الدينية والإدارية) منذ 800 سنة[78] . وان تأثيره قوي وهادىء ، وقد لعب دوراً في تهدئة النفوس ؛ وله ابن ذو ملامح رفيعة . ومن عادة البلاد ان الإبن يخلف أباه ، وقد اعتقدت أنه من مصلحة فرنسا أن أكسب إلينا العرب وهذه العائلة ، ليكونوا واسطة لنا مفيدة في علاقاتنا مع الأهالي . ولذلك سميت الشيخ محمد (حمودة) بن الشيخ الفكون ، في وظيفة (قائد المدينة) . وقد استقبل أعيان المدينة هذه التسمية بفرح كبير . وهم الذين اجتمعوا وطلبوا من شيخ البلاد (يعني الفكون المسن) أن يرضى بتسمية ابنه في هذه الوظيفة ، وألحوا عليه أن لا يخالف مسلك أسلافه في ذلك . وقد

---

(77) أنظر (مراسلات فاليه) ، 12/1 من رسالة له إلى رئيس الوزراء موليه Molé .

(78) أنظر ما كتبناه نحن عن عائلة الفكون في كتابنا (شيخ الإسلام : عبد الكريم الفكون) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 .

استلم القائد الجديد وظيفته بالأمس (أي 24 أكتوبر 1837) وعين المسؤولين الذين سيعملون معه فلاحظت أنهم جميعاً تقريباً من الذين كانوا يعارضون الباي (الحاج أحمد) ، وهذا ضمان من أن حمودة الفكون سيكون مفيداً لخدمة فرنسا »[79] . وقد أضاف فاليه بأنه كان يريد أيضاً الإبقاء على بعض الموظفين السابقين في حكـومة الباي ، ولكنه لاحظ أن عددهم قد تناقص إما بالوفاة أثناء الحصار ، وأما بالهروب .

ولكن ذلك كله كان مجرد تمنيات من فاليه . فنحن سنرى أنه برغم تعيين (قائد الدار) من عائلة الفكون ، وتعيين علي بن عيسى وابن الحملاوي وبوعزيز بن قانة ، الخ . في وظائف سامية ، فإن المكتب العربي (بيروعرب) الذي نصبه الفرنسيون هو الذي أصبح يحكم المدينة ، وان المقاومة الشعبية في الأرياف جعلت وظيفة ابن عيسى والحملاوي لا معنى لهـا ، وان حمودة الفكون نفسه قد اتهم بعدة اتهامات قبل أن تمر عليه سنة في وظيفته وأصبح مطالباً أمام التحقيق للتزوير المالي ونحوه ، وقد ختم ذلك كله بوجو عندما طرد حمودة الفكون هو وأخوه من الجزائر (انظر الفصل الموالي) .

فلندع الفرنسيين الآن في مخططاتهم بعد احتلال قسنطينة يبحثون عمن يخدم مصلحتهم ويضـربون هـذا بذاك ، ويقيمـون المكاتب العـربيـة لإرهـاب السكـان والتجسس على حركة الأسواق والمقاومة . ولنذكر أنهم كانوا مع ذلك مهتمين بتخليد الذكر وتذوق الفن ، وتسخير الريشة والازميل بالإضافة إلى المدفع والبندقية . وكما لحق الفنانون بحملة بورمون ليرسموا ويصوروا أساطير الشرق وعطور ألف ليلة وليلة، أرسلوا هذه المرة، الفنان هوراس فيرنيه بعد حملة قسنطينة ليبدع لوحة تعلق في متحف اللوفر أو قصر فرساي ، وتبرز للعالم كيف استولى جيش الملك لويس فيليب على مدينة الامبراطور الروماني قسطنطين ، وكيف رشقوا الراية المثلثة الألوان على ناصيـة عاصمة ماسينيصا وحصن الحاج أحمد ! وإذا كان الفنانون في المرة الأولى قد جاؤوا تلقائياً بدافع الفضول والرومانتيكية ، فإن الفنان الجديد (هوراس فيرنيه) قد جـاء مبعوثاً رسمياً ، تحمله أموال الدولة من الباب إلى الباب . وها هوالملك نفسه يكتب إلى فاليه بعد حوالي أسبوع من إنتهاء الحملة يعلمه بأنه هو الذي كلف هوراس فيرنيه

---

(79) (مراسلات فاليه) ، 1/22 ـ 23 . من رسالة ـ تقرير ـ بتاريخ 25 اكتوبر 1837 .

برسم « لوحة عظيمة عن الهجوم على قسنطينة لقصر فرساي » ، وأمره أن يوفر لـه الإمكانات والمعلومات حتى يكون عمله في مستوى الحدث والفن . وقد قام فيرنيه بما عهد إليه وأبدع لوحته ووضعت فعلاً في متحف قصر فرساي[80] .

إن أحلام الطامعين في تركة الحاج أحمد لم تتحقق طبعاً . فقد رأينا إبراهيم الكريتلي طريحاً على فراش الإغتيال في المدية ، وخابت آمال حسين باي تونس ، ولم يعد للسلطان محمود الثاني مسند يستند عليه في الجزائر ، وها هو فرحات بن سعيد تتبخر ظنونه بعد أن رفضت فرنسا تعيينه وأبقت بوعزيز بن قانه شيخاً للعرب في الزيبان ، وضاعت وساوس عبد الرحمان سلطان تقرت الذي حدثته نفسه سنة 1834 بطلب وظيفة باي قسنطينة من فوارول[81] . حتى الأمير عبد القادر الذي علق آمالاً في معاهدة التافنة على انضمام إقليم قسنطينة إليه ، رأى تقديراته وإحتمالاته ليس في محلها لأن فاليه سارع بعد حملة قسنطينة إليه ، وحكم بضرورة ضربه (الأمير) قبل استفحال أمره وطرده الفرنسيين من الجزائر . وكذلك كان الحال . ولكن حديثنا عما بعد 1837 يتعلق بفصل آخر .

7. المقاومة في الإقليم الغربي :

أ . قبل ظهور الأمير عبد القادر :

يبدو أن الحديث عن المقاومة في الإقليم الغربي تعني قبل كل شيء الحديث عن الحاج عبد القادر . وهل هذا صحيح ؟ إننا نعتقد أن المقاومة الشعبية كانت أوسع إنتشاراً وأكثر إستمرارية من حركة (الأمير) . فقد انطلقت منذ 1830 واستمرت إلى ما بعد 1847 . ولكن شخصية الحاج عبد القادر طغت على كل الأحداث عندئذ ، وأصبحت حركته رمزاً لهذه المقاومة ليس في الغرب فقط ولكن في طول الجـزائر وعرضها ودون وقت محدود . ولذلك شعرنا بصعوبة تناول الموضوع هنا ولم نشعر

---

(80) (مراسلات فاليه) 44/1 ، أنظر أيضا غبريال ايسكير (ايكنوغرافية الجزائر) ، الثاني . وقد عاش الفنان فيرنيه بين 1789 ، 1863 . ورسالة لويس فيليب إلى فاليه في السابع والعشرين من اكتوبر 1837 اي بعد حوالي اسبوع من انتهاء الحملة .

(81) أنظر رسالة (السلطان) عبد الرحمن إلى فوارول في (مراسلات فوارول) ، ص 427 ، ووعده إذا قبلت فرنسا بذلك أن يدفع لها ضريبة ويوفر عشرين ألف جندي ، دون الفرسان ، وأن يقيم بين عنابة وقسنطينة حصوناً ، وأن يدعم التجارة والحضارة ، الخ . الرسالة بتاريخ 1834/2/24 .

بنفس الصعوبة في تناوله بالنسبة للوسط والشرق .

ذلك ان سقوط الحكم المركزي قد ترك فراغاً كبيراً في الإقليم الغربي لم يحس به الإقليم الشرقي . فهذا الحاج أحمد قد عاد إلى مقر حكمه في قسنطينة واستبقى الإدارة والقيادة والشيوخ والتجارة ونحوها كما كانت ، بينما لم يكن الأمر كذلك مع الباي حسن في وهران . فهذا الباي لم يسيطر على الوضع في إقليمه كما سيطر الحاج أحمد في إقليمه ، ولم تكن له علاقات مع الحضر وأهل التصوف وغيرهم من ذوي النفوذ مثل التي كانت للحاج أحمد . بل إن إدارته لم تكن ، فيما يبدو ، بنفس قوة إدارة زميله في الشرق ، ولا شخصيته وأصوله تسمح له بأن يكون مثل الحاج أحمد .

وزاد تدخل الفرنسيين الأمور تعقيداً بالنسبة للباي حسن . وقد عرفنا أن هذا التدخل مر بمرحلتين الأولى في أغسطس 1830 وقد تلاها انسحابٌ بعد مقتل (اميدي) ولد بورمون وهزيمة الحامية الفرنسية في وهران ، رغم أن الفرنسيين يجعلون الإنسحاب ضرورة أملتها الأحداث التي جرت في فرنسا (سقوط نظام شارل العاشر الخ .) والمرحلة الثانية ، يناير 1831 ، وهي المرحلة التي استمرت فيها حامية العدو في احتلال المرسي الكبير وحصون مدينة وهران . وبين المرحلتين حاول الباي حسن أن يدعم سلطته باللجوء إلى الشعب فاستشار أعيان الإقليم ، ولكنهم لم يرضوا به حاكماً عليهم . وبدل أن يعيد تنظيم إقليمه ويجند الناس بإسم الجهاد ضد العدو المشترك ، كما كان يفعل « الأتراك » في الماضي ، فضل الإنسحاب من المسرح السياسي تاركاً الأمور في فوضى متناهية .

ولم يكن التقدم في السن (حوالي 80 سنة)هو السبب الوحيد في انسحاب الباي حسن . فقد كان يحس بأنه حاكم لا تربطه بالمحكومين أية رابطة ما عدا التسلط والإرهاب والفائدة المالية . وقد ظل في الحكم طيلة سنوات فلم يصلح الأوضاع المعاشية للناس ولم يجعل نفسه حاكماً محبوباً أو قريباً من المواطنين ، بل كان سجيناً بين أسوار المدينة يخاف الثورات والإغتيال . وبينما كان الحاج احمد له ارتباطات عائلية وأصول وطنية وممارسات يومية مع الناس في لغتهم ولباسهم وهمومهم ، كان الباي حسن مقطوعاً عن ذلك كله ، جاء اجنبياً وبقى اجنبياً وخرج اجنبياً ، فلم يحزن أحد على رحيله ، حتى الذين كانوا يستفيدون من حكمه . وكان الباي حسن أعرف

الناس بما كان يفكر فيه أعيان الإقليم ، فقد كان ظالماً ، فلماذا يناصرون ظالماً ؟ وكان يعتبر نفسه « تركياً » فلماذا لا يبحثون عن بديل له منهم ؟ يضاف إلى ذلك أنه خيرهم بين الوقوف معه أو تسليم نفسه للفرنسيين ، ولم يخيرهم بين الجهاد والإستسلام . ولو فعل لوجدهم ، كما كانوا في الماضي ، سباقين لدعوة الجهاد والدفاع عن الوطن ضد العدو الفرنسي . ولو كان ذكياً لقال لهم انتخبوا من بينكم من ترونه صالحاً للحكم بدلي ، لأنني عجزت وكبرت سني ووهنت قواي ، وها أنا أتنازل لمن تولونه عليكم . ولكن الباي حسن فضل أن يسلم مفاتيح المدينة إلى العدو بعد أن ضمن له هذا الخروج سالماً من وهران ثم من الجزائر إلى حيث يريد[82] . وكان له في حسين باشا خير مثل ، إذ لم نجده قد فعل ما فعل الحاج احمد أو حتى الباي بومزراق الذي تظاهر بقبول التعيين في منصبه القديم من يد الفرنسيين ثم حاربهم.

خرج الباي حسن إذن من اقليمه وتركه في حالة فوضى يواجه العدو بدون قيادة ولا إدارة ولا جيش[83] . وكان نظام الحكم القائم يجعل الناس متحللين من كل التزام إذا سقط النظام ، فلا ولاء لدستور ولا ضرائب لخزينة ولا طاعة لقائد . وهكذا شعرت المدن بالخطر من التعدي على الحرمات ، والنهب للإسواق والمنازل ، والخوف في الطرقات ، وشعرت القبائل المخزنية بتحللها من الإلتزام نحو السلطة ، ولكنها في نفس الوقت فقدت الحماية والدعم ، كما شعرت القبائل الرَّعِيَّة بحرية الحركة وارتفاع كابوس الضرائب عن كاهلها ، وإرتخاء قبضة الشيوخ عنها . وأحس المرابطون ورجال الطرق الصوفية بالمسؤولية الدينية في القيادة الروحية وجمع الشمل والوقوف ضد العدو تحت لواء الجهاد .

أما أهل المدن فقد فكروا في حل ديني وسياسي يضمن الأمن والاستقرار وذلك

---

(82) كان الاتفاق الذي جرى بين الباي حسن بن موسى والسلطات الإستعمارية شبيهاً بما جرى بينها وبين حسين باشا . بما في ذلك ضمان أمنه الشخصي وأملاكه وحريمه ، وكذلك أمن وحماية أملاك السكان واحترام دينهم ونسائهم . ولكن نص الاتفاق غير معروف لنا الآن .

(83) سبق أن ذكرنا ان ظهور الشيخ المعطي في المديّة سنة 1832 وادعاءه انه من الوداية بالمغرب ، قد فسره الفرنسيون على أنه كان بإيعاز من سلطان فاس . وعن اتصال أهل تلمسان بسلطان فاس ، أنظر رسالتهم غير الموقعة في كتاب (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى) ، لأحمد السلاوي الناصري ، 2/27 ـ 29 .

بالدخول في طاعة حاكم مسلم يمنحونه البيعة التي كانت في أعناقهم للباي حسن[84]. ومن يكون هذا الحاكم المسلم القادر على حمايتهم وتوفير الأمن والإستقرار غير سلطان فاس ؟ لقد فكروا في السلطان العثماني فإذا هو بعيد كل البعد ، عاجز كل العجز عن توفير ما يرغبون فيه ما دام قد عجز عن انقاذ مدينة الجزائر ، وإذا هو مشغول بحروبه في البلقان وفي غيره . وتوجه منهم وفد إلى سلطان فاس فأظهر لهم التردد والتماطل إما خوفاً من التورط في أمر لا يعرف عاقبته وولاء أصحابه . وإما خوفاً من نقمة الفرنسيين . ثم استجاب لهم وقبل بيعتهم وأرسل أحد أقاربه (المولى علي) ليكون خليفة عنه في تلمسان سنة 1831 . ولكن مدة هذا الخليفة لم تطل أكثر من حوالي أربعة أشهر ، ثم عاد بأمر من السلطان نفسه ، تحت نفس الإعتبارات المذكورة . ولكن المولى علي احتاط للأمر فترك محمد ابن نونة خليفة عنه في تلمسان . ثم أرسل السلطان ممثلاً آخر عنه هو ابن الحمري ، الذي ظل هو وابن نونة يتعاونان على إدارة مدينة تلمسان وإعطاء نوع من الهيبة السلطوية في الإقليم ، رغم ان يده لم تطل أكثر من المدينة المذكورة . ولكن الضغط الفرنسي جعل وجود ابن الحمري غير مرغوب فيه فانسحب وترك ابن نونة بدون قوة عسكرية . وانتهى بذلك ما يمكن أن نسميه بتدخل سلطان فاس في الإقليم الغربي .

وهناك تدخل آخر عرفه الإقليم ايضاً ولكنه تدخل كان قصير المدى وقليل التأثير ، وهو تدخل باي تونس . فقد عرفنا ان كلوزيل قرر التصرف في الاقليمين الشرقي والغربي ، وأرسل أحد مفاوضيه إلى سلطان فاس ، ليفاوضه على تخليه له عن اقليم وهران (الذي ما يزال عندئذ ـ ديسمبر 1830 ـ تحت الباي حسن) في مقابل ضريبة سنوية تقدر بمليون فرنك . ولكن الوثائق الفرنسية تقول أن المبعوث لم يصل الّا إلى طنجة ولم يستطع الوصول إلى فاس . فعرض كلوزيل نفس العرض على باي تونس فقبله، وأرسل الباي من يأخذ في التمهيد لوصول حاكم الإقليم، وهو مصطفى أحد أقارب الباي . ولكن فرقة الباي التونسي التي وصلت إلى وهران تحت

(84) تذكر المصادر أن الباي حسنً قد طلب حماية محيي الدين قبل استسلامه للفرنسيين ، فتدارست عائلة محيي الدين طلبه ، وكادت تقبله . ولكن الحاج عبد القادر اقترح العكس نظراً لمواقف الباي السابقة منه ومن أبيه ونظراً لتخاذله امام العدو مبكرا . وكان مع الباي ثمانمائة جندي تركي .

حماية الفرنسيين لم تلق حسن الإستقبال ووجدت صعوبة في الإتصال بالناس وتمهيد الحكم ، فتراجعت غير مأسوف عليها لأنها وان جاءت باسم الإسلام الاّ أنها لم تأت مجاهدة وإنما في رعاية وحماية العدو . ولعلها لو كانت حرة وساعية في إخراج العدو لجلبت اليها قلوب الناس ولجعلت أهل المدن وغيرهم يدخلون في طاعة باي تونس .

وإذن فإنه لا تدخل تونس ولا تدخل فاس قد جلب الإستقرار والأمن للإقليم الغربي . وكانت الأيام تأتي كل يوم بجديد من الفوضى . فالسلطات العثمانية قد اختفت ، والسلطات الفرنسية لا تجرؤ على الخروج عن أسوار وهران . ولولا كبار المرابطين والقيادات التقليدية لا تسع الخرق على الراقع ، واعتدى الناس على بعضهم البعض . وإذا كانت السلطة تنبع من الحاجة فان الإقليم الغربي كان في أشد الحاجة إلى هذه السلطة سنة 1832 .

ولكن ماذا حدث ما بين 1830 ـ 1832 ؟ كانت المقاومة الشعبية التلقائية قد انطلقت ضد العدو حتى قبل استسلام الباي حسن . وقد عرفنا أن سكان مدينة وهران قد خرجوا جميعاً منها ولم يبق فيها الاّ حوالي 400 نفر من العجزة والعميان ، وبقي كذلك اليهود والاورويبون الذين كانوا فيها من قبل . تفرق الناس على اصدقائهم في المدن الأخرى او هاجروا او احتموا بالمناطق المجاورة للمدينة في إنتظار انجلاء الموقف ، تماماً كما حدث في معظم المدن الجزائرية الأخرى . وكانت غارات المقاومين مكثفة وتلقائية ، وكأنها كانت جزءاً من حياتهم اليومية ، فالجهاد فرض كفاية ، وها هو يصبح فرض عين . وخلال عدة شهور كانت المتطوعة تملأ السهول المجاورة جاءت لتؤدي واجبها المقدس . وظهرت خلال ذلك بطولات فردية نادرة ، ومناورات في الكر والفر مثالية . ولكن ذلك الحصار لم يكن فعالاً في اخراج العدو من المدينة . فالتموين كان يأتيه من البحر ، وقد وصله المدد فعلاً من الجزائر ومن فرنسا ، كما عرفنا . ولكن العدو كان يوطد بقاءه داخل المدينة ويربطها بالمرسي الكبير ويحسن من تحصيناته . وهكذا لم تؤثر فيه المقاومة تأثيراً إيجابياً اللهم الاّ في جعله لا يمد نفوذه إلى الداخل[85] . وفي جعل الطامعين في التعاون التجاري معه

(85) على الدارس أن يقارن بين هذا الحصار للفرنسيين والحصار الذي ضربه الجزائريون ضد الأسبان قبل =

يفقدون الأمل في ذلك .

لقد كان قائد ذلك الحصار هو الحاج محيي الدين بن مصطفى ، شيخ الطريقة القادرية في نواحي معسكر . وهـا هو حصار وهران يقوم به أفواج المواطنين ولا يقوده الآغا مصطفى بن إسماعيل ذلك العجوز الذي ابيض رأسه في الغزوات والحروب ، ولا يقوده الموظفون الإداريون في حكومة البـاي حسن ، الذين حنكتهم التجـارب وعرفوا أسرار المدينة ، ولا يقوده أعيان الحضر من أمثال ابن نونة أو حمادي الصقال الذين امتلأت جيوبهم بالمال وبطونهم بالشحم ، ولا يقوده أيضاً أولئك « الأتراك » الطامعون في السلطة والإستبداد أمثال إبراهيم بوشناق ، ومصطفى المقلش ، ومحمد المرصالي ، ومصطفى بن عثمان ، وإنما قاده رجل خرج من زاوية القيطنـة ، يقرأ القرآن ويدعو إلى الجهاد ، حج البيت المعمور ، وزار ضريح الشيـخ عبد القـادر الجيلاني « مولى بغداد » . كان الحاج محيي الدين اذن هو قائد حملات الحصار الشعبية ، وهي الحملات التي لم نكن نعرف من فيها بالضبط ، ولكن بالتأكيد انها كانت تضم الفلاحين وفقراء المدن واخوان الزوايا وفرسان «القـوم»، الذين بعثت بهم القبائل العديدة[86] . ان هؤلاء هم العمود الفقري في المقاومة الشعبية الأولى ، وهم الذين سيجعل منهم المران والإنضباط الحديدي جنوداً أبطالاً يخوض بهم الحاج عبد القادر أكبر معاركه ضد أعدائه .

أما الحضر والأتراك فقد كانوا ينظرون في اتجاه آخر . . كان الأولون قد ميزوا أنفسهم على أنهم الحزب الاسلامي الداعي إلى بيعة سلطان فاس وحماية التجارة وضمان الأمن والاستقرار ، ثم ساندوا الحاج عبد القادر ، كما سنرى ضد الحزب الآخر . وهذا الحزب كان يمثل بقايا الأتراك المولودين خارج الجزائر أو الأتراك الذين ظلوا يعتبرون أنفسهم ليسوا كأبناء الجزائر ، ولـو كانـوا من مواليـدها . وهؤلاء لم يساندوا الحاج أحمد ، ولم يحاولوا نصب حكومة موالية للسلطان العثماني ، وانما جعلوا أنفسهم في خدمة الفرنسيين الذين استفادوا منهم بعض الوقت لضرب الحضر

= حوالي أربعين سنة أمام نفس المدينة . وهناك فرق واضح وهو ان الناس في المـرة الأولى كانت تساعدهم قوة نظامية ومدافع ، ولكنهم في هذه المرة تركوا لجهودهم الخاصة ووسائلهم البدائية في حصار مدينة محصنة بأحدث التحصينات .

(86) في بعض المصادر ان قوات محيي الدين عندئذ كانت حوالي اثني عشر ألف رجل .

وضرب المقاومة بقيادة الأمير ، ثم لفظوهم لفظ النواة ، بل انهم جمعوا منهم أشلاء وأرسلوا بها إلى آسيا الصغرى عندما قضوا منهم الوطر ونالوا المقصود.

وما دمنا نتحدث عن هذا الحزب الذي خدم العدو أكثر مما خدم قضية المقاومة ، فلنذكر أن الفرنسيين ، وهم محاصرون في وهران ، كانوا يسعون إلى إيجاد طابور خامس لهم. ويبحثون عن الطرق التي تحدث الفرقة بين فئات الشعب، وكانت التعليمات في ذلك تأتيهم رسمياً من الجزائر. ومن أول ما لاحظوه هو الخلاف في صفوف الحضر بين العرب والكراغلة ، وفي صفوف القبائل بين المخزنية والرعية ، وفي صفوف المرابطين بين القادرية والتجانية ، وأخيراً في صفوف الأرياف بين قيادات « الأجواد » وقيادات « المرابطين » أو الدنوية والروحية . فأخذوا يستغلون هذه الخلافات ويضخمونها حتى جعلوا منها عداوات أحياناً أصبحوا فيها هم المستفيدين بل هم القضاة فيها . وما دامت أول قيادة للمقاومة الشعبية قد ظهرت على يد مرابط (الحاج محيي الدين) فلماذا لا يكون أول المخالفين له ولابنه من بعده هو الآغا مصطفى بن اسماعيل ، من الأجواد، وإبراهيم بوشناق من الأتراك، والكراغلة من الحضر ، والتجانية من المرابطين ؟

ولعل عدم قبول الحاج محيي الدين صراحة بيعته كأمير بين 1830 ـ 1832 يرجع إلى خوفه من أن قبوله قد يكون سبباً في فشل المقاومة وإظهار الخلاف الذي تخفيه حركة الجهاد العام . فقد اقترح عليه نفس اللقب ثلاث مرات فكان يرفضه في كل مرة معتذراً تارة بتقدم السن وبكونه شيخ علم وتصوف لا رجل ادارة وحكم ، ومشيراً أحياناً ببيعة سلطان فاس وأحياناً ببيعة ابنه هو الحاج عبد القادر . وبحلول نوفمبر 1832 تاريخ البيعة الأولى للحاج عبد القادر ، يكون قد مضى على حركة الجهاد والمقاومة الشعبية في وهران حوالي سنتين ونصف . وكلها كانت بقيادة الحاج محيي الدين ، دون أن يظهر فيها « زعيماً » أو أميراً أو سلطاناً ، وانما كان داعية جهاد تطيعه الاخوان والفلاحون والجنود والفقراء . ولكن تلك المدة من المقاومة كانت مدرسة تكون فيها ابنه الحاج عبد القادر ، وانصهرت فيها وحدة الحركة والهدف ، وارتفعت فيها النفوس من الاهتمام بالنهب والاقتتال الذاتي والاعتداء إلى محاربة العدو المشترك والطموح إلى مثل أعلى وهو تطهير الدين وتحرير الوطن.

ب ـ بعد ظهور الأمير عبد القادر :

ان مقاومة الأمير تمثل عهداً بذاته في تاريخ الجزائر ، وتستحق كتاباً ، بل كتباً خاصة بها . وقد تناولها الكتاب فعلاً ، كل حسب دولته وميوله وعهوده ، واشترك في ذلك كتاب مختلف القوميات والأديان والمذاهب . ولا غرابة في ذلك فالرجل قد فرض نفسه على التاريخ ، وفرضه التاريخ على الناس فأصبح حديثهم ومحل اعجابهم وتقديرهم حتى الذين حاربوا ضده أو لم يفهموه أول مرة . ونحن في هذه المرحلة 1830 ـ 37 ، لا نستطيع أن ندخل في تفاصيل شخصيته ولا مخططاته ومعاركه ، وتنظيماته الإدارية والعسكرية[87] ؛ ولا إنجازاته وانتصاراته . ولكننا سنحاول أن نربط بين مقاومته والمقاومة في القطر كله ، وبين عهده والعهود التالية له ، وأن نذكر أبرز القضايا التي جعلت منه في نظرنا رجلاً فذاً في تاريخ الجزائر ، بل وتاريخ الشعوب المضطهدة ، ولا سيما الشعوب العربية والإسلامية.

تختلط في حياة الحاج عبد القادر الأولى (1808 ـ 1832) الاسطورة والحقيقة أو الخيال والتاريخ ، شأن عظماء الرجال في كل عصر . فالرجل شريف من آل هاشم ومن آل البيت ، أو المحتد العربي والنسب النبوي ، وهو من طريقة صوفية ذاع صيتها في المغارب والمشارق منذ قرون ، طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني ، التي تكاد تستقي منها كل الطرق الصوفية الأخرى . وهو حاج البيت المعمور ، وزائر قبر الشيخ المذكور ، وهو المأمور من صحراء الشام بالعودة إلى وطنه لأن أمراً خطيراً كان ينتظره هناك حسب كرامة الأولياء ، وهو المتعبد في مسجد القيطنة والعاكف في مكتبة الوالد : يذكر الله ويتأمل في خلقه ويقرأ كتابه ، ويحفظ أشعار وآثار الأقدمين ، وهو الواقف على ما كان في الشرق من تخلف وتحول ، وما كان في الغرب من تقدم وتسلط. وها هو هذا التقدم والتسلط يقرعان أبواب وطنه فينهض لمجابهتهما إلى جانب والده وشعبه الذي هبّ للدفاع والمقاومة . لقد كان الحاج عبد القادر شاباً كآلاف الشباب الذين لبسوا خوذة الجهاد وتمنطقوا بأحزمة الوطنية وراحوا يغيرون على أسوار وهران المعتدى عليها . ولكن عبد القادر الذي لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين

---

(87) سبق لنا أن ترجمنا كتاب شارل هنري تشرشل : (عبد القادر السلطان السابق لعرب الجزائر) إلى العربية ، وقدمنا له بمقدمة بعد دراسة وجهد . أنظر ذلك في العنوان الذي أعطيناه للترجمة وهو (حياة الأمير عبد القادر) ، ط . 2 ، الجزائر 1982 .

ربيعاً سنة 1830 ، قد تميز عن بقية الشبان بالشجاعة الفائقة والفروسية الرائعة والإقدام المثالي[88] . وهكذا أثبت لأبيه ولشعبه ولأنداده انه جدير بالثقة وحقيق بالقيادة وضمين بالنصر ، فبايعوه ، سنة 1832 ، باقتراح من أبيه ، وباركه الأولياء والأشراف والصالحون ، وتجمهر الفقراء والفلاحون والجنود في سهل اغريس يؤمنون على البيعة ويدخلون في حزب الجهاد تحت راية أمير المؤمنين الجديد . وقد دخل الأمير مدينة معسكر وجعلها هي العاصمة لإنطلاق المقاومة وانبعاث الدولة الجديدة .

وجلس الأمير يضع خطط المستقبل ، فعين كتّابه ووزراءه وقواده وولاته . ولم يراع فيهم إلاّ الكفاءة والإيمان وتحرير البلاد، لذلك جلب أناساً كانوا يعملون في الإدارة العثمانية المنهارة ، وأناساً كانوا من الأجواد والمحاربين ، وأناساً من رجال العلم والتصوف . ولكي يسكت الأصوات التي قد تنتقد ، اعتمد على الشريعة الإسلامية في أحكامه وجعل دستوره هو القرآن ، مستعيناً بسيرة السلف الصالح ، ولكن ذلك لم يمنعه من سن ضرائب جديدة بإسم « المعونة » بعد إستشارة العلماء ، كما انه كان يعرف انه حاكم جديد ، وان بعض أهل المدن ورجال الدين قد بايعوا سلطان فاس فأراد أن يحافظ على ثقتهم وأن يكسبهم إلى صفه فأرسل إلى السلطان المذكور بأنه انما يحكم باسمه .

ولكن ذلك كله كان مجرد « اجراءات » في نظر عبد القادر ، فالمهم ليس الهياكل وإصدار القوانين ، بل الحركة والعمل وتثبيت الحق في الميدان . فالوطن محتل ، والعدو يحاول التقدم والاستيطان ، والفوضى متفشية ، والناس لا يكادون يعترفون بسلطة حتى سلطة الدين والأخلاق . ولا بد من وضع حد لكل ذلك ، بإجراء العدل ، وجبي الضرائب الشرعية ، وحماية التجارة ، وفرض الإحترام للسلطة والجار والمرأة والأخلاق العامة ، ولا بد من محاربة العدو وعدم تركه يفرق بين القبائل ويتوسع على حسابهم ، ولا بد من القضاء على الخونة الذين يتعاملون مع العدو في التجارة أو في الإنضمام إلى صفوفه .

وهكذا ، فلم تمض على عبد القادر سنتان في الحكم (1832 ـ 1834) حتى استولى على ثلاث مدن رئيسية هي تلمسان والمدية ومليانة . وحاول تحرير

---

(88) في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) الجزء الأول ، ط . 3 ، 1990 ، مقالة تمثل انطباعنا عن مؤهلات الأمير التي لا يأخذها الباحثون دائماً في الأعتبار .

وهران ومستغانم وأرزيو وشدد عليها الحصار ، ولكن العدو جاء بالمدد وحصن نفسه واستعان بضعفاء النفوس أمثال ابراهيم بوشناق ومصطفى بن إسماعيل وأحمد بن الطاهر ومحمد الغماري . وختم هذا العهد بمعاهدة مع العدو ، تعرف بمعاهدة ديميشال[89] ، وهو الجنرال الفرنسي الذي كان يمثل بلاده ، ويحارب الأمير في الإقليم الغربي . وقد اعترفت المعاهدة بسلطة الأمير على المدن المذكورة ،وبقيادته كقوة وحيدة في المنطقة . بالإضافة إلى حصوله علي حق التمثيل الدبلوماسي وحرية التجارة وشراء السلاح وافتداء الأسرى وغير ذلك . واغتنم الأمير فرصة السلام فأعاد تنظيم دولته بالإعتماد أكثر على العنصر الكفء ولا سيما رجال العلم والدين ، واستجلب من الأوروبيين من يدرب جيشه النظامي ، وأقام صناعات حربية ، وراسل الدول الأجنبية مثل بريطانيا واسبانيا عارضاً عليها مقترحات للتعاون ضد فرنسا . وحصن تجارته بالخصوص مع المغرب وطنجة وجبل طارق وسبتة ، وأعاد إلى جناحيه القبائل النافرة أو الواقعة تحت طائلة العدو.

***

وبذلك بدأ عهده الثاني (1834 ـ 1837) بانطلاقة جديدة ظهر فيها الأمير بتجارب ابن الستين لا ابن السادسة والعشرين . فها هو يصل بنفسه إلى مليانة والمدية وبرج حمزة وبلاد القبائل الكبرى ، وها هو يعين القضاة والقواد والخلفاء الجدد ، وها هو يضم مدناً جديدة إلى دولته مثل شرشال ، وتتحرك البليدة والعاصمة وقسنطينة لنجاحاته ، وتهرع إليه أفواج المؤيدين من هذه المدن التي طالما انتظرت الفرج ، وعانت من استبداد العدو ، فالتحق به الحاج محيي الدين بن مبارك (آغا العرب) السابق ، ومحمد بن عيسى البركاني قائد شرشال السابق ، والحاج علي السعدي مثور متيجة السابق ، كما توجه إليه قدور بن رويلة وأحمد بوضربة ، وعلي بن الحفاف من أعيان العاصمة . وجاءته الوفود تبايع وتناصر . وطمع في نصرته القائمون على الحاج أحمد أمثال فرحات بن سعيد وأحمد بومزراق الخ. وأشاد به الأدباء

---

(89) وقعت في فبراير 1834 . والجنرال ديميشال حل محل الجنرال بوابيه الذي اتهم بالإستقلالية عن الحاكم العام روفيقو ، والذي قيل انه كان غليظ اليد ، فكان يحكم بالإعدام جماعياً ، ويعلم الجزائريين دروس الإحترام بالقوة للقوة ، حتى قال عنه أحد كتاب الفرنسيين انه تعلم تلك القسوة أثناء حملتهم على مصر، تماماً كما لو قالوا عن القنصل (دوفال) المشهور بأنه تعلم الغش في الشرق!

والشعراء من قسنطينة وغيرها (مثل محمد الشاذلي القسنطيني) ، وتبنى قضيته حمدان خوجة بعد رحيله إلى اسطانبول ، وهكذا.

ان الأمير عندئذ لم يعد قائد المقاومة الوطنية في الغرب والوسط فقط ، ولكنه أصبح عند جماهر الشعب وعند مثقفي المدن علماً على دولة جديدة طالما حلم بها الجزائريون ، دولة منهم وإليهم ، دولة تتخذ من الجهاد والوطنية وسيلة ومن الاستقلال والحرية غاية . يضاف إلى ذلك ان الأمير قد فرض نفسه في العهد الثاني كما فرض نفسه في العهد الأول . فقد هزم خصومه وأعداءه على السواء . هزم الحاج موسى الدرقاوي الذي أبى أن يدخل في النظام الجديد ، وعزم على قيادة حركة جهاد عشوائية لا تحقق نصراً ولا تحمي مجاهداً . وحارب الجنرال الفرنسي الجديد في وهران ، تريزيل ، خليفة ديميشال ، الذي يسميه أهل ذلك الوقت (الجنرال الأعور) لأنه كما قيل ، فقد إحدى عينيه في معركة واترلو . جاء تريزيل مبعوثاً من كلوزيل الحاكم الجديد . وهو كرئيسه ، جاء إلى وهران متبجحاً ومتعجرفاً يؤمن بإعطاء دروس القوة وفرض السلطة ويعتقد أن معاهدة 1834 قد منحت للأمير أكثر من حقه . فهاجم (تريزيل) الأمير في المقطع فإذا به ينهزم هناك شر هزيمة فعاد إلى وهران مجللاً بالخيبة وترك وراءه أشلاء القتلى والجرحى والأسرى . ولكن انتصار المقطع (1834) قد زاد الأمير صيتاً إلى صيته ، وأسكت به عدداً من أصوات الغيورين منه والمنافسين له ، وقد وصل صدى انتصاره إلى جميع المدن الجزائرية بالإضافة إلى فاس وتونس وباريس واسطانبول .

ورأى تريزيل أن يشجع أعداء الأمير بعقد اتفاق مع (مخزن) مصطفى بن اسماعيل ، أو الدوائر والزمالة ، وهو الاتفاق المعروف باسم اتفاق الكرمة(90) Le Figuier ، الذي يجعل هذا المخزن تحت حماية الفرنسيين . ويقال ان ذلك كان رداً من تريزيل على استيلاء الأمير على المدية. ومهما كان الأمر فإن هزيمة المقطع

---

(90) وقع في 16يونيو (جوان) ، 1835 . وهو الاتفاق الذي يجعل مخزن مصطفى بن إسماعيل (الدوائر والزمالة) وكذلك كراغلة تلمسان الذين اعتصموا بقلعة المشور ، حلفاء للفرنسيين ضد الأمير . وهو اتفاق مخالف في روحه ونصه لمعاهدة ديميشل 1834 . و(الكرمة) يسميها احمد بن سحنون (مسولان = ام سولان)، وهي على بعد اربعة عشر كلم جنوب شرق وهران. وأنشأ فيها الفرنسيون قرية سموها (فالمي) . أنظر أيضاً (م . إ .) 1858 ، 227 هامش .

أدت إلى عزل تريزيل وتعويضه بلامورسيير ، كما ان سياسة ديرلون (الحاكم العام) التي فسرت بالضعف نحو الأمير ، أدت أيضاً إلى عزله وتعويضه بكلوزيل للمرة الثانية ، وهو نفس كلوزيل الذي فشل في سياسته الاستعمارية في عهده الأول (1830 ـ 1831) .

وقد أراد كلوزيل أن يغسل عار هزيمة المقطع ويظهر قوة الإستعمار التي فشل ديرلون في إظهارها ، فذهب إلى وهران واستعرض عضلات جيشه أمام المحاصرين من النساء والأطفال والعجزة وبعض اليهود والأوروبيين ، ثم اتجه إلى ميناء راشقون فاحتله وهو الميناء الذي كان منفذ الأمير التجاري والإتصالي مع العالم الخارجي ، خصوصاً المغرب وسبتة وطنجة وجبل طارق . ثم سار بفلول جيشه ولفيفه الأجنبي ومرتزقته ، بما فيهم مخزن مصطفى بن إسماعيل وأنصار إبراهيم بوشناق إلى عاصمة الأمير ، معسكر . فدخلها يوم السادس من ديسمبر 1835 . ولكن الأمير كان قد أخلاها قبل وصول العدو وأبعد عنها السكان والخزينة وكل ما يفيد العدو ، فإذا بكلوزيل أمام مدينة ميتة ، أمام موسكو جديدة ، فانتقم من الأمير ورجاله بإشعال النيران فيها حتى لقد علت ألسنة اللهيب عنان السماء ثم هدأت النيرات على أكوام من المباني وأنين من الحيوانات وعويل من الكلاب . وأدار كلوزيل وجهه حنقاً نحو تلمسان تطارده أشباح معسكر وفرسان الأمير وتلفحه نسمات الشتاء ، وها هو خليفة تلمسان محمد البوحميدي[91] ، يخرج منها أيضاً مع من تبعه من السكان الحضر حتى لا يقعوا في قبضة العدو . وها هو كلوزيل يدخلها يوم 15 يناير 1835 ، ويعين عليها مصطفى بن المقلش « بايا » تحت حمايته ، وقد كان مصطفى هذا من أبناء الباي المقلش الذي حكم الإقليم الغربي في بداية القرن وعاصر ثورة الطريقة الدرقاوية ضد سلطة والده[92] . وقد أصبح مصطفى بن إسماعيل هو قائد المشور وحاكم الكراغلة . واستبقى كلوزيل إبراهيم بوشناق « باياً » على مستغانم بعد أن

---

(91) كان البوحميدي من أهل الدين والعلم ، وكان قد درس مع الأمير في الزاوية . وبعد تعيينه خليفة له على تلمسان عين الأمير إلى جانبه مجموعة من الأغوات والشيوخ الخ .

(92) عن هذه الثورة أنظر مؤلفات أبي راس الناصر ، الذي خصها بكتاب سماه (درء الشقاوة في حروب درقاوة) ، أنظر كذلك مسلم بن عبد القادر ، (انيس الغريب والمسافر) تحقيق المرحوم رابح بونار ، 1974 . وقد ترجمه أيضاً أ . ديلبيش في المجلة الافريقية (1974) ، ص 38 ـ 58 .

اعتذر عن قبول تعيينه « باياً » على معسكر حتى لا يـواجه الأميـر ، وتردد الشيـخ المزاري بين ولائه للجهاد والأمير وبين ولائه لخاله مصطفى بن إسماعيل المذكور[93].

كان حلم كلوزيل أن ينتصر في معركة الجزائر ليلملم بها سمعته المنهارة وسيرته العسكرية المتسخة (بعد أن كان حكم عليه بالإعدام عسكرياً وفر إلى أمريكا ، كما أوضحنا) ، ولكن الحظ لم يشرفه بذلك . فقد واجه الهزائم أينما حل ، في البليدة والمدية ومعسكر، وحتى تلمسان التي دخلها لم يدخلها منتصراً عسكرياً وإنما دخلها دخول الذئاب الجائعة ، ثم ختم حياته العسكرية بهزيمة قسنطينة كما عرفنا . ولكي يثبت جدارته بين مواطنيه فرض ضريبة حرب على سكـان تلمسان البـاقين ، تقدر بخمسمائة ألف فرنك ثم خفضها إلى مائة وخمسين ألفاً بعد احتجاج السكان على سوء المعاملة والفقر وعين أحد اليهود لجمع الضريبة من السكان . ان من لم ينصره سيفه في الميدان لا تنصره جرة قلم في مكتب . فقد نفر الباقون من أهل تلمسان من حكم هذا الجائر المتغطرس وتعاونوا على إسترداد حكم الأمير فور رحيل الطاغية الذي طبق في تلمسان أيضاً ما طبقه في العاصمة من الملاحقة البوليسية لكل العناصر المؤيدة لـلأمير أو المشتبـه في ولائها للفـرنسيين ، حتى أنه اتهم في تلمسـان ثلاثـة اخوة (يعرفون بالاخوة الخزناجي : وهم يعقوب وإسماعيل نسيب وأحمد نسيب) بنهب خزينة الجزائر وهروبهم إلى تلمسان مع الأتراك الهاربين من ظلم الفرنسيين في بداية الإحتـلال . وكـانت عـاقبـة هـذه التهمـة أن فـرض عليهم غـرامـة تقـدر بـ 28,679 ف[94] . وكان الأولى بكلوزيل أن يعاقب الناهبين فعلاً من قومه الذين بعثروا أموال خزينة الجزائر ولاذوا بالفرار ووجدوا الحماية بل والمشـاركة حتى من الملك لويس فيليب نفسه[95] .

لم يكن احتلال تلمسان كـاحتلال وهـران أو عنابـة أو قسنطينـة أو بجايـة أو معسكر . . . فقد دخل المحتلون هذه المدن وهي أنقاض أو شبه أنقاض . ولكن

---

(93) عن هذه الأحداث أنظر ايضاً كور ، (المجلة الافريقية) ، 1908 ، ص 52 ـ 71 .

(94) عن هذه القضية أنظر أ . لوكوك في (المجلة الافريقية) ، 1936 ، ص 658 . وكان احتلال تلمسان قد جرى في فبراير 1836 .

(95) أنظر كتاب عمار حمداني (الحقيقة عن الحملة الفرنسية) الذي أثبت تواطوء عدة جهات رسمية في تغطية نهب الخزينة الجزائرية ووقف اعمال لجنة التحقيق ، ومن اولئك الملك لويس فيليب .

احتلال تلمسان كان يشبه احتلال العاصمة والمدية . حافظ بعض سكانها على مصالحهم قائمة في وجه التسلط والغطرسة . بل إن المؤسسات الدينية في تلمسان لم يحدث لها ما حدث لمؤسسات العاصمة . غير أن العدو جعل السكان أحزاباً وشيعاً . فهذا حزب عربي - حضري يعترف بالأمير ويؤمن بالوطنية ، وهذا حزب عثماني - إسلامي يعترف بسلطة الباب العالي ولكنه لا يجد سبيلاً إلى إعلان ذلك فيلجأ إلى المراوغة والإنتظار . وهذا حزب قرر التعاون مع الفرنسيين ورأى مصالحه مع مصالحهم واختلط فيه بعض الأتراك القدماء[96] ، وبعض أنصارهم المخزنية . كما كانت تلمسان تعيش على التجارة وعلى الصناعات التقليدية ، وفيها أيضاً صناعة البارود للحرب ، وصناعة السروج والأسلحة ، والحرف الأخرى كالاسكافية والصباغة وهلم جرا . وكان سكانها عندئذ حوالي خمس عشرة ألف ساكن . وتذكر المصادر الفرنسية أن من هؤلاء حوالي ثلاثمائة عائلة يهودية . وبالإضافة إلى هذا المظهر المادي لتلمسان فقذ كانت أيضاً تعتبر مدينة روحية لما فيها من الأولياء والصلحاء والمؤسسات الدينية كالمساجد والزوايا .

كانت سنة 1836 سنة هامة في تاريخ المقاومة الجزائرية . فمن جهة واجه فيها الأمير عدة مشاكل ضعضعت سلطته ، ومن جهة أخرى انتصر فيها الحاج أحمد على العدو ، وهكذا فإن الخسارة التي منيت بها المقاومة في الغرب قد عوضتها في الشرق . ذلك إن احتلال معسكر وتلمسان قد أضر بسمعة الأمير العسكرية بين مواطنيه ، لا سيما أهل القبائل المخزنية التي لم تخضع له إلا بالقوة وإلحاح دعوة الجهاد . فقد انفضّت عنه الجموع في معسكر بعد الرجوع إليها وهي خاوية ومحترقة

(95) من هؤلاء « باي » مستغانم إبراهيم بوشناق . كان أصله من بوسنيا (في يوغسلافيا اليوم) ، وبعضهم يقول انه من سالونيكة ، جاء إلى الجزائر أثناء العهد العثماني ، وعمل في الجيش البري (الإنكشارية) في اقليم وهران ، وكان في هذه المدينة عند احتلالها من قبل الفرنسيين ، يناير سنة 1831 ، وقد انضم اليهم واستولى باسمهم على مستغانم في نفس السنة (1831) وبقي على ذلك إلى 1833 . وعندما عرض عليه الفرنسيون أن يعينوه بايا على معسكر رفض لأن الأمير كان قد أصدر أوامره بقطع رأسه متى قبض عليه . وهو الذي كان وراء اتفاق الكرمة بين تريزيل وابن إسماعيل سنة 1835 ، وكانت الدوائر والزمالة تعمل تحت طاعته . وسمحت له فرنسا بإتخاذ علم خاص به ، ولكن بوابيه رفض منحه حق الحكم بإسم فرنسا . أنظر كور ، المرجع السابق ، ص 68 ، وكذلك (مذكرات شانغارنييه) ، هامش ص 15 .

وأساءت إلى شخصه ورفضت طاعته وأبت دفع الضريبة الشرعية إليه . كما أخذ حضر تلمسان يرجعون إلى مدينتهم بعد أن كانوا قد خرجوا مع الأمير والبوحميدي الولهاصي (خليفة الأمير عليها) وقائدها محمد بن نونة . رجعوا بعد أن استولى العدو على مدينتهم وتعين عليها ، كما ذكرنا ، مصطفى المقلش بلقب الباي تحت حماية الفرنسيين ، كما أصبح مصطفى بن إسماعيل هو قائد المشور ، خلفاً لمحمد البرصالي ، وكلاهما من حزب الفرنسيين .

يضاف إلى ذلك أن الأمير قد أصيب في معركة الزقاق بخسارة كبيرة في جيشه . وتضررت تجارته باحتلال ميناء رشقون ، وضربت الكوليرا فأصابت عدداً كبيراً من المقاتلين . وتحرك خصومه الذين أسكتتهم انتصاراته العسكرية والدبلوماسية السابقة ، فرفعوا رؤوسهم بالعداء له وأظهروا التعاون مع العدو ، وانحلّت عرى التحالفات القديمة ، ولم تجد محاولات الأمير فك الحصار عن نفسه بالكتابة إلى ملكة بريطانيا ولا رئيس أمريكا ولا ملك الفرنسيين . وهكذا بدت سنة 1836 سنة ملبدة بالغيوم بالنسبة للأمير . وقد قدر أن نقل عاصمته إلى مدينة داخلية بعيدة عن السواحل حيث تكمن قوة العدو ، قد يحميه من الخطر ويجعل خطوط مواصلات العدو صعبة . لذلك جعل من تاقدامت عاصمة جديدة له ، فأحياها وحصنها وحمل العائلات من معسكر وغيرها على الإقامة فيها ، ونشأت بها الأسواق والدكاكين والصناعات المحلية وحتى الحربية . وأصبحت تاقدامت هي معسكر الجديدة ، وهي عاصمة المقاومة الوطنية تشرئب إليها الأنظار وتنطلق منها هجومات الجهاد . وكان ذلك هو كل ما عوض به الأمير ما أصابه من نكسات خلال السنة المذكورة .

ولكن هزيمة الفرنسيين أمام قسنطينة (نوفمبر 1836) جعلت الأمير يقدر أن العدو قد يغير من أسلوبه . فقد كان على اطلاع بما تكتبه الجرائد وما يصرح به البرلمانيون وما تنقله الأخبار الدولية عن ردود الفعل حول هزيمة العدو في قسنطينة وسياسته نحو المقاومة الوطنية في الإقليمين الشرقي والغربي . وأول ما عرف أن الحكومة الفرنسية عازمة على حملة ثانية على قسنطينة تسكت بها النقد الداخلي (فرنسا) والسخرية الخارجية (أوروبا) ، وإن هذا المشروع قد يخفف الضغط عليه (الأمير) بعد أن كان كلوزيل قد حمل معظم قواته نحو الغرب . ومن تباشير ذلك عزل كلوزيل نفسه عن حكومة الجزائر وتعويضه بشخص آخر أكثر انضباطاً والتزاماً

بالتنسيق مع حكومته (اتهم كلوزيل بأنه قام بحملتي تلمسان وقسنطينة دون الرجوع لحكومته) ، وهذا الشخص الجديد هو (دامريمون) ذلك الضابط الـذي هزم في عنابة أول مرة (سنة 1830) والذي سيقتل أمام أسوار قسنطينة في الحملة الثـانية عليها . كما حل بوجو محل (بروسار) قـائداً للمستعمـرات الفرنسيـة في الناحيـة الغربية . وكان بوجو في هذه المرحلة يلبس ريش الحمام ويخفي أنياب الذئب ، ويتحدث عن السلام ويضمر الحرب . وقد صادف ذلك التغيير كله الأمير وهو في حالة تفكير وتأمل، يبحث عن المخرج مما هو فيه من عزلة ونفور أصحاب الأمس ومن تشتت الجهود، وكان ذلك المخرج هو تحقيق هدنة يسترد فيها أنفاسه ويستعيد أثناءها تنظيم دولته المتصدعة ، ويسترجع بها هيبته بين قومه ، ويفـرض الضرائب وينشط التجارة . وهكذا قام قناصله في أرزيو ووهران والجزائر بالتحضير لهذه الهدنة ، وكان الفرنسيون من جهتهم يبحثون عن الهدنـة أيضاً حتى يتفـرغوا للحملة الثـانية على قسنطينة، فالتقت الجهود على عقد معاهدة صلح بين الأمير وبيجو، وهي التي تعرف بمعاهدة التافنة (مايو 1837) .

إذا أخذت معاهدة التافنة من وجهة نظر الأمير فقد كانت انتصاراً له ، وإذا أخذت من وجهة نظر الحاج احمد فقد كانت خسارة كبرى . ذلك ان الأمير حقق بها السلام الذي كان يبحث عنه بشق النفس ، والإعتراف بسلطته وسيادته على معظم القـطر الجـزائري ضمنيـاً وعلى اقليمي وهران والتيـطري (بإستثنـاء المـدن السـاحليـة) صراحة . وقد جعلته المعاهدة هو القوة الوحيدة التي على العدو التعامل معها في الجزائر ، وفتحت لـه أبواب التعـامل القنصلي والتجـاري مع الفـرنسيين . وكانت مخططات الأمير تذهب إلى أنه هو الذي سيرث اقليم قسنطينـة بعد سقـوط الحاج احمـد ، لأن أهل الشـرق الجزائـري سيلجأون إليـه وحـده كسلطان عليهم وأميـر للمؤمنين ، فلا باي تونس ولا السلطان العثماني بقادر على أن يحل محله . وقد أخذ في مراسلة الأعيان في الإقليم الشرقي ، كما عرفنا ، طالباً منهم الدخول في طاعته . وسنعرف ردود الفعل على ذلك في فصل لاحق . وهكذا كانت معاهدة التافنة نقطة تحول حاسمة في المقاومة بالغرب الجزائري إذ كانت تعبيراً عن انطلاقة جديدة في المفهوم الوطني والخروج من الحيز الجغرافي الضيق الذي تميزت به أشكال المقاومة في المناطق الأخرى.

اما معاهدة التافنة في نظر الحاج احمد فقد كانت عملاً عدائياً ضده . ذلك أنها أطلقت يد جيش العدو في الشرق ، لكي « يثأر » لهزيمته السابقة . ولم يكن لدى الحاج احمد ايضاً من الوقت مـا يستعيد خـلاله تنـظيم إقليمه ويفـرض نفسه على النافرين منه ويستجلب السلاح والعدة لمواجهة العدو في المرة الثانية . فرغم انتصاره الظاهري سنة 1836 فإن سلطته على المدينة وعلى الإقليم قد أخذت تهتز . فالعدو قد استولى له أيضاً على عنابة وبجاية وقالمة ، وأخذ يتدخـل في شؤون « رعايـا » الحاج احمد فيكسب منهم أنصاراً له ضده ، وضيق الخناق على تجارته مع تونس ، ولم يعد له ميناء يتصل منه بالخارج ، ولم يستطع السلطان العثماني أن يمده بالمال أو بالرجال أو بالسلاح أو بقطعة من الاسطول ، كما وعده . فكان الحاج احمد يعاني تقريباً من العزلة والإهتزاز والمحاصرة والفقر في العدة والسلاح ما كان يعـاني منه الأمير سنة 1836 . ولعل الميزة الوحيدة التي كانت لديه هي كونه محاصراً في مدينة مسورة ومحصنة وعازمة على الدفاع عن نفسها إلى آخر رمق . ولذلك فإن المقاومة التي لقيها الفرنسيون ، لا تعود في الحقيقة ، كما رأينا ، إلى شخصية أو تنظيم أو أفكار الحاج احمد ، بقدر ما ترجع إلى طبيعة الأرض والسكان والمدينة . وهكذا كانت سنة 1837 قد سجلت أفول نجم الحاج احمد وسطوع نجم الأمير ، او نهاية المقاومة الرسمية في الشرق واستمرار المقاومة الشعبية في القطر كله ، أو إذا شئت نهاية الحزب العثماني ـ الإسلامي ، وإنتصار الحزب العربي ـ الإسلامي ـ الوطني .

8. التيار العربي الإسلامي :

ان عملية « التتريك » التي لم تحدث ردود فعل في المشرق الاّ بعد الإنقلاب العثماني تقريباً ، قد ظهرت في الجزائر خلال الحكم العثماني ، وأحدثت ردود فعل مختلفـة عبـر ذلـك الحكم من 1519 ـ 1830 ، تمثلت في الثـورات أحيـانـاً ، والمحافظة على الإستقلال في الداخل أحياناً ، والهجرة أحياناً ثالثة ، وهكذا . وإذا كانت عملية التتريك قد برزت حـادة في المشرق العـربي عشية الحـرب العالميـة الأولى ، فإنها في الجـزائر قـد ظهرت بحـدة أيضاً ولكن في شكـل « العثمنة » لا التتـريك . فـالحكام « عثمـانيون » ، واللغـة « عثمانيـة » والمذهب الـديني حنفي « عثمـانى » ، والنظم الإداريـة « عثمانيـة » الخ . ورغم رابـطة الـدين فـان سلوك

العثمانيين نحو الجزائريين جعلهم يشعرون بأنهم ليسوا من جنس واحد وان هناك العربي المحكوم (أو الرعية) والتركي ـ العثماني الحاكم (أو السيد) .

وكان هذا الشعور قد ازداد حدة مع فاتح القرن التاسع عشر ، ففي هذا العهد غزت فرنسا مصر وتركت حملتها آثارها على العقل الشرقي ، ووقعت حروب « البلقان » القومية (خصوصاً ثورتي اليونان والصرب) ، ودخلت الدولة العثمانية في طريق الإصلاح ، وشهدت الجزائر نفسها عدة ثورات وصفت بأنها ثورات الطرق الصوفية (الدرقاوية ، والتجانية . . .) ، وأخذت دعوة محمد بن عبد الوهاب السلفية تنتشر في العالم الإسلامي . كما ان عدداً من الجزائريين قد حملتهم التجارة والمعاملات المالية إلى الإختلاط باوروبا وتعلم لغاتها والتعرف على تقاليدها وحضارتها . فهذا احمد بوضربة وحمدان خوجة ومصطفى بن كريم وغيرهم قد سافروا إلى اوروبا وتكلموا لغاتها وتعاملوا مع تجارها ، حتى أن الأول منهم قد تزوج من فرنسية وعاش في فرنسا أكثر من عشر سنوات . كل ذلك قبل مجيء الحملة العدوانية ضد الجزائر .

ولو لم يكن الفرنسيون يعرفون مدى شعور الجزائريين العدائي نحو « العثمانيين الأتراك » لما خاطبوهم في بيانهم المشهور بتلك اللهجة ولما وعدوهم بتلك الوعود ذلك ان البيان الفرنسي الموجه للجزائريين (الأعيان ، والعلماء ، والفقهاء ، والتجار . . .) قد ركز على نقطة الضعف في العلاقات بينهم وبين العثمانيين ، وهي التحكم والتعالي والإحتلال . وهكذا وعد الفرنسيون انهم سيحررون الجزائريين من ربقة النير التركي ، تماماً كما وعد الحلفاء العرب خلال الحرب العالمية الثانية بالتحرير وإقامة الدولة العربية . وفي كلتا الحالتين كذب الواعدون وخاب الموعودون . ولكن ترحيب بعض المثقفين الجزائريين ورجال الحضر بكلمة الفرنسيين يدل على عدائهم القوي للعثمانيين ـ الأتراك ، وعلى آمالهم في الحصول على الحرية والإستقلال منهم بمساعدة الفرنسيين .

فلا غرابة إذن أن ينشأ الحزب العربي أثناء الحملة وأن يكثر من الإتصالات والمشاورات وأن يفرح بطرد الإنكشارية وخروج حسين باشا . ولا غرابة أيضاً أن يرتمي بقايا الأتراك في الجزائر في أحضان الفرنسيين الذين جاؤوا لإخراجهم ، وان يضرب الفرنسيون العرب في الجزائر بالأتراك ، كما ضرب الإنكليز العرب باليهود في

المشرق . فقد أصبح في كل مدينة تقريباً (الجزائر ، تلمسان ، المدية ، قسنطينة الخ .) حزب عربي وحزب عثماني ، وشيئاً فشيئاً تحولا الى حزب وطني (يضم العرب والحضر والكراغلة) وحزب تركي ، وأصبح الأخير صديقاً لعدوه بالأمس (الفرنسيين) لأنه وجد عاطفة مضادة من العرب الذين طالما حرموهم وكبتوا طاقاتهم . ولكن هذا لا يعني ان الحزب العربي كان كله مضاداً للفرنسيين . فقد وجد فيه من كان معجباً بهم ومتعاملاً معهم ومع الحزب التركي ، كما تعاون مصطفى بن إسماعيل (العربي) مع إبراهيم بوشناق (التركي) ، وكلاهما في صف الفرنسيين ، أو حتى تعاون فرحات بن سعيد (العربي) مع إبراهيم الكريتلي (التركي) .

وان هناك علامات قوية لظهور تيار عربي - إسلامي في الجزائر بين 1830 - 1837 ، تيار كان أسبق بعدة عقود من ظهوره في المشرق على يد أنصار الجمعيات السرية العربية المضادة في أساسها لسياسة التتريك العثمانية : ولكن طغيان قادة الإحتلال والظلم الإستعماري الفرنسي حول ذلك التيار العربي - الإسلامي في الجزائر إلى قوة معادية بحدة للفرنسيين أكثر من الأتراك . بالعكس فان ظلم الفرنسيين قد أنسى الجزائريين مع مرور الزمن ظلم الأتراك ، بل ان الجيل الموالي للإحتلال قد عادت فيه العاطفة نحو العثمانيين على أساس الدين والروح الشرقية والتساوي أمام التحدي الغربي ، كما سنرى .

ومن أبرز المعبرين على ذلك التيار العربي - الإسلامي أعضاء لجنة بلدية الجزائر ، وبعض الطرق الصوفية والمقاومة الشعبية ولا سيما في الغرب (قيادة الأمير) . فلجنة البلدية المذكورة كانت تتكون من الحضر - العرب . وكان رئيسها هو احمد بوضربة الذي تزعم هذا التيار عندئذ (1830 - 1831) ، وهو جزائري من أصل أندلسي كان أهله في القديم يسكنون المدية . وقد آمن في بداية الأمر أن كلمة الفرنسيين في التحرير صادقة فارتبط بهم وخدمهم ، خصوصاً انه يعرف الفرنسية وزوجته منهم . وكل كتابات وأفكار بوضربة عندئذ تعبر عن عدائه الشديد للأتراك ، رغم أنها قد تجعله في نظرنا اليوم متقرباً جداً من الفرنسيين . وقد تبين فيما بعد أنه كان مخطئاً فيهم . ومهما كان الأمر فإن بوضربة قد استعمل نفوذه لدى الفرنسيين ومنصبه ليعين في بعض المراكز الحساسة أقاربه وأصدقاءه . ومن هؤلاء عمه مصطفى بوضربة الذي تعين على رأس أوقاف مكة والمدينة ، وحمدان أمين السكة المعروف

بوركايب الذي تولى منصب (آغا العرب) في متيجة . وبالإضافة الى بوضربة نجد التيار العربي ـ الإسلامي قد انعكس أيضاً في كتابات حمدان بن عثمان خوجة صاحب كتاب (المرآة) ، رغم أن خوجة كان أكثر اعتدالاً في موقفه ، وكان أميل إلى الاتجاه العثماني ـ الإسلامي الذي يمثله الكراغلة (الحاج احمد مثلاً) أكثر مما كان يميل إلى الإتجاه العربي القح . وتدل كتاباته ومواقفه أيضاً على أنه كان يحبذ الحاج احمد (وهو صهره) على الأمير عبد القادر ، ولم يرجع إلى تأييد الأمير الاّ بعد هزيمة الحاج احمد سنة 1837 .

أما موقف الطرق الصوفية فقد كان واضحاً انه ضد الوجود العثماني ـ التركي . فهذه الطريقة الدرقاوية لها تاريخ دموي ضد الحكم العثماني ، وهذه الطريقة التجانية كذلك ، والموقف الجديد وقفته كل من القادرية والرحمانية . فالقادرية بقيادة الحاج محيي الدين وابنه عبد القادر عبّرت عن عدائها القوي ضد الأتراك ، سواء في الميدان الحربي أو الأيديولوجي والاستراتيجي . صحيح انها لم تدخل في حرب ضد الباي حسن في وهران ، ولكنها حاربت خلفاءه الذين ناصروا الفرنسيين أمثال ابراهيم بوشناق ومصطفى المقلش ومصطفى بن عثمان ، الخ . ثم انها خذلت الباي المذكور (الباي حسن) حين طلب حمايتها ، ورفضت التعاون مع الحزب العثماني سواء كان ممثلاً في الكراغلة أو في الحاج أحمد أو حتى مع السلطان العثماني ، وقد اختارت بدلاً من ذلك التعاون الأقرب مع سلطان فاس . وأما الرحمانية فلا نعرف ان لها موقفاً معادياً بوضوح في المرحلة التي ندرسها ، اللهم إلا إذا اعتبرنا الحاج علي السعدي رحمانيا ، ونحن لا نملك دليلاً على ذلك . كما أننا لا نعرف الانتماء الصوفي لكل من الحاج محيي الدين بن مبارك (القليعة) ومحمد بن عيسى البركاني (شرشال) رغم أنهما من رجال الدين البارزين ، وكلاهما كان ضد العثمانيين وفي حزب الأمير عبد القادر.

وقد ترسخ التيار العربي ـ الاسلامي أيضاً من نواحي أخرى . فنحن نعرف أن كلا من الأمير والحاج أحمد قد حج وزار المشرق وتلقى معارف هناك والتقى بأهله وربط بهم علاقات . واذا كان رصيد الأمير من ذلك تجليات صوفية وكتباً وعلوماً واطلاعاً على تطور الأحداث ، فإن رصيد الحاج أحمد ، فيما يبدو ، كان معرفة أحوال الشرق في عهد السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا وما كان يتردد من

الاصلاحات والنهضة والمسألة الشرقية . ذلك ان (الأمير) ذهب إلى الحج كابن مرابط وهذا (الحاج أحمد) ذهب إلى الحج كابن باي . وعاد كل منهما بما يناسب تكوينه وبيئته وحاجته . ولنلاحظ عابراً انه رغم تأثر كل منهما بأحوال الشرق العلمية فاننا لا نعرف انهما قد أسسا مطبعة أو صحيفة ، سيما الحاج أحمد الذي كان طيلة سبع سنوات في عاصمة محصنة ومستقرة وعلمية .

وعلى مستوى آخر هناك شخصيتان تأثرتا بأحوال الشرق وكان لهما تأثير على أحوال الجزائر خلال هذا العهد . الأول هو الحاج علي السعدي الذي قلنا انه كان من عائلة مرابطين عريقة تعود إلى القرن العاشر ، وانه قد حج ومكث مدة في الشرق قبل الاحتلال ، يتعلم ويتعرف ثم عاد إلى وطنه بعيد الاحتلال ، وكان من أنشط الدعاة للجهاد ، ومن أشدهم ايماناً بالتيار العربي ـ الاسلامي ، ولم يتوان في تجنيد كل الطاقات ضد العدو سواء في العاصمة ، أو في متيجة أو عندما أصبح خليفة للأمير على نواحي سباو ويسر وعمراوة وحمزة الخ . فقد كان الحاج السعدي شعلة من الغيرة على الوطن والدين من جهة ، ومتحدياً للفرنسيين والعثمانيين الأتراك معاً . ويدل على ذلك دخوله في حركة الأمير بدل الدخول في صفوف غيره .

أما الشخصية الثانية فهو الحاج موسى المعروف بالدرقاوي ، والذي قلنا انه جاء من مصر ودخل في الطريقة المدنية الشاذلية بطرابلس ثم تجول بالمغرب الأقصى ، وأخيراً حل بالجزائر وظل يحارب العدو الفرنسي من 1832 إلى سنة 1849 أثناء ثورة الزعاطشة إذ سقط شهيداً إلى جانب بوزيان زعيم هذه الثورة . ويبدو انه لم يكن للحاج موسى أية علاقة مع الحزب التركي ، لأنه درقاوي ولأننا لا نعرف عنه أنه دعا إلى عودة الحكم العثماني أثناء جهاده ، وما نريد أن نستخلصه من هذا ليس سرد الأحداث التي شارك فيها الحاج موسى ، ولكن أصوله الجغرافية والطرقية . فقد اختلط في جهاده التيار العربي والإسلامي ، رغم انه لم يتفاهم مع الأمير أو ينضم لحركته .

وما دمنا نتحدث عن التيار العربي ـ الإسلامي فإننا لا نعتقد أن تدخل سلطان المغرب وباي تونس كان له أثر على تشجيع هذا التيار . حقيقة أن تدخل المغرب كان بطلب من بعض الحضر ذوي العاطفة العربية ـ الإسلامية . فقد التفتوا إلى فاس بدل اسطانبول . واعتقدوا ان النصر يأتي من العرب لا من الأتراك . وكان محمد بن نونة

واسطة هذا الاتصال . وبقي هذا الاعتقاد قوياً حتى بعد تولي الأمير إمارة المؤمنين . فقد سبق أن ذكرنا انه أرسل إلى السلطان عبد الرحمن ابن هشام ما يعبر عن طاعته واحتمائه به بدل سلطان اسطانبول . فالرابطة العربية ـ الإسلامية واضحة في هذا المجال ، والربط بينها وبين حركة المقاومة للعدو أوضح من أن تعرف . وكلا الجانبين فيها (السلطان والأمير والحضر) متفقان على عدم الالتفات إلى الحزب التركي ولا إلى الباب العالي . أما تدخل باي تونس فقد كان تدخلاً سيء الحظ سواء في وهران أو في قسنطينة . فقد نظر إليه الجزائريون على انه عملية بيع وشراء بين الباي والعدو وليس طاعة أو ولاء عبروا هم عنه للباي ، حتى الحاج أحمد الذي كان أقرب في الميول والأهواء إلى باي تونس منه إلى الأمير ، رفض الصفقة وأبى التخلي عن اقليمه إلى هذا الدخيل . ولعل كون باي تونس يحكم بإسم السلطان العثماني هو السبب في رفض أصحاب التيار العربي ـ الإسلامي قبوله حاكماً عليهم ، ولو كان يمثل سلطة إسلامية .

بقي أن نقول كلمة عن الهجرة خلال هذه الفترة . لقد خرج الجزائريون أفواجاً من بلادهم بعد الحملة وما رافقها من ظلم وعدم احترام للمتلكات والمقدسات والأعراض . خرج بعضهم بما خف حمله وارتفع ثمنه يجولون الأرياف بحثاً عن مقام مؤقت ريثما ينجلي الموقف ، وتوجه آخرون إلى المدن التي ما تزال في يد المسلمين مثل قسنطينة وتلسمان ، وخرج آخرون ، منفيين أو مختارين ، إلى المغرب العربي (تونس ـ المغرب) أو إلى المشرق العربي . بل إن بعضهم توجه إلى فرنسا نفسها . وكان هؤلاء المتنقلون ، عادة هم أصحاب الثروة والجاه ، أو أصحاب العلم والدين . وقد خرج أكثر من ثلث سكان العاصمة منها في طوابير بعد وقوعها في قبضة العدو[97] . وقد عرفنا أن سكان وهران وعنابة وبجاية والمدية وتلمسان قد عرفوا نفس الشيء بعد احتلالها . ونحن هنا لا نتحدث عن الهجرة في حد ذاتها ، ولكن نتحدث عن التيار العربي ـ الإسلامي وراء ذلك . ان المهاجرين كانوا في معظمعم من الساخطين عى العثمانيين وعلى الفرنسيين معاً . وذهاب الكثير منهم إلى البلدان الإسلامية العربية دليل على قناعتهم بذلك المبدأ ، رغم ان بعضها ، مثل تونس

---

(97) أنظر وصف ذلك في عمار حمداني (الحقيقة . . .) فصل الإستيلاء على مدينة الجزائر .

ومصر ، كانت وما تزال في أيدي العثمانيين ، ولكن لغتها وتقاليدها عربية . فهذا مثلاً ابن العنابي قد توجه إلى مصر (1830) وتولى فيها الفتوى وأصبح من علمائها المشار إليهم . وهذا احمدان خوجة توجه إلى باريس ثم اسطانبول (1836) بعد أن يئس من عدل فرنسا وخاف على نفسه . وقد تولى الترجمة والتحرير في إحدى صحف العاصمة العثمانية ، ولكنه ظل أيضاً يعمل لقضية بلاده . وختم بوضربة حياته بالهجرة إلى المغرب الأقصى ، وهاجر محمد بن علي السنوسي (مؤسس الطريقة السنوسية) إلى المغرب ثم إلى الحجاز حيث تثقف واعتنق المبادىء الصوفية ثم جاء لينشرها ويحارب بها العدو من ليبيا.

إن التيار العربي ـ الإسلامي قد ظهر في الجزائر منذ الاحتلال . وظهر أولاً في شكل رد فعل ضد الحكم العثماني الذي « عثمن » نظامه ولغته وإدارته بحيث أشعر الجزائريين بالغربة والحرمان السياسي والكبت . وكان ذلك في مرحلة مبكرة بالنسبة للعاطفة القومية العربية التي لم تظهر في الوطن العربي إلاّ في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر كرد فعل لعملية « التتريك » والطورانية . وبعد أنَ اختفت آثار العثمانيين في الجزائر تقوى الاتجاه العربي ـ الإسلامي كرد فعل ضد « فرنسة » الجزائر ، وآمن أصحابه ، كما سنرى ، بالوحدة أو الجامعة الإسلامية التي تعتمد العاطفة العربية أساساً لها . وهكذا فإن التيار العربي ـ الإسلامي الذي ظهر مبكراً كان مضاداً للحكم العثماني المتترك والإستعمار الفرنسي المتغرب.

* * *

مراجع الفصل الثاني

ابن عبد القادر ، مسلم ـ أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بونار ، 1974 .

ابن العنابي ـ السعي المحمود في نظام الجنود (مخطوط) .

ابن محمد ، اسماعيل ـ مقالة عن أحمد باي في جريدة (الأخبار) ، رقم 1,546 احتلال الجزائر من خلال أوراق بورمون ، باريس ، 1929 .

أزان ، بول ـ الإحتلال والتهدئة ، 1931 .

الأنبيري ، أحمد ـ علاج السفينة في بحر قسنطينة (مخطوط) .

ايسكير ، غبريال ـ ايكونوغرافية الجزائر ، 1929 .

تاريخ عبد الحميد بك (مخطوط) .

تشرشل ، شارل هنري ـ حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة سعد الله ، والجزائر ط. 2 ، 1982 .

التميمي ، عبد الجليل ـ قسنطينة في عهد أحمد باي 1830 ـ 1837 ، تونس ، 1978 .

التميمي ، عبد الجليل (عن اتفاق كلوزيل ـ باي تونس) ـ المجلة التاريخية المغربية ، يناير 1980 .

الحاج أحمد ـ مذكرات ، ترجمة العربي الزبيري ، الجزائر 1973 .

خوجة ، علي بن حمدان ـ ذكريات رحلة . . . إلى قسنطينة عبر الجبال ، ترجمة دي سولسي ، ميتز ، 1838 .

خوجة ، علي بن حمدان ـ مرآة الجزائر ، بالعربية (ومترجم إلى التركية) ، اسطانبول 1857 ؟

دوماس ، يوجين ـ القبائل الكبرى ، باريس ، 1847 .

ديلبيش ـ ترجمة كتاب مسلم بن عبد القادر (أنيس الغريب) ، (م. ا.) ، 1874 .

روبان ـ تاريخ الشريف بوبغلة ، الجزائر ، 1884 .
رين ، لويس ـ مرابطون وإخوان ، الجزائر ، 1886 .
رينال ، بول ـ حملة الجزائر ، باريس ، 1930 .
دي رينو ، بيليسيه ـ الحوليات الجزائرية ، ط. 2 ، 1854 .
سعد اللّه ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، جـ 2 ط 2 ، بيروت ، 1990 : عن الحياة الإجتماعية والإقتصادية من خلال دفتر محكمة المدية 1823 ـ 1834 . وكذلك جـ 3 ط 1 ، بيروت ، 1990 .
سعد اللّه ـ محاضرات في تاريخ الجزائر ، ط. 3 ، الجزائر 1982 .
سعد اللّه ـ المفتي الجزائري ابن العنابي ، الجزائر ، 1978 .
سيروكا ـ الجنوب القسنطيني من 1830 إلى 1855 ، في (م. ا.) عدد 56 ، 1912 .
شانقارنييه ـ مذكرات ، باريس 1930 .
شلوصر ـ قسنطينة أيام أحمد باي ، ترجمة أبو العيد دودو ، الجزائر ، 1980 .
العنتري ، محمد الصالح ـ فريدة مؤنسة ـ تاريخ بايات قسنطينة ، ط. 1845 ، أيضاً المكتبة الوطنية ـ الجزائر 2320 .
فايسات ـ تاريخ قسنطينة تحت الحكم التركي (1517 ـ 1837) ، 1869 .
فرعون ، ف . ـ عن مذكرات قبائل المدية ، في (م . إ .) 1857 .
قيون ، الدكتور (جان لويس جونيفييف) . ـ رحلة الجزائر والزيبان ، الجزائر 1852 .
كامبون ، جول ـ حكومة الجزائر ، الجزائر ، 1918 .
كلوزيل ، تقرير إلى وزير الحربية ، أرشيف ايكس .
كنيدي ، كلارك ـ الجزائر وتونس .
كور ، أوغست ـ عن الإحتلال المغربي لتلمسان ، 1830 ـ 1836 ، في (م. ا.) 1908 .
لوكوك ، أ ـ عن احتلال تلمسان سنة 1836 ، في (م. ا.) عدد 79 1936 .
مجهول ـ عن الأمة ، عن الجزائر ، باريس ، 1832 .
مراسلات الأمير عبد القادر مع العربي بن عطية (الدرقاوي) ، أرشيف إيكس .

مصطفى بن إبراهيم ـ حكاية العشاق ، بتحقيق سعد اللّه ، طَ. 2 ، الجزائر ، 1983 .
موريلي ، صفحات من التاريخ ، مجلة (روكاي) ، م 63 ، 1936 .
الناصري ، أحمد ـ الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، جـ 9 .
ياكونو ، كزافييه ـ عن الجزائريين المنفيين في السجون الفرنسية خارج الجزائر ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 1 ، 1974 .

***

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الثالث

أبطال وزعانف

1837 ـ 1848

1. مقدمات:

لسنا ندري بأي مقياس يقيس الفرنسيون بطولات رجالهم : هل بالوسائل التي استعملوها أو بالغايات التي نالوها ؟ هل بالتخريب والوحشية أو بالبناء والانسانية ؟ هل بالتغلب على المدافعين عن حقوقهم وأوطانهم وكرامتهم ثم الوقوف على أشلائهم وأنقاضهم وقفة المتشفي المنتقم ؟ هل بترحيل العجزة والأيامى والأرامل والأطفال من مكان إلى آخر ، وبنفي القادة والأعيان وتهجير المثقفين وخطف الرهائن ونصب المشانق وإذلال الناس حتى لا يعبدوا إلاّ القوة ولا ينحنوا إلاّ للسيف ؟ هل البطولة في نظر الفرنسيين هي إتلاف المحاصيل الزراعية ، ونهب مخازن الحبوب ، وحرق الدواوير والمداشر وسوق الحيوانات كغنائم وسبايا ؟ وهل البطولة الحضارية هي اغتصاب أراضي الجزائريين وإعطاؤها للفرنسيين المشردين وطمس المعالم الإسلامية ، واستبدالها بمعالم الكنيسة الكاثوليكية ، وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ، واعتبار الجزائر أرضاً خالية من السكان والقيم والقوانين ؟ إن كان الأمر كذلك عندهم فيحق لهم أن يمنحوا توماس بوجو وسام البطولة ، وأن يقلدوه عصا المارشالية ، وأن ينصبوا له تمثالاً عالياً في قلب عاصمة الجزائر ليذكر الجزائريين دائماً بالقهر والاغتصاب والنهب والخراب والغزو والاستبداد وغير ذلك من الكلمات التي تأبى النفس الكريمة سماعها.

إن جزءاً كبيراً من العهد الذي سندرسه سيظهر فيه بوجو هو الممثل لدور المأساة ، فقد تولى الحكم في الجزائر من 1841 ـ إلى 1847 ، وتميز عهده بكل ممقوت من أعمال الاستعمار الحديث . والممثل الثاني لدور المأساة هو المارشال فاليه الذي حكم الجزائر بين 1837 ـ 1841 ، والذي تميز عهده بقسمين : الأول يمكن أن نسميه عهد هدنة 1837 ـ 1839 ، وما هي في الحقيقة بالهدنة الشاملة إذ

كان فيه يناور لبسط نفوذ بلاده على الشرق الجزائري ويحاول تعديل بنود معاهدة التافنة لصالح بلاده ، ويتحدى الأمير حتى ينقض هذه المعاهدة ، الخ . أما الجزء الثاني من عهد فاليه 1839 ـ 1841 فقد تميز بالحرب الشاملة ضد الأمير من جهة والمقاومة الوطنية من جهة أخرى . وقد دشن فاليه عهد بوجو الذي خلفه ليواصل نفس السياسية ويضيف إليها زيادة في الجند وزيادة في العتاد والمال ، وزيادة في قهر وإذلال المقاومين وترهيب الناس .

أما من الجانب الجزائري فقد ظهر الأمير عبد القادر في أوج قوته 1837 ـ 1839 ، ثم هو يتحدى التنين المسموم ويصارعه ويبتعد عنه تارة ثم ينقض عليه حتى ليكاد يسحقه ، وكان ذلك بين 1839 ـ 1845 ، أما الفترة ما بين 1845 ـ 1847 ، فقد شهدت الأمير وهو يصارع جبلاً لا تنيناً، وقد انضم سلطان فاس إلى بوجو لمطاردة الأمير، ولم يعد الأمير يحارب عدواً واحداً بل أعداء، وانفض من حوله الأتباع وأمسكت المعونة الخارجية والدبلوماسية ، فلم تأت لا من بريطانيا ولا من اسبانيا ولا من امريكا ولا حتى من السلطان العثماني الذي عاد الأمير يلتمس نجدته. وأما الحاج أحمد فقد كاد يختفي أثره بعد خروجه من قسنطينة (1837) ، ولم يقم خلال عشر سنوات بقيها في جبال الأوراس والصحراء بأي عمل يهدد العدو أو بأية محاولة جادة في نصرة الأمير ، أو بتنظيم المقاومة الوطنية في أسلوب جديد تحت قيادته ، ولذلك قلنا ان جهود الحاج أحمد قد انتهت باستيلاء العدو على قسنطينة . وهناك زعماء آخرون ظهروا على المسرح ، خلال هذا العهد ، لعبوا أدواراً مختلفة منهم من كان مستقلاً ومنهم من كان يناصر الأمير ومنهم من شايع العدو طمعاً أو خوفاً .

2. الأمير من التافنة إلى البيبان :

أعطت معاهدة التافنة للأمير بعض الوقت لتنظيم دولته استعداداً لانطلاقة جديدة ضد العدو . وقد شمل التنظيم المدن التي دخلت تحت سلطته من جديد (تلمسان ، معسكر ، حمزة) أو التي كانت تحته من قبل (مليانة ، المدية ، تاقدامت الخ .) كما شمل مناطق أخرى لم تكن عنده من قبل ، مثل شرق وغرب الصحراء ، ومثل مجانة وسطيف والأغواط وبسكرة الخ . وكان الوقت يضغط عليه لأن الفرنسيين سيعودون إلى مضايقته وإفساد خططه بعد احتلال قسنطينة مباشرة . ويدخل في عملية التنظيم التي

قام بها الأمير أيضاً رحلتاه إلى منطقة زواوة (القبائل) وحملته على عين ماضي.

شملت دولة الأمير ثمانية أقاليم على رأس كل إقليم خليفة، نائباً عن الأمير. وكانت الأقاليم أربعة بين 1832 ـ 1837 فأصبحت ثمانية منذ هذا التاريخ. أما الأربعة الأولى فهي إقليم الغرب أو تلمسان، وإقليم الشرق أو معسكر، وإقليم مليانة الذي شمل شرشال وتنس، وإقليم المدية أو التيطري سابقاً. وبعد معاهدة التافنة أضاف الأمير أربعة أقاليم أخرى هي: إقليم حمزة (الذي كان من قبل تحت نفوذ الحاج السعدي كممثل للأمير)، وإقليم مجانة الذي هدف الأمير من وراء إنشائه إلى إثبات شرعية نفوذه على إقليم قسنطينة القديم، ثم اقليم الأغواط وإقليم الزيبان (بسكرة). وكل إقليم كان مقسماً إلى عدّة نواحي على رأس كل ناحية آغا، وكل ناحية مقسمة إلى أعراش أو قبائل، على رأس كل منها قائد، وكل فرقة من القبيلة أو قسمة منها تحت نفوذ شيخ. وقد منح الأمير سلطات واسعة للخليفة، مثل جمع الضرائب وإقامة الحدود، وإجراء القضاء بين الناس، وحماية الأمن والمواطنين، ومحاربة العدو. وكان تعيين الخلفاء غير محدود بمدة. والخلفاء هم الذين ينقلون تعليمات وأوامر الأمير إلى الأغوات، وهؤلاء إلى القياد وهؤلاء إلى الشيوخ، وهكذا. وكان الأغوات والقياد يعينون من قبل الخليفة لمدة سنة، قابلة للتجديد. أما القياد فهم يعينون في العادة من قبل الأغوات ولكن إذا كانوا على قبائل كبيرة فإن تعيينهم يأتي من الخليفة نفسه. وأما الشيوخ فمنصبهم انتخابي، إذ تنتخبهم فرقتهم أو قسمتهم (دوارهم) بدون تدخل الدولة. والشيوخ يحولون شكاوى الناس إلى السلطات العليا بطريق السلم التصاعدي. وعندما تقوم الحرب ضد العدو يصبح أولئك المسؤولون قواداً عسكريين كل في دائرته.

ومن أبرز خلفاء الأمير في المرحلة الأولى (1832 ـ 1837): مصطفى بن التهامي خليفة معسكر، ومحمد البوحميدي الولهاصي خليفة تلمسان، ومحمد بن علال خليفة مليانة، ومحمد بن عيسى البركاني خليفة المدية[1]. ولكل من هؤلاء مزاجه

---

(1) سبق القول بأن أول خليفة للأمير على مليانة هو (آغا العرب) السابق الحاج محيي الدين بن مبارك، وأن أول خليفة له على المديّة هو أخوه (الأمير) مصطفى بن محيي الدين، وأن الحاج السعدي تولى الخلافة للأمير نواحي متيجة ويسر وعمراوة وحمزة، وذلك قبل التنظيم الجديد الذي بدأه الأمير بعد =

وخصائصه في الحكم ، ولكنهم جميعاً كانوا يتصرفون في معظم الأحيان طبقاً لأوامر الأمير . والملاحظ أن هؤلاء الأربعة كانوا من عائلات دينية ومتميزة بالثروة . كما كانوا من المثقفين . وكان بعضهم يجتهد رأيه حتى أن ابن علال رفض تسليم مدينتي البليدة والقليعة إلى الفرنسيين طبقاً لمعاهدة التافنة ، ولكن هؤلاء احتلوهما بالقوة سنة 1838 . وكان البوحميدي متميزاً بالإستقلال في الأحكام حتى انه كان أحياناً لا يراسل الأمير إلا بعد مرور وقت . أما ابن التهامي الذي هو صهر الأمير وقريبه فقد تميز بالعلم والأدب والحكمة أكثر من القدرة على الإدارة ، رغم انه كان محارباً شجاعاً . ورغم بعد موقع البركاني فقد كان معروفاً عنه الولاء للأمير والقدرة الإدارية والشجاعة في الحرب والتدين.

أما خلفاء الأمير في الأقاليم الأربعة الجديدة فأمرهم يختلف نوعاً ما . فقد كان بعضهم لا يحكم إلّا مدة قصيرة ، وكان بعضهم لا يتمتع بصيت ونفوذ قوي ، مما جعل سلطة الأمير لا تنفذ ولا تحترم ، كما نفذت واحترمت في الأقاليم الأربعة الأولى . فهذا محمد بن عبد السلام المقراني خليفة مجانة ، منذ اكتوبر 1837 ، كان من أقوى الخلفاء ومن أكبر العائلات في الإقليم ، ولكن بعد المسافة ومضايقة الفرنسيين له من بجاية وقسنطينة والمناورات العائلية جعلت سلطة الأمير هناك غير قوية . وكان خلفاؤه على الأغواط وبسكرة وحمزة ليسوا في مستوى خلفائه السابقين . فقد كان بعضهم لا يتمتعون بسلطة شخصية أو إدارية أو دينية تجلب إليهم طاعة الناس ، ولعل أقوى هؤلاء وأتقاهم هو أحمد الطيب بن سالم (حمزة) الذي كان ورعاً قوي الشكيمة والذي استطاع أن يبسط إدارته على المنطقة ، أما الحاج العربي بن الحاج عيسى فلم يستطع أن يوطد سلطة الأمير على الأغواط وما جاورها من الصحراء الغربية وكان على الأمير أن يستبدله (1839) بغيره ، أمام عجزه عن جلب أو تحييد أحمد بن سالم (الأغواط) ومحمد التجاني (عين ماضي) . وكان إقليم بسكرة في غمرة من الأحداث والصراعات العائلية فلم ينجح الأمير هناك في فرض إدارة محترمة . فقد تولاه أولاً فرحات بن سعيد مدة قصيرة (آخر 1837 وأوائل

• معاهدة التافنة (1837) . والخلفاء الثلاثة الأولون (الحاج محيي الدين ، والحاج السعدي ، ومصطفى أخ الأمير) كانوا من عائلات دينية .

1838) ثم تحالف فرحات مع الفرنسيين ضد الأمير ، ثم تولاه حسين بن عزوز ، ثم محمد الصغير بن عبد الرحمن ، وكلاهما عجز عن مواجهة الفرنسيين وحليفهم ابن قانة هناك.

وقد اختلف المؤرخون حول ما اذا سوّت ادارة الأمير بين المواطنين في الضرائب أو أبقت على نظام المخزن الذي كان سائداً في العهد العثماني . فبعضهم ذهب إلى أن الأمير أزال التمايز بين قبائل المخزن والرعية ، وجعل الجميع يدفعون نصيباً واحداً ويقومون بواجبات واحدة نحو الدولة . ولكن آخرين يرون أن الأمير قد أبقى على بعض الامتيازات عند القبائل المخزنية إذ كانت تدفع هذه نصيباً أقل من الرعية وتحتفظ بالباقي لنفسها على أن تقوم بالمشاركة في الحملات الحربية بدور أكبر ، وتحدث هؤلاء عن أن الأمير جعل من بعض القبائل قبائل ممتازة مثل هاشم والغرابة الذين جند منهم معظم موظفيه وسلطهم أحياناً على قبائل أخرى لمعاونة خلفائه في فرض الطاعة والإحترام . ولكن يبدو أن ذلك التمايز كان في المرحلة الأولى حين كان الأمير يستجلب على الخصوص قبائل الزمالة والدوائر (المخزنية) ويؤلف قلوبهم ، أما بعد معاهدة التافنة فقد سوى الأمير بين كل المواطنين ، ولا سيما بعد أن تعاملت معظم القبائل المخزنية مع الفرنسيين ضده . كما سوى الأمير بين المواطنين أمام القضاء.

ولم يتوقف تنظيم الأمير لدولته على تنصيب الخلفاء ومن تحتهم في الأقاليم بل انه أقام جيشاً نظامياً يحمي سلطته المركزية والاقليمية ، ويجبي الضرائب ، ويحارب العدو . وبالإضافة إلى ذلك جعل الأمير الجيش يخضع لتقاليد مضبوطة في الإرتقاء والطاعة ونحو ذلك . فقد عزل بعض الخلفاء على أسس معينة كسوء الإدارة أو العجز إلخ . ومن ذلك عزله لمحمد بن عبد السلام المقراني وتعويضه بأحمد بن عمار بعد أن شك في اتصال الأول بالعدو . وعزله فرحات بن سعيد وتعيين الحسين بن عزوز بدله بعد أن أظهر الأول تحالفه مع الفرنسيين ، وعزله الحاج السعدي وتعيين أحمد الطيب بن سالم بدله ، كما عزل أخاه مصطفى عن المدية وعين بدله البركاني . أما محمد بن علال فقد عينه لخلفاً لعمه الحاج محيي الدين بعد وفاة هذا . والملاحظ أن بعض هؤلاء الخلفاء لم يكونوا من عائلة المرابطين وإنما كانوا من ذوي النفوذ في

منطقتهم ، فالمقراني وفرحات بن سعيد ، ومحمد الخروبي[2] (سطيف) ومحمد الصغير بن عبد الرحمن ثالث خليفة على الصحراء الشرقية ، كلهم لم يكونوا من المرابطين ، كما انهم كانوا من العائلات التي تولت السلطة في العهد العثماني أيضاً . ونفس الشيء يقال عن الأغوات ، فقد ثبت أن أكثرهم كانوا من العائلات غير المرابطية ، مثل الحاج محمد بن زعموم[3] ، الذي أصبح آغا فليسة بعد زيارة الأمير لحمزة .

ومن التنظيمات التي أظهرها الأمير هناك طريقة اتخاذ القرار وطريقة التعامل مع سلطان فاس والإستفادة من المخترعات الغربية . ان الأمير لم يطبق ما نسميه اليوم بالديمقراطية ولكنه اعتمد على الشورى المعروفة عند السلف الصالح . فقد كان يستفتي العلماء حتى من خارج الجزائر ، وكان يجمع الناس ليسمع رأيهم في الأمور الخطيرة كالحرب والسلام والمصالحة الخ . ومن ذلك الإجتماع الذي جرى قرب مليانة لرفض الموافقة على تعديل معاهدة التافنة حسب الاتفاق الجديد (اتفاق ابن عراش ـ فاليه ، 4 يوليو 1838) . وكذلك الإجتماع الشوري الذي جرى لإعلان الجهاد ضد العدو بعد إجتياز الجيش الفرنسي أبواب الحديد (نوفمبر 1839) . ومن ناحية أخرى فإن الأمير كان يحكم كصاحب سيادة يحمل لقب أمير المؤمنين وسلطان الجزائر ، ولكنه كان يجاري في أوائل عهده سلطان فاس ، عبد الرحمن بن هشام فيلبس القفطان الذي جاءه منه في المناسبات ، ويذكر اسمه في الخطبة الجمعية ولكنه أغفل اسمه في العملة التي أصدرها ، كل ذلك في مقابل المساعدة التي كا سلطان فاس يقدمها إليه أحياناً ولإسكات الأصوات التي قد تطعن في شرعية حكمه أما الموقف من المخترعات الغربية فالأمير رغم أنه وقف منها ، خلال وجوده على رأس الدولة ، موقف المحبِّذ إلا أنه لم يبد ذلك إلّا بشأن قطاعين فقط ، هما الجيش والصناعة . فتدريب جيشه النظامي كان علي الطريقة الأوروبية ، وكانت الصناعا

---

(2) كان الخروبي كاتباً للباي حسن في وهران ، قبل 1830 ، ثم كاتباً للأمير 1833 ـ 1839 ، وفي ه السنة ولاه الأمير خلافة مجانة (مقرها سطيف) . وفي 1844 تخلى عن الأمير .

(3) عنه انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب ، وكذلك فصل (مرابطون وثوار) من كتاب (محاضرات . . .) .

التي أقامها لا تكـاد تخرج أيضـاً عن الصناعـات العسكريـة[4] (مصانـع البارود ، والبنادق ، والمدافع الخ .).

ولقد لخص أحد الكتاب المعاصرين للأمير ميزات نظامه الجديد في قوله : إن الأمير قام بثورة في النظام السياسي لبلاده ، فقد استعاض عن النظام التركي بنظام جديد: فقد أنشأ الجيش النظامي بدل الإعتماد على نظام المخزن، وأنشأ جيشاً إقليمياً ونظاماً إدارياً محكماً بدل المراكز العسكرية التي كانت وسط القبيلة ، وبذل جهوداً في خلق وحدة بين القبائل النافرة ، وجعل ذلك هو مصدر قوته . وأعطى سلطة واضحة للقاضي الذي يمثل الشريعة إلى جانب القائد الذي كانت سلطاته تنفيذية ، بعد أن كانت هذه تطغى على سلطات القاضي ، وجعل القاضي يستمد نصوصه من القرآن ، وبذلك انتعشت العاطفة الدينية لدى السكان ، كذلك أحدث تطوراً في نظام التعليم يساير هذا الإتجاه . وحارب اتجاه السياسة العثمانية (التركية) القديمة وهو الإتجـاه الذي كـان له أنصـار بين بقايـا العثمانيين في الجزائر. ثم حلت الثـورة الإجتماعية محل هذه الثورة السياسية التي أحدثها الأمير[5] . وقد أوصى صاحب هذا الرأي أن تستفيد فرنسا من تنظيمات الأمير في حكم الجزائر ، وسنرى أن بوجو قد فعل ذلك .

وبين نهاية 1837 وسنة 1838 قام الأمير بعملين بارزين في حيـاة الجزائـر السياسية ، الأول بسط نفوذه على جزء كبير من الشرق الجزائري ، والثاني بسط نفوذه على الصحراء الغربية . ففي أواخر سنة 1837 نزل الأمير في برج حمزة وعين من هناك خليفته الجديد أحمد الطيب بن سالم ، وآغا فليسة ، الحاج محمد بن زعموم ، الذي أصبح أيضاً يحكم القشطولة ، والنزليوة ، وبني خلفون ، والحرشاوة والزواتنة والخشنة الخ . كما عين بلقاسم أوقاسي ، آغا على سباو ومد سلطته إلى يسر [6]

---

(4) أنظر رفائيل دانزيقر (عبد القادر والجزائريون . .) ، ص 180 ـ 199 .

(5) إسماعيل أوربان (طابلو ، 1843 ـ 1844) ، ص 443 .

(6) روبان (المجلة الافريقية) ، 1876 ، ص 219 . انظر أيضاً ما قلناه عن هجوم المجاهدين في بودواو وهجوم العدو على دلس ويسر وبني عائشة ، في الفصل الثاني وقد ذكرنا هناك أيضاً أن حمدان الولد الثاني للحاج ابن زعموم ذهب إلى الأمير من قبل والده ورجع برسالة ، لعلها كانت حول إستعداد الأمير للحلول بالناحية .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

وعمـراوة الخ . وبـذلك أنهى الأمير النزاع الـذي طال بين الـزعيمين ابن زعموم وأوقاسي ، وجعل قوتهما تتجه لضرب العدو . وقد استقبل الأمير من السكان هناك بحفاوة وترحيب ، ولا سيما من أعيان المنطقة من أشراف ومرابطين ورؤساء . وكانت هذه هي الرحلة الأولى لمنطقة القبائل ، وقد كانت مفيدة له أيضاً إذ وجد في أهل هذه الناحية قوة عسكرية كبيرة أثناء الحرب مع العدو بعد 1839 . وإلى جانب الحاج السعدي وأحمد الطيب بن سالم فقد كان للأمير صداقة مع الشيخ الحاج البشير الذي كان على رأس الزاوية الرحمانية هناك . وبعد خلافات داخل الزاوية اضطر الحاج البشير إلى مغادرتها والتوجه إلى الأمير ، ولكن للاخديجة توسلت بالأمير أن يرجعه إلى الزاوية بعد أن عجزت هي وبناتها عن إدارتها وبعد أن رضي أهل الزاوية بالتعاون مع الشيخ البشير[7] . وفعلاً إستجاب الأمير وأمر الحاج البشير بالـرجوع إلى مقـر الـزاوية حيث بقي إلى وفـاتـه هنـاك حـوالي 1841 (1257 هـ). وسنـرى كيف « يعاقب » بوجو سكان منطقة القبائل على تكريمهم للأمير ودفع الضريبة إليه .

أما الأمر الثاني الذي قام به الأمير خلال الهدنة ، فهو بسط نفوذه على عين ماضي والصحراء الغربية . والواقع أن الأمير بدأ سياسته الصحراوية منذ سنة 1836 . فقد اتصل بأعيان المنطقة وخصوصاً رجال الدين والأشراف فيها وطلبهم الدخول في طاعته والعمل على وحدة النضال ضد العدو المشترك فأجابه البعض وتردد آخرون . وكانت الأغواط بالذات مركزاً هاماً ثم تتلوها عين ماضي . الأولى ذات نفوذ سياسي وتجـاري والثانيـة ذات نفوذ روحي . وكـانت الأغواط عنـدئذ تخضـع لتأثيـر عائلة أحمد بن سالم سياسياً وعائلة ابن الحاج عيسى روحياً . وقد عرفنا أن الأمير كان ميالاً إلى تقديم الأشراف والمرابطين على رجال السياسة والحكم ، لذلك ربط علاقات مع الحاج العربي بن الحاج عيسى ، حفيد المرابط القديم[8] ، وجعله خليفته على تلك النواحي ، بما في ذلك الأغواط وعين ماضي وتجمعوت . وقد أيد الشيـخ محمد

---

(7) يذكر لويس رين (مرابطون واخوان) ، ص 457 ان للاخديجة كانت أرملة الحاج محمد بن عيسى ، شيخ الزاوية الرحمانية . وهي والدة للافاطمة المشهورة .

(8) تذهب الأساطير إلى أن الحاج عيسى الذي عاش حوالي قرن قبل الإحتلال الفرنسي قد تنبأ به لفساد أحوال الجزائريين .

التجاني هذا الإختيار[9] ، في الظاهر على الأقل ، ولكن ذلك لم يرض أحمد بن سالم فبقي يتحين الفرصة لتحويل السلطة إليه . وكان تعيين الحاج العربي خليفة للأمير قد جلب الكثير من قبائل الصحراء إلى الجهاد الوطني تحت راية الأمير[10] . وقد نصب الحاج العربي حكومته في الأغواط بعد أن تغلب على أنصار أحمد بن سالم .

وقد استمر الوضع كذلك إلى سنة 1838 . ويخبرنا لويس رين ، الخبير الفرنسي في شؤون الطرق الصوفية وتاريخ الجزائر ، أن الأمير قد اتصل بكل من محمد الصغير التجاني في عين ماضي والحاج علي في تماسين محاولاً ضم الطريقة التجانية إلى سلطته منذ 1836 وربما قبل ذلك[11] . وأنه كرر الإلحاح عليهما . ولكنهما رفضا لإيمانهما ، كما يقول ، بأن كفاح الأمير ضد فرنسا سيفشل ، وأن الدخول في طاعته لن يفيدهما شيئاً ، وأنهما لا يريدان أن يكونا « تابعين » للأمير الخ . ورغم هذا التفسير الإستعماري الواضح لموقفهما ، فإن النتيجة واحدة وهي رفضهما الدخول في طاعة الأمير . وقد عرفنا أن الأمير كان يلجأ إلى القوة عندما يواجه بالتحدي السافر للوحدة الوطنية التي ينشدها . وذلك واضح من حربه للحاج موسى الدرقاوي ، ومصطفى بن إسماعيل ومحمد الغماري الخ . وهكذا أصبح واضحاً أن الأمير سيلجأ إلى القوة أيضاً لإخضاع محمد الصغير التجاني .

ويبدو أن الأمير كاتب الشيخ التجاني أثناء وجوده بالمدية وبرج حمزة . وأخبره أنه قادم إلى قصور عين ماضي للقيام بنفس التنظيمات التي أجراها هناك . ولكن الشيخ التجاني لم يرحب بالزيارة وطلب من الأمير أن لا يقدم، بل انه (أي التجاني) اتصل بأحمد بن سالم في الأغواط وأخذ يستثير الناس لمواجهته وحربه. وإذا صدقنا المراسلات التي جرت عندئذ فإن التجاني قد اتصل أيضاً بالفرنسيين وعرض عليهم التعاون لوقف تقدم الأمير نحو الجنوب . فقد ذكر الأمير في احدى رسائله إلى ممثله

(9) انظر تروملي (المجلة الافريقية) ، 1857 ، ص 16 .

(10) أشاع الفرنسيون في حملتهم في التأثير المعنوي على الجزائريين إن الحاج عيسى قد تنبأ منذ أكثر من مائة سنة قبل الإحتلال بأن المسيحيين سيدخلون الجزائر ويأتون إلى الأغواط ويصلون إلى الوادي الأحمر ! لأن الجزائريين (المسلمين) قد ارتكبوا ذنوباً كثيرة . أنظر ذلك في كتاب الضابط ج . كلارك كنيدي (الجزائر وتونس) ، ص 235 . وقد روج الفرنسيون لأمثال هذه القصص كثيراً .

(11) لويس رين (مرابطون واخوان) ، ص 426 .

بالمغرب أنه قدم لجهة الجنوب من الناحية الشرقية لتنظيمها كما فعل هناك. وأَخْبَر إن الشيخ التجاني كتب إليه يحذره من القدوم وانه أخذ يعد العدوة لحربه إذا جاء . وانه (الأمير) قد اطلع على رسائل بخط التجاني إلى بعض أهل الأغواط يذكر فيها انه خليفة الله في أرضه ، وأخرى إلى حاكم الجزائر يقترح عليه أن يشغل الأمير من جهة البحر وهو يكفيه منه من جهة البر . ويضيف الأمير كلمات هامة وردت في رسالته وهي قوله إنه كان يعتقد في الشيخ التجاني خلاف ذلك وانه كان يعامله « معاملة المرابطين كخير من أعيان الوطن . . . بعد أن أعلمناه بمكاتب من عندنا أنا لا نريد إلا الخير والعافية ، وجمع كلمة الإسلام للجهاد ، معتقدين فيه كمال العقل ويقين الإيمان »[12] . وقد كنا سنحكم على هذه الرسالة وأمثالها أنها من باب التبرير السياسي للحصار ، لو لم نجد مواقف الشيخ التجاني تؤيد ما ذهب إليه الأمير . فقد تحالف التجاني أولاً مع أحمد بن سالم ثم عرض تحالفه على المارشال فاليه في رسالة سنعرض إليها[13] .

إن حصار عين ماضي الذي طال أكثر مما توقع الأمير وهزيمة التجاني بعده معروفان للباحثين، ولا نريد أن ندخل في التفاصيل ، إنما نعرض لبعض ما حدث أثناء الحصار وما نتج عنه. فقد بدأ الأمير حصاره أوائل شهر يونيو (جوان) واستمر عدة شهور ، إذ كانت البلدة محصنة غاية التحصين ولم يفك حصارها إلا بعض المدافع التي جاءت كنجدة بعد أن طال الحصار[14] . كان سكان عين ماضي لا يتجاوزون الألفي نسمة ، منهم حوالي 500 شخص قادرون على حمل السلاح ، وكان سكانها في الغالب من أتباع الطريقة التجانية وفيهم بعض العبيد المملوكين للشيخ . وكان

---

(12) أنظر الرسالة في جورج ايفير ، (المجلة الافريقية) ، 1919 ، ص 93 ـ 94 . ويقصد الأمير بكلمة « الإسلام » المسلمين . وقد كتب الأمير الرسالة إلى الحاج الطالب بن جلون ، ممثله بالمغرب أثناء حصاره لعين ماضي . وقد رجعنا إلى مراسلات كلوزيل (1835 ـ 1836) ومراسلات دامريمون (1837) ، فلم نعثر فيها على مراسلة بين هذين والشيخ التيجاني . فلعل الأمير يشير إلى مراسلة الشيخ مع شخصيات فرنسية أخرى ، أو أنه كان يريد تبرير هجومه على الشيخ .

(13) (مراسلات فاليه) ، 128/3 .

(14) تذكر المصادر الفرنسية ان (فاليه) هو الذي أرسل بمدفعين إلى الأمير . وكانت بينهما معاهدة التافنة التي بمقتضاها يستطيع الأمير أن يشتري السلاح من الفرنسيين .

للبلدة ثلاثة أبواب[15] . وقد جاءت النجدة للشيخ التجاني من أحمد بن سالم بالأغواط إذ أرسل أخاه على رأس كوكبة من المحاربين ، ولكن الأمير استعمل الحيلة فعرض على ابن سالم أنه إذا سحب قواته فإنه سيعيد إليه حكم الأغواط ففعل . وبعد عدة أشهر من الحصار تفاوض الأمير والشيخ التجاني[16] وانتهى الأمر بخروج الشيخ الى تجمعوت وأخذ الأمير بعض الأسرى وهدم سور عين ماضي .

والظاهر أن الشيخ التجاني لم يدخل تحت طاعة الأمير إلا مرغماً . ذلك ان الوضع بالصحراء عموماً ودور أحمد بن سالم واستئناف الحرب مع الفرنسيين - كل ذلك جعل سلطة الأمير هناك تعاني الضعف وساعد خصومه على التحرك ضده . فهذا أحمد ابن سالم لم يتفاهم مع ممثل الأمير السابق الحاج العربي ، مما أدى إلى أن ينفذ الأمير وعده ويعطي السلطة إلى الأول (ابن سالم) ، وكان دور هذا أثناء حصار عين ماضي ، وتردده بين التأييد والرفض من قبل ، وسياسته نحو أهل الأغواط ، قد جعلت الأمير يعزله ويعين بدله قدور بن عبد الباقي البصري ، الذي لم يكن من الأغواط وإنما من جهة تاكدامت والذي توسم فيه الأمير قوة الشخصية والطاعة ، كان ذلك سنة 1839 . ولكن البصري لم يستطع أن يفرض سياسة الأمير هناك أيضاً ، إذ تحرك حزب ابن سالم والتجاني وأشاع عنه أنه جاء الأغواط لجمع الضرائب وأسر الأعيان وهدم المدينة فثاروا عليه واضطروه إلى الخروج[17] .

ولو طال السلام بين الأمير والفرنسيين لاستطاع الأمير أن يوطد نفوذه في الصحراء الغربية والشرقية ، كما فعل في الشمال حيث وصل نفوذه إلى مجانة وبرج حمزة وبلاد القبائل كلها (خصوصاً عن طريق الطريقة الرحمانية) ، ولكن الحرب استئنفت سنة 1839 فتراخت قبضة الأمير على بعض المناطق النائية وتشجع خصومه الإنفصاليون أمثال أحمد بن سالم (الأغواط) وفرحات بن سعيد ومحمد بن عبد السلام المقراني والشيخ محمد الصغير التجاني الخ . ان هذا (التجاني) قد كتب (يوليو

---

(15) انظر (طابلو) ، 1838 ، الجزء الأول ، ص 27 .

(16) المعروف ان الأمير قد أرسل صهره مصطفى بن التهامي لمفاوضة الشيخ التجاني وتطمينه .

(17) تروملي ، مرجع سابق ، ص 66 . وكان قائدا أولاد شعيب وأولاد خليف : الجديد بن يوسف والخروبي ، مع الخليفة قدور بن عبد الباقي البصري .

1839) قبل استئناف الحرب مع الأمير ، إلى المارشال فاليه يقترح عليه البرنامج التالي للتعاون ضد الأمير : كون أعيان العرب طلبوا منه هو (التجاني) أن يكون أميراً عليهم فأجابهم بأن الإمارة تقتضي وسائل الحرب وهم لا يجدونها في الصحراء ، تعيين فرنسا لباي على المدية (لاحظ أنها ما تزال عندئذ تحت الأمير) على أن يكون هو (التجاني) كبير أهل البادية ، ويكون الباي المذكور هو الواسطة بينه وبين فاليه ، ويتعهد بطاعته والدخول تحت نظره ويدفع إليه الزكاة والعشور ، وبذلك « نبعد من كان غريباً عنك أو عدواً لك»،وإن العرب غاضبون من الأمير لأنه « قدم الصغير وأبعد الكبير » ثم انه « رجل يجهل قواعد العلاقات التي توجد بين الناس ـ القوى ـ » وهو بدوي ، والبدو لا يعرفون شيئاً من ذلك . كما سجل بذلك العلماء في كتبهم[18] ، الخ . ولكن الشيخ التجاني وأمثاله كانوا مخطئين في تقديراتهم للعدو ، ذلك ان فاليه وبوجو ومن جاء بعدهما لم يعينوا البايات (كما كان الحال في العهد العثماني) ويتركوا الشيخ وأمثاله أسياداً على أهل البادية ، بل انهم استعملوا كل الوسائل للإحتلال والغزو والتدجين وشراء الذمم ، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير .

قبل أن نصل إلى نهاية معاهدة التافنة نود أن نقول ان الأمير قام بعدة أعمال أخرى لدعم الكفاح داخلياً وخارجياً . فعلى المستوى الداخلي قام ، بالإضافة إلى تنصيب الخلفاء والأغوات والزيارات الشخصية للمناطق الوسطى والشرقية والجنوبية ، بمراسلة علماء البلاد وأعيانها طالباً منهم الدخول في طاعته وجمع الكلمة تحت راية الجهاد . وقد بلغت سمعته القاصي والداني وجاءته الوفود المؤيدة والرسائل وحتى الأشعار والأمداح[19] . وقد ظهرت العواطف الوطنية والتجاوب مع

---

(18) الرسالة من محمد بن أحمد التجاني ، في آخر ربيع الثاني ، سنة 1255 (أول يوليو ، 1839) ، انظرها في (مراسلات فاليه) ، 128/3 . وتوجد رسائل أخرى من التجاني إلى فاليه فيها عروض بالتعاون ضد الأمير . انظرها في نفس المصدر .

(19) من الذين قالوا فيه الشعر رغم بعده عنه الشاذلي القسنطيني ، الذي تولى القضاء وإدارة المدرسة العربية الفرنسية ، منذ 1850 . أنظر قصيدته في مدح الأمير والإستنجاد به لإنقاذ قسنطينة في كتابنا (القاضي الأديب : الشاذلي القسنطيني) ، ط. 2 ، 1985 . كما توجه إليه عدد من القضاة والعلماء من الجزائر ومن قسنطينة . ومن هؤلاء بوضربة وابن الحفاف ، وحمدان بن العطار (هرب هذا من سلطة الفرنسيين بالجزائر إلى شرشال ، وقد عينه الأمير قاضياً سنة 1838) . أنظر ل . قان (المجلة الافريقية) 1873 ، ص 468 .

حركته حتى عند الذين قبلوا بالعيش مع الفرنسيين على مضض ، مثل الآغا أحمد بن الحاج محمد الحملاوي[20] ، وكان في ذلك تعويض له عما فقده من أمثال محمد الصغير التجاني وفرحات بن سعيد ، الخ .

ومن ذلك سفارة المولود بن عراش إلى ملك فرنسا ، لويس فيليب ، سنة 1838 . وهي السفارة التي دامت حوالي ثلاثة أشهر . فقد كان الأمير يريد توسيع سلطاته نحو قسنطينة وكان يريد أيضاً الإبقاء على السلام مدة أطول . وقد أحس أن الحاكم العام ، (فاليه) كان يتآمر لنقض الصلح ويتعامل مع أعداء الأمير ويعمل على إفشال خططه ، لذلك عزم الأمير على الإتصال مباشرة بملك الفرنسيين ، كما ان ذلك ، كما قال بعض المؤرخين ، يجعله في درجة الند للند وإثبات مكانته على المستوى الدبلوماسي والدولي . وقد سافر المولود بن عراش رفقة أحمد بوضربة وابن دوران اليهودي . وأخذ معه هدايا إلى الملك وزوجه وأبنائه . ورغم إن السفارة لم تحقق ما كان يصبو إليه الأمير ، فإنها فتحت أمامه طريق الإتصال المباشر إذا اقتضى الأمر . ولكن سفارة ابن عراش جلبت للأمير مشكلاً جديداً . فقد مر ابن عراش بمدينة الجزائر أثناء رجوعه فإذا به يجد فاليه قد أعدّ له فخاً خطيراً ، وهو صيغة معدلة لمعاهدة التافنة تحد من طموحات الأمير نحو الشرق الجزائري ، وغير ذلك . وقد وقع ابن عراش على تلك الصيغة في ظروف غامضة ودون الرجوع إلى سيده ، ولكنه وضع بجانب ختمه شرطاً وهو « قد وافقت على هذه الشروط إذا قبل بها سيدي السيد الحاج عبد القادر ، الأمير »[21] . ورغم هذا الإحتياط فإن هذا الإجراء قد عقد الأمور للأمير في علاقاته مع الفرنسيين ، وكان عليه أن يجمع مجلسه الإستشاري ويرفض الإتفاق الجديد ، رغم ما في ذلك من بوادر الحرب[22] .

---

(20) في رسالة كتبها أحمد خوجة إلى المترجم إسماعيل بن عبد الكريم (أوربان ؟) - بدون تاريخ - إن الجنرال نيقرييه ، حاكم قسنطينة حوالي 1842 ، كان مخدوعاً في الآغا ابن الحملاوي والسراج (؟) وابن عيسى ، وانه قد وجدت رسائل متبادلة بين الأمير عبد القادر وابن الحملاوي . وفي الرسالة تفاصيل أخرى تشير كلها إلى إنتشار سمعة الأمير لدى أعيان قسنطينة . انظرها في أرشيف إيكس ، رقم 11 H 1 . وكان ابن الحملاوي أحد قادة الحاج أحمد باي قسنطينة ، ثم عينه الفرنسيون خليفة فرجيوة .

(21) أنظر نص الإتفاق بالعربية والإنكليزية في دانـزيقر ، (عبد القادر . . .) ، ص 257 - 260 .

(22) لم يكن ابن عراش من المحاربين ، ولا من المرابطين ، وإنما كان دبلوماسياً ، ويبدو انه لم يكن في =

3. الـوضـع في الإقليم الشـرقي بعـد احتـلال قسنطينـة (1837):

بينما كان الأمير يوطد سلطته على النواحي الغربية والوسطى ويحاول بسط نفوذه في الجنوب والشرق ، كان العدو يوطد مكـاسبه في الإقليم الشـرقي بعد احتـلاله لعاصمته ، قسنطينة في خريف 1837 . وقد عرفنا أن العدو كان قد احتل من قبل عنابة وقـالمة وبجـاية ، وانـه أخذ يـرهب ويدجن ويغـري بعض رؤساء الأعـراش والقبائل ، ويساعد المتقربين منه والساخطين على الحاج أحمد (الذي لم تعد له سلطة) والأمير عبد القادر الذي تسرب نفوذه إلى مجانة والحضنة ، والزيبان وبرج حمزة وسطيف ، وكلها كانت تقع من قبل في دائرة نفوذ بايات الشرق . وهكذا دخل الصراع بين الأمير والعدو على دعم النفوذ بالإقليم ، ولكن دون اللجوء إلى الحرب .

دخل العدو إلى قسنطينة دخول الفاتح الفاتك فعاثوا فيها فساداً ، وأجبروا أهلها على الذل أو الهجرة ، فهاجر منهم عدد إلى خارج القطر وآخرون إلى الزيبان وغيرها في انتظار تطور الأحداث . وسكن الجنود الأعداء في دور أهل البلاد وسكن قوادهم في الفيلات وقصر الباي ، واستولوا على أموال الإقليم رغم انهم ادعـوا أن الحاج أحمد قد هرب بها عندما أحس بسقوط المدينة . وقد ذكرنا أنهم نصبوا واحداً من عائلة الفكون (وهو حمودة الفكون) في وظيفة قـائد المـدينة[23] ، وأنشـأوا هناك (مكتباً عربياً) على غرار المكاتب الأخرى التي أنشأوها في المناطق الخاضعة لهم . ووزعـوا مسؤوليات على بعض أعـوان الحاج أحمـد السابقين ، أمثـال ابن عيسى (خليفـة الساحـل) ، وابن الحملاوي (خليفـة فرجيـوة) ، والقائـد علي (خليفة الحراكتة) . ولم يمض وقت طويل حتى نصبوا شيخ العرب ، بوعزيز بن قانة (خليفة الزيبان بعد 1838) ، ثم في نهاية 1839 عينوا خليفة على مجانة (التي كانت تتبع

= ذلك على درجة عالية أيضاً . انظر (مذكرات شانقارنييه) ، تعليق في الهامش . والمعروف ان ابن عراش كان قبل 1830 آغا الشرق في خدمة الباي حسن . ثم بقي في نفس المهمة في عهد الأمير أيضاً ، وأضاف إليها العلاقات الدبلوماسية بين 1833 إلى حوالي 1840 . وكان ابن عـراش من الأثرياء .

(23) أنظر ما مضى ، وكذلك (مراسلات فاليه) ، 22/1 .

الأمير) وهو محمد بن عبد السلام المقراني ، وهكذا .

وإلى جانب هذه السياسة التي تقوم على التقريب والتبعيد ، والوعد والوعيد ، سنوا سنة في قسنطينة ، كان قد ابتدأها كلوزيل في الجزائر ، وهي التدجين عن طريق الفرنسة ، والتقريب عن طريق التخدير الحضاري . ونحن وإن كنّا سنعرض إلى هذه السياسة في مكان آخر ، إلا أننا نشير إلى أن سلطات العدو في قسنطينة قد أرسلت سنة 1839 خمْسة من الشبان الذين ينتمون إلى العائلات العريقة والحضرية ، إلى باريس « ليذوقوا » طعم الحضارة وينبهروا بما عند الفرنسيين وليعودوا مبشرين ومنذرين في قومهم ، وداعين إلى الخنوع وقبول الإحتلال الأجنبي كظاهرة لصالح البلاد والعباد . فقد أرسلوا ثلاثة من عائلة قائد علي ، واثنين من عائلة الفكون ، أصغرهم عمره سبع عشرة سنة (ومع ذلك فقد كان متزوجاً بامرأتين حسب المصادر الفرنسية !) وأكبرهم عمره خمس وثلاثون سنة . وقد كتب المشرف على هذه البعثة تقريراً إلى وزارة الحربية يقول فيه انه « يمكن لهذه البعثة أن تتبعها أخرى لتحمل أصداء عظمة فرنسا إلى أعماق الأعراش الأكثر بعداً »، ونصح بأن يعطي أعضاء هذه البعثة قليلاً من الفرنسية ، مع ترغيبهم في العودة إلى باريس وذلك بتفريقهم على منازل مختلفة وعدم السماح لهم بالتلاقي مدة إقامتهم ، وعدم إطالة مكثهم ما دام بعضهم من المتزوجين[24] . وهذه السياسة التي يمكن أن نسميها سياسة الترغيب والإغراء قد اتبعت حتى مع حمودة الفكون (قائد البلاد) بعد أن اتهموه بالغش المالي . وبعد التشاور فيما بينهم قرروا الإبقاء عليه مؤقتاً وعدم مفاتحته في ذلك ، مع تجريده من النظر في المسائل المالية ، وجعله مجرد صورة في الحكم ، لأنهم رأوا أن عزله عندئذ لا يخدم قضيتهم خوفاً من إثارة العرب الذين يقدسون عائلة الفكون[25] .

---

(24) أنظر التقرير في (مراسلات فاليه) ، 55/3 ، وهو من عمل أليكس ديغرانج إلى دي شيفينيه (رئيس المكتب العربي بوزارة الحربية) ، وتاريخ التقرير ، مرسيليا ، 3 مارس 1839 .

(25) نفس المصدر ، 211/1 ، 266 . عمد الجنرال (نيقربيه) حين أراد التخلص من نفوذ حمودة الفكون إلى تحريك أعيان قسنطينة فكتبوا عريضة ضد حمودة المذكور ووقعوها بأسمائهم ، ومنهم المفتيون والقضاة وأصحاب الحرف والأمناء ، الخ . أنظر العريضة في أرشيف إيكس 613 ، F 80 ، وكان ذلك في اكتوبر 1842 .

والواقع انهم سلكوا نفس سياسة المداهنة وكسب الوقت مع غير الفكون أيضاً . فالأسماء التي ذكرناها وغيرها واجه أصحابها التهم الحقيقية والملفقة لكي يتخلصوا منهم إما إنتقاماً منهم لمواقفهم المعادية السابقة وإما لكي يتركوا مكانهم إلى مدجنين جدد . وقد كشفت الحفلة التي أقيمت سنة 1839 لابن ملك فرنسا ، الدوق دورليان ، مدى هذه السياسة . وها هو الدوق نفسه يروي في مذكراته ذلك الإستقبال وحكمه على العرب والمسلمين وعلى مدينتهم التي مضى عليها عندئذ سنتان تحت نير الأجنبي (وقع الإحتفال في أكتوبر بمناسبة الذكرى الثانية للإحتلال) . يقول الدوق إنه لقي إستقبالاً لم يعرفه من قبل ، حضره حوالي عشرين ألف نسمة . وليس بينهم من الأوروبيين عندئذ إلّا حوالي مائتين ، والمهم هو قوله إنه استقبل هناك وفداً من العلماء برئاسة شيخ الإسلام الذي قدر عمره بـ 95 سنة ، ووفداً عن بلدية قسنطينة ، والجماعات المهنية ، بالإضافة إلى الخلفاء والأغوات وشيوخ القبائل الذين ولاهم الفرنسيون أو أعلنوا ولاءهم لهم . وها هو ما أنجزه الدوق بهذه المناسبة : تدشين نصب تذكاري لقتلى الحملة على قسنطينة 1836 و1837 من الفرنسيين ، العفو عن خمسة أشخاص حكم عليهم بالإعدام لمراسلتهم مع الحاج أحمد (أي بعد سقوط حكمه) ، تعليق نياشين لعدد من الذين خدموا الباي المذكور ثم خضعوا للفرنسيين ، ومنهم : ابن عيسى وابن الحملاوي وابن قانة . وحضور قداس ديني في كنيسة السيدة الافريقية ، بقسنطينة[26] . وقد نسي الدوق أن يقول ان هذه الكنيسة هي الجامع الذي استولى عليه قومه بإسم الإحتلال .

ورغم إعجابه بالإستقبال فإن حالة المدينة لم تعجب الدوق الفرنسي ، رغم مرور سنتين على احتلالها . وقد انتقد في ذلك (فاليه) الذي قال عنه إنه لم يتلفت إلى سوء حالة المدينة . وقد عرفنا أن فاليه كان مشغولاً بضرب المقاومة والكيد

---

(26) أنظر هذا الوصف كاملاً في (وصف حملة . . .) للدوق أورليان ، باريس 1892 ، ص 295 - 309 . ويذكر الدوق أيضاً أنه وزع بعض الدراهم على فقراء المدينة عن طريق شيخ البلدية ، وانه بات ليلته في قصر الحاج أحمد . وقد عرفنا أن الزعماء الذين حضروا على رأس ممثلي أغواتهم وقيادهم وشيوخهم هم : ابن عيسى (الساحل) وابن الحملاوي (فرجيوة) وابن قانة (الزيبان) وقايد علي (الحراكتة) ، أما خليفة مجانة (المقراني) فلم يكن من بين الحاضرين . أنظر أيضاً (مراسلات فاليه) ، 3/208 . وفيه ان شيخ الإسلام عندئذ عمره ثمانون سنة .

للأمير ، ونصب الفخاخ لابن عراش حتى يوقع له على اتفاق يعدل به معاهدة التافنة لصالح فرنسا . لقد وصف الدوق قسنطينة بأنها قذرة وليس فيها بازار ، وإن المسلمين معروفون بالقذارة (كذا !) وإنه لا يمكن فعل أي شيء لإصلاح ذلك . وقال انه وجد أكوام القمامة والمياه الوسخة والروائح الكريهة ، مع وجود قطعان من الكلاب تجوب الشوارع . وقد نسي الدوق ان يقول أن ذلك قد حدث لقسنطينة نتيجة الإحتلال الذي عطل كل طاقاتها وهجر أهلها وخرب بيوتها وحطم مرافقها . ولو انه زارها قبل 1837 لما وجدها على تلك الحالة . ولكنه كان صريحاً عندما قال بأن جنوده كانوا يسكنون وسط المدينة في نفس البيوت التي احتلوها بعد الهجوم[27] . وقال عن المؤسسات العسكرية والمستشفى بأنها في حالة يرثى لها . والمعروف إن حوالي نصف سكان قسنطينة (وعددهم حوالي خمسين ألف نسمة)[28] قد خرجوا منها أثناء القتال وبعده . وسنعرف بعد قليل ما أصاب هذه المدينة وغيرها من « التغيير » لصالح الحضارة الغازية .

والحديث عن قسنطينة لا يتم إلّا بالحديث عن الحاج أحمد بعد 1837 فقد عاش من هذا التاريخ إلى استسلامه سنة 1848 كالمتشرد الذي لا يجد أرضاً تحمله ولا سماء تظله . ومع ذلك ظل يعيش على أمل واه . فقد أخذه أخواله ، أولاد ابن قانة عندهم في الأوراس والزيبان ، وحموه بعض الوقت . ثم أخذت الحظوظ تميل في اتجاهات مختلفة . فالحاج أحمد أبقى على اتصالاته العثمانية، فكتب إلى باي تونس الذي رحب به لاجئاً لا محارباً ، وراسل السلطان العثماني فلم يحظ إلّا بالوعود ، رغم وجود باشا طرابلس غير بعيد منه . ولعل احتلال الفرنسيين لقسنطينة وعدم تمتع الحاج أحمد بقاعدة شعبية جعل السلطان يفقد الأمل في نجاح الباي القديم . وهكذا لم يبق أمام الحاج أحمد إلّا الصحراء ، تماماً كما وصل الحال بالأمير سنة 1847 . وبعد أن غير أولاد ابن قانة من ولائهم له وأخذوا لقب الخليفة من الفرنسيين[29] ،

---

(27) أورليان (وصف الحملة . . .) ، ص 345 .

(28) ذكرنا من قبل ان هناك من وضع سكان قسنطينة حوالي ثمانين ألف نسمة ، وذكر آخرون أكثر من ذلك .

(29) بعد حوالي سنة من إحتلال فرنسا لقسنطينة أعلن بوعزيز بن قانة (ابن الحاج محمد بن قانة الذي توفي في المسيلة سنة 1834) ولاءه للفرنسيين .

وبعد أن نفد ماله وتشردت أسرته وتشرذم أنصاره ، وبعد أن فقد النجدة من جيرانه (تونس وطرابلس) ومن السلطان ـ بعد ذلك ـ قرر الحاج أحمد الذي كبرت سنه ، الاستسلام إلى عدوه بالأمس ، كما سنذكر.

وفي الوقت الذي كان الحاج أحمد فيه يطلب المعونة من جيرانه ومن السلطان العثماني كان يرفض التعاون مع الأمير وخلفائه في الأوراس . فقد عرفنا أنه اتصل سنة 1838 ، برسالة شخصية من الأمير ورسالتين أخريين لأصحابه الذين كانوا معه ، وهي جزء من حوالي مائتي رسالة كان الأمير قد وجهها إلى أعيان الناحية الشرقية يطلب منهم فيها التعاون وتوحيد الجهاد ضد العدو المشترك . ولكن الحاج أحمد رأى أن في ذلك حطاً من قيمته (في موقف شبيه بموقف مصطفى بن اسماعيل آغا الدوائر والزمالة) وتعهد لصديقه علي بن عيسى بأن لا يفعل ذلك مطلقاً[30] . ولم يكتف الحاج أحمد برفض التعاون مع الأمير والوقوف على الحياد ، بل إنه حارب خلفاء الأمير في المنطقة ، وهم حسين بن عزوز وفرحات بن سعيد ومحمد الصغير بن عبد الرحمن . وإذا كان في حربه لفرحات بعض المبررات (للعداوة الشخصية التي كانت بينهما) فإن معارضته لخليفتي الأمير الآخرين لا مبرر له.

والواقع ان برنامج الحاج أحمد بعد احتلال قسنطينة غير واضح على الاطلاق . فهو يعرف انه بدون تعاون داخلي وتوحيد الجبهة الشعبية لا يمكن له تحقيق نصر ضد العدو ، وها هو يرى كل القوى الداخلية تقريباً تنفض من حوله وتتركه وحده ، حتى أقرب الناس إليه ، وهم أخواله ، فكيف سينتصر بقوة خيالية من الخارج على الفرنسيين ؟ لقد رفض التعاون مع الأمير ، ولكن من البديل ؟ انه يعرف عداوة فرحات بن سعيد له ، وها هو ابن قانة يدخل في صف الفرنسيين، وهو لا يستطيع الاعتماد على حكام تقرت ، وهو لا يتعاون أو يثق في الطرق الصوفية المتنفذة ، فعلى من كان يراهن على النصر ؟ ان حالته تذكر المرء بقصة دون كيشوت المشهورة.

وقد كان الحاج أحمد يرفض أيضاً التفاوض مع الفرنسيين . ذلك ان وثائقهم تذكر انه أرسل إليهم قبل احتلال قسنطينة وفداً من أخلص الناس إليه ، مكوناً من محمد بن العطار ، واليهوي بوشناق ، الخ . وجرت المفاوضة ولكن الطرفين لم

---

(30) أنظر نصها في (مراسلات فاليه) 281/3 ، وهي من ترجمة إسماعيل أوربان .

يتوصلا إلى حل . فالفرنسيون عرضوا عليه عندئذ عرضاً يشبه ما كان قد عرضه عليه روفيقو سنة 1832 ، وهو الاعتراف بالسيادة الفرنسية ، وجعله بايا على معظم الإقليم الشرقي ، وتجريده من حق الدفاع والتجارة الخارجية واستعمال الموانيء ، الخ . مع دفعه ضريبة حرب تقدر بستة آلاف فرنك ، وجزية سنوية تقدر بمائة ألف فرنك[31] . وجرت مفاوضات أخرى بعد احتلال قسنطينة ، وبالضبط سنة 1839 ، حين أجرى حاكم قسنطينة (قالبوا) مفاوضات معه تؤدي إلى استسلامه وإعطائه عهد الأمان ، وحضوره إلى قسنطينة ليحصل على الأمان من الدوق أوّرليان . ولكن المفاوضات لم تنجح ، ولا ندري إن كان عدم نجاحها يعود إلى رفض الحاج أحمد الشروط المعروضة أو لرفض الدوق أن يظهر كذلك أمام المارشال فاليه[32].

وقد استمرت المفاوضات بين الطرفين في مناسبات عديدة ، ولكن على أساس الاستسلام والأمان لا على أساس السلطة وتولي الوظائف . وآخر تلك المفاوضات جرى في صيف 1848 حين جاء وفد من الحاج أحمد إلى الضابط سان جيرمان في باتنة يعرض فيها الاستسلام على أساس الأمان وعدم تسليمه لأعدائه والترخيص له بالتوجه إلى المشرق . وأخيراً أعطاه الضابط كاروبير (وهو أعلى رتبة من زميله) عهد الأمان وتوجهوا به إلى بسكرة ثم قسنطينة ثم الجزائر، وأبقوه هناك في إقامة جبرية ، إلى أن توفى بعد حوالي ثلاث سنوات[33].

---

(31) المقترحات الفرنسية ورسائل الحاج أحمد موجودة في (مراسلات فاليه) ، 1/26 .

(32) أنظر ذلك في أورليان (وصف حملة . . .) ، ص 280 . يقول أورليان انه حذر قالبوا من المفاوضة بإسمه (أي أورليان) خوفاً من حساسية فاليه الذي هو الحاكم الفعلي باسم فرنسا . وكان حاكم قسنطينة أراد التقرب بتلك المفاوضات إلى ابن الملك (أورليان) ، ويقول أورليان أنه حذر قالبوا من ان المفاوضة مع الحاج أحمد تعتبر خطراً في نظر العرب لأن الحاج أحمد لم يعد له أي رصيد .

(33) تقرير سان جيرمان ، في أرشيف إيكس 76 H 10 . وقد كتب في 7 يونيو 1848 ببسكرة . ويذكر ان الحاج أحمد اتصل بهم من أجل ذلك منذ نهاية 1847 (27 ديسمبر) ، وهو نفس الشهر الذي انتهت فيه مقاومة الأمير . وقد توفى الحاج أحمد في 30 أغسطس 1852 ودفن بمقبرة عبد الرحمن الثعالبي . وكان له عدد من الأولاد والبنات ، وكانّ متزوجاً بأكثر من واحدة . ويقال انه كان مصاباً بمرض في صدره ، وكان المشرف على شؤونه أثناء مرضه هو الحاج بوقندورة . أما مترجمه الفرنسي المرافق له أثناء ذلك فهو الضابط دي روزيه Rouzé ، الذي أملي عليه الحاج أحمد مذكراته ، وهي التي نشرها مارسيل ايمريت في المجلة الافريقية ، 1949 . ويذكر ان إسماعيل بن محمد كتب عنه مقالة في (الأخبار) رقم 1,546 . وهناك دراسات كثيرة عنه ، ولكن معظمها ضده ، خصوصاً ما =

ولكن المقاومة الشعبية لم تنته بسقوط قسنطينة ولا بتشرد الحاج أحمد ثم استسلامه . لقد استمرت في قلوب الناس وفي مشاعرهم الدينية والوطنية . تولاها أنصار الأمير وخلفاؤه إلى سنة 1844 تقريباً ، ثم تولتها الطرق الصوفية وحتى بعض الزعماء المحاربين . ورغم استعمال العدو لوسائل جهنمية كالاتلاف والقتل والتدجين وشراء الذمم فإن شعلة الحرية قد استمرت مرفوعة يسلمها ثائر إلى ثائر آخر ، كما سنرى بعد أن لجأ العدو إلى استئناف الحرب مع الأمير ، وجاء بقضه وقضيضه لضرب المقاومة والإحتلال الشامل بكل الوسائل.

4. التخريب الشامل : من فاليه إلى بوجو :

رغم المعاهدة مع الأمير فان فاليه كان يبذل قصارى جهده في إقناع حكومته باستئناف الحرب معه على أساس أن السلام يخدم مخططات الأمير أكثر مما يخدم الوجود الفرنسي . وبينما كان ينتظر جواب حكومته ، كانَ يراوغ الأمير وينصب له الفخاخ ويثير عليه أعداءه ويستفزه . فقد كان يراسل خلفاء الأمير في المدية ومليانة (البركاني وابن علال) عارضاً عليهما عروض التخلي عن الأمير والانضمام إليه هو[34] ، ثم لجأ إلى إغراء ابن عراش بطريقة غامضة ما تزال تحير الدبلوماسيين ، على التوقيع على اتفاق يعدل به معاهدة التافنة الرسمية ، وكان يعد أعداء الأمير بالمعونة ويعينهم في المناصب ، كما فعل مع محمد بن عبد السلام المقراني بعد تخليه عن الأمير ، وبوعزيز بن قانة بعد تخليه عن الحاج أحمد ومحاربته لخلفاء الأمير ، وكذلك مع أحمد بن سالم في الأغواط ، ومحمد التجاني في عين ماضي .

وأخيراً جاء دور الاستفزاز الخطير وهو عبور الطريق البري بين قسنطينة والجزائر

كتب أثناء حياته ، مثل كتاب العنتري ومذكرات شلوصر الألماني . وقد عرفنا ان الحاج أحمد من مواليد حوالي سنة 1786 . وتوجد معلومات شخصية هامة عنه في (ملاحظات عن الحاج أحمد) كتبها جان لويس جينيفييف J. L. Geneviève المعروف بالدكتور قيون Guyon في (رحلة من مدينة الجزائر إلى الزيبان) ، الجزائر 1852 .

(34) الواقع ان ذلك بدأ من عهد دامريمون (1837) إذ يذكر في مراسلاته مع وزير الحربية انه أملى رسالة على بوضربة ووجهها إلى ابن علال يحاول فصله عن الأمير أنظر (مراسلات دامريمون)، ص 165 .

على مضائق البيبان (أبواب الحديد) . فقد خطط فاليه لذلك كل التخطيط ، وكان يعرف جيداً أن الأمير يعتبر البر الممتد من قسنطينة إلى وادي الخضرة (أو وادي قدارة، شرقي متيجة) انما هو جزء من دولته، وكان خلفاؤه وممثلوه في برج حمزة ومجانة وسطيف والحضنة يعرفون ذلك أيضاً. ولكن فاليه كان يلعب بالنار، ولكي يجلب انتباه ورضى الملك الفرنسي جعل ابنه (الدوق أورليان) يشاركه في هذا العبور الاستفزازي ، وكان يقدر انه رابح في كلتا الحالتين : إذا عبر بسلام ولم يحاربه الأمير ، فقد أثبت الحق الذي يدعيه في معاهدة التافنة وهو أن تلك المنطقة تدخل في المجال الفرنسي ، وإذا حارب الأمير واعتبر ذلك عملاً عدائياً فقد حقق فاليه رغبته الملحة وهي استئناف الحرب . وقد كانت الثانية كما يعرف الجميع ، إذ تصدى خلفاء الأمير في المناطق المذكورة لجيش العدو وحاربوه رداً للعدوان.

منذ مارس 1838 كتب فاليه إلى وزير الحربية يقترح عليه قطع الطريق على الأمير حتى لا يجعل الفرنسيين يرجعون من حيث أتوا . وذلك بفتح التفاوض مع الحاج أحمد وإعطائه بعض السلطات في الشرق الجزائري حتى يمنع الأمير من ضم الشرق اليه والضغط منه على الفرنسيين كما فعل معهم في الغرب . وأخبر فاليه وزيره ان الحاج أحمد أقل خطراً على الفرنسيين من الأمير ، وأن الباي المهزوم ليس له سوى قوة سطحية ، وهو لا يعتمد على قومية كالقومية العربية التي بعثها الأمير والتي تهدد الوجود الفرنسي مستقبلاً من الأساس[35] . وفي شهر نوفمبر من نفس السنة كتب فاليه مجدداً محللاً استراتيجية الأمير أثناء حصاره لعين ماضي ، قائلاً ان الأمير لا يرغب في السلام مع الفرنسيين إلاّ لكي يدعم سلطته مؤقتاً على الأقل ، وانه لم يستول على عين ماضي إلاّ لكي يؤمن طريق التراجع إذا ضغط عليه الفرنسيون أثناء حرب قادمة ، خصوصاً من التل ، « لأنه يريد أن يحاربنا من جديد » . وقد رأى فاليه ان الأمير مخطىء في تقديره لأن الفرنسيين قادرون على اجتياز الأطلس الصغير وملاحقة الأمير ، إذاما استئنفت الحرب . كما لاحظ أن تعطل الأمير في الاستيلاء على عين ماضي وطول الحصار ، قد أضر بسلطته وسمعته كثيراً في أعين العرب ، كما لاحظ أن سلطة الأمير غير مطلقة ، وانه لا يسيطر سيطرة تامة على خلفائه .

---

(35) (مراسلات فاليه) ، 1/297 .

ولذلك رأى فاليه ان الأمير سيكون مضطراً للحرب ضد الفرنسيين بعد احتلاله عين ماضي . وهو يريد أن يستفيد من نجاح لكي يرفع معنوياته ويحقق أهدافه الاستراتيجية الجديدة(36).

وهكذا عمل فاليه طيلة بقائه في الجزائر حاكماً عليها فيما كان يسمى « بالممتلكات الفرنسية في شمال افريقية » ، 1837 ـ1841، على استئناف الحرب مع الأمير حتى لايطرد الفرنسيين من الجزائر باسم القومية العربية الناشئة . ورغم محاولات الأمير اطالة مدة السلام بالشكوى إلى أعيان الحكومة الفرنسية والملك نفسه من خرق ممثلهم في الجزائر لبنود معاهدة التافنة، فإن الحكومة الفرنسية كانت مقتنعة برأي ممثلها ، فاليه ، وكانت تدعمه هو على استفزاز الأمير والتوسع على حسابه والاضرار بسمعته ، وأخيراً قررت عزل فاليه واستبداله بالرجل الذي أصبح صوته هو صوت المنادين في البرلمان بالحرب الشاملة ضد الأمير ، وهو الجنرال بوجو ، الرجل الذي كان قد وقع سنة 1837 معاهدة التافنة باسم دولته مع الأمير ، عندما كان ممثلها في وهران ، والذي تربطه بالأمير اتفاقية سرية لم يكشف عنها إلاّ بعد أكثر من قرن . جاء بوجو إذن ليجعل من نفسه « بطلاً » أكبر من أبطال بلاده الآخرين ، بطلا يحارب الأمير ، ويخضع الجزائر ، ويرسي قواعد الاستعمار ، ويتقلد بعد ذلك عصا المارشالية ، ويجلس على حصان من البرونز في قلب مدينة الجزائر . ولم يقرأ المسكين حروف الغيب ، ولو فتح اللّه عليه لعرف انه كان شخصية نادرة من شخصيات شكسبير الدرامية ، وانه كان بفعله ذلك يحفر في الحقيقة قبراً لبلاده في الجزائر ، إذ أن الفارس الذي حاربه قد عاد ، وان البلاد التي ظن أنه أخضعها إلى الأبد قد شمخت برأسها من جديد ، وأن الاستعمار الذي زعم انه وطد أركانه قد انهار وعبر غلاته البحر كما توقع فاليه ، أما التمثال فقد دخل متحف الذكريات ، وأما العصا فقد سوست وأصبحت من المضحكات .

تولى بوجو حكم الجزائر سنة 1841 وبقي إلى صيف 1847 ، أي عدة شهور قبل توقف الأمير عن المقاومة(37) . ومن خلال هذه السنوات سلك بوجو سياسة القهر

---

(36) نفس المصدر ، 2/281 رسالة منه إلى الدوق أورليان ، في 30 نوفمبر 1838 .

(37) هناك دراسات عديدة عن حياة بوجو وآراء كثيرة عن سياسته وأسلوبه في الجزائر . آخرها كتاب انطوني =

والعنف نحو الجزائريين وسياسة الحرب والإبادة للمقاومة ممثلة عندئذ في الأمير . ومن الصعب ذكر تفاصيل عهده المظلم في هذا المجال . ولذلك سنحاول تلخيص تلك السياسة في نقطتين : الأولى سياسته المدنية والثانية سياسته العسكرية . لقد آمن بوجو بضرورة توطيد الإستعمار الفرنسي في الجزائر ، أي بإحلال الإنسان الأوروبي محل العربي في الأراضي المغتصبة ، وبالإندماج أي القضاء على مقومات المجتمع الجزائري بإحلال المقومات الفرنسية بدلها ، وبفرض نظام « أبوي » على الجزائريين في المدن والأرياف التي غلبت على أمرها . ومن أجل ذلك أصدر قوانين جائرة بضرورة عقد الأسواق للتبادل التجاري بين الجزائريين والأوروبيين ، وضرورة حشد المفصولين عن المقاومة في مجمعات سكنية جديدة يحاصرها الجيش ويحرم الخروج منها ، وتجريد كل القبائل من محاصيلها الزراعية وماشيتها وما ملكت أيديها وجعلها متوقفة في معاشها على ما تجود به إدارة بوجو . وقد وسع بوجو في صلاحيات المؤسسة المعروفة بإسم (المكاتب العربية) ، وجعلها أداة لتنفيذ سياسته مع الأهالي . وأصدر أوامره بإباحة الحرائق وإتلاف الأرزاق ، وطرد قادة الرأي والمشتبه فيهم إلى جزر نائية مثل قواد لوب ، وسانت مرغريت الخ . . واحتجاز الرهائن ، وارتكاب المجازر (مثل مجزرة غار الظهرة) ، وتسليط العقوبات الجماعية ، بما في ذلك التغريم الجماعي ، الخ . وهذا قليل من كثير مما يسمى بسياسة بوجو المدنية في الجزائر .

أما سياسته العسكرية ، فقد عرفنا أنها كانت تهدف إلى القضاء على كل مقاومة للإحتلال بإستعمال كل الوسائل الممكنة . ولتحقيق ذلك الهدف استولت جنود بوجو على المدن التي كانت تحت الأمير ، خصوصاً تلمسان ، المدية ، مليانة ، تاكدامت ، معسكر ، الخ . وحارب ضباطه خلفاء الأمير في هذه المدن وفي المناطق.

= ثرال سوليفان (فرنسا والجزائر 1784 ـ 1849) ، أمريكا ، 1983 ، وهو كتاب حاول صاحبه أن « يفسر » دور بوجو في السياسة الفرنسية والجزائرية-ويربط بين تكوينه الشخصي وثروته وعقيدته الإقتصادية والسياسية من جهة وتصرفاته العسكرية « الأبوية » من جهة أخرى . وقد ولد بوجو سنة 1784 بليموج ، وتوفى بفرنسا بالكوليرا سنة 1849 . أنظر أيضاً (مذكرات شانقارنييه) ، ص 127 هامش . ولأن شانقارنييه ينظر بعين السخط على بوجو عند توليته سنة 1841 . وقد حارب بوجو قبل الجزائر في أسبانيا واشتهر هناك بالعنف ، ويقال انه نقل طريقته هناك إلى الجزائر .

النائية عن النفوذ الفرنسي من قبل مثل بلاد القبائل وبلاد الحضنة وبلاد الـزيبان ، وسعيدة وتازة الخ . وأدت سياسة الحرب الشاملة على كل الجبهات ، إلى انحسار مقاومة الأمير في الحرب الخاطفة ، وفي الغارات الخفيفة ، وأخيراً أصبح الأمير لاجئاً بدائرته (أو زمالته) لا يجد المكان الآمن لنسائه ونساء خلفائه وأطفالهم ، ومؤونتهم وخزائنهم وأتباعهم ، إلى أن وقعت الزمالة نفسها في أيدي العدو سنة 1843 ، فقد استولى عليها الدوق دومال ، وساقها غنيمة وسبى النساء والأطفال ، ونهب الأرزاق والأموال ، وأخذ الرهائن . وقد قتل أثناء هذه السنة مشاهير قواده مثـل محمد بن علال ومحمد البركاني .

وهذه السياسة البوجوية قد ألجأت الأمير إلى الإحتماء بالمغرب ، فإذا بفرنسا تهدد المغرب أيضاً ثم تحاربه بحراً وبراً إلى أن وقعت معركة وادي إيزلي الشهيرة سنة 1844 ، وهي المعركة التي انهزم فيها الجيش المغربي ونال على إثرها بوجو لقب (دوق إيزلي) ، وكانت معركة إيـزلي في الحقيقة ضـربة لـلأمير أيضـاً . ذلك ان المغرب أحجم منذئذ عن حمايته وعن مده بالذخيرة تحت تهديد الحرب من فرنسا . وبدأت بذلك بداية النهاية للأمير . فحتى انتفاضة الظهرة 1845 التي أعادت الأمل بالنصر على العدو ، كانت قصيرة التأثير ، كما ان معركة سيدي إبراهيم 1845 ، كانت آخر حركة قوية أظهرها الأمير قبل أن يبدأ في عد الوقت العكسي . ذلك أن آخر ما أسفرت عنه سياسة بوجو نحو الأمير هي إعلان سلطان فاس الحرب ضد الأمير ، وتوحيد جهوده مع جهود بوجو لوضع الأمير في كماشة ثم القضاء عليه . وهكذا لم يكتف بوجو بتدجين القياد والأغوات في الجزائر ، ولكنه دجن أيضـاً سلطان فاس وجعله يقف إلى جانبه في حرب الأمير .

وخلافاً لما يقال عن بوجو من أنه مجدد ومخترع لنظام إداري خاص به ، فإنه في الحقيقة قد استعار النظام الإداري الذي وضعه الأمير ، وزاد عليه بوجو مَـرْكَزَةَ السلطة في شخصه ، رغم وجود المكاتب العربية التي كانت تمثله لدى السكان ، ورغم الجيش الذي عينه من المدجنين الجزائريين (بني وي وي) من خلفاء وأغوات وقيـاد وشيوخ . وهـذا صديق بـوجو ورافـع لواء سيـاسته والمعـاصر لـه، بوجـولا (BouJoulat) يقول : إن فرنسا قد اتبعت في الأعماق مثال الأمير عبد القادر في إدارة الأهالي ، فجعلت وظائف الخلفاء والآغوات . . . كما فعل هو . وكان على كل إقليم

من الأقاليم الثلاثة (والحديث كان سنة 1844) جنرال ، تحت مجموعة من الخلفاء والآغوات الخ . في شكل مناطق خاصة بهم . وهؤلاء الموظفون على اختلاف فئاتهم (الخليفة، الآغا ، القايد ، الشيخ) كانوا يتراسلون مع المكاتب العربية التي كان على رأس كل منها ضابط فرنسي يمثل فرنسا لدى السكان . وكل مكتب عربي هو عبارة عن مركز إداري فرنسي[38] . وهذا إسماعيل أوربان الذي كان يكتب تقريباً في نفس الوقت (1843) يقول بعد أن وصف إدارة الأمير ، بأنه يمكن لفرنسا أن تستفيد من نظامه في جعل الحكم مركزياً لإعطاء وحدة للسّكان ، وإنشاء نظام ضريبي محكم ، وتأسيس نظام قضائي تصاعدي ، وتطوير لنظام التعليم . ولكن عربان الذي كان ينتمي إلى السان سيمونية الإشتراكية ، أوصى بجعل الضريبة سياسية إدارية وليس دينية ، (غير الزكاة والعشور) ، ودعا إلى منح القياد سلطات زمنية ـ تنفيذية ضد السلطة الدينية (يعني المرابطية) ،وإعادة تنظيم القبائل العسكرية (أي المخزنية) لتساعد على بسط الإحتلال ، وأخيراً أوصى عربان الذي كان وفياً لمبادئه ، بجعل المرابطين ينكمشون على أنفسهم ويلتزمون بحياتهم الدينية[39] .

ومما يذكر أن القضاء الإسلامي في الجزائر كان دائماً تحت وزارة الحربية الفرنسية . وبينما كانت المحاكم الإسلامية في العهد العثماني هي مصدر الأحكام غالباً فإن الأمير جعل للقاضي يداً قوية حيث أعطى أهمية للشريعة والقرآن والسلف ، فكان القاضي في عهده يتمتع بسلطات واسعة على القايد أيضاً . ولعل هذه الناحية هي التي لم يقلد فيها بوجو نظام الأمير لأن منح القضاة المسلمين سلطات واسعة تجعله يخشى على إحتلاله للجزائر . لذلك أنشأ ، بالإضافة إلى المحاكم الإسلامية (المالكية والحنفية والإباضية) محاكم أولية في أغلب المدن المغلوبة ، ومحاكم الصلح Justice de Paix ، إلى جانب محكمة للإستئناف في العاصمة ، وأنشأ أيضاً محكمتين تجاريتين في الجزائر ووهران . وأصدر سنة 1842 قانوناً يجعل كل القضايا الجنائية ، مهما كان جنس أو دين مرتكبها ، لا تحكم فيها إلا المحاكم الفرنسية ، مع

---

(38) بوجولا (دراسات افريقية . . .) ، ج 2 ، ص 139 . ولاحظ بوجولا أن بوجو عدّ الضباط الذين يعرفون العربية فوجدهم لا يتجاوزون الثلاثين . لذلك لجأ إلى توظيف مستويات أخرى في المكاتب العربية .

(39) إسماعيل أوربان (طابلو) 1843 ـ 1844 ، ص 443 .

بقاء حق النظر للقضاة المسلمين (المدجنين طبعاً) في الجرائم التي يرتكبها مسلمون . أما قانون 1846 فقد نص على أن كل القضاة المسلمين عليهم أن يسجلوا القضايا التي تعرض أمامهم ، أن يقدموا بياناً بذلك إلى السلطات الفرنسية . وشهدت سنة 1848 تنظيماً جديداً يتعلق بالقضاء وذلك بإنشاء المجلس القضائي الأعلى ، وتعيين الوكلاء والمدافعين في المحاكم الإسلامية أيضاً[40] .

5. التدجين ومذبحة غار الفراشيش :

إن أسلوب القهر الذي طبقه بوجو بكل قوة أدى إلى تدجين العديد من القيادات الجزائرية في المدن والأرياف معاً ، كما أدى إلى ارتكاب أفظع الجرائم ضد السكان مثل جريمة غار الفراشيش بالظهرة . وقد شمل أسلوب التدجين الطرد من المدن لكل من يشتبه فيه بالولاء للأمير ، وحمل عقيدة المقاومة للعدو ، والإشتباه في الولاء له ، وذلك بالإعلان عن موقف معارض ، أو بمراسلة مع أحد المقاومين ، أو بتنظيم مساعدة الثوار الخ . أما الذين اختاروا الإنضمام إلى المقاومة صراحة بالخروج من المدن إلى المقاومين في الأرياف ، فقد اتخذت ضدهم إجراءات أخرى عقابية مثل مصادرة أملاكهم واحتجاز الرهائن من عائلاتهم ، الخ . وطبقاً لهذه السياسة الإرهابية الجائرة حكم بالنفي على المفتي مصطفى بن الكبابطي من الجزائر وبعض أفراد عائلته ، وبالطرد على حمودة الفكون وبعض أفراد عائلته من قسنطينة ، وكان ذلك مجرد فاتحة لعهد الإرهاب في المدن ، إذ طبق مثله على العشرات في المدن الأخرى أيضاً[41] .

ونفس سياسة الإرهاب والتدجين اتخذت بالنسبة لزعماء الريف الذين اشتبه في تعاملهم مع المقاومة . وكان هؤلاء على أصناف : فمنهم من تعامل فعلاً مع المقاومة ووقع في قبضة الفرنسيين فكان بين أمرين : أن يعدم أو يتظاهر بالتعامل مع العدو. فإذا اختار الحل الثاني فإنهم كانوا يجعلون منه عميلاً مطلقاً وإلا حكم عليه بالقتل أو النفي . وصنف آخر كان في الأصل متردداً يتبع مصلحته الشخصية فكان العدو يعامله

---

(40) أنظر ج . موريل (الجزائر) ، ص 384 .

(41) سنعود بالحديث عن نفي أعيان المدن في عهد بوجو ، بعد قليل .

على قدر نيته فيمكنه في قومه ويجعل منه موظفاً بلقب شيخ أو قايد أو آغا أو خليفة ، حسب أهميته وأهمية قومه ومنطقته . وصنف آخر كان من البداية مستعداً للتعامل مع العدو لمرض في نفسه إذ رأى الفرصة في تحقيق مآربه الشخصية قد حانت بوجود العدو والإحتماء به . ورغم احتقار العدو لهذا الصنف فإنه ربط معهم علاقات وقدم لهم المساعدات لكي يجعلهم أداة لتنفيذ خططه الإستعمارية . وكل من كانت له بقية من كرامة من هذه الأصناف التي تعاملت مع العدو في وقت من الأوقات تحت سلطة الإرهاب ، كان يثور ضده إذا وجد الفرصة ، ولذلك ظل العدو غير مطمئن دائماً للجزائري ولو كان في الظاهر من الموالين له . ومن ثمة كثرت الجوسسة والتقارير السرية التي كانت تتبع وتحلل مواقف كل موظف من هؤلاء الأعيان ، وتوصي بالحذر منه والتظاهر فقط بالثقة فيه .

وهذا أحد الدارسين المعاصرين قد عاد إلى عهد بوجو وأمثاله ودرس سياسة العدو نحو أعيان الجزائر في الريف وخرج بهذه النتيجة فقال : كان زعماء العائلات البدوية الواقعة جنوب التل والصحراء يعيشون على الماشية ويراقبون تجارة الحبوب والتمور بين التل والصحراء ، وكانت هذه العائلات تتوارث القيادة . وهناك نوع آخر من الزعامات هي زعامات العائلات القبلية الواقعة بين التل والساحل ، وكانت تعيش أساساً على الزراعة . وقد جرت العادة أن هذه الزعامات القبلية كانت تخضع للمراقبة السياسية والاقتصادية للحكام الأتراك أو ممثليهم . وكانت تلك الزعامات هي التي تمنح حق الرعي عند الضرورة لقيادات العائلات البدوية المذكورة . أما ثالث الأنواع فهو زعامات القرى الأقل ثروة والواقعة في المناطق الجبلية مثل الونشريس والقبائل والأوراس ، وهي الزعامات التي أبقت على استقلال ذاتي آمن وبقيت على اتصال فقط بقيادات التل لمبادلة بعض المواد الغذائية كالزيت والحبوب . وكان الزعماء في كل منطقة من المناطق الثلاث المذكورة يتنافسون محلياً على التجارة والري والمكانة والسلطة.

هكذا كان الوضع في العهد العثماني ، ولكن الفرنسيين غيروا منه . فقد قام بوجو في حربه الشاملة ضد الأمير عبد القادر ، بإنشاء نظام إداري تصاعدي كلما وجد من أولئك الزعماء من يعتمد عليه بعد تدجينه . وعمل على تشجيع السكان على الانضمام إلى الزعامات الجديدة التي عينها هو والتخلي عن زعاماتهم القديمة التي

كانت قد أعلنت مقاومتها للفرنسيين ، والدخول تحت حماية فرنسا . وقد رتب بوجوب هذه الزعامات الجديدة ترتيباً تصاعدياً يبدأ من شيخ الدوار والفرقة إلى الخليفة أو الحاكم ، وقد منحهم سلطات واسعة ، في أول الأمر ، شملت : جمع الضرائب والقيام بأعمال الشرطة ، وإقامة العقوبات ، ومراقبة الأسواق ، وتجنيد فرق الفرسان ، ونحو ذلك من السلطات . وبذلك انتهت الزعامات المحلية التقليدية المتنافسة تنافساً مسلحاً أحياناً والقائمة على السلطة والغلبة ، ولكن بدل أن تحل محلها أرستقراطية قوية وموحدة ومحترمة ـ كما تخيل المنَظِّرون الفرنسيون ـ جاءت التجربة بجماعة من الزعماء المحليين الضعاف اليائسين ، وذلك بحكم تدخل فرنسا في شؤونهم وجعلهم تحت حمايتها ومراقبتها(42) . وقد ذكرنا سابقاً أن بوجو قد قلد مثال ادارة الأمير في هذا النظام التصاعدي ، مع بعض الاختلاف في التفاصيل .

ويطول بنا الحديث إذا نحن دخلنا في الإجراءات التي سلكها بوجو مع كل زعيم من الزعماء الأهالي ، في المدن والأرياف ، لتدجين ما أسماه بعضهم بالزعامات الأهلية . فها هو أحد الدارسين الفرنسيين يذكر أن جزيرة سان مرغريت وحدها قد استقبلت بين 1841 ـ 1843 حوالي ثمانين شخصية من الزعامات الأهلية(42م) . أما الذين أرسلوا بهم إلى الجزر النائية في المحيط الهادىء أو أمريكا الجنوبية أو سجون فرنسا الأخرى فلعله أكثر من أن يحصيه (كومبيوتر) الوقت الحاضر . ويقول هذا الدّارس أن سلطات بلاده قد اختارت الجزيرة المذكورة كمنفى للشخصيات السياسية البارزة ذات النفوذ والتي لا تخضع عقوبتها لاجراءات القانون العام . وكان بعض الشخصيات قد نفوا إلى هناك إمَّا لأنهم رفعوا السلاح في وجه فرنسا ، وإما لأنهم خطر عليها في الجزائر ، وإما أخذوا كرهائن لإرهاب ذويهم وإبعاد خطرهم .

وقد شملت حركة النفي عدداً من الزعماء المحليين وحتى غير الزعماء ، كما

---

(42) بيتر فان سيفرز P.V. Sivers « الزعامة الأهلية » في (المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط) ، عدد يوليو ، 1975 ، ص 261 ـ 262 .

(42م) اكزانييه ياكونو في (المجلة التاريخية المغربية) ، العدد الأول ، سنة 1974 ، ص 71 . من الأماكن التي نفت اليها سلطات بوجو وغيره الجزائريين : قلعة لامالق ، وجزيرة ايكس ، وجزيرة دي ري ، وحصن بريسكو ، وحصن سان بيير ، وحصن سان لويس ، ودي سات . بالاضافة الى قواد لوب ، والمارتينيك ، وغويانا ، الخ .

شملت النساء والأولاد كرهائن . ونحن حين درسنا بعض ملفات هؤلاء في الوثائق الفرنسية اقشعر جلدنا مما أصاب هؤلاء المساكين من البؤس والتأثر بالفقر والمرض والبيئة وحتى العقيدة . ولعل ذلك هو ما كان يهدف إليه بوجو وزبانيته . ذلك ان من أولئك المنفيين من كان يتبرأ مما نسب إليه ، ويعلن « ولاءه » لفرنسا حقيقة أو نفاقاً ، ويبدي استعداده لخدمتها . ومنهم من يذكر الفرنسيين بالأديان السماوية وكونهم (الفرنسيين) من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ وأنَّهُ كان عليهم أن يحترموا أهل الملل الأخرى كما يحترمها المسلمون ، ومنهم من كان يشتكي الفقر والفاقة بعد العز والتمكين . ومنهم من كان يطلب فقط السماح له بالذهاب إلى المشرق وانضمام زوجه وأولاده إليه ، ومنهم من يشتكي البرد والمرض والكبر . وكانت هذه إحدى الطرق التي اتبعها بوجو لإرهاب الجزائريين وليعلن بعد ذلك أنه قاهرهم وانه جدير بعصا المارشالية .

والملفات التي درسناها شملت مطرودين من مختلف أنحاء الجزائر ، وكلها تعود إلى سنة 1842 : من قسنطينة ، ومستغانم ، ومعسكر ، وعنابة الخ . وكانت التهم الموجهة إلى بعضهم هي المشاركة في المقاومة الوطنية ورفع السلاح في وجه الفرنسيين . وفي هذا الإطار كان منهم من اتهم بالعمل مع الأمير ، ومن اتهم بالعمل مع الثائر زغدود، الخ . ولكن منهم من كان موجوداً في المنفى لمجرد الاشتباه في أمره أو لعدم إعلان الولاء أو فقط كرهينة . وهذه بعض الأسماء التي وجدت فقط في ملفات جزيرة سان مرغريت سنة 1842 :

من قسنطينة : 1) الحسين بن عزوز البرجي الذي كان خليفة للأمير في الزيبان (1838 ـ 42) ، والذي قبض عليه العدو في نواحي المسيلة . وله رسائل كثيرة وكتابات عديدة ، يطلب في بعضها إطلاق سراحه وتوجهه إلى المشرق ، وإطلاق سراح أخيه أيضاً . وفي بعضها يذكر أنه لم يعد عدواً لفرنسا وأن الأمير نفسه وخليفته الجديد قتل عدداً من عائلته ، وانه مستعد لخدمة فرنسا إذا عينته خليفة على العرب . ومن بين كتاباته مشروع في طريقة الحكم في الجزائر ، عرضه على ملك الفرنسيين ، وهو في عدة صفحات ، وهو يقوم على أفضل طريقة في نظره للتعاون بينه وبين الفرنسيين . وتبدو على كتاباته الاضطرابات النفسية والتوتر ، مما جعلنا نشك في صدق ما كان يقول وفي الأهداف التي يرمي إليها . والمهم أن الفرنسيين قد نقلوه من

ذلك السجن بعد حين إلى سجن عنابة حيث توفي سنة 1847 .

2) ومن قسنطينة أيضاً : كجك علي . الذي له كتابات موجهة إلى الفرنسيين يتبرأ فيها مما نسب إليه من كونه عدواً لفرنسا . ويخبر ان الحاج أحمد قد قتل عدداً من عائلته، لكي يتقرب (أي كجك علي) إلى الفرنسيين، بل أعلن لهم أنه صديقهم.

3) سعيد بحوش ، متهم بمشايعة سي زغدود ، في ناحية الحروش.

4) مبارك بلعباس ، نفس التهمة ونفس الناحية . وكلاهما يعلن ان له أهلاً وأولاداً وبناتاً ، وينظلم إلى بوجو.

5) الصادق بن مخناش وقويدر بن أحمد ، (لا أذكر الآن من أية جهة في الوطن ، ولعلهما من الشرق أيضاً) .

أما من ناحية مستغانم فقد وجدنا رسائل جماعية اشتملت على أسماء عديدة ، من بينها أسماء بعض النسوة والأولاد . وهي رسائل تصف الأحوال المادية التعسة التي كان عليها السجناء . ومحتواها لا يختلف عن الأخرى من مدح الفرنسيين والقدح في العرب ، مما يجعلنا نشك في صدق لهجة ونوايا أصحابها . ومن الأسماء التي وردت في الرسائل : ابن هني بن زيان ، أحمد بعيد (؟) ، عبد القادر بلحاج ، محمد بن شروان ، والخليفة ابن دحمان . وذكرت إحدى الرسائل ان عدد النسوة سبعة وان هناك ثلاثة أولاد ، ولكن لم تذكر عدد الرجال[43] . وقد ذكرنا ان هناك رسائل من مساجين معسكر وعنابة الخ .

وفي نفس السنة (1842) حكم بوجو بالطرد على الأخوين الفكون (حمودة ومحمد) من قسنطينة إلى الاسكندرية ، متهماً إياهما بالتآمر ضد فرنسا ، وواصفاً لهما بأنهما خطيران على الوجود الفرنسي . والمعروف أن حمودة هذا هو الذي كان فاليه قد عينه شيخ بلدية قسنطينة على أثر احتلالها[44] . وبعد سنة واحدة (1843) حكم بوجو أيضاً بالطرد على مفتي المالكية ، مصطفى بن الكبابطي ، من العاصمة إلى سان مرغريت ، كما سنرى[45] .

---

(43) من أرشيف ايكس ، رقم F 80,574 .

(44) من أرشيف ايكس ، رقم F 80,613 .

(45) انظر ما سيأتي ، وكذلك دراستنا عن قضية هذا المفتي في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، الجزء الثاني ، ط . بيروت ، 1990 .

ومن الشخصيات السياسية ـ العسكرية التي نفاهـا بوجـو إلى هذه الجزيرة : علي بن عيسى وأحمد بن الحملاوي ، وحسين بن عزوز . أما الأول فقد عرفنا انه حارب ضد الفرنسيين في عنابة وقسنطينة ، وبعد احتلال المدينة الأخيرة قبل بالأمر الواقع ودخل سنة 1838 في طاعة الفرنسيين بقبوله وظيفة (خليفة) على الساحل بين جيجل وقسنطينة . ولكن في عهد بوجو (1841) لفقوا له تهمـة تزويـر العملة ، وحكموا عليه بالأشغال الشاقة عشرين سنة ونفوه إلى الجزيرة المذكـورة ، لإرهابـه وإرهـاب غيره بـه[46] ، وكذلـك كان الحـال تقريباً بالنسبـة لأحمد بن الحـاج بن الحملاوي . فقد حارب الفرنسيين أيضاً في حكم الحاج أحمد ، وكان برتبة آغا ، وبعد 1838 قبل بالأمر الواقع ولبس برنس التولية كخليفة للفرنسيين على فرجيـوة (بين قسنطينة وسطيف) . وبعد تولي بوجو اتهمه بالاتصال بالأمير وحكم عليه سنة 1841 بالنفي أيضاً إلى الجزيرة المذكورة (سان مرغريت) وبالأشغال الشاقة عشرين سنة من قبل مجلسٍ حربي[47] .

وهناك نموذج آخر من تدجين الزعماء الجزائريين في عهد بوجو . وهو يتمثل في التعاون مع بعضهم على البقاء على الحذر منهم ، مثل التعاون مـع محمد بن عبد السلام المقراني وابن زعموم وأحمد بن سالم (الأغواط) ، وفرحات بن سعيد ، وكلهم كانوا قد خدموا القضية الوطنية من قبل تحت زعامة الأمير. ومنهم أيضاً ابن عودة المختاري (من أولاد مختار ناحية بوغار) ، ومحمد السعيد (قائد شرشال) في عهد الأمير ، الخ . فمنذ خروج خليفة الأمير من الأغواط بقيت تقريباً تحت أحمد ابن سالم الذي كان على صلة دائمة بالفرنسيين وبالشيخ التجاني . وفي سنة 1843 أرسل الهدايا إلى بوجو وطلب الخلافة لنفسه منه ثم جـاء أخوه ، يحيى ، إلى العـاصمة

---

(46) انظر ما سبق . عرفنا أن الحاج أحمد قد اتصل بصديقه ابن عيسى وثبطه من الانضمام الى الأمير . ولا ندري إن كان ابن عيسى قد اقتنع بكلامه أو أنه غيّر موقفه ، كزميله ابن الحملاوي وأظهر التعاطف على الأقل مع الأمير .

(47) انظر ما مضى . وقد عرفنا أن تدخلات زوجته وابنه قد أدت الى تحديد اقامته في أماكن أخرى مثل (نوجنت ـ لو ـ روترو) و (مو) الخ ثم سمح له بالاقامة في تونس ، 1843 ، ولم يسمح له بالرجوع الى قسنطينة الا سنة 1845 لتصفية أموره فقط . ولا يعرف أين توفى . انظر يـاكونـو ، المرجـع السابق ، ص 59 ـ 60 ، وكذلك (مراسلات داموريمون) ، ص 386 هامش .

لمقابلة بوجو ، ورجع له منه بنص التعيين ، ومنذ 1844 وهو (أي أحمد بن سالم) خليفة للفرنسيين على الأغواط ونواحيها . وقد نصبه الجنرال ماري الذي جاء على رأس فرقة عسكرية ، ثم رجع بعد جمع الضرائب[48] . ويبدو أن ابن سالم كان من أوائل الزعماء المدجنين ، ولا ندري هل كان ذلك تحت تأثير الطريقة التجانية أو كان حباً في الزعامة الفردية.

أما ابن عودة المختاري فقد خدم الأمير برهة من الزمن ، خصوصاً عندما كانت سلطة الأمير قوية في إقليم المدية ، ثم أظهر الميل للفرنسيين خوفاً منهم بعد 1845 ولكن الفرنسيين ، رغم الاستفادة منه ، لم يطمئنوا إليه وظلوا يتعاملون معه بحذر ، مثل معظم الزعماء أمثاله[49] . وهناك محمد السعيد ابن عودة الذي كان حاكم شرشال ثم انضم للأمير على مضض ثم فرّ من عنده وتعامل مع الفرنسيين الذين أعادوه (آغا) على شرشال في عهد بوجو (1842) ، بعد أن أفتك الفرنسيون شرشال من الأمير . ونتيجة لهذا التعاون أبعدت عائلة البراكنة من شرشال إلى فرنسا سنة 1843 لأن رئيسها (محمد بن عيسى البركاني) كان من أبرز خلفاء الأمير ومن أكثرهم حماساً للقضية الوطنية . وقد ورث محمد السعيد الوظيفة المذكورة إلى ابنه قدور أيضاً . واستفاد الفرنسيون أيضاً هناك من تنافس العائلات ، ففي الوقت الذي أبعدوا عائلة البركاني قربوا أيضاً عائلة الغبريني[50] . وإذا كانت بعض الشخصيات قد لعبت دوراً مزدوجاً أحياناً مثل فرحات بن سعيد ، ومصطفى بن اسماعيل والمزاري وحتى التجاني ، فإن هناك شخصيات لم يعرف عنها أنها وقفت إلى جانب المقاومة خصوصاً بعد 1837 ، ومن هؤلاء بوعزيز بن قانة ومحمد البرسالي وابراهيم بوشناق ، رغم تعمد الفرنسيين إهانتهم والشك فيهم . ولكن سنوات 1840 ـ 1844 قد خلصت الأمير والمقاومة عموماً من أشخاص كانوا يفيدون العدو أكثر مما يفيدون

---

(48) بوجولا (دراسات . . .) ، ج 1 ، ص 118 . ويذكر هذا الكاتب أن عدد سكان الأغواط عندئذ ستة آلاف نسمة . وأن بها أربعة مساجد .

(49) كنيدي (الجزائر وتونس . .) ج 1 ، ص 126 . ويذكر الكاتب أن ابن عودة كان من الأثرياء ، وأنه قبل أن يدفع للفرنسيين عشر ما تدفعه أولاد مختار من الضريبة .

(50) انظر ل . ڤان (المجلة الأفريقية) ، 1873 ، ص 472 .

الوطن ، وهم : فرحات بن سعيد (1841) ، ومصطفى بن اسماعيل (1843) .

ومن أعمال التدجين التي ارتكبها بوجو بين 1841 ـ 1843 نفيه لمجموعة من النسوة إلى جزيرة سان مرغريت أيضاً . والغالب على الظن أن هؤلاء النسوة كن رهائن لانضمام أزواجهن أو أبنائهن إلى المقاومة ضد العدو . أو فعل بهن ذلك تخويفاً لأهلهن ، خصوصاً إذا عرفنا مدى حرمة المرأة عند العرب والمسلمين . وقد درس أحد الكتاب عدداً من ملفات السجناء في الجزيرة المذكورة خلال ذلك العهد فوجد فيها أسماء تسعة من النساء كن سجينات هناك ، وهذه قائمة بهن :

خيرة ،امرأة من قبيلة صبيح ، ناحية الشلف.

روبة ، أم الخليفة ابن دحمان ، الذي ثار على العدو بعد إعلانه الطاعة له .

سيفة ، زوج أحمد بن عدة ، (نفس الدافع) .

خيرة ، بنت الطاهر ، زوج عبد القادر بن الحاج (نفس الدافع) .

عربية ، زوج الخليفة ابن دحمان (نفس الدافع) .

ياسمينة ، (لا شيء أمام اسمها ـ نفس الدافع) .

خيرة بنت جلول ، ام ابن هني بوزيان (نفس الدافع) .

خيرة بنت هني ، ابنة بوزيان (نفس الدافع) .

خيرة بنت خليفة ، (لا شيء أمام اسمها ـ نفس الدافع)[51] .

وقد لعبت النساء دوراً بارزاً في المقاومة الوطنية جديراً بالذكر . وذكرنا زوج الآغا ابن الحملاوي التي دافعت عن زوجها أثناء احتجازه في سان مرغريت أيضاً . ولعلنا نعود إلى موضوع المرأة في تاريخ الحركة الوطنية.

وإلى جانب عملية التدجين التي تشمل النفي والطرد ، والإرهاب والإغراء ، والسجن والارتهان ، ضرب بوجو مثلاً آخر في سياسة القهر التي اتبعها ضد الجزائريين والتي أحرز بمقتضاها على لقب (قاهر الجزائر) وعلى عصا المارشالية ، ونعني بذلك المجزرة الرهيبة التي وقعت في اولاد رياح بغار الفراشيش في ناحية الظهرة في شهر يونيو ، 1845 . وكان جلاد هذه المجزرة هو العقيد بيليسييه ، الذي سيصبح جنرالاً ثم مارشالاً أيضاً ، فيما بعد ، وحاكماً للجزائر خلال الستينات . لقد

(51) ياكونو (المجلة التاريخية المغربية) ، العدد الأول ، 1974 ، ص 46 .

شغلت هذه المجزرة الصحافة الفرنسية والدولية في وقتها وتناولها الأدباء والكتاب ، واستفظعها الرأي العام ، وأثارت ضجة في برلمان فرنسا وإعلامها وهزت الجزائريين في الصميم فجعلتهم يزدادون نقمة على العدو وتكاتفاً وراء المقاومة الموحدة بقيادة الأمير عندئذ.

وخلاصتها : إن معركة كبيرة وقعت خلال يناير 1845 بناحية الظهرة تعرف عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية ، شاركت فيها على الخصوص : القادرية والرحمانية والدرقاوية والطيبية وفروعها . وكانت قبيلة أولاد رياح التي شاركت في الانتفاضة تقطن جنوب تنس . فغزاها بيليسييه وحطم أملاكها وأحرق ما وجد منها طبقاً لسياسة الأرض المحروقة التي جاء بها سيده بوجو ، وقد فرت القبيلة وهي تحارب، ناحية غار محصن نوعاً ما ، يسمى غار الفراشيش ، تذكر المصادر أن له مدخلين ، الرئيسي في الجنوب الغربي من الجبل والثانوي من جهة الجنوب الشرقي . احتمت القبيلة ، وعددها أكثر من ألف شخص رجالاً ونساءً وأطفالاً مع حيواناتهم، بالغار يوم 17 يونيو، ويطلق العدو على أفراد القبيلة اسم «الثوار» (بما في ذلك الأطفال والحيوانات !) وتقول مصادر الفرنسيين أيضاً أن الغار عبارة عن حصن طبيعي فإذا تمكن الثوار المسلحون من مدخليه فإنهم يظلون أسياد الموقف بسهولة . حاصر بيليسييه وجنوده الغار من جميع الجهات وطالب القبيلة بالاستسلام ، فأجابته بالرصاص . ولكن العقيد الشجاع ، رافع راية الحضارة والانسانية ، جلب أكداس الحطب وأحاط بها الغار وأخذ في إيقادها عند المداخل ، ليجبر القبيلة على الخروج والاستسلام أو الموت اختناقاً بالدخان . ومضى اليوم الأول ، يوم 17/18 من الشهر دون خروج أحد ، ولما حل الليل جلب العقيد تعزيزات الجيش التي كان قد تركها وراءه وجلب المزيد من الحطب وضيق الحصار على الغار ، وضاعف من إيقاد النار.

وتذكر الروايات الفرنسية أن الليل كان مقمراً ، وأن عملية المراقبة كانت سهلة بحيث لا يمكن أن يفر من الغار أحد دون اكتشافه . ولكن أضيف إلى ضياء القمر لهيب النار الذي تزيده نسمات ليل يونيو تصاعداً ولمعاناً . مع ذلك فقد فر عربي من الغار عن طريق الوادي المتصل بالغار ، بعد أن أصيب برصاصة ، ووصل إلى قايد الزريفة، سيدي العريبي ليخبره بأن القبيلة في حاجة إلى الماء. وتفنن العقيد الفرنسي

في تكويم الحطب عند مداخل الغار مع مطلع النهار وزاد لهيب النار اشتعالاً والدخان كثافة . واستمر ذلك طول النهار الثاني رغم ان القايد ، سيدي العريبي ، أخبر العقيد بأن القبيلة تموت عطشاً . ورغم وجود مفاوضات بين الحين والآخر ، فإن العقيد أصر على الاستسلام أو الموت الزؤام خلال ربع ساعة ! وعندما انتهت ربع الساعة ، ضاعف العقيد من عملية « التدخين » في مداخل الغار ، أو كما قال بعضهم « عملية تحميص العرب وشوائهم على النار بدم بارد » وارتفعت سحب الدخان أكثر مما مضى حتى غطت أعلى الصخور بالجبل ! وتواصلت العملية طول الليلة الثانية . ورغم أن العقيد قد أصابه العياء في منتصف الليل فإنه أعطى تعليماته باستمرار التحميص والشواء للنساء والأطفال . وقبل طلوع النهار بنحو ساعة وقع انفجار مهول في قلب الغار . وكان ذلك إعلاناً باختناق ما يزيد عن ألف شخص في ذلك الغار الذي تحاصره النيران والدخان منذ يومين وليلتين ، وتحيطه الذئاب الجائعة لفرائس الإنسان ![52].

ان التقرير الرسمي الذي كتبه بيليسييه عن جريمته وأرسله من خلال سيده بوجو إلى وزير الحربية قد أخفاه هذا عن زملائه وعن البرلمانيين بعض الوقت حتى تهدأ العاصفة التي أثارها ، ومع ذلك فالأخبار تسربت ، كما تسربت أخبار مجازر قالمة وسطيف وخراطة في شهر مايو ، سنة 1945 (لاحظ مرور قرن بالضبط بين الجريمتين !) . ومعظم الكتاب متفقون على أن عدد المختنقين قد تجاوز الألف ، غير أن بعضهم يجعل الرقم 750 ، وبعضهم يجعله ألفاً ، وبعضهم 800 . أما التقرير الرسمي المذكور فقد تحدث عن أكثر من 500 شخص[53] . وحين لم يصدق العقيد بيليسييه ما رواه له عداده عن عدد المختنقين قام هو بنفسه بعملية العد ، فإذا بالرقم وصل إلى 600 . ولاحظ أحد الكتاب أن هذا الرقم لم يأخذ في الحسبان

---

(52) يوجد وصف معاصر للمجزرة بقلم كلاراف . دي بيتيني (الجزائر) ، 1859 ، ص 183 ، 192 (شاهدت وكتبت ما كتبت سنة 1845) . ومن الكتاب الفرنسيين المتأخرين الذين حاولوا تجميع الآراء حول المجزرة الرهيبة ، ر . بوسكي Busquet (المجلة الأفريقية) 1907 ، ص 119 - 123 . كما يوجد وصف معاصر لها كتبته جريدة (التايم) البريطانية ، 19 يونيو ، 1845 و14 يوليو ، 1845 .

(53) هذه الأرقام كلها موجودة في المصادر المذكورة . وقد رجح بوسكي الرأي القائل بألف مختنق .

الأطفال الرضع الذين كانوا ملتصقين بأثداء أمهاتهم أو داخل ثيابهن ، كما أنـه قد أهمل عدّ الجثث التي كانت متراكمة فوق بعضها ، كما لاحظ كاتب آخر أن الغار لم يفرغ كله من المختنقين لعدهم ، بل بقي فيه بعض المخلفات البشرية !

لقد كان المنظر الذي وجدت عليه الجثث رهيباً ومرعباً حرك كل الضمائر وجعل بعضهم يقول انه منظر فظيع لم يحدث مثله في التاريخ[54] . وقد علقت (التايم) على ذلـك بقـولهـا انهـا « مـذبحـة فـظيعـة . . . جعلت حتى المتـوحشين يخجلون . . . »[55] فقد هاجـت الحيوانات داخل الغار ورفست الأطفال والنساء ، وكان الرجال يحاولون وقفها فيمسكونها من قرونها أو من أرجلها. وكم من رجل وجد متشبثاً بقرني ثور دفاعاً عن طفله وزوجه ! وكم من طفل وجد ملتصقاً بصدر أمه والدم ينزف من فمه وفمها ! وقد لاحظ الملاحظون عندئذ أن الجثث كانت عريانة دليلاً على الاضطراب والانتفاض العنيف الذي أصابها قبل الموت بينما كان الدم يخـرج من الأفواه . ولم يخرج من الغار إلا حوالي ستين شخصاً مات أربعون منهم في الحال ، وعشرة بقوا في حالة خطيرة وعشرة فقط استطاعوا التغلب على الموت . ومع ذلك فقد اندفع جنود بيليسييه وبوجو ينهبون الموتى ! ويقول أحد المعـاصرين للجـريمة ان الجنود أخذوا كل الأشياء التي وجـدوها مـع المختنقين ، حتى البرانيس الملطخة بالدماء ، والأشياء الذهبية ، وغيرها .

أما وزير الحربية الفرنسي (سولت) الذي تتبعه الجزائر إدارياً فقد حاول إخفاء حجم الجريمة بالتكتم عن التقرير الذي جاءه من بيليسييه وعـدم نشره في جـريدة (المونيتور يونيفرسال) ، كما جرت العادة ، وامتدح ممثله في الجزائر ، بوجـو ، على صنيعه . وأما بوجو فقد امتدح العقيد بيليسييه على ما قام به نحو قبيلة رياح . وقامت صحيفة (الديبا) تمدح ضباط الجيش على عملهم في الجزائر ، كما قامت صحيفة (الجزائر الفرنسية) التي كان يصدرها بوجو في الجزائر بوصف الجريمـة وأثنت على مرتكبيها . ولا ضرورة إلى القول بأن صحافة المعارضة قد لامت بوجو وبيليسييه ، وحملتهما المسؤولية[56] . وقال بعضها إنه كان بإمكان الأخير أن ينتظر

---

(54) دي بيتنبيه (الجزائر) ، ص 183 .

(55) التايم (لندن) ، عدد 14 يوليو ، 1845 .

(56) من الصحف التي تحدثت عن الجريمة جريدة (التايم) البريطانية التي أشرنا اليها ، وكذلك جريدة =

بعض الوقت لأن القبيلة كانت ستخرج لا محالة ما دامت في حاجة إلى الماء ، وإنه فعل فعلته بدم بارد وبتعمد واضح لأن عملية التدخين كانت تجري بانتظام وتفنن . ويذكر بعض المؤرخين أن بيليسييه قد مات (بعد عشرين سنة) وأشباح قتلى غار الفراشيش تطارده !

هذا جزء من « سياسة السيف » التي سار عليها بوجو أثناء حكمه للجزائر ، تدجين وإرهاب وقتل جماعي وإحتجاز الرهائن والتجويع والتعطيش وإقامة المحتشدات . أما سياسته المعروفة « بسياسة المحُراث » فهي التي عني بها الإستعمار عن طريق الإستيطان واغتصاب الأراضي الجزائرية وإعطاءها إلى المهاجرين الفرنسيين أو المتفرنسين من الأوروبيين الذين جاؤوا إلى الجزائر من مدن جنوب فرنسا وإيطاليا واسبانيا ، حفاة عراة ، جياعاً عطاشاً للإرتزاق والتملك . وقد أعطاهم بوجو الأراضي التي أعلن أن أصحابها ثائرون لحملهم السلاح ضد فرنسا أو الذين اتبعوا الأمير عبد القادر . وقد نشط في عهده نوعان من الإستعمار : (المدني) وهو الذي تم على أيدي هؤلاء الذين تحدثنا عنهم والذين كان يستجلبهم من فرنسا وأوروبا عن طريق الدعاية والإغراء بالوعود السخية . و (العسكري) وهو الذي شجع عليه الجنود ليصبحوا مستوطنين وذلك بتزويجهم ومنحهم الأرض اللازمة والمعدات الضرورية للحرث والإستقرار ، حتى اشتهرت طريقته هذه عند المعاصرين بإسم « زواج الطبول » إذ كثر دق الطبول العسكرية وعزف الموسيقى للإحتفال بزفاف الجنود وتوزيع الأراضي عليهم ، وتقليدهم رمزاً يتمثل في سيف باليد اليمنى ومحراث باليد اليسرى ليستقروا ويدافعوا عن أنفسهم ضد العرب المتوحشين ! .

6. الحرب الأخرى : من الأسقفية إلى الجوسسة :

(من الأسقف دوبوش إلى الجاسوس روش) .

لم يكن عهد بوجو في الجزائر كله عهد السيف والمحراث أو الحرب

= اسبانية تسمى (الهيرالدو) فقد نشرت في حينها تقريراً لضابط اسباني كان يعمل في الفرقة الفرنسية التي حاصرت الغار . ويقول بوسكي عن هذه الصحيفة انها كانت « موجهة وهي ضد جيش أفريقية وضد بيليسييه » . لماذا ؟

والإستعمار ، كما يشاع عنه ، فقد كان أيضاً عهد الغزو الديني والفكري . ذلك ان بوجو كان يخطط لدمج الجزائر في فرنسا حضارياً ، ومن أجل ذلك جند كل الطاقات لفرنسة الجزائر لغوياً ودينياً وإجتماعياً ، بالإضافة إلى فرنستها إقتصادياً وجغرافياً وسياسياً . لقد إزدهرت في عهده الكنيسة الكاثوليكية حتى لقد أصبحت تشكل الطابور الخامس للجيش والإدارة الإستعمارية ، وتعززت بشبكة من الجواسيس المهرة الذين يزعمون للقادة الجزائريين أنهم قد أخلصوا لهم . وانطلقت المحاولات للغزو الفكري عن طريق أخذ الرهائن العرب إلى فرنسا وإدخالهم في الثقافة الفرنسية والمجتمع الفرنسي رغم أنوفهم وأنوف ذويهم ومجتمعهم . وتأكد بوجو ومستشاروه أن المرأة الجزائرية تمثل حصناً منيعاً في وجه هذا الغزو ، ولذلك أوعزوا إلى مغامرات فرنسيات بدخول هذا المجتمع المغلق ، مجتمع المرأة المسلمة وإخراجه من عزلته والتأثير عليه عن طريق الفرنسة ، وهكذا قامت كل من السيدة (اليكس) والسيدة (لوس) بإنشاء مدرسة للطرز والخياطة للفتيات المسلمات ، كما سنرى . وإلى جانب هذا الغزو المتعدد الجوانب ، هناك أيضاً التعاون على تحطيم المقومات الأساسية للمجتمع الجزائري العربي المسلم : فالقضاء على المساجد والتعليم القرآني وتأميم الأوقاف ، ونفي العلماء ، واضطهاد العربية ، كلها كانت تتماشى مع السياسة المذكورة .

إن النصوص العديدة التي كتبها الفرنسيون وهم يستعدون للحملة تعكس الروح الصليبية والهدف الديني الذي كانوا يرمون إليه من وراء غزو الجزائر . ومنذ أن احتلوا مدينة الجزائر كانت تصرفاتهم العامة توحي بذلك وتعبر عن تعصبهم الديني . فالإستيلاء على المساجد وتهديمها وتحويلها إلى كنائس بدأ منذ اللحظات الأولى كما عرفنا ، وإقامة القداسات وصلوات الشكر ، والحفر على بقايا المسيحية منذ عهد الرومان ، واعتبار الإحتلال عملية امتداد واسترجاع لسيطرة المسيحية ، كل ذلك وغيره صورة لما كان يحمله الفرنسيون في الجزائر من نوايا ومشاريع دينية ـ صليبية . وأقول هنا « الفرنسيين » دون تمييز ، لأن هناك من يقول ان هناك فرقاً بين القيادة العسكرية والقيادة الدينية ، وان هناك صراعاً بين القيادتين في الجزائر . والواقع انه لا فرق إلا في الوسائل والإعلان والدرجة . ذلك ان العسكريين والمدنيين الإداريين كانوا يريدون المسيحية في الجزائر ببطء وبدون ضجة وبدون تظاهرات حتى لا يثور

المسلمون إذا كانت المعاملة بالمكشوف والمباشرة . أما رجال الدين فقد كانوا يظهرون الحماس الصليبي ويعتبرون رسالتهم حرباً مقدسة يخوضونها في قلب إفريقية وفي قلب الإسلام . وكان رجال الدين في الحقيقة متشجعين برجال السيف ، ولولاهم لما قدروا على زرع أنفسهم في الجزائر ، كما ان رجال السيف كانوا معتمدين على رجال الدين في كثير من تحركاتهم لأنهم كثيراً ما مهدوا لهم الطريق وأعدوا لهم الأرض لاعتداء جديد على المسلمين . وهكذا كان الطرفان يكملان بعضهما البعض ويغطيان بعضهما البعض كما تتغطى اليد بالقفاز !

ولقد صدق (جان بوجولا) عندما قال صراحة إن إحتلال الجزائر كان استمراراً للحروب الصليبية : « إن حربنا الإفريقية إذن ما هي إلا إستمرار للحروب الصليبية » . قال ذلك وهو يتحدث عن كون أوروبا أنقذت المسيحية من الإسلام أثناء معركة بلاط الشهداء ، وأثناء الحروب الصليبية . وقد طالب فرنسا (بلاده) بأن تعمل على حصر الإسلام في آسيا ، بعد أن خلصت أوروبا من لصوص البحر ، « ووضعنا أنفسنا على الأرض الإفريقية كورثة للرومان القدماء ، وقد زرعنا في قلب هذا البلد (الجزائر) الفكرة الفرنسية ، الفكرة المسيحية »(57) . ولاحظ بوجولا أيضاً انه إذا كان المسلمون في المشرق يسمون المحاربين الصليبيين « الشعب (الأمة) الحديدي » Nation de Fer فإن مسلمي افريقية (يقصد الجزائر) قد اكتشفوا هذا الشعب الحديدي منذ 1830(58) . إن بوجولا لم يأت إلى الجزائر في عهد بوجو ، سائحاً عادياً وإنما جاء إليها باحثاً عن آثار القديس أوغسطين وغيره مثل سيبريان . وهو يسمي نفسه « مؤرخ القديس أوغسطين » ودعا (بوجولا) بلاده إلى توطين المارونيين في الجزائر ليكونوا لها نعم الرافد . وقد دعا إلى نفس سياسة بوجو نحو العرب المسلمين : إستعمال القوة ، لأن اللين لا يجدي مع المسلمين ، معتبراً أن كل

---

(57) بوجولا (دراسات أفريقية) ، ج 2 ، ص 14 . لاحظ أنه يستعمل أفريقية دائماً للدلالة على الجزائر على عادة الفرنسيين عندئذ ، وقد زار الجزائر هو سنة 1844 وبقي فيها سنتين . وكانت أفكار بوجولا مقدمة لأفكار برتراند لويس صاحب مجلة (أفريقية الرومانية) والذي كان يعتبر العهد الفرنسي امتداداً للعهد الروماني ، وطالما تطاول لويس على الاسلام والمسلمين في بلادهم .

(58) نفسه ، ص 16 .

مستوطن فرنسي (كولون) إنما هو داعية للحضارة الأوروبية ـ المسيحية[59] .

وقد استمر النشاط الديني ـ الصليبي طيلة السبع سنوات الأولى للإحتلال بدون هوادة ، خصوصاً في مدينة الجزائر ، وفي المدن الأخرى التي وقعت تحت الإحتلال ، مثل وهران وعنابة[60] . ولم تأت سنة 1838 حتى تأسست أسقفية الجزائر التي باركتها الفاتيكان ، وأسدل عليها الملك والملكة غطاء الرضى والغفران . وقد صاح بوجولا عندما وصل الجزائر بعد التاريخ المذكور بست سنوات ، صاح فرحاً مغتبطاً قائلاً : لقد أصبحت الجزائر أسقفية كاثوليكية ! ذلك هو الغزو الفرنسي ! وذلك هو تاج النصر ! إنه لعمل يتوج الفكر المسيحي في قلب الإسلام! إنه لوصل للسلسلة الذهبية التي صنعها سيبريان وأوغسطين والتي كانت قد انقطعت منذ أربعة عشر قرناً من الوحشية ![61] لقد كان أول أسقف يتولى إدارة الأسقفية ويرسي أركانها هو دوبوش Dupuche الذي كان اليد اليمنى لفاليه وبوجو في حربهما ضد المقاومة والذي اشتهر بزيارته للأمير عبد القادر في معسكر ليقابله في الظاهر بشأن الأسرى وليتجسس عليه في الباطن لحساب بوجو .

لقد عمل دوبوش منذ توليه ، على الربط بين دور الكنيسة ودور الإستعمار ، بل جعل الكنيسة رائدة في هذا المجال . وكان المقدمة التي مهدت لظهور الكاردينال لافيجري الشهير بعدائه للإسلام والمسلمين . ولم ينتظر دوبوش مجيء بوجو ليبدأ عمله التبشيري ـ الإستعماري ، فقد تحدثت المصادر عن جمعه لرؤساء الدين الإسلامي واليهودي والبروتستانتي في حفلة ودعوتهم للتصافح أمامه وأمام الحاضرين[62] . وكان ذلك سنة 1839 ، وبحضور المارشال فاليه . ويذكر نفس المصدر إن هذا المارشال قد وعد الدوق أورليان عند قدومه إلى الجزائر بإنشاء كنيسة ثالثة بإسمه حتى يرضي أمه (الملكة) ويدخل عليها السرور . وحضر أورليان رفقة

---

(59) نفسه ، ص 166 .

(60) عرفنا سابقاً كيف حول العدو جامع كتشاوة الى كتدرالية الخ .. انظر الفصل الأول .

(61) بوجولا ، المرجع السابق ، الجزء الأول، ص 31 .

(62) الدوق أورليان (وصف حملة) ، ص 208 ، وقد عرفنا أن أورليان هو ابن الملك الفرنسي لويس فيليب، .

المارشال قداساً في مدينة الجزائر يقوده دوبوش ، وقد حضرته أيضاً عائشة ، تلك المرأة التي كانت قد أثارت ضجة في الأوساط الإسلامية عندما عمدها رجال الدين الكاثوليك (1834) وهربوها إلى فرنسا ، رغم أهلها ، كما حضرها معهما « الأخوات » المسيحيات(63) .

وبمجرد احتلال قسنطينة أقيم فيها أيضاً القداس الديني ، وحول مسجد من أجمل مساجدها إلى كنيسة كاثوليكية ، وتحولت أنشطة الأسقفية إلى هناك أيضاً . وها هو أحد المصادر يروي لنا أن دوبوش قد أرسل الأب سوشي إلى قسنطينة سنة 1839 ليكون مسؤولاً عن كنيستها الجديدة . ولاحظ الكاتب أن سوشي هو أول راهب يحل بقسنطينة منذ أربعة عشر قرناً ، وهو يعني منذ الفتح الإسلامي طبعاً ، ولاحظ على سوشي هذا أنه كان متعلماً ومليئاً بالحماس الديني ، وإن المسلمين يسمونه (المرابط الفرنسي) . ونصح الكاتب بلاده بأن تترك الحرية لهؤلاء « المرابطين » الجدد في افريقية (الجزائر) لأن ذلك من مصلحتها السياسية . ذلك انه تأكد لديه أن المسلمين يعتقدون أن من لا دين له لا قيمة له . ومعنى ذلك أن الكاتب ينصح قومه بأن يكونوا متدينين ، وحتى متعصبين في الدين ، ليحترمهم المسلمون . ولم يحل سوشي وحده بقسنطينة بل إنه جاء بعدد من (أخوات الخير) أو (أخوات القديس يوسف) ، فقد كن يعملن تحت إشرافه . وكانت مهمتهن الظاهرة تعليم ومداواة العرب . وقد أصبحن ، كما يقول الكاتب ، معروفات بالخصوص لدى النساء العربيات ، لأنهن يتكلمن العربية مثلهن ، وأصبح اسمهن معروفاً حتى في الصحراء . والجدير بالذكر أن الكاتب قد دعا بلاده إلى نجدة هؤلاء المبشرين والمبشرات الذين قال عنهم انهم « يحملون الشعلة الدينية المقدسة الى افريقية »(64) .

ولقد جند بوجو أيضاً الجوسسة لتحقيق مآربه. فنشطت المخابرات في عهده نشاطاً ملحوظاً ، وأصبح كل (مكتب عربي) عبارة عن خلية جوسسة تتلقى التقارير وتتسمع في الأسواق على الجزائريين ، وتلتقط أسرار تحركات المقاومة ، وتحاول

---

(63) نفسه ، ص 221 . انظر قصة تنصير عائشة هذه في الفصل الأول .

(64) ستيفان ديستزي (تاريخ الجزائر) ، تور ، ط 4 ، 1851 ، ص 305 ، وقد ألف الكاتب عمله سنة 1839 .

معرفة كلمات السر عند الناس ، ولا سيما عند الطرق الصوفية ، وكان فتح الرسائل أمراً عادياً ، وكان تتبع زيارات الناس بعضهم لبعض ومعرفة ما يدور بينهم قد أصبح تقليداً شائعاً ويكافأ عليه من يتقنه . وكان شراء الذمم والتأثير على الأفراد وحتى استعمال التعذيب والإرهاب لاستخراج معلومة من المعلومات ، هو طابع الحرب النفسية التي برع فيها رجال بوجو . ومن أبرز ما تفتقت عنه حيل الحرب المعنوية ذلك الدور الذي قام به ليون روش لدى الأمير عبد القادر.

إن الكتاب الذي ألفه ليون روش مليء بتفاصيل مغامراته التي لا يكاد يصدق الباحثون كل ما جاء فيه ، ولكنها في الأساس صحيحة . واسم كتابه (اثنان وثلاثون سنة في الاسلام) . وقد تناول حياة روش عدد من الباحثين وتتبعوا دوره في الجزائر وغيرها من البلدان التي زارها ، حاملاً رسالة بوجو ، متظاهراً بالإسلام ومبطناً للكفر . وكم في العالم الإسلامي من مغرورين ومغفلين ينخدعون له ولأمثاله حتى في وقتنا الحاضر ! وكأنه يكفي أن يقول لنا أحدهم انه اعتنق الإسلام حتى نستقبله بالأحضان ونفتح له بلادنا وبيوتنا وقلوبنا وأسرارنا ! ولم تكن مهمة ليون روش هي التجسس على أحوال المسلمين فقط ، ولكن الحصول من علمائهم على فتوى تقول للجزائريين : كفوا عن الجهاد ضد فرنسا وارضوا بقضاء الله وقدره !

ليس من غرضنا عرض حياة روش وذكر شطارته أو مهارته في الوصول إلى هدفه الخطير ، فقد تحدث عن ذلك بنفسه في كتابه المذكور ، ودرسه بعض الدارسين المحدثين[(65)] . ويكفي أن نذكر كيف جند بوجو هذا الجندي المغامر وجعل منه أداة فعالة لكسب حربه ضد الأمير وضد المقاومة الوطنية . جاء ليون روش إلى الجزائر بعيد الاحتلال (سنة 1832) وتعلم فيها العربية وقواعد الإسلام وعادات المسلمين وخالط أهل البلاد ، ثم أعلن إسلامه وسمى نفسه (عمر) ، وتوجه نحو الأمير وأعلن

---

(65) انظر كتابه هو (اثنان وثلاثون سنة . . .) ، جزآن ، باريس ، 1884 .

وكذلك دراسة يوسف مناصرية عنه بعنوان : مهمة ليون روش في المغرب والجزائر ، مذكرة ماجستير ، ط . 1989 .

وفي كتاب ديبون وكوبولاني (الطرق الصوفية الاسلامية) ، 1897 ، تفاصيل على مهمته وصورة للفتوى التي حصل عليها الخ .

له اسلامه وتقرب منه وخدمه وتودد إليه ، حتى اغتر به ، وقربه منه إلى أن أصبح كاتبه الخاص ، على ما تقول الروايات . وقد أطلعه الأمير على أسراره ورافقه في حله وترحاله ، وزوجه من امرأة مسلمة وأقامه بين أصحابه ، وتحدث إليه في قضايا عديدة . والغريب أن بعض أصحاب الأمير قد شك في هوية روش ، ولكن الأمير دافع عنه ، لأنه كان محل ثقته.

وفي سنة 1842 أحس بوجو بالحاجة إلى عزل الأمير ليس فقط عن قومه من الجزائريين، بل أيضاً عن قومه الأوسع من العرب والمسلمين . فقد كان الأمير طائر الصيت كمجاهد وحيد تقريباً في العالم الإسلامي وكان ينظر إليه انه من عظماء المسلمين في ذلك العهد ، سواء في المغرب أو في المشرق ، حتى ان أمير الحجاز قال عنه عندئذ انه لا يوجد من كان يخدم الإسلام سوى الأمير عبد القادر وشمويل الداغستاني(66) . وإذا كان بوجو له الجيش والمدافع والرصاص لقهر الأمير عسكرياً ، فليحصل على فتوى دينية تجعل المسلمين الجزائريين ينفضون من حول الأمير . وتنكر روش للأمير ، وأظهر حقيقة أمره ، وفر منه إلى قومه الفرنسيين فكلفه بوجو بالمهمة الخطيرة الثانية والفعالة في آن واحد . لبس ليون روش لباس مقدم من مقدمي الطريقة التجانية ، وتسمى باسم (عمر بن عبد الله الجزائري) ، وارتفق عدداً من العملاء أو البلهاء الجزائريين . كان على رأسهم محمد التجاني (من الطريقة التجانية) ، ومقدم إحْدَى الطرق في سيدي عقبة ، ومحمد المزاري ، آغا الدوائر المشهور الذي كان مع الأمير ثم تحول عنه ، وميلود بن سالم الاغواطي (لعله من عائلة أحمد بن سالم) مقدم الطريقة التجانية بالأغواط.

توجه الركب المزور إلى الأماكن التي يحترم الجزائريون رأيها الديني ، فبدأ أولاً بالقيروان ، وثنى بالأزهر ، وثلث بالحرم المكي . حصل على نص الفتوى من علماء القيروان ، ووافق عليها علماء الأزهر ، ثم صدق عليها علماء الحرم . ومفادها

---

(66) الداغستاني زعيم مسلم حارب التدخل الروسي في بلاده فاعتقلوه في بلادهم ، وطال أمد اعتقاله حتى تدخل الأمير عبد القادر لصالح اطلاق سراحه ، بعد أحداث الشام 1860 ، فأطلق القيصر الروسي سراح الداغستاني فاختار الحجاز حيث توفي . انظر عنه (تحفة الزائر) للأمير محمد باشا ، ط . 1 ، 1903 .

انه يجوز للمسلم وقف الجهاد إذا كان يعرف انه لا قبل له بالعدو ، وان الجهاد في هذه الحالة يصبح ضرباً من الانتحار لا يجوز الإقدام عليه ، وان الرضى بقدر الله وقضائه ، ولو لفترة محدودة ، جائز بل واجب . وبعد أن وصل روش إلى الحجاز توجه إلى أميره الشريف عون، للموافقة على نص الفتوى. وقد جمع هذا الأمير مجلسه العلمي للنظر والموافقة . وعندما انعقد المجلس تقدم محمد التجاني بقراءة النص بإسم روش . ويذكر روش نفسه ان العالم الوحيد الذي حضر المجلس وعارض نص الفتوى الخبيثة بشدة هو محمد بن علي السنوسي ، مؤسس السنوسية فيما بعد(67) . ونحن لا ندري مدى تأثير هذه الفتوى على الرأي العام الإسلامي في الجزائر ، ولكن الذي لا شك فيه ان بوجو قد روجها لدى الذين فرض عليهم حكمه من المرابطين والأعيان والقادة والقبائل المغلوبة على أمرها ، إذ جعل الفتوى منشوراً يقرأ في الأسواق وبين الخيام وفي حلقات الذكر الصوفية ونحو ذلك ، ولا شك أيضاً انه جند الكنيسة وإخوتها وأخواتها للدعاية للمنشور وعزل الأمير عن الناس. وتثبيط عزائم الجهاد.

وبالإضافة إلى هذا النوع من الحرب النفسية الذي لجأ إليه بوجو في حربه الشاملة ضد المقاومة الجزائرية ، لجأ إلى حمل بعض الجزائريين كرهاً إلى فرنسا إما كرهائن وإما في شكل زيارات اجبارية . وقد عرفنا ان سياسة غسل الأمخاخ والترويض الثقافي بدأت في عهد كلوزيل ، وتابعها فاليه ثم بوجو ، وهذا الأخير هو الذي جعلها سياسة - حربية إذا صح التعبير . فنظراً لطول مدته كحاكم ونظراً للإمكانات العسكرية التي كانت لديه (حوالي 80 ألف جندي) ، فإن سياسة الدمج الثقافي قد ازدهرت في عهده أكثر من العهد السابق . ونحن وإن كنا سندرس هذه الظاهرة في كتابنا الثقافي ، فإننا نكتفي هنا بالإشارة فقط إلى النمط الذي يستعمل لهذا الغرض . بالنسبة للرهائن ، كان بوجو يأمر بالقبض على الشبان الذين ينتمون إلى عائلات بارزة (مرابطون ، أعيان ، محاربون . . .) رفع قادتها السلاح في وجه العدو ، ثم يحملهم إلى فرنسا لضرب عصفورين بحجر واحد : كرهائن إلى أن

---

(67) انظر ليون روش (اثنان وثلاثون سنة . . .) ج 2 ، ص 130 - 131 . والمعروف أن محمد بن علي السنوسي قد خرج من الجزائر بعد الاحتلال وتوجه الى المغرب، ثم الى الحجاز ، قبل أن يعود الى المغرب العربي ويؤسس طريقته المعروفة ، ويقول عنه روش عندئذ أنه كان « خطيراً جداً على الفرنسيين » ، وذكر ذلك لقنصل فرنسا في طرابلس . وسنعرض للسنوسي في فصل لاحق .

يضطر ذووهم لوضع السلاح وطلب أولادهم ، ثم كوسائل أو أدوات للتأثير الحضاري على عائلاتهم وبلادهم في المستقبل . فقد كان هؤلاء الرهائن الشبان (عادة من 15 إلى 19 سنة) يحملون إلى مؤسسة معروفة باستقبال المسلمين في باريس ويجعلون تحت تصرف خبير في شؤون الاسلام والعرب ، يراقبهم ويوجههم ويعهد بهم إلى من يعلمهم ويقدم عنهم التقارير إلى السلطات التي أرسلتهم الخ . بل ويذهب معهم في زيارة منظمة إلى الجزائر فيما بعد لزيارة أهلهم ومراقبة مدى التطور الذي حدث في شخص الفتى بين تقاليده والتقاليد الجديدة التي اطلع عليها أو اكتسبها .

وكمثال على ذلك نذكر أولاد قواد الأمير الذين وقعوا في قبضة العدو نتيجة الاستيلاء على الزمالة سنة 1843 ، ومجموعة من شبان العاصمة كان كبار عائلاتهم قد التحقوا بالأمير أيضاً . ومن هؤلاء أحمد بن رويلة وعلي الشريف وعمر الرميلي ، وعبد الرحمن البونطيرو ويوسف بن حفيظ (حفيز) . فهذا ابن رويلة كان عمره 13 سنة عندما قبض عليه في معركة الزمالة . وكان والده هو قدور بن رويلة كاتب الأمير الخاص . فقد ولد سنة 1830 ، وحمله الفرنسيون إلى باريس ، وأدخل مؤسسة يشرف عليها السيد (دوميان كور)[68] ، ثم دخل مدرسة سان سير ، وأصبح مترجماً بارعاً ، ثم أصبح عاملاً في المكتب العربي ، إلى أن قتل أثناء ثورة أولاد سيدي الشيخ في جهة طاقين سنة 1864 ، وهو نفس المكان الذي قبض عليه فيه سنة 1843 . ومثل ذلك يقال في غيره من الذين أصبحوا خلال الخمسينات والستينات من العناصر المندمجة في الحضارة الفرنسية والعاملة في صفوف إدارة العدو[69] .

أما النمط الثاني فهو إجبار بعض الأعيان على زيارات منظمة لباريس والقيام بعملية غسل مخ محكمة ، فهم كانوا يحملون في بواخر لا علم لهم بها ويحاطون

---

(68) كتب دوميانكور تقريراً عن هؤلاء (الأولاد) سنة 1845 اثناء مرافقتهم الى الجزائر لزيارة ذويهم ، وتقريره هام جداً ، اذ يصف فيه الحالة النفسية والاجتماعية للعائلات الجزائرية وهي تستقبل ابناءها . وقد قدم التقرير لبوجو ووزير الحربية . انظره في اوشيف ايكس رقم F80 , 1571 .

(69) عن أحمد بن رويلة ومصيره انظر موضوعنا (من رسائل علماء الجزائر في القرن الماضي) ، خصوصاً رسائل علي بن الحفاف الذي هو خال ابن رويلة في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) جـ 3 ، ط . بيروت ، 1990 . وكذلك شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية) ، ص 307 ـ 309 . وكذلك تروميلي (المجلة الأفريقية) ، 1878 ، ص 363 .

بأبهة مقصودة ، وتكتب عنهم الصحف لإثارة الفضول نحوهم ، ويزورون المتاحف والمسارح والساحات ونحو ذلك ويعلمون بعض الكلمات الفرنسية ، ويختلطون في الحفلات بالرجال والنساء اللائي يؤتى بهن خصيصاً لهذه المناسبات . وأخيراً يقابلهم الملك والوزير وبعض الشخصيات ، وتوزع عليهم الهدايا والأوسمة والألقاب ، ويستمعون إلى عبارات الشكر والإطراء على أنهم ليسوا كغيرهم ممن لا يعترفون بالجميل ولا يقدرون العمل الحضاري الذي تقوم به جيوش بوجو ، وان عليهم أن يكونوا دعاة لفرنسا ورسالتها في الجزائر ، الخ . وقد شارك في هذه الزيارات المنظمة عدد من أعيان الحكم والعلم ، بعضهم من المدن وبعضهم من الأرياف ، كما اختيروا لكي يمثلوا مختلف الأقاليم[70]. ومن هؤلاء الشاذلي القسنطيني والحاج محمد ابن الخروبي (من العلماء) وبولخراص ابن قانة وأحمد بن أحمد، (من العائلات الحاكمة) بالإضافة إلى عدد آخر لا نعرف انتماءه ، منهم الأخضر بن واني ، والبروني ، وأحمد ولد مقران .

7. الغزو « الحضاري » :

إن الحرب الشاملة التي أعلنها بوجو ، في المجال العسكري والمعنوي ، قد أدت أيضاً إلى تدمير حضاري شمل جذور المجتمع الجزائري وقيمه وتركيبته ومقوماته . فقد أدت تلك الحرب الى اختلال في التوازن الاجتماعي والى اهتزاز في البنية الاقتصادية وأيضاً إلى تصدع في الكيان الثقافي . وها نحن نعرض نماذج من ذلك ، تاركين منه ما يمس الجوانب الثقافية الى كتابنا الخاص بذلك.

إن الحرب الضروس التي عرفتها الجزائر منذ 1830 والتي تدعمت وعممت منذ تولى بوجو قد أدت إلى تحطيم الاقتصاد الوطني حتى أن بعضهم قال ان بناءه قد احتاج الى أجيال . والواقع أنه لم يسترجع بناءه حتى بعد أجيال من الاستعمار ، لأن

---

(70) عن هؤلاء انظر كتابنا (القاضي الأديب : الشاذلي القسنطيني) ، ط 2 ، 1985 . انظر أيضاً مارسيل ايمريت « الحياة العقلية » في مجلة (التاريخ الحديث والمعاصر) ، 1954 ، ص 206 ـ 207 . وقد سبقت الاشارة الى إرسال بعض أعيان قسنطينة (خصوصاً : الفكون ، وقائد علي . . .) في هذا النطاق .

الجزائري بقي على العموم في حالة فقر مدقع طيلة العهد الاستعماري . فالاقتصاد الذي يقوم في جله على الزراعة وعلى المبادلات التجارية بين الدواوير والمدن الداخلية قد تعرض الى شبه توقف نتيجة الحروب العنيفة ، ونقل السكان قهراً من بيئاتهم المعتادة الى بيئات جديدة خططها العدو ، ونتيجة عدم الأمن في الطرق الداخلية ، والاستيلاء على المحاصيل الزراعية بل وحرثها واتلاف الحبوب في المخازن الأرضية أو المطامير . يضاف إلى ذلك أن معظم الأراضي الخصبة قد صودرت ، باسم الثورة على السلطة العدوة ، ووزعت على الأوروبيين الذين جاؤوا للاستعمار والاستيطان ، كما أن الأراضي الأخرى لم تعد تنتج لتوقف العمل بها من جراء الحرب والخوف . وشيئاً فشيئاً استولى العدو على وسائل التجارة الداخلية وراقب خطوطها وحولها الى فائدته ، كما أنه احتكر التجارة طبعاً مع الخارج.

أما اقتصاد المدن فقد تعرض الى هزة عنيفة بدوره جعلته يتوقف أو يكاد . فالهجرة أدت الى خروج رأس المال المحلي ، وتوقف الصناعات والحرف . وكان الاستيلاء على الأملاك بدون تعويض قد أدى الى افقار الطبقة الغنية وجرد المدن من مواردها الطبيعية . وقد عرفنا أن المضاربات المالية ، واستيلاء اليهود والتجار الأوروبيون على وسائل الانتاج والبنوك في المدن قد جعل الحضر (سكان المدن) يعجزون عن التنافس ويلجأون الى الهجرة ، أو يواجهون الفاقة . وكان معظم اقتصاد المدن في أيدي الجماعات الحرفية أو النقابات ، التي كان على رأس كل منها (أمين) مسؤول على انتاجها وضرائبها ومداخيلها لدى السلطة . ومنذ دخل الفرنسيون جعلوا هذه الجماعات الحرفية تحت نظرهم وحاسبوها حساباً عسيراً وضيقوا عليها الخناق الى أن أفلس الكثير منها وتولى الأوروبيون واليهود مهام تلك الجماعات . وقد تحول كثير من البرانية أو اليد العاملة الجزائرية التي تأتي الى المدن للاقامة المؤقتة من أجل العمل ـ الى عمال غير حرفيين ، بل ورجع البعض منهم الى نواحيهم(71).

وهكذا فإن الحروب الطاحنة في الأرياف والمصادرات والمضاربات في المدن قد أدت الى انخفاض كبير في عدد السكان ، إما بالقتل والنفي ، وهو الأغلب ، وإما بالهجرة . وقد قدم بعضهم احصاء لانخفاض عدد سكان الجزائر بَيْنَ 1840 ـ 1848

---

(71) عن البرانية في مدينة الجزائر سنة 1838 ـ 1839 ، انظر (طابلو) سنة 1838 ، ص 164 .

فكان حوالي 10٪ أي ثلاثمائة ألف نسمة قد خسرتها الجزائر عندئذ من سكانها[72]. وإن السحق الجماعي مثل حرب احتلال قسنطينة (1837)، والاستيلاء على الزمالة (1843) ، ومجزرة غار الفراشيش (1845) ، وغيرها كانت وراء هذا الانخفاض الكبير . وأما النفي فقد عرفنا أن الفرنسيين قد استعملوه ضد الخطرين والمشبوهين ، بل إنهم أخذوا الى جزر نائية مجموعات كاملة من السكان . كما أن الأمراض والأوبئة أدت الى وفاة عدد كبير من السكان ، ومن بينها : الملاريا ، وحمى التيفود ، والاسهال[73] الخ .

وأما الهجرة فقد أفرغت الجزائر من كثير من سكان المدن ، على الخصوص ، وكانت الهجرة فردية وأحياناً جماعية ، فقد توجه عدد من سكان مدن الغرب (وهران وتلمسان ، ومعسكر ، ومستغانم ، ومازونة الخ .) الى المغرب ، وبعضهم الى المشرق . وهاجرت عائلات وأفراد من العاصمة والمدية والبليدة وقسنطينة وعنابة وبجاية الى تونس ، وبعضها الى المشرق أيضاً . فتناقص عدد السكان سيما الفئة المثقفة والغنية . وقد ظهرت فكرة الهجرة الجماعية بين العلماء ورجال الدين ، وحتى عند الأمير، وهي دعوة الناس إلى الخروج من الجزائر كُلِّيَّةً ما دام الكافر قد تغلب عليها ، قياساً على هجرة الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) وأصحابه . ورغم أن هذه الدعوة لم يؤيدها كل العلماء ، فقد أثرت على بعض الناس ، وتسببت في هجرات عديدة . وتذكر المصادر أن بعض المرابطين قد دعوا أتباعهم إلى الهجرة حتى لا يقعوا في قبضة الكافر ، ومن هؤلاء الشيخ المهدي السَّكْلَاوِي في (منطقة سيباو) الذي دعا السكان سنة 1847 إلى الهجرة إلى بلاد الإسلام ، فهاجر كثير منهم إلى بلاد الشام (سورية)[74] .

ولم تكن الهجرة بدوافع دينية فقط ، كما يتخيل البعض ، وإنما كانت بدوافع اقتصادية أو كانت هروباً من الظلم والجور والاهانة . وقد تحدث الكتاب عن العديد

---

(72) دانزيقر ، (عبد القادر والجزائريون . . .) ، ص .

(73) وصف الدوق اورليان في كتابه (وصف حملة . . .) الأمراض الشائعة في المستشفيات بالجزائر ، سنة 1839 ، انظر ص 210 .

(74) ديبون وكوبولاني (الطرق الصوفية الاسلامية . . .) ، ص 260 .

من العائلات الجزائرية التي كانت ثرية فأصبحت في عهد بوجو وغيـره تمد يـدها متسولة. ومن تلك العائلات: ابن الحفـاف، ومصطفى بـاشا، وعلي بن عيسى، وحمودة الفكون، وبعض العائلات في بجاية[75] الخ . واذا كانت الشكوى من الظلم والاهانة قد تعرضهم الى الخطر فإن الشكوى من الفقر لا تسبب لهم ذلك ، ولذلك وجدنا العديد من الحالات الأخيرة . أما الذين تضايقوا من الاستبداد والاهانة فقد اختاروا الصبر أو الثورة أو الهجرة.

وبقدر ما تناقص عدد المسلمين في المدن تزايدُ فيها عدد الأوروبيين . وبدأت تظهر عليها سمات الفصل بين الحي العربي القذر والحي الأوروبي النظيف . ورغم الاختلاف حول عدد سكان العاصمة عند الاحتلال فإن بعضهم قد قدره بين 40 و70 ألف نسمة ، لم يبق منهم سنة 1841 سوى 16,000 نسمة . ولكن عدد الأوروبيين بلغ عندئذ 30,695 . وفي نهاية عهد بوجو (1847) وصل عدد الأوروبيين في مدينة الجزائر وحـدها الى 42,113[76] . وقـد لاحظ الكاتب بـوجولا وجـود مجتمعين متناقضين في هذه المدينة سنة 1844 : قبائل عربية تسكن أكواخاً كالحيوانات تحوط بها الروائح الكريهة ، ويرطن فيها بعض الفقراء بكلمات فرنسية ، بينما طفلان عربيان يلعبان أمام الكوخ بخبزة فرنسية مستطيلة في شكل بندقية . وقال الكاتب متعجباً : كيف يقارن المرء بين هذا المعسكر (المجتمع) العربي القذر وهذه المباني الفرنسية الكبيرة التي تحمل أسماء : مقهى النهضة ، ومطعم أوبلون ، وإلى جانبها ورشات العمـل التي تمثـل النشـاط الأوروبي . ان وجـود هـذين المجتمعين اللذين رُمِيَ بأحدهما في وجه الآخر لهو من أكثر المناظر اثارة للفضـول » . ولكن الفضول لا يكفي ! فإن الكاتب اعتبر أن وجود العائلات العربية في الأكواخ أمام مدخل باب عزون « إنما يشكل أفظع أنواع الذوق الوحشي أمام أبوابنا ! »[77] .

---

(75) انظر كتابات أوغسطين بيرك عن الموضوع ، خصوصاً تعاليقه في (موجز تاريخ الاقطاعية الجزائرية) ، في مجلة البحر الأبيض ، عدد 7 ، ينـاير ـ فبـرآير 1949 ، ومـا بعدهـا ، وكذلـك (البرجـوازية الجزائرية) ، مجلة هيسبريس 35 (1948) .

(76) موريل (الجزائر) ، ص 91 ـ 92 .

(77) بوجولا (دراسات. . .) ج 1، ص 54. وقد لاحظ النقص في سكان العاصمة الدوق أورليان أيضاً. وأخبر سنة 1839 أنهم يتناقصون كل يوم ، وكان صريحاً فقال : أن الأوروبيين هم الذين جعلوهم =

وقد ذكرنا من قبل حكم الدوق اورليان على مدينة قسنطينة سنة 1839 حين دخلها كمحتفى به . وقد وجدها كما قال مخربة الديار قذرة الشوارع ، كثيرة الأمراض . . وهو بدون شك يعني بذلك الأحياء العربية فيها . وقد كان سكان قسنطينة سنة 1837 حوالي ثلاثين ألف نسمة ، فإذا بسكانها المسلمين لا يتجاوزون عشرين ألفا سنة 1845[78] وها هي قسنطينة قد حلت بها جالية أوروبية أصبحت تتضخم مع الزمن : 840 نسمة سنة 1843 ، و478 نسمة سنة 1844 . وأصدر بوجو مرسوماً في هذه السنة يقسم المدينة الى حي عربي وحي أوروبي ، لكي يساعد على نمو السكان الأوروبيين ، ونص أيضاً على امكان انشاء المؤسسات العامة في الحي العربي ، مما فتح المجال أمام الاستيلاء على المؤسسات الدينية وغيرها ، وضمها الى الدومين ، كما سنرى . وكان ذلك دافعاً من دوافع الهجرة ، حتى لقد قال أحد أدبائها وفقهائها ينعي هذه الهجرة :

يا أهل بلد الهوى ضعوا رحالكم   فما الرحيل عنها الاّ من الغلط[79]

وقد نزل أحد الأجانب بقسنطينة سنة 1845 فوصفها لنا بشيء من الفضول ، قائلاً : أنه نزل فيها (بفندق أوروبا) الذي كان قديماً داراً لأحد الأغنياء العرب ، وأن الفرنسيين قد أقاموا ساحة عند قصر الحاج أحمد ، وأن حاكم الاقليم قد اتخذ من القصر مقراً له ، وجعل فيه مكاتب وادارات ، من بينها المكتب العربي الذي يحكم البلاد فعلاً ، وانهم فتحوا بعض الشوارع الجديدة ، الخ . ومما أثار فضوله هناك (كما أثار فضول بوجولا في مدينة الجزائر) قوله أنه قد تلقى دعوة لحضور جنازة ابن صالح باي ، وكانت الدعوة قد وجهت الى عدد من المسيحيين أيضاً ، وكان جثمان الفقيد مسجى في الجامع ، الخ . ولكن الجديد في نظره هو طبع الدعوة وتوقيع أرملة

يتراجعون الى أعالي المدينة . وقال أن هؤلاء (الأوروبيين) سيصبحون بعد عشر سنوات هم السكان « الوحيدين » في الأحياء السفلى من المدينة ، وأن ذلك سيكون أفضل « للمستعمرة » ، أنظر كتابه (وصف حملة . . .) ، ص 208 .

(78) كنيدي (الجزائر وتونس) ، ج 2 ، ص 254 . انظر ما كتبناه عن عدد سكان قسنطينة في عهد الحاج أحمد .

(79) شارل سن ـ كالبر (المجلة الأفريقية) ، 1913 ، ص 80 . والبيت منسوب للشيخ الشاذلي القسنطيني .

الفقيد عليها ، وحضور الجنازة في المسجد . وعلق على ذلك بقوله إن هذا دليل عظيم على « التقدم » الذي قام به الفرنسيون في هذه البلاد ، وعلى الاهتمام الذي أبداه الملك الفرنسي وزوجه بالرؤساء العرب الذين أدوا له الزيارة في باريس في شتاء 1844 ـ 1845 . كما لاحظ أن أحد أقارب الميت كان يعلق على صدره وسام جوقة الشرف الذي قلده إياه الملك ، اذ كان من بين أولئك الرؤساء المحظوظين![80] واذن فإن قسنطينة في عهد بوجو لم تعد هي قسنطينة في عهد الحاج أحمد!.

وقد شهدت معظم المدن الأخرى نفس الظاهرة تقريباً ، وهي هجرة أهلها منها وحلول الأوروبيين بها . فهذه مدينة عنابة التي عرفت تحولات كثيرة منذ 1830 ، قد أصبحت سنة 1846 مدينة « أوروبية » حسب عدد سكانها . ففي السنة المذكورة كان سكانها المسلمون أقل من ثلاثة آلاف (2,961) ، بينما سكانها الأوروبيون وصلوا الى 5,736 ، أغلبهم فرنسيون ومالطيون وايطاليون[81].

إن كثيراً من الكتاب تحدثوا عن « طبقات » المجتمع الجزائري ، ووصفوا المجتمع الحضري والمجتمع البدوي خلال هذا التحول الحضاري . وتحدثوا عن سكان المدن بأنهم سكان مقيمون وبرانية أو طارئون . وان المقيمين ينقسمون إلى مسلمين ذوي تجارة وثراء ، وأصحاب حرف ووظائف ، وأهل علم ودين ، وإلى يهود يتعاطون التجارة والمالية ، وإلى أوروبيين نما عددهم منذ الإحتلال واشتغلوا بالحرف والصنائع والتجارة والمال . وبعض المدن الجزائرية كانت فيها جالية ذات أصول عثمانية يطلق عليها إسم الكراغلة ، وكان ذلك على الخصوص في العاصمة والمدية وتلمسان وقسنطينة ، رغم انه لا تكاد تخلو منهم مدينة أخرى مثل عنابة والبليدة وشرشال ومستغانم الخ . وأما سكان الريف فيقسمهم الباحثون إلى أهل الحكم وأهل الدين والرعية أو العامة . ويقولون إن هناك تنافساً على الرعية بين أصحاب الحكم وأصحاب الدين . وهم يسمون أهل الحكم بالأجواد وأهل الصف أو المحاربين ، وقد سماهم البعض بالإقطاعيين[82] . وهم يسمون أيضاً أهل الدين بالمرابطين

---

(80) كنيدي (الجزائر وتونس) ، ج 2 ، ص 231 ، 244 .

(81) بوجولا (دراسات...) ، ج 1 ، ص 264 .

(82) انظر قالبسو (الجزائر قبل الاحتلال) في مجلة الاقتصاد والمجتمع ، عدد 4 ، 1975 ص 418 ، =

والأشراف الذين لهم القداسة في قلوب الناس (العامة) والذين يتمتعون بوضع إقتصادي محترم بل ممتاز . وكثيراً ما دافع هؤلاء عن العامة ضد الحكام . وقد حاول بوجو أن يلغي فئة الحضر بالمدن بالإرهاب تارة والنفي تارة أخرى والتفقير ثالثاً وإحلال الأوروبيين محلهم رابعاً . أما أهل الريف فقد سلط عليهم الحرب القاسية فشرذمهم ومزقهم شر ممزق ، وجعل عليهم صنائع (عملاء) صنعها من ضعاف النفوس أو من الذين لم يجدوا اختياراً آخر . وذلك هو ما جعل صديق بوجو يقول إن اعتماد فرنسا على « الارستقراطية » العربية المكونة من الأشراف والمرابطين والأجواد في إدارة الجزائر سيجعلها (أي فرنسا) تتقدم جيداً في عملها الحضاري[83] .

ولكن هذه الأرستقراطية أخذت تضعف تدريجياً . ففي المدن لم يبق منها إلا عائلات قليلة العدد ضعيفة النفوذ ، رغم إحتفاظها بماضيها وسمعتها بين الناس . وفي الأرياف أدى تقدم الإستعمار (إغتصاب الأرض) والإستيطان وإلغاء المكاتب العربية ، فيما بعد ، إلى إضعاف هذه الارستقراطية . كما إن عملية الإضعاف هذه قد خطط لها بحكمة ، ففي المراحل الأولى ، ولا سيما منذ عهود بوجو ، كان الإعتماد عليها لإحتلال الجزائر إحتلالاً شاملاً بجعلها أداة للتوسع والسيطرة ، ثم أخذت الإدارة الفرنسية « تستغني » عن خدمات الأرستقراطية فجردتها من نفوذها ومن مجالات قوتها ولم تبق لها إلا على الظل . فالذي كان يحكم عرشاً كاملاً أصبح لا يحكم إلا قبيلة والذي كان يحكم قبيلة أصبح لا يحكم إلا فرقة ، وهكذا ، ثم إن العرش الواحد قد قسم بين عدة حكام أحياناً من الأسرة الواحدة وأحياناً من أسر مختلفة خلقاً للتنافس واتباعاً لسياسة « فرق تسد » . أما المرابطون فقد وقع إضعافهم

= 445 ، دراسة مكتوبة أصلاً بالفرنسية وترجمت الى الانكليزية ، وعنوانها الأصلي (الجزائر قبل الاحتلال) مطبوعات مركز الدراسات والأبحاث الماركسية ، عن الاقطاع ، (باريس ؟) . وقد رجعنا الى الترجمة الانكليزية . وكذلك دراسة فان سيفرز (الزعامة الأهلية) في المجلة الدولية . . . . مرجع سابق ، وكذلك (ملاك الأرض والزعامة السياسية الجزائرية ، 1860 ـ 1940) في (مجلة المغرب) ، عدد مارس ـ افريل ، 1979 ، ص 58 ـ 62 ، وكذلك « مجال العدل : الثورات . . . في الجزائر ، 1849 ـ 1879» في مجلة (الإنسية الاسلامية) ، عدد 1 ، 1973 ، ص 74 ـ 60 . كلها لنفس المؤلف .

(83) بوجولا (دراسات . . .) ، 142/2 .

بوسيلتين ، كما سنرى ، الأولى إدخالهم في الوظائف الإدارية بدل خدمة الدين والعلم ، والثانية توزيع الوظائف نفسها بين عدة أفراد من الطريقة الصوفية الواحدة أو من الزاوية .

ومع ذلك فإن هذه العائلات التي ضعف نفوذها المادي والعسكري والديني (أي في المدن والأرياف) قد حافظت على القيم والعادات القديمة ، وقاومت الغزو الفكري والديني ، رغم عملية الفرنسة التي عرفتها الجزائر خلال القرن الماضي . ومن تلك العائلات خرجت المعارضة الثقافية والسياسية للإستعمار الفرنسي في القرن العشرين ، مثل عائلة ابن باديس ، والأمير عبد القادر ، وابن سماية ، وابن جلول ، الخ . ونفس الشيء يقال عن عائلات الطرق الصوفية أيضاً[84] .

لو عدنا إلى كتابات الجزائريين أنفسهم عن مجتمعهم في ذلك الحين (النصف الأول من القرن الماضي) لما وجدناهم يتحدثون إلا عن نوعين منه : أهل المدن وأهل البادية . وهم لا يكادون يفرقون بين أهل المدن إلا بالدين فيقولون : هؤلاء مسلمون ، وهؤلاء يهود ، وهؤلاء نصارى . ولا يكادون يفرقون بين أهل البادية إلا بكونهم من أهل الزراعة والإستقرار ، أو من أهل الخيام والقوافل[85] . وإذا تحدثوا عن البسكري أو الميزابي أو الزواوي (القبائلي) أو الزنجي فإنما لكي يقولوا عنه انه من الطارئين على المدينة ومن الذين يقومون فيها بأعمال معينة ومؤقتة . وإذا تحدثوا عن أهل البادية فإنما لكي يصفوهم « بالأعراب » الجفاة القساة الذين لا يعرفون الإستقرار ولا يميلون إلا للغزو ، ولا يبغون التدخل في شؤونهم ، سواء كانوا من سكان متيجة أو من سكان الجبال أو من سكان الصحاري . ولكن الدارسين يعرفون إن المجتمع الجزائري ثم الريفي على العموم كان مجتمعاً قبلياً في أساسه رغم خضوعه لسلطة العثمانيين في دفع الضرائب والحرب عند الخطر ، فقد كان يؤمن

---

(84) انظر الدراسة التي كتبها لويس ماسينيون عن هذه العائلات في (مجلة العالم الاسلامي) ، المجلد 57 ، سنة 1924 ، ص 3 ـ 157 . وهي وإن كانت متأخرة عن الفترة التي نعالجها الا أنها مفيدة ، وتشير الى هذا العهد أحياناً . انظر كذلك دراسة أ . بيرك عن العائلات الجزائرية ، وقد سبقت الاشارة اليها .

(85) انظر مثلاً كتاب حمدان خوجة (المرآة) ومذكرات بوضربة والحاج أحمد وكتاب المشرفي (طرس الأخبار) وكتاب المزاري (طلعة سعد السعود) . . .

بوحدة العرش والولاء للقبيلة والطاعة للشيخ والمرابط . وكانت بين المدينة والريف علاقة مصالح إقتصادية أكثر منها علاقة احترام أو ولاء سياسي. وقد إستغل بوجو هذا النفور التقليدي بين المدينة والريف وبين المرابط والقايد ، والتنافس على السلطة بين قيادات الأعراش والقبائل ، وبين الفئات الإجتماعية في المدن ، استغل ذلك ليجعل منه خلافات حادة بل قاتلة ، وصراعاً دموياً يحقق من ورائه أهدافه في السيطرة والتحكم .

ولقد شمل التدمير الحضاري أو الإحتلال المعنوي ، كما سماه البعض ، الأوقاف الإسلامية والأملاك الدينية والمساجد والزوايا والمدارس وغيرها . وسنخصص نحن فصلاً لذلك في كتابنا الثقافي ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى الإجراءات والقرارات التي أصدرها بوجو لاحتلال المقدسات الدينية أيضاً والسطو على أملاكها التي تعتبر في نظر المسلمين محرمة . لقد سال لعاب الفرنسيين منذ كلوزيل (1830) لأموال الأوقاف . وظلوا يتحايلون للإستيلاء عليها بشتى الطرق . وحين اتسع طغيانهم وتمكن بأسهم افترسوا الأملاك العقارية التابعة للوقف وضموها للدومين . وقد اتخذ ذلك عدة مراحل أشرنا إلى بعضها من قبل . والمعروف ان من تلك المراحل القرار الذي ينص على جعل أوقاف مكة والمدينة وبيت المال والعيون ، تحت الدومين (أملاك الدولة) ولكن بإدارة إسلامية أي تحت نظر «الوكلاء» كما كان الحال في العهد العثماني، غير ان الفرق هو ان الوكلاء لم يعودوا مستقلين بل أصبحوا يخضعون لمحاسبة وتعيين وعزل الدومين نفسه . أما في عهد بوجو فقد ضمت إلى تلك العقارات أيضاً أوقاف الجامع الكبير الكثيرة (1843) ، وكذلك جميع المؤسسات الدينية الأخرى (مساجد ، زوايا ، مقابر ، قباب الخ .) سواء كانت في المدن أو في الأرياف . كما يدخل تحت الدومين كل مصاريف ومداخيل تلك المؤسسات . وهذا بذاته هو المصادرة . ولكن هذه المصادرة لم يتبعها تعويض في أي شكل من الأشكال لا للوكلاء الذين يعيشون منها ، ولا للورثة (ورثة الواقفين الخ .) ولا للمستفيدين منها . وهناك قرار آخر اتخذ بعيد مغادرة بوجو الجزائر (سنة 1847) ، وهو ذلك الذي نص سنة 1848 على إلغاء وظيفة الوكيل المسلم على الأوقاف ، وجعل كل الأوقاف الدينية وغيرها تدخل تحت أملاك الدولة مباشرة وبدون واسطة .

ويذكر الباحثون ان هناك عدة تواريخ هامة مرت بها عملية مصادرة الأملاك العقارية الدينية . من ذلك قرار سنة 1839 القاضي بأن الملكية على ثلاثة أنواع : ملكية (دومين) وطنية ، وملكية إستعمارية ، وملكية مصادرة . كما نص القرار على ضرورة التعويض عند الهدم ، ولكن التعويض لم يطبق أبداً . وفي سنة 1843 صدر قرار من بوجو يطرد المفتي المالكي (الكبابطي) ويصادر أوقاف الجامع الكبير فكان الجامع الكبير (وكذلك مدرسته وزاويته الخ .) أول مؤسسة دينية تخضع للمصادرة ، بدون تعويض[86] . ثم ابتداء من سنة 1848 أدخلت كل المؤسسات الدينية تحت مصلحة أملاك الدولة ، أي صودرت ، ولم يدفع عنها أي تعويض أيضاً . وقد أصبحت كل مدخولات هذه المؤسسات تذهب لا إلى الفقراء والمساكين والتعليم والعلماء والغرباء والصيانة الخ ، كما نصت الأوقاف ، ولكن أصبحت تصب في ميزانية الدولة أو فرع منها يسمى الميزانية المحلية . وقد عرفنا أن أهمية هذه المصادرة لا ترجع فقط إلى الأموال التي تدخل ميزانية الدولة ، ولكن ترجع أيضاً إلى كون تلك الأملاك العقارية الدينية لم تعد حكراً على المسلمين، بل للدولة أن تتصرف فيها بالبيع والشراء ونحوه . وبذلك أصبحت الأملاك مفتوحة للأوروبيين الذين أوسعوها هدماً وتغييراً لكي تناسب حاجتهم التجارية والصحية الخ . وفي ذلك تمكين قوى لحركة الإستيطان والإستعمار .

وقد جاء في الإحصاءات الرسمية لمداخيل الأوقاف قبل مصادرة أملاك الجامع الكبير وغيره ، أي قبل 1843 ، فكانت تشير إلى مداخيل ضخمة وفرها بوجو لمصاريفه الحربية في الجزائر ، بدل أن تذهب في التعليم الإسلامي وإغاثة المنكوبين والفقراء . إن صاحب الإحصاء فخور بهذا المال الوفير ، ولكنه نسي ان المدارس قد تعطلت في عهد بوجو ، وان العلماء قد غادروا البلاد ، وان معين العلم كان ينبض يومياً ، كما لاحظ دي طوكفيل ، وان الفقراء والمعوزين كانوا يتهاطلون على المدن بحثاً عن لقمة العيش وهروباً من دمار الحرب ، كما لاحظ بوجولا . وهذه هي الإحصائية التي توضح ان بوجو قد وفر للميزانية الإستعمارية من الأوقاف

---

(86) انظر اوميرا (المجلة الأفريقية) ، 1899 ، ص 190 . عن أنواع الوقف انظر ما مضى وقد كنا عددنا منها حوالي سبعة أنواع .

الإسلامية أكثر من سبعين ألف فرنك في سنة واحدة .

السنة :	مداخيل الوقف :
1837	126,705,25 فرنك
1838	144,914,66 فرنك
1839	149,273,52 فرنك
1840	189,318,95 فرنك
1841 (بداية عهد بوجو)	196,085,62 فرنك
1842	217,998,35 فرنك

يضاف إلى ذلك باقي حساب ابتداء من

يناير 1837 ، وهو	13,617,90 فرنك
فيكون المجموع :	1,035,914,25 فرنك

وبعد الصرف منه على الإدارة والديانة الإسلامية (ولم يقل الإحصاء كم ولا كيف صرفت المبالغ على الديانة الإسلامية) ، بقي للميزانية الإستعمارية : 72,000,30 فرنك[87] .

ولا شك أن ذلك نوع من السطو على حقوق الغير . فالمبلغ الفائض كان بمقتضى الشريعة سيستعمل فيما نص عليه الواقف ، لا أن يذهب إلى الميزانية الاستعمارية (وكانت تسمى رسمياً الصندوق الاستعماري ـ كولونيال) ليصنع منه مدافع وبنادق تخرب بيوت المسلمين ومساجدهم ، كما اننا عرفنا ان الذين صادروا الأوقاف لم يعوضوا أصحابها ، فكان عملهم ضرباً من اللصوصية وأكل أموال الناس بالباطل .

ولم يكتف بوجو بمصادرة عقارات الوقف ، بل انه حمل المعول وهدم مؤسسات دينية عديدة في شتى أنحاء الجزائر ، أو باعها للأوروبيين فهدموها وبنوا مكانها ، وتداولوها بالكراء ونحوه . وتطول القائمة لو أننا حاولنا ذكر المؤسسات (مساجد ، زوايا ، قباب الخ .) التي تصرفت فيها ادارة بوجو تصرف المستهتر

---

(87) انظر (طابلو) سنة 1842 ، ص 298 ـ 299 .

بأملاك غيره . ولذلك سنكتفي بأمثلة تاركين التفصيل لكتابنا المشار إليه ، ومحيلين على بعض المراجع لمن أراد الرجوع إليها[88] .

فمن المساجد التي جرى هدمها أو بيعها أو كراؤها في عهد بوجو نذكر : جامع سيدي الرحبي ، من المساجد الهامة التي كانت موجودة منذ القرن السادس عشر إذ تحدث عنه هايدو الاسباني عندئذ . ومسجد الشماعين ، ومسجد علي خوجة الذي يعرف أيضاً بمسجد سيدي بتقة ، ومسجد صباط الحوت ، والمدرسة التي معه ، وجامع القائد علي ، الذي أعطي للجمعية التبشيرية المعروفة باسم (أخوات القديس يوسف) الخ . وهي جميعاً في مدينة الجزائر[89] . ووقع نفس المصير لزوايا مدينة الجزائر التي كان بعضها يستعمل للتعليم وايواء الفقراء والغرباء ، فمن ذلك زاوية المولى حسن ، وزاوية شختون ، وزاوية الأندلسيين ، وزاوية الشبارلية ، الخ . وكذلك الحال بالنسبة للقباب أو أضرحة الأولياء التي تكون عادة محاطة أيضاً بمقبرة لأموات المسلمين : ومنها قبة سيدي بتقة (أبي التقي) التي كانت تضم أيضاً مسجداً بدون منارة ، وزاوية لها غرف للمرضى والعجزة والفقراء ، وميضاة ، وحمام بارد ومقبرة ، وقبة سيدي السعدي التي يتبعها مسجد بدون منارة ، ومسكن ، الخ . (ولعل اسم السعدي هو نفس المرابط الذي ينتمي اليه الحاج علي السعدي الذي رأيناه مجاهداً نحو ثلاث عشرة سنة ، اثر دخول الاحتلال ، في متيجة وبلاد القبائل[90] . وقد اتبعت نفس السياسة نحو المؤسسات الدينية الاسلامية في المدن الأخرى[91] .

وفي مقابل هذا الهدم والتخلص من المؤسسات الاسلامية التي كانت توفر

---

(88) من ذلك كتاب ديفوكس (المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر) ، وكلاين (أوراق الجزائر) ، ومقالات أوميرا في (المجلة الأفريقية) ، الخ .

(89) انظر أوميرا (المجلة الأفريقية) ، 1898 ، ص 181 .

(90) انظر عنه ما مضى ، وقد جعله الأمير خليفة عنه في ناحية سيباو وبرج حمزة قبل الشيخ أحمد الطيب بن سالم .

(91) عن مساجد قسنطينة ، انظر شيربونو (قسنطينة وآثارها) في انوير - روكاي ، 1853 ص 122 . وكذلك أرشيف ايكس 23 II فيه تقرير يعود الى سنة 1849 . وعن مساجد بجاية انظر مقالة عنها في (المجلة الأفريقية) ، 1858 ، ص 458 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

العلم والرزق والمأوى لأهلها ، لم تعوض سلطات بوجو ذلك بمؤسسات « حضارية » من بلاده ، كما كان يدّعي هو وأنصاره ، بالعكس فإن المال الفائض من الأوقاف والذي كان المفروض أن يستثمر في تعليم المسلمين وإيواء فقرائهم الخ . وجدناه قد تحول إلى الصندوق الاستعماري ، ليستعمل في ضرب الجزائريين عسكرياً ومدنياً ولذلك فإن عهد بوجو الذي عرف بأنه عهد الحرب الشاملة ضد المقاومة كان عهد الظلام بالنسبة للتعليم والثقافة . فقد حولت الأموال المخصصة لهذا الغرض عن مقاصدها، وهدمت أو بيعت مؤسسات التعليم، وافتقر الوكلاء والعلماء والطلبة، وهجرت المساجد والمدارس ، وهاجرت العائلات الوجيهة من المدن ، وهكذا . فلم يكن غرض المائة ألف جندي الذين أطلقهم بوجو لنهش لحم الجزائريين هو نشر الحضارة والعلم وروح الانسانية ، كما تبجح بذلك جول كامبون ومحادثه الرئيس الأمريكي بعد خمسين سنة من عهد بوجو[92] .

حقاً لقد شجعت إدارة بوجو دراسة العربية الدارجة للفرنسيين حتى يفهموا الجزائريين ويتعرفوا على أفكارهم ونواياهم ، وتجند عدد من المرشحين للمكاتب العربية الإدارية ـ التجسسية لإتقان اللغة الدارجة . وكان بريسنييه هو صاحب هذا الكرسي في مدينة الجزائر . وقد ربط الفرنسيون بين نجاح مهمتهم في الجزائر وبين اتقان العربية ، ولاحظوا أن المترجمين الذين اعتمدوا عليهم عدة سنوات بعد الاحتلال قد أساؤوا إلى مهمة الفرنسيين في الجزائر . حتى ان الدوق اورليان نسب نجاح مرور الجيش براً من قسنطينة إلى الجزائر سنة 1839 إلى كون الجيش أصبح يفهم العربية ولم يعد في حاجة إلى المترجمين . وقال إن معرفة العربية ضرورية للفرنسيين حتى تقربهم من السكان . ولكنه لاحظ أيضاً أن الخمر أيضاً وسيلة أخرى لهذا الغرض وان العمل في هذا الميدان قد تقدم فعلاً ![93] .

وللقيام بهذه المهمة (الترجمة ، ومعرفة العربية) أسس الفرنسيون كما عرفنا ، معهداً في باريس سنة 1839 ، أطلقوا عليه اسم (الكوليج العربي) . ومن بين مهامه أيضاً تكريم أعيان الجزائر المرخص لهم بزيارة فرنسا ، وإعطاء « تعليم خاص »

---

(92) انظر بداية الكتاب .

(93) الدوق أورليان (وصف حملة . . .) ، ص 258 .

بالأطفال العرب (أي الرهائن الذين تحدثنا عنهم) الموضوعين تحت رقابة رجال ثقاة وتقاة ، على أن يعلمهم أساتذة فرنسيون . أما المهمة الرئيسية للمعهد المذكور فهي الترجمة من العربية الدارجة الجزائرية بحيث يتخصص فيها شبان فرنسيون ، وبذلك يصبح المعهد ، حسب تعبير مؤسسيه « مشتلة » للمترجمين المقدر لهم العمل في الجزائر[94]. وقد ذكرنا سابقاً أن أول مدرسية عربية ـ فرنسية تأسست في سنة 1836 ، وان مثيلاتها لم تكثر طيلة العشرين سنة التالية ، حتى ان إحصاء سنة 1850 لا يذكر سوى ست مدارس من هذا النوع . أما (كوليج الجزائر) الفرنسي فلم يدخله أطفال الجزائر إلا بعد سنوات من انشائه (انشىء سنة 1836)[95] . وفي سنة 1844 قدم ليون روش ، مستشار بوجو في الشؤون الجزائرية ، قدم له تقريراً تضمن مقترحاً بإنشاء (كوليج عربي) في الجزائر على غرار المعهد الموجود في باريس.

وقد استمر العمل في اللجنة العلمية التي تأسست سنة 1837 . وأخرجت عدة مجلدات مفيدة . ولكن عمرها لم يطل إذ سرعان ما توقفت . ويبدو أن توفير كل الجهود للحرب الشاملة والتجند لخدمة المكاتب العربية في الميدان ، كان وراء وقفها ، حتى التقدم في إنشاء المكتبة العامة لم يلاحظ في زمن بوجو . فنحن لا نعرف إلا انها انتقلت في نهاية عهده ، سنة 1848 ، إلى مكان أوسع من ذي قبل . فقد كانت المكتبة منذ عشر سنوات خلت (منذ 1838) في باب عزون في قاعة بناها ابراهيم آغا ، صهر حسين باشا ، سنة 1828 ، أما المتحف التابع للمكتبة فقد خصص له قاعة أخرى بجانب الأولى ، كان قد بناها يحيى آغا . ولكن في سنة 1848 نقلت المكتبة والمتحف إلى دار أندلسية خاصة من طراز عال (كلف بناؤها قبل الاحتلال 500 ألف فرنك) ، وهي الدار التي كانت من قبل مقراً للقنصلية الأمريكية . ولكن المكتبة لم تكن مفتوحة للجزائريين ، فهي رغم عموميتها كانت خاصة بالباحثين الفرنسيين الذين يهمهم أمر الاستعمار والإطلاع على شؤون البلاد . فهي ليست مكتبة علمية ـ ثقافية ، كما قد نتصور اليوم.

---

(94) انظر (طابلو) سنة 1838 ، ج 1 ، ص 116 .

(95) انظر مارسيه في (مؤتمر شمال أفريقية) ، الثاني ، باريس ، 1908 ، ص 184 . وكذلك ارشيف ايكس ، F80,1732 .

وتذكر الإحصاءات الصادرة خلال عهد بوجو بعض الصحف والمسارح وغيرها من مستحدثات العهد الاستعماري في الجزائر . وقد كانت الصحف على نوعين : صحف موجهة الى الجزائريين ، وهذه تصدرها الإدارة بإشراف المكتب العربي ، وهي إما بالعربية الركيكة أو باللغتين . ومن هذه (المونيتور ألجيريان) التي تحولت إلى (المونتيور دي لا لجيري) ، واستمرت إلى 1890 ، ثم جريدة (الأخبار) - بالفرنسية - التي طال أمدها والتي كانت تصدر مرتين في الأسبوع في أربع صفحات[96] ، وجريدة (المبشر) التي صدرت باللغتين في طبعتين مختلفتين سنة 1847[97] . وكان الهدف من هذا النوع من الصحف توصيل تعليمات وأوامر الإدارة الاستعمارية إلى الجزائريين في الأسواق وعند إدارتهم المحلية - أي نشاط الاغوات والقياد والقضاة الخ . وكذلك كان هدفها إرهاب البعض وتخدير البعض ، وكسب تأييد أكبر عدد ممكن من الجزائريين ، وتفريق شملهم وتشويش عقائدهم الدينية والوطنية . ولذلك كانت (المبشر) مثلاً توزع وتقرأ مجاناً في الأسواق ، أما السلطات الجزائرية المحلية فقد كانت مُجْبَرَة على الاشتراك فيها.

أما النوع الثاني من الصحف فهو الذي صدر بالفرنسية والذي كان خاصاً بالفرنسيين ، الذين استوطنوا الجزائر ، وكذلك الاداريين والجيش الخ . ومن هذا النوع ما كانت تشرف عليه الإدارة للدعاية لنفسها وحماية سياستها والرد على المهاجمين لها من المعارضة ، مثل صحيفة (الجزائر الفرنسية) التي أسسها بوجو لتكون لسان حال إدارته وجيشه . وهناك ما هو صحافة خاصة أسسها المستوطنون على غرار صحف بلادهم الأصلية .

أما المسارح فتذكر الإحصاءات ان مدينة الجزائر كان بها سنة 1843

---

(96) حسب احصاء سنة 1843 . والمعروف أن (الأخبار) بهذا الاسم ، كانت تصدرها الولاية العامة أيضاً ، ابتداء من 1839 ، وقد أنشأت سنة 1903 (عهد جونار) ملحقاً بالعربية ، كان يشرف عليه عمر بن قدور الجزائري . واستمرت في الظهور الى سنة 1924 ، ومن أبرز مسؤوليها فيكتور باروكان ، الليبرالي الالزاسي .

(97) تعتبر ثالث صحيفة عربية في العالم العربي . صدرت سنة 1847 واستمرت الى 1926 . وظهر في هيئة تحريرها عدد من الصحفيين الجزائريين رغم أن مسؤوليها كانوا دائماً مستشرقين فرنسيين انظر محمد ناصر (الصحف العربية الجزائرية)، الجزائر 1980 ، ص 19 . وكذلك فيليب دي طرازي (تاريخ الصحافة العربية) ، ط . دار صادر ، 1967 ، ج 1 ص 51 - 53 .

مسرحان ، أحدهما يسمى (المسرح الكبير) والثاني يسمى (مسرح المنوعات)[98] . ولا شك ان قسنطينة قد شهدت أيضاً ميلاد المسرح الفرنسي . أما المدن الأخرى فلا نظن انها عرفت المسرح إلّا بعد عهد بوجو . ومهما كان الأمر فإن المسرح كان ، مثل المكتبة والمتحف ، مخصصاً للفرنسيين وليس للجزائريين .

8. التحدّي الأعظم:

بينما كان الأمير يرغب في تمديد أجل الصلح مع الفرنسيين كان هؤلاء يبذلون جهدهم ، على يد الحاكم العام المارشال فاليه ، لنقض الصلح واستئناف الحرب . وقد شجعهم نجاحهم في قسنطينة على ذلك . وبعد أن اجتاز فاليه وقطعة من جيشه أراضي الأمير بين قسنطينة والجزائر ، أصبحت الحرب لا مفر منها ، خصوصاً وأن الفرنسيين لم يسترخصوا منه ولم يعتذروا اليه ، وإنما تحدوه واستفزوه لاعلان الحرب . وقد رأينا أن الأمير جمع مجلسه واستشارهم في الأمر ، فكان ردهم اعلان الجهاد من جديد ، رغم أن الأمير ، فيما يبدو ، كان يميل الى اطالة أمد الصلح .

دامت الحرب هذه المرة بين المقاومة بقيادة الأمير وبين المحتلين الفرنسيين بقيادة فاليه ثم بوجو من نوفمبر 1839 الى ديسمبر 1847 . إنها تقريباً نفس المدة التي استغرقتها حرب التحرير من سنة 1954 الى 1962 ، وهي الحرب التي كانت تمثل الرد الحاسم على ما قيل انه انتصار بوجو على الأمير أو انتصار الاستعمار على المقاومة الشعبية الوطنية . لقد كان الفرنسيون الى 1839 محصورين في الشريط الساحلي للجزائر ، ولم يحتلوا من المدن الداخلية الهامة عندئذ الا قسنطينة . وكان عدد الأوروبيين لا يتجاوز الخمسة والعشرين الف نسمة ، كانوا يعيشون في رعب تحت حماية بنادق جيش مؤلف من اربعين الف جندي مسلح بأحدث أنواع الأسلحة . أما بقية الوطن (أكثر من الثلثين في الشمال وحده) فقد كان تحت سيطرة وسيادة الأمير . غير أنه في نهاية الحرب مع العدو (ديسمبر 1847) عرفت الجزائر وجود مائة ألف جندي محتل ومعهم أسلحتهم الحديثة وأجهزتهم ، يعززهم مائة وأربعة آلاف أوروبي أكثر من نصفهم فرنسيون ، كانوا قد انتشروا في الأرض

---

(98) ج . موريل ، (الجزائر) ، ص 92.

كالغربان يأكلون ما تركه لهم الجيش من جثث وفضلات الجزائريين .

كان رد الأمير على اجتياز أراضيه بدون اذنه من قبل العدو ، هو الهجوم الناجح الذي شنته قواته على الحاميات الفرنسية والمستوطنات الأوروبية في سهل متيجة خلال ديسمبر 1840 . ان هذا الهجوم القوي قد أدى الى تدمير مزارع ومؤسسات الاستعمار في المنطقة والى هروب الكولون منها الى مدينة الجزائر للاحتماء . كما هوجمت المواقع العسكرية الفرنسية ، حتى في المدن التي كانت تحت الاحتلال . وبلغت قوة وجرأة المقاومة عندئذ أن هاجم زورق حربي جزائري كان في شرشال سفينة فرنسية تجارية واستولى عليها واحتجز محتوياتها . وكانت هذه الهجومات الناجحة قد قوت من عزم المقاومة وأنعشت الآمال في النصر ، ورفعت سمعة الأمير عالياً . ويقول بعض الباحثين أن جزءاً من نجاح الأمير خلال هذه الأثناء يعود الى ابقائه على خطوط المواصلات مع الخارج ، خصوصاً فيما يتعلق بتوريد الأسلحة من جبل طارق عن طريق المغرب . وهكذا وصل الى قمة مجده في مارس 1840 ، وجاءته الوفود الموالية والمبايعة من مختلف أنحاء القطر.

ولكن بالمقارنة الى استعدادات العدو الجديدة وامكانياته هو نجد أن تغلبه في الميدان كان شبه مستحيل ، رغم أنه كان لا يعرف المستحيل . فبينما كانت قواته في السنة المذكورة (1840) قد بلغت أوجها ، حتى وصلت ثمانين ألف مجاهد ، فإن هذه القوات كانت في أغلبها احتياطية ، غير منضبطة وغير متدربة التدريب الكافي وغير مسلحة تسليحاً جيداً ؛ بالاضافة الى ذلك فإن قوات العدو وصلت في عهد فاليه الى حوالي ستين ألفاً . وفي عهد بوجو الى مائة ألف ، كما ذكرنا ، وكانت هذه قوات نظامية ، ومسلحة بأسلحة حديثة . ومن نقاط الضعف التي ترتبت على ذلك بالنسبة للأمير أن قواته لا تقدر على حرب المواجهة ، ولذلك لجأ الى حرب العصابات ، والكر والفر ، وأعطى تعليمات صارمة لخلفائه في هذا الشأن ، خصوصاً بعد الهجوم الكبير الذي شنوه على البليدة (ديسمبر 1840) . كما أن تجارة الأمير تضررت باستئناف الحرب ، اذ توقفت مع المدن المحتلة . كما انحصرت التجارة الداخلية في الأسواق المحلية ، وبذلك نضبت موارد الدخل عنده(99) .

---

(99)انظر دانزيقر (عبد القادر . . .) ، ص 225 .

وخلال عهد فاليه استطاع العدو أن يحقق بعض النجاح ولكنه سرعان ما توقف محاولاً دعم « مكتسباته » خوفاً من عواقب وخيمة لو طمع فيما هو أبعد منها . وقد فعل فاليه ذلك رغم الامدادات المتتالية من بلاده ، مالياً وعسكرياً ، بعد أن قررت حكومته التوسع الاستعماري ولو بابادة الجزائريين . فقد احتل فاليه عدة مدن كانت الى سنة 1840 تحت سيادة الأمير ، وهي شرشال والمدية ومليانة ، وترك في كل منها حامية تحافظ عليها « فرنسية » حتى لا يعود اليها جيش الأمير.

والمعروف أن الأمير وخلفاءه قد أخلوا هذه المدن من السكان ، ليلة الهجوم عليها ، كما جرت العادة، حتى لا يظفر العدو بمن يسانده ، وقع ذلك بين مارس ويونيو 1840 ، ولكن بقية السنة شهدت نوعاً من التوقف للحرب . وقد فسر بعضهم ذلك بأنه عجز من فاليه على مواصلة الحرب فعزلته حكومته وعينت بدله بوجو.

وصل بوجو الى الجزائر في فبراير 1841 ، وكان يحمل وراءه ذكريات معاهدة التافنة وواقعة الزقاق ، وكان نائباً في البرلمان الفرنسي ومن المدافعين عن الاحتلال الشامل والحرب المبيدة . وقد طلب المدد فضاعفوه له وطلب المال فوفروه لـه ، ووعدهم بتحقيق المهمة مهما كانت الوسائل فباركوه . وكان تحت إمرته عند وصوله أكثر من خمسة وسبعين ألف جندي مدججين بالسلاح الحديث ، ومسرحين لتجربة أية طريقة في الجزائر ضد المقاومين ، بما في ذلك القتل الجماعي بالدم البارد كما وقـع في مجزرة غـار الفـراشيش ، وأراد بـوجـو أن يـدشن عهـده بتحقيق انتصـار استعراضي ، وهو الاستيلاء، بل وتخريب مراكز القوة عند الأمير . وهكـذا هاجم بوجو في ماي 1841 عاصمتي الأمير الجديدة والقديمة : تاكدامت ومعسكر . أما الأولى فقد خربها ، بما فيها التحصينات والمصانع ، وأما الثانية فقد احتلها وترك فيها حامية . وكلتا المدينتين كانت خاوية من السكان لأن الأمير أمر باخلائهما . ومن جهة أخـرى قام فـريق من جيش بوجـو باحتـلال بوغـار وتـازة اللتين تشكـلان نقـطتين استراتيجيتن لمواصلات الأمير ، وقامت الفرقة كالعادة بتخريب المدينتين وما فيهما من مصانع وتحصينات . ولكي يشبع بوجو حقده على الأمير ويقضي على رمز من جهاده ، قام شخصياً بمهاجمة القيطنة ، مسقط رأس الأمير ، وخربها بعد أن وجدها خاوية . تلك حصيلة بوجو خلال سنته الأولى حاكماً عاماً في الجزائر.

وهذا الاحتلال والتخريب كان له وقع على الأمير ، ولكنه لم يثنه عن جهاده أو

يفت في عضد أصحابه . فبالرغم من أن الهجوم على المدن العزلاء من السلاح والدفاع وتخريبها قد اضر بنظام الأمير عموماً، خصوصاً ما في تلك المدن من مصانع وما فيها من قوة رمزية كقاعدة لخلفائه ، فإن الجيش الذي كان معظمه في المناطق الداخلية لم يتأثر كثيراً بهجومات العدو على المدن . والأقاليم الثمانية التي نظم الأمير بمقتضاها حكومته قد تأثرت أيضاً اذ جعلت الخليفة الذي احتلت عاصمته ينتقل بمن معه الى الداخل . كما أن تجريد الأمير من عاصمة مركزية يتدعم بها ويتحصن قد جعله يلجأ الى طريقة أخرى ، وهي إقامة عاصمة متنقلة مكونة من خيام ، وتسمى الزمالة . إن الأمير قد واجه مشكلاً آخر ، وهو أن اللاجئين الذين خرجوا من المدن التي احتلها العدو والذين بلغ عددهم اكثر من ثلاثين ألفاً ، لم يجد لهم حلاً الا بإقامة هذه العاصمة الجديدة ، ذلك أن توزيعهم على أنصاره الآخرين لم يحل المشكل الا مؤقتاً فقط . ولكن هذه العاصمة الجديدة التي أقامها الأمير عند نهر الشلف ، جعلت إدارته المركزية تتضرر ويفقد سيطرته الكاملة على بعض القبائل.

ورغم محاولات الأمير اللجوء الى الدبلوماسية ، فإن بوجو قد لجأ الى محاولة رَشْوِ خلفاء الأمير حتى يتخلوا عنه ، مقابل دراهم معدودات والوعد بالإبقاء في وظائف سامية تحت المظلة الفرنسية[100] . وبالطبع كان الأمير على علم بهذه المفاوضات التي عمل على اطالتها كجزء من كسب الوقت لتوفير السلاح والاتصالات الدبلوماسية مع الانكليز والعثمانيين ، بعد أن فشلت جهوده مع الفرنسيين ، كما سنرى . وانتهت جهود بوجو طبعاً بالفشل لأنه لم يجد من يشتري ذمته بدراهمه . وعادت الحرب كأشد ما تكون بين الطرفين . وتذهب بعض الروايات الى أن فشل الأمير عسكرياً ودبلوماسياً سنة 1841 قد جلب له التأييد الشعبي في وطنه لأنه قد أصبح في نظر الناس زعيم الجهاد الشرعي لا رئيس دولة فقط ، حتى أن الزعماء الذين عارضوه أو تخلوا عنه من قبل عادوا جميعاً اليه ، وكذلك القبائل التي كانت نافرة منه[101] . والى نهاية سنة 1841 كانت الكفة العسكرية مائلة جهة المقاومة ،

---

(100) نفس المصدر ، ص 227 ، بناء عليه فإن بوجو خصص مبلغ 500,000 فرنك لهذا الغرض ، وأنه فاوض بذلك الخلفاء : البركاني (المدية) ، وابن علال (مليانة وشرشال) ، وأحمد الطيب بن سالم (حمزة - بلاد القبائل) .

(101) نفس المصدر ، ص 228 ، نقلاً عن تقرير ماسو Massot . حول دولة الأمير سنة 1841 ، انظر أيضاً =

رغم ما استعمله بوجو وجيشه من أساليب البطش وحرق المحاصيل وحتى « تقليب الأرض» .

وتجلت هذه الخطة العسكرية في نهاية السنة المذكورة وبداية 1842 متوافقة مع الخطة الأخرى المدنية القائمة على النفي والمصادرة والطرد الخ . لقد تمثلت الخطة العسكرية الجديدة في عدم الاكتفاء باحتلال المدن وتخريبها ، كما جرى ذلك سنة 1841 ، بل في احتلال الأراضي الداخلية التي لم يدخلها الفرنسيون من قبل ، واخضاع القبائل والاعراش بالقوة والقهر أو تدميرها تماماً ، ما دامت تؤيد أو تتعاطف مع المقاومة وزعيمها . وانطلاقاً من هذه الخطة انطلقت الجيوش العدوة من معسكر ووهران ومستغانم في ديسمبر 1841 ، لتقمع السكان في هذا المثلث وتخضعهم ، فكان أهل البرجية من أوائل المخضعين بالقوة وأصبح بعضهم يعملون مخزناً للعدو . أما بوجو نفسه فقد نزل على تلمسان في فبراير 1842 فاذا هي خاوية على عروشها اذ خرج سكانها عن بكرة أبيهم . وتلا ذلك احتلال حصن سبدو الواقع جنوب تلمسان ، ثم احتلال مدينة ندرومة . وقد أحس الأمير بتضييق الخناق عليه ومطاردته شخصياً فعبر الحدود الى المغرب.

وبعد أن جند عدداً من القبائل المغربية دخل بهم الجزائر وحارب الفرنسيين من جديد ، ولكن هؤلاء ضغطوا عليه وحاصروه حتى يتاح لهم فتح طريق بري بين وهران والجزائر ويفرضوا حكمهم على المناطق الداخلية التي كانت من قبل في حوزة الأمير . وأثناء هذه العملية التي جرت في ربيع 1842 استطاع العدو أن يعبر ثانية الى تاكدامت وأن يخرب ما بقي منها وأن يستولي على القوجيلة حيث خزن الأمير مؤونته بعد خروجه من تاكدامت . ولكن الأمير استطاع خلال الصيف أن يزعج قوات العدو في المنطقة ، خصوصاً ناحية معسكر ، كما عاقب الذين خضعوا الى الفرنسيين من قومه ، وأن يفرض سلطانه على المنطقة من جديد ، بعد أن حسب الفرنسيون أنه اختفى بل أشاعوا عنه أنه قتل.

وقد شهد خريف 1842 معارك ضارية بين قوات العدو والمقاومة ، خصوصاً

= اسماعيل العربي (المقاومة الجزائرية . . .) الفصل الحادي عشر ، وكذلك تشرشل (حياة الأمير عبد القادر) ، الفصل 17 .

ناحية الونشريس وحمزة والمناطق المحيطة بمستغانم والمدية ومعسكر . وأدى ذلك إلى إخضاع السكان بالقوة والإرهاب ، وإلى تخريب الإقتصاد عن طريق إتلاف المحاصيل الزراعية والحيوانات وتشريد الناس من أماكنهم . كما تناقص عدد السكان بالقتل والنفي والهجرة إلى الخارج . وبعد هجوم الفرنسيين على ناحية حمزة وانضمام الآغا ابن زعموم إلى الفرنسيين ، واجه خليفة الأمير أحمد الطيب بن سالم صعوبات كبيرة . ورغم هذا التقدم العسكري الظاهري للعدو على حساب المقاومة فإن الأمير كان قادراً في كل مرة على الظهور من جديد ومفاجأة العدو أثناء رجوعه إلى قواعده في الشمال وتكبيده خسائر فادحة ، واستعادة سيطرته على السكان الذين ظن (العدو) أنه أخضعهم بالقوة . ولم يمنع الشتاء القارس (1842 ـ 1843) الأمير من النشاط العسكري الدائم ضد العدو وبسط نفوذه على السكان .

وخلال سنة 1843 أنشأ العدو خطوطاً ودعم الخطوط القديمة للدفاع والحضور الإستعماري . فبالنسبة للخط القديم أنشأوا مدينة الأصنام (الشلف اليوم) لتربط بين خط وهران ـ مستغانم والجزائر ـ قسنطينة . واحتلوا مدينة تنس التي كانت آخر مرسي في يد الأمير ، وجعلوها هي مركز تموين الأصنام . ثم عادوا إلى الخط الدفاعي الذي كونه الأمير جنوب التل وأحيوه وحصنوه ، وهكذا احتلوا تيارت (تيهرت) وبوغار وثنية الأحد ، وجعلوها قواعد محمية على أبواب الصحراء .

ولكن هذه السنة (1843) شهدت خسارة كبيرة للمقاومة ، وهي وقوع الزمالة أو عاصمة الخيام المتنقلة ، في يد العدو ، وذلك خلال 16 مايو . وتقول الروايات أن الدوق دومال ، أحد أبناء الملك لويس فيليب ، قد فاجأ الزمالة وهو على رأس 600 من الفرسان ، كما تقول ان عدد من كان بالزمالة بلغ ثلاثين ألف نسمة وان المدافعين عنها كانوا خمسة آلاف . ومن بين من كان فيها عائلات الأمير وخلفائه وخزينته وكتبه ووثائقه وبضائعه ، بالإضافة إلى الذخائر والحيوانات والمؤونة . ويذكرون أن عدد القتلى من الجزائريين بلغ ثلاثمائة وان عدد الأسرى بلغ ثلاثة آلاف ، وأن الباقين قد شردوا تشريداً وأجبروا على الإقامة في محتشدات العدو ؛ ومن بين الأسرى نساء الخلفاء والكتبة وأولادهم . والمعروف ان العدو لم يكن « ليفاجأ » الزمالة لو لم يخبره أحد المنبوذين بتحركاتها أولاً بأول . وقد غنم العدو كل ثروة الأمير ، التي هي ثروة المقاومة كلها : أموالاً ، وحيوانات ، وحلي ، وتموينا ،

ومكتبة ، وأسراراً ، بالإضافة إلى الوقع المعنوي الذي تركته على الشعب . ذلك ان عدداً من السكان شعروا بالخطر يحدق بهم وان سلطة الأمير لم تحمهم عندئذ فقبلوا بالأمر الواقع ، ولو مؤقتاً . وأثناء المعركة التي دارت بين المدافعين عن الزمالة وبين العدو ، سقط « الجنرال » مصطفى بن إسماعيل قتيلاً ، ذلك الإنسان الذميم الذي أعماه اللّه عن الحق رغم تجاوزه السبعين سنة ، فكرس حياته لخدمة العدو منذ حلوله بوهران . وكأني بروحه الشريرة قد حلت في علي شكّال في عهد الثورة التحريرية[102] .

ولم يتوقف ضغط العدو على الأمير خلال بقية سنة 1843 ، رغم انه أصبح شخصياً هو الهدف ، فقد كانت الفرق العسكرية تبحث عنه في كل مكان فإذا عرفت مكانه توجهت إليه وحاولت مباغتته . ولكنه كان يفلت منها باعجوبة . كان ذلك خلال مناسبتين في هذه السنة . وفي إحدى المرات لم يكد يفلت إلا بنفسه وقليل من أصحابه . وفي احداها قتل خليفته عبد الباقي ونجا هو ، وفي احداها أيضاً طاردت قوات العدو خليفته ابن علال وكادت تبيد قوته بعد أن سقط هو شهيداً . وبموت ابن علال فقد الأمير أحد رجاله الأوفياء والأكفاء ، وكان موته على أرض الميدان إيذاناً أيضاً بقبول كثير من الناس بالأمر الواقع وقبول موظفين يعينهم العدو بنفس الألقاب القديمة : قياد ، أغوات ، خلفاء ، الخ . ولم تبق للأمير في نهاية هذه السنة سوى « دائرة » صغيرة من جنوده وأصحابه ، توجه بهم إلى المغرب ليراجع خريطته ويستعد للجولة القادمة ، فمثله لا يعترف بالهزيمة ولا يعرف اليأس .

ولكن دخول الأمير إلى المغرب وعودته إلى الجزائر لضرب العدو أو ضرب أنصاره على الحدود المغربية ثم اجتيازه للمغرب من جديد ، كل ذلك جعل العلاقات بينه وبين السلطان المغربي من جهة وبين هذا والفرنسيين من جهة أخرى تزداد صعوبة . فهو قد نجح خلال النصف الأول من سنة 1844 في جعل المغرب يتورط

---

(102) علي شكّال شخصية أخرى ذميمة خانت اللّه والوطن وأخلصت للعدو فتخلصت منها الثورة برصاصة أطلقها المناضل (ابن صادق)عليه وهو الى جانب رئيس الجمهورية (الرابعة) الفرنسي ، كوتي ، سنة 1956 في باريس . وقد قتل ابن اسماعيل ، الذي كان لا يفارق جواده الأبيض سنة 1843 أثناء حادثة الزمالة ، كما عرفنا .

في حرب التحرير الجزائرية بقيادته ، إذ نصب العدو معسكراً في لالامغنية ، ثم دخلت قواته مدينة وجدة ، فإذا بالشعب المغربي ينادي بالجهاد ضد الكفار ، وفي ذلك دعم للأمير الذي كان يهدف إلى هذه النتيجة . ورغم ضغط الفرنسيين والإنكليز[103] على السلطان لكي يبعد الأمير ويكف عن مساعدته ، فإن السلطان لم يفعل ، خوفاً كما يقول معظم المؤرخين ، من ثورة شعبية داخلية ضده لأن الشعب المغربي أصبح ينظر إلى الأمير على أنه قائد حركة الجهاد ليس في الجزائر فحسب بل في المغرب أيضاً . وهكذا وجد السلطان نفسه مضطراً لرفض تسليم الأمير . فما كان من الفرنسيين إلا ضرب السواحل المغربية ، خصوصاً طنجة وموقادور ، كما قاد بوجو من الجزائر جيشاً ضد الجيش المغربي بقيادة أحد أبناء السلطان ، حيث دارت معركة كبيرة عند إيزلي في 14 أغسطس ، كان الهزيمة فيها لجيش السلطان . ولم يعد للسلطان اختيار إلا قبول ما جاء في معاهدة طنجة (بينه وبين الفرنسيين) حيث نصت على أن الأمير عدو مشترك وانه خارج عن القانون ، وبات الوضع بذلك ضد الأمير تماماً ، إذ أصبح بين عدوين ، دون أن يجد من أحد الملجأ ولا المساندة ولا السلاح . وكانت التحصينات الفرنسية على الحدود الغربية قد جعلت اجتيازه الحدود إلى الجزائر لضرب العدو أمراً صعباً . كما أصبحت إقامته في المغرب غير مرغوب فيها . وكأنها بداية النهاية له . وبالإضافة إلى ذلك فإن عزلته عن المغرب وعن الإنكليز وكذلك الفتوى المزورة التي حصل عليها بوجو ضده من بعض علماء السوء المسلمين ـ كل ذلك أضعف من سلطة الأمير في الجزائر ، وهذا يعني قبول الناس للأمر الواقع والدخول في طاعة العدو ، رغم أنوفهم ، ولو إلى حين .

إن العنف يولد الانفجار ، والأزمة إذا اشتدت تنفرج . ولكن العدو لم يتعظ فيما يبدو بذلك . فسياسة الأرض المحروقة والإضطهاد الجماعي والإرهاب أدت إلى ثورة شعبية لم يتوقعها العدو الذي نام على حلم لذيذ وهو انه سيطر على الجزائريين واستراح . تجمع الغضب الشعبي نتيجة استهتار واستعلاء وعجرفة ضباط بوجو مع

(103) أوقف الانكليز امداد الأمير بالأسلحة من جبل طارق ، وفي الأخير أوقفوا ذلك حتى على المغرب خشية أن يتسرب السلاح الى الأمير . وكان الانكليز يخشون من احتلال فرنسا للمغرب اذا استمر هذا في مساعدة الأمير . انظر : (مذكرات السير جون درامون هاي J.D. Hay) ، لندن ، 1896 ، ص 73 .

السكان الذين سيطروا عليهم . فقد عينوا عليهم موظفين مكروهين كأغوات وخلفاء وقياد يلبسون برانيس قلدها إياهم العدو . وأصبح أولئك الضباط في الواقع هم الحاكمين وراء شبح هؤلاء الموظفين . وأخذوا جميعاً في فرض ضرائب جائرة عقوبة لهم وليست مستحقات عليهم ، واستولوا عن طريق النهب على ممتلكات الناس . وارتكبوا فظائع بالقتل التعسفي وبدون محاكمة ، واعتدوا على الحرمات والعادات ، ومكنوا الكولون من الإستيلاء على الأراضي المغتصبة واستغلالها أمام أعين أصحابها الشرعيين ، وهكذا ارتفع الدم الفائر في عروق الجزائريين وبات الجو في نهاية 1844 ينذر بثورة عارمة .

انطلقت هذه الثورة بإشارة وقعت في سيدي بلعباس في نهاية يناير 1845 ، فقد دخلها حوالي ستة من الجزائريين وقتلوا عشرين فرنسياً ، وأخذ بعض الساخطين على العدو يتسربون إلى الأمير داخل المغرب . وبعد ما راسل هذا العديد من الناس داعياً للثورة حاول هو وقواته العبور ولكن القوات الفرنسية منعته ، غير ان الثورة انطلقت مع ذلك ، تحت نداء الشريف بومعزة (محمد بن عبد اللّه) الذي استغل السخط العام ودعا الناس للجهاد . كان بومعزة أصلاً من المغرب ومن أتباع الطريقة الطيبية[104] . وبين فبراير - أبريل اتسع نطاق الثورة حتى شمل اقليمي وهران والتيطري قديماً ، ووصلت قوات الثورة إلى الأصنام الجديدة حيث التحموا مع المعسكر الفرنسي ، ووصلت نجدة للمقاومة زادت في اتساع نطاقها حتى عمت منطقة الشلف (الظهرة) . ولمواجهة هذا النفس الجديد للمقاومة ارتكب العدو مجزرة غار الفراشيش التي أشرنا إليها والتي قتلوا فيها بالإختناق بدخان الحطب أكثر من ألف نفس (رجالاً ونساء وأطفالاً) ، ليعلموا الجزائريين درساً في الحضارة واحترام القانون ! ان مثل هذه الإجراءات لم تقض على المقاومة ولم تفرض حتى الأمر الواقع ، فقد اختفى بومعزة في اتجاه الصحراء مؤقتاً ، وظهرت أسماء كثيرة يدعي كل واحد من أصحابها أنه هو المهدي المنتظر ، وانه هو بومعزة ، أو محمد بن عبد اللّه ، حتى اختلط الأمر على المؤرخين فلّم يعودوا يعرفون من هو الشريف محمد بن عبد اللّه بالضبط ؟

---

(104) انظر ما سيأتي .

ولكن الأمير كان هو الأمير . فأمام السخط العام والثورة الشعبية ، وأمام القوات التي تجمعت لديه داخل المغرب حتى وصلت إلى ستة آلاف خيمة وثلاثة آلاف فارس ، كان الأمير يحلم بجولة أخرى ضد العدو في الجزائر . ان العدو كان في موقع الدفاع الآن أمام هجوم المقاومة الشعبية المدفوعة بالمشاعر الجهادية . عبر الأمير إذن الحدود من جديد على رأس قواته واجتاز حوالي ثلثي الجزائر على جواده فكان يقطع خمسين ميلاً في الليلة الواحدة . لقد كان الثوار ينتظرون قيادة مركزية عسكرية لم يوفرها لهم الشريف بومعزة ولا بقية « الشرفاء » الذين ظهروا عندئذ . كان الثوار يريدون قوة توحدهم وتوجههم فوجدوها في الأمير الذي أحرز نصراً جديداً ضد العدو في معركة سيدي ابراهيم التي وقعت خلال سبتمبر 1845 . كان العدو يشيع عنه انه انتهى أو قتل فإذا به يظهر كالبرق فيكبد قوات (مونتنياك) خسائر فادحة شملت ثلاثمائة قتيل ومائة أسير ، ويجعل فرقة أخرى للعدو تستسلم بدون حرب ، وهي تتألف من مائتي أسير . ان هذا النصر الجديد الذي حققه الأمير عبد القادر جعل الناس يعودون إليه بعد أن ظنوا انه لن يعود ، بل ان بعض الموظفين الذين قبلوا الوظيفة من العدو عاد إليهم الأمل وانضموا إلى الأمير من جديد.

وإن قوات بوجو التي وصلت عندئذ (سبتمبر 1845) إلى مائة وستة آلاف جندي لم تستطع أن تقف في وجه الأمير وهو يشق سهول الشلف والونشريس والتيطري ويعبر بني سليمان إلى حمزة وبلاد القبائل ليجعلها منطلقاً لهجوم جديد جرىء على مدينة الجزائر نفسها . وكل ما استطاع بوجو فعله ليرفع من معنويات قواته المنهارة هو أن يقوم بحملات ارهابية تخريبية ضد العزل الذين يشتبه انهم يؤيدون الأمير وضد الموظفين الذين ظن انهم « خانوا » يمين الولاء لفرنسا . لقد أرسل بوجو قواته تضطهد القبائل المعزولة ، وترتكب المجازر ضد العديد منهم ، وتخرب أملاكها وتسطو على أرزاقها . أما الأمير الذي وصل حمزة في عمق الشتاء (يناير 1846) وحاول هجومه المذكور على العاصمة في فبراير ، فإن بوجو كان غير قادر على اعتراض طريقه ، رغم تخصيص « قوة متحركة » لمطاردة الأمير شخصياً.

ولكن بوجو كان قادراً على جعل الحياة صعبة على الأمير في الجزائر . فقد استمر في عزل السكان عنه ، ولم يعد الأمير يجد المساندة واللجوء اللذين طالما وجدهما في شعبه عندما يضيق عليه الفرنسيون الخناق ، حتى عندما توجه نحو

الجنوب وجد معظم الناس قد أصبحوا في قبضة العدو . ولذلك عاد إلى المغرب خلال يوليو 1846 ، لعله يجد بعض الأمن وينظم دائرته التي تركها وراءه قبل حملته الأخيرة . كانت الدائرة (وهي ما بقي له من الزمالة) قد أصبحت تحت قيادة خليفته مصطفى بن التهامي بدل الخليفة محمد البوحميدي ، منذ ابريل 1846 . وكانت الدائرة تعيش عيشة ضنكة ، في حاجة إلى الغذاء والأمن . وكان عددها يقدر بحوالي أربعة آلاف معظمها عائلات جنوده الذين ما يزالون يحاربون معه في الجزائر . وكان في الدائرة حوالي ثلاثمائة (270 حسب بعض الإحصاءات) أسير فرنسي ، حاول الأمير المفاوضة عليهم لمبادلتهم بالأسرى الجزائريين ، ولكن بوجو رفض المبادلة والفداء . فما كان من ابن التهامي إلا أن أمر بقتل جميع أسرى العدو ، بدون علم ولا إذن الأمير ، وبالإضافة إلى ذلك ضاقت الحياة ببعض أتباع الأمير ، مثل قبيلتي هاشم وبني عامر ، فانفضوا عنه واختاروا العيش والاستقرار حول مدينة فاس . وكل هذه التطورات ، بالإضافة إلى عزلته في الجزائر قد جعلت الأمير يبدو في حالة يائسة .

ومنذ غادر الأمير الجزائر في صيف السنة المذكورة واصل العدو حملته في القضاء على كل نصير للأمير وإدخال كل المناطق والسكان الجزائريين تحت طاعته بالعنف والإرهاب . وكان أحمد الطيب بن سالم من أواخر خلفاء الأمير الأقوياء والأوفياء له ، والذين ظلوا في الجزائر صامدين أمام العدو ، ولكن الخليفة ابن سالم يئس أيضاً من المقاومة بعد أن قام العدو بحملات ضده ، فاختار الاستسلام بشرط أمنه وتركه يذهب مع من يختار الى المشرق . ورغم ان الشريف بومعزة قد انضم إلى دائرة الأمير بالمغرب ثم رجع إلى داخل الجزائر لإثارة الناس للجهاد، فإنه أيضاً وجد نفسه في حصار ويأس فاختار التخلي عن حركته واستسلم أيضاً . (ابن سالم في فبراير وبومعزة في ابريل 1847) .

ان هذه الحوادث داخل الجزائر لم تساعد الأمير في المغرب أيضاً . فقد كانت فرنسا تضغط على السلطان أن يطرد الأمير ، وكانت بريطانيا أيضاً تحثه على ذلك حتى لا يكون حضوره سبباً في احتلال فرنسا للمغرب ، ولكن السلطان نفسه أصبح خائفاً من الأمير . فلم يعد هذا بالنسبة إليه لاجئاً أو مجاهداً فقط ولكنه أصبح في نظره منافساً . وقد غذى الفرنسيون هذه الفكرة عند السلطان . ذلك ان معاهدة السلام بين فرنسا والمغرب سنة 1844 جعلت السلطان غير محبوب من كثير من شعبه ، وكان

الأمير ، لمواصلته الجهاد ، قد أصبح الرجل المناسب والسلطان الحقيقي الذي يدافع عن الإسلام في نظر كثير من المغاربة . وكان نقل الأمير لدائرته إلى منطقة الريف ودخول الناس هناك في طاعته قد أثار مخاوف السلطان أكثر فأكثر. ولذلك عزم على التخلص الفعلي والجسدي من الأمير . فأرسل جيشاً ضده بقيادة ابن أخيه مولاي الحسن ، في يونيو 1847 ، ولكن الأمير هزم هذا الجيش مما أضاف رصيداً إلى رصيده بين المغاربة ولكنه أيضاً زاد في خطورته في نظر السلطان . وقد ظلت المناوشات قائمة بين الطرفين . فهذه بنو عامر وهاشم تحاول الانضمام من جديد إلى دائرة الأمير ، فإذا بالجيش المغربي يهاجمها ويشردها . وهذا الأمير يفقد بذلك ليس فقط تأييد هذه القوة ولكن تأييد القبائل المغربية التي كانت معه أو حتى المحايدة منها.

وعاد الأمير إلى الدبلوماسية لعلها تخرجه من ضائقته . فالتقى بحاكم مليلة الاسباني وأعطاه رسائل إلى ملكته (ايزابيلا) ، وإلى قنصل فرنسا في ملاقة ، وإلى السفير الإنكليزي في مدريد ، طالباً منهم التدخل لدى الحكومة الفرنسية لصالحه . ولكن محاولته لم تجد نفعاً . ولم تزد حكومة لويس فيليب على أن طلبت استسلامه بدون قيد ولا شرط . كما طلب الأمير من الحاكم الاسباني أن يسمح بمرور الأسلحة للأمير من جبل طارق عن طريق ميناء مليلة ، ويبدو ان الحاكم قد وافق ، ولكن حكومته التي كانت تؤيد فرنسا رفضت ذلك ، فلم يتحقق ما كان الأمير يصبو إليه[105] . ثم حاول الأمير الدبلوماسية مع السلطان عبد الرحمن لعله يصل إلى حل سلمي معه يؤدي إلى تفادي الحرب الواسعة بين الطرفين ، فأرسل صديقه وخليفته السابق على تلمسان ، محمد البوحميدي الولهاصي ، إلى السلطان في مهمة اعتبرت من أدق المهمات ، ولكن السلطان سجن الولهاصي ، ويقال أنه أجبره على ابتلاع السم إذ مات في سجنه في المغرب ، في نهاية نوفمبر 1847 .

---

(105) أنظر يحيى بوعزيز وميكيل دي ايبالزا (الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا . . .) دار البعث ، قسنطينة ، 1982 ، ص 26 . جاء في هذا الكتاب ان هناك حوالي 23 رسالة متبادلة بين الأمير والسلطات الإسبانية (الملكة ، وحاكم مليلة ، الخ .) وان الأمير نفسه التقى بحاكم مليلة وجرى الحديث بينهما عن امكانات إسبانيا في تأييد جهود الأمير بالسلاح والدبلوماسية (مع فرنسا الخ .) ولكن اللقاء والمراسلات لم تثمر لأن السلطات الإسبانية كانت في صميمها تؤيد فرنسا ، رغم طموحاتها هيَ الإستعمارية ايضاً . أنظر الصفحات من 35 إلى 48 .

وهكذا كان السلطان قد كشف عن نواياه في الحرب ، وقرر مهاجمة دائرة الأمير بقوة عسكرية ضخمة . وكان الفرنسيون يساعدون على هذه النهاية ويخططون لها منذ معاهدة طنجة ، حتى وصل بهم الأمر إلى دفع السلطان إلى هذا الموقف وإرشاء بعض القبائل[106]. وأما ذلك عزم الأمير على عبور الحدود إلى الجزائر بدائرته. وقد اجتاز صهره ابن التهامي نهر ملوية في الغشرين من ديسمبر، وفي نفس اليوم هاجمت القوات المغربية الدائرة فاجتاز بها الأمير نهر ملوية وحط رحله في الجانب الجزائري من النهر . واستأنف الأمير مناوشة الفرنسيين في المنطقة وفحص دفاعهم فوجد ان عبور خطوط دفاعهم مستحيل وانه لم يبـق أمامه الا خياران : الاستسلام أو الهروب مع قلة من الفرسان مع ترك الدائرة (بما فيها عائلته) في قبضة العدو . جمع الأمير مجلسه الاستشاري وعرض عليه الخيارين ، فاختار الأول ، رغم أن البعض رجوه أن يفـر بنفسـه لعله يستـطيـع استئنـاف الجهـاد. وهكـذا أرسـل الأميـر في الـواحـد والعشرين من ديسمبر 1847 رسالة إلى لامورسيير المتـولي على المنطقـة يشترط الأمان والاذن له في التوجه إلى الاسكندرية أو عكا ، فكتب إليه الجنرال الفرنسي

---

(106) أنظر دانزيقر ، (عبد القادر . . .) ، ص 236 . ويقول درامون هاي (مذكرات . .) ، ص 72 ـ 73 ، ان معاهدة طنجة نصت على أن الأمير عدو مشترك لكلا الطرفين (فرنسا والمغرب) وان أي طرف يقبض على الأمير يرميه في السجن الرسمي في احدى المراسي النائية . ويثبت هاي الذي كان ، كما كان والده قبله ، يعرف دقائق الأمـور بالمغـرب ، ان بعض المغاربـة الرسميين كـانوا يرشحون الأمير لحكم المغرب ، مثـل رئيس الوزراء محمـد بن ادريس . وحين اكتشف السلطان مراسلاته السرية مع الأمير جذب لسانه حتى انتفخ ومات من الالم المضني بعد أيام دون أن يعرف بذلك الاّ القليل . وأثبت هاي ان الأمير قد بعث اليه رسالة يطلب فيها تدخل حكومته ولكنه قال انه لم يجبه كتابة ، وان حكومته لم تقدم اليه اية معونة . واعترف ان وظيفته كانت تقتضيه ان يحث السلطان باستمرار على عدم إقامة علاقات مع الأمير ووجوب معارضته وقال بأن الأمير جعل منطقة الريف مهرباً يلجأ إليه كلما ضغط عليه الفرنسيون. وهذه الأصداء نجدها أيضاً في كتاب (الإستقصاء) لأحمد الناصري، 9/56 ـ 59 . فقد ذكر التحارب الذي جرى بين جيش السلطان وجيش الأمير، واتهم الأمير بالاستبداد ومحاولة اثارة أهل المغرب ضد السلطان والطموح إلى حكم المغرب . واعترف بأنه فر إلى الفرنسيين بعد هزيمته من قبل المغاربة ، الخ . ويوجد نص معاهدة طنجة في عدة مصادر منها ، كتاب روزي وكاريت (الجزائر) ، ص 328 ـ 329 . ويذكر الكاتبان أن المعاهدة نصت على انه إذا قبض الفرنسيون على الأمير يعاملونه « بالحسنى » وإذا قبض عليه السلطان يحتجزه في مرسي على الساحل المغربي الغربي إلى أن يتفق الطرفان عما يتم في شأنه .

رسالة متعهداً له فيها باسم حكومته بما طلب ، وبذلك انتهى كفاح بطل ، ولكن كفاح الشعب قد استمر.

9. ملاحظات على الأمير :

يقول أحد الكتاب المحدثين : ان عبد القادر قد تحدى أكبر الجيوش في وقته ، واخترع حرب العصابات ، ووضع أسس الوطنية الجزائرية ، وأعطى لغيره دروساً في المهارة والالتزام للدبلوماسيين ، كما انه ظهر كأفضل شعراء العربية في عصره ، ثم هو من الزعماء الروحيين . ورغم جهاده فقد أظهر روحاً من التسامح والاحترام لكل الأديان[107] ، الخ . ولكن هذا الكاتب نسي أن ينبه إلى أن عبد القادر هزم أكبر جنرالات ومارشلات فرنسا عندئذ ، وانها نكبته في وطنه وقومه وتآمرت عليه مع جيرانه وعزلته حتى مع علماء الدين ، ونصبت ضده شبكة من الجواسيس والخونة ، وتقولت عليه الأقاويل الكاذبة ، وخانت وعدها معه بتركه يذهب حيث اختار.

ولكن هناك كتاب آخرون يذكرون ان الأمير كان باعث الوطنية الجزائرية . فقد وصل خطابه أعماق الشعب ، وحرك نداؤه ضمير الأرض ، وهز صوته أركان الوطن فإذا بريح الوطنية تطوي المسافات وتجتاز الحدود القبلية والطرق الصوفية والإقليمية لتصبح شعلة واحدة تحرق وجه العدو الدخيل ، لم يكن الجهاد وحده هو الذي جعل الناس يضحون ويتبعون راية الأمير ، بل كانت هناك مشاعر متأججة حباً في الأرض وحباً للوطن الجديد الذي رسم حدوده الأمير ، وجعل عليه قضاته وخلفاءه وممثليه ، واعترف له العدو بحدوده . وكان الأمل أكبر من الواقع وكان الزمن أقصر من الأجل ، ولو طال العهد لازدهرت الدولة الجديدة وأثمرت الآمال العريضة ولأخصب الدين والفكر والعلم والفن في عصر كان العالم الإسلامي كله فيه ينتظر مثل هذا الوليد . لقد ظهرت قبل ذلك الحركة الوهابية فإذا بها تضرب قبل أن تكشف عن وجهها الحقيقي ، وكشفت « نهضة » محمد علي عن وجهها فإذا هو وجه علماني سلطاني يبتسم في وجه الأجنبي ويكشر في وجه المواطنين . وأخذ سلاطين آل عثمان

---

(107) ل . لاتياد Lataillade ، (عبد القادر ، عدو وصديق فرنسا) ، باريس ، 1984 ، ص 43 .

« ينظمون » دولتهم المتداعية فإذا الإصلاحات مفاسد وإذا الأعداء هم المصلحون جالسين يملون على محمود وعبد المجيد وعبد العزيز وأنور ومصطفى أتاتورك ما عليهم أن يفعلوا وما عليهم أن يتركوا .

إن دولة الأمير الوليدة لم تحاربها فقط جيوش فرنسا حباً في التسلط والبطولة وطمعاً في انشاء امبراطورية ، ولم يقف ضدها فقط الكولون بمحاريثهم وأموالهم لكي يستغلوا الأرض المغتصبة ويستثروا على حساب الجزائريين ، بل حاربتها أيضاً ، ظاهراً وباطناً ، الكنيسة والماسونية (الصهيونية) ، كما حاربها سلاطين المسلمين وحتى بعض علمائهم النائمين . حاربتها الكنيسة لأنها اعتبرتها حركة جهاد اسلامي متوثب فيه انتعاش ونهضة للاسلام الراكد اذا انتصرت ، واعتبرت الكنيسة نفسها عملها ذلك استمراراً للصليبية التي خاضت في الشرق والغرب حروباً ضارية ضد الاسلام والمسلمين ، بما فيها الأندلس ووهران . وتآمرت عليها الماسونية خصوصاً في الدوائر المحيطة بالحكومة الفرنسية وحاشية الملك وقطعان التراجمة والمستشرقين الذين توافدوا على الجزائر ، لأن دولة الأمير كانت دولة عربية ، سلفية ، شريفة ، لو انتصرت لكانت خطراً عظيماً على مخططات الماسونية ـ الصهيونية في الشرق ، ولكانت أول دولة توحد العرب على كلمة الجهاد كما وحدتهم عليها زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزمن الخلفاء الراشدين .

أما سلاطين المسلمين فقد رأينا أن بني عثمان كانوا في غفلة من الزمان ، لم يبق لهم من الاسلام الا الشعارات والطقوس والظلال ، ولم يبق لهم من لغة القرآن الا العبارات الدينية التي تقال في المناسبات ، بل لم يبق لهم من القوة الا قوة التآمر على بعضهم البعض وقوة الاستبداد بالمسلمين وقوة الحريم والمحظيات الأوروبيات . فمن أين لهم نجدة عبد القادر بن محيي الدين ولم ينجدوا حتى غرقاهم في نفارينو ؟ ثم كيف ينجدونه وقد أعلن أنه عربي هاشمي وشريف من آل البيت ، ولم يطلب منهم لقباً أو قفطاناً ؟ ألم يذق شعبه ووالده وهو شخصياً من ممثلي أولئك السلاطين في بلاده أنكى المعاملات وأقسى الاهانات ؟ ومن أين لسلطان فاس أن ينصره ويحميه بعد أن وضعت معاهدة طنجة الحبل حول عنقه وهزم جيشه في ايزلي ، وأصبح اسم عبد القادر يهدد عرشه بالسقوط ، واذا كان سلاطين آل عثمان قد وقفوا من عبد القادر وقفة المتفرج فان سلطان فاس قد وقف منه ، في اللحظات الحرجة ،

وقفة العدو اذ حاربه وهزمه وأجبره على الارتماء في أحضان العدو الفرنسي[108].

وأما علماء المسلمين ، فقد كان أغلبهم ، كما قال ابن العنابي ، منشغلين بتكوير وتكبير العمائم ، واطالة أكمام الجبائب ، وصبغ اللحى والشوارب ، والتكثير من حبات السبح . والتحذلق والحوقلة والسبحلة ، والتقرب من ذوي السلطان ، والنقاش حول الحلال والحرام . أما أمر الجهاد عندهم ، بما في ذلك أعظم الجهاد الذي هو كلمة حق عند سلطان جائر ، فقد أصبح من الذكريات الخوالي ، لا يقرأ الا كآيات في القرآن أو عبارات في الأحاديث النبوية ، أو في أبواب الجهاد في الكتب الفقهية . فلما جاءهم ليون روش صحبة الشيخ محمد التجاني بفتوى تقتضي وقف الجهاد ضد أعداء الدين آمنوا وصدقوا ووضعوا أختامهم . كانت الفتوى التي أحكم صياغتها روش بالتعاون مع علماء السوء في الجزائر ، تقول للمجاهدين الجزائريين ضعوا أسلحتكم فأنتم في بلد اسلامي ، وأنه إذا تغلب العدو الكافر على المسلمين فإنه لا يجوز لهؤلاء مجاهدته لأن ذلك ضرب من الانتحار ، ولا تجب عليهم أيضاً الهجرة لأن الجزائر ليست دار حرب بل هي ما تزال دار اسلام ما دام العدو الكافر قد تعهد بترك المسلمين يقومون بأمر دينهم . وليس عليهم أن يتبعوا الأمير ولا أن يشايعوا أي مجاهد أو مهدي منتظر ، يعلن أنه رجل الساعة جاء لطرد الكافرين[109] . لقد خذل أولئك العلماء الأمير في جهاده وأثروا على حركته ، ربما أكثر مما أثرت عليه لامبالاة سلاطين آل عثمان أو سيوف سلطان فاس . وقد قال أحد الباحثين الفرنسيين المتفقهين في شؤون الاستعمار « وقد أدت هذه الوثيقة (الفتوى) في وقتها أكبر خدمة لتأسيس احتلالنا للجزائر»[110].

---

(108) لا شك ان السلطان (الملك) محمد الخامس كان قد قرأ تاريخ الاربعينات من القرن الماضي قبل أن يؤيد الثورة الجزائرية رغم ضغط الفرنسيين . ومن جهة أخرى فإننا نتساءل لماذا لم يتصل الأمير بمحمد علي ، والي مصر ، الذي كان أقوى من السلطان العثماني عسكرياً . وكان أقرب إلى الفرنسيين كحليف ، لماذا لم يتصل به مستفيداً بسلاحه أو بتدخلاته ؟ هل لصداقة محمد علي مع فرنسا دخل في ذلك ؟

(109) أشرنا إلى هذه الفتوى التي حملها روش والتجاني إلى علماء القيروان والأزهر والحرم المكي . وسنرى ان جول كامبون حاكم الجزائر في التسعينات من القرن الماضي قد لجأ إلى نفس الطريقة ليضمن توسع فرنسا في الصحراء وجنوب الجزائر ، وليمنع بها الجزائريين من الهجرة نحو الشرق .

(110) أنظر ديبون وكوبولاني (الطرق الصوفية الإسلامية) ، ص 37 .

إن الأمير لم يكن غافلاً عن رأي علماء الدين وأهميته في جهاده . وقد راسل بعضهم يستشيرهم في أمور الناس والعلاقة مع العدو، كُلَّمَا حَزَ به أمر أو لم يهتد الى رأي فيه نص أو قياس . ومن ذلك ما كتبه الى علماء فاس سنة 1252 (1836) يسألهم عن موقفه من المسلمين الذين تواطؤوا ضده مع العدو أو انضموا الى الكفار بعد أن استعملوا معهم الحيلة السياسية : ما حكم الدين في ذلك ؟ وما حكم الشرع في المتخلف عن الجهاد والدفاع عن الحريم والأولاد ، رغم دعوة الامام له بالجهاد ؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم ؟ وما الموقف مع من رفضَ دفع الزكاة للامام الخ ؟ ان هذه الأسئلة معروفة للباحثين . وقد أجاب عنها الشيخ علي بن عبد السلام التسولي في مجلد بلغ خمس كراريس[111] . وراسل الأمير علماء الجزائر ورجال الطرق الصوفية فيها يطلب منهم دعوة الناس للجهاد واجابة دواعي الشرع واستخدام نفوذهم الروحي عند السكان من أجل مصلحة الوطن والدين . وقد عين منهم الكثير في وظائف دولته وجعلهم الأمناء على مصير دولته في أغلب الأحيان ، وقد صدق معه بعضهم الى آخر رمق . ولكن بعضهم تآمروا عليه وحاربوه أو لم يفهموا مهمته أو تغلبت عليهم الأنانية وحب المصالح الدنيوية ، بل إن بعضهم قد خان اللّٰه ورسوله في ربطه علاقات ودية مع العدو وشاركه في كبح حركة الجهاد الشعبية.

وفي هذا الصدد راسل الأمير أيضاً علماء مصر سنة 1263 (1847) حول موقف السلطان عبد الرحمن بن هشام منه ، متهماً إياه بالتحالف مع العدو ضده ، وبالوقوف ضد الجهاد والاستيلاء على أرزاقه وأسلحته والأمر بقتله الخ . وقد رد عليه الشيخ عليش مفتي المالكية بالديار المصرية بأن السلطان يعتبر خارجاً عن قواعد الدين وأن أوامره من أجل ذلك لا تطاع ، بل تجب مقاومته لتحالفه مع الكفار ، الخ[112].

كانت وسيلة الأمير إلى قلوب الناس، ومنهم العلماء، هي الرسائل التي كان يوجهها اليهم مع الوفود الثقاة . وقد عبرت رسائله حدود العدو في شرق البلاد وغربها ، حتى وصلت الى فقيق (فجيج) وتقرت . وها هو يحث أهل فقيق على الجهاد بقوله : « أما بعد ، فإن الغيرة الاسلامية تحق لأمثالكم ، والاغتياضات

(111) الناصري (الاستقصا) 9/45 ـ 46 .
(112) أنظر الأمير محمد (تحفة الزائر) ، ج 1 ، ص 306 ـ 313 .

(الغضب) الأنفية تجب على أقوالكم وأفعالكم . . كيف لا ، والعدو الكافر ، أذله اللّه ، جال في بلاد المسلمين وصال ، وسعى في خراب مدنهم وقصورهم بمساجدها المعدة للغدو والآصال ، . . وأجمع عزمه وكيده في جميع بره ، وفاض على ضوء الاسلام ظلام ليله ، حتى كاد يخفي جدول فجره . . .(113).

وفي منشور آخر وجهه الأمير الى أهالي الشرق الجزائري (سطيف ونواحيها) يحثهم أيضاً على الجهاد والبعد عن التجارة مع الكفار ، ويذكرهم بأن العدو قد وعدهم احترام الدين والنساء والأرض ولكنه خان وعده، وظلم النّاس وجار عليهم بعد ابتعاده (عبد القادر) عنهم . لقد اعتقدتم في كلامهم السفيه ، وأطعتم الكفار ، ولكنهم اغتنموا فرصة غيابي عنكم وخانوا عهدهم لكم . وهاهم قد لطخوا مساجدكم ، وأخذوا منكم أحسن أراضيكم وأعطوها لأبناء جنسهم ، واشتروا أعراض نسائكم . . وأهان أكرم عائلاتكم ، ورأس عليكم مسلمين ملاعين اشتروهم بأموالهم ، وسجن أشرافكم ومرابطيكم في بلاد النصارى . . . إنكم اليوم تحت رئاسة رومي ، يقاضيكم رومي ، ويدير شؤونكم رومي ، وهو يسوقكم سوق القطيع الى السوق . . أيها المسلمون ! لقد حان وقت اليقظة ، فانهضوا على سماع صوتي ، لقد وضع اللّه سيفه الملتهب في يدي ، وسنمضي جميعاً نروي سهول أرضكم بدماء الكفار»(114).

هل نستطيع أن نفرق بين الدين والوطنية في هذه النصوص ؟ إننا لا نستطيع ذلك في نظرنا ، رغم أن بعض الباحثين فعل ذلك ، فإذا فريق يجعل من الأمير رجل دين وجهاد وتصوف ، ويقول ان الدين تغلب على دولته في جميع مجالاتها ومظاهرها الجيش ، المالية ، القضاء ، حتى العملة والسكة(115) . ويرى فريق آخر أن الأمير هو مؤسس الوطنية والسيادة في الجزائر ، وأنه جدد في الاقتصاد بإبطال الخراج على

---

(113) من نداء الأمير إلى أهل فقيق ، نصه في ل . قونيالون Gognalons (المجلة الافريقية) ، 1913 ، ص 248 ـ 250 .

(114) مترجم عن نص ترجمه شارل فيروفي (روكاي) ، 1872 ، ص 119 ـ 120 .

(115) بيسه شينار « عبد القادر وعبد الكريم » في (مجلة الدراسات الآسيوية والافريقية) ـ القدس ـ 1965 ، ص 143 ـ 160 . لاحظ هذا الكاتب ان الأمير قد اعتمد أحياناً على رجال السيف أو الأجواد ، ولكن اعتماده الأساسي كان على رجال الدين .

الرعية والامتيازات للمخزن ، والابقاء على الزكاة والعشور ، وجدد في القضاء فسوى بين الناس وطبق نصوص القرآن على الجميع ، وخصص راتباً قاراً للقاضي ، وجدد في العسكرية فجعل خدمة الوطن واجبة على الجميع ، وجدد في مفهوم الدين والتصوف فلم تعد القادرية هي المثل وانما جعل وحدة الشعب كله هي الهدف[116] .

إن الأمير في نظري هو موقظ الضمير الوطني الجزائري بأفعاله وأقواله طيلة عهد جهاده الذي بلغ سبعة عشر عاماً (عامان تحت قيادة والده) . لقد كان هدفه الأساسي ايقاظ واذكاء ذلك الضمير بجعله الجهاد في سبيل الله وسيلة والوحدة الشعبية هدفاً . ولعل الأمير قرأ جيداً واستفاد كثيراً من مقولةابن خلدون : إن العرب لا تجتمع الا على عصبية ودين . فجعل الأمير العصبية نصب عينيه واستحضر عهد البعثة النبوية وعهد الصحابة ، ولم يكن يفرق في ذلك بين ابناء الجزائر في الأصل فقد كانوا عنده جميعاً عرباً ومسلمين ، سواء كانوا سكان مدن أو جبال أو صحار ، وسواء كانوا يتكلمون العربية أو لهجات محلية . وإنما ظهر عليه أنه لم يرتح لبعض زعماء الكراغلة لأنهم بدأوه بالاساءة اليه وتعاونوا مع عدوه . وبينما لم يتدخل في العادات القبلية ولا في سلوكات الطرق الصوفية فإنه كان يخاطب الجميع بلغة الدين والوطن والوحدة ويذكرهم بماضيهم المجيد ويرغبهم في التحرر والنهضة والاعتماد على النفس . ولذلك أحبه الجميع وندم الذين خالفوه أحياناً على فعلهم وجاؤوه تائبين متوسلين . وقد عرفوا قدره أكثر بعد أن غاب عنهم وترك فراغاً لم تملأه أية شخصية من بعده لأن كل من ظهر بعده كان يفتقر الى العناصر التي تمتع بها الأمير وهي تحديد الهدف وخدمته بكل الوسائل : الحرب والدبلوماسية والشجاعة والرأي والاخلاص.

ولعل هذه القيم هي التي جعلت الأمير هو البطل المغوار الذي تتحدث عنه قصص الفروسية العربية والفارس الغازي الذي ذكر الناس بخالد بن الوليد وعلي ابن أبي طالب وعقبة بن نافع ، في وقت لم تبق من هؤلاء الا ذكريات الكتب وأحاديث الأسمار . وقد لاحظ أعداؤه المعاصرون له أن الأمير لا يمكن خيانته مِمَّن تبعه ، رغم

---

(116) رينيه قاليسو ، مقالته « حرب عبد القادر أو القضاء على الوطنية الجزائرية » في : (هيسبريس - ثمودا) رقم 54 ، 1964 ، ص 120 ـ 124 . أنظر أيضاً دانزيقر (عبد القادر . . .) ، فقد قال عن الأمير بأنه زعيم سياسي استعمل الدين لوحدة الدولة .

أن كثيراً من عظماء الرجال انتهوا بخيانة بعض المخلصين لهم. وقد حاول الفرنسيون أن يجدوا خائناً يغتال الأمير أو يضع له السم فباؤوا بالفشل . فهو محارب مقدام لا تجده الا متقدماً أمام الجميع ، وهو في نظر البعض مجاهد يطلب الموت لتوهب له الحياة . ولذلك لم يكن في حاجة الى حراسة ولا بوابين . وقد وصفه الواصفون عندئذ بأنه كان بسيط اللباس والأكل والمظهر ، وأن التواضع والزهد والذكاء والحزم من سماته . وإن في امكانه أن يأكل الكسكسي تحت أية خيمة ، وأن يشرب من أي نهر ومن أي كوب يشاء دون أن يخاف سما ، وأن يضع رجله حيث يشاء دون أن يخشى كميناً من أحد[117] . فهو فارس الفوارس وحامي الضمار ورب السيف والشعر.

ان كبار العسكريين الفرنسيين الذين حاربوا الأمير (وكذلك وزيرهم للحربية ـ المارشال سولت) قد فهموا جيداً خطة الأمير . وعملوا ما في وسعهم على عرقلة تنفيذها لأنها تخرجهم من الجزائر ، وتعيد مجد الإسلام ، وتبعث تياراً جديداً اسمه القومية العربية . وقد تعاونوا في ذلك ، كما قلنا ، مع الكنيسة والماسونية وأغبياء المسلمين (سلاطين وعلماء) لكسر شوكة الأمير ، الممثل لهذا الفجر الجديد . ولنرجع إلى كتابات بوجو ، وسولت ، وفاليه ، ودوفيفييه ، ولا موريسيير الخ . فإن فيها الجواب اليقين عما كانوا يحسونه منه ويلاحظونه عليه في هذا المجال ، وكيف خططوا وعملوا على إطفاء شعلته قبل أن تحرقهم[118] .

10. رجال من صنف آخر :

شهدت فترة الأربعينات أبطالاً آخرين وزعانف عديدين . وكلما ازداد العدو قهراً وغلبة ظهر من المقاومين له أشكال وألوان ، كما ظهر من الموالين له أشكال

(117) بوجولا (دراسات . . .) ، ج 2 ، ص 103 . أنظر أيضاً ل . قان في مقالته عن قصيدة الأمير في تلمسان ، في (المجلة الافريقية) ، 1883 ، ص 228 .

(118) ذكرنا من قبل بعض آراء هؤلاء ، وتضاف اليهم آراء ليون روش ويوجين دوماس ، وشارل هنري تشرشل ، والإسكندر بيلمار (وكلهم عاصروه وخبروه) ، بالإضافة إلى بعض رجال الكنيسة ـ بعد هزيمته طبعاً ـ ورجال الماسونية بعد أن انخدع هو بهم .

وألوان . ولم يكن كل المقاومين من صنف الأمير عبد القادر ، ولا كل الموالين من نوع مصطفى بن اسماعيل وبوعزيز بن قانة ومحمد التجاني . كان منهم من ظهر ظهور الشهاب ثم اختفى ، ومنهم من ظهر لتمثيل دور درب عليه ثم ابتعد عن المسرح ، ومنهم من انتصب تمثالاً دائماً للخيانة طيلة عهد الإحتلال . وإذا كان في العهود اللاحقة نماذج من هؤلاء وأولئك ، فإننا نكتفي بالنسبة إلى عهد هذا الفصل بالتعرض لبعض هذا الصنف من الناس ، سواء الذين بدلوا وغيروا أو الذين ثبتوا على الحق كالجبال الراسية .

ان التسلسل التاريخي للأحداث يجعلنا نبدأ بالشيخ الحاج علي السعدي . ولكي لا نكرر ما قلناه عنه سابقاً نحيل القارىء إلى الفصل الثاني ليعرف أولياته وجهاده . فقد حارب العدو في متيجة ، ثم اتصل بالأمير الذي استخلفه على بلاد القبائل (1835 ـ 1837) ، وحين استخلف الأمير أحمد الطيب بن سالم بدله في هذه السنة ، ظل الحاج السعدي يناضل في المنطقة إلى أن توفي سنة 1843 ، وهي السنة التي فقد فيها الأمير زمالته وأعظم خلفائه محمد بن علال ومحمد البركاني أيضاً .

وكان دور السعدي وابن سالم عظيماً في المنطقة . فقد اعترضت قوات الأخير طريق جيش العدو من قسنطينة إلى الجزائر ، وكانوا درعاً واقياً للأمير أثناء زيارتيه الأولى والثانية لبلاد القبائل وتنظيمها . وكانت هذه هي أمله الأخير في الهجوم على مدينة الجزائر سنة 1846 بعد أن تغلب عليه العدو في الإقليمين الغربي والأوسط ، وبعد أن أعلن سلطان فاس الحرب ضده . فقد توجه الأمير بنفسه في هذه السنة في حركة خاطفة ورائعة قطع خلالها نحو خمسين ميلاً في الليلة الواحدة ليصل إلى بلاد القبائل ويجند منهم جيشاً هجم به على العدو . وكان هذا آخر هجوم له في وسط الجزائر وعند أبواب العاصمة . وكان خليفته هناك أحمد الطيب بن سالم ، من أقوى خلفائه وأوفاهم له . وقد ظل على عهده معه إلى أن انقطع الأمير في المغرب وضيق الفرنسيون الخناق على ابن سالم فوضع هذا سلاحه في ابريل 1847 .

لقد حاول بوجو أن يهاجم بلاد القبائل ويعاقبها ، كما فعل في الجهات الأخرى ، على تأييدها للأمير . وكان ذلك في ابريل 1844 . ولكن أهل القبائل جندوا حوالي خمسة وعشرين ألف محارب ، واعترفوا بدفع الضريبة للأمير ،

واستقبال جيشه ، وتعاهدوا فيما بينهم على الصمود في الحرب ورفض الإستسلام لشروط بوجو ، ولو ماتوا عن آخرهم . ورغم انّ بوجو قضى في حملته الظالمة ضد بلاد القبائل شهراً كاملاً ، فإنه رجع منها خائباً إذ لم يحقق أي نصر أو تقدم مدعياً أنه كان مضطراً للرجوع إلى الجزائر ليقود جيشه ضد الجيش المغربي في ايزلي[119] .

وقد توطدت صلات الأمير ببلاد القبائل عن طريق الزاوية الرحمانية أيضاً . اذ عرفنا أن هذه الزاوية كانت تمر بصعوبات في عهد الحاج البشير المغربي الذي تولاها منذ 1837 ، ومنها بعض الإنقسامات . وقد تدخل الأمير لإصلاح ذات البين ، فأعاد الحاج البشير إلى قيادة الزاوية بطلب من لالّة خديجة ، أرملة الشيخ محمد بن عيسى الذي كان قد خلف الشيخ محمد بن عبد الرحمن ، مؤسس الطريقة والزاوية . وبقي الحاج البشير على رأس الزاوية إلى وفاته سنة 1841 . وخلال حوالي سنتين تولى الزاوية الشيخ محمد بن بلقاسم نايت عنان ، ولكن سمعة الزاوية في عهده تضررت فتولاها سنة 1843 الحاج عمر ، وسيبقى الحاج عمر مدة طويلة نسبياً (إلى 1857 ؟) يدير الزاوية ، ولكن في ظرف صعب ، وهو محاولات الفرنسيين مهاجمة بلاد القبائل والإستيلاء عليها ودور الزاوية في قيادة الجهاد هناك . ولذلك فإننا سنعود إلى الحديث عن الحاج عمر في الفصل التالي[120] .

ولعل هجوم العدو سنة 1844 ووجود الأمير سنة 1846 هو الذي أظهر أيضاً شخصية محاربة أخرى في بلاد القبائل باسم الشريف محمد بوعود (أو راكب الحصان) . فقد ظل هذا الشريف يثير السكان للجهاد ضد الكافر هناك حوالي سنتين . ولا ندري ما إذا كانت حركته على صلة بالمقاومة التي كان يقودها الأمير أو أنها كانت مستقلة عنها أو فردية . كما اننا لا ندري الآن أهمية حركته ولا كيف انتهت ، رغم أن بعض المصادر تقول ان الشريف بوعود قد استسلم إلى الفرنسيين في سور الغزلان ، في مارس 1848[121] .

---

(119) بوجولا (دراسات . . .) ، ج 73/1 .

(120) أنظر عنه رين (مرابطون . . .) ، ص 458 . وكذلك رسائله إلى السلطات الفرنسية طالباً منها تركه يغادر الجزائر ، في ارشيف ايكس 11 1H .

(121) روبان (المجلةالافريقية) ، 1870 ، ص 349 .

ومن الشخصيات التي قادت ثورة بين سطيف وسور الغزلان ، محمد بن قويدر الذي كان من العذاورة . ولا يظهر أن ابن قويدر هذا كان من رجال الدين . فقد كان محارباً شجاعاً ، وكانت عائلته ذات نفوذ في العهد العثماني . وكان قد أعجب بحركة الأمير فانضم إليه ، ثم قاد سنة 1846 ثورة ضد العدو في ونوغة . ويبدو أنه كان كأمثاله الذين تغلب عليهم العدو ، فرضوا في الظاهر بالتعامل معه وقبلوا وظائفه ولكنهم في الباطن كانوا مع المقاومة . فرغم أن الفرنسيين عينوه قائداً على كسنّة ثم على العذاورة الشراقة، فإنه كان على علاقات مع الأمير. وقد توفي ابن قويدر، في جوان 1848[122] .

وقد ظلت بجاية نقطة خطيرة على العدو منذ احتلالها (1833) إلى الأربعينات . فقد غادرها سكانها ، وكونوا فرقاً لمنع العدو من الخروج منها . وهذا بوجولا الذي زارها سنة 1844 يقول انه لم يجد فيها سوى ثلاث عائلات عربية ومائة شخص أوروبي معظمهم اسبان ومالطيون، وفرقة عسكرية. وقال ان أي أوروبي لا يستطيع أن يخرج منها أبعد من مسافة ربع ساعة لوجود الخطر لأن المدينة محاصرة من السكان أنفسهم . ولذلك قال عنها انها « عبارة عن نقطة عسكرية حيث جنودنا كأنهم مساجين في مساحة ضيقة » . وقد قال نفس الشيء تقريباً عن جيجل إذ ان الأوروبيين فيها كانوا محاصرين ، وليس فيها سوى حوالي مائة عائلة عربية في حالة فقر ظاهر[123] . وقد ظلت هذه النقاط من الساحل في حالة خوف للعدو وحصار كبير من المجاهدين والأهالي إلى أن قام بوجو بحملته على المنطقة سنة 1847 وفرض تنظيمات جديدة بالقهر والجبروت .

أما الحاج موسى الدرقاوي فلم يكن له صدى كبير خلال الأربعينات . وقد عرفنا أنه كان قد ورد من مصر واعتنق مبادىء الطريقة المدنية (الشاذلية) بطرابلس ، وانه اتصل بالشيخ العربي بن عطية شيخ الطريقة الدرقاوية في الونشريس وأنه قد دخل المدية بصفة الجهاد ، وكان على صلة أيضاً بالبركاني في شرشال

---

(122) بورجاد (المجلة الافريقية)، 1888 ، ص 260 .

(123) بوجولا (دراسات . . .) ، 1/221 ، 226 . أنظر كذلك شارل فيرو (المجلة الافريقية) 1859 ، ص 443 .

والحاج محيي الدين بن مبارك في البليدة . وان الحاج موسى قد التقى بالأمير ناحية الشلف، ولم يتفاهما بل تحاربا، وتغلب عليه الأمير وبقي نشيطاً في الجنوب فترة، ثم دخل بلاد القبائل حيث بقي مدة دون أن يكون له دور يذكر ، إلى أن وقعت ثورة الزعاطشة فالتحق بها واستشهد إلى جانب زعيمها بوزيان سنة 1849[124] .

ومن الثوار الدرقاويين أيضاً عبد الرحمن العامري الطوطي في سيدي بلعباس ونواحيها. لقد كان هو مقدم الدرقاوية هناك بتسمية شيخه محمد بن إبراهيم (توفى هذا سنة 1840). وتذكر المصادر الفرنسية ان محمد بن ابراهيم حاول أن يثني عزم تلميذه الطوطي عن محاربة المسيحيين ففشل مثل ما فشل العربي بن عطية في ثني عزيمة الحاج موسى . وتقول هذه المصادر التي لا نثق فيها كل الثقة ، ان الشيخ الطوطي كان يتصل أيضاً بالشيخ العربي بن عطية في الونشريس والحاج محمد بن عبد المؤمن في الريف (المغرب) ثم يظهر لأنصاره ان هذين الشيخين يؤيدانه . وبناء على ذلك فان العملية الفدائية التي أشرنا إليها والتي أدت إلى مقتل عشرين من العدو واستشهاد المجاهدين المهاجمين في سيدي بلعباس سنة 1845 (1261) ، كانت من تنفيذ الطوطي . وكان عدد مجاهديه ستة وستين ، حسب هذا المصدر[125] . ويقول الشقراني : ان الطوطي ثار على الفرنسيين بفقرائه (أتباعه في الطريقة الدرقاوية) في سيدي بلعباس سنة 1261 (1845) ، وكان ذلك يوم السوق ، فكان مآله ومآل من معه القتل . ولم تفده ثورته شيئاً[126] .

ويتحدث الشقراني عن ثورة أخرى نسبها إلى أبي سيف الخويدي في نفس السنة أيضاً (1261هـ) ولكنه لم يحدد مكانها ولا طريقة صاحبها. ولكنه يعلق على ذلك بقوله أن الخويدي لم يستطع هزيمة الفرنسيين « في قرية فما بالك في قاعدة

(124) رين (مرابطون . . .) ، ص 241 . وسنعود بالإشارة إلى الحاج موسى الدرقاوي عند تناولنا لثورة الزعاطشة .

(125) نفسه ، ص 239 . ويذهب رين إلى أن الطوطي قتل نتيجة خيانة بعض أتباعه . ويشير بيري Perret (رحلة جزائرية) ص 386 - سبق ذكره - إلى هذه الثورة الدرقاوية ، دون ذكر صاحبها بالإسم ، ولا عدد المهاجرين ، ولكنه يذكر ان القائمين بها كانوا هم أولاد إبراهيم الدرقاويين ، وان عدد المقتولين من الفرنسيين كانوا حوالي عشرين .

(126) الشقراني (القول الأوسط) ، مخطوط علي أمقران .

(يعني مدينة) . . . وما نال إلا التعب » . فهل كان الخويدي أيضاً درقاوياً ؟ ولكن أين ثار يا ترى ؟ أما عبارة : وما نال إلا التعب ، فالظاهر انها تفيد أن الخويدي لم يقتل ، كما قتل الطوطي .

وفي جنوب إقليم المدية كان أولاد مختار من أقوى العناصر في المراحل الأولى للمقاومة . وكان زعيمهم ابن عودة المختاري في حالة غير مستقرة تبعاً لتبدل الأيدي على المدية منذ الاحتلال . ومنذ 1837 أصبح المختاري وأبو الضياف زعيم أولاد ماضي من أقوى المؤيدين للأمير والمقاومة . وظهر حماس المختاري للقضية الوطنية سنة 1843 حين اهتز جنوب الإقليم ضد العدو ، وضد الدوق دومال على الخصوص الذي كان عندئذ (ابريل) يفرض على الناس هناك حكم فرنسا بالحديد والنار قبل أن يستولي على زمالة الأمير . ورغم ظهور بعض الموافقين على الدخول في طاعة العدو من قومه ، فإن المختاري ظل على كفاحه إلى سنة 1845[127] .

ولا ندري إن كان ابن عودة المختاري عندئذ على صلة بالحاج موسى الدرقاوي الذي استمر هو أيضاً في خوض الكفاح ضد العدو في الجنوب (مسعد ونواحيها) وأسس هناك أيضاً فرعاً للدرقاوية ـ المدنية . ولكن المؤكد هو ان المختاري ظل حياً إلى سنة 1864 حين اندلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ وباركها وانخرط قومه فيها ، رغم كبر سنه .

* * *

كان استئناف الحرب بين الأمير والعدو سنة 1839 قد أدى إلى اغتنام المترددين الفرصة والإنقلاب عليه . ومن المناطق التي تركها الأمير غير ممهدة ، الأغواط وعين ماضي . فرغم وجود عاصمته في تاكدامت فإن سلطته في الصحراء الوسطى كانت غير مؤكدة . فقد كان أحمد بن سالم متمرداً عنه في الأغواط ونواحيها وكان نفوذ التجاني ما يزال قوياً رغم احتلال عين ماضي . ويبدو أن هناك عدة عوامل ساعدت على عدم الإستقرار ، أولها ضعف قيادة الحاج العربي بن عيسى ، خليفة الأمير على الأغواط ونواحيها ، وثانيها قرب الأغواط من منطقة نفوذ العدو ، ولا سيما بعد أن احتل هذا المدية سنة 1840 ، ثم ان أحمد بن سالم كان طموحاً للحكم مستغلاً من

---

(127) تروملي (المجلة الافريقية) ، 1876 ، ص 381 .

أجل ذلك كل الطرق : نفوذ التجاني الذي يدعي الإنتماء إلى طريقته ، ونفوذ الفرنسيين أيضاً . وهكذا كانت سنوات 1839 ـ 1844 قد مثلت صراعاً بين المقاومة وأعدائها في نواحي تجمعوت ـ عين ماضي ـ الأغواط ، وكان ذلك الصراع قد مهد الطريق أمام دخول الجنرال ماري الأغواط واحتلالها سنة 1844 .

ودون أن ندخل في التفاصيل نذكر أن تعاون أحمد بن سالم ومحمد التجاني والفرنسيين قد أدى إلى هزيمة خليفة الأمير الحاج العربي بن عيسى . فقد حاول الأمير تدعيم خليفته بثلاث مائة فارس، وجمع الخليفة قواته واستقر أولاً في تجمعوت. وحاول الخليفة مهاجمة عين ماضي التي ما تزال أسوارها مهدمة منذ دخلها الأمير سنة 1838 ، ولكنه لم يستطع اقتحامها لأن ابن سالم والتجاني صداه عنها . ثم دارت سنة 1840 مناوشات بين الطرفين ، الحاج العربي وابن سالم المدعوم بالتجاني ، أدت إلى هزيمة خليفة الأمير خصوصاً بعد أن احتاج الأمير إلى الفرسان الثلاثمائة . وكان ميدان المناوشات هو تاجمعوت ، والصافية وقصر الحيران . وفي المكان الأخير قتل الحاج العربي سنة 1843 ، فكان الخليفة الرابع الذي فقده الأمير خلال هذه السنة (بعد ابن علال ، والبركاني ، والحاج السعدي) .

وكانت السنة التالية (1844) هي السنة التي افتك فيها العدو من المقاومة مدناً ومناطق صحراوية هامة ، مثل الأغواط وبسكرة . فقد وجد الجنرال ماري عندئذ الطريق ممهدة في تاجمعوت ، وكان ابن سالم ينتظره فيها ، وكان الجنرال ينتظر وصول التجاني أيضاً ، ولكن هذا أرسل أعيان عين ماضي وحصاناً ورسالة خضوع ، وأعلن أنه ليس رجل دنيا وليس من عادته مقابلة الحكام ، وهو نفس التعلل الذي كان قد أبداه للأمير أيضاً . وحاول الجنرال الفرنسي اختبار صدق التجاني والتجسس على المدينة ، فأرسل بعثة بقيادة سطارنو (سانت آرنو) إلى عين ماضي ، فلقيت ما كانت تريده . وفرض العدو ضريبة على أهل عين ماضي قدرها 3720 ف على أن تدفع في اليوم الموالي[128] . وقد استغل العدو الخلاف بين الأمير والتجاني ، وبين الأمير وابن سالم ، فأظهر نفسه أنه هو الصديق الذي يعتد به ، وأنه الحكم الذي يرجع إليه في الملمات ، وأنه هو القادر والقاهر . وكان ذلك بداية الخطبة (بكسر الخاء) بين

(128) كينيدي ، (الجزائر وتونس) ، 1/220 ـ 227 .

التجاني وفرنسا ، وهي الخطبة التي انتهت بزواج سعيد لا تكاد تشوبه شائبة .

ثم سار الموكب ، ماري وابن سالم ، إلى الأغواط فدخلها أيضاً سنة 1844 . وهناك وقع تنصيب ابن سالم رسمياً خليفة للفرنسيين « حيث يستطيع » ، ما دام سيحارب خلفاء الأمير ويضرب المقاومة ، ويجبي الضرائب من المواطنين ويقدمها للعدو . ونحن نقول « حيث يستطيع » لأن صيغة التنصيب وردت أن سلطته تمتد من أولاد السائح (قرب تقرت)[129] شرقاً إلى أولاد سيدي الشيخ غرباً ، مروراً بوادي ميزاب والشعانبة[130] الخ . ولكن ذلك كان مجرد شراء مؤقت أي إلى أن يجمع العدو أمره ، ويقضي على قائد المقاومة ، ثم يعود إلى ابن سالم وأمثاله ، ممن كانوا يسمون بالزعامات الأهلية ، فيقلم أظفارهم ويحدد مجالهم ، وينزع منهم كل السلطات ما عدا البرنس والجراية وعصا لضرب المواطنين .

***

وان الصراع بين المقاومة والعدو في المناطق الصحراوية قد اشتد أكثر في نواحي بسكرة والزيبان . لقد كانت الحوادث في هذه المنطقة معقدة لوجود عدة عوامل : شخصيات محلية متنافسة ، ووجود سلطة الأمير ، ووجود بقايا الحاج أحمد ، وتعدد الطرق الصوفية ، وأخيراً وجود العدو في قسنطينة ومد نظره وأياديه نحو الأوراس والصحراء من هناك . بين 1830 و 1839 كانت المنافسة بين أسرتي بوعكاز (فرحات بن سعيد) وابن قانة أخوال الحاج أحمد . وقد أدى ذلك إلى معاداة فرحات بن سعيد للحاج أحمد وهي المعاداة التي استمرت إلى احتلال قسنطينة 1837 . وقادت تلك المعاداة إلى عرض فرحات بن سعيد التعاون مع أي عدو من أعداء الحاج أحمد (وحليفه ابن قانة) سواء كان ذلك العدو إبراهيم الكريتلي أو الفرنسيين أو حتى الأمير ، ورغم مناورات ابن سعيد وشجاعته وثباته على المطالبة

---

(129) لم تصل سلطة ابن سالم إلى تقرت نفسها لأنها كانت تحت عائلة بني جلاب ، ولكن هذه العائلة اتصلت بالأمير وتهادت معه وأعلنت ولاءها للمقاومة بعد نجاح الأمير في عين ماضي وبعد بناء تاكدامت . ويذكر ليون روش ان الأمير أرسل بعثة إلى بني جلاب بقيادة كاتبه محمد الخروبي ، (ورافقه هو : ليون روش إلى هناك) ، أنظر الجزء الأول من كتابه : (اثنان وثلاثون سنة . . .) .

(130) تروملي (المجلة الافريقية) ، 1877 ، ص 73 .

بحقه في حكم عرب الزاب ، فإنه لم ينجح ومات دون هدفه ، كما سنرى . ومنذ 1839 قبل بوعزيز بن قانة ، شيخ العرب ، الدخول في طاعة الفرنسيين فعينوه خليفة لهم في الزيبان بعد أن تخلى عن مساندة الحاج أحمد الذي لم يعد له فيه فائدة . ومن ثمة انحصر النزاع في المنطقة من نزاع عائلي على السلطة إلى نزاع سياسي بين المقاومة وممثليها من جهة وبين العدو وأنصاره من جهة أخرى . وقد استمر هذا النزاع حتى بعد إستيلاء الفرنسيين على بسكرة سنة 1844 .

وسنحاول تقسيم تطور الأحداث هناك إلى مراحل : مرحلة النزاع بين الفرنسيين (ابن قانة) والأمير (ابن عزوز - ابن سعيد) 1839 - 1841 ، ومرحلة النزاع بين الفرنسيين (ابن قانة) والأمير (ابن الحاج) ، 1841 - 1844 ، وأخيراً مرحلة احتلال بسكرة من قبل قوات العدو ونهاية حركة الأمير فيها .

عرفنا أن الأمير عين فرحات بن سعيد خليفة عنه في الزيبان سنة 1838 ، أثناء تنظيم دولته . وكان هدف الأمير من ذلك مقاومة نفوذ الحاج أحمد في المنطقة وإثبات حقه في حكم شرق الجزائر كما فهم الأمير من معاهدة التافنة ومنع الفرنسيين من التسرب إلى الصحراء . ولكن الأمير الذي كان يعرف تقلبات فرحات بن سعيد وطموحاته كان لا يثق فيه كل الثقة ، خصوصاً وقد كان طموحه لا يعرف الحدود ولم يكن من المرابطين . ولما اكتشف الأمير مراسلاته مع العدو (وقد أشرنا إلى أن فاليه كان يحاول فصل خلفاء الأمير عنه) عزله وأبقاه تحت نظره وعين بدله الحسين بن عزوز سنة 1839 . وقد أرسل الأمير فرقة عسكرية بقيادة أخيه مصطفى بن محيي الدين ومحمد البركاني لتنصيب ابن عزوز وإضفاء الشرعية على سلطته في الزيبان . قام الخليفة ابن عزوز بمهمته ، فكون جيشاً نظامياً مثل جيش الأمير ، وفاوض رؤساء العشائر وراسل الأعيان . فكانت الدلائل تدل على نجاحه ، خصوصاً وقد انسحب الحاج أحمد من المنطقة وتوجه إلى مقرة ثم الصحراء . ولكن العدو رأى أن يقلب الموازين لصالحه ، فعين بوعزيز بن قانة خليفة عنه في الزيبان وأمده بالمؤونة والعتاد ووجهه لضرب حركة الأمير والمقاومة هناك . وكان ابن قانة قد أحس بخطر جديد يتهدده . فإلى جانب منافسة عائلة بوعكاز له ، ظهر نفوذ الأمير ثم نفوذ عائلة ابن عزوز الدينية. وها نحن نرى أن الطريقة الرحمانية (العزوزية) مع ابن قانة لم تكن كالطريقة التجانية مع أحمد بن سالم . فابن عزوز كان مستعداً للمقاومة وتولى

السلطة وقيادة الجيوش بخلاف التجاني[131] . ورغم حزم وشجاعة ابن عزوز فقد انهزم في مارس 1840 ، فانسحب إلى المسيلة حيث كان أخو الأمير وممثله محمد الخروبي . وبقي ابن عزوز يخطط للعودة إلى الزيبان واستئناف جهاده إلى سنة 1841 . ولكن العدو احتل المسيلة ، ومع ذلك رجع إليها إبن عزوز وأخذ يحث الناس على الجهاد ، فقبض عليه أحمد المقراني ، وسلمه للفرنسيين الذين نفوه إلى جزيرة سان مرغريت ، كما أشرنا[132] .

بعد هزيمة ابن عزوز أعاد الأمير فرحات بن سعيد إلى الزيبان لعله يسيطر على الموقف لصالحه . و وجه معه البركاني ومحمد الخروبي إلى بسكرة ، وأعادوا الأمن للناس ، وجمعوا الضرائب ، ورتبوا الجند . وكان محمد الصغير بن الحاج بن عبد الرحمن معهم . وبعد انصراف البركاني والخروبي أخذ الرجلان (ابن سعيد ومحمد الصغير بن الحاج) في تنظيم الأمور واستعادة الثقة وجمع الضرائب وتجنيد الجند للمقاومة . ولكن فرحات بن سعيد لم يلبث أن قتل بالقرب من أولاد جلال (1841) ، ودفن في سيدي خالد[133] . وقد عين الأمير محمد الصغير بن الحاج خليفة جديداً عنه . وظل النفوذ للأمير في الزيبان قوياً رغم تقلبات الأحوال ، ورغم وجود ابن قانة هناك ، ولم ترجح الكفة للفرنسيين وممثلهم ابن قانة إلا ابتداء من سنة 1844 عند إحتلال بسكرة[134] .

---

(131) وصف سيروكا (المجلة الافريقية) 1912 ، ص 403 ، عائلة ابن عزوز بأنها من أكبر العائلات الصحراوية الدينية ، وان مقرها هو البرج (برج ابن عزوز) ، وانها تنتمي للطريقة الرحمانية ، وان محمد بن عزوز اخ الحسين كان هو مقدم هذه الطريقة بالبرج . وذكر ان الحسين اكتسب التدريب العسكري من عمله في زمالة فرحات بن سعيد . وقال عنه ان له رأساً عظيمة وأطرافاً ضخمة وصوتاً يشبه زئير الأسد ، وانه كان فارساً مقداماً .

(132) أنظر ما مضى ، وبعد مراسلات وشكاوي ، أعاده الفرنسيون إلى الجزائر وسجنوه في عنابة حيث مات سنة 1847 . اعتبره حاكم قسنطينة (نيقرييه) من أخطر العناصر ، وطلب عدم السماح له بالعودة إلى الاقليم مطلقاً . وقد بقي ابن عزوز في الجزيرة المذكورة ، حسب بعض المصادر ، 26 شهراً . أنظر ياكونو (المجلة التاريخية المغربية) ، رقم 1 ، 1974 ، ص 56 .

(133) أصبح ابنه (علي باي) من أبرز « الزعامات الأهلية » التي كانت في النصف الثاني من القرن الماضي ، كما سنرى ، وهو كما عرفنا من عائلة بوعكاز المنافسة لعائلة ابن قانة . وقد عينه الفرنسيون بعيداً عن الزيبان بأن جعلوه قائداً على وادي ريغ ووادي سوف .

(134) أنظر الدكتور قويون Guyon ، (رحلة من الجزائر إلى الزيبان) ، ص 249 .

كان محمد الصغير بن الحاج من رجال الدين ، مقدماً من مقدمي بلدة سيدي عقبة . ولكنه كان أيضاً محارباً ومؤمناً بضرورة الجهاد ومقاومة العدو . سبق له العمل مع خلفاء وأنصار الأمير في المنطقة . وها هو الآن يصبح مسؤولاً عنها . وقد نصبه في مسؤوليته خليفة الأمير في الحضنة ، أحمد بن عمر ، وترك له بعض الجنود والمعدات ، وذلك سنة 1843 . ولكن خلافة ابن الحاج جاءت في وقت حرج للمقاومة ، وقت كان العدو فيه قد استعمل كل وسائله للقضاء عليها ، كما عرفنا ، وتعتبر سنة 1843 من السنوات البارزة في عمر المقاومة لما تكبدته من خسائر ، خصوصاً بعد الزمالة ، وكذلك سنة 1844 التي وقعت فيها معاهدة طنجة التي عزلت المغرب عن الأمير . وهكذا فإنه بالرغم من الجهود الجبارة التي بذلها ابن الحاج فإنه لم يستطع وقف تقدم العدو المدعوم بقوات من المنطقة . فبمساعدة ابن قانة دخلت القوات الفرنسية بسكرة (4 مارس 1844) ، ولكن ابن الحاج كان قد غادرها قبل خمسة أيام مع جنوده النظاميين . وقد توجه بهم إلى الأوراس ، كما خرج معه بعض السكان . واشتدت الحرب بين المقاومين والعدو في مشونش ؛ وفي الوادي الأبيض دارت معارك بالسلاح الأبيض . وقتل فيها للعدو ضابط وعدد من الجنود . ولم يجد العدو ساكناً في مشونش بل كانت خاوية ومخربة . وهاجم المجاهدون مركز باتنة الذي جعله العدو مقدمة لغزو الصحراء ، وقتلوا واحداً وستين من جنود العدو[135] . وبعد ذلك لجأ الخليفة محمد الصغير بن الحاج إلى بلاد الجريد (تونس) مؤقتاً .

وكان احتلال بسكرة على يد الدوق دومال . ولعل مساعدة الطريقة التجانية كانت وراء هذا الاحتلال كما كانت وراء احتلال الأغواط وعين ماضي . فقد ذهبت بعض المصادر إلى أن الفرع التجاني في تماسين ثبط عزائم الناس الراغبين في الجهاد والذين جاؤوه يستشيرونه فيما يعملون ، من تقرت وسوف ، اذ اكتفى بقوله : ابقوا حيث أنتم ، لقد أراد الله بالجزائر ذلك[136] . وقد واصل الدوق حملته على الزيبان وإلى جانبه ابن قانة ، متتبعاً آثار محمد بن الحاج في الأوراس . وكان يعاقب كل القرى والمدن التي يمر بها بدعوى انها قدمت مساعدة لخليفة الأمير . ولماذا لا ؟

---

(135) نفس المصدر ، ص 273 .

(136) الدكتور ف . جاكو Jacquot (حملة الجنرال كافينياك) ، ص 296 .

وقد جاء ليطبق سياسة بوجو ، بل سياسة الحكومة الفرنسية في الاحتلال الشامل بكل الوسائل . ومن ضحاياه في ذلك بسكرة ومشونش . وقد ظن دومال أنه « نظم » أمور بسكرة فوزع السلطة بين ابن قانة وعدد من المسؤولين الجدد ، حتى لا ينفرد ابن قانة بهذه المنطقة الشاسعة ، وحتى يكون له من يوازيه في السلطة اذا حدثته نفسه ذات يوم بالتمرد ، خصوصاً وأن نسيبه الحاج أحمد ما يزال غير بعيد منه ، كما أنهم أرادوا أن يزيلوا هيبة محمد بن الحاج وسلطة الأمير في المنطقة فعينوا سي مقران (وهو من عائلة الخليفة محمد بن الحاج) على قيادة جديدة تضم الحضنة والسحاري الخ . ورضي سلطان تقرت بدفع الضريبة لفرنسا بشرط السماح له بالمتاجرة. وأصبح تحت شيخ العرب (ابن قانة) عدد من القياد والشيوخ كوسطاء يراقبهم ويراقبونه أيضاً . ولكن سي مقران المذكور كان مطلق السلطة (بدون وسطاء) . وقسم الدوق كذلك الزاب الشرقي بين عائلتين أخريين متنافستين كذلك . وترك حامية فرنسية في بسكرة وادارة سياسية (مكتب عربي) يشرف على الأجزاء التي ظن أنها خضعت له من الزيبان . وأسرع بالعودة إلى باتنة التي عرف أن أولاد سلطان قد هاجموها .

ولكن ما كاد الدوق يخرج من بسكرة حتى وقعت فيها ثورة دموية قلبت الوضع وأعادت هيبة الأمير والمقاومة الوطنية . كانت الحركة الجديدة قد تولاها علي بن ميلي ، الذي قاد في 12 مايو 1844 ، الهجوم على قصبة بسكرة حيث الحامية الفرنسية . وقد سحقت الحامية العدوة سحقاً بحيث لم ينج منها الا شخص كان في حضن امرأة عاهرة[137] . وفي اليوم التالي للهجوم رجع الخليفة محمد بن

(137) اختلفت الروايات حول « نجاة » الجندي الفرنسي (بيليس) الذي كان برتبة سرجان ، فاما سيروكا فيقول انه تمكن من الوصول إلى طولقة مع القائد الذي تركه دومال على بسكرة . أنظر (المجلة الافريقية) ، 1912 ، ص 431 . واما لويس رين فيروي ان الوثائق الفرنسية تذكر ان بيليس هرب من النافذة وأوصل الخبر . ولكن رين نازع هذه الرواية ، وقال إن بيليس كان مع فتاة في بيتها ، وكانت الفتاة تعرف عن الهجوم مقدماً فهربته ، وقال ان ذلك هو ما تناقله الجنود وما أشاعه الأهالي . وبعد ان هربته الفتاة إلى طولقة توجه منها إلى باتنة ليحدث قيادته عما وقع للحامية في بسكرة . ويقول رين انه لقي شخصياً هذه المرأة سنة 1866 ، فكانت « شيخة » العاهرات في بسكرة والواسطة بينهن وبين الشرطة والسلطات المحلية . أنظر رين (مرابطون . . .) ص 483 . واما بعض الوثائق الأهلية فتذكر ان بيليس هرب إلى رجل مسلم من الأعراب فأمنه إلى أن وصل إلى الدوق دومال وأخبره بقصة الحامية ، وقد قتل المسلمون ذلك الرجل الذي اخفى بيليس بعد أن تعرفوا عليه . أنظر ذلك في الرسالة التي نشرها يحيى بوعزيز في (المجلة التاريخية المغربية) ، 2 (1974) ، ص 100 .

الحاج من الجريد واحتل القصبة من جديد ، ورفع راية الأمير عليهـا ، وكتب إلى الأمير يبشره بالنصر على العدو . وقد بقيت بعض الوثائق حول هذا الهجوم لم تر الضوء الا أخيراً[138] . وهي وثائق تؤكد مدى قوة الهجوم على العدو . فبالاضافة إلى الاستيلاء على القصبة وقتل الحامية عن آخرهـا ، غنم المجاهـدون خزينـة العدو ومؤونته ومدافعه وسلاحه . ومن القتلى عندئذ الضابطان : بوتي ـ قان Petit-Gand وكروشار ، والجراح ارسلان . أما الغنائم فقد ذكرها الخليفة نفسه محمد الصغير بن الحاج إلى عامله « قائد النواحي الشرقية » ، ابراهيم بن عون ، في رسالة اليه ، وهي قوله : « ظفرنا بجميع الخزنة من مدافع وسلاح وكور وبارود . . . ومَسَكْنا عِلْجَة ، ونحو الستون فرصا (كذا) » ، وتشير رسالة الخليفة إلى أن الجنود الجزائريين الذين كانوا في الحامية قد انضموا للمجاهدين[139] . وتذكر وثيقة أخرى أن الخليفة ابن الحاج قد استعمل الحيلة في الاستيلاء من جديد على بسكرة ، وذلك بـأن أرسل مجموعة من جنوده إلى بسكرة على أنهم هاربون منه وفي الليل فتحوا له الأبـواب وحدث الهجوم .

بقي الخليفة ابن الحاج أياماً في بسكرة يعيدها إلى حظيرة المقاومـة ويرتب أمورها ، ولكنه كان يعرف أن الفرنسيين سيعودون ، وأنهم سينتقمون من السكان . فخرج منها إلى الجبال عند أولاد داود . وتزود للحرب ، كما خرج معه السكان خوفاً من انتقام العدو . وفعلاً فقد رجع الدوق دومال إلى بسكرة ، وصادر أملاك الناس ، وبقي بها أسبوعاً «ينظم» سياستها ، ولا شك أنه عاتب ابن قانة ، ولعله شك في ولائه لفرنسا خلال هذه الظروف . اذ المفروض في نظر الفرنسيين أن لا يترك ابن قانة ذلك يحدث في منطقته . ثم أغار العدو على بلدة سيدي عقبة (موطن الخليفة محمد بن الحاج) وعاقب أهلها على ثورة الثاني عشر من مايو في بسكرة ونواحيها ، واستولى لهم على قوتهم بأن أخذ مائة وثلاثين حمولة بغل من القمح . وهكذا كان التجويع والارهاب والقتل هو شعار حكم بوجو في كل مكان . أما الخليفةُ ابن الحاج فقد نزل

---

(138) مثل الوثائق التي نشرها يحيى بوعزيز ، المشار اليها في المرجع السابق .

(139) نفسه ، ص 102 . أنظر كذلك الدكتور قيون (رحلة . . .) ، ص 172 . وقد قال قيون ان الثورة قام بها « خونة » كانوا في « خدمتنا » وسلموا المدينة إلى خليفة الأمير .

عند أولاد صولة ، ثم توجه إلى خنقة سيدي ناجي ، في صيف 1844 ، ولكنه لم يستطع أن يمكث هناك طويلاً لأن الجنرال بيدو أخذ يطارده شخصياً بهدف القضاء على حركته في المنطقة ، كما كان لاموريسيير يطارد الأمير في الجهة الغربية . ولم يسع الخليفة ابن الحاج عندئذ الا اللجوء إلى الجريد عبر وادي سوف ، بعد أن أقام وقتاً في نقرين . ولم يبق معه من الاتباع الا حوالي ثلاثين شخصاً.

وقبل الحملة على بسكرة كان العدو قد احتل أيضاً تبسة وأنشأ باتنة كمركز أمامي لمراقبة الصحراء ، ذلك أن احتلال قسنطينة (1837) قد فتح شهية الفرنسيين للتوسع على حساب المقاومة في المنطقة ، فنصبوا « خلفاءهم » الراضين بحكمهم على الساحل وفرجيوة والحراكتة والزيبان ، الخ . ثم تقدم جيشهم نحو تبسة (1841) . وكان في تبسة مجتمع صغير متحرك نظراً لوجودها كقاعدة هامة في العهد العثماني ولوجودها بالقرب من حدود تونس التي ما تزال عثمانية . فكان في تبسة السكان الحضريون وأهل البادية الذين يفدون اليها للتجارة ونحوها . وتذكر المصادر أن قائد تبسة ومن معه من ذوي الميول العثمانية قد فروا إلى تونس بعد احتلال قسنطينة وتركوا المدينة نهب الأهواء وبدون سلطة ، فافتقر أهلها أشد الافتقار . وظهر عندئذ من يدعو إلى المقاومة ومن يدعو إلى قبول الأمر الواقع ، شأن ما وقع في أغلب المدن عندما تهددها الخطر . ولاشك أن بعض أتباع الحاج أحمد كانوا نشطين هناك ، وأن سلطات تونس كانت أيضاً تريد استغلال الموقف لصالحها . ومهما كان الأمر فإن حاكم قسنطينة (نيقريبه) قد احتل تبسة في نهاية شهر مايو 1841[140] ، رغم خروج بعض الناس منها خوفاً من الاضطهاد . ولا نعلم ما اذا كان للأمير عندئذ أنصار هناك . ولكن تبسة ستشهد ثورات متتالية ضد العدو بعد ذلك.

أما المركز الذي بناه العدو باسم باتنة، في فيفري 1844 ، استعداداً للزحف منه على الزيبان ، فقد وقع أيضاً تحت هجوم عنيف من المجاهدين ، وتكبد العدو فيه خسائر فادحة في الأرواح ، رغم أن المهاجمين لم يكن لديهم مدافع ولا أسلحة متطورة . وقد ذكر أحد الفرنسيين المعاصرين للأحداث أن الهجومين اللذين وقعا ضد

---

(140) فيرو (المجلة الافريقية) ، 1874 ، ص 431 .

المركز قد « كلفانا كثيراً من الناس ، غرم أن العدو (يعني المجاهـدين) لم يكن مسلحاً بغير الحجارة والهراوات » . وهذه الهجومات المتكررة على مركز باتنة هي التي جعلت الفـرنسيين يغيرون مـوقعه ، وينصبـونه في مكـان آخـر أكثـر حمـايـة واستراتيجية[141] .

بذلك كانت سنة 1844 سنة سيئة على المقاومة في الجزائر كلها . وكاد العدو يلقي بكلكله على صـدر الوطن كله ، لـولا تلك الانتفاضـات التي كان يقـوم بها « الأشراف » من وقت لآخر استمراراً لعملية الجهاد ، ولولا رجوع الأمير وانتعـاش الحـركة سنـة 1845 التي شهدت ثـورة عارمـة ، كما عـرفنا ، وهي الثـورة التي اشتركت فيها وبصفـة تلقائيـة عدة طـرق صوفيـة ، والتي اندلعت نتيجـة الارهاب والتجـويع والقتـل الذي طبقـه بوجـو ضد المـواطنين . وقـد حـدث نفس الشيء تقريباً في النـاحية الشـرقية أيضـاً ، ولكن على نطاق أضيق . فقـد ظهر الشـريف أحمد بن بلقاسم سنة 1846 في الزيبان فهزها وأعاد الأمل لحركة الجهاد ، وهاجم قوات العدو المتمركزة في ليانة وبادس والخنقة . وكان الشريف ابن بلقـاسم على رأس قوة من 250 فارساً وحوالي ألف محـارب ، وبدأ هجـومه في أوائـل نوفمبـر 1846 ، ثم جاءته نجدة من جبال ششار . وكان ذلك على أثر غارات سان جيرمان على بسكرة والخنقة وسيدي عقبة وليانة . ولكن هذه الانتفاضة كانت رد فعل سريع تلقائي فقط على الظلم والبطش الاستعماري . ولا نعرف أنها كانت متناسقة مع حركة الأمير ، أو على صلة بأية حركة أخرى سواء سياسية أو دينية . ولذلك تغلب عليها العدو وزاد في معاقبة من أيدها[142] .

وبالتنسيق مع الثورة في الغرب وتحت تأثير الأحداث التي عرفتها الجزائر خلال 1845 وما تلاها من اعتداءات وحشية من قبل العدو ، امتدت ألسنة الثورة إلى أعماق الجنوب أيضاً فشملت جنوب المدية والجلفة وأولاد جلال الخ . بالاضافة إلى بسكرة والأوراس التي كانت ما تزال تحت ضغط خليفة الأمير وهو محمد بن الحاج . وكانت الطرق الصوفية المناضلة تتجاوب مع بعضها تلقائياً . ذلك أن الشيخ المختار ابن عبد

---

(141) الدكتور قيون Guyon (رحلة . . .) ، ص 147 .

(142) عن انتفاضة احمد بن بلقاسم هذه أنظر سيروكا (المجلة الافريقية) ، 1912 ، ص 439 .

الرحمن ، رأس الزاوية الرحمانية بأولاد جلال ، قد تبنى قضية الثورة ، ونسق جهوده مع الشريف بومعزة الذي ظهر أيضاً في المنطقة خلال سنة 1846 . وقد تحركت القوات العدوة من مركز باتنة ، في فاتح يناير 1847 نحو المنطقة المتأججة ووجد الضابط (هيربيون) الناس هناك (في أولاد جلال ونواحيها) شاكين السلاح والنساء تزغرد ، والطرق مقطوعة ومترسة ، فدارت معركة حامية بين العدو والمجاهدين خسر فيها العدو أكثر من ثلاثين قتيلاً ، ولم يستطع حتى جمع جثثه وجرجاه ، أما الأسلحة والأمتعة فقد بقيت غنائم للمجاهدين . وكان الشريف بومعزة من بينهم ، ولكنه أحس بالخطر فتوجه إلى الشلف من جديد ، حيث قام ، كما ذكرنا ، بعدة محاولات متتالية أخرى ، وفي الأخير استسلم بومعزة لقائد أولاد يونس خلال شهر ابريل من نفس السنة (1847)[143] .

وفي شمال الحضنة ظهر مجاهد آخر سنة 1845 اسمه سعيد بن طبعين. وقد تزامنت ثورته مع الثورة الشاملة التي اندلعت في الإقليم الغربي ، وفي أذيال استعادة بسكرة من قبل خليفة الأمير ، بل ان ابن طبعين كان على صلة بكل من بومعزة ومحمد بن الحاج خليفة الأمير في الزيبان . وقد وجد ابن طبعين في الجنوب الشرقي تأييداً عظيماً ، وهاجم العدو ومن قبل بحكمه ، مثل زمالة القايد سي مقران الذي عينه الفرنسيون على السحارى . ظهر أول مرة في سبتمبر 1845 ، وهو الشهر الذي رجع فيه الأمير من المغرب إلى الجزائر ووقعت فيه معركة سيدي ابراهيم الشهيرة . ومن الذين ساندوا ابن طبعين أولاد ماضي والساونة وأولاد عمر . وجميعهم ، وخصوصاً أولاد عمر ، عاقبهم سان جيرمان سنة 1846 عقاباً صارماً على اعتناقهم فكرة المقاومة وتأييد ابن طبعين ، وقضية الأمير ، واستضافتهم زمالة محمد بن الحاج الذي تركها عندهم قبل لجوئه إلى وادي سوف ثم الجريد ، كما ذكرنا ، وشملت العقوبة المفروضة على أولاد عمر تسليم السلاح والخيل والإبل ودفع غرامة من عشرة آلاف فرنك . ولما ضيق الفرنسيون الخناق على سعيد بن طبعين توجه إلى بلاد القبائل (مايو 1846)[144] التي زارها الأمير حديثاً ، كما عرفنا ، والتي ما تزال فيها سلطة الخليفة أحمد الطيب بن سالم قوية .

***

(143) سيروكا (المجلة الافريقية) ، ص 444 . (144) نفس المصدر ، ص 438 .

إن الثورةالشاملة التي اندلعت في فاتح سنة 1845 قد أسفرت عن عدة أسماء لامعة في حركة المقاومة ، بالإضافة إلى إسم الأمير عبد القادر . ومن تلك الأسماء الشريف محمد بن عبد الله (بـومعزة)[145] . وانه من الملفت للنظر حقاً أن يمر قرن ونصف تقريباً على الثورة ولا نعرف الاسم الحقيقي لبـومعزة ولا تاريخ حياتـه ولا هويته . وكل ما نعرف عنه حتى الآن لا يعدو أن يكون اسطورة ممزوجة بالحقيقة . وكل المؤرخين ينقلون عن بعضهم البعض هذه الاسطورة ، والبارع منهم هو الذي يعتقد انها اسطورة ويسلطها على حالة البلاد عندئذ ويمر الى غيرها من الحـوادث والأساطير . فهل ان بـومعزة شخصية حقيقة أو انها شخصية يمكن أن تطلق على كل من نادى بالجهاد وأخفى اسمه الحقيقي وادعى الشرف وانتمى لإحدى الطرق الصوفية وأعلن انـه « مولى السـاعـة » و« المهـدي المنتـظر » ؟ لـو لم يقبض العـدو على « بـومعزة » ويرسل به إلى فرنسا ليسجن ويراه الناس ويتحدثون إليه ، لاعتقدنا أن كل زعماء الجهاد في الجزائر الذين نجهل أصلهم وفصلهم (مثل بـوبغلة ، وبـوحمار ، وبـوشوشة ، وبـوعـود ، وبـوسيف الخ .) يصـدق عليهم كنية بـومعـزة . ولكن ما الحيلة ، ونحن مضطرون إلى أن نعود إلى ما كتب الأولون وإلى ذكر حوادث العهد التي شارك فيها هؤلاء المجاهدون الذين أرادوا أن لا يكشفوا للناس عن هويتهم وأن يبقوا سرهم ونجواهم عند اللّٰه ؟

ان المعلومات التي أوردها المؤرخون حول شخصية الشريف بـومعزة ما تزال مضببة شأن الأخبار الاسطورية . فهو عندهم من المغرب الأقصى ، ويدقق بعضهم فيذكر انه من تارودانت ، وانه من أتباع الطريقة الطيبية المنتشرة في المغرب ناحية وزان والتي لها أتباع في الجزائر الغربية أيضاً . ويضيف أصحاب النوايا السياسية أن بـومعزة كان على صلة بسلطان فاس الذي كان يزوده بالذهب والسلاح لمحاربة الكفار

---

(145) عن بومعزة أنظر كتاب الضابط ريتشارد (دراسة عن ثورة الظهرة) 1848 ، وريشارد هذا هو الذي رافق بـومعزة إلى فـرنسا . وبـوجولا (دراسـات . . .) 11/119 ـ 120 ، و(طابلـو) 1844 ـ 1845 ، ص 2 ـ 5 ، وبيري (رحلات جزائريـة) بدون تـاريخ ، بـاريس ، ص 393 ـ 400 ، وروزي وكاريت (الجزائر) ، ص 340 . وتروي عن نهايته أخبار كثيرة ، منها انه عاش في بغداد ودمشق (مع الأمير) وزار المغرب العربي ثم عاد إلى الدولة العثمانية الخ . ومات بعد سنة 1878 . أنظر كذلك الأمير محمد (تحفة الزائر) ، ط . الاسكندرية ، 1903 ، ص 296 ، 313 الخ .

في الجزائر بعد أن فشل جيشه في ايزلي . ولكن الشاب بـومعزة (كان لا يتجاوز الخامسة والعشرين عندما سلم نفسه للفرنسيين سنة 1847 وهي سِنٌّ مشكوك فيها) كان نموذجاً للمحارب « المتعصب » في نظر الفرنسيين . فهو نحاسي البشرة واسع العينين أسودهما ، طويل القامة ، ذو هيبة وشخصية ، شجاع لا يعرف الخوف ، سريع التحرك لا يظفر به العدو ، فارس لا يشق له غبار . حـل بالجـزائر حـوالي 1838 ، أي بعد معاهدة التافنة وانتشار الهدوء . ونزل ناحية الشلف ، وتزوج من أولاد يونس ، وأخذ في العبادة وإظهار الـورع والتقى ، وكان في الحقيقـة يدرس الأحوال ، ويبني العلاقات ، وقد جلب معزة أصبحت رفيقة له ، وجعل من حليبها غذاء له ، حتى اشتهر بين الناس انـه « بومعـزة » . والغريب أنـه لا أحد حسبمـا نعرف ، تساءل ما اذا كانت هذه المعزة قد توقفت عن در الحليب بعض الوقت في العام شأن المعز الأخرى ؟

وكان بـومعزة شاهداً على ما نال السكان من ظلم وجور على أثر السياسة التي شنها بوجو ابتداء من 1841 . ولا ندري مـاذا كان بـومعزة يفعل نحو الجهاد منذ حل بالجزائر ، هل كان ينتظر تفاقم الظلم ليعلن جهاده ، أو انه كان يجاهد باسم آخر ، وفي الخفاء ؟ المهم ان سنوات 1842 ـ 1844 قد عرفت استهانة العـدو بقواعـد الحـرب فأخـذ يـطبق القتـل الجمـاعي والعقـاب الجمـاعي ، وفـرض الغـرامـات المجحفة ، وحرق أرزاق الناس وحشدهم كقطيع الغنم في زرائب ومحتشـدات . فأرهق الناس أشد الإرهاق ونالهم العناء والجوع ، فكثر تذمرهم وشكـواهم . وقد أجبر العدو الأمير على اللجوء إلى المغرب وكاد ينتهي حكمه وجيشه ، ووقعت زمالته في يد الدوق دومال كما وقعت دائرته تحت رحمة سلطان المغرب ، وليس هناك من بارق أمل ولا ضوء رجاء من أية جهة .

وفي هذه اللحظة التي بدا فيها كل شيء ضد الجهاد ارتفع صوت بـومعزة عالياً يعلن أن لا يأس ، ويلوح بسيف الجهاد في الأفق ، فيثبت الحائر ، ويرهب الجائر ، وينشط الخائر . فإذا معظم الجزائر في ثورة عارمة ضد الذين ظنوا انهم قضوا على المقاومة وناموا مستريحين. والعدو بالطبع لا يسمي هذه مقـاومة ولا ثـورة ، وإنما يسميها انتفاضة الظهرة التي أغرقت الجزائر في الدم والنار . هكذا يقول . فكأن عمل العدو نفسه قبل ذلك كان تجفيف الدم وإطفاء النيران . من هنا قلنا ان بـومعزة لم

يكن إلا واحداً من آلاف الجزائريين الذين ثاروا على العدوان سواء سنة 1871 ، وسنة 1945 ، وسنة 1954 . ان بعض المتحذلقين من الدارسين أرادوا أن يربطوا بين ثورة 1845 ومبادىء الطريقة الـطيبية[146] ، فيقـول أحدهم[147]: ان الـطيبية انتشرت في المناطق التي تكره الأرستقراطية العربية . وان الطيبية معروفة بالتنبؤ بأن البلاد ستستيقظ وتطرد الكفار ولو بعد حين ، وانها تؤمن بفكرة المهدي المنتظر ! ولو صدق هذا التحليل لكانت الثورات الجزائرية الأخرى كلها « طيبية » ، وكلها نتيجة لكراهية الارستقراطية العربية ، ونتيجة الإيمان بالمهدي المنتظر ! ثم لا يذكر هذا المتحذلق ان زعيم الطيبية في المغرب كان من أوائل « المدجنين » في التسعينات من القرن الماضي ، ولم يكتف الاستعمار باستخدامه في أغراضه التوسعية بل زوجه من امرأة أوروبية وجعل منه « مخدراً » للعامة كما سنرى في فصل لاحق .

في الواقع ان ثـورة 1845 كانت ثـورة ضد التعسف والنقص في الأرزاق ، واستمراراً لعملية المقاومة التي كان رمزها الأمير . ثم متى توقفت المقاومة حتى نعتقد انها ولدت في هذه السنة ؟ لقد كان الأمير يرسل رسائله ورسله إلى الناس من داخل الحدود المغربية ، وكان بعض حلفائه وقواده ما يزالون يكبدون العدو الخسائر الفادحة في الوسط والشرق . وكان الذين حسب العدو أنهم « استسلموا » لم يخضعوا له في الواقع إلاّ تحت تهديد السلاح . ولا ندري من المستفيد من الوضع الجديد ، أهو الأمير أو بـومعزة ؟ ان كل الدارسين تقريباً يجعلون بـومعزة هو الذي أطلق العنان لثورة 1845 وأن الأمير استفاد منها فقط ، فعاد وقام بمعركة سيدي ابراهيم ، ودخل بلاد القبائل من جديد ، وقاد هجوماً قوياً ضد العدو نواحي العـاصمة . ولكن الـدراسة التاريخية المتأنية لظروف 1842 ـ 1845 تجعل الشخص المستفيد من الوضع هو الشريف بو معزة ، إذ ان الثورة انطلقت بدونه ، ولم يظهر فيها إلا بعد حوالي ثلاثة أشهر من حدوثها .

بعد دراسة لأحوال الناس وأحوال العدو أعلن بومعزة الجهاد والانضمام للثورة . أخذ يهاجم العدو مباشرة في بادىء الأمر ثم سلك طريقة الكر والفر ، كما كان يفعل

---

(146) نسبة إلى الشيخ الطيب الوزاني .

(147) مارسيل ايمريت « الحياة العقلية . . . » في (مجلة التاريخ الحديث والمعاصر) ، 1954 ، ص 211 .

الأمير . واستخدم طريقة قتل المتعاونين مع العدو ، ولا سيما أولئك الذين قلدهم العدو وظائف سامية مثل الخلفاء والأغوات والقياد ، ومنهم بلقاسم ، قايد صبيح . وبذلك أخافهم ، حتى ان محاضر المحاكمة أثبتت أن أولئك المتعاونين كانوا في الحقيقة يؤيدونه بالمؤونة والسلاح والرجال . ويبدو ان بومعزة بقدر ما كان عنيفاً مع المتعاونين مع العدو ، كان بارعاً في جلب قلوب الناس إليه بالشجاعة ودعوة الجهاد وحتى بإظهار الكرامات ونحوها للعامة . والمعروف ان قبيلة أولاد رياح التي قتل منها بيلسييه أكثر من ألف نسمة صبرا في غار الفراشيش ، كانت من أنصار هذه الثورة ، وقد أثار اسم بومعزة الرعب في جيش العدو ، حتى أن بعض الكتاب قال ان بومعزة عند الفرنسيين ليس شخصاً وإنما هو رمز ، هو عَلَمٌ غير مرئي ، وغير محسوس ، انه عبارة عن أسطورة(148) . ويقول آخر منهم ان اسم بومعزة قد جمد شجاعة الفرسان الفرنسيين ، حتى لقد كانوا يهربون بخجل كلما رأوا عَلَمَهُ في الأفق(149) .

تنقل بومعزة بين 1845 ـ 1847 في نواحي عديدة من الجزائر : الظهرة ، والشلف ، وفليتة ، والونشريس ، وجبال الديرة ، والصحراء ، الخ . وكان يظهر ويختفي بسرعة ، وكان العدو يطارده في جهة ما فإذا به يظهر فجأة في جهة أخرى . وقد التقى بالأمير شخصياً ، ويبدو انهما لم يتفاهما على خطة واحد ، ولكن الأمير لم يحاربه كما حارب الحاج موسى الدرقاوي بل تركه في جهاده ، ربما باتفاق سري معه . ولكن بعدما عاد استبداد العدو أشد مما كان ، وذهبت حظوظ الأمير تتبخر بعد فشل هجومه على العاصمة ، وبعد استسلام الخليفة أحمد الطيب بن سالم ، بعد ذلك كله ، جاء بومعزة أيضاً إلى قايد أولاد يونس جهة الشلف (الأصنام) وسلم نفسه ، فقاده القايد إلى ممثل سلطة العدو هناك ، وهو سانطارنو (في 13 ابريل 1847) . فسلمه هذا إلى بوجو ، الذي حمله إلى فرنسا حيث سجن عدة سنوات(150) . ولكن الثورة لم تتوقف بعد استسلام بومعزة أيضاً . فالشهور الباقية

---

(148) بيري ، المرجع السابق ، ص 394 .

(149) سيروكا ، المرجع السابق ، ص 444 .

(150) حاول بومعزة الهروب سنة 1848 بعد قيام الثورة في فرنسا ، ثم أعيد إلى السجن (سجن الهم : Ham) . ثم أطلق سراحه لويس نابليون (1849) أثناء رئاسته للجمهورية ، وتوجه بومعزة إلى المشرق ، ودخل الجيش العثماني وحارب في حرب القرم مع المسلمين .
=

للأمير في الجزائر ظلت مليئة بالأحداث ، إذ كان السكان يتذمرون في كل النواحي ، ولم تجد قبضة الحديد التي سلطها عليها بوجو.

وهناك ناحية أخرى ظهر فيها الشريف بومعزة ظهوراً غير معروف كثيراً ، وهي ناحية شرشال . ففي سنة 1845 ظهر (مهدي) آخر في هذه الناحية وادّعى للعدو أنه أخ لبـومعزة ، وأن اسمه أيضاً محمد بن عبد اللّه ، ومن أتباع الطريقة الطيبية ، وأنه جاء إلى الجزائر من المغرب الأقصى (كما يدعي معظم الأشراف في الجزائر أنهم من الساقية الحمراء أو من فاس الادريسية) ليحارب من أجل نصرة الإسلام[151] . وبعد « محاكمته » بطريقة روفيقو وبوجو ، ظهـر أن هناك فسـاداً في الإدارة العدوة بالجزائر ، وان ما يقال عن « استسلام » العرب وقوادهم انما هو مسـرحية لتمضيـة الوقت ونيل الأوسمة والتحدث بالبطولات ، لأن كل من أظهر الاستسلام من القبائل والعشائر والرؤساء والأفراد إنما فعل ذلك تحت القهـر والرعب ، وأنـه يظل ينتـظر الفرصة للانتفاضة من جديد . وقد عرفنا ان العدو قد احتل شرشالا في مارس ، سنة

= وكان مندفعاً بحب الدين والوطن. أنظر بول غفريل (الجزائر المحتلة)، ص 84، 100 . وقد زعمت جريدة (الأخبار) في بعض أعداد شهر يوليو سنة 1849 (؟) أن بومعزة كانت معه (أميرة) فرنسية تعلمه الرشاقة والضرب على البيانو . فإذا صح شيء من ذلك (ونحن لا نثق في حديث الجريدة كل الثقة لصلتها بالإدارة الإستعمارية ولحرصها على تشويه سمعة بومعزة لدى الجزائريين) ، فإنه يكون أثناء وجوده طليقاً في بـاريس ، أي بعد 1849 . وقد روى إسماعيل العربي شيئاً من ذلك عن بومعزة أيضاً إذ قال انه أصبح في باريس محط أنظار « صالونات الارستقراطية حيث كان يغدو ويروح في رفقة سيدات المجتمع الراقي » . أنظر إسمـاعيل العـربي (المقاومـة الجزائـرية تحت لـواء الأمير عبـد القادر) ، الجـزائـر ، 1982 ، ص 289 . ولا ندري ما مؤهلات بومعزة حتى يكون ضمن هذا « المجتمع الراقي » . والظاهر ان ذلك كان فقط من الفضول ، وان « السيناريو » كله من اختلاق الدعاية الفرنسية عندئذ . ويذهب اسماعيل العربي الى أن بومعزة قد انضم فقط سنة 1854 إلى الجيش العثماني برتبة عقيد . ومعنى ذلك انه ظل طليقاً في باريس حوالي خمس سنوات . ونحن نستبعد ذلك .

ومما يذكر أن أحد المساجين الجزائريين في طولون ، واسمه عيسىٰ بن احمد ، كتب سنة 1853 إلى نابليون الثالث يطلعـه على أن الشخص المحبوس عنـد الفرنسيين بـاسم محمد بن عبـد الله (بوسيف) هو نفسه محمد بن عبد الله (بومعزة) . أنظر ارشيف ايكس 11 H 1 .

(151) بيـري (رحلة . . .) مرجـع سابق ، ص 398 ، وبـوجـولا (دراسـات . . .) مـرجـع سـابق ، ج 2/119 .

1840 ، بعد أن أصبحت قاعـدة بحريـة تشكل خـطراً على العدو سنـة 1839 ، خصوصاً بعد أن قام رجال الزوارق من المجاهدين بالاستيلاء على سفن الفرنسيين مثل السفينة المسماة (فريدريك ـ اوولف)(152) . كما ان الأمير تدخل في شرشال شخصياً في هذه السنة (1839) وحاول أن يجعل منها مركز هجوم على العدو ، وأعـاد تنظيم الأمـور فيها بـأن ثبت أحمد بن بلقـاسم قائـداً عليهـا وعين القـاضي حمدان بن الطاهر (الذي فر من مدينة الجزائر) ، في مكان القاضي عبد القادر بن ملزي الذي اغتاله العدو .

ورغم استيلاء العدو على شرشال ومليانة والمـدية سنـة 1840 ، فقد بقيت الناحية الغربية من سهل متيجة خطراً عليه . ذلك ان أهل حجوط لم يتوقفـوا عن الجهاد واثارة الحمية وتهديد العدو في مقر عملياته بالجزائر . لقد وصف العدو أهل حجوط بأنهم متعصبون ، وانهم برابرة ، الخ . وسلط عليهم وسائله الجهنمية من إثارة النعرات ، والقتل الجماعي ، وخيانة العهد ، وحرق المحاصيل الزراعية الخ . حتى قال أحد الذين شاركوا في حرب أهل حجوط : انهم كادوا « ينقرضون » من كثرة موتاهم وخراب ديارهم وتشريدهم . ويذكر هذا المشارك في جريمة الإستعمار أن أهل حجوط لم يستسلموا إلا سنة 1843(153) . حقيقة انه لم يظهر بين أهل حجوط شريف من الأشراف أو مهدي من المهديين ، ولكنهم ظلوا يحـاربون بـاسم الدين والحرية والوطنية منذ 1830 ، حاربوا مع الحاج علي السعدي ومع محمد بن عيسى البركاني ، ومع الحاج محيي الدين بن مبارك ، ومع الأمير الخ . ما دام هدفهم كان واحداً وواضحاً وهو إخراج العدو المغتصب .

* * *

ان وجود الأمير على رأس دولة ذات سيادة تجمع بين الدين والدنيا وتحتكم إلى سيرة السلف ، لم يمنع من ظهور العديد من « الأشراف » وموالي الساعة حتى أثناء حياته . وإذا كان هذا النوع من الزعامات قد قل أثناء قوته (خصوصاً بين 1837 ـ 1839) ، فإنه سرعان ما ظهر بشكل ملفت للنظر منذ 1843 عندما أخذت قوة الأمير

---

(152) ل . قان (المجلة الافريقية) ، ص 470 .

(153) (مذكرات شانغارنييه) ، ص 162 هامش .

تتدهور اثر حادثة الزمالة . وقد رأينا أن سنة 1845 قد مهدت لظهور شخصيات من هذا النوع ، وجميعها تنتمي إلى طرق صوفية معروفة . كما ان الاضطهاد الذي سلطه بوجو على الناس ، قادة ومواطنين عاديين ، جعل الأنظار تتجه إلى المنقذين الخارقين للعادة ، ما دام المنقذون القائمون لم يحققوا آمال الناس في الإنعتاق من الإضطهاد ولا تحرير الدين من ربقة الكفار .

فبالإضافة إلى بومعزة والطوطي والخويدي الخ . ظهر الشيخ الفاضل في تلمسان ، تلك المدينة التي عرفت تقلبات كثيرة خلال العشر سنوات 1830 ـ 1840 . لقد دخلت في طاعة سلطان فاس عدة أسابيع ، ثم تولاها الأمير مرتين ، واحتلها العدو الفرنسي مرتين . وكان أهلها بين عرب في المدينة وعثمانيين في المشور ، وكان ولاء الأولين لسلطان المغرب ثم للأمير ، وكان ولاء الأخيرين لسلطان آل عثمان ثم للفرنسيين . وكان قواد العرب هم ابن نونة ، والبوحميدي ، والصقال ، أما قواد العثمانيين فهم البرسالي[154] وابن اسماعيل والمقلش . وعندما دخلت تلمسان في حكم بوجو سنة 1841 ، خرج معظم سكانها منها وتبعوا الأمير . وظلت هدفاً لدعاة الجهاد من الأشراف . كان حاكمها الفرنسي سنة 1845 ـ 1846 هو كافينياك الذي هزمه الأمير في معركة سيدي إبراهيم وأسر له حوالي ثلاثمائة جندي . ولكن كافينياك الذي لم يقدر على الأمير ، قدر على الشريف الفاضل الذي هاجم تلمسان بجموع غفيرة وادعى السلطة عليها أثناء انقطاع الأمير في المغرب ، وقد وزع الشيخ الفاضل رسائله في الناس داعياً إياهم للثورة ، وأرسل رسوله إلى أهل المدينة (تلمسان) وبدل أن يخرج كافينياك بنفسه إلى الشيخ الفاضل ويحاربه على أرض الميدان اكتفى بإلقاء القبض على رسول الشيخ واستعرضه أمام الناس للإرهاب معلناً لهم أنه سيعدمه لأنه جاسوس للعدو ، وفعلاً قام بإعدامه ظلماً وصبراً[155] . وتدّعي

---

(154) عندما توفي محمد البرسالي عين الفرنسيون مصطفى بن إسماعيل قائداً على المشور حيث كان البرسالي . وكان هذا في العهد العثماني خليفة للباي حسن علي تلمسان . وقد اصبح ولده (الداودي البرسالي) عضواً في المكتب العربي الذي تولاه (بازين) الفرنسي ، ثم أصبح فارساً في فرقة الصبايحية ، وشارك إلى جانب الفرنسيين في معارك عديدة ، منها معركة عين الصفراء ، سنة 1847 . أنظر عنه الدكتو جاكو Jacquot (حملة الجنرال كافينياك) ، ص 242 .

(155) عن ثورة الشيخ الفاضل أنظر (طابلو) ، 1845 ـ 1846 ، ص 3 . وكذلك بيري (رحلات . . .) =

المصادر الفرنسية ان الشيخ الفاضل كان يدّعي انه « مولى الساعة » وانه هاجم تلمسان بثمانمائة فارس وأكثر من ألف راجل . وان المعركة التي هزم فيها الشيخ الفاضل دارت يوم 24 مارس 1846 على بعد حوالي اثني عشر كلم عن تلمسان ، وان الشيخ كان يدّعي انه سيتولى شؤون تلمسان ويطرد الفرنسيين من الجزائر.

ولكن هذه المصادر لا تتحدث عن أمور أخرى تهمنا عن الشيخ الفاضل . من ذلك الطريقة الصوفية التي كان ينتمي إليها . فنحن لا نعرف هل هو من الطيبية أو من الدرقاوية اللتين شاركتا بقوة في ثورة 1845 أو من طريقة أخرى . كما انها لا تحدثنا عن نهايته وإنما عن هزيمته وتدهور سمعته بعد 1846 . فهل واصل الشيخ الفاضل ثورته ، وإلى متى ؟ يضاف إلى ذلك انها لا تحدثنا عن اسمه الحقيقي ولا نسبه ولا موطنه ولا انتماءاته السياسية . ورغم أن بعضها يتحدث عن أن الشيخ الفاضل كان «خارجاً» عن الأمير فإنها لا تذكر أنه استمر في خروجه عنه أو رجع إليه . ان الخروج عن الأمير قد أصبح « موضة » بعد 1845 . ذلك ان من بين الشخصيات التي « خرجت عنه » بعد أن كانت في صفوفه أيضاً : ابراهيم بن أبي فارس ، الذي سيظهر بعد حوالي عشر سنوات باسم محمد بن عبد اللّه ، شريف ورقلة ، وهو نفس « الشريف » الذي حاول بوجو أن يستغله سنة 1842 ضد الأمير بتعيينه « بايا » على تلمسان ، ثم توجه إلى الحج واعتنق الثورة من جديد وتحالف مع الشيخ محمد بن علي السنوسي ثم عاد إلى الجزائر ، كما سنرى في فصل لاحق.

* * *

11. مواقف الطرق الصوفية :

رأينا انه في الوقت الذي وضع فيه العدو يده على المدن ونفى قادة الرأي فيها ، ودجن الباقين واستولى على الأوقاف الاسلامية وصرف مداخيلها على العمليات العسكرية ، الخ . بعد ذلك كله رأيناه يأتي بأكثر من مائة ألف جندي مع رصيد ضخم من المال والأسلحة المتطورة وحَشْدٍ من الكولون الذين كانوا في الحقيقة يشكلون

= مرجع سابق ، ص 387 . وقد كان رئيس المكتب العربي في تلمسان عندئذ هو الضابط (بازين Bazaine) .

جيشاً احتياطياً ، ثم خرج إلى الريف يريد اخضاعه بالحديد والنار . وقد أدت سياسة العنف هذه إلى اشتعال الثورة في مختلف أنحاء القطر ، وكان القائد لهذه الثورة خلال 1839 ـ 1847 هو الأمير عبد القادر الذي حاول أن يجمع الشمل ويوحد الكلمة ويؤسس دولة لا تزول ، ويبعث قومية عربية تكون مبنية على قاعدة الجهاد ضد العدو وتحقيق الوحدة الوطنية . ولكن عنف المواجهة بين الأمير والعدو ، وتخلي الأنصار عنه (خصوصاً سلطان المغرب) في وقت الشدة ، جعل المنافسين للأمير يكثرون ، والطامعين في وظائف العدو يظهرون ، والقاصرين عن فهم استراتيجيته يتحركون ، وكأن الإسلام عند هؤلاء هو النطق بالشهادتين فقط ولا عليهم بعد ذلك أعاشوا موحدين أو متفرقين ، أسياداً أو عبيداً ، تحت الهلال أو تحت الصليب.

ولكن هناك فريق من الجزائريين انتفضوا انتفاضة الجريح في دينه وكرامته ووطنه ، انتفضوا ولكن بدون نظام (كما كان يريد الأمير) ، ومشوا ضد العدو ولكن من اتجاهات مختلفة ، ودقوا طبول الجهاد ولكن في درجات متفاوتة ، وكان على رأس هؤلاء أشراف يدعون أنهم من سلالة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذلك تسموا باسمه (محمد بن عبد الله) ، وأخفوا أسماءهم الحقيقية ، وحملوا راية الجهاد لكي يتبعهم الأتباع ، ويتحمسوا للشهادة والدفاع . وكان وراء كل داعية للجهاد طريقة صوفية . والطرق الصوفية كثيرة في الجزائر العثمانية ، وبقيت كثيرة خلال القرن التاسع عشر كله . وهذه الطرق الصوفية كانت تنكمش على نفسها عند قوة الدولة الإسلامية ولكنها تنفتح في نفسها وتنتفش وتعظم حتى تصير بعبعاً عندما تضعف الدولة الإسلامية أو يحدق بالمسلمين خطر الكافر ، فعلت الطرق الصوفية ذلك في العهود السالفة ، وأظهرت نفسها كذلك في عهد بوجو بالذات ، فإلى جانب الفوضى السياسية التي كانت عليها الجزائر في هذا العهد ، كان هناك الظلم والإضطهاد ، والجور على الدين وعلى العباد . فما كان من الطرق الصوفية إلاّ أن دقت طبولها وأسفرت عن وجهها كواجهة للدفاع عن الإسلام المهدد والمسلمين المتضررين المتضرعين.

لو أردنا أن نقرأ المقاومة الجزائرية بين 1840 إلى 1848 قراءة سياسية عصرية لوجدناها قد سارت تحت قيادة أحزاب ثلاثة ، هي حزب القادرية وحزب الدرقاوية وحزب الرحمانية . وكلها أحزاب ظهرت في الريف لا في المدن ، وكلها أحزاب قد

تجاوزت في « برنامجها » الدين إلى السياسة ، و « الاخوان » إلى كل المواطنين[156] . حتى عندما حاول (الكلاسيكيون) أو المحافظون من كل حزب أن يتركوا الأمور الدنيوية (السياسة) لأهلها وأن يشتغلوا فقط بشؤون الدين ، لم ينجحوا في نصيحتهم . فأسس حزب القادرية دولة عمادها الدين والدنيا ، وخرج الحاج موسى الدرقاوي للحرب وكذلك الطوطي وغيره من الدرقاويين ، وخاض بومعزة المعارك معتقداً أنه المهدي بن تومرت الجديد ، باسم الطيبية . وخالف حسين بن عزوز نصائح من نصحه بأن الرحمانية طريقة « صوفية » فقط ، ونازل العدو الحرب وتولى الإدارة للأمير وجمع الضرائب ونظم الناس . وكان الحاج السعدي والحاج محيي الدين والبركاني وأحمد الطيب بن سالم من أوائل الذين رموا بعمامة التصوف ولبسوا خوذة الجهاد ، رغم انهم من زوايا معروفة في نواحيهم .

ومع ذلك نجحت بعض الطرق في الإبقاء على الوضع الروحي فقط[157] . ومنها الطريقة التجانية التي قاومت كل المغريات ، وحتى بالحرب ، لكي « تحافظ » على عقيدتها في التصوف ، وهي عدم التدخل مباشرة في شؤون السياسة والحكم ، والاحتفاظ بالتأثير الروحي والسيطرة على القلوب والنفوس . لم يفهم زعماء التجانية عندئذ دور الطرق الصوفية في التاريخ الاسلامي ، وهو دور قلنا انه ايجابي زمن الأزمات وروحي زمن الازدهار الاسلامي . وقد كانت الجزائر (والاسلام) في أعنف الأزمة خلال العقدين الأولين من الاحتلال . فاذا بمعظم الطرق الصوفية تتحرك في الاتجاه التاريخي المذكور الا التجانية والحنصالية والعيساوية . . . فقد رأت غير ذلك . وكان موقف التجانية بالذات ، لأهميتها وكثرة أتباعها في الأرياف وحتى في المدن، موقفاً لا مبرر له من الوجهة الوطنية. ذلك أن رفضها للمشاركة في السياسة لم يكن صحيحاً دائماً . فقد رأيناها تساند أعداء الوحدة الوطنية من طلاب السلطة

(156) الاخوان هم أتباع كل طريقة على حدة . وقد رأينا زعيم كل طريقة لم يعد يخاطب « اخوانه » فقط ، ولكن كل المواطنين الجزائريين .

(157) يبدو أن فروعاً من الدرقاوية ومن الرحمانية قد حَبَّذَتْ المحافظة على دورها التقليدي أيضاً كالابتعاد عن السياسة والاكتفاء بدور الوسيط (اصلاح ذات البين) ، مثل موقف الشيخ العربي بن عطية (الدرقاوي) في الونشريس ، وموقف الشيخ علي بن عمر (الرحماني) في طولقة (توفي هذا سنة 1843 ، وهو يحاول التوفيق بين المتنافسين : ابن قانة وفرحات بن سعيد) .

أمثال أحمد بن سالم في الأغواط، كما رأيناها لا تَعْتَرِضُ طريق العدو في الصحراء: عين ماضي ، الأغواط ، بسكرة ، تقرت في مرحلتنا هذه ، ثم غيرها في مرحلة لاحقة . ان ما يقال عن تنافس التجانية والقادرية كسبب لرفض التجاني الانضمام للمقاومة خلال الأربعينات ، غير صحيح ، في نظرنا ، لأن المقاومة تجاوزت عندئذ كونها حركة تقودها الطريقة القادرية ، لأن الأمير ليس هو كل المقاومة ، ولو وجدنا التجاني خاض الحرب ضد العدو ، بأسلوب بومعزة (الطيبي) أو أسلوب الحاج موسى (الدرقاوي)(158) لقلنا ان المسألة خلاف شخصي ، ولكنه فضل التصوف على الجهاد ، رغم وجود العدو بالبلاد.

هذه نظرة سريعة عن موقف الطرق الصوفية خلال المرحلة التي ندرسها ، ولكن في الفصول التالية سيظهر معظم هذه الطرق في ألبسة أخرى . كما أن العدو سيعاملها معاملة جديدة.

***

12. التيار العربي ـ الاسلامي :

وهناك نقطة أخرى نريد أن نختم بها هذا الفصل ، وهي مسيرة التيار العربي الاسلامي خلال المرحلة المدروسة . إن عهد بوجو قد عرف حركة هجرة كبيرة ، خصوصاً من المدن . وهذه الهجرة على نوعين : داخلية وخارجية . أما الهجرة الداخلية فقد عادت مؤقتة ، لأن العدو كان يتحرك أيضاً وكان يحل بالمكان الذي نزل به المهاجر منضماً الى حركة الثورة أو هارباً بنفسه . ومن ذلك انضمام عدد من قادة الفكر والدين الى حركة الجهاد التي كان يخوضها الأمير ، وهو الانضمام الذي عبر فعلاً عن « وطنية » الحركة وشموليتها . فالاحساس بأن حركة الأمير حركة تهم الجميع وتعبر عن مشاعر الجميع هي التي جعلت المثقفين والساسة ينضمون اليه ، ويساندونه ويعملون معه كتاباً وخلفاء ومفاوضين الخ . وقد ذكرنا بعضاً من أولئك فيما مضى (كأحمد بوضربة وابن الحفاف ، وابن رويلة ، والحاج السعدي ، وحمدان بن

---

(158) وقد كان بومعزة والدرقاوي غير متفقين مع الأمير . ولكن ذلك لم يمنعهما من خوض الجهاد ضد العدو.

الطاهر ، وحسين بن عزوز ، وأحمد الطيب بن سالم ، والشاذلي القسنطيني ، وحتى حمدان خوجة في اسطانبول) .

أما حركة الهجرة الخارجية فقد حمل عليها الاضطهاد الشخصي والفقر والاعتداء على الدين والحرمات ، كهدم المساجد وضم الأوقاف وعدم تعويض الأملاك المصادرة والتجهيل . وقد كان المهاجرون ، من رجال الدين والعلم على الخصوص ، يتجهون الى تونس والمغرب بالدرجة الأولى ثم منهما الى المشرق . ومن المدن التي عرفت حركة هجرة قوية بعد 1837 قسنطينة وتلمسان . وكلتاهما كانت على جانب طيب من النشاط العلمي ، غير أن الاحتلال العنيف ، وبعثرة السكان ، والاستيلاء على المكتبات والأوقاف وفرض الضرائب الثقيلة (ضرائب الحرب ، كما فعل كلوزيل مع أهل تلمسان) الخ . كل ذلك جعل المعيشة مع العدو غير ممكنة ، فتوجه بعض قضاة تلمسان الى المغرب مثل محمد ابن سعيد(159) ، وهاجر البعض من عائلة المشرفي (معسكر) الى المغرب ، كما هاجر القاضي عبد العزيز من العاصمة نحو المغرب أيضاً ، الى جانب أهل العلم الذين كانوا مع الأمير والذين هاجروا قبله أو معه أمثال قدور بن رويلة (تونس ثم المشرق) ومصطفى بن التهامي الخ . وهاجر علماء آخرون من قسنطينة الى تونس .

ويتصل بحركة الهجرة هذه عملية النفي أو التهجير التي قام بها بوجو حتى لا يبقى في الجزائر من يعترض على أحكامه التعسفية . فقد قام بطرد أعيان العلماء والقضاة الذين كان لهم رأي مستقل نوعاً ما خلال عهده ، منهم من حكم بنفيه إلى سجون فرنسية خارج الجزائر . ومنهم من حكم بطرده من الجزائر مع ذكر بلد آخر يذهب إليه ، وأحياناً بدون ذكر البلد . ومن أشهر عمليات النفي هذه نفي حسين بن عزوز (1841) والمفتي مصطفى الكبابطي (1843) إلى جزيرة سان مرغريت(160) . وقد نفى مع الأخير ابن أخيه أيضاً الذي كان أحد معلمي مدرسة

---

(159) يقال انه توفي بفاس بائساً سنة 1842 .

(160) بعد أن وصل الكبابطي إلى مرسيليا ، بقي هناك مدة ، ثم سمح له بالرحيل إلى الاسكندرية ، بناء على طلبه، ولكن قرار بوجو كان النفي إلى الجزيرة المذكورة . أنظر عنه دراستنا (قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1943 . .) في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، ج 2 . ط . 2 ، بيروت 1990 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الجامع الكبير بالعاصمة . ومن أشهر عمليات الطرد ما حدث لحمودة الفكون وأخيه (سنة 1841) ، إذ طرد من قسنطينة إلى الاسكندرية . وفي نفس الوقت انتهت حياة بـوضربة في المغرب ، وحياة حمدان خوجة في اسطانبول خلال الأربعينات.

ان حركة الهجرة أو التهجير إلى المشرق كانت تعبر عن تواصل طبيعي بين الجزائر والبلاد العربية ـ الإسلامية . فالجزائري كان لا يجد الأمن والاطمئنان النفسي والروحي إلا في بلاد تربطه بها رابطة الدين واللغة والتقاليد . كما أن معظم أولئك المهاجرين وجدوا مجالاً للعمل وتنشئة عائلاتهم وبدء حياة جديدة في ظـل الأخوة العربية والإسلامية ، دون أن يحسوا بفرق سوى أنهم أحياناً يسمون بالمغاربة ، وقد يحلو لبعضهم فيحتفظ بنسبته « الجزائري » بين أهل المشـرق . وليس غرضنـا هنا الحديث عن « الجالية » الجزائرية العلمية في المشرق ، فقد نتحدث عن ذلك في موضع آخر من كتبنا ، ويكفي أن نذكر ونحن نتحدث عن عهد بوجو أن ابن رويلة قد حل بتونس ثم توجه إلى المشرق حيث توفي في الحجاز . وأن أحمد الطيب بن سالم قد رحل أيضاً إلى الحجاز ، وأن مصطفى الكبابطي قد استقر بالاسكندرية وتوظف فيها ، وأن الشيخ السنوسي (محمد بن علي) كان قد أسس زاويته في مكة وأنـه يوشك الآن على نقلها إلى ليبيا ، وأن تلميذه محمد بن عبد اللّه ، شريـف ورقلة ، كان يتكون عندئذ على يديه وعلى يد غيره ، وقد ذكر ليون روش انه عندما ذهـب سنة 1843 إلى مكة للحصول على الفتوى المشهورة ضد الجهاد في الجـزائر ، وجـد الشيخ السنوسي من أعظم المعارضين له ونبه على خطره[161].

ولكن هناك جانب آخر للقضية . فقد كان علماء المسلمين ورجالات الدين منهم على الخصوص ، يتدخلون في شؤون الجزائر ، ويعتبرون ذلك جزءاً من عملية الجهاد التي فرضها الإسلام ، أو مشاركة في أحوالها بعد النكبة التي عـرفتها على أيدي الأعداء الفرنسيين . وقد نبهنا على وجود الحاج موسى الدرقاوي الذي جاء من مصر بعد أن تلقى في مصـراته (ليبيـا) الطريقـة المدنيـة ـ الدرقـاوية ، وقـد ظل الدرقاوي طيلة عهد بوجو يناضل إلى أن قتل في معركة الزعاطشة إلى جانب زعيمها بوزيان . وها نحن لم نكد ننتهي من الحديث عن الشريف بـومعزة الذي تؤكد الأخبار ذات الطابع الأسطوري على أنه جاء من المغرب للجهاد . وكم عرفت الجزائر من

(161) أنظر ما مضى .

أناس جاؤوا من المغرب أو المشرق باسم الجهاد.

ولكن هناك شخصية غريبة لا نعرف أنها جاءت الجزائر للجهاد الظاهري ، وهي شخصية محمد صالح الرضوي ، الذي حل بها سنة 1845 في أتون الثورة ، ومع ذلك فلم يعرف عنه انه رفع راية أو دعا إلى ثورة . فماذا كان يفعل إذن ؟ يقول من كتب عنه انه قضى بالجزائر بضعة أشهر ، وقام بتدريس علم الحديث في المساجد ، وعلوماً أخرى أيضاً . وأنه أجاز عدداً من علماء الجزائر منهم من تولى الفتوى والوظائف الدينية والعلمية الأخرى ، من أمثال حميدة العمالي ، وعلي بن الحفاف ، ومحمد غرناوط ، وعلي بن سماية ، الخ . (حوالي عشرين عالماً) ، وان اسم الرضوي بقي حياً في الجزائر إلى أوائل القرن العشرين . والمهم أن الرضوي زار أيضاً المغرب الأقصى ، وحضر وفاة شيخه عمر بن المكي ، وزار كذلك تونس ، وأجاز من الجزائريين أيضاً في المهجر مصطفى الكبابطي ومحمد ابن العنابي في الاسكندرية . ولا نعرف الآن أنه قام بدور سياسي ، أو حتى دور شبيه بدور الشيخ محمد عبده في الجزائر سنة 1903 . ونحن نتساءل كيف يسمح له بوجو بزيارة الجزائر والبقاء فيها شهوراً بينما كان (بوجو) يشك في ظله ، وينفي علماء الجزائر ويطاردهم حيث وجدهم ، ويرسل جاسوسه (روش) ليحصل له على فتوى من علماء المشرق تثبط عزائم الجزائريين في المقاومة وتثبت دعائم الإستعمار(162) ؟

ان الموقف المضاد من الدين واللغة العربية والإنسان العربي الذي وقفه بوجو وإدارته جعلت الجزئريين يعضون بالنواجذ على بقايا تراثهم الحضاري . فالمدارس القرآنية ظلت تعلم القرآن الكريم ولو في شكل سري وبوسائل ضعيفة ، وكان موقف المفتي الكبابطي معارضاً لإدخال مادة اللغة الفرنسية في المدارس القرآنية ، واقترح فتح مدارس أخرى بالفرنسية يؤمها من يشاء من المسلمين . كما وقعت معارضة شديدة للاستيلاء على الأملاك الدينية المقدسة مثل أوقاف مكة والمدينة ، وكذلك

---

(162) عن الرضوي أنظر عبد الحي الكتاني (فهرس الفهارس) ، جـ 1 ، 324 ، ومحمد بن أبي شنب (وصول البخاري إلى سكان الجزائر) ، مجموع وقائع مؤتمر المستشرقين الرابع عشر ، الجزائر ، 1905 ، ص 114 . ويبدو أن أبا حامد المشرفي قد تناوله ايضاً لأن ابن أبي شنب نقل عنه . وقد توفي الرضوي سنة 1849 في الحجاز عن اثنتين وستين سنة . وسنتناوله ان شاء الله في (تاريخ الجزائر الثقافي) ، جـ 3 .

معارضة ونقمة على هدم المساجد وبيع المدارس للأوروبيين ليجعلوا منها حمامات ومتاجر ، وعلى إهانة المقابر الإسلامية بتسوية الأرض بها وجعلها طرقاً وساحات . ان الجزائريين ، ومعهم العرب والمسلمون في كل مكان ، فسروا تلك الاجراءات على أنها انتقام من الدين واللغة ، وانها اجراءات لا تقل عما اتخذه الاسبان بعد طرد المسلمين من الأندلس ، بل كانت عملية صليبية واضحة المعالم . فكانت تلك الاجراءات التعسفية ضد حضارة الجزائريين سبباً في هجرة البعض وفي السخط الدائم للباقين.

ومع ذلك فقد كان بوجو يتبجح بإعلانه ان الجزائر بلاد مسلمة ولو مع احتلالها على ذلك النحو من قبل دولة كافرة . وكان يريد الحصول على الصفة الشرعية « الاسلامية » لذلك ، فتفتقت حيله على فكرة ، وهي أن يبارك احتلاله علماء المسلمين ليس في الجزائر فحسب ، أمثال مقدمي بعض الطرق التي جعلها تحت ابطه ، بل في مراكز العالم الإسلامي الشهيرة . وقد ذكرنا ذلك حين تعرضنا إلى مهمة ليون روش في القيروان والأزهر والحرم المكي ، فلا داعي لتكرار ذلك هنا . وإنما نريد أن نلح على نقطة بهذا الشأن وهي تأكد بوجو من الرابطة القوية بين الجزائر والعالم العربي ـ الإسلامي ، وان ما يجري عنده له عواقب عما هنالك والعكس أيضاً صحيح . ومن أجل السيطرة على هذا الوضع أكثر بوجو من المترجمين وشجع قومه على معرفة اللغة العربية والأحكام الإسلامية حتى يحكموا سيطرتهم على رقبة المسلمين في الجزائر وفي غيرها . كما لا نريد أن نتعرض من جديد لما قلناه عن مراسلات الأمير مع رجال الدين المسلمين والعلماء للتشاور معهم في الأحكام الشرعية اللازمة لدولته . وهي مراسلات ، على كل حال ، تؤكد جريان التيار العربي الإسلامي بين الجزائر وجاراتها في المشرق والمغرب ، خصوصاً في ساعات العسر . وقد رأينا أن كثيراً من الكتّاب قد ألح على الطابع « العربي » لدولة الأمير في وقت لم يكن ذلك الطابع يدور بخلد أي حاكم أو زعيم في البلاد العربية الأخرى .

انتهيت منه يوم 24 اغسطس 1986

* * *

مراجع الفصل الثالث

ابن أبي شنب، محمد ـ وصول صحيح البخاري إلى سكان الجزائر، مجموع وقائع مؤتمر المستشرقين 14، الجزائر، 1905.

ابن رويلة، قدور ـ وشاح الكتائب، تحقيق محمد بن عبد الكريم.

ابن عبد القادر، محمد (الأمير) ـ تحفة الزائر، ط. 1، 1903.

اوربان، اسماعيل ـ الجزائر . . . 1848.

اوربان، اسماعيل (باسم جورج فوازان) ـ الجزائر للجزائريين، 1861.

اوميرا ـ مقالات عن مصير الأوقاف والمؤسسات الدينية. إعداد من (م.إ.)، 1897 ـ 1899.

ايفير، جورج ـ عبد القادر والمغرب، 1838، (م.إ.) عدد 60، 1919.

ايمريت، مارسيل ـ الحياة العقلية في (مجلة التاريخ الحديث والمعاصر)، يوليو ـ سبتمبر، 1954.

بوجولا، جان ـ دراسات افريقية. جزآن، باريس، 1845م.

بورجاد، ج ـ عن احتلال منطقة سور الغزلان، (م.ا.) عدد 32 وما بعده، 1888.

بوسكي، ر ـ قضية مضايق الظهرة، (م.إ.)، عدد 51، 1907.

بوعزيز، يحيى ـ عن وثائق الوضع في بسكرة (الزيبان) 1844، (المجلة التاريخية المغربية)، 2، 1974.

بوعزيز، يحيى، وايبالز، ميكيل ـ الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع اسبانيا، قسنطينة 1982.

بيتيني، دي كلارا ـ الجزائر، 1859، وصف مشاهداتها سنة 1845 لمجزرة غار الظهرة (الفراشيش).

بيرك، اوغسطين ـ البرجوازية الجزائرية، في مجلة هسبريس، عدد 35، 1948.

بيرك ، اوغسطين ـ موجز تاريخ الاقطاعية الجزائرية في (مجلة البحر الأبيض) ، عدد 7 يناير ـ فبراير 1949 .
بيري ، يوجين ـ رحلة جزائرية ، 1830 ـ 1848 ، باريس ؟ بدون تاريخ .
بيلمار ، الاسكندر ـ الأمير عبد القادر ، حياته السياسية والعسكرية ، باريس 1863 .
تروملي ـ تاريخ ثورة أولاد سيدي الشيخ 1864 ـ 1880 ، الجزائر 1884 .
جاكو ، الدكتور ف ـ حملة الجنرال كافينياك ، ؟
خوجة ـ المرآة ، ط. باريس 1833 . مترجم الى العربية .
دانزيقر ، رفائيل ـ عبد القادر والجزائريون ، لندن ، 1977 .
دورليان ، الدوق ـ وصف حملة ، باريس 1892 .
دوميانكور ـ تقريره إلى المارشال بوجو سنة 1845 ، ارشيف ايكس 1571 ـ F8 .
ديبون وكوبولاني ـ الطرق الصوفية الإسلامية ، 1897 .
ديستري ، ستيفان ـ تاريخ الجزائر ، تور ، ط. 4 ، 1851 .
روبان ، العقيد ـ ثورة القبائل الكبرى سنة 1871 ، باريس 1901 .
روش ، ليون ـ اثنان وثلاثون سنة في الإسلام ، باريس ، 1884 ، جزآن .
ريشارد ـ دراسة عن ثورة الظهرة ، 1848 .
رين ، ليوس ـ مرابطون واخوان ، الجزائر 1884 .
سان كالبر ، شارل ـ عن بعض كتاب قسنطينة ، (م.إ.) ، 1913 .
سعد اللّه ـ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، جـ 2 ، ط 2 ، بيروت 1990 .
سعد اللّه ـ القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني ، ط. 2 ، 1985 .
سعد اللّه ـ محاضرات في تاريخ الجزائر ، الجزائر 1982 ، ط. 3 .
سعد اللّه ـ من رسائل علماء الجزائر في القرن الماضي في (أبحاث وآراء) جـ 3 ط. 1 ، بيروت ، 1990 .
سيروكا ـ الجنوب القسنطيني . . . في (م.إ.) ، عدد 56 ، 1912 .
سيفرز ، بيترفان ـ عن الزعامات الأهلية في الجزائر ، (المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط) ، عدد يوليو 1975 .
سيفرز ، بيتر فان ـ عن الثورات من 1849 ـ 1879 ، (مجلة الإنسية الاسلامية) ، عدد 1 ، 1973 .

سيفرز ، بيتر فان ـ عن ملاك الأرض والزعامات ، (مجلة المغرب) الانكليـزية ، عدد مارس ـ ابريل ـ 1979 .
شانغارنييه ـ مذكرات ، باريس ، 1930
الشقراني ـ القول الأوسط (مخطوط) .
شيربونو ـ عن قسنطينة وآثارها ، في (روكاي) ، 1853 .
شينار ، بيسه ـ عبد القادر وعبد الكريم ، في مجلة الدراسات الآسيوية والافريقية ، القدس ، 1965 .
دي طرازي ، فيليب ـ تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ، 1967 (مصور) .
العربي ، اسماعيل ـ المقاومة الجزائرية تحت لـواء الأمير عبـد القادر ، الجـزائر ، 1982 .
غفريل ، بول ـ الجزائر المحتلة ، 1883 .
فيـرو ، شارل ـ عن منشـور الأمير إلى أهـل سطيف ونـواحيها ، في (روكـاي) ، 1872 .
فيرو ، شارل ـ مترجمو جيش افريقية .
قاليسو ، رينيـه ـ حرب عبـد القادر أو القضـاء على الوطنيـة الجزائـرية في (مجلة هيسبريس ـ تمودا) عدد 5 ، 1964 .
قاليسو ، رينيه ـ الجزائر قبل الاحتلال في (مجلة الاقتصاد والمجتمع) ، عدد 4 ، 1975 . دراسة مترجمة عن الفرنسية إلى الإنكليزية .
قان ، ل ـ عن قصيدة الأمير في تلمسان ، (م.ا.) ، عدد 27 ، 1883 .
قونياليـون ، ل ـ عن نداء الأميـر إلى أهل فقيق (فجيـج) ، (م.ا.) عدد 57 ، 1913 .
قيون ، الدكتور (جان لويس جينيفييف) ـ رحلة من مدينة الجزائـر إلى الزيبـان ، الجزائر ، 1852 .
الكتاني ، عبد الحي ـ فهرس الفهارس ، فاس ، 1346هـ .
كلاين ، هـ ـ أوراق مدينة الجزائر ، 1931 .
كنيدي ، جاك ـ الجزائر وتونس .
لاتياد ، ل ـ عبد القادر عدو وصديق لفرنسا ، باريس ، 1984 .

مارسيه ـ عن أصول التعليم في المؤتمر الثاني لشمال افريقية ، باريس 1908 .
مـاسينيـون ، لـويس ـ عن أصـول بعض العـائـلات الجـزائـريـة ، (مجلة العـالم الإسلامي) ، ـ الفرنسية ـ م 57 ، 1924 .
المزاري ـ طلعة سعد السعود ، (مخطوط) (أيضاً ترجمة مـارسيل بـودان ، مجلة جمعية . . . وهران، 1924) حققه يحيى بوعزيز، بيروت، 1990، جزآن.
المشرفي ، أبو حامد ـ طرس الأخبار (مخطوط) .
مناصرية ، يوسف ـ مهمة ليون روش في المغرب والجزائر ، ط. 1990 .
موريل ـ الجزائر ، لندن ، 1854 .
ناصر ، محمد ـ الصحف العربية الجزائرية ، الجزائر 1980 .
الناصري ، أحمد ـ الاستقصاء . . . مجلد 9 .
هاي ، جان درامون ـ مذكرات ، لندن ، 1896 .
ياكونو ـ عن المنافي التي نفي إليها الجزائريون خارج بلادهم ، (المجلة التاريخية المغربية) عدد 1 ، 1974 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الرابع

تجُوعُ الحُرَّة (*)

1848 - 1860

(*) في الأثر : « تجوعُ الحرَّة ولا تأكل بثدييها » .

1. مقدمات :

يعتبر الكتاب الفرنسيون عقد الخمسينات ذيلاً للعقدين السالفين الذين عرفا حرباً شاملة واحتلالاً لا هوادة فيه . فالخمسينات إذن عبارة عن تتمة للحرب الشاملة التي يسمونها « التهدئة » ، وتتمة لمشروع بوجو الذي جعل عنوانه : « بالسيف والمحراث». وهو العنوان الذي إذا ترجم بلغه اليوم يصبح العدوان والاغتصاب. ولماذا تتمة ؟ ذلك أن بوجو عندما غادر الجزائر في صيف 1847 ترك مناطق من الجزائر لم يستطع سيفه ولا محراثه أن يدخلها ، مثل منطقة جرجرة ومنطقة الصحراء . كما أنه ترك المناطق التي احتلها في وضع غير مستقر وغير آمن على قومه . ولذلك كان على خلفائه أن يواصلوا سياسته في الهدم والترحيل والحرق والنفي والإرهاب، وكان عليهم أن يتنافسوا في ذلك لأن كل من هدم وقتل وحرق. . . أكثر من زملائه يصبح هو البطل المغوار ، في نظر غلاة الاستعمار . ومن هؤلاء الأبطال الجدد ، راندون وسانطارنو وهيربيون . . . كما سنرى.

ولما كان هذا العقد يشكل ، في نظر هؤلاء الكتاب ومن حذا حذوهم ، تتمة لما قبله ، فإن المقاومة الوطنية أصبحت في نظرهم أيضاً ، مجرد مناوشات يقوم بها دراويش ومشاغبون متعصبون هدفهم إثارة الفتن وتعكير الأمن وضرب الشرعية الإستعمارية . ومن ثمة فالحروب التي خاضها العدو أثناء هذا العهد (1848 - 1860) كانت في نظره أقرب إلى إعطاء الدروس القاسية لهؤلاء المفتّنين أو « المتشيطنين » ، كما كانوا يسمونهم أحياناً . ان الحملات أو بالأحرى الغارات التي كان يقوم بها الجنرالات والعقداء الفرنسيون ومن معهم من الجنود المرتزقة ضد سكان الأرياف بدعوى مشايعة الأشراف والدراويش أو بدعوى رفض دفع الضريبة الحربية ، وغير ذلك من الدعاوي ، إنما كانت بقصد بسط الهيمنة الاستعمارية واغتصاب

الأرض من أصحابها الشرعيين لإعطائها إلى المزيد من المخربين (المعمرين) . وهكذا يصبح هذا العهد في نظرهم لا يشكل سوى حركة يائسة من المقاومة لا تتعدى انتفاضة الأطراف في جسم يكاد أن تفارقه الحياة .

ولكنهم يستثنون من ذلك المقاومة العنيدة التي واجهها العدو في جبال القبائل وفي نواحي ورقلة والأغواط وتقرت وعين الصفراء والابيض سيدي الشيخ . . فلولا الجيوش التي قادها راندون أو وجهها إلى هذه القلاع لما استحق عصا المارشالية عند قومه ، ولما هان وسام الجنرالية عند الفرنسيين حتى منحوه للقيط يوسف الذي كان كالجرثومة السامة وسط الأرض الجزائرية . وإذا كان عهد راندون يعتبر عند العدو استمراراً لمشروع بوجو المذكور ، فإنه أيضاً يعتبر في نظرنا استمراراً لمشروع الأمير عبد القادر الذي تبناه تلاميذه في الكفاح من أمثال الشريف محمد الأمجد (بوبغلة) ، والشريف محمد بوزيان ، والشريف محمد بن عبد اللّه (وثلاثتهم حاربوا في جيش الأمير من قبل) . وإذن فإن عقد الخمسينات يعتبر في نظرنا استمراراً لعقد الأربعينات ، بكل عنفه وضراوته : عهد العدوان ورد العدوان ، عهد الهيمنة الاستعمارية ورفض لقبولها ، انه بالنسبة للمقاومة يعني تثبيت الحق في الحياة الكريمة وفي الحرية والاستقلال الوطني . ولا يهم بعد ذلك أن يسمي العدو ذلك الرد للعدوان وذلك الرفض لقبول الهيمنة ، حركة دراويش ومشاغبين متعصبين أو غيرها من الأسماء .

هذا وقد عرف النظام السياسي الفرنسي في فرنسا خلال هذا العهد عدة تحولات وتقلبات أيضاً . فمن الملكية التي كان على رأسها لويس فيليب ، إلى الجمهورية الثانية التي كان على رأسها الأمير لويس نابليون ، إلى الأمبراطور نابليون الثالث . ولما كانت لتلك التحولات والتقلبات أحياناً نتائج معينة على الوضع في الجزائر ، فإننا رأينا أن نعرض لها أيضاً ، دون الدخول في تفاصيلها طبعاً .

2. الجديد عليهم قديم علينا :

في 24 فبراير 1848 وقعت ثورة في فرنسا ضد نظام لويس فيليب ، ولم تؤد الثورة إلى سقوط الملك أو عزله فقط بل إلى تغيير النظام كله إذ تحول من الملكية إلى

الجمهورية . وقد هرب « الملك الشعبي » وغيزو ، وزيره الأول ، إلى بريطانيا . وقامت اثر ذلك الجمهورية الثانية في تاريخ الفرنسيين ، وهي الجمهورية التي تعهدت بوضع دستور لفرنسا وبسيادة الشعب وتحرير الاقتصاد . ولذلك عرفت أيضاً بالجمهورية البرجوازية . والبرجوازية عندئذ تعني تشجيع رأس المال والبحث عن الأسواق والمواد الخام ، والحرية الفردية في المشاريع الاقتصادية . وهذه المبادىء كلها تعني أيضاً تكريس الاستعمار في الجزائر ومضاعفة الجهود لجعله دائماً ومربحاً وواسع المجالات . والاستعمار بهذا المعنى هو الزيادة في قهر الشعب الجزائري واغتصاب أرضه ومنحها للأوروبيين لزراعتها وامتلاكها ، وهو وضع المشاريع الاقتصادية الضخمة التي تعود بالربح والفائدة على (الميتروبول) أو العاصمة الأم .

وأداة هذا الاستعمار في الجزائر هو الجيش طبعاً ، تعززه ادارة مدنية يقظة وجالية فرنسية من المستوطنين متحمسة للاستغلال والاندماج والتوسع . وهكذا فإن النظام الجمهوري الذي ولد من جديد في فاتح سنة 1848 في فرنسا كان بالنسبة للجزائر يمثل عهداً قديماً من الاضطهاد ، واللامبالاة بحق الجزائريين في الحرية والاستقلال ، وهو العهد الذي انطلق سنة 1830 وازدهر منذ 1841 على يد بوجو.

لا يهمنا كثيراً اذن تطور فرنسا الداخلي خلال النظام الجمهوري الجديد ولكن يهمنا من تطورها ما انعكس على الجزائر . والذي نريد أن ننبه إليه من البداية هو أن النظام الجمهوري لم يدم أكثر من أربع سنوات ، ثم تحول إلى نظام امبريالي (امبراطوري) منذ نهاية 1852 وهو النظام الذي بقي إلى سنة 1870 . فنحن إذن سنعالج قضايا الجزائر في هذا الفصل أثناء نظامين مختلفين في فرنسا . ومما يلفت النظر أن رئيس الجمهورية (الأمير لويس نابليون) هو نفسه الذي انقلب على النظام الذي كان يترأسه فأصبح هو الامبراطور نابليون الثالث ، ونظامه الجديد هو الذي أصبح يدعى الامبراطورية الثانية (الأولى هي امبراطورية نابليون الأول) . والنظام الامبراطوري الجديد يعني في فرنسا الغاء الدستور ، واضطهاد الحريات والأحزاب ، والحكم بواسطة الاستفتاءات والمراسيم . فهل يعني ذلك أيضاً اضطهاد البرجوازية وإلغاء الاستعمار ؟ طبعاً لا ! ذلك ان النظم التي تعاقبت في فرنسا خلال احتلال الجزائر كانت كلها متفقة على الاستعمار ، ومتحمسة للاستغلال بكل الوسائل :

العسكرية والمالية والتشريعية[1] . وسنعرف أن الجمهوريات التي ولدت بعد 1870 هي التي سنت قانون الأهالي البغيض (كود ذو لانديجينا) ، واضطهدت الأحزاب السياسية الوطنية ، وارتكبت مجزرة 1945 وشنت كل أنواع الحرب ضد الثورة الجزائرية ، 1954 ـ 1962 . فتغيير النظام في فرنسا لا يعني بأية حال تغيير المخطط الاستعماري في الجزائر إلّا في بعض التفاصيل أو في الدرجة.

ولكي تتضح الصورة أيضاً حول العلاقة بين تغيير النظام والأحداث في الجزائر نقول انه مهما تغيرت النظم السياسية في فرنسا فإن الإدارة الاستعمارية في الجزائر كانت عسكرية . فقد بدأت الإدارة عسكرية منذ الاحتلال وتأكدت سنة 1834 وسنة 1848 بقوانين وتشريعات ، وظلت كذلك إلى سنة 1870[2] . ومعنى ذلك أن الجزائر كانت تحت تصرف الجيش الفرنسي المعروف بالجيش الافريقي . ومهمة هذا الجيش هو الاحتلال والغصب والإرهاب ، وفرض الاستعمار بالقوة ، ومحاربة القوى الوطنية ، وجمع الضرائب العادية والحربية بالتعسف والقمع . وكان يشرف على هذه العمليات وإدارة البلاد حاكم عام عسكري مسؤول لوزير الحربية في الحكومة الفرنسية ، هو الذي يتراسل معه ويعطيه تعليمات الحكومة ، ولكنه لا يمثل الوزير بل الحكومة الفرنسية كلها في الجزائر . ويساعد الحاكم العام قواد للنواحي الثلاث (في عهدنا هذا) : الناحية الغربية (مقرها وهران) ، والناحية الشرقية (مقرها قسنطينة) ، والناحية الوسطى (مقرها الجزائر) . وكل قائد ناحية تحته أقسام متعددة تحت ضبّاط بدرجات متفاوتة تصاعدية ، وتحت هؤلاء مجموعة من الموظفين الجزائريين الذين لهم طابع عسكري أيضاً ، بألقاب إدارية قديمة وهي : الخليفة ، والآغا ، والقايد والشيخ.

ويحكم قواد النواحي العسكرية بواسطة إدارة محلية هي (المكاتب العربية) التي تحدثنا عنها . فكان في كل مدينة أو قرية أو دوار (مكتب عربي) يسهر على إدارة المقر الذي هو فيه ، ويجمع الضرائب ويراقب الأسواق ، ويجمع المعلومات ،

---

(1) حتى الماركسيين عندئذ كانوا أنصاراً للبرجوازية في نشر الحضارة الأوروبية والاستعمار وسط الجزائريين « المتوحشين » في نظرهم ، انظر ترجمتنا لمقالة فريدريك انجلز عن واقع الجزائر سنة 1848 في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، جـ 1 ، ط 3 ، بيروت 1990 .

(2) باستثناء سنتين تجريبتين (1858 ـ 1860) سنعرض اليهما .

ويتجسس على السكـان ، ويخلق بينهم الفتن والنعـرات ، ويحـارب العصـاة والمتمردين ، وفي كل مكتب عربي موظفون بدرجات محددة . فرئيسه رجل فرنسي كان عادة برتبة عقيد ويحسن العربية ومعه مترجم وحارس وكاتب وقاض ، وجابي ضرائب الخ . وقد تولى بعض المستعربين هذه المكاتب فكانوا يفهمون أحوال البلاد بدون واسطة . وبرز بعضهم في تاريخ الجزائـر « كمؤرخين » ولغويين وبـاحثين . وعرف بعضهم بالظلم والاضطهاد المثالي والتعالي على السكان . وارتكب آخرون منهم جرائم يندى لها الجبين ضد الأبـرياء ، ودخـل بعُضهم ميدان الغش والنهب وسلب الناس أموالهم والاستثراء على حساب السكان ، مستغلاً منصبه وقوته ، وكتم بعضهم رغبـات السكان وشكـاواهم ضد الـظلم والعسف فلم يرسلوا بهـا إلى من فوقهم ، وتصرفوا معهم كما يتصرف السادة مع عبيدهم .

وكان للمكاتب العـربية إدارة مـركزيـة تتراسـل معها وتتلقى منهـا التعليمات والتوجيهات . إدارة مركزية على مستوى الجزائر العاصمة تابعة للحاكم العام ، وإدارة مركزية رئيسية في فرنسا تابعة لوزير الحربية . وفي الإدارتين جيش من المـوظفين بـدرجات متفاوتة، منهم من تمـرس على حكم الجزائـريين ، ومنهم من حـاربهم وشردهم ، ومنهم من كان مجرد موظف متخصص في القضايا العربية والإسلامية . وأغلب هؤلاء الموظفين عسكريون . وكانت بينهم مشاحنات وخلافات ليس فقط في طريقة اضطهاد الجزائريين ، ولكن حول استغلالهم والاستفادة منهم . وكان لبعضهم علاقات مع أعيان الجزائريين الطامعين في المناصب أو الذين لهم مشاكل وحاجات اجتماعية واقتصادية . ولذلك وجدنا خـلال هذا العهـد مراسـلات كثيرة بين هؤلاء الموظفين في إدارة المكاتب العربية (في جميع المستويات) وبين عدد من أعيان الجزائر : شيوخ ، وعلماء ، وقضاة(3) الخ .

ولما كانت شؤون الجزائر تابعة لوزير الحربية فإن كل المراسلات المتعلقة بها كانت تصل إلى هذا الوزير ثم منه إلى الحاكم العام . فمراسلات القناصل الفرنسيين في العالم والمتعلقة بالجزائر كانوا يرسلونها أولاً إلى وزيرهم للخارجية ، وهذا يحولها

(3) نشرنا حتى الآن عدة حلقات من مراسلات موظفي العلماء الجزائريين مع الادارة الفرنسية . انظر ذلك في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، جـ 3 . ط. بيروت ، 1990 .

إلى زميله وزير الحرب . مثلاً كانت التقارير التي تأتي من قناصل فرنسا في تونس وطنجة وليفورنيا والاسكندرية واسطانبول الخ . والتي تتعلق بموضوع يخص الجزائر كانت كلها تصل إلى يد الحاكم العام ليطلع عليها ويتخذ الإجراءات اللازمة بشأنها . وكانت لا تصله إلاّ بتعليمات واقتراحات مدققة من وزيره ، الذي هو وزير الحربية . ومن جهة أخرى كانت توصيات الحاكم العام بشأن الأمور المتعلقة بالجزائر في البلدان المذكورة توجه أيضاً إلى القناصل عن الطريق الإداري المعروف . وهكذا كان التنسيق دقيقاً وشاملاً لكل التحركات الداخلية والخارجية . فنشاط الجزائريين بالخارج أو مراسلاتهم مع أصحابهم أو حلفائهم ونحو ذلك ، كانت كلها مغربلة ومفصلة لدى الإدارة الاستعمارية في الجزائر .

* * *

3. من الدوق دومال إلى الدوق دومالكوف :

عندما قامت الثورة في فرنسا سنة 1848 كان الحاكم العام في الجزائر هو الدوق دومال ، ابن الملك المخلوع . وما دام الأب قد فر من فرنسا مع وزيره الأول إلى بريطانيا ، فلم يبق للابن في الجزائر إلاّ أن يجمع حقائبه ويرحل هو أيضاً إلى بلد آخر غير فرنسا ! وهكذا فإنه لم يمض على رحيل الأمير عبد القادر من الجزائر إلاّ شهران حتى رحل أيضاً من الجزائر الرجل الذي أعطاه عهد الأمان باسم فرنسا ، كل منهما إلى منفى ! نفى الأمير ، رغم عهد الأمان ، إلى سجون فرنسا ، ونفى الدوق دومال من الجزائر إلى بلاد أجنبية . وكما لم يجد بورمون سنة 1830 من يواسيه في مصيره كذلك لم يجد الدوق دومال من يعزيه أو يتأسف عليه وهو يغادر الجزائر . فقد كان يتخيل مجداً فإذا هو سراب ، وكان يحلم بوراثة العرش في فرنسا فإذا ذلك كله أضغاث أحلام ! رحل الرجل الذي استلم جواد الأمير ولم يكن يدري عند استلامه انه بعد شهرين يترك ذلك الجواد حراً يصهل ويركض في الأرض التي طالما أوضع فيها وخب(4). يا لسخرية الأقدار ! ويا لجنون المغرورين ! .

لم يكن الدوق دومال إلاّ واحداً في سلسلة طويلة من الحكام العامين للجزائر

---

(4) الوضع والخب نوعان من سير الخيل .

خلال 1848 ـ 1860 . فقد تعاقب خلال الفترة المذكورة حوالي ثمانية جنرالات[5] ، أي معدل سنة تقريباً لكل واحد ، وهذا يذكرنا ببعض فترات العهد العثماني في الجزائر ، إذ كان الحاكم لا يبقى أكثر من عدّة شهور أو حتى عدّة أسابيع ، وكذلك كان الحال في هذا العهد « الفرنسي » ، فقد حكم بعضهم الجزائر مدة شهر واحد ، وبعضهم شهرين ، وهكذا . وقد كان لكل جنرال تجربته الخاصة التي يريد فرضها على زملائه وعلى الجزائر . وكانت الحكومة الفرنسية الجديدة (وقد بقيت فترة تسمى الحكومة المؤقتة إلى أن وضعت دستوراً) منشغلة بالأمور الداخلية وكادت تواجه حرباً أهلية ، وكانت تخشى التدخل الخارجي ، وفي نفس الوقت كانت تخشى الثورة الموحدة في الجزائر . ورغم هذه الظروف فقد حافظ جنرالاتها على الوضع في الجزائر « هادئاً » باتباع طريقة بوجو في القمع والردع والتشريد وإعطاء الدروس القاسية، ولعل غياب الأمير والتنكيل بالسكان خلال الأربعينات هو الذي منع الجزائريين من القيام بثورة ترمي الفرنسيين في البحر سنة 1848 . ومن المحتمل انه لو حدثت الثورة في فرنسا سنة 1847 مثلاً بدل 1848 ، لكان في استطاعة الأمير أن يسترد أنفاسه وقوته وأن يهدد أو يقضي على النفوذ الفرنسي في الجزائر . ولكن اللّه شاء أن يسلم حصانه قبل شهرين فقط من وقوع تلك الثورة واضطراب الأحوال في دار العدو . ولا نعلم أن أحداً من المؤرخين قد تحدث عن أثر هزيمة الأمير على الأحداث السياسية في فرنسا . فهل تلك النهاية هي التي عجلت بثورة 1848 هناك ؟ وهل لو استمرت المقاومة على أشدّها في الجزائر لكانت الثورة ستقع في فرنسا لا محالة أو كانت ستتأجل ؟

ولكن ما الفائدة من هذه التساؤلات والإحتمالات ؟ إن « خيانة » العهد الذي أعطي للأمير قد اشترك فيها النظامان : الملكي والجمهوري . فقد حمل الأمير إلى سجون فرنسا ـ بدل الإسكندرية أو عكا كما اشترط ـ وأنزل في قلعة (لامالق) ثم سجن (الهم) ثم امبواز ، حيث بقي إلى اكتوبر 1852 . وقد أكد النظام الجمهوري عدم الوفاء بالعهد واعتبر ان ذلك العهد قد منحته حكومة (لا دولة) فرنسية لم تعد قائمة ، ولكن العالم كله ، وحتى قسماً كبيراً من الرأي العام الفرنسي ، اعتبر العهد مسؤولية

---

(5) هم على التوالي : دومال ـ كافينياك ـ شانقارنييه ـ ماري مونج ـ شارون ـ هوتبول ـ بيليسييه (بالنيابة) ـ راندون ـ بيليسييه (من جديد) .

الأمة الفرنسية والدولة الفرنسية بقطع النظر عن الحكومات الزائلة . ولا يهمنا الآن وجود الأمير في سجون فرنسا إلاّ بقدر تأثيره على مسيرة الحركة الوطنية في الجزائر . والمهم أن التلاعب الذي كان بيديه جنرالات فرنسا في الجزائر ، أمثال كلوزيل وروفيقو وبوجو ، بالعهود والضمانات لم يعد خاصاً بهم أو مستوراً بسحب الكذب والزيف ، بل أصبح مكشوفاً للعيان وللرأي العام العالمي الذي حكم حكماً قاسياً على سجن الأمير بدل تركه يرحل حيث اشترط ونص عليه العهد.

ورغم أن السياسة الفرنسية في الجزائر لم تتغير في الأساس نتيجة ثورة 1848 المذكورة ، فإن تبديل الحكام العامين السريع والإنطباع العام الذي أحدثته الثورة جعل بعض الحكام يتحررون من رقابة الحكومة والرأي العام ، ويجربون في الجزائر عقائدهم الخاصة . كان عدد الجيش بالجزائر في سنة 1848 أكثر من تسعين ألفاً ، وقد أرسل منه الحاكم الجديد ، كافينياك ، بعض الفرق إلى فرنسا توقعاً لحدوث اضطرابات أو تدخلات خارجية هناك . وقد أكثر الكتاب عندئذ من الحديث عن كون تلك الفرق من الجيش « الافريقي » قد نقلت « عاداتها السيئة » في العنف والقتل والعجرفة من الجزئر إلى فرنسا « الناعمة والمتحضرة »[6]، ورسم الرسامون كافينياك متوجهاً من الجزائر إلى فرنسا ويداه تقطران دماً ، لكي يطبق في فرنسا نظامه الخاص الذي تعلمه في الجزائر . وكان لا يضيرهم أن تقطر يداه بالدم ولسانه بالسم وعيناه بالشرر إذا كان في الجزائر يحارب المتعصبين والمرابطين والمجاهدين ، ولكن ذلك يضيرهم أشد الضير إذا ظهر به في فرنسا . وليس ذلك هو الأثر الوحيد الذي خلفته حروب الجزائر على العقلية الفرنسية . فقد ذكرنا ان « عقداء » المكاتب العربية قد أصبحوا قتلة وغشاشين ومرتشين . . . حتى الكولون قيل عنهم انهم لم يعودوا يمثلون الحضارة الأوروبية حق التمثيل وانهم تعلموا القسوة والجفوة واسودت أرجلهم وقلوبهم من العيش على الأرض الافريقية ! وكأن هؤلاء الناس ، جنوداً ومدنيين ، كانوا قبل المجيء إلى الجزائر نخبة المجتمع الفرنسي وصفوة الحضارة الأوروبية !

---

(6) انظر الرسم في شارل اندري جوليان (تاريخ الجزائر المعاصرة) جـ 1 ، 1964 ، لوحة رقم 33 . وقد كتب تحتها على لسان كافينياك وهو يغادر الجزائر الى فرنسا : « الآن وقد تعلمت كيف أضبط الناس في أفريقية (الجزائر) ، أذهب الى فرنسا لكي أطبق نظامي الخاص على هؤلاء الباريسيين المهذبين الذين يزعمون أنهم في جمهورية » .

ألم نعرف من قبل بأن معظم الجيش الفرنسي في الجزائر كان من الجهلة والمرتزقة والمغامرين ، وان الأكثرية الساحقة من المدنيين (الكولون) كانوا من حثالات المدن في شمال البحر الأبيض ومن شذاذ الآفاق ؟

وقبل أن يغادر كافينياك الجزائر إلى فرنسا ليصبح عضواً في المجلس الوطني الجديد ، قام « بعمليات تهدئة » في الجزائر . ذلك أن نفي الأمير وسجنه ، وما أشيع عن ظهور بـومعزة جديد ، وكون انكلترا قد أعلنت الحرب على فرنسا ، وأن هذه ستجلو عن الجزائر بعد الثورة الجمهورية ، والتذمر الذي عرفته الأرياف الجزائرية والترقب الذي شهدته المدن ـ كل ذلك جعل الجيش الفرنسي يقوم بتلك العمليات لكي يثبت للجزائريين انه ما يزال موجوداً وأنه قادر على القهر والقمع ، بدعوى أن الناس رفضوا دفع الضرائب ، وأنهم عادوا للثورة واتبعـوا المنادين بـالجهاد . بـدأ كافينياك نفسه بالقيام باستعراض عسكري ضخم في مدينة الجزائر حضره المئات من القيادات الأهلية العاملة في الظاهر مع العدو ، وأعلنوا عن اعتـرافهم بالجمهـورية الثانية ! وقام ماري مونج بعمليات تمشيط وتخريب في الجنوب ضد أولاد نـائل . وخرجت فرق الدمار من مستغانم ومعسكر ووهران في اتجاهات مختلفة تفرض دفع الضرائب وتظهر القوة والتعسف . وقام كذلك كاروبير في الأوراس بحملات دمارية انتهت باستسلام الحاج أحمد (جوان 1848) ، كما عرفنا[7] . وعندما غادر الحاكم العام الثاني (شانقارنييه) الجزائر الى فرنسا ليصبح « ممثلاً للشعب » الفرنسي ، كان جنوب وهران يهتز بالثورة بقيادة قبيلة حميان . وكانت بجاية ونواحيها ، في حالة ثورة (نهاية جوان 1848) . وقد تعاقب الحكام العامون ، كما ذكرنا ، كأنهم في استعراض كبير ، إلى أن جاء دور شارون (1848 ـ 1850) الذي شهد عهده ثورة الزعاطشـة ، ثم راندون (1851 ـ 1858) الـذي تميز عهـده بالمقـاومة الـطويلة والعنيدة في بلاد القبائل والصحراء . ونحن لن ندرس كل حكم وحاكم على حدة . ولكن سنعرف ذلك من خلال تعرضنا للمقاومة في كل عهد . والمؤكد هو أن سياسة العدو خلال عقد الخمسينات لم تتغير ، كما لاحظنا ، فهي وإن كانت سياسة جديدة في فرنسا فهي قديمة في الجزائر .

* * *

(7) في 7 جوان وصل الحاج أحمد الى بسكرة ، وطلب الأمان انظر الفصل الثاني .

4 محاولات الاندماج :

من نتائج الثورة التي حدثت في فرنسا انها حكمت بإبعاد العناصر السياسية غير المرغوب فيها هناك إلى الجزائر . وبذلك جاء إلى الجزائر عدد من السياسيين ذوي الاتجاهات المختلفة والمعادية للنظام الجديد . وكان على هؤلاء أن يجدوا الأمن والعمل والعيش في الجزائر على حساب أهلها . وقد أصبحت الجزائر « ملجأ » يرسل إليه المعارضون الفرنسيون ، إذ أن نفس الشيء حدث أيضاً أثناء انقلاب سنة 1852 وبعده ، فقد حملت السفن عدداً من المعارضين للأسرة النابوليونية إلى الجزائر ، وبالطبع وفرت لهم إمكانات العمل والعيش في الجزائر . وكان لهذه الهجرة الفرنسية وجه آخر إذ أن المهاجرين في هذه المرة لم يكونوا من حثالات المدن والعاطلين ، ولكنهم كانوا في الغالب من فئة المثقفين والحرفيين والنقابيين الخ . وبذلك أسهموا في إثارة العداء نحو الجزائريين ، وساندوا فكرة الاندماج العزيزة على المستوطنين الأوروبيين ، وهي الفكرة التي تعني حكم الجزائر بالقوانين الفرنسية وتطبيق النظم المعمول بها في فرنسا على فرنسيي الجزائر (وليس على الجزائريين طبعاً) . وهكذا بدأ عهد جديد سمي « عهد الاندماج » وهو العهد الذي يشعر فيه المستوطنون وهم في الجزائر كأنهم في بلادهم فرنسا تماماً.

وقد نص دستور الجمهورية الجديدة على أن الجزائر ثلاث مقاطعات « فرنسية » . ولا يعني ذلك الدمج القانوني فقط ولكن يعني أيضاً الدمج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي . فقد قسمت الجزائر إلى ثلاث ولايات بدل النواحي العسكرية القديمة . وعلى رأس كل ولاية وال مدني إلى جانبه قائد عسكري للولاية ، ورغم شدة الخلاف بين السلطتين (المدنية والعسكرية) فقد بقيت اليد العليا للقائد العسكري . كما قسمت كل ولاية إلى مجموعة من البلديات وكل بلدية لها مجلس منتخب ، وكل الناخبين فرنسيون أو متفرنسون ، وأعضاء المجالس البلدية كانوا فرنسيين ، مع بعض الاستثناء للجزائريين المرخص لهم . وعدد الأعضاء في المجالس يختلف من بلدية إلى أخرى ، وأوسعها مجلس العاصمة الذي كان يضم سنة 1848 حوالي 24 عضواً . وهناك المجالس التي لا يتعدى أعضاؤها التسعة . وكان رؤساء البلديات غير منتخبين بل يعينون من قبل الحاكم العام ، ثم أصبحوا

يعينون من قبل الوالي ، ولكن السيطرة العسكرية ظلت هي البارزة ، والدليل على ذلك أنه يجوز للحاكم العام أن يوقف عمل المجلس البلدي ، دون حله[8] . ومن الواضح أن هذا التغيير الإداري لا يمس إلّا الفرنسيين أو المتفرنسين الذين يطالبون بالإندماج ، أما الجزائريون فقد ظلّوا يحكمون من قبل المكاتب العربية « العسكرية » وكانت شؤونهم تابعة لوزارة الحربية .

وتطبيقاً لجعل الإدارة المدنية في يد الفرنسيين ، فإن الجزائريين الذين عينوا سابقاً في مناصب تشبه المناصب البلدية ، عزلوا منها وأعطيت مناصبهم لفرنسيين فهذا مثلاً منصب (قائد البلاد) في قسنطينة الذي أعطي في السابق إلى حمودة الفكون ، وبعد طرده أعطي إلى عمار القشي وغيره ، قد تولاه ابتداء من 29 ابريل سنة 1848 « المواطن قاسلان » ، وهو ضابط فرنسي متقاعد ، لماذا ؟ « لأن الوظائف التي يقوم بها قائد البلاد في قسنطينة تجمع مصالح متعددة وهامة لا يمكن أن يقوم بها معتمد من الأهالي »[9] . ومنذ ذلك الحين « فرنست » وظيفة قائد البلاد وظلت في يد الفرنسيين . والوظائف التي يشير إليها النص والتي تدخل في صلاحيات قائد البلاد أو شيخ البلدية هي : الشرطة العامة ، الضرائب على اللحم والخبز ، وتسمية الموظفين ، بما في ذلك الوظائف الدينية الخ .

وشمل هذا الدمج عدة نواحي أخرى كالقضاء . فقد كان القضاء من قبل تابعاً كله لوزارة الحربية . ولكن منذ 1848 وقع التفصيل : فما هو متعلق بالمسلمين (القضاء الإسلامي) بقي تحت الوزارة المذكورة ، أما القضاء الفرنسي فقد ضم إلى وزارة العدل . وبذلك أصبح الفرنسيون والأوروبيون في الجزائر يخضعون للمحاكم المدنية . وأنشئت من أجل ذلك أنواع من المحاكم ، منها الأولية ومنها الاستئنائية حسب الحاجة ومرور الزمن . أما القضاء الإسلامي في الولايات المدنية فقد صدرت بشأنه قرارات أيضاً سنة 1848 ، مثل إنشاء المجلس القضائي الأعلى ، ومحاكم القضاة للمذهبين : المالكي والحنفي ، وتكوين الوكلاء والمحامين ، ونص كذلك

---

(8) موريل (الجزائر) ، مرجع سابق ، ص 383 ، وكذلك نيفيل باربور (مدخل الى شمال أفريقية . . .) ص 221 . ونحن نستعمل كلمة الحاكم العام لممثل السلطة الفرنسية في الجزائر كلها ، وكلمة الوالي لحاكم أحد الأقاليم الثلاثة ـ العاصمة ، وهران ـ قسنطينة .

(9) انظر (روكاي) ، سنة 1930 ، ص 1 ـ 29 من سجل قائد البلاد بقسنطينة .

على ضرورة تسجيل القضايا في المحاكم الاسلامية . وكانت المحاكم الإسلامية ما تزال تستعمل الجلد في العقوبة ، خصوصاً في المناطق الريفية . أما في المدن فقد بدأ السجن والتغريم يحل محل الجلد . وحسب إحصاء سنة 1849 ، فإنّ الأفراد الذين حكم عليهم في المدن كانوا كالتالي : 124 حكماً بالسجن ، و 15 حكماً بالجلد ، و 7 أحكام بالتغريم . أما القضايا التي عرضت فقد كانت 2,333 قضية[10] .

وأمام عدة ظروف جديدة ، مثل حرب القرم والتنظيمات العثمانية في المشرق وعدم الأمن على المستوطنين الفرنسيين في الجزائر ، قامت سلطات العدو بإعطاء صلاحيات واسعة للمجلس القضائي الأعلى ، مثل جعل أحكامه نهائية لا تقبل الطعن أو الاستئناف . وكان ذلك في سنة 1854 ، في عهد الامبراطور نابليون الثالث . فبعد توجه قوات جزائرية إلى الدولة العثمانية للمشاركة في حرب القرم ضد روسيا وأمام التقارب الفرنسي ـ العثماني ، خصوصاً بعد اعتراف السلطان بالسيادة الفرنسية على الجزائر ، وأمام الثورات المتواصلة في بلاد القبائل والصحراء بإسم الجهاد وتحرير الدين الإسلامي ـ أراد نابليون أن يعطي صلاحيات للقضاة في المجلس بعيداً عن رقابة المكاتب العربية وبعيداً أيضاً عن التأثير القبلي . ولعل التوسع في صلاحيات هذا المجلس كان الهدف منه أيضاً استرضاء فئة رجال الدين والعلماء، وهم الذين طالموا اتهموا بالتعصب والعداء ، كما كان الهدف منه كسب المؤمنين بالأفكار « التقدمية » من رجال الدين ليوائموا بين الشريعة الإسلامية والقيم الفرنسية . ويرى البعض أن هناك ربطاً بين إنشاء المجلس والأفكار السانسيمونية ، ذلك ان الاشتراكيين المثاليين كانوا يرون انه يمكن تطوير الإسلام عن طريق التحرر العقلي . ومهما كان الأمر فإن هناك علاقة بين التوسع في صلاحيات المجلس المذكور وأحداث المشرق الإسلامي . ونلاحظ ان المجلس كان يجتمع مرة واحدة في السنة في مدينة الجزائر ، وكان يصدر الفتوى في الأمور القانونية العامة ، وكان يحاذي في فتاوى التشريعات العثمانية القائمة في اسطانبول على التنظيمات الجديدة[11] .

---

(10) موريل ، مرجع سابق ، ص 384 .

(11) انظر الان كريستلوفي (المجلة التاريخية المغربية) يوليو 1979 ، ص 35 ـ 39 .

ولكن سلطات المجلس الأعلى للقضاء لم تدم إلا حوالي خمس سنوات . فقد قامت ضده حملة إعلامية موجهة من قبل المستوطنين الفرنسيين . ولعل المكاتب العربية كان لها دور أيضاً في هذه الحملة . كما أن رجال الحكم الجزائريين (الأجواد ـ الصف ـ السيف) كانوا أيضاً غير راضين بأحكام المجلس وصلاحياته ، التي قلصت من نفوذهم جميعاً ، وكان شعار الحملة هو أن المجلس قد أصيب بالتعفن والفساد والفضائح ، وان القاضي وحده هو الذي يصدر الحكم النهائي في الشريعة الإسلامية ، وليس هناك مرجع آخر فوقه . ونتيجة لهذا الضغط ، وبعد انتهاء حرب القرم وصدور « الخط الهومايوني »[12] في الدولة العثمانية ، صدر مرسوم من نابليون الثالث سنة 1859 يعدل سلطات المجلس المذكور . وذلك بإعطاء حق الاستئناف للقضاة وكان ذلك زمن إلغاء الحكم العسكري في الجزائر وإنشاء وزارة مدنية للجزائر والمستعمرات (1858 ـ 1860) .

والمعروف أن هذا العهد قد شهد صدور مراسيم عديدة أخرى من قبل الامبراطور تتعلق بالجزائر . من ذلك انه أسند لابن عمه (جيروم نابليون) وزارة الجزائر المذكورة في يوليو 1858 ، وبذلك ألغى النظام العسكري بإلغاء منصب الحاكم العام في شهر اغسطس وهو النظام الذي عرفته الجزائر منه 1830 . كما صدر عن الامبراطور مرسوم بإحداث منصب القائد الأعلى للقوات البحرية والبرية ، وتعيين الجنرال ماكماهون عليه . وإذا كان الأمير جيروم لا يعرف الجزائر إلّا من السماع والتقارير إذ لم يضع رجله على ترابها ، فإن ماكماهون كذلك كان يجهلها ولا يعرف عنها إلّا القليل ، لقد قرأ عن الاستعمار في أمريكا وغيرها ، وكان متحمساً لتقليد كلوزيل في ذلك ولكنه كان ، إلى ذلك الحين ، غير مجرب على الأرض الجزائرية . ومع ذلك فقد كان هو الناصح والمستشار للأمير جيروم الذي كان منشغلاً بعلاقاته الغرامية أكثر من الأمور السياسية والعسكرية[13] . ولذلك فإن اعتماد ماكماهون في الجزائر كان على نصائح الكولون والمكاتب العربية والمبشرين .

---

(12) أصدر الخط الهومايوني (أو المرسوم السلطاني) السلطان عبد المجيد ، في فبراير 1856 تحت ضغط الدول الكبرى والتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية عن طريق الأقليات المسيحية .

(13) بعد أقل من عام استقال جيروم من الوزارة ، وذهب الى ايطاليا ليتزوج باحدى عشيقاته هناك .

ومنذ وصل ماكماهون إلى الجزائر، كقائد أعلى للقوات البحرية والبرية في الجزائر، جاءته تعليمة من الأمير جيروم تقول له ان العسكريين لم يعد في استطاعتهم أن يصدروا الأحكام مباشرة ضد الجزائريين المتهمين بارتكاب الجرائم أو الإخلال بـالأمن. وأوضحت التعليمـة ان هؤلاء يجب إحـالتهـم على مـجلس حــربـي لمحاكمتهم. والهدف من ذلك كان إبعـاد السلطة المطلقـة التي كانت للمكـاتب العربية على الأهالي، وإعطاء الفرصة للجزائريين المتهمين بـالدفـاع عن أنفسهم وتسجيل قضاياهم. ولكن مناورات ماكماهون والكولون والمكاتب العـربية أفهمت الوزير جيروم بأن الجزائريين قد يتهمون بدون دليل ولكن بمجرد الظنة، ومن ثمة لا يمكن إحالتهم على المحاكم العسكرية. فغير جيروم تعليمته فجعل بـدلها لجنـة انضباطية لدى القائد الأعلى (ماكماهون نفسه) مهمتها دراسة حالات الجـزائريين المتهمين وتقديم اقتراح بإبعادهم من الجزائر إذا ثبت أنهم خـطيرون على الـوجود الفرنسي. وبالإضافة إلى ذلك انشئت لجان أخرى مماثلة على مستـوى الولايـات الثلاث، تعلن هي أيضاً عن سجن أو تغريم الجزائريين الخطرين لمجرد الظن[14].

وبعد استقالـة الوزيـر جيروم تسلم وزارة الجـزائر والمستعمـرات (شاسلو - لوبا)، أحد المدنيين أيضاً. وكان هذا حريصاً على تحقيق رغبة الامبراطور في دمج الجزائر وإلحاق شؤونها بالوزارات الفـرنسية المعنيـة، وتشجيع الاستعمـار فيها، وإرضاء مطالب الكولون والعسكريين المنادين بإضطهاد الجزائريين، كل في مجاله. وظهرت في هذه الأثناء كتابات عديدة عن الجزائر يثبت أصحابهـا فائـدتها لفـرنسا وصـلاحيتها للتـوسع السكـاني والتصنيع والاستـراتيجية، كمـا أثبت بعضهـم مدى ملاءمتها لنشر التجارب الحضارية والمذهبية. وعلى رأس أولئـك غلاة الاستعمـار أمثال الدكتور (وارنييه) الذي سبق له أن عمل قنصلاً لبلاده لدى الأمير في معسكر، وعلى رأس الفريق الثاني اسماعيل عربان (أوربان) المترجم العسكـري الفرنسي الذي اعتنق الإسلام والمبادىء السانسيمونية معاً، والذي أخذ نجمه يسطع في عهد الامبـراطور. وأمـام هذه التيـارات المتعارضـة، خصوصـاً إذا أضيف إليها التيـار الكاثوليكي الذي يريد دعم التبشير في الجزائر - قرر الامبراطور أن يزور الجزائر بنفسه

---

(14) (مذكرات ماكماهون)، 173 وما بعدها.

وأن يقف على جلية الأمر شخصياً.

حل الامبراطور بالجزائر في شهر سبتمبر 1860 .وكانت خطته أن يبقى هناك فترة طويلة تسمح له بالتوصل إلى حكم دقيق ، وذلك بزيارة عدة مناطق ، والإجتماع بأهم العناصر ، والتعرف على المشاكل المطروحة ، خصوصاً رغبات الجزائريين ، وعلاقة العسكريين بالمدنيين ، وفكرة الإندماج أو عدمه الخ ـ ولكن حدث في فرنسا ما جعله يقطع رحلته ويعود إلى بلاده . ومع ذلك فإنه عاد مقتنعاً بضرورة استعادة العمل بالنظام العسكري وإرجاع منصب الحاكم العام ، وبذلك ألغى نابليون وزارة الجزائر والمستعمرات ، وعين المارشال بيليسييه حاكماً عاماً للجزائر ابتداء من نوفمبر 1860 . ورغم شهرة بيليسييه عندئذ في حرب القرم إذ نال على أثرها لقب (دوق مالاكوف) ، فإنه في الجزائر كان مشهوراً بجريمة غار الفراشيش التي ذهب ضحيتها سنة 1845 أكثر من ألف شخص ماتوا مختنقين بدخان الحطب(15) ، كما اشتهر بفشله الذريع في القضاء على ثورة أولاد سيدي الشيخ التي انطلقت سنة 1864 ، كما سنرى . ومهما كان الأمر فإن عهد بيليسييه لم يكن عهد بركة وسعادة لا على الجزائريين ولا على الفرنسيين .

5. الزعامات المدجنة :

لم يقتصر التغيير الإداري الذي حدث في الجزائر في عهد الجمهورية والامبراطورية (إلى 1860) على الشريط الساحلي والمدن الكبيرة ، بل تجاوزه أيضاً إلى المناطق الريفية ، التل وشمال الصحراء . وقد سبق لنا أن ذكرنا بأن بوجو قد قلد نظام الأمير في جعل إدارة سكان الريف إدارة تصاعدية تنتهي بسيطرة السلطة العليا ووصول الأوامر والنواهي بسهولة . ولكن الفرنسيين لم يقرأوا حساب أمرين هامين في ذلك النظام : الأول ان الموظف الجزائري الذي اختاره الأمير عبد القادر ليس هو الموظف الذي اختاره الفرنسيون من حيث الولاء والكفاءة . والثاني ان الهدف من تنصيب ذلك الموظف لم يكن واحداً في الحالتين . فقد كان موظفو الأمير مؤمنين بقضية وكان اختيارهم على أساس الكفاءة والثقة . بينما كان موظفو الفرنسيين

(15) انظر ما مضى ، الفصل الثالث .

لا يؤمنون بقضية ، ومن ثمة فإن ولاءهم كان دائماً محل شك . وكان اختيارهم على أساس العمالة والتبعية للعدو . ولا هدف لهم إلاّ تحقيق مآرب شخصية أو عائلية . ومن جهة أخرى فإن ثقة الناس في الموظف أثناء عهد الأمير كانت ثقة الرعية في الراعي والعائلة لكبيرها والمواطنين لقائدهم ، أما في العهد الفرنسي فإنه لم يعد للناس ثقة في هؤلاء الموظفين وكانوا يحصلون منهم على اللعنات أكثر من التأييد لأنهم خدام المستعمرين وأذناب الكفار ولسان حالهم يقول : « ولو كان فيهم الخير ، لما قبلوا تلك الوظائف ولما اختارهم العدو لها »[16].

لم يكن هدف الفرنسيين من توظيف رؤساء العائلات الكبيرة خدمة العائلات أو الجزائر أو الدين ، ولكنهم فعلوا ذلك ليتمكنوا بواسطتهم من السيطرة على البلاد وضرب المقاومة وتمزيقها . يقول سيروكا ، أحد الذين خبروا هذه العائلات وعملوا على رأس المكاتب العربية زمناً طويلاً ، : « إن معرفة خلفيات العائلات الرئيسية في هذه البلاد (الجزائر) وعداواتهم وصداقاتهم وثاراتهم ، تجعلنا قادرين أكثر على حكمهم ، كما ان معرفتنا ، عن كثب ، لتاريخ البلاد المغلوبة تقينا غالباً من الوقوع في الخطإ . . »[17] وعلى هذا الأساس كان الفرنسيون يخططون بأن يتوسطوا بالعائلات الكبيرة في حكم الجزائريين ، واعتبروا هذه القيادات متعاونة معهم من أجل مصالحها الخاصة . فأسندوا إليها دوراً بارزاً في بادىء الأمر (الشرطة ، والضرائب وتسليط العقوبة ، إلخ .) ، وأضفوا عليها الألقاب والنياشين والمال والأرض والجاه . وسموها الارستقراطية العربية ، وهي الفئة التي كانت القاعدة لتشييد المملكة العربية التي كانت تدور بخلد الامبراطور نابليون الثالث ، قبل أن يعلنها في مشروعه المشهور.

ولم تكن هذه العائلات كلها من فئة الأجواد أو رجال الحرب . فقد كان من بينها أيضاً عائلات دينية كانت لا تتدخل في المسائل العسكرية في الماضي إلاّ عند

---

(16) يذكر الحاج محيي الدين بن مبارك أنه منذ قَبِلَ بأن يكون « اغا العرب » للفرنسيين سقط في عين المواطنين ، رغم أنه كان مرابطاً محترماً بينهم وكلمته تعتبر أمراً . وكان ذلك قبل انضمامه للأمير وتوليه خلافة مليانة . والنماذج على ذلك كثيرة . انظر ما مضى .

(17) سيروكا (المجلة الأفريقية) 1912 ، ص 378 ، وكان سيروكا قد تولى المكتب العربي في بسكرة ، وكتب تاريخ الناحية بين 1830 ـ 1855 بأسلوبه الخاص طبعاً .

الثورة ضد النظام . وقد حصر بعضهم العائلات البارزة ، الدينية والعسكرية بين 1849 ـ 1868 في الولايات الثلاث ،فكان منها في غرب البلاد ، أولاد سيدي العربي ، وأولاد بومدين ، وأولاد القاضي ، وأولاد سيدي الشيخ ، وأولاد الصافي بن أحمد الخ . ومنها في الوسط العائلات الآتية : عائلة محيي الدين في بني سليمان ، وأولاد مختار ، وعائلة التجاني صاحب الطريقة ، وعائلة ابن شريفة الخ . أما في الشرق فهناك عائلات : بوعكاز بن عاشور ، وبوعزيز بن قانة ، ومحمد ابن عز الدين ، والحاج مسعود بن زكري الخ[18] . وإذا كان العهد العثماني قد عرف عائلات عسكرية سميت في أغلب الأحيان بالمخزن ، فإن العهد الذي نحن فيه قد جعل من بعض العائلات الدينية عائلات مخزنية أيضاً . ومن أشهرها أولاد سيدي الشيخ ، وابن علي الشريف ، الخ .

وقد قام أحد الباحثين بإحصاء العائلات المشاركة في الوظائف العسكرية ـ السياسية التي أنشأها الفرنسيون فكانت نتيجة بحثه ملفتة للنظر حقاً وتعبر عن فشل الطرفين في نظره . فبحلول سنة 1850 كان عدد الموظفين من العائلات البارزة كما يلي : 9 خلفاء ، و 5 باشغوات ، 59 آغا وقايد القياد ، 85 قايدا . وجميعهم كانوا يمارسون صلاحياتهم القديمة (منذ عهد بوجو) مع التوسع فيها . ثم أخذت هذه الزعامات تضمر شيئاً فشيئاً ، حتى انه خلال عقد واحد (1870 ـ 1880) ألغى كثير من صلاحياتها ، بل إن حوالي 47 وظيفة عالية منها قد ألغيت تماماً ، وما بقي من الوظائف لم يكن إلّا شرفياً فقط[19] . لماذا حدث ذلك ؟ لأن الفرنسيين لم يكونوا يهدفون منذ البداية إلى إحداث تغيير في البنية الإجتماعية لصالح التطور أو نحو ذلك في الجزائر ، وإنما كان هدفهم السيطرة على البلاد ، ومتى ظهر لهم انهم قادرون على التخلص من نفوذ تلك العائلات فعلوا .

والواقع انهم لم يلغوا تلك الوظائف هكذا كلية ، ولكنهم كانوا يقلصون منها ببطء حتى لا يحدث ذلك ردود فعل عنيفة كالثورات ، انها عملية تذويب بطيئة . وقد سمى بعضهم تلك الطريقة بالبقرطة (من البيروقراطية) . فالخلافة الواحدة كانت

---

(18) انظر وثيقة تروملي في ارشيف ايكس رقم 10H 56 .

(19) فان سيفرز (مجلة الشرق الأوسط الدولية) ، مرجع سابق ، ص 262 .

تجزأ إلى عدة أغوات وقيادات حتى لا يستقل صاحبها بالنفوذ ، والعائلة الواحدة يجب اشراك عائلات أخرى منافسة لها فيما كان لها حتى يحدث التوتر المطلوب بينها ويتطلب الأمر تدخل العدو ، وكلما حدثت ثورة ، مثل ثورة الزعاطشة أو القبائل أو أولاد سيدي الشيخ ، كانت العائلات الحاكمة في المنطقة تعاقب بتجزئة منطقة نفوذها أو بإبعاد رأسها أو بتعيين منافس له من نفس العائلة أو من عائلة أخرى . وهكذا ، فلم يحن عقد السبعينات حتى لم يبق من تلك العائلات الأرستقراطية المتسلطة في ظل الاستعمار إلّا الهيكل العظمي ، فالذين كانوا يحكمون كانوا في الحقيقة مجرد دمى يتلاعب بها العدو الذي أصبح يتدخل في كل صغيرة وكبيرة عندها . ولكن هذا الموضوع سيظل معنا في الفصول الأخرى أيضاً ، وسنرى كيف انتهى الحال بتلك العائلات . ونود أن نلاحظ أن هذا المآل كان من نصيب الطرق الصوفية أيضاً بعد تدجينها وإعطاء كل منها عظماً تلوكه .

ومن الأمثلة البارزة على تنافس العائلات الذي جعله الفرنسيون لصالحهم ، ما كان بين عائلة بوعكاز وعائلة ابن قانة في منطقة بسكرة - الأوراس . وما حدث في جنوب وهران عند عائلة أولاد سيدي الشيخ . فهذه عائلة بوعكاز قد أنجبت فرحات بن سعيد الذي سبق الحديث عنه . وقد كانت تتولى مشيخة العرب هناك إلى حوالي 1821 . وعندما تولت نفس المنصب عائلة ابن قانة (أخوال الباي الحاج أحمد) دخلت المنطقة كلها في صراع عنيف استغله الفرنسيون لصالحهم . فكانوا يمنون ابن سعيد من 1830 إلى 1838 ما دام ابن قانة متحالفاً مع الحاج أحمد ، وعندما انضم ابن قانة (بعد احتلال قسنطينة) إلى الفرنسيين وتخلى عن صهره الحاج أحمد ، كافأه الفرنسيون بمنصب شيخ العرب أو بعبارة أخرى ثبتوه حيث كان . فازداد سخط ابن سعيد واستمر في عدائه لابن قانة فانضم للأمير من أجل ذلك وكاتب الفرنسيين إلى أن قتل غيلة سنة 1841[20] . وبذلك خلا الجو بعض الوقت لابن قانة[21] ، وبدا وكأنه هو السيد الإقطاعي غير المنازع، فتعاون مع الفرنسيين على القضاء على بقايا الأمير هناك (الحاج محمد الصغير بن الحاج ، وحسين بن عزوز الخ .) ولكن ثورة

---

(20) قتل في 20 نوفمبر 1841 حين كان في أولاد بوعزيز الموالين له في الظاهر ، ولكنهم انضموا سراً ، كما تدعي الروايات ، لخصمه ابن قانة . وقد ذكرنا أنه دفن في سيدي خالد .

(21) كان بوعزيز بن قانة عندئذ هو رأس العائلة . وقد توفي في 9 اغسطس 1861 .

الزعاطشة (1849) التي وقعت في منطقته جعلت الفرنسيين ليس فقط يشكون في عجزه بل ويشكون في ولائه أيضاً . ولذلك عاقبوه بتقسيم المنطقة بينه وبين ابن شنوف[22] ، وأنشأوا قيادة جديدة في السحاري عينوا عليها واحداً من عائلة ابن قانة ، وهو بولخراص (لكي يحدثوا تنافساً داخل العائلة الواحدة) . ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل جزأوا المنطقة الباقية في حوزة ابن قانة الى قيادات جعلوا عليها موظفين جدداً بحيث لا يبقى النفوذ « المباشر » فيها لأولاد بن قانة وحدهم . وهذا نموذج فقط مما فعل الفرنسيون في كل المناطق التي تسيطر عليها عائلات مثل عائلة ابن قانة .

ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل إنهم عينوا علي باي ، (وهو أحد أبناء فرحات بن سعيد) على رأس منطقة شاسعة في الجنوب الشرقي كانت في الماضي داخل نفوذ أولاد ابن قانة ، وهي منطقة وادي ريغ ووادي سوف ، مقره في تقرت ، وكانت تقرت فيما مضى مركزاً لعائلة بني جلاب . كان ذلك سنة 1854 على أثر دخول القوات الفرنسية تلك النواحي ، كما سنرى . ورغم أن النزاع قد هدأ إلى حد ما بين العائلتين ما دام أولاد بوعكاز قد أصبحوا بعيدين عن منطقة نفوذ أولاد بن قانة ، فإن حدوث ثورة الشيخ الصادق بن الحاج في الأوراس سنة 1858 قد أضر بسمعة ابن شنوف هناك (وهو حليف أولاد بوعكاز) ، كما أضرت ثورة الزعاطشة سابقاً بعائلة ابنُ قانة . وهكذا قسم الفرنسيون منطقة ابنْ شنوف أيضاً إلى قيادتين ، أعطيت إحداهما إلى الميهوب (الموهوب) ابن علي باي . وبقيت المنافسة على أشدّها بين العائلتين : ابن قانة من جهة وبوعكاز ـ ابن شنوف من جهة أخرى[23] .

6. جبهة المقاومة : في الزعاطشة والأوراس والحضنة :

بعض الكتّاب يعتبر ما حدث في الزعاطشة إنما هو حادثة منعزلة جاءت بعد « تهدئة » الأوضاع في الجزائر . وكثير من هؤلاء الكتّاب يمرون في تاريخ الجزائر على ثورة الزعاطشة مرور الكرام ، مكتفين ببعض السطور عما كلفت الفرنسيين من

---

(22) ابن شنوف من أنصار عائلة بوعكاز ضد عائلة ابن قانة .

(23) انظر تفاصيل ذلك في فان سيفرز ، مرجع سابق ، ص 268 .

قتلى وجرحى . وهم يذكرون « الزعاطشة » كقرية أو واحة ثانية في الزيبان لا تهم دارسي تاريخ الجزائر كثيراً . ونحن إلى الآن ، وبناء على ذلك المنظور ، لا نعرف إلّا أن ثورة حدثت هناك سنة 1849 بقيادة مرابط يدعى بـوزيان ، وانتهت بتخزيب الواحة وقطع نخيلها وقتل بـوزيان ، وبعدها عاد الأمن والسلام كما كانا . هكذا بكل بساطة واختصار !

ولكن الأمر لم يكن كذلك بالضبط ، فقد استمرت الثورة عدة شهور ، وشملت الأوراس والحضنة أيضاً ، واستنفدت من العدو قوات ومعدات ضخمة ، وارتكبت أثناءها فظائع تخجل إلى جانبها فظائع النازية . ولكنها مع ذلك حدثت في غفلة من الزمن ، فلم تكتب بحروف بارزة في سجلات العـدو ، إذ اعتاد ألّا يكتب إلّا عن « انتصاراته وبطولاته » ، وليس فيما فعله في الزعاطشة انتصار ولا بطولة ولا انسانية ، ولذلك ضرب عنها صفحا ، وطوى عليها كشحا ، لأنها تذكره بالعار الأبدي . وما الطريقة التي تم بها القضاء على ثورة الزعاطشة إلّا كالطريقة التي تم بها القضاء على قبيلة رياح في غار الفراشيش بالظهرة ، وقبيلة العوفية بالقرب من وادي الحراش ، وقبيلة أولاد يعقوب في جهة عنابة . انها ليست حرباً ، ولكنها اعتداء صارخ على كل القيم بإستعمال الحرائق والألغام والحصار الطويل ونسف الديار ، وقطع الـرؤوس البشرية وتعليقها على البنادق والأبواب تشفياً وازدراءً .

وهناك أسماء كثيرة غير لامعة في تاريـخ هذه الثـورة بالنسبـة للعدو . هنـاك الجنرال هيربيون[24] المسؤول الأول على تخريب الواحـة وقتل الأبرياء . وهو الذي قام بما قام به سلفه مع العوفية وبني يعقوب ، إذ خرج هيربيون مرة ليلاً ووقع على سكان أورلال فقتلهم وسلبهم أرزاقهم وحطم وخرّب الباقي بدعوى أنهم يعاونون ثوار الزعاطشة . وهو الذي أمر بقطع النخيل بالزعاطشة وليشانة لينزع الحماية على الثوار ويفتح الطريق أمام كور المدافع . وهو الذي عجز عن إيجاد ثغرة لدخول الواحة فظل يستنجد إلى أن وصلت قوات بلغت 27,000 جندي وفارس مع معداتها المدفعية ، من قسنطينة وبوسعادة ، وعنابة ، وسكيكدة الخ . وهيربيون هو الذي أمر بقتل الشيخ محمد بوزيان بعد القبض عليه ، وتعليق رأسه على مدخل معسكره لعله ينال ترقية

(24) كان هيربيون عندئذ يشغل قائد الناحية العسكرية الشرقية (اقليم قسنطينة ، ومنه طبعاً الزعاطشة) .

على ذلك. وهو الذي أمر أيضاً بقتل ولد الشيخ بوزيان، الذي لم يكن قد بلغ العشرين سنة بدعوى انه لو تركه حياً لأخذ بثار أبيه ! ووضع رأس الإبن المقطوع إلى جانب رأس الأب على مدخل معسكره حتى يشبع حقده و « ساديته » ، كما أن هيربيون هو الذي قطع رأس الحاج موسى الدرقاوي وعلقه بإزاء رأسي بوزيان وابنه . يضاف إلى ذلك أسماء الضباط الذين شاركوا هيربيون وهم : بورباكي ، وكاربوشيه ، وبارال ، وسان جيرمان . . . وجميعهم عرفوا بالغطرسة وحب النهب والقتل.

إن الثورة المعروفة بثورة الزعاطشة أهم وأكبر من أن تحصر في واحة الزعاطشة فقط ، رغم ان هذه الواحة هي التي تحملت النصيب الأكبر من الخراب والدمار . فجغرافية الثورة شملت ، كما قلنا ، الحضنة والزيبان وأجزاء من الأوراس ، والصحراء . واشتركت فيها : الخنقة وبسكرة وطولقة وأولاد جلال وبوسعادة وسريانة وواحات عديدة أخرى مثل فرفار وليشانة . وساهم في إثارتها وقيادتها عدد من رجال الدين البارزين ، شيوخ الطرق الصوفية ، أمثال عبد الحفيظ الخنقي (الخنقة) ، والصادق ابن الحاج ، زعيم ثورة الأوراس سنة 1858 ، الذي تقول الروايات انه جاء بسبعمائة جندي لفك الحصار على واحة الزعاطشة ، والمختار الجلالي (أولاد جلال) ، ومحمد بن شبيرة (بوسعادة) ، والحاج موسى الدرقاوي الشهير ، والشيخ محمد بوزيان نفسه ، وتعتبر الثورة في الحقيقة استمراراً لثورة الأمير ومقاومة قسنطينة الطويلة والصراع الذي حدث بين المجاهدين وقوات العدو خلال الأربعينات ، في أطراف الصحراء : الأغواط ، مسعد ، بسكرة ، أولاد جلال ، بوسعادة ، الخ . فقد عرفنا هناك كم واجه العدو من مقاومة خلال 1846 ـ 1847 ، وذكرنا انه بالرغم من احتلال بسكرة الظاهري فإن الناس لم يقبلوا الإحتلال وظلوا يتحينون الفرصة للإنقضاض على العدو.

إن معلوماتنا عن الشيخ محمد بوزيان قليلة جداً . وكل ما نعرف عنه الآن هو انه كان من موظفي إدارة الأمير عبد القادر بالمنطقة بلقب (شيخ) على واحة الزعاطشة[25] . وإن بعض المصادر تذكر انه كان من المرابطين والأشراف . وانه كان محارباً شجاعاً ، ومن أحسن الرماة ، وأن سمعته كانت واسعة ومحترمة ، وانه حارب

---

(25) فان سيفرز ، مرجع سابق ، ص 266 . أفادني البعض (محمود الواعي) أن الاسم الحقيقي لبوزيان هو عبد الرحمان بن زيان ، وأن ابنه القتيل معه يسمى الحسين .

ضد جنود الحاج أحمد هناك سنة 1831[26] . ويبدو انه كان صاحب سمعة ونفوذ ، وانه كان متقدماً في السن عند استشهاده سنة 1849 ، ما دام قد حارب منذ 1831 ، وكان عمر ابنه حوالي عشرين سنة عند استشهاده أيضاً . ومن نفوذه انه استطاع أن يجند للثورة عدداً من المرابطين والمجاهدين في أماكن بعيدة نوعاً ما ، مثل الخنقة وبوسعادة وأولاده جلال ومسعد . وقد استعمل هؤلاء نفوذهم الديني وشجاعتهم العسكرية أيضاً (مثل الشيخ الدرقاوي والشيخ عبد الحفيظ والشيخ ابن شبيرة) ، وقد استشهد أكثرهم في المعارك عندئذ حتى ان العدو استغرب كيف انه لم يطلب أي واحد من « متعصبي » الشيخ بوزيان (كما كان العدو يطلق على المجاهدين) الأمان ، ورضوا أن يموتوا جميعاً تحت الأنقاض والسلاح في أيديهم . ولا شك أن ذلك راجع إلى الإيمان بالقضية التي آمنوا بها ، وهي العيش في حرية وسلام بعيداً عن الدخيل الكافر.

وهناك ملاحظة أخرى نود أن نبديها قبل الدخول في تفاصيل الثورة ، وهي ذلك التضامن الرائع الذي حدث بين السكان في كل الناحية . فقد تهاطلت النجدة على الواحة المحاصرة من كل الجهات البعيدة والقريبة ، حتى اضطر العدو أن يقيم فرقاً خاصة في ثلاثة اتجاهات لسد الطريق أمام النجدات الآتية من بوسعادة وأولاد جلال وباتنة والأوراس وطولقة الخ . واضطر أيضاً إلى أن يغير ليلاً على « قبائل البدو » في أورلال ومليلي وغيرهما لأنها كانت تنجد بوزيان بالرجال والسلاح والمؤونة . ان المعركة إذن لم تكن معركة واحة معينة ، أو معركة مرابط متعصب ، أو معركة ضد دفع الضرائب (كما أشاع العدو وبعض الكتاب) ، ولكنها كانت معركة دينية ـ وطنية ضد الدخيل الكافر ، كما ذكرنا ، حتى لا يدنس التراب الذي مشى عليه هناك بالضبط عقبة بن نافع والصحابة الآخرون والتابعون ، ولا يسقط علم الجهاد والوطنية الذي رفعه الأمير عبد القادر .

ورغم وضوح الدوافع الدينية والوطنية للثورة فإن بعض الكتاب أصر على وجود

---

(26) سيروكا ، المرجع السابق ، ص 387 . انظر أيضاً بول غفريل (الجزائر المحتلة) ، ص 169 . ويقول غفريل عن بوزيان ان « وطنيته قد جعلته رجلاً خطيراً جداً » في نظر الفرنسيين ، كما يذكر أنه اشترك أيضاً في أحداث سنة 1833 وسنة 1838 في المنطقة .

الدافع الإقتصادي لها ، فقال بأن الفرنسيين رفعوا ابتداء من مارس 1849 ، الضرائب على النخيل من 0,25 إلى 0,40 فرنك كما ألغوا جميع الإعفاءات السابقة . وهذه الزيادة في الضرائب والغاء الإعفاءات جعلت بوزيان يستغلها لإثارة السكان ضد العدو[27] . ومن جهة أخرى يذكرون أن هناك تنسيقاً في الجهاد بين المرابطين (الشيخ بوزيان ، الشيخ المختار ، الشيخ ابن شبيرة ، الشيخ عبد الحفيظ الخ .) وبين أنصار وحلفاء الأمير السابقين وعلى رأسهم محمد الصغير (بن الحاج) . ونحن لا نستبعد أن يكون الظلم الإقتصادي (ضرائب الخ .) دافعاً من دوافع الثورة ، ولكنه ليس الدافع الأساسي في نظرنا ، لأن الفرنسيين أنفسهم سيشهدون بأن الجزائريين لم يثوروا أبداً ضدهم بدافع الجوع والخصاصة ، ولكن لأسباب أخرى أهمها الدين والشرف والوطنية . ويدل على ذلك تضامن سكان الجهة كلها مع الثوار وهو التضامن الذي يرقى في نظرنا إلى مستوى التضامن الوطني اليوم[28] .

منذ الربيع (شهر مايو عند بعض الكتاب وشهر جوان عند البعض) أخذت الثورة تشب في الناحية بالدعوة إلى الجهاد وجمع السلاح وتوفير المؤونة وحفر الخنادق وإقامة التحصينات والبحث عن الحلفاء . ولا يذكر المؤرخون ان هناك اصطداماً وقع بين الثوار وبين الزعماء المحليين الممثلين للسلطات الفرنسية مثل زعامة ابن قانة أو زعامة بوعكاز . ولم يشترك هؤلاء بفرقهم ضد الثوار الاّ عندما جاء العدو بنفسه ، كما سنرى . وهذا الموقف هو الذي جعل العدو يشك في ولاء الزعامتين ويتهمهما بالتواطيء مع الثوار ضده . ولم تكن واحة الزعاطشة معزولة عن بقية الواحات بل انها كانت متصلة أشد الإتصال ، طبيعياً وبشرياً وعسكرياً ، مع واحات ليشانة وفرفار وطولقة وبوشقرون . وهذا الإتصال القوي هو الذي جعل العدو يجد صعوبة في التقدم نحو الزعاطشة ثم نحو دار بوزيان .

---

(27) فان سيفرز ، مرجع سابق ، ص 266 . وكذلك جوليان ، تاريخ الجزائر ، ص 384 .

(28) يذكر غفريل (الجزائر . . .) ، ص 169 أن « البساكرة » العاملين في العاصمة كانوا يرجعون الى بلادهم بالأخبار التي تروج في العاصمة ومنها حدوث ثورة 1848 في فرنسا ، ورحيل جزء من الجيش الفرنسي نحو بلاده نتيجة ذلك ، والاطاحة بالملك الفرنسي ، الخ . وقد فسروا ذلك ، وكذلك فسره بوزيان وأهل الزيبان ، بأنه يعني اقتراب عهد التحرر من الاستعمار فتنادوا للثورة والجهاد .

حاول العدو أكثر من مرة القضاء على الثورة فكان لا يجني الّا الفشل والتراجع المخزي . وكان ذلك الفشل يزيد في معنويات الثوار ويضيف اليهم أنصاراً وحلفاء . وكانت خطة الثوار هي الهجوم على الحامية الفرنسية في بسكرة وتطهير الناحية منها ، في عملية تشبه العملية التي جرت سنة 1844 . أول فشل جناه العدو كان على يد كاربوشيا ، قائد مركز باتنة ، فقد تقدم نحو الزعاطشة بقوة تقرب من ألفي جندي في 16 يوليو ، ولكنه واجه ثورة عارمة كلفته 31 قتيلاً و 117 جريحاً ، فارتد على عقبه في اليوم التالي . يقول بعض المؤرخين انه حاول انتزاع الشيخ بوزيان من أيدي أنصاره ولكن هؤلاء حموا شيخهم منه وقتله له العدد المذكور ، ويقول آخرون ان كاربوشيا لم يستطع التقدم نحو الزعاطشة لكثافة النيران ، وشدة التحصينات ، وقوة الحرارة . فرجع من حيث أتى مضمراً الثأر في الوقت المناسب ، بعد توفير المدافع ووصول النجدة .

ولم يحن شهر سبتمبر حتى أخذت الثورة منعطفاً جديداً ، نعني به إعلان الجهاد من قبل الشيخ عبد الحفيظ الخنقي وتقدمه بقوة ضخمة نحو سريانة . وكان قائد العدو على بسكرة عندئذ هو سان جيرمان فخرج إلى الشيخ عبد الحفيظ بقوة عسكرية فيها كل أنواع المرتزقة : خيالة ، وزواف ، ولفيف أجنبي ، وقومية ، وصيادة افريقية الخ . وأثناء المعركة استشهد الشيخ عبد الحفيظ كما قتل سان جيرمان . وإذا كان استشهاد الشيخ عبد الحفيظ قد أصاب الثورة فان مقتل الضابط العدو قد رفع من معنويات الثوار وزاد في الحماس . وعلى كل حال فإن مقتل سان جيرمان كان هو الفشل الثاني للعدو في القضاء على الثورة ، لأن هذا الضابط قد خبر المنطقة وكان قائد الحامية في بسكرة منذ خمس سنوات ، واكتسب سمعة بين زملائه عندما تلقى استسلام الحاج أحمد، باي قسنطينة قبل ذلك بعام واحد.

اما الفشل الثالث للعدو فكان خلال شهر اكتوبر . فقد استعد الجنرال هيربيون ، الحاكم العسكري لإقليم قسنطينة كله ، للهجوم الذي ظنه سيكون قاضياً على الثورة . فاختار الوقت المناسب في نظره وهو شهر اكتوبر الذي تخف فيه درجة الحرارة ، وهو في نفس الوقت الشهر الذي تنضج فيه التمور ، كما جاء على رأس قوة عسكرية قدرت بـ 4,500 مضافاً اليهم فرق عديدة من المرتزقة المشار اليهم ، خصوصاً القومية . وبعد أن رتب حراسة قواته ووضع مخططاً يمنع وصول السلاح

والمؤونة والنجدة للثوار ، هاجم يوم العشرين (كان قد وصل يوم 7 منه) من الشهر المذكور . ولكنه رد على أعقابه مثل زميله كاربوشيا ، وتكبد 35 قتيلاً و 147 جريحاً على الأقل ، حسب المصادر الفرنسية[29] .

وفي انتظار النجدة أخذ هيربيون وجنوده المرتزقة يتفننون في التخريب على غرار ما فعل الوندال . ويدعي هو وجماعته انهم فعلوا ذلك للتأثير على معنويات الثوار وأنصارهم ، وانهم لجأوا إلى ذلك لأن الطريق إلى وسط العمران بالزعاطشة كان غير سالك لكثرة التحصينات والعراقيل . ومن ذلك الخنادق المائية ، والأبراج ، وكثافة الأشجار المثمرة المتراصة مع النخيل الخ . ولذلك تفتقت حيله الخربية على ضرورة قطع جميع الأشجار بطريقة منظمة بحيث لا تبقى نخلة أو شجرة تقف في الطريق . وكان ذلك بداية خراب الزعاطشة الذي انتهى باحراق جميع المنازل ونسف المسجد والدور بما فيها دار الشيخ بوزيان . وفي الوقت الذي كان فيه هيربيون يقطع الأشجار كان جنوده يغيرون أيضاً على القرى المجاورة وقوافل البدو لإرعابهم وقهرهم حتى لا ينجدوا الثوار ، كما كانوا يشددون الحراسة على الطرق الرئيسية خصوصاً طريق بسكرة وطريق باتنة .

وبعد وصول النجدة إلى العدو من قسنطينة وباتنة وبوسعادة وسكيكدة وعنابة، بزعامة ضباط برزت أسماؤهم في هذه المناسبة، مثل كاروبير، وبارال الخ. جدد هيربيون الهجوم بكل الأسلحة ، بما فيها المدافع . كانت التعليمات تقتضي قتل جميع الأحياء ولو كانوا نساء أو أطفالاً ، وقطع كل الأشجار بالواحة في كل الاتجاهات ، وتخريب جميع المنازل . ان الحصار الذي ضرب على الواحة منذ عشرين اكتوبر قد استمر إلى يوم 28 نوفمبر تاريخ الهجوم الجديد على يد جيش قوامه ثمانية آلاف نسمة ، دون ذكر الفرق المرتزقة والاحتياطية . ومع ذلك فإن العدو قد « استغرب » كيف لم يطلب أي شخص في الزعاطشة « الأمان » رافعاً العلم الأبيض ! بالعكس ، لقد اشتبك الثوار مع العدو بالسلاح الأبيض وصارعوه جسداً لجسد . ويشهد المؤرخ غفريل بأن المرأة قد قامت بدور فعال عندئذ . ويقول ان الكوليرا كانت تحصد يومياً

---

(29) كتب هيربيون كتاباً في شكل مذكرات برر فيه الارهاب الذي استعمله في الزعاطشة ، سماه (قصة حصار الزعاطشة) ، باريس 1863 ، انظر بالخصوص صفحات 191 ـ 195 .

بين 30 و 40 شخصاً ، وان الجيف كانت تملأ الطرق ، وان الفرنسيين كانوا يعلقون الجرحى من المسلمين على النخيل نكاية بهم وتحدياً للمقاومين ، ويزيدون من آلامهم وتحديهم لهم كلما سقطت لهم نخلة وانهار جذعها على الأرض(30) . وبعد أن سقطت كل الدور وسكنت جميع الأرواح بقيت دار بوزيان قائمة ومنها كان يتصاعد الضرب ، فوضع العدو في أساسها الألغام ونسفت بمن فيها على من فيها واختلطت النيران بالدخان والغبار وأنات الجرحى بأصوات الحجارة المتهاوية . ووسط الركام خرج بوزيان شامخ الرأس كأنه شبح صحابي من رفاق عقبة بن نافع ، فانهال عليه العدو ضرباً قبل ان ينجلي عنه الغبار والدخان ، فسقط شهيداً مضرجاً بدمائه . وبعد أن تأكد العدو انه لم يبق في الزعاطشة حي من البشر ولا حية من الشجر ، أقام على باب معسكر هيربيون مقصلة رفع عليها ثلاث رؤوس : رأس الشيخ بوزيان ورأس ابنه الشاب (خوفاً من أن يأخذ بثأر أبيه ذات يوم !) ورأس شيخ آخر طالما حارب الفرنسيين منذ 1833 ، وهو الحاج موسى الدرقاوي المعروف بوحمار .

هكذا قضى العدو على ثورة الزعاطشة . ان الكتاب الفرنسيين (وخصوصاً أمثال بول أزان) يرددون عبارة « الدرس القاسي الذي أنتج الهدوء في المنطقة » بالنسبة لكل عمل شنيع يرتكبه ضباط متعطشون للدم وقمع الشعب . وهم بالطبع لا يستثنون الزعاطشة من الاستفادة من ذلك « الدرس القاسي(31) » . فقد خسر العدو ، حسب الإحصاءات المحافظة ، 10 ضباط قتلى و 60 جريحاً ، أما من الجنود فقد خسر 165 قتلى و 790 جريحاً(32) . وأما سكان الواحة فقد قتلوا عن آخرهم ، حتى

---

(30) غفريل (الجزائر . . .) ، ص 71 ـ 77 .

(31) بول أزان (الاحتلال والتهدئة) ، ص 410 ـ 411 .

(32) يذكر هيربيون أن الجانب الفرنسي قد خسر 43 قتيلاً منهم 3 ضباط ، و195 جريحاً منهم خمسة ضباط . انظر ص 195 ، المرجع السابق . وعن مسيرة الثورة انظر أيضاً (جورنال عن ثورة الزعاطشة) كتبه ضابط المدفعية باريزي Pariset في قسنطينة يوم 6 مايو 1850 أي بعد أقل من عام ، الوثيقة تقع في حوالي 40 صفحة مرقونة ، في أرشيف إيكس 10H 76 وفي نفس الأرشيف جورنال آخر كتبه قائد أركان الحملة دي بريتزال Bretizel يوم 14 ديسمبر 1849 بقسنطينة أيضاً . ويقول أوغسطين بيرنار (الجزائر . باريس ، 1929) ص 241 ان الزعاطشة هي سرقوسة Saragossa التي كلفت الفرنسيين 1,500 قتيل ، بينهم 30 ضابطاً .

الرضع ! وبعد إحصاء أجراه العدو وجد 800 جثة على الأقل في الأرض المكشوفة ، أما الموتى تحت الأنقاض فلم يحصهم أحد ، ولعل منهم من بقي حياً أي ما بعد المعركة قبل أن يلفظ أنفاسه . ان أمثال هيربيون وبول أزان يفتخرون بأن الهدم والحرق قد استمر حتى بعد نهاية المعركة ، وذلك للقضاء على كل أثر للواحة وكذلك لإعطاء الدرس للآخرين الذين قد تحدثهم نفوسهم بالثورة .

إن ما يلفت النظر حقاً في معركة الزعاطشة هو ذلك التضامن الديني - الوطني الذي أظهره سكان المنطقة كلها . ثم ذلك التصميم العنيد الذي أفشل كل مخططات العدو وأثار استغرابه ، وهو ان أحداً لم يأته لطلب الأمان رغم فظاعة الحرب واليأس من الغلبة . وان قول هيربيون انهم وجدوا أناساً « كثيرين » بين الموتى ليسوا من سكان الزعاطشة وإنما جاؤوها من المغرب وتونس ومكة ، قول جدير بالذكر ، إذ نحن لا نعرف من هؤلاء المجاهدين « الأجانب » سوى الشيخ الدرقاوي الذي عرفنا انه كان قدم من مصر عبر ليبيا منذ أوائل الإحتلال . وهل نتحدث عن فظاعة المعركة أكثر مما تحدث عنها بوديكور ، المؤرخ الفرنسي الذي وصفه جوليان بالنزاهة ، فبعد الحصار الذي دام أكثر من ستة أسابيع وبعد التقدم خطوة خطوة وبعد قطع الأشجار وإزهاق الأرواح ، جرت حرب من دار إلى دار أنست الفرنسيين حربهم في مدينة قسنطينة عام احتلالها 1837 . ان الجنود كانوا يعبثون بالضعفاء وبكل من وجدوا فيه بقية روح . فهذه امرأة طريحة عبثوا بقطع حلمة ثديها وهي لا تطلب سوى الإجهاض عليها لتخليصها من العذاب ، وهذا طفل حملوه من رجليه ثم ضربوا برأسه على الحائط . إلى غير ذلك من المناظر التي يندى لها الجبين ويتنزه القلم عن ذكرها[33] . أما الباحث الإنكليزي موريل فقد قال (سنة 1854) عما جرى في الزعاطشة : أي قلم محايد سيسجل ذلك اليأس الخانق لأولئك الصحراويين الأشداء وهم يقاتلون حتى الموت دفاعاً عن الزوجات والبيوت وعن النخيل المتماوج وعن الحرية ! وأي قلم سينصف الانضباط العسكري الأوروبي الشهم وهو يوطد النظام وسط المعابد المحترقة والحدائق المضرجة بالدماء ! إن الجنوب الحلو سيستمر في نشر عبيره على

---

(33) أنظر جوليان (تاريخ) ، 384 نقلاً عن بوديكور . عن هذه المعركة أنظر أيضاً الدكتور قيون Guyon (رحلة من الجزائر إلى الزيبان) ، الجزائر 1852 ، ص 280 .

الواحات ، ولكن حدائقه قد صوحت ، ومنازله قد أصبحت أطلالاً ، لأن روح الحريه قد فارقته[34] !

ومع ذلك يصف أزان ورفاقه بوزيان بالتعصب . ومن أجل ذلك قطعوا رأسه ونصبوه في الحقيقة مناراً عالياً وسط الصحراء ، ثم حملوا رأسه إلى قسنطينة حيث انضم إليه عدد من رؤوس رفاقه في الشرف وفي الجهاد . وبعد أن ظل هناك سنوات حمل مع أحد عشر آخرين إلى المتحف الانثروبولوجي بباريس[35] .

ومن نتائج الثورة الشك في ولاء العائلتين المتعاملتين مع العدو ، عائلة بوعكاز بقيادة القائد ابن شنوف الذي كان على أولاد صولة ، وعائلة ابن قانة وقائدها عندئذ شيخ العرب محمد الصغير بن قانة ابـن أخ بوعزيز بن قانة . ورغم ان العائلتين قدمت خيالتها إلى الحملة الفرنسية ضد الزعـاطشة ، فـإن الفرنسيين قسمـوا مناطق نفـوذ العائلتين إضعافاً لهما معاً . فاما عائلة بـوعكاز فقـد أضعفها الفـرنسيون بـإعطائهـا « قيادات » صغيرة في الحضنة ونواحي سطيف بعيداً عن مكان نفوذ أجدادهم ، كما بقي الزاب الشرقي تحت قيادة ابن شنوف . وأما عائلة ابن قانة فقد قسمت منطقتها « عقاباً لها » أيضاً ، فأضافوا بني بوسليمان بالأوراس إلى ابن شنوف . وقسموا الزاب الغربي إلى العرب الشراقة والعرب الغرابة بقصد مراقبة شيخ العرب بن قانة ومراقبة السكان أيضاً . كمـا أنشأوا في شمـال بسكرة قيـادة جديـدة سموهـا ، كما سبقت الإشارة ، قيادة السحاري ، وجعلوا عليها بولخراص بن قانة[36] .

ولعل من النتائج المباشرة لثورة الزعاطشة احتلال بوسعادة وحرق واحة نارة . فأما بوسعادة فقد وقعت فيها ثورة بقيادة الشيخ محمد بن علي بن شبيرة . وهو زعيم ديني دعا إلى الجهاد أثناء ثورة الزعاطشة وأرسل النجدة إلى بوزيان وهاجم الحامية الفرنسية التي كانت في بوسعادة منذ 1843 . فانضم إليه أولاد نائل وعدد آخر من

---

(34) موريل (الجزائر) ، ص 445 .

(35) المجلة الافريقية ، 1886 ، ص 79 ـ 80 ، والمقالة بقلم ف . ريبو Reboud وقد كتبت جريدة (الأخبار) عدد ديسمبر 1849 عن الزعماء الذين سقطوا في الزعاطشة بنوع من التشفي (بوزيان ، الدرقاوي، عبد الحفيظ. . .) كما ذكرت أسماء أخرى للمقارنة، منهم سي الجودي وبوسيف في زواوة ، الخ . وقالت ان بوسيف (أنظر ما سيأتي) كان يسمى « بوزيان زواوة » .

(36) فان سفرز ، مرجع سابق ، ص 226 . وكذلك ارشيف ايكس 10 H 76 .

سكان الناحية . وقد وصلت نجدة فرنسية من البرج ومن مجانة وحاولت فك الحصار على الحامية التي التجأت إلى الجامع الكبير في بوسعادة . وكانت القوات الفرنسية بقيادة العقيد دوماس قد هاجمت في 14 من نوفمبر . وبعد نجاحه في فك الحصار فرض دوماس غرامة ثقيلة على السكان قدرت بـ 8000 فرنك ، ونصب مكتباً عربياً (فرنسياً) بقيادة الضابط بان Pein ، كما فرض على الناس دفع أشياء ثمينة مثل البرانيس والحياك والزرابي الخ . وقد هرب عدد من أهل بوسعادة عند احتلالها ثم أخذوا يعودون تدريجياً ، ومنهم من توجه إلى تونس ولم يعد[37] .

أما واحة نارة فقد لقيت مصيراً كمصير الزعاطشة على يد كاروبير الذي ترقى على اثرها إلى رتبة جنرال . تقع نارة على وادي عبدي بالأوراس . وهي أيضاً ذات أشجار ونخيل ، وسكانها كانوا مستقرين يمارسون الفلاحة وبعض الحرف الأخرى . وقد ادعى كاروبير ان أهل نارة رفضوا دفع الضرائب المفروضة ، فتقدم منهم ، منتشياً بانتصاره الدامي على الزعاطشة، واستعمل فيهم نفس الطريقة فأشعل النار في القرية وقلع وحرق أشجارها ثم هدم دورها حتى سوى الأرض بها على من فيها وقتل الباقين . وكان قوام جيشه ثلاث فرق . وكان ذلك يوم الخامس من يناير 1850 . وقد خسر الفرنسيون حسب إحصاءاتهم المحافظة 8 قتلى من بينهم الضابط لوكوتو ، وثلاثين جريحاً . وكان ذلك هو درس التهدئة الذي أعطاه كاروبير إلى سكان الأوراس والذي استحق عليه رتبة جنرال[38] .

وقبل أن نختم هذه الفقرة عن ثورة الزعاطشة التي هي في الواقع ثورة الناحية كلها ، كما رأينا ، نود أن نقول ان الثورات لم تهدأ بشرق الجزائر خلال سنة 1849 - 1850 ، ومن الخطأ تسمية كل ثورة على حدة هكذا، بل الواجب النظر إلى ذلك كله على أنه «ثورة واحدة» مستمرة تشتعل في نقطة وعندما تضعف فيها تندلع في نقطة أخرى وهكذا . وهذه الثورة المتصلة هي التي جعلت الضباط الفرنسيين لا يهدأ لهم بال ولا يستقرون على حال خلال السنة المذكورة . فقد خرجوا في مختلف الجهات

---

(37) البارون اوكبوتان (المجلة الافريقية) ، 1862 ، 59 - 61 . من الذين رحلوا إلى تونس ، محمد بن شبيرة ، أنظر وثائق عن مصادرة العدو لأملاكه .

(38) أنظر أ . بيرنار (الجزائر) ، ص 241 ، جوليان (تاريخ) ، ص 385 .

بدعوى « تهدئة » الأوضاع بطريقة هيربيون وكاروبير طبعاً . فتارة يتوجهون ضد القبائل النافرة ، وتارة ضد الذين رفضوا قبول القياد الذين عينهم الفرنسيون ، وتارة لتأديب من رفضوا دفع الضرائب ، وهكذا فالأسباب كثيرة ولكن النتيجة واحدة وهي إعطاء درس وإصدار « عقاب مرعب » ضد النافرين والمتمردين . ومن ذلك إحراق القرى المجاورة لبجاية وتخريبها بعد ثورة بني سليمان انتقاماً للضباط الأربعة الذين لقوا مصرعهم هناك (21 مايو 1849) . ومن ذلك خروج الشيخ ابن يمينة وهجومه (29 ابريل 1849) على مركز الحروش ووقوع معركة حامية هناك ، وقد استشهد ابن يمينة بعد ذلك بحوالي شهرين (أول جوان) .

وأخيراً نذكر الثورة التي حدثت في زواوة والتي كان مسرحها المنطقة الواقعة بين تيزي وزو وسور الغزلان . وتزعم المصادر الفرنسية[39] ان أحد الأشراف قد ظهر هناك وتسمى بإسم (بومعزة) على اثر الأخبار الصحفية التي راجت عندئذ ، وهي ان رئيس الجمهورية الفرنسية قد أطلق سراح بومعزة الحقيقي من سجن (الهم) بفرنسا وفرض عليه الإقامة هناك . فاستغل هذا الشريف الجديد الفرصة وأعلن للناس أنه هو بومعزة العائد من السجن ، ودعا إلى الجهاد فاستجاب له الناس بحماس في كل جرجرة . وقد وقع الهجوم على مرتزقة (قوم) بوبريتر قائد مركز تيزي وزو ، وجرت معارك انتهت باستشهاد الشريف (2 اكتوبر 1849) ، وكان مصير رأسه هو مصير رأس بوزيان اذ علقه بوبريتر على مقصلة في سوق سور الغزلان حتى لا يشك الناس في موته .

ان هذه الأحداث وغيرها التي جرت في وسط وغرب البلاد في نفس الوقت الذي كانت تجري فيه المعارك نواحي الأوراس والزيبان ، تدل على أن المعركة واحدة وغير متجزئة ، وان العامل الجغرافي فقط هو الذي منع من التنسيق والاتصال المنظم . كما ان الدوافع تكاد تكون واحدة في كل مكان ، وهي كراهية الدخيل الذي كان يريد أن يعطي لنفسه حقاً ليس له .

* * *

---

(39) بول أزان (الإحتلال والتهدئة) ، ص 405 .

7. في بلاد زواوة : الهاشمي ،بوبغلة،وفاطمة نسومر:

وفي ضوء ذلك كانت بلاد زواوة تغلي بالنقمة على العدو أيضاً . وكان الوضع الإقتصادي والديني هناك متشابكاً . فزواوة أصبحت في الواقع محاصرة من الجهات الأربع ، خصوصاً بعد احتلال بجاية ومراقبة البحر من قبل العدو . فكل الأنشطة الإقتصادية والتجارية كانت محدودة . وكانت الزوايا منتشرة ولها نفوذ واسع ولا سيما زوايا الطريقة الرحمانية . وكان للمرابطين والأشراف دور فعال في قيادة الرأي العام والتحكم في مصير البلاد . وكان هؤلاء قد أظهروا نشاطاً ملحوظاً خلال الثلاثينات ومنتصف الأربعينات عندما تضامنوا مع الأمير عبد القادر واعترضوا تقدم العدو نحو بلادهم ، سيما سنة 1844 عندما حاول بوجو التوغل هناك .

ولكن الأحداث التي جاءت مع فاتحة 1848 لم تجعل بلاد زواوة آمنة على نفسها أكثر من قبل . بالعكس فقد رأت أن العدو أخذ يبيت لاحتلالها ، ولكن الثورة التي حدثت في فرنسا في فبراير من هذه السنة قد أجلت فقط ذلك المشروع لأن الحكومة الجديدة كانت منشغلة بتصفية الحسابات السياسية (في فرنسا) ، وكان الحكام الفرنسيون في الجزائر غير مستقرين في منصبهم ، كما لاحظنا . ومن جهة أخرى فإن خروج الأمير عبد القادر من الجزائر (في آخر سنة 1847) قد ترك فراغاً في حركة المقاومة لا بد من ملئه بعده بزعامة أخرى أو أكثر . وما دامت المناطق الغربية والوسطى والشرقية قد سيطر عليها العدو بالعنف والإرهاب كما عرفنا ، فإن المناطق الباقية بعيدة عن سيطرته الفعلية هي بلاد زواوة والجنوب وبعض الجيوب الأخرى هنا وهناك . فكان من المتوقع اذن أن تظهر زعامات جديدة في حركة المقاومة ، تتخذ شعار الشرف والمهدوية تارة ، وترفع شعار الدين والوطنية تارة أخرى ، ولكنها جميعاً كانت تهدف إلى هدف واحد هو تحرير البلاد من الدخيل.

وكانت بلاد زواوة لذلك ، مثل منطقة الزيبان ، تمور بالشخصيات والطموحات والحركات خلال 1848 ـ 1857 . ومن الصعب أن نتتبع كل ذلك بالتفصيل هنا لأننا لو فعلنا لاحتاج الأمر إلى كتاب مستقل . ولكننا سنحاول ذكر أبرز الأحداث والشخصيات التي ملأت ذلك الفراغ المشار إليه والآمال المعلقة على الانتصار ، والنتائج المجتناة.

خلال 1848 ـ 1849 ثارت مزاية وبنو سليمان وبنو ميمون والجبابرة وغيرهم على الفرنسيين في بجاية ونواحيها . ودارت معارك دامية غير متكافئة لأن العدو ضرب الثائرين من البحر بالمدافع (شاربانتييه، على شاطىء بني عمروس) ، وحرق القرى والمداشر بأكملها (بني سليمان ، مثلاً) . وكان على رأس الجيش الفرنسي ومرتزقته : سانطارنو ودي صال (وكلاهما من قدماء ضباط الاحتلال) . وكانت النتيجة مقتل ضابط المكتب العربي في بجاية (كاباروس) ومصرع العديد من المرتزقة (القومية) . كما كانت النتيجة إلقاء القبض على قائد الجبابرة (أحمد أومهنا) متهمين إياه بالإنضمام للثوار ، بينما كان متولياً بإسم الفرنسيين ، كما قبض على قايد بجاية (سي المدني) ونفي إلى شرشال ، لأنه أخلّ بأداء واجبه نحو العدو الذي عينه في منصبه . وتظهر هذه الصورة مدى الارتباط بين الشعب وبين الذين رضوا بالتعاون مع العدو في لحظة ضعف.

كانت بلاد زواوة على اتساعها تخضع خلال سنة 1849 لقيادات محلية تتلقى الأوامر من الفرنسيين ، بعد أن كانت تتلقاها من الأمير عبد القادر . فكان بلقاسم أوقاسي باشاغا على سباو ، وتتبعه : ايلولا اومالو ، وبنو ايجار ، وبنو يحيى وبنو راتن الخ . ولكن سلطته عليهم كانت ضعيفة وكانوا شبه مستقلين في أمورهم المعاشية وغير مستعدين لقبول أي سيطرة جديدة . وكان عمر بن سالم (وهو أخ أحمد بن سالم) خليفة الأمير على حمزة سابقاً[40] متلقباً بلقب الباشاغا أيضاً من قبل الفرنسيين منذ 1847 ، وكانت القشطولة تخضع له وكذلك بعض سكان جرجرة الغرابة . أما سي الجودي الذي كان معيناً من قبل الأمير ثم أصبح باشاغا عند الفرنسيين ، فقد كان يحكم أيضاً بعضاً من زواوة وبني صدقة . ومعظم هؤلاء القادة كانوا من عائلات مرابطة ذات صيت روحي واسع . ولكن القيادة العسكرية والخبرة السياسية كانت تعوزها.

ومنذ تلك السنة (1849) تردد على بلاد زواوة عدد من الأشراف الذين كانوا يحملون عادة أسماء نكرة يشيرون فيها إلى اسم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو

---

(40) أحمد الطيب بن سالم زعيم روحي ، وخليفة للأمير عبد القادر ، انظر عنه الفصل الثالث .

(محمد بن عبد الله) . وكان الغرض من الاتجاه نحو زواوة انها ما تزال بكراً في حرب الجهاد التي شهدتها معظم مناطق القطر ، وانها صعبة المراس لطبيعة أهلها وأرضها . فكان كل (محمد بن عبد الله) يطمح أن يأتيه الفتح الإلهي في هذه الأرض المباركة . كما ان المقصود من استعمال ذلك الإسم النكرة هو أن يظل الشخص مجهولاً للعدو ، فلا يعرف أصله ولا عائلته إمّا خوفاً عليهم ، وإمّا طلباً للشهادة في سبيل الله ، وإمّا تفادياً للتفاخر والتنابز الذي قد يكون بين الأشخاص المعروفين . وعلى هذا الأساس ظهر في السنة المذكورة الشريف محمد الهاشمي ، كما ظهر في السنة الموالية الشريف محمد الأمجد ، والشريف المولى ابراهيم الخ .

لم يكن الشريف محمد الهاشمي (محمد بن عبد الله بوسيف) غريباً عن بلاد زواوة ، فقد جاءها مبعوثاً من قبل الأمير عدة مرات منذ 1847 . ولا شك انه كان على صلة بزعمائها ، ومنهم سي الجودي المذكور ، والحاج البشير المغربي ، زعيم الزاوية الرحمانية وصديق الأمير عبد القادر[41] . وللا خديجة ، وهي أرملة سي محمد بن عيسى وزعيمة الزاوية المذكورة بعد الحاج البشير . وكذلك للا فاطمة التي خلفت والدها على زاوية ورجة . وتذكر المصادر الفرنسية أن الشريف محمد الهاشمي سمى نفسه (بومعزة) مستعيراً ذلك من اسم الرجل الذي لعب دوراً بارزاً في حوادث الظهرة سنة 1845 . وتطلق هذه المصادر اسم (بو معزة المزيف) على الشريف محمد الهاشمي ، لماذا ؟ لأنه ادعى اسم بومعزة على غير حق لكي يثير الناس به ويستغل سمعة بطل الظهرة الذي كان عندئذ (1849) ما يزال سجيناً بفرنسا . كما تطلق بعض المراجع الفرنسية (جريدة الأخبار) اسم « بوزيان زواوة » على الشريف الهاشمي تشبيهاً له ببوزيان الزعاطشة .

---

(41) كان الحاج البشير المغربي على رأس الزاوية الرحمانية الأم منذ 1252 (1836) ، ولكنه وجد صعوبة في إدارة الزاوية فغادرها عند الأمير ، فأدارتها للاخديجة وبناتها (وهي أرملة سي محمد بن عيسى خليفة محمد بن عبد الرحمن الأزهري ، مؤسس الطريقة) ولكنها فشلت في إدارة الزاوية ، فاستنجدت بالأمير على أن يبعث بالحاج البشير وأظهرت تعاون الأهالي معه فأرجعه الأمير إلى الزاوية ، فبقي يدير الزاوية إلى وفاته 1257 (1841) . وبعد فترة تولاها.محمد بن بلقاسم ، جاء على رأس الزاوية الحاج عمر (1259 ـ 1844) الذي سيرد ذكره . انظر لويس رين (مرابطون واخوان) ، ص 458 .

ولكن سير الحوادث يجعل الشك قائماً على كل حال . فالرجلان (بومعزة الحقيقي والمزيف) حاربا في أحداث الظهرة ، وكلاهما اعتقل من قبل العدو ، وكلاهما حمل إلى فرنسا ليذوق طعم الأسر ، أين ؟ كلاهما أيضاً دخل سجناً واحداً هو سجن (الهم Ham) ! أليس من المحق أن يتنازعا اسم (بومعزة) ، وأن يشاركا الناس في هذا الشك والاضطراب ؟ ان السلطات الفرنسية عندئذ ، وكذلك الكتّاب أمثال روبان وفيرو الخ . تريد منّا أن نصدق أن بومعزة الحقيقي بقي في السجن ، أما بومعزة المزيف (محمد الهاشمي) فقد هرب من السجن على حين غفلة من الحراس ، ثم هرب إلى تونس ومنها رجع إلى الجزائر متنكراً[42].

ولا ندري كيف وصل الشريف محمد الهاشمي إلى بلاد زواوة بالذات ، ولكن يبدو أن معرفته السابقة بالمنطقة وبأهلها وخصوصاً بالزعيم سي الجودي قد سهلت مهمته . كان ذلك في أوائل سبتمبر 1849 . وبعد اجراء اتصالات مع سي الجودي وزيارة لزاوية ورجة التي كانت تتولاها للا فاطمة[43] ، عزم الشريف الهاشمي على إعلان الجهاد ضد الفرنسيين وعملائهم في بلاد زواوة . تعاون الشريف الهاشمي مع سي الجودي تعاوناً وثيقاً : فقد وفر له هذا الفرسان والحماية والدعاية اللازمة ، وعين له ابنه لمرافقته . وخاض معه المعارك . وفي أول لقاء لهما بالجيش الاستعماري ومرتزقته كبداه خسائر كبيرة مما جعل من الضروري طلب النجدة من الحامية الفرنسية بسور الغزلان ، ورغم ذلك فإن جيش العدو كان في معنويات هابطة بعد أن سمعوا أن للشريف الهاشمي « قوة خارقة » حتى انهم طلبوا من الشريف الهاشمي أن لا يطلق النار عليهم ووعدوه بالفرار أمامه من الوهلة الأولى[44] !وقد حاول بوبريطر القائد

(42) روبان (المجلة الافريقية) ، 1870 ، ص 349 .

(43) يركز بعض الكتاب الفرنسيين (ومنهم روبان ، المرجع السابق) على الجانب العاطفي أيضاً في العلاقات الإنسانية ، فيذكرون أن للافاطمة كانت بارعة الجمال وفي مقتبل عمرها وان الهاشمي كان وسيم الطلعة وان هناك إعجاباً متبادلاً بينهما . وهذا جانب تقره الطبيعة ولا تمنعه الأخلاق ولا الشريعة ، ولكن قول روبان ان الهاشمي كان يكرر زيارته للافاطمة فيه تعريض واضح بهما معاً ولا يخلو من الدس الأخلاقي والسياسي .

(44) روبان ، مرجع سابق ، ص 357 ـ 361 . ويذكر روبان أن سيدي الجودي أعطى سيفاً إلى الشريف الهاشمي وسماه (محمد بن عبد الله بوسيف) . ومما يذكر أن أحد الأسرى الجزائريين في طولون كتب إلى نابليون سنة 1853 رسالة يقول له فيها ان محمد بن عبد الله السجين بفرنسا هو نفسه =

الفرنسي ، أن يرفع معنويات مرتزقته فلم ينجح . فلجأ إلى طلب المبارزة مع الشريف الهاشمي فقبلها هذا بكل شجاعة . وبعد هذه التحركات التقى الجمعان في معركة اليوم الثالث من أكتوبر (وهي فترة الحرب في الزيبان أيضاً) فأصيب الشريف برصاصة غادرة بين كتفيه ، سقط على أثرها قتيلاً . وقد قطعت رأسه وعلقت في سوق سور الغزلان . أما جثته فقد حملها أتباعه ودفنوها في زاوية أحمد بن ادريس.

كما ان بوبغلة لم يكن غريباً عن بلاد زواوة أيضاً . ذلك أن بعض المصادر تشير إلى أنه كان يزورها من قبل مبعوثاً من قبل الأمير ، أو داعياً لجهاد ، أو زائراً لإحدى الزوايا . وإذا كانت المصادر تذكر أن محمد الهاشمي جاء من تافيلالت (وهو ادعاء غير مسلم به لأن معظم الأشراف كانوا يقولون انهم جاؤوا من الساقية الحمراء أو تافيلالت أو فقط من الغرب (!)) ، فإن المصادر التي رجعنا إليها تتردد في أصل بوبغلة . فبعضها يذكر أنه جاء أيضاً من الغرب ، ولكن من أين ؟ من نواحي العطاف عند البعض ، وقد يكون من أولاد سيدي عيسى بالعذاورة عند آخرين . بل ان هناك رواية تقول أنه من أشراف بلاد زواوة نفسها . أما اسمه فهو محمد الأمجد بن عبد المالك . ولكن اسمه الجهادي هو محمد بن عبد الله أيضاً واشتهر باسم الشريف بوبغلة . ويبقى الظل مسلطاً على عائلته وقبيلته وجهته .

ويظهر من كثافة حركته أنه هدد الوجود الفرنسي في بلاد زواوة وكاد يفشل خططهم لولا عوامل إضافية مثل حرب القرم (بين الدولة العثمانية وروسيا) وتركيز جيش العدو ضده ، وتفوق هذا الجيش عليه بالسلاح الأحدث والأقوى . وقد دامت حركته حوالي خمس سنوات ، إذ يبدو انه حل بزواوة في أواخر 1849 أو أوائل 1850 . وكان يرافقه عدد من الفرسان ، ونزل في البداية في بني ايجار نواحي عزازقة . انضم إليه أهل زواوة جماعات حتى كثر جيشه على داعي الجهاد ، كما انضم إليه طلبة الزوايا وقاموا بالدعاية له وسط الجماهير باسم الدين والوطنية والاستقلال . وبفضل ذلك جمع بوبغلة أيضاً ثروة كبيرة لاستعمالها في ميزانية الجهاد . ويبدو انه كان خطيباً مؤثراً ومتعلماً ذكياً إذا استدللنا على ذلك من مواقفه ومن الشواهد التي أوردها في بياناته للناس . أمّا تكوينه السياسي والعسكري فالظاهر

= بوسيف وهو أيضاً بومعزة . الرسالة من تحرير السيد عيسى بن أحمد ، رقمه في السجن 2548 . أنظر أرشيف إيكس 11 H 1 ، وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً عن الشريف الهاشمي .

انه كان قد تكون في مدرسة الأمير عبد القادر الحربية إذ كـان عمـره اذاك حوالي أربعين سنة (ولد حوالي 1810) ، وكان قد شارك في حروب الأمير ، ومطلعاً على مجريات الأمور ، ولعله قد تولى عنده بعض المسؤوليات.

في سوق الثلاثاء ببني إيجار عقد بـوبغلة اجتماعاً كبيراً للمبايعة وإعلان الجهاد جماعياً . بعد التفاف الناس حوله نشر أعلامه فيهم ، وخطب فيهم خطبة مؤثرة جعلت شيوخ المنطقة ومرابطيها يتقدمون له بالولاء والبيعة على نصرة كلمة اللّه وطرد العدو . ومن الذين فعلوا ذلك عندئذ للافاطمـة ، مقدمـة زاوية ورجـة . وبعد أن بين لهم الهدف من الحرب وأقنعهم بالتضامن والتفاني ، قرأ معهم الفاتحة . وليس من مهمة هذا البحث ذكر جميع القبائل الذين انضووا تحت لواء بـوبغلة وبايعوه على الجهاد لأن القائمة تطول ، ويكفي أن نقول ان جماهير زواوة وشيوخها كلهم استجابوا ما عدا الأفراد الذين كانوا يتولون وظائف من قبل الفرنسيين ، كزعيم أولاد مقران وزعيم زاوية شلاطة . بل ان هؤلاء لم يكونوا محل ثقة من الفرنسيين أيضاً إذ اتهموهم بالتورط في الثورة وإخفاء أخبارها عنهم.

ويبدو أن الهدف الأول لبـوبغلة هو تخليص بجاية من الحامية الفرنسية وجعلها مركزاً (أو حتى عاصمة) لثورته . وكانت بجايـة ، كما عـرفنا ، في حـالة تغـري بالهجوم . فالناس من حولها كانوا قد نصبوا حصاراً سميكاً ضد الحامية الفرنسية هناك حتى أصبح جندها لا يجدون مـا يأكلون إلاّ مـا يأتيهم من البحـر ، وشلت حركـة المكتب العربي هناك . وإلى جانب بني سليمان ومزاية ثارت سنة 1850 بنو وغليس وبنو ايمل وغيرهم ، وكان قائدهم في هذه الحركة القويـة هو شـريف آخر يـدعى المولى ابراهيم الذي استطاع أن يثير أهل الناحية ضد العدو . ومن بين الذين لقوا مصرعهم في حركة المولى ابـراهيم الجنرال (بـرال)[45] الذي شـارك في مجزرة الزعاطشة . وهكذا كان الجو مناسباً لهجوم مركز على بجاية من قبل بـوبغلة.

وقبل القيام بذلك أرسل بـوبغلة رسائل ومبعوثين إلى مختلف النواحي داعياً للجهاد ومهدداً من يتعامل مع العدو بالموت . وكان هو لا يفتأ عن التنقل بين مختلف القرى ، وكانت له قوة هائلة على سرعـة التنقل حتى انـه غطى المنـطقة في وقت وجيز . ثم هاجم بجاية أول مرة في ديسمبر 1850 ، خصـوصاً تلك القبـائل التي

---

(45) انظر فيرو (المجلة الافريقية) ، 1859 ، ص 445 .

أجبرت على الخضوع للعدو . ولكن ثلوج الشتاء جعلت العدو يتراجع ، كما تراجع بـوبغلة مكتفياً بالمناوشات . وفي مارس 1851 ، كان في بني مليكش الذين استقبلوه بالتأييد القوي . ومن هناك وسع دائرة الثورة إلى نواحي حمزة وبني عبدلي الخ . وقد أرسل خطابات تهديد إلى كل القياد الذين كانوا يتعاملون مع العدو ، ولكنه طلب من المسلمين الحقيقيين منهم أن يتوبوا إلى الله ويعودوا إلى أحضان الجهاد . وفي أول مايو 1851 تعرض بـوبغلة لخط المواصلات الرابط بين بجاية وسطيف وحكم بالقتل على بعض المتعاونين . فكان ذلك سبباً في هروب العديد من القياد والموظفين عند العدو إلى بجاية طلباً للحماية . وقـد أصبح الفـرنسيون في بجـاية محـاصرين لا يستطيعون الخروج منها . وكان الثوار يحرقون أملاك الكولـون بالقـرب من بجايـة ويضربون الطبول دون أن يستطيع (دي وينجي) قائد الحامية الخروج من الحصار .

أما الهجوم الكبير على بجاية فقد بدأ يوم العاشر من مايو 1851 . كان جيش بوبغلة حوالي عشرة آلاف من ضمنه بعض الفرسان . وقد نظم الجيش بحيث يتقدم في جرأة وإقدام مرتفع المعنويات عازماً على النصر . ركب بوبغلة فرساً سوداء وكان يرتدي برنساً أبيض . وكان يتقدم جيشه مظهراً شجاعة نادرة . وكانت له فرقة موسيقية تدق الطبول وتزيد في الحماس ، وله ثلاثة أعلام ذات ألوان حمراء وخضراء ، وكانوا يرددون أثناء تقدمهم عبارة (لا إله إلا الله) . وعندما اقتربوا من المدينـة ضربهم العدو بالمدافع ، ولكنهم استمروا في التقدم رغم بعض الاضطراب . وبعد تكرار الضرب بالمدافع وسقوط القتلى بدأ الجيش يتراجع ولكنه كان لا يتوقف عن إطلاق النار . كان بوبغلة يشجع أتباعه على الصمود . وقد حقق الهجوم بعض النتائج ولكنها ليست هي النتيجة التي كانت منتـظرة . فقد سقط مكـان القيادة الفـرنسية في يـد بوبغلة ، كما سقـطت دار التاجـر (ترونسي) ، كمـا ضرب الثـوار منازل وأمـلاك الفرنسيين في سهل بجاية . ومع ذلك ظل الفرنسيون محاصرين في بجاية لا يخرجون لمتابعة الثوار إلى أن وصلتهم النجدة من جيجل والجزائر عن طريق البحر[46] .

وقد أعاد بوبغلة تنظيم قواته وتلقي الطاعة والمعـونة من السكـان . وشملت الثورة حتى الذين كانوا خاضعين قهراً للعدو . ويقول أحد الكتاب الفرنسيين (فيرو) ان الناس توجهوا رجالاً ونساء وأطفالاً للإنضمام للثورة تاركين أوطانهم وأملاكهم ،

(46) التفاصيل في فيرو ، المرجع السابق ، ص 460 .

وحتى الذين ترددوا منهم أرسلوا الدراهم والأغذية سراً . وكان لتأييد سي الجودي أثر كبير على مسيرة الثورة ، وكان ابنه (أحمد) يجوب المنطقة ويجمع كلمة الناس حول الثورة ويأتي بالمجندين الجدد ؛ ويضيف ذلك الكاتب أن السلطات الفرنسية تلقت تقارير من القياد الذين عينتهم تقول إن القرى التابعة لهم أصبحت مراكز للمؤامرات ضد العدو ، وأن أهلها يغيرون على آقبو (لأن ابن علي الشريف لم ينضم للثورة) ، وأن الضيفات تقام للثوار في كل مكان مروا به ، وأنهم يدفعون الضرائب لبوبغلة ، وأنهم فرضوا الغرامات على المترددين ، كما أنهم عوضوا الموظفين المتعاملين مع العدو بشرفاء تابعين لبوبغلة . وهكذا أصبح يحيى أولحاج قائداً على قيفصار (Guifçar) والشيخ يوسف الموهوب خزناجياً لبوبغلة. ان بوبغلة قد أصبح في هذه الأثناء (1851) رمزاً للإستقلال[47] .

وبالإضافة إلى التنظيم المحكم عمل بوبغلة على نشر أفكاره بين الناس وأوضح لهم هدفه وغايته من الحرب، معتمداً على نصوص دينية تذكرنا بطريقة الأمير عبد القادر . ولا شك ان الغاية الوطنية لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الخطاب الديني اذ من أجل الدفاع عن الدين يهون كل شيء عند الناس. عثر بعض الباحثين على نص منشور وزعه أنصار بوبغلة استعمل بالإضافة إلى الخطاب الديني أسلوب الإثارة والحمية جاعلاً الناس ينتظرون النجدة من القوى الإسلامية أيضاً مثل الدولة العثمانية والدولة المغربية . وقد مزج كل ذلك بالآيات والشعر الديني . وهذه فقرات من ذلك المنشور نترجمها عن ترجمة فيرو ، أما الأبيات والآيات والعبارات فغير مترجمة :

« الحمد للّه وحده يا أيها الذين آمنوا باللّه ورسوله . . . لقد جئت لتخليص البلاد من ربقة النصارى . ان سلطان تركيا يحاربهم في نواحي الصحراء ، وقد قتل منهم وأخذ أمتعتهم[48] ، وان سلطان الغرب (المغرب) قد استولى على ثلاث مدن لهم في الغرب ، وهو يتقدم نحو مدينة الجزائر[49] ، وسيخبرني بالعمليات فيما

(47) نفس المصدر ، ص 451 .

(48) لعله يشير بذلك إلى ثورة شريف ورقلة التي كانت قد انطلقت بتأييد من الدولة العثمانية وممثلها في طرابلس ، أو يشير به إلى الثورة التي حدثت في الزيبان بقيادة بوزيان .

(49) ليس هناك ما يؤكد هذه الدعوى ،ولكن أحوال الغرب الجزائري كانت ما تزال مضطربة منذ نهاية 1847 .

بعد ، فكونوا يقظين ، واستعدوا للجهاد . . . ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ .

وفي أعلى المنشور طابع كبير فيه بيتان من قصيدة البردة للبوصيري وعبارات دينية هي :

« ومن تكن بـرسول الله نصـرته　　إن تلقه الأسد في آجـامها تجم
وكلهم من رســول الله ملتمس　　غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

(نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ، اعتمد على الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم) . أما التوقيع فهو « المتـوكل على اللطيف ، عبـده محمد بن عبد الله بوسيف » (1266)[50] .

وكان بوبغلة يلتجىء إلى هذه الرسائل (المناشير) يقوي بها عزيمة المحاربين والأنصار ، ويهدد بها المترددين والعملاء . ومن ذلك منشور آخر أعلن فيه أن هروب القياد والشيوخ من مراكزهم التي عينهم فيها العدو ، دليل على ضعف الفرنسيين في الجزائر الذين أصبحوا كالنساء غير قادرين على اجتياز جدران بجاية . وأعلن لأتباعه وهو يحمسهم ان رصاص العدو لن يؤثر فيهم ما دام الله إلى جانبهم . ومن أبـرز الدعاة لقضية بوبغلة الحاج مصطفى الذي عينه خليفة عنه في جبال بوطالب . وقد كثرت الإشاعات عندئذ وكلها تهدف إلى رفع الروح المعنوية والتعلق بأمل النصر . من ذلك أن الحاج مصطفى المذكور ما هو إلا أحد أقارب الأمير عبد القادر[51] . كما أشيع ان الأمير نفسه قد غادر فرنسا وعاد إلى الجزائر مع الأسرى الذين كانوا معه ، وأن الثورة عامة في كل القطر الجزائري . وكانت هـذه الإشاعـات تروج على يـد مبعوثين سريين هنا وهناك ، ومعهم مناشير يحملونها سراً ويقرؤونها علناً . ولا شك أن الهدف منها إثارة الحمية الدينية والوطنية ، وهي الحميـة التي يسميها الكتـاب الفرنسيون « تعصباً » .

اشترك في رد هجوم بوبغلة على بجاية قواد منهم بوسكي وكامو وسانطارنو، ولا نرى داعياً لذكر قائمة أسمائهم كلها هنا . أما من العمـلاء فنذكـر المترجم أحمـد

---

(50) فيرو (المجلة الافريقية) ، مرجع سابق ، ص 450 .

(51) كان للأمير أخ يدعى مصطفى ، وهو الذي ولاه بعض الوقت خليفة على المدية ، وأرسله في مهمة إلى الزيبان والحضنة . كما كان صهره وخليفته على معسكر يدعى مصطفى بن التهامي .

خاطري ، وأفـراد من عائلة أورابـح ، وآخرين من عـائلة أولاد مقران ، وبلقـاسم أوقاسي ، الذي سبق أن تولى للأمير على منطقة سباو . وقد خاف محمد السعيد ابن علي الشريف فترك الزاوية ولجأ إلى الجزائر ثم فرنسا . وبعد وصول النجدة خرج العدو من بجاية وضرب جيش بوبغلة من البر والبحر . وقد عانى الذين وقعوا فريسة في قبضة العدو من الإرهاب المعنوي والمادي . وبعد حرق المنازل وإتلاف المؤونة وتشريد الأهالي نصب العدو حامية على الجانب الأمامي لـوادي الصومـام ، وبنوا لذلك برجاً في الجبابرة .

وخلال 1852 تراجع بوبغلة إلى جرجرة بعيداً عن بجاية . وقام بإصدار منشور لأتباعه يدعوهم فيه إلى الثبات وفتح قلوبهم إلى الله . وكان يقـوم بإصـلاح ذات البين ، ويرسل مساعديه لتثبيت الناس وحل مشاكلهم التي كان يزيدها تدخل العدو تعقيداً . وفي 14 يناير من نفس العام جرت معركة (أقمون) التي دارت فيها الدائرة على العدو وعملائه . وكان ذلك مشجعاً لإلتفاف الناس من حوله (بوبغلة) ، إذ بقي مسيطراً على الساحة . وكان بوبغلة يتردد بين بني مليكش وبني صدقة ويزور القرى هنا وهناك ، ويهاجم المواقع الفرنسية ويهدم ما كانوا يبنون من حاميات أو مصانع أو مستوطنات. وفي نفس العام جرت معركة في تامزوت كان النصر فيها حليف بوبغلة أيضاً.

إن المعارك التي جرت في بلاد زواوة وفي نواحي بجاية وفي نواحي سيباو تكاد تكون معارك يومية . ذلك ان الفترة من 1850 إلى 1854 كانت فترة حرجة حاول العدو فيها تثبيت وجوده بالقوة ، كما أبدى السكان هنـاك بقيادة بـوبغلة كل أنـواع الإستماتة في الدفاع عن أرضهم ودينهم وشرفهم . والذي يقرأ ما كتبه بول أزان عن « تأديب » جنرالات العدو (خصوصاً سانطارنو وبيليسييه) للسكان المتمردين يعرف مدى تغلغل الثورة في النفوس ومدى تصميم العدو على كسب المعارك مهما كانت الوسائل. إن عبارة: قتلوا وأحرقوا وخربوا وعاقبوا تتردد في كل صفحة تقريبـاً من كتابه . ويفهم المرء من ذلك أن مهمة جيش الفرنسيين هي الاحراق والهدم والقتل . ومن ثمة يمكننا أن نقول أن جميع قرى ومنازل أهل زواوة ، وجرجرة عموماً ، كلها بنيت من جديد بعد أن عبثت بها نيران الجيش الفرنسي(51م1) . كل هذا ونحن ما نزال في سنة 1854 .

(51م1) انظر ما كتبته بول أزان عن معاقبة أنصار بوبغلة في (الاحتلال والتهدئة) ، 416 ـ 419 .

لقد قاوم بوبغلة حوالي خمس سنوات جعل بلاد زواوة خلالها مقبرة للعديد من ضباط الجيش الفرنسي وجنوده المرتزقة ، كما جعل السكان يتدربون على المعارك التي ما زالوا سيواجهونها ضد العدو . ولعل من أبرز ما يخرج به المرء من دراسة حركته أنها أخرجت الناحية كلها من عزلتها الجبلية وجعلتها تعيش الواقع الجديد الذي أصبحت عليه الجزائر كلها ، وهو الاحتلال الفرنسي المفروض على الجميع بقوة الحديد والنار . وقد واجه بوبغلة الانتصار والهزيمة مثل كل القواد الكبار . وإذا كان قد خسر حليفاً قوياً هو سي الجودي (الذي قبل مؤقتاً بالتعاون مع الفرنسيين ، ابريل 1852)[51م2] ، فإنه وجد في للافاطمة قوة معنوية هامة . ويبدو أن بوبغلة لم يكتف بالتأييد المعنوي منها بل أراد زواجاً سياسياً بها يرتبط به ارتباطاً مصيرياً بأهل الناحية . ولكن ذلك لم يتم[51م3] . فقد قتل يوم 26 ديسمبر 1854 ووري جثمانة التراب في (تازمات) ولكن علم الجهاد الذي رفعه تلقفته أيادي أخرى لا تقل قوة ومضاء[52].

منذ تعيين الجنرال راندون في 11 ديسمبر 1851 حاكماً للجزائر جاء بأوامر لمهاجمة الثورة في جرجرة . وكانت تلك الأوامر تقوم على مخطط مفاده أن احتلال الجزائر سيظل ناقصاً وغير آمن إذا لم يستكمل بإحتلال جرجرة ثم الصحراء . وإن المعارك التي عرفتها جرجرة منذ ذلك الحين تدخل في المخطط المذكور . فالإحتلال بأي ثمن كان الشعار الذي جاء به راندون .، والثمن هو اتباع خطى بوجو في الحرق والإرهاب والإحتشاد والنفي إلى الجزر النائية . ولكن بقدر ما كان العدو قاسياً في معاملته وحربه بقدر ما كان أهل جرجرة شداداً في حربهم وجهادهم . يضاف إلى ذلك أن عزم الفرنسيين على الدخول إلى جانب الدولة العثمانية في حرب القرم جعل

(51م2) نقول « مؤقتاً » لأننا سنجده يعود إلى أحضان الثورة في مرحلة أخرى .

(51م3) كانت للافاطمة ما تزال في عصمة رجل آخر أبى أن يطلقها حتى لا تتزوج من غيره ، رغم انها كانت تعيش في زاويتها بعيدة عنه ، ودع عنك ما رددته الأقلام الفرنسية من وجود علاقة عاطفية بين بوبغلة والمرابطة فاطمة . فقد كان متزوجاً من ثلاث نسوة وله منهن أبناء . وكان يبحث عن حليف سياسي لا عن خليلة ، كما يدعي فيرو (المجلة الافريقية) ، 1859 ، ص 448 .

(52) في دراستنا لحياة بوبغلة اعتمدنا ، بالإضافة إلى من ذكرنا ، على دبلوم دراسات معمقة ، أعده الباحث محمد سي يوسف بجامعة الجزائر 1981 ، وهو ما يزال مخطوطاً ، كما أن لنفس الكاتب نقداً مخطوطاً لكتاب الطاهر أو صديق بعنوان (بوبغلة) ، والنقد لم ينشر بعد ولكنه سلمني نسخة منه مشكوراً .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

راندون « يعجل » بالقضاء على الثورة في جرجرة قبل توجه الجيش إلى البحر الأسود . ولكن استشهاد بوبغلة لم يضع حداً للثورة ، كما لاحظنا .

واصل أهل زواوة ثورتهم بين 1855 ـ 1857 بقيادة جديدة ، قيادة امرأة مرابطة لا قيادة رجل شريف . ولم تكن للافاطمة امرأة كالنساء العاديات ، ولكنها كانت تمتاز بخصائص لا توجد إلا في النوادر منهنّ فهي امرأة تمتاز بالأدب والجمال والذكاء . وهي بنت حسب ودين . ولدت حوالي 1830 لأبيها الشيخ الطيب الذي كان يسهر على زاوية ورجة الرحمانية . وكان لها أربعة اخوة ، أشهرهم وأكبرهم سي الطاهر . وبعد طفولة قضتها في العمل المنزلي وفي التعلم تزوجت وهي بنت ست عشرة سنة زواجاً غير ناجح فعادت إلى بيت أهلها ولكن زوجها أبقاها في عصمته ولم يسرحها بإحسان . ولا شك ان ذلك كان حديث النسوة ، خصوصاً ان خطابها الذين طلبوا يدها كانوا يلقون نفس الجواب ، ومنهم على ما قيل ، الشريف محمد الهاشمي والشريف بوبغلة . ولعلها هي قد وجدت العزاء عن الحياة الزوجية في العمل على رأس زاوية ورجة عازمة أن تجعل منها مركزاً قوياً للزيارات والعوائد والجهاد . ولعل شيخها الحاج عمر الذي كان على رأس الطريقة الرحمانية الأصلية ، كان يشجعها على ذلك وقد لاحظ فيها الطموح البارز والشخصية القوية .

لم تترك للافاطمة علم الجهاد يسقط بعد بوبغلة . فقد استمرت الثورة في أنحاء جرجرة تحت تأثيرها . صحيح ان العدو تمركز في بجاية وتيزي وزو ودلس وسيباو الخ . وصحيح انه وجد في بعض العناصر خداماً ومتعاونين ولكن الشعب في بني راتن ، وايشريضن ، وبني منقلات وبني يني الخ . كانوا رافعين لعلم الثورة . يهددون المراكز الفرنسية ويضربون المتعاونين ، ويرفضون دفع الضرائب والخضوع لحكم الأجنبي . منذ 1855 ظهر أشراف آخرون منهم الشريف بوحمارة ، ولكن مدته لم تطل ، وبقي اسمه الحقيقي مجهولاً . ثم كانت سنة 1856 مليئة بالأحداث حيث انتشر جيش العدو في جرجرة يريد اخضاع الناس بالقوة ولكن الزاوية الرحمانية الأم دخلت الميدان بقيادة شيخها الحاج عمر الذي رمى بثقله في المعركة . ورجع سي الجودي إلى الثورة ، كما انضم اليها الصادق بن أعراب . فاجتمعت قوات هائلة لمحاربة العدو الذي كان يفوقها عدة وسلاحاً .

وكان راندودن يخطط «لإستكمال» عملية الإحتلال وتتويج إدارته للجزائر بعصا

المارشالية والصعود إلى أعلى جرجرة . وقد اغتنم فرصة عودة الجيش من حرب القرم ووضع خطة الهجوم الكاسح على جرجرة ، ولم يكتف بانتظار النتائج بل خرج بنفسه على رأس الحملة ، كان ذلك في السنة الموالية (1857) . وفي قلب جرجرة وضع راندون الحجر الأساسي لقلعة سماها (قلعة نابليون) في سوق الأربعاء واختار لها تاريخ 14 يونيو ذكرى نزول القوات الغازية ساحل سيدي فرج 1830 . وقد حضر الأب سوشي الحفلة باسم الكنيسة وبارك الأرض التي ستقام عليها القلعة وسط دقات طبول الجيش ودمدمات المدافع . ولكن معركة ايشريضن (24 يونيو 1857)[53] أعطت للعدو درساً لا ينساه وهو أن أهل جرجرة مستعدون للدفاع حتى الموت عن أرضهم . ولم يبق الّا اخضاع للافاطمة والقبض عليها حية أو ميتة ، لأنها كانت تمثل عندئذ روح المقاومة المستميتة . وبعد استعمال الوسائل المعروفة من حرق وحشد وقتل جماعي أسرت الزعيمة فاطمة وهي مرتدية ثياباً حمراء رمزاً للدم والمقاومة والحرية. وكان ذلك في 11 يوليو، وقد جيء بها إلى معسكر راندون فأمر بسجنها.

وهكذا انتهى فصل من فصول المقاومة في بلاد جرجرة . أسرت للافاطمة وحملت إلى سجن بتابلاط حيث ظلت إلى وفاتها سنة 1863 ، وهي ما تزال لم تفقد نضارتها . ودفنت في احدى زوايا بني سليمان . وقبلها بسنتين توفي أخوها الأكبر (سي الطاهر) . وفي نفس السنة (1863) توفي سي الجودي ولكن في حيفا بفلسطين وكان قد هاجر إلى سورية سنة 1857 . وحوالي نفس الوقت هاجر الحاج عمر أيضاً تاركاً الزاوية الرحمانية لرعاية الله والأهالي كما قال ، وقد اختار مكة للإقامة . ولا نعرف مصير ابن أعراب . ويذكر بعض الكتاب ان من بين رفاق الحاج عمر في هجرته إلى المشرق شخصين تبناهما : بنت الشريف المولى إبراهيم الذي سبق ذكره وعرفنا دوره في حصار بجاية والذي كان العضد الأيمن لبوبغلة ، ثم ولد الشريف بوبغلة . وقد هاجرت مع الحاج عمر زوجه أيضاً ، وهي التي يقال إنها تدخلت لإنقاذ عائلة بوبغلة حتى لا يسلمها مضيفها إلى الفرنسيين[54] .

---

(53) خلال حكم جول كامبون 1891 ـ 1897 أقام نصباً تذكارياً في مكان هذه المعركة تخليداً لقتلى الفرنسيين فيها . انظر الفصل الأخير .

(54) انظر فرج محمود الصغير (المجلة التاريخية المغربية) ، يوليو ، 1979 ، 136 ـ 137 . ومما ذكر أن أحد أبناء سي الجودي قد توفي بدمشق سنة (1866) ، أما ابنه الآخر فقد رجع إلى الجزائر في نفس التاريخ .

صادر الفرنسيون اذن أملاك هؤلاء الزعماء ، بما في ذلك مكتبة سي الطاهر أخ للافاطمة ، واعتدوا على حرمة الزاوية الرحمانية . اما بقية المشاركين في الثورة فإنهم بعد أن أحرقت قراهم وأتلفت مؤونتهم ، الخ . غرموا غرامات باهظة وفرضت عليهم ضرائب حرب فردية وجماعية ، كما صودر ما تبقى من املاكهم . وأختتم هذا الفصل بنفي العديد منهم إلى بعض الجزر الفرنسية النائية حتى لا يسمع أحد أو يسمعوا شيئاً عن أهلهم ووطنهم . والغريب أن العقيد روبان يلوم الذين انضموا للثورة تحت تأثير عقولهم الضيقة ، ذلك أنهم لم يفهموا في نظره « تفوق الحضارة الفرنسية والدخول في طريق التقدم[55] » . وهو يشير بذلك إلى سي الجودي ، ولكن مقولته تصدق على كل من فضل الحرية على العبودية والمقاومة على الإستسلام في الجزائر .

***

8. في الصحراء : ورقلة ، الأغواط

أما النقطة الثانية في مخطط راندون فهي احتلال مشارف الصحراء . وقد عرفنا أن الصحراء كانت تشهد عمليات عسكرية ضد ثوار الزيبان والأوراس الجنوبي (الزعاطشة الخ .) ولم تكد تأتي سنة 1850 ـ 1851 حتى اندلعت الثورة في أجزاء أخرى عديدة من الصحراء ، من أولاد سيدي الشيخ غرباً إلى وادي سوف شرقاً . وقد ظهرت قيادات جديدة تمثلت هذه المرة في شريف آخر يدعى أيضاً محمد بن عبد الله وشخصية حيوية أخرى مناهضة للعدو هو الناصر بن شهرة . وهكذا كان الجنوب في الخمس سنوات الأولى من حكم راندون يغلي بالثورة كحرارة شمسه . ولنتذكر دائماً أن تلك الخمس سنوات كانت أيضاً تشهد ثورة بوبغلة وخلفائه في جرجرة.

وخلال الأربعينات كان الوضع في الجنوب قد تأثر بالأحداث التي جرت في الشمال ، ولكنه كان ما يزال خارج السلطة الإستعمارية المباشرة . لقد سبق للفرنسيين أن نصبوا خلفاء وقيادا في الأبيض سيدي الشيخ والاغواط وتسربوا إلى تيارت وبسكرة وتراسلوا مع حكام تقرت وغيرها . ونلاحظ أن ورقلة وميزاب وسوف كانت ما تزال خارج هذه الاتصالات . ومن ثمة كانت مطمعاً للثائرين الذين كانوا يبحثون عن نقطة ارتكاز ينطلقون منها لمحاربة العدو الذي أخذ يستقر في الشمال .

(55) روبان (المجلة الافريقية) ، 1870 ، 350 ـ 352 .

ومن أولئـك الثوار الـطموحين : محمـد بن عبد الله المعـروف بشـريف ورقلة في الكتابات الفرنسية . فمن هو؟

رغم الأضواء الأخيرة التي سلطت على حياة هذا الرجل فإن الغموض ما يزال يكتنفهـا . ويعود ذلـك إلى الدور ، بـل الأدوار ، التي لعبها في الحيـاة السياسيـة والعسكرية بالجزائر وخارجها . ان الوثائق العربية المتوفرة لا تذكر عنه شيئاً حسب علمنا . وأما الوثائق الفرنسية فتقدمه في صورة « المغامر » الذي لا يثبت على حال والطموح الذي ليس لطموحه حدود . وهي تقدمه على أنه من خصوم الأمير الذين انضموا (1841) إلى الفرنسيين ، ثم حقد عليهم أو حقدوا عليه ، فخرج من الجزائر بدعوى الحج ، وبعد الإتصال بحياة الشرق والإصلاح الوهابي والمطامع السياسية العثمانية ، عاد إلى الجزائر رافعاً علم الجهاد . ولكن ذلك ليس كل شيء عنه انه ليس شريفاً مجهولاً في نظر الوثائق الفرنسية كمعـظم الأشراف الـذين رفعوا علم الجهـاد في الجـزائـر . بـل اسمـه الحقيقي هـو إبـراهيم بن أبي فـارس (عبـد العزيز ؟[56]) . وكان يضيف كلمة (المدني) لتوقيعه الرسمي ، ولعل ذلك إشارة إلى المدينة المنورة التي قد يكون أقام بها فترة ، واظهاراً للطابع الديني لحركته . وتذهب الروايات إلى أنه من عائلة أولاد سيدي الشيخ ، وأنه تلقى العلم في أولاد احمد بن يوسف قرب تلمسان . ثم علم في زاوية سيدي يعقوب من أولاد سيدي الشيخ . وتذهب رواية أخرى إلى أن إبراهيم بن أبي فارس كان « أداة » في يد أحد الطموحين المعين من قبل الأمير عبد القادر ، وهو آغا الغسـول المسمى : مولاي الشيخ علي ، الذي كان غير راض بحكم البوحميدي خليفة الأمير على تلمسان ، فهو إذن (أي إبراهيم) « صنيعة شخص طموح من أجل أهدافه الخاصة[57] » .

أما إبراهيم بن أبي فارس فيذكر في رسالة له الى الملك الفرنسي أن « الناس »

(56) على أساس أن كنية من اسمه عبد العزيز هي أبو فارس .

(57) غبريال ايسكير (المجلة الافريقية) ، 1927 ، 438 . ويذكر مانجان في كتابه (تاريخ الأغواط) إن إبراهيم كان مرابطاً بسيطاً في أولاد أحمد بن يوسف ، من عرش الغسول ، ويقطنون شمال تلمسان ، وانه كان إلى سنة 1840 يعلم في زاوية سيدي يعقوب من أولاد سيـدي الشيخ ، وكـان مشهوراً بالتقوى . ومنذ 1840 شعر بسمعته الدينية تزداد انتشاراً فخرج على رأس قبائل الطرارة والغسول وبني عامر لمحاربة الفرنسيين مع الآغا مولاي الشيخ علي . ولكن هذا الآغا خرج عن طاعة الأمير وتبعه إبراهيم الذي أصبح منذئذ يحارب باسم (محمد بن عبد الله) .

قد دعوه للحرب ضد الأمير وذكر منهم جماعات . والمعروف أن الأمير في هذه الأثناء (39 ـ 41) كان يخوض حرباً مفروضة عليه ضد العدو بعد أن انتهك فاليـه حاكم الجزائر العام بنود معاهدة التافنة . ثم جاء بوجو (1841) وفي رأسه خطة واحدة وهي القضاء على مقاومة الأمير ، ولو أدى ذلك الى التعاون مع أعدائه . وفي هذا النطاق تظهر شخصية ابراهيم هذا . فقد عينه بوجو (1842) خليفة علي تلمسان بعد سقوطها في أيدي الفرنسيين . ولكن هؤلاء سرعان ما لم يطمئنوا لسلوك ابراهيم معهم واتهموه بالتقصير والعجز « فنصحوه » بأداء الحج حتى لا يجعلوا منه خصماً جديداً ، ولم يكن هو ينوي الحج وإنما اعتبره نوعاً من النفي غير الرسمي . فحزم حقـائبه ورحل من الجزائر في تاريخ غير مضبوط ، ولكن بعض الوثائق تشير الى أن « النفي » وقع سنة 1845 ، عام انتفاضة الظهرة الشهيرة . ولا ندري الأماكن التي مرّ بها ولا الأشخاص الذين جلس اليهم قبل وصولـه الى مكة . أما أثناء اقامته بمكة المكرمة فالمعروف أنه تتلمذ على الشيخ محمد بن علي السنوسي الذي سبقه الى مكة مهاجراً أيضاً من الجزائر بعد احتلالها[58] . ولعله تتلمذ أيضاً على آخـرين فهو يـذكر في رسائله بعد رجوعه الى الجزائر أنه درس في الاسكندرية والحجاز ، وقد يكون توقف بالأزهر أيضاً اذ قلما يذهب المتعلمون الى مصر دون الدرس والتتلمذ بالأزهر.

هذا عن الجانب العلمي من حياته ، أما الجانب السياسي فتذكر المصادر أن ابراهيم قد اتصل أيضاً بالسلطات العثمانية في المشرق ، ولعلها هي التي اتصلت به . والمعروف أن هذه الدولة لم تعترف رسمياً باحتـلال فرنسـا للجزائـر إلاّ سنة 1847 . وكان الشيخ السنـوسي الذي بنى زاويـة في جبل قبيس وتـأثر بـالاصلاح الوهابي دون تقليده ، يجد أيضاً الرعاية من الدولة العثمانية وممثليها في الحجاز . ومما يذكر أن الشيخ السنوسي عارض مهمة (ليون روش) الجاسوس الـذي أظهر الاسلام وجاء يستفتي علماء الحرمين باسم بوجو ، في واجب المسلمين اذا تغلب عليهم النصارى هل يستمرون في حربهم والخروج عنهم أو يتوقفون ويقبلون الأمر الواقع . ولا ندري إن كان ابراهيم المذكور قد حضر المجلس الذي طـرحت فيه النازلة ، ولكنه لاشك قد علم بها ، اذا لم يكن قد حضر ، من شيخه السنوسي .

---

(58) ينفرد ايسكير بالقول بأن الفرنسيين هم الذين « طردوا » السنوسي من الجزائر ، ص 437 . والمعروف أن السنوسي خرج من الجزائر نحو المغرب ثم إلى الحجاز .

وكان موقف السنوسي عندئذ ضرورة استمرار الجهاد وعدم التعايش مع النصارى . ونحن لا نملك كيف تم الاتفاق على التعاون بين الأطراف الثلاثة (الدولة العثمانية ، السنوسي ، ابراهيم) ولكن الذي لدينا هو أن ابراهيم رجع بمباركة السنوسي مع الحاكم العثماني الجديد لطرابلس (عزت باشا) ، وبعد إقامة تحضيرية معينة[59]دخل ابراهيم الى الجزائر عن طريق غدامس واستقر في ورقلة .

متى حل ابراهيم بورقلة ؟ وكيف بدأ نشاطه ؟ ليس هناك تاريخ محدد لوصوله ورقلة . اذ عندنا ثلاثة تواريخ هي 1849 ، 1850 ، 1851 . ونحن لا نملك وثيقة أخرى الآن نرجح بها أحد التواريخ ، ولكن يبدو أن التاريخ الأول قد يكون هو الأصح لأننا عرفنا أن أحداث الزيبان التي وصلت أصداؤها الى وادي سوف والجريد (نفطة ، توزر الخ .) وطرابلس ، قد تكون شجعت السلطة العثمانية هناك والحركة السنوسية على التعاون مع ابراهيم لتوسيع نطاق الثورة . كما أن انطلاقة بوبغلة في جرجرة واعلانه عندئذ 1850 بأن السلطان العثماني موجود بالجنوب وسيأتي لنصرتهم ، كل ذلك يساعد على ترجيح التاريخين الأولين . أما عن نشاطه فإن إبراهيم قد تسمى منذئذ باسم الشريف محمد بن عبد اللّه اخفاء لاسمه المعروف للسلطات الفرنسية ، واضفاء للطابع الديني على حركته كوسيلة لتجنيد العامة . وقد يساعده على ذلك كونه عائداً لحينه من الحجاز أرض الاسلام الأول . ولا شك أن الشريف الجديد أخذ في التعرف على الخريطة السياسية والاجتماعية للمنطقة ، وأنه اتصل عن طريق الرسائل ونحوها بعدد من المرابطين وذوي النفوذ . وقد جاء في مراسلاته أنه لقي التأييد من الشعانبة والأرباع وطرود وأولاد نائل ، وأنه راسل بني سناسن الخ .

كان الوضع في الصحراء يساعد على حركة كحركة الشريف ابراهيم . فقد توفي الحاج أحمد ابن بابية « سلطان » ورقلة سنة 1850 ، وكانت السلطة في يد للازهرة وولد عبد اللّه (؟) بن خالد . ويقال ان الشيخ السنوسي قد أوصى الشريف خيراً بللا زهرة والاستعانة بها ، ولعلها كانت تتبع الطريقة الشيخية (شاذلية) . ومن

---

(59) يقول أحد التقارير أنه مرّ بالجبل الأخضر واتصل هناك بالشيخ السنوسي . مذكرة أعدتها مصالح الولاية العامة بالجزائر ، 1885 في (المجلة الافريقية) ، (1923) ، ص 381 ـ 442 . ذكر الأول ايسكير ، مرجع سابق ، وكذلك مانجان (تاريخ الأغواط) ، ومقالاته في (المجلة الافريقية) ، 1895 ، ص 273 ، والثاني مذكرة الولاية العامة ، مرجع سابق ، والثالث شارل فيرو (المجلة الافريقية) ، 1886 ، ص 424 .

ثمة نقرأ في المراجع أن السيدة زهرة عرضت السلطة في ورقلة على الشريف فقبلها وسمى نفسه أو سمته هي « سلطان ورقلة » ، ولكنه عرف في الوثائق الفرنسية بـ (شريف ورقلة) ، كما ذكرنا . وكان أبو حفص عمر ابن الحاج بابية يطمح الى أن يكون هو السلطان . أما بنو جلاب بتقرت فقد كانوا أيضاً منقسمين على أنفسهم ، خصوصاً السلطان عبد الرحمن ومنافسه سلمان الذي تعاون مع الشريف ، وفي ذلك التنافس كان اللجوء الى السلطة الأقوى هو الحل . كما كان زعيم الأرباع : ابن ناصر بن شهرة ناقماً على تعاون الخليفة أحمد بن سالم بالأغواط مع الفرنسيين . ورغم أن حمزة آغا أولاد سيدي الشيخ كان قد أيد الثورة في ورقلة فإن عائلته الكبيرة لم تكن كلها متفقة على نفس الموقف . وأما ميزاب فقد كانت السلطة فيها للعزابة وكانت تفضل الحياد ولكنها في كثير من الأحيان كانت تجد نفسها في أتون الثورة.

بعد بقاء الشريف مدة في ورقلة أخذ في مهاجمة المتعاونين مع الفرنسيين. وكان هدفه الاستيلاء على تقرت ثم الأغواط. وقد ظهر نشاطه في صيف 1851 . بدأ أولاً بتقرت. فقد استولى على نقوسة ودخل تماسين دون حرب. وتضخم جيشه من وادي ريغ والشعانبة وسعيد عطبة . وقد شجعه على الاستيلاء على تقرت أن سلمان الجلابي منافس لسلطانها عبد الرحمن ومستعد للتعاون مع الشريف للقضاء على خصمه . ولكن سلطان تقرت (عبد الرحمن) خرج الى الشريف فارتد هذا الى ورقلة. وبعد ذلك انضم ناصر بن شهرة الى الشريف . وراسل الشريف كذلك ابن الأحرش في الجلفة طالباً منه الانضمام الى الثورة ، وانضم اليه أولاد يعقوب بجبل عمور . وفي أوائل 1852 هاجم الشريف الأغواط ولكن المدافعين عنها أوقفوه نواحي ميزاب . ولم يستطع ابن الأحرش الذي رد هجوم الشريف أن يكمل عملياته فرجع دون نصر ، كما هرب أحمد بن سالم من الأغواط الى المدية محتمياً بالسلطة التي عينته . واكتسب الشريف قوة هائلة بانضمام الآغا حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ ، الى ثورته (مارس 1852) ، وفي نفس الوقت نجح سلمان الجلابي في القضاء على ابن عمه عبد الرحمن وتولى سلطنة تقرت بدله ، وهذا الانتصار يعد انتصاراً للشريف أيضاً.

وأثناء تغيب الشريف عن ورقلة حل بها أبو حفص ابن بابية وادعى أنه خليفة الفرنسيين عليها . ولكن أبا حفص لم يستطع الثبات أمام الثورة فهرب الى تيارت

تاركاً ورقلة للشريف ، فبنى فيها هذا قصبة لادارة حكمه ورتب الجند وكتب عدة رسائل الى المسؤولين ، ومنهم حمزة آغا أولاد سيدي الشيخ . وأثناء الهجوم على تقرت واجهه عبد الرحمن الجلابي ، ولكنه عند دخول تماسين وجد محمد العيد التجاني من (التجانية) واقفاً على الحياد من الحرب .

وكل هذه عوامل كانت تساعد الشريف على افتكاك الأغواط . قضى الصيف في ميزاب يستعد لذلك . وكان يرد هجمات ضباط المكاتب العربية (بان) و (ديفو) . وفي اكتوبر احترب الشريف مع الجيش الفرنسي عند الأغواط بقيادة بيليسييه واللقيط يوسف . وتمكن في نوفمبر من دخولها بمساعدة ابن شهرة . وبعد معركة حامية الوطيس (4 ديسمبر 1852) اضطر الشريف الى الخروج من الأغواط مخلفاً وراءه ضابطين صريعين للعدو أحدهما برتبة جنرال ، وهو بوسكارين ، وموران[60] .

إن المعارك التي خاضها سكان الجنوب بقيادة الشريف وأمثاله كثيرة ومن الصعب التوقف عند كل منها في هذا المجال . ويكفي أن نعلم أن كاتباً فرنسياً عاش قريباً من عهد هذه المعارك قال ان الصحراء كلها عندئذ (أوائل الخمسينات) كانت هائجة تموج تحت تأثير ابن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله[61] . وقد كان الأمر كذلك فعلاً . فقد لجأ الفرنسيون بعد احتلال الأغواط عسكرياً الى اتخاذ أسلوب جديد في المعاملة مع بعض الجزائريين وهو نصب حماية تضمن للطرفين واجبات وحقوقاً معينة دون اللجوء الى الحرب . ومن ذلك الإتفاق الذي وقع بين الفرنسيين وبين أهل ميزاب في 19 ابريل سنة 1853 .

لقد كان لأهل ميزاب مواطنون في المدن الشمالية الخاضعة للسلطة الاستعمارية ، وكانت لهم هناك مصالح تجارية حيوية أيضاً . ولذلك رضوا بدفع

---

6) اشترك العدو بقوة كبيرة في معركة الأغواط ، جاءت من الجزائر ومن وهران تعدادها 8 فيالق . و 8 سكدرون ومعهم مدافعهم . وهو السلاح الذي يفتقده الثوار . وكانت المدينة مسورة وكان الشريف داخلها يؤيده حماس أهلها . ولكن العدو استطاع أن يجد منفذاً في الحائط عند ضريح الحاج سيدي عيسى . وبفضل المدافع أجبروا الشريف على مغادرة المدينة ووضعوا جيشاً قوياً هناك بحجة أن الحاكم العام راندون قرر جعل الأغواط نقطة ارتكاز باعتبارها عتبة للصحراء كلها .

ـ انظر تروملي (المجلة الافريقية) ، 1877 ، ص 79 .

(61) كوين Coyne (المجلة الأفريقية) . 1879 ، 206 .

ضريبة سنوية للفرنسيين قدرها 45 ألف فرنك والاعتراف بحمايتهم . وتعهدت فرنسا على لسان راندون ، في مقابل ذلك ، بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأهل ميزاب ، مع امكانهم الاستمرار في التجارة مع المغرب وتونس ولكن بدفع ضريبة جمركية لفرنسا في الحدود كالتي تدفع على البضائع الأجنبية . ومن بين شروط الاتفاق أن فرنسا تحمي أهل ميزاب في المدن والتل الخ . وهم يتعهدون بعدم فتح أبوابهم لأعداء الفرنسيين ، الخ[62] . وقد فهم الفرنسيون أنه لا خطر على المصالح الفرنسية من هذا الاتفاق ، خصوصاً من الناحية السياسية ، اذ يكفي ، كما قال أحدهم ، أن تغلق فرنسا طرق التجارة مع الشمال في وجه الميزابيين ، وليس هناك حاجة الى أخذ الرهائن من مواطنيهم في الشمال عند الخطر . ولكن هذا الاتفاق لم يكن له ، كما سنرى ، أي معنى تقريباً ، مادام الفرنسيون أنفسهم قادرين على تمزيقه عند الحاجة ، كما حدث سنة 1882 ، ولكنه على كل حال كان أسلوباً جديداً في التعامل مع بعض الجزائريين ، لكسب الوقت فقط وتحييد بني ميزاب في وجه ثورة الشريف .

ولم تمض إلّا حوالي سنة على الإتفاق المذكور حتى استعمل الفرنسيون القوة ضد تقرت ونواحيها . فقد ظهر الشريف بهذه المدينة عند صديقه سلمان الجلابي الذي أصبح الحاكم (السلطان) لتقرت ، كما عرفنا . ولعل سلمان هذا كان يطمح إلى توقيع اتفاق مع الفرنسيين شبيه بالإتفاق السابق مع الميزابيين . فقد نسب إليه الفرنسيون رسالة وجهها إلى راندون بتاريخ 1271 ـ 1854 يبدي فيها إستعداده للتعامل مع فرنسا . ويذكر فيرو أن الرسالة وصلت متأخرة لأن الحملة ضد تقرت كانت على قدم وساق[63] . ثم ان تعليمات راندون ، كما عرفنا ، هي فرض السلطة الفرنسية على الصحراء . وكانت الحملة ضد تقرت في خريف 1854[64] بقيادة

---

(62) نفس المصدر ، ص 205 . وكذلك أرشيف إيكس 89 H 10 .

(63) الرسالة في فيرو (المجلة الافريقية) 1879 ، ص 49 ـ 51 .

(64) يقول ماكماهون في (مذكراته) 257 ـ 259 (وكان عندئذ 1854 ، هو حاكم إقليم قسنطينة المسؤول على حملة تقرت) ان سلمان الجلابي كان يطمع في تنصيبه على تقرت من قبل فرنسا ، ولكن الحاكم العام (راندون) لم ير ذلك جديراً بفرنسا ، لأن سلمان قتل أفراد عائلته قبل توليه السلطة . ويبدو أن هذا إدعاء فقط ، لأن سلمان كان قد أعلن صداقته للشريف قبل رسالته إلى الحاكم العام ، ثم ان فرنسا تعاملت مع آخرين لا يختلفون عن سلمان .

(مارمييه) و (ديفـو) و (بان) . وجـرت المعركـة الحاميـة في المقرين في آخـر نوفمبر . ويذهب المارشال ماكماهون في مذكراته إلى أن الفرنسيين قد تعلموا من معـركة الـزعاطشـة ، فأصـدر تعليماتـه هو إلى ضبـاطه بـأن لا يحاربـوا الشـريف و (السلطان) سلمان في الواحات بل خارجها ، وكذلك عدم مهاجمة تقرت مباشرة لأنها مدينة محاطة بأسوار حصينة وحولها خنادق واسعة مليئة بالمياه مما كان يشكل دفاعاً خطيراً . ومن ثمة جرت المعركة في المقرين وليس في تقرت نفسها . وعند وصول الحملة ، في 28 نوفمبر ، وجدت الشريف قد توجه إلى وادي سوف لجباية الضرائب ، أما سلمان فكان داخل تقرت . لم تكن المعركة حاسمة ، مع ذلك ، فالفرنسيون يذهبون إلى أن جيش الشريف كان يتألف من 800 فـارس وألفين من الفنطازية ، وهم يدعون ، في غياب المصادر الجزائرية ، أن قوات الشريف خسرت 500 قتيل ، وأنها تركت أعلامها وألف بندقية وعدداً من السيوف وراءها ، وانسحبت لتقرت تتحصن بها . وأثناء الليل خرج منها الشريف ورفيقه سلمان . ولم تدخلها القوات الفرنسية إلا في اليوم الخامس من ديسمبر ، حسب رواية ماكماهون . ومنذ ذلك الحين عين الفرنسيون علي بن فرحات بن سعيد (عائلة بوعكاز) حاكماً على تقرت وسوف ونواحيهما بلقب (علي باي) .

ورغم الإستيـلاء الفرنسي على الأغـواط 1852 ، وتقرت وسـوف 1854 ـ 1855[65] فإن جهاد الشريف لم ينته إلا سنة 1861 . حقاً انه لجأ إلى تونس بعض الوقت ربما للتداوي من جروحه ، وانه عاد إلى ورقلة بعض الوقت أيضاً . واستمر في إثارة سكان الصحراء الذين لم يتسلط عليهم العدو بعد ، خصـوصاً الشعـانبة والمخادمة وسعيد عطبة والأرباع ، وظلت بعض القبائل في جبل عمور كذلك موالية له . وكان الشريف يكرر الهجوم على تقرت ويهدد الأغواط وورقلة باستمرار إلى

---

(65) كان بعض أهل سوف سنة 1850 ، حسب ادريان بربروجر الذي زار سوف تلك السنة ، يدينون بالولاء السياسي لحاكم تقرت (بني جلاب) وبعضهم لتماسين (التجانية) وقد أخبر بربروجر ان سـوف كانت تتألف من سبع قرى رئيسية . انظر (المجلة الافريقية) ، 295 ـ 296 . وقد أعلن الشريف ، كما أشرنا ، أن طرود ، وهم من سوف ، كانوا قد انضموا إليه ، كما عرفنا انه توجه بنفسه إلى سوف لجباية الضرائب مما يدل على موالاة أهل سوف له . ولكن الإستيلاء على تقرت ودخول (ديفو) مدينة الوادي في يناير 1855 أضعف نفوذ الشريف هناك ، رغم ان التأييد القوي للثورة ضد العدو قد استمر في سوف .

خريف 1861 . وفي الثاني من أكتوبر كان الشريف قد استقر من جديد في ورقلة وأخذ في تحصينها وجمع جيشه منها . ولكن العدو لم يتركه يستكمل تنظيم نفسه . فقد جند له جيشاً قوياً ووضع فيه عناصر بارزة من المرتزقة . ومن بين الذين قادوا الحملة ضد الشريف هذه المرة البشاغا بوبكر (من أولاد سيدي الشيخ) الذي اتجه من البيض إلى ورقلة[66] . خرج الشريف في 8 أكتوبر إلى نقوسة والتقى هناك بجيش العدو (وفيه سي الأعلى الذي سيظهر اسمه فيما بعد) ، وبعد الإقتتال اعتقل الشريف وأخذ أسيراً إلى قارة الحاج (رمال بوبروال ؟) ، وبعدها حمله الفرنسيون إلى وهران ثم إلى جزيرة كورسيكا حيث ظل سجيناً ، ثم نقل منها إلى سجن عنابة بعد أن داهمه المرض . ونحن نعرف أنه قد حل بعنابة سنة 1863 شبه ميت[67] .

ولكن صفحة المقاومة لم تطو باعتقال شريف ورقلة أو غيره من الأشراف والقادة . فمقتل بوزيان وبوبغلة ، واعتقال للافاطمة وشريف ورقلة لم يوقف عجلة التاريخ ولم يكبح جماح المقاومة . وسنرى ان عقد الستينات كان مثل عقد الأربعينات والخمسينات سلسلة أيضاً من المصادمات القوية مع العدو . وها هو ناصر بن شهرة قد ظهر حاملاً لواء الجهاد في الصحراء ولم تلن له قناة . وكان لا يترك فرصة ضعف للعدو إلا اغتنمها ضده ، وكان ينتقل كالبرق من شرق الصحراء إلى غربها ووسطها . ولم تكد تنتهي مقاومة شريف ورقلة حتى وجدنا ابن شهرة في صفوف الثائرين من أولاد سيدي الشيخ . وكانت التقارير الفرنسية تصفه « بالتعصب » و « عدونا الذي لا يلين » وكان ابن شهرة قد تكون أيضاً في مدرسة الأمير عبد القادر الحربية والوطنية ، وكان من فرسانه الشجعان ، وكان له تأثير كبير على الثوار في جمع الكلمة والإنضباط ونشر العاطفة الدينية والوطنية ، ولم تغره العروض ولا المساومات . كان دائماً في الصفوف الأولى أثناء المعارك متميزاً ببرنسه الأحمر . ويعد ابن شهرة من الشاهدين

---

(66) كان الآغا حمزة يحمل لقب (الخليفة) وهو أعلى ألقاب الولاية عندئذ . وكان قد اتهم بالتقصير في ورقلة فدعي إلى الجزائر ليجيب على الإتهامات (صيف 1861) ، وفي اوت توفي فخلفه ابنه بوبكر ، ولكن الفرنسيين انتزعوا من أولاد سيدي الشيخ لقب (الخليفة) وأعطوا بوبكر لقب (البشاغا) فقط . انظر (المجلة الافريقية) ، 1923 ، ص 407 .

(67) توفي في نفس السنة . أنظر نفس المصدر . ويذكر ايسكير (المجلة الافريقية) 1927 ، ص 438 ، مرجع سابق ، ان الشريف قد سجن في بيربينيو (Perpignau) فرنسا ، ثم في ولاية قسنطينة ، دون تحديد .

على أحداث القرن التاسع عشر في الجزائر اذ بدأ نضاله في صفوف جيش الأمير وظل على مبدئه وثورته إلى الثمانينات حيث عاصر أيضاً ثورة بوعمامة وناصره فيها .

ومع ذلك يقف شارل فيرو غاضباً على المجاهدين الذين حملوا السلاح ضد بلاده ، أمثال ابن شهرة والشريف ، لأنهم سرعان ما يستجيبون لداعي الجهاد ، وهم ، في نظره ، « جهلة جداً فلا يقدرون إنسانية الحضارة الأوروبية حق قدرها » . وهم دائماً ، في نظره أيضاً ، « لا يفكرون في الوجود الفرنسي الاّ على أنه سحابة عابرة ، ولذلك فهم يعملون دائماً على طردنا من أرض الإسلام »(68) .

* * *

9. من الأوراس إلى بني سناسن :

يمكن لنا أن ننظر إلى ثورة الأوراس عام 1858 على انها فصل آخر من فصول المقاومة الوطنية التي يغذي بعضها بعضاً ويتوارث شرارتها الصغير عن الكبير ، كما يمكننا أن نعتبرها استمراراً لثورة الطريقة الرحمانية التي شهرت السلاح في عدة أماكن ومنها الأوراس نفسه (الزيبان) على يد الشيخ عبد الحفيظ (1849) ، وجرجرة على يد للافاطمة والحاج عمر (1857) . ذلك أن الشيخ الصادق بن الحاج كان من مقدمي تلك الطريقة في واحة سيدي المصمودي ، مجازاً من قبل الشيخ محمد بن عزوز البرجي . وأصله ، كما قيل ، من أولاد سيدي منصور ، وهو من أولاد يوب . عاش مرابطاً في جبل أحمر خدو قرب بسكرة بعيداً عن الإختلاط بالفرنسيين ولكنه برز أثناء الثورة سنة 1849 بالزيبان فساعد الشيخ عبد الحفيظ بسريانة ثم هب على رأس فرقة هامة ومعها 700 بندقية للدفاع عن المحاصرين في الزعاطشة ، ولا ننسى بهذا الصدد أن أصداء ثورة شريف ورقلة وابن شهرة كانت تصل إلى الأوراس ، وهي

---

(68) فيرو (المجلة الافريقية) 1879 ، 54 . بالإضافة إلى المراجع التي ذكرناها عن أحداث الصحراء حتى الآن ، نشير أيضاً إلى أرشيف إيكس 27 H 2 ، يشير بالخصوص إلى عهد علي باي في تقرت وسوف . وفيليب F. Philippe (المراحل الصحراوية) ، ص 119 ، و (طابلو) سنة 1841 عن حياة الشريف محمد بن عبد الله (شريف ورقلة) الأولى . والدراسة الحديثة لحياة شريف ورقلة التي قامت بها السيدة آني ري Annie Rey ، في (موسوعة الأفارقة) Les Africains بإشراف ش . أ . جوليان وآخرين ، في الجزء الثاني عشر منه ، ص 199 ـ 221 .

الثورة التي كانت عندئذ (1858) ما تزال جارية على أشدها رغم إستيلاء الفرنسيين على الأغواط وتقرت والإتفاق مع أهل ميزاب .

ويدعي أحد الكتاب ان هناك أسباباً مختلفة لثورة الصادق بلحاج ، فهي قد وقعت في قيادة ابن شنوف التي أحدثها الفرنسيون بعد أحداث الزعاطشة . فهي قيادة جديدة لم يكن سكانها قد « خضعوا » بعد الى السلطة التي يمثلها ابن شنوف ، تماماً كما حدثت ثورة الزعاطشة في قيادة ابن قانة . وإذا كان من نتائج الزعاطشة إعادة تقسيم القيادات لإضعاف عائلة ابن قانة ، فكذلك كان من نتائج ثورة الصادق بلحاج إعادة التقسيم الإداري لإضعاف الميهوب ابن شنوف (حليف بوعكاز) . كما يذهب هذا الكاتب إلى أن الفرنسيين قد أصدروا عدة قرارات غير شعبية مهدت لسخط الناس ، من ذلك المناداة على الأطفال المسلمين بحضور المدارس الفرنسية ـ العربية في بسكرة ، وتشديد الرقابة على زيارات الزوايا بينما كان الصادق بلحاج هو مقدم الطريقة الرحمانية في زاوية تيميرماسين وكان من أنصار وأتباع الشيخ بوزيان زعيم الزعاطشة[69] .

والغريب أن بعض الكتاب قد تحدث أيضاً عن « تسرب » مبعوثين من المشرق إلى المنطقة التي نحن بصدد الحديث عنها . وعزا إليهم المساعدة على الثورة هناك . فبالإضافة إلى « التعصب » الشديد الذي تميز به الصادق بلحاج ، في نظر هذا الكاتب ، هناك مبعوثون وصلوا من المشرق وأجروا إتصالات معه ، في نفس الوقت الذي وصلت فيه بعوث أخرى من المشرق أيضاً إلى جبال القبائل الشرقية حيث ثار سكانها على الفرنسيين في الوقت الذي أعلن فيه الصادق بلحاج الثورة في جبال الأوراس . وقد استنتج هذا الكاتب أن هناك « تنسيقاً » وتوحيداً للنضال قد تكون وراءه الحركة السنوسية[70] . والمعروف أن السنوسية متهمة بإثارة الجنوب أيضاً ، خصوصاً حركة شريف ورقلة التي سبق الحديث عنها .

---

(69) فان سيفرز (المجلة الدولية . . .) ، مرجع سابق ، ص 268. وكان ابن شنوف هو حليف علي باي بن فرحات (باي تقرت ووادي ريغ) من عائلة بوعكاز .

(70) فيرو (المجلة الافريقية) ، 1886 ، ص 104 ـ 106 .

ومهما كان الأمر فإن الصادق بلحاج ابن المنطقة ، فهو خبير بها وبأهلها ، وهو زعيم زاوية وداعية جهاد رغم تقدمه في السن . لقد بدأت الحركة بإرساله المبعوثين والرسائل وعَقْدِه الإجتماعات التي جرى فيها الحديث عن مقاطعة الفرنسيين ثم الحديث عن الثورة عليهم . وكان الشيخ الصادق يحدث أتباعه ، وما بالعهد من قدم ، عن جهاد المسلمين الأوائل وحركة الأمير وبوزيان وثورة جرجرة والجنوب . وقد يكون وعدهم بالنصر من عند الله ومن دول الاسلام تنشيطاً لهم وترغيباً . ولم يحل شهر نوفمبر 1858 حتى اتسعت حركته ، وكان ابنه إبراهيم في طليعة المتحمسين والدعاة للثورة حتى وصفه كتاب المكاتب العربية (أمثال فيرو) بالتعصب والعنف ، وقال عنه انه كان يستغل اسم والده في إثارة الناس وكتابة الرسائل الداعية إلى الجهاد . وكانت الرسائل تقرأ علناً في الأسواق . ولا شك أن القايد بن شنوف كان مطلعاً على ما يجري وقد احتاط للأمر وأخبر به الفرنسيين .

استمرت الثورة اذن طيلة الخريف . وشملت سكان جبل احمر خدو وبني بوسليمان وسيدي عقبة ومشونش الخ . وكادت تعم الأوراس كله . وقد جند لها الفرنسيون قوة ضخمة بقيادة الجنرال (ديفو) ومعه (قوم) ابن شنوف ، ودارت معارك عديدة ومناوشات استمرت إلى يناير 1859 . وعندما ضيق العدو الخناق على الثوار حاولوا اللجوء إلى الجنوب استعداداً لإعادة الكرة ، كما حدث أيام حكم الأمير هناك ، ولكن الشيخ الصادق بلحاج وقع في الأسر في 19 من الشهر المذكور ، ففقدت الثورة قوتها المحركة[71] . ولم يؤسر وحده بل أسر معه حوالي مائة من عائلته وأتباعه ، وقيد إلى معسكر الجنرال (ديفو) ، ومن هناك حمل إلى أحد سجون فرنسا . وبعد فترة لا ندري طولها أعادوه إلى سجن الحراش حيث توفي سنة 1862 (وقيل 1863)[72] .

---

(71) يبدو أن الثورة قد انتشرت وهددت الفرنسيين بشكل أخطر مما تحدثنا به الوثائق المتوفرة . ومما يذكر أن أحد أعضاء (الجمعية الأثرية بقسنطينة لم يستطع حضور جلسات دورتها بسبب من سماه (بالجباس الجديد) - يشير إلى الصادق بلحاج - الذي ثار أخيراً في جبل الأوراس باسم الدين الإسلامي . أنظر (حولية الجمعية الأثرية . . .) المذكورة والتي نشير إليها باسم (روكاي) ، 1858 - 1859 ، ص 87.

(72) أورد التاريخ الأول ديبون وكوبولاني في (الطرق الصوفية الإسلامية) ، ص 410 - 411 ، والثاني فان سيفرز ، المرجع السابق .

ومن نتائج ثورة الأوراس المنسوبة إلى الصادق بلحاج إعادة النظر في التقسيم الإداري للمنطقة ، كما أشرنا ، ومن ثمة اضعاف سلطة الميهوب بن شنوف . ومنها تخريب زاوية سيدي المصمودي الرحمانية (زاوية الشيخ الصادق) التي أمر الجنرال ديفو بهدمها تماماً سنة 1859 بدعوى أنها كانت منطلقاً للثورة وناديا (للتعصب) ضد الفرنسيين . ولكن مقدمي الزاوية ، بالتعاون مع ابنه الشيخ الطاهر (أي ابن الصادق بلحاج) أعادوا بناء الزاوية في تيميرماسين هذه المرة . وسرعان ما أصبح لها أتباع جدد ، وقد بقيت محافظة على تقاليده ، كما يقول رين ، في العداء للفرنسيين ، وهو يستدل على ذلك بان الشريف الجديد المدعو (محمد بن عبد الرحمن) الذي ظهر سنة 1879 كان من خريجي هذه الزاوية[73] .

وليس بوسعنا تتبع جميع حركات الاشراف والمجاهدين الذين واصلوا مسيرة المقاومة خلال الخمسينات ، وقبل أن ننتهي من دراستنا هذه نذكر نقطتين أخريين احداهما في شرق البلاد والأخرى في غربها ، الأولى تتعلق بتبسة والثانية تتعلق ببني سناسن . ففي اكتوبر من سنة 1853 قام أحد الاشراف ويدعى عمار (أو عمر) بن قديدة ضد الفرنسيين ، وجمع أتباعه من أهل الناحية ، ولا سيما البكارية والحراكتة وأولاد سيدي عبيد الخ . وهاجم بهم مراكز العدو ، ولكن الفرنسيين خرجوا له بقيادة الضابط (جابي) ومعه بعض المرتزقة ودخلوا في معركة مع الشريف ابن قديدة ، انتهت باستشهاده فيها . وتقول المصادر الفرنسية انهم غنموا خيمته وسلاحه و «أعلامه الدينية الكبيرة » . ويذكر فيرو ان من بين الغنائم بعض « الخوذات » النحاسية التي خرجت من متاحف الزوايا . وكان الشريف ابن قديدة في لباس الحرب المتكون من رداء من الجلد وخوذة من النحاس . ولم يكد يتجاوز الثلاثين سنة من عمره[74] . وتشير نفس المصادر إلى أن من بين أنصار ابن قديدة بعض أهل الجريد « المتعصبين » حسب تعبير الفرنسيين .

اما ما يتعلق ببني سناسن فنحن أمام ثائر آخر هناك يدعى محمد بن عبد الله أيضاً ، وتزعم المصادر الفرنسية أن هذا الشيخ المرابط قدم من السوس وأخذ يعلم

---

(73) أنظر ديبون وكوبولاني ، مرجع سابق ، ولويس رين (مرابطون) ، ص 460 .

(74) فيرو (المجلة الافريقية) ، 1874 ، ص 448 .

في زاوية كرزازة ، ولعله كان من أتباع الطريقة الطيبية (الطيب الوزاني) . وعندما أحس الشيخ محمد بن عبد الله هذا بأن ساعة الجهاد قد دقت استقر في سهل طريفة وكتب إلى أعيان الناحية (بني سناسن ، والهاية وانقاد الخ .) ودعاهم للجهاد فاستجابوا له . من هؤلاء كبير بني سناسن الحاج ميمون بن البشير ، صاحب النفوذ الواسع . ومنهم الشيخ محمد بن المكي الذي تصفه المصادر « بالمتعصب » كثيراً ضد الفرنسيين ، وتقول انه هو الذي تولى الأمور الماليةِ والتسليح . كان ذلك في صيف 1859 . وفي آخر شهر اغسطس بايع الجميع الشيخ محمد بن عبد الله على الطاعة والجهاد ودعوه « بالسلطان » وانطلقت الثورة وجرت عدة معارك انهزم في بعضها العدو ، مثل معركة (سيدي زاهر) التي جرت في الثلاثين من الشهر المذكور ثم استئنفت المعارك خلال سبتمبر إذ في الحادي عشر منه جرت معركة أخرى قرب زاوية سيدي العنبري . ولا تعرف مصير الشريف في هذه المعركة . ولكن المصادر تتحدث عن لجوء الثوار إلى المغرب استعداداً لإستئناف القتال[75] .

وفي حملة « تأديبية » قوية تتألف من أكثر من خمسة عشر الف جندي خرج الجنرال مارتنبري Martinprey إلى الثوار ، واشتبك معهم . وكانت النتيجة خسائر كبيرة في الأرواح، تقول المصادر الفرنسية انها من جراء الكوليرا لا من جراء الحرب، ويكفي أن نعلم أن أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي قد هلكوا في هذا الاشتباك . أما من الجانب الجزائري فقد فرضت السلطات الفرنسية ضرائب باهظة على المشاركين في الثورة ، بالإضافة إلى ضرورة تقديم الرهائن وقد أثارت هذه الحملة الفاشلة الرأي العام في فرنسا نفسها ، لأنها لم تأت بالنتيجة المرجوة منها وتسببت في هلاك العديد من ارواح العدو[76] .

وإذا كان اسم تونس قد ورد بالنسبة لأحداث تبسة فإن اسم المغرب قد ورد بالنسبة لأحداث بني سناسن . وكلا البلدين ذُكِرَ في أحداث الجزائر منذ 1830 . فليس الأمر جديداً هذه المرة أيضاً . والمهم أن نعرف أن معظم الأشراف الذين ظهروا كانت

---

(75) سجلت هذه المعلومات على بطاقة ونسيت تسجيل المصدر فيها ، باستثناء الصفحات وهي 355 - 356 ، 361 ، 371 . ولعل المصدر هو (المجلة الافريقية) ؟ .

(76) جوليان (تاريخ) مرجع سابق ، ص 418 .

أسماؤهم الحقيقية مجهولة ، فهم مجاهدون في سبيل الله لا من أجل السمعة الشخصية والمجد العائلي أو القبلي. ثم ان معظم رجال الطرق الصوفية كانوا ينتمون إلى طرق مشتركة لا تعرف الحدود ولا تعترف بالقيود . وفي هذا المجال يجب النظر إلى حركتي ابن قديدة في تبسة ومحمد بن عبد اللّٰه في بن سناسن ، فهما حركتان تمثلان استمرار المقاومة ضد الدخيل في الجزائر قبل أن تمتد أيادي العدو الأخطبوطية إلى كل من تونس والمغرب أيضاً .

10. إطفاء الشموع :

كان عقد الخمسينات اذن فترة مواجهة عسكرية بين المقاومة الوطنية والفرنسيين ، ولكنه كان أيضاً فترة اطفاء الشموع العلمية والدينية وذلك بالقضاء على المؤسسات القائمة ، والاستمرار في تدجين رجال الدين والثقافة أو تهجيرهم ، واهمال التعليم للاطفال ، والتغاضي عن نشاط الكنيسة بل ومساعدتها على القيام بأعمال تبشيرية و« تمدينية » هدفها استرجاع الهيمنة المسيحية ونشر الفرنسية والإساءة إلى الإسلام .

ومن أجل ذلك استمرت السلطات الفرنسية في المدن على بسط نفوذها على الأوقاف وهدم الأضرحة والزوايا والمساجد التابعة لها ، وتسليط قوانين (الدومين) عليها . وقد استغرب أحد الكتاب الفرنسيين الذين كتبوا عن « الإسلام الجزائري » ، وهو (دوتيه) ، كيف أن مدينة الجزائر التي كانت تضم 136 مؤسسة دينية سنة 1830 منها 13 مسجداً جامعاً ، لم يبق منها سنة 1862 سوى 21 مؤسسة منها 9 مساجد فقط. وقال انك إذا زرت مدن المغرب الأقصى مثلاً وجدتها كالغابة تعج بالمنارات، أما إذا زرت مدينة الجزائر فانك لن تجد شيئاً من ذلك المنظر[77]. ولا شك ان المنارات والمؤسسات الدينية الأخرى لم تختف كلها خلال عقد الخمسينات ، ولكن هذه الفترة كانت تمثل التواصل في الطمس الحضاري على يد الفرنسيين كما كانت تمثل تواصل المقاومة الوطنية ضد الوجود الإستعماري .

---

(77) دوتيه (المجلة الافريقية) ، 1899 ، ص 346 .

ويذكر بعض الكتاب أن زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي ـ وهي أهم المؤسسات الدينية نظراً لدخلها الكبير سنة 1830 ـ وقع ضمها سنة 1848 إلى أملاك الدولة وأصبح القائمون عليها وعلى صيانتها وتسييرها تابعين لميزانية الإدارة المدنية (مكتب الشؤون الإسلامية)[78] . وهذا مسجد سيدي الجامي كان قد احتله الدرك منذ 1830 ثم أجر سنة 1850 إلى جماعة (الطرابست) الدينية وسموه (اسطوايلي الصغيرة) وكان يقع بالقرب من حديقة مارنقو (عند ضريح الشيخ الثعالبي) . كذلك حول مسجد سيدي السعدي (وهو فيما يبدو جد الحاج سيدي السعدي الذي قاد الثورة بمتيجة وبلاد القبائل أوائل الاحتلال) هذا المسجد الذي كانت تحتله فرقة الهندسة العسكرية أصبح سنة 1850 جزءاً من مصلحة الضرائب . أما مسجد المصلّى الذي أصبح ثكنة عسكرية بعد الاحتلال ، فقد هدم سنة 1862 لإقامة الليسيه الفرنسي على أنقاضه . وهكذا . ولكي تخفف مؤسسة أملاك الدولة من أعبائها في إدارة الأوقاف ونحوها أنشأت منذ 1857 (مكتب العمل الخيري الإسلامي) التابع لها ، والذي عهد إليه بتنظيم المساعدات للفقراء والمحتاجين من المسلمين والسهر على المواسم الدينية ، ومتابعة مصاريف أوقاف مكة والمدينة[79] .

ونفس المصير واجهته المؤسسات الدينية في المدن الأخرى . فهذه قسنطينة عرفت قائمة من الجوامع والزوايا التي هدمت أو حوّلت إلى ثكنات أو كنائس سنة 1849 . ويكفي أن نحيل على التقرير الرسمي المكتوب في 20 ديسمبر 1849 . وقد جاء فيه ان المساجد الآتية قد هدمت : سيدي فرج ، مكة والمدينة ، سيدي الفرجاني (الفرغاني ؟) ، الوزناجي ، سيدي مسلم ، سيدي وراد . كما جاء فيه النص على تحويل جامع سوق الغزل إلى كاتدرالية ، بالإضافة إلى المساجد التي حولت إلى ثكنات أو بيعت[80] . وفي مقالة لشيربونو عن قسنطينة وآثارها[81] كتبها سنة 1853 ذكر أن جامع رحبة الصوف (وهو يعود إلى القرن 5هـ) قد حولته

---

(78) أوميرا (المجلة الافريقية) ، 1898 ، 191 .

(79) نفس المصدر ، 192 ـ 196 .

(80) أرشيف ايكس 23 H 1 .

(81) شيربونو ، (روكاي) ، 1853 ، ص 122 ـ 224 .

السلطات الفرنسية إلى مخزن للشعير ، وفي سنة 1850 هدمت منارته . وحولت جامع القصبة الشهير (وهو يعود إلى القرن 7هـ) إلى مبنى عسكري منذ 1837 (تاريخ احتلال المدينة) ثم وقع هدمه كله سنة 1853 .

وقد خربت أيضاً مساجد وزوايا بجاية التي عرفت حرباً طويلة ، كما أشرنا ؛ وتشير مصادر 1859 إلى هدم الجوامع الآتية فيها : جامع سيدي الموهوب ، والصافية ، وعين يلس ، والبريجة ، كما حول الجامع الكبير إلى ثكنة عسكرية . وحولت زاوية سيدي التواتي إلى نفس الغرض وكذلك زاوية سيد أحمد النجار . بالإضافة إلى زوايا أخرى كثيرة خربت(82) . ومما يذكر انه لُم يبق في بجاية سنة 1848 سوى حوالي 300 شخص من سكانها الأصليين . وهم الذين عجزوا عن الهجرة .

ولم يكن رجال الدين الإسلامي سوى صور لا حراك لها في العهد الذي ندرسه . ونعني بهم القضاة والمفتين والمدرسين وأضرابهم ممن لهم علاقة بالدين والوظيفة الرسمية . أما الأكفاء والمستقلون منهم فهم إمّا هاجروا وإمّا انتهى عهدهم بتقدم السن . ولم تخرج المدارس الجديدة عناصر مرموقة في شؤون الدين والدنيا . فالاستيلاء على الأوقاف ومراقبة الزوايا والحروب المتواصلة والهجرة لم تترك في الجزائر علماء يشار إليهم خلال عقد الخمسينات . وقد رضي الباقون منهم بالوظيف الذليل الذي منح لهم ، فكانوا يتراسلون في كل كبيرة وصغيرة مع مصلحة الشؤون الأهلية بالولاية العامة طالبين منها الترخيص في تعيين أو عزل موظف بسيط بعد أن يكون مكانه قد شغر بالموت أو الهجرة أو أداء الحج(83) . فلا فتوى بمعنى الكلمة ولكن آراء منقولة من كتب فقهية أخْنَى عليها الزمن ولم يعد عقل العلماء عندئذ قادراً على هضم ما جاء فيها ، كما انه لا استقلال في الرأي ولا اجتهاد . وكان تعيين أو عزل هؤلاء العلماء يصدر عن سلطة الولاية العامة .

---

(82) انظر (المجلة الافريقية) ، 1859 ، ص 299 ـ 302 .

(83) رأينا ذلك من دراستنا لمجموعة من الرسائل الصادرة عن علماء ذلك العهد . وقد أصدرنا منها في بعض المجلات (الثقافة ، الرسالة ، مجلة التاريخ) عدة حلقات بعنوان (من رسائل علماء الجزائر في القرن الماضي) ، فانظر هناك ، وكذلك في الجزء الثالث من (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) . ط. بيروت ، 1990 .

ان عهد راندون (1851 ـ 1858) الذي يعرف بعهد استكمال الاحتلال لم يعرف أي تقدم في ميدان المعرفة . حتى قرار انشاء المدارس الرسمية الثلاث (عربية ـ فرنسية لتخريج من تحتاجهم الإدارة الاستعمارية من مترجمين وقضاة ومدرسين الخ .) صدر قبل تعيين راندون بسنة (1850) . ولم تكن هذه المدارس قد تقدمت في عهده كثيراً ، لعدم تحديد الهدف ونقص الميزانية والانشغال عنها بالأمور العسكرية التي واجهتها إدارة راندون في كل الجزائر وعلى الخصوص الجنوب وجرجرة والأوراس . ولم يكن من المدارس الابتدائية المسماة عربية ـ فرنسية سنة 1850 سوى ست مدارس كلها للبنين . ولم يكن يتردد عليها سوى عدد قليل من التلاميذ ، لشك الجزائريين في أهدافها وعدم ضمان العمل للمتخرج منها(84) .

ومما يذكر أن المكتبة العمومية (الوطنية اليوم) قد انتقلت سنة 1848 من دار إبراهيم آغا الى دار أندلسية راقية وواسعة يعود بناؤها إلى العهد العثماني ، وهي الدار التي كانت مقراً للقنصلية الأمريكية ، وفي نفس التاريخ أصبحت المكتبة والمتحف تابعين لوزارة التعليم العمومي ـ بعد أن كانا تابعين لوزارة الحربية . أما محافظ المكتبة في العهد الذي ندرسه فهو ادريان بربروجر ، الباحث الشهير . وقد اهتم الفرنسيون خلال الخمسينات بإنشاء الجمعيات والمجلات التي تخدم تاريخ الجزائر عموماً وخصوصاً القديم منه . ومن ذلك إنشاؤهم للجمعية الأثرية بقسنطينة سنة 1855 التي تولت إصدار (حولية) باسمها ثم سمتها (مجموعة) أو روكاي . كما تأسست في مدينة الجزائر الجمعية التاريخة الجزائرية (1856) التي كان منشطها الرئيسي هو بربروجر المذكور . وقد أصدرت هذه أيضاً مجلة ذات شهرة واسعة اليوم ، وهي (المجلة الافريقية) التي دامت أكثر من قرن . وقد ظهر في هذه المؤسسات والمجلات كيف يمكن توظيف التاريخ المحلي في خدمة المصالح الاستعمارية إذ كان الكتّاب (المؤرخون) والضباط العسكريون يعملون اليد في اليد

---

(84) يذكر مارسيه (مؤتمر علماء شمال افريقية الثاني) ، باريس 1908 ، ص 183 ـ 184 أن هذا النوع من المدارس قد شرع في تأسيسه منذ سنة 1836 وأن التوسع فيه ظل بطيئاً حتى انه لم يكن منها سنة 1864 سوى 18 مدرسة فقط . وكانت المواد التي تدرس بها لا تختلف عن المواد التي تدرس في المدارس الابتدائية بفرنسا باستثناء مادة الدين (القرآن) واللغة العربية على يد شيخ ملحق بالمدرسة .

لتحقيق المخططات الاستعمارية في الجزائر.

وإلى جانب هؤلاء كانت الكنيسة ورجالها تبارك الأعمال وتمهد الطريق وتكيف النتائج . وكان الأسقف خلال العهد الذي ندرسه هو بافيه Pavy ، وهو الذي خلف سلفه ديبوش ، أول أسقف فرنسي في الجزائر . وقد عمل كلاهما على ازدهار الكنيسة وإرساء قواعدها على أساس استعادة مجد الكنيسة التي كانت موجودة قبل الإسلام ومساعدة الدولة الفرنسية على نشر الاستعمار والحضارة الأوروبية . ومن أجل ذلك تعاونت الكنيسة في الجزائر مع السلطات المحلية الفرنسية ومع الحكومة نفسها في فرنسا . فالأموال التي كانت تحصل عليها لمشاريعها كانت من الخاصة ومن المؤسسات الخيرية ومن الكنيسة الأم من جهة ، ومن خزينة الدولة الفرنسية من جهة أخرى.

ومن المشاريع التي نفذتها الكنيسة في عهدي ديبوش وبافيه، بناء عدة كنائس جديدة بالإضافة إلى تحويل مجموعة من المساجد إلى كنائس . وتذكر بعض المصادر الدينية ان عهد ديبوش قد شهد بناء 47 كنيسة ومعبداً وكذلك 40 فرعاً في المستشفيات والسجون والمؤسسات العامة الأخرى . وكان ذلك من أموال الكنيسة والمساعدات الخاصة . ونظراً لتراكم الديون على ديبوش وكثرة مشاريعه فقد تدخلت السلطات الحكومية الفرنسية ودفعت عنه هي تلك الديون باعتبارها « ديوناً على الأمة الفرنسية كلها » . ومن جملة تلك المشاريع شراء الأراضي بمتيجة وبناء الملاجىء عليها لتمسيح أطفال المسلمين ، وغير ذلك.

ولم تكتف الحكومة الفرنسية بدفع ديون الكنيسة فقط ، بل انها بنت من ميزانيتها هي : 37 كنيسة كاثوليكية ، ومعبدين للمذهب البروتيستانتي ، وثلاثة مساجد . وكانت تدفع المرتبات لموظفي السلك الديني المسيحي أيضاً ، فكان ديبوش مثلاً يتقاضى 20 ألف فرنك سنوياً يضاف إليها 5 آلاف فرنك علاوات على السفر وشؤون مكتبه . ونفس الشيء يقال عن بقية الموظفين الكنسيين الذين كانوا يتقاضون ، كما لاحظ أحد الكتاب ، مرتبات عالية . ومن جهة أخرى ساهمت الدولة في المشاريع الدينية والاجتماعية الأخرى مثل مشروع الأب برومو Brumault الذي أقام عدة ملاجىء في ابن عكنون وبوفاريك ووهران الخ . وجعلها مراكز لتعليم

الفلاحة ونحوها . فكانت مساهمة الدولة الفرنسية تتمثل في تخصيص منح للأطفال في الملاجىء : 21 فرنكاً ونصفاً لكل طفل شهرياً . وكانت هذه المشاريع تتلقى مساعدات إضافية من الولايات الفرنسية الأخرى[85].

وكانت الاسقفية في العهد الذي ندرسه تقع في بولوغين (سانت اوجين سابقاً) حيث احتلت بعض الفيلات الراقية ، وجعلت منها مقراً للإقامة وحلقات للتعليم (Seminaires) ، وجلبت إليها أناساً متحمسين لخدمة الكنيسة والاستعمار وتحضير السكان للغزو الفكري والتبشيري . فكل منهم كان يعتقد انه جندي في ميدانه لا يقل همة وطموحاً عن جنود بوجو وراندون . ولم يكن هؤلاء المبشرون المتحمسون من الرجال فقط بل كان فيهم النساء أيضاً . وكان دور هؤلاء هو الإتصال بالمرأة المسلمة ودخول البيوت والتعرف على عادات وتقاليد السكان من الداخل ، والتأثير في الحياة الاجتماعية عن طريق المرأة واستدراج الفتيات على الخصوص لمشاريع تبدو مغرية ومحايدة ومربحة ، كتعليم الخياطة والطرز والتطبب ونحوها . ولا شك انه كان لهؤلاء النسوة (الأخوات) دور انساني هام في المستشفيات ومحاربة الآفات التي جلبها الجنود معهم من فرنسا . فقد تدهورت الأخلاق إلى أسفل السافلين حسب تعبير أحد الكتّاب إذ قال : « انه من الصعب تصور حالة أخلاقية أدنى من حالة الأخلاق في الجزائر بعد عدّة سنوات من الاحتلال »[86] . ولا شك أن الكاتب يعني بذلك أخلاق الفرنسيين ، ولا سيما الجنود ، الذين كانوا ، كما عرفنا ، في الأغلب من حثالات المجتمع والمرتزقة والجهلة والمغامرين ، وناهيك بجيش من أعضائه اللفيف الأجنبي واللقيط يوسف . وبالإضافة إلى انتشار الأمراض والإدمان والتسكع ، ارتفع عدد المواليد غير الشرعيين بين الفرنسيين في الجزائر إلى 244 في الألف بينما كان في كل فرنسا 72 في الألف .

كان دور الكنيسة اذن هو محاربة هذه الآفات وتقويم الأخلاق بين الفرنسيين المنحرفين . أما دورها بين المسلمين فقد كان العكس ، ولكن في الشؤون الدينية والفكرية . وقد لاحظ الكتاب الذين زاروا الجزائر خلال القرن الماضي مدى انحطاط

---

(85) أخذنا هذه المعلومات من القسيس ج. بلاكسلي (أربعة أشهر في الجزائر) ، ص 47 - 48 .

(86) نفس المصدر ، ص 44 .

الأخلاق بين المسلمين أيضاً نتيجة انتشار الآفات التي ذكرها بلاكسلي بالنسبة للفرنسيين . فمنحرفو المسلمين لم يقلدوا الفرنسيين في العلم والعمل ونحوهما ولكن في الخمر والزنا والتسكع ونحوها[87] . ولكن الكنيسة لم تتدخل لإصلاح هذه الحالة ، كما فعلت في المرة الأولى . نعم ان الكنيسة كانت تبارك المشاريع الإستعمارية وتغلغل الجيش في المناطق النائية والحصينة مثل جرجرة والأوراس والصحراء لكي تسير هي على خطاه. وقد عرفنا أن الكنيسة كانت حاضرة يوم وقف راندون يرسي قواعد (حصن نابليون) في قلب جرجرة ، فباركت المشروع واعتبرته رمزاً للماضي والمستقبل معاً . فالسيف والصليب كانا يسيران جنباً إلى جنب في الجزائر ويكمل أحدهما نقص الآخر .

وما دمنا نتحدث عن دور الكنيسة في هذه الفترة فلنشر أيضاً إلى دور اليهود عندئذ . كان يهود الجزائر متمركزين في المدن وحتى في القرى أحياناً . وقد ازدهر حالهم منذ الإحتلال ، كما عرفنا ، وكثرت علاقاتهم التجارية والمالية ، وكانوا بحكم معارفهم اللغوية وارتباطاتهم العائلية بأوروبا (ليفورنيا ، مرسيليا الخ .) يؤثرون في الحياة السياسية والإقتصادية للجزائر . وقد أصبحوا هم الذين يحتكرون التجارة المحلية (الأهلية) في التعامل مع الفرنسيين[88] . وكانت علاقتهم بالسلطات الفرنسية قوية ، وكانوا مستعدين للإندماج في المجتمع الأوروبي « الخليط » لاستغلاله وإجتناء الأرباح منه مادياً ومعنوياً . فبالإضافة إلى الجانب التجاري والمعاملات المالية مع الأوروبيين ، استطاع مثقفو اليهود أن يدخلوا في جمعيات الفرنسيين المدنية والعلمية وأن يؤثروا عن طريق الكتابة والمحاضرة في توجيه الحياة الفكرية لصالحهم أيضاً . فقد كان الربيون في الغالب يحسنون عدة لغات ومنها الاسبانية والفرنسية ، ولم تكن لهم عقدة ، كالمسلمين عندئذ ، من الحضارة الأوروبية ، فكان ذلك عاملاً مساعداً لهم على الإندماج أيضاً في الحياة الفكرية ، كما ذكرنا ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتعاملون بالعربية مع الجزائريين وحتى مع

---

(87) نشير بذلك إلى ما ورد في كتاب (مستودع الأمصار) لمحمد بيرم الخامس (1840 ـ 1889) بعد زيارته للجزائر . والقاعدة الشهيرة تقول ان المغلوب لا يقلد الغالب في فضائله ولكن في مساوئه .

(88) انظر بلاكسلي ، مرجع سابق ، ص 48 .

أنفسهم ، وقلما يستعملون العبرية بل لقد لاحظ أحد الكتاب أن الربيين كانوا يعظون اليهود بالعربية أيضاً في بعض المناسبات[89] . وهكذا كان بينهم وبين السلطات الفرنسية تفاهم وحتى تحابب . وقد بنت لهم الحكومة معبداً (بيعة) جميلاً بثمن باهظ جداً حسب بعض الروايات .

11. افتقار الأغنياء وبعض الفضائح :

وفي الوقت الذي كانت تزدهر فيه أحوال الفرنسيين واليهود كانت أحوال المسلمين في حالة تدهور سواء في المدن أو الأرياف . فالتدخل الفرنسي واليهودي أدى إلى إفقار البرجوازية الجزائرية وإجبارها على الهجرة من المدن . والإجراءات الإدارية التي جاءت عادة بعد الحروب ، قد أدت إلى تقليص صلاحيات الأجواد والعائلات الكبيرة الحاكمة بإسم الفرنسيين في الأرياف . وغالباً ما كان ذلك التقليص يؤدي إلى إفقار الموظفين المعنيين من الخلفاء والباشاغوات الخ . لأن الثورة تتبع السلطة الواسعة والضرائب المرتفعة والأتباع الكثيرين . وهكذا وجدنا المجتمع الجزائري خلال عقد الخمسينات يواجه الأزمات الإقتصادية والإضطهاد السياسي معاً .

إن معظم الكتاب الذين تحدثوا عن المجتمع الجزائري عندئذ لاحظوا حالة الفقر التي أصبحت عليها العائلات التي لم تهاجر والتي كانت في الماضي موسرة . فهذا يوجين دوماس يذكر سنة 1855 ، أن أهل الحضر الذين كانوا قد جمعوا ثروات طائلة في عهد البايات قد أصبحوا يعيشون في حالة فقر مدقع بعد أن تبخرت ثرواتهم . وقد ترتب على ذلك ، في نظره ، ظهور الكسل بينهم وعدم قدرتهم على منافسة الأوروبيين ، كما تناقص عددهم وأصبحوا وليس لهم أهمية تذكر في المجال السياسي . وبالإضافة إلى ذلك فهم كانوا يضيعون من طبائعهم بسبب احتكاكهم اليومي بالأوروبيين[90] .

---

(89) نفس المصدر ، ص 52 . ويذكر الكاتب أن ذلك المعبد قد بني قبل 1859 ، دون تحديد التاريخ .

(90) يوجين دوماس (العادات والتقاليد الجزائرية) ، ط. 2 ، 1855 ، ص 5 ـ 7 . نفس الملاحظات أبداها من بعده غيره مثل اوغسطين بيرك الذي درس البرجوازية الجزائرية دراسة اجتماعية ـ تاريخية ، انظر مقالاته التي جمعها ابنه جاك بيرك بعنوان (كتابات حول الجزائر) باريس ، 1985 . وقد تساءل اوغسطين بيرك عن اختفاء أسماء عائلات كانت غنية مثل ابن الكبابطي ، ابن العنابي ، خوجة الخ .

ولـذلك لا نستغـرب أن يصبح أغنيـاء الأمس فقراء اليـوم ، يمدون أيـديهم للمساعدة ويتضرعون للدخيل ليجود عليهم بالرحمة والعطاء . فهذا حمودة الفكون (بن شيخ الإسلام) بقسنطينة الذي كانت لعائلته أموال طائلة تضرب بها الأمثال ، كتب سنة 1852 إلى الحاكم العام راندون يلفت نظره إلى وضع عائلته السيء . وهذا حسـان بن الباي السـابق لقسنطينـة ، علي انكليز ، يـطلب أيضاً من رانـدون سنة 1852 ـ 1853 أن يعين له معاشاً يعيش به ، ويذكره بأنه كان من ذوي الولاية والجاه في السابق ، ويغريه بأنـه يفضل البقـاء في الجزائـر على الهجرة نحـو المغرب أو اسطانبول . ونفس الـطلبات والشكـاوي قدمهـا بعض كبار الأمس أمثـال علي بن عيسى (قائد جيش أحمد باي)، ومحمد مزوار الشرفاء في مدينة الجزائر ، ومرابطي وأشراف بجاية بعد أن أثقلتهم الضرائب التي كانوا معفيين منها[91] . كما تقدمت زوجتا الحاج أحمد ، باي قسنطينة ، تطلبان ، سنة 1268 هـ ـ 1851 « الانعام » عليهما براتب من السلطات الفرنسية[92] . إسم إحداهما خدوجة أخت حمدان بن عثمان خوجة ، واسم أخراهما الدائخة بنت محمد بن قانة ، شيخ العرب بالزيبان . وكلتا العائلتين كانت من الأثرياء .

والغريب ان أمثال هذه العائلات هي التي كانت تتمرّغ على أعتاب السلطة التي سلبتها ثرواتها لتتمنى لها الحظ السعيد والعمر المديد . ففي الذكرى الأولى لتولي نابليون الثالث الامبراطورية جاءته رسالة تهنئة من أعيان قسنطينة سنة 1852 تحمل توقيعات هذه الأسماء : المكي بن باديس ، المكي بن زقوطة ، حمودة بن الشيخ الفكون ، مصطفى بن جلول ، محمد الشريف بن صالح باي ، علي بن باأحمد ، أحمد خوجة بن شريط ، الـخ[93] . نعم . ان الأيدي التي يلثمهـا أصحاب هـذه التوقيعات هي الأيادي التي ما تزال ملطخة بدماء شهداء الزعاطشة وجرجرة والأغواط وورقلة ، وهي الأيدي التي كانت قد بطشت ببوزيان وموسى الدرقاوي ، وما تزال

---

(91) انظر كور (المجلة الافريقية) ، 1914 ، 91 ، وأرشيف ايكس رقم 11 H 1 .

(92) نفس المصدر ، أي أرشيف ايكس ، 11 H 1 .

(93) نفس المصدر ، والرسالة بتاريخ 24 ديسمبر 1852 ، والنص العربي للرسالة مفقود ولكن ترجمتها بالفرنسية موجود .

عندئذ تبطش ببوبغلة وللافاطمة وشريف ورقلة. ويكفي أنها كانت تضيف إلى ذلك قوائم المنفيين إلى جزيرة سان مرغريت بتهمة التآمر والشغب وإشاعة الأخبار الكاذبة[94] .

ولكيلا يستيقظ الجزائريون وينتبهوا إلى ما يحاك حولهم وضدهم ، كانت السلطات الفرنسية تعمل على كبت الأخبار حتى لا تتسرب إليهم . فلا يكفي منعهم من التعلم ، ولا الإستيلاء على أملاكهم ومساجدهم ، بل لا بد من « حمايتهم » من الأخبار التي تتحدث عن المشاريع الإستعمارية كقضايا الأرض . وها هو ماكماهون الذي شارك في معظم أحداث الجزائر خلال القرن الماضي وانتهى بتولي منصب الحاكم العام فيها ، يروي لنا قصة غريبة تتعلق « بحماية الأهالي » من أضرار الصحافة الفرنسية . يقول ان الأمير جيروم نابليون[95] قد رخص سنة 1858 بإصدار جريدة (الجزائر الجديدة) لكي تعالج القضايا الإقتصادية والإجتماعية والسياسية . وكانت هذه الجريدة تعادي ، في نظره ، الأهالي والعسكريين الفرنسيين (أي أنها كانت تنطق بإسم الكولون) . ومما كتبته هذه الجريدة انه لا يجوز للأهالي في الجزائر أن يملكوا الأرض لأن الأرض ، حسب الشريعة الإسلامية ، لصاحب السيادة (أي فرنسا) ، وكانت قناعة الأمير جيروم نابليون ان الأهالي غير مطلعين على ما يجري ضدهم في الجريدة لأنهم لا يقرأونها ، ولكن ماكماهون يؤكد أن كثيراً من الأهالي كانوا بالعكس يقرأون ويتكلمون الفرنسية وأن خصوم الفرنسيين منهم كانوا يلجأون إلى من يترجم لهم المقالات مع المبالغة . وبعد تدخل من ماكماهون نفسه (وكان هو المسؤول عندئذ على الجزائر ممثلاً للأمير جيروم نابليون) منعت الجريدة من الجزائر ، ولكنها ظلت تأتي عن طريق تونس والمغرب . وقد استنتج ماكماهون ان الصحافة الفرنسية (غير الرسمية والموجهة كالأخبار والمبشر) تساعد على نمو السخط بين الجزائريين ضد الفرنسيين[96] .

---

(94) وجدنا في وثيقة تعود إلى سنة 1852 أن هناك 42 شخصاً حملوا إلى تلك الجزيرة ، وكلهم من إقليم قسنطينة وحده ، انظر أرشيف ايكس 12 H 1 .

(95) وهو ابن عم الامبراطور نابليون الثالث . وقد أصبح الأمير جيروم نابليون وزيراً للجزائر والمستعمرات ، كما سبق (1858 ـ 1859) .

(96) مذكرات ماكماهون ، مرجع سابق ، ص 283 ـ 284 .

إن الحديث عن النزاع بين قسمين من الفرنسيين في الجزائر (الكولون والجيش ـ المكاتب العربية)[97] يؤدي بنا إلى الحديث قليلاً عن هذه الظاهرة التي أخذت تكبر وتتطور حتى انتهت في سنة 1870 بتغيير نظام الحكم الفرنسي في الجزائر من عسكري إلى مدني ، أي من نظام عسكري يسهر عليه الجيش بواسطة (المكاتب العربية) إلى نظام مدني يسهر عليه الكولون بواسطة البلديات والولايات ونحوها . والمسألة لا تتعلق بالتسمية فقط ولا بمن يمثل فرنسا في الجزائر ، انها أعمق من ذلك بكثير . انها تتعلق بأسلوب الإستعمار نفسه . فالعسكريون احتلوا الأرض بالقوة وفرضوا عليها السيادة الفرنسية وأخذوا يتولون وظائف السلطة من الحاكم العام في مدينة الجزائر إلى ضابط المكتب العربي في إحدى القرى النائية . وهم في ذلك يفتحون أبواب الجزائر للمستعمرين المدنيين (فرنسيين وغيرهم من الأوروبيين) لامتلاك العقارات واستغلال الأرض والمساهمة في تطوير البلاد من جميع النواحي . ولكنهم كانوا يكبحون جماح المدنيين أحياناً في علاقتهم بأصحاب الأرض الحقيقيين : فالمدني الأوروبي يمتاز بالنهم في الحصول على الأرض من الجزائري بأية وسيلة ، بل يعتبر ذلك حقاً مكتسباً بالسيادة ، كما لاحظنا أعلاه . أما العسكريون (ومنهم المكاتب العربية) فهم لا يمانعون في الإستعمار ولكن يعلنون خوفهم من أن تجريد الأهالي من أرضهم بالقوة والمباشرة يؤدي إلى ثورتهم ضد النظام نفسه . وهكذا يظهر العسكريون في ثوب الحماة للنظام الإستعماري في الجزائر . ولكن النزاع لم يتوقف عند المصلحة العامة بل تطور إلى مهاترات مصلحية شاركت فيها الصحف والخطباء والنواب والعرائض ، وقادت إلى اتهامات متبادلة تكشف عن الأغراض الخفية لكل طرف .

---

(97) انشىء المكتب العربي الأول سنة 1833 ، كما سبق ، بهدف مركزة الشؤون الأهلية في إدارة واحدة ، وجمع الوثائق وترجمة المراسلات وإيصال القرارات الرسمية . وفي سنة 1841 أعيد إنشاء إدارة الشؤون العربية بمسؤولية يوجين دوماس . هذا عن المكتب المركزي أمّا المكاتب العربية من ناحية انتشارها في الجزائر وقيامها بالمهمات المذكورة فلم تنقطع منذ 1833 إلى 1870 . وفي 1844 صدر قرار وزاري يعتبر بمثابة ميثاق للمكاتب العربية إذ أنشأ (إدارة الشؤون العربية) ملحقة ، وتحت السلطة المباشرة للقائد العام للقيادة العسكرية (أي الحاكم العام) . انظر بيرنار (الجزائر) ، مرجع سابق ، ص 227 ـ 230 . انظر أيضاً ما مضى .

بدأت الحملة خلال الأربعينات في عهد بوجو بل إن مقدماتها تعود إلى عهد من قبله ، وتطورت في عهد راندون ، وانفجرت في العهد المعروف بعهد « المملكة العربية » (الستينات) ، وانتهت لصالح المدنيين في سنة 1870 إثر سقوط النظام الإمبراطوري . ولا يهمنا الآن إلّا عقد الخمسينات . ان ضغط الكولون (المدنيين) قد أدى بحكومة نابليون الثالث إلى تجربة النظام المدني لمدة سنتين 1858 ـ 1860 ، كما أشرنا ، ثم التراجع عنه إلى الحكم العسكري من جديد . وقد أظهرت المهاترات والإتهامات بين الفرنسيين مدى عمق المشكلة بين الطُرفين خلال 1848 ـ 1860 . وانعكس كل ذلك على الأوضاع والعلاقات في الجزائر . لقد كان من مهمة بوجو ليس فقط إلحاق الهزيمة بالأمير عبد القادر في الميدان ولكن أيضاً تجريده من النظام الإداري الذي أحدثه . ومن ثمة قلد بوجو نظام الأمير ، كما أشرنا ، في تعيين الموظفين وإدارة الضرائب والتسيير ونحوها . وإذا كان موظفو الأمير يتصلون به هو في النهاية لحل المشاكل المستعصية عليهم ، فإن بوجو أنشأ (إدارة الشؤون العربية) المذكورة لكي تكون هي الحكم في القضايا المستعصية على موظفي السلطة الفرنسية . وقد جعل عند كل موظف (خليفة ، باشاغا ، الخ .) مكتباً عربياً تحت قيادة فرنسية لمعاونة ومراقبة ذلك الموظف والتنسيق معه في تسيير شؤون منطقة حكمه . وكثيراً ما كانت سلطات المكتب العربي تتداخل مع سلطات الموظف الجزائري ، وقد تتضارب فيكون الإتهام والعزل أوْ الخضوع والإستسلام المطلق من جانب ذلك الموظف . وقد أحصى أحد الكتّاب عدد الوظائف القيادية التي أنشئت خلال الأربعينات فوجدها قد بلغت عدداً قياسياً ، موزعاً كما يلي :

9 خلفاء (وهو أعلى منصب في السلم المخزني أو البيروقراطي)

5 باشاغوات

59 آغا (وقايد القياد)

85 (ولم يذكر الكاتب عدد «الشيوخ» وهم بدون شك كانوا أكثر من رقم القياد الأخير)[98].

وكان هؤلاء الموظفون الجزائريون يمارسون سلطاتهم بشيء من القوة

---

(98) فان سيفرز (المجلة الدولية . . .) مرجع سابق ، ص 262 .

والاستقلال ، ويتمتعون بالثروة والجاه ، ولعل ذلك هو ما أطمعهم في قبول المسؤولية من أيـدي أعـدائهم . وكـان ذلـك هـو « العصـر الـذهبي » ، إذا صحّ التعبيـر ، للارستقراطية (الأجواد والصفوف) الجزائرية في عهد الاستعمار ، وهو العصر نفسه الذي شهد تدهور البرجوازية (أغنياء المدن) كما عرفنا . ولكن منذ 1850 أخذت الزعامات المذكورة (الأرستقراطية) تتضاءل وتتفتت إلى أن أصبحت في الثمانينات أشباحاً فقط لا تأثير لها ولا قوة ، كما سنرى.

لقد كانت الإدارة الإستعمارية في حاجة إلى تلك الأرستقراطية الأهلية فمكّنت لها في الأرض واعترفت لها ببعض الحقوق وتغاضت عن بعض عيوبها ما دامت تقوم بالمهمة الموكلة إليها أو المرجوة منها ، وهي التعاون على كبح المقاومة و« تهدئة » البلاد . ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، كما عرفنا . فقد أظهر تقدم العدو في الخمسينات نحو جرجرة والجنوب والتوغل في الأوراس والمناطق الداخلية التي كانت من قبل محرمة عليه ـ أظهر ذلك مدى عنف الوسائل ومدى نوايا العدو في السيطرة والقهر . فلم يجد في أغلب الأحيان ما كان يتوقعه من أصحاب البرانيس الحمراء والنياشين البراقة والسروج الفاخرة (نعني بهم صنائعه من الموظفين الأرستقراطيين) ، ذلك أن بعضهم كان « متواطئاً » مع الثوار كما حـدث في جرجـرة (قضية سي الجـودي) والصحراء (قضية حمزة، خليفة أولاد سيدي الشيخ) ، أو كان محباً للرخاوة والرفاهة والأبهة ، كما كان حال أولاد ابن قانة وأولاد مقران الخ[99] . فلم يمض وقت طويل حتى أخذت تلك الثروة في التبخر وتلك السلطة في الزوال.

وقد كان وراء ذلك عدة عوامل ، منها النزاع الحاد بين المدنيين والعسكريين الذي أشرنا إليه . لقد كان العسكريون يعملون على إضعاف الأرستقراطيـة الأهلية وذلك بأخذ سلطاتها والتدخل في شؤونها وتقسيم مناطقها بين عدة متنافسين . ولكنهم لا يرغبون في القضاء عليها نهائياً . لأنها الظل الذي يبتردون فيه من غضب الشعب ،

---

(99) زار بربروجر سنة 1856 عدة مناطق بالشرق الجزائري (الحضنة ، الزيبان ، ومجانة) ورجع يقص قصته فقال انه وجد عند أجواد هذه المناطق (أولاد مقران ، شيخ العرب ابن قانة الخ) الرفاهية والثروة والعادات الأرستقراطية ، وأخبر انهم في نظره كانوا يمثلون الإقطاعية التي كانت سائدة في أوروبا خلال العصور الوسطى .

أنظر مقالته في (المجلة الإفريقية) ، 1858 ، ص 189 .

بل هي الناب الذي ينهشون به لحم السكان عند الحاجة . ثم إن إزالتها قد يعري كل النظام الاستعماري للخطر . هكذا كانت حجة العسكريين . أمّا المدنيون (الكولون) فيرون ان تلك الأرستقراطية عقبة نحو التقدم والحضارة وعرقلة في دمج الجزائر (الفرنسية) في الوطن الأم (فرنسا) فالجزائر في نظرهم جزء لا يتجزأ من فرنسا ، كما نص على ذلك دستور 1848 ، ومن ثمة فإن كل ما يجري في فرنسا من نظم وقوانين يجب أن يسري على الجزائر ، ولا يمكن أن يتم ذلك ما دامت تلك الأرستقراطية الأهلية قائمة وما دام حماتها (المكاتب العربية) يحولون دون ذلك . فالمدنيون كانوا يطالبون بإطلاق أيديهم وأرجلهم وأموالهم في الجزائر لكي يتسلطوا عليها ، أرضاً وشعباً ، ويستغلونها لحماً وعظماً ، ولو أدّى الأمر إلى إخراج أهلها من أملاكهم وأراضيهم وإبعادهم نحو الصحراء القاحلة أو تهجيرهم ، قياساً على ما فعل الأوروبيون مع الهنود الحمر بأمريكا.

وهناك قصص كثيرة تعكس ذلك النزاع في الخمسينات نكتفي منها هنا بفضيحة (دوانو) ، وفضيحة اللقيط يوسف وفورشو . أما الأولى فخلاصتها أن ضابط المكتب العربي بتلمسان قد ثبت عنه قضائياً أنه اغتال الآغا ابن عبد الله ، وأثبت التحقيق أنه قتل أكثر من اثني عشر شخصاً من بينهم امرأة عجوز وطفل عن عشر سنوات ، وانه كان « سلطاناً » يحكم بأمره ، فإذا عارضه أحد في سلطنته فإنه لا يرى نور الصباح . بالإضافة إلى ذلك وجد المحقق عند دوانو أموالاً (قدرت بـ 38,300 فرنك) لم يبح بأصلها . وقد جرت محاكمته في وهران سنة 1856 . وحكم عليه بالموت ثم خفف الحكم إلى المؤبد ، ولكن بعد حوالي سنتين فقط أطلق سراحه. أثناء المحاكمة وقف العسكريون (المكاتب العربية) مع زميلهم « ظالماً أو مظلوماً » ونددوا بمن خالفهم أو وقف ضدهم . أما الكولون (المدنيون) فقد وجدوا في ذلك فرصة لإظهار نقمتهم على نظام المكاتب العربية كله واعتبروه المسؤول عن عدم توفير الأمن لهم في المناطق الأهلية وحملوه مسؤولية فشلهم . وتعتبر قصة دوانو فضيحة للنظام الاستعماري كله إذ طالما تسترت المكاتب العربية على جرائمها ضد الجزائريين . وهي أيضاً فضيحة للكولون المتكالبين على استغلال الإنسان الجزائري إلى أقصى حد ولو بسحقه وتجريده من أرضه . فهي في الواقع قصة كلبين يتقاتلان على عظم واحد ، رغم أن المحامي (فافر Favre) جعل المحاكمة تنصبّ لا على (دوانو)

ولكن على نظام المكاتب العربية كله[100].

أمّا الفضيحة الأخرى فقد وقعت سنة 1858 بعد صدور جريدة (الجزائر الجديدة) التي ذكرناها سابقاً والتي أخذت تتهجم على الجزائريين (الأهالي) وعلى العسكريين (المكاتب العربية) . ومما يذكر ان هجومها المكشوف على هذه المؤسسة الاستعمارية جعل (الجنرال) اللقيط يوسف الشهير بمذابحه ضد المواطنين الجزائريين يتقدم من صاحب الجريدة (وهو فونفيل) ويشبعه ضرباً إلى أن جرحه ، دفاعاً ، في نظره ، على شرف المكاتب العربية التي كان هو أحد زبانيتها . وقد بلغت الفضيحة من الرواج و « الشعبية » أن اضطر البرلمان الفرنسي إلى إدخالها في جدول أعماله ومناقشتها . وعندما كتب أحدهم (هو دو فيرنوا الذي أصبح وزيراً) مقالة يهاجم فيها الماريشال بوجو لدعمه النظام العسكري في الجزائر وتوسيع صلاحيات المكاتب العربية ، كما عرفنا ، طلبه الضابط (فورشو) للمبارزة على طريقة صعاليك العصور الوسطى ، وقد أصابه أثناءها بجروح خطيرة[101] . وهكذا كان النزاع قد أصبح دموياً بين الطرفين خلال الخمسينات ، وسيحتدُ أكثر خلال الستينات ، كما سنرى ، إلى أن تسقط الامبراطورية الثانية فيسقط معها النظام العسكري (ومعه المكاتب العربية) ، على الأقل في الجزائر الشمالية .

12 . المرابطون في الثورة :

إلى 1860 كانت معظم الطرق الصوفية ما تزال في عنفوانها ، قادرة على تجنيد الإخوان (الأتباع) باسم كلمة الجهاد ، وجمع الأموال بإسم الدين ، وحمل السلاح دفاعاً عن الأرض والشرف والإسلام . ونكاد لا نجد حركة مقاومة خلال هذا العهد دون أن يكون وراءها مرابط أو شريف أو مولى الساعة يملأ قلوب الناس بالأمل ، ويبث فيهم روح التضحية والفداء ، ويقودهم إلى النصر أو الاستشهاد . انه عهد كثرت فيه الثورات والانتفاضات على اتساع رقعة الوطن ، ومع ذلك تجد المرابطين

---

(100) بشأن هذه الواقعة أنظر بيرنار (الجزائر) مرجع سابق ، 256 . وكذلك جوليان (تاريخ) مرجع سابق ، 338 .

(101) مذكرات ماكماهون ، مرجع سابق ، 284 .

يتحركون كالضوء وينطلقون كالبرق ليزرعوا الرعب في قلوب الأعداء وليحرموهم من التمتع بالغنيمة التي اعتقدوا أنهم حصلوا عليها ، وليفتحوا للناس أبواب الجنة إذا ما خسروا الحياة الدنيا.

وكان التقسيم التقليدي للطرق الصوفية لا يخرج عن اثنين : عدوة وصديقة ، وليس هناك طريقة محايدة . فهي اما « لنا » أو « علينا » ، كما يقولون . ولا شك أن دراستها أثبتت أن الطرق الصوفية في الجزائر تضعف عندما تقوى السلطة الدنيوية (الزمنية) وتقوى عندما تضعف هذه أو يتعرض الدين للخطر . وكثيراً ما عرف تاريخنا ان المرابطين أصبحوا « أمراء » يقودون الجيوش ويحاربون الأعداء ، ولكنهم في زمن القوة الإسلامية والأمن على الدين تجدهم يعودون إلى معابدهم وزواياهم ينشرون التعليم ويرددون الأذكار والأوراد ، ويتوسعون في إنشاء الفروع وتكثير الأتباع ، وقد يجاملون السلطة « القوية » التي تخطب ودهم للتحالف معهم لدفع ضيم أو فقط اتقاء لشرهم.

هذه الصورة التاريخية لاشك أنها كانت أمام خبراء الفرنسيين في الجزائر . وقد لاحظوا أن معظم الطرق الصوفية قد تعاونت بين 1830 ـ 1848 على صد العدو المشترك : قادرية وطيبية ورحمانية ودرقاوية ، ولم يشذ عندئذ الا التجانية التي أعلنت الحياد ، أو بعض الطرق ذات الطابع المدني كالحنصالية التي كانت زعامتها في قسنطينة وما حولها . وقد ظل الوضع على ذلك النحو تقريباً خلال عقد الخمسينات أيضاً . غير أننا نلاحظ في هذا العقد بروز الرحمانية بشكل أكثر كثافة وظهور السنوسية لأول مرة في الميدان . ونحن لا نود أن ندرس الطرق الصوفية هنا من حيث عقائدها ومذاهبها الصوفية وحياتها الدينية والثقافية[102] ، ولكننا نريد فقط أن ندرس دور هذه الطرق في علاقتها بحركة المقاومة ضد العدو ، خصوصاً وقد بقيت هي النظام الوحيد القائم في المجتمع الجزائري بعد سقوط النظام العسكري والاداري.

إذا رجعنا الى الأحداث العسكرية التي ذكرناها وجدنا الطرق الصوفية حاضرة فيها كلها تقريباً . ففي الزعاطشة تذكر معظم المصادر[103] أن الشيخ بوزيان كان من

(102) سنتناول هذا الجانب من الموضوع في كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الثالث ، ان شاء الله .
(103) يذكر بعضهم انه كان من أهل المخزن .

المرابطين . والغريب أن المصادر الفرنسية لا تتحدث عن زاوية بوزيان في الزعاطشة ولكن عن داره التي نسفت بالألغام نسفاً . ويبدو لنا أن بوزيان كان رحمانياً من أتباع الشيخ محمد بن عزوز البرجي . والمعروف أن هذا كان من مقدمي الشيخ محمد بن عبد الرحمن باش تارزي شيخ الرحمانية في قسنطينة . وكانت الرحمانية قوية في منطقة الزيبان حيث انتشرت بالخصوص في طولقة والخنقة وأولاد جلال . بالاضافة الى ذلك فإن الأحداث تكشف عن مساندة فروع الطريقة الرحمانية عندئذ للمقاتلين : فهذا الشيخ المختار بن خليفة (أولاد جلال) ، وهذا الشيخ الصادق بن الحاج (الأوراس) ، وهذا الشيخ عبد الحفيظ (الخنقة) كلهم تجندوا على رأس المجاهدين والأخوان في معركة الزعاطشة ، رغم أن المعركة ، كما عرفنا ، لم تكن معركة طريقة صوفية متعصبة ضد مغيرين أجانب ، ولكنها كانت معركة دينية ـ وطنية . والدليل على ذلك وجود الشيخ الحاج موسى الدرقاوي (الطريقة الدرقاوية) الذي جاهد حتى قتل الى جانب بوزيان وعلقت رأسه الى جانب رأسه على معسكر الجنرال هيربيون . أما الزاوية التجانية (فرع تماسين) فلا ندري موقفها بهذه المناسبة ، ولعلها لم تقف الموقف الذي وقفته سنة 1844 على كل حال[104] .

ولكن التجانية كانت محايدة بالنسبة لثورة الجنوب خلال الخمسينات . وقد ظهر ذلك في حصار الأغواط وحوادث ورقلة وتقرت وسوف . فلا نكاد نجد للطريقة التجانية أي دور ايجابي يذكر نحو الثورة التي قادها هناك شريف ورقلة (محمد بن عبد الله) وناصر بن شهرة . وتدعى المصادر الفرنسية أن فروع الطريقة التجانية (عين ماضي وتماسين وفاس) كانت تتنافس فيما بينها تنافساً شديداً مما جعل زعامة الطريقة تقوي أو تضعف هنا أو هناك حسب مقتضيات الضغوط السياسية والقدرة الشخصية للشيخ . وهم يذكرون أن سنة 1853 كانت بداية مرحلة جديدة من هذا التنافس بين زعيمي عين ماضي وتماسين، مما أدى، في نظرهم، إلى إضعافهما معاً لصالح الفرنسيين طبعاً. كان ذلك حين توفي الشيخ محمد الصغير (تولى سنة 1815)

---

(104) يدعى رين (مرابطون . . .) مرجع سابق ، ص 427 ان الحاج علي شيخ التجانية بتماسين أعلن سنة 1844 عند احتلال بسكرة بقيادة الدوق دومال ، أعلن أن ذلك من قضاء الله ونصح بعدم التعرض للفرنسيين ، كما سبق .

وترك ادارة الطريقة إلى الشيخ محمد العيد (من الفرع التماسيني) فحول بذلك الأنظار الى فرع تماسين بدل عين ماضي . أما بالنسبة للخط السياسي فتقول نفس المصادر ، بأنه لم يتغير منذ 1839 وهو تاريخ الارتباط بفرنسا وخدمتها باخلاص[105] . وقد مر بنا أن شيخ زاوية تماسين قد منع شريف ورقلة من دخول المدينة كما عارض التجانيون ثورة الشريف المذكور في سوف وعين ماضي ، ولكنه مع ذلك لم يهاجم مراكزهم حفاظاً على وحدة الصف ، كما قال أحد الكتاب[106] .

ولكن هناك ثلاث طرق صوفية على الأقل أيدت ثورة الجنوب خلال الخمسينات . الأولى هي السنوسية التي عرفنا أن مؤسسها محمد بن علي السنوسي كان له الدور الأكبر في توجيه محمد بن عبد اللّه ـ شريف ورقلة ـ نحو الثورة . ولعل السنوسي هو الذي كان الواسطة أيضاً بين الشريف والعثمانيين . وقد يكون جند له الاتباع وعاونه بالسلاح وبالرسائل ونحوها . فدور السنوسية اذن واضح في ثورة الجنوب . وقد علمنا أن الشيخ السنوسي قد أوصى الشريف خيراً بالسيدة (لاله) زهرة التي يبدو أنها كانت ذات حرمة دينية في تلك النواحي وأنها كانت مرابطة تتبع الطريقة الشيخية ـ طريقة أولاد سيدي الشيخ ، وهي طريقة شاذلية .

وبالاضافة الى ذلك نعلم أن الخليفة حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ ، قد أيد شريف ورقلة في سره وبعض علنه ، حتى لقد اجتمع به في الغسول وفهم أهدافه ولعله أكد له أنه منهم (تذهب بعض الروايات الى أن الشريف نفسه من أولاد سيدي الشيخ أو أنه درس عندهم) ، كما بعث معه الخليفة حمزة أخاه الزبير لكي يكون للشريف عوناً ونصيحاً في المناطق الصحراوية التي لاشك أن الشريف محمد بن عبد اللّه يجهلها . فتعاون الطريقة الشيخية اذن مع الشريف أمر مؤكد ، رغم أن التدخل الفرنسي جعل ذلك التعاون يصبح سرياً أكثر منه علنياً ، اذ انتهى الأمر بتوجيه الاتهام الى الخليفة حمزة نفسه والى استدعائه الى كل من وهران والجزائر حيث بقي تحت الاقامة الجبرية .

وكذلك تعاونت الطريقة الرحمانية مع الشريف المذكور . ففي سوف والزيبان

---

(105) ديبون وكوبلاني (الطرق الصوفية . . .) مرجع سابق ، ص 426 ـ 430 .

(106) آني ري في (الأفارقة) ، م 12 ، مرجع سابق ، ص 199 ـ 221 .

ونفطة (حيث فروع الرحمانية) وجد الشريف مختلف أنواع المساعدة والتأييد. وقد وصل الشريف بحروبه الى مليلي بالزاب . وكان قد لجأ الى زاوية نفطة أكثر من مرة واجتمع بشيخها مصطفى بن عزوز الذي هو أصلاً من برج طولقة والذي كان قد هاجر من الزيبان سنة 1834 أثناء استيلاء الفرنسيين على بسكرة. ولا يهمنا الآن انتشار سمعة العزوزية (الرحمانية) بنفطة ، ولكن يهمنا منها موقفها السياسي(107) ، الذي عبرت عنه في عدة مناسبات أخرى ، كما سنرى . ولا ندري الآن موقف الطريقة الدرقاوية المتمركزة على الخصوص في نواحي الونشريس ، من ثورة الشريف محمد بن عبد اللّه ، والغالب أنها كانت مؤيدة لها أو متعاطفة معها(108) .

أما في جرجرة فالطريقة الرحمانية تكاد تقف وحدها هناك . وإذا حكمنا من سيرة الزعماء الدينيين الذين ظهروا على المسرح عندئذ فإن معظمهم كانوا ينتمون الى هذه الطريقة : الحاج عمر ، للافاطمة الخ . ولا ندري الطريقة الصوفية التي كان ينتمي اليها الشريف محمد الأمجد (بوبغلة) ، ولعله كان ، كالأمير عبد القادر ، فوق الطرق الصوفية كلها ، أي أنه كان يعمل من أجل فكرة أشمل وهي الدين والوطنية . ومع ذلك فقد عرفنا أنه كان يتردد على زاوية ورجة الرحمانية ، وكذلك الزاوية الرحمانية الأم (آيت اسماعيل) ، ومن الأكيد أن تردده هناك لم يكن الا من أجل اكتساب حليف وتنسيق خطة وليس حضوراً في حلقة ذكر أو أخذاً للعهد الصوفي . وها هو الشريف محمد الهاشمي يقدم لنا نموذجاً آخر لتعاون الطرق الصوفية ، اذ تذهب الروايات الفرنسية الى أنه جاء من تافيلالت (المغرب) وأنه كان ينتمي الى الطريقة الطيبية ، طريقة الشيخ الطيب الوزاني ، التي كان ينتمي اليها أيضاً المجاهد بومعزة من قبل . أما الطريقة القادرية فلا نجد لها زعامة في هذه الأثناء إلاّ في

---

(107) نفس المصدر .

(108) يذهب رين (مرابطون . .) مرجع سابق ، ص 241 ، إلى أن الشيخ العربي بن عطية زعيم الدرقاوة في الونشريس كان يعتقد في كلمات شيخه (محمد العربي الدرقاوي) المنادية بعدم طلب الدنيا . والثورة والسياسة ، في نظر رين ، طلب للدنيا وليس ذلك صحيحاً إذا حكمنا من وقائع ثورات الطريقة الدرقاوية في آخر العهد العثماني ، ونضال الحاج موسى الدرقاوي في العهد الفرنسي . وإنما كان رين يريد تخدير الناس فقط . وقد كانت بين الأمير عبد القادر والشيخ العربي بن عطية مراسلات عديدة قد نعرض إليها في كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي ، إن شاء اللّه .

شلاَّطَة . ومن يدري فقد يكون بوبغلة نفسه قادرياً في الأصل . خصوصاً وقد قيل انه أصلاً من الجهة الغربية (العطاف أو غليزان ، حيث القادرية منتشرة) . وهناك بعض الأشراف الآخرين لم نستطع تحديد رأيهم الصوفي مثل شريف تبسة وشريف بني سناسن . ولعل الأول (ابن قديدة) كان من الشابية ، وأما الثاني فقد يكون من أتباع الطريقة الكرزازية التي هي شاذلية أيضاً .

وإذا كنا قد علمنا بمصير للافاطمة ومصير زاويتها الرحمانية فإننا نذكر هنا مصير الحاج عمر وزاويته . بعد أن ظل الحاج عمر شيخ الزاوية الأم يديرها ويجمع أموالها ويستقبل زوارها وينشر فيها التعليم ، حدثت ثورة جرجرة فأثرت على مسيرة الزاوية ، إذ شارك الحاج عمر في الثورة وبالطبع اشترك معه فيها (طلبة) الزاوية . وكان الحاج عمر حاضراً لأحداث الثورة سواء في عهد بوبغلة أو في عهد فاطمة نسومر . وقد طلب الحاج عمر الرخصة من المسؤولين الفرنسيين في الناحية (بوبريطر ، وبيليسييه ، ودوري) للحج والهجرة تاركاً الزاوية كما قال عامرة غنية . وطلب منهم عهد الأمان وحمله إلى الشرق ، كما فعلوا مع من سبقه (لا شك انه كان يشير بذلك إلى أحمد الطيب بن سالم 1847) عن طريق بني غازي ، كما طلب السماح لمن رغب من الاخوان الرحمانيين بالهجرة معه ، ومن هؤلاء زوجته . وقد وجد الحاج عمر معاناة شديدة في الحصول على رخصة الخروج له ولبعض أتباعه . والمهم أن هجرته كانت من نتائج تدخله في الثورة(109) .

وقد وقفت زاوية ابن علي الشريف القادرية (شلاَّطة) موقفاً مختلفاً من ثورة جرجرة . فقد علمنا أن الشيخ محمد السعيد ترك الزاوية وذهب إلى الجزائر أثناء الثورة ، ومنها اتجه إلى فرنسا حيث حصل على نيشان . وتذكر المصادر الفرنسية أن أنصار ابن علي الشريف رفضوا التعاون مع الشريف بوبغلة وانهم في النهاية أطلقوا عليه النار عندما أراد أن يأخذ رهينة من عائلة شيخهم . ويبدو أن موقف هذه الزاوية من ثورة جرجرة كان يشبه موقف التجانية من ثورة الجنوب خلال نفس العهد .

---

(109) أرشيف ايكس ، 11 1H في هذا المصدر رسالتان منه الى المسؤولين الفرنسيين ، تعود احداهما الى سنة 1853 ، أي أثناء ثورة الشريف بوبغلة . والأخرى بدون تاريخ . عن دور الزاوية الرحمانية أثناء ثورة الشريف بوبغلة وأحداث سنة 1857 انظر روبان (تاريخ الشريف بوبغلة) . وكذلك يحيى بوعزيز (ثورات الجزائر) ، 1980 ، ص 99 .

رأينا اذن كيف أن الطرق الصوفية ، على العموم ، كانت ما تزال في عنفوانها ، وكانت في أغلبها تقود حركة الجهاد ضد الفرنسيين كما كانت تقودها ضد القرصنة الأوروبية والتهجمات الاسبانية خلال العهد العثماني . ولكن الطرق الصوفية لم تكن هي كل شيء ، فالشعب بأكمله كان مستعداً للتضحية والفداء ، وقد دلت الأحداث على انه تحمل في سبيل ذلك ما تأبى الجبال تحمله وانما كان دور الطرق الصوفية إعطاء القيادة وترويج الفكرة وتوحيد الكلمة . اما الحماس الديني والوطني فقد كان قدراً مشتركاً بين الجميع . ولعل اغفال أسماء القادة الأشراف الذين ظهروا في عقد الخمسينات يعتبر أسلوباً جديداً (وان كان المهدي بن تومرت والفاطميون قبله قد استعملوه ولكن بشكل يختلف طبعاً) في كسب ثقة الناس والسيطرة على عقولهم ، إذ لو عرف أصل الزعيم لزالت عنه تلك الهالة التي حظي بها . ولعل هذه السرية في الحرب والإنتشار بين الجماهير قد انتقلت أيضاً إلى العصر الحديث حيث وجدناها واضحة في حرب التحرير 1954 ـ 1962 .

ويبدو أن (رين) كان صادقاً عندما قال ان الحماس الديني (يسميه هو التعصب) لم يكن عند الطرق الصوفية أكثر منه عند بقية المسلمين . ولكنه لم يكن صادقاً ، في نظرنا ، عندما زعم إن الثورات لم تكن بدافع الدين (والوطنية) بل بدوافع سياسية مثل المصلحة الذاتية ، والتنافس ، والتأثر ، والغضب الفردي[110] . والغريب ان (رين) يسمي كل ذلك « غرائز إنسانية » ، ولكنه ينسى تطبيقها على قومه هو . فهل يرضى أن نرد عليه الكرة ونقول له ان ما كان يحرك الفرنسيين في الجزائر حقاً هو تلك « الغرائز » التي ذكرها ، ولم يكن لهم من دوافع أخرى حضارية ونحوها . ومن الجدير بالذكر انه لا يتفق مع زميله (ارنست ميرسييه) على خطورة الطرق الصوفية على النظام الإستعماري . ذلك أن (ميرسييه) يرى (وكان يكتب سنة 1869) ان الطرق الصوفية عدوة لفرنسا بالميلاد ، وأنهم أكثر تعصباً ، وأنهم يشكلون أكبر عقبة في طريق التسلط الفرنسي على البلاد (الجزائر)[111] .

---

(110) رين (مرابطون) مرجع سابق ، ص 113 .

(111) ارنست ميرسييه (روكاي) ، 1869 ، ص 411 ـ 412 . وقد كان (ميرسييه) مترجماً قضائياً ، كما كان (رين) من أبرز المختصين في الشؤون الجزائرية .

إن عهد الخمسينات كان مرحلة مشعة في تاريخ معظم الطرق الصوفية . ولم تنسحب من الميدان أووقفت على الحياد إلا كمشة من هذه الطرق التي فضلت السكون على الحركة وانتظار الخلاص بدل السعي من أجله .

***

13. البعد العربي ـ الإسلامي :

بالإضافة إلى تواصل الطرق الصوفية الذي لاحظناه أثناء الصراع مع العدو ، هناك التواصل الحضاري العربي الإسلامي بين الجزائر والمشرق (وكذلك المغرب وتونس) خلال الخمسينات . ولنحاول فيما يلي تتبع الخطوط العريضة لهذا التواصل . وقد لاحظنا أن فكرة الجهاد كانت لا تعرف الحدود التي كان العدو قد فرضها على الجزائر ، ومن ثمة وجدنا محمد الهاشمي (المغربي) والحاج موسى الدرقاوي (المصري ـ الليبي) . ووجدنا ثواراً من جريد تونس أثناء أحداث تبسة وثواراً من ناحية وجدة المغربية أثناء معارك بني سناسن . ودع عنك هنا ما تردده المصادر الفرنسية من أن ذلك يعد تدخلاً من حكومة هذا البلد أو ذاك ، إذ الغالب أن تلك الحكومة لا تقدر في كثير من الأحيان أن تمنع الناس ، ولا سيما في المناطق الحدودية ، من نجدة بعضهم البعض واللجوء إلى بعضهم البعض . وقد عرفنا أيضاً ما كتبه أحد الكتاب عن الزعاطشة من أن الفرنسيين وجدوا بين الموتى عناصر كثيرة جاءت من المغرب وتونس والمشرق . ورغم ما في ذلك من المبالغة الواضحة والتهويل فإن الفكرة قد تكون صحيحة ، لأننا بينا أن الجهاد لا يعرف الحدود . ومن المجاهدين من كان لا يريد أن يعرف الناس اسمه ولا أصله .

والكاتب الذي يشير إلى العناصر المشرقية في حوادث الزعاطشة يريد أن يؤكد صلة الطريقة السنوسية والحضور العثماني في الحوادث . والمصادر الفرنسية تذهب إلى أن (عزت باشا) والي طرابلس العثماني قد وصلها سنة 1849 ، سنة الثورة . وانه جاء بخطة مرسومة من حكومته وهي إثارة القلاقل لفرنسا في الجزائر ومساعدة الثائرين ضدها . وكانت القنصلية الفرنسية في طرابلس نشيطة في هذه الأثناء تتحسس الأخبار وتبعث بالتقارير ، ومما يذكر أن قنصل فرنسا هناك عندئذ هو بيليسييه دي رينو الذي كان المسؤول على المكتب العربي المركزي في الجزائر (1837 ـ 1839) ،

أي المتخصص في الشؤون العربية ـ الإسلامية . وكان عزت باشا قد اصطحب معه شخصية جزائرية تكن كرهاً شديداً للفرنسيين ، وهو علي رضا أحد أبناء حمدان خوجة . وكانت خطط القنصلية الفرنسية هناك كثيراً ما تصطدم بعرقلات مقصودة من قبل علي رضا ابن حمدان خوجة الذي كانت له مسؤولية رئيسية في دار الوالي العثماني. ولا شك أن من الأمور التي كان عزت باشا مكلفاً بها هي التنسيق مع الشيخ السنوسي فيما يتعلق بالجزائر . وكان الشيخ السنوسي قد حل بالجبل الأخضر والتقى هناك من جديد بالشريف محمد بن عبد الله قبل إعلان الثورة في الجنوب الجزائري .

وهذه العناصر المتشابكة (السنوسية ـ الدولة العثمانية / شخصية علي رضا ـ الشريف) تكشف لنا عن حقيقة ، وهي حضور المشرق في القضية الجزائرية . فالدولة العثمانية ، رغم ضعفها خلال الخمسينات ، كانت ما تزال لها أطماعها في الجزائر التي كانت تشعر أنها فقدتها بالقوة وفي حين غفلة من الدبلوماسية والعسكرية . والسنوسية تشبعت بأفكار الشرق ، ولا سيما الفكر الوهابي وإصلاحات محمد علي والي مصر ، وإصلاحات سلاطين آل عثمان ، وتعقيدات المسألة الشرقية ، واستفادت من كل ذلك من أجل طرح بديل في التصوف الإسلامي عموماً ، واستعمال التصوف سلاحاً سياسياً وعسكرياً ضد خصوم الإسلام من الغربيين (الفرنسيين هنا) الذين تدخلوا بطريقة سافرة وهجومية في شؤون العالم الإسلامي . ولماذا لا يكون الشيخ السنوسي المفكر والشريف محمد بن عبد الله المنفذ لهذه الخطة التي تستهدف أقوى وأشرس تدخل إستعماري في العالم الإسلامي (كانت الجزائر من أوائل البلدان العربية ـ الإسلامية التي احتلت احتلالاً مباشراً ، كما هو معروف) . وكلا الرجلين من بلد واحد ، وهو الجزائر ، بل كلاهما من جهة واحدة ، وكلاهما حج وجاور وتعلم وقارن أحوال الجزائر في ظل الإستعمار الفرنسي بأحوال المسلمين في الدولة العثمانية (ومنها مصر والحجاز) وإيران وأفغانستان الخ .

هكذا إذن علينا أن ننظر إلى الثورة في الجنوب ، فلا نحرمها من البعد العربي ـ الإسلامي ، ولا حتى من البعد الافريقي ، ولا يليق بالباحثين الجزائريين أن ينظروا إلى تلك الثورة على أنها نقطة ماء ضائعة في أرض عطشى أو أنها صفحة ذات حجم صغير في كتاب المقاومة الجزائرية الضخم ، لأن ذنبها أن ميدانها كان « الصحراء » التي تكاد تخلو من السكان . ومهما كان الأمر فإن ليبيا ستستمر كنقطة ارتكاز في

التوجه العربي ـ الإسلامي للثورات والأحداث الجزائرية خلال العقود القادمة أيضاً ، لأن الطريقة السنوسية ستزداد قوة وانتشاراً ولأن ولاية طرابلس العثمانية سيتولاها بعض الوقت ، علي رضا باشا نجل حمدان خوجة ، وستكون لطرابلس عيون مفتوحة على الجزائر .

وقبل أن تنطلق حرب القرم في البحر الأسود بين الدولة العثمانية وروسيا وتدخل فرنسا كحليفة للسلطان ، كان بوبغلة في جرجرة يعد أتباعه بالنصر على يد سلطاني المغرب والدولة العثمانية . إن المغرب لم يتدخل فعلاً عندئذ ولكنه كان قادراً على أن يغض النظر على تسرب الطرق الصوفية « الرسمية » مثل الطيبية والدرقاوية وحتى التجانية لو أراد . ولكن ذلك لم يحدث ، كما نعرف . فقد كانت معاهدة للامغنية (1844) وغيرها من الإرتباطات تمنع المغرب الرسمي من النجدة أما السلطان العثماني فقد علمنا أن ثورة الشريف بوبغلة في جرجرة قد تزامنت تماماً مع ثورة الشريف محمد بن عبد اللّه في الجنوب ، وهي الثورة التي تذهب مختلف المصادر إلى أنها كانت بدعم من الدولة العثمانية . وقد يكون الشريف بوبغلة وصلته أخبار مبالغ فيها من أن الدعم العثماني سيصل إلى جرجرة عن طريق الجنوب فكان وعده لأنصاره صحيحاً في الأساس . ولكن سد أبواب الشمال في وجه الشريف ابن عبد اللّه من قبل السلطات الفرنسية جعلت ذلك الوعد يتبخر . ومهما كان الأمر فإننا لم نسمع ولم نقرأ أن هناك مراسلات بين الزعيمين (بوبغلة ومحمد بن عبد اللّه) ولا بين بوبغلة وأية جهة عثمانية . ولعل الأيام تثبت ذلك .

لا نريد أن نتوسع في الحديث عن حرب القرم إلا بالقدر الذي يجعلنا نفهم الموضوع الذي نحن بصدده وهو المقاومة الجزائرية خلال الخمسينات وعلاقتها بأحداث العالم الإسلامي ؛ والجوانب التي تهمنا من هذه الحرب هي : استغلال الفرنسيين لتقاربهم مع السلطان العثماني عندئذ في كسب ود الجزائريين وفهم بعض هؤلاء ، ولا سيما الشريف بوبغلة والشريف محمّد بن عبد اللّه أن فرنسا قد أخرجت بعض قواتها من الجزائر للمشاركة في تلك الحرب ، وربما ظهر لهم ذلك نوع من الجلاء عن الجزائر . أما الجانب الثالث فيبدو أن الدولة العثمانية نفسها قد خففت من عدائها للوجود الفرنسي في الجزائر ولعلها تراجعت عن تأييد الشريف محمد بن عبد اللّه في الجنوب بسبب ذلك .

ومهما كان الأمر فإن الفرنسيين قد استغلوا حرب القرم ، فدعوا الجزائريين إلى المشاركة فيها دفاعاً عن الإسلام وانتصاراً للخلافة . وكان الولاء للخلافة ما يزال قوياً في الجزائر يشهد على ذلك الأدب الشعبي والهجرة إلى اسطانبول ونحوهما . ولا شك أن الفرنسيين قد رخصوا للموظفين الدينيين في المساجد بالحديث عن السلطان والخلافة ، والإشادة بموقف فرنسا نحو الإسلام والدفاع عن السلطان في الشرق . أما من الناحية العسكرية فقد نادت على المتطوعين الجزائريين ، وكونت منهم ومن غيرهم جيشاً يسمى جيش الشرق l'Armée d'Orient ومن القواد الذين شاركوا في هذا الجيش الجنرال بيليسييه الذي أصبح بعد هذه المشاركة مارشالاً بلقب « الدوق دي مالكوف » . وقد قدر عدد المتطوعين الجزائريين بألفي جندي . أما قوة الجيش الفرنسي المشارك كله فهي كالتالي : 24,450 من الفنطازية ، و1,600 فارس ، بالإضافة إلى المشاة والعمال الخ . وقد حمل الجيش أيضاً عدته من المدافع ونحوها . ولكي يشعر نابليون الثالث الجزائريين بالمساواة مع الجيش الفرنسي أعطى الفرقة الجزائرية (الإسلامية) علماً خاصاً بها أيضاً .

وقد أوحت السلطات الفرنسية إلى أنصارها من أهل الحضر بأن يعبروا عن ولائهم لها ، وأن يعبروا عن ذلك الولاء في صورة تساعد الجيش على أداء مهمته وتساعد أيضاً على نشر الهدوء في الداخل . فتحرك أهل الحضر وصنعوا راية للفرقة الجزائرية كتبوا عليها بالعربية عبارات ورموزاً تدل على ولائهم وتمنياتهم وتأييدهم للحرب مع الدولة العثمانية . وهذا نص ما كتبوه على الراية : « إن هذه الراية ستلمع في ميدان النصر ، وستخفق بالنجاح بمعونة الله ، انها من صنع مسلمي الجزائر ، وهي مهداة إلى الجنود الأهالي المشاركين في الفرقة الفرنسية المتوجهة لنجدة الدولة العثمانية ، 1270/ 1854 » وعلى الوجه الآخر من الراية ـ الهدية كتب حضر مدينة الجزائر ما يلي : رسم رمز مدينة الجزائر والنسر الامبراطوري يحمل حرف (N) باللاتينية محاطاً بتاج من أغصان شجر البلوط والزيتون .

وحتى لا يفهم الناقمون الجزائريون على الإستعمار الفرنسي أن فرنسا ستغادر الجزائر أو أنها قد ضعفت أو نحو ذلك من التأويلات ، غمدت تلك السلطات إلى حملة مضادة لتطمين الرأي العام وتفنيد الإشاعات ، واتخذت بعض الإجراءات الهادفة إلى كسب ود الجزائريين . من ذلك أن راندون (الحاكم العام) أوقف

عمليات تجريد الجزائريين من أراضيهم ومنحها إلى الكولون ، وأنشأ لجنة للنظر في شكاوي الجزائريين ، وتحدثت عنه وسائل إعلامه انه أعطى عقود الملكية إلى بعض سكان متيجة . أما المكاتب العربية الساهرة على استتباب الأمن والنظام والتجسس على الجزائريين فقد استعملت جريدة (المبشر) لمحاربة الأفكار المضادة لفرنسا عندئذ ، كما أنها استعملت لهذا الغرض أيضاً كبار الموظفين الإداريين الجزائريين في الأرياف أمثال الخلفاء والباشاغاوات الخ[112] . ويذكر بعض الباحثين أن صدور مرسوم سنة 1854 بإنشاء المجلس الأعلى للقضاء الإسلامي كان يرجع إلى تأثير أحداث حرب القرم وإلى صدور الخط الهومايوني من السلطان عبد المجيد[113] .

إن مهمة الإعلام الفرنسي عندئذ هي خلق رأي عام جزائري يثق في فرنسا ويؤيدها ما دامت « صديقة » للدولة العثمانية . وكان من نتيجة ذلك أيضاً ظهور شعور معاد لروسيا في الجزائر ما دامت روسيا « عدوة » للدولة العثمانية ، ونحن نجد ذلك في بعض كتابات محمد الشاذلي القسنطيني[114] ، وفي الأدب الشعبي الذي ظهر عندئذ مثل قصيدة محمد بن اسماعيل[115] . فقد سجل هذا الشاعر في قصيدته الطويلة الاشادة بفرنسا لمعونتها الدولة العثمانية ، وأظهر الفكرة التي تقول إن قوة الدولة العثمانية هي التي جعلت حتى الكفار ينتصرون لها ويهرعون إليها ، وكذلك أشاد بالسلطان العثماني طبعاً . ولكن ابن إسماعيل لم يتعرض إلى مشاركة الفرقة الجزائرية ، ولا رجوعها ظافرة من الحرب .

ولم تحاول فرنسا الاستفادة من حرب القرم في الجزائر فحسب بل حتى في المشرق العربي والإسلامي بين الجالية الجزائرية أيضاً . فقد أخذت تلمع صورتها هناك وتظهر نفسها نصيرة للمسلمين ، وتحركت سفاراتها في اسطانبول وقنصلياتها في دمشق والقاهرة وجدة تزيد في تلميع الصورة وتتصل بالجزائريين الذين أخذوا يتكاثرون في المشرق بعد الحروب الطويلة ، كما عرفنا . ان قدماء المجاهدين من الجزائريين

---

(112) انظر أزان (الاحتلال والتهدئة) ، ص 447 .

(113) انظر كريستلو في (المجلة التاريخية المغربية) ، يوليو 1979 ، 35 ـ 39 .

(114) انظر كتابنا عنه (القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني) ، ط . 2 ، 1985 .

(115) نشرها ، مع ترجمة فرنسية ، محمد بن أبي شنب في (المجلة الأفريقية) ، 1906 . ومحمد ابن اسماعيل عاش 1820 ـ 1870 في الجزائر . وقد تجول في المنطقة الوسطى للجزائر .

الذين اختاروا الهجرة نحو المشرق ، والعائلات العلمية والتجارية والسياسية التي اختارت أيضاً الهجرة بين الثلاثينات والأربعينات قد أخذت تستقر وتجد لها في المشرق الإقامة الطيبة رغم بعد الدار . ومنذ أوائل الخمسينات أخذت الهجرة تتدفق نحو المشرق ، خصوصاً بعد رحيل الأمير ووفاة الحاج أحمد . وكان كل مهاجر تقريباً يحمل أضغاناً ضد فرنسا ويلعنها في السرّ والعلانية . فهي التي احتلت البلاد واضطهدت العباد وجنت على الدين الإسلامي وعرقلت تعليم العربية ، ومكنت الكولون من أرض الآباء والأجداد . وقد كان على قناصل فرنسا في المشرق وعملائها التخفيف من حدة هذه العواطف وتحويلها نحو اهتمام آخر مثل حرب القرم ، بل تحويلها إلى ولاء نحو فرنسا إذا أمكن .

ولذلك لا نستغرب أن نجد مجاهدي الجزائر بالأمس يسارعون إلى الدفاع عن الدولة العثمانية لا ولاء لفرنسا ولكن دفاعاً عن الخلافة والإسلام . وقد وجدنا مصادر تتحدث عن تكوين فرق من الجزائريين بالمشرق لتلك المهمة . ومن الشخصيات البارزة التي هبت للمشاركة في الحرب المذكورة ، أحمد الطيب بن سالم ، خليفة الأمير السابق على بلاد القبائل ، وكان الخليفة ابن سالم قد استقر في الحجاز منذ 1847 . فقد وجدنا له رسالة بعث بها من الشام إلى الحاكم العام الفرنسي (راندون) بالجزائر يخبره أنه سينضم إلى القوات العربية المتوجهة إلى القرم ، وان هناك فرقاً من المتطوعة قد سبقته . وهو في هذه الرسالة يشيد بموقف فرنسا من الدولة العثمانية[116] . ولعل من بين المشاركين أيضاً قدور بن رويلة ، كاتب الأمير السابق ، وآخرون من صناديد الأمس . وقد عرفنا أن بومعزة أحد أبطال حوادث الظهرة سنة 1845 والذي كان سجيناً بفرنسا منذ 1847 قد أطلق سراحه وحارب في القرم واستشهد هناك ، حسب بعض الروايات .

وما دمنا نتحدث عن دور الهجرة الجزائرية في أحداث المشرق ، فلنقل ان الجزائريين قد اشتركوا هناك أيضاً في الحياة العلمية والسياسية العامة . فقد كان ابن العنابي مفتياً بالإسكندرية وكان له شأن وتأثير في الحياة السياسية والدينية . وكان ابن الكبابطي في الإسكندرية أيضاً يقرىء الحديث ويفتي الناس . وكلاهما كان قد نفي

(116) حوالي 1854 ، ارشيف ايكس 1 H 11 . والرسالة موجودة بنصها العربي ومعه ترجمة فرنسية .

من الجزائر ، كما عرفنا ، الأول على يد كلوزيل والثاني على يد بوجو[117] . وقد أصبحت الشام تعج برفقاء الأمير عبد القادر الذين سبقوه إليها أو الذين مشوا معه إليها بعد تطوافه بأمبواز (فرنسا) وبروسة (الدولة العثمانية) . ومن أبرز الذين أصبحوا مدرسين، مصطفى بن التهامي (صهر الأمير) وصالح السمعوني (والد الشيخ طاهر الجزائري) . فكلاهما حل بدمشق خلال الخمسينات وكان من شيوخ الجامع الأموي . والمعروف ان نابليون الثالث قد أطلق سراح الأمير في شهر ديسمبر سنة 1852 ، وبعد إقامة دامت أكثر من سنتين بين اسطانبول وبروسة ، حل الأمير سنة 1855 بدمشق أيضاً واستقر بها ، وأخذ هو أيضاً يدرس ويؤلف ويؤثر في الحياة السياسية . ومما يذكر أن الأمير كان موجوداً أثناء عمليات تجنيد الجزائريين في المشرق لصالح حرب القرم ، كما أنه توجه بعد نهاية هذه الحرب إلى فرنسا لتهنئة نابليون الثالث ، كما سبق له تهنئة السلطان عبد المجيد على انتصار الخلافة.

وفي هذه الأثناء أيضاً قام الأمير بعملين بارزين مسجلاً اسمه في سجل الانسانيين والأبطال . الأول السعي لدى القيصر نقولا الأول ونابليون الثالث على تحرير الزعيم شمويل الداغساني من سجون روسيا حتى نجح في ذلك ، وقد جاء الشيخ شمويل إلى الحجاز حيث قضى حياته في العبادة . أما العمل الثاني الذي أخذ شهرة أوسع من الأول فهو وقوف الأمير سنة 1860 ضد فتنة أهلية كاد يذهب ضحيتها آلاف المسيحيين في بلاد الشام . والمعروف أن الأمير قد جنّد عندئذ جيشاً من المغاربة (الجزائريين) الذين هاجروا معه أو قبله إلى هناك ، ووقف بهم في وجه المهاجمين ، وحمى المهددين في داره وأملاكه بالسلاح . وقد استحق على ذلك شكر ملوك ورؤساء دول العالم (ومنهم السلطان عبد العزيز العثماني الذي خلف عبد المجيد) والإشادة به من قبل الجمعيات العلمية والمؤسسات الخيرية[118] .

---

(117) لا نعرف أن ابن الكبابطي قد قام بدور سياسي أثناء وجوده في المشرق . أما ابن العنابي فقد أثر بالكتاب الذي ألفه حول المذاهب الأربعة وسماه (صيانة الرياسة) وهو الكتاب الذي أثار ضده أصحاب المصالح من رجال الدين وسعوا بصاحبه عند الخديوي عباس فغضب عليه وأبطل العمل بكتاب ابن العنابي ، وذلك قبل وفاته سنة 1850 . انظر ط 2 من كتابنا (رائد التجديد الإسلامي) ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1990 . وهوعن ابن العنابي .

(118) انظر تفاصيل ذلك في كتاب شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر) ، ط. 2 ، الجزائر ، 1983 .

اننا لا نريد التوسع في هذا المجال . وحسبنا التذكير بأن عقد الخمسينات في الجزائر كان مرحلة هامة في تاريخها على المستوى المحلي والعربي - الإسلامي . فهي لم تلق السلاح في جرجرة والجنوب ، إذ ما يزال الجيل الذي تكون في مدرسة الأمير عبد القادر البطولية يخوض الثورة ضد الفرنسيين في كل القطر ، مع تفاوت طبعاً في الحدة والإنتشار . كما ان الطرق الصوفية كانت وراء معظم تلك الثورات . ومع ذلك فإن السلطة الفرنسية كانت تشدد قبضتها على البلاد مستعينة بجيش من المرتزقة ، ومن الكولون ، ومن رجال الكهنوت . ومن جهة أخرى كانت الجالية الجزائرية في المشرق تساهم في الحياة السياسية والعلمية والاقتصادية ، ولكنها لم تنس وطنها المغتصب ، فاستمرت تهفو إليه بالحنين ، وتعمل مع كل الحركات والافراد الذين يمكن أن يساعدوا على تحريره من قريب أو بعيد . مثل تأييدهم للدولة العثمانية ، ولثورة الشريف محمد بن عبد اللّه.

ومهما كان الأمر فإنه لم يحن عقد الستينات حتى شهدت الجزائر موجة جديدة من الثورات ، وممارسات جديدة من العنف والقهر ، يضاف إلى ذلك النكبات الطبيعية . وقد تميّز هذا العقد أيضاً بنوع غريب من السياسة الاستعمارية يعرف بسياسة المملكة العربية ، وبصراع جديد بين الكولون والعسكريين واستغلال رجال الكنيسة لكل ذلك من أجل دعم وجودهم . وقد اختتم عقد الستينات بسقوط الامبراطورية الثانية في فرنسا واندلاع ثورة عظيمة في الجزائر . وذلك كله هو موضوع الفصل التالي .

انتهيت منه يوم السبت الساعة الرابعة والنصف ،
يوم 25 يوليو ، 1987 .
- والحمد للّه رب العالمين -

مراجع الفصل الرابع

آني ، ري ـ موسوعة الأفارقة ، إشراف ش.أ. جوليان ، ج 12 عن حياة شريف ورقلة محمد بن عبد الله.

إبن أبي شنب ، محمد ـ شعر محمد بن اسماعيل في حرب القرم ، (م.إ.) عدد 51 ، 1906 .

إبن العنابي ، محمد ـ صيانة الرياسة ، (مخطوط) .

آذان ، بول ـ الاحتلال والتهدئة ، باريس ، 1931 .

انغلز ، فريدريك ـ عن واقع الجزائر بعد هزيمة الأمير في جريدة (نورثرن ستار) ، في كتابنا أبحاث وآراء ، جـ1 ، ط 3 . بيروت ، 1990 .

اوميرا ـ عن الأملاك الحضرية في الجزائر ، في (م.إ.) ، عدد 41 ، 1898 .

ايسكير ، غبريال ـ عن بداية الصحافة في الجزائر ، في (م.إ.) ، 1929 .

باربور ، نيفيل ـ مدخل إلى شمال غرب إفريقية ، ط 2 ، لندن ، 1962 .

باريزي (جورنال) . ارشيف ايكس 10 H 76 . وفيه أيضاً جورنال آخر كتبه بريتزال.

بلاكسلي ، جوزيف ـ أربعة أشهر في الجزائر ، لندن (؟) .

بوعزيز ، يحيى ـ ثورات الجزائر ، 1980 .

بربروجر ، ادريان ـ (م.إ.) 1858 . عن جولة له في الشرق الجزائري .

بيرك ، جاك ـ كتابات حول الجزائر ، باريس 1985 (مجموع لكتابات والده عن الجزائر) .

بيرم ، محمد الخامس ـ صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ط. القاهرة ، 1884 .

برينار ، اوغسطن ـ الجزائر ، باريس ، 1929 .

تشرشل ، شارل هنري ـ حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة سعد الله ، ط. 2 ، 1982 .

جوليان ، شارل اندري ـ تاريخ الجزائر المعاصر ، 1964 .

دوتيه ـ عن الصوامع والآذان في (م.إ.) ، عدد 43 ، 1899 .

دوماس ، يوجين ـ العادات والتقاليد الجزائرية . ط. 2 ، 1855 .

دوماس ، يوجين ـ المرأة العربية ، 1912 .

ديبون وكوبولاني ـ (الطرق الصوفية الإسلامية) ، 1897 .

روبان ـ تاريخ الشريف بوبغلة ، 1884 . (أيضاً مقالات في (م.إ.)) .

(روكاي) سنة 1930 ، من سجلات قائد البلاد بقسنطينة .

ريبو ، ف ـ عن رؤوس بعض زعماء الثورات وحملها إلى فرنسا ، في (م.إ.) ، عدد 30 1886 .

رين ، لويس ـ مرابطو واخوان ، الجزائر 1886 .

سعد الله ـ أبحاث وآراء ، جـ3 . ط . بيروت 1990 .

سعد الله ـ القاضي الأديب : الشاذلي القسنطيني ، ط. 2 ، 1985 .

سيروكا ـ الجنوب القسنطيني . . . في (م.إ.) ، عدد 56 ، 1912 .

سيفرز، بيترفان ـ عن الزعامات الأهلية في ظل الإدارة الاستعمارية ، (مجلة الشرق الأوسط الدولية) عدد يوليو ، 1975 ..

سي يوسف ، محمد ـ دبلوم عن حياة بوبغلة ونشاطه في بلاد القبائل ، جامعة الجزائر ، 1981 ، مخطوط .

سي يوسف ، محمد ـ مقالة نقدية لكتاب الطاهر أو صديق بعنوان بوبغلة ـ مرقون .

غفريل ، بول ـ الجزائر المحتلة ، باريس ، 1883 .

فرج ، محمد الصغير ـ عن حياة فاطمة نسومر (المجلة التاريخية المغربية) ، يوليو 1979 .

فيليب ، ف . ـ المراحل الصحراوية ، (؟) .

قيون (الدكتور) ـ رحلة من الجزائر إلى الزيبان ، الجزائر ، 1852 .

كور ، اوغست ـ ملاحظات عن مجموع الرسائل العربية لشارل فيرو ، في (م.إ.) ، عدد 58 ، 1914 .

كـريستلو ، الان ـ عن القضاء الإسـلامي في الجزائـر والإجراءات الاستعمـارية ، (المجلة التاريخية المغربية) ، يوليو ، 1979 .
مارسييه ـ مؤتمر علماء شمال افريقية ، 2 ، باريس ، 1908 .
ماكماهون (المارشال) ـ مذكرات ، باريس 1932 .
مانجان ، إ ـ تاريخ الأغواط ، مقالات في (م . إ .) ، عدد 37 وما بعده .
مذكرة الولاية العامة بالجزائر ، الجزائر 1885 .
موريل ، ج . ـ الجزائر ، لندن 1854 .
هيربيون (الجنرال) ـ قصة حصار الزعاطشة ، باريس 1863 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفهارس

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

فهرس الأسماء والأعلام

- أ -

آجرون ـ مؤرخ: 7 .
آزان (بول): 25، 31هـ ، 39، 47، 78، 79، 338، 350 .
آل عثمان: 268، 269، 270، 390 .
آيت اسماعيل: 386 .
ابراهيم آغا. انظر: دالي ابراهيم.
ابراهيم ـ شريف: 343، 346، 353 .
ابراهيم محمد علي: 139 .
ابراهيم بن مصطفى: 29، 48، 105، 110، 111+هـ، 113، 114 .
ابن ابراهيم (محمد): 278 .
ابن أبي فارس (ابراهيم ـ شريف): 355، 356، 357، 360، 361، 362+هـ، 363، 364، 365، 377، 386 .
ابن الأحرش: 358 .
ابن أحمد (محمد): 240 .
ابن ادريس (احمد): 345 .
ابن اسماعيل (مصطفى): 62، 63، 104، 171، 172، 175، 176+هـ، 177، 178، 180، 184، 212، 275، 296+هـ، 393 .
ابن اعراب (الصادق): 352 .
ابن بابية (احمد): 357 .
ابن باديس ـ عائلة: 247 .
ابن باديس (المكي): 376 .
ابن البجاوي (محمد): 162 .
ابن بريهمات (حسن): 123هـ .
ابن بغريش: 147، 148 .
ابن بلقاسم (احمد): 288، 295 .
ابن التهامي: 142، 197، 198، 265، 267، 301، 349هـ، 395 .
ابن تومرت (المهدي): 299، 388 .
ابن جعدون (أحمد): 82هـ .
ابن جلول (مصطفى): 376 .
ابن جلون: 204هـ ، 247 .
ابن الحاج (الصادق): 329، 331، 363، 364 .
ابن الحاج (محمد): 329، 333، 364، 365+هـ، 366 .
ابن الحفاف (علي): 115، 175، 206هـ ، 243، 300، 303 .
ابن حفيظ (يوسف): 239 .
ابن الحمري: 169 .
ابن الحملاوي: 142، 143، 144، 165، 208، 210+هـ، 225+هـ، 227 .
ابن خلدون (عبد الرحمن): 273 .
ابن خليفة (المختار): 384 .
ابن دحمان ـ خليفة: 224، 227

ابن دوران: 64، 207.
ابن راضية: 145.
ابن رويلة (احمد): 239+هـ،
ابن رويلة (قدور): 115، 175، 239، 300، 301، 302، 394.
ابن زعموم: 42+هـ، 46، 48، 54، 58، 116، 117، 119، 120، 121، 126هـ، 126، 127، 128، 129، 130، 149، 151هـ، 200، 201، 202، 225، 260.
ابن زقوطة (عمار): 145.
ابن زقوطة (المكي): 376.
ابن زكري: 144هـ، 327.
ابن سالم (أحمد): 198، 201، 202، 203، 204، 205، 214، 225، 226، 258هـ، 260، 265، 275، 279، 280، 281، 282، 289، 293، 299، 300، 301، 302، 342+هـ، 358، 387، 394.
ابن سالم (عمر): 342.
ابن سالم (ميلود): 237.
ابن سالم (يحيى): 225.
ابن سحنون (أحمد): 95، 176هـ.
ابن سعيد (فرحات): 50، 143، 144، 147+هـ، 155، 160هـ، 166، 175، 184، 199، 200، 205، 207، 212، 225، 227، 281، 282، 283+هـ، 328، 329، 361.
ابن سماية (علي): 247، 303.
ابن شاكر (حمود): 140.
ابن الشاهد (محمد): 88.
ابن شبيرة (محمد): 331، 332، 333، 338.
ابن شروان (محمد): 224.
ابن الشريف (أحمد): 160هـ.
ابن شريفة: 327.
ابن شلب (حامد): 19هـ.
ابن شنوف: 329، 338، 364+هـ، 365، 366.
ابن شهرة (الناصر): 354، 358، 359، 362، 363، 384.
ابن الشيخ (أحمد): 145.
ابن الشيخ (زروق): 145.
ابن الصادق: 261هـ.
ابن الطاهر (أحمد): 175، 300.
ابن طبعين (سعيد): 289.
ابن عبد اللّه ـ آغا: 381.
ابن عبد اللّه (عمر). انظر: روش (ليون).
ابن عبد الرحمن (محمد): 199، 212، 276، 283، 284، 285، 286، 287.
ابن عبد الرحمن (المختار): 288.
ابن عثمان (مصطفى): 171، 185.
ابن عدة (أحمد): 227.
ابن عراش (مولود): 366.
ابن عز الدين: 327.
ابن عزوز (حسين): 199، 212، 223، 225، 282، 283+هـ، 299، 300، 301، 329، 363، 384.
ابن عزوز (مصطفى): 386.
ابن العطار (حمدان): 206هـ، 295.
ابن العطار (محمد): 212.
ابن عطية (العربي): 135+هـ، 277، 278، 386هـ.
ابن علال (محمد): 131، 132، 142، 197، 198، 199، 218، 258، 261، 275، 280.

ابن علال (مولود): 129، 214.
ابن علي الشريف: 327، 348، 350، 387.
ابن عمر (أحمد): 284.
ابن العنابي: 37، 95، 108، 109+هـ، 110، 188، 270، 303، 394، 395هـ.
ابن عودة (السعيد): 130، 131+هـ، 132.
ابن عون (ابراهيم): 286.
ابن عيسى: 56، 65، 141، 142، 143+هـ 146، 150، 152، 158، 162، 165، 202+هـ، 207هـ، 208، 210+هـ، 212، 226+هـ، 243، 276، 279، 280، 343، 376.
ابن فرحات (باي علي): 364هـ.
ابن الفكون (محمد): 140، 163، 164.
ابن قانة: 139، 140، 141، 142، 148، 165، 166، 208، 210+هـ، 211+هـ، 212، 214، 226، 275، 281، 282، 283+هـ، 284، 285، 286، 327، 328، 329، 333، 338، 364، 380+هـ.
ابن قدور (عمر): 254هـ.
ابن قديدة (عمار): 366، 368، 387.
ابن قندوز (أحمد): 144هـ، 155.
ابن القنفذ (أحمد): 88.
ابن قويدر (محمد): 277.
ابن الكبابطي (مصطفى): 81، 82هـ، 220، 224، 249، 301، 302، 303، 395هـ.
ابن كريم (مصطفى): 152، 153+هـ، 154، 183.
ابن لمزي (عبد القادر): 132، 295.
ابن المبارك (محيي الدين): 47، 48، 60، 130، 131، 175، 185، 197هـ، 278، 291، 326هـ.
ابن محمد (اسماعيل): 213هـ.
ابن مخناش (الصادق): 224.
ابن مخناش (قويدر): 224.
ابن المكي (عمر): 303.
ابن ميلي (علي): 285.
ابن نعمون (الصغير): 144، 155.
ابن نونه (محمد): 169، 171، 180، 186، 296.
ابن هشام (عبد الرحمن): 187، 200، 271.
ابن هني: 144هـ، 224.
ابن واني (الأخضر): 240.
ابن يعقوب (بلقاسم): 147، 149، 150، 151+هـ، 155.
ابن يمينة: 340.
ابن يوسف الملياني (أحمد): 116، 124.
أبو راس الناصر: 85، 95.
أبو الضياف: 279.
أبو فارس (إبراهيم..): 297.
سيدي أبو مروان: 86.
أبو معيزة: 146، 147.
أحمد باي: 7، 27، 33، 38هـ، 41هـ، 45، 47، 48، 53، 54، 63، 65، 104، 109، 113+هـ، 115، 125هـ، 127، 130هـ، 133، 136، 138+هـ، 139، 140، 141+هـ، 142، 143، 144، 145، 146، 147+هـ، 148، 150، 152، 154، 155، 156، 157+هـ، 158، 159، 161، 162، 163، 165، 166، 167، 168،

171، 172، 181، 182، 185،
186، 187، 196، 197، 207هـ،
208، 210+هـ، 211، 212، 213+هـ،
214، 215، 224، 225+هـ، 244،
245، 281، 282، 285، 287،
318، 328، 332، 334، 376،
394 .
أحمد ـ مفتي دلس : 129 .
أحمد خوجة: 207هـ .
أحمد بن بلقاسم : 132 .
أحمد الشريف: 138، 139 .
أحمد الطيب: 119، 128 .
أحمد القلعي : 139 .
أحمد المشهد ـ الماني : 126 .
أحمد المملوك: 139 .
أرسلان ـ طبيب: 286 .
اسطانبولي (عبد الرحمن): 29هـ .
اشسموت: 94 .
سي الأعلى: 362 .
اغوسطين: 81، 233 .
افيزار: 61 .
أليكس: 232 .
الامجد (محمد). أنظر: بوبغلة .
الأمير عبد القادر: 7، 34، 41هـ، 55+هـ،
58، 60، 62، 65، 87، 88، 104،
105، 108، 111هـ، 115، 117،
119، 127، 132، 135، 136،
149، 155، 159، 162، 163،
166، 172، 178، 180، 185،
186، 196، 198، 209، 211،
212، 216، 218، 219، 222،
223، 225+هـ، 226، 228، 231،
236، 239، 242، 247، 255،
269، 271، 276، 278، 290،
292، 299، 301، 312، 316،
318، 325، 329، 331، 332،
341، 343، 345، 346، 349،
350، 355، 362، 363، 365،
379، 386، 394، 395.
أورابح : 350 .
أوربان (اسماعيل): 20، 207هـ ، 219 .
أورليـان ـ دوق: 65، 210هـ ، 213+هـ،
215، 234، 243، 244، 252،
324 .
أوقـاسي (بلقـاسم): 127، 128، 149،
201، 202، 342، 350 .
أولاد بومدين: 327 .
أولاد رياح: 227، 228 .
أولاد سيـدي الشيـخ: 239، 279، 281،
327، 354، 355، 358 .
أولاد سيدي العربي: 327 .
أولاد سيدي عيسى: 345 .
أولاد الصافي: 327 .
أولاد القاضي: 327 .
أولاد مقران: 346، 350، 380+هـ.
أولاد مرداس: 150 .
أومهنا (أحمد): 342 .
أوميرا: 83 .
ايزابيلا ـ ملكة: 266 .
ايستر ـ هازي (ويلسون): 20 .
ايفير (جورج): 7، 11، 50هـ .
ايمريت (مارسيل): 86 .

ـ ب ـ

باي احمد (علي): 376 .
بابا مرزوق ـ مدفع: 67، 68 .

بارال: 331.
باروكان (فيكتور): 254هـ .
باريزي: 336هـ .
باش تارزي (محمد): 384.
باشحانبه: 142.
بافيه: 372.
بان: 339، 359، 361 .
بتشنين (علي): 82.
سيدي بتقة: 251.
بحوش (سعيد): 224.
برال: 346.
البرسالي (محمد): 180، 226، 296+هـ.
البركاني (محمد): 130، 131هـ ، 135، 137، 142، 175، 185، 197، 199، 214، 218، 226، 258هـ ، 275، 280، 282، 283، 295، 299.
برليوز - موسيقي : 66.
برومو : 372.
البروني : 240.
بريسنييه: 90، 93، 252.
بريقو: 64، 66، 150.
الشيخ البشير - رئيس الرحمانية: 202، 276.
سيدي البصرومي: 87.
البصري (قدور): 205.
بعيد (أحمد): 224.
بكري - عائلة يهودية: 19هـ ، 28.
بلحاج (عبد القادر): 224.
بلعربي: 147، 149، 151.
بلقاسم - قايد: 293.
بوابيه - قائد: 39، 47، 49، 52، 54، 69، 86، 175هـ .
بوبريتر: 340، 344.
بوبغلة: 7، 290، 312، 341، 343، 345، 346، 350، 351+هـ، 352، 354، 357، 362، 377، 386، 387هـ ، 391.
بوبكر - باشاغا: 362.
بوتي - قان : 286.
بوجو - جنرال : 61، 64، 65، 90، 156، 180، 195، 196، 201، 202، 214، 215، 217، 219، 222+هـ، 224، 226، 230، 238، 240، 243، 244، 246، 249، 250، 252، 254، 256، 259، 262، 264، 265، 274، 277، 285، 286، 288، 291، 293، 294، 296، 300، 302، 304، 312، 313، 317، 325، 341، 351، 356، 373، 379، 382، 395.
بوجولا (جان): 80+هـ، 81هـ ، 93، 219+هـ، 233، 234، 243، 244، 277.
البوحميدي: 177+هـ ، 180، 197، 198، 265، 266، 296، 355.
بوديكور: 337.
بوراده (علي): 113هـ ، 114.
بورباكي : 331.
بوركايب (حمدان): 105، 113، 184، 185.
بوركايب (عبد الرحمن): 59+هـ ، 60هـ .
بورمون: 16، 18، 19هـ، 20+هـ، 23، 24+هـ، 26، 29، 31+هـ، 36+هـ، 38، 39، 59، 64، 68، 72، 74،

79، 89، 91، 103، 104، 106،
111، 113، 118، 120هـ، 125،
129، 146هـ، 155، 164، 165،
316.
بورمون (اميدي): 31، 33، 35، 120هـ،
167.
بوزيان: 186، 278، 302، 312، 330،
332+هـ، 333، 336، 338، 340،
343، 349هـ، 362، 364، 365،
376، 383، 384.
بوسته: 56.
بوسكارين: 359.
بوسكي: 349.
دي بوسي (جنتييه): 49.
بو سيف: 290، 343.
بوشناق ـ عائلة يهودية: 19هـ، 63، 65.
بوشناق (ابراهيم): 171، 172، 175،
177، 179هـ، 184، 185، 212،
226.
بوشوشة: 290.
البوصيري: 349.
بوضربة (اسماعيل): 105.
بوضربة (مصطفى): 104، 113هـ، 115،
184.
بوعكاز بن عاشور: 327، 329، 333،
361، 364+هـ.
بوعود (الشريف محمد): 276، 290.
بوقندورة: 213هـ.
بولخراص بن قانة: 240.
بولينياك: 91، 120هـ.
بومزراق (احمد): 41هـ، 45هـ، 46،
48، 54، 119هـ، 121، 133،
136، 175.
بومزراق (مصطفى): 27، 38+هـ، 40-
54، 108، 119+هـ، 132، 3
140، 168.
بومعزة: 263، 265، 289، 0
294+هـ، 296، 299، 300+هـ، 2
340، 343، 345هـ، 386، 394
سيدي بوناب: 88.
البونطيرو (عبد الرحمن): 239.
بوندوران ـ متصرف: 47.
سيدي البيازري: 88.
بيربروجر: 80هـ، 89، 90، 361
371.
بيرتزين: 41هـ، 46، 48، 54، 60-
105، 106، 113، 118، 1
122، 129، 133.
بيشو ـ بارون: 49، 51، 92هـ.
بيقو: 46، 64، 145، 153.
بيليس: 285هـ.
بيليسييه: 227، 229، 231، 317
325، 350، 359، 387، 392.
بيول ـ قنصل: 67.

ـ ت ـ

تامبل: 71.
تاتور: 94.
التجاني (محمد): 198، 202، 3
207، 214، 225، 226، 7
238، 270+هـ، 275، 279، 1
283، 284، 327، 359.
ترونسي ـ تاجر: 347.
تريزل: 56، 58، 127، 176.
التسولي (علي): 271.
سيدي التواتي: 87، 369.

- ث، ج -

الثعالبي (عبد الرحمن): 85، 116، 123، 125، 213هـ، 369.
جابي: 366.
الجلابي (سلمان): 358، 360هـ.
الجلالي (المختار): 331، 333.
سيدي الجودي: 85، 343، 344+هـ، 348، (351)، 353+هـ، 354، 380.
جوزيف ـ قديس: 82.
جوليان (ش.أ.): 7، 16، 337.
جيرمان (سان): 213+هـ، 288، 331، 334.
الجيلاني (عبد القادر): 171، 173.
جيلبير: 94.

- ح -

حسان ـ ابن الباي: 376.
حسن باشا ـ داي: 81، 83.
حسن ـ باي وهران: 167، 168+هـ، 169، 171، 185، 296هـ.
الحسن ـ مولاي: 266.
حسن (حمدان خوجة): 18، 113، 114.
حسن (علي): 133، 137+هـ.
حسن بن موسى: 34+هـ، 44، 45هـ، 140.
حسين باشا ـ داي: 5، 16، 18، 20+هـ، 23، 25، 27، 31، 34+هـ، 38هـ، 59هـ، 60هـ، 72، 74، 75، 94هـ، 102، 103، 106+هـ، 109، 110، 117هـ، 123، 124هـ، 138، 139، 143، 146، 147، 157، 163، 168هـ، 183، 253.
الحسين بن زعموم: 119، 125، 128+هـ، 145.
حمدان بن زعموم: 119، 127، 128، 201هـ.
حمدان خوجة: 18، 19هـ، 26هـ، 29، 37، 45هـ، 47، 48، 53، 56هـ، 57، 59هـ، 60هـ، 72، 86، 95، 106، 110، 111+هـ، 114، 115، 160، 176، 183، 185، 301، 302، 390.
حمزة ـ آغا: 358، 362هـ، 380، 385.
الحملاوي (احمد): 207+هـ.

- خ -

خاطري (احمد): 350.
خالد بن الوليد: 273.
خدوجة ـ اخت حمدان خوجة: 376.
للا خديجة ـ رئيسة الرحمانية: 202، 276، 343.
الخروبي (محمد): 200+هـ، 240، 283.
سيدي الخضر: 87.
الخنقي (عبد الحفيظ): 331، 334، 363، 384.
الخويدي (يوسف): 278ـ 279.
خيرة: 227.
خيرة ـ أم ابن هني: 227.
خيرة زوج ابن الحاج: 227.
خيرة ـ بنت خليفة: 227.
خيرة ـ بنت هني: 227.
خير الدين آغا: 45هـ، 85.

- د -

دابر ـ رحالة: 80هـ، 82.

دارفيو (شوفالييه): 17هـ .
دارلانج ـ حاكم: 59هـ .
دارمـانـدي: 52، 53هـ، 54، 143، 145+هـ، 146، 152، 153.
الداغستاني (شمويل): 237+هـ .
دالي ابراهيم ـ آغا: 109، 138، 253، 371.
دامـريمون: 11، 33، 45هـ، 61، 64، 66، 129، 130هـ، 143، 152، 153، 162، 181، 214هـ .
الدائخة ـ زوج أحمد باي: 376.
الدرقاوة: 34، 183، 299.
الدرقاوي (موسى): 131، 133، 136+هـ، 137، 147هـ، 176، 186، 203، 277، 279، 293، 299، 300+هـ، 302، 331، 332، 336، 337، 376، 384، 386هـ، 389.
دغيز (حسونة): 17.
دوانو: 381.
دوبوش ـ اسقف: 231، 234، 235.
دوبيري: 16.
دوبينوس: 28، 32، 44، 78.
دوري: 387.
دوريا: 70.
دوزير (مونك): 49، 53، 56، 69، 143، 146، 147، 149، 150، 152، 154، 159.
دوفال ـ قنصل: 43، 44، 78، 175.
دوفو (كادي): 43.
دوكيني: 30، 67، 70.
دومـاس (يـوجين): 61، 339، 375+هـ، 378هـ .
دومال ـ دوق: 218، 260، 279، 284، 285+هـ، 286، 291، 316، 317هـ .
ديبوش: 372.
ديـرلـون: 11، 57، 59، 61، 113، 131هـ، 136، 177.
ديستري (ستيفان): 19هـ .
ديسلان: 90.
ديغرانج (اليكس): 209هـ .
ديفو: 359، 361+هـ، 365، 366.
دينييه ـ متصرف: 25، 28، 29.

ـ ر ـ

راباتيل: 113.
سيدي راشد: 88.
رانـدون: 40، 311، 312، 317هـ، 351، 354، 359، 360، 371، 373، 374، 376، 379، 392، 394.
الشيخ الربيعة: 50.
الرحبي: 84، 251.
الرضوي (محمد صالح): 303+هـ.
الرعيني (محمد): 12.
سيدي رمضان: 82.
الرميلي (عمر): 239.
روبة ـ ام ابن دحمان: 227.
روبان: 344+هـ، 353.
روزفلت (ثيودور): 17+هـ، 19، 25.
دورروزيه: 213هـ .
روش (لـيـون): 236 ـ 238+هـ، 253، 270+هـ، 302، 304، 356.
دو روفيقـو: 11، 48، 55+هـ، 60+هـ، 69، 75، 80هـ، 105، 124هـ،

137، 145، 149، 153، 155،
175هـ، 213، 294.
روليير: 42.
الريغي (احمد): 144.
رين (لويس): 134، 203، 285هـ،
366، 386هـ، 388+هـ.
رينال (بول): 94، 95.
دي رينو (بيليسييه): 26هـ، 50هـ،
51هـ، 61، 81، 124هـ، 153هـ،
389.

- ز -

الزبير - اخ الخليفة حمزة: 385.
سي زغدود: 224.
للا زهرة: 357، 385.
الزواف - فرقة جيش: 37.

- س -

سالم التومي: 116.
السائجي (مصطفى): 29هـ.
سانطارنو: 280، 293، 311، 342،
350.
الحاج السعدي: 54، 58، 116، 117،
119، 120، 123+هـ، 124+هـ،
125، 127، 128+هـ، 129، 135،
142، 149، 185، 186، 197،
198هـ، 202، 299، 300، 369.
الحاج السعدي (علي): 123، 175،
251، 275، 280، 295.
السعيد (قدور): 226.
السعيد (محمد): 226، 287.
سلامون - قائد: 154.
السمعوني (صالح): 395.
السنوسي (محمد): 188، 238+هـ، 297،
302، 356، 357+هـ، 385، 390.
سوشي - راهب: 235.
سولت - وزير الحربية: 230، 274.
سيريان: 85، 233، 234.
سيروكا: 285هـ، 326.
سيفة - زوج ابن عدة: 227.
سيفو - دكتور: 86.

- ش -

شاتوبريان: 22.
الشاذلي القسنطيني (محمد): 176،
206هـ، 240، 393.
شاربانتييه: 301، 342.
شارل الخامس - شارلكان: 30، 70، 161.
شارل العاشر: 23، 30، 31، 120هـ،
167.
شارون: 317هـ، 318.
شاسلو - لوبا: 324.
شانقارنييه: 19هـ، 317هـ.
شريط (أحمد خوجة): 376.
الشريف (علي): 239.
الشقراني: 278.
شكال (علي): 261+هـ.
شكسبير: 216.
الشيخ شمويل: 395.
شيبيو الأفريقي: 40.
شيربونو: 369.
شيروكا: 141هـ.
شيطاب (أحمد): 29هـ.
دي شيفينييه: 209هـ.

- ص -

دي صاد: 57، 78.

دي صال: 342.
صالح باي ـ الابن: 244.
صفر ـ ريس: 82.
الصقال (حمادي): 108، 115، 171، 296.

- ط -

سي الطاهر ـ اخ نسومر: 352، 353.
الشيخ الطاهر الجزائري: 366، 395.
طوسون محمد علي: 139.
الطوطي (عبد الرحمن العامري): 278+هـ، 279، 296، 299.
دي طوكفيل (اليكسيس): 78، 249.
الشيخ الطيب ـ والد نسومر: 352 ،.

- ع -

عائشة بنت محمد: 81، 235.
الخديوي عباس: 395هـ.
عباس محمد علي: 139.
عبد الرحمن ـ سلطان المغرب: 266.
عبد الرحمن ـ سلطان تقرت: 144، 155، 166، 358.
عبد العزيز ـ قاض: 81، 301.
السلطان عبد العزيز العثماني: 395.
الحاج عبد القادر: 166، 169هـ، 171.
السلطان عبد المجيد: 393، 395.
سيدي عبد الهادي: 87.
عبد الوهاب (محمد..): 183.
عبدي باشا: 82، 84.
الحاج العربي: 203، 205.
عربية ـ زوج ابن دحمان: 227.
سيدي العريبي: 228، 229.
عقبة بن نافع: 273، 336.
الحاج علال: 128هـ.
العلوي: 88.
الحاج علي: 203.
الشيخ مولاي علي: 355.
علي بن أبي طالب: 273.
علي بن موسى: 123، 124.
علي خوجة ـ داي: 19هـ، 22، 251.
علي رضا: 390، 391.
سيدي عمار التنسي: 84.
الحاج عمر: 276، 352، 353، 363، 386، 387.
عون (الشريف): 238.
سيدي عيد: 126.
عيسى ـ عليه السلام: 79، 223.
الحاج عيسى (العريبي): 198، 359هـ.
عيسى باي (يوجين): 94.

- غ -

غافريل (بول): 26، 28، 30.
الغبريني ـ عائلة: 130، 131.
غرناوط (محمد): 303.
غرينيفيل: 16، 19.
الغماري (محمد): 175، 203.
غوتييه (ايميل فليكس): 17.

- ف -

الشيخ الفاضل: 296، 297.
لالا فاطمة نسومر: 87، 202هـ، 341، 343، 344+هـ، 346، 351، 352، 353، 362، 363، 377، 386، 387.
الفاطميون: 388.
فافر: 381.

فاليه: 11، 61، 64، 65، 90، 143، 157، 162+هـ، 165، 195، 196، 200، 206، 207، 210، 213، 216، 224، 234، 255، 257، 274.
سيدي فرج: 88، 369.
سيدي الفرجاني: 88، 142، 369.
الفكون (حمودة): 115، 164، 165، 208، 209+هـ، 220، 224، 243، 302، 321، 376.
الفكون (عبد الكريم): 88.
الفكون (محمد): 164، 224.
فوارول: 11، 54، 56+هـ، 59، 87، 110، 113، 166.
فوجرو: 43.
فورشو: 381، 382.
فولان ـ بارون: 43.
فونفيل: 382.
دوفيرجي: 159.
ديُ فيرنوا: 382.
فيرني (هوراس): 94، 165، 166+هـ.
فيرو: 344، 348، 351+هـ، 360.
دوفيفييه: 55، 56، 274.
فيلوزولوف: 16هـ.

ـ ق، ك ـ

القادري (مصطفى): 18، 19هـ.
القادرية: 34.
قاسلان: 321.
قالبوا: 213+هـ.
قايد علي: 208، 209، 210هـ.
قسطنطين ـ امبراطور روماني: 165.
القشاش: 85.
القشي (عمار): 321.
قودان: 94.
قويدر بن محمد: 136هـ.
قيزو: 162، 313.
كاباروس: 342.
كاربوشيه: 331، 334، 335.
كاروبير: 213، 318، 339.
كافنياك: 296، 317هـ، 318+هـ.
كامبون (جول): 17+هـ، 19، 25، 143هـ، 252، 270هـ.
كامو: 350.
كجك علي: 224.
كروشار: 286.
الكريتلي (ابراهيم): 47، 48، 53+هـ، 63، 144، 148+هـ، 152، 153، 155، 166.
الكريتلي (اسماعيل): 147، 148، 184، 281.
كلوزيل: 11، 31، 32، 34هـ، 48+هـ، 55، 57، 64+هـ، 68، 71هـ، 72، 74، 75، 77، 90، 105، 108، 111، 113، 115، 118، 120، 121، 132، 133، 137، 143، 149، 153هـ، 154، 155، 159، 161، 169، 176، 178، 180، 181، 395.
كليبر: 70.
كوتي ـ رئيس جمهورية: 261هـ.
كور (دوميان): 239+هـ.
كوفي ـ عالم آثار: 93.

ـ ل ـ

لافيجري ـ كاردينال: 234.

دولاكروا: 94.
لامورسيير: 56، 61، 177، 267، 274، 287.
لانقلوا: 94.
لوس: 232.
لوفاشي ـ قنصل: 67.
لوقران (لويس): 105.
لويس ـ قديس: 80.
لويس الرابع عشر: 30، 67، 101.
لـويس فـيلـيـب: 23، 57، 63، 165، 166هـ، 178+هـ،260، 266، 312.
ديليسبس: 44.

- م -

مارتنبري: 367.
مارمييه: 360.
مارنقو: 86.
ماري ـ جنرال: 226، 280، 281.
ماريون: 46.
ماسينيصا: 165.
ماكماهـون: 323، 324، 360هـ، 361، 377.
دومالكوف: 316، 325، 392.
مانديري: 47، 60.
سيدي مبارك: 48، 87.
المتنبي (أبو الطيب): 49هـ، 102.
محمد ـ ﷺ ـ: 79، 242، 269، 298، 342، 349.
محمد الحاج: 133.
محمد بن حسين: 136، 137.
محمد بن زعموم: 125.
محمد الخامس: 270هـ.
محمد خوجة: 114.
محمد السعيد: 225.
محمد الشريف: 139.
محمد الصغير: 384.
محمـد بن عبد اللّه ـ شـريف ورقلة: 302، 312، 385، 390، 391، 396.
محمد العيد: 385.
محمد عبده: 303.
محمـــد علي ـ والي مصـــر: 109، 139، 140، 185، 270هـ، 390.
محمود بن عثمان: 19هـ.
محمود الثاني: 109، 166، 185.
الحاج محيي الدين: 48، 50، 51، 54، 107، 115، 122، 124، 126، 127، 129، 130، 158، 169هـ، 171، 172، 185، 198هـ، 299.
الشيخ محيي الدين: 34، 47، 149.
المختـــاري (ابن عـودة): 225، 226+هـ، 279.
المخفي (محمد): 51هـ.
سي المدني: 342.
المرصالي (محمد): 171.
الشيـخ المـزاري (محمـــد): 178، 226، 237.
سيدي مسلم: 88، 369.
المصراتي (محمد): 135.
مصطفى باشا: 243.
مصـــطفى بن محيي الـدين: 136، 137، 198هـ، 282.
الحاج مصطفى: 349.
مصـــطفى بن عمـر: 38هـ، 41+هـ، 45، 46، 104، 108، 112هـ، 113، 121، 123، 132، 133، 136هـ، 137.

المصمودي: 363.
الحاج المعطي: 133، 134، 136، 168هـ.
المغربي (البشير): 343.
سي مقران: 285، 289.
المقراني (أحمد): 142، 283.
المقراني (عبد السلام): 160هـ، 198، 200، 205، 209، 210هـ، 214، 225.
المقلش (مصطفى): 171، 177+هـ، 180، 185، 286.
مكوار (محمد): 115.
سيدي المليح: 87.
موران: 359.
موريل: 337.
موزوكرته. انظر: محمد خوجة.
دي موزيس: 155.
مونتانيو: 71.
مونتنياك: 264.
مونج (ماري): 61، 317هـ، 318.
سيدي الموهوب: 87، 369.
ميرسييه (ارنست): 388+هـ.
ميرل ـ كاتب: 91.
دي ميشال: 55+هـ، 56، 58، 127، 175+هـ، 176+هـ.
الحاج ميمون: 367.

ـ ن ـ

نابليون الأول: 22، 39، 58، 67، 101، 124هـ، 159، 313.
نابليون الثالث: 294هـ، 312، 313، 322، 325، 326، 344هـ، 352، 374، 376، 379، 395.
نابليون (لويس): 293هـ، 312، 313.
نابليون (جيروم): 323، 324، 377.
نايت عنان (محمد): 276.
النجاري (سيدي أحمد): 87، 369.
نسيب (أحمد): 178.
نسيب (اسماعيل): 178.
نسيب (يعقوب): 178.
دي غور: 63، 65.
نيقريه: 143، 207هـ، 209هـ، 283هـ، 287.
نيقولا الأول: 16هـ، 395.

ـ هـ ـ

الهاشمي (محمد): 341، 343، 344+هـ، 345+هـ، 352، 386، 389.
هاي (درامون): 267هـ.
هايدو: 83، 84، 251.
الهنود الحمر: 39، 40.
هوتبول: 317هـ.
هودير: 47، 145، 153.
هيربيون: 289، 311، 330، 331، 335، 336، 337، 340، 384.

ـ و ـ

سيدي وراد: 88، 369.
د. وارنييه: 312.
الوزاني (الطيب): 367، 386.
سيدي الوزناجي: 88، 369.
الولهاصي. انظر: البوحميدي.
ولد مقران (أحمد): 240.
دي وينجي: 347.

ـ ي ـ

ياسمينة: 227.

يحيى آغا: 253.
يوبا: 70.
يـوسف ـ جنـرال : 39، 52، 54، 63، 143، 145، 146، 149، 154، 159، 160+هـ، 251، 312، 359، 373، 381، 382.
يوسف ـ قديس: 235.

***

فهرس الأماكن والبلدان

ـ أ ـ

آسيا: 34هـ ، 233.
آسيا الصغرى: 20، 73، 172.
ابن عكنون: 372.
الأبيض سيدي الشيخ: 312، 354.
أحمر خدو ـ جبل: 363، 365.
الأرباع: 357، 361.
أرزيو: 55+هـ،56، 58، 181.
أزمير: 19+هـ، 146.
اسبانيا: 35، 36هـ ، 175، 196، 217هـ ، 235.
استورا: 33.
اسطانبول: 19هـ ، 109، 139، 140، 156، 176، 186، 188، 301، 302، 316، 376، 392، 393، 395.
اسطاويلي: 35، 38هـ ، 47، 60هـ ، 109، 138، 369.
الاسكندرية: 19+هـ، 109+هـ، 111، 114، 115، 119هـ ، 123، 156، 224، 267، 302، 303، 316، 317، 356، 394.
الأصنام: 260، 293.
الأطلس ـ جبال: 40، 42، 118، 121.
الأغواط: 135، 136هـ ، 196، 198، 202، 203هـ ، 205، 225، 226، 279، 280، 284، 300، 312، 331، 354، 355هـ ، 358، 359+هـ، 361، 364، 376، 384.
أفريقيا: 40، 69، 233، 235، 334.
أفغانستان: 390.
آقبو: 348.
أقمون: 350.
أمريكا: 17، 36، 40، 62، 178، 180، 196، 323، 381.
أمريكا الجنوبية: 222.
أناضوليا: 20، 75.
الأندلس: 73، 269، 304.
انقاد: 367.
انكلترا: 95، 107، 319.
الأوراس: 144، 196، 212، 221، 281، 284، 288، 319، 328، 332، 338، 340، 354، 363، 365+هـ، 366، 371، 374، 380، 384.
اورلال: 332.
أوروبا: 16، 19، 62، 95، 180، 183، 231، 233، 244، 374.
أولاد جلال: 283، 288، 289، 331، 332، 384.

27*1 الحركة الوطنية

أولاد سيدي الشيخ: 358، 362+هـ، 380، 385.
أولاد صولة: 287.
أولاد عطية: 149، 150.
أولاد نائل: 357.
ايران: 390.
ايزلي - معركة: 218، 262، 269، 276، 291.
ايشر يضّان: 7، 352.
ايطاليا: 36هـ، 41هـ، 59، 83، 95هـ، 231.
ايكس - جزيرة: 222هـ.
ايكوسيوم: 70.

- ب -

باب الجهاد: 74.
باب عزون: 74، 85، 86.
الباب العالي: 141، 148، 155، 161، 165، 187.
باب الواد: 59هـ، 77، 85.
باتنة: 213، 284، 285، 287، 289، 332، 334، 335.
باريس: 57، 68، 69، 94، 105، 106هـ، 114، 115، 176، 188، 209، 239، 245، 252، 253، 294هـ، 338.
بجاية: 55، 56، 58، 78، 87، 124هـ، 141، 154، 156، 159، 161، 178، 182، 187، 198، 208، 242، 243، 277، 278، 319، 340، 342، 346، 348، 350، 352، 370.
البحر الأبيض المتوسط: 33، 68، 319.
البحر الأسود: 352، 391.
برج البحري: 119، 123.
برج (ابن عزوز): 283هـ.
برج بوليلة: 74، 86.
بروسة: 395.
بريست: 67.
بريسكو - جزيرة: 222هـ.
بريطانيا: 175، 180، 196، 265، 313، 316.
بسكرة: 50، 197، 198، 213، 280، 281، 286+هـ، 288، 289، 300، 328، 331، 334، 335، 338، 354، 364، 386.
بغداد: 15، 59هـ، 171، 290هـ.
البكارية: 366.
بلاط الشهداء - معركة: 233.
البلقان: 169، 183.
البليدة: 20، 24، 32، 35، 37، 39+هـ، 40، 42، 43، 46، 48، 51، 54، 58، 59، 78، 118، 122+هـ، 125، 128، 129، 131، 136، 139، 149، 175، 178، 198، 242، 245، 256.
بنو ايجار: 342.
بنو ايمل: 346.
بنو بو صلاح: 130.
بنو جلاب: 358.
بنو خلفون: 124، 125، 201.
بنو خليل: 120.
بنو راتن: 342، 352.
بنو سليمان: 264، 342، 365.
بنو سناسن: 363، 366، 368، 387، 388.

بنو صدقة: 342، 350 .
بنو عامر: 265 .
بنو عبدلي : 347 .
بنو عمروش: 342 .
بنو مرة: 120 .
بنو مليكش: 347، 350 .
بنو مناصر: 130، 132 .
بنو منقلات: 352 .
بنو موسى : 120 .
بنو وغليس: 346 .
بنو يحيى : 342 .
بنو يعلى: 136هـ .
بنو يعقوب: 150 .
بنو يني : 352 .
بودواو: 118، 125، 126، 128 .
بوسعادة: 330، 332، 335، 338، 339 .
بوسنيا: 179هـ .
بوشقرون: 333 .
بوطالب ـ جبال: 349 .
بوغار: 225، 257، 260 .
بوفاريك: 43، 58، 120، 121، 125، 126، 128، 372 .
بولوغين: 373 .
البويرة: 128 .
البيبان: 124هـ ، 215 .
بيربينيو ـ سجن: 362هـ .
بئر توتة: 120 .
البيض: 362 .

ـ ت ـ

تابلاط: 353 .
تارودانت: 290 .
تازة: 218، 257 .
تازمات: 351 .
التافنة + معاهدة: 64، 129، 144، 156، 158، 162، 166، 181، 182، 196، 200+هـ، 206، 207، 214، 216، 282، 291، 356 .
تافيلات: 345، 386 .
تاقدمت: 196، 205، 217، 257، 259 .
تامزوت: 350 .
تبسة: 287، 367، 368، 387 .
تجمعوت: 202، 205، 280 .
تقرت: 155، 166، 212، 281، 284، 300، 312، 329، 358، 360، 361+هـ، 364، 384 .
التل: 325 .
التلاغمة: 147 .
تلمسان: 52، 62، 63، 78، 87، 88، 90، 108، 111هـ ، 148، 159، 169، 174 .
تلمسان: 177، 179، 181، 184، 187، 196، 197، 217، 242، 245، 259، 266، 274هـ ، 296، 297، 301، 355+هـ، 356، 381 .
تماسين: 203، 284، 358، 359، 361هـ ، 384، 385 .
تنس: 197، 228، 260 .
تور: 91هـ .
تونس: 33، 39، 44، 45+هـ، 63، 65، 68، 106، 107، 109، 111، 113، 115، 141، 146، 148، 152، 155، 156، 159، 166، 169، 170، 176، 181، 182، 186، 187، 211، 212، 242، 284،

287، 301، 303، 316، 337،
339، 344، 360، 361، 367،
368، 377، 389.
تيارت (تيهرت): 260، 354، 358.
تيزي وزو: 340، 352.
التيطري: 27، 38+هـ، 109، 119،
121، 129، 132، 197، 263،
264.
تيميرماسين: 364.
ثنية الأحد: 260.

- ج -

جامع الأحلاف: 135.
جامع الأزهر: 109، 237، 304، 356.
الجامع الأموي: 395.
جامع الباديستان: 84.
جامع بتشنين: 82.
جامع البريجة: 370.
جامع الثعالبي: 85.
جامع جبانة الوزناجي: 88.
الجامع الجديد: 80، 82، 83.
جامع الرابطة: 84.
جامع سوق الغزل: 88، 162، 369.
جامع السيدة: 51، 83، 84.
جامع السيدة مريم: 84، 85.
جامع سيدي أبي مروان: 86.
جامع سيدي بتقة: 251.
جامع سيدي بوناب: 88.
جامع سيدي البيارزي: 88.
جامع سيدي راشد: 88.
جامع سيدي الرحبي: 84، 251.
جامع سيدي رمضان: 82.
جامع سيدي فرج: 88.
جامع سيدي الفرجاني: 88.
جامع سيدي مسلم: 88، 369.
جامع سيدي الموهوب: 87، 370.
جامع سيدي وراد: 88، 369.
جامع الصافية: 370.
جامع صالح باي: 87هـ.
جامع الصباغين: 84.
جامع صفر: 82.
جامع عبدي: 82.
جامع عبدي باشا: 84.
جامع عين يلس: 370.
جامع القائد علي: 251.
جامع القشاش: 84.
جامع القصبة: 370.
الجامع الكبير: 70، 73، 80، 82، 83،
248، 249، 302.
الجامع الكبير - بجاية: 87.
جامع كتشاوة: 51، 81، 82.
جبل أحد: 121.
الجبل الأخضر - ليبيا: 390.
جبل طارق: 34، 111، 114، 175،
177، 266.
جرجرة: 40، 311، 340، 342، 350،
351، 352، 354، 357، 363،
365، 371، 374، 376، 380،
386، 387، 391، 396.
الجريد: 357، 366.
الجزائر: 5، 6، 8، 10، 15، 18، 20،
24، 27، 28، 30، 42، 44، 52،
54، 58، 61، 64، 66، 72، 74،
76، 77، 79، 80، 82، 87، 89،
95، 101، 103، 105، 108، 110،
111، 113، 117، 119، 121+هـ،

123، 124، 127، 129، 133،
135، 139، 140، 142، 145+هـ،
147، 150، 152، 154، 155،
157، 159، 161، 163، 166،
168، 173، 178، 180، 184،
186، 188، 195، 200، 201،
203، 207، 213، 216، 223،
227، 230، 236، 238، 240،
242، 244، 246، 248، 250،
257، 259، 262، 264، 265،
269، 276، 282، 284، 288،
291، 293، 295، 297، 299،
301، 304، 311، 313، 315،
317، 326، 341، 344، 347،
352، 354، 356، 363، 367،
368، 371، 374، 376، 379،
381، 383، 385، 387، 389، 396.
الجنينة ـ قصر: 22، 83.
جيجل: 142، 225، 277، 347.

- ح -

الحامة: 60هـ.
الحجاز: 132، 145هـ، 237، 238+هـ، 302، 356، 357، 390، 394، 395.
حجـوط: 55، 58، 118، 131، 149، 295.
الحـراش: 44، 46، 47، 50، 60هـ، 121، 125، 128، 330، 365.
الحراكتة: 208، 287، 366.
الحرشاوة: 201.
الحرم المكي: 237، 304.
الحروش: 224، 340.
الحضنة: 208، 215، 218، 284، 285، 329، 331، 338، 380هـ.
حمزة، سوق، برج: 128، 175، 196، 197، 198، 200، 201، 203، 205، 208، 215، 251هـ، 260، 264، 342، 347.
حميان: 319.
الحنانشة: 155، 161هـ.
حيفا: 353.

- خ -

خراطة: 229.
الخروبة: 60هـ.
الخشنة: 55، 120، 144هـ، 201.
خنقة سيدي ناجي: 287، 289، 331، 332، 384.

- د -

دريد: 149.
دلس: 129، 139، 352.
دمشق: 290هـ، 393، 395.
الدواير: 58، 176، 212.
الدويرة: 58.
الدير ـ جبال: 293.

- ر، ز -

رشقون ـ ميناء: 177، 180.
الرغاية: 125.
روسيا: 16هـ، 322، 345، 391، 393، 395.
روما: 95هـ.
دي ري ـ حصن: 222هـ.
رياح: 230، 293، 330.
الريف: 278.

الزاب: 282، 285، 338، 386.
زاوية الأندلسيين: 251.
زاوية أولاد باباس: 128هـ .
زاوية سيدي أحمد النجار: 87، 370.
زاوية سيدي البصرومي: 87.
زاوية سيدي التواتي: 87، 370.
زاويدة سيدي الجودي: 85.
زاوية سيدي الخضر: 87.
زاوية سيدي عبد الهادي: 87.
زاوية سيدي العنبري: 367 .
زاوية سيدي المليح: 87.
زاوية الشابية: 387.
زاوية الشبارلية: 251.
زاوية شختون: 85، 251.
زاوية الشرفة: 85.
زاوية الصباغين والمقايسيية: 85.
زاوية العلوي: 88.
زاوية القشاش: 85.
زاوية القيطنة: 171.
زاوية كرزازة: 367، 387.
زاوية للا فاطمة: 87.
زاوية محمد الثوري: 126.
زاوية المولى حسن: 251.
زاوية ورجة: 343، 346، 351.
زاوية يوب: 85.
زدير: 149 .
الزعاطشة: 7، 134، 186، 278، 302، 319، 328، 331، 333، 339، 343، 346، 354، 361، 363، 364، 376، 384، 389.
الزقاق ـ معركة: 180، 257.
الزمالة: 58، 131، 176، 199، 212، 218، 239، 242، 258، 260، 265، 279، 284، 296.
زمورة: 144.
الزواتنة: 201.
زوغة: 141.
زواوة: 127، 141، 197، 341، 345، 350، 351، 352.
الزيبان: 139هـ ، 141، 143، 155، 166، 197، 208، 218، 223، 281، 283، 285، 287، 289، 331، 340، 341، 345، 349هـ ، 354، 357، 363، 376، 380هـ ، 384، 386.

ـ س ـ

دي سان: 222هـ .
ساحة الحكومة: 83.
الساقية الحمراء: 294، 345.
سالونيك: 179هـ .
سان بيير ـ حصن: 222هـ .
سان دومنيك: 36.
سان سير: 239.
سان لويس ـ حصن: 222هـ .
سان مارغريت ـ جزيرة: 7، 142، 222، 225، 227، 283، 301.
سانت هيلينا: 124هـ .
الساونة: 289.
سباو: 119، 125، 129، 201، 242، 251هـ ، 342، 350، 352.
سبدو: 259.
السحارى: 285، 289، 338.
سريانة: 331، 334.
سطيف: 196، 200هـ ، 208، 215، 225، 229، 272، 277، 338، 347.

سعيد عطبة: 358، 361.
سعيدة: 218.
سكيكدة: 330، 335.
سور الغزلان: 276، 277، 340، 344، 345.
سورية: 242، 353.
السوس: 366.
سوف: 284، 289، 329، 354، 357، 361هـ، 384، 385.
سوق علي: 119، 126.
سيبوسر: 150، 154، 159.
سيدي ابراهيم: 218، 264، 289، 292، 296.
سيدي بلعباس: 263، 278.
سيدي خالد: : 283.
سيدي خالف: 47.
سيدي الرزين: 125.
سيدي زاهر: 367.
سيدي الشيخ: 312.
سيدي عقبة: 284، 286، 288، 365.
سيدي فرج: 16، 18، 30، 35، 91، 133، 369.

- ش -

الشام: 237هـ، 242، 394.
شرشال: 130+هـ، 132+هـ، 136، 175، 185، 197، 225، 226، 245، 256، 257، 277، 294، 295، 342.
الشرفة: 149.
ششار - جبال: 288.
الشعانبة: 28، 357، 358، 361.
الشفة: 42، 54، 76.
الشلف: 227، 258، 260، 264، 278، 291، 293.
شمال أفريقيا: 216.

- ص -

الصافية: 280.
صبيح: 227، 293.
الصحراء: 196، 198، 201، 202، 205، 206، 211، 260، 279، 281، 282، 284، 287، 293، 300، 311، 319، 322، 325، 331، 351، 354، 359، 360، 362، 380.
الصرب: 183.
صقلية: 33.
صنهاجة: 149.
الصومام: 350.

- ط، ظ -

طاقين: 239.
الطرابست: 369.
طرابلس الغرب: 135، 156، 186، 211، 212، 238هـ، 277، 348 هـ، 357، 389، 391.
الطرارة: 355هـ.
طرود: 357، 361هـ.
طنجة: 45، 175، 177، 262، 267، 269، 284، 316.
طولقة: 285هـ، 299هـ، 332، 333، 384.
طولون: 91.
الظهرة: 7، 220، 227، 228، 263، 293، 330، 356، 394.

- ع -

العـالم الاسـلامـي: 183، 236، 237، 268، 304، 322.
العالم الثالث: 101.
العالم العربي: 95، 254هـ، 304.
العذاورة: 277، 345.
عزارقة: 345.
العطاف: 345، 387.
عكا: 267، 317.
العلمة: 126.
عمراوة: 149، 202.
العمري: 135.
عمور ـ جبل: 358، 361.
عنـابـة: 33، 35، 37، 38، 45، 48، 49، 53، 56، 58، 63، 64، 68، 69، 78، 90، 120هـ، 138، 141، 143، 145، 156+هـ، 159، 161، 181، 182، 187، 208، 223، 225، 234، 242، 245، 330، 335، 362.
العواسي: 139.
العوفية: 7، 50، 54، 122، 125، 330.
عين الصفراء: 311.
عين ماضي: 197، 202، 205+هـ، 214، 216، 279، 280، 284، 300، 384، 385.

- غ -

غار الفراشيش: 220، 227، 229، 242، 257، 263، 293، 325، 330.
غدامس: 357.
غريش: 174.
الغسول: 355+هـ، 385.
غليزان: 387.
غويان: 7، 222هـ.

- ف -

الفاتيكان: 234.
فـاس: 168هـ، 172، 174، 176، 185، 186، 196، 200، 218، 265، 270، 271، 275، 290، 294، 296، 384.
فراسكاتي: 94، 95.
فرجيوة: 141، 208، 210هـ، 287.
فرساي ـ قصر: 165، 166.
فرفار: 331، 333.
فـرنسـا: 17، 21، 22، 30، 33، 34، 37، 38، 40، 44، 46، 48، 56، 59+هـ، 70، 80، 82، 94، 95، 106، 113، 120هـ، 124هـ، 134هـ، 145+هـ، 148، 153هـ، 155، 156، 162هـ، 164، 167+هـ، 170، 175، 180، 183، 188، 201، 203، 206، 207، 209، 210، 213هـ، 218، 219، 222، 224، 226، 228، 231، 233، 235، 236، 238، 240، 246، 252، 264، 269، 281، 286، 290هـ، 293، 312، 320، 324، 325، 330، 331، 340، 341، 343، 344، 349، 350، 356، 360+هـ، 365، 367، 372، 373، 377، 378، 381، 385، 387، 389، 391، 396.
فقيق: 271.
فلسطين: 353.

فليتة: 293.
فليسة: 119، 120، 125، 149، 200.
الفندق: 126.

- ق -

القالة: 33.
قالمة: 65، 156، 159، 161، 182، 208، 229.
القبايل - منطقة: 119، 127، 128+هـ، 136، 175، 197، 202، 205، 221، 264، 275، 276، 278، 289، 292، 312، 319، 322، 328، 364، 369، 394.
قبيس - جبل: 356.
قدارة: 215.
القرم - حرب: 323، 325، 345، 351، 391، 395.
قسنطينة: 27، 33، 36، 38هـ، 44، 45، 47، 56، 58، 63، 65، 69، 78، 87، 88، 90، 106، 109، 113+هـ، 115، 127، 129، 132، 133، 136، 138، 148+هـ، 151، 152، 154، 166+هـ، 175، 176، 178، 180، 181، 184، 187، 196، 207+هـ، 215+هـ، 220، 223، 225، 235، 242، 244، 245، 252، 255، 260، 275، 281، 287، 301، 302، 314، 321، 328، 334، 335، 337، 338، 360هـ، 365هـ، 369، 371، 376، 384.
القشطولة: 201، 342.
قصر الحيران: 280.
القليعة: 48، 51، 54، 129، 131، 136، 149، 185، 198.
القوجيلة: 259.
قورصو: 128.
القيروان: 237، 304.
القيطنة: 173، 257.
قيفصار: 348.

- ك -

كدية عاتي: 65، 66.
كريت: 53، 147.
كسنّة: 277.
كورسيكا: 362.

- ل -

لا مالق - قلعة: 142، 317.
اللوفر - متحف: 165.
ليانة: 288.
ليبيا: 188، 302، 337.
ليسانة: 330، 331، 333.
ليفورنيا: 19، 123، 146، 153هـ، 316، 374.

- م -

المارتنيك: 7، 222هـ.
مارسيليا: 24، 59+هـ، 60+هـ، 86، 91، 374.
مازونة: 242.
مالطا: 19.
متيجة: 32، 48، 50، 51، 53، 58، 60، 118، 120هـ، 122، 127، 130، 154، 175، 215، 256، 295، 369، 372، 393.
مجانة: 141، 144، 196، 197، 198،

200هـ ، 205، 208، 215، 339 .
المحيط الهادي : 222 .
المخادمة: 361 .
مدرسة الأندلس: 85 .
مدرسة الجامع الكبير: 85، 251 .
مدرسة القشاش: 85 .
مدريد: 266 .
المدية: 24، 37، 38، 40، 43، 46، 48، 51، 54، 78، 112هـ ، 120، 121، 125، 163، 166، 168هـ ، 174، 176، 178، 179، 184، 187، 196، 197، 203، 206، 214، 217، 242، 245، 257، 277، 279، 288، 295، 349هـ ، 358 .
المدينة المنورة: 73، 74، 113هـ ، 184، 303، 355، 369 .
المرابط سيدي عيد: 126 .
المرسي الكبير: 33، 35، 44، 45هـ ، 47، 52، 170 .
مزاية: 346 .
مستغانم: 52، 55، 56، 58، 148، 175، 179هـ ، 223، 224، 242، 245، 259، 260، 319 .
مسجد التنسي: 84 .
مسجد خنق النطاح: 52، 86 .
مسجد سيدي الجامي: 369 .
مسجد سيدي السعدي: 369 .
مسجد الشماعين: 84، 251 .
مسجد صباط الحوت: 84، 85، 251 .
مسجد علي خوجة: 84، 251 .
مسعد: 136هـ ، 279، 331، 332 .
المسيلة: 283 .
المشرق الاسلامي: 123، 322، 356، 364، 390، 393، 396 .
المشرق العربي: 43، 109، 139، 182، 185، 187ـ 213، 242، 301، 304، 353، 389 .
المشور ـ قصر: 87، 180، 296 .
مشونش: 284، 285، 365 .
مصر: 67، 93، 109، 124هـ ، 134، 139، 157هـ ، 175، 186، 187، 188، 270هـ ، 271، 277، 302، 337، 356، 390 .
المعاتقة: 123، 125 .
معسكر: 34، 127، 135، 159، 163، 171، 174، 177، 178، 179، 180، 196، 197، 217، 223، 224، 234، 242، 257، 259، 301، 319، 324 .
المغرب الأقصى: 34، 44، 45، 52، 54، 105، 109، 113هـ ، 133، 135هـ ، 168هـ ، 175، 177، 186، 188، 204+هـ، 218، 242، 256، 259، 261، 267هـ ، 275، 278، 284، 289، 292، 294، 296، 298، 301، 303، 337، 348، 356هـ ، 360، 367، 368، 376، 377، 386، 389، 391 .
المغرب العربي: 17، 18، 124هـ ، 187، 238هـ ، 290هـ ، 304 .
مغريس ـ جبل: 144هـ .
مغنية: 391 .
مقرة: 282 .
المقطع ـ معركة: 58، 127، 176، 177 .

مكــة: 73، 74، 113هـ، 184، 302، 303، 353، 355، 369.
ملاقة: 266.
مليانة: 61، 124، 127، 131+هـ، 132، 137، 139، 174، 196، 197، 200، 214، 217، 257، 295.
مليلة: 266.
مليلي: 332، 386.
المنصورة: 162.
موسكو: 177.
موقادور: 262.
مونبلييه: 142.
موزاية: 40، 42، 43، 54، 76.

- ن -

نابولي: 19+هـ، 156.
نارة - واحة: 7، 338، 339.
ندرومة: 259.
النزليوة: 201.
نفطة: 357، 386.
نقوسة: 358، 362.

- هـ -

هاشم - قبيلة: 265.
الهاية: 367.
الهم - سجن بفرنسا: 317، 344.
الهند: 101.
هولندا: 36هـ.

- و -

واترلو - معركة: 58، 176.
الوادي الأبيض: 284.
الوادي الأحمر: 203هـ.
وادي الخضرة: 215.
وادي الرمال: 163.
وادي ريغ: 329، 358.
وادي عبدي: 339.
وادي ميـزاب: 281، 354، 358، 360، 364.
وجدة: 137، 262.
الوداية: 168هـ.
ورقلة: 297، 302، 312، 354، 357، 358، 361، 363+هـ، 364، 376، 384، 385.
الــونشـريس: 135، 221، 260، 264، 277، 278، 293، 299هـ، 386.
ونوغة: 277.
وهران: 27، 32، 35، 38، 44، 45+هـ، 47، 49، 52، 54، 56+هـ، 58، 64، 68، 69، 78، 90، 106، 107، 120هـ، 126، 163، 167، 169، 172، 175، 179هـ، 181، 185، 187، 219، 234، 259، 261، 263، 269، 314، 319، 328، 359هـ، 385.

- ي -

اليدوغ: 142، 146، 151.
يسّر: 125، 126، 149، 201.
يوغسلافيا: 179هـ.
اليونان: 183.

* * *

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفهرس

مقدمة 5

الفصل الأول: معاول الغزو، 1830 ـ 1837 13

1 ـ مقدمات 15

2 ـ طرد الأتراك 18

3 ـ نوعية الجيش الفرنسي ونهب الخزينة 21

4 ـ معاملة سكان المدينة 25

5 ـ تنظيمات بورمون 27

6 ـ بداية الخروج من العاصمة 30

7 ـ عهد كلوزيل الأول 36

8 ـ خلفاء كلوزيل الى 1837 46

9 ـ طمس معالم المدن والتدخل في القيم الوطنية 66

10 ـ انتهاك حرمة الأملاك 72

11 ـ الاستهتار بالمؤسسات الدينية... والتنصير 79

12 ـ الغزو العلمي والفكري 89

مراجع الفصل الأول 96

الفصل الثاني: جبهات المقاومة، 1830 ـ 1837 99

1 ـ مقدمات 101

2 ـ المقاومة المدنية أو السياسية 102

3 ـ المقاومة في الأرياف (متيجة) 116

4 ـ شرشال والمدية 130

5 ـ الإقليم الشرقي (قسنطينة) . 138
6 ـ احتلال قسنطينة ونهاية المقاومة الرسمية 155
7 ـ المقاومة في الاقليم الغربي 166
أ ـ قبل ظهور الأمير عبد القادر 170
ب ـ منذ ظهور الأمير عبد القادر 175
8 ـ التيار العربي ـ الإسلامي 182
مراجع الفصل الثاني 189
الفصل الثالث: أبطال وزعانف، 1837 ـ 1848 193
1 ـ مقدمات 195
2 ـ الأمير من التافنة الى البيبان 196
3 ـ الوضع في الإقليم الشرقي بعد احتلال قسنطينة 208
4 ـ التخريب الشامل (من فاليه الى بوجو) 214
5 ـ التدجين ومذبحة غار الفراشيش 220
6 ـ الحرب الأخرى: من الأسقفية الى الجوسسة
(من الأسقف دوبوش الى الجاسوس روش) 231
7 ـ الغزو «الحضاري» 240
8 ـ التحدي الأعظم 255
9 ـ ملاحظات على الأمير 268
10 ـ رجال من صنف آخر 274
11 ـ مواقف الطرق الصوفية 297
12 ـ التيار العربي ـ الإسلامي 300
مراجع الفصل الثالث 305
الفصل الرابع: تجوع الحرة، 1848 ـ 1860 309
1 ـ مقدمات 311
2 ـ الجديد عليهم قديم علينا 312
3 ـ من الدوق دومال الى الدوق دومالكوف 316

4 ـ محاولات الاندماج 320
5 ـ الزعامات المدجنة 325
6 ـ في الزعاطشة والأوراس والحضنة 329
7 ـ في بلاد زواوة: الهاشمي ـ بوبغلة ـ فاطمة نسومر 341
8 ـ في الصحراء: ورقلة والأغواط 354
9 ـ من الأوراس الى بني سناسن 363
10 ـ اطفاء الشموع 368
11 ـ افتقار الأغنياء.. وبعض الفضائح 375
12 ـ المرابطون في الثورة 382
13 ـ البعد العربي ـ الاسلامي 389
مراجع الفصل الرابع 397

الفهارس

فهرس الأسماء والأعلام 403
فهرس الأماكن والبلدان 417
فهرس المحتويات 428

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الحركة الوطنية الجزائرية

تأليف

أبو القاسم سعد الله

الجزء الثاني

دار الغرب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة (منقحة)

1992

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان

الاهداء

إلى أمي وأبي

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

يسرني ان تصدر الطبعة الثالثة من هذا الكتاب بالجزائر التي هي موضوعه ، بعد ان صدرت طبعته الأولى في لبنان والثانية في مصر.

لقد صدرت الطبعة الثانية مليئة ـ للأسف ـ بالأخطاء ، كما افتقرت الى الثبت العام الذي احرص عليه في كل كتبي ، رغم الحاحي على المسؤولين في معهد البحوث والدراسات العربية بضرورة وضع ثبت للكتاب . ولذلك صححت ما في هذه الطبعة من أخطاء ووضعت الثبت بنفسي رغم ما فيه من مشقة وعناء . كما نقحت بعض العبارات واضفت بعض المعلومات التي يفترضها تطور البحث في التاريخ الوطني .

ولا بد ان اقول ان هناك مصادر كثيرة ظهرت منذ وضعت البيبليوغرافية الجديدة للطبعة الثانية خصوصاً بالعربية . وتشمل هذه المصادر .

1 ـ المذكرات ، مثل حياة كفاح لأحمد توفيق المدني ومذكرات مصالي الحاج ، وتشريح حرب لفرحات عباس ، وحياة وجهاد لمحمد الحسن الوزاني ، ومراسلات شكيب أرسلان وغيرها .

2 ـ الدراسات مثل الحركة الثورية الجزائرية لأحمد محساس ، وتاريخ الوطنية الجزائرية لمحفوظ قداش ، والشيوعية والوطنية في الجزائر لايمانويل سيفان ، وقد نشر بعض طلابنا أبحاثهم المتخصصة عن ظاهرة معينة للحركة الوطنية مثل دراسة يحيى بوعزيز عن دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871 ، ودراسة عبد الحميد زوزو عن دور المهاجرين الجزائريين في الحركة الوطنية بفرنسا بين الحربين .

3 ـ دراسات مساعدة للمؤرخ ، ومنها الصحف العربية (1847 ـ 1939) لمحمد ناصر والشعر الديني الجزائري الحديث لعبد الله ركيبي ، والشعر الجزائري

الحديث لصالح خرفي واطروحة محمد شفيق مصباح عن الأيديولوجية السياسية للحركة الوطنية الجزائرية ، يضاف الى ذلك بعض التراجم الهامة مثل دراسة محمد ناصر عن الشيخ ابي اليقظان ، ودراسة عمر بن قينة عن عبد الرحمن الديسي .

4 ـ اما الأبحاث والمقالات التي عالج اصحابها موضوعات تاريخية او مساعدة للمؤرخ فهي اكثر من ان تحصى في هذه المقدمة . ولعلنا نلجأ الى تصنيفها بلغاتها المختلفة (بالإضافة الى المصادر الأخرى) وادراجها في طبعات لاحقة من هذا الكتاب .

ان مواصلة الإطلاع على ما تصدره المطابع عن الحركة الوطنية الجزائرية ليست عملية سهلة ولكنها ضرورية . ذلك ان المعلومات تقابل ببعضها وتصحح وتتجدد وتتضح . ونكاد نقول أنه ليس في التاريخ معلومات قاطعة او نهائية . وعلى الباحث ان يظل يترصد هذه المعلومات ويصحح بها تأليفه ما دام على قيد الحياة . وهذا ما حاولناه في هذا الكتاب ، بل في جميع كتبنا .

ابو القاسم سعد الله

الجزائر : 3 يوليو 1982 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا الجزء مستقلاً منذ 1969 على أساس أنه رسالة دكتوراه ذات موضوع محدد لا على أنه جزء من سلسلة الحركة الوطنية الجزائرية التي كانت حين كتابته مجرد مشروع . ولذلك لم أراع في تصميمه ربطه بما قبله أو بما بعده ، بل وضعت له مدخلاً (هو الفصل الأول منه) مهدت له لبدء الموضوع ، كما ضمنته اشارات تتجاوز سنة 1930 وهي نهاية الفترة المحدد له . ثم قمت بترجمته وقدمته للقراء مبتهجاً به غاية الابتهاج لأنه يسد في نظري فراغاً هائلاً في المكتبة التاريخية العربية ، ولم أشأ أن أغير من أصله شيئاً عندئذ رغم أن كثرة ما فيه من حواش ومصطلحات ومراجع قد يكون أثقله في نظر غير المتخصصين ، ومع ذلك لقي رواجاً لم أكن أبداً أفكر فيه .

وحين عدت إلى مشروعي القديم في كتابة سلسلة الحركة الوطنية كاملة في أربعة أجزاء (أنظر مقدمة الجزء الثالث) أصبح موقع الفترة التي يتناولها هذا الكتاب هو سنوات (1900 ـ 1930) ولذلك أعيد نشره هذه المرة مقروناً بعبارة « الجزء الثاني » ولو كنت انتهيت من كتابة الجزء الأول لجاز لي أن أحذف من الجزء الثاني المدخل الذي أشرت اليه لأنه يقع في فترة الجزء الأول . وما دام هذا لم يتم بعد فقد فضلت أبقاء المدخل في مكانه في الوقت الراهن حتى لا يبدأ القارىء بداية مبتورة .

وقد عدت إلى هذا الجزء بالتنقيح فصححت ما فيه من أخطاء تاريخية ومطبعية . بل وعدت بالنقد الى النص نفسه فشذبت وهذبت ما وسعتني المعرفة والذوق لأن العمل المترجم ليس كالعمل الموضوع ، وكانت الأمانة العلمية قد فرضت على أن أحافظ ما أمكن على الأصل ، ويمكن للقارىء أن يقارن بين أسلوبي كمترجم في الجزء الثاني وأسلوبي كمنشيء في الجزء الثالث من نفس السلسلة . وقد كشفت الأبحاث على أمور كنت أجهلها أو أخطات فيها عند كتابته منذ أكثر من عشر

سنوات ، ولذلك صححت كثيراً من الأسمـاء والتواريـخ وبعض الحقائق العـامة ، وأثريت هوامشه بمراجع وأفكار جـديدة ، وأضفت اليـه قائمـة موسعـة جديـدة من المصادر العربية لأن معظم مصادره في الأصل كانت باللغات الأجنبية ، كل ذلك رغبة مني في أن يكون عملاً جاداً مفيداً بقدر الامكان.

وإذا كان لي من شيء أنهي به هذه المقدمة فهو أملي ان أوفـق الى كتابة الجزء الأول حتى تستكمل سلسلة الحركة الوطنية حلقاتها ، وحتى يستطيع القارىء العربي التعرف على التيار الذي اختاره الشعب الجزائري بعزم وصلابة ضد الإحتلال الأجنبي من جهة ومن أجل حياة أفضل من جهة أخرى.

أبو القاسم سعد الله
معهد العلوم الإجتماعية ـ جامعة الجزائر

القاهرة في 6 أبريل 1976 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

مقدمة الترجمة

نادراً ما شعرت بالغبطة التي شعرت بها عندما انتهيت من ترجمة هذا الكتاب . ويرجع ذلك الى أنني منذ حصلت به على الدكتوراه في خريف 1965 ، قررت تعريبه ، ولكن حالت عوائق متعددة دون ذلك ، أهمها انشغالي بالتدريس في الخارج وعدم الاستقرار . وترجع غبطتي أيضاً إلى أن تعريب هذا العمل سيصلني بالقارىء العربي ، بعد أن أوصلني بالقارىء الأجنبي ، عن طريق فكرة عزيزة علي ، وهي الكشف عن تفاعلات الحركة الوطنية أثناء فترة هامة من تاريخ الجزائر الحديث.

ويجب أن أعترف بأني قد واجهت بعض الصعوبات في تحقيق الترجمة . وبعد التمعن انتهيت إلى تعريب جميع المراجع في الهوامش ، مع ملاحظة أني غالباً ما استعملت النطق الإنكليزي في تهجية الأسماء الأجنبية ، أما في قسم البيبليوغرافية فقد فضلت الابقاء على جميع المراجع كما هي حتى يسهل على القارىء المهتم الرجوع اليها في لغتها الأصلية . هذا بإستثناء المراجع العربية التي ظهرت في الأطروحة بالإنكليزية ، والتي أرجعتها هنا إلى لغتها الأصلية في قائمة خاصة . ومن جهة أخرى استعملت ، لتسهيل البحث ، طريقة الإختصار التي طبقتها في الأصل ، مثل اختصار أهم أسماء الدوريات الطويلة.

نواجه نحن مؤرخي العالم الثالث عقبة شاقة في كتابة تاريخ بلداننا . فالعاطفة مازالت تلعب دوراً أساسياً في تقييمنا للأشياء والحكم على الأحداث ، وهذه العاطفة قد تكون خطراً على الموضوعية والبحث المجرد . ولكننا من جهة أخرى نحس أن علينا مسؤولية انسانية نحو بلداننا في هذه المرحلة التاريخية التي تقف فاصلاً بين الإستعمار والتحرر ، بين العبودية والحرية . ومنذ بدأنا نتحرر واجهنا الإجابة على هذا السؤال : هل نقف من أعمال الاستعمار موقف المدافع أو المهاجم ، أو نقف منها موقفاً آخر لا يهتم لا بالدفاع ولا بالهجوم ولكن بالحقيقة وبالموضوعية ؟

وهنا أود أن أنبه إلى أني حبلت بفكرة هذا البحث منذ انفجار الثورة الجزائرية . ولم تكد الثورة تنتهي (1962) حتى كنت قد وضعت المخطط العام للفكرة وأوشكت على جمع المراجع . وقد كنت أحس من الأعماق اني قد اكتشفت كنزاً ثميناً في أكوام من الوحل ، وأنه كان علي أن أصارع كثيراً من المهاجمين قبل أن أكشف للناس عن حقيقة الكنز . ولعله من نافلة القول التأكيد على أن الباحث ، مهما بلغ من التجرد ، لا يستطيع أن ينفصل عن زمانه ومكانه ، عن مشاعره وميوله الثقافية والسياسية ، ولا سيما إذا كانت تلك المشاعر والميول قد ولدت نتيجة هزة قوية تاريخية في حياته . كما أرجو أن أنبه الى أن اقامتي الآن في الجزائر وزيارتي الأخيرة للمشرق العربي قد أتاحتا لي فرصة الإطلاع على معلومات هامة عن الوضوع لم تكن لدي عند كتابة الأطروحة ، ولكنني لم أستخدمها في الترجمة.

لو كنت أعلم حين اخترت موضوع هذا الكتاب، أن ما سأقوم به سيكون أمراً نهائياً ، لما أقدمت عليه ، لأني على يقين من أن طاقة كل باحث مهما كانت ، ستظل محدودة بالزمان والمكان والوسائل . لذلك أكرر ما قلته ، في غير هذا المكان ، من أن ما حققته حتى الآن لا يعدو أن يكون محاولة للبحث في أصول وتطورات الحركة الوطنية ، ثم تقييمها تقييماً يستند على المصادر والوثائق ، التي أمكنني الإطلاع عليها في بلاد بعيدة جداً عن المركز الذي جرت فيه أحداث الكتاب . وليس البحث العلمي سوى جهد يضاف إلى جهد ، ولبنة تضاف إلى لبنة ، وبذلك يتضح الطريق إلى الحقيقة . وأني أرجو أن يكون جيل المؤرخين الطالع أكثر مني تثبتاً ، وأوفر سلاحاً ، وأسع رؤية ، في نشدان الحقيقة التاريخية . وإذا كان هذا العمل قد أسهم ، ولو بجزء ضئيل ، في هذا الحقل ، فإني لا شك انسان سعيد[1].

ابو القاسم سعد الله

الجزائر في 26 يوليو ، 1968

---

(1) من أراد زيادة الاطلاع على ظروف هذا العمل ، فليقرأ موضوع (في الجهاد الثقافي) ، المنشور في كتابنا (منطلقات فكرية) ، الدار العربية للكتاب - تونس - ليبيا ، 1976 .

مقدمة الأصل الانكليزي

هـذا الكتاب ليس دراسـة عن الحكم الفرنسي في الجـزائر ، ولكنـه دراسة تاريخية لحركة رد الفعل الجزائري الذي نتـج عن ذلك الحكم . وقـد دفعني الى اختيار هذا الموضوع بالذات عدة عوامل منها عـدم وجود دراسـة جادة عن الحـركة الوطنية الجزائرية ، وطريقة تناول الفرنسيين لتاريخ الجزائر كتابة وتفسيراً ، وأخيراً ظهور الجزائر الآن كعضو نشيط بين الدول النامية .

كلما أخبرت الناس في أمريكا عن موضوع هذا الكتـاب نظروا إليّ بتعجب قائلين : « جئت إلى هذا البلد لتتعلم عن بلادك ! » أن هذه القصة تذكرني بقصة أخرى . فالمثقفون الجزائريون بالفرنسية اعتادوا أن يقـولوا للمستمعين العـرب في الشرق : « اننا ضحايا الإستعمار الذي فرض علينا أن نتعلم لغته ونجهل لغتنا » . ومؤلف هذا الكتاب هو « ضحية » أخرى ، ولكن بطريقة مختلفة . فرغم أنه مثقف بالعربية ، التي كان عليه أن يهاجر لكي يتعلمها ، فإنه لم يدرس ولو مادة واحدة في تاريخ الجزائر . فهو ، كبقية الجزائريين ، لا يعرف عن ماضي الجزائر أكثر مما يعرف رجل الشارع الأمريكي أو الصيني . بل ان الجزائريين المثقفين بالفرنسية لم يدرسوا تاريخ الجزائر ، لأن الكتب الفرنسية المقررة اعتادت أن تبدأ بهذه العبارة « أن أجدادنا هم الغاليون . . » .

عندما كانت حرب الإستقلال الجزائرية في أوجها اعتاد الناس في أمريكا أن يسألوني : « لماذا أنتم أيها الجزائريون ثائرون ضد فرنسا ، ألم تحضر اليكم الحرية والحضارة ؟ » انه يبدو أن كثيراً من الناس ما يزالون يعتقدون ذلك في الحكم الفرنسي في الجزائر . فهم يعتقدون بأنه ما دامت الجزائر كانت قطعة من فرنسا فلا بد أنها قد تمتعت بكـل امتيازات الـديمقراطيـة والحضارة ، فلم يخـطر على بالهم أبـداً بأن الجزائريين ، بالرغم من أنهم كانوا « فرنسيين » ، كانوا يعيشون « رعايا » تحت قانون

خاص يدعى « قانون الانديجينا » (الأهالي) ، وأنه عندما تحقق الإستقلال كان أكثر من 92 ٪ من الجزائريين أميين ، رغم أن الجزائر قد بقيت تحت الحكم الفرنسي 132 سنة .

وقد يبدو للبعض بأن هذه الدراسة تعبر عن وجهة نظر واحدة وانها تنتقد الحكم الفرنسي في الجزائر بشدة . والحق أن ذلك ليس من نية ولا من هدف المؤلف . فاذا كانت تبدو كذلك ، فليس ذلك الا نتيجة لطبيعة المشكل وفذاذة الوضع . اننا نجد اليوم كثيراً من الكتاب الفرنسيين أنفسهم (مثل جوليان ، وأجرون ، ونوشي ، وتيليون ، وروي ، وسارتر ، ولاكوست ، وجونسون الخ . . .) يأخذون نفس الموقف ، وان نظرة سريعة الى المصادر ستظهر بأن معظم المعلومات قد أخذ من مصادر فرنسية لم تستغل من قبل . وبالإضافة إلى ذلك فإن المؤلف مقتنع بأن الموضوعية ليست كلمة تأدب أو موقفاً محايداً ، ولكنها محاكمة وحكم قد يكونان ، في بعض الأحيان ، قاسيين جداً .

وقد اخترت فترة 1900 ـ 1930 لأنها غالباً ما أهملت ممن أرخوا للحركة الوطنية الجزائرية . وسيجد القارىء معلومات ضرورية تتناول هذه الحركة في القرن الماضي في فصل مدخلي طويل . وكقاعدة فإن كل فصل يبدأ بمدخل حقائقي عن السياسية الفرنسية في الفترة المعنية ، تليه دراسة مفصلة عن رد الفعل الجزائري لهذه السياسة ، وينتهي بخاتمة . وهكذا فإن الحركة الوطنية قد درست من خلال تعبيرها الثقافي ، ونضالها السياسي ، ونشاطاتها الإجتماعية ، ومقاومتها العسكرية . كما أن كل حزب سياسي أو هيئة اجتماعية قد درست على حدة ، وان تراجم شخصية قد أعدت للأفراد الذين أثروا على هذه الحركة .

وما دامت الحركة الوطنية الجزائرية قد تأثرت بالمذاهب المعاصرة ، فإن هذه الدراسة قد احتوت على مناقشة العلاقة بين الحركة الوطنية وأهم الأيديولوجيات المعاصرة. لذلك فإن جزءاً من هذا الكتاب قد خصص للجامعة الإسلامية، والشيوعية، والديمقراطية، بالإضافة الى القوات المركزية، والعالم العربي، في علاقتها جميعاً بالحركة الوطنية. ولكن المؤلف يعترف بأن هناك أشياء كثيرة ما زالت تنتظر البحث حول هذه العلاقة، والهدف الرئيسي من هذه المحاولة هنا هو الإشارة إلى أنه لا يمكن دراسة الحركة الوطنية الجزائرية بدون ربطها بالأحداث والمذاهب المعاصرة.

ورغم عدم وجود احصاءات حيوية عن الحركة الوطنية ، فإن المؤلف قد أعد بعض الإحصاءات عن الأحداث الهامة ، كما أعد قاموساً قصيراً بالكلمات العربية الـواردة في النص . ونظراً لعـدم وجـود وثـائق ضـروريـة عن الحـركـة في اللغـة الإنكليزية ، فإن المؤلف قد ترجم بعضها من العربية والفرنسية ووضعها في شكل ملاحق . وبالإضافة إلى ذلك فقد وضعت قائمة مختصـرة لأسماء المجـلات التي تحتوي عناوينها على أكثر من كلمة(*).

ان هذا العمل لا يتوقع أن يكون كاملاً لأن الطاقـة الإنسانيـة ، مهما كـانت مـواردها ، محدودة . فكثير من البحث ما زال ضرورياً لإزالة الغطاء عن معلومات أكثر حول هذه الحركة . وحين يتحقق ذلك فـإنه سيسمـح بامتحـان جديـد للمواد المستعملة في هذا الكتاب . ومن الملاحظ أن معظم المصادر المستعملة هنا هي مقالات ووثائق لم يتح فيما يبدو ، استغلالهـا من قبل . والـذي ألجأني الى هـذه الطريقة هو عدم البحث سابقاً في هذا الحقل . فما يزال هناك فراغ في المعلومات سيملأ بالرسائل والمذكرات والتراجم الشخصية لأولئك الذي شاركـوا في الحركـة الوطنية أو لاحظوها عن قرب ، وإذا كانت هناك أية مساهمة قد قام بها هذا الكتاب ، فإنها تتمثل في محاولة القاء الضوء على فترة كانت حتى الآن غامضة ، وعلى بلاد ظلت أكثر من قرن في عزلة مفروضة .

وان كان لا بد من كلمة أخيرة فإن من هذه الدراسة مدينة لكثير من الأشخاص والمعاهد . فهي مدينة بعمق للبروفيسور هارولدس . دويتش ، رئيس قسم الدراسات التاريخية بجامعة مينيسوتا ، الذي أشرف على دراستي مدة أربع سنوات ، وللسيد والسيدة روبيرل . ميلكا اللذين تفضلا بقراءة المخطوط وقـدما اقتـراحات بنـاءة ، ولموظفي مكتبة والتر بجامعة مينيسوتا الذين قدموا الى خدمة كبيرة من خلال « برنامج الإستعارة الداخلية بين المكتبات » . ثم ان الدراسة مدينة لأخي علي وخالي المرحوم الحفناوي هالي اللذين بعثا إليّ بوثائق ضرورية من الجزائر وفرنسا ، ولأساتذتي في جامعة مينيسوتا على نصائحهم وتشجيعاتهم .

أ . سعد الله مينيابوليس (مينيسوتا)

جوييه ، 1965

(*) انظر المختصر في آخر الكتاب .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الأول

أصول الحركة الوطنية الجزائرية إلى 1900

1/. سياسة فرنسا في الجزائر :

في 30 جانفي سنة 1830 ، قررت الحكومة الفرنسية ، التي كانت تحت رئاسة دي بولينياك ، أن تبعث حملة ضد الجزائر . وقد بررت هذه الحركة بعدة أسباب ، منها الانتقام من الجزائر التي أهان الداي حاكمها الشرف الفرنسي حين ضرب القنصل الفرنسي بمروحة أمام جمهور ديبلوماسي . ومنها وقف القرصنة وتخليص أوروبا من مصدر القلق والإضطراب . ولكي تقدم فرنسا حجتها بصفة نافذة ومؤثرة ، عمدت الى التركيز على السبب الأول بالنسبة الى الرأي العام الفرنسي ، بينما ركزت على السبب الثاني بالنسبة إلى الرأي العام الأوروبي .

ولكن هذه الأسباب لم تكن هي الوحيدة أو الرئيسية . فقد بقي على المؤرخين أن يشرحوها كاملة وبوضوح . ذلك أن من أهداف الحملة التي لم يذكرها الفرنسيون عندئذ ما يلي : (1) زيادة شعبية نظام الملك شارل العاشر غير المحبوب . (2) الفرار من دفع دين كانت الجزائر قد أعطته إلى فرنسا ، بدون فائدة ، عام 1797. ، بينما كانت فرنسا تعاني من الحصار الإنكليزي . (3) مزاحمة الدول الأوروبية الأخرى ، وخصوصاً بريطانيا ، على خلق امبراطورية جديدة[1].

وعلى أية حال فان الجيش الفرنسي قد نزل بقرب الجزائر العاصمة يوم 14 جوان ، سنة 1830 ، وبعد قتال مرير وخسائر فادحة من الطرفين ، استسلمت

---

(1) يكفي هنا أن نشير الى مصدرين فقط : أحدهما جزائري ، وهو فرحات عباس ، « الليل الاستعماري ، حرب وثورة الجزائر » ، م.ا. ، (باريس : جوليارد ، 1962) ، ص 24 ـ 46.
أما الآخر فهو فرنسي ، روبير أرون ، وآخرون ، « أصول حرب الجزائر » نصوص ووثائق معاصرة ، (باريس : فيارد ، 1962) ، ص 31 .

الحكومة في 5 جويبه ، من نفس العام[2] ، ثم أمضى كل من الداي رئيس الدولة الجزائرية والكونت دي بورمونت ، القائد الأعلى للجيش الفرنسي ، معاهدة ، تعرف بإتفاق الجزائر . وقد نصت مادة 5 من هذا الاتفاق على ما يلي : حرية العمل بالدين الإسلامي ، ضمان حرية جميع الطبقات والأديان ، والممتلكات والتجارة ، والصناعات ، واحترام كامل للمرأة الجزائرية . أما مادة 2 فقد نصت على احترام التقاليد الجزائرية ، وعلى أنه لن يؤذن للجنود الفرنسيين بدخول المساجد الجزائرية[3].

وهكذا وعدت فرنسا الجزائريين بحرية الدين ، واحترام المرأة ، والممتلكات ، والتقاليد التي لا شك أنها شملت اللغة والرموز الوطنية للبلاد باستثناء السيادة . ولكن بعض المؤرخين الفرنسيين يدعون بأن الجزائر قد سلمت « بدون شرط »[4] ، غاضين النظر عن الحقيقة وهي ان اتفاق الجزائر كان قد أمضاه ممثلهم .

وبالإضافة الى ذلك ، فان الفرنسيين قد قدموا أنفسهم الى الجزائريين على أنهم محررون ، لا منتصرون . ففي بيان بالعربية وزعه عملاء خاصون عشية النزول بالجزائر ، ادعى الفرنسيون بأن حركتهم كانت تستهدف القضاء على الداي « الطاغية » فقط ، وان كل الممتلكات ، وقضايا الأسرة ، والبلاد نفسها ستبقى في يد الجزائريين ، وان المساجد وأماكن العبادة ستحترم بصفة نافذة ، وان الفرنسيين « سيحررون » الجزائر من الطغيان التركي[5].

---

(2) أخبر دي صاد ، الذي كان عضواً في اللجنة الأفريقية ، المجلس الوطني الفرنسي عام 1834 بأن الجزائريين قد حاربوا الجيش الفرنسي بمائة وخمسين ألف رجل ، من غير جنود الداي ، انظر « م .و. » (29 أبريل ، 1834) . ولنذكر بأن العدد المشار اليه يتعلق فقط بمقاطعة الجزائر عندئذ ، ولا يشمل مقاطعتي وهران وقسنطينة .

(3) نيفيل باربور ، (محرر) ، « مدخل الى شمال ـ غرب أفريقيا » « المغرب » ، ط 2 (لندن : نشر جامعة أكسفورد ، 1962) ، ص 213 .

(4) أرون ، ص 31 .

(5) ان نص هذه الوثيقة الهامة منشور في أصله العربي ، مع ترجمة فرنسية حرفية بقلم م. بريسني ، في « ر.ا. » م 6 (1862) ، ص 153 ـ 156 . وقد أعطى الوثيقة الى المجلة الدكتور ليكليرك ، الذي حصل عليها من مكتبة أميان . والترجمة الفرنسية مسبوقة بمقدمة كتبها م.أ. بيربر وغر ، رئيس تحرير المجلة ، الذي قال بأن الوثيقة لم تنشر أبداً من قبل ، وفي الحقيقة ، فإن نسخة من هذا البيان كانت قد نشرت في الصحيفة الفرنسية « م.و. » (2 جوان ، 1830) كما نشرت الصحيفة الانكليزية «ذي =

وأثناء الفترة التي نتناولها (1830 ـ 1900) مرت فرنسا نفسها بعدة أنواع من نظم الحكم : شملت العودة الى الملكية (1815 ـ 1848) ، والجمهورية الثانية (1848 ـ 1852) ، والامبراطورية الثانية (1852 ـ 1870) ، والجمهورية الثالثة (1871 ـ 1940) . ولكن الجزائر كانت قد عاشت تحت نوعين فقط من نظم الحكم هما : النظام العسكري من 1830 إلى 1870 ، والنظام المدني منذئذ . ورغم عدم تجربتهم ، فقد وجد الفرنسيون أنفسهم وجهاً لوجه أمام شعب يختلف عنهم تماماً في اللغة ، والدين ، والتقاليد ، ودرجة الحضارة(6) . وهكذا بدأوا يحكمون بطريقة مباشرة نظراً لإنعدام ظل أية واسطة بينهم وبين الشعب . وبالإضافة الى ذلك ، فإنهم قد وجدوا أنفسهم أمام مقاومة شديدة ، عسكرياً وسياسياً من جميع أطراف الجزائر ، والنتيجة ، كما كانت متوقعاً ، هي الإضطراب والفوضى ، زادهما سوءا حدوث ثورة جوييه في فرنسا التي حدثت بعد أيام قليلة فقط من وصول أخبار « النصر » في الجزائر الى باريس .

ويسمي الفرنسيون الفترة الواقعة بين 1830 ـ و 1834 عهد التردد . وهذا يعني أنه بينما كانت باريس مشغولة بمؤامراتها الثورية ومناوراتها الديبلوماسية في أوروبا ، كان للجيش الفرنسي في الجزائر كامل الحرية في معالجة الوضع بالطريقة التي يراها مناسبة . وعندما وصلت إلى باريس أخبار الاصطدامات السياسية والعسكرية بين الجزائريين والجيش الفرنسي بواسطة حملة نظمتها جماعة جزائرية منفية وصحافة المعارضة الفرنسية ، أجابت باريس بإرسال لجنة تحقيق تعرف باللجنة الافريقية(7) . وبعد بحث طويل قدمت اللجنة الافريقية تقريراً استنكرت فيه تصرفات

ليفيربول ميركوري» ترجمة للنص الفرنسي (18 جوان ، 1830) . أنظر مقالنا « أول بيان فرنسي الى الشعب الجزائري » في مجلة (المعرفة) الجزائرية عدد مارس 1965 ، ص 5 ـ 13 .

(6) معظم المؤرخين الفرنسيين يعترفون بنقص المعلومات والكفاءة عند اداريهم الأولين ، ولكنهم يضعون اللوم على كاهل الجزائريين « غير الموثوق فيهم » . أنظر . ج . ايسكي ، « تاريخ الجزائر » ، ص 7 ، كما أشار اليه أرون ، ص 32 .

(7) عينت الحكومة هذه اللجنة عام 1833 . وسافرت اللجنة الى الجزائر في 28 أوت ، وعادت الى فرنسا في 19 نوفمبر من نفس العام . وقد زارت خلال جولتها الجزائر العاصمة ، متيجة ، البليدة ، وهران ، عنابة ، وارزيو . أنظر عن اللجنة الأفريقية كتابنا « تاريخ الجزائر الحديث ، بداية الاحتلال » ، معهد الدراسات العربية ، (القاهرة، 1970) .

الجيش الفرنسي في الجزائر بهذه العبارات :

« لقد حطمنا . . ممتلكات المؤسسات الدينية . وجردنا السكان الذين وعدناهم بالإحترام . وأخذنا الممتلكات الخاصة بدون أي تعويض . . وذبحنا أناساً كانوا يحملون عهد الأمان . . وحاكمنا رجالاً يتمتعون بسمعة القديسين في بلادهم . . لأنهم كانوا شجعاناً لدرجة أنهم صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين[8] » . ولكن اللجنة قد أوصت بالإبقاء على الجزائر « ملكا » لفرنسا ، وبإدارتها بواسطة حاكم عام عسكري .

وبناء على هذه التوصيات ، فإن الحكومة الفرنسية قد أصدرت قرارها المشهور في 22 جوبيه سنة 1834 ، الذي اعترف بالإحتلال كحقيقة واقعة والذي نص على انشاء منصب حاكم عام عسكري ليدير « الممتلكات الفرنسية في أفريقيا الشمالية[9] » . وقد كان الجنرال درويت ديرلون هو أول حاكم عام للجزائر ، يساعده مجلس مكون من موظفين عسكريين ومدنيين .

وبينما أعلن قرار سنة 1834 ان الجزائر « أرض فرنسية » ، فانه قد قسمها إدارياً إلى ثلاث ولايات (ديبارتومان) تحت المراقبة المباشرة للحاكم العام . وكل ولاية كانت قد قسمت الى دوائر (أروندسمان) ، وبلديات (كومون) ، تماماً مثلما كان الحال في فرنسا . وبالإضافة إلى ذلك فان كل ولاية كانت تبعث بنائب الى المجلس الوطني الفرنسي . ان هذه الاجراءات الاندماجية كانت قد أصبحت شرعية بدستور سنة 1848 الذي نص على أن الجزائر كانت تشكل جزءاً مكملاً لفرنسا . ومن ناحية أخرى أكدت فرنسا للكولون الجدد تأييدها المعنوي والمادي[10] .

كلا الخطوتين : قرار سنة 1834 وتصريح دستور سنة 1848 كان حجر زاوية

---

(8) أشار الى ذلك عباس ، ص 76 ـ 77 . أنظر أيضاً تقرير دي صاد الى مجلس النواب في «م . و .» (29 أبريل ، 1834) .

(9) أرون ، ص 33 ـ 34 .

(10) نفس المصدر ، ص 42 ، كانت الجزائر ، قبل الاحتلال الفرنسي ، مقسمة الى ثلاث ولايات : وهران في الغرب ، وقسنطينة في الشرق ، وطيطري في الوسط ، وكان على رأس كل ولاية باي معيناً من طرف الداي ، رئيس الدولة ، أما مدينة الجزائر نفسها فقد كانت مقر الحكومة والعاصمة الوطنية لكامل القطر ، وقد ورث الفرنسيون نفس النظام وحافظوا عليه .

في العلاقات الجزائرية ـ الفرنسية . ذلك أن فرنسا قد خطتهما من غير احترام لاتفاق الجزائر ولبيان سنة 1830 ومن غير مشاورة الجزائريين[11]. وكلا التشريعين قد جعل الجزائر في الحقيقة « أرضاً شاغرة » مع كل ما يستلزم ذلك من ازالة ذاتيتها التاريخية وشخصيتها الوطنية كما أدى ذلك إلى حلها كدولة ، والى طرد حاكمها ، والى منع تطورها الطبيعي[12] .

وقد اتبع الفرنسيون سياسة الاحتلال الجزئي تحت أول حاكم عام عسكري . فقد حصنوا أهم المدن الساحلية ، كما ظهرت علامات الاستعمار والثقافة الفرنسية . أما ادارة الأرياف فقد اعتمد الفرنسيون فيها على المكاتب العربية (بيرو أراب) التي كان يرأس كلا منها ضابط فرنسي . ولكن سياسة الإحتلال الجزئي قد بدأت تترك المجال شيئاً فشيئاً لسياسة الاحتلال الكلي بإستعمال كل ما يمكن من الوسائل الضرورية لتحقيق هذا الهدف . وكان الجنرال بوجو ، الذي أصبح حاكماً عاماً للجزائر سنة 1840 ، هو الذي عهد اليه بتحقيق هذه السياسة الجديدة .

والحق أن الجنرال بوجو كان يقيم سياسته بصراحة على حسب النتائج التي تحققها[13] . فكل شيء يقف في طريق الوصول إلى هدفه كان يجب أن يزول مهما كانت قيمته . وكان بوجو ، الذي عمل في الجزائر من قبل ، يضع أمام عينيه هذه الفكرة حين أخبر زملاءه في المجلس الوطني (كان عندئذ نائباً أيضاً) سنة 1840 بأن الاحتلال الجزئي لا طائل تحته . ورأى بأن احتلال الجزائر يجب أن يكون بإستعمال

---

(11) يروي السياسي الجزائري حمدان خوجة بأنه ، حين احتج لدى القائد الفرنسي الجنرال كلوزيل ، الذي خلف الكونت دي بورمونت سنة 1830 ، ضد خرق فرنسا للاتفاق المشترك ، أجابه كلوزيل بأن فرنسا « غير مجبرة على احترام هذا الاتفاق ، لأنه لم يكن ، في نظرها ، سوى لعبة حرب » أشار إلى ذلك جورج ايفير ، « سي حمدان بن عثمان خوجة » في « ر.ا. » م 57 (1913) ، ص 138 .

(12) عباس ، ص 55 . ويشير المؤلف أيضاً الى أن الممثل الفرنسي في الأمم المتحدة ، م.هـ. الفاند ، قد قال ، مدافعاً عن موقف بلاده من المشكل الجزائري (سنة 1955) ، بأن : الجزائر هي فرنسا منذ 1834 ، مثل بريطاني منذ 1491 ، والالزاس منذ 1648 ، وكورسيكا منذ 1769 ، وصافوي منذ 1860 ، ص 30 .

(13) حين لامته الصحافة على تصرفاته العسكرية ضد الجزائريين عام 1845 ، رد بوجو : « لقد حرقنا كثيراً ، وخربنا كثيراً . . ولكن ما دمت مقتنعاً بأنني قد فعلت شيئاً لبلادي ، فإني أعتبر نفسي فوق ملامة الصحافة ، » أشار الى ذلك باربور ، ص 218 .

طريقة « الأرض المحترقة » . وبعد أن عين حاكماً عاماً ، أعطى بوجو جنوده الأوامر بأن يخلقوا جواً من الرعب تستحيل فيه الحياة المادية للجزائريين . لذلك اشتملت أوامره اليومية على التالي : حرق المحاصيل الزراعية ، وحجز النساء والأطفال اما كرهائن واما للبيع للحصول على الخيول ، وخنق قبائل كاملة في الكهوف ، ومناظر الرعب والهلع[14] .

وباستعمال العمليات العسكرية تحت شعار « الأرض المحترقة » نجح بوجو في اضعاف المقاومة الجزائرية التي كان يقودها الأمير عبد القادر، الذي أرغم على التسليم بعد عدة شهور فقط من مغادرة بوجو للجزائر عام 1847 . ولكن بوجو لم يحتفل بسياسة الإحتلال الكامل فقط، ولكنه احتفل بسياسة «الإستعمار الرسمي» أيضاً.

فقبل بوجو كان يقوم بالاستعمار في الجزائر رواد مدنيون . أما بوجو فقد جعل الاستعمار مشروعاً عسكرياً بصفة رسمية . ولهذا الغرض شجع الزواج بين الجنود ، وهو المعروف « بزواج الطبول » حيث يأخذ الجندي سبعمائة فرنك ، وقطعة أرض وغير ذلك من المساعدات، والحق أن بوجو أراد أن يجعل من الجنود مستعمرين « كولون » . والجمهورية الثانية التي جعلت الجزائر « دستورياً » جزءا من فرنسا ، قد استمرت في سياسة بوجو الاستعمارية الرسمية ، ولكن بواسطة مدنيين . وبالإضافة الى ذلك فان الجمهورية الثانية قد قوت سياستها الاستعمارية بنفي المتهمين بمضادة الثورة (ثورة 1848) الى الجزائر حيث وجد هؤلاء « هدايا » من الأرض تنتظرهم . كما وجه الفرنسيون نداءات إلى الأجانب في أوروبا بالهجرة الى الجزائر[15] .

كتب نابوليون الثالث ذات مرة الى الجنرال ماكماهون الحاكم العام في الجزائر ، يقول له بأن الجزائر « مملكة عربية » ومستعمرة أوروبية ، ومعسكر فرنسي[16] . ان هذا القول قد حير المؤرخين المعاصرين والحاضرين . ماذا كان في

---

(14) انظر عباس ، ص 52 ـ 53 ، 63 ـ 74 وارون ، ص 35 ـ 36 .

(15) في عام 1905 كتب أناتول فرانس عن الاستعمار قائلاً بسخرية « أننا ، منذ سبعين سنة ، قد جردنا العرب (من أراضيهم) ، وطاردناهم ، واضطهدناهم لكي نعمر الجزائر بالايطاليين والاسبانيين » . أشار الى ذلك شارل هنري فافرو « الثورة الجزائرية » (باريس : بلون ، 1959 ، ص 20 ، أنظر بخصوص أنواع الأراضي التي اغتصبها الفرنسيون ، أرون ، ص 40 ـ 41 .

(16) فافرو ، ص 14 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

عقل نابوليون نحو الجزائر ؟ ليس هناك أحد يعرف حقاً[17] . وعلى أية حال ، فان نابليون قد عين الماريشال راندون حاكماً عاماً عسكرياً على الجزائر ، وقد بقي راندون في منصبه من 1851 الى 1858 ، وقاد حملات عسكرية كبيرة ضد المقاومة الجزائرية في القبائل وفي المناطق الصحراوية ، وفي سنة 1858 قرر نابليون أن « يدمج » الجزائر في فرنسا وذلك بخلق وزارة الجزائر والمستعمرات التي يرأسها ابن عمه جيروم . ولكن جيروم استقال من منصبه بعد سنة فقط .

وخلال هذه الأثناء أطلق نابوليون (سنة 1852) سراح الأمير عبد القادر بعد حوالي خمس سنوات من السجن[18] . وفي نفس الوقت كانت هناك مناقشة حادة في فرنسا حول صلاحية سياسة الاندماج في الجزائر ، وشيئاً فشيئاً أصبح نابليون قلقاً من الحالة ، لذلك قرر ، في سبتمبر 1860 ، أن يزور الجزائر لأول مرة . وعندما رجع من رحلته كان مقتنعاً بأن سياسة الاندماج لم تنجح . ونتيجة لذلك ألغى وزارة الجزائر والمستعمرات في نفس العام وأعاد الحاكم العسكري الى الجزائري وعين لذلك الجنرال بيليسي كحاكم عام .

وتحت تأثير أفكار الأمير عبد القادر واسماعيل عربان رأى نابوليون أن يخلق مملكة عربية في الجزائر[19] . ففي رسالة - برنامج بعث بها الى بيليسي (6 فيفري ، 1863) أمره فيها بوقف مصادرة الأراضي ، وإعلان المساواة الكاملة بين الجزائريين

---

(17) كانت سياسة نابوليون ، قبل الثورة الجزائرية 1954 - 1962 ، تعتبر فكرة رومانتيكية . ومنذئذ ظهر اتجاه جديد بخصوصها . من بين الذين يأخذون بهذا الاتجاه شارل - روبير أجرون في مقاله ، « الجزائر الجزائرية تحت نابليون الثالث » في « بروف » (فيفري 1961) ص 3 - 13 .

(18) لاحقاً . ص 48 .

(19) يقول أرون بأن نابليون كان قد « انبهر » بنبالة الأمير عبد القادر الذي كان قد أطلق سراحه ، ص 42 - 43 . أما بخصوص تأثير أفكار عربان على نابليون فانظر أجرون ، « بروف » (فيفري ، 1961) ص 3 - 13 ، وارون ، ص 44 - 45 . أنظر كذلك شارل - أندري جوليان ، « تاريخ الجزائر المعاصرة » م.١. (باريس : بريس أو نيفير سيتير دي فرانس ، 1964) ، ص 423 كل هؤلاء الكتاب يتفقون على أن عربان قد لعب دوراً « حاسماً » في توجيه سياسة نابوليون نحو الجزائر . كان عربان يؤمن بسياسة « الجزائر للجزائريين » . وقد عبر عن ذلك في مختلف الكتيبات وفي رسائله الى نابوليون ، كما وقف ضد استعمار الأرض وأيد فكرة مد يد المساعدة الفرنسية للجزائر . ومما يذكر أن عربان كان مترجماً لنابوليون كما كان مترجماً في الجيش الفرنسي .

والفرنسيين، والتصريح بأن فرنسا لم تكن في الجزائر لاضطهاد أهلها ولكن لتجلب اليهم الحضارة ، والإخبار بأن الجزائر لم تكن مستعمرة ولكن مملكة عربية ، واعلامهم بأن نابليون كان أمبراطور العرب كما هو أمبراطور الفرنسيين[20] . ولكي يؤكد هذه السياسة أصدر نابليون القرار المعروف بساناتوس ـ كونسولت لسنة 1863 ، أوقف به استعمار الأراضي واعترف فيه بحق الجزائريين في التمتع دائماً بالأراضي التي كانت لهم بالتقاليد[21] .

ولما كان نابليون يتطلع الى رؤية نتائج سياسته معاينة ، فقد قرر أن يزور الجزائر مرة ثانية. وفي عام 1865 (من 3 ماي الى 7 جوان) زار أهم المدن والقرى في الجزائر حاملاً معه فكرة خلق «الكيان الجزائري» ولكن ماكماهون، الحاكم العام الجديد والكولون قد استقبلوه ببرودة وشك[22] . ولما رجع الى باريس بعث برسالة (20 جوان ، 1865) الى ماكماهون تتضمن ثماني وثمانين صفحة بعنوان « سياسة فرنسا في الجزائر » تناول فيها جميع الموضوعات العزيزة على الجزائريين وأصدقائهم[23] .

ولكن أطول تشريع عهدا قام به نابليون بخصوص الجزائر هو قراره المعروف بساناتوس ـ كونسولت لعام 1865 (14 جوييه) أي بعد حوالي شهر فقط من عودته الثانية من الجزائر ، وقد نص هذا التشريع بأن الجزائريين رعايا فرنسيون ولكنهم يخضعون لأحكام الشرع الاسلامي . فاذا طلب أحدهم الجنسية الفرنسية فانه يحصل عليها ، ولكن في هذه الحالة يصبح خاضعاً للقانون الفرنسي ، وهكذا فان الجزائريين قد أصبحوا فرنسيين من ناحية ورعايا فرنسيين من ناحية أخرى . وقرار 1865 قد أوضح بأن الجنسية الفرنسية غير متناسبة مع حالة المسلم الجزائري ما دام هذا يعيش بمقتضى الشرع الاسلامي . وقد قدر لهذا القرار أن يستمر ، مع بعض

---

(20) جوليان ، ص 424 ـ 425 .
(21) أرون ، ص 46 .
(22) جوليان ، ص 431 .
(23) يقول أرون بأن نابليون قد استدعى عربان لوضع صيغة الرسالة . كما يشير بكل وضوح الى معارضة الكولون لسياسة نلبوليون ، أنظر أرون ، ص 46 .

التعديلات سنة 1919 ، إلى سنة 1947[24] . لذلك كان على الحركة الوطنية الجزائرية أن تلجأ الى العنف لكي تتخلص من تشريع نابوليون التاريخي.

ولكن خطة نابوليون « لانهاء الاستعمار » وانشاء مملكة عربية ، وكيان جزائري ، والتوفيق ، قد فشلت تماماً . ويعزو بعض المؤرخين هذا الفشل الى عدم تعاون الحاكمين العامين في ذلك الوقت وهما بيليسي وماكماهون اللذين لم يكونا يثقان في عربان ، مستشار نابوليون ، ولا يشجعان سياسة نابولیون في الجزائر ، متآمرين على ذلك مع الكولون[25] . وهناك من المؤرخين من يلوم الكولون . فقد كتب الجنرال هانوتو ذات مرة يقول : « كل ما يحلم به الكولون هو اقامة بورجوازية اقطاعية ، يحميها الجيش ، ويقومون هم فيها بدور السادة ، أما الأهالي (الجزائريون) فيؤدون فيها دور العبيد[26] » . بل ان هناك من المؤرخين من يلوم نابليون نفسه على فشل سياسته . فهم يقولون بأن سياسته كانت غير واضحة . وبالاضافة الى ذلك فهم يلومونه على الاعتماد على موظفين غير موثوق بهم لتطبيق برنامجه في الجزائر[27] .

وقبل أن تشفى الجزائر من عهد النكبات (1866 ـ 1869) ، سقطت الامبراطورية الثانية [28] . وقد أعطى هذا الحادث للكولون أعظم فرصة للفرح كما أعطاهم حرية الحركة في الجزائر . فقد عاشوا ، حوادث الكومون الباريسي ، وأنشأوا من جهتهم لجنة الانقاذ الوطني وشرعوا في تطهير موظفي الامبراطورية المنهارة فطردوا الحاكم العام بالنيابة . و. أيستر هازي من قصره وذلك لسياسته اللبيرالية ، بينما استقال والي عمالة الجزائر خوفاً على حياته .

---

(24) نفس المصدر ، ص 47 وجوليان ، ص 433 .

(25) جوليان ص 423 ، وأرون ص 433 .

(26) أشار الى ذلك أرون ، ص 47 ـ 48 .

(27) نفس المصدر ، ص 46 وباربور ، ص 221 . ويلوم باربور أيضاً نابوليون ، « بطل مبدأ القوميات » ، على عدم اجراء استفتاء في الجزائر كما فعل في نيس وصافوي .

(28) أصيبت الجزائر في هذا الوقت بقلة الزرع ، والزلازل ، والكوليرا ، وتقدر الخسائر في الأرواح بثلاثمائة ألف نسمة ، وهناك بعض المؤرخين يلومون الحكومة الفرنسية على وقع هذه المصائب على السكان ، أنظر جوليان ، ص 439 .

أما باريس فقد أمطرت الجزائر بوابل من القرارات التي بلغت ثماني وخمسين قراراً في ظرف خسمة شهور[29] . من بينها قرار ينشىء منصب حاكم مدني (كما طلب الكولون) وآخر يلحق الجزائر مباشرة بفرنسا بواسطة دمج شؤونها في مختلف الوزارات بالحكومة الفرنسية في باريس . وبالإضافة الى ذلك هناك قرار كريميو الذي قضى بتجنيس يهود الجزائر جملة من غير منحهم أي خيار . وقد كان الجنرال ادميرال دي غيدون هو أول حاكم عام مدني رغم أنه كان عسكرياً .

وهكذا ، فان سياسة الاندماج ، والاستعمار . والالحاق كانت قد نظمت ، وأنعشت ، وأعطيت رسمياً بركات الحكومة في باريس ، وقد أعطت ثورة الجزائر عام 1871[30] عذراً للسلطات الفرنسية لمصادرة الأراضي وحشد الجزائريين في مناطق معينة اختيرت لهذا الغرض ، كما أعطتهم عذراً ليفرضوا على الجزائريين دفع ضريبة حرب باعتبارهم شعباً مهزوماً[31] .

وسياسة الاندماج التي اتبعتها الجمهورية الثالثة قد قسمت الجزائر داخلياً الى ثلاث ولايات في الشمال ومنطقة عسكرية في الجنوب . وقد قسمت كل ولاية الى نوعين من البلديات (كومون) : بلديات ذات سلطات كاملة حيث كان عدد الكولون كبيراً، وبلديات مختلطة حيث كان عددهم قليلاً. وكان النوع الأول يشبه ما كان يجري في فرنسا نفسها ، فينتخب الكولون رئيس بلديتهم ويقيمون بلدية منهم . وقد شارك بعض الجزائريين المسلمين المعينين من السلطات الفرنسية في هذه البلديات كمساعدين ومستشارين .

أما النوع الثاني من البلديات (وهي المختلطة) فقد كان تحت الرقابة المباشرة لاداريين فرنسيين يسميهم والي الولاية ويملكون كل السلطات لمعالجة أي موقف شخصياً وحالياً . ولهؤلاء الاداريين مساعدون ومستشارون جزائريون تسميهم السلطة الفرنسية أيضاً . وقد كان هؤلاء الاداريون مصدر شكوى متواصلة من الجزائريين، لأنهم كانوا يملكون قوة مطلقة . أما المكاتب العربية التي أخذ مكانها اداريون مدنيون

---

(29) أرون ، ص 49 .
(30) لاحقاً ، ص 52 .
(31) أنظر جوليان ، ص 493 ـ 495 .

في البلديات المختلطة تحت الجمهورية الثالثة ، فقد أصبحت مقصورة على المنطقة العسكرية في الجنوب (الصحراء) .

ومع هذه التنظيمات الاستعمارية والادارية في الجزائر ، فان الفرنسيين كانوا ما يزالون يواجهون مشكلة حادة ، وهي كيف ينجحون في سياسة الاندماج[32] فبعد مضي أكثر من عقد على التجربة تحت ادارة مدنية ، فان سياسة الاندماج كانت تبدو لكثير من الفرنسيين في ذلك الوقت فاشلة . وكانت هناك صرخات ضد هذه السياسة في المجلس الوطني ، وخصوصاً من النواب : جول فيري ، ميشلان ، وغوتي . أما الكولون ، الذين ازداد عددهم بعد سنة 1871[33] ، فقد كانوا ينادون من جهتهم بالحكم الذاتي في الجزائر وبحرية أكثر في مشاريعهم . وقد استنكر فيري أمام المجلس الوطني الاندماج بالعبارات التالية : « ان المستعمرات كالمعارك لا يمكن أن تدار من مكاتب احدى الوزارات» . ثم تأسف على أن « الكولون لم يتخلصوا من روح المنتصر[34] » .

وفي سنة 1887 اقترح جماعة من النواب الفرنسيين اعطاء الجنسية الفرنسية الى الجزائريين . فقد اقترح سنة 1889 جان جوريس ، الاشتراكي المعروف ، تحرير الجزائريين بمنحهم الجنسية الفرنسية ، دون طلبهم التخلي عن حالتهم الشخصية كمسلمين[35] . ففي خطبة له أمام المجلس الوطني طالب جوريس بتمثيل الجزائر في المجلس ، وزيادة الحقوق السياسية لشعبها قائلاً : « بعد نصف قرن فاننا نعالج جميع المشاكل الحيوية المتعلقة بهم (أي الجزائريين) مشاكل العائلة ، والملكية ، والضرائب ، والتربية ، ومع ذلك فليس فيهم من يسمح له بالاتيان هنا

---

(32) وهناك مشكل آخر وهو عداوة السامية ، التي كانت قد استوردت الى الجزائر من فرنسا . كان زعيم حركة عداوة السامية ماكس ريجس ، رئيس بلدية الجزائر العاصمة أواخر التسعينات من القرن الماضي ، أما بخصوص حركة عداوة السامية التي قادها الكولون ، فانظر فافرو ، ص 40 ـ 43 ، وعباس ، ص 94 ، وجوليان ، 29 ـ 30 ، ارون، ص 52 .

(33) كان هذا بسبب نقل بعض الآلاف من الالزاس واللورين بعد الحرب الفرنسية ـ الألمانية سنة 1870 ، كما أن قرار سنة 1889 قد جنس كل الأجانب المقيمين في الجزائر بالجنسية الفرنسية بصفة آلية ، أنظر أرون ، ص 50 ـ 51 .

(34) نفس المصدر ، ص 51 .

(35) عباس ، ص 88 .

(المجلس الوطني) . . للمطالبة بحقوقه[36] » .

ولكن كل هذه الصرخات الليبرالية كانت بلا جدوى . فقد ربح الكولون المعركة لما يملكونه من ضغط في المجلس الوطني وفي الدوائر المالية . وقد شاهدوا حلمهم يتحقق بقرار 23 أوت ، 1898 ، الذي أعطى للحاكم العام كل السلطات بخصوص المشاكل العسكرية والمدنية باستثناء العدل والتربية .

وبناء على هذا لقرار فقد أصبح يساعد الحاكم العام مجلس استشاري (مجلس الحكومة الأعلى) ونواب ماليون يضمون جزائريين مسلمين معروفين باخلاصهم لفرنسا ، وفرنسيون منتخبون لمعالجة المشاكل المالية ، ولكن ، لا يملكون حق التصويت ، وقد كللت هذه الاجراءات بقرار 19 ديسمبر ، 1900 الذي أنشأ الحكم الذاتي المالي للجزائر ، وهو الاجراء الذي نادى به الكولون ومؤيدوهم منذ وقت بعيد . وبالاضافة الى ذلك فان القرار الأخير قد أعطى للجزائر شخصيتها « الفرنسية » المدنية ، كما أعطاها ميزانيتها الخاصة التي يقترحها الحاكم العام ويناقشها النواب الماليون.

وهكذا ، فانه بمطلع القرن العشرين حقق الكولون حلمهم في انشاء حكم ذاتي كامل في الشوؤن المالية والمدنية للجزائر . وبناء على قانون ساناتوس - كونسولت لسنة 1865 ، فان الجزائريين لم يكونوا ، تحت النظام الجديد ، لا مواطنين فرنسيين ولا جزائريين وطنيين . فقد كانوا في نظر القانون الفرنسي رعايا ، وكانوا في نظر الكولون عبيداً ، « سلالة مقهورة » ، ولكنهم في نظر أنفسهم كانوا « لا شيء » . فماذا كان رد فعل الفرد الجزائري السياسي والعاطفي عن سياسة « اللاشيء » ؟ ان الجزء التالي من البحث سيحاول الاجابة على هذا السؤال .

---

(36) أشار إلى ذلك ارون ، ص 51 ـ 52 ، ولزيادة المعلومات عن رأي جوريس ، أنظر مقال شارل - روبير أجرون ، « جوريس والاشتراكيون الفرنسيون أمام المشكل الجزائري (من 1895 الى 1914) »، في (م.س.) (جانفي ، 1963) ، ص 3 ـ 29 .

2. رَدُّ الفعل السياسي والعاطفي :

عندما أمضت حكومة الداي الجزائرية اتفاق جوييه سنة 1830 مع القائد الفرنسي ، بدأت المقاومة الجزائرية . فقد نظم الجزائريون بزعامة حمدان خوجة أول حزب وطني سياسي ، يعرف « بلجنة المغاربة[37] » التي سنطلق عليها منذ الآن اسم حزب المقاومة . كان هذا الحزب مكوناً من الأعيان والبورجوازيين الجزائريين الذين كانوا على وعي بدورهم السياسي والوطني . وبالإضافة الى ذلك ، فان هذا الحزب كان مؤيداً من الشعب الذي عبر عن عواطفه بمؤتمرات تلقائية قرر خلالها ضرورة المقاومة ، وبأناشيد المداحين الذين كانوا يطوفون الأسواق والمقاهي ، منشدين الأغاني الوطنية ومنادين بطرد الفرنسيين[38] .

ولكن الباحث لا يستطيع أن يفهم معنى الحركة الوطنية الجزائرية في هذه المرحلة الا اذا عرف وقع الاحتلال على الجزائر ، وقبل أن نقدم الاتهامات التي وجهها حزب المقاومة ضد الفرنسيين ، دعنا نسمع ماذا يقول المؤرخون الفرنسيون أنفسهم عن تصرفات جيشهم في الجزائر . فالمؤرخ بوديكور ، الذي كان يكتب في السنوات الأولى من الامبراطورية الثانية ، يقول : « ان جندنا كانوا خجلين من أنفسهم عند عودتهم من الحملة (ضد بلاد القبائل) . . . فقط قطعوا 18,000 شجرة ، وحرقوا المنازل وقتلوا النساء ، والأطفال ، والشيوخ . وقد أثارت النساء المنكوبات بالخصوص رغبتهم في الثروة بعادة لبس الأقراط ، والخلاخل ، والأساور الفضية . وهذه الحلي ليس لها عرى كالحلي الفرنسية . فقد وضعت في شحمة آذان الفتيات منذ الصغر ، ولا يمكن ازالتها عندما يكبرن . ولكي يحصل جنودنا على هذه الحلي ، عمدوا الى قطع شحمة الآذان وتركها حية على تلك الحالة البشعة[39] .

ويصف المؤرخ الانكليزي ، نيفيل بربور ، وقع الحكم الفرنسي على الجزائر بالعبارات التالية : « ان بعض أحسن مساجدهم (أي الجزائريين) قد حول الى كنائس ، وأيام المواسم الاسلامية قد أبطلت شرعيتها ، وأراضي القبائل قد

---

(37) جوليان ، ص 95 .

(38) نفس المصدر ، ص 60 ـ 61 .

(39) « الحرب وحكومة الجزائر » (باريس ، 1853) ، كما أشار إليه باربور ، ص 44 .

صودرت ، وكل رمز وطني قد حطم[40] .

فإذا أضاف الانسان الى هذه الصورة وصف اللجنة الافريقية ، الذي سبقت الاشارة إليه، وإذا تذكر المرء سياسة « الأرض المحترقة » التي اتبعها الجنرال بوجو ، فإنه يفهم لماذا كان رد الفعل الجزائري على الحكم الفرنسي عنيفاً .

وحزب المقاومة ، الذي ظهر بعد التسليم الرسمي ، كان أول حركة ضد فرنسا . ذلك أن الفكرة الحديثة للكيان الوطني لم تكن مفهومة بوضوح لدى الجماهير الجزائرية . ولعل هذه الجماهير لم تسمع أبداً عن الثورة الفرنسية ، ولا عن شعاراتها القومية[41] . ولكن كان هناك بعض الجزائريين المتنورين الذين تابعوا أخبار هذه الثورة ، وحروب نابوليون ، وصرخات القومية في أوروبا . وقد خلق هؤلاء الجزائريون حزب المقاومة وعارضوا الاحتلال الفرنسي تحت شعار القومية ، تماماً كما عارض اليونانيون التسلط العثماني ، والبولنديون التسلط الروسي .

ومن بين رواد الحركة القومية الجزائرية حمدان خوجة . فقد ولد سنة 1773 من عائلة جزائرية متوسطة الحال ، ورأى كلا من والده وعمه يحتلان مراكز عالية في الخدمة المدنية الجزائرية وفي الحكومة . واتباعاً للتقاليد الجزائرية في وقته ، درس خوجة القانون على أبيه عثمان . وفي سنة 1784 صحب عمه في رحلة الى اسطنبول ، وخلال هذه الرحلة زار أهم مدن الشرق الأدنى والبلقان ، ثم ذهب إلى أوروبا الغربية (سنة 1820) وزار فرنسة ، حيث تعلم الفرنسية ورأى لويس فيليب مع عائلته .

وبناء على رأي أحد الكتاب ، فان خوجة قد بقي خارج الجزائر حوالي سبع عشرة سنة ، كان العالم خلالها يشهد أكبر انقلاب تاريخي (1800 ـ 1817)[42]. وبينما كان في أوروبا تعرف خوجة بنفسه على كل مشاكل الساعة العسكرية والسياسية

---

(40) نفس المصدر ، ص 43 ، أنظر أيضاً تقرير دي صاد في « م.و. » (29 أبريل ، 1834) . وقد اعترف دي صاد ، بأن الجيش الفرنسي قد استحوذ على ستين مسجداً لتسهيل مهمته ، من بينها عشرة « هدمت تماماً» .

(41) أقدم نص وجدناه لكاتب جزائري عن الثورة الفرنسية مكتوب سنة 1791 . أنظر « الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، لابن سحنون نشره السيد المهدي البوعبللي ، وزارة التعليم الأصلي ، الجزائر 1973 ص 224 ـ 226 .

(42) ايفير ، «ر.ا.» 57 (1913) ص 96 ـ 98 .

بين الدول الكبرى ، وشعارات القومية بين الأقليات المضطهدة ، وأفكار حركة التنوير الانسانية وقد أضاف خوجة الى هذه المبادىء معرفته بحقوق القوميات ، والحريات المدنية ، والمساواة بين الناس ، والتسامح[43] .

أي دور لعبه خوجة في قيادة حزب المقاومة ؟ لقد كان في الجزائر حين هاجمها الفرنسيون ، وأمضى الاتفاق المشترك . وبدأ الحزب تحت قيادته يعمل أولاً في الخفاء[44] . ولكي يحمي زعماء الحزب أنفسهم ، لجأوا حتى الى المشاركة في بعض النشاطات مع الفرنسيين ، مثل المساهمة في جهاز بلدية العاصمة . وفي أواخر سنة 1830 بعث الحزب أحمد بوضربة الى باريس لشرح قضية بلاده الى الحكومة الفرنسية[45] . وكان زعماء الحزب يراقبون بعناية وعن كثب حركات الجيش الفرنسي. وحين أصبح واضحاً لديهم بأن الفرنسيين كانوا يخرقون مواد الاتفاق ووعود البيان ، وأنهم كانوا قادمين ليبقوا ، أعلن حزب المقاومة معارضته المفتوحة للاحتلال .

وبالإضافة الى ذلك فان حزب المقاومة قد تشجع بشكاوي الشعب الجزائري . لذلك بعث الحزب بنداءات ، ومطالب ، وعرائض الى السلطات الفرنسية في الجزائر وفي فرنسا ، مذكراً لها بمواد الاتفاق ، ومطالباً بالجلاء الحالي للجيش الفرنسي ، وشارحاً مظالم الجزائريين المنجرة عن تصرفات الفرنسيين . من بين هذه العرائض واحدة تتكون من ثمانية عشر قسماً ، مطالبة بتسمية لجنة تحقيق . وقد بعث خوجة رسالة شخصية (10 جوييه ، 1833) إلى الملك لويس فيليب طالباً منه التدخل شخصياً ، ومذكراً له بأن « للجزائريين الحق أيضاً في التمتع بالحرية وكل الفرص التي تتمتع بها الأمم الأوروبية[46] » .

---

(43) نفس المصدر . كان لخوجة ولدان : علي وحسن ، وكلاهما كان قد نفي معه . وبالاضافة الى « المذكرات » و « المرآة » كتب خوجة كتباً أخرى في العلوم الاجتماعية ، وقد مات في اسطانبول سنة 1840 نقل ذلك محمد بن عبد الكريم ، أنظر كتابه « حمدان بن عثمان خوجة الجزائري دار الثقافة » ، بيروت 1972 ، ص 93 .

(44) ضم الحزب بالاضافة الى خوجة السادة : أحمد بوضربة ، حمدان آغا ، إبراهيم بن مصطفى، وابن عمر .

(45) جوليان ، ص 73 .

(46) أشار الى ذلك ايفير في «ر.ا.» 57 (1913) ، ص 109 .

ونظراً للحملة التي قام بها حزب المقاومة، فان الفرنسيين قد طردوا كل أعضائه من الجزائر، متهمين اياهم « بالتآمر ضد حكمنا[47] » . وهكذا نقل الزعماء الجزائريون نشاطاتهم الى باريس، حيث شعروا بأنهم يستطيعون التأثير على الحكومة، والمجلس الوطني، والصحافة . ومن هناك قاد حزب المقاومة حملة نشيطة من المؤتمرات الصحفية، والاستجوابات، والرسائل الشخصية، والمشاورات، وكتابة النشرات، وتقديم العرائض الرسمية . وقد كان هدف الحزب من ذلك هو الحصول على جلاء الجيش الفرنسي من الجزائر والاعتراف بالكيان الجزائري، بينما كانت وسائله تتمثل في استنكار تصرفات الجيش الفرنسي واتهام السلطات الفرنسية بخرق الاتفاق، وتذكير فرنسا بأنها كانت على خطأ حين لم تعترف بمبدأ القوميات في الجزائر[48] .

ونتيجة لهذا الضغط، عينت الحكومة الفرنسية في صيف 1833، اللجنة الافريقية، التي أشرنا من قبل الى بعض المقتطفات من تقريرها، وقد اغتنم حزب المقاومة فرصة هذا « النصر » وضاعف من نشاطاته بمهاجمته تصرفات الجيش الفرنسي في الجزائر . وسرعان ما نقل خوجة مطالب الجزائريين الى الملك لويس فيليب في رسالة يطلب منه فيها أن « يكون المؤيد والمدافع عن الجزائريين وأن يساعد على تحريرهم[49] » .

وبعد طرده من الجزائر، كرس خوجة جهوده في تأليف كتابه « المرآة[50] » الذي أراد أن يوجهه الى الرأي العام والذي احتوى على اتهامات مباشرة ضد الفرنسيين في الجزائر . كما احتوى « المرآة » على برنامج وآمال الجزائريين في ذلك الوقت .

---

(47) جوليان، ص 95 .

(48) من بين الصحف التي أيدت الجزائريين في ذلك الوقت « لوناسيونال » و« كوريي فرانسي » أنظر ايفير، « ر.ا. »، م 57 (1913)، ص 107 . ويجب أن نتذكر بأن أول حزب معارضة جزائري كان قد اضطر الى العمل خارج الجزائر، وسوف نلاحظ أن الأحزاب السياسية الجزائرية في القرن العشرين كانت أيضاً قد اضطرت الى العمل في الخارج . .

(49) نفس المصدر، ص 109 .

(50) اكمل خوجة هذا الكتاب في أكتوبر، 1833، وقد ترجمه في الحال الى الفرنسية السيد حسونة دغيز الطرابلسي المشار اليه بـ (هـ . د. أوريانتال) أنظر نفس المصدر، ص 109 ـ 110 .

ولما كان « المرآة » موجها إلى الرأي العام ، فان خوجة قد كتب « المذكرات » التي كانت ، بالمقارنة الى « المرآة » معتدلة في نغمتها . وقد بعث بنسخة من كليهما الى اللجنة الافريقية مع رسالة (تاريخها ، باريس 26 أكتوبر 1833) تضم النقاط التالية : معرفته بالجزائر قبل وبعد الاحتلال قد جعلته خبيراً يوثق به . اطلاعه على النظم الأوروبية ، والأفكار الليبرالية ، ومباديء القوميات قد أقنعته بأن النظام الحالي في الجزائر يجب أن ينتهي ، التعبير عن ثقته في الأمة الفرنسية « لكي تنظر بحب وعطف الى مواطني المنكوبين » ، توقعه بأن العدل والانسانية سينتصر ان في النهاية . وأخيراً طلب من اللجنة بأن توصي بتغيير النظام في الجزائر[51] .

ولسوء حظ الجزائريين فان اللجنة ، التي وضعوا فيها كل آمالهم لانتصار « العدل » و « الانسانية » ، بالاضافة الى القومية ، قد خيبتهم . ذلك أن اللجنة لم توافق على أي نقطة من برنامج حزب المقاومة . بالعكس ، فقد أوصت ، بعد أن اعترفت بسوء تصرف الجيش الفرنسي وبخرق الاتفاق الجزائري الفرنسي[52] ، بالحاق الجزائر بفرنسا الذي تم فعلاً بقرار جوييه 1834[53] .

ورغم فشلهم وخيبة آمالهم فان زعماء حزب المقاومة قد واصلوا نضالهم السياسي في المنفى من باريس ، اسطنبول ، تونس ، والمغرب ، أما خوجة فقد حوكم من أجل آرائه التي غبر عنها في « المرآة » . ذلك أن العناصر اليمينية في كل من الجزائر وباريس قد أثارت حملة ضده[54] وحتى توسلاته للحكومة الفرنسية بالتدخل لم تجب . وبعد أن حوكم مرة ثانية نفى خوجة نفسه في اسطنبول ، محطم

---

(51) أنظر هذه الرسالة في نفس المصدر ، ص 110 ـ 112 . أنظر أيضاً ملحق 3 .

(52) سابقاً . ص 16 .

(53) في « مذكراته » أنذر خوجة اللجنة بأن لا تعتمد على المعلومات التي تحصل عليها من الادارة الفرنسية ، التي خرقت الاتفاق المبرم ، ولا على المظهر وحده ، وقال يجب على اللجنة أن تمتحن أحوال الشعب عن طريق الاتصال المباشر ، نفس المصدر ، ص 124 ـ 125 .

(54) كتب أحد هذه العناصر كتيباً بعنوان « رفض كتاب سي حمدان » (باريس : 1834) ملأه بالهجوم على خوجة . وقد رد خوجة من جهته بكتاب عنوانه « الجواب على رفض كتاب عثمان خوجة » (باريس : 1834) ، نفس المصدر ، ص 121 ـ 122 .

القلب ، كبير السن ، خائب الأمل . وزيادة في سوء حظه طردت السلطات الفرنسية ابنًا حسن من الجزائر متهمة اياه بالتآمر ضد الوجود الفرنسي[55] .

ومن الملاحظ أن مبدأ « الكيان الجزائري » كما عبر عنه خوجة ، كان أيديولوجية جديدة ليس بالنسبة للجزائر فقط ولكن أيضاً بالنسبة للعالم العربي ، ولعل العالم الاسلامي أيضاً . فإلى وقت الاحتلال الفرنسي كانت الجزائر ما تزال تعيش حياتها السهلة ، الشرقية ، المنغلقة . وفكرة « الأمة » كما أصبحت شائعة في أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، كانت غريبة عن الجزائريين ، كما كانت غريبة لدى العالمين الاسلامي والعربي . وبالرغم من أن الجزائر كانت قد وجدت كدولة ذات سيادة منذ قرون ، فإنها كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحضارة الاسلامية ثقافياً واجتماعياً . ولذلك فان فكرة الكيان ، التي اكتسبت دفعاً جديداً منذ الثورة الفرنسية كانت جديدة عند الجزائريين .

ونظراً لإطلاعه الواسع على الأفكار الأوروبية ، فان خوجة قد التقط مبدأ الكيان وطبقه على الجزائر لأول مرة . فهو يصر على أن « الكيان الجزائري » له الحق في الوجود ، كما وجدت الكيانات اليونانية ، والبولندية ، والبلجيكية ، ورأيه هو أن الجزائريين لم يكونوا أقل تنويراً من معاصريهم الأوروبيين في تنظيم حكومة من اختيارهم الخاص وانتخاب أمير من أنفسهم لكي يحكمهم . فقد قال بأن الجزائر لها الحق في الوجود « كأمة حرة مستقلة[56] » .

وقد اعتقد خوجة بأن هذه الأمة الجزائرية والأمة الفرنسية لا يمكن أن تتعايشا في الجزائر . فهو يرى بأنه لا يوجد بينهما تشابه لأنهما تدينان بدينين مختلفين ، وتتكلمان لغتين مختلفتين ، وتلبسان ثياباً مختلفة ، وتمارسان تقاليد مختلفة[57] . ومن ناحية أخرى فهو يعتقد بأن الوطنية الجزائرية قد ولدت نتيجة للاحتلال الأجنبي .

---

(55) نفس المصدر ، وقع الطرد في 26 سبتمبر ، 1836 . كشف عبد الجليل التميمي عن وثائق جديدة تتعلق بحياة ونشاط خوجة . أنظر كتاب (بحوث ووثائق مغربية) ، تونس ، 1972 .

(56) ايفير ، «ر.ا.» م 57 (1913) ص 117 ـ 118 .

(57) نفس المصدر ، ص ١١١ ، أشار اليه المؤلف من رسالة خوجة الى اللجنة الأفريقية (باريس 26 أكتوبر ، 1833) ، إن المرء يلاحظ بسهولة جدة هذا الموضوع في بيئة شرقية مثل بيئة الجزائر .

ويؤكد بأن الجزائريين قد أثارتهم الشهامة التي يحركها الشعور بالعبودية بواسطة أمة أجنبية[58] . ومن رأيه أن الشيء الوحيد الذي تستطيع فرنسا أن تفعله في مثل تلك الظروف هو تأييد فكرة الكيان الجزائري ، كما فعلت مع اليونان وبلجيكا . وبناء على رأيه فان الجزائر مستعدة بدورها أن تمضي مع فرنسا معاهدة ذات امتياز خاص للأخيرة . كما يرى بأن نتيجة هذا « الموقف الليبرالي » ستكون اغراء الروس بالاعتراف بالكيان البولندي ، بل قد تساهم أيضاً في نشر روح إلتسامح التي تميز بها القرن التاسع عشر ، ما دامت الجزائر لا تعتنق نفس الدين الذي تعتنقه فرنسا[59] .

ومن جهة أخرى فان خوجة قد عبر عن اعجابه بالتجربة الليبرالية الأوروبية في وقته ، كما عبر عن تقديره للديمقراطية التي كانت تمارسها بعض الحكومات الأوروبية . فقد قص ذلك في كتابه « المرآة » حيث يقول : « لقد عشت في أوروبا وتذوقت ثمار الحضارة واني أعتبر نفسي أحد أولئك الذين يعجبون بالسياسة التي تمارسها بعض الحكومات[60] » لقد كانت هذه التجربة هي التي جعلت خوجة يستنكر بشدة تصرف الاحتلال الفرنسي لبلاده . فالاحتلال في نظره كان ضد المبادىء « الليبرالية » ، كما كان ضد الحضارة . فهو يقول بمرارة بأنه بينما حصلت اليونان وبلجيكا على استقلالهما ، وبينما أثارت قضية بولندا رد فعل عاطفي في كل العواصم الأوروبية ، وبينما تحاول أنجلترا أن تحرر العبيد ، فان الجزائريين يرزحون تحت نير الحكم الاستبدادي مهددين بالفناء وبكل أنواع الحرب[61] » .

ولكن خوجة لم يكن مستعداً أن يجعل من المجتمع الجزائري مجتمعاً أوروبياً . فهو يعتقد في قيم الليبرالية الأوروبية ، ولكنه يعتقد أن هذه القيم لا يمكن ادخالها الى الجزائر بواسطة فرنسا . والطريقة الوحيدة التي تمكن الجزائر من الاستمتاع بالأفكار الأوروبية هي انتخاب أمير جزائري بواسطة الشعب . وبالرغم من رأيه المتحرر (إذا

---

(58) نفس المصدر ، ص 128 ، ان هذا الرأي يتفق مع رأي دي صاد ، الذي كان عضواً في اللجنة الأفريقية ، والذي قال عام 1834 بأنه كان لدى الجزائريين «عداوة مشتركة ضدنا» أنظر «م.و.» (29 أبريل ، 1834) .

(59) ايفير «ر.ا.» م 57 (1913) ، ص 118 .

(60) نفس المصدر ، ص 97 ـ 98 .

(61) نفس المصدر ، ص 113 . أنظر اتهاماته للاحتلال ص 133 ـ 135 .

أخذنا في الاعتبار البيئة المحافظة المسلمة) ، فان حوجة كان يعتقد أن شعبه كان أيضا « أمة متحضرة[62] » ، وان الاسلام لا يتنازع مع الحضارة الحديثة . فهو يقول « انني درست مبادىء الحرية الأوروبية التي تعتبر قاعدة الحكومة الديموقراطية والجمهورية ، وقد وجدت المبادىء تتشابه مع قوانيننا نحن . . فلو عرف الليبراليون الأوروبيون كيف يفهمون مبادىء قوانيننا وكم هي نظمنا ليبرالية ، اذن لمنحونا تأييدهم بدل معارضتنا[63] » .

وهكذا فإنه من الممكن أن يعتبر الباحث خوجة ، من الناحية الموضوعية والتاريخية ، ليس رائداً للوطنية الجزائرية فقط ، ولكن رائداً أيضاً لفكرة الجامعة الاسلامية والقومية العربية اللتين أصبحتا ، بعد عدة عقود ، حركتين قويتين . وبالإضافة الى ذلك ، فهو رائد في العالمين العربي والاسلامي « لعصر التنوير » الذي نتج عن الاتصالات الثقافية بين الشرق والغرب .

وبعد حل حزب المقاومة وطرد زعمائه متهمين بالتآمر ضد الفرنسيين ومحاولة « استرجاع الحكم الاسلامي » للجزائر[64] ، استمرت السلطات الفرنسية في حملتها لتصفية أو عزل العناصر الوطنية التي قد تنظم معارضة ضدها في الجزائر[65] .

وتحت هذه الظروف فان الحركة الوطنية لا يمكنها أن تمارس نشاطها علنياً ، لذلك كان عليها أن تختار بين الاتجاهات الثلاثة التالية :

1 ـ العمل في الخارج ، وقد سلك هذا الاتجاه ، بلا اختيار ، زعماء حزب المقاومة المعروفون .

2 ـ اللجوء الى الحركات العسكرية ، وقد سلك هذا الطريق الأمير عبد القادر وآخرون .

---

(62) نفس المصدر ، ص 133 .

(63) نفس المصدر ، ص 114 .

(64) نفس المصدر ، ص 102 .

(65) ان هذه الحملة قد شملت سجن وتصفية الزعماء الدينيين مثل مفتي الجزائر العاصمة ، الذي كان قد اتهم بالتآمر ، انظر نفس المصدر ، ص 100 . إن بعض السلطات الفرنسية قد اقترحت حتى تصفية السكان كلهم ، واقترح آخرون دفع السكان بالقوة نحو الصحراء ، وتجريدهم من أملاكهم ، نفس المصدر ، ص 129 .

3 ـ مواصلة نشاطها في الجزائر ولكن في الخفاء مستعملة التعبير غير المباشر ، وقد سلك هذا الطريق الجمعيات الدينية التي كانت موزعة في كل انحاء الجزائر ، ثم الأدب الشعبي .

وهكذا فان السلطات الفرنسية قد بقيت وجهاً لوجه مع الجماهير الجزائرية التي كانت تعتقد في الخرافات ، ومعزولة ، ومن غير قيادة .

في المقال الهام الذي كتبه عن المقاومة الجزائرية في الأدب الشعبي ، قال ج . ديبارمي الخبير الفرنسي بالحركة الثقافية في الجزائر « ان أية أمة ، حتى ولو احتلت عن طريق السلاح ، لا يمكن أن تهدد بالزوال الا اذا فقدت الثقة بنفسها[66] » . وقد وجد ديبارمي أن الأمة الجزائرية لم تفقد الثقة في نفسها ، ذلك أن غريزة البقاء عندها قد بقيت حية نشطة مستعملة الأدب الشعبي كوسيلة للتعبير عن نفسها . فالأدب الشعبي الجزائري قد مجد الماضي ، وأثار الفخر الوطني ، ولم يبحث فقط عن الاعتذارات للهزيمة ولكنه حول الهزيمة الى انتصار للشعب المحتل[67] . وقد كانت واسطة هذا الأدب هي شخصية « المداح » الذي كان يقف في الأسواق العامة والمقاهي منشداً أشعاره الحماسية أمام جمهور متعطش للسماع والهضم ، ولكنه جمهور مستسلم لارادة الله الذي سينقذه ذات يوم من « الرومي[68] » .

والى جانب الأدب الشعبي كانت هناك جمعيات دينية لعبت دوراً سياسياً هاماً في حياة الجزائر ، ولا سيما في القرن التاسع عشر ، بالإضافة الى دورها الاقتصادي ، والاجتماعي ، والثقافي . ورغم أن هذه الجمعيات في الظاهر كانت دينية ، فإنها ، في الحقيقة ، كانت عبارة عن أحزاب سياسية ، بالاضافة الى أن نظامها الغامض التصاعدي قد جعلها « جمعيات سرية » من الدرجة الأولى . فقد نظمت حملات دعاية سرية محكمة ضد الفرنسيين بواسطة اتصالات خفية . والحق

---

(66) «ردود الفعل الوطنية في الجزائر» في «س.ج.ا» م 37 (1932) ص 445 ـ 446 .

(67) نفس المصدر ، ص 446 .

(68) كانت فكرة القدرية مسيطرة على الجماهير الجزائرية بعد الاحتلال وقد استمرت ، مدعمة من الجهل والعزلة ، حتى ظهور حركة وطنية جديدة ومنظمة ، بدأت حملتها ، كما سترى بالنداء الى الوطنية والتعليم . وقد شجع الفرنسيون فكرة القدرية لأنها تبقى على الجماهير ساكنة مسالمة.

أن معظم الثورات الجزائرية التي وقعت خلال القرن التاسع عشر كانت قد أعدت ونظمت ونفذت بوحي منها . فالأمير عبد القادر نفسه كان ينتمي الى واحدة منها وهي الجمعية القادرية . ومن بين الجمعيات المشهورة التي لعبت دوراً سياسياً هاماً : الطيبية ، والدرقاوية ، والتيجانية ، والرحمانية[69] .

وبالرغم من هزيمتهم العسكرية وعزلتهم فان الجزائريين قد أبقوا على روح المقاومة حية آملين في الخلاص ذات يوم . وقد لاحظ كثير من الفرنسيين ذوي النظرة البعيدة هذه الروح ، بل ان بعضهم كانت لديه الشجاعة أن يخبر عنها مواطنيه . فالدكتور فيتال الذي كان عائشاً في قسنطينة قد أخبر صديقه اسماعيل عربان سنة 1861 بأن الجزائر ، رغم الهزيمة ، لم تفقد الأمل في استرجاع استقلالها . ثم كتب قائلاً : « ان سلطتنا (في الجزائر) ستزول كما زالت سلطة أسبانيا والبرتغال » . كما لاحظ بأن مثل الجنسية والاسلام تثير حماس الجزائريين كما لو كانت « كلمات سحرية[70] » .

وقد لوحظ من قبل أن نابليون الثالث تبنى ، على الأقل في فترة ما ، فكرة خلق « مملكة عربية » وجنسية جزائرية في هذا العهد ، كما لوحظ أيضاً أن نابليون كان قد وقع تحت تأثير مترجمه ومستشاره ، اسماعيل عربان الذي وجهه ذلك الاتجاه . وقد كتب نفس عربان ، الذي رأى حلمه في « الجزائر للجزائريين » ينهار بعد سقوط الامبراطورية الثانية ، هذه النبوءة الى صديقه ديشتال قبل وفاته عام 1884 : « رغم أننا أبعد ما نكون عن التقدم ، فإننا قد خسرنا كثيراً خلال الاثني عشر سنة (الماضية) ، فالمسلمون (الجزائريون) يبتعدون عنا يوماً بعد يوم ، وهم ينتظرون بثقة قدرية ساعة الثأر . اننا سندفع الثمن قريباً أو بعيداً ، بسبب الأغلاط التي نرتكبها[71] » .

---

(69) مارسيل ايميري ، « الجزائر في عهد الأمير عبد القادر » (مجموعة وثائق غير مطبوعة عن تاريخ الجزائر) ، م 4 (باريس : لاروس ، 1951)، ص 200 ـ 201 . أنظر أيضاً أندري نوشي « ميلاد الوطنية الجزائرية » ، 1914 ـ 1954 (باريس : دي مينوي ، 1962) ، ص 18 . .

(70) نوشي ، ص 15 ـ 16 .

(71) اشار الى ذلك أرون ، ص50 .

وأثناء نفس العهد نادى س . بانيستير الانجليزي بتحرير الجزائر[72] . فقد قال بأن الفرنسين يجب أن يجلوا عنها تاركين الجزائريين يقررون بإرادتهم نوع الحكومة التي يختارونها ، وبناء على رأيه فان كل ما يمكن أن تفعله أوروبا ، وخصوصاً فرنسا ، نحو الجزائر هو أن نؤيدها بحكمة وشرف ، لأن الجزائريين قادرون على اصلاح أنفسهم بأنفسهم[73] .

ومن الملاحظ هنا أن حركة « الجزائر الفتاة » المستقبلة ستأخذ أفكارها من وجهات نظر الدكتور فيتال ، وخوجة ، وعربان ، وبانيستير .

ورغم عزلتهم ، فان الجزائريين كانوا يتابعون بشغف تطورات أحداث الشرق الأدنى ، بل ان بعضهم كان يتوقع الخلاص من ذلك الصوب . وسوف نلاحظ الدور الذي لعبه المهاجرون الجزائريون في الشرق الأدنى وعلاقتهم بالحركة الوطنية الجزائرية . أما الآن فحسبنا أن نشير الى وقع أحداث الشرق الادنى على الجزائريين ولا سيما خلال النصف الثاني من القرن الماضي . ومن بين تلك الأحداث حرب القرم .

لقد كان لحرب القرم أصداء قوية في الجزائر ، فبواسطة الأدب الشعبي عبر الجزائريون عن فخرهم بالنصر العثماني ، وأنشدوا المدائح لله ، ولخليفة اسطنبول ، حامي الاسلام . فاذا أخذنا في الاعتبار تاريخ هذه العواطف (1854) فإنه يبدو لنا أن هذه الأفكار تمثل « جرثومة » حركة الجامعة الاسلامية[74] » . كما تابع الجزائريون بنفس الشغف أخبار الاحتلال الفرنسي لتونس ، بل ان بعضهم قد لجأ الى استعمال « الشغب » ، مما شجع الفرنسيين على اتخاذ « اجراءات وقائية » لكي يمنعوا أي تمرد شعبي[75] .

---

(72) «نداء في صالح الجزائر وأفريقية الشمالية بقلم انجليزي» (باريس: 1883) . وفي الحقيقية فإن هذا الكتاب قد ظهر حوالي عام 1834 ، ولكن نشره من جديد في هذا التاريخ يعبر عن أهمية خاصة بالنسبة لمؤرخ الوطنية الجزائرية .

(73) ايفير ، «ر.ا.» ، م 57 (1913) ، ص 119 ـ 120 .

(74) ج. ديبارمي ، «العاطفة التركية في الجزائر» في «س.ج.ا.» م 22 (1917) ، ص 10 ـ 15 . ولزيادة البحث عن رد الفعل الجزائري لحرب القرم في الأدب الشعبي ، انظر محمد بن شنب ، « حرب القرم والجزائريون » في « ر.ا. » (1907) . كما أشار اليه ديبارمي ، ص 10 .

(75) نوشي ، ص 19 ـ 20 .

كنا حتى الآن نتقصى آثار الحركة الوطنية الجزائرية منذ الاحتلال في أشكالها السياسية والعاطفية كما مثلها حزب المقاومة ، والجمعيات الدينية ، والأدب الشعبي ، وأخيراً عواطف الجامعة الاسلامية . ولكن الحركة الوطنية الجزائرية لم تكن دائماً كلها سياسية ، سلمية ، وعاطفية . فقد كان هناك : ، في نفس الوقت ، الشكل العسكري للحركة الذي لم يكن أقل اثارة في ملامحه من غيره من الأشكال .

3. مقاومة الأمير عبد القادر

ان هذه الدراسة عن العلاقات الفرنسية ـ الجزائرية لم تجب حتى الآن على السؤال التالي : لو أن الفرنسيين لم يتصرفوا بالطريقة التي تصرفوا بها ، هل كان يمكن أن يكون رد الفعل الجزائري مختلفاً ؟ ولكن معظم المؤرخين يتفقون على أن « لو » لا تقدم حلولاً للمشاكل التاريخية ، بل انها قد تزيد في تعقيدها . غير أن « لو » قد تساعد على توضيح أحد الأوضاع أو على ربط ردود الفعل النفسية .

وعلى هذا الأساس فمن الممكن أن يقال بأنه كان لدى الفرنسيين عام 1830 اختياران : الأول ـ أن يثأروا « لشرفهم » (وهو سبب الحملة في دعواهم) ، تاركين الجزائريين يقررون بأنفسهم مصير بلادهم . الثاني ـ أن يتابعوا الاحتلال الى نهايته ، مستعملين كل وسيلة ممكنة لارغام الجزائريين على الاستسلام التام ، بقطع النظر عن المبادىء المثالية . وقد رأينا أن فرنسا أختارت الحل الثاني . وبذلك وجدت نفسها تخوض صراعاً جعلها في بعض الأحيان تضحي بمبادئها الخاصة . وتخلف وعودها ، ولا تبالي بالقيم الإنسانية .

ومن بين مشاهير الجزائريين الذين خاضوا صراعاً ضد فرنسا في القرن التاسع عشر الأمير عبد القادر . فقد كان عمره خمسة وعشرين عاماً عندما انتخب سنة 1832 لكي يقود الشعب في حرب تحريرية دامت حتى نهاية 1847 . كان والد الأمير ، الشيخ محي الدين ، علامة زمانه في اقليم وهران ، فهو الذي علم ابنه العلوم الاسلامية (التقليدية) المعروفة في ذلك الوقت ، بما في ذلك حفظ القرآن الكريم . وفي عام 1825 توجه الأب والابن الى مكة والمدينة للحج .

وفي طريقهما توقفا في مصر حيث استقبلهما محمد علي ، والي مصر بحفاوة . وبعد الحجة الأولى طافا بدمشق ، وبغداد ، والحجاز . وقبل عودتهما إلى

الجزائر سنة 1828 حجا للمرة الثانية . وحين عادا الى الجزائر ، عزل الشاب عبد القادر نفسه لكي يتفرغ لتحصيل العلم ، فقد درس بالإضافة الى العلوم العربية ، أفلاطون ، فيثاغورس وأرسطو ، مع تركيز خاص على التاريخ ، والجغرافيا ، والهندسة ، والنباتات الطبية ، وأثناء هذه الفترة جمع عبد القادر مكتبة هامة(76) .

وبعد انتخابه سلطاناً للجزائر سنة 1832 ، أخذ عبد القادر لقب أمير المؤمنين . وقد أصدر كثيراً من البيانات الى الجزائريين داعياً إياهم للطاعة والدفاع عن وطنهم ضد المعتدين ، وتوحيد أنفسهم ، واليقظة للأخطار التي تحيط بهم ، ومن بين تلك البيانات ما جاء في قوله : « انكم (أيها الجزائريون) قد أصبحتم الآن تحت رحمة رومي ، يقاضيكم رومي ، ويدير شؤونكم رومي . . ان الرومي قد انتهك مساجدكم ، وأخذ أحسن أراضيكم وأعطاها الى بني جنسه ، واشترى أعراض نسائكم . . ان يوم يقظتكم قد حان ، هلموا جميعاً عند سماع صوتي ، أيها المسلمون ان الله قد وضع سيفه الملتهب في يدي ، واننا جميعاً سنمضي الى الأمام ونروي حقول وطننا بدماء الكفار(77) » .

ونظراً لنجاحاته العسكرية ، أجبر الأمير فرنسا على الاعتراف بسيادته وامضاء معاهدة سلام معه . ذلك أن الممثل الفرنسي في اقليم وهران ، الجنرال ديميشال ، قد تفاوض مع الأمير في 26 فيفري 1834 على المعاهدة التي تحمل اسمه (معاهدة ديميشال) . وبناء على هذه المعاهدة فان فرنسا قد اعترفت بسيادة الأمير على غرب ووسط الجزائر ، بما في ذلك معظم ما كان يسمى باقليمي وهران والتيطري قبل قدوم الفرنسيين . وقد احتوت المعاهدة على مواد تتعلق بالتجارة ، والعملة ، وتبادل الأسرى . وبالإضافة الى ذلك فان فرنسا قد وافقت على امداد الأمير بالأسلحة وأن تتبادل معه القناصل(78) .

---

(76) من أجل ترجمة شخصية قصيرة عن عبد القادر ، أنظر أرنولد هوتنغر « العرب » مترجم من الألمانية (الى الانجليزية) ، نشر جامعة كاليفورنيا بلوس انجليس 1963 ، ص 169 ـ 171 .

(77) أشارت الى ذلك « التايمس » (لندن) عن « الأخبار » ، الصحيفة التي كانت تصدر عن الادارة الفرنسية في الجزائر (19 مارس ، 1846) ص 3 . وفي عام 1834 أعلن دي صاد ، الذي كان عضواً في اللجنة الأفريقية ، الى زملائه في المجلس النيابي بأن الأمير قد اعترف به « كل سكان الايالة (الجزائر) كزعيمهم الوحيد » أنظر « م.و. » (29 أبريل 1834) .

(78) عن حياة الأمير ومعاهدات فرنسا معه ، أنظر (حياة الأمير عبد القادر) تأليف شارل هنري تشرشل =

وفي جوييه ، 1834 ، أوصت اللجنة الافريقية ، كما أشرنا من قبل ، بالابقاء على « الممتلكات » الفرنسية . وفي الحال أصدرت الحكومة الفرنسية قرارها المشهور بالحاق الجزائر بفرنسا . وكانت هذه الحركة الفرنسية تعني زيادة العمليات العسكرية . لذلك عزل الجنرال ديميشال ، الذي أمضى معاهدة 1834 ، من منصبه عام 1835 وخلفه فيه الجنرال تريزل كقائد للقوات الفرنسية في اقليم وهران . وفي نفس الوقت فان الحاكم العام الجنرال درويت ديرلون ، الذي كان قد عين في منصبه بمقتضى قرار الالحاق ، قد عزل هو أيضاً وحل محله الجنرال كلوزيل الذي كان يفضل سياسة التوسع والاستعمار والذي كان ممقوتاً من الجزائريين لطرده زعماء حزب المقاومة غداة الإحتلال .

لقد كان الفرنسيون ينظرون بريبة خاصة الى جهود الأمير في توحيد البلاد وتدعيم قوته ببناء ادارة جديدة وتوسيع نفوذه . لذلك قرروا اعلان الحرب عليه رغم معاهدة السلام التي أمضوها معه . ولكن نتيجة هذا القرار كانت نكبة عليهم لأن الجنرال تريزل المذكور آنفا كان قد هزم هزيمة تامة في معركة المقطع (12 جوان 1835). ومن أجل ذلك قرر الجنرال كلوزيل الانتقام بقوة فأرغم الأمير على التراجع .

ولكن فشل فرنسا عام 1836 في احتلال قسنطينة قد أجبرها على نشدان السلام مع الأمير ، فقد تفاوض كل من بروسار وبوجو (الذي كان ما يزال عندئذ جندياً) مع الأمير على معاهدة التافنة (20 ماي ، 1837) . وقد أكدت هذه المعاهدة اعتراف فرنسا بسيادة الأمير على غرب ووسط الجزائر ما عدا بعض المدن الساحلية التي بقيت تحت يد الفرنسيين ، كما نصت على تبادل القناصل وتنظيم التجارة بين الطرفين[79] .

= وترجمة أبو القاسم سعد الله ، نشر الدار التونسية للنشر ، تونس (1974 . ط. 2 ، الجزائر) ، 1982 .

(79) للاطلاع على وجهة النظر الفرنسية للعلاقات الدبلوماسية والعسكرية بين الجزائر وفرنسا ، أنظر ب برايبه ، « احتلال الجزائر » في « مدخل الى الجزائر » (باريس : نشر مكتبة أمريكا والشرق ، 1957) ص 125 ـ 140 . وللاطلاع على وجهة نظر نقدية لمعاهدة التافنة ، أنظر ايميري ، ص 135 ـ 150 . وللاطلاع على وجهة نظر جديدة ولا سيما بخصوص معاهدة ديميشيل ، أنظر شارل روبير أجرون ، « المفاوضات الفرنسية ـ الجزائرية الأولى » في « بروف » (سبتمبر 1964) ، ص 44 ـ 50.

وبعد أن وجد الأمير نفسه في سلام من جديد واصل اصلاح ادارته ، وتنظيم حكومته ، وتقوية جيشه ، وتوسيع نفوذه . وان بعض الكتاب يصفون حكومة الأمير بأنها كانت : « بحق أول حكومة وطنية تمثيلية شعبية للجزائر منذ أربعة قرون[80] . وقد كانت ادارة الأمير قائمة على المساواة بين المواطنين وعلى نظام تصاعدي في مراكز قيادة المناطق على هذا النحو : المشائخ ، القياد ، الأغوات ، والخلفاء . ومن الواضح أن الأخير كان أعلى لقب ، يعادل في المفهوم الحديث منصب الحاكم العام لاقليم ما[81] .

ولكن أهم ظاهرة في ادارة الأمير كانت جهده في خلق جيش جديد حديث . وقد كان العمود الفقري لهذا الجيش هم الفلاحين الذين كانوا أميين وجهلة بالأسحلة الحديثة ومناورات الحرب . لذلك جعل الأمير الثقافة العسكرية اجبارية هادفاً من ورائها الى تخريج جيش مدرب باتقان ومنظم تنظيماً محكماً . وقد لوحظ من قبل أن معاهدتيه مع فرنسا،قد أذنتا له بالحصول على الأسلحة منها . ويقول الأستاذ ايميري ، الذي درس عهد الأمير طويلاً ، بأنه قد وجد في الملفات الفرنسية « أكداساً من الوثائق » ، التي تدل على السيل المتواصل من الأسلحة والعتاد ، المرسل إلى الأمير من مرسيليا وأنجلترا[82] . ولهذا الغرض بنى الأمير عدة مخازن للأسلحة ، من أشهرها مخازن تاغدامت ، وبوغار ، وسعيدة .

ولكي يدعم مركزه الداخلي نظم الأمير حملة من المشاورات والاتصالات مع كل زعماء الرأي في الجزائر . فقد أرسل رسالة الى الباي أحمد حاكم قسنطينة ، الذي كان يحارب الفرنسيين بدوره ، طالباً منه الإنضمام إلى حركته لتوحيد النضال . وفي سنة 1838 ترأس الأمير مؤتمر الجزائر (أول مؤتمر من نوعه) الذي عقد في

---

(80) أنظر م باندا « الماركسية والثورة الجزائرية » في « ليبر ريفيو » (مارس - أبريل 1958) ، ص 37 .

(81) يقول المؤرخ الفرنسي ب بوايبه بأن ادارة الأمير كانت « جديدة » على الجزائر وأن فرنسا قد استعارت نظامه الاداري ، ص 134 .

(82) ايميري ، ص 263 . ويؤكد المؤلف أيضاً بأنه كان للجزائر كثير من الأسلحة التي كانت « تفوق » الأسلحة الفرنسية ، ويعلن بأن احتلال الجزائر كان « المشروع الاستعماري الوحيد » الذي لم يستطع فيه الأوروبيون أن يستفيدوا من تفوق حقيقي مادي وبنا على ايميري فان امتياز الفرنسيين الوحيد كان نظامهم العسكري .

بوخورشفة ، قرب مليانة . وقد قرر هذا المؤتمر ، الذي حضرته وفود من جميع أنحاء الجزائر ، توحيد القوى الوطنية ، والدفاع عن الحريات الانسانية ، وتدعيم الروح الشعبية القائمة على الاخوة والحفاظ على النفس(83) .

وفي 1840 وقف الجنرال بوجو الذي كان حينئذ نائباً في المجلس الوطني ، أمام زملائه وأخبرهم بأن سياسة الاحتلال الجزئي كانت بلا طائل ، وان فرنسا يجب أن تلجأ الى الاحتلال التام مستعملة طريقة الأرض المحترقة (على الطريقة الاسبانية) . ورغم معارضة بعض النواب فان بوجو قد فاز في اقتراحه حين حصل على مائة ألف جندي وتأييد الملك الفرنسي . ثم نال بوجو صلاحيات مطلقة حين عين كحاكم عام للجزائر خليفة للجنرال فاللي(84) وهكذا فان بوجو ، الذي كان قد أمضى معاهدة التافنة سنة 1837 ، عاد الآن الى الجزائر لخرق نفس المعاهدة باسم الاحتلال الكامل(85) .

ولما أصبح بوجو مؤيداً من حكومته ، وقائداً لمائة ألف جندي ، ومستعملاً سياسة الأرض المحترقة ، تمكن من مهاجمة قوى الأمير ، وتحطيم مخازن أسلحته ، ومطاردته الى المغرب ، ولكي يمنع تأييد المغرب للأمير ، هاجم بوجو الحدود المغربية (معركة وادي ايزلي ، 1844) بينما قنبل الأسطول الفرنسي طنجة وموغادور - (15 أوت ، 1844) وهكذا أرغم سلطان المغرب على طرد الأمير من بلاده واعلان الحياد بخصوص النزاع الجزائري الفرنسي .

---

(83) انظر باربور ، ص 217 . ليس لدينا الوثائق التي تخبرنا ما إذا كان هناك اتصال بين الأمير وزعماء حزب المقاومة المنفيين . إننا نعلم أن خوجة كان يدعو الى انتخاب « أمير » جزائري في برنامجه ، ونعلم أيضاً أن خوجة قد قام بمفاوضات بين فرنسا وأحمد باي و« لا هم لي سوى أن أرى بلادي المنكوبة أكثر سعادة » كما جاء في رسالته الى الملك الفرنسي (جوييه 15 ، 1833) ، أنظر ايفير ، «ر.ا.» م 57 (1913) ص 153 - 105 . فهل كان هناك أي اتصال بين الأمير وخوجة؟ أي « أمير » كان في ذهن خوجة : الأمير عبد القادر ، أو أحمد باي أو شخص آخر ؟ إن الوثائق التي بين أيدينا لا تجيب على هذا السؤال . حول هذه النقطة أنظر أيضاً التميمي (بحوث ووثائق) ففيه اثبات لعلاقة خوجة بكل من الأمير والباي .

(84) بوايي ، ص 135 .

(85) كان قد اتهم باضافة بنود سرية الى المعاهدة واخفائها عن السلطات الفرنسية . أنظر ايميري ، ص 135 - 150 .

وهنا وجد الأمير نفسه في موقف يائس تقريباً ، بعد أن دفعه حياد المغرب الى الصحراء من المغرب ، ومطاردة القوات الفرنسية له من الشمال والشرق . وزيادة في آلامه ، جاءته الأخبار بأن الفرنسيين ، تحت قيادة الدوق دومال، قد قبضوا على مدينته المتنقلة (الزمالة) التي كانت تضم حوالي خمسين ألف نسمة ، بما في ذلك نساء وعائلات جنوده (6 ماي ، 1843) . كما فقد الأمير قائده ابن علال الذي كان له بمثابة يده اليمنى ، في معركة ضد الفرنسيين (11 نوفمبر ، 1843)

وفجأة كان هناك خيط من أمل للأمير . ففي 1845 ثارت جبهة القبائل تحت زعامة بوبغلة وثارت وهران بقيادة جمعية طريقة الدرقاوة ، كما ثارت جهة الظهرة تحت زعامة بومعزة . ان هذه الثورات التلقائية المتجاوبة تعرف في تاريخ الوقائع الجزائرية باسم « ثورات الجمعيات (الطرق) الدينية » التي أغرقت الجزائر في « النار والدم »[86] . وقد اغتنم الأمير هذه الفرصة فاتصل بزعماء الثورات لتنسيق خططهم ، ثم هاجم هو الفرنسيين في سيدي إبراهيم وأسر منهم فرقة كاملة كان يقودها مونتانياك (23 ـ 25 سبتمبر ، 1845)[87] . ولما أحس الفرنسيون بإمكانية تحالف وتنسيق جهود الزعماء الجزائريين ، حاولوا افشال هذه الخطة بهجومهم على منطقة القبائل مستعملين فيها أيضاً طريقة الأرض المحترقة .

ونحن الآن نعرف أنه بعد هذه الحملة ضد بوبلغة أجاب الجنرال بوجو بجوابه المشهور على من لاموه من الصحفيين والانسانيين وأهل الرأي العام في فرنسا وأوروبا على سياسته في الجزائر . فقد قال : « لقد حرقنا كثيراً وخربنا كثيراً ، ومن الممكن أن أوصف بالبربرية ، ولكن ما دمت مقتنعاً بأني قد أديت عملاً مفيداً لوطني ، فاني

---

(86) بوابي ، ص 136 .

(87) نفس المصدر ، ص 173 . بعد هذا النصر كتبت المجلة البريطانية (بانش) بسخرية قائلة بأن عبد القادر هو « أسعد الناس حظاً في كونه غير محظوظ» اشارة مباشرة الى الدعاية الفرنسية المتكررة بأنه كان قد قتل ، « انه كالعملاق القديم . . الذي . . قيل مراراً ، بأنه قد قتل ؟ حدث عن القط ، لماذا تعد حياته لا شيء الى جانب حيوات عبد القادر ، أو على السهولة التي يستطيع بها دائماً أن يسقط (عن ظهر جواده) على قدمه ، كم من مرة ترك بلا جواد ، ومع ذلك ، وبحيلة ما ، فهو دائماً أكثر شدة عندما لا تبقى له قدم يقف عليها » . نقلت ذلك « التايمز » (لندن) ، (12 أكتوبر ، 1847) ، ص 8 .

أعتبر نفسي فوق ملامة الصحافة[88] .

ورغم انتصاره في معركة سيدي ابراهيم فان الأمير قد وجد نفسه مرة أخرى في موقف يائس . فقد نجح الفرنسيون في عزل بويغلة في بلاد القبائل ، واضطروا بومعزة الى التسليم في الظهرة ، ثم ركزوا جهودهم على اجبار الأمير على نفس المصير ، مستعملين خمسين ألف جندي ضده[89] . وهكذا نجح الفرنسيون في منع تحالف كان من الممكن أن يقلب ميزان القوة لصالح الوطنيين . وقد تراجع الأمير مرة أخرى الى الحدود المغربية ، ولكن بلا جدوى ، فقد وجد نفسه محاطاً بالنار من المغرب (التي لم تعد محايدة) وبأسنة الرماح الفرنسية ، وبوحشية الصحراء من الجنوب . لذلك لم يجد بدأ من التسليم الى الجنرال لاموريسيير (23 ديسمبر ، 1847) على شرط أن يكون هو وأتباعه أحراراً في اختيار منفاهم[90] .

ولكن الفرنسيين لم يفوا بوعدهم ، فقد كان على الأمير أن يعاني من ألم السجن خمس سنوات . فبدل أن يسمح له بالذهاب الى الاسكندرية أو سورية ، كما اشترط ، أخذه الفرنسيون الى سجون مختلفة ، بما في ذلك قصر امبواز . وبعد أسابيع من تولي نابليون رئاسة الجمهورية الفرنسية الثانية ، بعث اليه الأمير برسالة (تاريخها 23 ديسمبر 1848) مذكراً له بوعد فرنسا ، وسجن الانكليز لنابليون الأول ، وسجنه (نابليون الثالث) هو نفسه بأمر لويس فيليب ، كما وصف له الأمير معاناته ومعاناة والدته المسنة (70 سنة) ، طالباً من الرئيس الفرنسي أن يستجيب الى رغبته في الذهاب الى مصر أو سورية[91] .

---

(88) أشار الى ذلك باربور ، ص 218 .

(89) « التايمز » (لندن)، (12 أكتوبر ، 1847) ، ص 8 .

(90) غادر بوجو الجزائر ، كحاكم عام ، في 5 جوان ، 1847 ، وخلفه في منصبه الدوق دومال الذي أعطى للأمير وعد فرنسا بأنه سيكون حراً في اختيار منفاه .

(91) إن نص هذه الرسالة هو (27 محرم ، 1265 هـ) ومنشور في «التايمز» (لندن) ، (28 ديسمبر ، 1848) ، ص 4 . وفي مقال بعنوان «بعبع في السجن» لامت مجلة «بانش» الفرنسيين على خلف وعدهم ، وقالت : « إن الفرنسيين لم يفوا بوعدهم ، واحتفظوا بعبد القادر . إننا نعتقد أن الاحتفاظ بأحدهما أسهل من الاحتفاظ بالآخر ولكنهم ، اذا استمروا على مخالفة وعودهم هكذا ، فإنهم سيجدون أنه من السهل عليهم في المستقبل أن يحتفظوا بوعدهم لأنهم لن يجدوا أبداً أحداً يأخذه منهم » . أشارت الى ذلك «التايمز» (لندن) ، (5 فيفري 1848)ص 4 .

وفي 1851 حصل اللورد لندنديري ، بصعوبة على اذن من وزير الحربية الفرنسي بزيارة الأمير في سجنه . وبعد استجواب طويل مع « الرجل الشجاع . . المحارب القديم » كتب اللورد لندنديري رسالة الى نابليون الثالث (تاريخها ، تور 8 مارس 1851) مذكراً له بأنه (أي لندنديري) هو الذي كان قد كتب الى لويس فيليب في حق اطلاق سراحه (أي نابليون) من السجن ، وبأن الأمير كان في حالة يائسة في سجنه ، وبأنه (أي الأمير) قد سأل اجتماعاً مع نابليون[92] .

وفي جوابه على رسالة اللورد لندنديري ، اعترف نابليون « بأن سجن الأمير لم يفتأ يشغل بالي ويقع كحمل ثقيل على قلبي منذ اليوم الأول لانتخابي » . ثم أكد اللورد بأنه سيفعل كل ما في وسعه لاطلاق سراح الأمير ، ولكنه أصر على أن ذلك لن يكون الا اذا كان لا يسبب اضطراباً في الجزائر ، أما بخصوص الاجتماع مع الأمير فإن نابليون قد أخبر اللورد لندنديري « بأنني لا أستطيع أن أراه الا اذا كنت سأعلن أخباراً سارة[93] » .

وقد جاء « الخبر السار » في 2 ديسمبر 1852 حين ذهب نابليون شخصياً الى قصر أمبواز وأطلق سراح الأمير . ويقال أنه ، بينما أهدى نابليون سيفاً الى الأمير ، وعده هذا وعداً شريفاً بأنه لن يرفع السلاح ضد فرنسا مرة ثانية . ثم أبحر الأمير نحو الشرق الأدنى حيث قضى بقية حياته كاتباً ، معلماً ، متهجداً ، الى وفاته في دمشق سنة 1883 .

بعد سجل طويل من الحرب ضد الأمير قال عنه الجنرال دوفيفي سنة 1842 : « ان القوة الحقيقية للأمير ، تلك القوة التي تقاومنا ، ترجع أصولها الى فكرة . . ان عبد القادر كان أميراً لأن الحرية قد منحته سلاحها . . لقد كان رجل التاريخ ، ان

---

(92) وصف اللورد لندنديري الأمير وصفاً حياً فقال : انفتح الباب على مصراعيه ، فوقف أمامنا المحارب الهمام القديم ، ببرنوس أبيض كالثلج ، ولحية سوداء كالقطران ، وحواجب عريضة مقوسة في نفس اللون ، مع أسنان في بياض العاج ، وعينين سوداوين مهيبتين ، يظهر منهما البياض السائل محيطاً بالمقلة في شكل خاص . ويبدو طويل القامة ، مهيباً ، وتؤدي إشاراته ، وبشاشته ، ووداعته تعبيراً لا يكاد يفسر » . أشارت الى ذلك « التايمز » (لندن) ، (15أبريل، 1851).

(93) «التايمز» (لندن)، (15 أبريل 1851) ، وتاريخ رسالة نابليون هو : الايليزي الوطني ، 29 مارس ، 1851 .

الحرية لن تنساه أبداً ، أنها ستردد اسمه دائماً[94] . أما اليوم فان اسم الأمير قد أطلق على ميادين ، وشوارع ، ومدارس ، ومنشآت عسكرية في بلاده . ان الجزائريين يعتبرونه « بطلاً وطنياً » والحق أن هذا الاعتبار ليس خاصاً بالجزائريين .

ان كثيراً من المؤرخين الأوروبيين ينظرون الى الأمير عبد القادر على أنه زعيم الاستقلال، والوطنية، والحرية في الجزائر. فمارسيل ايميري قد قال عنه أنه «بطل الاستقلال والقومية العربية في الجزائر[95] » . أما الجنرال ديميشال فقد اعتبره « ممثلاً لشرعية جديدة » في الجزائر . ومن جهة أخرى فان تيير ، رجل الدولة الفرنسي ، قد أشار الى الأمير على أنه « الممثل البارز للقومية العربية[96] » كما ذكره ب . بوايي على أنه « القائد الروحي » للجزائر[97] . فأما فرنسا نفسها فقد أهدت الى الأمير ، سنة 1860 ، وساماً ، اعترافاً بتدخله لانقاذ آلاف المسيحيين أثناء الاضطرابات الطائفية في بلاد الشام ، يحمل الكلمات التالية : « الى أمير شمال افريقيا ، والمدافع عن القومية العربية ، وحامي المسيحيين المضطهدين[98] . وقد لوحظ من قبل بأن الكاتب باندا قد اعتبر حكومة الأمير « أول حكومة وطنية حقيقية ممثلة للشعب » في الجزائر[99] .

وهناك زعيم آخر للمقاومة العسكرية الجزائرية ، هو الحاج أحمد ، باي قسنطينة . ذلك أنه عندما أمضى الاتفاق الجزائري الفرنسي سنة 1830 وانهارت

---

(94) أشار الى ذلك باربور ، ص 216 ـ 217 .
(95) ايميري ، ص 148 ـ 149 .
(96) أجرون « بروف » (سبتمبر ، 1964) ، ص 50 .
(97) أشار الى ذلك أرون ، ص 34 .
(98) أشار الى ذلك باربور ، ص 217 .
(99) «ليبر ريفيو» (مارس ـ أبريل ، 1958) ص 37 ، بالاضافة الى البطولة فإن الأمير عبد القادر كان شاعراً ومفكراً ، وقد ترك مجموعة من الشعر التي هي في العموم سجل لمعاركه ، وآماله وفخره الشخصي . وقيل أنه كتب (وشاح الكتائب) الغني في لغته وأفكاره . ولكن أشهر عمل فكري له هو « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » ، الذي بعث به الى باريس كمخطوط سنة 1855 وترجمه الى الفرنسية ج . دوقا سنة 1858 ، وقد ناقش الأمير في هذا الكتاب « بأصالة مشاكل الفلسفة ، والدين ، والاقتصاد واللغة ، والتاريخ ، والسلالات » أنظر مقال هنري بيريس : « الثقافة العربية الكلاسيكية في الجزائر » في « مدخل الى الجزائر » 296 ـ 297 .

الحكومة الجزائرية ، رفض أحمد باي ، الذي كان عندئذ والياً على قسنطينة ، معيناً من الداي ، أن يسلم للسلطات الفرنسية وأعلن الحرب ضدها . وقد استمر في مقاومة الفرنسيين الى سنة 1848[100] . ولما كان أحمد باي ينتمي الى الادارة القديمة ، فقد أعلن نفسه الوارث الشرعي للداي المخلوع وطلب من الخليفة الاسلامي في اسطنبول الاعتراف به . ولكن الباب العالي ، الذي كان مشغولاً بتصفية جنود الانكشارية وحروب محمد علي ، لم يمنح أحمد باي أكثر من التأييد المعنوي ولقب باشا . ومع ذلك فان أحمد باي قد واصل الحرب ضد الفرنسيين بإسم الاسلام والخلافة[101] .

ومن أجل ذلك ، بل لعل من أجل أشياء أخرى ، لا يعتبر كثير من الجزائريين وأكثر المؤرخين ، أحمد باي بطلاً « وطنياً » رغم قدرته الادارية وشجاعته الحربية وقيادته النيرة . فقد تمتعت قسنطينة في عهده بادارة مستقرة واقتصاد متقدم وحياة ثقافية طيبة[102] . ويشير ايميري بأن فرنسا قد أرادت أن تبسط حمايتها فقط على قسنطينة ، ولكن أحمد باي كان يريد أن يحكم وحده[103] . وهكذا منعت الغيرة والصراع من أجل الحكم ، بالإضافة الى سياسة الفرنسين التي كانت تقوم على « فرق تسد » تحالفاً بين قوى الأمير عبد القادر وأحمد باي ، رغم بعض المحاولات من طرف الأمير[104] .

---

(100) في هذا التاريخ سلم وبقي في السجن حتى وفاته سنة 1850 .

(101) عبد الجليل التميمي (اقليم قسنطينة والحاج أحمد باي ، 1830 ـ 1837) ، تونس ، 1978 . انظر كذلك قائمة المصادر والمراجع الجديدة .

(102) يقول جوليان بأن الباب العالي قد بعث بأسطول لمساعدة أحمد باي ولكن قطعة من الأسطول الفرنسي قد منعته من تجاوز مياه طرابلس ، ص 140 .

(103) ايميري ، ص 235 ـ 242 . وقد أشرنا من قبل الى أن خوجة قد قام ببعثة ديبلوماسية « خطيرة » كمفاوض بين الباي والفرنسيين ، ولكن هؤلاء اتهموه (بالتآمر) مع الباي « لاسترجاع الحكم الاسلامي » أنظر ايفير ، «ر.ا.» ، م 57 (1913)، ص 103 ـ 105 . وكان الباي متزوجاً من أخت حمدان خوجة .

(104) يشير ايميري إلى أن فرنسا قد طلبت من الباي أن لا يبعث الجنود لمساعدة عبد القادر . وفي مقابل ذلك ضمنت فرنسا الحرية الداخلية التامة للباي ، ص 240 .
أنظر أيضاً جواب الباي على رسالة الأمير حول العمل المشترك ، ص 263 .

4. ثورات الفلاحين

ان ثورة تقوم بها احدى الجمعيات الدينية كانت في العادة تحت قيادة مرابط يجمع اليه القوى الروحية والدينية والسياسية للمنظمة . وقد كانت شخصيته محترمة جداً ، بل كانت بطريقة خرافية معبودة . كما أن كلمته كانت قانوناً لأتباعه . وكان المرابط عادة جيد الثقافة في المجال التقليدي ، مطلعاً على الأحداث الجارية ، ومشهوراً بالحكمة . وقد أصبحت الجمعيات الدينية ، تحت أمثال هذه الشخصيات ، أحزاباً من الوجهة السياسية ، ومنظمات اقطاعية من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، ومدرسة فكرية وتعليمية من الزاوية الروحية والعقلية .

وكما كان متوقعاً ، فان منظمات من هذا النوع كان يمكن أن تتحالف أو تتحارب ، حسب الظروف الداخلية . كانت بعض الجمعيات الدينية فقيرة وبعضها غنية ، وكان بعضها واسع النفوذ حتى أن سلطته كانت تغطي كامل اقليم ، وبعضها كان محدود السلطة بحيث لا يتجاوز نفوذه مجموعة معينة . كما أن سمعتها وتأثيرها كانتا متوقفتين على مواردها وعلى عدد اتباعها . أما الفلاحون فقد عملوا تحت هذه الجمعيات ، كجنود ، ومزارعين ، ثم خدام مخلصين . وعندما تدخل العالم الخارجي ، اختل في الغالب توازن القوى بين هذه الجمعيات بسبب الغيرة والانتهازية والوصولية ، ونحوها .

وبتدخل الاحتلال بدأت الجمعيات الدينية تلعب دوراً عسكرياً هاماً ، فالأمير عبد القادر نفسه كان على رأس احداها ، كما أن بومعزة وبوبغلة اللذين أشرنا اليهما سابقاً ، كانا زعيمين لِأُخْرَيَيْن منها . وكان هناك زعيم آخر وهو بوزيان الذي قاد ثورة عام 1849 ضد الفرنسيين في منطقة الأوراس .

ففي منطقة الزعاطشة كان بوزيان ينشر دعاية دينية وطنية ضد الفرنسيين ، وكان يحث أتباعه على مهاجمة المعسكر الفرنسي في المنطقة . وعندما وقع الهجوم انهزم المعسكر الفرنسي الذي كان عندئذ تحت قيادة بيير بونابارت[105] . ثم انتشرت الثورة في منطقة الأوراس والزيبان مما هدد المعسكرات الفرنسية في كل من باتنة وقسنطينة.

---

(105) كان بونابارت قد ضرب على صدره بحجر رماه به أحد الجزائريين ، فترك جنده في فوضى وعاد الى فرنسا . انظر « التايمز » (لندن) ، (22 نوفمبر ، 1849) ، ص 5.

لذلك أسرع الفرنسيون باحضار النجدة التي كانت تقدر بأحد عشر ألف جندي . ثم حملوا تحت قيادة كاروبير على الجزائريين . وقد كانت النتيجة هي « المصير المرعب »، احراق واحتي الزعاطشة ونارة ، وقطع الآلاف من أشجار النخيل[106] .

وقد علقت جريدة « كونستيتو سيونيل » الفرنسية على هذا « المصير المرعب » فقالت : « ان هذه هي أول مرة في تاريخ احتلالنا (للجزائر) نواجه بمثل هذه الحالة . ان أحد عشر ألف بندقية تعمل جاهدة للقضاء على مقاومة كلفتنا حتى الآن ثمانمائة رجل بين قتيل وجريح[107] » . ونتيجة لذلك فان بوزيان زعيم الثورة ونائبه الشريف بوعمار ، بالإضافة الى عدد يتراوح بين سبع وثمانمائة وطني « قد أعطيت رقابهم للسيف[108] » .

ونفس المصير المرعب كان ينتظر الوطنيين الذين قاموا بالثورة في منطقة القبائل . وقد أشرنا من قبل الى التمرد الذي كان تحت قيادة بوبغلة (1854) الذي يعتبره بعض المؤرخين «رمزاً وطنياً للمقاومة»[109]. وبعد بوبغلة تولت قيادة المقاومة البطلة لا للافاطمة التي يسميها الكاتب الانكليزي نيفيل باربور « شبيهة جان دارك[110] » . فبين سنوات 1851 ـ 1857 شنت فاطمة حرباً عواناً ضد الفرنسيين الذين التجأوا بدورهم الى طريقة بوجو (الأرض المحترقة) لوضع حد للثورة . وفي عام 1857 كانت منطقة القبائل كلها في حالة ثورة بفضل الجهود الدينية والسياسية التي بذلتها الطريقة الرحمانية ، تحت قيادة فاطمة . وعندما أحس الحاكم العام الفرنسي للجزائر ، الجنرال راندون بالخطر الداهم ، قاد بنفسه حملة تتكون من ثلاثين ألف رجل ضد فاطمة ، وبعد معارك دموية ، نجح راندون في أسر فاطمة وقمع الثورة[111] .

---

(106) أنظر باربور ، ص 218 .

(107) أشارت الى ذلك « التايمز » (لندن) ، (27 نوفمبر ، 1849) ، ص 3 .

(108) نفس المصدر ، (1 ديسمبر ، 1849) ص 9 .

(109) المؤرخ الفرنسي بول غافاريل في كتابه «الجزائر»، (باريس : 1883) كما أشار اليه باربور ، ص 218 .

(110) نفس المصدر .

(111) كارل بروكلمان : « تاريخ الشعوب الاسلامية » ، ترجمة عن الألمانية الى الانكليزية جول كارميشيل =

ولكن هناك ثورة أخرى تعتبر أكثر خطورة تاريخياً وأهمية حدثت عام 1871 بمجرد سقوط فرنسا أمام قوات بسمارك . ذلك أن الجزائريين كانوا يراقبون بعناية الحروب والدعايات الأوروبية متوقعين النصر لأصدقائهم والهزيمة لأعدائهم ومنتظرين الفرصة للثورة على فرنسا اذا خسرت الحرب في أوروبا . فقد اعتاد الفرنسيون منذ عقود أن يخبروا الجزائريين « أساطير » عن فرنسا المعصومة وعن روح جيشها التي لا تنهزم . ولكن بعد 1870 لم تعد هذه « الأساطير » تقنع حتى الجزائريين الخرافيين(112) .

ولما لاحظ الجزائريون الاضطرابات في الادارة الفرنسية في الجزائر عقب حوادث « كومون باريس » وسقوط الامبراطورية الثانية ، شرعوا في نهاية عام 1870 في تنظيم الشرطة الوطنية ونشر كلمة السر للثورة . وقد بدأت لجان الشرطة ، التي كان يتكون كل منها من عشرة الى اثني عشر شخصاً ، في إدارة البلاد محلياً : عزل القياد ، وجمع الضرائب ، ومحاكمة المتعاونين وشراء السلاح والخيول والمعدات ، واقامة لجان الأمن والنظام(113) .

وبالاضافة الى لجان الشرطة التي كانت تدعو الى الثورة ، وأخبار هزيمة الفرنسيين ، كان هناك تمرد جنود « الصبائحية » الجزائريين الذي حدث في جانفي 1871 . وقد شارك المتمردون الشعب واغتالوا ضباطهم الفرنسيين ، ونادوا بالاستقلال ، وأخذوا يرددون : « ان باريس قد سقطت في يد البروسنيين وان محي الدين (ابن الأمير عبد القادر) سيأتي من نفطة . . ان الجزائر ستثور كلها وان هذه

= وموشي بيرلمان ، (نيويورك : كابريكورن بوكس ، 1960) ، ص 410 . وخلال هذه المعارك ربط 157 مسبلاً جزائرياً أنفسهم ثم ماتوا جميعاً دفاعاً عن قرية تيشكرت حيث كانت تعيش لاللا فاطمة . أنظر باربور ، ص 218 .

(112) يقول جوليان بأن السلطات الفرنسية قد حاولت أن تمنع انتشار أخبار الهزيمة ولكن الأخبار انتشرت من « فم الى فم ، محورة ومشوهة » في جميع أنحاء الجزائر ، ص 473 .

(113) للحصول على تفاصيل أكثر عن هذه « المنظمات الفلاحية البروليتارية » ، أنظر مقال « تاريخ المقاومة الجزائرية » ، في « المعرفة » ، (نوفمبر ، 1674) ، ص 11 . ويشبه جوليان هذه الشرطة « بلجان الانقاذ الوطني » ص 476 . أنظر أيضاً عن نفس الموضوع باربور ، ص 220 .

فرصة فذة لطرد الفرنسيين[114] » .

وقد كانت هذه التطورات العسكرية مصحوبة بدعاية دينية ـ وطنية ثورية قام بها الشيخ الحداد الذي كان طاعناً في السن (80 سنة) والذي كان قد أصبح زعيماً لجمعية الطريقة الرحمانية . وقد أعلن الشيخ الحداد الجهاد بعد أن ألح عليه ابنه سي عزيز ، ونادى الشعب الى السلاح قائلاً : « ان يوم الخلاص قد حان » . وهكذا انتشرت كلمة الثورة وراجت فكرة الجهاد ضد الفرنسيين في المساجد ، والأسواق ، والمقاهي ، والأماكن العامة بفضل نشاط أتباع الشيخ الحداد . وخلال بضعة أسابيع ساهمت جهة القبائل وحدها بمائة وخمسين ألف رجل[115] .

ولكن الزعيم العسكري لثورة 1871 هو الحاج محمد المقراني الذي كان قد أعد نفسه لهذا الدور منذ وقت طويل ، لقد كان محل ثقة الفرنسيين لشهامته وشخصيته القوية . وقد منحوه لقب « باشاغا » وأعطوه السلطة الادارية في مجانة . ولكن المقراني كان واعياً لدوره ، وكان يراقب التطورات في أوروبا والجزائر باهتمام كبير . ومما يذكر أنه كان قد حصل على سمعة وشعبية واسعة بفضل مساعدته للفلاحين خلال مجاعة 1867 . وعندما بدأت الثورة التي نادى بها الشيخ الحداد دينياً ، غادر المقراني مركزه وانضم الى الثورة في 15 مارس 1871 . وقد انتشرت الثورة من القبائل الى الأوراس والصحراء، وكان لمقراني يتوقع المساعدة من الأمير عبد القادر ، والامبراطورية العثمانية وتونس . ولكن هذه المساعدة لم تتحقق[116] .

غير أن الفرنسيين بعد أن أعادوا الاستقرار لبلادهم ، كرسوا جهودهم لقمع الثورة في الجزائر ووضع حد لها . وكان موت المقراني ، الذي قتل في معركة (ماي 1871) ، قد أضعف الثورة . وقد خلفه في القيادة أخوه بومزراق وسي عزيز ابن

---

(114) أشار الى ذلك جوليان ، ص 476 . ويشير المؤلف أيضاً الى أن الطلبة الجزائريين رفضوا العودة الى المدارس في نهاية العطلة . ويقول بأن الملاحظين قد لاحظوا حركة شراء الأسلحة ، والخيول ، وتهريب البارود ص 475 .

(115) نفس المصدر ، ص 481 ـ 485 . أنظر أيضاً « المعرفة» ، (نوفمبر ، 1964) ، ص 12 .

(116) تذهب أغنية شعبية هكذا : « عبد المجيد (السلطان العثماني) وباي تونس سيأتيان ، نعم ، الى مساعدتنا . . » ، جوليان ، ص 484 ألقى عبد الجليل التميمي أضواء جديدة على هذه النقطة في كتابه (بحوث ووثائق مغربية) ، تونس ، 1972 .

الشيخ الحداد . ولكن القيادة الجديدة ارتكبت خطأين استراتيجيين : الأول كان مد الثورة الى الصحراء حيث النقص في السكان والعتاد والماء . والثاني كان استعمال طريقة الهجوم المباشر ضد الفرنسيين . هذان الخطآن رجحا الكفة لصالح الفرنسيين الذين استطاعوا أن يأسروا بومزراق وسي عزيز في جانفي 1872 [117] .

ولما كان الفرنسيون قد أقاموا الادارة المدنية في الجزائر (بعد سقوط الامبراطورية الثانية) فقد استخدموا ، للقضاء على الثورة ، ليس السلاح فقط ولكن الشرطة المدنية أيضاً على نطاق واسع . والحق أن الفرنسيين بدأوا بتطبيق القانون المعروف « بكود دي لانديجينا » (قانون الأهالي) خلال ثورة 1871 . ومن بين الاضطهادات « المرعبة » التي تلت الثورة ما يلي : مائة فرنك ضريبة حرب على كل بندقية محجوزة ، مصادرة خمسة ملايين هكتار من الأرض التي يملكها الثوار ، وتأميم مليونين وخمسمائة ألف هكتار أخرى[118] . اصدار قانون بالمسؤولية الجماعية على كل خسارة ، رفض اللجوء عند المحاكمة الى القانون العام وتعويضه باجراءات غير معروفة للقانون الفرنسي[119] . أما حكام البلديات (الكومون) فقد أعطاهم القانون كل الصلاحيات لمواجهة كل الطوارىء[120] .

وآخر أهم الثورات الوطنية في القرن التاسع عشر هي ثورة أولاد سيدي الشيخ في جنوب الجزائر عام 1881 . والحق أن هذه الثورة قد بدأت عام 1864 حين شرعت فرنسا في التسلل إلى الصحراء .

ففي ذلك التاريخ (1864) انفجرت ثورة تحت قيادة مرابطين قديرين هما سي سليمان وعمه سي الأعلى . ولم يكن في قدرة فرنسا عندئذ قمع هذه الثورة . وخلال ثورة المقراني عام 1871 انضم سي الأعلى بقواته في الجنوب الى الوطنيين في

---

(117) «المعرفة» ، (نوفمبر، 1964) ، ص 13 . كان بومزراق قد نفى الى كاليدونيا الجديدة حيث بقي ثلاثين سنة . وقد سئل سي عزيز أثناء المحاكمة لماذا أعلن الجهاد ، فأجاب : « حين يكون الانسان في حالة ثورة ، يصبح اعلان الجهاد ، مجرد وسيلة للعمل » . جوليان ص 485 .

(118) فافرو ، ص 15 .

(119) أرون ، ص 49 ـ 50 .

(120) نفس المصدر . انظر أيضاً أطروحة يحيى بوعزيز (دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871) .

الشمال . ولكن مجاعة 1867 ـ 1869 وقمع ثورة المقراني قد أضعفا كثيراً من ثورة أولاد سيدي الشيخ . غير أنه في عام 1881 ، وبعد معرفة الخطط الفرنسية للاستيلاء على الصحراء تجمعت روح الاستقلال من جديد وانفجرت في شكل ثورة جديدة تحت قيادة الشيخ بوعمامة خليفة سي الأعلى الذي أصبح طاعناً في السن . ان بعض الكتاب يسمي بوعمامة « عبد القادر الثاني[121] » . ورغم أن بعضهم الأخر لا يعطونه كل هذه القيمة ، فانهم يعترفون بأن بوعمامة قد تمتع بسمعة عظيمة بين الجزائريين[122] .

بدأ بوعمامة ثورته بمهاجمة المراكز الفرنسية ، وفي 19 أبريل 1881 تمكن من هزيمة وقتل وينبرينر القائد الفرنسي ، ورغم أن خطة الثورة كانت قد درست طويلاً من قبل ، فإن بعضهم يرى بأن العملية الأولى كانت غير ناضجة[123] . ولكن العملية على أية حال ، كانت ناجحة .

وقد أوقد هذا النجاح نار الأمل في تحرير كل الجزائر من يد الفرنسيين . وهكذا فإن نيران الثورة قد امتدت الى وهران ومنطقة الصحراء والهقار[124] . حتى ان بعض الصحافة الفرنسية قد تعجبت من مبادرة النجاح لهذه الثورة ، فجريدة « ديبا » كتبت تقول : انه لم يحدث قبل بوعمامة « ان زعيماً ثائراً يستولي على ثلاثمائة أسير فرنسي ، وألف غرارة من الشعير والقمح ، وغيرها من الغنائم المتنوعة[125] » .

وقد استغرقت ثورة بوعمامة أطول مدة في تاريخ الثورات الجزائرية ولكنها مع ذلك أقلها جميعاً شهرة . فقد دامت أكثر من عشرين سنة (1881 ـ 1904) ، دون

---

(121) «التايمز» (لندن)، (11 جويليه، 1881) ، ص 5 .

(122) أوغسطين بيرنار ، «بوعمامة» في «ك.د.ك.» ، م 11 (1901) ، ص 622 ـ 623 .

(123) «التايمز» ، (لندن) ، (11 جويليه ، 1881) ، ص 5 . وفي هذه الأثناء أخبرت صحيفة « ريبابليكان » الفرنسية بأن جريدة عربية ، تسمى «لانديباندانت» (المستقبل) أصدرتها ايطالية في صقلية ، كانت تنادي الجزائريين الى الثورة ، وأن كمية كبيرة من الأسلحة قد هربت الى الجزائر ، انظر «التايمز» (لندن)، (25 أوت ، 1880) ، ص 5 . أن نقص المعلومات يجعل من غير الممكن تثبيت أو تكذيب أي علاقة بين هذه القصة وبين ثورة بوعمامة .

(124) في نفس الوقت أسر الجزائريون في الهقار بعثة فرنسية وقتلوا قائدها ، الكولونيل فلاتير . وقد تبع ذلك اضطهاد «بلا رحمة» . أنظر أرون ، ص 50 .

(125) أشارت الى ذلك «التايمز» (لندن)، (11 جويليه ، 1881) ، ص 5 .

أن نحسب ثورة أولاد سيدي الشيخ الأخرى التي كانت تحت قيادة سي سليمان وسي الأعلى والتي كانت قد بدأت عام 1864 كما سبقت الاشارة . وقد ناضل الشيخ بوعمامة أثناء كل هذا العهد الطويل بشجاعة وثبات .

غير أن الفرنسيين تمكنوا من هزيمته بطريقتين ، الأولى : منعه من التسلل الى المناطق الأهلة بالسكان في الشمال ومنع تسرب أخبار الثورة الى الأهالي هناك . والثانية تفوقهم في السلاح ، ولا سيما في المدفعية ، وتصميمهم على التسلل الى الصحراء ، ووضع أهلها تحت نفوذهم . وبالاضافة الى ذلك ، فإن بوعمامة الذي كان قد اعتاد أن يجد ملجأ داخل الحدود المغربية حين يطارده الفرنسيون من الشرق ، قد وجد في النهاية أن هذا الملجأ لم يعد مفتوحاً نظراً لازدياد النفوذ الفرنسي في المغرب وتطور التنافس الأوروبي هناك عشية ما يعرف بأزمة المغرب الأولى (1905) . ومن الممكن أن نضيف الى ذلك بأن كبر سن بوعمامة وحالة صحته العامة قد ساهما في فشله[126] .

وهناك بعض الخصائص المشتركة بين كل هذه الثورات التي أتينا عليها باختصار . أنها كلها كانت تقاد بمرابط يجمع لديه السلطة السياسية - الدينية للجمعية . وكلها قد فشلت في تحقيق هدفها وهو طرد « الرومي » من الجزائر . وكلها قد مثلت روح المقاومة المستمرة عند الجزائريين منذ الإحتلال . وكلها قد كانت تفتقد إلى النظام والحركة المنسقة . وكانت تعتمد على زعامة فردية كانت محلاً للضعف الانساني . وفي جميعها كان الفلاحون الوطنيون هم الجيش الطائع للمرابط . فقد كان الفلاحون يكافحون من أجل الوطن ، والاسلام ، وأرضهم المغتصبة وشرفهم المهان (الشؤون العائلية ، والتشرد الشخصي ، الخ) ولكنهم كانوا ضحايا الخرافات والجهل والانقياد الأعمى الى الجمعية الدينية عموماً والى المرابط خصوصاً . ومع ذلك فانهم بثوراتهم المستمرة ، وحبهم لأرضهم ، وكرههم

(126) كان قد ولد في الفغيغ داخل الحدود المغربية من عائلة أولاد سيدي الشيخ التي امتد تأثيرها الى جميع أنحاء أفريقية الشمالية ، ولاسيما المناطق الداخلية . وكان بوعمامة قد أعد لكي يكون مرابطاً . مات في 7 أكتوبر ، 1908 في دائرة وجدة ، ولا يعرف الناس ، حتى الجزائريون ، عن حياته وثورته الا قليلاً .

للأجانب ، فقد حافظوا على الضمير الوطني حيا ومثلوا استمرار الكيان الجزائري الذي حاول الاحتلال القضاء عليه .

والحق أن مقاومة الأمير عبد القادر العسكرية تدخل في الإطار العام لثورة الفلاحين ، ولكنها من جهة أخرى كانت تختلف عنها ، ومن أجل ذلك تحدثنا عنها منفصلة . فمقاومة الأمير عبد القادر تشترك مع بقية ثورات الفلاحين في كل خصائصها ، ما عدا أن الشعور بالوطنية فيها كان أكثر عمقاً في أمدها ، وانتشارها ، وهدفها .

فالأمير عبد القادر قد أرغم فرنسا على الإعتراف به في معاهدتين مختلفتين كسلطان صاحب سيادة على جزء كبير من الجزائر ، ومقاومته كانت أكثر عمقاً نظراً لعدد الاصطدامات مع الفرنسيين ولقوة الأمير الشخصية ، ولهدفه المحدد : وهو خلق دولة جزائرية وطنية . وبالإضافة الى ذلك فإن مقاومة الأمير قد دامت حوالي خمس عشرة سنة وأثرت على كل أهل الجزائر تقريباً .

5. البيئة الثقافية

لما كان الفرنسيون يعتبرون الجزائر مستعمرة « فذة » . فان حكمهم فيها كان له خاصية « فذة » أيضاً . ففي كل المناطق التي سيطرت عليها فرنسا تقريباً (محميات ، مستعمرات ، الخ) حافظ الفرنسيون (أو خلقوا) على بعض الطبقات الاجتماعية (مثلا : الطبقة البورجوازية) ، أو أصلحوها أو تعاونوا معها . أما بالنسبة للجزائر فإن الفرنسيين لم يكتفوا بهزيمة ، ونفي ، وتشريد البورجوازية الوطنية ، بل ضموا الجزائر نفسها الى فرنسا بقرار تعسفي سنة 1834 .

وهكذا فقد نتج عن هذا القرار المحو التام للكيان الجزائري مع كل ما تستلزمه هذه السياسة من نتائج : محو اللغة ، والتاريخ ، والحكومة ، والرموز الوطنية الأخرى . ففرنسا اذن لم تأت الى الجزائر لكي تحافظ (أو تخلق) ، وتصلح أو تتعاون مع أي نظام جزائري لفائدة الأهالي . هذه الحقيقة ، التي قد تصدم الكثيرين ، قد قادت الى رأي « جديد » يجب أن يؤخذ في الاعتبار عند النظر في الحكم الفرنسي وطبيعته « الفذة » في الجزائر . وليس لدينا النية أن ندرس هنا أكثر

هذه النقط لأن هدفنا الرئيسي هو دراسة الإتصـال الثقافي بين الجـزائريين والفـرنسيين ووقعه على الحركة الوطنية الجزائرية ايجاباً وسلباً .

ليس هنـاك احصاءات محـددة عن عدد سكـان الجزائـر ساعـة الاحتـلال . فحمدان خوجـة الذي كـان عارفـاً بشؤون بلاده من خـلال اطلاعـه على سجلات الضرائب للحكومة الجزائرية قد قدر عدد سكان الجزائر عندئذ بعشرة ملايين نسمة . وقد قدر فرحات عباس بأن عدد السكان كان يتراوح بين ستة وسبعة ملايين نسمة . أما بوجو فقد قدره ، سنة 1845 ، بأربعة ملايين كانوا تحت « سلطتنا » . ولكن على الباحث أن يتذكر بأن أوسع المناطق وأكثرها سكاناً في ذلك الوقت كانت ما تـزال خارجة عن سلطة الفرنسيين . على أن الاحصاءات المتـأخرة (1852) تقـدر عدد السكان بـ 2,500,000[127] .

ومهما كان عدد السكان فإنه قد احتوى على طبقة بورجوازية وطنية مكونة من الرسميين ، والعلماء ، والمالكين ، والتجار ، وزعماء الدين على جميع مستوياتهم (مفتيين، قضاة ، أئمة ، الخ) .

ان هذه الطبقة من النخبة التقليدية قد حكم عليها بالاختفاء نتيجة الاحتلال . وقد أشرنا من قبل الى مصير زعماء المقاومة الذين كانوا قد نفوا من بلادهم متهمين بالتآمر . ونفس المصير لقيه كل المثقفين الجزائريين ذوي الرأي والتأثير السياسي بما في ذلك مفتيان يعتبران أعلى سلطة في الشؤون الدينية والسياسيـة[128] . ان هذه السياسة قد جففت الجزائر من طبقتها الوسطى التي كان من الممكن أن تلعب دوراً حاسماً في الاحتفاظ بالكيان الوطني ، والقيم الثقافية ، والوجود السياسي للجزائر . بل حتى أولئك البورجوازيون الذين تخلفوا سهواً في بلادهم كانوا قد أرغمـوا اما على

---

(127) أشار الى هذه الاحصاءات عباس ، ص 50 ـ 51 . وقد علق المؤلف على هذا التقدير بان حوالي نصف السكان كان اما نفي واما اختفى .

(128) للحصـول على معلومـات أكثر ، أنـظر ايفير ، «ر.ا.» ، م 57 (1913) ، ص 129 ـ 131 ، عبـاس ، ص 83 ، وأوغسطين بيـرك « البورجـوازية الجـزائـريـة » في « هيسبيـريس » ، م 35 ، (1948) ، ص 15 ـ 19 ، ويسرد بيرك أيضاً احصاءات عن «هجـرة» الجزائـريين «الجماعيـة الى الشرق الأدنى».

العيش الضنك واما على الهجرة مؤخراً[129] .

والمدافعون عن الحكم الفرنسي يدعون بأنه لم يكن للجزائر طبقة بورجوازية ، قبل الاحتلال . فهم يستدلون على أن الجزائر كانت تشبه أوروبا في العصور الوسطى بلا سكان حضريين ولا طبقة وسطى ، ولا كيان ثقافي . ومن بين هؤلاء جورج مارسي الذي يؤكد بأن سكان الجزائر قبل الاحتلال كانوا « جهلة بكل أشكال حضارة المدن[130] . وهناك مدافع آخر يقول ، لم يكن للجزائر « سكان مدن ما عدا في مدينة تلمسان[131] » . وهناك من ينكر وجود البورجوازية الجزائرية قبل دخول الفرنسيين الى الجزائر ، ثم يعلن بأن ظهورها كان « ظاهرة خاصة بالعهد الفرنسي[132] » .

وقضية الطبقة الوسطى وجودا وعدما ، لها علاقة هامة بالحركة الوطنية فالمدافعون عن الحكم الفرنسي مثل أ . بيرنار ، أ . ف . غوتى ، ج . هـ . بوسكي وغيرهم معروفون بمغالاتهم في الدفاع عن الجزائر « الفرنسية » وبخدمتهم كمستشارين في الادارة الفرنسية . فلو اعترفوا بوجود بورجوازية جزائرية قبل الاحتلال ، لكان ذلك يعني اعترافهم « باختفاء » هذه الطبقة تحت الحكم الفرنسي الذي يعتبرونه فوق النقد[133] . كما يعني أيضاً أنه كان للجزائر شخصية وطيدة كأمة قبل الاحتلال . وهذه حقيقة ينكرها معظم الفرنسيين الرسميين وغير الرسميين .

وبالمقارنة الى رأي المدافعين عن الحكم الفرنسي في الجزائر ، فإن هناك رأياً آخر يصر على أنه كان للجزائر بورجوازية قوية عند الاحتلال مكونة من عناصر ثقافية

---

(129) يذكر بيرك بأنه «خلال خدمته التي استغرقت ربع قرن في الادارة الفرنسية بالجزائر ، قد وجد أن عائلات معروفة جداً ، ذات أسماء مشهورة في الجزائر خلال القرن التاسع عشر كانت في حالة «تعسة» جعلتها تطلب المساعدة المستعجلة . نفس المصدر ، ص 17 . وقد أخبر دي صاد ، الذي كان عضواً في اللجنة الأفريقية ، مجلس النواب بأن عشرة آلاف جزائري قد غادروا الجزائر العاصمة ، بما في ذلك ثلاثمائة عائلة رئيسية . أنظر تقريره في «م . و» (29 أبريل، 1834) .

(130) بيرك ، ص 7 .

(131) ا . ف . غوتي ، كما أشار الى ذلك بيرك .

(132) ج . هـ . بوسكي ، «النخبة الحاكمة في أفريقية الشمالية منذ الاحتلال الفرنسي » ، في «و . ا . »، م 3 (1953) ، ص 26 .

(133) كلمة « اختفاء » من استعمال بيرك ، « هيسبيريس » ، م 35 (1948) ، ص 17 .

وتجارية ، وسياسية . وهذا الرأي لم يكن مؤيداً من الوطنيين الجزائريين فحسب ، بل من بعض المؤرخين الفرنسيين أيضاً .

فقد كتب ب . ل . بوليو في كتابه « الجزائر وتونس »(1894) ، بأنه كان للجزائر حضارة متقدمة ، ومجتمع منتظم ، و« عاطفة ذاتية قوية بكيانها[134] » . أما أليكسيس دي توكفيل فقد صرح أمام المجلس الوطني الفرنسي سنة 1847 بأنه كان للجزائر حضارتها الخاصة ، رغم تخلفها . واعترف « بأننا قد جعلنا المجتمع الاسلامي (الجزائري) أكثر شقاء وأكثر بربرية مما كان عليه قبل وجودنا[135] » . وليس هناك حاجة لاعادة رأي حمدان خوجة ، وج . ايفير ، أو أ . بيرك عن نفي ، واختفاء ، وسجن قوات الاحتلال للبورجوازية الجزائرية .

والثقافة الجزائرية عانت أيضاً نتيجة للاحتلال . فالمواسم الوطنية ، والتاريخ ، واللغة اما اختفت واما اضطهدت . وكانت المساجد قد حولت الى كنائس ، أو مستشفيات ، أو متاحف . كما أن المثقفين الجزائريين قد فقدوا تدريجياً الاتصال بماضيهم نتيجة لفقدان الكتب والمدارس بلغتهم . أما الفلاحون فقد تركوا للخرافات والجهل[136] . وقد كانت اللغة أكثر النظم الوطنية الجزائرية معاناة ، وبالتالي فإن التربية عموماً قد انضرت .

وهناك دلائل تدل على أن التعليم قد ازدهر في الجزائر قبل الإحتلال. فقد كتب الجنرال فالري سنة 1834 قائلا بأن « كل العرب (الجزائريين) تقريباً يعرفون القراءة والكتابة ، حيث هناك مدرستان في كل قرية » . وفي تقرير الى نابليون الثالث ، كتب الجنرال دوهوتبول سنة 1850 بأن « الدراسات الاسلامية كانت في وضع مزدهر نسبياً » عشية الاحتلال[137] . أما الأستاذ ايميري ، الذي درس طويلاً الحياة الجزائرية في القرن التاسع عشر ، فقد أشار إلى أنه كان في قسنطينة وحدها ، قبل الاحتلال ، خمسة وثلاثون مسجداً تستعمل كمراكز للتعليم ، كما كان هناك سبع

---

(134) أشار الى ذلك عباس ، ص 54.

(135) نفس المصدر ، ص 86 ـ 87 .

(136) باربور ، ص 83 ، 219 . أنظر أيضاً تقرير دي صاد في «م.و.» (29 أبريل ، 1834) .

(137) أشار الى ذلك فانسان مونتاي، «التعريب الثقافي في الجزائر» في «بروف» (جانفي، 1964)، ص 31 ـ 35.

مدارس ثانوية يحضرها ما بين ستمائة وتسعمائة طالب ، ويدرس فيها أساتذة محترمون لهم أجور عالية . أما بخصوص المدارس الابتدائية فقد كان هناك تسعون يحضرها 1350 تلميذاً[138] .

كان التعليم يعطى في المساجد التي كانت أمكنة للعبادة الى جانب اعتبارها مراكز للتربية والتعليم ، وفي الزوايا التي كانت عادة تحت سلطة الجمعيات الدينية ، وفي المدارس الثانوية ، ثم المدارس الابتدائية التي كان بعضها رسمياً وبعضها خاصاً . وقد كان التعليم حراً على جميع المستويات لأن الطلبة ، والأساتذة أيضاً ، كانوا يتقاضون مرتباتهم من الأوقاف .

ولكن الفرنسيين قد استولوا على هذه الأوقاف . وهكذا جرد التعليم الجزائري من أهم موارده . ان هذا الاستيلاء على الأملاك التعليمية والدينية قد حرك حتى أولئك الفرنسيين الذين كانوا يقفون من الجزائريين موقفاً معادياً ، مثل دي توكفيل الذي صرح : « لقد وضعنا أيدينا في كل مكان على هذه الأملاك » (الأوقاف) ثم وجهناها غير الوجهة التي كانت تستعمل فيها في الماضي ، لقد عطلنا المؤسسات الخيرية (وهكذا) تركنا المدارس تموت والندوات العلمية تندثر » . ثم حذر مواطنيه بأن « الأضواء » كانت تموت « لأن تجنيد أهل الدين والقانون قد توقف »[139] .

واختفاء المؤسسات التعليمية كان يعني اضطهاد اللغة الوطنية وهي العربية . فقد اعتبرها الفرنسيون لغة أجنبية وميتة : أجنبية لأن اللغة الفرنسية كانت قد أصبحت لغة الجزائر الرسمية منذ قرار الالحاق سنة 1834 ما دام هذا القرار في حد ذاته كان يعني أن الجزائر نفسها قد أصبحت فرنسية ، وميتة لا لأن مصيرها قد انتهى كمصير

---

(138) ايميري ، ص 235 . في 1850 كتب الجنرال بيدو في مذكراته بأنه كان في قسنطينة ، سنة 1837 ، تسعون مدرسة ابتدائية يحضرها من ألف وثلاثمائة الى ألف وأربعمائة تلميذ ، ولكن في سنة 1850 ، لم يكن فيها أكثر من ثلاثين مدرسة يحضرها ثلاثمائة وخمسون تلميذاً فقط . أما بخصوص التعليم العالي ، فقد أشار الى أن عدد الطلاب ، سنة 1837 ، كان من ستمائة الى سبعمائة ، ولكن ، سنة 1850 ، انخفض عددهم الى ستين طالباً فقط . أشار الى ذلك مونتاي ، « بروف » (جانفي ، 1964) ، ص 32 .

(139) أشار الى ذلك عباس ، ص 56 ـ 87 .

اللاتينية والاغريقية فقط ، ولكن أيضاً لأنها لن تكون قادرة على أن تصبح لغة حضارة[140] .

وعلى هذا الأساس أهمل الفرنسيون تعليم العربية للجزائريين واكتفوا باستعمالها لأغراض ادارية استعمارية فقط . فقد بدأوا أولاً بازالتها من المدارس الابتدائية والثانوية ، ثم ان تعليمها في الدراسات العليا لم يكن تثقيفاً ولكن فقط لتحضير بعض الاداريين والمترجمين لادارة الجزائريين قصد التعجيل بالاندماج . بل ان مواد التدريس وتجنيد المدرسين كانت تتوقف على اذن السلطات العسكرية . أما الأساتذة الذين عينهم الفرنسيون لتدريس العربية فقد كانوا يسمون « بأساتذة العربية الدارجة[141] » وعندما جاءت الجمهورية الثالثة التي كانت متحمسة لشعارات الاندماج ووصل الجزائر بفرنسا ، أصبحت العربية عقبة في نظر الفرنسيين كما أصبح معلموها أعداء . والقرار الذي صدر في 18 أكتوبر ، سنة 1892 قد أوجب الحصول على رخصة لفتح مدرسة عربية[142] .

ولكن العربية قد حافظت على وجودها من خلال ثلاث قنوات، الأولى هي المدارس القرآنية[143] ، والثانية الوعظ والارشاد في المساجد ، رغم أن هذا العمل كان مراقباً من السلطات الفرنسية حتى لا ينحرف الامام عن الخط الأخلاقي الى موضوعات سياسية ، أما الثالثة فهي خلق ثلاث مدارس ثانوية باللسانين سنة 1850 ، مع التركيز طبعاً على اللسان الفرنسي[144] . وقد قدر لهذه المدارس أن تخرج ، ولا سيما في أواخر القرن الماضي ، عدداً من الجزائريين المختصين في الصحافة والتعليم والترجمة ، (والذين سندرسهم حين نتحدث عن ظهور النخبة) . أما المدارس القرآنية والمساجد فلم تخرج عدداً كبيراً بالنسبة للقيادة ، ولكنها قد نجحت في الاحتفاظ بالعربية حية رغم تواضعها وتخلف مستواها.

---

(140) بوسكي ، « و. ا » ، م 3 (1954)، ص 23 ـ 24 .
(141) ج . ديبارمي ، «رد الفعل اللغوي في الجزائر» ، «س.ج.ا.» ، م 36 (1931). ص 19 .
(142) مونتاي ، « بروف » (جانفي ، 1964) ، ص 32 ـ 33 .
(143) حفظ القرآن من غير أي معرفة بالعلوم الأخرى .
(144) نفس المصدر .

ومن الممكن أن يتوقع الانسان بحق أن فرنسا بعد أن اضطهدت العربية ستعوضها بالفرنسية . غير أن ذلك لم يحدث أيضاً . (فالجزائوي) في العقل الفرنسي ، لم يكن له وجود . فهو لم يكن لا جزائرياً ولا فرنسياً ، ولكنه كان مجرد رعية محتلة . ولذلك فإن معاملته كانت تتماشى مع هذه الفكرة[145] . فالجزائري ، كان ينتمي الى « جنس غير قابل للتصحيح والتثقيف[146] » . ولهذا السبب أهمل الفرنسيون تعليم الجزائريين .

ونحن نجد المؤرخ الفرنسي روبير أرون يشير إلى كيفية الانفصال بين الجزائر وفرنسا كما يظهر في اللغة . فهو يعطي الاحصاءات المصدمة التالية سنة 1948 : من بين الجزائريين نجد 15٪ فقط من الرجال و 6٪ من النساء يستطيعون أن يتكلموا قليلاً من الفرنسية ، ونجد من بينهم 6٪ من الرجال و 2٪ من النساء يستطيعون أن يكتبوا بها[147] . فإذا أضاف الانسان هذه الصورة الكئيبة عن معرفة الجزائريين بالفرنسية الى الصورة الكئيبة الأخرى عن معرفتهم بلغتهم الخاصة ، فإنه يلاحظ الأعمال الحقيقية التي قام بها الفرنسيون في الجزائر ، ومساهمتهم في « تقدم » شعبها . ان المؤرخ للجزائر في القرن التاسع عشر لا يكاد يعثر على عالم جزائري حقيقي واحد ، لا بالعربية ولا بالفرنسية .

وشيئاً فشيئاً اكتشف الفرنسيون أهمية الجمعيات الدينية في الحياة الجزائرية ، ثم بدأوا يساومونها لكي يضغطوا عن طريقها بقبضتهم على الأهالي . فبعد سقوط الحكومة الجزائرية ، وطرد البورجوازية الوطنية ، لم يبق الا الجمعيات الدينية ، كسلطة جزائرية ذات نفوذ . وقد أشرنا من قبل الى دور هذه الجمعيات السياسي ، والعسكري ، والاجتماعي . ومما يذكر أن اكتشاف الفرنسيين لها كان له علاقة بثورة 1845 التي لعبت فيها تلك الجمعيات دوراً حاسماً .

وبعد هذه الثورة فتح الفرنسيون عهداً جديداً مع تلك المنظمات شبه السرية .

---

(145) بخصوص مسألة المواطنة ، أنظر سابقاً .

(146) أشار الى ذلك فافرو ، ص 54 .

(147) قدم المؤلف أيضاً بعض الاحصاءات بخصوص معرفة الكولون بالعربية ، وبناء عليه فقد كان هناك 20٪ من الرجال ، و 10٪ من النساء يستطيعون أن يتحدثوا قليلاً بالعربية ، ولكن لا يكتب بها قليلاً الا 1,7٪ من الرجال و 0,5٪ من النساء أنظر ص 297 .

استعملوا معها أولاً طريقة « فرق تسد » لكي يضعفوا ويمنعوا أي تحالف مستقبل بين الجمعيات . ودخلوا ثانياً مع بعضها في مفاوضات انتهت بإمضاء اتفاقات مشتركة أو تحالفات اعترفت فرنسا بعدها بالسلطة المالية والمعنوية لبعضها بينما وافقت الجمعية المعنية على السيادة الفرنسية وعلى المحافظة على النظام والأمن . وكان ذلك يعني منع اتباعها من الثورة ضد فرنسا[148] .

أما زعماء هذه الجمعيات فيسميهم بعض المؤرخين « النخبة التقليدية » كما يسميهم آخرون « النخبة القديمة[149] » . ومهما كان اللقب الذي يطلق عليهم فقد كان لهم سلطة قوية على أهل الريف ممثلة في عقيدة (المرابطية) التي كانت في العقود الأولى من الاحتلال تجمع بين النظم الدينية والآمال السياسية . فقد كان لكل جمعية زاوية هي مقر للمرابط ، ومركز للتعليم والصدقة ، ومكان للعبادة . أما عندما تقود احدى الجمعيات ثورة ما فإن زاويتها تصبح مجمع الجهاد وملتقى كلمة السر للثورة .

وقد كان دخول فرنسا في اتفاقات مع بعض هذه الجمعيات عامل تجريد لها من القوة السياسية . فلم يبق لها في الحقيقة سوى درجة بسيطة من التأثير الروحي ، ولم تعد تستمد قوتها الا من الغموض والخرافات المهولة . وهكذا فبدل أن يتولى زعماء الجمعيات الأخيرون القيادة الوطنية والسياسية كما فعل الأمير عبد القادر ، انغمسوا في المرابطية تاركين للفرنسيين يداً حرة في الجزائر ، مساعدين لهم ، في الحقيقة ، عن وعي أو عن غير وعي ، بتسلطهم الخرافي على عقلية الفلاحين .

ويتفق المعارضون والمؤيدون لوجود البورجوازية الجزائرية قبل الاحتلال على أنه قد أصبح للجزائر طبقة وسطى جديدة حوالي 1900 . والحق أن تاريخ ميلاد هذه الطبقة ليس مهما كثيراً . فبيرك ، الذي يصر على أنه كان للجزائر بورجوازية خاصة بها قبل الاحتلال ، يوضح بأن طبقة « جديدة » قد ظهرت في الجزائر منذ 1860 (أي بعد جيل من الحكم الفرنسي) . ويضيف بيرك بأن هذه الطبقة تعد واسطة بين اشراف السيف والجماهير . وبناء على رأيه فإن هذه الطبقة الجديدة كانت تتكون من الناجين النادرين من الطبقة الوسطى « القديمة » ، ومن النبلاء الذين أصبحوا تدريجياً

---

(148) بوسكي ، «و.ا.» ، م 3 (1954) ، ص 15 ـ 17 .

(149) نفس المصدر ، أنظر أيضاً أرون ، ص 181 .

بورجوازيين ، ومن أغنياء الفلاحين الجزائريين الذين هاجروا الى أهم المدن ، وخصوصاً الجزائر العاصمة[150] . أما بوسكي الذي ينكر وجود بورجوازية جزائرية قبل الاحتلال فإنه يقول بأن هذه الطبقة من الجزائريين التي خلقها الفرنسيون كانت سيئة الحظ وتفتقر الى التنظيم ، كما كانت قليلة العدد[151] .

وكما أثارت مسألة اختفاء البورجوازية الجزائرية جدلاً بين الكتاب ، فكذلك مسألة ظهورها . فقد نوقشت هذه المسألة من خلال وجهتين متعارضتين تماماً هما : الاستعمار والوطنية . ويبدو من الواضح أن أولئك الذين ينسبون الى فرنسا « خلق » البورجوازية الجزائرية كانوا لا يريدون تحميل الفرنسيين مسؤولية اختفاء الطبقة الوسطى الجزائرية عند الاحتلال .

ان هذا الادعاء مؤيد بحقيقة وهي : أنه لا يوجد ، من بين الذين يقولون بأن البورجوازية الجزائرية من مخلوقات فرنسا من يذكر الوسيلة التي تمت بها عملية الخلق : فهل كانت بالثقافة ؟ لقد رأينا النسبة المئوية من الجزائريين الذين يستطيعون قراءة الفرنسية عام 1948 ، دون أن نذكر شيئاً عن العربية . وهل كانت بالملكية ؟ اننا نعرف أن الاستعمار واغتصاب الأرض قد جعلا من المستحيل على الجزائريين أن يحتفظوا بأملاكهم ، وخصوصاً الأرض . وهل كانت بالانتخاب السياسي ؟ أننا نعرف أن الجزائر لم تملك حق التمثيل البرلماني الا سنة 1947 . وهل كانت بالحصول على الجنسية الفرنسية ؟ أننا نعرف أن القرار المعروف بالساناتوس ـ كونسولت لعام 1865 قد جعل الجزائريين رعايا فرنسيين وقد بقيت هذه الصفة إلى إنتهاء الحكم الفرنسي . ان هذه هي الأسئلة والأجوبة التي يجب مراعاتها إذا كان الباحث يريد أن يدرس مشكلة البورجوازية الجزائرية .

وبنفس المقياس يجب أن ينظر الباحث الى تكوين النخبة الجزائرية التي يتصل موضوعها اتصالاً قريباً بمشكلة البورجوازية . فبإنتهاء القرن الماضي أصبح للجزائر عدد قليل جداً ، ولكن نشيط ، من المثقفين الذين كانوا « قد دلكوا دلكاً على محك »

---

(150) «هيسبيريس» ، 35 (1948) ، ص 18 ـ 19 .

(151) «و.ا.» ، 3(1954) ، ص 26 .

الثقافة الفرنسية[152] والذين قدر لهم أن يلعبوا دوراً حيوياً في تشكيل الحركة الوطنية الجزائرية بمفهوما الجديد . وبناء على ما يقوله أحد الباحثين فان النخبة الجديدة كانت قد تكونت في المدارس الثانوية (فرانكو ـ موزولمان) التي أنشئت بعد 1850 وغيرها من المعاهد الفرنسية التي منحت النخبة مدخلاً الى الثقافة الأوروبية .

ونتيجة لذلك تكونت جماعة من الجزائريين من بينهم المعلمون ، والمترجمون والصحفيون[153] . ولم يكن تكوين هذه الجماعة سهلاً لسببين : الأول أن التعليم كان يعطى بالفرنسية التي لم تكن اللغة الأساسية للثقافة بالنسبة للجزائريين ، والثاني وجود خلاف في البيئة الاجتماعية والنظرية بالنسبة للجزائريين والفرنسيين[154] . فبينما كان يستعمل المتعلم الفرنسي لغته كوسيلة ثقافة ، كان المتعلم الجزائري يستعمل الفرنسية للخبز فقط . وزيادة على ذلك ، فانه بينما كان يوجد تعاون وتنسيق في فرنسا بين المدارس ، والعائلات ، فانه كان في الجزائر انفصال تام بين ما يتعلمه الطفل في المدرسة وما يكسبه من البيئة العائلية[155] . وهكذا نلاحظ بأن التعاون بين المؤسستين (المدرسة والعائلة) كان مفقوداً بالنسبة الى الجزائريين .

كما أن الدور الوطني لكل من النخبة التقليدية والنخبة الجديدة جدير بالذكر . وبالرغم من وشك الاختفاء للنخبة التقليدية فانها لم تمت تماماً في الجزائر . فالقلة المتخلفة ، والمضطهدة والمشردة ، التي بقيت ، قد استمرت في مقاومة الحكم الفرنسي . ونجد من بين الشعراء الوطنيين ، بوثلجة ، الذي مات في معركة ضد الفرنسيين والذي كتب عنه الدوق دورليان سنة 1870 بأنه كان « جندياً فذاً . . مات

---

(152) نفس المصدر .

(153) علي مراد ، «تكوين الصحافة الاسلامية في الجزائر (1919 ـ 1939) ، في «ابـ . لـ . ا . م 27 (1964) ، ص 13 . وأكثر أعضاء النخبة الجزائرية ذوي اللسانين قد اشتغلوا في تحرير « الأخبار » و «المبشر » ، وكلتاهما صحيفة فرنسية رسمية تنطق باللسانين . والهدف منهما هو تبليغ الجزائريين سياسة فرنسا الرسمية . من بين هذه النخبة ، الحفناوي ، شرشالي ، فخار ، بدوي ، وبريهمات ، وجميعهم اشتغلوا كمحررين في الجرائد .

(154) بوسكي ، «و.ا.» ، م 3 (1954) ، ص 23 ـ 24 .

(155) يشير بوسكي أيضاً الى أن من بين « المعرقلات » لتكوين النخبة هو نقص « الذوق الثقافي » بين أهل أفريقية الشمالية عموماً لأنهم « أجلاف » نفس المصدر ، ص 24 ـ 25 . ولكن رأي بوسكي لا يستند على أي برهان علمي ، وهو بلا شك قائم على « محاباة ثقافية » .

كما مات كورنر في يد فرنسي ، كلاهما ناضل من أجل بلاد كان يحلم بأن يـراها عظيمة ، ولكن كلاهما قد تركها في تعاسة[156] » . وقد نـاضلت النخبة التقليـدية الجزائرية الفرنسيين بـواسطة الأدب الشعبي ، والقصص الـوطني والتعلق الغامض بالماضي ، ولكن قبل كل شيء ، بواسطة تحميس « الفخر الوطني[157] » .

أما النخبة الجديدة فقد بدأت دورها بالمطالبة بالحقوق للجزائريين بينما كانت تعبر عن ولائها لفرنسا . فلم تناد لا بالثورة ولا بالاستقلال . وقد بقي دورها الوطني الى نهاية القرن الماضي محدوداً . كما أن تكوينها كان « بطيئاً » و « مؤلماً[158] » . وكان أخذها لموقف وطني أيضاً بطيئاً الى درجة الألم .

6. مظاهر ومشاكل الحركة الوطنية :

بعد استسلام الأمير عبد القادر ، قال الجـزائريـون للجنرال لامـورسيير بـأن « فـرنسـا ستمضي قـدمـا ، ولكنهـا ستضـطر ذات يـوم الى التـراجـع ، وعنـدئـذ سنعود[159] » . ان هذا الوعد قد تردد وبقي حياً في الذاكرة خلال تاريخ الحـركة الوطنية الجـزائريـة . فالفـلاحون الثـوريون والبـاقون من النخبـة التقليديـة والنخبة الجديدة ، كلهم رددوا تلك الجملة « سنعود » . فالجزائر في نظرهم لم تضع أبدا لمجرد الاحتلال العسكري ، ولم يكن « استرجاعها » الا مسألة وقت .

ان كل التعريفات تدل على أن الأمة الجزائرية (أو الكيان الجزائري) كانت قائمة على أساس صحيح ومحدد عند الاعتداء الفرنسي ، فقد كانت لها حدودهـا الجغرافية الخاصة ، وحكومتها ، ورئيس دولتها ، وجيشها ، وعملتهـا ، وعلمها ، كما كانت لها علاقات ديبلوماسية مع فرنسا نفسها ومع انكلترا ، وأمريكا ، وأسبانيا ، وهولندا ، وغيرها من الدول ، وقد كان لهذه الأمة الجزائرية لغتها الخاصة ، ودينها ،

---

(156) أشار الى ذلك باربور ، ص 219 . لقد كان بوثلجة شاعراً شعبياً وفارساً مغواراً من أهل حجوط . أما كورنر فهو شاعر ألماني وقد مات في احدى المعارك ضد نابليون .

(157) ج . ديبارمي ، « زعماء الرأي في الجزائر » في «ا.ف.» (جانفي ، 1933) . ص 15 .

(158) بوسكي ، «و.ا.» م 3 (1954) ، ص 26 .

(159) أشار الى ذلك بـول ـ ايميل سـاراسين ، « الأزمة الجـزائريـة » (باريس : درسيـرف ، 1949) . ص 61 .

وتاريخها المشترك ، وعاداتها ، وتقاليدها المشتركة ، وكان لها ، قبل كل شيء ، شعور وطني مشترك . غير أنها ، كجنوب أوروبا ، لم تكن واعية لخصائص وجودها كأمة الا بعد أن أيقظ الاعتداء الأجنبي ضميرها الوطني . فالاعتداء اذن ، كان عاملاً حاسماً في الحركة الوطنية الجزائرية لا لكونه قد « خلقها » ولكن لأنه « أيقظها » .

ولا شك أن هناك تعريفات مختلفة ومتضاربة للأمة والجنسية والقومية، فالعالم الاجتماعي البريطاني ف. هيرتز يعرف الأمة بأنها « جماعة تكونت بإرادة أن تكون أمة »[160] . وقد حاول الأستاذ هانز كوهن أن يعرف القومية تعريفاً موجزاً وصريحاً فقال : « ان القومية هي حالة عقلية يظهر فيها الولاء الأكبر للفرد نحو الدولة ـ الأمة »[161] .

ومن الممكن الآن تعريف الأمة الجزائرية بأنها، الجماعة التي تسكن القطر الجزائري والتي تشترك في الشعور، والتاريخ، والآمال، والثقافة ، (اللغة ، الدين ، التقاليد) . أما الوطنية الجزائرية فهي الشعور الوطني المشترك الوفي للجزائري نحو أمته . وهذه « الحالة العقلية » ، كما يقول الأستاذ كوهن ، أو « إرادة أن تكون أمة » كما يقول الأستاذ هيرتز ، قد وجدت بين الجزائريين منذ قرون ، ولكن خطر الاحتلال فقط هو الذي صقلها ووضعها في محتواها التاريخي كقوة سياسية تصارع من أجل البقاء.

ان وجوه الشبه بين الحالة العقلية لبعض شعوب جنوب أوروبا قبل وبعد أخطار الثورة الفرنسية واضطهادات العثمانيين وبين الحالة العقلية للشعب الجزائري عند

---

(160) أشار الى ذلك لـ .لـ . سنايدر ، «العالم في القرن العشرين » (برانستون، نيوجيرزي : فان نوستراند ، 1955) ، ص 22 .

(161) «القومية معناها وتاريخها» (برانستون ، نيوجيرزي : فان نوستيراند ، 1955) ، ص 9 . يعطي الأستاذ سنايدر تعريفاً طويلاً ومطاطاً للقومية حاول أن يتناول فيه كل مظاهر القومية ارضاء لجميع الأغراض . ونحن ننقل هذا التعريف نظراً لما يلقيه من ضوء على مختلف مظاهر القومية ، فقد قال سنايدر : « أن القومية هي حالة عقلية ، وشعورية ، أو عاطفية لجماعة من الناس يعيشون في منطقة جغرافية معينة الحدود ، ويتكلمون لغة مشتركة ، ويملكون أدباً يعبر عن آمال الأمة ، ويرتبطون بتقاليد مشتركة وعادات مشتركة ، ويقدسون أبطالهم الخاصين ، ولهم في بعض الأحيان ، دين مشترك » . أنظر سنايدر ، ص 23 .

الاحتلال،جديرة بالملاحظة . ففي الحالتين نجد أن القوات الوطنية قد انطلقت فقط عندما أصبح الخطر الخارجي محدقاً، ولكن بينما نجد في حالة أوروبا خلال 1800 ـ 1830 أن القوات الوطنية قد ربحت من توازن القوى الأوروبية ، نجد القوات الوطنية ، في حالة الجزائر ، معزولة تماماً عند الاحتلال الفرنسي ، كما نجد أن توازن القوى الأوروبية لم يلعب دوراً يذكر في صالح الحركة الوطنية ، كما كانت الحالة في أوروبا والشرق الأدنى[162].

وكان الكيان الجزائري قد لاحظه الجزائريون والفرنسيون على السواء خلال القرن الماضي. ويبدو أن خوجة كان أول جزائري لا يدافع عن الكيان الجزائري فحسب ، ولكن أيضاً يعرفه تعريفاً حديثاً . فهو عنده « عاطفة شهامة (لدى الجماعة الجزائرية) تحركت عندما أصبحت تشعر بالاستبداد من أمة أجنبية »[163] . كما أقام خوجة فكرة الكيان الجزائري في علاقته مع الكيان الفرنسي على الاختلاف في الدين ، واللغة ، والعادات والتقاليد ، فالكيان الجزائري ، بناء على رأيه له حق الوجود « حراً مستقلاً » بوسائل ديموقراطية (الانتخاب) تعتمد على الاسلام والليبرالية الغربية[164].

وقد ساعد خوجة على رأيه مثال القوميات اليونانية ، والبلجيكية ، والبولندية الذي أعطاه حججاً منطقية واضحة . ولما كان خوجة معاصراً لزعيم القومية الايطالية مازيني ، ورائد القومية البولندية ، آدم ميكيوفيتش ، اللذين كانا مثله في المنفى ، فإنه من الممكن اعتباره أباً للحركة الوطنية الجزائرية بمعناها الحديث.

حينما خاطب الأمير عبد القادر الجزائريين قائلاً : « انكم الآن تحت رحمة رومي ، يقاضيكم رومي ، ويدير شؤونكم رومي . . ان يوم يقظتكم قد حان ! هبوا جميعاً عند سماع صوتي ! »[165] كان في الحقيقة، يثير حماسهم ضد الأجنبي، لكي يوحدهم كأمة تحت زعامته ويطرد المعتدين الذين « أهانوا مساجدكم . . وأخذوا

---

(162) ان هذه حقيقة تاريخية يجب التركيز عليها ، لأنها تكاد تكون دائماً مهملة من المؤرخين .

(163) ايفير ، « ر.ا. » ، م 57 (1913) ، ص 128 .

(164) نفس المصدر ، ص 117 ـ 118 .

(165) « التايمز » (لندن) ، (من الأخبار) ، 19 مارس ، 1846 .

أراضيكم . . واشتروا أعراض نسائكم »[166] فالأمير حينئذ ، كان يحاول « إيقاظ » أمته وليس « خلقها » . غير أنه كان واعياً لضعفها ، ولذلك حاول أن يدعم عواطفها بالتركيز على الاسلام ، والأرض ، والحرية ، والشرف ('مثلاً : المرأة)[167].

كان الأمير عبد القادر يختلف عن خوجة ، الذي آمن بفكرة القومية الحديثة بمعناها السياسي اللاديني . أما الأمير عبد القادر فقد كان تقليدياً في تفكيره . فالقومية في نظره تقوم على الدين ، والبطولة ، والاقتصاد ، والعاطفة ، وتتحقق عن طريق القوة العسكرية . وبالمقارنة ، نجد خوجة يؤمن بالوسائل السياسية ، مثل الحلول القائمة على المفاوضة لتحقيق برنامجه القومي . ورغم اختلافهما في الوسائل وفي التفكير ، فإن الزعيمين كانا وطنيين متطرفين في تناولهما للقومية ، وكلاهما مات في المنفى ، وكلاهما فشل في برنامجه القومي .

وقد لعب الأدب الشعبي دوراً حاسماً في المحافظة على روح وثقة الكيان الجزائري . ففي الأسواق العامة والمناسبات الاجتماعية ، والمقاهي الشعبية ، كان المداح يقص قصصه وأساطيره ، مثيراً للعواطف ، ومذكراً بالغزوات ، ومحولاً الهزيمة إلى نصر ، ومؤكداً لجمهوره أن إرادة اللّه ستبعث لهم ذات يوم منقذاً على أية حال .

وبالإضافة إلى الأدب الشعبي كان هناك ، خلف أبواب الجمعيات (الطرق) الدينية ، تراث غني من المعتقدات ، والعادات ، والأساطير . التي كانت تنتقل إلى المريدين خلال نظم سرية وقنوات غامضة . ورغم أن هذا التراث كان متخلفاً وخرافياً ، فإنه قد حافظ لا على روح المقاومة فقط ولكن أيضاً على روح البقاء الوطني . ان بعض المؤرخين الفرنسيين يسمي ظاهرة المحافظة على الذات الوطنية « غريزة البقاء » لدى الجزائريين[168] .

---

(166) نفس المصدر . أنظر أيضاً تقرير دي صاد إلى المجلس النيابي في « م.و. » (29 أبريل ، 1834) .

(167) ج . ديارمي ، « س.ج.ا. » ، م 37 (1932) ، ص 446 . بخصوص رد فعل الجزائري عن الإحتلال كما عبر عنه الأدب الشعبي ، أنظر ص 444 ـ 456 ، أنظر أيضاً جوليان ص 60 .

(168) « الجزائر » (باريس : 1883) ، كما أشار إليه باربور ، ص 217 . .

والحق أن المؤرخين والمثقفين الفرنسيين أنفسهم قد اعترفوا بوجود الكيان الجزائري . فالمؤرخ بول غافاريل قد قال بأن فرنسا كانت تحارب في الجزائر « أمة » مدفوعة بالدين والوطنية . فهو يقول : « ان الحرب قد أعلنت ضد أمة كاملة مدفوعة بعصبية ثنائية : الوطنية والدين[169] . ويقول المؤرخ ب. ل. بوليو ان فرنسا قد استحوذت ، عام 1830 ، على بلاد مرعية ومحمية ، ومسكونة بعدد كبير من المحاربين وبسكان لا يستسلمون . ان « السلالة » الجزائرية ، بناء على رأيه ، كانت قد نشأت هناك منذ قرون ، متمتعة بحضارة متقدمة ومجتمع منظم ، مع « عاطفة » واضحة « بشخصيتها »[170] .

أما الأستاذ م. ايميري ، فيشير الى أن أهم سبب في استمرار وعنف المقاومة الجزائرية هو التلاحم الجماعي الذي لم تكن فرنسا قادرة على فهمه وتجريده من حدته[171] . وفي 17 أوت 1862 كتب الدكتور فيتال ، الذي قضى حياته في الجزائر ، إلى صديقه اسماعيل عربان « بأننا قد ارتكبنا عملاً فاحشاً ، لا أخلاقياً ، لا مثيل له ، مدعين الرد على ضربة مروحة . لقد اغتصبتم جنسية وقطراً »[172] . أما الأستاذ جوليان ، بينما يعترف بأنه كان للجزائر مشاعر وطنية والتصاق بالأرض وحضارة ، فإنه يرى أنها لم تحول هذه الروافد إلى « ضمير وطني » إلاّ بعد الاحتلال[173] .

ولم يكن المؤرخون والمثقفون الفرنسيون هم وحدهم الذين أكدوا وجود الكيان الجزائري ، بل العسكريون ورجال الدولة أيضاً . وعبارة « القومية العربية » كانت

---

(169) « الجزائر وتونس » (باريس : 1894) ، كما أشار إليه عباس ، ص 54 .

(170) أشار إلى ذلك عباس ، ص 54 .

(171) أشار إلى ذلك هـ . برونشفيغ ، « تاريخ أفريقية الشمالية » ، في « ر.هـ. » جويليه - سبتمبر ، 1964 » ، ص 204 من أندري نوشي ، « مراسلات الدكتور ا . فيتال مع ا . عربان 1845 - 1874 (الجزائر : أيمبرت 1958) والدكتور فيتال كان جراحاً عسكرياً فرنسياً ، ولد في 1810 ، وقد مارس مهنته في الجزائر من 1837 إلى وفاته سنة 1874 . تقابل أولاً مع عربان سنة 1837 ، عندما قدم الأخير إلى قسنطينة كمترجم إلى الدوق دومال . أصبحا صديقين وتراسلا معاً منذئذ .

(172) جوليان ، ص 19 - 20 ..

(173) أجرون ، « بروتف » (سبتمبر ، 1964) ، ص 44 - 50 .

غالباً ما استعملت من الفرنسيين بعد سنة 1834 بخصوص الجزائر ، فالسياسي الفرنسي تيير نفسه قد اعترف ، عام 1836 ، بأن الأمير عبد القادر كان الممثل البارز « للقومية العربية »[174] . والجنرال ديميشال ، الذي تفاوض ، عام 1834 ، مع الأمير عبد القادر على المعاهدة التي تحمل اسمه ، قد أوصى بإنشاء « حماية » فرنسية مع بقاء الجزائر تحت الأمير باعتباره الممثل الوحيد « للشرعية الجديدة » في الجزائر ، ونادى بإنشاء « دولة عربية » فيها[175] .

أما الدوق دورليان ، الذي كان يصف الوضع في الجزائر بعد إحدى المعارك ، فقد قال انه بالرغم من أن « الجيش العربي قد تشتت . . فإن الشعب قد بقي صامداً بفضل وحدته ، ومعنوياته ، ومهارته »[176] . ويعترف الجنرال دوفوفي ، عام 1842 ، بأن الأمير عبد القادر كان يحارب من أجل فكرة وهي التي كانت السبب في قوته ، لأن « الحرية » قد أعطته ثقتها[177] . حتى الجنرال بوجو ، الذي لم يخف نواياه في تحطيم الكيان الجزائري ، قال عندما كان يعد برنامج استعمار الأرض على نطاق واسع بأن « وجود هذه الأمة القوية المستعدة للحرب ، والمتفوقة ، من هذه الزاوية ، على الجماهير الأوروبية ، يضطرنا إلى أن نسلط عليها (الأمة الجزائرية) ونضع حولها أقوى سكان (أوروبا) » .

كما أن بعض الكتاب الانكليز قد اعترفوا بوجود الأمة الجزائرية . لقد أشرنا من قبل إلى رأي س. بانيستير الذي دافع عن حق هذه الأمة في حكم نفسها ، والذي دعا أوروبا إلى مساعدتها لتحكم نفسها[178] . وفي 1911 استنكر الأستاذ ادوار ج. براوني الحكم الفرنسي الاستعماري لنتائجه اللاأخلاقية . ثم تأسف على الجزائر التي « يقوم مجدها على صراعها من أجل الاستقلال ضد الفرنسيين (والتي) أنتجت بطلاً شهماً وفارساً مثل عبد القادر » . وقد أنهى الأستاذ براوني رسالته بتأسفه على أن

---

(174) نفس المصدر .

(175) أشار إلى ذلك باربور ، ص 216 .

(176) نفس المصدر .

(177) أشار إلى ذلك عباس ، ص 52 . بخصوص موقف نابليون الثالث ، أنظر سابقاً وكذلك بخصوص الوسام الذي أهدته فرنسا إلى الأمير عبد القادر .

(178) أنظر كتابه « نداء لصالح الجزائر وافريقية الشمالية بقلم إنكليزي » . (باريس : 1883) .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الجزائر اليوم (1911) هي « أكثر البلدان التي تثير الشفقة في العالم »[179] ، أما الكاتب الإنكليزي الحديث ، الأستاذ ن. باربور ، فقد لام الفرنسيين على تحطيم « كل رمز وطني » في الجزائر[180].

وباختصار فإن المثقفين والعسكريين الجزائريين والأوروبيين قد اعترفوا بأن الأمة الجزائرية كانت قد وجدت واستمرت ، وأنها قد قاومت الحكم الأجنبي خلال القرن التاسع عشر.

وبمقابلة الآراء السابقة ، نجد أن بعض المؤرخين والسياسيين الفرنسيين قد أنكروا وجود الأمة الجزائرية . فقد ادعوا بأن الجزائر لم تكن مستقلة ، ومتحدة ، وأنه لم يكن لها شخصية تاريخية قبل الاحتلال.

فالمؤرخ ج. سودرون يزعم بأن الجزائر ، عام 1830 ، لم تكن تشكل دولة ، فما بالك بأمة ، وأنه لم يكن لها حدود[181] . ونفس الزعم يردده ر. أرون ، الذي يقول بأن « الجزائر حين وصل الفرنسيون ، لم تكن قطراً مستقلاً »[182]. أما الكاتب بوسكي ، الذي كان معروفاً بآرائه الاستعمارية فقد قال بأنه كان للجزائريين ، عام 1830 ، وطن « لا يشكل تاريخياً واجتماعياً أي شيء » . وبالاضافة الى ذلك ، فإن بوسكي يدعي أن فرنسا قد « خلقت » الجزائر ، بل أنها هي التي قد صنعت اسمها : « الجزائر »[183] . وقد كتب الجنرال كاترو ، الذي كان الممثل الفرنسي في الجزائر

---

(179) « التايمز » (لندن) ، (5 أوت ، 1911) ، ص 3 من رسالة إلى المحرر .

(180) باربور ، ص 43 .

(181) « فرنسا في أفريقية الشمالية » ، كما نقله أرون ، ص 32 . إن هذا الإدعاء يناقض الحقيقة وهي أن فرنسا نفسها قد أقامت مع الدولة الجزائرية علاقات ديبلوماسية ، وتحاربت معها ، وأمضت معها إتفاقات ومعاهدات منذ القرن السادس عشر . أما بخصوص الحدود ، فإن نظرة سريعة إلى الخريطة قبل 1830 تكفي لبيان أن الجزائر تحت فرنسا قد حافظت على « نفس » الحدود من جميع الإتجاهات ما عدا من الجنوب ، حيث كانت الصحراء ، غير واضحة الحدود .

(182) أرون ، ص 31 .

(183) « و.ا. » م 3 (1954) ، ص 21 . « الجزائر » هي الكلمة العربية « لألجيريا » وبالفرنسية الجيري ، التي هي اسم محرف عن الأصل العربي . والجزائريون يطلقون كلمة « الجزائر » على البلاد كلها وعلى العاصمة أيضاً . . ولكي يتقوا الخلط يضيفون كلمة «عاصمة» إلى كلمة «الجزائر» فتعني عندئذ « عاصمة الجزائر » ، ويستعمل الفرنسيون كلمة « ألجيري » للبلاد بينما يستعملون كلمة =

عام 1943 ، يقول بأنه لم يكن للجزائر « أبداً لا وحدة ولا شخصية سياسية »[184] . وبعد أن عاد الى الحكم ، أعلن الجنرال دي غول « بأنه منذ بداية العالم لم يكن في الجزائر لا وحدة ولا . . سيادة[185] . غير أن اعتراف دي غول أخيراً بوحدة وسيادة الجزائر يشكل في الحقيقة ، قبوله لوجود وحدة وسيادة الجزائر كقوة لا تقهر.

ومن المظاهر الهامة للحركة الوطنية الجزائرية في القرن التاسع عشر هو أن الجزائريين لم يقبلوا أبداً بالهزيمة . فالفرنسيون كانوا يعلمون أنهم قد «انتصروا» على الجزائريين بقوة السلاح وليس بعقد اتفاق ، أو استسلام ارادي . وبينما كان الجزائريون يعرفون بأنهم كانوا منهزمين ، فإنهم قد استمروا في مقاومتهم بكل الوسائل التي يملكونها ، وعلى جميع مستويات مجتمعهم . فثورات الفلاحين ، ونظم الجمعيات الدينية السرية ، والأدب الشعبي لم تكن الا بعض مظاهر المقاومة المتواصلة ضد حكم مفروض.

وقد لاحظ الفرنسيون أنفسهم هذه الروح الجزائرية المتطلعة للاستقلال . ففي عام 1864 كتب الدكتور فيتال قائلاً بأن كلمات مثل « الجنسية » و« الاسلام » ، و« الجهاد » تقع على الجزائريين كما لو كانت « كلمات سحرية »[186]، وفي نبوءته المشهورة أعلن اسماعيل عربان سنة 1884 بأن الجزائريين كانوا « ينتظرون بثقة ساعة الثأر »[187] . وفي عام 1896 اعترف الكاتب جول سوران بأن « بنادقنا ومدافعنا في الجزائر هي التي تمنع ثورة جزائرية أكثر خطورة من ثورة الفلاحين الفرنسيين (الثورة الجاكرية) في القرون الوسطى »[188].

إن مؤرخ الجامعة الاسلامية قد يجد « جذور » هذه الحركة تعود الى الجزائر .

= « ألجي » للعاصمة فقط ، وهما كلمتان تعنيان نفس الشيء في العربية . فالإدعاء بأن فرنسا قد « صنعت » إسم الجزائر يبدو سوء تفسير .

(184) « في معركة البحر الأبيض المتوسط » ، 1940 ـ 1944 (باريس : جولليارد ، 1949) ، 435 .

(185) أشار إلى ذلك عباس ، 47 ـ 48 .

(186) نوشي ، 15 ـ 16 .

(187) أرون ، 50 .

(188) جول سوران ، « مستقبل أفريقية الشمالية » في « ر.ب. » م.ا. (1896) ، ص 318 .

فقبل أن يثمر الاتصال الثقافي بين الأوروبيين والعالم الاسلامي ، كان بعض الجزائريين قد سبقوا بتكوين أفكارهم عن الاصلاح والقومية ، والديموقراطية ، والاسلام في علاقته بالحضارة الحديثة . ومن الممكن أن يعتبر حمدان خوجة أول جزائري عربي مسلم آمن بالمفهوم الحديث للقومية ونادى بإقامة فكرة قومية للأمة العربية ـ الاسلامية . ذلك أن هذه الفكرة الأوروبية للقومية لم تظهر في العالمين العربي والاسلامي الا في آخر القرن التاسع عشر . وقد كان خوجة أيضاً أول عربي مسلم تطرده من بلاده دولة أوروبية من أجل قضية قومية(189).

وعندما يقابل الباحث بين الأمير عبد القادر ومحمد علي ، والي مصر فإنه يجد أن الأول كان رائداً للجامعة الاسلامية والقومية العربية . فبينما كان محمد علي ، الذي أيدته فرنسا في الوقت الذي كانت تحارب فيه الأمير عبد القادر ، مغامراً ، كان الأمير بطلاً . وبينما كان محمد علي يخلق الاضطرابات الى دولة مسلمة شرعية (الدولة العثمانية) ، كان الأمير يحارب دولة أجنبية معتدية . وقد استغاث محمد علي بالمغامرين والأجانب لمساعدته ، أما الأمير فقد استغاث بالمسلمين وأعلن الجهاد . إن المقابلة بين الرجلين المتعاصرين في علاقتهما بالجامعة الاسلامية والقومية العربية مهمة ، كما أن موقف فرنسا من كلا الزعيمين كان مهماً.

وعلى المستوى الشعبي ، فإن الجزائريين قد تحمسوا الى فكرة الجامعة الاسلامية منذ الاحتلال . فأدبهم الشعبي مملوء بالعواطف الاسلامية والمناداة بالمساعدة والتضامن بين أعضاء العالم الاسلامي ، وغالباً ما انتظروا السلطان العثماني كمنقذ ، ولكن لما كانت الدولة العثمانية دائماً في حالة دفاع أو تراجع ، فلم

---

(189) يحمل كتاب خوجة « المرآة » نصاً من بنجامين كونستانت كفاتحة يقرأ هكذا : « اذا علب حب النفس على الطغيان ، فليس يدري كيف يفعل بغنائم الطغاة » . فإذا افترضنا أن خوجة قد تبنى رأي كونستانت ، فإن النص المنقول يكشف عن تأثير الليبرالية الأوروبية على خوجة ، ذلك أن هذا الرأي كان جديداً تماماً في بيئة شرقية كبيئة الجزائر . وقد واصل خوجة حملته التنويرية في الشرق الأدنى حيث كتب بالعربية « إتحاف المنصفين والأدباء » الذي أهداه بالشعر إلى السلطان محمود الثاني والذي كان قد ترجم إلى التركية . أنظر أيفير ، « ر.أ. » م 47 (1913) ، ص 122 . ونحن نشعر بانه من المحتمل أن يكون قد ألف كتباً ومذكرات أخرى لأنه كان نشيطاً ومنتجاً . أنظر قائمة المصادر والمراجع الجديدة .

يكن في استطاعة الجزائريين أن يتوقعوا منها الكثير.

إن انتصار السلطان في حرب القرم (على الأقل كما فسره الجزائريون)، حيث حارب الجنود الجزائريون في الجيش الفرنسي، قد أعطى أملاً جديداً للجزائريين الذين كانوا ينتظرون المنقذ. وفي 1854 كتب محمد ابن اسماعيل الجزائري شعراً يشكر فيه الله على نصرة السلطان ويفخر بهذا الحدث الذي تحقق، بناء على رأي الشاعر، بالجهاد والتضامن بين المسلمين. وقد وصف الكاتب الفرنسي ج. ديبارمي، الذي تناول بتوسع الحركة الوطنية الجزائرية والشؤون الاسلامية، أفكار ابن اسماعيل بأنها تمثل «أصل» حركة الجامعة الاسلامية[190].

ونفس رد الفعل قد حدث بعد انتصار الباب العالي على اليونانيين في 1897. كذلك كان احتلال فرنسا لتونس مصدر سخط واثارة في الجزائر. وقد أشرنا من قبل الى أن الثوار الجزائريين، عام 1871، كانوا يتوقعون المساعدة من الباب العالي ومن التضامن الاسلامي. فالسلطان عبد الحميد الثاني قد نشر، بعد توليه الحكم، أفكار الجامعة الاسلامية التي أهاجت الجزائر[191]. وفي التسعينات من القرن الماضي بدأت في الجزائر موجة جديدة من المهاجرين الى الشرق الأدنى نتيجة عدم الرضى ولدعاية الجامعة الاسلامية[192] وهكذا، فإن الجزائر، في نهاية القرن التاسع عشر، كانت داخلياً أرضاً مائجة بالأحداث، كما كانت حقلاً للدعاية من أوروبا والشرق الأدنى.

ويعتقد بعض المؤرخين بأن المقاومة الجزائرية قد انتهت بعد ثورة 1871. فالكاتب الانكليزي باربور، الذي يعطف على الحركة الوطنية، يقول بأن الجزائر، من 1884 الى العشرينات من هذا القرن، كانت ساكنة نتيجة للتعب الجسمي

---

(190) «س.ج.أ.»، م 22 (1917)، ص 15. بخصوص شعر ابن إسماعيل، أنظر ص 10 - 14. كما أشار المؤلف إلى عمل كتبه محمد بن شنب، الذي ترجم هذا الشعر من العربية إلى الفرنسية في «حرب القرم والجزائريون» في «ر.أ.» (1907).

(191) ج. ديبارمي يقول بأن جمعيات سرية كانت تقوم بالدعاية إلى الجامعة الإسلامية في الجزائر منذ السبعينات من القرن الماضي، أنظر نفس المصدر، ص 18.

(192) دور المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى سيخصص له قسم خاص. كما أن حركة الجامعة الإسلامية وعلاقتها بالحركة الوطنية الجزائرية ستدرس في قسم خاص.

والروحي[193] . أما أندري نوشي ، الذي يعطف أيضاً على الحركة الوطنية ، فإنه يتفق مع الرأي السابق ، ولكنه يعتقد أن الجزائر لم تنتج معارضة عسكرية للحكم الفرنسي بين 1871 ـ 1919 (باستثناء حوادث 1916) ، ثم يدعي أن الجزائر قد رضيت خلال هذا العهد ، بالحكم الفرنسي[194].

ولكن العكس هو الصحيح . فالمقاومة الجزائرية لم تكن لا ساكنة ولا راضية بالحكم الفرنسي . فمن الوجهة العسكرية كانت هناك ثورة بوعمامة (1881 ـ 1904) التي كانت قوية الى درجة خلق جو من العنف وعدم الاستقرار . كما أن الصحافة والمسؤولين الفرنسيين قد دقوا ناقوس الخطر منذ التسعينات . فصحيفة « فيجي ألجيريان » (9 أبريل ، 1891) وصفت « الهيجان » بين الجزائريين الذي جاء نتيجة زيارة لجنة مجلس الشيوخ الفرنسي بقيادة جول فيري ، لتبحث المشاكل الجزائرية .

وفي نفس الوقت وصلت الى فرنسا تقارير منذرة بالخطر عن « الحالة العامة » لدى الجزائريين في المناطق الجبلية . ففي سنة 1892 كتب جول كامبون ، الحاكم العام للجزائر عندئذ قائلاً بأن : « الحكم الفرنسي قد أصبح مهدداً[195] . وبالاضافة الى ذلك ، فقد اغتنم الجزائريون فرصة وجود « لجنة جول فيري » بينهم (سنة 1892) وتقدموا اليها بمطالب قوية ، بما في ذلك تحوير نظام الضرائب ، واصلاح التمثيل النيابي ، واستعادة القضاء الاسلامي . وفوق ذلك كله ، كما قال فيري نفسه ، فإن الجزائريين قد طلبوا من الفرنسيين أن « دعونا وحدنا »[196].

وبالاضافة الى لعبة توازن القوى ، وتشكيل تحالفات الجمعيات الدينية ، فإن فرنسا قد عقدت تحالفاً آخر مع طبقة اجتماعية جزائرية وهي العائلات الكبيرة . ويسمي المؤرخون هذه العائلات « أرستقراطية العصور الوسطى » ، والخيام الكبيرة أو النخبة التقليدية المتداعية[197] وعلى أية حال ، فإن فرنسا قد نجحت في كسب

---

(193) باربور ، ص 215 . (194) نوشي ، ص 29 .

(195) ـ أشار إلى ذلك أجرون ، « جول فيري والمشكل الجزائري في 1892 » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 10 (أبريل ـ جوان ، 1963) ، ص 133 .

(196) نفس المصدر ، ص 134 .

(197) أرون ، ص 292 .

العائلات الكبيرة ، التي كانت مكونة من الأرستقراطية القديمة ، وقدماء المحاربين ، وأغنياء الملاكين . وقد ضمنت لهم تأييدها لسلطتهم على « رعاياهم » المحليين وعلى خصومهم ، في مقابل أن يعترفوا لها بحق الحضور وحمايتهم . وشيئاً فشيئاً أصبح التعاون بين فرنسا والأرستقراطية القديمة مربحاً للطرف الفرنسي فقط ، ولكن سلبياً بالنسبة للجزائريين.

وقد أرادت فرنسا في الأصل أن تستعمل هذه الطبقة الصغيرة كواسطة بينها وبين الجماهير الجزائرية . ولكن بعد عدة عقود أصبحت الطبقة الأرستقراطية المتداعية نفسها مُتَوقّفة تماماً على فرنسا معنوياً ومادياً بينها فقدت الصلة مع الجماهير. وقد منحت فرنسا الأرض وبعض الأملاك الأخرى إلى رؤساء العائلات الكبيرة، الذين أصبحوا نوعاً من « الكولون » الأهليين[198] لقد منحتهم ألقاباً مثل « القياد » و « الأغوات » و « الباشاغات » ، واستعملتهم كمرشدين ، وفي بعض الأحيان كمساعدين للاداريين الفرنسيين . وفي مقابل ذلك ، خدموا هم فرنسا باخلاص في الجيش والادارة ، بل خدموها كمضطهدين لمواطنيهم ، وجواسيس ، ومتعاونين ضد شعبهم نفسه . فالعلاقة بين فرنسا وبين العائلات الكبيرة أصبحت تدريجياً مضرة للحركة الوطنية (ولا سيما بعد 1900) التي كان عليها أن تقوم بحملة ضدهم باعتبارهم عراقيل في طريق التحرير.

من الممكن أن يتصور المرء بأن ، هذه الطبقة الجزائرية ، نظراً لعلاقتها بفرنسا ، كانت مثقفة ومتنورة ، ولكن الحالة لم تكن كذلك . فالعائلات الكبيرة ، كما سبقت الاشارة كانت تقليدية ، بل إن كثيراً منها كان جاهلاً تماماً بالمذاهب الفرنسية وبأفكاره هو الوطنية.

كتب المؤرخ الفرنسي غوتي ذات مرة : « إننا في الجزائر أردنا أن نغرب زاوية من الشرق[199] » . فإلى أي حد كان هذا الرأي صحيحاً في ضوء التاريخ الجزائري الحديث ؟ إذا كانت نية الفرنسيين كما وصفها غوتي ، فإن النتائج كانت عكسية تقريباً . إن التغريب ، فرضياً ، كان يجب أن يتحقق عن طريق تعليم تقدمي . ولكن

---

1) نفس المصدر ، من جان سيرفيي « غدا في الجزائر » ، (بلا تاريخ) .

1) أشار إلى ذلك عباس ، ص 22 .

فرنسا ، لسوء الحظ ، قد أهملت ، أو لم تبال الا قليلاً ، باصلاح حالة الجزائريين في هذا المجال . ورغم أن العائلات الكبيرة الأرستقراطية كانت ذات حظ قليل من التعليم فإن معظم الجزائريين الذين تمتعوا بفرص التربية والتعليم كانوا دائماً تقريباً من أعضاء هذه الطبقة . وفي أحوال نادرة شق شبان فقراء طريقهم الى التعليم رغم كثير من العقبات الاجتماعية والمالية .

إن هؤلاء المحظوظين الجزائريين الذين حصلوا على بعض التعليم الغربي قد قدر لهم أن يلعبوا دوراً هاماً في شؤون بلادهم . فبعضهم قد أصبح وطنياً صلباً ، وبعضهم أصبح مصلحاً معتدلاً ، ولكنهم كانوا جميعاً يؤمنون بتحسين أحوال مواطنيهم .

خلاصة

إلى فاتح القرن الحالي لم تستطع فرنسا أن تهدىء الجزائر لا سياسياً ولا معنوياً ولكنها قد نجحت ، على الجبهة العسكرية ، في السيطرة على الجزائريين الذين استمروا رغم هزيمتهم في اللجوء إلى السلاح ضدها كلما حانت الفرصة . فاستعمال القوة الذي نادى به بعض النظريين الفرنسيين باعتباره الوسيلة الوحيدة لكسب احترام الجزائريين ، والحاق الجزائر بفرنسا عام 1834 ، وسياسة التمييز ضد الجزائريين التي عبر عنها قانون الأهالي (كود دي لانديجينا) ، واغتصاب الأراضي واستعمارها ، كانت كلها ، بالاضافة إلى عوامل أخرى ، قد ساهمت في افشال سياسة التهدئة .

ورغم نداء وتحذير بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائريين ، فإن فرنسا لم تحاول أبداً بجدية اصلاح حالة الجزائريين خلال القرن التاسع عشر ، وما دامت الجزائر كانت تعتبر جزءاً من فرنسا ، فإن فكرة الحكم الذاتي كانت غير واردة . أما تعليم الجزائريين بالفرنسية والعربية ، فقد كاد يكون مهملاً . ومن جهة أخرى فلم يكن للجزائريين الحق ، إلى سنة 1947 ، في التمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي . ولم تكن وسائل التعبير ، كالصحافة والأحزاب السياسية معروفة في الجزائر خلال القرن الماضي . ولكن فوق ذلك كله ، فإن الجزائريين قد اضطهدوا بقانون 1865 (ساناتوس كونسولت) الذي نص على أنهم لم يكونوا لا رعايا في

« الجزائر » ، ولا مواطنين فرنسيين في فرنسا ، « أم الوطن » . وكما سبقت الاشارة فإن هذا القرار الذي بقي إلى سنة 1947 ، قد جعل من الجزائريين « رعايا » ولكن في الجزائر ، التي كانت « فرنسية ».

إن رد الفعل الجزائري ضد طريقة التهدئة الفرنسية قد أخذ عدة أشكال واستعمل مختلف الوسائل حسب الظروف . فقد عبر عن نفسه في شكل معارضة سياسية ، ومقاومة عسكرية وتعبيرات شعبية غير مباشرة وأفكار رائدة للجامعة الاسلامية ، وهجرات إلى الخارج . وهناك شكل آخر لرد الفعل يتمثل في الاحتجاج للفرنسيين عن طريق العرائض ، التي كان يعدها عادة الأعيان وأهل الرأي في المجتمع الجزائري.

وغياب فكرة توازن القوى بين الدول الأوروبية في الجزائر ، أو أي أيديولوجيات متنافسة ، بالاضافة إلى الفكرة القائلة بأن الجزائر مقاطعة فرنسية ، وليست مستعمرة ، قد ساهمت كلها ، في عزل واضطهاد الحركة الوطنية خلال القرن التاسع عشر . وبافتتاح القرن الحالي أدى ظهور الجامعة الاسلامية كأيديولوجية ، وظهور ألمانيا كقوة منافسة لفرنسا في أفريقية الشمالية ، ونجاح الثورة البولشفية ، ونداء الديمقراطية الويلسونية ، إلى اعطاء الحركة الوطنية الجزائرية أبعاداً جديدة.

وهكذا ، فإن الجزائر في مطلع القرن الحالي كانت ما تزال في « هيجان دائم » . وقد تضاعفت هذه الحالة بعد الزخم الكبير الذي حدث نتيجة ظهور النخبة الجديدة ، ومناداة العلماء التقدميين بالاصلاح ، وظهور الصحافة الوطنية ، وتأثير حركة الجامعة الاسلامية ، وضغوط القومية في مناطق مختلفة من العالم ، وأخيراً امتداد النزاع الأوروبي إلى أفريقية الشمالية.

***

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الثاني

الزخم الكبير
1900 - 1914

1. وراء الستار الفرنسي :

لاحظنا من قبل أن قانون 19 ديسمبر ، 1900 قد أعطى للجزائر الحكم الذاتي . ونظراً لغموض عبارة « الحكم الذاتي » فأن معناها يحتاج الى بعض التوضيح . فهناك من الاداريين والكتاب الفرنسيين من يسمى الحكم الذاتي قانون « اللامركزية[1] » سياسياً . وهناك من يسمى ذلك بقانون « الشخصية المدنية » الجزائرية[2] . ويسمى بعض الجزائريين ذلك سلطة الكولون الحقيقية (دي فاكتو[3]) .

ومهما كان الاسم الذي يطلق على هذا القانون ، فانه يعني ، قبل كل شيء ، أن يداً حرة قد أعطيت الى الكولون لكي يديروا كل الشؤون المالية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالجزائر . ان ذلك القانون قد أعطاهم قوة مراقبة الميزانية الجزائرية ، وشبكة الخطوط الحديدية ، والمواصلات ، والغاز ، والكهرباء . لقد أذن لهم أن يشرفوا على الأشغال العامة ويطوروا موارد البلاد تحت وفوق الأرض ، وهكذا ، فان الكولون قد حصلوا ، بذلك القانون ، على القوة التي شنوا من أجلها أكثر حملات الضغط السياسي حرارة منذ السبعينات من القرن الماضي .

وتناقض السياسة الفرنسية في هذا الوقت واضح . فبينما كانت الجمهورية

---

(1) هذه العبارة استعملها جونار، الذي شغل منصب الحاكم العام في الجزائر . أنظر أوغسطين بيرنار ، « أفريقية الشمالية خلال الحرب » (باريس : المطبوعات الجامعية الفرنسية ، بلا تاريخ) ، ص 19 .

(2) « ميزانية الجزائر الخاصة » في « أ. ف. » (جانفي ، 1901) ، ص 11 .

(3) عباس ، ص 105 .

الثالثة تحاول ادماج الجزائر في فرنسا ، كانت تمنح الجزائر شخصيتها المحلية أو الحكم الذاتي . وقد يظن البعض أن قانون 1900 قد أعطى الجزائر « الجزائرية » حق تقرير المصير حين خلع عليها الحكم الذاتي . ولكن الحالة ، لسوء الحظ ، لم تكن كذلك .

والحقيقة أن الجزائري ، كانت تحت الحكم الذاتي في حالة أسوأ مما كانت عليه سابقاً . ولذلك فان قانون 1900 كان انتصاراً للجزائر « الفرنسية » لأنه بالاضافة الى منح الكولون السلطة في الميزانية وفي الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، قد منحهم السلطة الكاملة على الأهالي أيضاً . فالمعنى الحقيقي لهذا القانون ، اذن ، يتوقف على نظرة الانسان اليه : فمن وجهة نظر الكولون ، كان انتصاراً كبيراً ، ولكن من وجهة نظر الجزائريين ، كان نكبة قاسية .

وكانت مشكلة التمثيل النيابي للجزائريين أكثر تعقيداً تحت الحكم الذاتي . وقد تناولنا من قبل هيكل البناء الاداري المحلي والوحدات التمثيلية النيابية . ودعنا الآن نتناول تكوين ووظيفة ومشاكل المجالس الجزائرية المحلية .

إن أصغر وحدة للتمثيل النيابي التقليدي هي الجماعة أو مجلس القرية . ولكن الفرنسيين قد ألغوا هذا النظام منذ سنة 1863[4] . أما في المجالس البلدية (أنشئت بقرار سنة 1884) ، ذات الصلاحيات الكاملة فقط ، فقد كان للجزائريين ممثلون معينون تعييناً على أن لا يتجاوز عددهم ربع جملة الأعضاء ، أما الباقون فقد كانوا فرنسيين .

أما على مستوى العمالات (المحافظات) فقد كان هناك ما يسمى بالمجالس العامة . وكان الحاكم العام هو الذي يعين ستة جزائريين في كل مجلس الى سنة 1908 . ومنذ هذا التاريخ أصبح هؤلاء الجزائريون ينتخبون انتخاباً بدل التعيين . أما في المجلس المالي ، الذي أنشىء نتيجة لقرار الحكم الذاتي ، فقد كان للجزائريين فيه سبعة وعشرون شخصاً ، بعضهم معين وبعضهم منتخب ، منهم سبعة عن كل عمالة (ثلاث عمالات) وستة من الجنوب الذي كان منطقة عسكرية . وقانون سنة

---

(4) أعادوه عام 1919 فقط بعد ضغط شديد من الوطنيين . أنظر قرار إعادة نظام الجماعة في كتاب بيرنار « أفريقية الشمالية » ، ص 103 ـ 106 .

1898 قد خلق أيضا المجلس الأعلى للحكومة الذي كان مكوناً من ستين عضوا ، من بينهم سبعة فقط جزائريون ، أما التمثيل النيابي على مستوى المجلس الوطني الفرنسي فلم يكن هناك من يمثل الجزائريين[5] .

وبالمقارنة ، نجد أن الكولون قد تمتعوا بنفس الحقوق التي كان يتمتع بها مواطنوهم في فرنسا نفسها . فقد كانوا ينتخبون الشيوخ والنواب الى المجلس الوطني الفرنسي ، كما كان لهم نظام (كوليج)انتخابي منفصل . كانوا ينتخبون رؤساء البلديات ، ويراقبون رؤساء العمالات ، ويعينون الممثلين في المجلس المالي وفي غيره من المجالس المحلية . وبواسطة هذا الدولاب كان الكولون يشرفون على ميزانية الجزائر ، ويؤثرون على صانعي السياسة الفرنسية في فرنسا ، وهكذا حققوا هدفهم باعتبارهم امتداداً لفرنسا عبر البحر الأبيض المتوسط .

ونتيجة لتلك الطريقة النيابية الملتوية بقي صوت الجزائريين غير مسموع الا في حالات نادرة . والجزائريون الذين كانوا يمثلون مواطنيهم فرضياً يسمون « ببني وي - وي » من طرف الأهالي . لقد كانوا عادة « يختارون بعناية » من جانب الادارة الفرنسية[6] . ولكن كان عليهم قبل اختيارهم ، أن يبرهنوا على « ولائهم » بالتعاون الطيع والتجسس على مواطنيهم أنفسهم ، والخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي عدة سنوات .

وقد كان نظام الانتخاب للجزائريين محدوداً جداً . فالمنتخبون (بالكسر) كانوا مكونين من بعض الاقطاعيين (أعطاهم الفرنسيون الأرض لولائهم لهم) ، ومن الموظفين المدنيين الذين لا تقل أعمارهم عن خمس وعشرين سنة والذين يقيمون في دوائرهم الانتخابية أكثر من سنتين متواصلتين . وبالاضافة الى ذلك ، فلم يكن الجزائريون يملكون حق المشاركة في انتخاب رؤساء البلديات أو مساعديهم .

أما غير المجالس البلدية ، مثل المجلس المالي ومجلس الحكومة الأعلى ،

---

(5) للحصول على دراسة عامة عن تاريخ التمثيل النيابي للجزائريين أنظر ابن علي فخار ، « تمثيل المسلمين الجزائريين » في « ر.م.م. » ، م 7 (جانفي - أبريل ، 1909 ، ص 1 - 22 . و . ش . ر . أجرون « سياسة جزائرية ليبرالية تحت الجمهورية الثالثة» (1912 - 1919) . في « ر.هـ.م.ك. » م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 121 - 151 ، خصوصاً ص 150 - 151 .

(6) أرون ، ص 53 .

فقد كان عدد الجزائريين فيهما محدوداً (سبعة وعشرون جزائرياً الى ثلاثة وثلاثين فرنسياً في المجلس الأول ، وسبعة جزائريين الى ثلاثة وخمسين فرنسياً في المجلس الثاني) كما كان تأثيرهم محدوداً (نظراً لكونهم معينين تعييناً أو مختارين بعناية)[7] ومن الممكن أن نقول أن الجزائر لم تعرف أبداً التمثيل النيابي الحقيقي . ومن الممكن أيضاً أن يفهم الباحث بسهولة لماذا وضعت الحركة الوطنية مشكلة التمثيل النيابي على رأس مطالبها منذ العقد الثمانين من القرن الماضي.

وبينما كانت وظيفة المجالس البلدية البحث في الشؤون المحلية، فإن وظيفة المجلس المالي ومجلس الحكومة الأعلى كانت البحث في شؤون الجزائر كلها . والمجلس المالي كان عبارة عن هيئة للمناقشة فقط . فالوفود التي تحضره كان لها حق مناقشة ميزانية الجزائر ولكن لا قوة لها في تشريعها . وينص القانون على أن الحاكم العام هو الذي يعد مشروع الميزانية ويتقدم به الى لجنة مختصة منبثقة عن المجلس المالي مكونة من أحد عشر شخصاً ، ثلاثة منهم فقط من الجزائريين المخلصين لفرنسا . وبعد أن يناقش المجلس المالي الميزانية ويصلَ الى اتفاق بشأنها ، يبعث بها الى مجلس الحكومة الأعلى . وللمجلس الأخير أيضاً حق مناقشة الميزانية ولكن لا حق له في أخذ أية مبادرة بشأنها . وأخيراً ترسل الميزانية الى باريس لاقرارها واعلانها ، بعد توصيات خاصة من وزير الداخلية.

فالحكم الذاتي المالي ، اذن ، قد أعطى للكولون سلطة كاملة للاشراف على المداخيل والمصاريف المتعلقة بالميزانية الجزائرية . وقد كان في استطاعتهم أن يستعملوها كما يشاؤون . ونظراً للتمثيل النيابي الذي كان لهم في المجلس الوطني بباريس ، فقد كان في استطاعتهم أيضاً أن يضغطوا بشدة أي يمنعوا أو يحصلوا على القوانين الخاصة بالجزائر . والحكم الذاتي المالي قد جعل منهم أيضاً سادة البلاد الحقيقيين ، لأنهم كانوا يؤثرون على الحاكم العام ، وعلى رؤساء العمالات ورؤساء البلديات بالاضافة الى التحكم في الجزائريين.

---

(7) بخصوص قضية التمثيل النيابي يجب أن يأخذ المرء في الإعتبار نسبة السكان في كل مجموعة ، كهذه النسبة التي كانت حوالي واحد إلى عشرة . أما بخصوص نظرة نقدية عن التمثيل النيابي فانظر فيليب ميللي ، « فرنسا ومشكلاتها الجزائرية » في « القرن التاسع عشر » ، م 73 (أبريل 1913) ، ص 729 ـ 740 .

والجزائريون ، الذين كانوا المصدر الرئيسي لدفع ضرائب ثقيلة ، كانوا دائماً يشكون من الكولون . فهم يقولون بأن هؤلاء ، بحكم اشرافهم على الميزانية ، قد أهملوا حاجات الأهالي الاقتصادية والاجتماعية ووجهوا المصاريف الى مشروعات لا تفيد الا أنفسهم . من ذلك شكوى الجزائريين من أنه « لا وجود للتدريب التقني ، وليس هناك الا مدارس مهنية قليلة ، ولا تعليم للعربية ، ولا قروض فلاحية ، ولا عناية صحية ، ولا مستشفيات لهم »(8).

لم تكن المصروفات فقط هي وحدها مصدر شكوى الجزائريين ، ولكن أيضاً الضرائب الثقيلة المفروضة عليهم . فبينما كان الكولون يدفعون كمية محددة من الضرائب الى الميزانية الجزائرية ، كان الجزائريون يدفعون أنواعاً مختلفة من الضرائب ، بعضها بناء على الشريعة الاسلامية « كالزكاة ، والعشور » وبعضها بناء على نظام الضرائب الفرنسي.

وبالاضافة الى ذلك فإن الجزائريين كانوا يدفعون أنواعاً أخرى من الضرائب التي فرضها عليهم قانون الأهالي . وكان ذلك يشمل الحراسة الليلية أو دفع كمية من النقود شهرياً في مقابل ذلك . كما كان على الجزائريين المقيمين قرب الغابات أن يقوموا بعمل السخرة في شكل حراسة ضد الحرائق وهذا نفسه كان في الحقيقة ضريبة اضافية . وكان عليهم أيضاً أن يدفعوا بعض النقود التي تعرف « بالضرائب الاضافية » حين يقودون قطعانهم عبر الغابات . وزيادة على ذلك ، فقد كان عليهم أن يدفعوا بعض النقود كمنحة - ضريبة الى الجزائريين المعينين من فرنسا وهم الذين لا يعرف تعفنهم حدوداً . وبسبب هذا الحمل الثقيل من المدفوعات التي يقدمها الأهالي الى المؤسسات الدينية ، والى الميزانية الفرنسية والى الرسميين الفاسدين ، فإن الوطنيين الجزائريين قد وضعوا قضية الضرائب ضمن مطالبهم المنادية بتصحيح الأوضاع(9).

وهناك شكوى أخرى دائمة ، ولكنها أكثر أهمية ، وهي تختص بقانون الأهالي البغيض(10) . فقد أصدر الفرنسيون هذا القانون بعد فشل ثورة 1871 ثم دعموه

(8) عباس ، ص 96 .

(9) للحصول على معلومات أكثر أنظر ميللي ، « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 733 .

(10) من الممكن تعريف هذا القانون ، باختصار ، بأنه مجموعة قرارات وإجراءات إستثنائية أصدرها الفرنسيون لقهر الشعب الجزائري وإبقائه تحت سلطتهم .

ووسعوا من صلاحياته بعد ثورة 1881 . والحق أن هذا القانون كان أقصى اجراء في الوقائع الاستعمارية يمكن لقوة مستعمرة أن تسنه للضغط على رعاياها ، ولكنه في الوقائع الانسانية يمكن اعتباره بقية من ظلام العصور الوسطى ومحاكم التفتيش . ولهذا السبب استنكره الفرنسيون أنفسهم باعتباره غير قانوني وغير إنساني(11).

وليس هناك من حاجة لتناول محتوى ، وتطبيق ، ومعارضة قانون الأهالي بالتفصيل . غير أن بعض المعلومات تبدو ضرورية لربط هذا المشكل بقضية الحركة الوطنية . استعمل الفرنسيون هذا القانون ضد الجزائريين الذين رفضوا الحراسة الليلية أو اجتمعوا بدون رخصة (حتى من أجل الحج والمناسبات الاجتماعية) ، أو تنقلوا داخل الجزائر من غير اذن ، أو تظاهروا ، أو تأخروا في دفع الضرائب ، أو أهانوا فرنسا.

وبناء على هذا القانون ، فإن الجزائريين كانوا مطالبين جماعياً بتحمل مسؤولية أية خسارة مادية أو شبوب حرائق في الغابات . فإذا ارتكب جزائري مخالفة بسيطة فإنه قد يغرم خمسة عشر فرنكاً ، أو يسجن خمسة أيام بأمر من المسؤول الفرنسي . أما اذا ارتكب مخالفة خطيرة فإنه يحال على محاكم خاصة تسمى « المحاكم الرادعة » ، أو محاكم الجرائم . وبالاضافة الى ذلك فإن الادارة الفرنسية لها الحق ، بأمر من الحاكم العام ، في أن تحتجز أو تطرد ، أو تسجن أي جزائري . ولعل نظام الاحتجاز الذي يسميه بعض الكتاب نظام « الرسائل المختومة » (ليتر دي كاشي) ، هو أسوأ هذه الاجراءات(12).

ورغم أنه قد جرى العمل بقانون الأهالي منذ السبعينات من القرن الماضي ، فإنه قد أحدث انقساماً بين الفرنسيين حين تجديده سنة 1912 . ففي هذا التاريخ وضعت الحكومة مشروعاً أمام المجلس الوطني الفرنسي ينص على مد قانون الأهالي سبع سنوات أخرى . وهنا عارض بعض الفرنسيين الليبراليين ، والمثقفين والانسانيين هذا الاقتراح ، بل كل قانون الأهالي ، لعدم شرعيته.

---

(11) أنظر فافرو ، ص 96 . أنظر أيضاً رسالة الكاتب الإنكليزي براوني في « التايمز » (لندن) (أوت 1911) ، ص 3 .

(12) أنظر ميللي ، « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 733 ـ 734 . ونظام العمل بالإعتقال =

وقد اقترحت هذه العناصر التقدمية بدلاً من ذلك حلاً ليبرالياً قائماً على الغاء السلطة الخاصة الممنوحة للاداريين الفرنسيين في البلديات المختلطة، وعلى مراعاة النهضة الاسلامية في معالجة المشاكل الجزائرية ، وعلى تحقيق الاندماج عن طريق برنامج يقوم على حسن التفاهم . وقد أنذر أولئك الفرنسيون حكومتهم بأن فرنسا قد تواجه « دعاية انفصالية » في الجزائر إذا لم تلغ قانون الأهالي[13] . ولكن العناصر اليمينية ، مؤيدة من الكولون فازت في النهاية حين جدد القانون ، كما اقترحت الحكومة ، رغم مقاومة الحركة الوطنية الجزائرية .

وفي زحمة عدم الاستقرار في الجزائر والمناقشات الحامية في المجلس الوطني الفرنسي حول شرعية المحاكم الرادعة والحكمة من وراء الاندماج ، زار الجزائر رئيس الجمهورية الفرنسية م . لوبي ، زيارة نادرة اعتاد رجال الدولة الفرنسية أن يقوموا بمثلها عند الحاجة . فقد كان لوبي أول رئيس دولة يزور هذه البلاد منذ نابوليون الثالث . وكان هدفه هو أن يدرس ويرى بنفسه معاينة آثار سياسة الاندماج والالحاق التي كانت تمارسها الجمهورية الثالثة في الجزائر.

وقد دامت رحلة لوبي من 15 إلى 26 أبريل ، سنة 1903 ، زار خلالها الجزائر من أقصاها إلى أقصاها . وقبل رحلته بعدة أيام (10 أبريل) اتصل باستقالة الحاكم العام م . فوارول ، احتجاجاً على الاتهامات التي وجهت ضده من جانب المجلس الوطني على سياسته الاضطهادية في الجزائر . كما ترك الرئيس الفرنسي المجلس في مناقشة حادة عن معاملة الجزائر كمستعمرة أو كأقليم ، وعن أفضل طريقة لمعالجة عدم الاستقرار الجزائري ، ولاسيما بعد ثورة عين التركي ، سنة 1901 ، والاجراءات الرادعة التي صدرت أثرها .

وقد أوضح لوبي في خطبه الى الجزائريين والفرنسيين بأنه كان شخصياً في صالح معاملة الجزائر كمستعمرة مع تركها تحتفظ بتقاليدها الخاصة ، ودينها ،

= السري (ليتر دي كاشي) في فرنسا ألغته الثورة الفرنسية . أنظر أيضاً فافرو ، ص 46 ـ 47 .
أما المحاكم الرادعة فقد أنشئت سنة 1902 نتيجة لثورة عين التركي سنة 1901 .

(13) ش . ديبينس ، « نظام قانون الأهالي الجزائري » في « ر.ب.ب. » 72 ، (1912) ، ص 311 ، ويؤيد ديبينس برنامج الليبراليين الذي كان يرأسهم روزي . ، وللحصول على نظرة معارضة أنظر ي . لارشي ، « نظام قانون الأهالي الجزائري » ، في نفس المصدر ، ص 456 ـ 470 .

وقوانينها ، وشخصيتها . ثم قال مخاطباً الجزائريين ومشيراً الى مشاركتهم في كل الحروب الفرنسية في أوروبا ، وأفريقيا ، وآسيا : « إن دماءكم . . قد سالت على ميدان معاركنا مع دماء الجنود الفرنسيين ، في جميع حروبنا بالقارة الأوروبية . . في الهند الصينية وفي مدغشقر » ، مؤكداً لهم بأن فرنسا ستتركهم أحراراً يبقون على حضارتهم الخاصة (معارضة منه لفكرة الاندماج) ، ومعلناً أيضاً لهم بأن فرنسا « تضمن لكم ممارسة جميع الحريات التي هي عزيزة عليكم » بما في ذلك الابقاء على « تقاليدكم القديمة »[14].

وهكذا ، أيد لوبي بعض آمال الجزائريين الذين كانوا يريدون أن يحتفظوا بشخصيتهم في وجه الاندماج . والحق أن لوبي قد نادى أيضاً بسياسة الجزائر « الجزائرية » التي كان يؤيدها فريق صغير في المجلس الوطني الفرنسي .

ونتيجة لضغط الحركة الوطنية وعلامات عدم الاستقرار المنذرة ، بدأ الرأي العام الفرنسي يظهر القلق بخصوص الحالة في الجزائر . وبالاضافة الى ذلك ، كانت هناك عناصر خارجية من بينها ضغط الجامعة الاسلامية ، وظهور النشاط الألماني في الشرق الأدنى والمغرب الأقصى ، والحرب العثمانية ـ الايطالية ، والاضطرابات في تونس ، زيادة على النقد الخارجي للسياسة الفرنسية في الجزائر . كل هذه العوامل كان لها وقع على الحركة الوطنية وكانت نتيجتها يقظة الرأي العام الفرنسي على خطر حركة « انفصالية » تهدف الى استعادة أرضها الأصلية وتنادي بالحكم الذاتي السياسي[15].

---

(14) أنظر نص خطبة الرئيس الفرنسي في « الرئيس والأهالي » في « أ . ف . » ، (ماي 1903) ، ص 159 .

(15) عبر عن هذا الرأي الإقتصادي الفرنسي شارل جيد ، في « ريفيبلو » (1913) ، كما أشار إلى ذلك أجرون في « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر . هـ . م . ك . » ، م 6 (1959) ، ص 127 . أما الرأي المتعلق بخطر مواجهة « دعاية إنفصالية » فقد عبر عنه ش . ديبينس في « ر . ب . ب . » م 57 (1912) ، ص 311 . أجرون ، جوليان ، وغيرهما من المؤرخين الفرنسيين المهتمين بالحركة الوطنية الجزائرية يهملون عادة وقع العوامل الخارجية على الرأي العام الفرنسي في المناداة بالإصلاح في الجزائر . كما اعتادوا أن يقللوا من ضغط الحركة الوطنية الجزائرية على هذا الرأي العام . ويبدو أنهم يحاولون بذلك أن يبرهنوا على أن المناداة بالإصلاح في الجزائر كانت قضية تتعلق بالضمير الفرنسي وحده ، ولم تكن نتيجة لضغط الحركة الوطنية أو العوامل الخارجية . ولكن الفرنسيين =

ووسط هذه الانذارات والضغوط والنقد ، بدأت جماعة صغيرة من ذوي الرأي في فرنسا حملة للاصلاح في الجزائر . وقد قاد هذه الحملة بعض النواب والصحفيين المستقلين ، والمثقفين والناشرين . ولكن هدف هذه الحملة لم يكن اعطاء الحرية للجزائر ، بل اسكات النقد والدعاية الخارجية وتهدئة عواطف الوطنيين ، والاحتفاظ بالوجود الفرنسي قوياً في الجزائر . وخلال الحملة اقترح أحد الكتاب الفرنسيين ، سنة 1913 ، خلق كومنويلث فرنسي أو « مجموعة من الأمم » ، تضم فرنسا ومستعمراتها لمنع ظهور حركات انفصالية[16] .

وفي نفس السنة كونت جماعة من الفرنسيين العاطفين على قضية الجزائر ـ مثقفين ، وناشرين ، ونواب ، واسلاميين ـ « الاتحاد الفرنسي ـ الأهلي » الذي كان يرأسه شارل جيد . وقد ضم هذا الاتحاد أشخاصاً مثل ، جوريس ، روزي ، ميسمي ، أ . فيري ، وليغ . وفي نفس الوقت تكونت في المجلس الوطني جماعة تضم خمسة عشر نائباً لدراسة المشكل الجزائري[17] . وفي سنة 1913 اقترح السيد جيد المذكور خلق « أمة جزائرية » مكونة من المجموعتين ، الجزائرية والفرنسية ، كما اقترح توسيع القاعدة الانتخابية والتجنيس بين الجزائريين . وقد أنذر جيد مواطنيه بأنه ، اذا لم يدخلوا اصلاحات هامة، فقد يأتي يوم تصبح فيه « السلالة المقهورة » قادرة على استرجاع أرضها الوطنية واعلان الحكم الذاتي السياسي[18] .

وخلال ذلك شنت جريدة « لوطان » ، ولا سيما محررها فيليب ميللي ، حملة لتنوير الرأي العام الفرنسي عن المشكل الجزائري[19] ، وقد اقترح ميللي اصلاحات

= تاريخياً لم يقوموا بإصلاحات في الجزائر إلا لكي يردوا على عوامل وطنية أو خارجية .

(16) كان هذا رأي الكاتب الفرنسي سان بول ، الذي لعب دوراً هاماً مع حركة « الفتيان الجزائريين » ، أشار إلى ذلك أجرون في « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 6 (1959) ص 128 .

(17) نفس المصدر ، أما بخصوص حركة العاطفين على الجزائريين فانظر شارل أندري جوليان في كتابه « أفريقية الشمالية الزاحفة » (باريس : جوليارد ، 1952) ، ص 208 .

(18) أنظر أجرون « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 6 (1959) ، ص 127 .

(19) في سنة 1913 شكا ميللي من أن الرأي العام الفرنسي كان غير واع للمشكل الجزائري ، بينما كان واعياً لمشكلة المغرب ، بفضل الأزمة العالمية التي صحبت هذه الأخيرة. أنظر « القرن التاسع عشر » م 73 (ـ 1913) ، ص 735 .

تقوم على المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الضرائب ، والغاء نظام الاحتجاز ، ووقف المحاكم الرادعة ، وتوسيع قاعدة الجزائريين الانتخابية وزيادة عدد الجزائريين في المجالس واعطائهم حق انتخاب رؤساء البلديات في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة . ولكن ميللي لم يكن في ذلك الوقت في صالح تمثيل الجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي[20].

من بين الهجومات المرة ضد النظام الفرنسي في الجزائر ما كتبه المؤرخ والعالم الاجتماعي البريطاني ، الأستاذ براوني . فقد هاجم طريقة « البعثة الحضارية » الفرنسية في « التسرب السلمي » في الجزائر عن طريق الكحول وغيره من الوسائل اللاأخلاقية ، التي ترتكب باسم الحضارة والتقدم . وقد قال براوني بأن هذه السياسة تذكره بأن عصر الايمان « لم يغير الا شكله فقط » . وبناء على رأي براوني ، فإن كل من يقدر « ملامح الشرف والرجولة ، والاستقلال » التي يتميز بها الجزائري ، سيشمئز عندما يراه الآن « . . قد أصبح في حالة دنيا ، مجرداً من المطامح الشرعية ومن الأهداف المثالية ، جاهلاً ، لامبالياً ، ممتعضاً بصفة عامة . . وكثيراً ما لا يجد الملجأ الا في الخمر التي منحته إياها الحضارة كعزاء على حريته واستقلاله الضائعين »[21] . وتجدر الملاحظة الى أن الفرنسيين لم يبدأوا في الدعوة الى الاصلاح في الجزائر الا بعد مثل هذا النقد من الخارج .

وفي هذه الفترة (1900 ـ 1914) كان الكتاب الفرنسيون يتحدثون عن التقدم المادي للجزائر ، وعن مضاعفة حجم التجارة الخارجية ، وعن الثروة الفائضة ، وسيل رأس المال في الجزائر . ولكن القضية ليست ما اذا كانت هناك ثروة ، وتقدم مادي ، ودخل عال ، ورأس مال ، ولكن قضية من يشرف على هذه الوسائل ومن يستفيد منها . فليس هناك من ينكر أن الكولون هم الذين كانوا يشرفون على كل وسائل الانتاج ، ورأس المال ، والتجارة الخارجية والداخلية . كما كانوا يشرفون

---

(20) نفس المصدر ، ص 738 ـ 739 . هذه النقط تكاد تكون متوافقة مع مطالب الجزائريين سنة 1912 ، كحد أدنى لبرنامج الإصلاح . وقد اعترف ميللي بأنه بمقارنة بريطانيا مع مصر فإن فرنسا قد أهملت الإصلاح في الجزائر . ص 735 .

(21) أنظر رسالته إلى « التايمز » (لندن) ، (5 أوت ، 1911) ص 3

على الميزانية لأنهم كانوا يملكون أغلبية الأصوات في المجالس المحلية[22].

وقد عارض الكولون كل تغيير قد ينتج عنه اصلاح ما . فقد وقفوا ضد تعليم الجزائريين ، والغاء الضرائب الخاصة بهم ، وانهاء قانون الأهالي ، وتوزيع الأرباح والمصاريف ، وتجنيس النخبة الجزائرية . ورفضوا السماح للجزائريين في المجالس البلدية أن يشاركوا في انتخاب رؤساء هذه المجالس[23] وبالاضافة الى ذلك فإنهم كانوا ينادون باجراءات اضطهادية أخرى للابقاء على الحالة الراهنة وضمان الهدوء في الجزائر.

وبينما كان الكولون يتمتعون بعهد من الرخاء ، كان الجزائريون ينحدرون الى حالة الطبقة الثالثة . ففي 1893 نظم الفرنسيون لهم برنامج صدقة يعرف باسمه الحقير « جمعيات الأهالي الخيرية » وتنص المادة الأولى منه على أن البرنامج « سيساعد ، مساعدة مؤقتة ، عمال الفلاحة الجزائريين ، وفقراء المزارعين » ، الذين عجزوا بسبب المرض أو العطب ، وسمح ، بقروض سنوية عيناً أو نقداً ، « للفلاحين الجزائريين أو الخماسين أن يبقوا ويطوروا فلاحتهم ، ويصلحوا آلاتهم وقطعانهم[24].

وبناء على قول ميللي ، فإن عام 1910 قد شهد 208 من هذه الجمعيات الخيرية التي بلغت عضويتها حوالي 580و540[25] . وليس هناك من شك في أن هذا البرنامج قد قدم بعض المساعدة المؤقتة ، لاسيما في أوقات المجاعات والأزمات الطبيعية ، ولكنه كان قليلاً جداً بالمقارنة الى البرنامج الذي جلب الرخاء الى الكولون . واسم البرنامج كان يكفي لاشعار الجزائريين بأنهم كانوا ينتمون الى الطبقة الثالثة . وبالاضافة الى ذلك ، فإن المراقبة المالية والادارية لهذا البرنامج كانت في يد الفرنسيين أنفسهم.

وهكذا فإنه بحلول سنة 1914 ، حقق الحكم الذاتي في الشؤون الاقتصادية

---

(22) بخصوص وضع الجزائريين أثناء ما يسمى بعهد الرخاء ، أنظر ميللي « القرن التاسع عشر » 73 (1913) ، ص 732 .

(23) أنظر جوليان « أفريقية الشمالية الزاحفة » ص 107 .

(24) نوشي ، ص 38 .

(25) « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 732 .

والاجتماعية للكولون هدفهم . فالموارد الطبيعية الجزائرية كانت قد طورت واستغلت ، والتقدم المادي قد دعم ، والرخاء الاقتصادي أصبح واضحاً ، أما الحكومة الفرنسية ، بالرغم من معارضة الجزائريين وانذارات الجماعة الفرنسية الصغيرة العاطفة عليهم ، فقد حققت رغبات الكولون بتشريع المحاكم الرادعة وتوسيع مجال قانون الأهالي ، وصرفت الهيجان الوطني على أنه « مجرد تعصب » وزادت قبضتها ضغطاً على الجزائر ، ولا سيما في وجه الأزمة المغربية وتهديد الحرب الأوروبية .

وفي سنة 1910 قرر المجلس الوطني الفرنسي نقل الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي الى أوروبا ، بينما تقرر أن يحل محلهم ما كان يعرف بالجنود السود[26] . وبين عام 1906 و1912 جرت مناقشة طويلة عن صلاحية فرض التجنيد الاجباري على الجزائريين . وخلال سنة 1912 أصبح قانون التجنيد الاجباري سارياً على الجزائريين خرقاً لاتفاق سنة 1830 ، ورغم معارضة الوطنيين العنيفة . وهكذا فإن عهد الرخاء بالنسبة الى الكولون ، كان عهداً من الهيجان وعدم الاستقرار بالنسبة الى الجزائريين ، ولكنه كان أيضاً عهد ميلاد حركة « الجزائر الفتاة » .

2. ميلاد حركة « الجزائر الفتاة » :

إن الفكرة الشائعة هي أن الحركة الوطنية الجزائرية حديثة العهد . فالكتّاب الذين تناولوا هذا الموضوع يعودون بها عادة الى الثلاثينات فقط من هذا القرن . ذلك أنه خلال هذا الوقت ظهرت الأحزاب السياسية بأهداف واضحة ومحددة ، بما فيها هدف الاستقلال . غير أن بعض الكتاب يعودون بالحركة الوطنية الى الفترة التالية للحرب العالمية الأولى ، وخصوصاً ابتداء من سنة 1926 ، حين أنشئت منظمة « نجم أفريقية الشمالية » ، أو من سنة 1922 ، حين قاد الأمير خالد معركة قوية ضد فرنسا[27] . وليس هناك الا قليل من الكتاب الذين يعودون بالحركة الوطنية الى سنة

(26) « التايمز » لندن ، (22 فيفري ، 1910) ، ص 5 .

(27) هذا هو موقف أرون ، نوشي ، جوليان ، باربور ، فافرو ، وغيرهم ، من الذين قد أشرنا إلى بعض =

1912 حين قدم وفد جزائري بعض المطالب الى الحكومة الفرنسية.

غير أن هذا التناول لأصول الحركة الوطنية الجزائرية مضلل من الوجهة التاريخية، ذلك أن أصحابه ينظرون الى أصول هذه الحركة من خلال وجود الأحزاب السياسية التي أصبحت قوية تستطيع أن تعمل علانية ببرنامج محدد. ولكن تاريخ القومية لا يتفق مع هذا التناول. فنحن نعرف أن معظم الحركات القومية للشعوب المضطهدة، سواء في أوروبا أو في غيرها، قد وجدت أولاً في أشكال أخرى غير الأحزاب المنظمة. فقد ظهرت أولاً كجمعيات سرية وتمردات، وصحافة، وانتعاش أدبي، ونشاطات اجتماعية كالنوادي، ثم بدأت تتحدى مضطهديها بطرق مختلفة، بما في ذلك الأحزاب السياسية.

وقد كانت حركة الجزائر نموذجاً لذلك. فالحركة الوطنية هنا، كما أشرنا سابقاً، كانت تحت اضطهاد شديد من جميع النواحي. ولكي يصل الجزائريون الى مستوى العمل الظاهري (كحزب سياسي)، كان عليهم أن يمروا بمراحل أخرى مثل العمل السري، والتعاون، واقناع الفرنسيين بولائهم المطلق[28] والمناداة بنشر التعليم بين الجماهير كوسيلة لإيقاظها، والدعوة الى احياء التاريخ الوطني، واستعمال الصحافة والنوادي الثقافية لخلق وتعضيد الضمير الوطني.

أعمالهم. أما الكاتب هـ. اسنارد فيدعي بأن الحركة الوطنية الجزائرية لم تبدأ الا قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات قليلة. فما حدث في العشرينات من نشاط وطني لم يكن، بناء على رأي اسنارد، سوى «عرض»، أنظر مقاله «في أصول الوطنية الجزائرية» في «أنال» (التقاويم)، م 4 (أكتوبر ـ ديسمبر، 1959)، ص 463 ـ 474.

(28) ان الفرنسيين لم يكونوا غافلين عن طريقة «التقية» الجزائرية. ففي سنة 1913 كتب أحد إختصاصييهم عن الحركة الوطنية كتاباً اتهم فيه الوطنيين الجزائريين بعداوة فرنسا، وبالتخطيط لرمي الفرنسيين في البحر، وبالطموح، وبالعمل بالتقية، (مثلاً اظهار الإخلاص لفرنسا وإضمار الوطنية). أنظر الشريف بن حبيلس في كتابه «الجزائر الفرنسية كما يراها جزائري» (الجزائر: أورنتال، 1914، ص 125، من كتاب أندري سيرفي «القومية الإسلامية في مصر، وتونس، والجزائر»، (قسنطينة، بويت، 1913). كان سيرفي محرراً لجريدة «ديبيش دي كونستانتين» الواسعة الإنتشار وكان خبيراً بالمشاكل الجزائرية الداخلية، وخلال سنة واحدة أعيد طبع كتابه ثلاث مرات، وهي ظاهرة قد تكون فذة في الجزائر.

وفي نفس الوقت فإن ذلك التناول لأصول الحركة الوطنية الجزائرية مضلل . فأصحابه يتجاهلون عن قصد أو بلا قصد ، تاريخ الجزائر عامة وتاريخ حركتها الوطنية خاصة . فالقول بأن هذه الحركة تعود فقط الى بعض السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية أو الى العشرينات ، يعني غض النظر عما رأيناه منها خلال القرن الماضي . لذلك ، فإنه من سوء الحظ أن هؤلاء الكتاب لا يعتبرون كل تلك الحركات العسكرية ، والسياسية ، والعاطفية حتى « أعراضاً » لهذه الحركه.

ومن حق المرء أن يسأل عن معنى الجزائر الفتاة وعن تاريخ ميلادها . وبالمقارنة الى الجزائر القديمة ، فإن الجزائر الفتاة تعني الحركة الوطنية التي كانت تهدف الى تحرير البلاد بطرق شرعية سياسية ، مستعملة ، في أغلب الأحيان ، وسائل غربية . وقد كانت هذه الطريقة تختلف عن طريقة الجزائر القديمة ، التي حاولت ، مع بعض الاستثناءات ، أن تطرد الفرنسيين بوسائل عسكرية وأن تقضي على وجودهم بالأدب الشعبي ، وغموض الجمعيات الدينية ، والدعوة الى الجامعة الاسلامية والى الهجرة.

فالجزائر الفتاة إذن ، أرادت أن تتخلص من الحكم الفرنسي بطرق جديدة . لقد اقتنعت بأن اللجوء الى الثورات غير المنظمة كان بلا فائدة . وفرنسا في أعين رواد هذه الحركة ، رغم أنها لم تكن قادرة على تهدئة الجزائر ، كانت ، بحكم قواتها العسكرية ، وتعاون الكولون ، وطرقها غير الرحيمة في القضاء على الثورات ، واستثماراتها الاقتصادية ، واصرارها على التسلل الى أفريقيا عن طريق الجزائر ـ قوية الى درجة أنها تستطيع أن تحطم أية حركة وطنية تستعمل نفس الطريقة القديمة.

واللجوء الى المناورات الجديدة تبرره عدة أسباب . أولاً ، فشل الثورات السابقة الذي أظهر ضعف الحركة الوطنية . ثانياً ، الاجراءات التعسفية التي استعملتها فرنسا لوقف الثورات الوطنية . ثالثاً ، ظهور النخبة التي أعطت محتوى جديداً للحركة الوطنية وحتمت تغييراً في المناورات . رابعاً ، ظهور ايديولوجيات جديدة على المسرح العالمي ، مثل الجامعة الاسلامية في الشرق الأدنى ، والاشتراكية في أوروبا ، وتنافس الدول الكبرى (الأمبريالية) . كل هذه التيارات كان لها أصداء قوية في الجزائر ، وقد أقنعت الوطنيين بضرورة سلوك طريقة جديدة للتحرير.

معظم المؤرخين يتفقون على أن ميلاد أية حركة هو عملية طويلة ، وفي بعض الأحيان مؤلمة ، قبل أن يستطيع الناس رؤيتها وتقديرها . وحركة الجزائر الفتاة لم تكن استثناء . وقد يلاحظ المرء بأنه لو لم تطرد فرنسا النخبة الجزائرية في الثلاثينات من القرن الماضي لجنبت الحركة الوطنية الألم والعذاب غير الضروريين اللذين يصحبان عادة عملية الميلاد . فقد كان من الممكن ، لو لم يقع ذلك الطرد ، أن يتزعم حزب المقاومة القيادة وأن يمنح « الاستمرار » للحركة الوطنية . ولكن التعطيل خلق « فراغاً » بين الجزائر القديمة والجزائر الجديدة.

وقد لاحظ كثير من الكتاب المعاصرين في أواخر القرن التاسع عشر « أعراض » ميلاد الجزائر الفتاة . فالمؤرخ الفرنسي لوروي - بوليو كتب سنة 1882 عدة مقالات عن المشكل الجزائري طالب فيها بلاده أن تسلك سياسة ليبرالية في الجزائر ، بمنح « الفتيان العرب » حق التمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي ، كما نادى بانهاء الاستعمار فيها والغاء قانون الأهالي . وبناء على رأيه ، فان هؤلاء الجزائريين ذوي الثقافة الغربية لا يمكن معاملتهم كرعايا أو مطالبتهم بالتخلي عن دينهم من أجل التمتع بكامل الحقوق السياسية . وقد ختم لوروي - بوليو رأيه بانذار فرنسا بأنها اذا لم ترض هؤلاء « الفتيان العرب » باصلاحات « ضرورية » فانها قد تخلق لنفسها ايرلندا في الجزائر[29].

كما لاحظ جول فيزي ، رجل الدولة الفرنسي المعروف ، الذي قاد لجنة مجلس الشيوخ سنة 1892 لبحث الوضع في الجزائر ، أعراض الجزائر الفتاة ، التي كانت ما تزال في طور التكوين . وبعد أن اتصلت اللجنة بعرائض و «مطالب» من كل طبقات المجتمع الجزائري ، لاحظ فيري بأن التعبير الشائع بين الجزائريين عندئذ هو « اتركونا وحدنا »[30] وقد وصف فيري وصفاً حياً الاستقبال الحماسي الذي خص به الأعيان الجزائريون و « حزب الشباب » المثقفين ثقافة غربية ، اللجنة المذكورة[31] .

---

(29) بول لوري - بوليو ، « إستعمار الجزائر ، أوروبياً وأهلياً » في « ر.د.م. » ، م 53 (1882) ، ص 791 - 792 .

(30) أجرون « جول فيري والمشكل الجزائري في 1892 » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 10 (ابريل - جوان ، 1963) ، ص 134 .

(31) نفس المصدر ، ص 130

وبناء على فيري ، فإن أعضاء اللجنة كانوا قد استقبلوا بحفاوة كبيرة كما لو كانوا مبعوثين من العناية الالهية[32]» .

وفي تقرير الى الحكومة سنة 1899 ، لاحظ الجنرال لارشي نفس الروح . فهو يعتقد أن الجزائريين كانوا مستعدين بشكل واضح للنشاط السياسي . ويضيف قائلاً بأن : « المؤامرات والاضطرابات التي جرت في الجزائر ، قد جعلت العرب يتشاورون فيما بينهم ، أكثر من أي وقت مضى ، للقيام بنشاط سياسي ، انهم الآن مستعدون للتآمر[33] . وهناك ملاحظ فرنسي آخر ، وهو هـ . مارشاند، كتب سنة 1912 قائلاً بأنه إذا نظر الانسان بدون محاباة الى الوضع الجزائري ، فإنه يجد أن « الجزائر الفتاة » قد ولدت فعلاً ولكن مارشاند لم يكن مهتماً بتاريخ ميلاد هذه الحركة ، غير أنه من الواضح من سياق كلامه أنه كان يتحدث عن الجزائر الفتاة كحقيقة واضحة وليست كحركة في مرحلة أعراض الميلاد . فهو يؤكد بأن « هناك قومية أهلية في طريق التكوين يشهدها الفرنسيون » . وبناء على رأيه ، فإن هذه القومية كانت تلعب ، بخبرة فائقة ، ولكن « بسرية » و« غموض » دوراً واعياً وكانت تطالب بجزء كبير من « الوجود السياسي » لتسيير مقادير الجزائر »[34] » .

وبعد سنة واحدة لاحظ كاتبان فرنسيان ميلاد الجزائر الفتاة ، التي لم تعد في هذا الوقت « فتاة » فقط ولكن وطنية أيضاً . وقد أشرنا من قبل الى كتاب سيرفي الذي أكد فيه وجود الحركة الوطنية الجزائرية التي أرادت حسب رأيه ، أن تستعمل المؤامرات ، والتقية ، والجامعة الاسلامية لالقاء الفرنسيين في البحر . وفي نفس الوقت قال ميللي ، الذي انتقد السياسة الفرنسية في الجزائر واقترح بعض

---

(32) نفس المصدر ، ص 129 .

(33) أشار إلى ذلك ا . لافيرير ، الذي كان عندئذ حاكماً عاماً للجزائر ، خلال مناقشته في المجلس الوطني الفرنسي . أنظر « الجزائر » في « أ.ف. » « جويليه ، 1899) ، ص 212 . وفي سنة 1933 ذكر كاتب فرنسي بأنه خلال أزمة فاشودا كان الجزائريون « متحمسين » ومنتظرين « بفارغ صبر » مساعدة البريطانيين على « تحريرهم » . أنظر ر . ميغو في « م.ف. » (15 أكتوبر ، 1933) ، ص 439 .

(34) أنظر هـ . مارشاند « هجرة الجزائريين المسلمين الجماعية » في « ك.د.ك.» م 33 (16 جانفي ، 1912) ، ص 88 .

الاصلاحات ، بأنه كان في الجزائر « سخط سري » قد ينتشر في أي وقت ويصبح خطراً مهدداً[35].

وبينما لجأت الجزائر القديمة غالباً الى الثورات[36] ، استعملت الجزائر الفتاة طريقة العرائض ، والوفود ، والاضرابات ، وصخب الشوارع . إن هذا التكتيك الجديد للضغط ، مع بعض الثورات المتجددة ، قد جعل الجزائر تبدو باستمرار في حالة غليان وعدم استقرار ، وهي حالة قد ميزت في الواقع كل تاريخ هذه البلاد منذ الاحتلال الفرنسي .

3. الغليان الدائم :

شكا الكاتب البريطاني وورثام سنة 1922 ، من أنه لا وجود لبلاد اسلامية يعتبر الانكليز أنفسهم « أنهم أسوأ من يعلم عنها كالجزائر» . وقال بأنه ، ما دامت الجزائر تكتيكياً ، جزءاً من فرنسا ، فإن الفرنسيين قد أوضحوا بأنه « لا حق لنا أن نحلم برؤية شعور وطني ضد الفرنسيين في مقاطعة قسنطينة (مثلاً) أكثر من رؤية ذلك الشعور في مقاطعة سين ـ أي ـ أواز »[37] . فإذا كان الانكليز هم « أسوأ من يعلم » ، فمن يكون اذن أحسن علماً بالجزائر بعد الفرنسيين؟ .

وفي الحقيقة ، أن قول وورثام يعبر عن مظهر واحد فقط من مأساة الجزائر التي بدأت سنة 1834 حين اعتبرها قانون الالحاق الاعتباطي « جزءاً » (مثلاً : ليست مستعمرة) من فرنسا . فقد نعتت الحركة الوطنية الجزائرية بالعصبية ونعتت زعماءها

---

(35) ميللي « القرن التاسع عشر » ، م 73 (ابريل ، 1913) ، ص 739 .

(36) اعترف ايميري بانه ، بينما كان للكولون كل وسائل التعبير ، كالصحافة ، والعرائض ، والمنشورات بل والتمثيل النيابي ، والمظاهرات ، لم يكن للجزائريين شيء من ذلك . ذلك أن مطالبهم قلما وصلت إلى السلطات الفرنسية . والوسيلة الوحيدة التي تركت للجزائريين هي الثورة . أنظر « الحالة الروحية لمسلمي الجزائر من 1847 ـ 70 » في « ر. هـ. م. ك. » أ (أبريل ـ جوان 1960) ، 103 .

(37) هـ . أ . وورثام « فرنسا والاسلام » في « ليفين ايدج » م 313 (27 ماي ، 1922) ، ص 518 .

بقطاع الطرق المجرمين . أما حين ظهرت ايديولوجيات عالمية أخرى ، فإن الزعماء الوطنيين قد وصفوا بالشيوعيين ، والمتعصبين ، حسب ما تقتضيه الظروف ، ولكن نادراً ما وصفوا بالوطنيين.

أما الأجانب فقد كانوا يعتبزون أشخاصاً غير مرغوب فيهم ، أو لا يزودون الا بالأخبار التي تسمح بها الادارة الفرنسية . وكان عليهم أن لا يكتبوا عن الوطنية ولكن عما حققته فرنسا من سلام ورخاء في الجزائر ، ألم تكن الجزائر « جـزءاً مكملاً » لفرنسا ؟ فوورثام لم يكن في الواقع الا واحداً من الأجانب القليلين الذين حكموا على أساس عوامل أخلاقية بدل أن يقبلوا وضعاً فرض على الجزائر بالقوة.

حقاً ، ان الحقبة التي ندرسها هي أكثر الفترات غموضاً في الوقائع الجزائرية . وأهم العوامل التي ساهمت في غموض هذه الفترة هي قانون الأهالي ، والمحاكم الرادعة ، وعدم وجود ثورة شعبية عنيفة وطويلة المدى ، وظاهرة الإستعمار العالمي ، وتصميم فرنسا على مد حكمها إلى تونس والمغرب الذي كان يعني ، قبل كل شيء تدعيم قوتها في الجزائر كقاعدة لا في أفريقية الشمالية فقط ، ولكن في أجزاء أخرى من أفريقية والبحر الأبيض المتوسط أيضاً .

وعلى أية حال ، فإنه من الممكن أن لا يعتبر المرء الثورات العسكرية العلامات الوحيدة لعدم الإستقرار في بلاد ما . ففي خلال الفترة المدروسة بدأت الجزائر تطبق مناورات جديدة ، بالإضافة إلى الثورات العسكرية . وهذه المناورات قد اشتملت على تقديم العرائض ، وإرسال الوفود إلى باريس والنشاط الصحفي ، والإضرابات ، والمظاهرات . وجميعها أشكال لم تكن معروفة ، على العموم ، في الجزائر . وهذه المناورات الجديدة ، بالإضافة إلى بعض التمردات العسكرية ، قد نتجت عنها حالة عدم استقرار دائمة . ومن مظاهر ذلك ثورة عين التركي سنة 1901 التي تكاد تكون مجهولة[38] . فتحت تأثير يعقوب م . بن الحاج ، ثار سكان قرية عين التركي ضد الفرنسيين ، وأعلنوا الجهاد ، وذهبوا للإنضمام إلى بوعمامة ، الذي كان ما يزال في حالة ثورة . وقد أسر الثوار أولاً قائد المنطقة وبدأوا حملة إرهاب ضد الفرنسيين في

---

(38) تعرف في بعض الأحيان بثورة مارغريت أو ثورة مليانة ، وهي مدينة تبعد بسبعين ميلاً عن الجزائر .

الناحية . وبسرعة انضم اليهم قرويون آخرون واتجهوا نحو مليانة ، مهاجمين الفرنسيين في طريقهم . ولكن هؤلاء استطاعوا أن يقضوا على الثورة في النهاية بعد نجدة قوية .

وتحديد أسباب هذه الثورة كان محل نزاع . فبعضهم يلوم التعاسة والحالة الإقتصادية الضنكة التي كان يعيشها الجزائريون . ولكن هذا الإدعاء ينفيه ما عرف عن منطقة الثورة من أنها كانت قد استعمرت منذ وقت طويل ، وأنها كانت فرضاً في حالة « رخاء » . ومن جهة أخرى فإن المنطقة المذكورة كانت « هادئة » أيضاً ، وهي حقيقة يقر بها الفرنسيون أنفسهم [39] .

غيرَ أن آخرين يلومون التعصب والجامعة الاسلامية . فهم يشيرون الى أن ابن الحاج ، زعيم الثورة ، كان مرابطاً متعصباً ، وأن الثوار قد أنقذوا حياة الفرنسيين الذين قبلوا بالإسلام ، وأن السلطات الفرنسية قد ألقت القبض ، أثناء الثورة ، على بعض الأفراد الذين جاءوا من بغداد ، والمغرب الأقصى ، وغيرهما[40].

ولم تكن الحالة الاقتصادية ، والتعصب ، والجامعة الاسلامية فقط هي محل اللوم على الثورة ، ولكن المخبرين الانكليز وغيرهم أيضاً . ففي سنة 1901 تقدم بعض النواب في المجلس الوطني الفرنسي بلائحة يتهمون فيها المخبرين والمبشرين الانكليز في الجزائر بإعداد الثورة وذلك بنشر الحقد ضد الحكم الفرنسي وتوزيع السلاح على الجزائريين لاستعماله ضد الفرنسيين ، وقد طلبت اللائحة من الحكومة الفرنسية أن تطرد أولئك المخبرين والمبشرين الانكليز من الجزائر في الحال[41] . بل

---

(39) بيرنار « حوادث مارغريت » في « ك.د.ك. » 11 (1901) ، ص 617 ـ 618 .

(40) نفس المصدر ، ص 617 ـ 619 . «ويؤكد أسقف كنيسة الجزائر في ذلك الوقت بأن التعصب هو السبب الرئيسي والأول لهذه الثورة » . أشير إلى ذلك في « قضية مارغريت » في « أ.ف. » (جوان ، 1901) ، ش 200 .

(41) أنظر المناقشة في المجلس الوطني الفرنسي كما أشارت إليها « التايمز » (لندن) ، (25 ماي ، 1901) ، ص 7 . أنظر أيضاً بيرنار « حوادث مارغريت » في « ك.د.ك. » م 11 (1901) ص 619 . أنظر أيضاً ر . دي كي « نظام الجزائر » في (أ.ف.) (جويليه في 1901) ، ص 218 .

أن آخرين قد لاموا العاطفين على العرب ، والمسؤولين الفرنسيين ، وغيرهم ، على الثورة[42].

وهذه الاتهامات كانت شائعة بخصوص الثورات الوطنية والتوتر في الجزائر . فقلما أقر الفرنسيون كما لاحظ وورثام ، بأن هناك حركة وطنية وراء الاضطرابات في الجزائر . فهم يلومون على ذلك ، في أغلب الأحيان عناصر خارجية . وقد حافظوا على هذا « المذهب » الى الاستقلال . فإذا أقر الفرنسيون ببعض الأسباب الداخلية ، فإنهم يربطونها عادة بعوامل اقتصادية ، واجتماعية ، وأخلاقية ، ولكن نادراً ما يربطونها بعوامل سياسية أو وطنية . فثورة عين التركي يجب النظر اليها ، اذن في هذا الضوء .

وهناك مجلة فرنسية محافظة ، اعتادت أن تتكلم باسم الكولون ، قد اعترفت بأن ثورة عين التركي كانت نتيجة « لعامل ديني مختلط . . بعامل وطني »[43] . ولكن المجلة حذرت ضد « الخطر الأهلي » ، وقالت أن الجزائريين كانوا ينتظرون اللحظة المواتية لالقاء الفرنسيين في البحر[44] . . ففي مقال عنوانه « اضطرابات الجزائر » كتبت المجلة المذكورة تقول أن « بعض الاضطرابات السياسية » قد تتلو ثورة عين التركي لأن الانسان في الجزائر ، بناء على رأي المجلة ، يعطي المثال للاضطراب لا بالصحافة أو الخطب ولكن بالثورات[45].

وقد كان لثورة 1901 نتيجتان خطيرتان : أولاهما علامة الاستفهام التي وضعت على سياسة الاندماج في الجزائر . فبعد هذه الثورة ، بدأت مناقشة حادة في المجلس الوطني الفرنسي حول صلاحية الاندماج . ومن بين الذين ساهموا بنشاط في تلك المناقشة رئيس الوزارة الفرنسية عندئذ السيد والديك ـ روسو ، باسم العناصر

---

(42) وقد لامت بعض الأحزاب السياسية الفرنسية الثورة على سياسة الكولون الضريبية أنظر ر . دي كي في نفس المصدر .

(43) « قضية مارغريت » في « أ . ف . » (جوان ، 1901) ، ص 199 .

(44) نفس المصدر ، ص 199 ـ 200 .

(45) نفس المصدر (ماي ، 1901) ، ص 147 .

الليبرالية . وبناء على رأي الكاتب الفرنسي ر . دي كي ، فإن رئيس الوزارة قد عبر عن « فكرة مبدئية » بخصوص « المرحلة الجديدة » لسياسة فرنسا في الجزائر . وفي صوت غاضب ، صرح والديك ـ روسو بأن « الجزائر مستعمرة وليست امتداداً لفرنسا »[46].

غير أن رئيس الوزارة الفرنسية ، خلافاً لنابليون الثالث قبله ، لم يناد « بمملكة عربية » ولا بجنسية جزائرية ، فقد كان مؤيداً مستميتاً لفكرة الاستعمار . ولكنه نادى « بنظام خاص » في الجزائر يتلاءم مع حضارتها الخاصة . وقد اقترح لذلك الغاء البلديات وتعويضها باداريين معينين (أي العودة الى نظام ما قبل سنة 1870) . كما أوصى بوجوب منح الجزائريين بعض فوائد ضرائبهم واجابة طلبهم الخاص بإعادة القضاء الاسلامي[47] . وقد أشرنا من قبل الى رأي مشابه عبر عنه لوبي رئيس الجمهورية الفرنسية حين زار الجزائر سنة 1903 .

وهكذا ، فإن ثورة عين التركي قد نبهت الفرنسيين الى حقيقة الوضع في الجزائر وخلقت حالة عقلية جعلتهم ينادون بالاصلاح وازالة أسباب السخط . ولكن اتجاه السياسة الفرنسية في ذلك الوقت كان ارضاء أولئك الذين ينادون بالاضطهاد لا الذين ينادون بالاصلاح.

أما النتيجة الثانية لثورة عين التركي فهي انشاء نظام جديد خاص للجزائر يعرف بالمحاكم الرادعة . فقرار 29 مارس ، و28 ماي ـ 1902 ، قد نص على خلق تلك المحاكم . وهذا الاجراء الجديد ، بالاضافة الى قانون الأهالي البغيض ، قد ضرب الجزائريين في القلب. إذ لم يكن لهم حق استئناف الأحكام ، بينما أعطيت سلطات المحاكمة ، والنفي ، والطرد ، والسجن ، الى الحاكم العام ومساعديه . كما أن سلطات الاداريين المحليين قد تضاعفت بشكل ملحوظ . وهكذا ، فإن المنادا بالاصلاح لم يغض عنها النظر فقط ، ولكن وقع أيضاً تحديها باجراءات تعسفي

---

(46) نفس المصدر ، (جويليه ، 1901) ، ص 218 .

(47) نفس المصدر ، ص 220 ؛ ويقول دي كي بأن ثورة عين التركي ، التي « حملت السيف » ، هي التي جعلت والديك ـ روسو يقدم إقتراحاته . بخصوص كل المناقشة أنظر نفس المصدر ، « الأخبار الإستعمارية » ، رقم 4 ، ص 74 ـ 48 .

جديدة كانت السبب ، كما سنرى في كثير من الاضطرابات.

لقد أثارت هذه الاجراءات الجديدة عاصفة من الاحتجاج والمعارضة ، ولكن بلا جدوى . فقد أعلن كل من أ . روزي ، وفلاندان ، وغيرهما ، في المجلس الوطني الفرنسي أن المحاكم الرادعة كانت غير شرعية[48] . وفي قسنطينة نشر رجل فرنسي قانوني ، تحت اسم مستعار ، هو البيدي ، كتيباً أعلن فيه أن قرار الردع كان ضد مصالح الفرنسيين والجزائريين معاً[49] . وقد قدم أحد الجزائريين ، كان محكوماً عليه ، طلباً لاستئناف الحكم الى محكمة الاستئناف العليا ، ولكن طلبه كان قد رفض بحجة أنه كان ضد قرار الردع[50].

أما الكولون فقد اعتبروا ذلك القرار نصراً كبيراً لهم . كما اعتبروا اصداره « هزيمة كبيرة » للذين قاموا بحملة ضده[51] . وهكذا ، فانه ، نتيجة لثورة 1901 ، اضطهد « الخطر الأهلي » ودعم « السلام الفرنسي».

في أكتوبر ، 1906 كتب أندري ميفيل الفرنسي في « ايكو دي باري » قائلاً : « إن السكان العرب يظهرون أعظم السخط نحو الفرنسيين »[52] . وقد نشرت نفس الجريدة برقيات من الجزائر العاصمة وقسنطينة تصف « الغليان الذي يسود السكان العرب » . وأضافت الصحيفة الانكليزية المحافظة التايمز ، بناء على مراسلات من قسنطينة ، بأن جرأة الجزائريين كانت تزداد يومياً[53] . وقد كانت مناسبة هذا « الغليان » هي ثورة عين بسام التي حدثت في نفس السنة.

فقد هاجم الجزائريون عندئذ الفرنسيين هناك منادين بحقهم في أن يكونوا

---

(48) بخصوص المناقشة ، التي دامت ثلاثة أيام ، عن هذه المشكلة ، أنظر « المحاكم الرادعة في الجزائر » في « ك.د.ك. » م 15 (1903) ، ص 509 ـ 531 . بخصوص نص القرار نفسه أنظر « أ.ف. » (أبريل ، 1902) ، ص 145 ـ 146 .

(49) أشير إلى ذلك في « الجزائر » في « أ.ف. » (أوت ، 1902) ، ص 296 .

(50) هذا الجزائري هو كانتولي س . بن عمر ، الذي قدم مطلبه « بتحريض رجال ذوي شأن في الجزائر » أنظر « الجزائر » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1902) ، ص 357 . ولزيادة المعلومات أنظر فيكتور ديمونتي « محاكمة مارغريت » في « أ.ف. » (مارس ، 1903) ، ص 105 ـ 112 .

(51) « الجزائر » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1902) ، ص 537 .

(52) أشارت إلى ذلك « التايمز » (لندن) ، (12 أكتوبر ، 1906) ، ص 4 .

(53) نفس المصدر .

الأسياد الشرعيين في أرضهم . وقد حدث الهجوم أولاً على مراكز الدرك الفرنسي ، ثم انتشر منها الى بقية القرى ، تاركاً الجزائر في حالة التوتر التي وصفت أعلاه . وبناء على تقارير ذلك الوقت ، فقد كانت هناك « وقائع يومية عن هجومات جديدة »[54] . ولم تكن تلك الثورة ، كما لاحظت وسائل الاعلام ، نتيجة لتغاضي الادارة الفرنسية ، فنحن نعرف أن قانون الأهالي كان في عنفوانه ، وأن المحاكم الرادعة كانت تعمل بحزم .

فما أسباب هذه الثورة التي أدت الى كل تلك التعاليق ، والتي كان لها محتوى خطير في الجزائر ؟ إن أسباب وطريقة سير هذه الثورة ، مثل الأخريات ، لم تكن معروفة لا للرأي العام ولا للمختصين . ذلك أنه يصعب الحصول على الحقائق في بلاد كانت باستمرار تخضع لشبه قانون طوارىء . فشكوى الكاتب الانكليزي وورثام ، المشار اليها سابقاً ، جديرة بالتذكير . وعلى أية حال ، فإن التعصب والجامعة الاسلامية كانتا محل اللوم ، كالعادة ، في اثارة السكان . فقد قيل بأن مرابطاً كان يدعو الجمهور الى الثورة ضد الفرنسيين خلال تلك الأثناء . بل إن بعضهم قد سمى هذه الثورة جزءاً من « الجرائم التي تحدث الآن في الجزائر » متصلة بانتعاش التعصب الذي يظهر الآن في كامل أفريقية الشمالية[55] .

غير أنه يجب ألا يغيب عن البال من أن ثورة عين بسام ، و« الغليان » بين الجزائريين ، واظهار « أعظم سخط » و« انتعاش التعصب » كانت كلها جزءاً من الصورة المتكاملة في ذلك الوقت . ففي نفس السنة حدث مؤتمر الجسيرة ، ووصل الصراع بين فرنسا وألمانيا على المغرب الى أشده . وقبلها بعام واحد توفي الشيخ محمد عبده ، أحد زعماء حركة الاصلاح الاسلامي ، الذي كان قد زار الجزائر سنة 1903 . وفي سنة 1905 قررت فرنسا فصل الدين عن الدولة ، ثم قررت مده الى الجزائر بعد سنتين . وفي نفس الوقت بدأت فرنسا تخطط لدعوة الجزائريين الى الخدمة العسكرية الاجبارية .

فثورة عين بسام ، اذن يجب أن تدرس في ضوء هذه الأحداث ، لقد كانت

---

(54) نفس المصدر .
(55) نفس المصدر .

جزءاً فقط من سلسلة أحداث متعاقبة متصلة كان لها ، بلا شك ، أصداء قوية في عقول الجزائريين . وفي ضوء ذلك ، فإن الثورة كانت مجرد علامة من العلامات التي تشير الى الزخم الوطني الكبير الذي سماه بعض الملاحظين المعاصرين « انتعاش التعصب » و « الخطر الأهلي » وروح « الغليان » لدى السكان.

وبينما ولدت ثورة 1901 المحاكم الرادعة ، ولـدت ثورة 1906 اجـراءات اضطهادية جديدة تعرف « بمنشور جونار » . فجونار ، الذي كان عندئذ حاكماً عاماً للجزائر ، قد بعث بمنشور الى رؤساء العمالات الثلاث بخصوص الأمن في البلاد . وقد أمرهم فيه أن يغلقوا مقاهي الجزائريين الْمُشْتَبَه فيهم ، وأن يمنعوا المهرجانات الجزائرية في النواحي المشكوك فيها ، وأن يسحبوا كل رخص حمل السلاح ، وأن يسجنوا كل جزائري غير موثوق فيه(56).

ومرة أخرى ، وقع تدعيم «السلام الفرنسي» والتضحية بالحرية . فالمؤرخون الذين يعتقدون أن الجزائر كانت هادئة وراضية خلال هذا العهد مدعوون الى اعادة النظر في آرائهم على ضوء قانون الأهالي ، والمحاكم الرادعة ، ومنشور جونـار ، وهي التي كانت تسمى في النصوص الرسمية بالسلام الفرنسي.

ولكي يدعم الفرنسيون هذا السلام والأمن في الجزائر ، أصدروا ، بالاضافة الى ما سبق ، اجراءات أخرى . ففي سنة 1908 أصدر الحاكم العام جونار قراراً يمنع فيه الجزائريين من الحج الى مكة(57) . وسبب المنع ، بناء على القرار ، هو وجود داء الطاعون والكوليرا في الشرق الأدنى في ذلك الوقت .

والحق أننا لا نملك في هذه اللحظة ما يثبت هذا التقرير . وكل ما نستطيع أن نؤكده هنا هو أن سنة 1908 كانت سنة الثورة التركية . وكان متوقعاً عندئذ أن يكون هناك طاعون وكوليرا ثورية في الشرق الأدنى . فإذا كان الحـاكم العام يعني هـذا « المرض » عندما منع الجزائريين من الحـج ، فقد كـان مصيباً . وبـالإضافـة إلى ذلك ، فإن الإدارة الفرنسية قد دعمت نفسها بعدد 75,000 ألف جندي وإحـلال

---

(56) أنظر « التايمز » (لندن) ، (26 أكتوبر ، 1906) ، ص 3 .

(57) « الجزائر » في « أ.ف. » (فيفري ، 1908) ، ص 59 .

الجنود السود الغرباء عن الجزائر ، خوفاً من العدوى الثورية ، محل الجنود الجزائريين[58] .

إن الجرائم والهيجان الوطني ، والمجرمين الوطنيين ، كانت كلمات غالباً ما اختلطت في التعبير الجزائري - الفرنسي . فأولئك الذين تدعوهم الإدارة الفرنسية ثواراً ومجرمين كانوا في نظر الجزائريين وطنيين ومناضلين . وأولئك الذين تدعوهم الإدارة الفرنسية مخلصين وأنصاراً لفرنسا يعتبرهم الجزائريون متعاونين وخونة . وعلى هذا الأساس ، فإن الأمر يختلط على المؤرخ أيضاً ويصعب عليه التوصل إلى الحقيقة . وليس هناك من ينكر أن بعض الجزائريين قد ارتكبوا جرائم ، لأنهم ككل الكائنات الإنسانية لم يكونوا دائماً براء . ولكن من الخطأ أن تعزى كل النشاطات التي هي ضد الفرنسيين إلى دوافع إجرامية .

وإحصاءات « الجرائم » التي نذكرها أسفله ، بقصد التنوير ، تعطي فكرة عن الروح التي كانت سائدة في الجزائر في مفتتح القرن الحالي . وهي تغطي سنتين فقط (1905 - 1907) ، وهو « عهد الغليان » و « أعظم سخط ضد الفرنسيين » ، وثورة عين بسام وأزمة المغرب الأقصى الأولى . والمجلة التي أوردت هذه الإحصاءات كانت تتحدى أولئك الفرنسيين الذين كانوا يدعون إلى إلغاء قانون الأهالي ، والمحاكم الرادعة ، ومنشور جونار . وقد أرادت هذه المجلة الخبيرة ، والمحافظة أن تبين لقرائها « تقدم الجرائم » في الجزائر والحاجة إلى الأمن .

عدد المحكوم عليهم في الجزائر (بالعمالة) 1905 - 1907[59] :

جويليه، 1905 إلى جوان، 1906		جويليه، 1906 إلى جوان، 1907	
عمالة الجزائر	5,436	عمالة الجزائر	6,971
عمالة وهران	6,128	عمالة وهران	6,170
عمالة قسنطينة	11,765	عمالة قسنطينة	15,059
المجموع	23,329	المجموع	28,200

(58) أنظر « التايمز » (لندن) ، (19 فيفري ، 1910) ، ص 6 .

(59) المصدر : « الجزائر » في « أ. ف. » (نوفمبر ، 1908) ، ص 387 .

ولكي يظهر الجزائريون في هذا العهد تصميمهم على استعادة حريتهم ، عمدوا إلى استعمال طرق جديدة من بينها الاضرابات العامة ، والمظاهرات السياسية في الشوارع ، وحمل العلم الوطني . ففي سنة 1910 حمل الجزائريون ، أثناء إضراب ، العلم الوطني ، لأول مرة ، حسب معلوماتنا ، وساروا به في مظاهرة شعبية استنكروا فيها الحكم الفرنسي وطالبوا بالحرية . وقد نظم الإضراب العمال الجزائريون والأجانب في ميناء سكيكدة . ثم تظاهر المشتركون ، وألقوا الخطب ، واستنكروا الحكم الفرنسي ، وأعلنوا مطالبهم . واضطرت السلطات الفرنسية إلى استعمال الشرطة والجنود لقمع المظاهرة.

ويقول ديمونتي ، الذي كان معروفاً باتجاهه المحافظ ، بأن السلطات العسكرية الفرنسية قد حاولت أن تفتك بـ « العلم (الوطني) الأخضر مع نجمة من أيدي المتظاهرين (الذين استعملوه) شعاراً لمطالب العمال » ، ولكن الجندي الذي حاول أن يفتك بالعلم كان قد « جرح جرحاً خطيراً »[60] ويقول ديمونتي أيضاً بأن خطيباً أجنبياً ، لعله إيطالي ، قد ذكر الجزائريين ، « أبناء البلاد الحرة دائماً (الذين) لن ينسوا أن العلم المثلث سوف لا يعني قريباً أي شيء ، وأن علماً أحمر في لون الدم سيحل محله في النهاية[61] ».

وقد اعتبر الفرنسيون إضراب ومظاهرة سكيكدة ، كما اعتبروا سابقاً ثورتي عين التركي وعين بسام « جرائم » ارتكبها « قطاع طرق أهليون » . ولكن مثل هذه الأحداث كانت في أعين الملاحظين غير الفرنسيين علامات عدم الاستقرار الذي لون كل تاريخ الجزائر وراء الستار الفرنسي . أما في وقائع الحركة الوطنية الجزائرية ، فإن الأحداث المشار إليها كانت مجرد خطوات في طريق التحرير.

ولكن الزخم الكبير له مظاهر كثيرة . من بينها نداء الجامعة الإسلامية إلى الجزائريين .

---

(60) فيكتور ديمونتي « الجزائر » في « أ . ف . » (سبتمبر ، 1910) ، ص 292 .

(61) نفس المصدر ، وفي رسالة بتاريخ 30 نوفمبر 1973 (ذكر لي الأستاذ جيلبير ميني (جامعة نانتسي - فرنسا) أنه قد عثر في الوثائق التاريخية للجيش على صور لعلم « عربي عثماني جزائري » في شكل متصل ومواز للعلم الفرنسي ، ويعود تاريخه ذلك إلى فترة معارضة التجنيد الإجباري (1910 - 1912). وقد أرسل إلى الأستاذ ميني رسماً للعلم المذكور ولكنه لم يشر إلى الألوان التي يتكون منها.

4. الجامعة الإسلامية والحركة الوطنية الجزائرية :

من الممكن تعريف الجامعة الإسلامية بأنها حركة تدعو إلى تضامن المسلمين من أجل تحقيق الوحدة والقوة بينهم في وجه التوسع الأوروبي . أما وسائلها فتقوم على الإصلاح الديني والإجتماعي ، وذلك بتمجيد العقل والعودة إلى مذهب السلف ، أي العصر الذهبي للإسلام على عهد النبي محمد ، وصحابته ، والتابعين . ومن الشائع أن هذه الحركة قد بدأت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وأصحاب هذه الحركة هم جمال الدين الأفغاني (1838 ـ 1897) وتابعه محمد عبده (1849 ـ 1905) ، ورشيد رضا (1865 ـ 1935) ، وآخرون.

أما على المستوى الرسمي ، فإن عبد الحميد الثاني (سلطان الدولة العثمانية) هو الذي تبنى حركة الجامعة الإسلامية واستغلها . ومن المعروف أن الهدف الرئيسي للجامعة الإسلامية هو وحدة المسلمين تحت خلافة قوية . ولهذا السبب ، رأي عبد الحميد أنه هو الرمز الروحي والسياسي لهذه الحركة.

والاعتقاد الشائع من أن الجامعة الإسلامية قد ظهرت في الشرق الأدنى في آخر القرن التاسع عشر يحتاج إلى مراجعة . ذلك أنه يبدو من المؤكد أن أصل ذلك الاعتقاد مبني على سوء فهم أوروبي وقد قبله الكتاب العرب أيضاً حتى الآن دون مناقشة.

وهناك عاملان مهمان قد ساهما في سوء الفهم . أولاً ، ربط حركة النهضة الإسلامية بالمسألة الشرقية ، أي بالصراع بين الدولة العثمانية المتداعبة وبين ميزان القوة الأوروبي في شرق البحر الأبيض المتوسط . وبناء على هذا الفهم . فإن ظهور الجامعة الإسلامية كان يعني حملة مقاومة ضد التأثير الأوروبي في المنطقة وتدعيم تضامن ووحدة المسلمين ، أما العامل الثاني فهو قبول الكتاب الأوروبيين ، والعرب أيضاً ، لفكرة وحدة الجزائر وفرنسا واقعياً وقانونياً . وعلى أساس هذه الفكرة فإن أفريقيا الشمالية عامة ، والجزائر خاصة قد أهملتا كعاملين في تطور الجامعة الإسلامية والقومية العربية.

أما تاريخياً ، فإنه يجب البحث عن الجامعة الإسلامية ، حسب التعريف السابق ، في المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي . فهذا الاعتداء مع كل ما صاحبه

من مظاهر العنف ومحاولات القضاء على الشخصية الجزائرية ، كان أول مجابهة من نوعها بين الشرق والغرب في التاريخ الحديث . ولكن غالباً ما ينسى الباحثون أن هذه المجابهة قد أنتجت عواطف حادة ، وأدت إلى ظهور قيادة جديدة ، وفتحت حدوداً كانت مجهولة لكل من الإسلام ، وأوروبا.

فالجزائريون ، كما أشرنا سابقاً ، كانوا أول من نادى بالتضامن بين المسلمين ، وبإصلاح الإسلام مستفيدين من التجربة الأوروبية ، وبقيادة جديدة في العالم الإسلامي ، وقد كان حمدان خوجة الجزائري أول من نادى بالتفاهم بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية ، فهو الذي تحدى الأوروبيين في زمانه مصراً على أن الإسلام لا يتعارض مع المبادىء الأساسية للتجرب الأوروبية . كما برهن الأمير عبد القادر ، كمحارب ومفكر ، انه كان مصلحاً إسلامياً في اتجاهه.

وكلا الزعيمين الجزائريين قد نفته السلطات الفرنسية ، ومات في الشرق الأدنى ، الأول في اسطنبول والثاني في سورية ، وبعد نفيهما، استمر كلاهما في عمله الإسلامي مصلحاً وكاتباً ، وبذلك أثر كل منهما تأثيراً كبيراً على معاصريه وقد درسنا أيضاً من قبل « أصول » الجامعة الإسلامية في الأدب الشعبي الجزائري في الخمسينات من القرن الماضي ، ولسنا بحاجة لإعادة ذلك هنا[62].

ان تاريخ العالمين العربي والإسلامي قد كتب حتى الآن بطريقة مجزأة ، بسبب الأحوال السياسية في كل بلد . مثلاً ان تاريخ الجزائر منذ 1830 قد كتبه غالباً الفرنسيون كجزء من تاريخهم[63] وهناك ضرورة ملحة الآن لإعادة كتابة تاريخ كل البلاد الإسلامية والعربية بطريقة متكاملة . وعندما يتحقق ذلك ، فمن الممكن أن يوضع مشكل التأريخ لحركة الجامعة الإسلامية في ضوء ومحتوى جديدين.

على أن الجامعة الإسلامية « الجزائرية » ، قد واجهت عدة عراقيل . أحدهما

---

(62) يجب أن يتذكر الباحث بأن خوجة ، عندما كان في اسطانبول قد أهدى أحد كتبه إلى السلطان محمود الثاني الذي قضى على الإنكشارية والذي كان معروفاً برأيه الإصلاحي في الدولة العثمانية . أنظر قائمة المصادر الجديدة .

(63) أنظر مقالتي عن « منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر » في مجلة (الأصالة) عدد 14 و 15 ، السنة 3 ، 1973 ، ص 7 ـ 26 . وكذلك كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، ط. 2 ، 1982 .

أن هذه الحركة كانت قد اضطرت ، في معظم الأحيان ، إلى أن تقوم بنشاطها في الخارج ، وبذلك اختلطت المساهمة الجزائرية بالجامعة الإسلامية « الشرقية » في شكلها العام . وثانيهما عدم توفر الحرية في الجزائر ، حيث اضطهد الفرنسيون عواطف الجامعة الإسلامية واضطروها إلى استعمال التعبير غير المباشر فقط ، خصوصاً اللجوء إلى الشعر الشعبي . وبالمقارنة ، فإن حركة الجامعة الإسلامية في المشرق قد وجدت حرية التعبير ووسائله كالصحافة ، وتأييد الدوائر المثقفة ، بل والتعضيد الرسمي في بعض الأحيان . وهكذا وجد أصحاب نظرية الجامعة الإسلامية فردوسهم في لبنان ، ومصر ، واسطنبول.

أما المعرقل الثالث الذي واجهته الجامعة الإسلامية في الجزائر فهو عدم التأييد والدعاية من أية أمة أوروبية . فالكتاب كانوا يتناولون الجزائر على أنها جزء من فرنسا ، ولذلك فإن أوروبا لم تصدر أفكاراً جديدة إلى الجزائر ولم تساعد على الإتصال بين الحضارتين فيها . وبالمقارنة ، نجد التنافس الأوروبي في الشرق الأدنى قد ساهم بفعالية في بعث قيم الثقافة المحلية ، وذلك ببناء المدارس ، وتأسيس الصحافة ، وانشاء المطابع ، وبهذه الطريقة ساعد التنافس الثقافي الأوروبي الجامعة الإسلامية ، بصفة قد تكون غير مباشرة ، ولا سيما في إنعاش الأدب العربي . ومؤرخ نهضة الشرق الأدنى الحديث لا تغيب عنه حالة لبنان ومصر ، وسورية ، واسطنبول في القرن التاسع عشر.

ولكن الحالة في الجزائر كانت تختلف ، فالشخصية المحلية هنا كانت تحت اضطهاد مستمر ، والأدب الوطني كان قد هوجم في لغته بدل تنمية قيمه وإعطائه دماً جديداً من التجربة الأوروبية . ولم تكن في الجزائر أيضاً أية محاولة أوروبية لكسب السكان بالتأثير عليهم ثقافياً ، كما كانت الحال بالنسبة لمصر تحت عائلة محمد علي ، وبالنسبة إلى لبنان وسورية ، وحتى اسطنبول . ان هذه العراقيل بالنسبة إلى الجزائر والفرص المتاحة بالنسبة إلى الشرق الأدنى قد ساعدت على خلط مشكلة التاريخ لبداية الجامعة الإسلامية.

ومهما كان مكان ميلادها ، الجزائر أو الشرق الأدنى ، فقد كان للجامعة الإسلامية وقع هام على الحركة الوطنية الجزائرية . والحق أن مجال الدعاية والإثارة كان قد أعد قبل تطور هذه الحركة في الجزائر . فثورتا 1871 و 1881 ، والحركة

التي تلت احتلال تونس ، وأشعار محمد بن اسماعيل حول تأثير حرب القرم ، وأشعار محمد السعيد عن الجامعة الإسلامية سنة 1897[64] ، كانت كلها ، مع غيرها ، علامات عدم استقرار وطني وإسلامي . ورغم غلق أبوابها واضطراب حياتها الوطنية ، فإن الجزائر كانت حقلاً لدعاية الجامعة الإسلامية منذ أواخر الثمانينات من القرن الماضي .

نشرت الصحافة الأوروبية تقريراً سنة 1883 مفاده أن مرابطين ، ومبعوثين من مهدي السودان[65] ، كانوا في طريقهم إلى الجزائر ، وقد حذر التقرير فرنسا ، التي كانت تسحب بعض قواتها من الهند الصينية بأنها قد تواجه « ثورة خطيرة » في الجزائر[66] . ورغم أن هذا التقرير لم يتأكد ، فإنه يوضح أن بعض الحوادث في الشرق ، حتى ولو كانت بعيدة ، كانت لها أصداء في الجزائر . ويبدو تعقيد الحوادث من أن بوعمامة قد أعلن الثورة في الجزائر عندما احتلت فرنسا تونس . واحتلال تونس قد خلق حالة غليان في الجزائر جعل الفرنسيين يتخذون « اجراءات وقائية » خشية وقوع اضطرابات[67] .

وقد كان تولي عبد الحميد الثاني شؤون الدولة العثمانية ، مصدر تدعيم لنشاطات الجامعة الإسلامية في الجزائر . ونتيجة لذلك خلقت جمعيات سرية لنشر فكرة الجامعة الإسلامية . ويقال أن عدداً من الجزائريين انضموا إلى الجمعيات الدينية التي خلقها دعاة السلطان عبد الحميد في المدينة . كما شجع دعاة الجامعة الإسلامية حركة هجرة جزائرية إلى الشرق الأدنى أواخر التسعينات من القرن الماضي[68] . وقد أتيح للمهاجرين الجزائريين ، الذين استقبلوا « بأذرع مفتوحة » ،

---

(64) أشرنا من قبل إلى أشعار محمد بن إسماعيل أما بخصوص أشعار السعيد . فانظر . ج . ديبارمي « العاطفة التركية في الجزائر » في « س.ج.أ. » م 22 (1917) : ص 20 . وقد استنكر السعيد في أشعاره الحكم الفرنسي ونادى بالتدخل العثماني .

(65) ثار المهدي على البريطانيين سنة 1883 في السودان . ويذكر القارىء بأن الجزائر كانت ، عندئذ ، تعيش أحداث ثورة 1881 .

(66) « التايمز » (لندن) ، (29 نوفمبر ، 1883) .

(67) نوشي ، ص 19 ـ 20 .

(68) أنظر . ج. ديبارمي « العاطفة التركية في الجزائر » : في « س.ج.أ. » ، م 22 (1917) ، ص 18 .

أن ينضموا إلى لجان الجامعة الإسلامية التي أنشئت لتمثيل المسلمين الذين كانوا تحت الحكم الأوروبي[69] . ويذكر ديبارمي الفرنسي بأنه قد وجد في منطقة متيجة الجزائرية مجموعة من الشعر المكتوب حوالي سنة 1900 ، وهو عبارة عن « منشورات » موصي بها من الخارج تدعو إلى الجامعة الإسلامية[70].

وقد ذكرنا من قبل أن بعض السلطات الفرنسية قد لامت الجامعة الإسلامية على ثورتي عين التركي سنة 1901 وعين بسام سنة 1906 . كما أشرنا إلى منشور جونار ، الذي أمر رؤساء العمالات الثلاث بغلق المقاهي ، ونفي ، أو طرد ، أو سجن كل الجزائريين المشتبه فيهم . وكانت مناسبة حركة جونار هي الخوف من خطر الجامعة الإسلامية . وفي نفس الوقت نشر « صحفي معتمد » ، وهو أندري ميفيل ، مقالاً في جريدة « ايكو دي باري » عن تأثير الجامعة الإسلامية في الجزائر وفي المغرب الأقصى وقد زعم الكاتب بأنه استقى معلوماته عن هذا الموضوع من « مصدر مطلع » . ويصر ميفيل ، بثقة على أنه كان في الجزائر « غليان موجه من القسطنطينية والقاهرة عبر برلين »[71] .

وبعد شهر واحد فقط اعتقلت السلطات الفرنسية في الجزائر وفداً قبرصياً يضم ثمانية عشر رجلاً وامرأة بتهمة نشر دعاية الجامعة الإسلامية ضد فرنسا ، وبناء على مراسل جريدة « (لو) ماتان » فإن الوفد المذكور كان يتنقل عبر أقصى الجنوب الجزائري بدعوى شراء الإبل . ويضيف هذا المراسل بأن الجزائريين قد استقبلوا المسلمين القبرصيين « بتقديس ».

فإذا صحت هذه القصة ، فإن هؤلاء الدعاة الشرقيين كانوا يبشرون في كل مكان بفكرة اقتراب حكم سلطان اسطنبول . وقد استجوبت السلطات الفرنسية أعضاء الوفد ، واحتفظت بمحضر الاستجواب غامضاً ! ثم أجبرتهم على مغادرة

---

(69) « أفريقيا » في « ك.د.ك. » ، م 30 (1910)، ص 511 وبعدها . نقلاً عن « جورنال دي ديبا » (أكتوبر ، 1910) .

(70) «العاطفة التركية في الجزائر» في « س.ج.ا. » م 22 (1917) ص 33 . ونص هذه « المنشورات » الشعرية في ص 34 ـ 37 .

(71) أنظر « التايمز » (لندن)، (12 أكتوبر ، 1906) ، ص 4 . وقد قالت الصحيفة بأن ما يعنيه ميفيل « بالمصادر المطلعة » هو جونار نفسه ، الحاكم العام للجزائر عندئذ .

الجزائر[72].

وقد كان عبد الحميد الثاني محبوباً في الجزائر ومنتظراً من الجماهير « كرجل الساعة » . ولا شك أن عواطف الجامعة الإسلامية التي وجدت في الجزائر منذ الاحتلال وسياسة الفرنسيين التعسفية ، وخصوصاً منذ سنة 1901 ، والدعاية من الشرق الأدنى ، كل ذلك زاد من سمعة عبد الحميد في الجزائر كمنقذ منتظر ، وفي سنة 1906 ، التي هي سنة هامة في تاريخ الجزائر ، زارت باخرة عثمانية ميناء عاصمة الجزائر ، وقد صعد بعض الجزائريين على سطحها وطلبوا سرعة قدوم السلطان لإنقاذ الجزائر . وبناء على بعض السلطات ، فإن ممثلي كل الطبقات الجزائرية قد زاروا تلك الباخرة[73] . ويقال أن سقوط عبد الحميد سنة 1908 قد أدهش الجزائريين.

وثورة تركيا الفتاة وجدت مشاعر مختلطة في الجزائر . ورغم عدم وجود البراهين ، فإن الطبقة الجزائرية المحافظة لم تقبل سقوط عبد الحميد الثاني إلّا بتردد ، ولكن النخبة قد اعتبرت سقوطه جزءاً من حركة « التقدم » التي كانت هي نفسها تنادي بها . ويقول أحد هذه النخبة الجزائرية سنة 1909 بأن المرء كان يسمع في كل مكان الهمس بكلمة « حقوق » ، التي كان لها وقع خاص على آذان الجماهير الجزائرية ، ويصر نفس الكاتب على أن فكرة « التقدم كانت مستعملة في الجزائر منذ عدة سنوات »[74] . ولكن إذا تذكرنا هذه السنة (1909) ، فإننا نجد أن الثورة التركية سنة 1908 قد شجعت فكرة التقدم في الجزائر ، وهي الفكرة التي كانت إحدى شعارات هذه الثورة . بل إن بعض الشبان الجزائريين (النخبة) قد بدأوا في استعمال الطربوش ، الذي كان عزيزاً على الشبان الأتراك الثائرين[75].

وقد تمتع بعض زعماء الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى بسمعة عظيمة في

---

(72) نصت على ذلك جريدة « التايمز » (لندن) ، (17 نوفمبر في 1906) ، ص 7 من جريدة (لو) « ماتان » .

(73) ج . ديبارمي « العاطفة التركية في الجزائر » في « س.ج.ا. » م 22 (1917) ، ص 60 ـ 61 .

(74) ابن علي فخار « تمثيل المسلمين الجزائريين » في « ر.م.م. » م 7 (جانفي ـ أبريل ، 1909) ، ص 3 .

(75) روبير ميغو « عن الوطنية الجزائرية » في « م.ف. » (15 أكتوبر ، 1933) ، ص 439 .

الجزائر . وقع ذلك حقاً بخصوص الأفغاني ومحمد عبده . بل أن الأخير قد زار الجزائر سنة 1903 ، حوالي سنتين قبل وفاته . وتكلم عبده ، الذي كان أحد أتباع الأفغاني ومفتياً مشهوراً لمصر ومصلحاً دينياً ، أمام بعض الجزائريين عن الإصلاح الإسلامي ، والنهضة في الشرق الأدنى ، وتضامن المسلمين ، وقد تركت اتصالاته مع بعض الجزائريين ، ولا سيما العناصر المحافظة ، انطباعاً استمر وقتاً طويلاً[76]. ويقال ان عبده كان قد اصطدم وحزن من مظاهر التدهور الواضحة بين مسلمي الجزائر ، ولا سيما من مظهر اختفاء اللغة العربية .

ولكن إذا كان عبده شخصياً لم يؤثر كثيراً على الجزائريين ، فإن أفكاره عن الإصلاح الديني وعن الجامعة الإسلامية كانت معروفة في كامل الجزائر . فجريدة « المغرب » (1903) كانت تنشر آراء عبده عن الشؤون الإسلامية[77] . كما نشرت جريدة « ذو الفقار » ، التي كانت تظهر في الجزائر العاصمة (1913 ـ 1914) . أفكاره أيضاً . بل أن محررها قد أعتبر عبده « المدير الديني للجريدة »[78] .

وهناك جريدة أخرى كانت تنشر أفكار عبده عن الجامعة الإسلامية ، وهي « الإحياء » التي ظهرت بالعربية خلال سنة 1906 ـ 1907 .

ورغم الرقابة الرسمية فإن الصحافة والكتب العربية الشرقية كانت تجد طريقها إلى الجزائر[79] . ومن عادة هذه الصحافة أن تحمل دعاية لصالح الجامعة الإسلامية

---

(76) لم ير جوليان تأثيراً كبيراً على الجزائر من زيارة عبده لأن هذا تكلم أمام جمهور صغير ولأن الجزائر « ستبقى لأمد طويل أكثر البلاد الإسلامية إنغلاقاً في وجه الأفكار الجديدة » . أنظر « أفريقيا الشمالية الزاحفة » ، ص 103 . أما علي مراد فإنه ، بعد أن أشار إلى زيارة عبده سنة 1903 ، قال بأن هذه السنة تعتبر « حدثاً هاماً » في تاريخ الجزائر . أنظر « أ . ب . ل . أ . » م 27 (1964) ، ص 15 . وكلا المؤلفين لم يبرهن على قوله بأدلة قاطعة .

(77) علي مراد في « أ . ب . ل . ا . » م 27 (1964) ، ص 15 .

(78) نفس المصدر ، ص 16 .

(79) بيستعمل نوشي عبارة « رقابة السلطات الفرنسية » بخصوص الأخبار المتعلقة بالثورة التركية وتطورات أحوال الشرق الأدنى عموماً . أنظر ص 21 . أما أجرون فيقول بأن الصحافة الشرقية كانت ممنوعة رسمياً . أنظر مقالة « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر . هـ . م . ك . » م 6 (أبريل ـ جوان ، 1959) ، ص 128 .

وضد الحضور الفرنسي . وفي أحوال كثيرة كان المهاجرون الجزائريون ، كما سنرى ، محررين أو مساهمين في هذه الصحافة . وكان الهجوم على فرنسا في هذه الصحافة مركزاً على معاملتها للإسلام والعربية في الجزائر . كما كانت هذه الصحافة تدعو الجزائريين إلى رفض التغريب ، وإلى الإحتفاظ بأحوالهم الشخصية كمسلمين في وجه إمكانية التجنيس[80] .

والكتب أيضاً كانت ترسل أو تهرب من الشرق الأدنى إلى الجزائر وأفريقيا الشمالية . وقد كانت تونس من أهم القناطر التي عبرت عليها دعاية الجامعة الإسلامية إلى الجزائر . ونظراً لحالة الحماية فيها ، ولأبوابها المفتوحة على الشرق الأدنى ، ولسخطها السياسي الدائم ضد فرنسا ، فإن تونس لم تكن فقط فردوساً للمنفيين الجزائريين ، بل كانت أيضاً مبعث الدعاية المضادة لفرنسا ، التي تسربت إلى الجزائر في شكل جرائد ، وكتب ، ومنشورات . ويؤكد السيد طيبال بأن جامعة الأزهر قد ساهمت ، سنة 1913 ، بأحد عشر مليون كتاب إلى أفريقيا الشمالية[81] . وليس لدينا الآن البراهين التي تؤكد أن هذه الكتب المبالغ في حجمها كانت قد وصلت حقاً ، ولكن يبدو من المؤكد أن جزءاً منها ، على الأقل ، كان قد أعطي إلى جامع الزيتونة ، الذي كان يعلم نفس العلوم التي كانت شائعة في الأزهر عندئذ . وقد كان هناك عدد من الطلبة الجزائريين في الزيتونة ، الذين قرأوا ، بلا شك، بعض هذه الكتب وأخذوا بعضهامعهم خلال العطلة الصيفية أو بعد انتهاء دراستهم .

ومن بين الأحداث الهامة التي هزت المشاعر وأثارت عواطف عظيمة في الجزائر هي الحرب العثمانية الإيطالية في ليبيا . وقد أعطت هذه الحرب للجزائريين ، مع ما صاحبها من حماس خاص لفكرة الجامعة الإسلامية ، فرصة التعبير عن أنفسهم علانية . ذلك أن فرنسا ، رغم خوفها من انفجار التعصب[82] ، قد أرخت قبضتها قليلاً عن الجزائريين ، ولعل ذلك كان لأن ايطاليا عندئذ لم تكن

---

(80) انظر أجرون « سياسة جزائرية ليبرالية » في .«ر.هـ.م.ك.» م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 128 . أنظر أيضاً طيبال « أفريقيا وسورية » في «أ.ف.س.» (سبتمبر 1921) ص 203 .

(81) «أ.ف.س.» (سبتمبر ، 1921) ، ص 203 .

(82) « التايمز » (لندن) ، (14 نوفمبر ، 1911) ، ص 5 .

حليفتها . فقد رخصت للجزائريين بتنظيم لجان الهلال الأحمر وجمع التبرعات للجرحى الليبيين . وشارك كل من زعماء الدين والنخبة الجزائرية بنشاط في التبرع لتأييد الليبيين والعثمانيين[83] . أما الصحافة الجزائرية الوطنية فقد قادت حملة واسعة ضد ايطاليا ولصالح الليبيين ، والعثمانيين.

وقد اعتبر بعض الفرنسيين عندئذ أن من « الطبيعي والمنطقي » أن يؤيد الجزائريون الليبيين ، كما كان طبيعياً ومنطقياً أن يؤيد الايطاليون المقيمون في الجزائر بلادهم . ويذكر أحد الملاحظين أن الجزائريين اعتادوا أن يتجمعوا ، ملتفين في برانيسهم وعمائمهم، حول مراكز بيع الصحف لينظروا في الصور التي تمثل انتصار الأتراك على الإيطاليين . ويقول أن الجزائريين كانوا يعلقون « بشغف » على الأحداث ثم يعودون إلى منازلهم مفعمين بالرضى . وقد اشتبك الجزائريون والإيطاليون عدة مرات ، وخصوصاً في الجزائر العاصمة ، وبجاية ، وعنابة . كما علقت منشورات حائطية تدعو الجزائريين إلى مقاطعة الإيطاليين وإلى التظاهر أمام القنصلية الإيطالية في الجزائر ، وإلى التبرع إلى صندوق المساعدات التي كانت تمنح إلى الحكومة العثمانية[84].

أما رد الفعل الفرنسي على دعاية الجامعة الإسلامية في الجزائر ، فقد اتخذ عدة أشكال . وقد رأينا أن الفرنسيين ، سنة 1883 ، كانوا يخشون « ثورة خطيرة » . وفي عام 1906 حاول منشور جونار أن يضع حداً لمثل هذه النشاطات بمنح الصلاحيات الكاملة للرسميين الفرنسيين باتخاذ اجراءات مناسبة ضد تلك الدعاية . وفي نفس السنة اعتقلت السلطات الفرنسية وطردت جماعة كانت تدعو إلى الجامعة الإسلامية في الجزائر . وقد أصدرت نفس السلطات ، سنة 1908 ، قراراً منعت فيه الجزائريين من الحج إلى مكة . وفي نفس السنة ، حاولت تلك السلطات أن تمنع وصول أخبار « الثورة التركية » . وأثناء الحرب الليبية رخصت السلطات الفرنسية للجزائريين أن يعبروا عن مشاعرهم نحو الجامعة الإسلامية ولكن بشكل محدود.

---

(83) أنظر ابن حبليس ، ص 124 وما بعدها .

(84) أنظر فيكتور ديمونتي « الجزائر » ، في (أ.ف.) (جانفي ، 1912) ، ص 39 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 23 .

ولكن على المستوى الشعبي ، طالب الفرنسيون بوجوب وضع حد لنشاط الجامعة الإسلامية «**بتناقضات كافية**»[85] (تسطير أصلي)» وقد لام بعض الفرنسيين بلادهم على السماح للصحافة العربية الشرقية بالتسرب إلى الجزائر . وبعضهم حذر الحكومة الفرنسية من أن دعاية الجامعة الإسلامية كانت تأتي إلى الجزائر عبر برلين ، وأنها قد تصبح ذات يوم خطراً على الوجود الفرنسي في أفريقيا الشمالية[86] .

وخلال نفس العهد اقترح أحد الكتاب الفرنسيين تشجيع « البربرية » لمنع الجزائر من أن تتأثر بمبادىء الجامعة الإسلامية[87] . ويقول كاتب فرنسي آخر أن « **الأمن في الجزائر في حالة ممتازة** » (تسطير أصلي) بفضل الجيش الفرنسي[88] . وقد رأينا أن معظم الثورات الجزائرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين قد عزاها الفرنسيون إلى دعاية الجامعة الإسلامية وإلى التعصب.

غير أن تأثير الجامعة الإسلامية على الحركة الوطنية الجزائرية يجب أن لا يبالغ فيه . فالجزائريون كما قال كاتب من النخبة ، كانوا دائماً واعين لعلاقتهم بالعالمين الإسلامي والعربي ، وكانوا دائماً غيورين على انتمائهم الإسلامي . وجزائر سنة 1830 ، بناء على هذا الكاتب ، كانت لا تفكر في حدودها الطبيعية ولكن في الحدود التي تفصل بين الإسلام والمسيحية فقط . فهو يقول أن « الجزائر ، ككل ، كانت جزءاً من كل » ، لأن الإسلام لا يعترف بالحدود الجغرافية[89] . ولكنا نذكر أن الجزائر قد بادرت إلى ريادة الجامعة الإسلامية بزعامة حمدان خوجة ، والأمير عبد القادر ، وابن اسماعيل ، والشيخ الحداد ، والونيسي ، وابن الموهوب . وعندما وصلت النسخة الشرقية من الجامعة الإسلامية إلى الجزائر في أوائل القرن العشرين ، كانت هذه (الجزائر) قد طورت نسختها الخاصة ، التي بدأت في الحقيقة منذ الثلاثينات من القرن الماضي.

---

(85) أنظر طيبال «أ.ف.س.» (سبتمبر في 1921) ، ص 203 .

(86) أ . ميفيل كما أشارت إليه « التايمز » (لندن) ، (12 أكتوبر ، 1906) ، ص 4 .

(87) أنظر أجرون « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر.هـ.م.ك.» م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 128 .

(88) ف . ديمونتي « الجزائر » في « أ.ف. » (جانفي ، 1912) ، ص 39 .

(89) أنظر عباس ، ص 134 .

وقد أخذت مساهمة الجامعة الإسلامية في الحركة الوطنية الجزائرية أشكالاً مختلفة . أولاً ، ان الحركة الوطنية قد حصلت منها على عوض للصراع (مثلاً فرنسا مقابل الجامعة الإسلامية بدل فرنسا مقابل الوطنية) . ثانياً، إنها قدمت إليها أفكاراً وتصورات جديدة من خلال الكتب والصحافة . ثالثاً ، انها شجعت الجزائريين على الهجرة نحو الشرق الأدنى . رابعاً ، انها عرفت بالقضية الجزائرية من خلال مهاجمتها للحكم الفرنسي وتشجيع الجزائريين على رفض التجنيس . خامساً ، انها ضغطت على فرنسا لإدخال إصلاحات جديدة . وأخيراً أنها ساعدت على نقل المشكل الجزائري إلى مجال أوسع بدل خنقه خلف الستار الفرنسي .

وبناء على بعض الآراء المعتمدة ، فإن من بين النتائج المهمة لحركة الجامعة الإسلامية في الجزائر هي حركة الهجرة التي بدأت في العقد الأول من القرن الحالي . فإلى أي حد كان هذا الرأي صحيحاً ؟ .

5. الهجرة الجزائرية : اسبابها ودورها الوطني :

انه « الهلع الحقيقي ، انه يوشك ان يكون وباءً أخلاقياً[90] » وهكذا كتب فكتور ديمونتي ، الكاتب الفرنسي الذي صدمته « هجرة » الجزائريين الجماعية سنة 1911 . وقد حدث هذا الوباء الأخلاقي أثناء صراع عنيف ضد التجنيد الاجباري ، الذي عارضه الجزائريون بشدة .

ولكن المؤرخ الذي يتتبع التاريخ الجزائري منذ سنة 1830 سوف لا تصدمه هذه الحوادث ، كما صدمت ديمونتي . والحق أن موجات هجرة متواصلة ، أو « هلع » أو « وباء أخلاقي » قد حدثت منذ سنة 1830 ، كما سبقت الاشارة عند الحديث عن هذا الموضوع خلال القرن الماضي .

والسبب الرئيسي لهذا الهلع هو ملامح الحكم الفرنسي : فهو لم يكن حكماً تعاونياً ولا متقبلاً للوضع الجزائري ، بل كان قاسياً واضطهادياً .

وهناك أسباب مختلفة للهجرة الجزائرية . وأولها انعدام الحرية . فما دام

---

(90) ف . ديمونتي « الجزائر » في « أ.ف. » (جانفي ، 1912) ، ص 38 .

القانون كان يعتبر الجزائريين رعايا ، فان الفرنسيين لم يعترفوا لهم بحقهم في التمتع بكامل الحريات المدنية والسياسية كمواطنين . وبالاضافة الى ذلك ، فان الملامح الاضطهادية للحكم الفرنسي (قانون الأهالي كان أسوأها) مع فقدان وسائل التعبير ، قد جعلت الجزائريين يكتشفون بأنه لا يمكنهم البقاء في وطنهم بأية حال . ان هذه الحالة قد لاحظها الفرنسيون المنصفون ، الذين عبروا عن اهتمامهم بذلك الى بلادهم[91] .

وقد كانت الأحوال الاقتصادية سبباً آخر مهماً للهجرة . ذلك أن الجزائريين كانوا يشكون ، منذ سنوات طويلة ، الى السلطات الفرنسية من الضرائب الثقيلة . فقد كانوا يدفعون لا الضرائب القانونية فقط بل الضرائب الدينية ، (مثل الزكاة والعشور) وضريبة السخرة ، كالحراسة الليلية بدون أجر . وبالاضافة الى ذلك فان الجزائريين قد فقدوا أراضيهم بسبب الاستعمار الاستيطاني ، وبقوا ، في أغلب الأحيان ، عمالاً فلاحين ، كما أن التوزيع غير المتكافىء للميزانية ، التي كان الجزائريون يدفعون لها الكثير ، كان مصدراً للسخط المتواصل ، وقد أشرنا من قبل الى أن المساواة في توزيع فوائد الميزانية كان من بين المطالب الرئيسية التي طالب بها الجزائريون خلال تلك الفترة[92] .

ومن بين أسباب الهجرة الرئيسية مراقبة المؤسسات الدينية ، ومصادرة الأوقاف ، وادارة الشؤون الدينية من طرف فرنسا . وقد أشرنا من قبل إلى أنه ، منذ سنة 1830هـ صادر الفرنسيون الأملاك الدينية التي كانت تمول المدارس والفقراء . ولذلك أثار هذا لا معارضة الجزائريين فحسب ، ولكن معارضة الفرنسيين أيضاً ، مثل دي توكفيل . ولكن فرنسا لم تكتف بمصادرة الأوقاف فقط ، بل بسطت نفوذها التام على جميع الشؤون الاسلامية . فالعدل ، وتعيين القضاة المسلمين ، وتسمية

---

(91) أنظر ميللي « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 735 . أنظر أيضاً مارشاند « ك.د.ك. » ، م 33 (1912) ، ص 88 .

(92) جوليان في « أفريقية الشمالية الزاحفة » ، ص 104 ـ 105 . وفي سنة 1913 أنذر النائب الفرنسي ، أبيل فيري ، المجلس الوطني بأن الجزائريين ، نظراً لأنهم قد فقدوا أرضهم ، قد يصبحون بروليتاريا ، تقود ، في ضوء الدين والقومية ، إلى انفجار لا نظير له . أنظر ص 106 ـ 107 . وبخصوص السبب الاقتصادي أنظر أيضاً مارشاند « ك.د.ك. » ، م 33 (1912) ، ص 88 .

الأئمة ، واعلان المواسم الدينية ، كلها كانت تحت نفوذ وادارة الفرنسيين .

ومن المعروف أن الادارة الفرنسية قد استمرت في التسلط على كل الأديان في الجزائر الى سنة 1907 . ولكنها ، في هذا التاريخ ، أعلنت فصل الدين عن الدولة . وبينما سحبت سلطتها عن المسيحية واليهودية ، احتفظت بها بشكل فعال بخصوص الاسلام ، بدعوى أنه لا انفصال بين الروحي والدنيوي في الاسلام . فالتمييز بين الأديان ، الذي كان الى سنة 1907 بين الأجناس فقط ، قد أثار السخط والغضب بين الجزائريين . ذلك أنهم كانوا في الماضي يشعرون بعدم الأمن على أراضيهم وحريتهم ، ولكنهم بعد سنة 1907 أصبحوا يشعرون بعدم الأمن حتى على دينهم . ومع الحديث الجهري في المجلس الوطني الفرنسي عن التجنيد الاجباري والتجنيس ، رأى بعض الجزائريين أنه لا مستقبل لهم في بلادهم فذهبوا ينشدون ملجأ لهم في الخارج[93] .

ومن جهة أخرى كانت الجامعة الاسلامية سبباً آخر هاماً في الهجرة الجزائرية . فالرسائل التي كان يبعث بها المهاجرون الجزائريون في القرن التاسع عشر الى ذويهم في الجزائر ، والتي كانت تصف الحرية والاخوة في الشرق الأدنى ، قد جعلت بعض الجزائريين يصدقون ما يقرأون . وقد شجعت سياسة الاضطهاد الفرنسية المتبعة منذ الاحتلال بعض الجزائريين على أن يتعطشوا ويحلموا بحياة أفضل في الخارج ، لذلك جمعوا أمرهم وتوجهوا الى الشرق الأدنى . وقد أضيف الى ذلك دعاية عبد الحميد الثاني منذ الثمانينات من القرن الماضي ، التي أشرنا اليها من قبل . كما نجد أن جرائد ، مثل « المؤيد » و « المهاجر » ، كانت تستنكر ، باسم الجامعة الاسلامية المتحمسة ، الحكم الفرنسي الذي قاد الجزائريين الى العبودية ، وأخضع الشؤون

---

(93) ان قضية الدين كسبب للهجرة كانت قد أسيء فهمها من بعض الكتاب . فقد ظنوا أن فصل الدين عن الدولة في حد ذاته كان سبب الهجرة . أنظر فخار « ر.م.م. »، 7 (ماي - أبريل 1909) ، ص 2 ، وجوليان « أفريقية الشمالية الزاحفة » ، ص 104 ، نوشي ، ص 21 . والحق أن السبب لم يكن الفصل في حد ذاته ، بل كان سبباً آخر ذا وجهين: الإشراف الفرنسي المباشر على الشؤون الدينية (بما في ذلك الأوقاف) والتمييز بين الأديان الذي زاده قانون الفصل وضوحاً . وسوف نرى بأنه منذ العشرينات من هذا القرن كان فصل الدين (الإسلام) عن الدولة « فرنسا » أحد المطالب الرئيسية للحركة الوطنية .

الاسلامية لسلطته ، وقضى على المؤسسات العربية . وقد دعت هذه الجرائد الجزائريين الى الهجرة الى أرض الحريات والوعود(94) .

وقد كان التجنيد الاجباري من بين الأسباب التي غالباً ما يشار اليها في الحديث عن الهجرة الجزائرية ، ذلك أن التجنيد الاجباري قد جعل الجزائر كلها تعيش في اضطراب . وكل الطبقات الجزائرية عارضت التجنيد الاجباري ، ولكن الأعيان التقليديين كانوا أكثر الناس معارضة . وعندما أصبح واضحاً أن قانون التجنيد الإجباري كان سيصدر لا محالة ، باع هؤلاء أملاكهم ، وأخذوا نساءهم وأطفالهم ، ثم غادروا وطنهم والدموع في عيونهم والذكريات في رؤوسهم . ونظراً لتأثيرهم على بقية السكان ، فان هؤلاء الأعيان التقليديين قد أغروا عدداً كبيراً من الجزائريين أن يفعلوا نفس الشيء . والكاتب الفرنسي ، مارشاند، قد أشار الى أن النخبة الجزائرية كانت أيضاً سبباً في الهجرة نظراً « للوعي » الذي نشرته بين الجزائريين ، في كل من المدن والأرياف(95) .

وهناك أسباب أخرى غالباً ما أشار اليها الكتاب . من ذلك عرقلة المجالس المحلية للتعليم ، والتمثيل النيابي غير الكافي ، وثقل الضرائب والقوانين الاستثنائية ، ومنع السفر الا برخصة ، وفقدان الحقوق السياسية .

ويقول الكاتب الفرنسي ، و . مارسي : ان الحياة الاستعمارية الجديدة كانت من بين الأسباب التي قادت الى الهجرة الجزائرية . فقد كان ذلك يعني أنه لم يعد في استطاعة الجزائريين أن يتمتعوا بحياتهم القديمة كما كانوا سابقاً(96) . ويصف الكاتب نفسه « هجرة » تلمسان الجماعية ، سنة 1911 ، بهذه العبارات : « رغم الصعوبات المختلفة ، ورغم المخاطر ، لم يترددوا (المهاجرون الجزائريون) رجالاً ، ونساءً ، وأطفالاً في مغادرة أرض عاشوا عليها طويلاً ، ودفنوا فيها أجدادهم ، ويظهر فيها كل

---

(94) أنظر مارشاند «ك.د.ك.» ، م 33 (1912 (، ص 86ـ 88 ، جوليان « أفريقة الشمالية الزاحفة » ، ص 105 ـ 106 ، طيبال « أ.ف.س. » (سبتمبر ، 1921) ، ص 202 .

(95) مارشاند «ك.د.ك.» ، م 33 (1912) ، ص 88 . روبير غوتي « من هجرة تلمسان الجماعية إلى قانون جونار » ، 1912 ـ 1919 ، في « م.د. » (جانفي ، 1964) ولا رقم للصفحات .

(96) جوليان « أفريقة الشمالية الزاحفة » ، ص 105 ـ 106 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

شيء يلح عليهم بالبقاء[97] » .

والهجرة الجماعية لم تكن مقصورة على مدينة أو أقليم ما ، ولكن كانت عامة . فقد غادرت بعض الأسر الكبيرة مدينة مليانة سنة 1899 وسطيف ، سنة 1910 متجهة الى سورية . وفي سنة 1911 غادر مئات من الجزائريين قسنطينة وسطيف ، متجهين نحو سورية أيضاً . وفي نفس السنة امتدت حركة الهجرة الى المدن التالية : تورين (صبرة حالياً) ، ندرومة ، الرمشي ، وسبدو . وفي أغلب الأحيان استقر هؤلاء الجزائريون في سورية .

ولكن الهجرة الجماعية الحقيقية المشهورة كانت من مدينة تلمسان . ففي سنة 1911 غادرت أكثر من ألف ومائتي عائلة هذه المدينة القديمة واتجهت نحو سورية[98] . وقد كان ديمونتي يشير الى هذه الحركة عندما كتب جملته ، المنقولة آنفاً ، عن الهجرة الجماعية بأنها كانت « هلعاً حقيقياً ، بل تكاد تكون وباء أخلاقياً » . كما كتب عنها و . مارسي الوصف المنقول سابقاً . وقد جرى هذا الحدث المرعب بينما كان الفرنسيون ما يزالون يناقشون قانون التجنيد الاجباري . ولما كان هؤلاء الجزائريون غير راضين ، وبائسين ، فقد باعوا ممتلكاتهم الثمينة وذهبوا في جماعات من العشرين الى مائة نحو ميناء مليلة في شمال المغرب ، ومنه أخذوا الباخرة الى الشرق الأدنى .

وبعد صدمة السلطات الفرنسية من هذا الحادث ، أمرت بوقف الهجرة وغلق الحدود الجزائرية . ولكن الهجرة استمرت ، رغم أنها لم تكن جماعية كما كانت من قبل . وبعد غلق الحدود ، عين الحاكم العام لجنة لدراسة الوضع وتقديم تقرير عنه . غير أن اللجنة ، التي كانت تتكون من أربعة أشخاص ، لم تضم أي جزائري[99] .

وبحلول سنة 1911 كان في سورية وحدها 20,000 مهاجر جزائري[100] .

---

(97) نص على ذلك نوشي ، ص 22 من « أ.ف. » أما مارسي فقد كان أستاذاً في مدرسة تلمسان .

(98) مارشاند « ك.د.ك. » ، 23 (1912) ، ص 86 . قد يلاحظ القارىء بأنه بينما كان الجزائريون يذهبون إلى الشرق الأدنى ، كان السوريون يذهبون إلى أمريكا وغيرها من البلاد .

(99) أنظر ف . ديمونتي « الجزائر » في « أ.ف. » (جانفي ، 1912) ، ص 38 ـ 39 . ولم تتخذ الإدارة الفرنسية هذه الخطوة إلا بعد أن تلقت مطالب بلدتي تلمسان ووهران تدعو إلى معالجة الحالة والتحقيق فيها .

(100) نفس المصدر ، ص 39 .

وتشير الاحصاءات الى أن حوالي نفس العدد كان في المغرب الأقصى وتونس سنة 1907[101]. وليس هناك وسيلة في الوقت الحاضر لاعطاء تقدير صحيح عن عدد المهاجرين الجزائريين في غير ذلك من بلاد الشرق الأدنى . ولكن الاحصاءات التالية ستساعد على توضيح هذه النقطة .

فاذا أخذنا في الاعتبار أن حركة الهجرة قد توقفت عند حرب 1914 ـ 1918 ، فاننا نستطيع أن نصل الى عدد تقريبي . فالكاتب طيبال ، الذي كتب سنة 1921 ، قدر بأن عدد مهاجري أفريقيا الشمالية في مصر يبلغ بين 20,0000 و 30,000 نسمة ، وفي شبه الجزيرة العربية بين 10,000 و 15,000 ، وفي فلسطين بين 5,000 ، و 6,000 ، وحوالي نفس العدد في سيليسيا، وحوالي نفس العدد في أناضوليا[102] .

ولكن طيبال لم يشر الى اسطنبول . غير أن الكاتب ر . فادالا ، الذي كان قنصلاً فرنسياً في الشرق الأدنى خلال عشرين سنة ، قد لاحظ بأنه كان في اسطنبول جماعة كبيرة من الجزائريين ، رغم أنه لم يعط أي عدد معين[103] . وقد لاحظ أن أهل أفريقيا الشمالية كانوا أيضاً في ايران ، والهند ، بالاضافة الى الولايات العربية من الدولة العثمانية . وما دام الكاتبان ، طيبال ، وفادالا ، يتحدثان عن أهل المغرب عموماً ، فاننا نقدر أن نصف كل عدد كان من الجزائريين ، نظراً للظروف الاستثنائية التي أشرنا اليها سابقاً .

وقد تمتع الجزائريون في الشرق الأدنى بحرية وبسمعة عظيمة ، وتولوا المناصب العالية . ولعلهم حصلوا على هذا الامتياز لشهرتهم كأنصار للجامعة الاسلامية و (مجاهدين) حاربوا « الكفار » الفرنسيين ثم ابتعدوا منهم طالبين الملجأ في الشرق الأدنى كمثال للمسلمين الحقيقيين . وقد تمتع الجزائريون ببعض السمعة المعنوية بين مسيحي الشرق الأدنى ، ولا سيما في سورية ولبنان ، نظراً لموقف الأمير

---

(101) ا.ل.س. « المسلمون الجزائريون » ، في « ر.م.م. » ، م 2 (1907) ، س 507 ـ 508 .
لاحظ بأن هذه الاحصائيات كانت قد جمعت قبل الهجرة الكبيرة التي حدثت بين 1907 ـ 1914 .

(102) « أ.ف.س. » (سبتمبر ، 1921) ص 201 .

(103) ر. فادالا « المغاربة في الشرق » في « أ.ف. » (جانفي ، 1924) ، ص 74 .

عبد القادر سنة 1860 ، حين أنقذ الآلاف منهم من مذبحة أثناء أزمة طائفية . وكانت سورية وحدها تضم 3,342 جزائرياً يعيشون في المدن[104] . أما باقيهم فقد كان يعيش في القرى والمدن الصغيرة . ويقال ان عائلة الأمير عبد القادر وحدها كانت تجمع حولها (3000) جزائري[105] .

ويقر الكتاب الفرنسيون أنفسهم بأن الجزائريين في الشرق الأدنى كانوا يتمتعون بحرية أكثر وتسهيلات أفضل[106] . وليس يهمنا ما اذا كانت هذه الامتيازات قد منحت لهم لأسباب ترجع الى الجامعة الاسلامية . وقد أعطى الجزائريون في الشرق الأدنى الأراضي وتسهيلات أخرى للاقامة . كما أعفوا من الخدمة العسكرية ، وأدخلوا الى كل المؤسسات العثمانية ، بما في ذلك الجيش ، والادارة ، والمدارس[107]. وكان الجزائريون ممثلين في جميع المستويات بعدد من المهندسين، والأطباء ، والضباط ، والكتاب . وقد كان المترجم لدى البلاط العثماني لمدة طويلة ابن أخ للأمير عبد القادر . والجزائريون الذين أقاموا باسطنبول اعتادوا أن يتجمعوا حول جوامع با يزيد ، والفاتح ، وسليمان القانوني . ومعظمهم كانوا عائلات غنية تمارس التجارة والمعاملات المالية . كما اعتادوا أن يستقبلوا أهل أفريقيا الشمالية الذين يأتون إلى الشرق الأدنى كتجار ، وحجاج ، وسياح[108] .

ورغم حريتهم في الشرق الأدنى ، فقد بقي المهاجرون الجزائريون على اتصال مستمر بوطنهم . وباتصالهم المستمر مع ذويهم بالجزائر ، وبما يسقبلونه من أخبار مع الحجاج، والتجار، والسياح. وقد ساهم المهاجرون لا في نشر دعاية الجامعة الإسلامية فقط في الجزائر، بل في تعزيز الروح الوطنية أيضاً. ونظراً لعزلة الجزائر وراء الستار الفرنسي ، فان أخبار المهاجرين ، التي يمكننا أن ندعي بأنها قد اشتملت

---

(104) أ.ل.س. «ر.م.م.» م (1907) ، ص 508 .

(105) طيبال «أ.ف.س.» (سبتمبر، 1921) ، من 201 .

(106) مارشاند «ك.د.ك.» ، م 33 (1912) ، ص 86 ـ 87 . انظر أيضاً أ.ل.س. «ر.م.» م 2 (1907) ، ص 509 .

(107) أن كون بعضهم قد دخل الجيش لا يتناقض مع كونهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية .

(108) فادالا «أ.ف.» (جانفي ، 1924) ، ص 74 .

على معلومات حول التنافس الأوروبي في الشرق الأدنى ، وعلى التقارب العثماني - الألماني ، وعلى ثورة تركيا الفتاة ، كان يمكن أن يعتبرها بعضهم « تخريبية » ولكن هذه الأخبار كانت على أية حال مضيئة للطريق .

ويصر بعض الكتاب الفرنسيين على أن المهاجرين الجزائريين كانوا يضمون متمردين ، ومتعصبين ، وسياسيين . وبناء على ما يقوله فادالا ، القنصل الفرنسي السابق ، فان عدداً كبيراً من الجزائريين اعتاد أن يتجمع حول الشيخ محمد عبده وغيره من زعماء الجامعة الاسلامية(109) .

وقد اعتاد هؤلاء الجزائريون أن يشنوا ، خلال أحاديثهم واتصالاتهم ، « حملة مسمومة » ضد السياسة الفرنسية في الجزائر . فصحافتهم اعتادت أن تصف فرنسا بأنها «أسوأ دولة مضطهدة» للجزائريين. وكانت هجوماتهم مركزة على القوانين الاستثنائية التي يقولون بأنها قد أحالت الجزائريين الى عبيد وبؤساء ، وعلى نظام الاعتقال السري ، وعلى العراقيل التي وضعت في طريق العمل الحر بالدين ، وعلى وضع الأوقاف الاسلامية تحت سلطة الدولة الفرنسية ، وعلى منع الحج الى مكة ، وعلى رفض قبول الجزائريين في الخدمات المدنية ، وعلى تحطيم التقاليد العربية والاسلامية ، وعلى عدم المساواة في توزيع فوائد الضرائب ، وعلى فرض التجنيد الاجباري على الجزائريين(110) .

ولم يكتف الفرنسيون بوقف الهجرة وغلق الحدود بعد « هلع » سنة 1911 ، بل ردوا على دعاية الجامعة الاسلامية بدعايتهم الخاصة ، فالصحيفتان الصادرتان عن الادارة الفرنسية ، « الأخبار » و«المبشر » ، قد ضاعفتا من دعاياتهما واصفتين فرنسا بأنها أمة « اسلامية » ومعطيتين معلومات مثبطة عن حالة المهاجرين الجزائريين في

---

(109) نفس المصدر . أنظر أيضاً طيبال « أ . ف . س . » (سبتمبر ، 1921) ، ص 201 .

(110) طيبال « أ . ف . س . » (سبتمبر ، 1921) ، ص 202 . بناء على المؤلف ، فإنه أحد صحف المهاجرين كانت تدعى « المهاجر » ، وكان يديرها جزائري « معروف بتعصبه » . والمعروف أن جريدة (المهاجر) كانت تصدر في سورية بإشراف الأمير علي ومحمد شطة . أنظر سعيد الجزائري (مذكراتي) ، ط 2 ، 1968 ، ص 22 . أنظر أيضاً أجرون (الجزائريون المسلمون وفرنسا) . باريس ، 1968 ، ص 1084 حاشية ، 7 . وكذلك (الثقافة) عدد 5 ، نوفمبر 1971 ، ص 108 ـ 118 .

الشرق الأدنى . ونحن نعلم أن صحيفة باسم « فرنسا الاسلامية » قد بدأت بالصدور في الجزائر العاصمة سنة 1913 . وهكذا ، فان عهد الحرب النفسية ، الذي استمر خلال الحرب العالمية الأولى ، قد بدأ .

ولكن حملة الدعاية الفرنسية قد امتدت أيضاً الى الشرق الأدنى . فقد بذل الفرنسيون جهوداً كبيرة لجذب المهاجرين الجزائريين نحو جانب فرنسا . ولذلك وعدوهم بالمعونات ، والأوسمة ، والمعاملة الحسنة . بل ان بعض الجزائريين قد سئلوا أن يتخلوا عن جنسيتهم العثمانية . ونظراً لسمعة وتأثير عائلة الأمير عبد القادر على الجزائريين ، فقد كانت هدفاً للدعاية من جميع النواحي . ويقول أحد الكتاب أن جميع أفراد هذه الأسرة قد أصبحوا مواطنين عثمانيين باستثناء ثلاثة أمراء : أحمد ، عمر ، خالد[111] وقد كان من المقدر للأخير أن يصبح زعيماً وطنياً في العشرينات من هذا القرن .

وتمشياً مع مناوراتها الدبلوماسية ، استدعت فرنسا عام 1911 أحد أبناء الأمير عبد القادر ، وهو الأمير عمر ، إلى باريس لإستلام وسام « ليجون دونور » وقد أعدت لذلك كل وسائل الاحتفالات والإشهار . كما أن وسائل الاعلام الفرنسية والممثلين الفرنسيين في الجزائر والشرق الأدنى قد سخروا دعايتهم ليظهروا أن المهاجرين الجزائريين ، وخصوصاً عائلة الأمير عبد القادر ، لم يكونوا ضد فرنسا[112] . وعزت الصحافة الفرنسية خبراً للأمير عمر يشرح فيه للحكومة الفرنسية (الوضع المؤلم) الذي كان يعيش فيه المهاجرون الجزائريون في سوريا ، وضاغطاً فيه على « الأحوال الصعبة » التي كان هؤلاء الجزائريون يعيشونها[113] .

---

(111) أ.ل.س « ر.م.م. » ، م 2 (1907) ، ص 509 .

(112) إن هذه الخطوة الديبلوماسية قد جاءت عندما كان ابن آخر للأمير عبد القادر وهو الأمير علي ، يتقلد مركز نائب رئيس المجلس (البرلمان) العثماني . وكما سنرى ، فإن الأمير علي كان أيضاً على اتصال مع الألمان . أما فرنسا فإنها قد عينت من جهتها ، نتيجة لمؤتمر الجسيرة (1906) ابن الأمير عبد القادر ، وهو الأمير عبد المالك ، كرئيس للشرطة في طنجة .

(113) أنظر ف . ديمونتي « الجزائر » في « أ. ف. » (جانفي ، 1912) ص 39 . أنظر أيضاً « التايمز » (لندن) ، (9 نوفمبر 1911) ، ص 5 . ويجب أن نذكر بأن زيارة الأمير عمر إلى باريس كانت خلال خريف 1911 ، أي سنة « الهلع » و « الوباء » الأخلاقي في الجزائر .

وبين سنة 1900 1914 كان في فرنسا 10,000 مهاجر جزائري . وحوالي نصف هـذا العدد هـاجـر بين عـامي 1912 ـ 1914 . وبينمـا كـان المهـاجـرون الجزائريون في الشرق الأدنى يعيشون حياتهم في الشرق السهل والكسـول ، كان مـواطنوهم في فـرنسا يعيشـون حياتهم في أوروبـا الصعبـة ، والنشيـطة ، غيـر أن الجزائريين ، في كلتا الحالتين ، قد وجدوا جواً أكثر حرية ، وأكثر فرصـاً ، وأكثر تنويراً مما في وطنهم.

وقد بدأ الجزائريون في فرنسا يقارنون حياتهم التعسـة تحت قانـون الأهالي بالحرية التي وجدوها في مرسيليا ، وبا ـ دي ـ كـالي ، وباريس . ولم يشعـروا ، كعمال ، أنهم كانوا يختلفون كثيراً عن زملائهم عمال فرنسا . وقد أدى بهم الاسهام في الأحزاب السياسية ، والصحافة ، وحرية الاجتماع ، وتبادل الأفكار الى أن يضيفوا ذخيرة جديدة لم يسبق لهم أبداً أن مارسوها ، وبالاضافة الى الفرص المادية والمعنوية التي اقتنوها لوجودهم في فرنسا نفسها ، كانت هناك فوائد عقلية ووطنية . ذلك أنه اذا كـانت طريقـة الحياة في الشـرق الأدنى ليست غريبـة جداً عن طـريقة الحيـاة في الجزائر ، فانها في فرنسا كانت تختلف تماماً .

انه لا يجب على الجزائري في الشرق الأدنى أن يتعلم لغة جديدة ، أو يلبس ثياباً مختلفة ، أو يقتني خبرة خاصة ، أو يسلك سلوكاً مختلفاً ، ولكن ذلك واجب في فرنسا . لذلك بدأ كثير من الجزائريين يدرسون اللغة والثقافة الفرنسية ، ويحضرون المحاضرات العامة كمستمعين جزءا من الوقت ، ويقرأون الصحف ، ويتحدثون عن السياسة ، وهو شيء كان محرماً في بلادهم . فالجزائريون الذين كان عليهم أن لا يسافروا من بلدية الى أخرى داخل بلادهم الا بـرخصة وجـدوا أنفسهم في فرنسـا يسـافرون ، ويتنـاقشون ، ويجتمعـون ، ويؤلفـون جمعيـات التعـارف ، والتعـاون والاخوة .

والروح المشتركة التي كانت تجمعهم هي أن جميعهم كانوا غـرباء غـادروا والديهم ، ونساءهم وأطفالهم وراءهم . فعاطفة الحنين الوطني كانت جديدة بالنسبة الى هؤلاء الجزائريين الـطالبين للفرص في الخـارج . وقد كـانوا يتبـادلون النقـود والرسائل ، ولعل الصحف أيضاً ، مع عائلاتهم في الجزائر . وفي أحيان كثيرة كانت رسائلهم تحتوي على وصف حي، ربما مبالغ فيه، وأفكار مقارنة عن الحياة في فرنسا -

واختلافها عن الحياة في الجزائر .

وقد قادت الحرب العالمية الأولى الى هجرة جزائرية جديدة من العمال ، والجنود الى فرنسا . وكان لهذه الموجة الجديدة نتائج خطيرة على الحركة الوطنية الجزائرية . وسوف نرى حين ندرس العشرينات من هذا القرن أن رواد فترة 1900 ـ 1914 وجنود وعمال فترة 1914 ـ 1917 سيخلقون في باريس أول حزب سياسي جزائري ، وطني ، ثوري ، منظم(114) .

وهكذا هاجر آلاف الجزائريين ، لأسباب سياسية ، واقتصادية ، ودينية ، واجتماعية ، نحو المغرب الأقصى ، تونس ، الشرق الأدنى ، وفرنسا. لقد كانوا يطلبون الحرية ، والاحترام ، والفرص التي لم يجدوها في وطنهم . ونظراً لاتصالات هؤلاء المهاجرين المتواصلة مع عائلاتهم وأقاربهم وللفوائد المعنوية والمادية التي جنوها في الخارج ، فقد ساهموا مساهمة فعالة في تدعيم القضية الوطنية بمهاجمتهم للحكم الفرنسي ، وتنوير مواطنيهم ، والتعريف بالقضية الجزائرية .

ولكن مساهمة المهاجرين في الحركة الوطنية كانت ، مع ذلك ، متواضعة ، ولعل ضعفها الرئيسي يرجع الى أنها كانت مساهمة غير مباشرة وغير حاسمة . غير أنه يجب أن نذكر هنا أن المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى قد ساهموا بعمق في حركة الجامعة الاسلامية والقومية العربية من خلال صحائفهم ، وقيادتهم ، وسمعتهم كمثال للمجاهدين ، أما المهاجرون الجزائريون في فرنسا فلم يلعبوا دوراً وطنياً هاماً الا بعد الحرب العالمية الأولى .

وهكذا ، فإن الغليان الكبير ، الذي بدأ حوالي 1890 ، كان قد بلغ أوجه سنة 1914 . وبالإضافة إلى عدم الاستقرار الدائم ، وإلى حركة الجامعة الإسلامية ، وإلى حركة الهجرة ، كان هناك عامل جديد على مسرح الحوادث الجزائرية . ذلك أن حركة « الجزائر الفتاة » كانت قد أصبحت حقيقة ، وكانت قد بدأت تلعب دوراً

---

(114) بخصوص الهجرة الجزائرية إلى فرنسا بين 1900 ، 1914 ، أنظر ا . بيرنار « أفريقة الشمالية » ص 9 ، 15 . وقد عارض الكولون الهجرة الجزائرية لأنها تجردهم من اليد العاملة الرخيصة والإستغلال الحر . أنظر كذلك أطروحة عبدالحميد زوزو في نفس الموضوع .

هاماً في توجيه السياسة المحلية . وقد أظهرت نفسها نشيطة بفعالية كحركة نهضة في عدة ميادين كالانعاش الثقافي ، والهيجان السياسي ، والإتجاهات الحديثة والمحافظة في الطبقات الإجتماعية . وسنتناول في الفصل القادم بعض مظاهر هذه النهضة الوطنية .

خلاصة

كان الشعب الجزائري في غليان كبير بين سنوات 1900 ـ 1914 . وقد كانت هناك عوامل كثيرة ساهمت في خلق هذه الظاهرة . فمن الوجهة الداخلية ، شاهدت الجزائر ظهور النخبة المثقفة بالفرنسية ، وانتعاش الثقافة الوطنية عن طريق العلماء ، وميلاد الصحافة الوطنية وتكوين التجمعات السياسية ، ومقاومة عنيفة لفكرة التجنيس والخدمة العسكرية الاجبارية تحت العلم الفرنسي . وقد قاد الى كل هذه التطورات استمرار الاستعمار بطريقة مبالغة ، وحصول الكولون على الحكم الذاتي المالي سنة 1900 ، وخلق المحاكم الرادعة سنة 1902 ، وتجديد قاونون الأهالي ومنشور جونار سنة 1906 الذي كان ضد الحريات المدنية ، وأخيراً اصدار قانون الخدمة العسكرية الاجبارية للجزائريين سنة 1912 .

ومن الوجهة الخارجية كانت هناك أسباب أيضا لهذا الغليان الكبير . فقد تأثر الجزائريون بالوقع النفسي الذي تركته هزيمة فرنسا سنة 1870 ، ونداء الجامعة الاسلامية من الشرق الأدنى ، وصراع الدول الكبرى واحتلال فرنسا للمغرب الأقصى وأزمة فاشودا ، ونشاطات الدعاية العثمانية والألمانية ، وثورة تركيا الفتاة ، وأخيراً حرب ليبيا سنة 1912 .

وهكذا ، فان الحركة الوطنية الجزائرية قد أصبحت عشية الحرب العالمية الأولى ، قوة كبيرة وضعت فرنسا ، منذئذ ، في صف المدافع . غير أن بدء الحرب ، واعلان حالة الطوارىء ، وقيود الحرب الخاصة قد اضطر هذه الحركة الى سلوك طريق آخر سنتحدث عنه في مناسبة أخرى .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الثالث

النهضة
1900 - 1914

1. اكتشاف الجزائر من جديد :

بينما لجأت الجزائر القديمة إلى الثورة لمعارضة الحكم الفرنسي ، لجأت الجزائر الفتاة إلى النشاطات الاجتماعية والثقافية لنفس الهدف . وبوحي من روح النهضة ، خلق الجزائريون لأول مرة صحافة وطنية ، ونوادي وجمعيات إصلاحية ، ونادوا بالتحرير عن طريق التعليم . وقد بدأوا لأول مرة أيضاً يحاولون كتابة تاريخ أجدادهم ويبعثون الحياة في وثائق مغطاة بالغبار في لغتهم الوطنية . وهكذا ، فقد شهد العقد الأول من هذا القرن نشاطات حية قادها كل من المحافظين والنخبة.

ذلك أن الكولون قد احتكروا الصحافة إلى سنة 1900 . فعلى المستوى الرسمي كان هناك صحيفتان حكوميتان فقط أنشئتا ووجهتا من الإدارة الفرنسية في الجزائر . فالأولى هي « الأخبار » وهي صحيفة أسبوعية بالفرنسية أسست سنة 1839 . وفي سنة 1909 أصبحت تصدر باللسانين (ست صفحات بالفرنسية وصفحتان بالعربية) . وقد استمرت في الصدور إلى سنة 1934[1] . أما الصحيفة الحكومية الثانية فهي « المبشر » التي أسست سنة 1847 ، وكانت تصدر بالعربية والفرنسية وقد اشتغل عدد من النخبة الجزائرية في إدارة تحريرها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين[2] .

---

(1) مراد ، «ب.ل.ا.» م 27 (1964) ، ص 10 . ويقول المؤلف أن هذه الجريدة كانت « انتهازية » . ونلاحظ أن عدد 5 يناير سنة 1913 قد جاء فيه أن رئيس تحرير القسم العربي هو السيد عمر بن قدور الجزائري . أما مدير الجريدة عندئذ فقد كان السيد فيكتور باروكان .

(2) لمعرفة محتوى الافتتاحية الأولى ، أنظر نفس المصدر ، ص 10 ـ 11 .

وكان هدف هاتين الصحيفتين الرسميتين هو اطلاع الجزائريين على الأخبار الرسمية وإعطاءهم توجيهاً لصالح فرنسا . ولهذا السبب كانت الصحيفتان أبعد ما تكونان عن التثقيف . وبين 1913 و1914 خلقت فرنسا صحيفة جديدة بإسم « فرنسا الإسلامية » (لا فرانس اسلاميك) ، التي أنشئت لأغراض دعائية والتي كانت تهدف إلى إعداد الرأي العام الجزائري للحرب العالمية الأولى . ومن سنة 1914 إلى 1918 خلقت فرنسا أيضاً صحيفة « أخبار الحرب » التي كانت ، كما هو متوقع ، للدعاية أيضاً[3].

ولكن الاحتكار الفرنسي للصحافة انتهى عندما خلق بعض الرواد الجزائريين صحافة وطنية في فاتح هذا القرن . وقد كان هؤلاء الرواد من مختلف الإتجاهات ـ كان بعضهم ليبراليين ينتمون إلى النخبة ، وبعضهم تقليديين مرتبطين بالطبقة القديمة ـ ولكن جميعهم كانوا يريدون استعمال الصحافة كوسيلة للتعبير عن مطالبهم الوطنية .

وقد كان أحد هؤلاء الرواد هو العربي فخار ، الذي خلق جريدة « المصباح » ذات اللسانين ، والتي كانت تتخذ شعار : « جريدة افريقية الصغرى »[4] . وكان هدف هذه الجريدة الإسهام في التفاهم بين المجموعة الجزائرية والمجموعة الفرنسية ، وهناك رائد آخر هو الصادق دندان ، الذي كان يحرر صحيفة « الإسلام » المؤثرة 1912 ذات اللسانين أيضاً . والرائد الثالث هو عمر راسم ، الذي كان يحرر جريدة « الجزائر » الشهرية 1908 ذات اللسان العربي فقط ، وقد كان هدفها هو توعية ، وتثقيف ، وتعليم الجزائريين الوضع العالمي[5].

ومن بين الجرائد التي أثرت على الرأي العام الجزائري خلال هذا العهد

---

(3) نفس المصدر ، ص 16 . يعطي المؤلف قائمة بأهم الصحف الفرنسية في الجزائر بين 1880 ، 1940 أنظر ص 28 ـ 29 . أقدم جريدة فرنسية غير رسمية استعملت اللغة العربية (والفرنسية أيضاً) هي جريدة (المنتخب) التي صدرت بقسنطينة سنة 1882 ـ 1883 بادارة السيد بول اتيان . وكان من بين المساهمين فيها الشيخ عبد القادر المجاوي .

(4) نفس المصدر ، ص 15 . وقد ظهرت (المصباح) سنة 1904 بوهران ودامت الى سنة 1905 .

(5) « صحيفة جزائرية جديدة » في « ر.م.م. » ، م 6 (1908) ، ص 431 .

(1900 ـ 1914) صحيفة « المغرب » وهي أسبوعية ذات لسان عربي مع اتجاه اصلاحي اسلامي . وكان صاحبها هو السيد بيير فونتانة الفرنسي . ومن الذين كتبوا فيها الشيوخ عبد القادر المجاوي ، والمولود بن الموهوب ، ومحمد بن أبي شنب ، ومحمود كحول ، الخ . وقد استمرت هذه الجريدة عقداً كاملاً (1903 ـ 1913) . ويقال ان محمد عبده الزعيم الإسلامي والمصلح المصري ، قد قال عنها بأنها ، رغم أخطائها : « كانت «مفيدة» للجزائريين الذين جردوا من الصحف العربية الوطنية[6] » . وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك صحف أخرى مؤثرة ، منها جريدة « الفاروق » 1912 التي أصدرها السيد عمر بن قدور الجزائري و« الرشيدي » ، التي كانت بالفرنسية وتستعمل الشعار التالي « بفرنسا للأهالي »[7] ثم جريدة «الحق» .

وهكذا ، فخلال عقد ، خلق الجزائريون صحافة مؤثرة بلغتهم الخاصة . وقد كانت قسنطينة والجزائر ووهران مراكز النشاط الصحفي خلال هذا العهد، ولا شك أن شكل وتكتيك الصحافة الجزائرية الأولى كانا يفتقران إلى شيء ، ولكن روحها ، واتجاهها ، والقضايا المدروسة ، كانت هامة كثيراً في بلورة القضية الوطنية للرأي العام الجزائري .

واعتقاداً منهم بأن للصحافة « رسالة حضارية »[8] ، استعمل الجزائريون صحفهم للهجوم على الإدارة الفرنسية وإيقاظ مواطنيهم الغافلين . وعندما غضب الكولون من هذه الهجومات « العنيفة » اعترف الجزائريون بأن هجوماتهم كانت في صالح فرنسا نفسها[9] .

ومن بين القضايا التي أتاحت للصحافة الوطنية فرصة ذهبية للهجوم على الإدارة الفرنسية قضية التجنيد العسكري الإجباري بالنسبة للجزائريين . فقد أثارت هذه

---

(6) نص على ذلك مراد ، «ا.ب.ل.ا.» م 27 (1964) ، ص 15 نقلاً عن « المنار » ، (14 ماي ، 1903) .

(7) أجرون ، « سياسة جزائرية ليبرالية » ، في « ر.هـ.م.ك. » ، م 6 (أبريل ـ جوان ، 1959) ، 128 .

(8) ابن حبيلس ، ص 115 .

(9) نفس المصدر ، ص 116 .

القضية مناقشات حادة في المجلس الوطني الفرنسي ووسط الرأي العام الفرنسي من سنة 1906 إلى 1912 . ولذلك وجدت الصحافة الوطنية ثغرة ضعف في الحكم الفرنسي ووجهت حملة عنيفة ضده ، وأثناء هذه الفترة قال أحد الملاحظين بأن الجزائريين كانوا يوشوشون بكلمتي « الحقوق » و« التقدم »[10].

ولكن الجزائريين كانوا على وعي من أن تهجمات صحافتهم العنيفة المستمرة ضد الإدارة الفرنسية قد لا تخدم قضيتهم جيداً ، لذلك نادوا بسلوك أكثر حكمة وهدوءاً للصحافة . ان بعضهم قد أوصى الصحافة الوطنية بأن تتفادى أولاً ، التهجمات الشخصية والفضائح ، وثانياً ، أن تنقل الأخبار بتحر ، وثالثاً ، أن تكون شجاعة في التعبير عن آرائها وذلك باتقاء استعمال الأسماء المجهولة ، ورابعاً ، أن تثق بأن الإدارة الفرنسية ستقبل مطالبها[11] وباختصار ، فقد طلب هؤلاء الجزائريون من الصحافة أن تكون مسؤولة وممثلة للرأي العام ، لكي تنال الاحترام والتأييد للقضية التي تدعو إليها.

ومن المظاهر الهامة لهذا العهد طبع وإحياء الأعمال التاريخية الجزائرية ، فالعصر الذهبي قد فتح أمام الجيل الجديد ، الذي كان قد نسي في أغلب الأحيان ، مساهمات أجداده في الحضارة الإنسانية . وفي هذا الاحياء للتاريخ الوطني تحقيق للربط بين الأجيال . وبين سنوات 1900 ، 1910 ، نشرت أعمال ابن عمار ، وابن مريم ، والورتلاني ، والغبريني[12] . وكل هذه الأعمال كانت قد كتبت في أو عن العهد الجزائري الذي يوافق العصور الوسطى وعصور النهضة والتقدم في أوروبا . ففي ذلك الوقت كانت الجزائر تتمتع بحياة ثقافية صحية ، واقتصاد زاهر ، وقيادة سياسية قوية تحت أسر ملكية مختلفة . ولا شك أن ناشري تلك الأعمال التاريخية كانوا يعنون ذلك العهد حين فتحوا أمام مواطنيهم الجهلة والمضطهدين الأبواب على بعض أنوار ماضيهم.

---

(10) فخار ، «ر.م.م.» ، م 7 (جانفي ـ أبريل 1909) ، ص 3 .

(11) ابن حبيلس ، ص 132 وما يليها .

(12) هي على التوالي نحلة اللبيب والبستان ونزهة الأنظار وعنوان الدراية . أنظر مقالنا « مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي » (مجلة معهد البحوث والدراسات العربية) القاهرة ، عدد 9 ، 1978 ، ص 43 ـ 79 .

وفي سنة 1907 ألف جزائري مثقف موسوعة تراجم شخصية في مجلدين تناول فيها مشاهير الجزائريين الذين ساهموا في التاريخ السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي لبلادهم . وذلك هو أبو القاسم الحفناوي الذي كان معلماً ، وصحفياً ، ومؤرخاً . وعنوان هذه الموسوعة يدل على محتواها فقد سماها « تعريف الخلف برجال السلف »[13] . وحوالي نفس الوقت (1903) نشر في الإسكندرية كتاب هام عن حياة وتراث الأمير عبد القادر بعنوان « تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر » . وقد أعد هذا العمل محمد باشا ، ابن الأمير ، الذي كان يتمتع بمركز محترم وبسمعة واسعة في الشرق الأدنى . ولا شك أن « تحفة الزائر » كان قد أحضر إلى الجزائر وقرأه الجزائريون الذين كانوا متعطشين في هذا الوقت لمعرفة حياة أجدادهم . وفي سنة 1913 نشر الكاتب الفرنسي ، جورج ايفير حياة ومذكرات حمدان خوجة ، الذي سبق لنا الحديث عن مساهمته في الحركة الوطنية الجزائرية . وهكذا فإنه بمطلع سنة 1914 كانت الحياة الثقافية الجزائرية قد بعثت.

وبالإضافة إلى تأثير النهضة الجزائرية على الصحافة والتاريخ ، فإنها قد بدت واضحة وبفعالية في عدد من النوادي والجمعيات الثقافية . وبين سنوات 1890 و 1914 ، كان هناك عدد من هذه المراكز التي كانت تؤدي وظيفة المدرسة ، وخلوة الأحاديث ، وملتقى اجتماعي للرياضة ، والإسعاف والكشافة ، ومقر للنشاط السياسي . وأكثر أسماء هذه المراكز والجمعيات تدل على روحها وعلى برنامجها : مثل التوفيقية ، ودادية العلوم الجديدة ، نادي التقدم ، نادي الشباب الجزائري ، جمعية الهلال ، نادي الاتحاد ، والرشيدية وغيرها.

ومن بين المنظمات الثقافية التي ساهمت في النهضة الجزائرية الجمعية التوفيقية . وقد أنشئت هذه الجمعية سنة 1908 ، ثم أعادت النخبة تنظيمها سنة 1911 . وبعد سنة واحدة كان لها مئتا عضو . وبناء على قانونها الأساسي ، فإن هدفها كان جمع أولئك الجزائريين الذين يرغبون في تثقيف أنفسهم وتطوير الأفكار العلمية والاجتماعية[14] . وقد كان رئيس هذه الجمعية هو الدكتور ابن التهامي ،

---

(13) ظهر الجزء الأول منه سنة 1906 والثاني سنة 1907 . وكان الحاكم العام شارل جونار هو الذي وجه الحفناوي للقيام بهذه المهمة .

(14) اشار الى ذلك ميللي ، « شباب النخبة الجزائريين » في « ر.ب » ، م 20 (1913) ، ص 165 .

الذي كان أحد زعماء النخبة في ذلك الوقت . أما نائب رئيسها فقد كان السيد محمد صوالح ، الذي كان هو الآخر عضواً نشيطاً في النخبة.

وقد نظمت الجمعية التوفيقية سلسلة من المحاضرات العلمية سنة 1911 قد تساعدنا على فهم العهد الذي نتناوله :

محاضرات نظمتها الجمعية التوفيقية، 1911 [15]

المتكلم	موضوع المحاضرة
بيلتي	فوائد التعارف
بيلتي	القانون الاسلامي العام
قاسمي	الحضارة العربية
صوالح	ملامح العالم الإنساني المعاصر
برانتكي	الأدب المعادي للإسلام
آيت قاسي	عقوبة الموت
معاشو	نابليون في مصر

ولا شك أن هذه الجهود توضح موضوعين هامين : أحدهما دور الجمعية التوفيقية كمنظمة ثقافية ، والثاني الروح التي كانت سائدة في الجزائر في عهد النهضة.

وقد كان إلى جانب الجمعية التوفيقية ، مراكز أخرى لعبت دوراً هاماً خلال هذه الفترة : منها نادي صالح باي في قسنطينة والجمعية الرشيدية في العاصمة . فقد أسس نادي صالح باي بعض المثقفين الجزائريين وأيده الفرنسيون العاطفون على الجزائريين . وليس لدينا الآن الوثائق التي تعطينا تاريخ تأسيس هذا النادي ولكننا نعلم أنه في سنة 1908 كان يضم ألفاً وسبعمائة عضو ، وكان له فروع كثيرة في مدن الجزائر[16] وفي سنة 1911 أخبر ابن الموهوب ، أحد المثقفين الجزائريين البارزين في ذلك الوقت ، مؤسس النادي ، السيد أريب بأن « مناقبكم العالية ، وإخلاصكم ،

(15) المرجع : نفس المصدر ، ص 165 ـ 166 .

(16) « نادي صالح باي » في « ر.م.م. » م 7 (1909) ص 125 .

وحرمة إدارتكم (للنادي) بالإضافة إلى حزمكم ، تستحق الاحترام والإعجاب والإعتراف[17].

أما أهداف النادي فقد كانت نشر التعليم والمساعدة على تحرير الجماهير الجزائرية والتوفيق بين المجموعتين الفرنسية والجزائرية . وبناء على قول ابن حبيلس ، الذي كان عضواً في النخبة عندئذ ، فإن أهم أهداف النادي كانت تنظيم دروس في التعليم العام والمهني ، وعقد محاضرات علمية وأدبية ، وخلق جميعات خيرية ، والدعوة إلى العمل والأخوة والتعاون ، ولكن أهداف النادي لم تكن لتتناقض مع مبادىء الإسلام[18] . بل كانت لإزالة البغض ، ومعالجة الأمراض الأخلاقية ، ومحاربة الأنانية والظلم ، ومساعدة الجزائريين على إظهار مواهبهم الأدبية[19].

وقد ساهمت الجمعية الرشيدية أيضاً في النهضة بأهداف وملامح شبيهة بأهداف وملامح نادي صالح باي . أسس هذه الجمعية ، سنة 1894 ، شبان جزائريون من خريجي المدارس الفرنسية الجزائرية ، وبتأييد بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائريين . وكانت الجمعية تصدر « نشرة » بالعربية والفرنسية ، وتعقد سلسلة من المحاضرات الهامة ، وتساعد على نشر التعليم والأخوة . وكان لها فروع في كل أنحاء الجزائر . وكان فرع الجزائر وحده يضم 251 عضواً سنة 1910 . وقد كان من بين أعضائها الدكتور ابن التهامي والدكتور ابن بريهمات . ويشير برنامجها إلى أن أهم هدف لها هو مساعدة الشباب الجزائري على العمل ، والتفكير ، والعيش عيشة حديثة[20].

ولعل قائمة المحاضرات التي قامت بها الجمعية الرشيدية ، سنة 1907 ، تساعدنا لا على فهم مساهمتها فقط ، بل على فهم ملامح النهضة الجزائرية أيضاً خلال العهد الذي ندرسه .

---

(17) نص على ذلك ابن حبيلس ، ص 173 من «دبييش دي كونستانتين» ، (11 ماي ، 1911) . ويقول المؤلف بأن ابن العابد كان مؤسساً آخر للنادي . أنظر ص 92 .

(18) نفس المصدر ، ص 92 .

(19) نفس المصدر ، ص 173 ـ 174 . أنظر أيضاً « نادي صالح باي » في « ر.م.م» « (1909) ص 125 .

(20) «الجزائر» في «ر.م.م.» ، م 10 (1910)، ص 438 .

المحاضرات التي نظمتها الجمعية الرشيدية ، 1907[21]

عنوان المحاضرة	المتكلم	اللغة
التضامن والأخوة بين المسلمين	ولد عيسى مصطفى	عربية
الكهرباء	قندوز	عربية
تاريخ الطب العربي	ابن بريهمات	فرنسية
التعليم	فتاح	عربية
مرض السل	ابن التهامي	فرنسية
تاريخ الأدب العربي	ع. ابن سماية	عربية
التشريع الإسلامي في الجزائر منذ 1832	ع. الأشرف	عربية
الاسلام واللغات الأجنبية	ابن زكري	عربية
الحضارة العربية قبل وبعد الإسلام	ع. المجاوي	عربية
التنظيم السياسي لفرنسا	بلحاج	عربية
الضوء: ملكيته وتطبيقه	قندوز	عربية
تاريخ التجارة	ابن قتال	فرنسية
التوفيق بين الإسلام والتقدم	ابن رحال	فرنسية
الوضع السياسي والمعنوي	ولد عيسى مصطفى	عربية
فرنسا: الحرية وتفوق اللغة الفرنسية	ب. الحفناوي	عربية

وكل من نادي صالح باي والجمعية الرشيدية والجمعية التوفيقية ساهم مساهمة فعالة في يقظة الجزائر خلال هذه الفترة . ذلك أن زعماءها . بالتركيز على التعليم ، والتقدم ، والتحرر ، قد حاولوا أن يطوروا المجتمع الجزائري وأن يجعلوا منه مجتمعاً حديثاً ومتنوراً بدل مجتمع قديم وتقليدي . كما أن الأفكار الأوروبية قد ساهمت ، خلال النادي والجمعيتين ، في النهضة الجزائرية.

ولكن زعماء هذه المؤسسات لم يكونوا لا ثوريين ولا وطنيين متطرفين بل أنهم لم يحاولوا حتى استعمالها لنشاط معاد لفرنسا : ان بعضهم كانوا يحاولون أن يشجعوا

---

(21) المرجع : نفس المصدر ، ص 437 ـ 440 .

الإدارة الفرنسية على مساعيها في التعليم والأعمال الخيرية[22] . ونظراً لهذا الموقف المعتدل نحو الإدارة الفرنسية ، فإن زعماء هذه المؤسسات كانوا تحت هجوم العناصر الجزائرية المحافظة في ذلك الوقت . أما الجيل الجزائري الحاضر ، فقد يعتبر أولئك الزعماء متعاونين مع العدو . ولكن الحقيقة التاريخية هي أن معظم أولئك الزعماء كانوا يعملون بكل حمية من أجل تنوير وتقدم بلادهم . لقد كانوا يبشرون « بجزائر فتاة » لا يمكن أن تتحرر الاّ بالتعليم والتقدم والتسامح .

في سنة 1911 كتب فرنسي عارف بشؤون الجزائر قائلاً : ان من بين خمسة ملايين جزائري لا يوجد أكثر من 450 مثقفاً . ويزيد الكاتب فيقول أن من بين هؤلاء المثقفين عدداً لا يتجاوز تعليمه تعلم «مستمع لسان توماس الاكويني»[23] ! ومهما كانت قيمة هذا الرأي فإنه يبرهن على ضعف النخبة الجزائرية في ذلك الوقت .

ان من بين الملامح الصارخة للاحتلال الفرنسي في الجزائر هذا الاهمال المتعمد لتعليم الجزائريين . ان هذه الحقيقة يجب أن تؤكد عليها لأن هناك من ما يزال يعتقد بأن فرنسا كانت تقوم« بِمُهِمَّة حضارية » في الجزائر، وأن الجزائريين قد « استفادوا » من هذه المهمة، في سنة 1913 اعترف الفرنسي أرنول فان جيناب « بأننا قد حضرنا الجزائر جزئياً من الوجهة المادية ، ولكننا لم نفعل شيئاً تقريباً بخصوص الناحية العقلية التي هي أكثر أهمية[24] ».

كان الكولون يحتجون بأن الجزائري « غير قابل للتصحيح » و« غير قابل للتعليم » . فلويس تيرمان ، الذي قضى عقداً (1881 ـ 1891) كحاكم على الجزائر ، قد أخبر مستمعيه ذات مرة قائلاً : « أن التجربة قد دلت على أن . . الأهلين (الجزائريين) الذين أعطيناهم تعليماً كاملاً سوف يصبحون خصوماً لنا[25] » . ولكيلا يرى الجزائريون النور العلمي ، أغلق الكولون أبواب التعليم في وجوههم ، أو اكتفوا حين يسمحون بذلك بتعليم لا تتجاوز قيمته تعليم « مستمع لسان

---

(22) ابن حبيلس ، ص 92 ، 173 وما يليها .
(23) ج. الود في « المشكل الأهلي الجزائري » ، كما أشار اليه ابن حبيلس ، ص 29 .
(24) انظر « الغفلية الأهلية في الجزائر » في «م . ف . » ، م 106 (1913) ، ص 688 .
(25) نص على ذلك أوكتاف ديبون ، « البربر في فرنسا » في (ا . ف . س .) (سبتمبر 1925) ، ص 444 .

توماس الاكويني » كما يقول ألود.

ففي مؤتمرهم الذي عقدوه في عاصمة الجزائر سنة 1908 ، صوّت الكولون في صالح اللائحة التالية بخصوص تعليم الجزائريين : « ان المؤتمر ، نظراً إلى أن تعليم الأهالي (الجزائريين) سيعرض الجزائر إلى خطر حقيقي . . يعبر عن رغبته الآتية وهي : أولاً ، ان التعليم الإبتدائي للأهالي يجب وقفه . . »[26] . وهكذا ، فإن بعض الفرنسيين الرسميين والكولون قد وحدوا جهودهم لمنع الجزائريين من التعليم ، خوفاً من أن يقودهم ذلك إلى اليقظة والوطنية .

فإذا أخذنا في الاعتبار عدد الجزائريين ، الذي كان خمسة ملايين نسمة ، وعدد الكولون ، الذي كان حوالي نصف مليون فقط ، فإن الإحصاءات التالية ستعطي للقارىء فكرة عن قضية التعليم في الجزائر وكيف عاملتها فرنسا . ومن الملاحظ أن هذه الاحصاءات قد أخذت من مصدر معروف بأنه صوت من أصوات الكولون في الجزائر .

قروض (بالفرنك) للتعليم العام في الجزائر، 1902 ـ 1908[27]

السنة	التعليم العام للكولون	التعليم العام للجزائريين
1902	5,081,823	1,389,274
1903	5,558,978	1,179,165
1904	5,732,003	1,299,424
1905	7,847,368	1,314,234
1906	8,189,649	1,385,064
1907	8,955,390	1,549,464
1908	9,923,368	1,617,639

---

(26) نص على ذلك ادوارد دي بيللي ، « ملاحظات عن السياسة الأهلية » (مارس ، 1914) ، ص 102 ـ 103 .

(27) المرجع : «أ . ف .» ، (جانفي ، 1908) ، ص 23 . ص 23 . ويجب أن نلاحظ أن التعليم كان يدار عن طريق الدولة لا عن طريق خاص .

فإذا عرفنا أن هذه الإحصاءات قد أعدت في وقت « تحسين » التعليم للجزائريين زال استغرابنا من قول ألود من أنه لم يكن هناك أكثر من 450 مثقفاً جزائرياً خلال العهد المدروس.

ويعزو بوسكي ، أحد المدافعين عن الاستعمار الفرنسي ، نقص التعليم بين الجزائريين إلى « الحواجز الشرعية والدستورية »[28] أي إلى قضية الجنسية . فهو يقول ان على المرء أن يكون فرنسياً لكي يتمتع بكل الحقوق ، بما في ذلك التعليم . وما دام قرار مجلس الشيوخ المعروف ـ بسانتوس كونسيلت الصادر عام 1865 قد جعل الجزائريين في حالتهم الشخصية غير متناسبين مع الجنسية الفرنسية ، فلا حق لهم أن يطالبوا بكل الحقوق كمواطنين . ان هذا « الحاجز الشرعي » قد وقف هكذا بين الجزائريين والتعليم . ولكن بوسكي يعرف أن الحواجز التي يتحدث عنها قد أقامها أجداده هو ، وأنها قد بقيت بالقوة منذئذ . كيف اذن يمكن للجزائريين أن يتخلصوا من هذا الحاجز الشرعي المفروض عليهم لكي ينالوا التعليم ، من غير اللجوء إلى وسائل « غير شرعية »[29] » ؟ .

ونظراً إلى أن الحظ فقط هو الذي حالفهم ، فإن أولئك الجزائريين القليلين الذين حصلوا على بعض التعليم كانوا يسمون « بالمحظوظين » ، ففي المدارس نسي هؤلاء « شقاء الشوارع » والأحياء القذرة وكانوا ينظرون إلى أساتذتهم على أنهم « مبشرون » بالحضارة وأنهم قد كرسوا أنفسهم لخدمة التعليم بقطع النظر عن أصل طلابهم ، وكانوا يعجبون بالأفكار الغربية ويثبتون أكثرها في حياتهم الخاصة . ان بعضهم ، ولا سيما أولئك الذين جاءوا من الأحياء القذرة والمناطق الفقيرة في الأرياف الجزائرية كان يذهب به الخيال فيتصور أنه يعيش عهد 1789[30] ، ولكن أية حقيقة مصدمة لهم حين خرجوا من المدارس ليواجهوا واقع المجتمع !

ان التدهور الخطير للتعليم قد هز أولئك الجزائريين سواء كانوا من النخبة أو من

---

(28) «و.ا.» م 3 (1954) ، ص 22 .

(29) ولكن بوسكي اعترف بأن الجزائريين المتجنسين (أي أولئك الذين تخلوا عن أحوالهم الشخصية وقبلوا الجنسية الفرنسية كما حددها قانون سنة 1865) ، لم يتمتعوا بكل الحقوق التي كان يتمتع بها الفرنسيون . أنظر نفس المصدر .

(30) عباس ، ص 114 . ويعني عباس بذلك عهد الثورة الفرنسية رمز الحرية والاخاء والمساواة .

التقليديين . لقد اقتنعوا بأن الجزائر ستعود إلى الخلف إذا لم يعمل شيء في الموضوع . وحين كان الشيخ ابن الموهوب يردد كما سنرى قوله ان الجزائر قد انحدرت إلى هوة التدهور ، فإنه بلا شك كان يقصد هذه الحالة الخطيرة للتعليم .

أما من جهتهم فقد خلق الجزائريون الجمعيات التنويرية والنوادي الثقافية، بالإضافة الى الصحافة ، لكي يساعدوا على انقاذ مواطنيهم من الانحطاط . وزيادة على ذلك ، فقد كانوا دائماً يضغطون على قضية التعليم في مطالبهم من فرنسا . ففي المجالس المحلية والمحاضرات ، والعرائض ، والصحافة كانت هذه القضية تشغل اهتمامهم ، كما أن دعوة الشعب إلى اليقظة والعمل ، والتقدم ، كانت مظهراً آخر لهذه الحملة التعليمية . إن هؤلاء الجزائريين المتنورين ، سواء كانوا من النخبة أو من التقليديين ، قد اقتنعوا بأن النهضة التي كانت قد بدأت تتقدم لا يمكن أن تنجح من غير التعليم .

كما ساهم الشعر ، والأدب الشعبي ، والرسم ، والموسيقى ، والمسرح أيضاً في النهضة الثقافية . ومن بين شعراء هذه الفترة نجد ابن الموهوب ، وكحول ، والمجاوي . ونظراً للإضطهاد السياسي ، فان الأدب الشعبي قد احتل مكاناً بارزاً خلال الفترة المدروسة .

وقد ساهمت عائلة راسم في حقل الرسم ، مع التركيز على الحوادث التاريخية والحياة الاجتماعية . كما أن جماعة من الجزائريين قد خلقت مسرحاً وطنياً ، مستفيدة من التجربة الفرنسية . ان هؤلاء الفنانين قد ساهموا في المحافظة على اللغة والموسيقى الشعبية . كما خدموا قضية التنوير الفكري بمعالجتهم للمشاكل الإجتماعية بطريقة ساخرة وبترجمتهم لبعض الأعمال الأوروبية المشهورة إلى اللغة الوطنية[31] .

وبالإضافة إلى هؤلاء الشعراء ، والفنانين ، والصحافيين ، شارك في النهضة الجزائرية مجموعتان أخريان كبيرتان هما كتلة المحافظين وجماعة النخبة . وقد كانت

---

(31) أنظر سعد الدين بن شنب «الأدب الشعبي» في «مدخل الى الجزائر» ، (باريس : : مكتبة أمريكا والشرق ، 1957) ، ص 307 .

مصالحهما في كثير من الأحيان متضاربة ، ولكن في صراعهما ، وتناقضاتهما ، وحملاتهما من أجل تحرر الجزائر ، كل على طريقته الخاصة ، قد أعطتا للنهضة دفعة قوية . دعنا الآن ندرس طبيعة ، وبرنامج ، والدور الوطني لكل منهما :

2 ـ كتلة المحافظين:

يتفق علماء السياسة على أن عبارة « محافظ » غالباً ما تضلل ، لأنها تغير معناها من مكان إلى مكان ومن وقت إلى آخر . وبخصوص الجزائر فان كلمة « المحافظية » تعني بقاء الحالة الراهنة لمعارضة الأفكار الغربية ، والتجنيس ، والتجنيد الاجباري في الجيش الفرنسي ، وكل الخطط التي قد تدخل تغييرات متطرفة إلى المجتمع الجزائري . أما على المستوى الثقافي فإن المحافظية الجزائرية كانت تعني الإبقاء على النظم الإسلامية ، والتعليم العربي ، والقيم القديمة . ومن الوجهة السياسية كانت تعني الاذعان إلى إرادة اللّه حتى تحدث معجزة تخلص الجزائري من الرومي .

ان الأحزاب السياسية بالمعنى المتعارف عليه لم تكن معروفة في الجزائر خلال العهد المدروس . وكانت الجماعة السياسية الوحيدة هي « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » ، التي يبدو أنها كانت قد أنشئت سنة 1908 . أما غير ذلك ، فلم يكن يوجد سوى الهيئات الإجتماعية والثقافية التي تألفت حول بعض النوادي ، كنادي صالح باي في قسنطينة والجمعية الرشيدية في العاصمة . كان هناك بالطبع ، عدد من الجمعيات الاخوانية التي لعبت دوراً شبيهاً بدور الأحزاب السياسية . ولكن بحلول عام 1900 بدأت هذه الجمعيات الاخوانية تفقد قوتها السياسية وأصبحت على العموم نظاماً روحياً غامضاً . فكيف يمكن ، اذن ، أن يدعى الانسان بأنه قد كان في الجزائر خلال الحقبة المدروسة كتلة للمحافظين ؟

نعني « بكتلة المحافظين » كل الطبقات الجزائرية التي قبلت المحافظية بناء على التعريف السابق . كانت هذه الكتلة تتكون من المثقفين التقليديين أو العلماء ، ومن المحاربين القدماء ، ومن زعماء الدين ، وبعض الاقطاعيين والمرابطين . وقد كان بعض هؤلاء معلمين ، وممثلين نيابيين معينين تعييناً ، ومصلحين يؤمنون بالجامعة الإسلامية ، وصحفيين . كما كان بعضهم ينادون بالتقدم ، والتسامح ، والتعليم .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان منهم من ترك المقاومة وانغمس في الغموض الديني والسلبية المجردة .

ولكن نلاحظ وجود كثير من الملامح المشتركة بين جميع أعضاء هذه الكتلة . فقد كانوا جميعاً مؤيدين متحمسين للوطنية (بشكلها القديم) والجامعة الإسلامية . كانوا الأعداء غير المساومين لفكرة التجنس ، وللخدمة العسكرية تحت العلم الفرنسي ، وللتجديد على الطريقة الغربية . ثم أنهم قد طوروا ، ككتلة ، برنامجاً جديراً بالدراسة . ولم يكن برنامج الكتلة المحافظة معقداً كثيراً . فقد كان يشتمل على النقاط الهامة التالية :

1 ـ المساواة في التمثيل النيابي بين الجزائريين والكولون .

2 ـ المساواة في الضرائب والفوائد من الميزانية .

3 ـ الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

4 ـ معارضة التجنيس والتجنيد العسكري الاجباري .

5 ـ الغاء قانون الأهالي وكل الإجراءات الأخرى التعسفية .

6 ـ استرجاع العمل بنظام القضاء الإسلامي .

7 ـ احترام التقاليد والعادات الجزائرية .

8 ـ نشر وإصلاح وسائل تعليم اللغة العربية .

9 ـ عدم استعمال العنف .

10 ـ حرية الهجرة ، ولا سيما نحو الشرق الأدنى .

ونظراً إلى أن المحافظين لم يكونوا ينتمون إلى منظمة منضبطة محددة ، فإن برنامجهم لم يكن محدداً بوضوح ، كما كان غير مفهوم بالضبط من كل أعضاء الكتلة . معظم هؤلاء الأعضاء كانوا على اتفاق بأن الجزائر لا تستطيع أن تهزم فرنسا وحدها . لذلك فإن الإبقاء على الشخصية الجزائرية ، ومقاومة كل خطط الفرنسيين لإذابة الجزائر ، والتضامن بين جميع المسلمين ، كانت ، في نظرهم ، هي ضمانات الإنتصار .

كان المحافظون يعتقدون أن فرنسا قد برهنت على أنها لا مبالية وتعسفية منذ 1830 وهم يحتجون بتجربتهم الماضية لكي يظهروا للمتطرفين بأنهم كانوا على خطأ إذا كانوا يعتقدون أن فرنسا ستسلم بسهولة. وبهذا المعنى، فانه يمكن أن يقال أن

المحافظين كانوا وطنيين وأعداء للوطنية في نفس الوقت . ان الكتلة قد عارضت بشدة رأي جماعة النخبة بخصوص التجنيس والتغريب ، ولكنها وقَفَتْ ، على العموم ضد التقدم والتحرر عن طريق التعليم في الجزائر ولهذا السبب ، فإن هذه الكتلة كانت قد استعملت ، في بعض الأحيان ، من الكولون والإدارة الفرنسية كغطاء لمحاربة الحركة الوطنية .

وإلى جانب المرابطين ، والأعيان والإقطاعيين ، فإن الكتلة قد ضمت إليها عدداً صغيراً من المثقفين التقليديين أو العلماء . وقد تكونت هذه الطبقة في المدارس القرآنية ، والمدارس الفرنسية ـ الجزائرية ، ثم في بعض جامعات الشرق الأدنى . ومن بين الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في هذه الطبقة الشيوخ عبد القادر المجاوي[32] ، سعيد بن زكري ، عبد الحليم ابن سماية ، حمدان بن الونيسي ، ومولود بن الموهوب . وقد احتل الأخير مكاناً بارزاً في هذه الطبقة وتقلد دوراً هاماً في شؤون الكتلة . ومن الممكن القول بأنه كان متحدثها غير الرسمي .

وقد كان هؤلاء العلماء الجزائريون بين سنة 1900 ـ 1914 معاصرين للشيخ محمد عبده ، ورشيد رضا ، وزعماء آخرين لحركة الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى . وكان أحدهم ، وهو الشيخ حمدان بن الونيسي ، أستاذ عبد الحميد بن باديس المصلح الجزائري المستقبل ، قد هاجر حوالي 1910 إلى المدينة ، حيث مات . ان هؤلاء العلماء كانوا الممثلين للثقافة الجزائرية القديمة والمتحدثين باسم الجامعة الإسلامية في الجزائر .

ولكن ليس كل زعماء الكتلة كانوا أعداء للإصلاح . واللذين عارضوا التغيير فعلوا ذلك خوفاً من أنه قد يؤدي إلى دمج الجزائر في فرنسا . إن المنادين بالإصلاح كانوا منقسمين إلى جماعتين : فالقسم الأول أراد التغيير ولكن داخل الإطار العربي الإسلامي للجزائر . وبينما رفض أصحاب هذا القسم التجنيس والتعليم الإجباري الفرنسي ، طلبوا من فرنسا تنظيم المدارس العربية، واسترجاع العمل بالقضاء

---

(32) عن المجاوي أنظر أيضاً ما كتبه حمزة بوكوشة «شيخ الجماعة عبد القادر المجاوي» في مجلة (الثقافة) العدد 10 ، سبتمبر 1972 ، ص 7 ـ 14 . وتوجد ترجمته أيضاً في (التقويم الجزائري) للشيخ كحول ، 1911 ـ 1913 .

الإسلامي بالنسبة للجزائريين ، والمساواة في الحقوق السياسية ، وعدم التدخل في العادات والتقاليد الجزائرية . ان شعار هذا القسم من كتلة المحافظين كان : الإصلاح ، ولكن من خلال المحافظة على الشخصية الجزائرية وتقاليدها . وقد كان أغلب أعضاء الكتلة ينتمون إلى هذا الجناح .

أما القسم الثاني فقد ذهب إلى حد تشجيع التعليم بالفرنسية للجزائريين وحمل رسالة فرنسا الحضارية في الجزائر . ولكن من الغلط أن نسمي هذا الجناح من الكتلة متطرفاً . والحق أن هذا القسم قد عارض أيضاً التجنس ، والخدمة العسكرية الإجبارية ، والإندماج عموماً . لقد قبل أعضاؤه بعض الإصلاحات « المتطرفة » ، ولكن دون تناقض مع الواقع الجزائري . فكان شعار هذا الجناح : الإصلاح بكل الوسائل ، لأن المجتمع الجزائري كان في أحط الدرجات من التدهور . وكان المتحدثون بإسم هذا الجناح هم ابن الموهوب، المجاوي، ابن رحال، وابن سماية.

كان الشيخ عبد القادر المجاوي أحد قادة الإصلاح في الكتلة المحافظة . وكان يتمتع بشعبية واحترام كبيرين بين الجزائريين في وقته ، فقد كان أستاذاً للعربية والشريعة الإسلامية في المدرسة الجزائرية ـ الفرنسية بالعاصمة وقسنطينة مدة سنوات . وفي سنة 1914 اعترف أحد الكتاب الجزائريين بأن الشيخ المجاوي كان في خدمة التعليم منذ أربعين سنة[33] . وقد ساهم المجاوي بفعالية في النهضة الجزائرية بكتبه ، ومحاضراته ، ونشاطه في الصحافة .

ونتيجة لدراسته العربية والفرنسية، أصبح المجاوي على معرفة عميقة بالمجتمع الجزائري والعالم الإسلامي ، بالإضافة إلى الثقافة الأوروبية . وقد كانت معظم كتاباته موجهة ضد الآفات الإجتماعية ، والخرافات ، والعادات القديمة التي كان يراها « في الحقيقة ، مصائب »[34] . وكان ينادي بالإصلاح الإجتماعي ، والتعليم ، واليقظة .

---

(33) ابن حبيلس ، ص 83 . ولد المجاوي في تلمسان سنة 1848 وتوفي بقسنطينة سنة 1914 . وقد علم في هذه المدينة ومدينة الجزائر وتخرج عليه عدد كبير من الطلبة . وله عدة تآليف منها (ارشاد المتعلمين) الذي أثار ضجة عند صدوره سنة 1877 ، أنظر مقالنا (مدارس الثقافة العربية) . في مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، عدد 9 ، سنة 1978 .

(34) نفس المصدر ، ص 92 . عن المجاوي أنظر أيضاً محمد علي دبوز (نهضة الجزائر الحديثة) جـ 1 ، مصر 1965 ص 82 ـ 105 .

ونظراً لشعبيته وشخصيته المحترمة كعالم مثقف وزعيم ديني ، فإن نداءه بالإصلاح كان غالباً موضع ترحيب حتى من جماعة النخبة ، التي كان أعضاؤها خصوماً للمحافظين[35] .

وهناك شخصية أخرى هامة في كتلة المحافظين ، وهو عبد الحليم ابن سماية ، الذي كان أيضاً أستاذاً في المدرسة الجزائرية ـ الفرنسية بالعاصمة . كان ابن سماية أحد الدعاة البارزين للجامعة الإسلامية في الجزائر . فعندما زار المصلح الشيخ محمد عبده الجزائر ، في سبتمبر، 1803 ، كان مضيفه هو ابن سماية . ويتهم الكاتب الفرنسي فيليب ميللي (سنة 1913) ، الذي كان يعطف على جماعة النخبة ضد المحافظين ، ابن سماية بأنه كان على علاقة مع القاهرة واسطنبول (يعني حركة الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى) لزيارته المتكررة هناك[36] . وقد عارض ابن سماية جماعة النخبة في قضية الدين والخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش الفرنسي . ونظراً لمكانته كأستاذ في مدرسة رسمية ، ولثقافته العالية العربية والأوروبية ، فإن آراءه كانت في عمومها محترمة من المجتمع الجزائري ، بل حتى من بعض الفرنسيين الرسميين .

وفي سنة 1911 ، خلال الحملة الجزائرية ضد التجنيد العسكري الإجباري في الجيش الفرنسي ، كتب أحد أتباع ابن سماية ، وهو عمر ابن قدور ، محضراً لاجتماع عمومي جرى في العاصمة لمعارضة التجنيد . وقد نشر هذا المحضر في الجريدة العثمانية « الحضارة » ثم نقلته عنها الجريدة التونسية « المشير » (10 سبتمبر ، 1911) . وصف ابن قدور الإجتماع الذي انعقد تحت رئاسة شيخ بلدية الجزائر الذي كان فرنسياً ، وقد تكلم في هذا الإجتماع ابن سماية معارضاً التجنيد .

وبناء على تقرير ابن قدور ، فإن ابن سماية قد سأل الجمهور ، عندما وقف للكلام ، ما إذا كان يرضيهم أن يتكلم باسمهم بخصوص الموضوع . وعندما أجابوا

---

(35) نفس المصدر ، ص 83 ـ 84 . عثرنا على معلومات جديدة تتعلق بحياة المجاوي وابن سماية ومصطفى بن الخوجة وغيرهم من زعماء مدرسة الاصلاح ، سندرجها ان شاء الله في الجزء الثالث من (تاريخ الجزائر الثقافي) .

(36) ميللي ، « شباب النخبة الجزائريين » في « ر.ب. » 20 (1913) .

بالايجاب في صوت واحد ، أخبر شيخ البلدية ورئيس الاجتماع بأن الجزائريين يجب أن يرفضوا الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي ، حتى ولو رضيت فرنسا بتعويضهم بالحقوق السياسية (وهو ما قبلته جماعة النخبة) لأن اجبارهم على الخدمة العسكرية يخالف دينهم . وحين أيد وجهة نظره بآيات من القرآن الكريم ، اتهمه بعض « الفرنسيين المزعومين » (اشارة الى جماعة النخبة كما يسميهم المحافظون) بسوء الفهم . وبعد مشادة كلامية بين المحافظين وجماعة النخبة انتهى الاجتماع ، بناء على رأي ابن قدور ، بالرفض التام للتجنيد الاجباري ، سواءٍ مع الحقوق السياسية أو بدونها[37] .

وهكذا فإن المحافظين قد فازوا ، تحت قيادة ابن سماية ، في المعركة ضد التجنيد الاجباري ، مؤقتاً على الأقل ، ولكن زعامة المحافظين الحقيقية خلال هذا الوقت كانت في يد الشيخ المولود ابن الموهوب . وهو مثل حمدان خوجة ، قد يصعد الى المرتبة الأولى بين مصلحي الشرق الأدنى . كان ابن الموهوب مفتي قسنطينة مدة طويلة[38] ، وهي مكانة لا يتقلدها عادة الا مَن كان ذا سلطة عليا في شؤون الدين والقضايا الشرعية والاجتماعية . وكان في نفس الوقت أستاذ الفلسفة ، والعلوم الدينية ، والأدب العربي في المدرسة الجزائرية ـ الفرنسية بقسنطينة . وقد كانت محاضراته في نادي صالح باي وفي نفس المدينة تجلب اليها مستمعين كثيرين . كما ساعد اعجابه بالتقدم ، والعلوم الحديثة ، والأفكار الأوروبية على تنوير كثير من الجزائريين ، بما في ذلك أعضاء الكتلة التي ينتمي هو اليها ، وعلى التخلص من الاجحاف ، والتعصب ، والجهل . ونظراً لمكانته الدينية ، وتعليمه

---

(37) نفس المصدر ، ص 175 ـ 176 . أورد ميللي نصوصاً طويلة من أقوال ابن قدور . وقصة هذا المؤتمر دليل آخر على تأثير حركة الجامعة الاسلامية في الجزائر في ذلك الوقت ، ودليل أيضاً على العلاقة بين المحافظين وجماعة النخبة . أنظر عن ابن سماية ما كتبه عن دبوز ، « نهضة الجزائر الحديثة » ، جـ 1 ، ص 106 ـ 127 . انظر عنه أيضاً مقالة لعبد الرحمن الجيلالي ، مجلة (الأصالة) عدد مارس ـ أبريل 1973 ، ص 199 ـ 212 .

(38) تولى الافتاء سنة 1908 وقد عثرنا على نص الخطبة التي ألقاها بمناسبة تنصيبه الرسمي ، وهي بخط يده ، وفي أربع ورقات من الحجم الصغير . وقد تعرضنا إليها في مقالنا عن (مساهمة بعض الجزائريين في الحضارة الاسلامية) . أنظر قائمة المراجع .

الاسلامي والأوروبي ، وبرنامجه التقدمي لتحرر الجزائر ، فإنه قد أثر تأثيراً فعالاً على معاصريه، سواء كانوا محافظين أو ليبراليين ، جزائريين أو فرنسيين.

كان شعار ابن الموهوب أن الجزائر قد وصلت الى أسفل نقطة في سلم التدهور . ولكي تتخلص من هذه الحالة ، يجب عليها أن تؤمن بالتقدم ، والتعليم بكل الوسائل ، والتسامح ، والعودة الى منابع الاسلام الصافية[39] . ولهذا السبب أعلن ابن الموهوب الحرب ضد الجهل ، والاجحاف ، والكسل لكي يحرر الجزائر من حالتها المنحطة . وقد علمه التاريخ أن تحرر أي شعب يتوقف على يقظته العقلية . فهو يرى أن كل الآفات التي كانت متسلطة على الجزائر (مثل قانون الأهالي ، والمحاكم الرادعة) لا تنتهي الا بخلق « المدارس ، المدارس ، ثم المدارس »[40].

ففي محاضرة ألقاها حوالي عام 1909 بنادي صالح باي أوضح ابن الموهوب الأسباب الحقيقية لما كان يسميه بانحطاط الجزائر ، فهو يقول أنها تشمل المستوى المنخفض للأحوال المادية والعقلية ، وإهمال العناية بالآداب ودراسة الاسلام وتاريخه ، والفقر ، والجهل . وبطريقة بسيطة جداً ، مستعملاً فيها الاشارات غير المباشرة ، يحلل ابن الموهوب الوضع عندئذ بالأسلوب التالي : إن الجزائر كانت عضواً في الجسم الفرنسي ، وأن هذا العضو كان مريضاً ، ولذلك فعلى الجزائريين أن يعالجوه . وقد قال ابن الموهوب لأولئك الذين كانوا يقترحون فصل العضو المريض بأن ذلك جائز ، ولكن يجب أن لا يحدث الا عندما يصبح الوضع ميؤوساً منه . ثم تساءل : هل نحن الآن في حالة يائسة من انتشال الجزائريين من نومهم الطويل ؟ ولكن جوابه كان : لا .

فإذا وضع الباحث هذه الأفكار بطريقة مباشرة ، فإنه سيجد أن هذا المصلح كان يعتقد أنه ما يزال لفرنسا فرصة لمعالجة الحالة وارضاء الجزائريين حتى لا ينشدوا الانفصال عنها . وهذا التفسير واضح من الحقيقة التي هي انذاره لأولئك الفرنسيين

---

(39) علق أحد أعضاء النخبة عندئذ ، وهو ابن حبيلس ، على موضوع ابن الموهوب فقال بأنه « لو كان هناك برنامج سياسي عظيم في بساطته ، لكان هو برنامج ابن الموهوب » . ، ص 2 .

(40) نفس المصدر . وقد كرر ابن الموهوب نفس هذا التعبير في خطبته المشار اليها .

الـذين كانـوا يعارضـون تحسين وضع الجـزائريين بـأن رأيهم لن يقود الا لسيـاسة استعمارية سيئة.

وقد اقترح ابن الموهوب العلاج أيضاً لما كان يسميه بانحطاط الجزائر . أولاً ، يقول ان على فرنسا أن تستمر وتضاعف من عملها الحضاري في الجزائـر . وهذا البرنامج يجب أن يتحقق عن طريق تعليم تقدمي باللغتين العربية والفرنسية . وعلى هذا البرنامج أن يضع أمامه تحقيق مبدأ المساواة التامة بين الجزائريين والكولون ، ولا يمكن لفرنسا أن تتجاهل اصلاح أحوال الجزائريين عندئذ ، لأن العـالم الاسلامي عموماً والجزائر خصوصاً كانا ، كما يقول ، قد بدآ في اليقظة وكانا متفتحين على الأفكار الجديدة.

ثانياً ، إن ابن الموهوب يصر على أن من واجب الجزائريين أن يتخلصوا من الكسـل ، وعدم التسـامح ، والاجحـاف ، وأن يكـرسـوا أنفسهـم لـدراسـة العلوم المتقدمة : كالزراعة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والرياضيات التي يقول بـأنها كـانت محـل رعايـة دقيقة من أجـدادهم . فهو يقـول ان « احتـرامنـا متـوقف على جـودة عملنا »[41] . وختم ابن الموهوب محاضراته بهذا النداء الدرامي الى الجزائريين : « مزقوا عنكم عالم الظلام وافتحوا أعينكم على عالم مليء بالضوء ! »[42].

وخلال نفس السنة (1909) ألقى ابن الموهوب خطبة بـالعربيـة في افتتاح مدرسة الجزائرية ـ الفرنسية بقسنطينة عنوانها « الجزائريون والحضارة » تحدث فيها عن كل النقط العزيزة على المصلحين المحافظين وجماعة النخبة على السواء. وقد تكلم ابن الموهوب بصراحة في صالح التقدم، والعلوم الحديثة ، والتسامح ، محتجاً بـالنبي محمد ، وفيكتـور هوغـو ، وشيكسبير ، وفـولتير ، وكتـاب آخرين مسلمين وأوروبيين.

وقد رأى ابن الموهوب أن التعصب ، الذي يقول بأنه قد بدأ كنتيجة للحروب

---

(41) نفس المصدر ، ص 189 . ولد ابن الموهوب سنة 1866 . وكان أديباً أيضاً . ومن شيوخه الشاذلي القسنطيني ، أنظر دراستنا (محمد الشاذلي القسنطيني ، دراسة من خلال رسائله وشعره ، الجزائر 1974) ، ومنهم أيضاً عبد القادر المجاوي . ولابن المـوهوب تـرجمة أيضـاً في كتاب (أعيـان المغاربة) ، لغوفيان ، الجزائر 1920 .

(42) ابن حبيلس ، ص 191 . بخصوص نص هذه المحاضرة ، أنظر ص 177 ـ 193 .

الصليبية ، يخالف مبادىء الاسلام . لذلك نصح الجزائريين بالتضامن والتسامح ، مستشهداً بشيكسبير: « إنك قد تحصل بابتسامة على ما كنت تنوي الحصول عليه بالقوة » . وعندما قارن الجزائر تحت الحكم الفرنسي بفرنسا تحت حكم لويس الرابع عشر واليونان تحت حكم الاسكندر الأكبر ، وجد أن الجزائر كانت في أسفل السافلين نظراً لفشلها في العيش طبقاً لتعاليم الاسلام الحقيقية وفي المنافسة للأمم الأوروبية في التعلم والاكتشاف.

ولكن ابن الموهوب لم ينصح الجزائريين بالطفرة ، رغم أنه كان متفائلاً بمستقبلهم . فهو يقول لهم ، مستشهداً بنصيحة رجل سويسري الى أطفاله ، الذين كانوا يحاولون التسلق الى قمة الجبل : « تحركوا ببطء لكي تتسلقوا بسرعة » . وفي نهاية خطبته ، التي ألقاها أمام حشد جزائري فرنسي ، دعا الجزائريين الى أن « استيقظوا وأيقظوا اخوانكم ! » ومرة أخرى ، وفي صوت درامي صرخ فيهم : « ليحيى العلم ! ليسقط الجهل ! »(43).

من الصعب على المرء أن يفهم تعاليم ابن الموهوب دون التعرف على أحوال الجزائر السياسية والاجتماعية ، والعقلية . ذلك أن الجزائريين كانوا مجردين من الحقوق السياسية ، ومن المساواة الاجتماعية، والاقتصادية مع الكولون . وقد كانت الأمية بينهم تشكل معدلاً مرتفعاً في العالم ، يضاف الى ذلك تراث من الخرافات ، والقدرية ، واللامبالاة . ومن هنا كانت رسالة ابن الموهوب الاصلاحية محاولة. لانتشال الجزائريين من هذا الظلام . وزيادة على ذلك ، فقد كانت الجزائر تعيش تحت قوانين اضطهادية ثقيلة مستعدة أن تمتد الى كل من يشتبه في أمره بدعوى القيام بنشاطات تخريبية . وأن التعرف التام على هذا الطريق الشائك الذي كان ابن الموهوب يمشي فيه سيؤدي الى الاعجاب بشجاعته في ندائه لمواطنيه بأن يأخذوا مكانهم تحت الشمس.

وهذا الموقف الشجاع قد ظهر بوضوح في المحاضرة التي ألقاها سنة 1910 في نادي صالح باي . كان عندئذ يتحدث الى جمهور غفير فقال أن الجزائر كانت

---

(43) نشرت هذه الخطبة صحيفة « اينديباندانت » ، (1 ماي ، 1909) . أما النص الفرنسي الكامل للخطبة فهو في ابن حبيلس ، ص 143 ـ 154 .

تعيش في « عهد جديد » ، وأن الطريق الوحيد للخروج من عصرها المظلم هو طريق الوحدة ، والتضامن ، والتقدم . وقد استنكر القدرية باعتبارها ضد تعاليم الاسلام والعقل الانساني . ثم أخبر مستمعيه بأن التقدم قد جعل الأمم الأوروبية مجيدة ، سعيدة ، رخية ، بينما بقيت الأمة الجزائرية جاهلة ، كسولة ، ومنكوبة . وصرح بأن أجدادنا قد فعلوا أشياء كثيرة من أجلنا ومن أجل الانسانية . ثم تساءل : ماذا فعلنا نحن لأطفالنا وللأجيال القادمة؟ .

ولما كان ابن الموهوب مؤمناً بالجامعة الاسلامية ، فإنه دعا مستمعيه الجزائريين الى التعاطف ، والتفاهم ، والعمل من أجل الاسلام الحقيقي ، الذي يحتوي على أشياء جميلة ، أخلاقية ، عظيمة . وقد أخبرهم بأن الحضارة لم تكن هي الزنا ، والكحول ، والأفعال الرديئة (كما كانوا يظنون) ، ولكنها برنامج للعناية الصحية ، والعمل ، والعلوم ، والتسامح ، والتضامن ، والتقدم . ولكن على الجزائريين أن يتفهموا القرآن الكريم والحديث الشريف اللذين قادا أجدادهم الى المجد . إن عليهم أن يتبعوا طريق أجدادهم . وكعادته في الدعوة الى اليقظة ، نادى الشيخ ابن الموهوب مواطنيه : « اتحدوا ، وتوادوا ، واعتصموا جميعاً في هذه الجزائر الجميلة بحبل السلام والانسجام المقدس »[44] .

ولعل الشعر التالي يعطي اشارة واضحة الى مدى تأثير الشيخ ابن الموهوب بين الجزائريين ، وهو الشعر الذي نظمه لطلابه في نادي صالح باي سنة 1911 . وقد حفظ الطلبة هذا الشعر وأنشدوه عند توزيع الجوائز السنوية . ثم غنته فرقة ابن كوراط وبسطانجي الموسيقية . وفيما يلي ترجمة جزئية عن الأصل العربي[45] .

« إن العلم يزدهر بالعمل .

وإن الكسل يقتل موهبة الانسان .

---

(44) ترجمة فرنسية لهذه الخطبة في نفس المصدر ، ص 155 ـ 168 كما نشرت الخطبة بالفرنسية في صحيفة « دبييش دي كونستانتين » ، (30 نوفمبر ، 1910) .

(45) النص العربي لهذا الشعر في ابن حبيلس ، ص 195 . كما توجد له ترجمة فرنسية حرفية ، ص 194 . وقد نشرت هذا الشعر بالفرنسية « دبييش دي كونستنتين » ، (جوان ، 1911) . أنظر نصه أيضاً في (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) لمحمد الهادي السنوسي ، جـ 2 ، تونس ، 1927 ، ص 34 ـ 35 .

فاعملوا بجد ، أيها الشباب ، لتحصلوا على مكان مشرف .
اطمحوا ، مثل الآخرين ، الى المجد .
لا تيأسوا ، لأن اللّه يسعف دائماً أولئك الذين يفعلون الخير .
ألستم أنتم نسل شعب عظيم ؟
ألستم أبناء رجال شجعان ؟ » .

والحق أن دور الشيخ ابن الموهوب في النهضة الجزائرية،مازال لم يفهم بعد من الكتاب ، بما في ذلك كتاب الجزائر أنفسهم . ذلك أن الكتاب اعتادوا أن يسلطوا الضوء على الحركة الاصلاحية خلال العشرينات ، والثلاثينات ، عندما بدأ الشيخ عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء حملة الاصلاح .

ورغم انعدام الوثائق في الوقت الحاضر ، فان الأبحاث الأولى تظهر أن ابن الموهوب كان الموضوع (أو المقدمة) لحركة ابن باديس الاصلاحية . وتزداد الصورة وضوحاً عندما نعرف أن الشيخين كانا من مدينة واحدة ، قسنطينة . وبالاضافة الى ذلك ، فانه في الوقت الذي كان فيه ابن الموهوب يبشر بمذهبه الاصلاحي ، كان ابن باديس ما يزال طالباً في فترة المراهقة . ورغم أننا لا نملك الوثائق التي تثبت أن ابن باديس كان من بين مستمعي ابن الموهوب ، فلا يوجد أيضاً ما ينفي ذلك . لذلك يبقى من المحتمل أن يكون المصلح الجزائري في المستقبل ، ابن باديس ، قد حضر محاضرات ابن الموهوب وتأثر بأفكاره .

ان مساهمة ابن الموهوب ، كمصلح ، في الحركة الوطنية الجزائرية والجامعة الاسلامية كانت على أهمية كبيرة . فمنذ حمدان خوجة ، ليس هناك مثقف جزائري آخر قد فهم وأثر على تاريخ بلاده كما فعل ابن الموهوب . فاذا كانت مساهمة خوجة قد قطعت بسبب طرد فرنسا له ، فان دور ابن الموهوب قد قدر له أن يكون أكثر فعالية واستمراراً[46] . فبعد 1918 أخذ فوراً جيل جديد ذلك الدور . وهكذا ، فبينما توقفت أفكار خوجة ومنعت من الانتشار في الجزائر ، استمرت أفكار ابن الموهوب

(46) أعترف الآن أن في هذا بعض المبالغة . ولعل هذا الدور أصلح ما يكون بعبد القادر المجاوي أستاذ ابن الموهوب . وقد عاتبني بعض تلاميذ ابن باديس على ما قلته عن ابن الموهوب الذي أصبح خلال العشرينات خصماً لحركة ابن باديس غير أني أرى أن هذه الخصومة كانت شخصية وليست علمية .

في الانتشار في المجتمع الجزائري وفي النمو مع الوقت . فخلال أقل من عقد أصبح مذهب ابن الموهوب في الاصلاح مطبقاً ، معمقاً ، ومقوى من حركة اصلاحية جديدة .

كان دور ابن الموهوب ذا وجهين : وجه وطني ووجه اصلاحي اسلامي . فمناداته للجزائريين باليقظة والتعلم ، والوحدة ، والتنافس مع الأمم الأخرى كانت مساهمة هامة منه في الحركة الوطنية . وقد جاء هذا النداء في الوقت الذي كانت فيه الجزائر تعاني من اجراءات مضادة للحركة الوطنية اتخذتها فرنسا ، وفي الوقت الذي كان فيه العالم جميعاً يمر بتغيير عميق تحت ضغط القومية .

وفي نفس الوقت كان ابن الموهوب مصلحاً بارزاً في حركة الجامعة الاسلامية ، رغم أن أفكاره لم تنشر من جانب الفرنسيين ، مثلما سمحوا بنشر أفكار الأفغاني ، وعبده ، ورضا ، وغيرهم من معاصريه في الشرق الأدنى . وهو مثلهم قد نادى بالتضامن الاسلامي ، والوحدة ، والعودة الى منابع الاسلام الصافية . كما دعا إلى التقدم بواسطة العلوم الحديثة والتسامح باستنكاره للاجحاف . وقد اعتبر القدرية ، والتعصب ، والجهل أكبر خطر يهدد عقل المسلم . ومن بين مواقفه الشجاعة بخصوص هذه المسألة هجومه على الخرافات والتقاليد البالية في مجتمع معروف بصلابته الشديدة ومحافظته مثل المجتمع الجزائري . وقد كان من غير المحتمل أن يجد الحكام الفرنسيون المستعمرون تلك الأفكار مريحة لسياستهم في الجزائر .

وتحت قيادة ابن الموهوب تحولت كتلة المحافظين من مجموعة مفككة وبدون فعالية الى مجموعة نشيطة مؤثرة ، تتمتع ببرنامج اصلاحي معين . على أن بعض المحافظين لم يسايروا آراء ابن الموهوب « المتطرفة » في الاصلاح . فقد اعتصموا بالعادات القديمة واستمروا في معارضة التعصر على أساس أنه خطر على الشخصية الجزائرية . انهم كانوا راضين بأحوالهم لو أن فرنسا لم تتدخل فقط في شؤون الجزائر الاجتماعية والثقافية .

ولكن ابن الموهوب قد نجح في تجنيد تأييد يعض العلماء ، والنواب في المجالس المحلية ، وأعضاء النخبة ، ومعظم الطلبة . فباتقائه الهجوم المباشر على الادارة الفرنسية وحصر نفسه في برنامج اصلاحي ، لم يؤمن ابن الموهوب فقط نفسه

ضد امكانية نصب العراقيل أمامه ، بل كسب عاطفة بعض المثقفين الفرنسيين . كما أن مكانته كمفتي وأستاذ قد تكون حمته من أيدي قانون الأهالي ، التي امتدت الى بقية الجزائريين .

ورغم أن المحافظين بقيادة ابن الموهوب ، قد استطاعوا أن يحرزوا بعض التأييد من جماعة النخبة لبرنامجهم الاصلاحي ، فان الاخيرين قد استمروا في هجومهم المعتاد عليهم . وسوف نرى أن جماعة النخبة اعتادت أن تسمي المحافظين « أصحاب العمائم القديمة » ، والبورجوازية المتكبرة ، والاقطاعيين الكبار . ذلك أن المحافظين ، في عين جماعة النخبة ، كانوا حواجز في طريق التقدم والاندماج لتعصبهم واجحافهم ، وتمسكهم بالتقاليد . ومن هنا اتهموا المحافظين بالكسل ، واثارة الفتن الدينية ، ومعارضة الاسلام الحقيقي ، والفساد ، والأنانية[47] . ولكن جماعة النخبة كانوا يؤمنون بأن تلك « الثمار » المتعفنة (أي المحافظين) ستموت « ببطء[48] » .

وكثيراً ما تعرض المحافظون الى الهجوم من خصمهم على أساس أنهم وطنيون ، ومصلحون اسلاميون ، ومتعصبون ، ومستعملون التقية لاخفاء مشاعرهم الحقيقية ضد فرنسا . وقد اتهمهم بذلك الكولون وجماعة النخبة الجزائرية معاً . ومن بين هؤلاء أندري سيرفي ، رئيس تحرير « ديبيش دي كونستانتين » الفرنسي ، الذي اتهم المحافظين بالعداء لفرنسا واخفاء مشاعرهم الحقيقية .

ففي سنة 1914 كتب سيرفي كتاباً عن حركة الجامعة الاسلامية في مصر ، وتونس ، والجزائر ، هاجم فيه الاسلام لكونه معارضاً للتقدم وغير متناسب مع الحضارة الحديثة . وقد اتهم المحافظين الجزائريين أيضاً بالاستسلام لفرنسا مؤقتاً تحت ضغط السلاح فقط . وبناء على رأيه فان المحافظين كانوا يستعملون التقية وينتظرون اللحظة المناسبة للثأر . كما اتهمهم سيرفي باضمار التعصب وبأنهم كانوا ينتمون الى حركة الجامعة الاسلامية[49] .

---

(47) ابن حبيلس ، ص 92 ـ 98 .

(48) نفس المصدر ، ص 105 .

(49) نفس المصدر ، ص 125 ـ 126 . عزا الكولون ومؤيدوهم المشاعر الوطنية الجزائرية (مثلاً عداوة فرنسا) إلى التعصب . حتى عندما بدا الجزائريون المثقفون على الطريقة الأوروبية (النخبة) يلعبون .=

ولكن المحافظين كذبوا أن يكونوا لهم أي علاقة بالجامعة الاسلامية ، وبالقومية . فقد جاء في استجواب أجراه بعض النواب الفرنسيين الذين قدموا الى الجزائر للتحقيق ، مع ابن رحال ، الذي كان من المحافظين المصلحين « انني لا أعرف أن هناك وجوداً لفكرة الجامعة الاسلامية والقومية في الجزائر . فاذا وجدتنا ذات يوم فستكونون أنتم (الفرنسيون) الذين خلقتوهما[50] » .

غير أن هذا التكذيب القاطع يجب أن لا يؤخذ على حرفيته. فإذا كان المحافظون قد كذبوا شفوياً مشاركتهم في الحركتين ، فإنهم عملياً كانوا يعملون على تقويتها بشتى الوسائل . ولكن المحافظين قد شعروا بأنهم كانوا ما زالوا ضعفاء عن تحدي الفرنسيين بالاعتراف علناً بإيمانهم بالقومية والجامعة الإسلامية لأنهم لو فعلوا ذلك لفسر موقفهم بعدم الإخلاص لفرنسا . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المحافظين لم يكونوا سياسيين بالمعنى المعروف للسياسة . لقد كانوا جماعة ثقافية ، دينية ، واجتماعية . والحق أن عدم وجود فهم سياسي ، ومنظمة فعالة لدى المحافظين ، كان يشكل ضعفهم الرئيسي .

حذر بعض الكتاب الفرنسيين بلادهم ، عشية الحرب العالمية الأولى ، من امكانية ثورة في الجزائر يقوم بها المحافظون . فقد تحقق لهؤلاء الكتاب أن « الجمعيات الدينية القوية» مع اتجاهها الاصلاحي ـ الاسلامي ، ضامة الجزائريين بالآلاف في كل مكان في الجزائر ، قد تغتنم فرصة ضعف فرنسا (مثلاً دخولها في حرب أوروبية) لكي ترمي الرومي في البحر »[51] . لقد كان الفرنسيون يخشون أن

دوراً وطنياً محدوداً ، اتهمهم الكولون ، كما سنرى ، بالتعصب . ولكن هذا الإتهام قد برهن على عدم صحته المؤرخون المنصفون أنفسهم . ففي سنة 1954 أورد المؤرخ ايميري عن مصدر « مطلع » بأنه قد أخبر سنة 1842 أن الجزائريين كانوا ، عموماً ، اقل تعصباً من أكثر شعوب جنوب أوروبا . وبناء على هذا المصدر ، فإن الجزائريين يفضلون « العافية » على « الجهاد » وقد أضاف ايميري بأن الجزائريين لم يكونوا يحاربون حرباً مقدسة ، بل كانوا يحاربون ضد حضور جنود أجانب لم يشعروا بأي سبب يرغمهم على التسليم اليهم . أنظر أيميري ، « حالة الجزائر العقلية والمعنوية » في « ر.هـ.م.ك. » ، م أ (جويليه ـ سبتمبر ، 1954) ص 211 ـ 212 .

(50) ابن حبيلس ، ص 127 .

(51) أنظر ميللي ، « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 736 .

المحافظين (بجمعياتهم الدينية ، وعلمائهم ، ونوابهم ، وأسرهم الكبير) قد يترصدون فرصة دخول فرنسا في مصاعب ويعلنون برنامجهم الوطني من ناحية والاصلاحي ـ الاسلامي من ناحية أخرى.

3. جماعة النخبة :

وهناك كتلة أخرى ، كانت منافسة للمحافظين ، تلك هي جماعة النخبة[52] . لقد كان لأعضاء هذه الكتلة برنامجهم ونظرياتهم الخاصة في السياسة الجزائرية . كانوا طموحين ومتفتحي العقل . لذلك فهم جديرون باهتمام خاص نظراً لدورهم الهام في دفع القضية الوطنية خلال عهد النهضة.

في سنة 1911 أراد عضو في جماعة النخبة أن يعرف جماعته فقال انها « ثريات الشبان المتخرجين من الجامعات الفرنسية والذين كانوا قادرين ، بأعمالهم ، أن يصعدوا فوق الجماهير وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة الحقيقيين »[53] . وقد ميز نفس الكاتب بين « الأغلبية » من الشواش ، والكتاب العاديين ، ومساعدي الصيدليين الفتيان ، وبين « الأقلية » من الشبان الجزائريين الذين حصلوا على « تعليم جاد » والذين كانوا يحتلون مناصب في الخدمة الوطنية ، والجندية والتعليم والقضاء الإسلامي)[54].

أما المستعرب الفرنسي جورج مارسي ، الذي كان مديراً للمدرسة الجزائرية الإسلامية بتلمسان ، فلم يتفق مع هذا التعريف للنخبة الجزائرية . فهو لا يعتبر النخبة تلك الأقلية من الموظفين ، والمحامين ، والصحافيين ، والمعلمين ، ولكن أولئك الجزائريين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية والذين يعرفون في نفس الوقت عن مؤلفي العصر الإسلامي الذهبي وعن كتاب التراث الفرنسي[55] . وقد عبر

---

(52) نشر هذا الفصل بالإنكليزية مع بعض التعديل في (مجلة الدراسات الافريقية الحديثة) عدد 5 ، 1 (1967) . ص 69 ـ 77 . والمجلة تطبع في بريطانيا .

(53) ابن حبيلس ، ص 107 .

(54) نفس المصدر ، ص 109 ـ 110 .

(55) نفس المصدر ، ص 2 (المقدمة) .

علي مراد عن رأي شبيه بهذا في تعريفه للنخبة الجزائرية إذ قال بأنها جماعة يحسنون اللغتين ، وينتمون إلى الطبقة المثقفة ، أي تلك الجماعة التي درست كلا من الحضارة العربية والفرنسية[56].

ومعظم الكتاب يتفقون على أن النخبة الجزائرية كانت بطيئة في الظهور وصغيرة في العدد ، وقد أشرنا من قبل إلى أن هذه الطبقة قد بدأت في الظهور في أواخر القرن التاسع عشر . فالكاتب الفرنسي بوسكي يصف طريقة ظهور النخبة بأنها كانت « مؤلمة » و « بطيئة » . كما سبقت الإشارة إلى أن الكاتب الفرنسي ، ألود ، قال سنة 1907 بأنه لا يوجد في الجزائر أكثر من 450 مثقفاً جزائرياً . وقد عبر المؤرخ الفرنسي ، لوري - بوليو ، على رأي شبيه بذلك حين سمى جماعة النخبة « الجزائريين المتأوربين »[57].

ولم يكن تكوين جماعة النخبة محل اتفاق أيضاً بين الكتاب . فأعضاء هذه الطبقة كانوا يعتبرون أنفسهم أقلية ممتازة منفصلة عن أغلبية ناقصة تتكون من فلاحين جهلة ، ومرابطين خرافيين ، وعلماء رجعيين ، وأعيان مستسلمين . ان بعض الكتاب قد حاولوا توسيع عدد النخبة لكي يشمل المترجمين ، والمحامين ، والأطباء ، والمعلمين ، والقضاة ، والصحفيين ، وبعض التجار ، والعمال الزراعيين ، والطلبة[58] . ويفضل آخرون أن لا يطلقوا اسم « النخبة » إلّا على الفئات الست الأول[59].

ويبدو أن الفرق قد جاء من سوء فهم عبارة « النخبة » فالذين أضافوا إلى القائمة

---

(56) « أ.ب.ل.أ » ، م 27 (1964) ، ص 13 .

(57) « فرنسا في أفريقيا الشمالية » ، في « ر.د.م. » (1906) ، ص 60 ـ 62 وتعني العبارة الجزائريين الذين صاروا كالأوروبيين .

(58) نفس المصدر .

(59) ابن حبيلس ، ص 109 ـ 110 . في سنة 1951 قال الكاتب الفرنسي ج . هاردي في كتابه « التاريخ الإجتماعي للإستعمار الفرنسي » بأنه لم يكن هناك أكثر من ألف عضو في جماعة النخبة . أنظر أرون ، ص 296 . أما مؤلفو « البيان الجزائري » سنة 1943 فقد قدروا أن عدد أعضاء جماعة النخبة يبلغ 1655 شخصاً ، مقسمين كالتالي : ألف عامل إختصاصي ، 41 طبيباً ، 22 صيدلياً ، وأطباء أسنان ، 3 مهندسين ، 7 محامين ، 10 معلمين في المدارس الثانوية ، و 500 مدرس . أنظر ساراسين ، ص 184 .

بعض التجار ، والعمال الزراعيين وأصحاب المهن الأخرى كانوا يتحدثون عن الطبقة الوسطى الجزائرية عموماً ، بينما أولئك الذين ينعتون النخبة بأنها بعض الأطباء ، والمحامين ، والصحافيين كانوا يتحدثون عن الجماعة الجزائرية ذات الثقافة الفرنسية .

على أن قوة كتلة النخبة لم تكن محل اتفاق بين الكتاب أيضاً ، فالكاتب الفرنسي الاشتراكي جون جوريس قد وصف النخبة الجزائرية بأنهم أناس ضائعون بين الحضارتين العربية والأوروبية . ويقال انه قد قال عنهم : « اننا مزقنا الشبان الجزائريين بين حضارتين : وسرعان ما فقدوا الاتصال بحضارتهم ، ولكنهم غير قادرين على الدخول في حضارتنا إلّا بصعوبة[60] .

أما سيرفي ، الصحفي والكاتب الفرنسي الذي كان يعيش في الجزائر ، فقد قارن النخبة الجزائرية بجماعة « تركيا الفتاة » وجماعة « مصر الفتاة » في الطموح والآمال في تولي الزعامة السياسية . فقد وصفهم بأنهم فخورون ، واعون لدورهم ، يحملون معهم أفكاراً سيئة (أي أفكاراً معادية لفرنسا) ، غير راضين بالحالة التي هم فيها ، طموحون ، حالمون بدور هام يلعبونه في شؤون بلادهم ، وأنهم في الجزائر بمنزلة جماعة « تركيا الفتاة » ، في تركيا . ولكن سيرفي يتفق على أن جماعة النخبة الجزائرية لم ترفع علم « الجزائر للجزائريين » خلافاً لأعضاء تركيا الفتاة الذين كانوا يحاولون استعادة بناء امبراطوريتهم ، ولأعضاء مصر الفتاة الذين كانوا يطالبون « بمصر للمصريين »[61] .

ان جماعة النخبة لم « يتبنوا أفكار الغرب ، ووسائل عيشه ، وطريقته في العمل . . وثقافته وتعليمه »[62] فقط ، بل أيضاً أرادوا أن يحولوا المجتمع الجزائري إلى مجتمع أوروبي . ونظراً لتعليمهم فقد شعروا بأنهم قطعوا من بقية المجتمع ، الذي كان غريباً عنهم . لقد كانوا يشعرون بعقدة الكمال بالنظر إلى المجتمع

(60) نص على ذلك أوكتاف ديبون ، « البربر في فرنسا » في « أ.ف.س. » ، (سبتمبر ، 1925) ، ص 444 .
(61) أشار إلى ذلك ابن حبيلس ، ص 108 ـ 109 .
(62) ساراسين ، ص 184 من نص « البيان الجزائري » ، سنة 1943 .

الجزائري ، ولكن كانوا يشعرون بعقدة النقص بالنظر إلى المجتمع الفرنسي ، ونتيجة لذلك ضاعوا ، كما قال جوريس ، بين المجتمعين.

ولكن جماعة النخبة واصلوا نضالهم . فبعد أن أضاعوا لغتهم ، وعادات ، واحترام ، وصداقة مجتمعهم أداروا وجوههم نحو الحياة الأوروبية . لذلك تزوجوا في كثير من الأحيان بفرنسيات ، وتكلموا اللغة الفرسية ، وعاشوا مع المجموعة الفرنسية ، وأرسلوا أطفالهم إلى المدارس الفرنسية ، محاولين أن يخرجوهم على الطريقة الفرنسية . غير أن جماعة النخبة لم يكونوا مجرد عامل سلبي في عهد النهضة الجزائرية ، بل كانوا شغوفين في أن يلعبوا دوراً وطنياً قد يجعل المجتمع الجزائري التقليدي والمتخلف مجتمعاً حديثاً متقدماً.

وقد كانت طريقة جماعة النخبة في تطبيق برنامجهم بسيطة . أنهم بدأوا بالتفريق بين فرنسا الديمقراطية وفرنسا الاستبدادية . ثم استغاثوا بالأولى ضد الثانية . كما نادوا الفرنسيين الليبراليين والجمهوريين ضد الكولون والمستغلين[63] . وفي نفس الوقت وجهوا غضبهم ضد العلماء ، والأعيان والمرابطين الجزائريين متهمين اياهم بالرجعية ، وبأنهم حواجز في طريق التقدم والحياة الحديثة . وقد قام جماعة النخبة بحملة ضد العادات القديمة ، والمرابطية ، والخرافات ، والاجحاف . ولكنهم وجهوا حملتهم أيضاً ضد الكولون ، الذين اتهموهم بالعنصرية ، والاستبداد والتصرفات غير الديمقراطية (مثلاً غير الفرنسية في نظر النخبة)[64].

ولم يكن برنامجهم لا متطرفاً في النظرة ولا صعباً في الطبيعة . كل ما فعله جماعة النخبة هو أنهم طلبوا من فرنسا أن تضع موضع التنفيذ ما كانت قد كتبته على الورق بخصوص الجزائر . فإذا كان القانون الفرنسي قد أعلن أن الجزائر مقاطعة فرنسية . وإذا كانت الجمهورية الثالثة قد أوضحت أنها تفضل الادماج الكامل لهذه المقاطعة في فرنسا فإن جماعة النخبة قد طالبوا ، بتطبيق هذه القوانين على الجزائر .

---

(63) أنظر عباس ، ص 110 .

(64) إن هذه الحملة قد إمتدت حتى إلى أولئك الفرنسيين الذين حاولوا أن يبقوا على التقاليد الجزائرية ، مثل نابوليون الثالث ، الذي لامه جماعة النخبة على موقفه من « الإحترام المطلق للعقلية والتقاليد الجزائرية » . أنظر ابن حبيلس ، ص 105 .

بالروح وبالحرف . فطالبوا بالمساواة في الحقوق السياسية مع الفرنسيين ، وبإلغاء قانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية ، وبالتمثيل النيابي للجزائريين ، والمساواة في التعليم والضرائب ، وفرص العمل . وباختصار فإن جماعة النخبة قد فضلوا التجنيس الكامل ، والاندماج ، وغير ذلك من الاجراءات الأخرى التي قد تساعد على « توحيد » الجزائر مع فرنسا .

ولم يشترط جماعة النخبة على فرنسا الا شرطاً واحداً ـ وهو أن لا تطلب منهم التخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين . وبعبارة أخرى ، فإنهم قد طالبوا بإلغاء قانون الجنسية المعروف بـ «ساناتوس كونسولت » ، 1865 ، الذي نص على أن الجزائري لا يمكن أن يتمتع بامتيازات الجنسية الفرنسية الا عندما يتخلى عن حالته الشخصية كمسلم . وهذا المطلب الموجه لفرنسا من جماعة النخبة ، رغم أنه يبدو بسيطاً جداً ، يمثل رمز تمسكهم بالوطنية . ذلك أنهم ، بينما كانوا يطالبون بكامل الحقوق السياسية كمواطنين فرنسيين ، كانوا يريدون أن يبقوا على كامل حقوقهم السياسية كجزائريين . وقد فهم المشرعون والساسة الفرنسيون هذا التناقض ورفضوا تغيير قوانينهم فيما يتعلق بهذا الموضوع .

وكان جماعة النخبة يعتبرون مطالبهم الاصلاحية حداً أدنى . فهم لم يكونوا خياليين فيطالبوا ، كما قالوا ، بكل امتيازات المواطنين الفرنسيين . إن المذكرة التي قدموها الى الحكومة الفرنسية ، سنة 1912 ، توضح برنامجهم الرسمي . فقد طالبوا فيها ، بالاضافة الى بعض التحويرات في قانون التجنيد الاجباري ، بالغاء الاجراءات الاضطهادية ، وتمثيل نيابي « جدي » و « كاف » للجزائريين في جميع المجالس ، وتوزيع عادل للضرائب ، والمساواة في جميع فوائد الميزانية[65] .

وقد أصر جماعة النخبة على أن « آمالنا ومطالبنا كانت . . عادلة وشرعية »[66] . وأوضحوا بأن برنامجهم لم يكن مفيداً للجزائريين فقط ولكنه مفيد

---

(65) أنظر النص الكامل لهذه المذكرة في ابن حبيلس ، ص 117 ـ 121 .

(66) من رسالة إلى محرر « ديبيش دي كونستانتين » كتبها عضو في جماعة النخبة ، وهو مختار حاج سعيد المحامي ، التي نقلها كاملة نفس المصدر ، ص 128 ـ 131 . وقد ادعى كاتب هذه الرسالة بأنه كان يعبر عن مشاعر جميع أصدقائه .

للادارة الفرنسية أيضاً . فهم يقولون أنه بدل أن تبقى الادارة على رأيها في اعتبار مطالب الجزائريين « خطراً قومياً » ، عليها أن تشرع في تحسين حالتهم وتطوير المجتمع الجزائري تطويراً حديثاً[67].

ومن الحقائق الهامة عن جماعة النخبة اعترافهم بأنه كان للاستعمار في الجزائر بعض المحاسن . ولا شك أن هذا الرأي كان يعتبر ، بعد عقد أو عقدين ، معادياً للوطنية ، ولكن جماعة النخبة ، الذين انفصلوا عن ماضيهم وكانوا جاهلين لتاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، قد اتبعوا وجهة نظر المستعمرين في القول بأن الجزائر ، قبل الاحتلال ، كانت تعيش في « الاضطراب ، وعدم النظام ، والفوضى العامة »[68] . لذلك مدحوا فرنسا على احضار الأمن والهدوء الى الجزائر . وقالوا بأنه كان للاستعمار محاسن اجتماعية واقتصادية . وبناء على هذه النظرية ، فإن الجزائريين قد وجدوا ، بفضل الاستعمار ، العمل ، رغم أن أجرهم كان ضعيفاً ، كما أن وجود الكولون قد أدخل تغييرات على العقلية وطريقة الحياة الجزائرية[69] . ولكن جماعة النخبة لم يعترفوا بأن الاستعمار قد أحضر الى الجزائر المساواة والسعادة . ولهذا السبب هاجموا بشدة الكولون واعتبروهم عنصريين واستبداديين.

وعندما وقف الكولون ضد آمال جماعة النخبة السياسية رد عليهم الأخيرون بأن موقفهم كان غير عادل . فبعضهم اتهم الكولون باضطهاد الأغلبية الجزائرية ، والحصول على أراضي الفلاحين عن طريق سوط الاداريين في البلديات المختلطة[70] . كما اتهم جماعة النخبة الكولون بزرع الحقد وعدم النظام بين المجموعتين الفرنسية والجزائرية . وقد وعدوا بأنهم سيبقون الخصوم السياسيين للكولون الى أن يحصل الجزائريون على مطالبهم العادلة والشرعية[71].

وقد كان التعليم الفرنسي في أعلى قائمة مطالب جماعة النخبة من فرنسا . فقد

---

(67) نفس المصدر ، ص 138 .

(68) نفس المصدر ، ص 7 .

(69) نفس ، ص 10 وما يليها . أنظر أيضاً اسماعيل حامد « المسلمون الفرنسيون في أفريقية الشمالية » (باريس : كولين ، 1906) كما راجعته « أ.ف.س. » (أوت ، 1906) ، ص 267 ـ 268 .

(70) ابن حبيلس ، ص 3 ـ 4 .

(71) نفس المصدر ، ص 128 وما يليها .

رفضـوا الحجة الاستعمـارية القـائلة بأن الجـزائريين كـانوا غيـر قابلين للتعليم ولا للتصحيح . كانوا ينظرون الى التعليم على أنه ضرورة وخير لا بالنسبة للمنتصرين فقط ، بل بالنسبة للمهزومين أيضاً . كما كذبوا الادعاء القائل بأن الجزائريين كانوا أعداء للمدرسة . وبالاضافة الى ذلك ، فإن جماعة النخبة قد احتجوا بأن التجربة قد أظهرت بأنه لا فرق بين الطلبة الجزائريين ، والفرنسيين في التعليم والذكاء وأصروا على أن الجزائريين قد أظهروا اهتماماً عظيماً بالتعليم منذ سنة 1880 ، وأن لهم احتراماً عميقاً للإنسان المتعلم.

وقد ذكر جماعة النخبة الفرنسيين بأن الحضارة الاسلامية ، التي ينتمي اليها الجـزائريـون ، تكن احترامـاً عاليـاً للتقدم الأخـلاقي والانساني . لـذلك تقـدمـوا بالاقتراحات التالية :

1 ـ وضع برنامج خاص لتعليم الجماهير الجزائرية موضع التنفيذ .

2 ـ اصلاح المدارس الجزائرية ـ الفرنسية ، التي أصبحت مثل أديرة (مونستاري) التعليم الأوروبية خلال العصور الوسطى أو الزوايا الجزائرية .

3 ـ نشر التعليم الفرنسي والثقافة الأوروبية لتطوير المجتمع الجزائري.

وباختصار فإن جماعة النخبة قـد لاموا الفـرنسيين على فعل القليـل ، أو لا شيء ، بخصوص تعليم الجزائريين . لذلك شعروا أن من واجبهم المطالبة بتحسين ومضاعفة الجهود لنشر التعليم.

ومن جهة أخرى وجه جماعة النخبة عنايتهم الى مشكلة الشباب الجزائري . غير أنهم قد ميزوا بين شباب الأرياف ، حيث الخبز أكثر أهمية من الكتب ، وشباب المدن ، حيث المال والحالة العائلية تساعد عادة على الحصول على بعض التعليم الضروري.

وقد اصطدم جماعة النخبة بأميـة ، وكسل ، و« ارتخـاء » ، وضياع شبـاب المدن الجزائري الذي يستيقظ على الساعة الحادية عشرة صباحاً ويقضي الليل باحثاً عن البغايا والمخدرات . لذلك نادوا هذه الفئة من الشعب أن :

1 ـ تحـافظ على « التقاليـد القوميـة » ، ولكن تتذكـر بأن التقـاليد ، مثـل جميـع المخلوقات ، قد تكون جيدة وقد تكون سيئة .

2 ـ تفتح عينيها : لأن الوقت قد حان للاستعداد للمسؤولية .

3 ـ تذهب الى المدارس الثانوية (ليسيات) والمدارس الجزائرية ـ الفرنسية التي كانت متوفرة في المدن ولكن مفقودة في الأرياف .

4 ـ تصرف نقودها في ما هو جيد ومحترم .

وأخيراً ذكر جماعة النخبة شباب المدن الجزائري الأمي ، الكسول ، بأن « سنوات التدهور » قد مضت ، وأن « ذلك يجب أن ينتهي !! »[72].

وبنفس الروح نادى جماعة النخبة باصلاح أحوال الفلاح الجزائري . ذلك أنهم اصطدموا بالحقيقة وهي أن الفلاح قد بقي جاهلاً لا بماضيه المجيد ودينه العظيم فقط ولكن جاهلاً بفكرة الوطن أيضاً بسبب سياسة البلديات المختلطة واستغلال الكولون له . وكان معظم جماعة النخبة يعتقدون أن الفلاح كان مضطهداً وأن أحواله قد بقيت كما كانت قبل 1830 .

ولكي يعالجوا حالة الطبقة الثالثة الجزائرية ، اقترح جماعة النخبة بعض الاقتراحات . وكانت هذه تشتمل على مضاعفة الجمعيات الخيرية ، والمساعدات الطبية ، والعناية بالكبار ، والغاء نظام « الخماسة » الذي كان الفلاحون ، ولا سيما المرأة ضحايا له . ان عضوا من جماعة النخبة قد حاول انهاء نظام الخماسة ، ولكنه اتهم من الكولون بالدعوة إلى الثورة[73].

ومن بين المقترحات التي قدمها جماعة النخبة لتحسين حالة الطبقة الثالثة الجزائرية تسهيل الهجرة الى فرنسا . وفي سنة1912 فتح أحد الجزائريين مكتباً في العاصمة لكي يساعد مواطنيه على الهجرة الى فرنسا . وقد برر جماعة النخبة اقتراحهم بأن الهجرة الى فرنسا ستكون لها فوائد بالنسبة الى الجزائريين والى فرنسا نفسها ، وذلك لأنها :

1 ـ سترفع من حالة الجزائريين المعنوية من خلال الاتصال بالآخرين والتعرف على مجتمعات مختلفة .

2 ـ ستضاعف من تصوراتهم وتجاربهم التي قد يجدونها مفيدة حينما يعودون الى بلادهم .

---

(72) ابن حبيلس ، ص 103 ـ 104 . من المفهوم أن هذا النداء كان موجهاً إلى شباب الأرستقراطية الجزائرية أو الأسر الكبيرة ، الذين كانوا أغنياء ، ولكن أهملوا التعليم .

(73) نفس المصدر ، ص 61 وما يليها .

3 ـ ستصلح من حالتهم المادية ، بالاضافة الى أحوال عائلاتهم في الجزائر ، لأن الأجور في فرنسا أعلى منها في الجزائر .

4 ـ ستعطي للاقتصاد الفرنسي فرصة اليد العاملة الرخيصة[74] .

وقد قبل جماعة النخبة ، من حيث المبدأ ، التجنس بالجنسية الفرنسية والدخول تحت القانون الفرنسي . وكانوا ينظرون الى الدين، الذي وقف حجر عثرة في طريق التجنيس ، على أنه قضية ضمير شخصي ليسَ قانوناً ينظم حياة المسلم . ولكن رأى المجتمع الجزائري بخصوص قضية التجنيس قد منع جماعة النخبة من الدخول في المجتمع الفرنسي ، بدون شرط . وفي نفس الوقت ، كان المتجنسون الجزائريون ، الذين كانوا عادة من جماعة النخبة ، محل تفرقة من طرف الفرنسيين ، بالمقارنة الى المتجنسين الأجانب الآخرين . وبالاضافة الى ذلك فإن المفتيين الجزائريين قد اعتبروا ، باسم الدين ، بأن التجنس يساوي التخلي عن الدين الاسلامي . فالجزائريون الذين قبلوا التجنس كانوا يسمون بالمرتدين وكانوا يعاملون بدون احترام .

وكان موقف جماعة النخبة من ذلك هو السخط على الفرنسيين للتمييز بين المتجنسين ، والحملة ضد المفتيين الجزائريين لتعصبهم الديني ، ولعن المجتمع لقسوته المتناهية . ونظراً لهذا الاجحاف ، اعتبر جماعة النخبة أنفسهم « خارجين عن القانون بالنسبة الى كلتا المجموعتين[75] » . ومن هنا دعوا الى التقارب والتفاهم بين الفرنسيين والجزائريين . ولكي يتغلبوا على الاجحاف ، والتعصب ، وجدران سوء التفاهم العالية ، نادى جماعة النخبة بالزواج بين الطائفتين ، وتبنى الجزائريين لطرق الحياة الفرنسية[76] .

وقد وجه جماعة النخبة هجوماتهم أيضاً ضد « العراقيل » الجزائرية في طريق التقدم : كتلة المحافظين . فقد استنكروا مواقف هذه الطبقة واتهموهم بعداوة الوطنية ، ومعارضة التقدم والاسلام الحقيقي . كما أطلقوا عليهم جميع الأسماء

---

(74) نفس المصدر ، ص 75 وما يليها ، بخصوص هذه المسألة أنظر سابقاً .

(75) نفس المصدر ، ص 111 وما يليها .

(76) أنظر « أ.ف.س. » (أوت، 1906) ص 267 ـ 268 .

المنقصة ، من « حصون الاجحاف » الى «البورجوازية المتعجرفة . . التي ليس لأعضائها أية قيمة سوى كونهم أدوات زينة في المتنزهات وفي الأماكن العامة(77) .

إن جماعة النخبة كانوا ينظرون الى هؤلاء الجزائريين الفاسدين، الجهلة ، وغير الشرفاء ، في نظرهم كأدوات استغلال في يد الادارة الفرنسية في البلديات المختلطة، وأيضاً كحواجز بينهم وبين الجمهور ، لأن فرنسا قد استعملت هذه « الأدوات » لتبقى على قبضتها فوق الفلاحين(78).

وبالإضافة إلى ذلك فإن جماعة النخبة قد استنكرت هذه « الطبقة الاقطاعية » الجزائرية متهمة اياها بالتعصب ، والإجحاف ، والرجعية ، واتخاذ شعار : « لا تمس التقاليد » . كما رموهم :

1 ـ بإعلان ثورة 1871 تحت راية الدين .

2 ـ بمعارضة الإسلام الحقيقي ، الذي يهتم بالدرجة الأولى بالتقدم ، والتضامن ، والعمل (وبناء على رأي جماعة النخبة فإن المحافظين قد حولوا الإسلام من نظام رائع إلى مذهب بغيض في أعين الأجانب) .

3 ـ بأنهم « أولاد بلاد » ، كسولون ، معفنون(79) . وهكذا فصل جماعة النخبة أنفسهم عن المحافظين الجزائريين ، كما فصلوا أنفسهم عن الكولون الفرنسيين .

ورغم آرائهم اللائكية وتسامحهم ، وثورتهم ضد التعصب ، فإن جماعة النخبة كانوا قد اتهموا من خصومهم الفرنسيين باعتناق فكرة الجامعة الإسلامية ، وبكونهم « فتياناً أتراكاً » ، وبكونهم مستغلين للمشاعر الدينية لدى الجماهير الجزائرية(80) .

---

(77) ابن حبيلس ، ص 83 ـ 84 . معظم المحافظين كانوا يلبسون برانس فضفاضة وعمائم ضخمة .

(78) نفس المصدر ، ص 35 وما يليها .

(79) نفس المصدر ، ص 92 وما يليها .

(80) أشار إسماعيل حامد ، سنة 1906 ، بأن الدين كان يتدهور بين الجزائريين ، وإن أغلبيتهم قد أصبحوا لائكيين . أنظر « أ.ف.س. » (أوت ، 1906) ، ص 267 ـ 268 ، وفي سنة 1948 اتهم الكاتب الفرنسي ، ساراسين ، جماعة النخبة « بحمل لواء الدين » لكي يثيروا الجماهير . أنظر ص 78 . كما أن سير في ، الذي أشير إليه في هذا الكتاب ، قد اتهم جماعة النخبة بالايمان بالجامعة الإسلامية وبالتحضير ، على طريقة الفتيان الأتراك ، للتخلص من النير الفرنسي .

وفي دفاعهم ، أنكر جماعة النخبة أن لهم أية علاقة بحركة الجامعة الإسلامية ، وقد أوضحوا بأن :

1 ـ برنامجهم لم يشتمل على أية مطالب عن الجامعة الاسلامية .

2 ـ قبولهم لمبدأ التجنس وللتجنيد العسكري الاجباري قد أظهر عكس ذلك.

3 ـ مناداتهم بالتعليم الفرنسي ، والزواج المختلط ، وعيشتهم « على الطريقة الفرنسية » . وعملهم بالدين بطريقة بسيطة جداً ، كل ذلك يشير إلى أنهم لم يكونوا مصلحين اسلاميين.

4 ـ كون الجزائر لم تعرف هذه الحركة منذ ثلاثين سنة . وقد أصر جماعة النخبة على أنه ، إذا كانت المناقشة حادة بخصوص حركة الجامعة الإسلامية في الجزائر ، فذلك يعود إلى أن هذه الحركة كانت عندئذ موضوعاً شعبياً ، ولكنها لم تكن مذهباً لهم[81].

والحق أن هناك تفسيراً فجا ، رغم أنه مهم لحركة الجامعة الإسلامية عند جماعة النخبة ، ففي رسالة بعث بها إلى محرر « لاديبيش دي كونستانتين » ، سنة 1913 ، تحدث السيد حاج سعيد ، وهو محام من قسنطينة ، عن هذه القضية . يقو السيد حاج سعيد ، باسم « أصدقائه » جماعة النخبة ، بأن هناك مشاعر وعواطف مشتركة بين فلاحي الجزائر وفلاحي الشرق الأدنى ، تماماً كما كانت هناك نفس العواطف بين المسيحيين واليهود . ولكن حاج سعيد يصر على أن هذه العواطف ليس لها مضمون سياسي أو مذهبي في الجزائر.

أما بخصوص ميولهم نحو الخلافة الإسلامية ، فإنهم يقولون ، بناء على رسالة السيد حاج سعيد ، بأنهم ، كمسلمين ، يعتبرون اسطانبول والخلافة بنفس الاعتبار الذي يضفيه المسيحيون على رومة والبابا . وهم يصرون على أن ذلك لم يكن سوى عاطفة دينية تربط الجزائر بالعالم الإسلامي . كما ردوا على الاتهام القائل بأنهم كانوا يتآمرون مع « الفتيان الأتراك » بأن ذلك لا أساس له من الصحة وأنه لا علاقة بينهم وبين الثورة التركية ، غير أنهم اعترفوا بأنهم قاموا بنشاطات مختلفة لصالح الليبيين ولصالح لجنة الوحدة والتقدم التركية خلال الحرب العثمانية ـ الايطالية ، ولكن

---

(81) ابن حبيلس ، ص 22 ـ 123 .

جماعة النخبة أكدوا بأن تلك النشاطات قد أذنت بها الإدارة الفرنسية نفسها[82].

ولعل تناقض رأي جماعة النخبة ، وفجاجته في بعض الأحيان ، عن الإسلام والقومية ، كان من جهة نتيجة لاضطهاد السياسة الفرنسية ، التي منعتهم من تكوين آرائهم بحرية وصراحة ، وكان من جهة أخرى نتيجة لجهل أكثرهم بأحوال العالم في ذلك الوقت . فبينما كانوا يؤمنون باللائكية ، والتسامح ، وبساطة الدين ، كانوا مصلحين اسلاميين متحمسين لرفضهم التجنس جماعياً إلّا إذا رفعت فرنسا شرطها في المطالبة بالتخلي عن أحوال المسلم الشخصية . وقد فسروا تأييدهم للخلافة على أنه عاطفة أخلاقية ، تشبه العاطفة التي تربط الكاثوليكيين بالبابوية ، ناسين الأهمية السياسية لكل من النظامين (الخلافة والبابوية) . ورغم أن جماعة النخبة قد نصحوا الشباب الجزائري بأن يحافظ على « التقاليد الوطنية » ودافعوا عن كثير من النظم المحلية ، فإنهم قد أيدوا ، على العموم ، النظرية القائلة بأن اللغة العربية كانت غير مثمرة وأوصوا بدراسة العلوم والثقافة باللغة الفرنسية[83].

وبالمقارنة إلى جماعات النخبة الأخرى المعاصرة ، نجد جماعة النخبة الجزائرية تحتل مكاناً خاصاً . فكثير من الكتاب الفرنسيين في ذلك الوقت قد قارنوا « الفتيان الجزائريين » بالفتيان الأتراك ، والتونسيين ، والمصريين ، والهنود . وكان بعض هؤلاء الكتاب يكتفون بمجرد تقرير الحقائق ، ولكن آخرين كانوا يتهمون جماعة النخبة الجزائرية بالقيام بنشاطات ومؤامرات شبيهة بتلك التي كان يقوم بها الفتيان الأتراك أو المصريون.

ولكن كل الكتاب كانوا متفقين على أن عالم الشرق الأدنى عموماً والعالم الإسلامي خاصة كانا في مرحلة يقظة أثناء العقد الأول من هذا القرن . وقد كانت موجة هذه الحركة ، التي كانت قاعدياً سياسية ، قد امتدت من الهند إلى الجزائر . وكان معظم الكتاب يعتقدون أن جماعة النخبة الجزائرية قد لعبوا دوراً هاماً في هذه الظاهرة العامة ، التي كانت تتطور نحو « اتجاه ديني »[84].

---

(82) نفس المصدر ص 128 وما يليها .

(83) أنظر ليروي - بوليو « فرنسا في أفريقية الشمالية » في « ر.د.م. » (1906) ، ص 60 .

(84) ادوارد دي بيللي ، « أ.ف.س. » ، (مارس ، 1914) ، ص 90 - 91 .

ان طلب التعليم قد تقدمت به كل حركات النخبة الى السلطات الحاكمة . وبناء على رأي دي بيللي ، فإن كل جماعات النخبة الاسلامية بما في ذلك النخبة الجزائرية ، كانوا ينادون بالتعليم كوسيلة « لاسترجاع مكانتهم الضائعة » . وينص دي بيللي على أن النخبة في مصر قد طالبوا بالتعليم منذ أمد طويل ، ولكن النخبة الجزائرية قد بدأوا هذه الحملة أخيراً فقط . أما بخصوص قضية الحكم الذاتي ، فإن كلا من النخبة الجزائرية والمصرية كان ينشد أن يحكم بنفسه[85] . ولكن جماعة النخبة الجزائرية لم تظهر اتجاهات معادية للأوروبيين كالتي أظهرها الوطنيون المصريون خلال نفس العهد . وقد أنذر بعض الكتاب على أن روح الثورة لدى الجزائر أكثر خطورة من العواطف المعادية للأوروبيين في مصر ، لأن الجزائريين كانوا أكثر حربية ومغامرة من المصريين[86] .

وفي سنة 1909 حاول عضو في النخبة الجزائرية أن يقارن طبقته الخاصة بمثيلتها في تونس . وقد وجد أن هناك فرقاً بينهما . فقال ان النخبة في تونس كانوا أكثر قوة لأنهم كانوا يتمتعون بحق التمثيل النيابي ، والاجتماع والتنظيم ، بينما كان النخبة في الجزائر ضعفاء لأنهم كانوا معزولين ، موزعين ، وبدون حقوق سياسية[87] .

وكما فصل النخبة أنفسهم عن الفتيان الأتراك ، كذلك فصلوا أنفسهم عن النخبة التونسية ، الذين كانوا بصراحة يتخذون موقفاً معادياً لفرنسا . ومن بين هؤلاء التونسيين علي باش حانبة ، الذي طرده الفرنسيون من تونس سنة 1912 والذي يقال أنه انضم إلى لجنة الوحدة والتقدم التركية . وقد قاد علي باش حانبة دعاية محكمة من القسطنطينية ضد الحضور الفرنسي في تونس والجزائر . وكان باش حانبة هذا هو زعيم حزب (الشباب التونسي) وهو صاحب جريدة (التونسي) التي كانت تصدر بالفرنسية. وبعد نفيه أسس سنة 1916 في اسطانبول (لجنة تحرير المغرب العربي)[88] .

---

(85) نفس المصدر ، ص 97 . أنظر أيضاً فيليب ميللي « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 729 .

(86) ميللي « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 736 .

(87) ابن علي فخار ، « ر.م.م. » ، (1909) ، ص 71 ـ 18 .

(88) بخصوص رأي النخبة في حركة علي باش حانبة ، أنظر ابن حبيلس ، ص 128 ـ 129 . يجب أن =

ان نظرة دقيقة إلى برنامج النخبة الجزائرية ستجعل المرء يقدر دورهم الوطني . كانت هذه الطبقة ما تزال ضعيفة وصغيرة خلال العقد الأول من هذا القرن . وقد ثار النخبة ضد الوضع السائد عندئذ لأنهم واجهوا عراقيل متعددة ، منها طبيعة المجتمع الجزائري ، وسوء التفاهم ، وإجحاف الكولون ، وسياسة الإدارة الفرنسية الاضطهادية . ولكن النخبة لم ينادوا في ثورتهم بالعنف والتطرف ، بل نادوا بالعدل ، والمساواة ، والتسامح . انهم لم يرفضوا المنطق الاستعماري فقط ، بل رفضوا منطق شعبهم أيضاً . لقد أرادوا أن يبنوا مجتمعاً جزائرياً جديداً قائماً على التقدم ، والتسامح ، والمساواة . ان تعليمهم ونظرتهم الشاعرية قد جعلت منهم محامين من أجل (يوتوبيا) لم تر الضوء أبداً . كما جعلهم موقفهم المعتدل يبدون ضعفاء وغير مدعمين في عين الإدارة الفرنسية . ونفس الموقف قد عزلهم أيضاً عن شعبهم ، ولم يكسبهم ثقة الكولون أيضاً.

ولعل الضعف الرئيسي لهذه الطبقة يتمثل في عدم وجود منظمة فعالة وقيادة قديرة . فبرنامج النخبة ، بالرغم من أنه كان معتدلاً ومتناقضاً في بعض الأحيان ، كان جيداً إلى حد أنه كان يصلح أن يكون قاعدة لحركة وطنية جزائرية جديدة ، لو أنهم دعموه بزعماء قادرين ومخلصين ، ومنظمة تحسن استغلال المواقف المناسبة.

ولا شك في أن دورهم الوطني كان هاماً ، رغم أنه لم يكن حاسماً . فصحافتهم ، ووفودهم ، وعرائضهم ، وهجوماتهم على الخرافات ، والإجحاف والاستغلال ، وَنِداءاتهم من أجل التعليم العربي ، والتقدم ، والتسامح ، ومساعدة الفلاحين والعجزة - كل ذلك أدى إلى أن تخلق جماعة النخبة ضميراً وطنياً جديداً وطريقة جديدة للمقاومة . ورغم تكذيبهم ونقصان الوثائق التاريخية ، فإنه يبدو أن جماعة النخبة قد أعجبوا بثورة الفتيان الأتراك سنة 1908[89] ، من أجل شعارها المنادي بالتقدم والتغيير في مجتمع شبيه بمجتمع الجزائر .

يتذكر القارىء بأنه خلال هذا العهد كان الأمير علي باشا نائباً لرئيس المجلس العثماني (البرلمان) بينما كان باش حانبة التونسي قاضياً في المحكمة العثمانية . وقد توفي باش حانبة سنة 1918 .

(89) لاحظ نوشي ، دون إعطاء دليل ، بأن الجزائريين قد أعجبوا بثورة الفتيان الأتراك ، وتأثروا بحوادث الشرق الأدنى ، وبالمؤتمر العربي الذي عقد في باريس سنة 1913 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

4. المقاومة الجديدة : العرائض والوفود :

أما على الجبهة السياسية ، فإن النهضة قد جربت نفسها في معركة تحد ضد قانون التجنيد الإجباري . وقد ساهم كل من كتلة المحافظين وجماعة النخبة بنشاط في هذه المعركة ، التي سميت بطريقة الجزائر الجديدة في المقاومة ضد الحكم الفرنسي .

ان استعمال العرائض لم يكن جديداً في تاريخ الجزائر تحت حكم فرنسا . فالحق أنه ابتدأ مع المرحلة الأولى للاحتلال . وقد افتتح العمل بهذه الطريقة حزب المقاومة الذي كان يقوده حمدان خوجة . ولكن هناك فرق بين طريقة العرائض القديمة والجديدة . فبينما لجأت الجزائر القديمة عموماً إلى الاحتجاج والشكوى ، عمدت الجزائر الجديدة إلى تقديم مطالب معينة ، موضحة بأنها كانت تطالب بذلك باعتباره حقاً أخلاقياً وسياسياً .

ففي سنة 1860 ، تقدم الجزائريون بعريضة إلى الحكومة الفرنسية محتجين فيها ضد مشروع إنشاء حكم مدني في الجزائر[90] . وبعد ذلك بعقد ، بعثوا بعرائض إلى نابليون الثالث وإلى الإدارة الفرنسية في الجزائر مذكرين بالتزامات فرنسا في اتفاق الجزائر سنة 1830 ، ومطالبين بوضع حد لسلطة الكولون . وقد اشتكى الجزائريون في هذه العرائض بأن أصواتهم كانت لا تبلغ ، بينما كانت أصوات الكولون تسمع[91] .

وقد اغتنم الجزائريون فرصة مناقشة المجلس الوطني الفرنسي ، سنة 1887 ، لمشروع تجنيس الأهالي بطريقة جماعية ، فأرسلوا عريضة ، بالعربية والفرنسية ، إلى المجلس الوطني الفرنسي أعلنوا فيها معارضتهم المطلقة للمشروع . وقد أوضحوا فيها إلى المجلس بأن الدخول في الجنسية الفرنسية بطريقة التجنس كان ضد مصالح الجزائر . وطالبوا بأن تتركهم فرنسا يحتفظون بتقاليدهم ، وقوانينهم ،

---

(90) ايميري ، « الحالة الروحية لمسلمي الجزائر » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 8 (أبريل - جوان ، 1960) ، 118 .

(91) نفس المصدر ، ص 118 ـ 120 .

وشخصيتهم الخاصة[92] . أو كما عبر عن ذلك فيري مؤخراً ، « دعونا لحالنا ».

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عريضة سنة 1886 قد احتوت على مطالب معينة من المجلس الوطني الفرنسي . والمطالب هي :

1 ـ تنظيم المدارس العربية ونشر تعليم العربية بين الجزائريين .

2 ـ المساواة في التمثيل النيابي بين الجزائريين والفرنسيين في المجالس البلدية والعمالية .

3 ـ استرجاع العمل بالقضاء الاسلامي ، الذي كان قد الغى بقرار سنة 1866[93].

وهكذا تقدمت الجزائر الفتاة إلى الفرنسيين ببرنامج محدد يتمثل في : الإبقاء على الشخصية الجزائرية (معارضة التجنس) ، والاعتراف بالتعليم الوطني وانعاشه ، واستعادة واحترام القضاء الإسلامي.

وقد فتح قدوم لجنة مجلس الشيوخ آفاقاً جديدة أمام الجزائر الفتاة . فاللجنة ، التي قضت 53 يوماً في الجزائر (19 ـ أبريل 5 جوان 1892) كانت تتكون من سبعة شيوخ برئاسة جول فيري . وقد صادف قدومها شروع الجزائريين في المطالبة بالحقوق السياسية والوطنية ، والتعبير عن معارضتهم لقانون الأهالي وللتدخل الفرنسي في شؤونهم الثقافية والاجتماعية . وبينما كان الكولون ينظرون إلى اللجنة في شك ، استقبلها الجزائريون على أمل أنها ستضع حداً لكل ما يشكون منه . ولكن اللجنة استمعت إلى كل الشكاوي ، واستقبلت ممثلين عن مختلف الطبقات ، واستجوبت عدداً كبيراً من الشخصيات المختلفة في المدن والقرى . ولا شك أن محاضر هذه اللجنة تعتبر من الوثائق الهامة في تاريخ الجزائر.

وبناء على تقرير فيري ، فإن الجزائريين قد قدموا عرائض ومطالب معتدلة ، ومعقولة ، وعملية . وهذه العرائض والمطالب قد اشتملت على معارضة التجنس

---

(92) أنظر مصطفى الأشرف ، « الوطنية الجزائرية : معنى ثورة » في « ت.م. » ، (سبتمبر - أكتوبر ، 1956) ، ص 240 ـ 241 . ويقول الأشرف أن المطالب الجزائرية قد وقعت من كل الطبقات . أنظر ص 243 .

(93) نفس المصدر ، ص 241 ـ 242 . أن قرار سنة 1886 قد حد من سلطة القاضي المسلم تمتيناً لسلطة القانون الفرنسي .

(المحافظة على الأحوال الشخصية) ، والتجنيد العسكري الإجباري ، وفرض التعليم بالفرنسية ، والتدخل في الشؤون المدنية[94].

ولكن الجزائريين ، الذين كانوا يشكون من سياسة التفقير والتدهور ، طالبوا « بالإجماع » بما يلي :

1 ـ وضع حد للضرائب الثقيلة .

2 ـ استرجاع العمل بالقضاء الاسلامي .

3 ـ حق الجزائريين في المشاركة في انتخاب رؤساء البلديات .

4 ـ إلغاء قانون الأهالي[95].

وأثناء نفس العهد ، قدم بعض الجزائريين المعينين كممثلين للأهالي لوائح مختلفة إلى الفرنسيين تحتوي على مطالب هامة . فقد طالب أحد الجزائريين ، يدعى لويس خوجة ، سنة 1872 ، بضرورة انتخاب الجزائريين في المجالس المحلية بدلاً من تعيينهم تعييناً من الإدارة الفرنسية . كما نادى أيضاً بإسقاط الشرط الناص على ضرورة معرفة الترشح للغة الفرنسية[96] . وفي سنة 1921 ، ذكر محمد بن رحال ، وهو عضو من كتلة النخبة التقليدية ، بأنه كان قد قرأ « مذكرة » ، سنة 1892 ، أمام فيري توصي بإعادة تنظيم المدارس الجزائرية ـ الفرنسية وإصلاح التعليم العربي[97] .

ويعتقد بعض الكتاب أن لجنة مجلس الشيوخ الفرنسية كانت هامة لأنها ساهمت في يقظة الجزائريين الذين كانوا قد بدأوا يعون مكانتهم . وبناء على رأي مراد ، فإن اللجنة ساهمت أيضاً في التعريف بالقضية الجزائرية عموماً وذلك بعرضها

---

(94) إشارة إلى تبديل أسماء العائلات الذي فرضه قرار 23 مارس ، 1882 .

(95) أنظر أجرون ، « جول فيري والمشكل الجزائري » في « ر. هـ.م.ك. » م 10 « أبريل ـ جوان ، 1963) ، ص 134 ـ 137 .

(96) نفس المصدر ، ص 137 هو السيد لويس خوجة الذي يغلب على الظن أنه كان من المتجنسين الجزائريين ، وكان عندئذ يعمل في محكمة عنابة . ويحتوي جوابه على 61 صفحة . وقد قدم سي سليمان بن خليل ، وابن رحال ، والدكتور ابن العربي مطالب مشابهة . أنظر أيضاً ص 127 .

(97) نفس المصدر ، ص 145 ومن الذين كتبوا تقريراً لهذه اللجنة حميدة بن باديس عم عبد الحميد بن باديس . وقد عثر هذا على تقرير عمه ونشره في مجلة (الشهاب) عدد شهر أفريل 1937 ، ص 62 ـ 71 .

على الرأي العام الفرنسي ، فأعطت بذلك وسائل يستغلها الفرنسيون العاطفون على الجزائريين[98] . ويقول نوشي بأن حق التمثيل النيابي ، الذي طالب به الجزائريون لدى اللجنة ، قد سجل « تغييراً كبيراً » في آرائهم السياسية[99] . كما أن أجرون قد أعطى أهمية خاصة للجنة . ولكن على المرء أن يتذكر بأنه لم تطبق إلا إجراءات محدودة من توصيات هذه اللجنة .

ووسط أزمة المغرب الأقصى الأولى والتهديد بإمكانية حرب أوروبية ، خلقت فرنسا لجنة خاصة للنظر في تطبيق التجنيد العسكري الإجباري على الجزائريين . وهذه الحركة ، التي حاول الفرنسيون أن يبقوها سراً حتى يصدروا قرارهم الأخير في شأنها ، قد خلقت جواً مكفهراً في الجزائر جعل كثيراً من المعاصرين يصفونه بأنه كان ينذر بالخطر[100] . وقد عارض الجزائريون هذه الخطة بكل شدة نظراً لأنها قد جاءت عندما كانت الجزائر الفتاة تبحث عن مكان لها تحت الشمس.

وكانت طبيعة التجنيد الاجباري المتناقضة واضحة لأسباب مختلفة . أولاً ، أن قانون مجلس الشيوخ ، عام 1865 ، قد جرد الجزائريين من حق الجنسية الفرنسية إلّا إذا تخلوا عن أحوالهم الشخصية كمسلمين . فقد اعتبرهم هذا القانون رعايا ، لا مواطنين ، على أساس أن الجنسية الفرنسية لا تتناسب مع حالة الجزائري كمسلم . والفرنسيون ، الذين يطبق عليهم التجنيد الاجباري ، كانوا يتمتعون بكل الحقوق كمواطنين . أما الجزائريون فقد كانوا يعتبرون رعايا ، وبالتالي لم تكن لهم حقوق . فتطبيق « واجبات » التجنيد الاجباري على من ليس له « حقوق » كان يبدو للجزائريين متناقضاً.

والسبب الثاني للتناقض هو أن الجزائريين لم يكونوا رعايا فقط ، ولكن أيضاً رعايا « خاصين » . فقد كانوا يعيشون تحت اجراءات استثنائية ممثلة في قانون الأهالي ، والمحاكم الرادعة ، ومنشور جونار . ولم يكن التجنيد الاجباري في رأيهم سوى حمل جديد يضاف على كاهل الرعايا.

---

(98) «أ.ب.ل.أ.» م 27 (1964) ، ص 14 .
(99) نوشي ، ص 20 .
(100) أنظر « الجزائر » في « أ.ف. » ، (أكتوبر ، 1908) ، ص 342 .

والسبب الثالث للتناقض هو أن التجنيد الإجباري لا يراعي مشاعر الجزائريين الدينية . فهم كمسلمين كانوا ملزمين بأن يعملوا تحت علم قد يأخذهم إلى محاربة اخوانهم في الدين من أجل قضية لم تكن قضيتهم . أما السبب الرابع فهو أن اتفاق الجزائر (1830) قد ضمن الاحترام الكامل للدين ، والقوانين ، والتقاليد الجزائرية . وقد رأى الجزائريون أن التجنيد الاجباري يتناقض مع هذا الاتفاق.

كان الجزائريون مجمعين في معارضتهم للتجنيد الاجباري . فقد وقف ضده المحافظون لمعارضته لنصوص اتفاق 1830 . وأوضحوا أنه كان ضد إرادتهم الدينية التي تحتم عليهم أن لا يعملوا تحت علم غير اسلامي . ووقفوا ضد التجنيد كما وقفوا ضد التجنيس ، لأنهم رأوا أن كلا الخطتين تهدد أحوالهم الشخصية كمسلمين.

كان هناك أربعة أشكال اتخذتها المعارضة الجزائرية للتجنيد العسكري الاجباري : الشغب في الشوارع ، والعرائض ، والوفود ، و« الاختفاء » . وكل هذه الأشكال كانت مؤيدة ، وموجهة ومثيرة بحملة عنيفة قامت بها الصحافة الوطنية . ومن بين الصحف التي شاركت في هذه الحملة : « الحق » ، « الأسلام » ، « الرشيدي »[101] . وكان شغب الشوارع يثار ، بالإضافة إلى الصحافة ، بمنشورات توزع في المقاهي والأسواق داعية للمعارضة ومتهمة فرنسا باختراق اتفاق سنة 1830[102].

وقد جرت في كامل أنحاء الجزائر سنة 1908 مظاهرات تلقائية وجماعية ، ولكن سلمية ، لمعارضة التجنيد الإجباري[103] . وفي بعض الحالات عبر الجزائريون حتى عن آراء « خطيرة » وكانوا يتحدثون عن الثورة[104] . ففي جهة رفيقو وحدها (وهي بلدية ذات صلاحيات كاملة وتدعى حالياً بوقرة) اجتمع 3000 جزائري في البلدية للاحتجاج ضد التجنيد الاجباري . ولم يتفرقوا إلّا عندما وعدهم رئيس المجلس البلدي بدراسة القضية ، وأعطاهم وعداً خاصاً بأنهم لن يرسلوا

---

(101) نوشي ، ص 23 .

(102) أنظر « الجزائر » في « أ. ف. » ، (جانفي ، 1908) ، ص 22 .

(103) نفس المصدر ، (أكتوبر ، 1908) ، ص 342 .

(104) نفس المصدر ، (جانفي ، 1908) ، ص 22 و (أكتوبر ، 1908) ، ص 342 .

للمحاربة ضد المغرب[105] .

ورداً على « الدعاية النشيطة » التي قام بها الجزائريون الذين اتهموا فرنسا بخرق اتفاق 1830 في فرض التجنيد ، أصدر الحاكم العام في الجزائر منشوراً سنة 1908 دافع فيه عن سياسة بلاده . وقد اعترف المنشور بأن الاتفاق قد « وعد الأهالي المسلمين باحترام حريتهم ، ودينهم ، وممتلكاتهم ، وتجارتهم ، وصناعتهم » ، ولكن لم يعدهم أبداً بعدم الخدمة العسكرية، وأضاف المنشور بأن تخلي الجزائريين عن سيادتهم يفهم منه ، على العكس ، تجنيدهم اجبارياً[106] .

ولكن الجزائريين لم يقتنعوا بحجة الحاكم العام . فقد واصلوا « دعايتهم النشيطة » في القرى والمدن . وشهدت أهم مدن العمالات الثلاث مظاهرات في الشوارع . وفي مدينة تلمسان وحدها تظاهر ، سنة 1909 ، عشرة آلاف نسمة ضد التجنيد الإجباري[107] . ومما يذكر أن التجنيد لم يصبح بعد قانوناً .

وعندما وافق المجلس الوطني الفرنسي ، في فيفري عام 1912 ، على قانون التجنيد الاجباري ، اضطربت لذلك الجزائر كلها . فالمظاهرات التلقائية الكبيرة لم تعد سلمية . وانتشر العنف في الجزائر بأسرها ، بما في ذلك الاغتيال ، والاصطدامات مع الشرطة ، وتكوين فرق الارهاب . وفي كثير من الأحيان اضطر الفرنسيون إلى إرسال النجدة كاحتياط ضد إمكانية حدوث ثورة . أما الشباب ، الذي كان المقصود بالتجنيد الاجباري ، فقد هرب إلى الجبال ، و« اختفى » ، وبذلك

---

(105) « التايمز » (لندن) ، (14 سبتمبر ، 1908) ، ص 5 . انظر أيضاً « أ. ف. » . (أكتوبر 1908) ، ص 342 .

(106) أنظر « أ. ف. » ، (أكتوبر ، 1908) ، ص 342 . من الممكن أن نقول أن الحاكم العام كان يستعمل إدعاءت غير صحيحة . أولاً ، أن الجزائريين لم يتخلوا عن سيادتهم ، ولكنهم كانوا قد هزموا عسكرياً . فمن حقهم ، اذن ، أن يعارضوا التجنيد الإجباري الذي كانوا يرونه حملاً آخر من أحمال الإحتلال . ثانياً ، أن التجنيد الإجباري لم يكن متلائماً مع إحترام « الحرية » و« الدين » اللذين يتفق الحاكم العام على أن اتفاق 1830 ينص عليهما . فكيف يمكن لمسلم أن يعمل تحت علم غير مسلم ، باسم قانون إجباري ، دون أن يكون مخالفاً للمبادىء الأولى لدينه ؟ وبالإضافة إلى ذلك ، كيف يمكن ربط حالة « الرعية » التي كان يعيش تحتها الجزائريون بمبدأ « الحرية » الذي نص عليه اتفاق 1830 ؟ .

(107) فخار ، « ر.م.م » ، م 7 (جانفي - أبريل ، 1909) ص 21 .

أصبحت الجزائر ، حسب تقدير الفرنسيين ، في حالة خطر ، بل ان بعض الكولون قد بدأوا يغادرون البلاد خوفاً[108] . وباختصار ، فإن الجزائر الفتاة كانت تظهر تحدياً جديداً لفرنسا.

ولعله من المستحسن اعطاء بعض الإيضاحات عن هذه الحالة . ففي سنة 1912 بعثت فرنسا فرقتين عسكريتين وبعض المدافع إلى عمالة وهران لكي تمنع أية امكانية للثورة . وفي جهة المدية ضُرب الحاكم الاداري الفرنسي بالحجارة ، وجرح مساعده القائد الجزائري . كما ضُرب بالحجارة وأُهين الحاكم الإداري للمعاضيد الواقعة قرب سطيف . ووقعت في ندرومة حوادث « أكثر عنفاً وخطورة » . فقد تظاهر هناك آلاف من الجزائريين أمام مكتب الحاكم الفرنسي للاحتجاج ضد التجنيد . وأثناء ذلك قدم المتظاهرون عريضة إلى الحاكم . وبعد الاجتماع ، الذي يبدو أنه كان بلا نتيجة ، صرخ الجزائريون « صرخات معادية وخطيرة » واصطدموا مع قوات الأمن ، مستعملين المسدسات والعصي[109] .

وفي نفس الوقت « اختفى » الشباب من باتنة ، وندرومة ، وغيرهما من المناطق ، لكي يفروا من التجنيد الاجباري . وقد أنذرت مجلة فرنسية محافظة « بالنتائج الكبيرة » التي قد تنجم عن موقف الجزائريين ، ولا سيما عن اختفاء الشبان المتأثرين بالتجنيد . ثم تعجبت المجلة مرددة : « ذلك هو الخطر ! تلك هي الصعوبة ! »[110] . وقد نصحت جريدة « الحق » ، الجزائريين بالهجرة لكي يتقوا التجنيد الاجباري[111] . ونتيجة لهذه النصيحة « (هاجر) حوالي ألف شاب مجند »[112] .

أما على المستوى الرسمي ، فإن الجزائريين قد قدموا إلى الفرنسيين عرائض ،

---

(108) ديبون (الذي كان بدرجة مساعد ـ كولونيل) ، « الفرق الأهلية وثورة فاس » في « ر.ب. » ، (15 سبتمبر ، 1912) ، ص 296 .

(109) « الجزائر » في « أ.ف. » ، (جوان ، 1912) ، ص 226 .

(110) نفس المصدر . أنظر أيضاً نوشي ، ص 23 وأرون ، ص 61 . وسوف نرى أن أولئك الجزائريين الذين اختفوا سنة 1912 قد قاموا بثورات خلال الحرب العالمية الأولى .

(111) نوشي ، ص 23 .

(112) أرون ، ص 61 .

ورسائل ، ولوائح معبرين فيها عن معارضتهم للتجنيد الاجباري . ففي 25 ديسمبر 1907 ، بعث « المستشارون الأعيان » الجزائريون في البليدة رسالة إلى محرر جريدة « ديبيش ألجيريان » رافضين فيها « رسمياً » التجنيد الاجباري . وقد أكدوا للمحرر بأن جميع الأهالي يؤيدون وجهة نظرهم(113).

والقوة التي كانت وراء معركة العرائض هي « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين (الجزائريين) » التي أنشئت حوالي سنة 1908 ، أو قبل ذلك بقليل(114) . وكانت العرائض توزع بين الجزائريين مطالبة بأن الحصول على الحقوق السياسية شرط في قبول التجنيد الاجباري . ففي عريضة إلى المجلس الوطني الفرنسي ، في ماي 1912 ، ضمنها الجزائريون النقط التالية :

1 ـ أن الجزائريين ، بالمقارنة إلى الفرنسيين ، كانوا يعيشون تحت إجراءات تمييزية ، مثل قانون الأهالي ، وقانون الغابات ، والضرائب الخاصة ، وقانون الجرائم الجماعية ، وفقدان التمثيل النيابي .
2 ـ أن هذه الاجراءات قد جعلتهم يشعرون بأنهم « ناقصون » .
3 ـ أنه لا مبرر لاستمرار هذه الاجراءات .
4 ـ ان على الحكومة الفرنسية أن تمنح الجزائريين كامل الحقوق السياسية كمواطنين ، ولكن بدون أن تطالبهم بالتخلي عن أحوالهم الشخصية .

---

(113) أنظر « الجزائر » في « أ.ف. » ، (جانفي ، 1908) ، ص 22 . كانت هذه الرسالة قد وقعها سبعة جزائريين كانوا يمثلون مختلف الطبقات .

(114) المصدر الوحيد الذي أشار إلى « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » هو اللائحة التي كانت قد أرسلت إلى السلطات الفرنسية ، سنة 1912 ، من النواب الجزائريين في المجالس المالية معارضة منهم للوفد الوطني الذي ذهب إلى باريس لعرض قضية الجزائر . فقد قالت تلك اللائحة أن « جماعة » من الجزائريين قد أنشأوا لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين « منذ بضع سنوات » . وسوف نرى أن وفداً جزائرياً آخر بقيادة عمر بوضربة قد ذهب إلى باريس ، سنة 1908 . وإذن ، فإنه من الممكن الإدعاء بأن لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين قد خلقت خلال هذه السنة . ولكن يمكن أنها كانت قد خلقت قبل ذلك ، مثل سنة 1903 أو 1906 ؛ لأن التاريخين كانا هامين : فسنة 1903 قد شهدت مناقشات حادة معارضة لخلق المحاكم الرادعة ، أما سنة 1906 فقد شهدت ميلاد منشور جونار البغيض .

5 ـ عندما تتحقق هذه الشروط ، يكون الجزائريون مستعدين لدفع « ضريبة الدم »(115).

حتى « بنو وي ـ وي » ، الذين كانت الادارة الفرنسية تختارهم بعناية كخدام طائعين ، عارضوا التجنيد الاجباري . ففي 13 ماي 1912 ، صوت الأعضاء الجزائريون في الوفود المالية المحلية على لائحة يطالبون فيها الحكومة الفرنسية أن « تلغي جميع مشاريع التجنيد الاجباري ، ولو كان جزئياً بخصوص الأهالي »(116) . وبدلاً من التجنيد، طالب هؤلاء الجزائريون بزيادة الحقوق الانتخابية التي بدونها سيبقون غير مستعدين للتعاون مع فرنسا . وفي نفس الوقت ، طالب أولئك الجزائريون بتحسين أحوال الأهالي الذين دخلوا الجيش الفرنسي ، بإرادتهم.

ولعل أنشط دور خلال هذه الحملة هو الذي لعبه أعضاء بلدية الجزائر العاصمة . فتحت قيادة « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » المذكورة سابقاً ناور هؤلاء الأعضاء بحكمة لبسط قضيتهم أمام الرأي العام الجزائري والفرنسي . وفي 27 ماي ، 1912 ، بعث هؤلاء الأعضاء عريضة هامة إلى « حكومة الجمهورية والمجلس الوطني الفرنسي » . وقد عبروا فيها على أن قانون التجنيد الاجباري الصادر في فيفري من نفس العام كان :

1 ـ معادياً للديمقراطية ، لأنه كان مطبقاً على الفقراء فقط .

2 ـ مهيناً للجزائريين ، لأنه وعدهم تعويضاً قدره 250 فرنكاً ، وهو تعويض جعلهم يشعرون بأنهم كانوا « مرتزقة » لا جنوداً « بفخر واحترام » .

3 ـ غير عادل لأنه جعل الجزائريون يعملون في الخدمة العسكرية ثلاث سنوات بدل سنتين مثل الفرنسيين . كما أن ذلك القانون كان غير عادل لأنه فرض على الجزائريين حملاً جديداً دون أن يعطيهم الحقوق السياسية والمدنية التي هي « ضرورية ولا استغناء عنها »(117).

---

(115) نص هذه العريضة في « الجزائر » في « أ . ف . » ، (ماي ، 1912) ، ص 195 ـ 196 . يجب أن نلاحظ بأن الرأي المعبر عنه في هذه العريضة هو رأي النخبة وليس رأي المحافظين .

(116) نفس المصدر ، ص 196 .

(117) أنظر « الجزائر » في « أ . ف . » ، (جوان ، 1912) ، ص 226 .

وقد احتوت عريضة أعضاء بلدية الجزائر على اقتراحات هامة موجهة إلى الحكومة والمجلس الوطني الفرنسي ، من ذلك :

1 ـ الإلغاء التام لقانون التجنيد الاجباري وتعويضه بقانون آخر مبني على فكرة الحرية ، والعدالة ، والمساواة .

2 ـ نهاية كاملة لقانون الأهالي ، وللمحاكم الرادعة ، وغيرها من الاجراءات الاضطهادية .

3 ـ الاعتراف بمبدأ المساواة على جميع المستويات ، ولا سيما بخصوص المسؤولية ، وتوزيع الضرائب ، وتمثيل نيابي « جاد وكاف » للجزائريين في كل المجالس ، بما في ذلك المجلس الوطني الفرنسي.

4 ـ الاعتراف للجزائريين المجندين بحق اختيار الجنسية الفرنسية بعد التسريح[118] .

ولم تكن حركة الوفود بأقل من معركة العرائض. في أكتوبر 1908 بعثت « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » المشار إليها وفداً إلى باريس ليعبر للسلطات الفرنسية عن رغبات الجزائريين . قاد الوفد السيد عمر بوضربة ، وهو عضو جزائري في بلدية العاصمة . كان هذا أول وفد جزائري منذ سنة 1833 يعبر البحر الأبيض المتوسط ليشرح القضية الوطنية . وقد قابل الوفد السيد جورج كليمانصو ، الذي كان عندئذ رئيساً للوزارة الفرنسية ، في 3 أكتوبر ، 1908 ، وقدم إليه عريضة باسم الجزائريين . واحتج أعضاء الوفد لديه ضد مشروع التجنيد الاجباري ، وأصر لديه على أن الجزائريين يجب أن يحصلوا على الحقوق السياسية قبل أن يستدعوا للخدمة في الجيش الفرنسي.

وقد أجاب كليمنصو جواباً مشجعاً للوفد الجزائري . فقد وعده :

أولاً : بانتخاب الجزائريين في المجالس العامة للعمالات بدلاً من تعيينهم

---

(118) نفس المصدر . وقع هذه العريضة الأدميرال ، الحاج موسى ، عمر بوضربة ، والدكتور ابن التهامي .

ويجب أن نلاحظ من جديد بأن تحوير قانون التجنيد الإجباري ليشمل تعويضات سياسية هو رأي جماعة النخبة . أما المحافظون فقد رفضوا التجنيد الإجباري من أساسه ، لأنه كان في نظرهم ضد الحرية ، والدين ، والضمير ، والشخصية الجزائرية .

تعييناً من الإدارة الفرنسية ، كما كانت الحالة عندئذ .

ثانياً : بدراسة جدية لقضية منح الحقوق السياسية للجزائريين.

ثالثاً : بعدم فرض « ادماج غير ممكن » على الجزائر . ولكن كليمانصو صارح الوفد بأن قانون التجنيد الإجباري سيطبق على الجزائريين . وقد قبل الوفد ، الذي كان مكوناً من أعضاء ينتمون إلى جماعة النخبة ، المشاركة في « الدفاع الوطني » من ناحية المبدأ(119) .

وبعد أربع سنوات بعث الجزائريون بوفد آخر إلى الحكومة الفرنسية . وقرار إرسال هذا الوفد كان اتخذ عندما أصبح واضحاً أن الفرنسيين كانوا سيصوتون على قانون التجنيد الاجباري دون دراسة قضية الحقوق السياسية للجزائريين . وقد كان الوفد الثاني أكثر أهمية من سابقه . كان يضم أعضاء أكثر عدداً ، وكان يمثل الجزائر كلها ، حيث كان يضم أشخاصاً من جميع أنحاء البلاد . وكان الوفد مهماً أيضاً نظراً للمطالب التي قدمها إلى السلطات الفرنسية ، والتي احتوت على نقاط وأهداف محددة .

ففي 26 جوان 1912 استقبل الوفد الثاني من جانب بوانكاري ، رئيس الجمهورية الفرنسية عندئذ ، وسلم إليه « مذكرة عن مطالب المسلمين الفرنسيين في الجزائر كتعويض عن الخدمة العسكرية »(120) . وقد قالت المذكرة بأن التجنيد العسكري الاجباري قد « أثار مشاعر السخط في كامل الجزائر » ، وأن هذه المشاعر ستستمر ما لم يوجد علاج لها . وقد شعر أعضاء الوفد بأن من واجبهم أن يشرحوا الحالة إلى الحكومة الفرنسية . وكانوا مسلحين بعدد كبير من العرائض التي كُتبت من كامل أنحاء الجزائر. لذلك أخبروا الرئيس بوانكاري بأن الجزائريين يعتبرون أن بعض

---

(119) أنظر « الجزائر » في « ا.ف.» (أكتوبر ، 1908) ، ص 341 . أما بيان الوزارة الفرنسية بخصوص الاجتماع بين كليمانصو والوفد الجزائري فيوجد في المرجع المذكور .

(120) ابن حبيلس ، ص 117 . كان هذا الوفد مؤلفاً كما يلي : الدكتور ابن التهامي عن (الجزائر العاصمة) رئيساً للوفد ، مختار حاج سعيد ، الدكتور موسى ، ابن علاوة (عن قسنطينة) ، الحاج عمار ، (عن جيجل) ، جودي (عن بسكرة) ، ابن عثمان (عن يوجو وتدعى حالياً سرايدي) ، ابن ددوش (عن تلمسان) ، قارة علي (عن عنابة) ، أنظر « الجزائر » في « ا.ف. » ، (جويليه 1912) ص 276 .

الاجراءات « ضرورية » قبل أن يلتزموا بأي دفاع عن فرنسا.

وقد طالبت مذكرة 1912 بما يلي :

أولاً : إنهاء الاجراءات الإضطهادية والقوانين الإستثنائية .

ثانياً : تمثيل نيابي جاد وكاف للجزائريين في كل المجالس بالجزائر وفرنسا .

ثالثاً : توزيع عادل للضرائب.

رابعاً : توزيع متساو لمصادر الميزانية بين الجزائريين والكولون . كما طالبت بتنقيح قانون التجنيد الاجباري ، وذلك :

أولاً : بتخفيض فترة الخدمة العسكرية للجزائريين من ثلاث سنوات إلى سنتين ، على قدم المساواة مع الفرنسيين.

ثانياً : بتبديل سن التجنيد من 18 إلى 21 ، لأن الجزائري لم يكن قد نَضَجَ طبيعياً وبدنياً في سن 18 .

ثالثاً : بإلغاء مكافأة التجنيد ، التي تمس شرف الأسرة الجزائرية[121] وقد وعد بوانكاري ، كما فعل كليمانصو قبله ، الوفد بدراسة جدية للمشاكل التي تقدم بها.

ولما بدا للإدارة الفرنسية في الجزائر أن الوفد قد حقق نجاحاً ، وخوفاً من وحدة وتضامن الجزائريين ، أوحت إلى « بني وي ـ وي » ، أولئك الجزائريين الأعضاء في المجالس البلدية ، لكي يعارضوا المطالب التي قدمها الوفد في مذكرة جوان 1912[122] . هكذا ففي 8 جوان 1912 صوت الأعضاء الجزائريون في المجالس البلدية على لائحة عبروا فيها عن ولائهم وإخلاصهم لفرنسا باعتبارهم « الممثلين الوحيدين » للأهالي الجزائريين.

---

(121) ابن حبيلس ، ص 117 ـ 118 .

(122) ان مثل هذه المناورات الاستعمارية ستستمر الى استقلال الجزائر سنة 1962 . فمهما وحد الجزائريون أنفسهم حول بعض الوفود أو الأحزاب السياسية لكي يطالبوا بالحقوق السياسية من فرنسا ، رد عليهم الكولون ، مؤيدين عادة من الادارة الفرنسية ، لا بالمعارضة المباشرة لهم فقط ، بل أيضاً باستعمال الجزائريين الذين كانوا قد اختاروهم بعناية لهذا الغرض . وقد قال أرون ، الذي كان يميل الى الكولون ، بأن مطالب 1912 كانت في عين الكولون شيئاً لا يطاق أراد الجزائريون أن يستعملوها كوسيلة للاستقلال . أنظر أرون ، ص 61 .

وقد احتجت اللائحة المذكورة بقوة ضد « حزب الطامحين » الذين يتمثل « هدفهم الانتهازي » الوحيد في خلق الشغب والحصول على مكانة بين الجزائريين . كما احتجت ضد « الجماعة الصغيرة » التي خلقت (لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين) والتي أرسلت وفداً إلى فرنسا سنة 1908 ، وضد « الجماعة الأخرى » التي ذهبت في وفد 1912 ، والتي كان لها نفس الهدف . وأخيراً نصحت اللائحة فرنسا بأن « الساعة لم تحن بعد » لكي يطالب الجزائريون بالجنسية الفرنسية(123).

ومن الغريب أن الكولون قد عارضوا أيضاً التجنيد الاجباري للجزائريين ، ولكن لأسباب مختلفة . فالكولون قد اعتبروا التجنيد كوسيلة يمكن للجزائريين أن يستعملوها للحصول على الحقوق السياسية . ولذلك فعندما عارض الجزائريون جميعاً التجنيد الاجباري سر الكولون وسخروا صحافتهم ونوابهم في المجالس المحلية والمجلس الوطني الفرنسي لشن حملة ضد التجنيد الاجباري تأييداً للجزائريين . ولكن عندما قبل جماعة النخبة التجنيد مبدئياً اثر اجتماعهم بكليمانصو ، سنة 1908 منتظرين تحقيق الحقوق السياسية ـ شعر الكولون بالخطر . ذلك أن الهدف الرئيسي لهم كان الابقاء على الجزائريين على حالتهم كرعايا(124).

فماذا كان رد الفعل الرسمي لأكثر من أربع سنوات من الحملات والحملات المضادة بخصوص التجنيد الاجباري ، رغم وعود فيري سنة 1892 ، ووعود كليمانصو سنة 1908 ، ووعود بوانكاري سنة 1912 ؟ ان فرنسا لم تتحرك ولو خطوة

---

(123) أنظر ف. ديمونتي « الجزائر » في « ا.ف. » ، (جويليه ، 1912) ، ص 275 ـ 276 . لاحظ أن هذه اللائحة كانت تنتقد المطالبة بالحقوق السياسية وبالجنسية الفرنسية ، وتهمل التجنيد الاجباري الذي كان السبب في كل هذه المناقشة. ونظراً لأن الحقوق السياسية للجزائريين كانت معارضة بكل قوة من الكولون ، ونظراً لأن اللائحة لم تكن موقعة ، فإننا نشعر أنها قد تكون مزورة من الكولون لزرع الخلاف . وبالاضافة إلى ذلك ، فمن المعروف أن النواب الجزائريين في المجالس المالية قد عارضوا ، في ماي 1912 ، التجنيد العسكري الاجباري ، كما فعل الجزائريون الآخرون .

(124) أنظر « الجزائر » في « ا.ف. » ، (جانفي ، 1908) ص 21 ـ 22 . كتبت احدى صحف الكولون قائلة : « إننا 700,000 ضد أربعة ملايين شخص . فإذا أصبح الأهالي (الجزائريون) مسلحين فإن حياتنا ، وأشخاصنا ، وأملاكنا ستكون في خطر » . ولهذا السبب أيد الكولون ، بصفة غير متوقعة ، اتفاق 1830 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 23 ـ 24 .

إلى الأمام لإرضاء الآمال الوطنية . بالعكس ، فقد رأينا أن الفترة بين 1890 ، 1912 قد شاهدت تطبيق أسوأ القوانين والاجراءات الاضطهادية منذ الاحتلال . ويبدو أن موقف الفرنسيين غير المرن كان مخيباً للآمال وبلا تفسير عندما نأخذ في الاعتبار أنه قد اتخذ عندما كانت حركة « الجزائر الفتاة » تمر بمرحلة النهضة ، وعندما كانت الحركة القومية العالمية في أوج تطورها.

وعلى أية حال فإن فرنسا قد استمرت في تنفيذ خطتها في خصوص التجنيد الاجباري بقطع النظر عن المعارضة الجزائرية وصرخات الوطنيين للمطالبة بالحقوق السياسية . وبعد أن أصبح التجنيد قانوناً ، في فيفري 1912 ، أصدرت فرنسا قراراً في 19 سبتمبر من نفس العام يحتوي على بعض الاجراءات التي تستهدف تهدئة الجزائريين المتأثرين بقانون التجنيد، والذين كانوا إمّا محتجين أو مهاجرين ، أو « مختفين » .

وقد « وعدت » الاجراءات الجديدة الجزائريين المجندين معاملة أفضل في المستقبل . وهكذا نص قرار 19 سبتمبر على أن أولئك المجندين :

أولاً : لن يخضعوا لقانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية ، بعد تسريحهم من الخدمة العسكرية.

ثانياً : فإذا ارتكبوا جرائم ، فسوف يحاكمون أمام محاكم القانون العام (بدلاً من المحاكم الرادعة).

ثالثاً : بناء على طلبهم ، قد يؤذن لهم ، بعد التسريح من الخدمة العسكرية ، أن يشاركوا في انتخابات المجالس البلدية.

رابعاً : بعد أن ينهوا ثلاث سنوات في الخدمة العسكرية ستكون لهم فرصة الوظيفة ، ولكن لن يكون ذلك إلّا بعد أن يبرهنوا على استعداد جيد للعمل[125].

---

(125) أنظر نص هذا القرار في ف. ديمونتي ، « الجزائر » في «ا. ف.» ، (أكتوبر ، 1912) ، ص 410 . ورغم تواضع هذه الوعود ، فإنها محددة بقيود جعلتها تكاد تكون مستحيلة التطبيق .

خلاصة

ولدت النهضة الجزائرية نتيجة لثلاثة عوامل :

أولاً : الاتصال المباشر مع الثقافة الأوروبية .

ثانياً : تأثير الشرق الأدنى خلال نداء حركة الجامعة الإسلامية .

ثالثاً : التطورات العالمية كنتيجة للصراع بين القومية والامبريالية .

وهكذا دخلت الجزائر خلال العقد الأول من هذا القرن ، معتمدة على تراث عظيم من المقاومة ، التي شاركت فيها جميع الطبقات الاجتماعية ، في نهضة أثرت على كل حياتها .

أما اتصال الجزائر الثقافي المباشر بالثقافة الأوروبية فإن فرنسا قد منعته بتعمد ، بدعوى أنه قد يؤدي إلى اليقظة وبالتالي إلى الوطنية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المقاومة المستمرة التي قام بها الجزائريون أثناء القرن التاسع عشر ، والتي كانت عادة مصحوبة بعمليات عسكرية باهظة ، قد وقفت بين الجزائر والاتصال المباشرة ، لا بالنسبة إلى الثقافة الأوروبية ، بل وأيضاً بالنسبة إلى بقية العالم . وعندما بدأ هذا الاتصال ، كان بطيئاً ومؤلماً ، ومشكوكاً فيه . والتعليم الذي كان العامل الرئيسي في هذا الاتصال ، كان فقيراً وبدون تنظيم ، ومحدوداً لخدمة أهداف إدارية فقط .

ورغم أن فرنسا لم تنو خلق جماعة نخبة وطنية عندما سمحت ببعض التعليم ، فإن النتيجة كانت عكس ما أرادت . فالأفكار الأوروبية ، بما في ذلك فكرة القومية قد دخلت عقول أولئك الجزائريين القلة الذين أصبحوا المتكلمين ، بعد فشلهم في الحصول على المساواة في الحقوق ، باسم « الجزائر الفتاة » ، والتي وان لم تناد بالاستقلال ، فانها أعدت الشروط اللازمة له .

وهناك نتيجة أخرى لم تتوقعها فرنسا ، وهي موقف المحافظين الجزائريين . فمنذ 1845 حاولت فرنسا أن تعقد معاهدات واتفاقات مع أهل هذه الطبقة لكي تؤمن تأييدهم أو على الأقل تضمن حيادهم . وقد نجحت في هذه السياسة ، إلى درجة كبيرة ، خلال القرن التاسع عشر ، عندما كانت الثورات والتمردات تقاد عادة بواسطة العناصر المحافظة في الجمعيات والعائلات الكبيرة .

ولكن بافتتاح القرن الحالي ، أصبح معظم أهل هذه الكتلة لا يثقون في

فرنسا ، وقبلوا حكمها مؤقتاً فقط ، امتثالاً للقوة ، غير أن المحافظين لم ينادوا بالثورة ضد فرنسا ، كما كانوا يفعلون في القرن الماضي . وكان معظمهم ، ولا سيما العلماء ، قد أعجبوا بحركة الجامعة الإسلامية . وقد استعملوا هذا المذهب الجديد لهدفين : اخفاء مشاعرهم الحقيقية ضد فرنسا ، ومعارضة أية تغييرات مشكوك في أنها قد تؤدي إلى دمج الجزائر في فرنسا . كما أن المحافظين قد استعملوا الجامعة الإسلامية للتبشير ببعض الاصلاحات وللدعوة إلى اليقظة ، وخصوصاً تحت قيادة ابن الموهوب ، والمجاوي ، وابن سماية.

وقد أدى التطور العالمي إلى يقظة الجزائريين على حقائق جديدة . فالمنافسة بين فرنسا وألمانيا ، التي بلغت أوجها خلال أزمتي المغرب الأقصى ، قد فتحت أعين الجزائريين على ضعف فرنسا، رغم أنها كانت المنتصرة في مؤتمر الجسيرة (1906) الذي حاول أن يضع حداً للتوتر . ونفس الفكرة يمكن أن تقال عن الخصومة التي نشبت بين « الأختين اللاتينيتين » ، ايطاليا وفرنسا ، بخصوص تونس . ولم تكن حرب ليبيا (أو الصراع بين الدولة العثمانية وإيطاليا) أقل أهمية بالنسبة للجزائريين . وقد وصلت أخبار (المسألة الشرقية) ، بما في ذلك الثورة التركية ، إلى الجزائريين عن طريق الحجاج ، ورسائل المهاجرين ، والصحافة الوطنية والفرنسية.

ظهرت النهضة الجزائرية في أشكال مختلفة . فالانتعاش الثقافي بعث الحياة في الشخصية الوطنية واستعاد الثقة . كما أن المطالب السياسية « للجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » قد أدت إلى خلق تعابير جديدة في القاموس الشعبي مثل « الحقوق السياسية » ، « المساواة » ، « الوطن » ، « العدالة » ، « التقدم » . كما أدى إلى الهيجان الاجتماعي الذي حركته الاجراءات التعسفية وقانون التجنيد الاجباري إلى خلق ضمير مشترك جديد بين الجماهير ، وهي حالة عقلية وعاطفية لا بد من تهيئتها لانجاح أية حركة وطنية . فالنهضة ، إذن ، كانت فكرة جماعية للتعبير عن تطورات ثقافية ، وسياسية ، واجتماعية ، لم تكن معروفة من قبل في الجزائر.

وقد اعتمدت هذه النهضة في تعبيرها على الضغط السياسي والابداع الثقافي ، بدل الثورات العسكرية والمقاومة السلبية . فخلال هذه الفترة تيقن الجزائريون أن فرنسا كانت قوة لا يمكن أن تنهزم بالوسائل القديمة . ذلك أن الجزائر قد خضعت ، بعد تطبيق الحكم الذاتي المالي ، لاضطهادات جديدة خوفاً من ظهور الوطنية ، أو

خوفاً من التعصب ، كما كان الفرنسيون يعبرون عندئذ . وتحت هذه الظروف ، كان لا بد للجزائريين من تغيير طريقتهم في المقاومة : لقد كان غير ممكن عندئذ أن ينادوا بالاستقلال ، لأن الجماهير لم تكن محضرة له ، كما أن فرنسا لم تكن مستعدة أن تسمع به . والطريق الوحيد الذي بقي ، دون ثورة فاشلة ، هو المطالبة بالمساواة مع الفرنسيين.

ولكن المساواة التي نادى بها الجزائريون كانت وسيلة أكثر منها غاية . ان المؤرخين الذين تناولوا هذا الموضوع قد أساءوا غالباً فهم المعنى الحقيقي لهذا الطلب . فالجزائريون لم يطالبوا بالمساواة لكي يبقوا فرنسيين ، وانما فعلوا ذلك لكي يسلحوا أنفسهم ضد قانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية.

وتوضيحاً لذلك نذكر أن كلا من المحافظين والنخبة رفض قبول التجنس ، كطريق للجنسية الفرنسية ، إلا في حدود أحوالهم الشخصية كمسلمين ، وهو شرط كان ، في الحقيقة معادلاً للمطالبة « بالجنسية الجزائرية » . وقد فهم الفرنسيون هذا التناقض بين الجنسيتين ، ورفضوا أن يعترفوا للجزائريين بحق المساواة ، رغم أن الأخيرين كانوا قانونياً معتبرين فرنسيين.

وأهم مظهر للتحدي السياسي ضد السلطات الفرنسية وقع بسبب قضية التجنيد العسكري الاجباري تحت حماس النهضة الجزائرية وتأثير حركة القومية العالمية . فقد تحدى الجزائريون الفرنسيين بين سنة 1906 و1912 على عدة جبهات . وطالبوا خلال ذلك بالحقوق السياسية ، والتمثيل النيابي الجاد ، والمساواة في الضرائب وأرباح الميزانية ، وانهاء النظام الاستعماري والاقطاعي ، وبرنامج كاف للتعليم ، والغاء القوانين الاستثنائية ، والابقاء على الشخصية الجزائرية . وقد نظمت « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » حملة من العرائض ، والوفود ، والمظاهرات ، رفع أثناءها العلم الوطني ، كوسيلة للضغط السياسي للحصول على مطالبها . وكل مؤرخ خبير بظهور الحركات القومية سيتفق على أن مطالب « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » كانت تشكل برنامجاً وطنياً مدعماً يحتوي على كل الخطوات الضرورية للشخصية ، ما عدا الاستقلال.

ومع ذلك ، فإن الجزائر قد فشلت في تحقيق أهدافها عندما حلت سنة 1914 . ولم تكن أسباب هذا الفشل صعبة الفهم . ان أوضح ما نجده هو ضعف

التنظيم ، ونقص التجربة ، وسوء فهم السياسة الفرنسية ، والعزلة . كان السبب الأول مسؤولاً عن تقسيم الرأي العام الجزائري بخصوص قضية التجنيد الاجباري . وكان السببان الثاني والثالث مسؤولين عن الايمان بوعود فيري ، وكليمانصو ، وبوانكاري ، كما لو كانت قوانين في حد ذاتها . أما السبب الرابع ، وهو العزلة . فيحتاج إلى بعض البيان.

لم تكن في الجزائر أية « قوة ثالثة » يمكن أن تشجع أو تساعد الحركة الوطنية . فجيران الجزائر كانوا تحت نفس النظام ، ولا يتوقع المرء منهم أن يمنحوا لا ملجأ ولا سلاحاً . أما « خارج » هذه الحدود المحصنة ، فلم يكن سوى امكانيتين : ألمانيا والدولة العثمانية . فالأولى لم تكن مقتنعة ، كما سنرى ، بقوة الحركة الوطنية الجزائرية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن ألمانيا كانت مهتمة بإثارة ثورة في الجزائر في حالة حرب أوروبية ، وليس خلال الفترة المدروسة . أما الدولة العثمانية ، فقد كانت مشغولة ، أثناء هذه الحقبة ، بمشاكلها الداخلية . وكل ما كان يمكنها عندئذ هو أن تدعو الجزائريين ، باسم حركة الجامعة الاسلامية ، إلى الهجرة الى الشرق الأدنى.

وقد أدت هذه السياسة ، إلى جانب سياسة فرنسا الاضطهادية ، إلى تشجيع الجزائريين على نشدان ملجأ في الشرق الأدنى ، بل في فرنسا نفسها . ورغم أن المهاجرين قد وجدوا في الخارج حرية وفرصاً أكثر ، فإنهم قد أبقوا على اتصالهم المستمر بوطنهم . فمن الخارج نظموا حملة دعاية ضد الحكم الفرنسي في الجزائر . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن زعماء المهاجرين الجزائريين كانوا هدفاً للدول الكبيرة ، ولا سيما فرنسا ، وألمانيا ، والدولة العثمانية.

ولكن الجزائر كانت ما تزال وراء الستار الفرنسي عندما انفجرت الحرب العالمية الأولى . فماذا كان رد الفعل الجزائري خلال هذه الحرب ؟

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الرابع

نهاية أسطورة

1914 - 1919

1. ولاء او ارهاب :

قبل الحرب العالمية الأولى ، كان الفرنسيون يخشون ، أنه في حالة حرب أوروبية ، قد يغتنم الجزائريون فرصة مصاعب فرنسا ويعلنون استقلالهم . فتجربة 1871 ، حين ثار الجزائريون بعد الحرب الفرنسية ـ الألمانية ، لم ينسها لا الفرنسيون ولا الجزائريون .

توقعت بعض الصحف الفرنسية ، سنة 1913 ، ان على فرنسا ، في حالة حرب أوروبية ، أن ترسل الى الجزائر بين 200,000 و 300,000 رجل لكي تمنع ثورة وطنية[1] . وفي العشرينات من هذا القرن لاحظ الخبير الفرنسي في الشؤون الاستعمارية ، أوغسطين بيرنار ، بأن أول مشكل شغل بال الفرنسيين حين ابتدأت الحرب العالمية كان الخوف من ثورة عامة في كامل افريقية الشمالية يقوم بها « أعداء فرنسا[2] » .

وقد كانت علامات امكانية هذه الثورة في الجزائر كثيرة . فالعاصفة التي مرت بالبلاد من جراء التجنيد الاجباري كانت لم تهدأ بعد . والشباب الجزائري الذي كان مقصوداً بذلك القرار كان يهرب الى الجبال فراراً من التجنيد . وكان آباء وممثلو هذا الشباب ما يزالون يطالبون فرنسا بتغيير ذلك القانون وينذرون السلطات الفرنسية

---

(1) ا.ف. غوتيي ، « الجزائر وباريس » من (مراجعة باريسية) . أشار الى ذلك طيال في « ا.ف.س» ، (سبتمبر ، 1921) ، ص 204 .

(2) « أفريقية الشمالية » ، م.ا. ليس لدينا احصاءات عن حجم الجيش الفرنسي في الجزائر خلال الحرب ، ولكن عدده قدر سنة 1910 بـ 75,000 رجل . أنظر « التايمز » ، (لندن) ، (19 فيفري ، 1910) ، ص 6 .

بالعواقب الخطيرة . كما أن الدعوة الى الاصلاح والى اليقظة التي نادى بها جماعة النخبة كانتا ما تزالان تتعمقان في المجتمع الجزائري يومياً .

ومن جهة أخرى ، استمرت فرنسا في موقفها المتقلب . فهي لم تقم ، الى سنة 1914 ، بأية اشارة لترضية مطالب الجزائريين . بالعكس ، لقد جددت قانون الأهالي البغيض لفترة سبع سنوات أخرى. كما أنها دعمت اجراءً بغيضاً آخر وهو المحاكم الرادعة . وعندما انفجرت الحرب ، صدرت قوانين اضطهادية أخرى ، بما في ذلك قانون الطوارىء والرقابة . كما تسربت الى الجزائر ، من وراء الستار الفرنسي ، رياح الثورة ، والشغب ، والدعاية المهيجة من كل الاتجاهات . ففي المغرب الأقصى كان الصراع قد بدأ بين القوات الوطنية والإستعمارية . وفي نفس الوقت كانت تونس تعيش في حالة شغب سياسي منظم ضد فرنسا . ورغم أن الحرب التي بدأت في ليبيا سنة 1911، كانت قد انتهت رسمياً ، فانها كانت ما تزال مستمرة بين الليبيين والايطاليين .

ومن جهة أخرى كانت حركة الجامعة الاسلامية ، كما دعا اليها الفتيان الأتراك والمبعوثون الألمان ، في أوجها . كانت ألمانيا تبث دعايتها على أن القيصر هو منقذ الأسلام . أما الدولة العثمانية فقد عينت الأمير الجزائري علي باشا (وهو أحد أبناء الأمير عبد القادر) نائباً لرئيس مجلسها الوطني ، وكانت تبسط أفضالها على المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى . وقد ردت فرنسا ، من جهتها ، على هذه المحاولة بدعوة الأمير عمر باشا الى باريس وتعيين الأمير عبد المالك كرئيس للشرطة في طنجة ، وكلا الرجلين كان جزائرياً من أبناء الأمير عبد القادر . في نفس الوقت ، ضاعفت فرنسا ، كما سبقت الاشارة ، أموالها ودعايتها الى المهاجرين الجزائريين في الشرق الأوسط مزاحمة منها لتركيا . وهكذا فقد كانت الجزائر ، ساعة انفجار الحرب العالمية ، في حالة غليان من الداخل وضغط من الخارج .

استيقظ الفرنسيون ذات يوم من شهر أوث ، 1914 ، فوجدوا ملصوقات على جدران المساجد نصها « هذا زمان الصمت فاذا تكلمت الباطل فستعيش ، ولكنك اذا تكلمت الحق فستموت[3] » . ان هذا الاعلان كان قولاً جزائرياً شعبياً احتجاجاً على

---

(3) ج ديبارمي ، « أغنية الجزائر خلال الحرب الكبرى » ، في «ر.ا.» ، م 73 (1932) ص 55 .

قانون الطوارىء وعلى الرقابة . ولقد كان تعبيراً ساخراً يظهر كيف رد الأدب الشعبي الجزائري على الضغط الاستعماري . لم يذكر ديبارمي ، الذي نقل هذا الاعلان ، من وقع هذه الملصوقات ولكن من الواضح أن الذي فعل ذلك هي العناصر المحافظة التي كان الفرنسيون ، ولا سيما الكولون ، يتهمونها باستعمال التقية وبالاستسلام لفرنسا خوفاً من القوة فقط ، وليس ولاء لها .

وما دام الفرنسيون كانوا يعيشون في حالة رعب من ثورة جزائرية ، فانهم قد أوحوا الى رجالهم « المختارين بعناية فائقة » وهم المسمون « بني وي - وي » ، أن يعلنوا ولاءهم المطلق لفرنسا وأن يطلبوا من الأهالي أن يفعلوا مثلهم . وهكذا نشرت كل وسائل الاعلام الفرنسية عدداً ضخماً من البرقيات والرسائل والتصريحات والتقارير عن اجتماعات دارت مع الفرنسيين حضرتها الجمعيات الدينية ، والقياد ، والمرابطون ، والأعيان ، و « الممثلون » في المجالس المحلية . وكان هؤلاء جميعاً ، بناء على وسائل الاعلام الفرنسية ، قد دعوا الأهالي الجزائريين الى أن يؤكدوا ولاءهم لفرنسا ، وأن يأتوا للدفاع عنها . وبناء على التقارير الفرنسية فان الجزائريين لم يعبروا عن ولائهم فقط لفرنسا ، بل أعلنوا أيضاً استعدادهم للحرب ضد ألمانيا والدولة العثمانية . وفي سنة 1918 ، كتب مؤلف فرنسي قائلاً بأن ولاء الجزائريين لفرنسا ، كان « يفوق كل العواطف الأخرى ، حتى العاطفة الدينية[4] » .

وبعد عدة أيام من اعلان الحرب ، كتبت جريدة فرنسية تعطف على الجزائريين قائلة بأن هؤلاء قد وجدوا في الحرب فرصة « فذة » ليعبروا عن ولائهم لفرنسا . وأضافت الجريدة : « ان كل طبقات الأهالي ، سواء كانوا من جماعة النخبة أو من كتلة المحافظين ، قد فهموا بدقة أن الحرب كانت بالنسبة لهم فرصة فذة يبرهنون فيها على ولائهم لفرنسا[5] . وبعد أقل من أسبوعين نشرت نفس الجريدة

(4) أنظر غوستاف ميرسي ، «أهالي أفريقية الشمالية والحرب» في «ر.ب.» ، (جويليه ، 1918) ، ص 205 . لقد كان الكاتب يكتب من تجربة شخصية . أنظر أيضاً « الجزائر » في «أ.ف.» ، (جانفي - فيفري ، 1915) ، ص 21 - 23 .

(5) «لوطان» (17 أوت ، 1914) ، ص 2 . أشارت الصحيفة الى الجمعيات التالية : الرشيدية والاتحاد الفرنسي - الأهلي ، التوفيقية ، وقالت أن هذه الجمعيات قد دعت أعضاءها الى أن يحاربوا بجانب فرنسا . ولعل القارىء يذكر أن هذه الجمعيات كانت تدار من جماعة النخبة الجزائرية ، ولكن الصحيفة أشارت الى العناصر المحافظة أيضاً .

تقريراً عن كيف عبر الجزائريون عن ولائهم . لقد عبروا عن ذلك بناء على رأي الجريدة المذكورة ، بثلاث طرق :

أولاً : بتصريحات الجمعيات والشخصيات ذات النفوذ .

ثانياً : بالتطوع في الجيش الفرنسي

ثالثاً : بالاشتراكات لمساعدة هذا الجيش[6] .

ولم تتوقف حملة الولاء لفرنسا مع الأسابيع الأولى للحرب ، فعندما أصدر شيخ الاسلام في اسطنبول ، في أكتوبر من نفس العام (1914) فتوى الى كل المسلمين لكي يحاربوا مع الدولة العثمانية ، قالت الدعاية الفرنسية أن الجزائريين قد عبروا عن سخطهم من هذا العمل . وقالت أيضاً أنهم قد استنكروا موقف ألمانيا (مغتالة النساء والأطفال والشيوخ ، ومحطمة الآثار والمدن) . وقالت أن الجزائريين قد أكدوا أنهم يرون في انتصار الحلفاء انتصاراً للحضارة والعدالة[7] .

في طريق عودته من رحلة استطلاعية للمراكز التبشيرية الميثودية في افريقية الشمالية ، أخبر القسيس الأمريكي ، الدكتور و . ف . أندرسون في نوفمبر ، 1914 ، مراسل جريدة « الديلي كرونيكل » اللندنية بأنه كان قد « تأثر » كثيراً « بولاء » الجزائريين لفرنسا . وقال القسيس أندرسون انه كان قد زار قسنطينة ، وبسكرة ، وبلاد القبائل ، ووهران ، والجزائر العاصمة ، وأنه كان مهتماً بصفة خاصة بتقدير رأي الجزائريين نحو الحرب ونحو فرنسا . وقد ثبت له « من كل جانب » ، أنهم كانوا مخلصين لفرنسا . وقال أيضاً انه كان قد تأثر بفهم الجزائريين « للقضايا الحقيقية المتنازع عليها » في الحرب . وبالإضافة الى ذلك ، قال القسيس أندرسون انه وجد أنهم قد رفضوا فكرة الحرب المقدسة « الجهاد » التي نادى بها شيخ الاسلام في اسطنبول . غير أنهم بناء على رأيه ، كانوا متأسفين أن يجدوا أنفسهم على خلاف مع السلطان[8] .

وشهادة الدكتور أندرسون تستحق تقديراً جدياً كما تتطلب فحصاً دقيقاً :

---

(6) نفس المصدر (31 أوت ، 1914) ، ص 2 .

(7) نفس المصدر (7 نوفمبر ، 1914) ، ص 2 .

(8) أشارت الى ذلك « النيويورك تايمز » (26 نوفمبر ، 1914) ، ص 3 .

أولاً : يبدو أن فهمه للسياسة في أفريقية الشمالية في ذلك الوقت كان سطحياً. فهو يشير ، مثلاً ، الى أن المسلمين في الجزائر وطرابلس كانوا مخلصين لفرنسا[9] . ولا شك أن القارىء يعرف أن طرابلس ، في ذلك الوقت ، ليس لها علاقة بفرنسا ، فما بالك بولائها لها .

ثانياً: أن الدكتور أندرسون كان يجوب الجزائر خلال المرحلة الأولى من الحرب ، أي بمجرد اعلان فرنسا لقانون الطوارىء والرقابة .

ثالثاً : ان القسيس أندرسون لم يكن يعرف الشعار الجزائري : « إذا تكلمت الباطل فستعيش ، ولكن إذا تكلمت الحق فستموت » .

رابعاً : ان الحوادث التالية ستظهر ان حكم الدكتور أندرسون بخصوص ولاء الجزائريين كان سابقاً لأوانه .

وبناء على رأي الكتاب الفرنسيين ، فان جميع الطبقات الاجتماعية الجزائرية قد ساهمت في الحرب . وهذه الطبقات هي :

أولاً : جماعة النخبة الذين انضموا الى فرق المشاة . لقد كان عددهم صغيراً ، ولكن « حبهم لفرنسا كان مخلصاً » .

ثانياً : أهل الجاه وشباب الأسر الكبيرة، الذين انضموا إلى فرق « القومية »، الخيالة .

ثالثاً : الرماة الذين كانوا قد دربوا بعناية كجنود بالمهنة ، والذين كانوا يعملون في وقت السلم كخماسة أو عمال زراعيين .

رابعاً : أبناء الأسر البسيطة ، الذين أذن لهم آباؤهم أن يشاركوا في الحرب لأسباب اقتصادية .

خامساً : وأخيراً : أولئك الذين ليس لهم مأوى أو مهنة دائمة[10] .

ولا شك أن سجل مشاركة الجزائر في هذه الحرب يثير الاندهاش . ان معظم الكتاب الفرنسيين يتفقون على هذه الحقيقة . فالكاتب ميرسي ، الذي كان يحكي

---

(9) نفس المصدر .

(10) ميرسي ، (ر.ب.) (جويليه ، 1918) ، ص 209 وما يليها . أنظر أيضاً « لوطان » (17 أوت ، 1914) ، ص 2 .

تجربة شخصية ، يقول بأن الجزائريين قد لعبوا « دوراً عظيماً » في معارك شارلروا ، والمارن ، وشامبانيو ، وفيردان ، والصوم[11] . وهكذا ، فلم تحن سنة 1916 حتى كانت الجزائر قد ساهمت بأكثر من ثمانين ألف جندي وستين ألف عامل . ويعترف كاتب فرنسي آخر بأن العائلات الجزائرية الغنية قد ساهمت بمئات الآلاف من الفرنكات من أجل الحرب . ان بعض هؤلاء الجزائريين قد دفع 38 ألف فرنك من الذهب لفرنسا ، بالإضافة الى دفع ضرائب ثقيلة وفرت الذهب للميزانية الفرنسية[12] .

ليس هناك رأي متفق عليه بين الكتاب حول مقدار معرفة الجزائريين بمشاكل الحرب . فقد رأينا أن القسيس أندرسون كان قد اندهش من فهمهم « للمشاكل الحقيقية المتنازع عليها » في الحرب . غير أن بعض الكتاب الفرنسيين لا يتفقون مع هذا الرأي فالكاتب ميرسي ، مثلاً ، يقول بأنه لم يكن للجزائريين فكرة واضحة من الحرب . ويستدل على ذلك بأنهم لم يكونوا قد دربوا التدريب الكافي عسكرياً ، وأنهم كانوا يجهلون « تماماً » اللغة الفرنسية . وكل ما كانوا يعلمونه عن الفرنسيين ، بناء على رأيه هو أنهم كانوا « روميين[13] » .

وسواء فهم الجزائريون القضايا الحقيقية للحرب أو لم تكن لهم فكرة واضحة عنها ، فان عدد الجنود والعمال الذين ساهمت بهم الجزائر في الحرب كان عظيماً حقاً . ففي سنة 1919 نشرت المجلة الفرنسية المحافظة ، ولكنها عادة مجلة معتمدة ، « لافريك فرانسيز » احصاءات عن الجزائريين الذين شاركوا في الحرب[14] فكانوا كالآتي :

---

(11) «ر.ب.» (جويليه ، 1918) ، ص 203 .

(12) أنظر ا. سينيوري ، « الجزائر والأهالي خلال الحرب » في «ر.ب. . .» ، م 98 (1919) ، ص 290 . كان المؤلف عامل عمالة شرفياً في الجزائر . وقد عاش ورأى الأحداث التي كان يصفها . لذلك فإن شهادته بخصوص ثورة 1916 تعتبر مهمة . ولكن سينيوري لم يقل ما اذا كان الجزائريون يدفعون الذهب الى فرنسا كتعويض عن الخدمة العسكرية ، وهي حالة كانت شائعة في كلتا الحربين العالميتين . أنظر أيضاً بيرنار ، « أفريقيا الشمالية » ، ص 6 .

(13) ميرسي ، «ر.ب» (جويليه ، 1918) ، ص 207 ـ 208 .

(14) «الأفريقيون في ميدان الشرف» في «ا ف.» ، (جويليه ـ أوت ، 1919) ، ص 221 .

عدد الجزائريين في الحرب العالمية الأولى :

الجند	177,000
العمال	75,000
القتلى	56,000
الجرحى	82,000

هناك كاتب فرنسي آخر كان يكتب في وسط العشرينات من هذا القرن ، قال بأن عدد العمال الجزائريين الذين عملوا في الحرب قد بلغ 119,000 شخص ، من بينهم 89,000 كانوا قد جندوا تجنيداً ، أما الباقون فقد كانوا أحراراً جاءوا الى فرنسا في السنوات السابقة للحرب[15] . وقد قال أحد الكتاب الجزائريين بأن عدد مواطنيه الذين ساهموا في الحرب ، سواء كانوا جنوداً أو عمالاً ، كان أكثر من نصف مليون شخص[16] . أما سينيوري ، وهو كاتب فرنسي أيضاً ، فقد قال بأن مجموع عدد الجزائريين الذين شاركوا في الحرب قد بلغ 250,000 ألف شخص[17] .

ولا شك أن بعض الجزائريين قد شاركوا في الحرب ولعبوا فيها دوراً هاماً كجنود شجعان وعمال صبورين الى جانب الحلفاء ، ولكن الذي يبدو محلاً للشك القوي هو طريقة تجنيد أولئك الجزائريين والأهداف التي كانت تحدوهم من المشاركة في الحرب . والحقيقة التي يجب أن لا تغيب عن الذهن هي أن الجزائريين ، الى جانب أنهم كانوا خاضعين الى القوانين الاستثنائية المعتادة ، كانوا تحت قانون الطوراىء والرقابة اللتين فرضتهما ظروف الحرب ، ولا يمكن ، في تلك الظروف ، أن يعبر الجزائريون عن ارادتهم ببرقية بعثها مرابط خرافي من زاويته

---

(15) بيرنار « أفريقية الشمالية » ، ص 11 . يقول المؤلف بأن الجزائر قد قدمت 155,000 جندي ، من بينهم 115,000 جندي غادروا البلاد الى أوروبا . وقد قدر بأن الخسائر في الأرواح منهم قد بلغت 22,000 رجل . أنظر ص 1 . وهناك مصدر فرنسي آخر ينص على أن عدد العمال الجزائريين المجندين خلال الحرب قد تجاوز 78,000 رجل . ومن الواضح أن هذا العدد لا يتضمن الجنود والعمال غير المجندين . أنظر راجر جون ـ جاك ، « المسلمون الجزائريون في فرنسا وفي البلاد الاسلامية » في «ر.م.» ، م 8 ، رقم 2 (مارس ـ ابريل ، 1950) ، ص 171 .

(16) عباس ، ص 113 .

(17) أنظر «ر.ب.ب.» ، م 98 (1919) ، ص 287 .

المعزولة ولا برسالة وجهها جزائريون « مخلصون » مختارون بعناية من فرنسا ، وهم المعروفون « ببني وي - وي » .

وهناك مسألتان جديرتان بالنظر هنا : أهداف الجزائريين من المشاركة في الحرب ، والطريقة الفرنسية التي استعملت لتجنيدهم ، أو بتعبير آخر ، دراسة الكيفية التي حصلت بها فرنسا على ولاء الجزائريين . أما بخصوص المسألة الأولى ، فان الجزائريين قد عبروا عن أنفسهم بطرق مختلفة ، كانت كلها بعيدة عن الولاء لفرنسا . فمنذ سنة 1892 أوضحوا للفرنسيين ، بالثورات والمظاهرات ، والعرائض والوفود ، « والاختفاء » ، والهجرة ، بأنهم يرفضون أن يعملوا في الجيش الفرنسي لأسباب أشير اليها سابقاً .

وعندما انفجرت الحرب ، علق الجزائريون شعارهم : « هذا زمن الصمت ، الخ . » معبرين ، بطريقة غير مباشرة ، عن اعتقادهم بأنهم كانوا محرومين من قول الحقيقة . وسوف نرى أنهم لجأوا الى الأدب الشعبي للتعبير عن أنفسهم ، كوسيلة غير عسكرية ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يخفوا في هذا الشعر مشاعرهم الحقيقية وراء تعابير ساخرة[18] . وقد عبروا عن مشاعرهم أيضاً بثورات محلية ، وصفها لوتو ، الحاكم العام عندئذ ، بأنها قد أعادت الى الجزائر « البربرية القديمة[19] » ولكن طريقة الفرنسيين نفسها تبرهن بوضوح على أن الجزائريين كانوا بعيدين عن الولاء .

ذلك أن الفرنسيين قد استعملوا طريقة العصا والشعير أو الترغيب والترهيب في تجنيد الجزائريين[20] . فلكي تحصل فرنسا على ولاء الجزائريين الذي سخرت له دعاية عريضة ، استعملت بالإضافة إلى الموسيقى ، والولائم ، وغير ذلك من الإجراءات المغرية ، ثلاث طرق :

---

(18) أنظر ديبارمي ، «ر.ا.» ، م 73 (1932) ، 61 . أنظر أيضاً لاحقاً .

(19) « الجزائر » في «ا. ف.» (أفريل ، 1917) ، ص 147 ، من تقرير الحاكم العام الى النواب الماليين . ونص تقريره في نفس المصدر ، ص 146 ـ 147 . أنظر بخصوص التفاصيل عن هذه الثورات لاحقاً .

(20) أنظر سينيوري ، «ر.ب.» ، م 98 (1919)، ص 289 . سنناقش هذا الموضوع بتفصيل أكثر في الفصل التالي .

أولاً : « إرهاب فعال إلى أقصى حد » ، (تسطيري الخاص) .

ثانياً : تدعيم فكرة القدرية بين الجزائريين لكي تظهر لهم أن ما حدث كان بإرادة الله وأنهم لا يستطيعون أن يغيروا أي شيء .

ثالثاً : دعاية نشيطة بين الجنود الجزائريين في ميدان المعارك[21] .

***

وهناك نقطة هامة في هذا المجال وهي أن الكتاب ورجال الدولة الفرنسيين كانوا يتحدثون عن الولاء الجزائري لا عن الهدوء الجزائري ، خلال فترة الحرب ، فكلهم كانوا متفقين على أن هذه البلاد كانت في حالة غليان كما كانت في السابق . ذلك أن « عدم الإستقرار الدائم » الذي امتاز به التاريخ الجزائري تحت حكم فرنسا كان في قمته زمن الحرب . فإذا كان هذا صحيحاً ، كيف يمكن للجزائر أن تكون مخلصة وغير مستقرة في نفس الوقت .

ونتيجة لعدم الإستقرار المستمر ، أصدرت فرنسا قراراً في 23 أكتوبر ، 1915 ، إسترجعت به قانون 19 ماي ، 1897 ، الذي كان قد منح للإداريين الفرنسيين في البلديات المختلطة سلطات إستبدادية أخرى لكي يعالجوا بفعالية وسرعة أي وضع قد ينجم . أما بخصوص الجزائريين في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة ، فإن قرار 1915 قد قوى سلطة الشرطة في الإشراف المباشر عليهم[22] .

جاء في تقرير الحاكم العام عندئذ إلى المجلس المالي أن «الجرائم الجماعية» التي أثارت الرأي العام ، قد حتمت استعمال « القمع » . وقد اعترف لوتو أنه استعمل « وحدات . . شرطة الزواف ، والرماة ، والخيالة (الصبائحية) ، لكي يضع حداً « لجماعات قطاع الطرق » . ثم أضاف بأن « سم (ثورة) 1871 قد أيقظ بعض

---

(21) ميرسي ، «ر.ب.» (جويليه ، 1918)، ص 22 ـ 212. اعترف المؤلف أيضاً بأن فرنسا كانت تظهر ألمانيا للجزائريين بمظهر الغليظ البربري ، وقد كان مذهب القدرية شائعاً من قبل في الجزائر ، ولكن فرنسا شجعته منذ الاحتلال كما رأينا لأنه يساعد على بقاء الأهالي في هدوء واستسلام .

(22) أنظر «الجزائر» في «ا.ف.» (جانفي ـ فيفري ، 1916) ، ص 44 . .وقد أعطي قانون الأهالي للاداريين الفرنسيين سلطات خاصة ليعالجوا أي مشكل ، بما في ذلك سلطة الشرطة العدلية .

الأحفاد الثوريين »[23] . ولكن « القمع » الحقيقي الذي كان الحاكم العام يشير إليه ما زال لم يقع بعد .

وهكذا نجحت فرنسا في تجنيد آلاف الجزائريين ، معظمهم كانوا إما من الفلاحين ، وإما من العمال الزراعيين ، وإما من العاطلين عن العمل ، وذلك باستعمال « إرهاب متطرف » ، وقمع شديد ، ودعاية سوداء ، وإغراء مشبوه . وقد دفع بعض الجزائريين ، باعتراف الفرنسيين ، ضرائب ثقيلة ، بما في ذلك الذهب ، لكي يقوا أبناءهم شر التجنيد . وقد وجد بعضهم في الحرب خلاصاً من حالتهم الإقتصادية التعسة . وكان بعض جماعة النخبة يؤمنون بأنهم يدافعون ، بمشاركتهم في الحرب ، عن الحرية والديمقراطية ضد طغيان وبربرية ألمانيا ، كما كانت الدعاية الفرنسية تصفها بمهارة . وهناك آخرون رفضوا أن يخدموا مهما كان الأمر ، قضية فرنسا . وهؤلاء هم الذين « اختفوا » في الجبال وأصبحوا نواة الثورات التي سنتحدث عنها .

أما أولئك الجزائريون الذين كانوا قد جندوا فقد بدأوا يفرون من الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي حالما سنحت لهم الفرصة . فقد فروا في الجزائر ، وفي الشرق الأدنى ، وفي الجبهة الأوروبية زرافات ووحداناً ، والتحقوا بمواطنيهم الثائرين في الجزائر . ومن هناك واصلوا نشاطهم في شكل حرب عصابات وأعلنوا الثورة ضد فرنسا . وقد بقي بعض هؤلاء الفارين خارج الجزائر وخلقوا ، بالتعاون مع بعض التونسيين والمغاربة ، لجاناً وطنية في جنيف ، وبرلين ، واسطنبول لاستقلال أفريقية الشمالية . كما نشروا دعاية واسعة ضد فرنسا ونادوا بالحرية لبلادهم في المجال العالمي .

ورغم ظروف الحرب ، واصل الجزائريون مقاومتهم لفرنسا . ولكن الجماهير بقيت بلا قيادة . فإذا كان تحدي الفرنسيين ممكناً عندئذ من الناحية العسكرية ، فانه من الناحية السياسية كان غير ممكن تقريباً . لقد اختفى خلال الحرب أولئك الزعماء

---

(23) « الجزائر » في «أ.ف.» (أبريل ، 1917) ، ص 146 ـ 147 . ان كلمة «جريمة» هي الكلمة الفرنسية التي تستعمل لوصف أي نشاط وطني ، وأن عبارات «جماعية» و«جماعات قطاع الطرق» ذات أهمية خاصة في هذا النص .

القلائل ، والأفكار ، والجمعيات ، والصحف التي ظهرت بين سنة 1900 ـ 1914 . وتحت هذه الظروف لا يتوقع المرء من المعارضة السياسية الجزائرية أن تحقق كثيراً . فدعنا الآن نبحث هذا الموضوع .

2. سقوط الستار الفرنسي :

رغم أن الجزائريين كانوا مجردين من القيادة ومن الحريات المدنية ، فإنهم قد قاموا بحملة سياسية عاطفية ضد الفرنسيين في الجزائر وفي الخارج . وقبل أن يلجأوا إلى الثورة حاولوا أولاً المظاهرات ، والإحتجاجات ، والمنشورات ، والأدب الشعبي . لقد قاموا بذلك رغم ادعاء الفرنسيين بأنهم كانوا مخلصين لهم . ونظراً لعدم إخلاصهم ، وصفهم الحاكم العام الفرنسي في الجزائر بالبرابرة والمجرمين .

فحينما أعلنت فرنسا تجنيد الجزائريين ، تظاهر هؤلاء ورفضوا قبول الخدمة العسكرية ، ونادوا بنهاية الحكم الفرنسي . وهكذا انتشرت في أنحاء الجزائر دعاية سرية مفادها أن ألمانيا (عدوة فرنسا) قد خفضت الضرائب ، وأن الأتراك (حلفاء الألمان) قد هاجموا الجزائر من جنوب تونس ، وأن الليبيين قد دخلوا في الجزائر من الجنوب ، وأن فرنسا قد اختفت من الجزائر[24] .

ولا شك أن الاعلان عن نهاية الحكم الفرنسي كان يعني ، قبل كل شيء ، الدعوة إلى استقلال الجزائر . غير أننا لا نملك في هذه اللحظة الوثائق التي تبرهن أن الجزائريين قد أعلنوا الإستقلال عندئذ فعلاً . ولكن الذي لا شك فيه هو أن الجماهير قد فهمت أن دخول فرنسا في حرب ضد ألمانيا كان يعني تحطيم أو اختفاء الأولى ، لأن كثيراً منهم كانوا ما يزالون يذكرون حرب 1870 . فالجماهير الجزائرية المعزولة المضطهدة ، ظنت ، الآن ، أن حكم فرنسا قد انتهى وأن الجزائر كانت في الطريق إلى الحرية .

أثناء الحرب اكتشف الفرنسيون رسالة تاريخها 25 سبتمبر 1914 ، كتبها أحد

---

(24) أنظر «التايمز» ، (لندن) ، (3 نوفمبر ، 1914) ، ص 4 ، بناء على ما نقلته صحيفة « امبريال » التي كانت تصدر في مدريد . أنظر أيضاً ميرسيي ، «ر.ب.» ، (جويليه ، 1918) ، ص 211 .

الجزائريين إلى شخصية إيطالية . وفي هذه الرسالة أكد الكاتب أنه لا يمكنه أن يصف الحالة التعسفية وغير العادلة التي كان الجزائريون يعيشون فيها . وأضافت الرسالة بأن التجنيد العسكري الاجباري قد أدمج الشبان الجزائريين في الجيش الفرنسي ثم بعث بهم إلى الموت في الخطوط الأمامية للمعركة . ثم واصلت الرسالة : « لماذا نحارب ضد الألمان ؟ لأن فرنسا قد جعلت منا حيوانات مفترسة ، وهي تريد الآن أن تدفعنا أفراداً وجماعات لنحارب ضد شعب ليس لنا معه لا علاقة ولا سبب للعداوة . إن هذه هي الوحشية ! ليحيى السلام ! لتحيى أفريقيا الشمالية حرة مستقلة ! »[25] .

ومن السهل أن نعتقد أن هذا الجزائري لم يكن وحده في رأيه . كما أنه من السهل أن نلاحظ أنه كان من جماعة النخبة . ولم يكن في استطاعته ، مثل الجزائريين الآخرين ، أن يعبر عن آرائه بحرية ، لأن سيف قانون الطوارىء والرقابة كان مصلتاً على رقبته . ولكن آراءه قد اكتشفت من الشرطة الفرنسية ، حتى حين عبر عنها في رسالة شخصية . فإذا كانت الجماهير الجزائرية تنادي بنهاية الحكم الفرنسي، فإن الطبقة المثقفة منها قد فهمت بعقلانية واضحة أن انتصار فرنسا لم يكن انتصاراً للجزائر . بالعكس ، ان هذه الطبقة قد رأت أن ذلك سيكون انتصاراً « للوحشية » ، وقمع أفريقية الشمالية كلها .

وفي رسالة أخرى مكتشفة ، وجد الفرنسيون أن جزائرياً قد عبر عن رأيه قائلاً بأن بلاده كانت تعيش في حالة تعسة تماماً . وقد جاء في هذه الرسالة ، المؤرخة في أول ديسمبر 1914 : « انني قد قررت كتابة رواية إجتماعية وتاريخية عن الشعب الجزائري ، وعن الدراما والعذاب اللذين يعانيهما ، هذا الشعب الذي حكم عليه الله أن يبقى تحت نير المجوس »[26] .

وقد كان هذا الهجوم المرير وغير المباشر على الحكم الفرنسي في الجزائر نموذجاً فقط . فالجزائريون كانوا واعين لوضعهم وطموحين للوصول إلى وضع

---

(25) نص على ذلك نوشي ، ص 26 ، من تقرير عن ثورة 1916 كتبه أوكتاف ديبون . وديبون ، الذي كان موالياً للاستعمار في آرائه وكان من الفرنسيين المعروفين بخبرتهم بالشؤون الجزائرية ، قد درس بتعمق ثورة 1916 .

(26) نفس المصدر ، ص 25 ـ 26 .

أفضل ، ولكن إمكانية تحقيق ذلك ضعيفة . وهناك جزائري آخر قد أخبر فرنسياً رسمياً ، سنة 1914 : « انكم تستطيعون أن تزيدوا في الضرائب منا ، فندفع أملاكنا ، ولكننا لن ندفع لكم أبناءنا »[27] . ولكن فرنسا واصلت تطبيق خطتها في تجنيد آلاف الجزائريين ، بينما كانت تدعى بالخطوط العريضة أنهم كانوا مخلصين لها .

وإعلان الجهاد ضد فرنسا ، الذي أعلنه مفتي اسطنبول ، كان له وقع محدود على الجزائريين . على أن الدعاية الفرنسية حاولت أن تقلل من شأن ذلك الاعلان وأن تمنع انتشاره بينهم . يقول الكاتب الفرنسي ديبون بأن بعض المناطق الجزائرية ، مثل ميزاب ، قد استقبلت اعلان الجهاد بالترحيب . وعندما انفجرت ثورة الهقار ، سنة 1916 أيدها الجزائريون في ميزاب من كل قلوبهم . وبناء على رأي ديبون ، فإن المناطق الأخرى في الجزائر لم تبال بإعلان الجهاد[28] .

ولكن ديبون لم يقل شيئاً عن الوسائل التي استعملتها بلاده لكي تمنع الجزائريين من معرفة إعلان الجهاد واستقباله بترحيب أو بلا ترحيب. ومن بين هذه الوسائل منع الجزائريين من أداء حجتهم السنوية إلى البقاع المقدسة . ذلك أن فرنسا لم ترفع حظرها على الحج إلا بعد ثورة الشريف حسين ، حاكم الحجاز سنة 1916 . وحتى عندئذ لم يكن في استطاعة الجزائريين أن يؤدوا فريضة الحج إلا في نطاق محدود، فقد كانت فرنسا تخشى أن الجزائريين سيقعون تحت تأثير الدعاية العثمانية والألمانية إذا سمح لهم بأداء الحج . ولهذا السبب بعثت فرنسا الجنود الجزائريين إلى أوروبا وليس إلى الشرق الأدنى .

وبتقدم الحرب كان الجزائريون يزدادون غلياناً وعداوة ضد فرنسا . ففي ديسمبر 1914 طالب سكان إقليم قسنطينة بعودة أراضيهم التي كانت قد صودرت بعد ثورة 1871 . فقد تحدوا الكولون بأنهم سيسترجعون أراضيهم بمساعدة ألمانيا[29] ويقال إن الجزائريين قد عبروا عن فرحهم بانتصار القوات المركزية في معركة

---

(27) نفس المصدر .

(28) أوكتاف ديبون ، « تمرد في الجزائر » في «ر.أ.ن.» 1 (1921) ، ص 9 .

(29) نوشي ، ص 25 .

« غاليبولي » وزادوا من عداوتهم ضد فرنسا . بل لقد أنشدوا أناشيد معادية لفرنسا وهللوا لانتصار الملك ويليم الثاني الألماني على الفرنسيين[30] .

وبناء على رأي ديبون ، فان جماعة النخبة الجزائريين قد استعملوا بمهارة القلم بدل السيف لاثارة الأهالي لكي يطالبوا بالتعويض السياسي على الخدمة العسكرية[31] . ولكن هذا يبدو محل شك ، لأن جماعة النخبة لم يبقوا في الجزائر خلال الحرب . وحتى لو بقي بعضهم فان أقلامهم قد تكسرت بعد 1914 . وبالإضافة الى ذلك فانه لم يكن للجزائر صحافة وطنية أثناء الحرب . فأين اذن استعمل جماعة النخبة أقلامهم ؟ فاذا كان ديبون يعني أنهم قد استعملوا هذه الأقلام سرياً في كتابة مناشير خفية ، فقد يكون على حق ، ولكن ذلك سيكون اعترافاً هاماً من فرنسي معروف بعداوته للحركة الوطنية الجزائرية .

وقد كانت سنة 1916 هامة في تاريخ الجزائر : فقد نوقش المشكل الجزائري علانية في جنيف . كما حدث في الجزائر نفسها تمرد يعتبر من أكثر التمردات عنفاً . وكلا القضيتين سيتناول بالتفصيل . ويقول شاهد عيان فرنسي ، كان يكتب خلال نفس السنة ، بأن سكان العاصمة قد وجدوا في صناديق البريد « بطاقات زيارة » بامضاء « رجل الساعة » . وهذه البطاقات ، بالإضافة الى المناشير ، كانت تدعو السكان الى الثورة ضد فرنسا[32] .

وفي 7 سبتمبر 1916 ، أمرت فرنسا بتجنيد الجزائريين اجبارياً بقطع النظر عن الشروط التي نص عليها قانون التجنيد . وفي الرابع عشر من نفس الشهر صدر قانون جديد يفرض التجنيد لا على الجنود فقط بل العمال أيضاً . وقد أثارت هذه الاجراءات غضباً شديداً في الجزائر . حتى أولئك الذين كانوا مخلصين لفرنسا أنذروها بالعواقب الوخيمة . وبعد الاحتجاج ، أعلن الجزائريون معارضتهم المفتوحة للخدمة العسكرية للعمل من أجل فرنسا[33] .

---

(30) سينيوري ، « ر.ب.ب. » م 98 (1919) ، ص 291 .

(31) ديبون « ر.أ.ن. » م أ (1921) ، ص 11 .

(32) ديبارمي ، « العاطفة التركية في الجزائر » في « س.ج.أ.ب. » ، م 21 ، (1916) ، ص 3 .

(33) سينيوري ، «ر.ب.ب.» ، م 98 (1919) ، ص 293 ـ 294 .

لقد كان هذا الموقف تمرداً وعصياناً مدنياً في نفس الوقت . وكان ذلك مقدمة للثورة التي حدثت في نفس السنة . فقد انفجر العنف والاضطراب في أجزاء مختلفة من البلاد حيث استنكر الأهالي الحكم الفرنسي وأعلنوا مقاومتهم المفتوحة له . أعلن سكان بريكة رفضهم « المطلق » للاستسلام للسلطات الفرنسية . وفي بعض المناطق الأخرى رفض الأهالي تسليم أسلحتهم وطاعة قرارات سبتمبر 1916[34] . وهكذا أصبحت الجزائر على أبواب الثورة ، التي حدثت بعد عدة أسابيع فقط .

وكان الأدب الشعبي وسيلة أخرى عبر بها الجزائريون عن شعورهم المعادي لفرنسا ، لا سيما أثناء الأوقات التي تتميز باضطهاد استثنائي ، وذلك لأن الأدب الشعبي يعبر عن معنى غامض وغير مباشر، لا يفهمه عادة الا الجزائريون . فقد كانت هناك أغاني ، وأمثال، وغيرها من التعابير الشعبية التي كانت تستعمل « باجماعية وتلقائية » للشكوى الجماعية من الحالة[35] . وفي كثير من الأحيان ، وخوفاً من الانتقام كانت تلك التعابير الشعبية ساخرة وغامضة عن قصد . وقد أشرنا من قبل الى المثل الذي كان قد ألصق على جدران بعض المدن ، سنة 1914 احتجاجاً على قانون الطوراىء .

وفي أغنية سياسية طويلة عبر الجزائريون عن شعورهم الحقيقي نحو فرنسا خلال الحرب . فالكاتب ديبارمي ، الذي كان قد ترجم هذه الأغنية الى الفرنسية والذي قام بتحليلها ، قد اعتبرها « وثيقة هامة » و« أغنية العصر » . كانت هذه الأغنية تتبع أحداث الحرب خطوة خطوة ، بما في ذلك انتصار الأصدقاء وهزيمة الأعداء ، كما أعطت وصفاً حياً عن معاناة الجنود الجزائريين من الحرب ، وعن شعور نسائهم ، وأطفالهم ، وأهلهم في الجزائر ، وعن الأسعار في ذلك الوقت . وانتهت الأغنية بالصلاة الى الله أن يساعد ألمانيا وتركيا وأن يهين فرنسا[36] .

وفي أغنية أخرى أظهر الأدب الشعبي أيضاً كيف شعر الجزائريون نحو فرنسا وأعدائها : ألمانيا وتركيا . ولقد كانوا يأملون أن يسقط الستار الفرنسي عنهم قريباً

---

(34) نفس المصدر ، ص 295 ـ 296 .

(35) « أغنية الجزائر » في « ر.أ. » م 73 (1922) ، ص 61 .

(36) نفس المصدر ، ص 83 . النصان العربي والفرنسي في ص 62 ـ 83 .

بمساعدة القوات المركزية : « تحية لويليم (الثاني) ، الذي يحلق في طيارة ، ويتحارب مع النجوم . أين المفر ، أيها الرومي (الفرنسيون) ، أيها الانسان الكئيب ؟ ان ويليم لابس دروعاً برونزية ، محاطاً بكل الأمم ، مؤيداً من الأتراك . . انني أؤكد أن الجدران العالية التي تحيط بالجزائر ستسقط قريباً من أساسها(37) » .

ولكي تجيب أولئك الجزائريين الذين كانوا ينادون بنهاية حكمها في الجزائر ، ويدعون الى الثورة ، ويحطمون أساسها بالأدب الساخر « الاجماعي والتلقائي » ، لجأت فرنسا الى العمل القمعي . فقد اتخذ «مجلس النواب » الفرنسي بعض الاجراءات لكي يبرهن للجزائريين بأنهم كانوا مخطئين وأن فرنسا ما تزال هناك . لذلك وجه الفرنسيون حملة من الدعاية تستهدف الحط من قيمة ألمانيا وتركيا واصفين لهما بالبربرية ، واغتيال النساء والأطفال ، والقضاء على الحضارة . كما أن الارهاب قد طبق الى أقصى حد . أما الجماهير فقد كان يكفيها شرب سم القدرية لتنام . وأما الجنود والعمال الجزائريون فقد ضاعف الفرنسيون دعايتهم بينهم . قد رأينا من قبل أن فرنسا قد أصدرت ، في أكتوبر سنة 1915 ، قرارات تدعمُ مجال عمليات الشرطة وقوات الاداريين النظامية(38) . وهكذا حاولت فرنسا أن تكسب ولاء الجزائريين بتلك الطريقة الاستغلالية .

ولكن « الجدران العالية التي تحيط بالجزائر » منذ حوالي قرن كانت قد بدأت تنهار . ان الستار الفرنسي لم يعد في استطاعته أن يمنع الجزائريين من الاستفادة من الأوضاع الجديدة التي نشأت نتيجة للحرب ، فان مؤتمر لوزان عن القوميات ، وفكرة تقرير المصير ، ونداء مبدأ الديموقراطية الذي نادى به الرئيس ويلسون ، والثورة البولشيفية ، كان لها جميعاً تأثيرات على القضية الجزائرية . كما أن ثورة العرب سنة 1916 ضد الأتراك لم تكن أقل أهمية بالنسبة للجزائر .

ففي المؤتمر الثالث للقوميات ، الذي عقد في لوزان سنة 1916 ، مثل قضية الجزائر وتونس الوطنية السيد محمد باش حانبة التونسي . وقد أخبر باش حانبة

---

(37) نوشي ، ص 27 ـ 28 . لم يشر المؤلف إلى مصدر هذه الأغنية ولا إلى أصلها العربي .

(38) أنظر ميرسي ، « ر.ب. » (جويلين ، 1918) ص 211 ـ 212 ، وكذلك « أ. ف. » ، (جانفي ـ فيفري ، 1916) ، ص 44 .

المؤتمرين بأن الجزائريين الذين أصبحوا فرنسيين ، بعد ثمانين سنة من الاحتلال الفرنسي ، لا يعدون 500 أو 600 شخص . وقد طالب باش حانبة ، باسم القومية ، بالحكم الذاتي لكل افريقية الشمالية[39] .

وقد أنشئت في جنيف خلال هذه الأثناء « لجنة استقلال الجزائر وتونس » ، مكونة من الوطنيين المتمردين من كلا البلدين ، بدأت تصدر دورية بعنوان « مجلة المغرب » . وهكذا أصبحت هذه « المجلة » مركز نشاطات الوطنيين الجزائريين والتونسيين . وفي عددها الثاني كتب أحد الجزائريين قائلاً : « اننا جزائريون مسلمون ، وسنبقى جزائريين مسلمين » جواباً للفرنسيين الذين ادعوا بأن الجزائريين كانوا رعايا فرنسيين[40] .

وهناك « لجنة لاستقلال الجزائر وتونس » أخرى تأسست في برلين تحت قيادة الشيخ صالح الشريف التونسي وبعض الجزائريين الهاربين من الجيش الفرنسي والمهاجرين . وقد قامت هذه اللجنة ، التي كانت مؤيدة من ألمانيا وتركيا ، بحملة دعائية واسعة تثقيفية ووطنية ضد فرنسا[41] . وسوف نرى أن هذه اللجنة قد شجعت هروب جنود أفريقية الشمالية من الجيش الفرنسي ، وعملت على استقبالهم وتكوينهم الفكري ، ثم أرسلت بهم الى بلادهم للثورة أو الى الشرق الأدنى لكي يحاربوا مع تركيا .

وكان الكتاب الفرنسيون المعاصرون على علم بانتشار فكرة القومية بين

---

(39) من الذين شاركوا في النشاط المعادي لفرنسا الشيخ محمد الخضر حسين (وهو جزائري ـ تونسي) . فقد اشترك في تأسيس اللجان المضادة والكتابات وتوعية الجنود الهاربين من الخدمة ، وكتابة عريضة إلى مؤتمر الصلح . أنظر محمد مواعدة (محمد الخضر حسين) الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1974 ، ص 224 ـ 225 .

(40) أنظر أجرون ، « سياسة جزائرية » في « ر.هـ.م.ك. » ، (أبريل ـ جوان ، 1959) ، ص 139 . أنظر أيضاً بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 90 . وعلي مراد ، « أ.ب.ل.أ. » 27 (1964) ، ص 16 . ديبارمي ، « العاطفة التركية » في « س.ج.أ. » ، م 22 (1917) ، ص 3 وقد صدرت (مجلة المغرب) في ماي 1916 واستمرت في الصدور إلى سنة 1918 . وكان مديرها هو محمد باش حانبة ، أخو علي باش حانبة الذي سبق ذكره . وقد توفي محمد باش حانبة في برلين سنة 1920 .

(41) ديبارمي ، « العاطفة التركية » في « س.ج.أ. » ، م 22 (1917) ، ص 3 .

الجزائريين وبين أهل افريقية الشمالية عموماً . ويقول ديبارمي ، الذي كان يكتب سنة 1917 ، بأن مبدأ القومية قد دخل مرحلة جديدة في الجزائر[42] . أما الكاتب شارل جيد ، الذي كان يكتب سنة 1916 فيقول بأن قضية القومية ، كما عبر عنها الحلفاء ، لها بعض الأثر في افريقية الشمالية . ويضيف جيد بأن القضية هي هل فرنسا ستعترف بأن القومية في افريقية الشمالية لها نفس حق الوجود الذي لقومية بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، أو هي لا تعترف بهذا الحق ، وفي هذه الحالة ، بناء على رأي جيد ، كيف يمكن رفض الجنسية الفرنسية لأهل أفريقية الشمالية[43] .

وكل من أفكار الرئيس ويلسون عن الديموقراطية وتقرير المصير ، والثورة الروسية كان له مفعول عميق في الجزائر ، وبناء على رأي بعض الكتاب الفرنسيين ، فان الوطنيين الجزائريين كانوا قد تأثروا بكلا الحادثتين . ان أفكار ويلسون ، وخصوصاً فكرة تقرير المصير ، كان لها وقع قوي على الرأي العام الجزائري . وفي سبتمبر 1918 ، نشرت « مجلة المغرب » مذكرة أرسلت الى « مؤتمر السلام » الذي كان منعقداً في باريس مطالبة بتقرير المصير لافريقية الشمالية[44] . أما الثورة البولشيفية فقد كان يراقبها الوطنيون الجزائريون عن كثب ، وكانوا يناقشون ، بناء على رأي أحد الفرنسيين ، تطبيق مبادئها في الجزائر[45] . وليس هناك من شك في أن الدعاية الفرنسية نفسها قد شجعت ونورت الجزائريين ، بلا قصد طبعاً ، على أن يصيغوا مطالبهم الوطنية بطريقة جديدة .

كما أن المهاجرين في الشرق الأدنى قد قاموا بدورهم في الحملة ضد الفرنسيين ، ولا سيما خلال النصف الأول من فترة الحرب . وبتشجيع من تركيا وألمانيا قام المهاجرون « بحملة مسمومة » حسب تعبير طيبال ، ناعتين فرنسا بأنها « أسوأ مضطهد » للجزائريين . وهذه الحملة قام بها الجزائريون المتمردون

---

(42) نفس المصدر .

(43) أشار إلى ذلك أجرون ، « سياسة جزائرية » في « ر. هـ.م.ك. » ، (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 138 .

(44) نفس المصدر ، ص 139 وبيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 81 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 24 . توجد المذكرة وأسماء الموقعين عليها في (مجلة المغرب) ، عدد سبتمبر - ديسمبر 1918 .

(45) أجرون ، « سياسة جزائرية » في « ر. هـ.م.ك. » (أبريل - جوان ، 1959) ص 139 .

و « المتعصبون » الذين هربوا من الجيش الفرنسي أو هاجروا من الجزائر في العقود السابقة . وهكذا فإن المهاجرين قد اتهموا فرنسا ، من اسطنبول ، والحجاز ، ومصر ، وسورية ، بمنع الحج ، واضطهاد التقاليد العربية والاسلامية ، وبمصادرة الأوقاف الجزائرية ، وإجبار الجزائريين على الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي[46].

ولما كان معظم المهاجرين الجزائريين قد أيدوا قضية القوات المركزية ، ولا سيما قضية تركيا ، فان الشريف حسين حاكم الحجاز ، قد طرد عدة آلاف من أهل أفريقيا الشمالية من المدينة ، بعد ثورته ضد السلطان . ولعل ذلك كان تحت ضغط الحلفاء[47] . ولكن سبب الثورة العربية كان قد ارتبط باضطهاد تركيا لبعض الزعماء الجزائريين . فاعلان الاستقلال الذي أصدره الشريف حسين قد اتهم تركيا بشنق الأمير عمر ، و « الاهانة والاعتداء على الشريف الورع الأمير عبد القادر الجزائري »[48] .

وهكذا فإن الحركة الوطنية الجزائرية قد نالت تدعيماً كبيراً خلال الحرب ، داخلياً وخارجياً . ورغم أن فرنسا أرادت أن تظهر للعالم بأن الجزائريين كانوا مخلصين لها ، فإنها كانت قد واجهت إضطرابات سياسية وعاطفية ووطنية مستمرة نجحت في النهاية في إيجاد ثغرة في الستار الفرنسي كما ازدادت قوة بالحرب . وقد فشلت فرنسا أيضاً في محاولتها عزل الحركة الوطنية الجزائرية داخل منطقة النفوذ الفرنسي . ذلك أن القومية سواء في أوروبا أو في الشرق الأدنى ، كانت في حالة هجوم . كما أن التطورات العالمية وظهور أيديولوجيات جديدة قد أعطت الحركة الوطنية الجزائرية دفعاً جديداً . وسوف نرى أنه بحلول سنة 1919 لم يعد في

---

(46) طيبال ، « أ.ف.س. » ، « سبتمبر ، 1921) ، ص 202 ، وقد أشرنا من قبل إلى أن جريدة « المهاجر » كانت من بين الجرائد الجزائرية الهامة التي قامت بحملة دعاية في الشرق الأدنى ضد الفرنسيين .

(47) نفس المصدر ، ص 201 .

(48) أنظر النص العربي الكامل في « عالم في تقدم » (تاريخ الإستعمار والقومية في آسيا وأفريقية الشمالية من فاتح القرن إلى مؤتمر باندونغ) ، أمستردام : 1956 ، ص 95 . كان الأمير عمر هو الذي دعته فرنسا سنة 1911 ، إلى باريس ، وهو كما سبق أحد أبناء الأمير عبد القادر .

استطاعة فرنسا أن تدعى ، حتى لأغراض دعائية ، بأن الجزائريين كانـوا مخلصين لها .

ولكن الحركة الوطنية الجزائرية ، خلال الحرب لم تستعمل النشاط السياسي والعاطفي فقط ، بل لجأت أيضاً إلى المقاومة المسلحة . والحقيقة أن فرنسا كانت ، طيلة الحرب ، تحارب على جبهتين : الجبهة الأوروبية ، التي هي معروفة للجميع ، والجبهة الجزائرية التي هي غير معروفة كثيراً . فدعنا الآن نبحث ما حدث على هذه « الجبهة الأخرى » .

3. الجبهة الأخرى : ثورات واضطهادات :

بدأ الشباب الجزائري يختفي في الجبال ، منذ سنة 1912 ، محاولاً الفرار من العمل في الجيش الفرنسي . وقد أصبح الفرنسيون عندئذ منذرين بالخطر ، كما أن بعض كتابهم قد توقعوا نتـائج وخيمـة . ولكن الفرنسيين استمـروا في خطتهم في التجنيد ، الذي كان قد أصبح أكثر ضرورة بقدوم الحرب . وعندما انفجرت الحرب كان المجندون الأولون لم يكادوا ينتهون من تدريبهم العسكري . ولما كان الجنود الجزائريون آتين من الأرياف فإن معظمهم كانوا أميين وجهلة بالوضع الدولي . لقد حملهم الفرنسيون إلى السواحل الأوروبية ، ثم إلى الجبهة مباشرة .

وخوفاً من ثورة وطنية ، ولمنع الفرار المستمر من الجيش ، قرر الفرنسيون أن يرسلوا بالجنود الجزائريين إلى أوروبا بينما أحلوا محلهم الجنود السود من مستعمرات فرنسا في أفريقيا . ولكن حركة الفرار من الجيش قد استمرت حتى في أوروبا . فمن هناك فر الجنود الجزائريون من وحداتهم الفرنسية تحت تشجيع لجان استقلال أفريقيا الشمالية التي كانت تعمل في جنيف ، وبرلين ، واسطنبول . وقد نجح الفارون في الإنضمام إلى الثوار الذين كانوا قد التحقوا بالجبال من قبل . وقـام الجميع بخلق الخلايا السرية وتنسيق الحركة ضد فرنسا . وهكذا فمن وهران غرباً إلى عنابة شرقاً ، ومن بلاد القبائل شمالاً إلى الهقار جنوباً كانت الجزائر مغطاة بعمليات عسكرية نشيطة بلغت أوجها في ثورة 1916 .

بعد بدء الحرب مباشرة ، قنبلت ألمانيا ، كاشارة إلى إثارة الإضطرابات ضد

فرنسا ، مينائي مدينتي عنابة وسكيكدة الجزائريين . وقد قامت بهذه العملية السفينتان « بريسلو » و« غوين » ، اللتان انسحبتا بسرعة إلى المياه التركية بعد تحقيق هدفهما . ولما كانت ألمانيا ، كما سنرى ، قد قامت بحملة دعاية نشيطة في الجزائر منذ الأزمة المغربية الأولى (1905) وخبيرة بالحالة العامة في المنطقة ، فإنها كانت تتوقع ، كما يبدو ، انفجار ثورة وطنية في أية لحظة . وقد كانت اللحظة المواتية لهذه الثورة هي أوت 1914 ، حينما كانت فرنسا ما تزال في فوضى الأسابيع الأولى للحرب ، وحينما كان العقد المضطرب (1906 ـ 1914) ما يزال في عنفوانه . غير أن هذا التقدير لم يكن صحيحاً تماماً . لأن الثورة العامة لم تحدث ، كما كان متوقعاً ، وكل ما حدث هو نشاطات ثورية على طريقة حرب العصابات .

ورغم أن القوات المركزية لم تتوقع حرب العصابات في الجزائر فإنها كانت هي الطريقة الوحيدة الممكنة عندئذ . فقد كان الكولون يقظين ، وضاغطين دائماً على ضرورة الأمن واتخاذ الإجراءات العميقة ضد الوطنيين . كما أن فرنسا قد أبقت على جيش كبير في الجزائر ، مؤيدة من جنود المستعمرات السود ، الذين كانوا غرباء عن الأهالي . ورغم أن الجماهير قد استيقظت في العقد السابق على نداء جماعة النخبة ونشاطات المصلحين ، فإنها كانت ما تزال معزولة ولا تكاد تعرف عن مبادىء الوطن والقومية إلا القليل . فأكثر المثقفين الجزائريين الذين كان من الممكن أن يقودوا الجماهير في ذلك العهد الحرج إما غادروا الجزائر إلى تونس ، والشرق الأدنى ، وإما التقطهم الفرنسيون للخدمة العسكرية . أما المساعدات الأجنبية فلم تكن لا موجودة ولا موعودة بوضوح . وسوف نرى أن كلا من ألمانيا وتركيا ليس لها خطة واضحة لثورة وطنية في الجزائر أكثر من خلق المصاعب لفرنسا هناك . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الأوضاع الجديدة التي جاءت نتيجة لإعلان الحرب (مثلاً : إعلان حالة الطوارىء) قد جعلت من المستحيل على الوطنيين أن يفجروا ثورة عامة .

وعلى أية حال ، فإن حرب العصابات ، التي كانت تعد منذ 1912 ، قد بدأت بانفجار الحرب العالمية الأولى نفسها . وقد سبقت الإشارة إلى أن بعض الصحف الأوروبية نقلت ، أثناء الأسابيع الأولى للحرب ، أن بعض الإضطرابات قد حدثت في الجزائر وأن بعض الفرنسيين قد قتل .

أما فرنسا ، التي كانت تتوقع ثورة وطنية ، فإنها قد قامت بحملة واسعة النطاق لكي تمنع الجماهير الجزائرية من أن تسقط تحت تأثير الثوار . وقد لاحظنا من قبل أن هؤلاء كانوا ينادون بنهاية فرنسا في الجزائر ، ويعدون بمساعدة ألمانيا وتركيا ، ويطالبون برفض دفع الضرائب إلى الفرنسيين ، ويشجعون على الفرار من الجيش الفرنسي ، ويحثون على الإنضمام إلى المقاومة لتحرير البلاد من فرنسا . ورغم كل جهودها فإن فرنسا قد فشلت في منع التعاون بين الثوار والأهالي .

بدأت الثورة في أكتوبر 1914 . ففي بريقو (المحمدية حالياً) وبني شقران بعمالة وهران هاجم الثوار (14 أكتوبر ، 1914) وحدات الجيش الفرنسي وقتلوا عدداً من الجنود . وقد بعثت السلطات الفرنسية ، نظراً لعنف الثورة ، النجدة وألغت خطة التجنيد التي كانت معدة للجزائريين هناك ، ولكي يعطي الفرنسيون درساً نموذجياً للجزائريين ويمنعوا انتشار الثورة ، عمدوا إلى إستعمال قمع « قوي » و« مبالغ فيه »[49] . وبناء على قول كاتب فرنسي آخر ، فإن الثورة كانت « قد أخمدت بكل حزم »[50] ولكن هذه الإجراءات لم تستطع أن تضع حداً للتمرد . بالعكس ، لقد ضاعفت من قوته .

وقد شهدت سنة 1915 ، نشاطات واسعة من حرب العصابات ضد فرنسا . ذلك أن كثرة الفارين من الجيش الفرنسي قد أعطى معنى جديداً لهذه النشاطات . ففي العمالات الشمالية الثلاث ، اضطرت فرنسا إلى استعمال القوات المسلحة والعمليات البوليسية . وهكذا كان الثوار ، الذين كانوا مسلحين بعناية ، يعملون بفعالية ، على طول جبهة تمتد من تبسة إلى بجاية ، ضد المراكز العسكرية الفرنسية وخطوط المواصلات ، وينشرون الرعب في مدن عنابة ، وسوق أهراس ، والساقية ، وغيرها . وبناء على قول ديبون ، الذي كان قد درس هذه الفترة بتوسع ، فإن الثوار

---

(49) سينيوري ، « ر.ب.ب. » ، م 98 (1919) ، ص 291 . وينص المؤلف على أن الثورة قد دعا إليها مرابطون ومتعصبون . أنظر أيضاً مقالة المهدي البوعبدلي « علاقات الجامع الأزهر بالجزائر » (في الملتقى السابع للفكر الإسلامي - تيزي وزو ، 1973 ، ج ، ص 43 من كَوْنِ الشيخ عثمان الراشدي الأزهري هو بطل ثورة بني شقران » وأنه قد حكم عليه بالإعدام هو وتلاميذه وأقاربه .

(50) ديبون ، « ر.أ.ن » ، م رأكتوبر ، 1921 ، ص 8 .

كانوا مؤيدين « بتآمر ورضى » القرويين ، بالإضافة إلى بعض الأعيان[51] .

وفي جويليه ، 1915 ، انتقمت فرنسا بلا رحمة ، مستعملة المشاة والخيالة ، إلى جانب الشرطة العسكرية . وقد دامت العملية إلى شهر نوفمبر من نفس العام ، ولكنها انتهت بالفشل ، لأن زعماء حرب العصابات قد فروا . وبناء على الروايات الفرنسية فإن سبعة عشر ثائراً فقط قد وقعوا في الأسر[52] . ولكن المدنيين ، على ما يبدو ، قد عانوا أكثر من هذه العمليات .

وخلال نفس السنة ثم بداية سنة 1916 ، فتح الثوار جبهة أخرى ، تمتد من القبائل شرقاً إلى وهران غرباً . ويصف ديبون نشاطات الثوار في هذه الجهة بأنها كانت « حركات هامة تسببت في اضطرابات خطيرة » في أمن منطقة القبائل[53] . ونفس « الحركات الهامة » قد وقعت في منطقتي وهران وقسنطينة . لقد كان هناك تعاون بين الجنود والعمال الجزائريين شبيها بتعاون جنود وعمال روسيا سنة 1917 . ففي أكتوبر ، 1916 ، هاجمت جماعة من الثوار ، بالتعاون مع عمال المصانع ، مدينة تنس ، وأوقفت ثماني سيارات عسكرية ، وقتلت بعض جنود الدرك الفرنسي ، وحجزت كمية كبيرة من السلاح والعتاد[54] .

وقد تضاعف عدد الثوار نتيجة استمرار الهروب من الجيش الفرنسي خلال سنتي 1915 ـ 1916 . ومعظم الفارين كانوا قد دربوا تدريباً عسكرياً جيداً ، وكثير منهم قد أتوا معهم بالسلاح . وكان أولئك الذين عادوا من أوروبا قد أصبحوا أكثر تفتحاً وأكثر تنويراً من الناحية السياسية ، مع عزيمة تحرير بلادهم من فرنسا . والحق أن تعاون الجنود والعمال ، وتأييد الأهالي وبعض الأعيان المحترمين لهم قد أعطيا نشاطات حرب العصابات مظهر العمل « الشعبي » ، الذي هو عنصر ضروري لأية حركة وطنية واعية .

أما فرنسا فإنها ، بإسم حالة الطوارىء التي خلقتها الحرب ، قد انتقمت بتطبيق

---

(51) نفس المصدر ، ص 10 .
(52) نفس المصدر .
(53) نفس المصدر .
(54) نفس المصدر ، ص 12 ـ 13 .

ما سماه لوتو، الحاكم العام عندئذ، « بالقمع العادل »[55] . وهكذا فإن الجيش والشرطة قد قاما « بعمليات تنظيف » في إقليم القبائل ، واعتقل الفرنسيون 142 شخصاً على الأقل ثم أعلنوا أن المنطقة قد « طهرت » من « العناصر السيئة » . وفي منطقة تنس اعتقل الفرنسيون أكثر من 248 ثائراً ثم أتبعوا ذلك بعمليات بوليسية « فظة »[56] .

ولكن حرب العصابات الوطنية قد نجحت ، سنة 1916 ، في فتح جبهتين أخريين ، إحداهما في الأوراس في الشمال ، وثانيهما في الهقار في الجنوب . والحق أن الحرب على هاتين الجبهتين لا يعرف عنها مؤرخو الحرب العالمية الأولى إلا قليلاً ، كما لا يعرف عنها الوطنيون الجزائريون إلا القليل أيضاً . لذلك يبدو من المناسب أن نسلط بعض الضوء على هاته الحوادث .

فثورة الأوراس كان قد نادى بها زعماء، أمثال ابن علي بن نوى، والشيخ مقدم زغانة . فقد نادوا الجزائريين الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والأربعين أن ينضموا إلى الثورة . وقد سمى الثوار أنفسهم « مجاهدين » ، وأعلنوا الجهاد ضد فرنسا في اجتماعات شعبية عقدت لهذا الغرض . والثورة التي انفجرت أولاً في بريكة أثناء سبتمبر ، 1916 سرعان ما انتشرت إلى جهات بللازمة ، والحضنة ، وعين التوتة ، وإلى بقية الإقليم .

وقد انتشر التمرد بين سبتمبر ونوفمبر بطيئاً بفضل الوسائل الفرنسية التي كانت مستعدة وغير رحيمة إلى قمع مثل هذه الحركة . كان عمل الثوار عندئذ يتمثل في اغتيال الإداريين الفرنسيين ، والهجوم على مراكز العدو ، وتخريب المؤسسات العامة التي كان الفرنسيون سيستعملونها، مثل الطرق الحديدية . ولكن التمرد قد أخذ شكلاً جديداً في منتصف شهر نوفمبر . فقد أصبح عندئذ أكثر عنفاً وأكثر حمية . وكان الثوار مؤيدين من الأهالي ، وزعماء الدين، والأعيان في المنطقة[57]. وهاجموا بلدية عين

---

(55) أشار إلى ذلك ديمونتي ، « الجزائر » في « أ.ف. » ، « جويليه - أوت ، 1919) ، ص 241 .

(56) أنظر ديبون ، « ر.أ.ن. » م (أكتوبر ، 1921) ، ص 9 - 12 .

(57) نفس المصدر ، ص 16 - 17 ، ويقول المؤلف ، الذي كان المفتش العام للبلديات المختلطة في الجزائر ، بأن هناك (تحالفاً) بين الثوار والمرابطين شبيهاً بذلك الذي حدث سنة 1871 . أنظر أيضاً =

التوتة المختلطة وتامارين ، تاركين وراءهم قتلى من الموظفين الفرنسيين وخسائر ضخمة في المراكز العسكرية والعامة الفرنسية . ومن بين الرسميين السامين الذين اغتيلوا ، نائب العامل في مدينة باتنة وحاكم مدينة عين التوتة[58].

لو كان هناك مبررات ، في نظر الفرنسيين ، لقانون الأهالي البغيض ، وللمحاكم الرادعة ، ولقانون حالة الطوارىء ، لكان هذا هو أوانها . فالثورة قد أخمدت بشدة . وفي تقريره إلى النواب الماليين استنكر الحاكم العام عندئذ هذه الثورة واعتبرها عودة إلى « البربرية القديمة » ، ثم دافع عن الاجراءات التي اتخذها على أساس ، أنها « قمع ضروري » جدير برجال فرنسيين يستحقون هذا الاسم « ويعون دورهم كمعلمين ومانحين لمبدأ الكرم » . وأكد لوتو بأن دور فرنسا في الجزائر كان « تهذيب شعب متخلف » . وفي صوت مليء بالفخر أخبر الحاكم العام مستمعيه بأن « سم (ثورة) 1871 الذي أراد احياءه بعض العناصر المتمردة من الأحفاد » قد قضى عليه نهائياً[59] . فكيف « أنهى » الحاكم العام هذه « البربرية القديمة » تحت غطاء تهذيب شعب متخلف ؟

في الحقيقة لقد أنهاه باتباع بربرية « جديدة » .

ان براهين القمع ليست من مصادر جزائرية بل فرنسية ، وقد اعترف الحاكم العام نفسه ، ربما تحت تأثير هزة اللحظة ، بأنه كان قد أرسل « الشرطة . . . ووحدات من جنود الزواف ، والرماة ، والصبايحية » ضد الثورة . وسمى ذلك اجراءً « ضرورياً »[60] . ويقول مصدر فرنسي آخر بأن فرنسا قد أعطت العناصر السيئة (مثلاً : الوطنيين) « درساً » أكدت به قوتها في اللحظة المناسبة[61] وهناك رأي ثالث

سينيوري « ر.ب.ب. » ، م 98 (1919) ، ص 301 ـ 302 . ويقول سينيوري أن الثوار في عين التوتة وحدها كانوا يتراوحون بين 600 و 700 شخص .

(58) سينيوري ، « ر.ب.ب. » ، م 98 (1919) ، ص 296 .

(59) أنظر نص هذا التقرير في « الجزائر » في « أ.ف. » ، (أبريل ، 1917) ، ص 146 ـ 147 . وقد وصف لوتو الثورة بأنها « جرائم جماعية هزت الرأي العام » . « أما الثوار فقد وصفهم بجماعات من قطاع الطرق » .

(60) نفس المصدر .

(61) ديمونتي « الجزائر » في « أ.ف. » ، (جويلية ـ أوت ، 1919) ، ص 241 .

وهو للعقيد دينو ، الذي مدح بلاده لاستعمالها الطرق الفعالة لاخماد الثورة التي انفجرت بناء على رأيه ، في « فترة حرجة »[62] . ولا شك أن الشهادة التي كتبها السيد سينيوري عن طرق اخماد الثورة تعتبر ذات قيمة خاصة حيث كان الكاتب نفسه عامل عمالة شرفيا على الجزائر.

تحت ستار القيام بدور « المهذب » ، أرادت فرنسا أن تعطي الجزائريين درساً . فبعد انتشار أخبار الثورة مباشرة وضع الحاكم العام منطقة الأوراس تحت الحكم العسكري المباشر ، وألغى ادارتها المدنية ، التي كانت قد أنشئت سنة 1871 . كان هدف الحاكم العام من هذا الاجراء هو التخلص من بعض القيود القانونية التي كانت تطبقها الادارة المدنية والتمكن من التصرف بحرية لقمع ومنع الثورة من الانتشار إلى أجزاء أخرى من البلاد . كما عين الحاكم العام على المنطقة المتأثرة بالثورة مبعوثاً خاصاً ومنحه سلطة اتخاذ الخطوات الضرورية لقمع الثورة . وبالإضافة إلى ذلك عين الحاكم لجنة للأمن والنظام ذات صلاحيات مطلقة وليس لقراراتها استئناف.

وبناء على رأي سينيوري ، الذي كان يكتب عن تجربة شخصية باعتباره مسؤولاً فرنسياً عالياً في الجزائر فإن الاجراءات القمعية التي اتخذتها السلطات الفرنسية في الاقليم كانت « غير شرعية وليس لها سابقة » . ونتيجة لهذه العملية ، ارتكبت كل أنواع المظالم . وقد قال نائب العامل في باتنة بأن « عمليات التنظيف » لم تنقطع أبداً[63]. ويؤكد سينيوري بأن تلك العمليات كانت تعني الاعدام ، والحرق ، والغارات التطهيرية (الغزوات).

والحق أن « عمليات التنظيف » ضد الثورة قد جعلت الجنود الفرنسيين أنفسهم يكتشفون أنهم قد « تجاوزوا الحدود » . فقد كانت الأوامر الصادرة إلى الجيش الفرنسي هي اطلاق النار على كل جزائري يقع أمام النظر . وبناء على هذه الأوامر فإن الجيش الفرنسي قد قام بحملة قمع « بطيئة » و « فظة » . وشملت هذه الحملة حرق منازل الأهالي ، وتفريغ مخازن الحبوب ، وعمليات تنظيف ضد قطعان

---

(62) « خطوط عامة عن المناطق الجنوبية من الجزائر » في « أ.ف.س. » (مار ، 1921) ، ص 119 .

(63) سينيوري ، (ر.ب.ب.) ، م 98 (1919) ، ص 301 ـ 302 .

الماشية وإبادة محاصيل القمح والشعير.

وهكذا توقفت الحياة الاقتصادية تماماً في منطقة الأوراس. فطيلة سنة كاملة بعد الثورة ، كانت الأسواق العامة مغلقة ، وتوقف حصاد الحبوب وقطع الحلفا . وبالإضافة إلى ذلك امتدت الإدارة العسكرية إلى منطقتين أخريين ، هما باتنة وعين مليلة ، وكان هذا يعني الحكم مباشرة بواسطة القرارات . وإلى جانب ذلك قتل من 200 إلى 300 شخص ، معظمهم من النساء والأطفال . أما لجنة الأمن والنظام فقد أعدمت وحكمت على أكثر من 1200 نسمة « للتآمر ضد السلطة أو عصيان السلطة »[64].

ولما سمعت الحكومة الفرنسية في باريس بهذا القمع الذي لا نظير له ، بعث المجلس الوطني الفرنسي لجنة للتحقيق . ورغم أن محاضر هذه اللجنة غير موجودة الآن ، فإن السيد سينيوري يقول بأن اللجنة قد وضعت حداً لهذه الاجراءات « الفظة » . ولكنه يضيف بأن الادارة الفرنسية في الجزائر قد استأنفت « عمليات التنظيف » بمجرد عودة أعضاء اللجنة إلى باريس[65].

أما الجبهة الثانية فقد كانت في منطقة الهقار. فتحت تأثير الأفكار الوطنية والجامعة الاسلامية انفجرت ثورة هناك دامت أكثر من ثلاث سنوات ، وأوشكت على وضع حد للحكم الفرنسي في الصحراء الجزائرية.

ونظراً لقرب منطقة الثورة من حدود ليبيا ، فانها قد تأثرت بالحرب التي كانت تجري بين الايطاليين والليبيين منذ سنة 1911 . وانتشرت أفكار الجامعة الاسلامية ، كما بثّتها الحركة ، إلى المناطق المجاورة ، بما في ذلك منطقة الهقار[66] .

---

(64) نفس المصدر ، ص 301 .

(65) من بين الذين اعتقلوا ، وربما أعدموا ، السيد ابن علي بن نوى ، أحد زعماء الثورة ، أنظر ديبون ، « ر.أ.ن. » ، (أكتوبر ، 1921) ، ص 17 .

(66) سينيوري ، « ر.ب.ب. » ، م 98 (919) ، ص 301 . وقد امتدت يد الرقابة إلى الصحافة الإستعمارية ، مثل « لافريك فرانسيز » ، التي كانت ، بلا شك ، من أحسن المجلات المطلعة على الوضع في الجزائر . فالقارىء سيجد في فهرس هذه المجلة العنوان التالى : « قضية ماكماهون » (عن ثورة 1916) ولكن مكان المقال على الصفحة المعنية كان بياضاً . أنظر « أ. ف. » ، « أكتوبر ـ ديسمبر ، 1916 » ، ص 400 .

ومع نداء الثورة من الشمال ، حيث كـان الجزائـريون على سـاحل البحـر الأبيض المتوسط ، كما رأينا ، في حالة ثورة . ومن الشرق ، حيث كان الليبيـون ، بقيادة السنوسية ، في حالة ثورة أيضاً ، ثـار الجزائـريون في الهقـار وأعلنوا الجهـاد ضد فرنسا.

والحق أن سخط الهقاريين قد بدأ سنة 1915 . وفي فيفري 1916 ، أعلن الزعيمان ، أحمد سلطان والشيخ عبد السلام ، الجهـاد رسمياً ضـد فرنسـا . وفي مارس من نفس العام بعث الهقاريون حملة ضد جانيت وحاصروها . وبذلك اضطر المعسكر الفرنسي في المدينة إلى مغادرتها والاحتماء بقلعة شارلي ، التي كانت أكثر حصانة ، ولكن الثوار قد دخلوا هذه القلعة أيضاً وأرغموا المعسكر الفرنسي فيها على الاستسلام.

وشيئاً فشيئاً انتشرت أخبار الثورة والانتصار نحو الشمال ، حيث انفجرت ، في نوفمبر من نفس العام، ثورة الأوراس التي تحدثنا عنها . وقد جاء المتطوعـون من ميزاب وخاصـة غرداية ومن ورقلة وغيرهـا من مدن الـواحات في وسط الصحـراء الجزائرية للانضمام إلى الثورة. وهكذا فلم يحل خريف نفس العام (1916) حتى كان كل الاقليم في حالة ثورة . وفي ديسمبر ، قتل الثوار دي فـوكو ، الـذي كان معروفاً من بين الفرنسيين برحلاته في الصحراء . وكان ذلك في تامنراست عاصمة المنطقة . ونظراً لقوة الثورة، ولأحداث الأوراس التي جرت في نفس الوقت ، ولبعد المنطقة ، فإن فرنسا لـم تستطع أن تخمد ثورة الهقار إلاّ بعد أن انتهت الحرب في أوروبا.

ويتفق الكتاب الفرنسيـون على أن سنة 1916 كـانت « حرجـة » ، ليس في الجـزائر القـريبة من البحـر الأبيض المتوسط فقط ، بـل في الجزائـر الصحـراويـة أيضاً[67] . وقد استمرت « تهدئة » الصحراء ، ولا سيما منطقـة الهقار ، أكثـر من ثلاث سنوات . وفي أوائل سنة 1917 بدأت فرنسا تدعم خـطوط مواصـلاتها في المنطقة . وكانت الحملات العسكرية ترسل ضد الثوار تحت نفس الأوامر التي تلقاها

---

(67) أنظر بيرنـار ، « الصحراء الفـرنسية خـلال الحرب » ، في (أ.ف.س.) (جـانفي ، 1920) ، ص 4 .

الجيش الفرنسي لاخماد ثورة الأوراس. وقد استعمل الفرنسيون قمعاً مشابهاً لما حدث في الشمال، أيضاً. ويعترف العقيد دينو بأن الجيش الفرنسي كان قد عامل الثوار بكل حزم[68]، ولكن بالمقارنة إلى مواطنيهم في الشمال، نجد أن ثوار الجنوب قد وجدوا ملجأ داخل الحدود الليبية، حيث انضموا إلى السنوسية[69] في حربها ضد ايطاليا. وهكذا استطاعت فرنسا، بدخول سنة 1919، أن تبعث النجدة الى المنطقة المضطربة وأن تضع حداً لتمرد يعتبر من أكثر التمردات عنفاً ولكن أقلها شهرة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية.

اعتاد الفرنسيون أن يعزوا نشاطات الجزائريين المعادية لفرنسا لا إلى الفكرة القومية، ولكن إلى عوامل «خارجية» أو «إلى التعصب». ولم تكن الثورات والتمردات والنشاطات السياسية التي حدثت بين سنة 1914 و 1918 استثناء من هذه القاعدة. ففي كثير من الأحيان لام الفرنسيون الدعاية الألمانية والتركية، إلى جانب التعصب و «البربرية». كما لاموا أشياء أخرى منها الجامعة الاسلامية، والفقر، وأسلوب الاثارة الذي اتبعه جماعة النخبة، وهزيمة الحلفاء في الدردنيل وشارلروا، وقرارات التجنيد سنة 1916، وكره الفرنسيون[70]. ويضيف ديبون عاملاً آخر لاثارة الجزائريين وهو سخط الفلاحين، الذين كانوا يشكون من قانون الأهالي البغيض،

---

(68) نفس المصدر. أنظر أيضاً العقيد دينو، «أ.ف.س.» (ماي، 1921)، ص 11.

(69) كان مؤسس هذه الحركة، وهو محمد بن علي السنوسي، جزائرياً من نواحي مستغانم. وقد ولد سنة 1796 ثم هاجر من الجزائر، بعد الإحتلال الفرنسي، إلى الشرق. وكان ابنه الشيخ المهدي، الذي قاد سكان ليبيا في الحرب ضد إيطاليا، قد ولد سنة 1844، ومنذ سنة 1900 كان الشيخ المهدي مساعداً من جزائريين بارزين، أحدهما سيدي محمد البسكري (من بسكرة)، الذي كان يشغل منصب وزير للمهدي، وثانيهما سيدي محمد التواتي (من توات)، الذي كان يشغل لديه منصب قاض وكاتب. أما بخصوص أصل وتطور السنوسية، فانظر الدراسة الهامة التي كتبها عنها سي محمد الحشائشي. «عند السنوسيين والطوارق». وقد ترجم هذه الدراسة إلى الفرنسية محمد الأصرم وفيكتور سيريس، أنظر «ر.ب.» (15 أوت، 1901)، ص 278 ـ 709 ثم «15 سبتمبر، 1901»، ص 408 ـ 422. ومن الجدير بالذكر أن الجزء الأول من هذه الدراسة كان عن السنوسية، أما الجزء الثاني فهو عن الطوارق.

(70) أنظر العقيد دينو «أ.ف.س.» (ماي، 1921) ص 11. وأيضاً بيرنار «الصحراء الفرنسية خلال الحرب»، في (أف.ف.س.)، جانفي، 1920، ص 4.

والضرائب الثقيلة ، وقوانين المسؤولية الجماعية عند ارتكاب جريمة[71] .

في سنة 1919 كتبت المجلة الفرنسية المحافظة « لافريك فرانسيز » ، قائلة بأن « عمليات التنظيف » كانت ما تزال مستمرة في منطقتي الأوراس والقبائل . وقد سمت المجلة هذه العمليات « تطهيراً » . وبشعور من الفخر والانتصار . لاحظت أنه بفضل « القمع الشديد لعمليات قطع الطرق » (وهذا هو الاسم الفرنسي لنشاطات الوطنيين) ، في حركة منسقة بين الشرطة والعسكريين ، فإن ثمار هذه العمليات تبدو أنها قد أصبحت ناضجة[72].

ولكي تتأكد من « ولاء » الجزائر لفرنسا خلال سنوات حرب 1914 ـ 1918 ، فإنه يبدو من المناسب أن ننظر إلى بعض الاحصاءات التي كانت قد نشرتها المصادر الفرنسية . ويجب أن نتذكر بأن الفرنسيين قد أعطوا هذه الاحصاءات لكي يبرروا « القمع العادل » الذي ارتكبوه ضد « قطاع الطرق » الجزائريين .

هجومات الجزائيين ضد فرنسا ، 1916 ـ 1918[73]

طبيعة الهجوم	السنة	عدد الهجومات
هجومات ضد الاشخاص	1916	377
	1917	270
	1918	274
هجومات ضد الاملاك	1916	1,414
	1917	1,113
	1918	1,036
	1916	1,685
هجومات أخرى	1917	1,952
	1918	1,355

(71) أنظر نفس المصدر ، ص 7 . « طيبال » . « أ.ف.س. » ، (سبتمبر ، 1921) ، ص 199 . وسينيوري ، « ر.ب.ب. » ، م 98 (1919) ، ص 291 . دينو ، « أ.ف.س. » (ماي ، 1921) ، ص 119 .

(72) أشار إلى ذلك نوشي ، ص 25 .

(73) ديمونتي ، « الجزائر » في « أ.ف. » ، (جويليه ـ أوت ، 1919) ، ص 241 ـ 242 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

والحق أن الهدف من تتبع حرب العصابات والثورات التي جرت بالجزائر خلال الحرب العالمية الأولى هو محاولة تقييم مظهرها السياسي الوطني ، وليس العسكري . فمنذ انفجار الحرب سنة 1914 ، عمدت فرنسا الى نشر دعاية واسعة زاعمة بها أن الجزائريين كانوا مخلصين لها أكثر من اخلاصهم لأي شيء آخر . وقد رأينا ، أكثر من ذلك ، أن بعض الكتاب الفرنسيين وغيرهم ، قد ادعوا بأن الجزائر كانت هادئة وراضية بالحكم الفرنسي بين 1871 ـ 1920 .

ان نشاطات حرب العصابات ، وبالإضافة الى ثورتي الأوراس والهقار ، قد أظهرت أن « الولاء » الجزائري لم يكن سوى أسطورة ، أريد منها الدعاية فقط . وفي نفس الوقت أظهر هذا الغليان الدائم أن الفكرة القائلة بأن الجزائر كانت هادئة وراضية لم تكن سوى نتيجة لضعف المعلومات عن الوضع الحقيقي في البلاد .

وقد أظهر الوجه العسكري للحركة الوطنية الجزائرية خلال العهد المدروس ، كما أظهر من قبله الوجه السياسي والعاطفي ، أن الجزائريين كانوا عازمين على استرجاع حريتهم . فالتعاون بين الثوار والعمال ، وتأييد الأهالي للمقاومة المسلحة قد اعترف بهما الكتاب الفرنسيون أنفسهم وحدوث ثورتي الهقار والأوراس في نفس الوقت لم يأت عفوا . ورغم أننا لا نملك الوثائق التي تؤكد وجود تنسيق بين الثورتين ، فانه يبدو مؤكداً أنهما كانتا في تناغم مع نشاطات حرب العصابات الأخرى التي كانت تجري في كامل البلاد .

والقمع المثالي الذي استخدمته الادارة الفرنسية ضد التمرادت الوطنية كان قد استنكر بشدة من الفرنسيين ذوي الضمائر النبيلة . فالاجراءات « التهذيبية » التي اتخذها بعض المسؤولين الفرنسيين لقمع التمردات كانت في الحقيقة خرقاً لحقوق الجزائريين الأساسية في معارضة حكم فرض عليهم بالقوة .

وبينما كانت الجزائر تغلي بالأحداث السياسية والعسكرية ، كانت هناك ثورة أخرى ضد فرنسا ولكن في هذه المرة كانت في المغرب . وكان قائد هذه الثورة هو الأمير عبد المالك ، ابن الأمير عبد القادر الشهير . ورغم أن هذه الثورة لم تجر على أرض جزائرية ، فانها تستحق العناية هنا لاعتبارات أخرى .

4. قصة الأمير عبد المالك :

ان الأمير عبد المالك :[74] هو « صخرة سيزيف بالنسبة الينا ، فكل مرة نرغمه على التقهقر يعود فيسقط على أقدامنا » . هذه العبارة كتبتها مجلة فرنسية محافظة سنة 1917 .

ومن حق القارىء أن يتساءل عن ادخال ثورة الأمير عبد المالك في هذا البحث . ولكن هناك عدة أسباب دفعتنا الى ذلك :

أولاً : ان قائد هذه الثورة كان جزائرياً منحدراً من نسل الأمير عبد القادر ، المحارب القديم .

ثانياً : ان هذه الثورة كانت موجهة ضد فرنسا ، التي حاربها كل من الأب والابن بكل ضراوة .

ثالثاً : لقد حدثت حينما كانت ثورات أخرى وطنية تجري في الجزائر .

وأخيراً ، فان تصريحات الأمير عبد المالك تدل على أن هدفه كان طرد فرنسا من أفريقيا الشمالية كلها .

وعلى أية حال ، فان طموح الأمير عبد المالك السياسي ، وعداوته العميقة لفرنسا ، وتعاونه مع أخيه الأمير علي ومع ابن أخيه الأمير خالد ، بالإضافة الى تصريحاته ، يبدو أنها جميعاً تبرز دمج هذه الثورة في التقاويم العسكرية للنضال الجزائري ضد فرنسا . وأن عدم وجود بعض البراهين يجب أن لا يقف عقبة في متابعة الأهداف التاريخية ، رغم أن ذلك قد يمنع المؤرخ من أن يصدر بعض النتائج النهائية . وعلى هذا الأساس ، اذن ، فان ثورة الأمير عبد المالك التي دامت من 1915 الى 1924 ستدرس على أنها حادث « جزائري » تاركين تقرير خاصيتها « الوطنية » ينتظر براهين أكثر .

وقد أشرنا من قبل الى أن سمعة الأمير عبد القادر كانت قد استغلت من بعض

---

(74) انظر عنه أيضاً دراستنا « وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب » في (المجلة التاريخية المغربية) العدد 1 - يناير 1974 ، ص 52 - 69 ولم نحاول التوفيق بين هذا الفصل وما عثرنا عليه من وثائق .

الدول الكبرى عشية الحرب العالمية الأولى[75] . كانت عائلة الأمير عبد القادر كبيرة الى درجة أنها كانت تضم حوالي 3000 شخص ، وكان بعض أعضائها قد تقلدوا مراكز عالية في المجلس الوطني العثماني وفي الجيش ، ولا سيما منذ ظهور حركة الجامعة الاسلامية . وحين كانت العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية طبيعية ، تمتع الجزائريون في الشرق الأدنى بالاحترام من الجانبين ودون ضغط كبير لدفع ثمن ذلك .

ولكن عندما تكونت التحالفات بين المعسكرات عشية الحرب ، بدأ الاستغلال والضغط على المهاجرين ، وخصوصاً أعضاء عائلة الأمير عبد القادر ، من فرنسا ، والدولة العثمانية ، وألمانيا ، كل لهدفه الخاص . وقد رأينا كيف أن الدولة العثمانية قد رقت الأمير علي ، ابن الأمير عبد القادر ، من نائب دمشق الى نائب رئيس المجلس الوطني العثماني . ومن جهة أخرى استدعت فرنسا الأمير عمر ، وهو ابن آخر للأمير ، الى باريس وأكرمته بالأوسمة والاحتفالات . ولم تكن ألمانيا بمعزل عما كان يجري فأظهرت هي الأخرى اهتمامها بالموضوع . فقد اتصلت بأمير آخر من العائلة ، وهو عبد المالك ، الذي كان أيضاً ابنا للأمير عبد القادر .

ولما كان مهاجراً فان الأمير عبد المالك قد تلقى تعليمه وتدريبه العسكري في الشرق الأدنى . كان قد تعلم في سورية ، في وقت كانت فيه حركة الجامعة الاسلامية واليقظة العربية في عنفوانهما . وعندما كانت « المسألة الشرقية » في مرحلتها الحرجة في أواخر القرن التاسع عشر، كان الأمير عبد المالك عقيداً في الجيش العثماني . ولكي تهدىء المهاجرين الجزائريين وتمنعهم من الدخول في حركة الجامعة الاسلامية ، عرضت فرنسا بعض المناصب في جيشها وادارتها المدنية على بعض الجزائريين ، ومنهم الأمير عبد المالك ، الذي عاد الى الجزائر وأذن له بالدخول في الجيش الفرنسي[76] .

ونتيجة لمؤتمر الجسيرة الذي انعقد سنة 1906 عينت فرنسا الأمير عبد المالك

---

(75) « على الجبهة المغربية » في « أ.ف. » ، (ماي - جويليه ، 1917) ، ص 187 .

(76) المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذا هو « أسبانيا في المغرب » في « أ.ف. » ، (ماي ، 1923) ، ص 236 ، بناء على ما نقل عن الصحف الأسبانية . أنظر مقالنا « وثائق جديدة » المشار إليه .

قائداً لقوات الشرطة الشريفية في طنجة . وقد أعطى هذا المنصب للأمير فرصة لتحقيق بعض مطامحه . ولما كان الأمير فخوراً بأجداده ، وطموحاً ، ووارثاً لعداوة مرة ضد الفرنسيين ، الذين كان يعتبرهم « أسوأ أعدائه[77] » ، فقد حاول أن يلعب ورقته . ولا شك أنه كان يحمل معه أيضاً فكرة الجامعة الاسلامية التي تلقاها اما من خلال تعليمه واما من خلال أخيه الأمير علي . وبالإضافة الى ذلك ، فانه يبدو أن الأمير كان غير راض بمنصبه ، الذي كان يعتبره أدنى من همته العالية . وقد أخبر هو بنفسه السيد هاريس بأن الفرنسيين كانوا يضعون باستمرار العراقيل في وجه مطامحه[78] .

وخلال الفترة 1906 ـ 1914 كان المغرب عامة وطنجة خصوصاً ، حقلاً للمؤامرات ، والتجسس ، والدعاية التي كانت تقوم بها الدول الكبرى المتنافسة في المنطقة . وقد كانت فرنسا وألمانيا هما الممثلين الرئيسيين على المسرح . ولما كان الأمير عبد المالك رئيساً لقوة الشرطة ، فإنه كان هدفاً مفضلاً لدعاة الدول الكبرى، ولا سيما أولئك الذين يعملون لحساب ألمانيا . وعندما حلت الفرصة حاول الأمير ، الذي كان طموحاً ، وساخطاً ، وفخوراً ، أن يستفيد من الوضع . وفي هذا الجو الخطير يبدو أنه قد تحالف مع أعداء « أسوأ أعدائه » : ألمانيا والدولة العثمانية .

وبعد انفجار الحرب العالمية الأولى طرد الفرنسيون ممثلي القوات المركزية من طنجة. وحين كانت وثيقة طردهم في الأعداد، تلفن الأمير عبد المالك سرياً ، باعتباره قائداً للشرطة، الى القائم بالأعمال الألماني وأعلمه بالخطة[79]. وبفضل هذه المكالمة استطاع هذا الدبلوماسي الألماني أن يحرق الأوراق التي قد تكون فيها ادانة له ولبلاده .

ورغم اتهام الأمير عبد المالك باعلان الجهاد ضد فرنسا، فانه قد بقي في منصبه خلال الشهور الأولى للحرب . ولكنه كان يعد نفسه للثورة . وبعد أن أرسل بعائلته

---

(77) م . هاريس ، « حياة قائد من المغرب العربي » في « التايمز » ، (لندن) ، (11 أوت ، 1924) ، ص 9 . كان هاريس مراسل جريدة « التايمز » في طنجة . ولكن مقاله لم يكن ممضياً ، غير أنه أضافه إلى كتابه : « فرنسا ، أسبانيا ، والريف » ، (لندن : أرنولد ، 1927) .

(78) نفس المصدر ، ويقول هاريس بأنه قد اتصل « ببريد طويل منه ، أعطاه فيه كل قصة أعماله » .

(79) نفس المصدر .

الى اسبانيا ، أعلن ، في مارس 1915 ، الحرب ضد فرنسا . وفي الحال طلبت هذه من اسبانيا ارجاعه ، ولكن السلطات الاسبانية رفضت . وهنا حاولت فرنسا أن ترشي المغاربة لاعادته اليها ، ولكن هذه المحاولة باءت أيضاً بالفشل[80] . ولا شك أن عدم شعبية فرنسا وسمعة الأمير عبد المالك بين المغاربة قد ساهمتا في هذا الفشل.

بدأ الأمير عبد المالك ثورته أولاً في اقليم تازة، شمال شرقي فاس، المدينة التاريخية ، والقريبة من الحدود الغربية للجزائر[81] . وبناء على قول أحد الكتاب فان هدف الأمير عبد المالك كان اعلان نفسه سلطاناً على المغرب وجعل فاس عاصمة له[82].

وقد نجح الأمير عبد المالك في كسب الوطنيين المغاربة الى قضيته . ومن بين هؤلاء زعيم الريف بعد الحرب ، الأمير عبد الكريم الخطابي الشهير ، الذي كان عندئذ ما يزال موظفاً في الادارة الاسبانية في مليلة . وقد عمل الأمير الخطابي كقائم بالاتصالات للأمير عبد المالك مع القوات المركزية ، من خلال أسبانيا ، للحصول على الأسلحة والعتاد[83] . كما أن الأمير عبد المالك قد نسق استراتيجيته الحربية مع الزعماء المغاربة الآخرين الذين كانوا ثائرين ضد فرنسا منذ اعلان الحماية ، مثل الهيبة ، والشنكيطي ، والريسوني .

ولما وجد الأمير عبد المالك نفسه مؤيداً من القوات المركزية واسبانيا، ومشجعاً من

---

(80) نفس المصدر . وهناك دراسة ألمانية هامة عن ثورة الأمير عبد المالك كتبها الألماني أليبرت بارتيل المعروف (بسي هيرمان) تحت عنوان : « حربي بقبضة يدي »(ليبنتر : هيز وكوهلز ، 1925) . وكان بارتيل نوعاً من لورانس المغربي ، ولكن ضد فرنسا .

(81) نفس المصدر . ويقول الدبلوماسي البريطاني في المغرب في ذلك الوقت ، ج. هـ. سيلوس بأن الأمير عبد المالك قد بدأ عمله ضد فرنسا منذ إقامة الحماية الفرنسية على المغرب. أنظر كتابه، «تعيين في فاس » (لندن : نشر ريتشارد ، 1956) ، ص 27 . أما بارتيل ، الذي قال بأن الأمير مالك كان قد تعلم الحضارة الأوروبية والإسلامية ، فقد قال بأنه كان في باريس سنة 1914 . أنظر كتابه (حربي بقبضة يدي) ، ص 84 .

(82) يجب أن يتذكر القارىء بأن عائلة الأمير عبد المالك كانت من غرب الجزائر. وكان والده الأمير عبد القادر خاض أكثر معاركه من تلك المنطقة وكان غالباً ما حارب داخل الحدود المغربية أيضاً . وليس لدينا الآن الوثائق التي تشير إلى أن الأمير عبد المالك كان له خطط أو إتصالات مع ثوار الجزائر ، في ذلك الوقت .

(83) ليون رولان ، « أسبانيا في المغرب » في « أ. ف. » ، (أوت ، 1924) ، ص 471 .

أخيه ، الأمير علي ، وغيره من المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى ، بالإضافة الى نشاطات حرب العصابات وحركة الفرار من الجيش الفرنسي في الجزائر ، ومتأكداً من الشعبية والسمعة بين المغاربة ، أعلن الجهاد ضد فرنسا ، ونادى بنفسه « أميراً على فاس » ، ودعا أهل افريقية الشمالية أن ينضموا اليه في ثورة تشرف ذكرى أبيه، الأمير عبد القادر[84]. وفي رسالة إلى أخيه سنة 1916، أخبره فيها بخطته في الاستيلاء على الدار البيضاء وجعلها عاصمة له . كان الأمير مالك يتوقع تدخل ألمانيا وتركيا عسكرياً لصالحه ، ولكن هذين البلدين ، رغم أنهما أيداه بالسلاح والمعدات ، لم يحققا آماله في غير ذلك[85] .

بدأت الدعاية تروج حول اسم الأمير عبد المالك منذ ديسمبر 1914 . ففي 12 ديسمبر ، نقلت جريدة « تريبونا » الايطالية برقية من « غازيت دي فوس » البرلينية مفادها أن الأمير عبد المالك قد احتل مدينة تازة بجيش قدره 15,000 جندي وأنه قد هاجم الدار البيضاء ، حيث خسر الفرنسيون 700 رجل[86] . وفي اسطنبول نشرت جريدة « تصفير افكيار » (25 جانفي ، 1915) رسالة من الأمير عبد المالك قال فيها بأنه أصبح « أمير المغرب » ، وأن الأهالي قد استقبلوا المجاهدين بحماس كبير ، وأن الجهاد كان قد أعلن ، وأن الفرنسيين كانوا يتراجعون[87] . وقد أجاب الفرنسيون على هذه الأخبار بأنها كانت « أكاذيب » ألمانية ، وأن الأمير عبد المالك كان ما يزال في طنجة ، وأنه قد أرسل تمنياته بالنصر إلى الرئيس الفرنسي[88] .

ويبدو أن الأمير علي، أخ الأمير عبد المالك، كان قد لعب دوراً هاماً في قصة أخيه . فقد كان مسافراً ، طيلة الحرب ، بين اسطنبول ، وبرلين ، وجنيف . وكان عضواً في لجنة الإتحاد والتقدم. وكان على اتصال مستمر بالفارين والمساجين الجزائريين

---

(84) نفس المصدر ، أنظر أيضاً هاريس ، « التايمز » ، (لندن) ، (11 أوت ، 1924)، ص 9 .

(85) « النيويورك تايمز » ، (27 نوفمبر ، 1915) ، ص 2 . أنظر أيضاً « المغرب » ، في « أ . ف . » ، (مارس ، 1915) ، ص 75 .

(86) « على الجبهة المغربية » في « أ . ف . » ، (جانفي - فيفري ، 1916) ، ص 5 وما يليها .

(87) أشير إلى ذلك في « المغرب » في « أ . ف . » ، (مارس ، 1915) ، ص 75 .

(88) أشير إلى ذلك في نفس المصدر . ص 76 . ونفس الرسالة كانت قد نشرت في « جورنال دي جنيف » ، (26 جانفي ، 1915) .

في المعسكرات الألمانية . وكان ، كالتونسي محمد باش حانبة ، على اتصال وثيق بلجنة استقلال افريقية الشمالية في كل من جنيف وبرلين . وكان أيضاً ، بلا شك ، على اتصال بالمهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى . ولكن يبدو أن علاقته بأخيه . الأمير عبد المالك ، كانت أوثق صلة . فقد اشتغل كمتحدث رسمي للأمير عبد المالك في الخارج . وهكذا فإن رسائل الأمير عبد المالك ونشاطاته كانت تنقل في الصحف الأجنبية ، ولا سيما في الوكالة الألمانية « وولف » ، بهدف الدعاية . كما أن الأمير علي كان يعطي عادة تصريحات باسم الأمير عبد المالك . ومن الممكن القول بأن الأمير علي كان أيضاً المفاوض الرئيسي باسم الأمير عبد المالك مع المانيا وتركيا[89] .

ومعظم المصادر تتفق على أن الأمير عبد المالك كان يهدف بعيداً. ان أعداءه الفرنسين يصفونه بأنه شخص اعتقد أن الساعة قد حلت لأداء دور تاريخي اسلامي[90] . ورغم أنهم اعتادوا أن يتهموه بأنه كان عميلاً ألمانيا وتركيا ، فانهم متفقون على أنه أراد « بحمية » أن يلعب « دوراً من الدرجة الأولى » في الحوادث التي كانت تجري في العالم الاسلامي[91] فالسيد هاريس ، الذي كان مراسلاً لجريدة « التايمز » اللندنية ، قد كتب أيضاً يقول بأن الأمير عبد المالك كان فخوراً ، غير راض بوضعه ، وطموحاً .

ويؤيد ماضي الأمير عبد المالك هذا الإدعاء . فتعلمه في الشرق الأدنى خلال عهد النهضة العربية ، وتدريبه العسكري ، وعمله في الجيش والشرطة الفرنسية ، ثم

---

(89) نفس المصدر ، ص 70 ، من بين « الأكاذيب » ما نشرته صحف القوات المركزية ، من أن الأمير ، خالد قد انضم إلى الأمير عبد المالك في 7000 رجل ، آتين من جهة الصحراء الجزائرية. وقد نشرت ذلك جريدة « تربيونا » التي كانت تصدر في روما نقلاً عن « غازيت دي فوس » . ولكن الفرنسيين كذبوا ذلك وأعلنوا أن الأمير خالد كان ضابطاً في كتائب الصبائحية على الجبهة الأوروبية . كما أن الفرنسيين قد نشروا رسالة من الأمير خالد معبراً فيها عن تأييده وتأييد عائلته (عائلة الأمير عبد القادر) لفرنسا ضد المانيا وتركيا . فإذا كانت هذه الرسالة صحيحة فإننا نجد أن الأمير خالد ، الذي أصبح زعيم الحركة الوطنية بعد الحرب ، قد تنبأ بأن كل العرب سيثورون ضد مضطهديهم الأتراك . أنظر نص الرسالة في « لوطان » ، (3 جانفي ، 1914) ، ص 2 .

(90) بخصوص الأمير علي وموقف الصحافة من ثورة الأمير مالك ، أنظر « أ. ف. » ، (مارس 1915) ، ص 75 . أنظر أيضاً نفس المصدر ، (جانفي - فيفري ، 1916) ، ص 6 .

(91) نفس المصدر ، (جوان - جويلية ، 1915) ، ص 162 - 163 .

خبرته بأبعاد « المسألة الشرقية » ، بالإضافة إلى « المسألة المغربية » ، قد زودته جميعاً بمعرفة كاملة لمشاكل وقته . وقد فتحت سمعة عائلته ، وتشجيع الوضع في الجزائر والمغرب ، والتأييد الموعود في ألمانيا وتركيا ، أفقاً لامعاً أمام مطامحه التي كانت تحدوه لأن يصبح أمير افريقية الشمالية ، وهو حلم حاول جده أن يحققه ولكنه فشل دونه .

وفي سنة 1917 كان الأمير عبد المالك يشكل «تهديداً خطيراً» لفرنسا. وبناء على رأي هاريس ، فإنه كان يتلقى كمية ضخمة من المال والسلاح والمعدات في ألمانيا[92] . وقد كانت سمعته بين الأهالي عالية ، وهذه الحقيقة هي التي ساعدته على أن يجند ويحتفظ بجيش هام . ورغم بعض النكبات التي لحقت به بعد هزيمة حلفائه الألمان والأتراك ، ولا سيما الأولون ، فإنه كان قادراً على أن يحصل على حليف جديد ، وهو أسبانيا ، وأن يبدأ الحرب من جديد .

وبعد سنة 1921 ، عرض على أسبانيا قيادة الجنود المغاربة في جيشها . وقد رضيت اسبانيا بذلك، وفي ماي 1923 كان الأمير عبد المالك في تطوان يجند الجنود، ولكن فرنسا سرعان ما احتجت لأسبانيا على أساس أنه كان هارباً وأنه كان قد أعلن الجهاد ضد فرنسا . وعندما لم تجد أسبانيا بداً ، طلبت من الأمير التخلي عن مكان القيادة . وفي السنة التالية نجح في تجنيد عدد كبير من الجنود من الريف ثم قادهم في حملة صادف أن كانت آخر حملاته ضد فرنسا . ففي أوت 1924 قتل في معركة ضد عزيب الميداوي بالمغرب[93] . وهكذا انتهت حرب دامت حوالي عشر سنوات . وختمت قصة كانت تحتوي على عناصر كثيرة من الرومانسية الجديرة بإثارة كثير من الخيالات . والتاريخ ، الذي أهمل عامة هذه القصة ، ما زال سيعلم الكثير عنها .

ولكي تضع فرنسا حداً لهذه الثورة ، جندت لها واحداً من أفضل رجالها العسكريين ، وهو الماريشال ليوتي ، المسمى بقاهر المغرب . كما أنها لجأت إلى القمع، واستعمال المال، وطريقة فرق واحكم. وأخيراً كان على فرنسا أن تتحالف

---

(92) نفس المصدر ، (جانفي - فيفري ، 1916) ، ص 5 - 6 .
(93) « التايمز » . (لندن) ، (11 أوت ، 1924) ، ص 9 .

مع أسبانيا ضد الأمير عبد الكريم، زعيم ثورة الريف، لكي تهزم الأمير عبد المالك. وفي النهاية وحدت ، « الأختان اللاتينيتان » جهودهما لهزيمة الزعيمين المغربيين . فقد قتل الأمير عبد المالك سنة 1924، ونفي الأمير عبد الكريم سنة 1926. وقد كتب الدبلوماسي البريطاني سيلوس بأن الزعيمين قد نالا لدى الأهالي « مكانة بطلين وطنيين من خلال مقاومتهما المسلحة لقوات فرنسا وأسبانيا »[94] .

خلاصة

خلال الحرب العالمية الأولى حققت الحركة الوطنية الجزائرية خمسة أهداف رئيسية :

أولاً : أنها أنهت ، بتفاعلها السياسي ، والعاطفي ، والعسكري ، الأسطورة المرددة باستمرار والواسعة الإنتشار والقائلة بأن الجزائريين كانوا مخلصين لفرنسا ، وأن بلادهم كانت هادئة وراضية بالحكم الفرنسي .

ثانياً : أنها نجحت في اختراق الستار الفرنسي وذلك بنقل القضية الوطنية من المسرح الجزائري إلى المسرح العالمي .

ثالثاً : إنها دعمت الضمير الوطني بالتعاون الفعال بين الثوار والأهالي من ناحية ، وبين العمال والجنود من ناحية أخرى .

رابعاً : أنها أرغمت فرنسا على إدخال الإصلاحات ، التي تضمنها قانون سنة 1919 .

وأخيراً ، أنها حققت التعاون بين القوات الوطنية في الداخل وبين المهاجرين والجزائريين الآخرين في الخارج في حملة دعائية ضد الفرنسيين .

وفي نفس الوقت ، حصل الجزائريون الذين خدموا في الجيش الفرنسي ، مرغمين ، على تجربة ثمينة من أجل قضية وطنهم . فمعظم الجزائريين كانوا ، منذ أكثر من ثمانين سنة ، أميين معزولين ، مهملين . وفجأة وجدوا أنفسهم على الجبهة الأوروبية ، يحاربون مع أو ضد الجنود الأوروبيين من أجل قضية لم يكونوا يفهمونها

---

(94) أنظر نفس المصدر ، وكذلك رولان ، « أ. ف. » ، (أوت ، 1924) ، ص 471 .

بوضوح . وهكذا حصلوا على تدريب عسكري ، وانضباط محكم ، وبعض التوجيه السياسي ، نتيجة للدعاية الفرنسية المتواصلة .

ولأول مرة فتح الجنود والعمال الجزائريون ، الذين كان عددهم يتجاوز 252,000 نسمة ، عيونهم على مجتمع كان مختلفاً تماماً عن مجتمعهم . وقد عاشوا على طريقة حياة جديدة حتمتها ظروف الحرب . فارتدوا ثياباً مختلفة ، وأكلوا لحماً غير مذبوح على الطريقة الإسلامية ، وشربوا الخمر ، وتزوجوا بأوروبيات . ولا شك أن علماء الأنثروبولوجيا ، والنفس ، والإجتماع سيتفقون على أن الحياة الجديدة كانت صعبة جداً على هؤلاء الجزائريين في البداية . ولكن لم يكن هناك طريق آخر بالنسبة إليهم . وسوف نرى أن هذه التجربة ستؤدي إلى نتائج خطيرة على الحركة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الثانية ، بل على مستقبل الحياة الجزائرية عامة .

ومعظم الجزائريين الذين حاربوا ضد القوات المركزية كانوا مقتنعين ، سطحياً نوعاً ما ، بأنهم كانوا يحاربون ضد الإستبداد والبربرية ، من أجل انتصار الديمقراطية ، والحرية ، وتقرير المصير ، والعدالة . وقد جهدت الدعاية الفرنسية نفسها في تقديم فرنسا والحلفاء على أنهم أبطال الحضارة ، والإنسانية ، والديموقراطية . فجريدة « لافرانس إسلاميك » (فرنسا الإسلامية) قد صورت فرنسا على أنها المؤيد المتحمس لقضية المسلمين في جميع أنحاء العالم .

وهكذا ضحى أكثر من 56,000 جزائري بحياتهم ، بالإضافة إلى أكثر من 82,000 جرحوا من أجل قضية الديموقراطية ، وتقرير المصير ، والحرية ، والعدالة ، التي كان الحلفاء يبشرون بها لا لجنودهم فقط ، ولكن أيضاً للشعوب المضطهدة في كل مكان ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يحاربون من أجل قضيتهم الوطنية . وقد كانت فرنسا ـ في نظر جماعة النخبة ، والجنود ، والعمال الجزائريين الذين ضحوا بحياتهم خلال الحرب ـ غير منطقية حين بدأت ، بعد الحرب ، تضطهد الوطنيين الذين كانوا يطالبونها بالوفاء للمبادىء التي بشرت بها أثناء الحرب .

ورغم الدعاية الفرنسية عن ولاء الجزائريين المطلق ، فإن فرنسا قد استعملت ، بناء على تقارير شاهدي عيان ورسميين فرنسيين ، طرقاً غير إنسانية لإرغام الجزائريين على الخدمة في جيشها . فقد كانت الأوامر اليومية تتمثل في :

« الإرهاب المتطرف » ، وتشجيع فكرة القدرية بين الأهالي ، واستخدام كامل لقانون الأهالي بحجة قانون حالة الطوارىء وظروف الحرب . وفي بعض الأحيان استخدمت فرنسا المرابطين الخرافيين لإصدار فتاوي لصالحها ، وهكذا كانت تستغل الأهالي باسم الدين . وفي أحيان أخرى إستعملت الرشوة ، والحفلات العامة ، والفرق الموسيقية لإغراء الفلاحين الأميين والفقراء على الإنضمام إلى جيشها . فالجزائريون الذين حاربوا مع الحلفاء لم يفعلوا ذلك إذن من أجل قضية فرنسية ، أو لكي يعبروا عن ولائهم لفرنسا ، كما كانت تروج الأسطورة .

كانت الحركة الوطنية نشيطة على جبهتين : الجبهة السياسية ـ العاطفية ، والجبهة العسكرية . فمن الوجهة السياسية ، عبرت الوطنية الجزائرية عن نفسها ، بالرغم من غياب منظمة أو حزب ، في عدد من المظاهرات ، والمناشير المعادية لفرنسا ، ورفض التجنيد العسكري الإجباري ، والإحتجاجات ، ومن الوجهة العاطفية لجأ الجزائريون إلى الأدب الشعبي ، والمراسلات السرية لكي يعبروا عن معارضتهم للحرب ، وتأييد أعداء فرنسا .

وقد سجلت الحركة الوطنية ، في مؤتمر القوميات ، الذي انعقد بجنيف سنة 1916 ، نجاحاً كبيراً بإسماع صوتها في اجتماع عالمي ، لأول مرة حسب معلوماتنا . وبعد إنشاء لجنة استقلال أفريقيا الشمالية ، إستفادت الحركة الوطنية الجزائرية من ذلك ومن نشاطات المهاجرين . وهكذا اخترق الوطنيون الستار الفرنسي الذي كان يحيط بالجزائر منذ 1830 . أما نتائج الثورة البولشفية ومبدأ الديمقراطية الذي نادى به ويلسون فلم تظهر إلا بعد الحرب الأولى .

أما من الوجهة العسكرية فإن الحركة الوطنية الجزائرية قد حققت أيضاً نجاحاً كبيراً ، رغم أن المحاولة على ما يبدو قد باءت بالفشل . فقد قام الوطنيون بين 1914 و 1916 بنشاطات عسكرية في سلسلة من عمليات حرب العصابات ضد المراكز الفرنسية الحيوية . كما كان هناك بعض الثورات بين 1916 ، و 1918 . وأهم الثورات حينئذ هما ثورتا الأوراس والهقار. وكل النشاطات العسكرية قام بها شبان جزائريون كانوا قد هربوا من التجنيد منذ 1912 من الجيش الفرنسي .

وقد عزا الفرنسيون هذه النشاطات السياسية ـ العاطفية والعسكرية الجزائرية إلى تأثير العملاء الأجانب ، ولا سيما الألمان والأتراك . ولكنهم لم ينكروا وجود

شعور معاد لفرنسا بين الجزائريين كما أنهم لاموا التعصب باعتباره أحد دوافع الأهالي للثورات العامة . وقد اعترف الفرنسيون أيضاً بأن قانون الأهالي وغيره من القوانين الإستثنائية قاد إلى الثورات . وغالباً ما كانت المظالم الإقتصادية ، ولا سيما الضرائب الثقيلة ، من بين أسباب الثورات في نظر الفرنسيين . فليس هناك إلا بعض المثقفين الذين اعترفوا بأن عدم الإستقرار الجزائري كان نتيجة ظاهرة عامة تسمى بالقومية ، التي كانت احدى القوى الرئيسية في ذلك الوقت في أوروبا وفي الشرق الأدنى . وبالنظر إلى التطورات التي حدثت بعد الحرب الأولى فإنه من الممكن أن نعتبر الفترة من 1914 إلى 1918 فترة حاسمة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية .

وتحت ستار « تهذيب شعب متخلف » اتخذت الإدارة الفرنسية إجراءات شديدة لقمع المطامح الوطنية للجزائريين . فحتى لو أننا اعتقدنا مع الحاكم العام أن الجزائريين قد أحيوا « البربرية القديمة » في حملتهم ضد فرنسا ، فإن « القمع الضروري » ، الذي استعمله لوتو لوقف ذلك لم يكن أقل بربرية ، رغم أن إجراءاته كانت « جديدة » . لقد دامت عمليات « التنظيف » العسكري من 1916 إلى 1919 . وتوقفت الحياة الإقتصادية في المناطق المتأثرة بالحوادث خلال سنة على الأقل . وبناء على رأي فرنسي رسمي سام فإن « عمليات التنظيف » قد استمرت إلى أن شعر الجنود الفرنسيون أنفسهم بأنهم قد « تجاوزوا الحدود » .

ويجب أن ننظر إلى ثورة عبد المالك من ثلاث زوايا: جزائرية، مغربية، وعربية. فمن الزاوية الجزائرية كانت ثورة الأمير عبد المالك «وطنية» على أساس أنه قام بها تخليداً لذكرى والده الأمير عبد القادر. وكان الأمير عبد المالك، كوالده يعتبر الفرنسيين « أسوأ أعدائه » وتعهد بالقضاء عليهم بكل الوسائل . ولكنه اتقى غلطة والده فتحالف مع قوة أجنبية . ولسوء حظه فإن هذه القوة كانت نفسها قد هزمت . ويبدو أن الأمير عبد المالك قد وجد فرنسا ذات جذور عميقة في الجزائر، لذلك اختار أن يضربها من أضعف مراكزها : المغرب الأقصى . ومن هنا إذن يبدأ دوره كزعيم لأفريقية الشمالية .

فعندما إنفجرت الحرب الأولى كانت فرنسا ما تزال تحاول إقامة حمايتها المهزوزة على المغرب . وقد خلعت السلطان القديم ووضعت مكانه سلطاناً جديداً . ونتيجة لهذه الحوادث كان الأهالي المغاربة في حاله غليان . بل ان حملة واسعة

للمقاومة السياسية والعسكرية ضد فرنسا قد بدأت . وعلى هذا الأساس فإن الأمير لم يخلق المقاومة المغربية ولكنه ضاعف منها وأعطاها فقط محتوى جديداً .

وبعد أن تحالف مع الوطنيين المغاربة في الشمال (المنطقة الاسبانية) وفي الجنوب (المنطقة الفرنسية) ، وتأكد من سمعته العالية ، جعل نفسه زعيماً بدون منازع حتى وفاته . ولا شك أن الأمير عبد الكريم الخطابي الريفي ، الذي اشتغل كمساعد للأمير منذ سنة 1915 ، قد إستفاد من تجربة الأخير . وحين انتهت الحرب العالمية اختلف الزعيمان على الاستراتيجية وعلى الحلفاء . وكانت النتيجة هي ضعف كليهما ، وبذلك أعطيا أعداءهما فرصة هزيمتهما الواحد تلو الآخر . فمساهمة الأمير عبد المالك في الحركة الوطنية المغربية تعتبر كبيرة .

وإذا كان التاريخ لا يعيد نفسه دائماً ، فإنه يبدو أنه يفعل ذلك بعض الأحيان على الأقل . فبين 1832 و 1847 كانت فرنسا تحارب الأمير عبد القادر في الجزائر ، بينما كانت تؤيد محمد علي في مصر ، الذي كان ثائراً ضد الخليفة العثماني . وبين 1915 و 1918 كان فرنسا تشن حرباً لا هوادة فيها ضد الأمير عبد المالك في المغرب ، بينما كانت تؤيد شريف مكة في شبه الجزيرة العربية ، الذي كان قد أعلن الثورة ضد الخليفة العثماني أيضاً . ان الظروف والممثلين يبدون مختلفين ، ولكن النموذج العام كان هو نفسه تقريباً . ففي الحالتين كان هناك تناقض وعدم اتباع لخط واحد من فرنسا .

وقد فكر الأمير عبد المالك، الذي تعلم في بيئة إسلامية عربية، وصقل ودرب في مدارس أوروبية ، بأن الفرصة قد حانت لمساعدة قضية شعبه . ولهذا السبب أعلن الجهاد كوسيلة لتجميع الرأي العام حوله . وقد نادى بتحرير أفريقيا الشمالية ، وهي الفكرة التي حارب من أجلها أجداده.

ويبدو من الوثائق الموجودة أنه لم يكن يحب العثمانيين رغم علاقته بأخيه . فهو لم يناد بنفسه ممثلاً للسلطان ولم يعلن أنه كان يحارب لصالحه . فإذا اعتبر الباحث تنبؤات الأمير خالد في رسالته الى « لوطان » (جانفي 1915) ، بأن كل العرب سيثورون ضد الأتراك ، تعبيراً عن وجهة نظر الأمير مالك أيضاً ، فإنه من الممكن أن يغامر المرء فيعتبر الأخير أحد أبطال القومية العربية في تلك الفترة الحاسمة . وكون

شريف مكة قد ثار ضد الأتراك ، بينما ثار الأمير عبد المالك ضد الفرنسيين ، لا يزيد هذه الفكرة إلا وزنا.

وعندما نأخذ في الاعتبار هذه الزوايا الثلاث فإن الأمير عبد المالك قد يقف بطلاً وليس «مغامراً»، كما كان الفرنسيون يصفونه. ولكن على المرء أن يبقى في شك ولا يحكم برأي نهائي في هذه القصة لأن المعلومات حولها ما زالت بعيدة عن الاكتمال.

كانت الجزائر خلال الحرب العالمية الأولى حقلاً لتيارات من جميع الجهات . وقد ركزنا حتى الآن على دراسة التيارات الوطنية داخل أو خارج حدود الجزائر . ولكن كانت هناك تيارات أخرى ساهمت ، بطريقة أو بأخرى ، في دفع الحركة الوطنية الجزائرية.

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الخامس

أعداء وأصدقاء
1914 - 1919

1. ايادي القيصر والسلطان :

يقول مثل جزائري ان « عدو العدو صديق ، وصديق العدو عدو » . وبناء على هذا الاعتقاد الشعبي ، ما دامت ألمانيا ، ثم تركيا « عدوتين للعدو » فيجب أن تكونا « صديقتين » . ان هذا المنطق ، حتى ولو لم يكن دائماً ناجحاً ، كان قد طبق من الجزائريين خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها.

والواقع أن القصة قد بدأت منذ سنة 1870 ، حين انهزم نابليون الثالث على يد بيسمارك . فقد عزا بعض الكتاب ثورة الجزائر سنة 1871 إلى هزيمة فرنسا في القارة الأوروبية . ورغم أن فرنسا قد هزمت ، فانها سرعان ما استطاعت أن تدعم قوتها ، وتستعيد سمعتها ، وتزيد من احكام قبضتها على الجزائر بما ليس له نظير في السابق . وأثناء عنفوان الاستعمار ، لم تكتف فرنسا بمصادرة أراضي الثوار الجزائريين وبمضاعفة عدد الكولون ، بل قننت أيضاً قانون الأهالي البغيض . وهكذا نجحت فرنسا الجمهورية الثالثة ، في زيادة عزلة الجزائر عن بقية أجزاء العالم.

وأثناء بعض الوقت أصبح الانكليز « أصدقاء » الجزائريين . كان هذا صحيحاً خصوصاً أثناء أزمة فاشودا ، عندما كانت بريطانيا « عدوة العدو » . وبعد ثورة عين التركي سنة 1901 ، اتهم بعض النواب الفرنسيين في المجلس الوطني لندن وبرلين بإثارة الجزائريين . وقد أشرنا من قبل إلى أن ظهور حركة الجامعة الإسلامية قد زادت من أصدقاء الجزائر في الشرق الأدنى ، رغم أن الدولة العثمانية لم تكن بعد عدوة لفرنسا . ولكن بحدوث أزمتي المغرب الأقصى ، وبرحلة ويليام الثاني إلى الشرق الأدنى ، ظهر الأمل بين الجزائريين في أن تلعب ألمانيا دور الصديق لهم.

وعندما نأخذ في الاعتبار تلك التطورات ، فاننا نجد أن الحرب العالمية الأولى وضعت أمام الحركة الوطنية الجزائرية معسكرين : معسكر الأعداء ومعسكر

الأصدقاء . وان فرصة الاختيار ، التي كانت غـائبة منـذ سنة 1830 ، كـانت هي المساهمة الكبيرة التي قدمتها الحرب للجزائر . ولكن علينا أن نتذكر أن هذا الاختيار كان نظرياً أكثر منه عملياً . ونتيجة للملامح « الفذة » للحكم الفرنسي ، فان الجزائر لم تستطع أن تستغل هذا الاختيار كاملاً ، كما فعل ، مثلاً ، التشيكوسلوفاكيون ، والبولنديون ، وعرب الشرق الأدنى .

ومهما كان الأمر ، فان الحرب قد فتحت أمام الحركة الوطنية الجزائرية آفاقاً جديدة بخصوص فكرة توازن القوى . فقد كانت ألمانيا وتركيا ، المنافستان لفرنسا ، صديقتين في نظر الجزائريين . وهناك مثل جزائري آخر يقول : « ان الغريق يحاول التعلق حتى بشعرة » . وبالنسبة للجزائر الغريقة ، فإن ألمانيا وتركيا ، رغم أنهمـا لا تستطيعان مساعدتها بسفينة انقاذ، فانهما قد يساعدانها بشعرة. والحق أن الجزائريين لم يتوقعوا من ألمانيا أو تركيا أن تنقذهم من فرنسا . وكل ما كانوا يأملون فيه هو أن هاتين القوتين تستطيعان أن تضعفا أو تهزما فرنسا في أوروبا ، وهكذا تعطيان لهم الفرصة « لاكمال » العمل . انه في هذا الضوء يجب أن ينظر المـرء إلى الدعـاية الألمانية والعثمانية خلال الحرب وإلى رد الفعل الجزائري بخصوصها .

في سنة 1915 كتب أحد الفرنسيين مؤكداً أن ألمانيا قـد بدأت دعـايتها في الجزائر منذ سنة 1900 . والكاتب يصر على أنه « مقتنع بأن (ألمنة) الجزائر قد بدأت خلال الخمس عشرة سنة الماضية »[1] . ويؤكد المؤلف أيضاً بأن هذه الطريقة قد غطت جميع الميادين : زراعية ، وصناعية ، وتجارية ، ودينية ، وسياسية . وقد قام بعملية (ألمنة) الجزائـر أو بث الدعـاية الألمـانية فيهـا ، بناء على رأي هـذا الكاتب ، السياح ، والتجار ، والمثقفون ، والجواسيس الذين ترددوا على الجزائر قبل الحرب . وبناء على رأي كاتب فرنسي آخر ، فإن هؤلاء الألمان قد حاولوا تدعيم علاقتهم مع الشعب الجزائري . وقد استعملوا كل فـرصة لاثـارة الجزائـريين ضد الفرنسيين[2] .

---

(1) ج. ديبارمي ، « بعض أصداء الدعاية الألمانية في الجزائر (العاصمة) » في « س.ج.ا.» ، م 20 (1915) ، ص 48 .

(2) أوغسطين بيرنار ، « ألمانيا وأفريقية الشمالية » في «ا.ف.» (أبريـل ، 1915) ، ص 88 . وقد أضاف بيرنار أن الألمان قد « ندموا » على أنهم لم يأخذوا الجزائر من فرنسا سنة 1871 .

ومنذ 19 مارس، 1913 أوضحت ألمانيا أن هدفها كان المساعدة على احداث ثورة عامة في كامل أفريقية الشمالية ضد فرنسا. ففي مذكرة نشرت في ذلك التاريخ وضعت خطة تستطيع ألمانيا من خلالها خلق الصعوبات في المنطقة عن طريق الزعماء الدينيين والسياسيين[3]. ويعتقد طيبال أن قذف عنابة وسكيكدة بالقنابل كان يتماشى مع هذه الخطة[4]. ففي الرابع من أوت، 1914. ضربت السفينتان « بريسلو » و« غوبن » هاتين المدينتين ثم هربتا إلى المياه التركية. وقد ترك الهجوم « بعض الضحايا »، ولكنه لم يسفر عن « النتائج المعنوية التي توقعها المعتدون ». ويقول لوتو، الحاكم الفرنسي العام للجزائر عندئذ، بأن ضرب الألمان لعنابة قد دام مدة أربع ساعات ولسكيكدة خمس ساعات[5].

وقد بدأ الفرنسيون حملة واسعة من الدعاية عن « فشل » الألمان في اثارة الجزائريين ضد فرنسا. كما اعتبروا ذلك « دليلاً » على أن الجزائريين كانوا مخلصين لفرنسا. ولكن ليس هناك برهان على أن السفينتين الألمانيتين قد أرادتا حقاً أن تعطيا للجزائريين « إشارة » الثورة، كما كانت الدعاية الفرنسية تدّعي.

لا يتفق الدعاة الألمان على مدى قوة الحركة الوطنية الجزائرية. فبعضهم كانوا يعتبرونها ضعيفة جداً بحيث لا تستطيع أن تعلن الاستقلال عن فرنسا. ويعتقد آخرون منهم أنها كانت قوية الى درجة أنها تشكل خطراً على الحكم الفرنسي. وهذان الرأيان يمثلهما أحسن تمثيل المستشرقان الألمانيان: البروفيسور جورج كامفماير، والبروفيسور كارل بيكر. وكلاهما كان مهتماً بالعالم الاسلامي والقضايا الاستعمارية.

ففي سلسلة « ألمانيا والاسلام » نشر كامفماير كتاباً ادعى فيه أنه لا يمكن لألمانيا أن تتوقع ثورة وطنية في الجزائر[6]. وقد دعم رأيه هذا بأن الجزائر لا تستطيع

---

(3) طيبال، «ا.ف.س.» (سبتمبر، 1921)، ص 199. ويسميها المؤلف « مذكرة برلين »، التي قال أنها كانت قد نشرت من السلطات العسكرية الألمانية.

(4) نفس المصدر.

(5) « الجزائر » في «ا.ف.» (جانفي - فيفري، 1915)، ص 19.

(6) أنظر «شمال غرب أفريقيا وألمانيا» (برلين، 1914)، (بالألمانية) كما أشار اليه أوغسطين بيرنار، « ألمانيا وأفريقية الشمالية » في « ا.ف. » (ابريل، 1915)، ص 88.

أن تقوم حتى بثورة مثل ثورة سنة 1871 لأن الاستعمار فيها كان قوياً للغاية . فليس لها ، بناء على رأيه ، حياة وطنية ولا صحافة هامة ولا أدب متقدم ، كما في مصر ، مثلاً . وبالإضافة إلى ذلك فهو يقول أن أعضاء النخبة الجزائرية كانوا قلة وليس لهم تأثير كبير على بقية السكان . ونظراً لأن الحياة الجزائرية كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفرنسا فإن الحركة الانفصالية في الجزائر لا تستطيع أن تفكر في الاتجاه نحو تركيا . وليس هناك من سبب يجعل هذه الحركة ، بناء على رأيه ، تفضل دولة أخرى أوروبية على فرنسا.

ويؤكد كامفماير أن الجزائريين كانوا يعلمون جيداً أن « الاستقلال كان غير ممكن » . وقال ان فرنسا التي هزمتها ألمانيا قد استطاعت ، سنة 1871 ، أن تضع حداً للثورة الوطنية . أما في سنة 1914 ، فإنه حتى ولو هزمت فرنسا في أوروبا ، فإن للجزائريين حظاً ضئيلاً في تغيير أحوالهم . وقد انتهى كامفماير بهذا الرأي المتشائم : ان أفريقية الشمالية ككل ليس لها ، في ذلك الوقت، « فكرة وطنية ولا عواطف شعبية » . ولذلك فإن ألمانيا ، بناء على رأيه ، ليس لها ما تتوقعه من الاسلام في أفريقيا الشمالية[7].

أما بيكر فله رأي مختلف عن الحركة الوطنية الجزائرية . ففي كتابه عن ألمانيا والاسلام لام بيكر الصحافة الفرنسية لشنها حملة دعائية ضد ألمانيا مدعية ان دعاة ألمانيين كانوا يبثون بين الجزائريين سياسة ألمانيا الاسلامية[8] . وقد استنكر بيكر هذه الحملة على أساس أن أهل أفريقيا الشمالية ليسوا في حاجة إلى إثارة من ألمانيا . وأخبر الدعاة الفرنسيين بأن كثيراً من الألمانيين قد لاحظوا أنهم كانوا « محل ترحيب خاص من أهالي » الجزائر ومصر.

---

(7) أشار اليه بيرنار في نفس المصدر ، ص 88 ـ 89 .

(8) أنظر (ألمانيا والاسلام) (برلين ، 1914) (بالألمانية) ، ص 21. وقد ظهر هذا الكتيب (31 صفحة) في سلسلة « الحرب الألمانية » (بالألمانية) أنظر أيضاً أوغسطين بيرنار ، « ألمانيا والاسلام » في «ا.ف.» (جانفي ـ فيفري ، 1915) ، ص 17 . كان بيكر أستاذاً في جامعة بون ومديراً لمعهد هامبورغ الاستعماري من 1908 الى 1913 . كما كان معروفاً باستشراقه وبتخصصه في القضايا الاسلامية ، أنظر جان ـ جاك واردنبورغ ، « الاسلام في مرآة الغرب » (باريس : موتون وشركاه ، 1962) ، ط 2 .

وكان بيكر مقتنعاً أن الحركة الوطنية الجزائرية كانت « خطراً » على فرنسا . فهو يرى أن معارضة الجزائريين ، « لسادة بلادهم» قد أخذت ، منذ عهد الأمير عبد القادر . شكلاً جديداً وأكثر عصرية ، ولكن الجزائريين ، حتى المثقفين منهم ، قد بقوا خصوماً « للتسلط الفرنسي » . ويرى أن الجزائريين سيكونون مصدر ، « خطر حاد » على « فرنسا مهزومة » . كان بيكر يعتقد أن سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر قد فشلت[9] .

وتشير الدلائل إلى أن ألمانيا قد اتبعت بيكر ضد رأي كامفماير . ذلك أن ضرب بعض الموانىء الجزائرية في أوت ، 1914 . قد يكون متمشياً مع فكرة بيكر ، أو على الأقل هكذا فسره الفرنسيون . كما أن ارسال الأسلحة ، والنقود ، والعتاد إلى الأمير عبد المالك في المغرب الأقصى كان أيضاً يتماشى مع هذه الفكرة ، وبناء على رأي كاتب فرنسي فان الحركة السنوسية في ليبيا قد دعيت من ألمانيا إلى مساعدة الجزائريين[10] . وقد أرجعت الدعاية الفرنسية حرب العصابات والثورات المسلحة في الجزائر ضد فرنسا إلى العملاء الألمان والأتراك . أما الصحافة والوكالات الألمانية فقد كانت ، من جهتها ، تنشر بعاطفة انتفاضات الجزائريين ضد الفرنسيين[11] .

في ربيع سنة 1915 احتجز الفرنسيون بعض المنشورات الألمانية الموجهة إلى الجنود الجزائريين والمغاربة على الجبهة الأوروبية . وقد تلقى جنود المغرب العربي في خنادقهم في فلاندر بياناً يدعوهم إلى الانضمام إلى أعداء فرنسا . والمنشور ، الذي يبدو أنه كان بالعربية ، قال بأنه منذ سنوات قضى الفرنسيون على مملكتي الجزائر وتونس وفصلوهما عن عالم الاسلام . ثم ذكر الجنود بأن العلماء قد أعلنوا الجهاد ضد الحلفاء وأن من واجبهم ، كمسلمين ، أن يفعلوا نفس الشيء . وقد سأل المنشور جنود المغرب العربي أن ينضموا إلى الألمان ، أعداء فرنسا ، وإلى العثمانيين ، اخوتهم[12] . ويبدو أن هذا المنشور قد وزع لغرض دعائي محض

---

(9) نفس المصدر . ص 29 ـ 30 . أنظر أيضاً بيرنار ، « ألمانيا » في « ا.ف.» (جانفي ـ فيفري ، 1915) ، ص 17 ـ 18 .

(10) نوشي ، ص 27 :

(11) من بين هذه وكالة «وولف» وجريدة «غازيت دي فوس» .

(12) ديبارمي ، « بعض الأصداء » في « س.ج.ا.» ، م 20 (1915) ، ص 70 . وقد ترجم المؤلف هذا =

محاولة لاضعاف معنويات الجيش الفرنسي بواسطة الحرب النفسية . وهناك نشاطات مشابهة أقيمت في برلين للجنود الجزائريين الذين كانوا قد فروا من الجيش الفرنسي ، وللسياسيين الساخطين الذين وجدوا ملجأهم في العاصمة الألمانية.

وقد عامل الألمان الجنود الجزائريين ، سواء منهم الفارون أو المساجين ، معاملة طيبة . فقد أبقوهم في (معسكر الهلال) في وونسدورف ـ زوسن ، قرب برلين . وكانوا قد أعطوهم بذلات عسكري تركية ، وفصلوهم عن ضباطهم الفرنسيين ، ووضعوهم تحت قيادة ضباط ألمان يتكلمون العربية . وبناء على رأي الكتاب الفرنسيين ، فإن الجنود الجزائريين قد عوملوا في ألمانيا « باطراء » . فقد أعطوا الطعام حسب التقاليد الاسلامية ، كما عرضت عليهم النقود والوعود المغرية . ووسط احتفالات كبيرة افتتحت ألمانيا مسجداً لهؤلاء الجنود . وقد حضر الاحتفالات الجزائريون الساخطون على الحكم الفرنسي ، ورجال من المغرب العربي ، والمستشرقون الألمان وشخصيات عثمانية[13] .

وبعد مذهبة هؤلاء الجزائريين بعناية أرسلوا لكي يحاربوا ضد فرنسا . ومن بين الذين ساهموا في عملية المذهبية اللاجئون السياسيون الجزائريون ، وزعماء حركة الجامعة الاسلامية في الشرق الأدنى ، وقادة المهاجرين الجزائريين والمستشرقون الألمان . وقد كان الأمير علي ، ابن الأمير عبد القادر ، الذي كان نائباً لرئيس المجلس الوطني العثماني ، وزعيم المهاجرين الجزائريين والمتحدث باسم أخيه الأمير عبد المالك ، شخصية هامة في تلك الأيام . وبناء على رأي ديبارمي ، فان الأمير علي قد أعد هؤلاء الجنود اعداداً وطنياً . أما الشيخ أحمد الكزبري السوري فقد تولى مذهبتهم في مبادىء الجامعة الاسلامية[14] . وحين تم الاعداد جيداً ، أرسل هؤلاء الجنود الى الجزائر ، أو الى آسيا الصغرى لكي يحاربوا في الجيش العثماني[15] .

المنشور ولكن لم يقل من أية لغة .

(13) أنظر نوشي ، ص 27 ، وطيبال ، (ا.ف.س) (سبتمبر ، 1921) ، ص 200 ، وديبارمي ، « بعض الأصداء » في « س.ج.ا. » ، م 20 (1915) ، ص 71 ، وبيرنار ، «أفريقية الشمالية» ، ص 7 .

(14) ديبارمي ، نفس المصدر .

(15) بيرنار ، «أفريقية الشمالية» ، ص 8 .

وقد امتدت الدعاية بين الجزائريين لا إلى النشاطات العسكرية فقط، بل الى النشاطات السياسية أيضاً . فبين سنة 1915 و1916 أنشئت في برلين اللجنة الاسلامية لاستقلال أفريقيا الشمالية . وقد حضر الاحتفالات بانشاء وتسيير هذه اللجنة شخصيات ألمانية وعثمانية ، بالاضافة الى الأمير علي المذكور ، وعدد من الفتيان الجزائريين ، الذين كانوا يضمون مثقفين ساخطين أو متعصبين.

وخلال نفس العهد كتب أحد الجزائريين الفارين من الجيش الفرنسي كتيباً « عنيفاً » تحت عنوان (الاسلام في الجيش الفرنسي) ، نادى فيه الجزائريين بمعارضة الخدمة في الجيش الفرنسي والثورة ضد فرنسا . وفي سنة 1916 اجتمعت لجنة استقلال أفريقيا الشمالية في برلين ووضعت خطة عمل ضد فرنسا في المغرب العربي . وهناك اتصالات جرت مع سلطان المغرب الأقصى المخلوع ، مولاي حفيظ ، الذي كان عندئذ في أسبانيا ، ومع المسؤولين في كل من الجزائر والمغرب الأقصى . وفي نفس الوقت عين السلطان العثماني ، سليمان الباروني[16] كخليفة له في ليبيا مع تعليمات خاصة بتشجيع الثورات في أفريقيا الشمالية[17] .

ولكن بعثة الباروني لم تكن النشاط الوحيد للدعاية العثمانية في الجزائر . ففي القسم الخاص بنشاطات الجامعة الاسلامية أشرنا ألى أن السلطان العثماني والفتيان الأتراك لم يكونوا غرباء في الجزائر . كما أشرنا من قبل الى أن المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى قد لعبوا دورهم في العلاقات الجزائرية ـ العثمانية . ولم يبق ، حينئذ ، الا دراسة الدور العثماني في الشؤون الجزائرية خلال الحرب العالمية الأولى . ان الفتوى بالجهاد التي صدرت في أكتوبر ، 1914 ، لم تكن موجهة للجزائريين وحدهم ، بل كانت موجهة إلى كل المسلمين . ولكن رد الفعل الجزائري لهذه الفتوى لم يكن ملفتاً للنظر ، على الأقل كما صورته المصادر الفرنسية . فمفهوم الجهاد في الجزائر كان يختلف عما كان السلطان يريد به . فبين 1914 و1918 ثار

---

(16) عاش الباروني سنوات في الجزائر فراراً من حكم عبد الحميد الثاني ، ثم زارها عشية الحرب الأولى واجتمع ببعض أهلها ، ورحبت به بعض صحف ذلك العهد ، أنظر قائمة المراجع الجديدة .

(17) طيبال ، « ا.ف.س. » (سبتمبر ، 1921) ، ص 200 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 27 . عن حياة ونشاط الباروني أنظر إبراهيم أبو اليقظان « سليمان الباروني باشا » جزآن ، الجزائر ، 1956 ، وكذلك « صفحات خالدة من الجهاد » جمع زعيمة سليمان الباروني ، مصر ، 1964 .

الجزائريون ضد فرنسا باسم جهادهم « الخاص » ـ الوطنية ـ وليس باسم الجهاد الذي أراده السلطان ـ الجامعة الإسلامية .

ورغم أدعاء الفرنسيين بأن الدعاية الألمانية والتركية كانت وراء كل الاضطرابات في الجزائر ، فان دور الدولة العثمانية لم يكن مهماً . فاذا غض المرء النظر عن نشاطات الأمير علي ، والباروني ، وبعض المهاجرين الجزائريين الآخرين تحت سلطتها ، فانه يجد أن دور الدولة العثمانية كان لا يكاد يذكر .

كانت هناك بعض المناشير والكتيبات ، مع نغمة الجامعة الاسلامية ، قد تسربت الى الجزائر من طرابلس وتونس ، تنادي الجزائريين بالنضال ضد فرنسا . وكانت هذه المطبوعات تثير ذكرى الأمير عبد القادر ، الذي « لم يتوقف عن حرب فرنسا حتى وفاته » . كما قام بعض المهاجرين الجزائريين والفارين من الجيش الفرنسي في الشرق الأدنى بكتابة الكتيبات وتحرير المقالات الصحفية لكي يدعوا مواطنيهم للثورة[18] .

وقد أيّدت الصحافة وغيرها من وسائل الاعلام العثمانية الحركة الوطنية في أفريقية الشمالية . فجرائد اسطنبول ، بالاضافة الى جرائد الأقاليم العربية ، قد نشرت الأخبار المعادية لِفرنسا التي تأتي من ذلك الاتجاه ، وكان مصدر الأخبار هو عادة مراسلات الأمير عبد المالك ، زعيم الثورة في المغرب الأقصى ، وأخيه الأمير علي . وهناك مصدر آخر هام للأخبار . وهو الوكالة الألمانية « وولف » . ومنذ سنة 1915 أسست « لجنة الإتحاد والتقدم » العثمانية منظمة في جنيف لكي تنشر الدعاية وتخطط لثورة في أفريقية الشمالية . ولا شك أن لجنتي استقلال أفريقية الشمالية في جنيف وبرلين كانتا على اتصال وثيق بلجنة الإتحاد والتقدم . وبناء على ما تقوله بعض المصادر الفرنسية ، فان لجنة الإتحاد والتقدم قد حاولت أن تؤثر على سلطان المغرب الأقصى المخلوع ، مولاي حفيظ ، الذي كان عندئذ في برشلونة ، لكي يقود أو يمنح تأييده لثورة عامة في أفريقية الشمالية[19] .

---

(18) نوشي ، ص 26 .

(19) نفس المصدر ، ص 27 .

وعند التأمل العميق تظهر الدعاية الألمـانية ـ العثمـانية في أفـريقية الشمـالية عموماً ، وفي الجزائر خصوصاً ، سطحية . فالوثائق الموجودة لا تدل على أنه كان هناك أية خطة ثابتة ولا نتائج ايجابية جنيت . ان ألمانيا ، التي كانت تتمتع بسمعة عالية في أفريقية الشمالية منذ فاتح هذا القرن، بإعتبارها منافسة لفـرنسا وعـاطفة على آمال حركة الجامعـة الإسلاميـة ، لم تستطع أن تنتج أية زعـامة هـامة في المنـطقة . ورغم أن الفـرنسيين قد عـزوا تقريبـاً كل الإضـطرابات في الجـزائـر ، إلى الـدعـايـة الألمانية ، فإن حقيقة الأمر هي أن العمل الألماني لم يكن لا واضحاً ولا حاسماً .

لم يكن هناك أي التزام رسمي ألماني نحو الحركة الوطنية الجزائرية . أما على المستوى الشعبي ، فانـه يبدو ان المستشـرقين والاختصاصيين الألمـان لم يكونـوا يملكون أية فكرة واضحة عن الدور الذي يمكن أن تلعبـه هذه الحـركة . ونتيجـة لذلك ، فان السمعة الألمانية ، التي كانت تحت هجومات دعائية قوية من فرنسا ، كانت على الجانب الضعيف بخصوص الجزائر . وهذا الأسقف أندرسون الأمريكي قد أخبر أحد محرري جريدة بريطانية بأنه لم « يجد أية علامة عطف نحو ألمانيا » من جانب الجزائريين[20] .

ونفس الشيء كان صحيحاً بالنسبة للدولة العثمانية . فلا اعـلان الجهاد ولا النشاطات الدعائية العثمانيـة قد نجحت في خلق ثـورة جزائـرية لصـالح الجـامعة الاسلامية . حتى حرب العصابات والثورات المسلحة التي حدثت في الجزائر خلال الحرب كانت تحت علم الوطنية لا علم الجامعة الاسلامية . بالاضافة الى ذلك ، فانه يبدو أن العثمانيين كانوا قد اصطدموا بثورة العرب ضدهم في الشرق الأدنى . ونتيجة لذلك لم يكونوا متشجعين بحوادث أفريقية الشمالية أيضاً .

ويرجع جزء من فشل القوات المركزية في انتاج ثورة فعالة ضـد فرنسـا في الجـزائر الى نشـاطات الـدعـايـة الفـرنسيـة في المنـطقـة . فتحت علم « فـرنسـا الاسلامية » ، شنت فرنسا حملة حرب نفسية واسعة ضد ألمانيا وتركيا في الجزائر . دعنا الآن ندرس هذه الظاهرة .

---

(20) «النيويورك تايمس» (26 نوفمبر ، 1914) ، ص 3 .

2. فرنسا الاسلامية :

لكي تقاوم النشاطات العثمانية ـ الألمانية المعادية لها في الجزائر ، طورت فرنسا تكتيكها الخاص في الدعاية . فالسلطان كان ينعت للجزائريين بأنه دمية في الأيدي الألمانية ، وكانت تركيا (وليس الدولة العثمانية) تنعت لهم بعدوة الاسلام وعدوة العرب . وكان القيصر الألماني ينعت بسخرية باسم الحاج ويليام . وهو لقب خاص بالمسلم الذي حج الى مكة . أما ألمانيا فقد كانت توصف بالبربرية وبأنها عدوة للحضارة والانسانية .

وبالاضافة الى ذلك ، فان فرنسا قد بنت مساجد للجنود الجزائريين على الجبهة الأوروبية ، وبعثت اليهم بأئمة مسلمين ليؤموهم في الصلاة ، وليوجهوهم توجيهاً موالياً لفرنسا . أما على المسرح المحلي ، فان كل شيء قد سخر لتحويل أنظار الجزائريين من القوات المركزية الى فرنسا .

وهذه الحملة بدأت بضع سنوات قبل الحرب العالمية الأولى . وقد أشرنا من قبل الى النشاطات الفرنسية في الشرق الأدنى التي كانت تستهدف كسب بعض المهاجرين ذوي الشأن . فالفرنسيون غالباً ما لاموا برلين واسطنبول لعدم الاستقرار الجزائري خلال الفترة من 1900 الى 1914 . وبالاضافة الى صحافة الكولون ، كان للادارة الفرنسية في الجزائر جريدتان هما « الأخبار » و « المبشر » قصد تبليغ الأنباء الرسمية الى السكان .

وعندما وجد الفرنسيون أن هاتين الجريدتين غير كافيتين ، خلقوا ، سنة 1913 ، جريدة أخرى تحمل عنواناً يشير الى برنامجها هي « فرنسا الاسلامية » لمقاومة دعاية الجامعة الاسلامية ولتحضير الجزائريين لامكانية حدوث حرب أوروبية . وفي سنة 1914 خلقوا جريدة أخرى كان هدفها أيضاً دعائياً تحت اسم « أخبار الحرب » التي استمرت حتى سنة 1918 . فحين اندلعت الحرب كانت فرنسا قد أوجدت جهازاً كاملاً للدعاية لا لتقاوم دعاية العدو المضادة لفرنسا فقط ، ولكن للتبشير بارادة فرنسا الخيرة بين الجزائريين أيضاً .

وبعد اعلان الحرب ألقى الحاكم الفرنسي العام في الجزائر ، السيد لوتو ، بيانين منفصلين في 4 أوت ، 1914 ، وجههما الى السكان : أحدهما موجه الى الكولون ، والآخر موجه الى الجزائريين . وقد بدأ لوتو البيان الأول بقوله : « أيها

الجزائريون ! ان اللحظة الفاصلة قد حانت ! » أما في البيان الثاني فقد وجه خطابه الى « الأهالي المسلمين ! » ثم تابع خطابه اليهم قائلاً : ان ألمانيا قد هاجمت فرنسا لأنها كانت تغار من قوتها . ولكي يقنع مستمعيه استشهد لوتو بكلام نبيكم العظيم » الذي قال ان « الله لا يحب الخونة ! » وبناء على رأي الحاكم الفرنسي ، فان الألمان قد نسوا هذا الحديث الشريف عندما ظنوا أن الجزائريين سيخونون فرنسا . وكعلامة للثقة والتهديد أيضاً أخبر لوتو « الأهالي المسلمين » أنه كان متأكداً أن الخونة « لا يوجدون بينكم ! » ولكنه ، ذكرهم بأن فرنسا مصممة على حفظ « النظام والأمن . . فابقوا متعاونين معنا واخوانا لنا[21] » .

ان هذا لم يكن سوى بداية لاستغلال فرنسا للاسلام ضد ألمانيا والدولة العثمانية ، ولكسب ولاء الجزائريين . فبعد الهجوم البحري الألماني على الساحل الجزائري ، ألقى الحاكم العام خطبة قوية وجهها الى الجزائريين ، أخبرهم فيها « ان فخا قد نصب الى الاسلام ، ولكنكم ستكتشفونه بنظرتكم البعيدة وبولائكم المعتاد . وانكم سوف لا تخدعون بهذه المناورات الألمانية . وانكم سوف تضربون عرض الحائط بالاستفزازات النفاقية (لألمانيا ، والدولة العثمانية) التي تريد أن تستغل عواطفكم الدينية » . ثم سأل لوتو الجزائريين أن يكونوا مخلصين لفرنسا وأن « تتبعوا مثال اخوانكم في القاهرة ، والهند ، وأولئك الذين تحميهم روسيا » . وأخيراً طلب منهم أن يصلوا من أجل انتصار العدل وتحطيم ألمانيا[22] .

ان بيان لوتو واضح في أن الحاكم العام كان يستجدي الجزائريين أن يكونوا مخلصين لفرنسا في ذلك الوقت الصعب . ولهذا الهدف استنكر موقف ألمانيا والدولة العثمانية لاستغلال العواطف الدينية في اثارة الجزائريين ضد فرنسا . ولكن الحاكم العام ، الذي كان يمثل أعلى سلطة فرنسية في الجزائر ، كان هو نفسه يستغل

---

(21) أنظر « الجزائر » في «ا. ف.» (جانفي ـ فيفري ، 1915) ، ص 20 . وبناء على المعلومات التي لدينا ، ليس هناك تأكيد أن النبي محمد قد قال ذلك . ويبدو الحاكم العام قد اختلق هذا القول لأغراض سياسية .

(22) «لوطان» (6 نوفمبر ، 1914) ، ص 3 . أنظر أيضاً « الجزائر » في «ا. ف.» (جانفي ـ فيفري ، 1915) ص 21 .

العواطف الدينية ، لا في الاستشهاد بحديث النبي محمد فقط ، ولكن أيضاً في وصف ما قامت به ألمانيا من ضرب بعض المدن الجزائرية بأنه ضربة ضد الاسلام . وان هذه السياسة الفرنسية قد ظهرت بشكل أوضح فيما قاله لوتو عشية دخول الدولة العثمانية في الحرب.

ففي هذا البيان أعلن لوتو « للمسلمين الجزائريين » أن تركيا لم تعد قادرة على حماية الاسلام لأنها كانت تحت سلطة الألمان . وأخبرهم أن فرنسا تكره القيصر ، وأن ألمانيا أيضاً لا تقدر على حماية الاسلام . ومحاولة منه ثانية في خلط الدين بالدعاية ، ذكر الحاكم العام الجزائريين بأن : « اخوانكم المسلمين » في روسيا ، والهند ، ومصر ، كانوا ضد تركيا وألمانيا ، وانتهى لوتو بدعوة الجزائريين « أن يتبعوا مثالهم ».

ولكن أكثر ما كان يهم الفرنسيين هو وقف موجة الوطنية الجزائرية . ولذلك فإن كل الوسائل كانت قد استعملت للحط من قيمة القوات المركزية في أعين الجزائريين . وقد استغل الدين لهذا الغرض ليس فقط بواسطة المسؤولين الرسميين ، ولكن أيضاً بالحصول على فتاوي من بعض المرابطين المخلصين . وكانت الدعاية تصور فرنسا على أنها أمة قوية ليس في استطاعة لا ألمانيا ولا الدولة العثمانية أن تهزمها . كما كانت تصورها على أنها أمة اسلامية تعني بالدرجة الأولى بشؤون الإسلام والعالم الإسلامي . واتباعاً لهذا الخط ، أمل الفرنسيون أن يمنعوا أي ثورة وطنية في الجزائر . غير أن هذه الجهود قد فشلت.

حتى الكولون غيروا مناوراتهم نحو الجزائريين حين أصبح الخطر داهماً . ورغم أنهم كانوا ما زالوا يطالبون بالأمن والحماية من « قطاع الطرق » ، فإن الكولون قد فتحوا حملة « تآخ » بينهم وبين الجزائريين . وقد أعلن شيخ بلدية الجزائر العاصمة ، الفرنسي ، خلال الشهور الأولى للحرب أن : « هناك بيننا ، نحن الكولون ، وبين مسلمي أفريقيا الشمالية علاقات وثيقة كونتها أولاً تدريجياً وبتأكد المصالح المشتركة ، ثم ، منذ بداية الحرب ، أصبحت بيننا وبينهم أخوة مؤثرة خلقت في ميدان المعركة في وجه عدو مشترك »[23].

---

(23) «لوطان» (8 نوفمبر ، 1914) ، ص 2 .

ولا شك أن شيخ البلدية كان يعرف أن هذا التآخي لا يمكن أن يخلق بالكلمات ، فهو لم يقترح ، مثلاً ، ارضاء بعض المطالب الوطنية . ان الجزائريين كانوا على يقين من أنه ليس لهم « مصالح مشتركة » ولا « عدو مشترك » مع الكولون.

وكثيراً ما تبادل الفرنسيون والقوات المركزية المهاترات الصحفية بخصوص الجزائر . فمنذ سنة 1914 لام البروفيسور بيكر الصحافة الفرنسية على مغالطة الرأي العام حول سياسة ألمانيا الأسلامية . ومن جهة أخرى اتهم الكتاب والعملاء الفرنسيون، الألمان والعثمانيين بالكذب وتشويه الحقائق في الأخبار بأن الجزائر خصوصاً وأفريقيا الشمالية عموماً كانتا في حالة ثورة ضد فرنسا ، أو انهما كانتا غير مخلصتين لها . وقد كانت ثورة الأمير عبد المالك مثالاً لهذه المهاترات الصحفية . فعندما أخبرت الصحافة الألمانية ، في نهاية سنة 1914 ، ان الأمير عبد المالك قد ثار ضد فرنسا ، أجابت الصحافة الفرنسية بأن ذلك كله كان كذباً وأن الألمان كانوا ينشرون الدعاية من أجل الجامعة الاسلامية ، مشيرة إلى أن الأمير عبد المالك كان في الواقع ما زال في مركزه بطنجة[24] . وان كتابات بيرنار ، وديبارمي ، وميليا ، وغيرهم الذين تناولوا النشاطات الألمانية والعثمانية في الجزائر تظهر أنهم قد تولوا دور مقاومة دعاية العدو بين الجزائريين.

وبين فيفري ، 1915 ، وسبتمبر ، 1916 ، جاءت فرنسا بحوالي 6000 سجين ألماني إلى المغرب الأقصى و 3000 إلى الجزائر لكي تثير الرعب في قلوب أهل المغرب العربي . ولا شك أن الفرنسيين حاولوا أن يشكلوا « مظاهرة » من حضور مساجينهم بين الجزائريين . وقد كانت هذه المظاهرة بالنسبة لرجل الشارع الجزائري تجعل فرنسا تظهر قوية لأنها استطاعت أن تلقي القبض على أعدائها . وهكذا فإن الفرنسيين ، الذين كانوا يبثون بين الجزائريين فكرة القدرية ، قد وجدوا في هؤلاء المساجين سلاحاً نفسياً قوياً لكي يقنعوا الجزائريين أن ثورة وطنية ضد فرنسا ستكون غير ممكنة.

وعلى أية حال ، فإن هذه المظاهرة النفسية لم تنته إلا عندما بعثت ألمانيا 30,000 سجين فرنسي إلى معسكرات انتقامية . ونتيجة لذلك أعادت فرنسا

---

(24) «لوطان» (28 ديسمبر ، 1914) . ونفس المهاترة وقعت بخصوص موقف الأمير خالد .

المساجين الألمان إلى أوروبا[25] . وقد فشلت هذه المناورة، كأكثر النشاطات الدعائية الفرنسية ، في تحقيق هدفها ، لأن سنة 1916 قد شهدت كما سبقت الاشارة ، ثورتين كبيرتين في الجزائر ، بالإضافة إلى نشاط ثوار حرب العصابات المستمر.

وبعد ثورة الأوراس سنة 1916 عمدت فرنسا إلى طريقتين: عمليات التنظيف التي وصفناها سابقاً ، ودعاية قوية للاصلاح . فبعد أن أخبر الحاكم العام ، لوتو ، عن الاجراءات العسكرية التي اتخذها لقمع الثورة ، أعلن أنه سيصلح أحوال اقليم الأوراس ببرنامج سياحي وتربوي. وقد برر عمله بالنقاط التالية :

1 ـ ان ذلك الاقليم كان مهملاً من فرنسا.

2 ـ ان ألمانيا قد اختارته لتفجير ثورة عامة.

3 ـ أنه لم يحتل من قبل أية أمة.

وكان الحاكم العام يأمل أنه بتنفيذ برنامج سيقضي على الدعاية الألمانية التي تقول أن منطقة الأوراس « ليست تحت السلطة الفرنسية »[26] .

ان هدف تصريح لوتو كان تضليل الوطنيين الجزائريين ومقاومة الدعاية الألمانية . ولكن لوتو لم يبرهن على أن ألمانيا قد اختارت ذلك الاقليم لتفجير ثورة عامة ضد فرنسا . ويشير ديبون ، الذي درس ثورة الأوراس بعناية، الى أنه لم يجد دليلاً على تدخل ألمانيا مباشرة فيه . وكل ما أشار إليه الحاكم العام هو أن الألمان كانوا يعرفون أن ثورة 1879 قد حدثت في تلك المنطقة[27] . ولكن هذا ليس دليلاً على وجود تدخل خارجي.

---

(25) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 8 .

(26) « الجزائر » في «ا.ف.» (أبريل ، 1917) ، ص 147 ـ 148 . والسبب في تسمية هذا البرنامج بالدعاية هو أن لوتو لم يذكر كيف سيطبقه . وبالاضافة الى ذلك ، فنحن نعرف أن الحياة الاقتصادية في المنطقة كانت قد توقفت من 1916 الى 1917 نتيجة للعمليات التالية لثورة 1916 ، وأن السياحة لم تكن عملاً مشاعاً كثيراً أو كلمة شعبية في ذلك الوقت من الحرب ، وأن اقليم أوراس كان قد وضع تحت الحكم العسكري ، بالاضافة الى قانون حالة الطوارىء الذي أعلنه نفس الحاكم العام . فأي نوع من السياحة والتربية ، اذن ، كان لوتو يعنيه ؟

(27) نفس المصدر .

من بين الوسائل التي استعملتها فرنسا لكي تحصل على المجندين الجزائريين اللجوء إلى استعمال الموسيقى ، والولائم ، ونحو ذلك . ففي نهاية سنة 1915 أصدر قائد الجيش الفرنسي في الجزائر منشوراً يوصي فيه بالتجنيد بطريقة مغرية للجزائريين . وسرعان ما وجد المسؤولون العسكريون بعض هذه المغريات . وهكذا فإن فقراء الجزائريين المدقعين قد عرضت عليهم ولائم وفيرة . وسارت أمام الفلاحين الجهلة والمعزولين « طوابير عسكرية » تعزف الموسيقى وتضرب الدفوف لتلفت أنظارهم . وكانت الحلويات والمشويات ، وأطباق الكسكسي معروضة على كل من يريد أن ينضم إلى الطابور . بل ان بعض الفرق العسكرية الفرنسية قد شاركت في « الاستعراض » الذي كان يضم راقصين وموسيقيين لاغراء الجزائريين وللبرهنة على كرم فرنسا[28] . وبهذه الوسائل كان الفرنسيون يأملون في تحويل أنظار الجزائريين عن الدعاية المعادية لفرنسا ، وفي جذبهم للخدمة في الجيش الفرنسي .

ولكي تقاوم الدعاية الألمانية بين الجنود الجزائريين ، حاولت فرنسا أن ترضي بعض الحاجات الاجتماعية لهؤلاء الجنود . وقد أشرنا قبل إلى أن ألمانيا قد شيدت مسجداً ، وأعدت طعاماً خاصاً ، ونظمت برنامجاً توجيهياً للجنود والمساجين والهاربين الجزائريين . وقد فعلت فرنسا أشياء مشابهة . ففي جانفي ، 1916 ، رأت أن تبني مسجداً في (نوجون ـ سير ـ مارن) للصلاة واستقبال الجنود الجزائريين الجرحى في أوروبا[29] .

وبناء على توصيات الحاكم العام في الجزائر ، عين وزير الحربية الفرنسي ، سنة 1915 ، ثلاثة أئمة ملحقين بالجنود الجزائريين على الجبهة الأوروبية[30] . ولما كان هؤلاء الأئمة من خريجي المدارس الفرنسية ـ الجزائرية ،

---

(28) أنظر سينيوري ، «ر.ب.ب.» ، م 98 (1919) ، ص 289 .

(29) فيكتور ديمونتي ، « الجزائر خلال 18 شهراً من الحرب » في «س.ج.ا.» ، م 2 . (1915) ، ص 37 .

(30) « النيويورك تايمس » (3 جويليه ، 1915) ، ص 2 . اسمان لهؤلاء الأئمة معروفان وهما : بومزراق المقراني ، وقطرانجي عبد الرحمن . أما الثالث فغير معروف . وقد كتب المقراني وقطرانجي كتاباً بعنوان «القول الناصح في مجادلة المائن الكاشح » في الرد باسم فرنسا على رسالة ظهرت في اسطانبول بعنوان (المسلمون في الجيش الفرنسي) .

فإنه من الممكن أن يدّعي الباحث أنهم كانوا قد اختيروا بعناية لكي يقوموا لا بأداء الصلاة فقط ، ولكن أيضاً بالدعاية لصالح فرنسا بين اخوانهم في الدين ، لذلك فانهم عندما سئلوا عن انطباعهم ، بعد أن زاروا الجنود الجزائريين في المستشفيات ، صرح هؤلاء الأئمة الموالون لفرنسا بأن كل الجزائريين كانوا مستعدين أن يجودوا بدمائهم من أجل فرنسا[31].

وقد كان رد الفعل الجزائري على هذه الدعاية الفرنسية الدينية حاضراً . فقد سخروا ، من خلال الأدب الشعبي ، وسيلة التعبير غير المباشر والغامض ، من الطريق الفرنسية . وفي « أغنية العصر » ، كما يسميها ديبارمي ، يقرأ المرء ما يلي : « ان الفرنسيين ، أصدقاءنا ، قد بنوا المستشفيات في مساجدنا . تعال واشهد هذه النكبة »[32] . لقد كان الجزائريون يعرفون أن فرنسا لم تكن تعمل من أجل مصالحهم ، ولكن من أجل مصالحها هي . فهم لم يفهموا كيف يستعمل المسجد ، الذي هو مكان للعبادة ، كمستشفى لمعالجة الجنود الجرحى . ولعل رد الفعل المذكور يعكس أيضاً وقع أحوال الحرب على الجزائريين.

وفي نفس الوقت قرر المجلس الوطني الفرنسي ، « بدون مناقشة » ، أن تبني فرنسا داراً للاستقبال في مكة للحجاج الجزائريين . وكان اسمها الرسمي هو « دار الضيوف » . وقد أوضح الفرنسيون أن الهدف منها « حماية » الجزائريين من « دعاية العملاء الألمان والأتراك »[33] . ولكن ليس لدينا برهان على أن هذه الدار كانت قد بنيت تحت سلطة العثمانيين . ويبدو من المشكوك فيه السماح لفرنسا ببناء دار من هذا النوع في تلك الظروف . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن فرنسا ، خوفاً من تأثير فكرة الجامعة الاسلامية والدعاية المضادة للفرنسيين ، لم تأذن للجزائريين خلال سنة 1915 ، أن يقوموا بحجهم السنوي الى مكة . ولم تسمح لهم بالحج إلا بعد ثورة الشريف حسين ، سنة 1916[34].

---

(31) نص عليه نفس المصدر .

(32) ديبارمي ، « أغنية الجزائر » في « ر.ا. » ، م 83 (1932) ، ص 79 . والجملتان مترجمتان من النص العربي .

(33) ديمونتي ، « الجزائر خلال ... الحرب » في «س. ج. ا. » ، م 20 (1915) ، ص 37 ـ 38 .

(34) « الحج الى مكة » في «ا. ف. » (أوت ـ سبتمبر ، 1916) ، ص 321 .

وخلال سنة 1916 لم تسمح فرنسا للجزائريين بالحج فقط ، ولكنها بعثت أيضاً بعثة ديبلوماسية دعائية إلى الشريف حسين . وكان هدفها كسب عطف التأييد العربي ضد الدولة العثمانية ، ونتيجة لذلك التأثير على عواطف الجزائريين نحو السلطان ، الذي كان ما زال في نظرهم زعيم الخلافة الاسلامية . أما الآن فقد شعرت فرنسا بالأمن على الحجاج الجزائريين ، لأن الثورة العربية سنة 1916 قد طردت « العملاء الألمان والأتراك » من مكة .

ورغم مظهرها الدعائي ، فإن هذه البعثة لم تضم سوى 650 حاجاً من أفريقيا الشمالية ، الذين كانوا قد اختيروا من بين الأشخاص المعروفين محلياً ، ولا سيما كبار الأعيان . وقد حملتهم سفينة إلى ميناء جدة . أما الباقون فقد كان عليهم أن يذهبوا عن طريق البر .وكانت البعثة قد أعطيت التعليمات ، وهي أن تعبر للشريف حسين عن سرور الفرنسيين لتحقيق « الاستقلال الكامل للأماكن المقدسة » . كما حملت هذه البعثة الدعائية والديبلوماسية الهدايا إلى الشريف حسين ، باسم الحكومة الفرنسية[35].

وعندما كانت البعثة مستعدة للرحيل إلى مكة ، خطب لوتو أمام الحجاج الجزائريين ، فخاطبهم « بجزائريينا » ، ثم تعجب ، بطريقة فرنسية ، « يا له من مجمع لا مثيل له أمامنا ! » لقد كان يشير إلى الطريقة التي كانوا قد اختيروا بها ، لأنهم قد ضموا المحافظين المخلصين بعمائمهم ، وجماعة النخبة بطرابيشهم . ثم أطرى لوتو مستمعيه باعلامهم أن فرنسا مدينة بانتصارها إليهم ، لأنهم لم ينصتوا إلى النداء الألماني بخيانتها . ولكن الحاكم العام قد أنذر الحجاج ضد عملاء « العدو » و « أكاذيبهم » . وقد نصحهم بأنهم إذا ما لقوا هؤلاء العملاء ، الذين سيواجهونهم « بالأكاذيب » ضد فرنسا ، فليكن جوابهم « لتحيى فرنسا » التي « أصبحت بلادنا الخالدة التي لا تقهر ! »[36] .

وبينما كان لوتو يلقي خطبته « التهذيبية » على الجزائريين المختارين بعناية ،

---

(35) نفس المصدر .
(36) نفس المصدر .

كانت ثورة الهقار في تقدمها ، كما انفجرت ثورة الأوراس بعد عدة أسابيع فقط . وقد تكلم أيضاً إلى « أشعة النخبة الأدبية والعقلية لأهالينا » (الجزائريين)[37] . ولا شك أن هذه البعثة الفرنسية قد فشلت لأن جماعة النخبة لم يعرفوا لا العربية ولا كيف يؤدون طقوس الحج .

في سنة 1934 حكى المؤرخ الفرنسي غوتيي ، المعروف بآرائه الإستعمارية ، قصة هامة حدثت عام 1917 ، بخصوص بعثة فرنسية أخرى إلى مكة . كان غوتيي يتحدث عن البورجوازية الجزائرية ، التي كانت تجهل العربية ، التي قال عنها أنها قد أصبحت بالنسبة إلى البورجوازية ليست لغة ، ولكن لهجة (باتوا) فقط . ويضيف غوتيي أن بلاده قد أرادت ، سنة (1917) ، أن تبرهن عن إرادتها الخيرة واهتمامها بالجزائر إلى العالم الخارجي ، ولا سيما إلى عرب الشرق الأدنى . لذلك اختارت ديبلوماسياً جزائرياً ، لا فرنسياً ، لكي يمثلها لدى الشريف حسين . وبناء على رأي غوتيي ، فإن هذا الجزائري هو الكولونيل قاضي ، خريج مدرسة الصنائع والفنون (بوليتيكنيك) الفرنسية في الجزائر . ولكن غوتيي قد اعترف بأن بعثة الكولونيل قاضي قد فشلت لأن هذا لم يكن يعرف العربية . وهكذا لم تثمر الدعاية التي كانت مرجوة منه[38] .

إن رسالة « فرنسا الإسلامية » كانت أبعد ما تكون عن النجاح . لقد فشلت في منع الجزائريين من الثورة ، وفشلت أيضاً في تحسين صورة الفرنسيين في الخارج ، ولا سيما في العالم العربي . ولكنها نجحت ، بشكل محدود ، في مقاومة الدعاية الألمانية والعثمانية في الجزائر . ورغم المقاومة ، فقد احتفظت فرنسا بالجزائر داخل فلكها ، باستعمال الضغط من ناحية ، والإغراء من ناحية أخرى . فالجزائر سنة 1919 لم تكن مثل بولندا ، أو تشيكوسلوفاكيا ، ولا حتى مصر أو سورية . لقد ظلت تحت نفوذ فرنسا « الفذ » ، فلا هي مستعمرة ولا هي إقليم .

وإذا تأمل الباحث في الوضع من بعيد ، فإنه يجد أن الجزائريين قد كسبوا

---

(37) نفس المصدر .

(38) أنظر ا.ف. غـويتي ، « أخطار على أفريقية » في «ر.ب.» ، (1 سبتمبر ، 1934) ، ص 44 - 45 .

تأييداً قليلاً من الخارج أثناء الحرب . ولكن كانت هناك نتائج إيجابية أيضاً . فالمقاومة السياسية العاطفية ، بالإضافة إلى الثورات المسلحة وحرب العصابات كانت كلها خطراً دائماً على فرنسا ، ولكي تهدىء الجزائريين ، حاولت فرنسا أن تقوم ببعض الإصلاحات خلال الحرب ، ثم توجتها بقانون سنة 1919 .

3. ذر الرماد في العيون :

تعليقاً على الإصلاحات الفرنسية في الجزائر بعد الحرب ، كتب المؤرخ الإنكليزي ، أرنولد توينبي قائلاً : إن هذه الإصلاحات قد جاءت نتيجة « للمبادرة الفرنسية » . . وليس لضغط (قامت به) أية حركة سياسية منظمة من جانب الأهالي (الجزائريين) . وأضاف توينبي أن فرنسا قد قررت تلك الإصلاحات لكي تظهر « اعترافها بالجميل » للجزائريين[39] .

ولكن تعليق توينبي يحتاج إلى مراجعة على ضوء العلاقات الفرنسية الجزائرية خلال الحرب ، التي سبق لنا الحديث عنها . فالإصلاحات المسماة بقرار 4 و 6 فيفري ، 1919 ، كانت محطة نهائية لرحلة طويلة ابتدأت سنة 1914 . كما كانت نتيجة مباشرة لضغط كبير من الحركة الوطنية ، وهو الضغط الذي بدأ منذ الثمانينات من القرن الماضي .

وفي نفس الوقت كانت هناك ضغوط خارجية على الفرنسيين للإصلاح في الجزائر . من هذه الضغوط الدعاية الألمانية ـ العثمانية ، وثورة العرب في الشرق الأدنى ، والثورة البولشفية ، وانتصار الأقليات المضطهدة في أوروبا ، ووقع مبدأ تقرير المصير ، والأحوال العامة التي خلفتها الحرب . وعندما قامت فرنسا ببعض الإصلاحات المتواضعة في الجزائر ، كانت في الحقيقة تستجيب لكل تلك العوامل ولا سيما للضغط الوطني .

ويبدو أن توينبي قد غض النظر عن الدور الذي لعبته الحركة الوطنية الجزائرية قبل وأثناء الحرب . ولكن على المرء أن يعترف بأن الجزائر ، تحت حكم قانون

---

(39) أرنولد توينبي ، « مدخل الى الشؤون العالمية » ، 1925 ، م 1 (العالم الاسلامي) ، (لندن: طبعة جامعة أكسفورد ، 1927) ، ص 180 ـ 181 .

الأهالي ، ونظام الإحتجاز السري ، والمحاكم الرادعة ، وقانون حالة الطوارىء ، لا يمكن أن يكون لها « حركة سياسية منظمة » فكل منظمة سياسية جديرة بهذا الإسم لا توجد إلا في ظروف ديموقراطية ، أو على الأقل نصف ديموقراطية .

أما في الجزائر فإن هذه الظروف كانت غائبة تماماً تقريباً . فالجماهير قد عبرت عن نفسها في المثل : « هذا زمن الصمت ، فإذا تكلمت الباطل تعيش ، وإذا تكلمت الحق تموت » . وكان الزعماء إما هاجروا وإما طوردوا بنظام الإحتجاز السري ، وإما جندوا في الجيش الفرنسي ، وإما طهروا « بعمليات التنظيف » . فكيف إذن يتوقع المرء وجود « حركة سياسية منظمة » ، أو كيف يستطيع أن يقول ان فرنسا قد جاءت بالإصلاحات تحت « شعور الإعتراف بالجميل » ؟

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه يجب تتبع إصلاحات سنة 1919 في عهد ما قبل وأثناء الحرب . وقد أشرنا من قبل إلى مطالب الجزائريين وإلى وعود الفرنسيين بالإصلاح . ولكن ربط هذه المطالب ، والوعود ، ومشاريع ذر الرماد في العيون بقانون سنة 1919 يبدو ضرورياً . والسبب الرئيسي لإقامة هذا الربط هو الإشارة إلى أن فرنسا كانت ، في كل محاولاتها لإدخال الإصلاحات والتخطيط لها في الجزائر ، تستجيب فقط ، وعادة بعد فوات الأوان ، لضغط الحركة الوطنية الجزائرية[40] .

والحق أن الجزائريين قد بدأوا يطالبون بالإصلاح منذ الثمانينات من القرن الماضي . وقد قامت وفود مختلفة بين سنة 1900 و 1914 بتقديم قوائم من المطالب إلى السلطات الفرنسية في باريس . وكانت هذه المطالب تتضمن تخفيض الضرائب ، وإلغاء قانون الأهالي والمحاكم الرادعة ، وزيادة فعالية التمثيل النيابي ، وتحسين التعليم . ومن بين الزعماء الفرنسيين الذين استقبلوا الوفود الجزائرية خلال سنة 1900 و 1914 جورج كليمانصو ، وريمون بوانكاري . وكلاهما قد تقلد

(40) ان كلمة «الضغط» مستعملة هنا لتدل على أي حركة وطنية (مثلاً : الاحتجاجات ، الثورات ، العرائض ، الوفود ، الحملات الصحفية ، الهجرة ، الخ) . كانت تنذر الفرنسيين باستمرار السخط ضدهم . وقد عبر الجزائريون على هذا الضغط أحياناً بواسطة حركة ايجابية ، ومطالب معينة للاصلاح ، ولكن عبروا عنه أحياناً أخرى بواسطة حركة سلبية كاللجوء الى الثورة ، والارهاب ، والهجرة فلو استعمل البروفيسور توينبي كلمة « الضغط » بدل « حركة سياسية منظمة » ، لوجد أن فرنسا كانت قد أرغمت ارغاماً على اصلاحات سنة 1919 .

مناصب هامة أثناء الفترة التي ندرسها (1914 ـ 1918) . وعندما بدأت الحرب كان بعض الجزائريين ما زال يطالب بالإصلاح من فرنسا ، وبعضهم كان قد إصطدم ، وخاب أمله ، فترك ميدان النشاط ، متوجهاً إما إلى الشرق الأدنى أو إلى فرنسا كمهاجر ، وإما إلى الجبال كثائر . وقد كان النوع الأخير ، كما سبقت الإشارة ، مصدر خطر جعل الفرنسيين يعيشون تحت شبح رعب دائم فترة الحرب .

وأكثر من ذلك ، كان هناك بعض الليبراليين ، والإنسانيين ، والعاطفين على الجزائريين من الفرنسيين الذين كانوا يلحون من أجل الإصلاح في الجزائر خلال سنوات 1900 ـ 1914 . وكان من بين هؤلاء روزي ، وليغ ، وميللي ، وموتي ، وفيري ، وبورد ، وجوريس . وقد أنذر بعضهم بأنه إذا لم تقم فرنسا بإصلاحات فإنها قد تواجه إيرلندا في الجزائر ، أو فإن العنصر المقهور قد ينشد الحكم الذاتي السياسي ، أو أن على فرنسا أن تبقى على 300,000 رجل في الجزائر لكي تمنع الثورة في حالة حرب أوروبية . ومن بين الصحف والجمعيات الفرنسية التي نادت بالإصلاح واستنكرت القوانين الإستثنائية في الجزائر قبل الحرب : « لوطان » و « المجلة الأهلية » التي كان يديرها بول بورداري ، و « جمعية حقوق الإنسان » الخ[41] .

وفي نفس الوقت ، دفع المهاجرون الجزائريون ودعاية حركة الجامعة الإسلامية والدعاية الألمانية ، من سنة 1900 إلى 1914 ، فرنسا إلى الإصلاح في الجزائر . « فالحملة المسمومة » ، كما يسميها طيبال ، التي شنها المهاجرون الجزائريون ومؤيدوهم في الشرق الأدنى ضد فرنسا كان لها وقع كبير على الفرنسيين . كما أن الصحافة العربية ، والزوار ، ودعاة الجامعة الإسلامية ، بالإضافة إلى التطورات السياسية في الشرق الأدنى بعد ثورة تركيا الفتاة والحرب الليبية ، قد اقنعت فرنسا أن الوقت ناضج للإصلاح في الجزائر . وزيادة على ذلك ، فان النشاطات الألمانية المعادية لفرنسا في المغرب ، بل ، بناء على المصادر الفرنسية ، في الجزائر نفسها ، قد جعلت فرنسا تتيقن بأنه ليس لها طريق آخر للمحافظة على عنادها

---

(41) أنظر جوليان ، « أفريقية الشمالية » ، ص 33 ـ 34 . أنظر أيضاً روبير غوتيي « م.د. » (جانفي ، 1964) ، وليس هناك رقم للصفحة .

القديم(42) . فمن الواضح إذن أن فرنسا كانت قد دفعت دفعاً نحو الإصلاح في الجزائر بتيارات مختلفة ، بما في ذلك تيار الوطنية . فالقول بأنها قد جاءت بالإصلاحات تحت « شعور الإعتراف بالجميل » ، كما يقول توينبي ، هو قول يغض النظر عن كل هذه الضغوط التي حدثت قبل الحرب .

وبين سنوات 1914 ـ 1918 أقنعت الجزائر فرنسا أن الإحتفاظ بالحالة الراهنة فيها كان غير ممكن . ومن خلال الشغب السياسي الجزائري والمقاومة المسلحة تعلم بعض الفرنسيين أن عليهم أن يذروا الرماد في عيون الجزائريين وذلك بإجراء بعض الإصلاحات . ورغم أن الخطوات التي اتخذت في هذا الشأن لم تكن حاسمة ، فقد كانت هناك محاولات مختلفة أظهرت أن بعض الفرنسيين ذوي النظر البعيد لم يكونوا غير واعين تماماً لمشاكل الجزائر الراهنة .

وخلال سنة 1914 قامت فرنسا بعدة محاولات للاصلاح في الجزائر . ففي 13 جانفي صدر قرار يوسع دائرة القسم الانتخابي الجزائري(43) . وقد تحقق هذا بتوصيات الحاكم العام ووزير الداخلية . وبناء على هذا القرار ، فإن الحكومة الفرنسية قد عدلت قليلاً المادة السابعة من قانون سنة 1884 الخاص بتمثيل الجزائريين في البلدية ذات الصلاحيات الكاملة .

وقد نص القرار الجديد على زيادة عضوية الجزائريين في مجالس هذه البلديات ، على أن لا تتجاوز الزيادة ثلث كامل الأعضاء ، ولا عدد اثني عشر . وكان على المصوت الجزائري ، أن يكون عمره 25 سنة على الأقل ومقيماً باستمرار في بلديته لمدة ثلاث سنوات ، ومحققاً لواحد من الشروط التالية :

1 ـ أن يكون ملاكاً مقيماً في بلديته سنة على الأقل .

---

(42) بخصوص النشاطات الألمانية في الجزائر ، بالاضافة الى ما أشرنا اليه حتى الآن ، أنظر جان ميليا ، « الجزائر والحرب » (1914 ـ 1918) ، (باريس : بلون ، 1918) ، كما راجعته « ا . ف . » (جانفي ـ مارس ، 1918) ، ص 67 ـ 68 . وقد ناقش ميليا بالتفصيل نشاطات عملاء الألمان والجامعة الاسلامية في الجزائر قبل وخلال الحرب .

(43) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 78 . وقد قال المؤلف بان هذا القانون « هام جداً » ، ولكنه لم يشرح رأيه .

2 ـ أن يكون موظفاً عند الدولة ، أو العمالة ، أو البلدية ، أو متقاعداً.
3 ـ أن يكون عضواً في الغرفة الزراعية أو التجارية .
4 ـ أن يكون حاملاً لشهادة ممنوحة له من معهد تربوي فرنسي .
5 ـ أن يكون حاصلاً على وسام فرنسي .
6 ـ أن يكون حاملاً لجائزة زراعية أو تجارية معدة خاصة للجزائريين[44].

ان نظرة قريبة إلى هذا « الاصلاح » ستظهر أن إلفرنسيين لم يسيروا شوطاً بعيداً :

أولاً : انهم قبل ذلك بأقل من سنة ، قد جددوا قانون الأهالي لمدة سبع سنوات أخرى.

ثانياً : انهم بعد بضعة شهور فقط ، قد أعلنوا قانون حالة الطوارىء والرقابة نتيجة للحرب ووضعوا هذا « الاصلاح » جانباً.

ثالثاً : ان القرار المذكور كان صدمة عنيفة حتى لأعضاء النخبة الجزائريين الذين كانو سيقبلون سنة 1912 ، بالتجنيد الاجباري لو أن فرنسا منحتهم الحقوق السياسية.

رابعاً : ما دام كليمنصو قد وعد بالاصلاح سنة 1908 وبوانكاري سنة 1912 ، فإن قرار سنة 1914 كان استجابة للضغط الوطني وليس « شعوراً بالاعتراف بالجميل » من فرنسا.

خامساً : ان هذا القرار كان متواضعاً إلى درجة أنه لم يغير حالة التمثيل النيابي الضعيفة بالنسبة إلى الجزائريين في المجالس البلدية لا في العدد ولا في الفعالية . فقد كان على الجزائريين أن لا يكونوا أكثر من ثلث المجموع ولا أكثر من اثني عشر عضواً ، رغم أن عدد السكان كان تقريباً عشرة جزائريين إلى واحد فرنسي.

سادساً : ان القسم الانتخابي كان قد خصص لأولئك الجزائريين الذين برهنوا على ولائهم لفرنسا.

---

(44) أنظر ديمونتي ، « الجزائر » في « ا. ف. » (فيفري ، 1914) ، ص 93 . وقد أعلن هذا القانون الرئيس بوانكاري الذي استقبل ، سنة 1912 ، وفداً جزائرياً في باريس مطالباً ، بأشياء مختلفة ، من بينها تمثيل نيابي « جاد » .

سابعاً : ان هذا القرار لم يعط للجزائريين حق المساهمة في انتخاب رؤساء البلديات.

ثامناً : ان القـرار قد حـدد بالبلديـات ذات الصلاحيـات الكاملة حيث كـان الكولون أغلبية.

تاسعاً : ان هذا الاصلاح لم يتناول الا قضية التمثيل النيابي التي لم تكن سوى واحـدة من المطالب التي تقـدم بها الـوطنيون ، ولا سيمـا الضـرائب ، والتعليم ، والتوزيع العادل للميزانية الخ.

ورغم هذه النقائص ، فإن قرار 13 جانفي 1914 قد أظهر أن بعض الفرنسيين كانوا على فهم للوضع وأنهم قد تأكدوا أن الحاجة إلى الاصلاح كانت ملحة.

وخلال نفس السنة ، وبتاريخ 15 جويليه ، خلق مجلس الشيوخ الفرنسي لجنة لدراسة الاصلاحات في الجزائر . فقد صوت هـذا المجلس على لائحة أدت إلى خلق لجنة مكونة من ثمانية عشر عضواً . وكان هدفها البحث عن وسائل الاصلاح في الجزائر من « وجهة نظر ثلاثية ، سياسية ، وإدارية ، واقتصادية » . وكان على اللجنة أيضاً أن تقوم باتصالات مع الحكومة لامكانية الاصلاح على ضوء « الوضع الحاضر في الجزائر »[45].

وفي 15 من جويليه صوت المجلس الوطني الفرنسي على قرار عدل به بعض مظاهر قانون الأهالي . وينص هذا القرار على :

1 ـ إلغاء السلطة الادارية المعروفة باسم الاحتجاز السري وتعويضـه ، بعد خمس سنوات ، بالمراقبة المشددة.

2 ـ استثناء بعض الجزائريين (أولئك الذين خدموا فرنسا في بعض المجالات) من قانون الأهالي.

3 ـ إعـطاء حق المطالبـة باستئنـاف الحكم للجـزائـريين الـذين طبق عليهم هـذا القانون[46].

والحق أن هذه التعديلات لم تحدث أي تغييرات أساسية في قانون الأهالي.

---

(45) «الجزائر» في «ا. ف» (أوت ـ ديسمبر ، 1914) ، ص 347 .

(46) نفس المصدر . أنظر نص هذا القانون في ص 345 ـ 347 . وقد أعلنه الرئيس بوانكاري أيضاً .

فهناك من القيود والشروط ما جعل من المستحيل على المعنيين أن يستفيدوا من هذه التعديلات . ان الغاء الاحتجاز السري لم يكن ليطبق في الحال ، ولكن بعد خمس سنوات ، يعوض بعدها بنظام المراقبة المشددة . وكان هذا يعني أن الاحتجاز السري سيغير اسمه فقط . وأكثر من ذلك ، أن قرار 15 جويليه 1914 لم يضع حداً للسلطة الاستثنائية المعطاة للاداريين الفرنسيين في البلديات المختلطة . أما الضرائب الخاصة بالجزائريين ، ونظام السخرة ، والمحاكم الرادعة فقد بقيت على حالها .

وكل ما يمكن أن يقال عن تعديلات سنة 1914 هو أنها كانت تعبر عن الحيرة الفرنسية ازاء الواقع الجزائري عشية الحرب . فنظراً إلى أن الحرب كانت على بعد عدة أيام فقط ، وأن الجزائريين كانوا يفرون إلى الجبال أو يغادرون وطنهم ، فإن الفرنسيين قد شعروا بأن عليهم أن يفعلوا شيئاً لذر الرماد في العيون ، حتى ولو كان ذلك لا يعني أي شيء في الحقيقة .

ولكن اهتمام الفرنسيين بالاصلاح في الجزائر قد ازداد سنة بعد أخرى . فكلما تضاعف ضغط الوطنيين الجزائريين ، تحركت فرنسا نحو الاصلاح . وخلال سنة 1915 ، حين قام الجزائريون بشغب سياسي ، وبحرب العصابات ، وبالفرار من الجيش الفرنسي ، شرعت فرنسا في دراسة مشاريع اصلاحية لهم في باريس ، بينما كانت تطبق ضدهم ، وبلا حدود ، قانون الأهالي في المستعمرة « الفذة » . وهناك بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائريين ، الذين كانوا خصوصاً مهتمين بالحالة عبر البحر الأبيض المتوسط ، كانوا يضغطون على بلادهم من أجل الاصلاح ، أو ذر الرماد في العيون ، قبل فوات الأوان . ومن هؤلاء أسماء معروفة : كليمنصو ، وجونار ، وليغ ، وفلاندان ، وفيري ، الذين قاموا بهذه الحملة الاصلاحية من مقاعدهم النيابية[47] .

وفي 24 نوفمبر ، تشكلت لجنة جديدة في مجلس الشيوخ لدراسة المشكل الجزائري . وقد ترأس اللجنة السيد مونيس ، وكان نائبا رئيسها السيدين جونار

---

(47) ا. فيري ، الذي كان عندئذ كاتباً مساعداً للشؤون الخارجية ، قد حث على الشروع في الاصلاحات في الجزائر منذ 25 جانفي . أنظر توينبي ، « مدخل » (1937) ، م.ا ، ص 512 .

وموريل ، كما ضمت السيد فلاندان كمقرر لها . وقد شكرت اللجنة الكولون والمخلصين الجزائريين على « غيرتهم الوطنية » . وتعهدت بأن تدخل إلى الجزائر فكرة « العدالة والحرية » . وكان هذا اشارة إلى شكاوي الجزائريين من القوانين الاستثنائية ، ومن عدم تمتعهم بالحقوق السياسية ، وعدم المساواة في الضرائب ، وغياب الاستفادة من فوائد الميزانية . وقد وضعت اللجنة برنامجاً لدراسة المشكل الجزائري احتوى على نقاط تبدو معروفة منذ ما قبل الحرب ، وهي : قانون الأهالي ، والسياسة الاسلامية (السياسة الفرنسية في الجزائر) ، والقضاء الفرنسي ، والقضاء الاسلامي ، الخ[48].

وهناك خطوة أخرى في اتجاه ذر الرماد في العيون (الاصلاح) جاءت هذه المرة من مستوى عال . ففي 25 من نفس الشهر كتب كليمنصو ، الذي كان عندئذ رئيساً للجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب ، رسالة مشتركة إلى بريان ، رئيس الوزراء ، بخصوص الاصلاح في الجزائر ، ويبدو أن الزعماء الفرنسيين قد استيقظوا على أصوات حرب العصابات التي كانت تجري بين الجزائريين والجيش الفرنسي ، فأرادوا أن يقوموا بحركة ما . وهكذا ألح كل من كليمنصو وليغ على اصلاح « الوضع المعنوي ، والمادي » في الجزائر « بدون تأخير »[49].

وفي رسالتهما إلى بريان أوضح كليمنصو، الذي وعد الجزائريين بالإصلاح منذ سنة 1908، وليغ، الذي كان من قادة الفرنسيين العاطفين على الجزائريين، أنهما يريان : « الساعة الحاضرة هي أفضل ساعة » للاصلاحات في الجزائر ، وقد أخبرا رئيس الوزراء بأن هذه الاصلاحات كانت قد درست منذ عدة سنوات وأنها كانت « ناضجة » للتطبيق.

وقد أوصت رسالة كليمنصو وليغ بما يلي :

1 ـ تجنيس الجزائريين دون مطالبتهم بالتخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين ، كما كان مشروطاً حتى ذلك الوقت بناء على قانون التجنيس (سانا توس

---

(48) « الجزائر » في « ا.ف. » (أكتوبر ـ ديسمبر ، 1915) ، ص 330 ـ 331 .

(49) أنظر « الجزائر » في نفس المصدر ، (جانفي ـ فيفري ، 1916) ، ص 43 . ان نص هذه الرسالة ـ البرنامج في ص 43 ـ 44 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 28 .

كونسولت) الصادر سنة 1865 .

2 ـ توسيع القسم الانتخابي الجزائري وضمان حرية التعبير.

3 ـ تمثيل الجزائريين في مجلس خاص ينشأ لهذا الغرض في باريس .

4 ـ تطبيق قواعد جديدة لتمثيل الجزائريين في المجالس المحلية ، ولتوزيع ومقارنة الميزانية .

5 ـ إعطاء الجزائريين حق المساهمة في انتخاب رؤساء المجالس في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة .

6 ـ اصلاح الضريبة المعروفة باسم الضريبة العربية .

7 ـ اعطاء ضمانات جديدة لاحترام الممتلكات الجزائرية .

8 ـ تحديد سياسة ليبرالية واضحة تأخذ في الاعتبار عواطف الجزائريين ، ومصالح الفرنسيين(50) .

ان هذا البرنامج كان خطوة جديدة للسياسة الفرنسية في الجزائر . فقد اعترف لا بضرورة الاصلاح فقط ، بل احتوى على مواد متعددة كانت تعتبر في ذلك الوقت ليبرالية جداً أو متطرفة . ومن أجل ذلك ، فإن الفرنسيين لم يوافقوا على معظم النقط التي احتوى عليها برنامج سنة 1915 ، « أفضل ساعة » ، ولكن سنة 1944 ، عندما فات الأوان.

لقد حاول برنامج كليمنصو ـ ليغ أن يعدل قانون الجنسية لسنة 1865 ، الذي وضع الجزائريين في حالة رعايا . وحاول كذلك أن يزيد تمثيل الجزائريين ، بما في ذلك اسماع صوتهم في مجلس باريس المقترح ، وهي خطوة قصرت قليلاً عن التمثيل في المجلس الوطني الفرنسي ، التي طالما طالب بها النخبة الجزائريون . ونادى بنهاية الضريبة العربية الخاصة ، واحترام الممتلكات ، وحق الجزائريين في المشاركة في انتخاب رؤساء المجالس البلدية . ولكن الفرنسيين لم يبادروا باقتراح هذا البرنامج ، فإن نقاطه الرئيسية كانت هي مطالب الجزائريين من خلال عدد من الوفود ، والعرائض ، والاحتجاجات ، منذ الثمانينات من القرن الماضي .

وإذا كان برنامج كليمنصو ـ ليغ قد أرضى بعض أعضاء النخبة الجزائرية ، فإنه

---

(50) « الجزائر » في « ا. ف. » (جانفي ـ فيفري ، 1916) ، النص في ص 43 ـ 44 .

كان بعيداً عن إرضاء مطالب الوطنيين . إن أولئك الجزائريين الذين رفعوا السلاح ضد فرنسا في الجبال ، أو كانوا يستعملون الأدب الشعبي ، أو كانوا يحدثون الشعب ضدها في أوروبا وفي الشرق الأدنى لم يكن ليرضيهم أي برنامج لا ينص على جلاء الفرنسيين عن الجزائر . فقد عارضوا التجنيس والتجنيد الإجباري ، وطالبوا لا بتعديل قانون الأهالي وقانون التجنيس ، ولكن بإلغائهما تماماً . كان أولئك الجزائريون يريدون أن تحتفظ بلادهم بشخصيتها وثقافتها في وجه موجة الإندماج العارمة .

ورغم أن برنامج كليمنصو ـ ليغ كان خطوة صائبة ، فإنه فشل في التعرف الكامل على الواقع الجزائري . فهو لم يقدم أي حل بخصوص السلطات الإستثنائية المعطاة للإداريين المحليين ، ولا سيما سلطة الإحتجاز السري ومنع الجزائريين من حق إستئناف الأحكام أمام محاكم القانون العام . وقد أهمل أيضاً مشكلة التعليم . ولكن أهم حقيقة عن هذا البرنامج هي فشله في الإعتراف بالجنسية الجزائرية في وقت كانت فيه القومية ، في أوروبا وآسيا ، تمثل قوة كبيرة وراء الإضطرابات العالمية .

كان مؤلفا هذا البرنامج يأملان منه وقف أي محاولة من الجزائريين في إرغام فرنسا على الإعتراف بحقوقهم الوطنية . وإن المحتوى الدعائي لهذا البرنامج واضح من أنه قد شكر بكل كرم « الجنود الشجعان » الجزائريين الذين أراقوا دمائهم « ببطولة » من أجل « انتصار أشرف المبادىء على الإطلاق »[51] . إن هذا البرنامج كان قد كتب عندما كانت فرنسا في الجزائر « تنظف » وتطهر منازل وأقارب أولئك « الجنود الشجعان » ، بإسم شعار تطهير البلاد من « قطاع الطرق » .

فإذا كان في إستطاعة الإنسان أن يفسر هذه « المبادىء » بأنها كانت تعني الحرية والديموقراطية ، فماذا إذن تلقى الجزائريون مقابل خدمتهم « لأشرف المبادىء على الإطلاق » ؟ إن الجواب على هذا يجده المرء في تناقضات السياسة الفرنسية . ذلك ان فرنسا نظرياً كانت تتحدث وتعد بالمشاريع الإصلاحية للجزائريين في باريس ، أما عملياً فقد كانت تقوم باضطهاد وعنصرية ضدهم في الجزائر .

وفي جوابه على رسالة كليمنصو وليغ قال رئيس الوزراء بريان ، بأنه كان «على

---

(51) نفس المصدر .

اتفاق تام » معهما في الإقتراحات التي تضمنتها . وأضاف بأن لديه مشروعاً خاصاً فيما يتعلق بالتمثيل « المباشر » للجزائريين . ووعد زميليه بأن برنامجهما سيوضع أمام السلطات المعنية(52) . ويبدو أن بريان كان يعني بالتمثيل « المباشر » أن الجزائريين سيمثلون داخل المجلس الوطني الفرنسي أو في مجلس خاص ينشأ في باريس لهذا الغرض . وقد أيد هذا الرأي أيضاً جونار ، الحاكم العام السابق والمستقبل في الجزائر .

إن جونار ، الذي كان عندئذ عضواً في مجلس الشيوخ الفرنسي ونائب رئيس اللجنة الجديدة المنبثقة عن مجلس الشيوخ (24 نوفمبر ، 1915) لدراسة الأوضاع في الجزائر ، قد كان أيضاً في صالح إصلاحات عاجلة وليبرالية في الجزائر . ففي مقال له نشر في جريدة « بيتي جورنال » بعنوان « من أجل الجزائر » حث على أن الجزائر يجب أن تحتل مكاناً بارزاً في مجلس الشيوخ ووعد بأن اللجنة المنبثقة عنه ستبذل جهدها لتحقيق « سياسة أكثر تحرراً وأكثر ثقة » في الجزائر . ففي مقال له نشر في جريدة « بيتي جورنال » بعنوان « من أجل الجزائر » حث على أن الجزائر يجب أن تحتل مكاناً بارزاً في مجلس الشيوخ ووعد بأن اللجنة المنبثقة عنه ستبذل جهدها لتحقيق « سياسة أكثر تحرراً وأكثر ثقة » في الجزائر . وقد إستعمل عبارات مماثلة لعبارات كليمنصو وليغ ، بما في ذلك المناداة « بإصلاحات معنوية ومادية » لأن الجزائر قد قدمت آلافاً من المحاربين الأبطال من أجل « نصرة أشرف المبادىء على الإطلاق » واستعمل جونار تعبيراً مشابهاً عندما ألح على أن ذلك الوقت كان « أفضل ساعة » للبرهنة للجزائريين على « اعترافنا بالجميل » وعلى « إهتمامنا بهم »(53) .

أما بخصوص الحقوق المدنية والسياسية ، فإن جونار قد أوضح أنه يقف في صالح عمل جديد. فقد أيد دخول الجزائريين إلى الجنسية الفرنسية وحصولهم تدريجياً

(52) « الجزائر » في « أ. ف. » (جانفي - فيفري ، 1916) ص 43 - 44 . وبناء على قول توينبي فان بريان قد قدم لائحة الى المجلس الوطني (10 ديسمبر ، 1915) بخصوص زيادة عدد الأعضاء الجزائريين في اللجنة الوزارية المختلطة للشؤون الاسلامية (الجزائرية) ، أنظر رأيه في « مدخل » (1937) ، م 1 ، ص 513 .

(53) جونار ، « من أجل الجزائر » في « ا. ف. » (أكتوبر - ديسمبر ، 1915)، ص 267 - 268 .

على الحقوق السياسية . ولكن هذا الإصلاح ، بناء على رأيه ، لن يكون بلا حدود . فهو يرى أن الجزائريين لا يستطيعون أن يحققوا أملهم في التحرر الكامل إلا بالتوسع التدريجي لقسمهم الإنتخابي الخاص،وزيادة على ذلك أصر جونار على أن نظام القسمين الإنتخابيين « سيبقى منفصلاً » . وقد إقترح الحاكم العام السابق ، الذي سيعينه كليمنصو في جانفي 1918 في نفس المنصب من جديد ، تمثيل الجزائريين في المجالس المحلية وفي المجلس الأعلى المقترح بباريس . كما كان في صالح مشاركة الجزائريين في القرارات الخاصة بالميزانية . وفي نفس الوقت إقترح جونار ، مثل زملائه ، إلغاء الضريبة العربية المعروفة ، واحترام الأملاك الجزائرية[54] .

ورغم تفهمهم ورأيهم الشجاع ، فإن هؤلاء الزعماء الفرنسيين لم ينجحوا في تنفيذ برنامجهم . فقد فشلوا في تطبيقه « باستعجال » ، حسب تعبير جونار ، أو « بدون تأخير » ، بناء على إقتراح كليمنصو وليغ . وأمام خصومة الجزائريين المستمرة وحرب العصابات التي كانوا يمارسونها ، فإن هذا الفشل سيكون له عواقب خطيرة بالنسبة للفرنسيين . فالسخط الجزائري الذي عبر عن نفسه سنة 1916 قد أقنع ، بلا شك ، أولئك الزعماء الفرنسيين أنهم كانوا على حق عندما نادوا ببعض الإصلاح ، أو ذر الرماد في العيون ، سنة 1915 ، « بدون تأخير » .

ولكن ما يبدو ، حتى الآن ، غير قابل للتفسير ، هو موقف كليمنصو شخصياً نحو هذا المشكل . فعندما كان خارج الحكم ، سنة 1915 ، حث بريان باعتباره رئيساً للحكومة ، على تطبيق إصلاحاته « الناضجة » في الجزائر حالاً ، لكن حين أخذ السلطة بين يديه ، لم يؤخر فقط إصلاحاته ، ولكن فشل أيضاً في جعلها « ليبرالية » كما كانت سنة 1915 . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجزائر قد عانت ، تحت حكومة كليمنصو ، من إضطهاد لم تشهد مثله منذ السبعينات من القرن الماضي .

وإذا كانت سنة 1915 قد شهدت عدة محاولات للإصلاح ، أو لذر الرماد في العيون ، في باريس ، فإن سنة 1916 قد شهدت قمعاً شديداً في الجزائر . فتحت الحكومة التي أصبح يرأسها كليمنصو، وتحت لوتو كممثل له في الجزائر ، إستعمل

---

(54) نفس المصدر .

الفرنسيون عنفاً شديداً ضد الجزائريين . ففي إجراءاتهم ضد الثوار وضد المناطق المعنية لم يظهر الفرنسيون أي شعور « بالإعتراف بالجميل » إلى « الجنود الشجعان » الجزائريين الذين كانوا من المفروض يحاربون من أجل أشرف جميع المبادىء ، بل إن الفرنسيين قد تخلوا حتى عن إقتناعهم بأن إصلاحات ليبرالية كانت ضرورية ومستعجلة . وقد أشرنا إلى أن الحكومة الفرنسية ، بعد ثورة الأوراس في خريف 1916 ، قد بعثت بلجنة تحقيق إلى الجزائر . وقد حاولت هذه اللجنة ، التي كانت تضم عدداً من النواب الفرنسيين ، أن تضع حداً لعمليات « التنظيف » العسكرية ، ولكن ما كادت تعود إلى باريس حتى استأنفت السلطات الفرنسية في الجزائر تلك العمليات .

ولكن اللجنة المذكورة قد أوصت في تقريرها أيضاً بإصلاحات « عاجلة » . وتشمل هذه الإصلاحات النقط الآتية :

1 ـ دمج الجزائر في فرنسا مالياً.

2 ـ إلغاء المحاكم الرادعة .

3 ـ إعادة العمل بنظام « الجماعة » في القرى .

4 ـ انتخاب « بدل تعيين » الممثلين الجزائريين ، ومشاركتهم في انتخاب رؤساء المجالس البلدية[55] .

والحق أن هذه الإقتراحات كانت أكثر واقعية من إقتراحات كليمنصو وزملائه . وقد لاحظ أعضاء اللجنة عياناً مصادر الإضطراب في الجزائر وأوصوا بإزالة أسبابها . وبينما كان كليمنصو يحاول ببرنامجه أن يدخل بعض الإصلاحات الجديدة لذر الرماد في العيون ، كان تقرير اللجنة يحاول أولاً وضع حد لأسباب مظالم الجزائريين .

غير أن إقتراحات اللجنة ، مثل برنامج كليمنصو ، لم تنفذ أبداً أثناء الحرب . وقد أشرنا إلى أن الدعاية الفرنسية قد إستمرت في نسبة كل الإضطرابات في الجزائر إلى عملاء « من الخارج » ، ولا سيما الألمان وأنصار حركة الجامعة الإسلامية . وقد واصلت السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر عملياتها التنظيفية ومحاكماتها « الصورية » طيلة سنة 1917 ، حتى لقد شعر الجنود أنفسهم بأنهم قد تجاوزوا

---

(55) أجرون ، « سياسة ليبرالية جزائرية » في «ر. هـ . م .ك .» (1959) ، ص 139 .

الحدود . وفي بعض المناطق تعطلت الحياة الإقتصادية مدة سنة على الأقل .

ومن الطبيعي أن يعترف المرء بالصعوبات التي كانت تواجه الفرنسيين لتحقيق التنسيق بين الشؤون السياسية والعسكرية زمن الحرب ، ولكن هذه الحقيقة يجب أن لا تحول نظر الباحث عن النقطة الأساسية المدروسة : وهي رد الفعل الفرنسي على الحركة الوطنية الجزائرية . وهكذا ، فإنه حتى سنة 1918 دفن الفرنسيون المناداة بإصلاحات عاجلة في الجزائر ، وانتصروا لفكرة الإضطهاد مكانها . وكان على الحركة الوطنية الجزائرية أن تعاني ، بين سنوات 1916 ، 1918 ، إمتحاناً آخر قاسياً تحت الحكم الفرنسي .

وفي 30 جانفي ، سنة 1918 عين جونار من جديد حاكماً عاماً على الجزائر ، وفي نفس التاريخ أعلن كليمنصو أن وزارته قد قررت أن تضع موضع التنفيذ ، و « بدون تأخير جديد » ، وعد الشرف الذي كان قد أعطى للجزائريين[56] . وقد كرر جونار أيضاً نفس الوعود التي كان قد وعد بها بالجزائر ، منذ سنة 1915 . والحق أن إدارته قد جعلت المجلس المالي يصوت على لائحة يلغي بها الضريبة العربية البغيضة[57] .

وخلال نفس السنة (1918) قدمت الحكومة الفرنسية إلى المجلس الوطني مشروعاً بخصوص الإصلاحات في الجزائر . ففي أول ماي صاغ النائب ماريس موتي هذا المشروع في شكل قانون يتعلق بالحقوق المدنية والسياسية للجزائريين . وقد كان مشروعه في الواقع مبنياً على إقتراحات كليمنصو ، وليغ ، وجونار ، التي تقدموا بها سنة 1915 .

وبعد بعض التعديلات أصبح مشروع موتي قانوناً سنة 1919 . وسوف ندرس هذا القانون في قسم منفصل . غير أن كلا من الوطنيين الجزائريين والكولون لم يرضوا بمشروع موتي . فقد عارضه الأولون لأنه تجاهل وجود الجنسية الجزائرية . وفي (مجلة المغرب) (3 ـ 4 مارس ـ أبريل ، 1918) الصادرة بجنيف ، إحتج الجزائريون على المشروع لأنه لم يكن في مستوى المساهمة الكبيرة التي قدمها

---

(56) توينبي ، « مدخل » (1937) ، م1 ، 513 .

(57) « الجزائر » « ا. ف. » (جويليه ـ أوت ، 1918) ، ص 227 .

الجزائريون لقضية الحلفاء[58] . وخلال نفس السنة شاركوا المغاربة الآخرين في إرسال مذكرة إلى الرئيس ويلسون مطالبين بتطبيق مبادىء تقرير المصير على شمال أفريقيا .

وفي نفس الوقت عارض الكولون المشروع بكل شدة. فقد وجهوا ضده حملة عنيفة في صحافتهم بواسطة ممثليهم في المجلس الوطني الفرنسي . كانوا يخشون أن يصبح الجزائريون أغلبية في المجالس المحلية ، فيخسرون به إمتيازاتهم . كما أنهم كانوا متخوفين من أن المشروع سيعني في النهاية الإعتراف بجنسية جزائرية . وقد هددوا بأنهم إذا لم يكن في إستطاعة فرنسا أن تحميهم ، فإنهم سيتبعون طريقهم الخاص في الجزائر[59] . وسوف يظهرون عداوة أكثر وضوحاً بعد سنة 1919 حين وافق المجلس الوطني الفرنسي رسمياً على بعض الإصلاحات الخاصة بالجزائر .

وبين سنوات 1914 ـ 1918 كان هناك إتجاه واقعي في فرنسا قاد إلى عدة محاولات للإصلاح في الجزائر . وإيماناً بوعودهم غير المحققة قبل الحرب ، وتفطناً منهم لإزدياد الحالة سوءاً في الجزائر خلال الحرب ، كان بعض الزعماء الفرنسيين يخشون خطر الإنفجار هناك في أي وقت . ولذلك قاموا بعدة خطوات في الإتجاه الصحيح لإيجاد حل للمشكل الجزائري .

ولكن محاولاتهم لم تحقق أهدافها . فقد كان ينقص أولئك الزعماء إتخاذ القرار السريع والفهم الكامل للقضايا المطروحة . وبدل أن تشجع ثورة 1917 أولئك الزعماء على وضع برنامجهم موضع التنفيذ ، « بدون تأخير » ، أدت بهم على ما يبدو ، إلى وضعه في ثلاجة . وقد شهدت سنة 1918 احياء لفكرة الإصلاح في الجزائر . فهناك مشروع حكومي وضع أمام المشرعين الذين وافقوا عليه أخيراً ، بعد مناقشات حادة ، في أوائل سنة 1919 . دعنا الآن ندرس هذا القانون ، الذي كان من بين أكثر القوانين إثارة للجدل في التاريخ الجزائري .

---

(58) أجرون ، « سياسة ليبرالية جزائرية » في «ر.م.ك.» (1959) ، ص 142 .
(59) نفس المصدر . أنظر أيضاً أرون ، ص 62 .

4. الاصلاحات غير المرغوب فيها :

كل من يدرس تاريخ الجزائر تحت فرنسا سيتفق على أن قانون فيفري ، سنة 1919 قد مثل حجر الزاوية في العلاقات بين البلدين ، فلأول مرة ، منذ قانون الجنسية (سانتوس كونسلت) في 14 جويلية ، سنة 1865 ، كان هناك مشروع يناقش ويحدد وضع الجزائريين بالنسبة الى الجنسية الفرنسية ، وحق الترشح والتصويت ، وغير ذلك من القضايا المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية . فبفضل نضال الحركة الوطنية الجزائرية وضغوط بعض الفرنسيين ذوي الضمائر الحية ، جاء قانون سنة 1919 أخيراً ببعض المبادىء الخاصة بالعلاقات الجديدة بين الشعبين.

ولكن المرء لا يستطيع أن يتفهم بوضوح مفعول هذا القانون إلا إذا ربطه بسابقه المسمى سانتوس كونسلت . فهذا الأخير قد ميز بين نوعين من الجزائريين : الرعايا ، وهم أولئك الذين حافظوا على حالتهم الشخصية كمسلمين وبقوا يعيشون بالقانون الاسلامي ، ومواطنون ، وهم أولئك الذين تخلوا عن حالتهم الشخصية ورضوا بالدخول تحت أحكام القانون الفرنسي . ولم يكن للجزائريين أصحاب القانون الأول أية حقوق مدنية وسياسية لأنهم كانوا رعايا ، أما الجزائريون أصحاب القسم الثاني فقد كانوا يتمتعون بكل الحقوق لأنهم كانوا مواطنين فرنسيين . ونظراً للشرط (التخلي عن الحالة الشخصية كمسلمين) المربوط بالحصول على الجنسية الفرنسية ، رفض الجزائريون أن يصبحوا مواطنين ورضوا بأن يبقوا رعايا . غير أنهم ، ولا سيما جماعة النخبة ، قد استمروا في مطالبتهم ، منذ أواخر القرن الماضي ، بالحقوق السياسية . ولكن قانون الجنسية ، 1865 ، قد منعهم من الحصول على ما كانوا يريدون . ومن الحقائق الهامة عن قانون سنة 1919 ، أنه أكد هذا الحاجز بين الجزائريين والفرنسيين.

يحمل أحد أقسام قانون ، 1919 ، عنوان : « عن كيفية حصول أهالي الجزائر على الجنسية الفرنسية » . وبناء عليه فإن الجزائري يستطيع أن يرقى الى حالة مواطن فرنسي عند طلبه واذا وفر الشروط التالية :

1 ـ كان عمره 25 سنة .

2 ـ كان غير متزوج .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

3 ـ لم يكن قد حكم عليه بجريمة ، أو جرد من حقوقه السياسية[60] . أو كان قد اتهم بعمل ما ضد فرنسا .
4 ـ وأن يكون قد أقام في بلديته (الكومون) سنتين على الأقل .

ولكي يجعل من الصعب على الجزائري الحصول على الجنسية الفرنسية ، وضع أمامه القانون عقبات لا يمكن اجتيازها تقريباً . فإن عليه أن يوفر على الأقل شرطاً واحداً من الشروط الآتية :

1 ـ الخدمة في الجيش والبحرية الفرنسية مع شهادة حسن السلوك من سلطاته العسكرية .
2 ـ معرفة القراءة والكتابة باللغة الفرنسية .
3 ـ ملكية بعض الممتلكات في احدى المدن أو الأرياف .
4 ـ التوظف لدى السلطات الفرنسية أو قبض أجرة التقاعد منها .
5 ـ الانتخاب لشغل منصب عام .
6 ـ الحصول على وسام فرنسي .
7 ـ أو كان عمره 21 سنة ومولوداً لأب جزائري متجنس بالجنسية الفرنسية[61] .

وهناك قسم آخر في هذا القانون عنوانه : « النظام السياسي للأهالي الجزائريين المسلمين الذين ليسوا مواطنين فرنسيين » . وقد نص هذا على أن الجزائريين الذين لا يريدون أن يصبحوا مواطنين فرنسيين سيمثلهم في كل المجالس الاستشارية في الجزائر أعضاء منتخبون . كما نص على أن المستشارين الجزائريين في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة سيكون لهم حق المشاركة في انتخاب رؤساء المجالس البلدية ومساعديهم . ومن جهة أخرى فإن الجزائريين الذين يعينهم الفرنسيون (القياد ، والأغوات ، والباشغوات . الخ) قد أصبحوا ممنوعين من تولي منصب انتخابي بالاضافة الى مركزهم المعين . وبناء على القانون الجديد ، فإن الرعايا

---

(60) يبدو أن هذا الشرط لا معنى له ، مادام لم يكن للجزائريين أية حقوق سياسية .

(61) أنظر بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 97 ـ 98. النص الكامل للقانون في نفس المصدر، و«لوطان» (11 فيفري ، 1919) ، ص 2 . ونظراً الى أن هذا القانون لم يزد على تأكيد قانون 1865 ، فقد نص على أن الجزائريين قد يحصلون على الجنسية الفرنسية طبقاً للقانونين كليهما .

الجزائريين (الذين لم يتجنسوا بالجنسية الفرنسية) سيسمح لهم بتقلد بعض الوظائف تحت شروط محددة .

أما بخصوص قضية التمثيل النيابي ، فإن قانون 1919 ، لم يأت بأي تغيير هام . وكل ما نص عليه هو توسيع القسم الانتخابي الخاص بالأهالي بحيث أصبح عـدد المنتخبين حوالي 400,000 بـدل حوالي 15,000 . ونص على أن عـدد الجزائريين في المجالس العمالية يجب أن لا يتجاوز ربع جملة الأعضاء في كـل مجلس (أما الأرباع الثلاثة الأخرى فهي فرنسية) . أما المصوتون الجزائريون فقد اشترط فيهم أن يكون عمرهم أكثر من 21 سنة ، وأن لا يكونوا قد حكم ضـدهم القانون الفرنسي ، وأن يكونوا قد أقاموا في بلدياتهم سنتين متواصلتين على الأقل .

وبـالاضافـة الى ذلك ، فـإن قانـون 1919 ، قد جعـل من الضروري على المصوتين الجزائريين أن يحققوا أحد الشروط التالية :

1 ـ الخدمة في الجيش أو البحرية الفرنسية .
2 ـ حيازة الملكية .
3 ـ التوظف لدى الدولة أو العمالة أو البلدية أو تقاضي أجرة التقاعد من السلطات الفرنسية .
4 ـ الحصول على شهادة منحت له من أحد المعاهد الفرنسية .
5 ـ حمل وسام فرنسي .
6 ـ أو نيل جائزة من الفرنسيين .

وبناء على هذا القانون ، فإن القائمة الانتخابية الجزائرية ستضعها وتراجعها لجنة مكونة من رئيس البلدية أو المتصرف الاداري (حسب نوعية البلدية)، ومن مُوفَدٍ إداريٍّ يعينه عامل العمالة ، ومن جزائري يختاره المجلس البلدي (في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة) أو تختاره اللجنة البلديـة (في البلديات المختلطة)[62].

---

(62) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 102 . ان تاريخ هذا القانون هـ و3 و7 فيفري ، 1919 . وفي سنة 1914 أعلن الفرنسيون اصلاحاً مشابهاً زاد من عدد المصوتين في الجزائر ، ولكن لم يوضع أبداً موضع التنفيذ ، ولعل ذلك كان بسبب الحرب .

والحق أن قانون ، 1919 ، كان غير ديموقراطي في الروح وفي الحرف . فقد أبقى على نظام القسمين الانتخابيين منفصلين : جزائري (أهلي) وفرنسي . فالأعضاء الجزائريون ، رغم أنهم يمثلون الأغلبية ، كانوا يمثلون بربع جملة الأعضاء . وبالاضافة الى ذلك ، فان الانتخاب في البلديات المختلطة كان بطريقة غير مباشرة بينما كان في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة بطريقة مباشرة .

ومن جهة أخرى فإن هذا التصويت كان خاصاً بالعمالات الثلاث المدنية في الشمال . أما منطقة الجنوب ، التي كانت ما تزال تحت الحكم العسكري ، فإن هذا القانون لم يشملها . ثم أنه قد فرق بين الرعايا الفرنسيين (الجزائريين) وبين المواطنين (الفرنسيين) ، بنفس الطريقة التي فرق بينهم بها قانون الجنسية لسنة 1865 . وقد تجاهل الحركة الوطنية الجزائرية وأكد وضع الجزائر باعتبارها مستعمرة « فذة » . كما أنه فشل في وضع حد لقانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية . وأخيراً أهمل قضية التمثيل الجزائري في المجلس الوطني الفرنسي أو في مجلس خاص ينشأ في باريس حيث يستطيع الجزائريون أن يعبروا عن مطالبهم وأمانيهم ، وهو المطلب الذي طالما نادى به الجزائريون قبل الحرب واقترحه كليمانصو ، وليغ ، وجونار ، وغيرهم خلال الحرب[63] .

والواقع أنه كان لقانون 1919 ، محاسن وعيوب . فالمظاهر الايجابية فيه هي توسيع القسم الانتخابي الجزائري ، واسترجاع العمل بنظام « الجماعة » ، وحق الجزائريين في المشاركة في انتخاب رؤساء البلديات . ولكن هذه المجالس كانت غير حاسمة وقليلة الى درجة أنها لم ترض لا مطالب الجزائريين قبل الحرب ، ولا مشاريع الزعماء الفرنسيين خلال الحرب ، ولا تضحيات الجزائريين من أجل « أشرف جميع المبادىء » ، ولا الأوضاع العالمية الجديدة ، التي خلقت نتيجة للحرب الكبرى . ولهذه الأسباب ، فإن ما يسمى « باصلاحات » 1919 يمكن أن

---

(63) أنظر عباس ، ص 115 ـ 116 . أنظر أيضاً مجلة « فرنسا الحرة » ، م 5 ، رقم 8 (15 أبريل ، 1944) ، ص 292 . وهناك قرار آخر تاريخه 6 فيفري ، 1919 قد أعاد نظام « الجماعة » التقليدي الى القرى المحلية . وبخصوص هذا القرار الأخير ، أنظر بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 103 ـ 106 . ويقول توينبي عن هذا النظام (الجماعة) أنه يشكل البذور الأولى للحكم الذاتي . أنظر كتابه « مدخل » (1925) ، م 1 ص 181 .

نوصف بمضادة الديموقراطية ، ومضادة الوطنية ، وغير واقعية .

ومن الواجب أن نقول أن هناك من اعتبر هذا القانون اصلاحاً هاماً ، كما أن هناك من اعتبره عملاً ضئيلاً . فالكاتب بيرنار ، الذي كان أحد المؤيدين البارزين للحكم الفرنسي في الجزائر ، قد قال ان : « أهم الاجراءات التي كان مقدراً لها أن تربط الأهالي (الجزائريين) شيئاً فشيئاً بعملنا الحضاري (في الجزائر) وأن تساعد على تربيتهم السياسيّة هو قانون 1919[64] . وقد برهن على رأيه بأن هذا القانون قد وسع القسم الانتخابي الجزائري من حوالي 15,000 الى حوالي 400,000 . أما شارل أندري جوليان الاشتراكي الفرنسي فقد اعتبر قانون 1919 ، أهم تشريع قبل دستور سنة 1947 ، ولكنه انتقده لوضع العراقيل أمام حصول الجزائريين على الجنسية الفرنسية[65] . وأما المؤرخ البريطاني توينبي فقد قال عنه بأنه تشريع « محافظ » ، وعزا اصداره إلى مبادرة الفرنسيين « لشعورهم بالإعتراف بالجميل » للجزائريين[66] .

ولكن كتاباً آخرين قد انتقدوا هذا التشريع ، بعضهم بشدة ، وبعضهم باعتدال ، فأندري نوشي ، وهو فرنسي يساري ، قال أن قانون 1919 قد منع الجزائريين من الاستفادة من الحقوق السياسية للأسباب الآتية :

1 - ان قانون الأهالي لم يلغ ، وبالتالي تستطيع الادارة الفرنسية أن تستعمله ضد الجزائريين في أي وقت .

2 - ان الشرط القائل بوجوب كون الناخب مقيماً سنتين على الأقل في بلديته قد منع أولئك الجزائريين الذين تنقلوا داخل البلاد أو هاجروا الى فرنسا من التصويت .

3 - أنه كان في صالح أولئك الجزائريين الذين كانت لهم عواطف قوية نحو الفرنسيين ، ولا سيما الجنود السابقون والاقطاعيون .

4 - ان المدعي العام للجمهورية الفرنسية أو الحاكم العام الفرنسي للجزائر يستطيع ان يؤثر على قرار المحاكم المدنية ، التي كانت مكلفة بالنظر في مطالب

---

(64) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 78 .

(65) جوليان « أفريقية الشمالية » ، ص 34 .

(66) توينبي ، « مدخل » (1925) ، م 1 180 - 181 .

الجزائريين للحصول على الجنسية الفرنسية[67] .

وهناك انتقاد مشابه وجهه الكاتب روبير غوتيي ، الذي كان أيضاً يسارياً فرنسياً . فقد استنكر قانون 1919 لاشتراطه على الجزائريين التخلي عن أحوالهم الشخصية الاسلامية قبل أن يسمح لهم بالحصول على الجنسية الفرنسية . وبناء على رأي غوتيي فان هذا القانون قد أبقى على قانون الأهالي وغيره من الاجراءات الاستثنائية ، وأبقى على القسمين الانتخابيين منفصلين ، ومنع الجزائريين من التمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي ، أما في المجالس المحلية فان تمثيل الجزائريين قد بقي بدون فعالية . كما استنكره لأنه لم ينص على انشاء أية سلطة قضائية تؤكد مراقبة باريس للسلطات المحلية في الجزائر . وبالإضافة الى ذلك ، فان غويتي قد قال ان قانون 1919 ، لم يوجد أية طريقة عملية لدمج الجزائر في فرنسا . وأعلن هذا الكاتب ان بعض الاصلاحات كانت قد ألغيت حالاً وأن الانتخابات التي جرت في الجزائر طبقاً للاجراءات الجديدة لم تسمح للجزائريين بممارسة ديموقراطية حقيقية[68] .

ولم يكن هذا القانون محل نقد من الفرنسيين فقط ، بل من الجزائريين أيضاً . فعندما كان لا يزال مشروعاً ، سنة 1918 ، رفضه الجزائريون على أساس أنه كان غير كاف ، ولجأوا الى المبادىء التي أعلنها الرئيس ويلسون آنذاك . وقد قال السيد فرحات عباس عنه بأنه كان اصلاحاً متواضعاً ومهلهلاً . ووجه اليه اللوم لابقائه الجزائريين في حالة رعايا واستمرار القوانين منفصلة بالنسبة للمجموعتين الجزائرية والفرنسية . وبناء على رأي عباس فان هذا القانون لم يقدم أي حل لقضية الجنسية[69] .

وهناك رأي نموذجي حول هذا الموضوع عبرت عنه « الاقدام » ، الجريدة الوطنية التي كانت عندئذ حديثة الصدور . ففي احدى افتتاحياتها يقرأ المرء ما يلي : « رغم أن الاصلاحات قد خطت خطوة أمامية بخصوص المشكل الأهالي ، فان

---

(67) نوشي ، ص 54 .

(68) ر . غوتيي ، « م.د. » (جانفي ، 1954) ، ليس هناك رقم الصفحة .

(69) عباس ، ص 115 ـ 116 .

العمل الذي وضعت خطوطه العريضة قبل الحرب ما زال باقياً على حاله»[70]. وقد كتب الأمير خالد ، الذي كان من قدماء المحاربين والذي سندرس نشاطاته بعناية ، مقالاً في جريدة « الأخبار » التي توجهها الحكومة الفرنسية عارض فيه فكرة التجنيس كما عبر عنها قانون 1919 . وعارض خالد أيضاً مبدأ الاندماج الذي كان ينادي به أعضاء النخبة والذي أعطته الاصلاحات الجديدة بعض التسهيلات[71] .

أما أعضاء النخبة فقد شعروا بخيبة أمل بخصوص قانون ، 1919 . فقد كانوا يأملون أنهم بخدمتهم في الجيش الفرنسي وبالتعبير عن ولائهم لفرنسا ، فان الأخيرة « ستعوضهم » بكرم فتمنحهم كامل الحقوق السياسية والمدنية كمواطنين فرنسيين ، ولكن داخل اطار القانون الاسلامي. غير أن هذا الأمل كان بلا جدوى . فبعد تضحيات كبيرة من أعضاء النخبة أثناء الحرب ، وبعد عزلة واهانة من المجموعتين (الجزائرية والفرنسية) تجاهلت فرنسا مطلب أعضاء النخبة للتجنيس في شكل جماعي.

وبناء على قول بعض الكتاب الفرنسيين ، فان الجماهير الجزائرية كانت راضية بالاصلاحات ، ولكن باعتدال . أما الاقطاعيون الجزائريون وأصحاب الأملاك الآخرون فقد أظهروا قلقاً من امكانية الشغب الذي قد تحدثه هذه الاصلاحات بين الجزائريين والفرنسيين . ولكي يناضلوا من أجل حقوق سياسية أكثر ، أخفى بعض الجزائريين أنفسهم في الحركة الشيوعية الثالثة ، واختفى آخرون في حركة القومية العربية ، وأخيراً لجأ آخرون الى مبادىء الغرب الديموقراطية[72] .

واذا كان أغلب الجزائريين قد وجدوا هذه الاصلاحات ضئيلة جداً ، فان

---

(70) « الاقدام » (7 مارس ، 1919) ، كما أشار إليها أجرون في « سياسة ليبرالية جزائرية » في « ر.هـ.م.ك. » ، (1959) ، ص 146 . وكان مقدراً (للاقدام) أن تصبح الجريدة ـ البرنامج للحركة الوطنية من خلال العشرينات . وكانت قد أنشئت سنة 1919 نتيجة دمج الصحيفتين الوطنيتين : « الإسلام » ، و « الرشيدي » .

(71) أجرون ، نفس المصدر .

(72) أنظر هـ . دي لامارتينيز ، « قبل زيارة الرئيس : المشكل الأهلي في الجزائر بعد الحرب » في « ر.د.م. » (مارس ـ أبريل ، 1922) ، ص 335 ـ 336 . أنظر أيضاً طيبال في « أ.ف.س. » (سبتمبر ، 1921) ، ص 205 .

الكولون قد وجدوها شيئاً عظيماً لا طاقة لهم بقبوله . والحق أنهم قد عارضوا هذا التشريع الجديد قبل ميلاده . وقد سخروا لمهاجمته صحافتهم ، ونوابهم ، وغير ذلك من وسائل الضغط . كما أنهم قد أنذروا بأن ذلك التشريع قد يقود الى « حرب أهلية » بين المجموعتين الفرنسية والجزائرية[73] . ان النص على مشاركة الجزائريين في انتخاب رؤساء المجالس البلدية قد أثار غضب الكولون[74] . وقد اعتقدوا أن الاصلاحات الجديدة قد تعني في النهاية انتصار الحركة الوطنية الجزائرية ، ومعنى ذلك ضياع امتيازاتهم . ولهذا السبب اعتبروا الاصلاحات الجديدة أمراً « خطيراً[75] » .

وفي مؤتمرهم المنعقد سنة 1920 طالب رؤساء البلديات (الذين كانوا جميعاً فرنسيين) في الجزائر « بالعودة الى سياسة جزائرية أكثر عقلانية » تأخذ في الاعتبار « أمن الأهالي في المناطق الداخلية » . كما طالب رؤساء البلديات بتدعيم السلطة النظامية للمسؤولين الاداريين في البلديات المختلطة ، وبتقوية نظام الاحتجاز السري ، وبوقف حق مشاركة الجزائريين في انتخاب رؤساء البلديات . أما ممثلو الكولون في المجلس المالي فقد احتجوا على قانون 1919 ، ونادوا بالعودة الى قوانين ما قبل سنة 1914 . وقد نجح الكولون في طلبهم ، أوت 1920 ، عندما جددت السلطات الفرنسية قانون الأهالي ودعمته[76] .

وهكذا فانه يبدو أن الجميع لم يكونوا يرغبون في اصلاحات سنة 1919 . فالسلطات الفرنسية التي كانت قد وعدت وصاغت المشاريع الاصلاحية منذ سنة 1900 كانت تفعل ذلك لتهدئة الحركة الوطنية الجزائرية في أوقات كانت عصيبة بالنسبة لفرنسا . وعندما لم تكن هناك حاجة لهذه التهدئة ، أي عندما كان في استطاعة فرنسا أن تجند جندها ، وشرطتها ، والكولون ، وقانون الأهالي ضد الحركة الوطنية ، برد اهتمام الفرنسيين بالاصلاح في الجزائر . وخلال سنوات 1914 ـ

(73) أجرون ، « ر.هـ.م.ك. » (1959)، ص 147 .
(74) جوليان ، « أفريقية الشمالية »، ص 35 .
(75) بيرنار ، « أفريقيا الشمالية » ص 78 .
(76) نوشي ، ص 55 ـ 56 . وقد بقي هذا القانون سارياً إلى سنة 1944 .

1918 ، كانت المشاريع أو الاصلاحات الفرنسية كريمة وواعدة . ولكن عندما عاد السلام الى فرنسا وتحقق النصر (الذي دفع الجزائريون من أجله تضحيات غالية) ، أصبحت الاصلاحات الفرنسية أكثر بخلاً ومخيبة للآمال .

وفي نفس الوقت لم يرد الجزائريون هذه الاصلاحات . فقد كانوا يعتبرون الاجراءات الجديدة عقبات فرنسية أخرى في طريق التحرير . حتى جماعة النخبة الذين لم يطالبوا بالوطنية والاستقلال ولكن بالتجنيس والاندماج ، لم يريدوا هذه الاصلاحات ، لأنها لم تكن في مستوى التضحيات التي بذلوها ولا في مستوى الأمل الذي وضعوه في فرنسا .

ومن جهة أخرى فإن الكولون لم يريدوا هذه الاصلاحات لأنها كانت ، في نظرهم خطيرة ووخيمة العواقب . فليس من العجب اذن أن نعرف أن كل واحد من هذه الجماعات قد بذل جهده خلال العشرينات من هذا القرن لكي يقضي على هذه الاصلاحات .

والجزائر ، كبقية البلدان المتأثرة بالحرب ، قد خرجت من الحرب بأفكار ونظرات جديدة . ورغم أن الحرب قد أضعفتها طبيعياً للخسارة في الأرواح ، والبعثرة المادية ، والمعاناة ، فانها قد منحتها أوضاعاً وتجارب جديدة قد لا يكون في استطاعتها أن تظفر بها بدون المشاركة في الحرب . وهكذا ظهر زعماء جدد من قدماء المحاربين ، وبث أفكار جديدية نتيجة ازدياد الصراع على المسرح العالمي ، ولا سيما بعد الثورة البولشيفية ، وانتصار القومية في وسط أوروبا ، وحوادث الشرق الأدنى .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل السادس

آفاق غير محدودة

1919 - 1930

1. المستعمرة « الهادئة » :

ليس هناك اتفاق بين المعاصرين على وصف الحالة العامة في الجزائر بعد الحرب . فقد شهد بعض الكتاب ، سنة 1925 ، ان الجزائر كانت « نقطة هادئة وسط منطقة هائجة »[1] .

وأنذر آخرون بأنها ، بالرغم من أنها تبدو في حالة ركود في أعين العابرين فان « هناك تحركات في الخفاء قد تسبب قريباً تلاطمات على السطح[2] » . وبالاضافة الى ذلك ، فانهم يشيرون الى أن هناك تخوفات من أن الجزائر قد تقع تحت طائلة الاتجاهات الوطنية أو البولشيفية ، أو حركة الجامعة الاسلامية . ولكن بعد بضع سنوات صرف السيد و . ويليامز ، الذي كان مراسلاً لجريدة تعتبر من أحسن الجرائد استقاء للأخبار في ذلك الوقت ، تلك « التخوفات » قائلاً : « بالرغم من التقارير المنذرة التي يرسلها بعض المراسلين الصحفيين عن توقع حدوث الاضطرابات . . فان الجزائر هادئة[3] » .

ولكن عند النظر من بعيد ، نجد أن عقد العشرينات ، كان من أكثر العقود حسماً في تاريخ الجزائر . فرغم أن الحرب لم تحضر أي حل للمشاكل الجزائرية ، فان أحداث ونتائج الحرب قد أثرت على كل مظهر من مظاهر الحياة تقريباً في الجزائر . وهكذا فان وقع الحرب على هذه البلاد كان بلا حدود .

---

(1) توينبي ، « مدخل » (1925) ، م 1 ، ص 181 .

(2) « التايمز » (لندن) ، (9 أبريل ، 1920) ، ص 9 .

(3) « النيويورك تايمس » (19 أبريل ، 1925) القسم الثاني ، ص 3 .

أ - وقع الحرب :

يقول أحد الكتاب الفرنسيين : « ان الجزائريين كانوا واعين للفكرة التي كانت تدور من أجلها الحرب » . ويعترف هذا الكاتب أنهم كانوا يعتقدون أن الحرب كانت من أجل أهداف أوروبية امبريالية[4] . وبتعبير آخر ، فقد فهم الجزائريون أن أهداف الحرب لم تكن من أجل مبادىء انسانية وديموقراطية ، كما كانت الدعاية الفرنسية خلال الحرب تدعى . ولكن على المرء أن يتذكر أن ليس كل الجزائريين كانوا قادرين على تعميق أهداف الحرب . فأكثر الفلاحين والدوائر الدينية لم تكن تستطيع أن تعطي تفسيراً عقلياً لأسباب ونتائج الحرب . وقد يكون بعضهم قد اعتقد أن الحرب كانت من أجل أسباب خرافية أو دينية ، ولكن نادراً ما اعتقدوا أنها كانت من أجل أبعاد سياسية واقتصادية . ولم يكن هناك الا قلة من الجزائريين ، مثل بعض أعضاء النخبة المستقلين ، والعلماء المتنورين ، والعمال والجنود المجربين ، كانت لديهم فكرة واضحة عن الأسباب الحقيقية للحرب .

وقد أشرنا من قبل الى أن عدد الجزائريين الذين شاركوا في الحرب كان هائلاً . وسواء كانوا جنوداً على الجبهة الأوروبية ، أو عمالاً في المصانع الفرنسية ، أو أقرباء في الوطن ، فان الجزائريين كانوا مندمجين في الحرب ومتأثرين بها بعمق . ونتيجة لذلك شاعت بينهم أفكار جديدة ، وتعلموا لغات مختلفة ، ومارسوا عادات لم تكن معروفة لديهم ، واستفادوا من تجارب أخرى ، بل ان فكرة الحياة نفسها كانت تمر بمرحلة تغيير أساسي عندهم . واذا كانت هذه الدروس الجديدة لم تعرف قيمتها خلال الحرب ، فانها ستكون ذات قيمة كبيرة في العشرينات من هذا القرن .

وأكثر الكتاب متفقون على أن الجزائريين قد تعلموا من الحرب دروساً لا تقدر بثمن ، ومنذ سنة 1918 قال كاتب فرنسي : ان الجزائريين قد جربوا الحياة الأوروبية ولامست عقولهم أفكار لم تتسرب أبداً الى مخ أجدادهم . وكان من رأي هذا الكاتب أن عودة هؤلاء الجزائريين « الجدد » الى قراهم قد تكون عملاً دعائياً لصالح فرنسا . ولكن نفس الكاتب قد عبر عن خوفه من أن هذه القرى قد تصبح أيضاً مراكز عداوة

---

(4) ديبارمي ، « النهضة » في « أ. ف. » (جويليه ، 1933) ، ص 387 .

ضد فرنسا[5] .

ومن الأفكار الهامة التي تعلمها الجزائريون من الحرب فكرة المساواة . فقد كانوا قد سمعوا عن هذا المبدأ ولكن لم يمارسوه أبداً . وسواء كانوا جنوداً أو عمالاً ، فإنهم لم يتمتعوا فقط ببعض المساواة مع الفرنسيين ، ولكنهم أيضاً رأوا تطبيق مبدأ المساواة بين المواطنين الفرنسيين الأوروبيين أنفسهم . وهذه الحقيقة ستجعلهم كثيري النقد للطريقة الفرنسية في الجزائر عندما يعودون إلى وطنهم[6] . وبالإضافة إلى ذلك فإن الحرب ، بناء على أحد الكتاب الجزائريين ، قد جعلتهم يصبحون واعين أنهم قد ساهموا في إنتصار فرنسا والحلفاء[7] .

ولكن بعض الكتاب يعتقدون أن الحرب لم تغير أي شيء في الجزائر . وهم لا ينفون أن العقد الذي تلا الحرب كان هاماً للبلاد . غير أنهم يعزون التطورات الجديدة هناك لا إلى الحرب نفسها ولكن إلى نتائجها . وهم يشيرون إلى تأثير الأحزاب الفرنسية الثورية واتحادات العمال ، ورحلات الجزائريين إلى فرنسا ، والإهتمام بالحقوق السياسية والإستقلال ـ كل هذه جعلت الجزائريين نشطين وواعين سياسياً . كما أن الأحداث في الشرق الأدنى ، ونقط الرئيس ويلسون الأربع عشرة ، وانتصار القومية في أوروبا ، والثورة البولشفية ، غالباً ما أشار إليها هؤلاء الكتاب على أن لها تأثيراً عميقاً على الجزائريين بعد الحرب[8] .

وليست أحداث الشرق الأدنى ، وحدها ، بل أيضاً الأفكار الديموقراطية التي عبر عنها الرئيس ويلسون قد أثرت على الجزائريين . ففي بلاد لا تكاد تعرف الحقوق السياسية ، وحيث تسود القوانين الإستثنائية ، وحيث العواطف الوطنية مضطهدة ، كانت أفكار ويلسون ، ولا سيما فكرة تقرير المصير ، قد جذبت الجزائريين على ما

---

(5) ميرسي ، « ر.ب. » (1 جويليه ، 1918) ، ص 215 ، 217 .

(6) أنظر أوبيرمان ، « المشكل الجزائري » ، كما أشار إليه أرون ، ص 62 . أنظر أيضاً عباس . ص 114.

(7) عباس ، ص 113 .

(8) جوليان ، « أفريقية الشمالية » ، ص 108 . بيرنار « أفريقية الشمالية » ، ص 77 ـ 79 . عباس ، ص 117 . أما مؤلفو البيان الجزائري سنة 1943 فقد أعطوا أهمية كبيرة إلى أحداث الشرق الأدنى في الجزائر ، وخصوصاً إلى ثورة كمال أتاتورك . أنظر ساراسان ، ص 185 .

يبدو بدرجة كبيرة ، وقد سبقت الإشارة إلى أن الجزائريين وخصوصاً الطبقة المثقفة ، قد رفضوا إصلاح سنة 1919 وطالبوا بحق تقرير المصير بإسم مبادىء ويلسون[9] .

وبناء على مصدر فرنسي مطلع ، فإن هؤلاء الفتيان الجزائريين ، الذين كانوا يحلمون بالإستقلال ، قد وقعوا على عريضة موجهة إلى ويلسون نادوا فيها بالحكم الذاتي للجزائر وطرد الفرنسيين[10] .

وفي سنة 1934 قالت جريدة « الأمة » ، اللسان الرسمي للحزب الوطني « نجم أفريقية الشمالية » ، مجيبة على الإتهام القائل بأن الحزب كان شيوعياً : « إننا نقولها بصراحة ، إننا وطنيون . . وبإسم مبدأ تقرير المصير للشعوب » كما عبر عنه ويلسون ، « نطالب بالحرية والإستقلال لوطننا »[11] . وهناك كاتب فرنسي آخر قد قال بأنه « نتيجة للمبادىء الويلسونية ، حدث نوع من « الإنفجار . . للآمال الوطنية » في الجزائر ، سنة 1919 ، أثناء الإنتخابات المحلية . وعندما خابت الآمال ، انضم بعض الفتيان الجزائريين إلى الحركة الشيوعية العالمية[12] .

ولكن الثورة الروسية وإنشاء الحركة الشيوعية العالمية الثالثة لم تكن أقل أهمية في نظر الجزائريين من أحداث الشرق الأدنى ، وثورة الريف ، وأفكار ويلسون . وقد أشرنا من قبل إلى أن بعض الجزائريين كانوا يفكرون في استعمال طرق مشابهة لطريقة الثورة الروسية . وسوف نرى ، في الفصل الخاص بالحركة الشيوعية العالمية الثالثة والحركة الوطنية الجزائرية ، كيف تطورت العلاقات بين الحركتين . والهدف من ذكر هذه الأحداث هنا هو التأكيد على أهمية وقعها على الجزائر .

ومن أهم نتائج الحرب زيادة عدد البروليتاريا الجزائرية . فقبل الحرب كان أغلب السكان فلاحين بلا أرض . ولم تغير الحرب كثيراً من حجم هذه الطبقة ،

---

(9) طيبال ، « أ.ف.س. » (سبتمبر ، 1921) ، ص 205 .

(10) ديبون ، « الإضطرابات في أفريقية الشمالية » (ر.ب.ب.) ، م 164 (1935) ، ص 76 . أنظر بهذا الشأن مقالنا « عريضة الأمير خالد إلى الرئيس ويلسون » في (مجلة التاريخ) ، 1981 ، ص 5 ـ 19 .

(11) أشار إلى ذلك ج . مينو ، « الإنتخابات الأهلية » ، في « أ.ف. » (فيفري 1935)، ص 81 من «الأمة» (أكتوبر ، 1934).

(12) طيبال ، «أ.ف.س.» (سبتمبر ، 1921) ، ص 204 ـ 205 . بخصوص تأثير البولشفية .

ولكنها زادت من حجم البروليتاريا . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى عدد الجزائريين الذين شاركوا في الحرب ، ولكن من المهم أن نتذكر أن أحد الكتاب يؤكد أن أكثر من نصف مليون جندي وعامل جزائري قد ساهموا في هذه الحرب[13] .

ومهما كان العدد فإن هؤلاء الجزائريين قد تعلموا ، بعد سراحهم من الجندية ، بعض الحرف والتجارب . فكانوا مستعدين للعمل كعمال موانىء ، وعمال يدويين في الصناعات المحلية ، وعمال زراعيين ، وموظفين في القطارات والبريد ، وخدام منازل عند الكولون[14] . ولكن يبدو من الخطأ أن نقول إن الحرب قد خلقت طبقة « جديدة » . وما دام للجزائر بروليتاريا قبل الحرب ، فإنه يبدو أن كل ما فعلته الحرب نفسها هو زيادة اليقظة السياسية ونشاط الضمير الوطني لهذه الطبقة .

إن الوثائق الفرنسية المعاصرة كانت غالباً سريعة في نسبة معظم النشاطات الوطنية في الجزائر إلى الأجانب . وفي سنة 1922 قال أحد الكتاب الفرنسيين أنه عندما وقع وقف إطلاق النار تسرب السياسيون الفرنسيون من الأحزاب اليسارية إلى الجزائر لكي يبثوا أفكارهم . وبناء على هذا الكاتب ، فإن الجماهير الجزائرية كانت غير مهتمة ، ولكن أولئك السياسيين قد نجحوا في الحصول على تأييد بعض إخوانهم في الدين[15] . ومن الممكن القول أن هؤلاء السياسيين كانوا يضمون بعض الجزائريين الذين كانوا أعضاء في الأحزاب السياسية الفرنسية ذات الإتجاهات المختلفة . وقد كان من المتوقع أيضاً أن بلاداً كالجزائر ، حيث يعيش أكثر من نصف مليون فرنسي ، تنتشر فيها الأفكار إلى بقية السكان دون حاجة إلى مبشرين من باريس .

وبالنسبة للفرنسيين ، فإن التأثيرات الأجنبية لا تعني فقط الويلسونية ، والشيوعية ، وفكرة الجامعة الإسلامية ، ولكن أيضاً الأفكار الألمانية ، وكل شيء ، وكل بلاد كانت غير صديقة لفرنسا . لذلك فإن الفرنسيين لم يلوموا فقط موسكو ،

---

(13) عباس ، ص 113 . وقد قال سينيوري أن الجزائر قد ساهمت في الحرب بـ250,000 رجل . أنظر (ر.ب.ب.)، م 98 (1919) ، ص 287 .

(14) ساراسان ، ص 123 ـ 124 .

(15) مارتينيز ، « ر.د.م. » م 8 (مارس ـ أبريل ، 1922) ، ص 331 .

والقاهرة ، وأنقرة ، ولكن برلين أيضاً ، على النشاطات المعادية لبلادهم في الجزائر . وقد كانت « جمعية الشعوب » ، التي كانت تضم بعض الجزائريين والتي كان مركزها في برلين ، في قائمة الفرنسيين السوداء ، سنة 1922 . كما أن المجلة المسماة « الشرق الجديد » الألمانية قد اتهمت من الفرنسيين بالتحامل ضد فرنسا ، والدعاية للقومية الألمانية، وللإشتراكية في الجزائر . وقد عبر كاتب فرنسي في مطلع سنة 1922 ، عن عجبه من أن المرء يجد في كل مكان في الجزائر بطاقات الإنضمام إلى لجان هدفها إدخال الإشتراكية وخدمة آمال الوطنية الجزائرية[16] .

إن وقع الحرب قد خلف تركة جعلت بعض الكتاب يصفون عقد العشرينات بأنه عهد النهضة في الجزائر . فديبارمي يسميه بعهد « الإندفاع الوطني ، والإتجاه نحو الثورة السياسية ، و . . الإصلاح الديني والأخلاقي ، بالإضافة إلى النهضة الأدبية والعلمية » . وبناء على رأي هذا الملاحظ الفرنسي ، فإن بعض الجزائريين المعتدلين كانوا لا يأملون إلا في إنتعاش البلاد وإدخالها في العالم المتحضر . ولكن آخرين قد نظروا إلى هذا العهد على أنه نوع من « بعث المغرب العربي ، وافتكاك أرض الإسلام (من الفرنسيين) ، وإسترجاع سلطة المسلمين القديمة »[17] .

وهكذا فإن الحرب ، والأحداث التي تلتها قد فتحت آفاقاً غير محدودة أمام الجزائريين ، وأدخلتهم إلى عهد جديد . وأن تقدير قيمة وقع الحرب على الجزائر سيظهر في الفصول القادمة حين ندرس الفترة كلها . ولكن إحدى نتائج الحرب الهامة هي ظهور الأحزاب السياسية الجزائرية .

ب ـ ظهور الأحزاب السياسية :

كل الإتجاهات السياسية والإجتماعية التي سيطرت على الحياة الجزائرية حتى حرب الإستقلال كانت تتفاعل خلال العشرينات . وكانت هذه تشمل الإتجاه المحافظ ، الذي كان في ذلك الوقت تحت سيطرة بعض الإقطاعيين الجزائريين

---

(16) نفس المصدر ، ص 659 ـ 660 . وقد تحدث بيرنار أيضاً عن تأثير برلين ، موسكو ، والعالم الإسلامي في الجزائر . أنظر كتابه « أفريقية الشمالية » ، ص 77 ـ 79 .

(17) ديبارمي ، « بيانات » في « أ. ف. » (ديسمبر ، 1933) ، ص 780.

الذين إستفادوا من الحكم الفرنسي وخدموا فرنسا بإخلاص كبير ، والإتجاه المعتدل الـذي كان تحت سيـطرة قسم من جماعـة النخبة ، بعـد إنقسامهم سنـة 1919 ، والإتجاه الليبرالي الذي كان يضم القسم الباقي من جماعة النخبة ، والإتجاه الثوري الذي كان قد تطور عموماً من الأخير ، ثم الإتجاه الإسلامي ـ العربي الذي كان تحت سيطرة العلماء . ولكي نأتي على جميع الإتجاهات يجب ذكر الإتجاهين الشيوعي والإشتراكي أيضاً . وسوف تخصص دراسة مفصلة لمعظم هذه الإتجاهات .

من أهم نتائج إصلاح سنة 1919 إنقسام جماعة النخبة . وقد كانت القضية التي أدت إلى هذا الإنقسام هي الإنـدماج ، أي الخـلاف حول مـا إذا كان يجب المناداة بضم الجزائر إلى فرنسا أو الإحتفاظ بها كياناً منفصلاً . ولكن يجب أن نتذكر أن الرأي الأخير لم يكن يعني فصل الجزائر عن فرنسا . فالقضية ببساطة كانت تتمثل في هل يجب التعجيل بالإندماج كوسيلة للمساواة مع الفرنسيين ، أو يجب الإصرار على المساواة معهم ولكن داخل الأحوال الشخصية للجزائريين .

وقد وقع الإنقسام في قيادة جماعة النخبة سنة 1919 أثناء الإنتخابات البلدية في العاصمة ، التي جرت كنتيجة للإصلاحات الجديدة . وكان الزعيمان المتنافسان هما الدكتور ابن التهامي الذي كان على رأس الإندماجيين ، والأمير خالد ، حفيد الأمير عبد القادر ، الذي كان على رأس المنادين بالمساواة داخل الأحوال الشخصية للجزائريين .

ورغم أن الفكرة الشائعة هي أن الأحزاب السياسية الجزائرية ، بإستثناء نجم أفريقيا الشمالية ، لم تظهر إلا خلال الثلاثينات ، فإن الأوروبيين المعـاصرين قـد لاحظوا وجود هذه الأحزاب الوطنية منذ سنة 1919 . ولم تحن سنة 1922 حتى كان هؤلاء الأوروبيون يتحدثون عن الأحزاب السياسية في الجزائر . وقد قسمها أوغسطين بيرنار كمـا يلي : الحزب المحـافظ ، الذي كـان مكونـاً من العائـلات الإقطاعيـة القديمة ، والحزب الليبرالي ، الذي كان يقوده جماعة النخبة الإندماجية ، والحزب الوطني ، الذي كان يسيطر عليه جماعة النخبة المنادون بالمساواة مع فرنسا[18] .

وهناك كاتب فرنسي آخر قد تحدث أيضاً عن ثلاثة أحزاب سياسية ، ولكنـه

(18) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 78 ـ 79 .

إستعمل طريقة مختلفة في تقسيمها ، وبناء على هذا الكاتب ، فقد كان هناك حزب الفتيان الجزائريين (جماعة الخبة) الذين كانوا ينادون بالإندماج ، والحزب الوطني ـ الإسلامي الذي كان يقوده أولئك الذين ينادون بالمساواة ، ولكن داخل إطار الأحوال الشخصية الجزائرية الإسلامية ، وأخيراً حزب أصحاب « العمائم القديسة » من « بني وي ـ وي » ، أو الإقطاعيين[19] .

أما الكاتب الانكليزي وورثام ، فقد أخبر سنة 1922 ، عن وجود حزبين سياسيين جزائريين . الأول هو « حزب الفتيان الجزائريين المعتدلين » والثاني هو « الحزب الجديد » الذي استوحى برنامجه من القرآن ومن الفكرة الاشتراكية[20] . وقد قال وورثام بأن الحزب الأخير هو « بشكل قاطع حزب وطني »[21] . ولكن المؤلف لم يتحدث عن حزب المحافظين أو الاقطاعيين الذي غالباً ما أشير اليه[22] .

والحق أن الانتخابات البلدية التي جرت في العاصمة في ديسمبر 1919 كانت نقطة انطلاق جديدة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية فقد أدت من ناحية ، الى تقسيم النخبة الى اندماجيين ومعادين للاندماج . وأدت ، من ناحية أخرى ، الى ظهور زعيم جديد ، هو الأمير خالد ، الذي ساعدته سمعته وماضي أسرته على الانتصار في هذه الانتخابات . كما أدت الى الكشف على حقيقة الرأي العام الجزائري الذي كان ضد الاندماج . وهكذا فبينما حصلت قائمة الأمير خالد ـ الحاج موسى على 940 صوتاً ، حصلت قائمة الدكتور ابن التهامي ـ ولد عيسى على 340 صوتاً فقط[23] .

---

(19) مارتينيز ، « ر.د.م. » ، م 8 (مارس ـ أبريل ، 1922) ، ص 347 .

(20) وورثام ، « مشاكل فرنسا في أفريقية الشمالية » في مجلة « الأطلنطي الشهري » ، م 130 (فيفري ، 1922) ، ص 556 .

(21) وورثام ، « فرنسا والإسلام » في مجلة « العصر الحي » (27 ماي ، 1922) ، ص 519 .

(22) حين درسنا عهد النهضة (1900 ـ 1914) لاحظنا أن إتجاهات ما بعد الحرب كانت كلها تقريباً تعتمل عندئذ . ويبدو أن الفرق الوحيد هو أن إتجاهات ما قبل الحرب لم تأخذ شكل الأحزاب السياسية ، بل كانت منقسمة إلى كتلتين كبيرتين : المحافظين والنخبة . فالحرب إذن لم تزد على أن قوت وصقلت هذه الإتجاهات وفتحت أمامها آفاقاً جديدة وأعطتها قيادة أكثر تجربة .

(23) أجرون ، « سياسة جزائرية » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 6 (أبريل ـ جوان ، 1959) ، ص 147 .

ومن جهة أخرى ، فإن هذه الانتخابات قد أعطت الجزائريين فرصة ثمينة لاستعمال صندوق الانتخاب كوسيلة للتعبير . ورغم أن اصلاحات 1919 ، قد قيدت القسم الانتخابي الجزائري بعدد قليل من المصوتين ، فإن أولئك الذين شاركوا في الانتخابات قد برهنوا على قدرتهم الاختيارية بفوزهم في الانتخابات . وقد كتب وورثام بخصوص هذه القضية قائلاً : أن الجزائريين قد برهنوا على أنهم « مناورون شجعان في صناديق الانتخابات وأنهم متخصصون في فن الديماغوجية »[24].

ومن بين الأحزاب السياسية التي ظهرت نتيجة لانتخابات سنة 1919 البلدية ، والتي جذبت اليها أنظار المعاصرين ، هو الحزب المعادي للاندماج ، الذي سنطلق عليه من الآن (حزب الاصلاح) ، والذي كان تحت قيادة الأمير خالد[25] . وقد وصف وورثام هذا الحزب بأنه « حزب وطني قطعاً » وأن « عداءه القاطع للفرنسيين هو نفس عداء الوطنيين المصريين للبريطانيين »[26].

وبناء على رأي هذا الكاتب الانكليزي ، فإن حزب الاصلاح كان تحت قيادة اقطاعيين جزائريين أغنياء ، وأعضاء الطبقة الوسطى المثقفة ، والمحامين ، والأطباء ، وبعض الموظفين في الإدارة الفرنسية . ويقول أن الجماهير كانت تتبع هذا الحزب . ذلك أن الاصلاحيين قد وجهوا نداءهم الى كل الطبقات الجزائرية ووعدوا بخدمة مصالحها الوطنية والاقتصادية وقد أصبحوا أقوياء الى درجة أن مرشحيهم قد هزموا الليبراليين في عمالتي قسنطينة والجزائر العاصمة[27].

ورغم أن برنامج هذا الحزب سيدرس بالتفصيل في مناسبة أخرى ، فإنه يبدو

ويقول المؤلف أن الكولون كانوا فرحين برؤية أعداء الإندماج يفوزون ، لأنهم كانوا ضد مطلب جماعة النخبة في تجنيس الجزائريين .

(24) وورثام ، « مشاكل فرنسا » في « الأطلنطي الشهري » ، م 130 (فيفري ، 1922) ، ص 557.

(25) أن العناوين غالباً خداعة . ولكن للتوضيح فإن الإتجاه المطالب بالإندماج مع فرنسا بواسطة تجنيس الجزائريين نطلق عليه إسم « الليبرالي » ، بينما نطلق على ذلك الذي يعارض الإندماج ويقف في صالح مساواة الجزائريين داخل إطار أحوالهم كمسلمين مع الفرنسيين اسم « الإصلاحي » . وقد أشرنا من قبل إلى أن بعض الكتاب يطلق على هذا الأخير (الحزب الوطني ، الإسلامي - الإشتراكي) ، الخ .

(26) وورثام ، « فرنسا والإسلام » في « العصر الحي » (27 ماي ، 1922) ، ص 519 .

(27) نفس المصدر .

من المستحسن اعطاء عرض مختصر عن محتواه هنا . ومنذ سنة 1922 زعم وورثام أن برنامج الحزب الاصلاحي كان مستوحي من القرآن ومبنياً على الاشتراكية. وقال أن هدف هذا الحزب هو إنْهاء الحكم الفرنسي في الجزائر(28).

وعندما ينظر المرء عن قرب إلى برنامج هذا الحزب ، فإنه سيجده ليس اشتراكياً وليس اسلامياً ، وليس انفصالياً . فالحزب لم يزد على أن ينادي بمساواة الجزائريين ، داخل اطار أحوالهم الشخصية كمسلمين ، مع الفرنسيين . وكان برنامجه يحتوي على النقط التالية :

1 ـ ادماج الجزائريين بدون شرط .
2 ـ الغاء السلطات التأديبية لحكام البلديات المختلطة .
3 ـ المساواة أمام القانون .
4 ـ تحقيق التمثيل النيابي للجزائريين غير المتجنسين .
5 ـ مساواة الجزائريين مع الفرنسيين في الألقاب والترقيات والوظائف الخ(29).

أما الحزب الثاني الذي ولد نتيجة لانتخابات 1919 فهو الحزب الليبرالي ، الذي كان يتوالاه أعضاء النخبة الذين كانوا في صالح الاندماج عن طريق تجنيس الجزائريين بقطع النظر عن قضية الدين . وكان المتحدث باسم هذا الحزب ، مدة من الوقت ، هو الدكتور ابن التهامي ، الذي سبقت الاشارة الى دوره في عهد النهضة . وقد خسر هذا الحزب الانتخابات بسبب القضية الدينية . وعزا مارتينيير هزيمة الحزب الى تفكير زعمائه الليبرالي الذي فصلهم عن الجماهير . وقال أيضاً أن الظروف الاسلامية قد عملت لصالح خصوم هذا الحزب(30).

إن الليبراليين كانوا في صالح التعاون مع فرنسا ، مؤمنين بالثقافة الفرنسية ،

---

(28) وورثام ، « مشاكل فرنسا » في « الأطلنطي الشهري » ، م 130 (فيفري ، 1922) ص 556 ـ 557 .

(29) مارتينيز ، « ر.د.م. » (مارس ـ أبريل ، 1922)، ص 348 . وقد أضاف وورثام أنه « لأول مرة » وجد الفرنسيون أنفسهم معارضين « بحزب سياسي وطني اللون قطعاً ، مع موقف واضح في عدائه للفرنسيين » . أنظر وورثام ، « مشاكل فرنسا » في « الأطلنطي الشهري » م 130 « فيفري ، 1922 » ص 556 ـ 557 .

(30) مارتينيز ، «ر.د.م.» ، م 8 (مارس ـ أبريل) 1922 ، ص 347 ـ 348 .

ومعبرين عن رأيهم اللائكي نحو الدين ، والحق أن برنامجهم لم يكن يختلف من حيث المبدأ عن برنامج الاصلاحيين ، فحتى حوالي سنة 1924 كانت القضية الوحيدة التي قسمتهم هي هل يجب الاصرار على حل المشكل الديني بالنظر الى تجنيس الجزائريين ؟ ومنذئذ ، أصبح الاصلاحيون تدريجياً انفصاليين وأصبح الليبراليون تدريجياً اصلاحيين . وسوف نرى أن هذا التحول قد حتمه رفض فرنسا ارضاء مطالب الحزب الاصلاحي .

والحزب الثالث هو الحزب المحافظ ، الذي كان قد سمي أحياناً حزب الاقطاعيين أو « بني وي - وي » ، وكان زعماء هذا الحزب هم رؤساء الأسر الكبيرة ، والمحاربون القدماء ، وبعض المرابطين ، وقليل من الاقطاعيين الذين كانوا محظوظين بحكم خدمتهم لفرنسا . فقد كانت هذه تختارهم وتعينهم في مراكز مختلفة كمساعدين لبعض الاداريين الفرنسيين ، أو « ممثلين نيابيين » في مختلف المجالس المحلية ، أو مستشارين للجان فرنسية مختلفة مهتمة بالمشاكل الجزائرية . وكانوا عادة يختارون لولائهم المطلق لفرنسا ، ولجهلهم بأحوال العالم ، ولعدم اهتمامهم بالمشاكل المحلية . ولكن اختيارهم كان على حساب الأهالي .

ولم يكن للمحافظين برنامج خاص بهم لأنهم لم يكونوا يملكون زمام المبادرة . لقد كانوا مستعدين أن يقولوا « نعم » أو « لا » فقط كلما طلب الفرنسيون منهم ذلك . واعتبار هذه الطبقة حزباً سياسياً لا يخرج عن كونه مسألة مريحة فقط . وسوف نشير الى دورهم كلما كان ذلك ضرورياً ، ولكنهم لن يعاملوا ككيان سياسي منفصل[31] .

وشيئاً فشيئاً اختفى الحزب الاصلاحي . فبعد أن نفت السلطات الفرنسية زعيمه ، الأمير خالد ، فقد الحزب قوته الدافعة . وقد أخذ الليبراليون منه شعار المساواة ، بينما أخذ أفكاره الانفصالية نجم افريقية الشمالية ، الذي كان حزباً نضالياً جديداً ظهر سنة 1926 . وسوف نلاحظ أن النجم الذي كان قد أسسه في باريس

---

(31) اعترف مارتينيز أن المحافظين قد خدموا فرنسا بإخلاص في المجالس المالية . أنظر نفس المصدر ، ص 349 _ 350 . ولكن الكاتب قال أن برنامج المحافظين كان أساساً إقتصادياً . ويبدو من هذا أنهم كانوا يؤيدون فرنسا مقابل ما يتلقونه منها ، وخصوصاً الأرض ، ومقابل حمايتها لهم .

جماعة من المهاجرين المغاربة ، وخصوصاً الجزائريين . وكان معظم أعضائه من العمال والجنود السابقين ، الذين بقوا في فرنسا ، بعد السراح من الجندية ، طلباً للعمل.

ونظراً لأن أعضاء النجم قد ضموا أفراداً ذوي تفكير وطني ، فإن الزعماء الطموحين من المهاجرين قد انضموا أولاً لحزب الاصلاح الذي كان يتولاه الأمير خالد ، وللمجموعات الشمال أفريقية ، وللأحزاب السياسية الفرنسية ، وخصوصاً اليسارية منها ، التي كانت برامجها تنادي بتحسين أحوال الجزائريين . وقد كان برنامج النجم ذا مرحلتين : المساواة العاجلة بين الجزائريين والفرنسيين في كل المجالات ، ثم الاستقلال الكامل للجزائر في النهاية وجلاء القوات الفرنسية عنها . وسوف نناقش هذا البرنامج بالتفصيل في الفصل التالي.

ورغم أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد خلقت رسمياً في ماي 1931 فإن أصولها تعود الى عهد النهضة (900 ـ 1914) ، أي الى أفكار الشيوخ : الونيسي ، والمجاوي ، وابن سماية ، وابن الموهوب ، وغيرهم . وبين 1919 و 1930 وضع العلماء أسس جمعيتهم المستقلة : الصحافة ، والمدارس ، ونوادي الثقافة والدعاية ، ونشر التاريخ الجزائري الخ ، وتحت القيادة الديناميكية للشيخ عبد الحميد بن باديس كان العلماء نشطين بشكل ملحوظ خلال العشرينات . وسوف ندرس برنامجهم على حدة في فصل خاص.

وباختصار دعا العلماء الى استرجاع الشخصية الثقافية العربية ـ الاسلامية للجزائر بواسطة التعليم ، والوعظ والارشاد ، والوسائل الشرعية الأخرى . ولما كان تناولها الحالي للمشاكل الجزائرية ثقافياً في شكله ، فإن جمعية العلماء المستقبلة لا تعتبر حزباً سياسياً هكذا . ولكن نتيجة لمساهمة العلماء الواضحة في الحركة الوطنية الجزائرية خلال العشرينات ، فإننا سندرسهم على أنهم احدى القوات الوطنية الرئيسية .

وإلى سنة 1935 لم يكن هناك حزب شيوعي جزائري . أما خلال العشرينات فإن الجزائريين الذين أعجبوا بالشيوعية قد انضموا الى الحزب الشيوعي الفرنسي . والحق أن هذا الانضمام كان نتيجة للشكل « الفذ » الذي كان للجزائر تحت النظام الفرنسي . ولم يكن هنا أيضاً حزب اشتراكي جزائري في ذلك الوقت . وقد انضم

الجزائريون المهتمون بالاشتراكية الى الحزب الاشتراكي الفرنسي . ولكن كان هناك تعاون تكتيكي بين الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الاصلاحي ثم نجم أفريقيا الشمالية خلال العشرينات.

وهكذا فبحلول سنة 1930 كان للجزائر كل أشكال وظلال الأحزاب السياسية تقريباً ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار . بعض هذه الأحزاب كان يدعو الى تعاون وثيق مع فرنسا وابقاء الجزائر كمقاطعة فرنسية ، والبعض الآخر كان يطالب بوضع حد للحكم الفرنسي وينادي بالاستقلال الكامل للوطن . وبعضها كان في صالح الاسترجاع الثقافي اللاعنفي للشخصية الجزائرية ، بينما كان آخرون يصرون على استعمال الوسائل الثورية السياسية نحو نفس الهدف . وقد رأى البعض الخلاص في تعاون وثيق مع حركة الجامعة الاسلامية والقومية العربية ، بينما رآه آخرون في التعاون التكتيكي مع الشيوعية أو الديموقراطية.

فأهمية العقد التالي للحرب ، اذن ، تظهر في أن كل الاتجاهات الوطنية الهامة في الوقت الحاضر في الجزائر قد ظهرت خلاله . ولكن هذا العقد كان هاماً أيضاً بالنسبة للحركة الوطنية الجزائرية نظراً للقضايا والأفكار الجديدة التي جاء بها .

جـ ـ قضايا وأفكار جديدة :

بمقارنة الحركة الوطنية الجزائرية مع غيرها من الحركات ، اندهش الكتاب للشكل الخاص الذي كان للأولى . وبعد أن لاحظ أن العالم الاسلامي كله كان في حالة يقظة خلال العشرينات ، اندهش أوغسطين بيرنار أن يرى الجزائريين يطالبون بالاصلاحات والمساواة مع الفرنسيين ، بينما كان الوطنيون في البلدان الأخرى ينادون بالاستقلال لأوطانهم من أسيادهم المستعمرين . وقد كتب يقول : « انه لمدهش حقاً أن الجزائريين ، لا يطالبون بالاستقلال كما يفعل المصريون ، أو بميثاق دستوري كما يفعل التونسيون »[32].

ولكن لو كان بيرنار واقعياً لوجد أن هذا الوضع لم يكن علامة حب أو رضى بالحكم الفرنسي من جانب الجزائريين ، لقد كان وضعاً ضرورياً . فكل من مصر

---

(32) أوغسطين بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ص 79 .

وتونس كانت محمية وقد أبقت السلطة الاستعمارية على الكيان « القومي » لكل منهما . أما الجزائر فلم تكن محمية ولا مستعمرة ، بل أعلنت مقاطعة فرنسية . وفي وقائع التطور الانساني يصبح طلب المساواة من « رعايا » في مقاطعة مساوياً لطلب الاستقلال من « مواطنين » في محمية . وبالاضافة الى ذلك ، فإن الزعماء الجزائريين لنجم أفريقية الشمالية قد طالبوا بالاستقلال الكامل لبلادهم منذ سنة 1927[33].

وهناك رأي لكاتب فرنسي آخر أدلى به سنة 1933 يعتبر أكثر واقعية وان كان موضع جدل أيضاً . فعند مقارنته للحركات الوطنية في أفريقية الشمالية ، وجد هذا الكاتب أنه بينما طورت تونس والمغرب ما يسميه « بالوطنية السياسية » ، طورت الجزائر ما يسميه « بالوطنية الدينية » . وبناء على رأيه ، فإن هذه الظاهرة كانت نتيجة وجود الاطارات الوطنية في تونس والمغرب بينما كانت الجزائر تحت سيطرة الاطارات الفرنسية .

هذا هو الجانب الواقعي من رأيه . ولكن الادعاء بأن الجزائر قد طورت « الوطنية الدينية » يبدو مثار جدل . بالطبع أنه يشير بذلك الى جمعية العلماء ، ولكن هذه المنظمة ، كما سنرى ، كانت ثقافية (بما في ذلك الدين) ولكنها على طول المدى ، كانت سياسية في اتجاهها . وبالاضافة الى ذلك ، فمن النهضة الى سنة 1930 كان للجزائر هيئات وأحزاب وطنية سياسية بشكل لا يقبل النقاش[34].

ومن الظواهر الهامة التي جاء بها العقد التالي للحرب هو اعادة ظهور وتدعيم الصحافة الوطنية . فكل اتجاه سياسي وثقافي سبقت الاشارة اليه تقريباً كان له صحافته الخاصة التي تعكس برنامجه . ومن بين الصحف والمجلات المؤثرة خلال العشرينات : « الاقدام » الناطقة باسم الحزب الاصلاحي ، و « المنتقد » و « الشهاب » الناطقتان باسم العلماء ، و « التقدم » الناطقة باسم الحزب الليبرالي ، و « النجاح » التي كانت عندئذ مستقلة . ومعظم هذه الصحف كانت اما بالعربية واما باللغتين[35].

---

(33) كما طالب وفد جزائري برئاسة الأمير خالد بحق تقرير المصير منذ 1919 . أنظر سابقاً .

(34) لويس أرمون ، « أفريقية الشمالية والشرق الأدنى» ، في « أ.ف. » (أبريل ، 1933) ، ص 204 .

(35) أنظر أجرون ، « سياسة جزائرية » في «ر.هـ.م.ك.» ، م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، =

وقد كانت القضايا التي تطرقها هذه الصحف مهمة بالنسبة للحركة الوطنية الجزائرية . فكانت فرنسا تحت الهجوم لفشلها في ارضاء آمال الوطنيين ، كما فعلت انكلترا في مصر وايطاليا في ليبيا[36] . وكانت هذه الصحافة تدعو الجزائريين للدفاع عن حقوقهم السياسية وأن يكونوا يقظين . وكانت تدافع عن العربية باعتبارها اللغة الوطنية ، وعن الاسلام باعتباره نظام حضارة الجزائر[37]. ومن الموضوعات الهامة التي ناقشتها الصحف أيضاً خلال العشرينات الوحدة بين الجزائريين ، والتعليم ، والتمثيل النيابي الفعال ، والغاء قانون الأهالي ، والمساواة التامة مع الفرنسيين . وفي سنة 1920 وجه نداء الى السكان جاء فيه : « منذ أكثر من قرن والشعب المسلم الجزائري ينتظر ساعة تحريره والاعتراف بحقوقه . . فلنوحد أنفسنا حتى تنجح مطالبنا »[38] .

من بين القضايا المعنية في هذا العهد المناداة بالتعليم العربي واسترجاع العمل بالمبادىء الإسلامية ، لا من العلماء فقط ، ولكن من جماعة النخبة أيضاً . فالكاتب الفرنسي غوتي ، المعروف بدفاعه عن الاستعمار ، قد روى أن البورجوازية الجزائرية قد أصبحت ، منذ الحرب العالمية الأولى ، تشعر بمركب نقص نحو العربية ، وبدأت تتأسف على جهلها بها . وبناء على قول غوتي ، فإن عضواً من جماعة النخبة قد أخبر زميله الفرنسي في المجلس البلدي بالعاصمة « بأنني أشعر بالخجل من

ص 146 . وديبارمي « رد الفعل اللغوي في الجزائر » في «س.ج.أ.» ، م 36 (1931) ، ص 1 وما يليها . وقد فتح بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائريين أعمدة صحفهم إلى الوطنيين الجزائريين . وكان فيكتور سبيلمان من بين هؤلاء . ففي جريدتيه ـ « التريبون » و « ترى دونيون » دافع عن القضية الجزائرية . أنظر عباس ، ص 117 . بخصوص معلومات أكثر عن الصحافة الجزائرية خلال 1919 ـ 1939 . أنظر مراد ، « أ.ب.ل.أ »، م 27 (1964) ، ص 17 ـ 27 . أنظر كذلك محمد ناصر : (الصحف العربية الجزائرية) ، الشركة الوطنية الجزائرية ، 1980 .

(36) طيبال ، «أ.ف.س.» (سبتمبر ، 1921) ، ص 204 . ويسمي المؤلف هذا الهجوم : « شبكة واسعة من المؤامرات الألمانية ـ الإسلامية ـ البولشفية » ضد فرنسا في أفريقية الشمالية .

(37) ديبارمي ، «رد الفعل » في «س.ج.أ.» م 37 (1931) ص 1 وما يليها . أنظر أيضاً مارتينيز ، «ر.د.م.» م 8 (مارس ـ أبريل ، 1922)، ص 659 ـ 660 .

(38) أشار إلى ذلك أوكتاب ديبون ، « الإضطرابات » في «ر.ب.ب.» (1935) ، ص 76 .

عربيتي »[39].

وفي سنة 1921 خطب عضو جزائري في المجلس المالي وطلب في خطبته بتطوير الثقافة الاسلامية وببرنامج واسع لتعليم العربية في الجزائر . وبناء على رواية مارتينيير ، فإن الخطيب قد دافع عن القرآن باعتباره أفضل معلم للأخلاق ، والفلسفة ، والحضارة[40] . وسوف نرى أن العلماء ، بحكم ماضيهم ، وثقافتهم ، وبرنامجهم ، قد نادوا بإحياء الشخصية الجزائرية الثقافية كوسيلة لاعادة الشخصية السياسية .

ورغم وضوح تسرب الأفكار الخارجية إلى الجزائر ، فإن بعض الكتاب يعتقدون أن هذه البلاد قد بقيت مُنْغَلِقَة في وجه جميع « الاهتمامات الأجنبية » . وبناء على رأي كاتب فرنسي ، سنة 1933 ، فإن السوفياتية ، والاشتراكية ، والإدارة الفرنسية قد حاولت التأثير على الجزائر ، ولكن « بلا جدوى »[41] . ويبدو أن هذا الرأي غير واقعي ، لأننا أشرنا إلى أن الأفكار الأجنبية قد تسربت إلى الجزائر منذ التسعينات من القرن الماضي . والنهضة نفسها كانت إلى حد ما نتيجة لتأثير خارجي . وطيلة فترة الحرب العالمية الأولى والعقد الذي تلاها تسربت المذاهب الأجنبية إلى الجزائر وتركت ، بلا شك ، بصمات كثيرة على حياتها . وسوف نرى ومن مناقشة برامج الأحزاب السياسية ان كثيراً منها كان حافلاً بالأفكار الأجنبية .

وهكذا فإن المستعمرة « الهادئة » كانت تعيش تجربة حاسمة خلال العشرينات فوقع الحرب القوي ، وظهور الأحزاب السياسية ، ودخول الأفكار الجديدة كانت مميزات هذا العهد . ومعظم هذه القضايا ستدرس بالتفصيل في آخر هذا العمل . ولكن قبل فعل ذلك ، لا بد من معرفة كيف كانت فرنسا ترد على هذا « الاندفاع الوطني . . والثورة السياسية ، والاصلاح الديني ، والأخلاقي ، بالإضافة إلى النهضة الأدبية والعلمية » حسب تعبير ديبارمي .

---

(39) أ.ف. غوتي ، « أخطار » في « ر.ب. » (1 سبتمبر ، 1934) ، ص 45 .

(40) مارتينيز ، «ر.د.م.» م 8 (مارس - أبريل ، 1922) ص 338 - 339 .

(41) ديبارمي ، « قادة الرأي العام الأهلي في الجزائر » في « أ.ف. » (جانفي ، 1933) ، ص 11 . وكان جوليان ، الذي سبقت الاشارة إلى وجهة نظره ، يأخذ موقفاً مشابهاً .

2. فرنسا المعاندة :

إذا كانت الجزائر والعالم كله قد مر بتحول هائل نتيجة للحرب ، فإن فرنسا قد حاولت أن تحتفظ بسياستها الاستعمارية في مستعمرتها الفذة ، والهادئة . وهذا الموقف قد شمل توسيع وتجديد قانون الأهالي المعادي للحركة الوطنية وإحياء نظام الاحتجاز السري ، وصرف ضغوط الحركة الوطنية على أنها مستوحاة من الخارج ، وغير ذلك ، وخلال عقد واحد عينت فرنسا على الأقل أربعة حكام عامين على الجزائر.

كان أحدهم ، وهو جونار ، معروفاً بعطفه القوي على الجزائريين ، وهو الذي أعلن وبارك اصلاحات سنة 1919 . وكان الآخر هو ستيغ الذي مرت الجزائر خلال عهده بمجاعة قاسية سنة 1921 . كما أن ستيغ كان مسؤولاً على تجديد قانون الأهالي. وكان ثالثهم وهو فيوليت، الذي كان إشتراكياً والذي كان مسؤولاً على احياء العمل بنظام الاحتجاز السري وعلى اضطهاد الحركة الوطنية خوفاً من البولشيفية والشيوعية(42) . وقد خلفه في منصبه بورد ، الذي كان يتمتع برضى الكولون والذي أشرف على احتفالات مرور مائة عام على الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1930 .

ان اصلاحات 1919 لم تضع حداً لشغب الوطنيين الجزائريين ، بالعكس لقد شجعته . فعودة الجنود المسرحين والعمال ، وازدياد الهجرة إلى فرنسا ، وعودة بعض المثقفين الجزائريين من تونس والشرق الأدنى ، والأزمة الاقتصادية سنة 1921 ، والتشجيعات الخارجية ، ولا سيما من الحركة الشيوعية ، كل هذه قد جعلت الجزائر تعيش في حالة اضطراب .. وقد كان رد الفعل الفرنسي على هذه الحالة غير متوقع(43).

ووسط مطالبة الجزائريين بحقوق سياسية أكثر ، زار الجزائر ، الاسكندر ميليران ، رئيس الجمهورية الفرنسية عندئذ ، في ربيع سنة 1922 . وقد تجول في

---

(42) خلال الثلاثينات أصبح فيوليت بطل إصلاحات في الجزائر مبنية على فكرة دمج الشعبين الجزائري والفرنسي . فحين وصل ليون بلوم إلى الحكم سنة 1936 ضم فيوليت إلى وزارته .

(43) بناء على « أ.ف. » (فيفري ، 1923) ، كان في الجزائر خلال سنة 1921 وحدها ، 419 ، 1 ادانة ، 6,696 يوماً سجناً ، 15,560 فرنكا غرامة . أنظر ص 86 ـ 87 من نفس المصدر .

العمالات الثلاث واستمع إلى كثير من الشكاوي والمطالب من أجل الاصلاح . ومن بين الجزائريين الذين ألحوا على هذا السؤال الأمير خالد الذي سندرس فيما بعد نشاطاته . وفي اجاباته اعترف ميليران بأن الجزائر قد خدمت القضية الفرنسية والديموقراطية أثناء الحرب . ولكنه أصر على أن اصلاح سنة 1919 كان جهداً « هاماً » قامت به فرنسا.

وقد أخبر ميليران الأمير خالد وغيره من الوطنيين الذين كانوا يستمعون إليه أنه لا شيء سيكون « أكثر خطراً على الجميع (الجزائريين والفرنسيين) من التقدم بسرعة كبيرة » . وبناء على رأي الرئيس الفرنسي ، فإن مطالبة الجزائريين بالتمثيل النيابي ، الذي كان في نظره « سرعة كبيرة » ، سيضطر الشعبين إلى « المشي إلى الخلف » بدلاً من المشي إلى الأمام . ثم سأل ميليران الجزائريين أن يعطوا الفرصة لاصلاح سنة 1919[44] . وهكذا فإن رد ميليران كان سلبياً وغير مرضي . لذلك كان على الحركة الوطنية أن تبحث لها عن طريق أخرى.

والواقع أن فرنسا لم تفشل فقط في ترضية بعض المطالب الأساسية للوطنيين ، بل خرقت أيضاً اصلاح سنة 1919 . فخلال أقل من سنة من زيارة ميليران للجزائر ، مدت فرنسا من عمر قانون الأهالي خمس سنوات أخرى[45] . وخلال نفس العهد اقترح بعض الفرنسيين أن تضع فرنسا الصحافة الوطنية تحت سلطتها وأن تتخذ اجراءات أخرى تصد بها موجة الحركة الوطنية[46] . وتنفيذاً لهذه الاقتراحات ، نفت السلطات الفرنسية سنة 1923 ، زعيم الحركة الوطنية عندئذ ، الأمير خالد . وبعد ثلاث سنوات (فيفري 1926) أحيت وزارة الداخلية الفرنسية نظام الاحتجاز السري بإعلانها أنها قد وضعت تحت «المراقبة الخاصة» عدداً من الجزائريين الذين كانوا

---

(44) « رحلة رئيس الجمهورية » في « أ.ف.س. » (ماي 1922) ص 132 .

(45) « أ.ف. » (فيفري ، 1923) ، ص 86 . أن هذا القانون قد مد فيه سنة 1920 ثم 1922 قبل تجديده رسمياً .

(46) وورثام ، « مشاكل فرنسا » في « الأطلنطي الشهري » ، م130 (فيفري 1922) ، ص 558 . وفي 29 ديسمبر مثلث فرقة جزائرية مسرحية عربية بعنوان : « من أجل الوطن » ولكن السلطات الفرنسية منعت تمثيلها مرة ثانية . أنظر سعد الدين بن شنب ، « المسرح العربي في الجزائر (العاصمة) في « ر.أ. » م 77 (1935) ، ص 75 .

« ينشرون السياسة ويقومون بالأعمال المعادية للسيادة الفرنسية »[47].

ان هذه الاجراءات الاستفزازية لم تخرق فقط روح اصلاح سنة 1919 بل روح القانون الفرنسي نفسه أيضاً . فالجزائريون ، بناء على هذا القانون ، كانوا فرنسيين ، فلهم الحق ، إذن ، أن يهاجروا إلى فرنسا بدون قيود . ولكن هذا الحق انتزع منهم ، سنة 1924 ، حين حدت السلطات الفرنسية ، نتيجة لضغط الكولون ، من الهجرة الجزائرية إلى فرنسا.

ومنذ سنة 1923 صوت المجلس البلدي في العاصمة . الذي كان تحت سيطرة الكولون ، على لائحة تطالب بتقييد هجرة الجزائريين إلى فرنسا . وقد وافق وزير الداخلية ، شوتان ، على هذه الرغبة بقرار أصدره في 8 أوت 1924[48] . ان هذا الاجراء أثار رد فعل كبير بين الجزائريين الذين طالبوا بإلغاء القرار في الحال . وبعد حادث تراجيدي[49] وقع نتيجة لذلك القيد ، ألغت السلطات الفرنسية في النهاية القرار . ولكن موجة القمع استمرت دون حدود تحت أعذار مختلفة.

فبإسم الادعاء بأن البولشفيين ، والألمان وأنصار الجامعة الاسلامية كانوا يشنون حملة معادية لفرنسا في أفريقيا الشمالية ، أقامت السلطات الفرنسية نوعاً من« محاكم التفتيش » ضد الوطنيين الجزائريين . ومما يثير الاستغراب أن الذي طبق هذه الطريقة هو فيوليت الاشتراكي ، الذي كان حاكماً عاماً والذي سيصبح ، سنة 1936 أحد زعماء الجبهة الشعبية البارزين . ففي 13 أكتوبر 1925 ، روى فيوليت أنه حين وصل إلى الجزائر (1924) وجد « الشغب سائداً في كل مكان تقريباً في البلاد » . وقد عزا هذه الحالة إلى دعاية الحركة الشيوعية العالمية الثالثة التي اتهمها بتوزيع

---

(47) « الجزائر » في «أ.ف.» (مارس 1926) ، ص 124 ـ 125 . بناء على هذا المصدر كان عدد الجزائريين المعتقلين 28 شخصاً .

(48) لويس ميو ، « هجرة العمال الجزائريين إلى باريس » في «أ.ف.س.» (مارس) ، (1925) ص 95 . ويحتوي هذا المصدر أيضاً على لائحة الكولون ونص قرار وزير الداخلية . كان الكولون يخشون ضياع اليد العاملة الرخيصة إذا إستمرت هجرة الجزائريين إلى فرنسا .

(49) عباس ، ص 18 . خلال نفس السنة هرب جماعة من العمال الجزائريين خفية إلى فرنسا في غرفة الوقود للسفينة « سيدي فرج » . وحين وصلت السفينة إلى مرسيليا كان 12 منهم قد اختنقوا وكان الباقون في حالة غير إنسانية .

المناشير . والكتيبات . والصحف بين الجزائريين . وبناء على رأي فيوليت ، فإن هذا « العتاد الثوري » قد جاء من المكتب السوفياتي في فيينا[50].

ولكن القصة النموذجية لهذا العهد هي « قصة الريغي » ، أو « بعثة الريغي » ، كما كانت تسمى في ذلك الوقت . ففي ربيع 1925 اعْتَقَلَتْ السلطات الفرنسية في الجزائر فريقاً من المتـآمرين تحت رئـاسة رجـل اسمه الـريغي[51] . كان الـريغي وأصدقاؤه قد حوكموا وصدرت أحكام ضدهم بسنتين سجناً و 1000 فرنك غرامة لكل من أعضاء الفريق . كما احتجزت السلطات الفرنسية وثائق « أصيلة » تحتوي على خطة ثورة في الجزائر[52].

وبناء على المصادر الفرنسية ، فإن المتآمرين ، بالتواطؤ مع الحزب الاصلاحي الذي كان يتزعمه الأمير خالد ، الذي كان قد نفى قبل سنتين ، كانوا سيشعلون نار ثورة في الجزائر منسقة مع ثورة الريف في المغرب الأقصى . وكانت خطتهم ، التي كانت مفصلة في كتيب يحتوي على 18 درساً ، تتمثل في خلق منظمة هجومية قوية تتكون من سبعة أقسام (أو دوائر) وأربعين خلية منتشرة في كامل الجزائر.

كانت مهمة المنظمة وضع المذهب الثوري موضع التنفيذ بـإنشاء جمهـورية جـزائريـة تحت حكم البروليتـاريا والبـورجوازيـة الوطنيـة . وكان تكتيـك ووسائـل المتآمرين هو بث روح الثورة في الأرياف (الدواويـر) لاقناع السكـان بأن قضيـة المغرب هي قضيتهم ، واقناعهم برفض دفع الضرائب ، وعصيان أوامر الادارة وأن يلجأوا إلى حرب العصابات . وكان المتآمرون أيضاً سيشكلون حركة وطنية بورجوازية حتى ولو كانت تتنافس مع البروليتاريا . وكانوا أخيراً سيقومون بتنسيق التعاون بين حركتي الأمير خالد والأمير عبد الكريم الخطابي .

---

(50) « في الجزائر » في « أ.ف.س. » (أكتوبر ، 1925) ص 500 . وقد قال فيـوليت في بيانـه أن السوفياتيين قد خلقوا مكتباً في باريس للدعاية في أفريقية ، وآخر في لندن للدعاية في آسيا ، وثالثاً في براغ للدعاية في وسط أوروبا .

(51) ليس لدينا المعلومات التي تؤكد أصل هذا الرجل . وقد قال النائب الشيوعي فاليان ـ كوتوريي ، أثناء مناقشة برلمانية ، أن الريغي كان عضواً في « جمعية حقوق الإنسان » . أنظر « الحملة الشيوعية ضد أفريقية الفرنسية » في « أ.ف. » (جوان ، 1927) ص 233 .

(52) نفس المصدر .

وقد عقدت بعثة الريغي عدة اجتماعات لتحقيق ذلك الهدف[53] . وبناء على وثيقة احتجزها الفرنسيون في منزل فيكتور سبيلمان الذي كان من الألزاس ويعطف على آمال الجزائريين ، فإن المتآمرين كانوا سيعلنون جمهورية جزائرية « يديرها ممثلون عن كل منطقة »[54] . وكانت هذه الخطة متفقة مع برنامج الحزب الاصلاحي .

وكان ظل البولشفية والخوف من ثورة شبيهة بثورة ألريف قد استمرا في اعطاء السلطات الفرنسية في الجزائر الأعذار لقمع الحركة الوطنية ، ففي نفس السنة (1925) اعترف فيوليت أنه كان قد أمر باعتقال أولئك الجزائريين الذين تبرعوا وتعاونوا مع حركة الأمير عبد الكريم في الريف . وقد قال انه فعل ذلك لكي يقضي على « الخطر » الذي كان يهدد الجزائر كلها . ثم عبر عن سروره بأن الانتخابات الجزائرية قد سارت بدون متاعب بسبب ذلك الاعتقال ، ولأن الأمير خالد وأصدقاءه الشيوعيين كانوا غائبين[55] .

وبعد قليل من الوقت أعلن فيوليت ووزير الداخلية ، ألبير سارو ، أنهما لن يتسامحا مع النشاطات الشيوعية في الجزائر . وقد أعطى الحاكم الاشتراكي استجواباً إلى صحيفة فرنسية استنكر فيه الدعاية الموالية للحركة الوطنية التي كان يقوم بها الشيوعيون في الجزائر . وقد أكد فيه أيضاً أنه مصمم على حجز الصحف التي « تتبع هذه الدعاية البشعة » ووعد أن يأتي بالمسؤولين على ذلك أمام المحاكم . وأخبر فيوليت سائله أن موقفه يتفق مع موقف حكومة باريس لأنه لن يكون مسؤولاً على « تسليم الجزائر إلى الحركة الشيوعية العالمية الثالثة »[56] .

---

(53) « في الجزائر » في «أ.ف.س.» (أكتوبر ، 1925) ص 500 - 501 . وفي 24 أوت ، 1925 ، نشرت « لومانيتي » تقريراً ينص على أن الجنود للجزائريين في لبنان قد تمردوا على قوادهم الفرنسيين .

(54) أشار إلى ذلك مورينو ، الذي كان نائباً من الجزائر في المجلس الوطني الفرنسي . أنظر « الحملة الشيوعية » في « أ.ف. » (جوان ، 1927) ص 233 .

(55) « في الجزائر » في «ا.ف.س» (أكتوبر ، 1925) ص 501 .

(56) نوشي ، ص 60 . وقد أعطى فيوليت هذا الاستجواب إلى جريدة (لوماتان) (2 ديسمبر ، 1926) .

وقد استعمل سارو ، الذي كان يجوب الجزائر سنة 1927 ، نفس النغمة تقريباً . ففي خطبة له في قسنطينة أعلن أن حكومته لن تتسامح مع « الدعوة إلى الثورة ، والحرب الداخلية ، والتدهور الوطني » . وقد هدد أن الحكومة الفرنسية سوف تستعمل الأسلحة التي لديها « بدون تهاون » ضد المسؤولين عن الشغب »[57] .

ليس هناك من ينكر وجود بعض النشاطات الشيوعية في الجزائر خلال العشرينات . وليس هناك من ينكر أيضاً أن الشيوعيين قد حاولوا أن يغتنموا فرصة سخط الوطنيين . وفي نفس الوقت ليس هناك شك في أن بعض الجزائريين قد حاولوا التعاون مع الشيوعيين لأغراض تكتيكية . ولكن ما يبدو محل شك هو طريقة الفرنسيين في معاملة الحركة الوطنية . فبإسم محاربة الشيوعية ، استعمل الفرنسيون كل الوسائل لقمع الحركة الوطنية المائجة . ولهذا السبب جددوا قانون الأهالي ، وقاموا بانتخابات مشكوك فيها ، وقيدوا هجرة الجزائريين إلى فرنسا ، وخرقوا اصلاح 1919 ، بالإضافة إلى خرق المبادىء الديموقراطية . وحين يميز المرء بين الغث والسمين فإنه سيجد أن الحركة الوطنية الجزائرية كانت أساساً ، حتى سنة 1926 ، ما زالت اصلاحية لا ثورية . فالأمير خالد نفسه ، زعيم هذه الحركة الاصلاحية والذي نفاه الفرنسيون سنة 1923 ، قد اتهمه خصومه بأنه كان « مرابطاً » ، ومتعصباً ، ومحافظاً . وهكذا فإنه يبدو أن طريقة الفرنسيين في معاملة الحركة الوطنية لا تستند على مبررات .

ويتفق الملاحظون المعاصرون على أن التأثير الخارجي ، بما في ذلك الشيوعية ، قد بالغ فيه الفرنسيون . ففي سنة 1922 كتب وورثام يقول انه من المشكوك فيه أن الحركة الوطنية الجزائرية قد تأثرت بالبولشيفية والألمانية ، كما يدّعي الفرنسيون . ولكنه اعترف بأن الفرنسيين كانوا دائماً يشتبهون في التأثير الخارجي ، ثم أكد بأن الحركة الجزائرية كانت « وطنية قطعاً »[58] . وفي نفس الوقت كتبت الجريدة الانكليزية المحافظة ، « التايمز » ، سنة 1927 قائلة أن الشغب الشيوعي في الجزائر كان غير فعّال[59] . وقد لاحظ ديبارمي ، الذي كان يكتب سنة 1933 ،

---

(57) نفس المصدر .

(58) وورثام ، « مشاكل فرنسا » في «الأطلنطي الشهري» ، م 130 (فيفري ، 1922) ص 558 .

(59) « التايمز » (لندن) ، (21 نوفمبر 1927) ص 13 .

ان الجزائر قد بقيت مغلقة في وجه جميع « الاهتمامات الأجنبية ». ثم أضاف « ان كل محاولات التأثير الخارجي كانت بلا جدوى »[60].

وفي خريف سنة 1927 أبدلت السلطات الفرنسية الحاكم العام الاشتراكي فيوليت بالحاكم بيير بورد . كان بورد محبوباً من الكولون لسوابقه في معارضة الحركة الوطنية الجزائرية . وقبل تعيينه حاكماً عاماً كان يشغل منصب عامل عمالة الجزائر . وكان بورد، سنة 1917 (سنة العمليات التنظيفية) في منطقة الأوراس بعد ثورة سنة 1916 ، يشغل منصب عامل عمالة قسنطينة التي كانت تضم منطقة الأوراس. وبين سنة 1919 و1920 شغل منصب الكاتب العام للإدارة الفرنسية في الجزائر[61] . لكن بورد كان معروفاً أيضاً بأنه المنظم لاحتفال الفرنسيين بمرور مائة سنة على احتلالهم للجزائر سنة 1930 ، وهو الاحتفال الذي صحبته دعاية واسعة ، والذي كان فرصة أثارت بحدة شعور الجزائريين بالإهانة ، والذي كان له نتائج خطيرة على اتجاه الحركة الوطنية الجزائرية.

ليس هناك نية في تخصيص مساحة كبيرة لاحتفال الفرنسيين بالاحتلال . ولكن ما دام ذلك سيبين كيف عاملت فرنسا المشكل الجزائري خلال العشرينات وما دام ذلك قد أحدث رد فعل واسعاً بين الأهالي الجزائريين ، فإن هذه المناسبة يجب أن تدرس ولو باختصار . ولنذكر أن الاستعدادات لهذه المناسبة قد بدأت منذ بداية العقد.

ففي عصر القوميات الثائرة يبدو أن استعمال الفرنسيين للكلمات الرتيبة مثل « منتصرون » و« مهزومون » ، « ممتازون » و« ناقصون » ، الخ ، كان يزرع سوء التفاهم والاستفزاز فقط . منذ سنة 1922 كتبت مجلة فرنسية من الجزائر ما يلي : « اننا نحن الفرنسيين ، في وطننا في الجزائر . لقد أصبحنا أسياد البلاد بالقوة ، وهذا يعني حتماً أن هناك منتصرين ، ومهزومين ، ومنذ أخضعنا الأخيرين استطعنا أن ننظم البلاد . والتنظيم نفسه يؤكد مرة أخرى فكرة امتياز المنتصر على المنهزم ، وامتياز

(60) ديبارمي ، (القادة) في « أ.ف» (جانفي ، 1933) ، ص 11 .
(61) « التايمز » (لندن) ، (21 نوفمبر ، 1927) ، ص 13 .

الانسان المتحضر على الأنسان الناقص . . اننا المالكون الشرعيون للبلاد »[62].

وقد استمرت الاستفزازات بمختلف الوسائل طيلة العشرينات . فحوالي سنة 1927 أقام الفرنسيون تِمْثَالاً رمزياً للجنرال لامورسيير، الذي شَهِدَ هزيمة الأمير عبد القادر سنة 1847 ، على قاعدة كبيرة في قسنطينة . وكان التمثال يمثله شاهراً سيفه ضد الجزائريين[63] . فإقامة تمثال لامورسيير ، الذي جاء بعد تحضير نشيط للاحتفال بالاحتلال ، وبعد قمع مستمر للحركة الوطنية ، كان بدون شك ، مناسبة لإثارة عواطف حادة لدى الجزائريين.

لقد كلف الاحتفال المئوي بالاحتلال الخزينة الفرنسية ما لا يقل عن 130 مليون فرنك . كان هدف الاحتفال هو الفرح بالاحتلال الذي « قضى على هذه الدولة (الجزائرية) التي كان وجودها مصدر إحراج لأوروبا خلال ثلاثة قرون »[64] . وقد دام الاحتفال أكثر من ستة أشهر ، فقد بدأ في جانفي وانتهى في 5 جولييت 1930 ، تاريخ استسلام حكومة الداي.

وكان البرنامج يشتمل على معارض ، واستعراضات ، ومحاضرات ، وألعاب ، وأفلام ، ومطبوعات ، وجولات سياحية ، وافتتاح منشآت جديدة ، الخ . ومن بين الاستعراضات واحد يعيد كيفية دخول الجيش الفرنسي الى العاصمة سنة 1830 . وكانت الدعوات قد وجهت إلى كثير من الشخصيات والصحف الأجنبية والفرنسية . ولكي تعطى صورة عن انجازات فرنسا في الجزائر ، تولت أكاديمية الجزائر العاصمة طبع سلسلة من الأعمال تحت عنوان « مجموعة الاحتفال المئوي » بهدف جعلها « في متناول جمهور كبير » من المهتمين[65].

---

(62) نص على ذلك عباس ، ص 118 ـ 119 من مجلة « أفريقية اللاتينية » (1922) . وقد علق عباس على ذلك بأن عنوان هذه المجلة كان برنامجاً بنفسه . والواقع أن الانسان يلاحظ بسهولة بذور الفاشية في النص أعلاه .

(63) نفس المصدر ، ص 124 .

(64) « التايمز » (لندن) ، (15 ماي ، 1928) ص 15 . كان مراسل هذه الجريدة يشير الى نص من القائد العام للقوات الفرنسية سنة 1830 ، وهو الكونت دي بورمون .

(65) برنامج الاحتفال المئوي للجزائر في «أ. ف. س» (ماي، 1929) ، ص 326 ـ 327 . ولكي يجعلوه أكثر زخرفة ، أوحى الفرنسيون الى رجالهم في الجزائر ، (بني وي - وي) ، أن يحتفلوا أيضاً بالمناسبة . وفي 14 جوان يوم نزول القوات الفرنسية ، نظم أولئك الجزائريون حفلة حضرها الحاكم =

وبينما كان الفرنسيون يحتفلون بالاحتلال ، كان الجزائريون الوطنيون يهمسون بالكلمات الآتية : « انهم (الفرنسيون) يحتفلون بالقرن الأول ، ولكنهم لن يحتفلوا بالقرن الثاني » . وقد كان هذا التنبؤ « على كل شفة » في البلاد . والواقع أن أولئك الجزائريين كانوا فيما بعد يشيرون الى الاحتفال بأنه « مهازل » سنة 1930[66] . ان رد الفعل الجزائري كان حاضراً . وذلك يدل على أن الفرنسيين كانوا مخطئين حين لم يبالوا بقوة الحركة الوطنية الجزائرية . ولقد وصف الفرنسيون هذه الحركة على أنها استفزازات خارجية . ولعل دراسة مختصرة لرد الفعل الجزائري ستحقق الهدف.

كان نجم افريقية الشمالية باعتباره حزباً ثورياً ، قد سبق إلى استنكار الاحتفال المئوي . فخلال صيف 1928 وزع الحزب منشوراً بالعربية ، والفرنسية في الجزائر بخصوص الاحتلال . كان عنوان المنشور « النضال ضد الامبريالية الفرنسية » . وقد تحدث باسهاب عن الاحتلال ونتائجه ، فاستنكره على أنه « تقتيل النساء والأطفال ، وحرق القرى والمحاصيل ، واختلاس الثروة من جيش عطشان للدم والنهب » . وقد ذكر المنشور الجزائريين أن الفرنسيين « لكي يمنعونا من الصراخ : إلى اللص ! إلى القاتل ! كموا أفواهنا بقانون الأهالي »[67].

وقد نشر النجم أيضاً « بياناً » في جريدته « الاقدام » (جوان - جوييه 1928) ، بعنوان « من أجل استقلال أفريقيا الشمالية » . وفي هذا البيان نادى الحزب الجزائريين أن « أعلنوا حقوقكم ؟ » وطالبهم بأن « أعدوا أنفسكم للاحتفال باحتلال بلادكم على طريقتكم الخاصة ، بتنظيم حركة واسعة ضد الامبريالية[68].

ان « مهازل » الفرنسيين سنة 1930 قد جعلت بعض الجزائريين يكتشفون الأخطار التي كانت تحدق بشعبهم . وبناء على قول أحد الفرنسيين ، فإن بعض

العام وغيره من الفرنسيين الرسميين . وقد خطب « ممثلو » الأسر الكبيرة ، والمرابطين ، والمجالس المحلية : كلهم بالطبع قد مدحوا فرنسا . أنظر « الجزائر » في « ا. ف. » (جوليت ، 1930) ، ص 415 - 416 .

(66) ج . ديبارمي ، « مساهمة في تاريخ الجزائر المعاصر » في « ا . ف . » (جويلية 1937) ص 355 .

(67) نص على ذلك في « الدعاية الشيوعية في أفريقية الشمالية » في « أ.ف.س. » (أكتوبر 1928) ص 653 .

(68) نفس المصدر ، ص 654 .

الجزائريين كانوا ، أثناء الاحتفال ، يصفون الأحوال السيئة لبلادهم ويتأسفون على « شعبهم الميت الذي تحدثت بتعاسته الركبان ».

أما الجريدة الوطنية « المغرب » (23 جوان ، 1930) فقد وجهت لومها إلى « نخبة الشعب » الذين لم يحركوا ساكناً . ونادت « مفكري » الشعب الجزائري لكي يظهروا للعالم أنهم « قادرون . . . على تكوين كتلة من المناضلين للدفاع عن وجود الأمة »(69).

والحق ان الاحتفال الفرنسي قد ساعد على مضاعفة جهود الحركة الوطنية الجزائرية . ومن بين نتائج هذه المناسبة خلق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 . ومن ذلك أيضاً تصاعد الروح النضالية بين أعضاء نجم أفريقية الشمالية ، الذين أعلنوا استقلالهم الكامل عن الشيوعيين وبدلوا اسم حزبهم من النجم إلى حزب الشعب الجزائري . وهناك نتيجة ثالثة ، وهي عزل النخبة أو المسمون بالمعتدلين ، الذين غيروا في النهاية موقفهم من متعاونين إلى جماعة ضاغطة . والخصائص الرئيسية لهذه التحولات وردود الفعل الداخلية سوف تلاحظ حين ندرس هذه الجماعات السياسية ، كل على حدة ، في الفصل التالي.

ان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي كان إلى سنة 1935 يضم الشيوعيين الجزائريين أيضاً ، بخصوص الاحتفال المئوي جدير بالذكر . ففي ماي 1930 ، أصدر الحزب تصريحاً في أربع صفحات في هذه المناسبة . وقد خاطب التصريح الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي بهذه الطريقة : « من أجل استقلال بلادكم ، ومن أجل مطالبكم ، تآخوا مع العمال ».

وقد تضمنت الصحفة الأولى من تصريح الحزب الشيوعي الفرنسي صورة ساخرة (كاريكاتير) تظهر الفرنسيين زمن الاحتلال يحرقون المنازل ويطردون السكان . وبعد تتبع آثار الاستعمار على السكان ، توجه التصريح إلى الجنود الجزائريين وطالبهم بأن يرفضوا المحاربة في « الحروب الامبريالية » في المغرب وسورية . وبناء على التصريح المذكور ، فإن الاحتلال كان من عمل البورجوازية الفرنسية والجزائرية أيضاً.

---

(69) نص على ذلك ج. ديبارمي ، « مقاومة الغرب » في « أ. ف. » (ماي ، 1933) ص 265 .

ثم نادى الحزب الشيوعي الفرنسي الجزائريين أن يسيروا جنباً إلى جنب مع العمال الفرنسيين ، « لكي تدافعوا عن مصالحكم ، ولكي تساعدوا الشعب الجزائري في كفاحه ضد الإمبريالية ، ولكي تحققوا إستقلال الجزائر »[70] . إن المأزق الإستعماري ، والقومي ، والعالمي ، للحزب الشيوعي الفرنسي بخصوص المسألة الجزائرية ، سيكون محل دراسة لاحقة . أما الهدف الرئيسي هنا فهو ملاحظة رأي هذا الحزب إزاء الإحتفال بالإحتلال .

وقد إستنكر إحتفالات سنة 1930 الجزائريون المتمردون في أوروبا أيضاً ، ولا سيما في ألمانيا ، ففي برلين نظمت « لجنة المغرب العربي » ، التي تعتبر نفسها إمتداداً « للجنة الدفاع عن أفريقيا الشمالية » التي أنشئت أثناء الحرب ، مؤتمراً كبيراً للإحتجاج على الإحتفال الفرنسي . وفي هذه المناسبة أصدر المتمردون الجزائريون بياناً بعنوان « قرن من إستعباد المسلمين الجزائريين تحت النير الفرنسي » . وبناء على رأي كاتب فرنسي معاصر ، فإن السلطات الفرنسية قد منعت هذا البيان من دخول أفريقيا الشمالية كلها[71] .

إن الناظر في موقف السياسة الفرنسية نحو الحركة الوطنية الجزائرية سيجد أن عقد العشرينات لم يكن أفضل من سابقه . ويظهر السجل أنه كلما ضغطت هذه الحركة من أجل الإعتراف بها ، أصبح رُد فرنسا أكثر جفاء وسلبية . ورغم تواضع إصلاح سنة 1919 فإن الفرنسيين قد خرقوه بتجديد قانون الأهالي والإحتجاز السري ثم بحل نجم أفريقيا الشمالية ، سنة 1929 ، وبإنتخابات مشكوك فيها ، وبتقييد هجرة الجزائريين إلى فرنسا ، وأخيراً باضطهاد الصحافة الوطنية . وقد صرفت السلطات الفرنسية مطالب الوطنيين من أجل الحقوق السياسية على أنها من وحي الدعاية الشيوعية ، والألمانية وحركة الجامعة الإسلامية .

وقد بلغت هذه السياسية السلبية أوجها في إحتفال 1930 . ففي هذه المناسبة فتح الفرنسيون جروحاً قديمة ووجهوا ضربة مصدمة إلى شهامة العنصر المقهور مرة ثانية . وقد دفع الفرنسيون بمهرجاناتهم ، وأفراحهم ، وإستعراضاتهم غير

---

(70) أشير الى ذلك في « الجزائر » في « أ.ف. » (ماي ، 1930) ، ص 21 ـ 278 .

(71) ل. موهندس، «هجوم على أفريقية الفرنسية الشمالية» في (أ.ف.) (ديسمبر. 1934)، ص 701.

الضرورية ، الجزائريين ، الذين لم ينسوا أبداً أنهم كانوا قد إنهزموا والذين كانوا يعيشون في عهد وصفه بعض المعاصرين بأنه عهد بعث وطني - دفعوهم إلى أن يضغطوا بقوة من أجل حقوقهم وأن يشدوا أحزمتهم إستعداداً لجولة جديدة مع فرنسا . وهكذا فإن سنة 1930 قد مثلت تاريخاً هاماً في العلاقات الجزائرية - الفرنسية .

ولكن عقد العشرينات كان هاماً أيضاً في علاقة الحركة الوطنية الجزائرية بمشاكل أفريقيا الشمالية والمشاكل العربية . فمنذ سنة 1916، كانت هذه المناطق تعيش تحت ظروف جديدة خلقت نتيجة للحرب من جهة ، ولدفع الحركة القومية من جهة أخرى . ونظراً لأن الجزائريين كانوا قد تأثروا بطريقة أو بأخرى بحوادث أفريقيا الشمالية والعالم العربي ، فإن بعض الإنتباه يجب أن يعطى الآن لهذه الناحية .

3. من الرباط إلى بغداد :

إن الهدف من هذا القسم هو وصف رد الفعل الجزائري الشعبي للحوادث التي كانت تجري في أفريقيا الشمالية وفي العالم العربي خلال العشرينات . وسنتتبع في هذا القسم أيضاً ردود فعل هاتين المنطقتين للتطورات التي كانت تحدث في الجزائر في نفس الفترة . وليس هدفنا دراسة هذه الأحداث نفسها في المناطق التي وقعت فيها . فلن نتناول مثلاً ثورة الريف في المغرب ، ولا الإنتداب الفرنسي على سورية ، ولا إستقلال مصر ، ولا الحرب في ليبيا .

وفي سنة 1925 ، لاحظ المؤرخ توينبي ان « الجزائر منطقة من العالم الإسلامي ، حيث كان من الصعب على المجتمع الإسلامي أن يحافظ على قواعده الخاصة »[72] . حقاً أن التأثير الغربي كان بالقوة أقوى في الجزائر منه في أي جزء آخر من العالم الإسلامي . ولكنه واقعياً ، كان ضئيلاً وسطحياً ، لعدة أسباب .

أولاً، إن الخاصية الرئيسية للحكم الفرنسي في الجزائر كانت الإستغلال لا الحضارة . لقد سبقت الإشارة إلى أن الفرنسيين أنفسهم كانوا يفخرون بأنهم قد

---

(72) «مدخل» ، 1925 ، م1 ، ص 175 .

إحتلوا الجزائر بالقوة . ولما استقروا هناك ، خلقوا مجتمعين منفصلين ، أحدهما للمواطنين الفرنسيين (المنتصرون) ، وآخر للرعايا الفرنسيين (المنهزمون) . والحق أن المجتمعين قد بقيا منفصلين بإجراءات شرعية وحواجز إجتماعية - عنصريّة.

ثانياً ، إن المجتمع الجزائري ، الذي قطع من بقية العالم حوالي قرن ، قد نما جافاً ، ومحافظاً ، ومتشككاً في التسرب الفرنسي . ولم يكن هناك إلا أولئك الجزائريون الذين تلقوا بعض التعليم الغربي ، قد بدأوا يتساءلون عن قيمة العادات ، والتقاليد الإسلامية ، والقيم القديمة . أما بقية الأهالي فقد ظلوا معزولين ، خرافيين ، ومحافظين . وكان حضور المجتمع الفرنسي بينهم قد جعل الجزائريين يعتقدون أن ثقافتهم كانت تحت تهديد مستمر . لذلك أصبح شعار الأغلبية منهم هو المحافظة على التراث الثقافي كما هو ، فقد كانوا يشعرون أن التغيير لن يصلح ثقافتهم بل سيؤدي إلى إحلال ثقافة أجنبية محلها[73] .

إن هذا النوع من رد الفعل الجزائري كان له بعض النتائج . إن قدرة المجتمع الجزائري على الإبقاء على الحالة الراهنة قد أظهرت نفسها في شكل جفاف ومحافظة . وكما لاحظ البروفيسور توينبي « ان هذا المجتمع قد شعر أن مقاومته للثقافة الفرنسية قد لا تكون نافذة المفعول إذا لم ينشد مساعدات أخرى . وإن هذه المساعدة الخارجية قد أصبحت واضحة بعد الحرب . ففي العشرينات من هذا القرن كان الجزائريون يبحثون في كل مكان عن المساعدة لمقاومة الحكم الفرنسي ، لا سياسياً بل ثقافياً أيضاً ، ولكن توينبي كان على حق حين كتب أن « الحركات الوطنية في مصر ، وفلسطين ، وسورية تجد صدى في تونس والجزائر »[74] . ويجب أن نضيف أن نفس الشيء كان صحيحاً بالنسبة للحركات الوطنية في المغرب ، وليبيا ، وتونس . لقد كان الجزائريون يتتبعون بإهتمام كبير التطورات التي كانت تحدث في تلك المناطق .

وأكثر حادث معروف في أفريقية الشمالية بعد الحرب العالمية الأولى هو ثورة

---

(73) هذا لا يعني أنه لم يكن هناك مطلب بالاصلاح من الجزائريين . أنه يعني فقط أن كل تغيير يجب أن يكون في اطار الثقافة الوطنية .

(74) نفس المصدر ، ص 95 .

المغرب ضد فرنسا واسبانيا . لقد أشرنا من قبل إلى أن المغرب كان منذ إعلان الحماية الفرنسية ، سنة 1912 ، في حالة ثورة . فتحت قيادة الأمير عبد المالك الجزائري ، تسبب الوطنيون ، بالمساعدة المعنوية ، وفي بعض الأحيان المادية من القوات المركزية ، في خسائر كبيرة واضطرابات مستمرة لفرنسا طيلة فترة الحرب العالمية الأولى . وقد كانت أسبانيا عندئذ محايدة أو عاطفة على الوطنيين . وبعد الحرب إختلف الأمير عبد المالك ومساعده الأمير عبد الكريم على الإستراتيجية : فالأول كان يريد مواصلة الحرب ضد فرنسا ، بينما أراد الثاني إعلان الثورة ضد أسبانيا . وحين قتل الأمير عبد المالك ، سنة 1924 ، واجه الأمير عبد الكريم قوات فرنسا وأسبانيا المتحالفة ، التي اضطرته إلى الإستسلام سنة 1926 .

والحق أن كل المغرب العربي كان قد تأثر بأحداث المغرب . وكان تدخل الأيديولوجيات الأجنبية ، مثل الشيوعية ، قد أضاف إنتشاراً وإثارة لهذه الأحداث . وقد نادى الأمير عبد الكريم الذي كان قد فتح ، منذ سنة 1925 ، جبهة جديدة ضد فرنسا ، بالإضافة إلى الجبهة الأصلية ضد أسبانيا ، جميع أهل المغرب ليشاركوه في تحرير المنطقة كلها . ومن بين نداءاته نداء 15 أوت ، 1925 . ففي هذا النداء أو البيان ، دعا الأمير عبد الكريم الجنود الجزائريين والتونسيين في الجيش الفرنسي إلى التمرد و « تحطيم نير العبودية ، وطرد المعتدين ، وتحرير أوطانكم » . وقد حث الأمير عبد الكريم أيضاً على التعاون مع شعوب الشرق لتحرير المغرب العربي كله(75) .

وتحت سلطة فيوليت الإشتراكي ، كحاكم عام على الجزائر ، عانى الجزائريون اضطهادات كبيرة نتيجة إتهامهم بوجود علاقة لهم مع ثورة المغرب . فالأمير خالد كان قد نفي ، ونظام الإحتجاز السري كان قد أعيد ، والجزائريون المشتبه فيهم كانوا قد طوردوا لمنع حدوث أية ثورة مشابهة في الجزائر أو تنظيم مساعدة فعالة للمغاربة . وقد أشرنا من قبل إلى أن بعثة الريغي كانت قد اتهمت بتنظيم ثورة في الجزائر لصالح الأمير عبد الكريم وبث دعاية معادية لفرنسا . كما أن عدداً من الجزائريين كانوا قد اعتقلوا بحجة أنهم قد « دافعوا عن عبد الكريم وتنبأوا

---

(75) نوبشي ، ص 59 .

بوصوله قريباً إلى الجزائر لتخليص شعبها من نير المستعمرين » . كما اتهم جزائريون آخرون بالتعاون مع الشيوعيين في جهودهم لمساعدة الأمير عبد الكريم وتخريب الروح الفرنسية المعنوية في المغرب(76) .

ولم يعان الجزائريون في وطنهم فقط بسبب تأييدهم لثورة المغرب ، بل عانوا أيضاً من أجلها في الخارج . ففي صيف 1925 طردت فرنسا أحمد توفيق المدني ، الجزائري الأصل ، من تونس إلى الجزائر . وقد كان إلمدني ، في وقت طرده ، كاتباً عاماً لحزب الدستور التونسي ، ومحرراً لجريدة « أفريقيا » . كان الفرنسيون قد اتهموه بتأييد الثورة المغربية وإثارة الأهالي بكتاباته(77) . وخلال نفس السنة كتب حسن قلاتي ، المحامي الجزائري الأصل أيضاً في تونس ، سلسلة من المقالات بعنوان « دراسة عن وضع مسلمي الجزائر » في جريدته « النهضة » . وقد منع فيوليت هذه الجريدة من دخول الجزائر ، رغم أنها كانت معروفة باتجاهها المعتدل والمعادي للبولشفية(78) .

وخلال سنة 1924 نظم الجزائريون في باريس حملة دعاية واسعة لصالح الثورة المغربية والقضية الجزائرية . فتحت إشراف منظمة تدعى « الإتحاد العالمي » (التي يبدو أنها كانت تحت تأثير الحركة الشيوعية) عقد الجزائريون عدة مؤتمرات كان فيها الأمير خالد ، الزعيم الوطني المنفي هو المتحدث الرئيسي . وقد احتجوا ضد الأحوال التي كان العمال الجزائريون يعيشون تحتها في فرنسا . كما عبروا عن سرورهم لنجاح الأمير عبد الكريم في المغرب ، وطالبوا بطرد أسبانيا من منطقة الريف . وفي نفس الوقت بعث الأمير خالد تهانيه إلى الأمير عبد الكريم لنجاحه في حربه ضد أسبانيا . وفي 27 سبتمبر ، دعا الجزائريان حاج علي عبد القادر ومحمد بن الأكحل ، إلى إجتماع أهالي المغرب العربي في باريس للمطالبة « بجلاء قتله

---

(76) نفس المصدر . النص مأخوذ من تقرير وزارة الداخلية الفرنسية .

(77) أنظر « الوضع في تونس » في «أ. ف.» (جويليه ، 1925) ، ص 326 . ان نفس المدني ساهم في نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . وقد لعب دوراً نشيطاً في الحركة الوطنية الجزائرية بعد طرده من تونس .

(78) «الجزائر» في «أ. ف.» (جوان ، 1925) ، ص 288 . كان قلاتي زعيماً لحزب الاصلاح في تونس ، وكانت « النهضة » هي الصحيفة الرسمية لهذا الحزب .

اخوانهم عن المغرب »[79] .

وقد نشرت جريدة عربية مصورة بإسم « لافابريك » قصصاً مصورة عن السياسة الفرنسية في الجزائر خصوصاً والمغرب العربي عموماً . ومن بين ما إحتوت عليه من القصص المصورة ما يلي : « إن العامل العربي يموت جوعاً بينما يسمن البورجوازي الفرنسي . أنهم (الفرنسيين) يبنون لنا مسجداً في باريس ، ولكن طائراتهم تحطم مساجدنا في المغرب . حين لا يستطيعون أن يقتلونا بضربات عصيهم ، يجعلوننا نموت في ميدان المعارك »[80] .

وفي 7 ديسمبر 1924 ، انعقد أول مؤتمر شمال أفريقي في باريس . وكان المؤتمر مؤيداً من الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد حضره 150 عضواً يمثلون 75,000 عامل من المغرب العربي في باريس ، معظمهم جزائريون[81] . وكانت أهداف المؤتمر الرئيسية هي :

1 ـ النضال من أجل إلغاء قانون الأهالي وغيره من القوانين الإستثنائية .

2 ـ الكفاح من أجل حق الإجتماع ، وحرية الصحافة والكلام .

3 ـ تنظيم جولات دعائية بين الأهالي ثم تقديم تقرير عن أحوالهم إلى المؤتمر الجامع[82] .

وفي الختام وافق المؤتمر على بعض الاجراءات الجديرة بالدراسة . فقد بعث ببرقية تأييد وتعاطف الى المغاربة ، والتونسيين ، والمصريين ، والسوفياتيين . وفي برقيته الى « الشعب المغربي والى عبد الكريم » قال المؤتمر انه في هذه « اللحظة التاريخية » يهنيء المحاربين « الاخوة المغاربة وزعيمهم البطل .. على نجاحهم

---

(79) «البولشفية والعمل الاستعماري الفرنسي» في «أ. ف.» (أكتوبر ، 1924) ، ص 532 . وقد نقلت هذه المجلة النص العربي من «لومانيتي» . أنظر أيضاً أوكتاف ديبون ، « البربر في فرنسا » في « أ. ف. س. » (سبتمبر ، 1925) ، ص 437 .

(80) أشار الى ذلك ديبون ، « البربر في فرنسا » في «أ. ف. س.» (سبتمبر ، 1925) ، ص 437 .

(81) «البولشيفية» في «أ. ف.» (نوفمبر، 1924) ، ص 580 . وبناء على هذه المجلة ، فان « لومانيتي » (13 نوفمبر) قد قالت أن هذا المؤتمر كان تحقيقاً للاتحاد بين «البروليتاريا المستعمرة والبروليتاريا الأوروبية» . كان عدد أهالي المغرب العربي في فرنسا كلها قد قدر بحوالي 150,000 .

(82) نفس المصدر (ديسمبر ، 1924)، ص 624 ـ 625 .

ضد الامبريالية الاسبانية » . وقد أعلن المؤتمر تضامنه الكامل مع المغاربة من أجل « تحرير بلادهم » . وانتهت البرقية بهذه الكلمات « ليحيى استقلال الشعوب المستعمرة ! تسقط الامبريالية الفرنسية ! » .

أما في برقيته إلى الوطنيين المصريين فإن المؤتمر قد أعلن أنه يقف بكل قلب أعضائه وراء «الاخوة المسلمين في مصر « الذين » اعتدى عليهم وهددهم بالمجاعة الاستعمار البربري الذي تقوم به الحكومة البريطانية » . لذلك أيد المؤتمر الاستقلال الكامل لمصر . وفي نفس الوقت أعلن المؤتمر تضامنه مع التونسيين « من أجل موقفهم الشجاع تجاه حكومة كتلة اليسار » الفرنسية . وأخيراً بعث المؤتمر الأول لأهل شمال أفريقيا في باريس برقية تأييد الى اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية[83] .

ان أهمية هذا المؤتمر واضحة من أنه كان مقدمة لانشاء نجم أفريقيا الشمالية ، الذي ولد بعد أقلّ من سنتين من ذلك التاريخ . وليس لدينا في الوقت الحاضر معلومات عما اذا كان الأمير خالد حاضراً هذا المؤتمر . ولكن من المعروف أنه كان في باريس صيف سنة 1924 . وفي نفس الوقت ، فانه يبدو أن مؤسسي النجم ـ ابن الأكحل ، ح ، علي عبد القادر ، عمار ايماش ، وأحمد مصالي ، وغيرهم ـ كانوا قد حضروا مؤتمر أفريقيا الشمالية الأول . وقد ضم المؤتمر ، بالاضافة الى الجزائريين ، مغاربة وتونسيين .

وقد تسببت حرب الفاشيين في ليبيا في تأييد الجزائريين الكامل لجيرانهم الليبيين . وكانت الصحافة الجزائرية تصف موسوليني بأنه « أعظم عدو للاسلام » . أما الحرب نفسها فقد وصفتها نفس الصحافة بأنها « فظائع الاستعمار الايطالي » . وكان المحاربون الليبيون يدعون « بالأبطال المسلمين » . وقد شجب الجزائريون ايطاليا لاعدام البطل الليبي عمر المختار الذي كان محبوباً كثيراً في الجزائر[84] . ومن جهة أخرى ، كان الجزائريون يحاولون اقناع فرنسا بأن ايطاليا كانت أكثر منها

(83) نفس المصدر .

(84) ج. ديبارمي ، « العلماء الجزائريون والدعاية الايطالية» في «أ.ف.» (مـاي ، 1938) ص 210 ـ 211 .

ليبرالية بادخالها الاصلاحات في ليبيا بينما هي لم تقم بذلك في الجزائر .

وبناء على قول كاتب فرنسي ، فان نوري بك ، أخ أنور باشا التركي ، قد طاف ليبيا وتونس سنة 1920 مؤكداً لمستمعيه أن حرب النار قد انتهت ، ولكن حرب السياسة كانت في بدايتها فقط ، وان الاستقلال كان على وشك التحقيق . ونفس الكاتب الفرنسي قد أكد أن الأحداث في ليبيا كانت لها نتائج هامة في كل من تونس والجزائر[85].

ورغم العقبات الكثيرة التي وضعتها السلطات الفرنسية أمام الصحافة العربية المطبوعة في الشرق الأدنى ، فان هذه الصحافة قد استمرت في التسرب الى الجزائر بشتى الطرق . ولما كانت الصحافة عادة تحت اشراف المتمردين الجزائريين ، والمصلحين الاسلاميين المصممين ، والمؤمنين بالقومية العربية، فإنها قد أبقت الجزائريين على اطلاع بأحوال الشرق الأدنى ، ولا سيما الوطن العربي . فأخبار الثورة السورية ضد فرنسا ، والضغط المصري على بريطانيا من أجل الاستقلال ، وانشاء مملكة فيصل في العراق ، والأحداث في الحجاز- كلها قد وصلت الجزائر بواسطة هذه الصحافة ، رغم « كل طرق منعها » ، بناء على قول كاتب فرنسي . وكان للجزائريين طرق أخرى للاطلاع على الأحداث في الشرق الأدنى ، منها الحج ، والمراسلات الخاصة ، والزوار . وبالاضافة الى ذلك ، عاد بعض المهاجرين الجزائريين الى وطنهم من الشرق الأدنى بعد الحرب . وبناء على رأي كاتب فرنسي ، فان كل ما كانت تمر به فرنسا في سورية يترجمه الجزائريون الى أعمال وطنية[86] .

وفي نفس الوقت ساعد الرحالة والصحفيون من الشرق الأدنى على توضيح الحالة الجزائرية الى قرائهم . وكان هؤلاء عادة ينتقدون فرنسا لوقوفها بين الجزائريين وتطورهم الوطني . فتحت عنوان « رسالة من مسافر عراقي » نشرت الجريدة البغدادية « العراق » (18 ديسمبر 1928) عرضاً بقلم مجهول عن رحلة صاحبه الى الجزائر

---

(85) مارتينيز «ر.د.م.» م 8 (مارس - أبريل ، 1932) ، ص 663 .

(86) طيبال ، «أ.ف.س.» (سبتمبر ، 1921) ، ص 204 - 205 . كتب المؤلف مقاله في الجزائر العاصمة في فيفري من نفس العام .

وتونس . وقد لاحظ كاتب الرسالة أن الروح الوطنية قد انتهت في الجزائر منذ وفاة الأمير عبد القادر ، وأن فرنسا قد قضت على كلمات مثل « الوطن » و « الحرية » في الجزائر . وقد لاحظ أيضاً أن التعليم العربي كان مهملاً من فرنسا ، وأن الجزائريين قبلوا هذا الوضع « غير العادل » الذي فرضه الفرنسيون عليهم .

وقد لاحظ المسافر العراقي كذلك أنه من وقت لآخر يظهر زعيم في الجزائر يطلب من فرنسا لا الاستقلال ولكن معاملة عادلة فقط لشعبه ، غير أن فرنسا ترد بوضع هذا الزعيم في السجن ، منهية بذلك حركته(87) . وقال المسافر العراقي انه في بعض الحالات يذهب الجزائريون الى تونس والشرق الأدنى ، ويتعلمون اللغة العربية والفكرة القومية ، ثم يعودون الى بلادهم ، ولكنهم حين يطلبون من السلطات الفرنسية أن يبنوا المدارس وينشؤوا الصحافة ، لا يجابون لذلك . ومنذ الحرب العالمية الأولى ، بناء على رأي المسافر العراقي ، بدأت السلطات الفرنسية تعطي الرخص بتلك المشاريع ، ولكن بشكل محدود جداً . ولهذا السبب ، كان للجزائر عندئذ (وقت زيارته لها) بعض الصحف والمدارس، والجمعيات الخيرية، والنوادي الثقافية بالعربية . وقد أنهى كاتب الرسالة المجهول ملاحظاته باعلان أن الجزائر كانت في طريق التطور مجارية الخط الذي كان يتطور فيه الشرق الأدنى(88) .

ومن الواضح أن الجزائر لم تعد معزولة خلال العشرينات ، كما كانت قبل الحرب . فالأحداث التي كانت تجري في المغرب العربي ، وفي الشرق الأدنى ، وبين المهاجرين الشمال أفريقيين في فرنسا قد وجدت تجاوباً كبيراً في الجزائر . كانت تلك الأحداث تصل الى الجزائر بطرق مختلفة ، بما في ذلك الصحف الشرقية ، والحج ، والرسائل ، والمسافرين ، الخ .

وقد كانت نشاطات المهاجرين الجزائريين في فرنسا ذات أهمية كبيرة . ولا

---

(87) يبدو أن في هذا اشارة الى الأمير خالد ، الذي لم يطالب بالاستقلال ، ولكن بالمساواة مع الفرنسيين ، وكان مصيره النفي .

(88) نقل ذلك في « المسالمون ضد أفريقية الفرنسية الشمالية » في «أ.ف.س.» (فيفري ، 1929) ص 163 ـ 164 . لاحظ الرحالة العراقي أنه وجد في « نادي عربي » (لعله يقصد نادي الترقي الذي كان قد أنشىء سنة 1927) كل الجرائد الاسلامية والعربية بالعربية . تبين أن هذا العراقي هو يونس بحري الذي كان يوقع مقالاته باسم (السائح العراقي) .

سيما عقد مؤتمر أفريقيا الشمالية الأول ، سنة 1924 ، ونتيجة لتأييد أنصارهم الأوروبيين واتصالاتهم المباشرة مع الأيديولوجيات الجديدة في أوروبا ، كان المهاجرون في طريقهم الى توجيه كل مصير المغرب العربي . وفي نفس الوقت وجدت التطورات الجارية في الجزائر نفسها أصداء لدى الرحالة والملاحظين الأوروبيين والشرقيين الذين انتقدوا فرنسا بشدة على سياستها في الجزائر . ومن بين أولئك الذين هاجموا السياسة الفرنسية في الجزائر خلال هذا العهد هو « الكومينتيرن » أو الحركة الشيوعية العالمية .

دعنا الآن ندرس موقف هذه الحركة من الحركة الوطنية الجزائرية .

4. ظل الكومينتيرن :
الوطنية الجزائرية والحركة الشيوعية العالمية :

في تقريره الى الكونفيدرالية العامة للعمل الموحد (س . ج . ت . ي) . نقل السيد لوبيك ، الذي كان قد عاد حديثاً من زيارة للجزائر ، ان لينين قد قال : « ان الجزائر هي قلعة الثورة[89] » . ان النشاطات التالية ستظهر الى أي مدى حاول الشيوعيون أن يطبقوا قولة لينين ، إذا كان قد قالها حقاً . وبهذه المناسبة ، يجب أن نركز على أن الهدف الرئيسي هو دراسة العلاقة بين الوطنية الجزائرية والكومينتيرن ، أو الحركة الشيوعية العالمية ، خلال العشرينات . فالقضية إذن هي هل استفاد الوطنيون الجزائريون أي شيء من هذه المنظمة ، وإذا كان الجواب بالإيجاب ، فإلى أي مدى .

هناك قناتان اتصلت الحركة الوطنية الجزائرية من خلالهما بالعالم الشيوعي : الحزب الشيوعي الفرنسي والكومينتيرن . ودور الأول ، الذي كان في نفسه بالطبع عضواً في الكومينتيرن ، سيدرس فيما بعد على حدة . نظراً للعلاقة الاستعمارية « الفذة » بين الجزائر وفرنسا ، فان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي يجب أن نتناوله مفصلاً . أما في هذا المكان من الكتاب فاننا سنحاول أن نتبع ظل الكومينتيرن حيثما

---

(89) أشار الى ذلك الحاكم العام فيوليت في تقريره عن الحالة العامة في الجزائر . أنظر «أ.ف.س» . (نوفمبر ، 1926) ، ص 541 .

امتد نحو القضية الجزائرية .

قبل أن يولد الكومينتيرن سنة 1919 ، لم يظهر المشكل الجزائري في الكتابات البولشفية عن الاستعمار . وحين أعلن البولشيفيون ، سنة 1919 ، تأييدهم لمبدأ تقرير المصير بالنسبة الى المسلمين الروسيين كانوا يهدفون ليس إلى كسب عاطفة هؤلاء الروس فقط ، بل أيضا الى كسب عاطفة البلاد الاسلامية الأخرى التي كان من بينها ، بناء على رأي بعض الكتاب ، أفريقية الشمالية .

وفي نداء 19 ديسمبر سنة 1917 ، الذي وقعه كل من لينين وستالين والموجه الى المسلمين خارج روسيا ، لم يذكر البولشيفيون أهل أفريقية الشمالية ضمنهم . فقد كان النداء موجهاً الى « مسلمي الشرق ، والايرانيين ، والأتراك ، والعرب ، والهنود ، والى كل أولئك الذين ظلوا منذ قرون هدفاً للمساومات(90) » ، غير أنه من الواضح أن النداء كان موجهاً لشعوب الشرق رغم عبارة « العرب » التي وردت فيه .

ورغم أن الجزائر لم تكن ممثلة من أهلها في المؤتمر الأول للكومينتيرن (الحركة الشيوعية العالمية الثالثة) الذي انعقد في موسكو من 2 الى 19 مارس سنة 1919 ، فان مشاكلها قد أثيرت ، لأول مرة ، في البيان الذي صدر في نهاية المؤتمر(91) . وخلال هذا المؤتمر كان التركيز على أوروبا وليس على آسيا وافريقيا . أما الممثلون من المستعمرات وشبه المستعمرات فقد كانوا مجرد أعضاء مستشارين . كان هؤلاء يضمون ممثلين من تركيا ، وايران ، وجورجيا ، وتركستان ، والصين ، وكوريا ، وأذربيجان .

أما المشاكل الاستعمارية ، فان المؤتمر لم يكد يتناولها ، وقد أوضح البيان النهائي ، الذي كتبه وقرأه ليون تروتسكي ، ان الثورة البروليتارية في أوروبا كانت ضرورية لتحرير المستعمرات . وبناء على هذا البيان ، فان تحرير الجزائر سيبقى متوقفاً على تحرير فرنسا « ان عمال وفلاحي الجزائر . . لن يحصلوا على امكانية

---

(90) ديميتريو بورسنر ، « البولشيفيون والمشكل القومي والاستعماري » (1927 ـ 1928) ، (جنيف : مكتبة ى . دروز ، 1957) ، ص 64 .

(91) مثل الجزائر رسمياً الحزب الشيوعي الفرنسي باعتبارها مقاطعة فرنسية . وسوف نرى أن هذا كان بداية مأزق طويل المدى لذلك الحزب بالنسبة الى القضايا القومية والاستعمارية .

وجود مستقل الا يوم يتخلص عمال فرنسا من كليمانصو ويأخذون مقاليد السلطة بأيديهم[92] .

واستناداً على الوثائق الموجودة ، فان المشكل الجزائري لم يناقش في مؤتمر الكومينتيرن الثاني (موسكو ، جوييه ، 1920) ، ولكن خلال هذا المؤتمر حول الشيوعيون اهتمامهم من أوروبا الى « البلاد المتخلفة » ، وخصوصاً بلاد الشرق . وقد خطب لينين ، الذي لعب دوراً نشيطاً أثناء هذا المؤتمر ، خطبة طويلة ، أنذر فيها رفقاءه بأن لا يتحدثوا عن حركات بورجوازية ـ ديموقراطية ولكن عن حركات قومية ـ ثورية فقط . ثم أوصى بأن على الشيوعيين في البلاد المتخلفة أن :

1 ـ يساعدوا حركات التحرر القومي ـ الثوري .

2 ـ أن يكافحوا ضد حركة الجامعة الاسلامية وغيرها من الحركات الأخرى التي تحارب الامبريالية لأغراض رجعية .

3 ـ بينما يساعدون الحركات التحريرية ، يجب أن لا يتحدوا معها ، ولكن يكونون معها أحلافاً مؤقتة فقط[93] .

وكما أن مؤتمر الكومينتيرن الثاني لم يناقش المشكل الجزائري ، كذلك لم يناقشه مؤتمر شعوب الشرق الذي انعقد في مدينة باكو خلال نفس العام . كانت الدعوات لهذا المؤتمر قد وجهت الى تركيا ، وإيران ، وأرمينيا . وغيرها من بلاد الشرق ، ولكن الجزائر وأفريقيا الشمالية عامة قد أهملت[94] . ورغم أن مؤتمر باكو كان قد انعقد تحت شعار لينين ، وهو اعطاء التأييد الكامل للحركات القومية ـ الثورية فقط ، فإن الجزائر ، فيما يبدو ، لم توفر هذا الشرط . فحتى سنة 1926 ، كانت الحركة الوطنية فيها غير ثورية ، ولكن اصلاحية ، مع نكهة من حركة الجامعة الاسلامية .

---

(92) نفس المصدر ، ص 65 ـ 66 .

(93) نفس المصدر ، ص 84 . وقد اتبع الحزب الشيوعي الفرنسي هذا الخط في الجزائر ، ولا سيما خلال الثلاثينات .

(94) نفس المصدر ، ص 97 . من أحدث الدراسات عن هذا الموضوع دراسة فؤاد المرسي خاطر « مؤتمر باكو للشعوب الشرقية ، سبتمبر 1920 » في (بحوث في التاريخ الحديث مهداة الى الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم) ، القاهرة ، 1976 ، 317 ـ 337 .

ورغم الفشل الواضح في مناقشة مشكل استعماري معقد مثل مشكل الجزائر خلال مؤتمرين شيوعيين هامين ، فإن الفرنسيين قد بالغوا في تصوير الدعاية الشيوعية في الجزائر . فقد أشرنا إلى أن النشاطات الوطنية كانت في نظر الفرنسيين عملاً شيوعياً . وكان الجزائريون متهمين بأنهم كانوا يتآمرون ضد فرنسا تحت التأثير البولشيفيكي . وفي نهاية سنة 1920 نشرت صحيفة « لوفر » الفرنسية « عرضاً مثيراً عن مؤامرة » جرت في صفوف الفيلق الأجنبي في الجزائر الذي قام بعض أعضائه الجزائريين بزعامة « المؤامرة »[95] . وهذه الطريقة في الاتهامات قد استمرت خلال العشرينات ولا سيما عندما أصبحت الحركة الوطنية أكثر نضالية.

وخلال نفس السنة (1920) أعلنت الحكومة السوفياتية رسمياً عن عزمها على تشجيع الثورة في الجزائر . وكانت هذه النية قد أعلنت حين وقعت روسيا وتركيا معاهدة مشتركة . وبناء على بعض التقارير فإن البلدين قد تواعدا على التعاون لتشجيع الثورة في الهند ، ومصر ، والجزائر ، والمغرب ، وتونس[96] . وحسبما أشرنا سابقاً ، فإن الحركة الوطنية التركية تحت قيادة مصطفى كمال باشا قد جذبت إليها أنظار كثير من الجزائريين . ونفس الشيء يقال بالنسبة للثورة الروسية . ولكن الأحداث المتعاقبة قد أظهرت أن البلدين لم يكن لهما تدخل مباشر في المشكل الجزائري . ذلك أن تأثير تركيا (مثلا الخلافة الاسلامية قد انتهى في الحقيقة بسقوط الخلافة سنة 1924 . أما روسيا السوفياتية فيبدو أنها قد اكتفت بنشاطها داخل الكومينتيرن والحزب الشيوعي الفرنسي[97].

وقد فشل المؤتمر الثالث للكومينتيرن (موسكو ، جوان 1921) أيضاً في اتخاذ

---

(95) « التايمز » (لندن)، (14 ديسمبر ، 1920) ، ص 12 .

(96) « النيويورك تايمس » (14 أوت ، 1920) ، ص 21 .

(97) « بناء على بعض التقارير ، فإن السلطات الفرنسية في الجزائر قد اتهمت ، سنة 1928 ، بحارة الباخرة السوفياتية ، « فيغا » ، الذين كانوا يتمتعون بحق زيارة عاصمة الجزائر ، بنشر الدعاية بين الجزائريين والفرنسيين . وقد اتهمتهم باحضار « أكياس من الكتابات الشيوعية » الى الميناء ، وبعقد اجتماعات أظهروا فيها فضائل نظام حكم بلادهم . ونتيجة لذلك ، سحب الفرنسيون من البحارة رخصة النزول الى الميناء . أنظر « النيويورك تايمس » (18 سبتمبر ، 1928) ، ص 32 . وباستثناء هذه الحادثة ، ليس في الوثائق الموجودة ما يدل على تدخل سوفياتي مباشر في المشكل الجزائري خلال العهد المدروس .

اجراءات لصالح المشكل الجزائري . فتحت رئاسة زينوفييف وافق المؤتمر على مبدأ أولوية الثورة الآسيوية بدلاً من الأوروبية . وقد قدم زينوفييف ضيفاً ، وهو مكحول بك ، ليتحدث باسم « لجنة المسلمين الثوريين » وهي منظمة تمثل كل المسلمين . وقد أعطى مكحول بك المؤتمرين « صورة مجيدة » عن الحالة في تركيا ، والمغرب الأقصى ، وطرابلس (ليبيا) ، ومصر[98] . وليس هناك ما يدل على أن الجزائر كانت ضمن هذه « الصورة المجيدة ». وفي نفس الوقت ليس هناك دلالة على أن المؤتمر عامة قد ناقش مشكلها . ولكن على المرء أن يتذكر أن المغرب الذي أشير إليه كان في حالة ثورة تحت زعامة الأمير عبد المالك والأمير عبد الكريم الخطابي .

وخلال سنة 1924 انتقد بافلوفيتش ، وهو أفضل متخصص سوفياتي في شؤون شعوب الشرق ، بشدة المؤتمر الثاني للكومينتيرن، وهو المؤتمر الذي كان تحت تأثير لينين ، لموقفه من المشاكل الاستعمارية بالقياس الى موقف المؤتمر الثالث ، الذي كان تحت تأثير زينوفييف . وبناء على رأي بافلوفيتش ، فإن المؤتمر الثاني لم يستطع أن يدعم حركة ثورية في المغرب ، والجزائر ، وتونس . كما أنه ، بناء على رأيه ، قد فشل في إثارة القارتين السوداء والصفراء ونشر الأفكار التحررية بين الشعوب المستعمرة في آسيا وافريقيا . وقد اتهم بافلوفيتش الاشتراكيين بتفضيل الصمت بالنسبة لارتكاب القوات الفرنسية « المجازر » ضد المسلمين المغاربة[99] .

ان زيارة الرئيس الفرنسي ميليرن إلى الجزائر في ربيع 1922 قد جذبت ، فيما يبدو ، أنظار أعضاء الكومينتيرن إلى المشكل الجزائري . ففي تلك المناسبة أصدرت « اللجنة التنفيذية » للكومينتيرن بياناً « لتحرير » الجزائر وتونس (موسكو ، 20 ماي ، 1922) . وقد وعد البيان الجزائريين بأن فجر التحرير قد أشرق على البروليتاريا العربية التي تخضع لأسوأ أنواع الاستغلال من الأورستقراطية المحلية والمنتصرين الفرنسيين . كما ذكر الجزائريين أن الحضارة الفرنسية قد عبرت عن نفسها في القمع بلا رحمة وفي جباية الضرائب . وأخبرهم أن « النضال من أجل تحرير الجزائر وتونس

---

(98) بورسنر ، ص 109 .

(99) ايفار سبيكتر ، « الاتحاد السوفياتي والعالم الاسلامي ، 1917 ـ 1958 » (سياتل : طبعة جامعة واشنطن ، 1959) ، ص 55 ، يجد القارىء صورة بافلوفيتش على ص 106 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

قد بدأ . وسوف يستمر إلى أن يحقق المستعبدون انتصارهم » . ثم دعا بيان الكومينتيرن الجزائريين إلى الاتحاد تحت راية الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد حث الجنود والبحارة الفرنسيين أن لا يطلقوا النار على « اخوانكم » الجزائريين والتونسيين . وأخيراً انتهى البيان بهذه الصرخة : « لتحيي ثورة بروليتاريات الشعوب المستعمرة ! »[100].

وفي نهاية سنة 1922 انعقد المؤتمر الرابع للكومينتيرن في موسكو ، وقد شغل المشكل الجزائري خلاله جزءاً من المناقشة . ويبدو أنه ما دامت الاهتمامات قد جذبت إلى الجزائر بزيارة ميليران ، فإن المؤتمر قد استمر في التركيز على الحالة هناك . ورغم أن الجزائريين لم يكونوا حاضرين في المؤتمر ، فإن الهجوم على الشيوعية « الأوروبية » قد تولاه شيوعي تونسي ، وهو الطاهر بوضنقة . لقد اتهم بوضنقة ، الذي كان عضواً في الفرع التونسي للحزب الشيوعي الفرنسي ، الشيوعيين الأوروبيين بكونهم « ناعمين » نحو المسألة الاستعمارية[101] . كما هاجم اللجنة المركزية لحزبه لعدم نضالها ضد الاستعمار خوفاً من فقد الأصوات الانتخابية . وكان أحد هجومات بوضنقة سبباً في قصبة مثيرة عن الحزب الشيوعي الفرنسي خصوصاً والكومينتيرن عموماً.

ذلك أن هذا الشيوعي التونسي قد أثار عجب رفقائه باتهام فرع سيدي بلعباس (الجزائر) للحزب الشيوعي الفرنسي بالانحراف عن مبادىء الكومينتيرن . وبناء على بوضنقة ، فإن هذا الفرع قد اتخذ الموقف التالي : ان الثورة في فرنسا يجب أن تسبق حركة الاستقلال في المستعمرات . لذلك قرر هذا الفرع أن لا يهاجم الاستعمار . وهو قرار يتناقض مع سياسة الكومينتيرن . وكان مما أعلنه فرع سيدي بلعباس : « أن أفضل وسيلة لتقدم حركات التحرير في مستعمرتنا (الجزائر) ليس في التسليم في هذه المستعمرة ، بل على العكس ، يجب أن تكون مهمة الحزب الشيوعي (الفرنسي) هي تدعيم الاتحادات التجارية والحركة الشيوعية (لأن)

---

(100) أشير اليه في « الأزمة التونسية والشيوعية » في « أ . ف . » (جويليه ، 1922) ، ص 330 من جريدة « كوريسبوندنس اينتيرناسيونال » .

(101) بورسنر ، ص 124 .

تحرير أهالي الجزائر لا يمكن أن يتحقق إلا نتيجة الثورة في فرنسا[102] . (تسطيري الخاص).

وهكذا فإن بعض الشيوعيين على الأقل قد تبنوا منطق الكولون في ربط مصير الجزائر بمصير فرنسا . فتحرير الأولى في نظرهم يتوقف على تحرير الثانية . ولما كان بوضنقة شيوعياً مناضلاً فقد طالب بتأديب هؤلاء « المنحرفين » . ولكن المؤتمر الرابع قد ختم أعماله بهذه التوصيات :

1 ـ تكوين جبهة موحدة بين الشيوعيين والوطنيين ـ والبورجوازيين .
2 ـ مضاعفة الدعاية المعادية للاستعمار من جانب الشيوعيين والأوروبيين الذين لبلادهم مستعمرات .
3 ـ ادخال الجزائريين في الحزب الشيوعي الفرنسي[103] .

أما قضية « المنحرفين » الفرنسيين فقد أثيرت من جديد في المؤتمر الخامس حيث تسببت في مناقشة ساخنة .

فالحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي كان الى ذلك الوقت ما يزال الممثل للجزائريين أيضاً ، قد واجه هجوماً كبيراً في المؤتمر الخامس للكومينتيرن الذي انعقد بموسكو من 17 جوان إلى 7 جوييه 1924 . وقد كان الهجوم هذه المرة من الوفد السوفياتي . والمؤتمر الذي انعقد تحت شعار النظام الحديدي والمركزية ، قد تميز بتقرير طويل عن المشاكل الاستعمارية قرأه مانويلسكي ، عضو الوفد السوفياتي .

وقد هاجم مانويلسكي ما سماه بالأخطاء الاشتراكية ـ الامبريالية التي ارتكبها فرع سيدي بلعباس للحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1922 . وقال ان ذلك كان « قصة مدهشة » ثم اتهم مانويلسكي الحزب الشيوعي الفرنسي لا باهمال « تصحيح » أخطائه فقط ، ولكن أيضاً « بالاستمرار » فيها ، وهاجم الحزب على أنه خائف من شجب سياسة شعبية استعمارية . وقد واجه مانويلسكي رفقاءه الفرنسيين باتهام مباشر ، وهو أنهم خلال مؤتمر حزبهم في ليون (1923) ، بعث الكومينتيرن برقية إلى « العمال الفرنسيين وإلى شعوب المستعمرات » ، ولكن جريدة « لوهيومانيتي »

---

(102) نفس المصدر ، ص 127 ـ 128 .
(103) نفس المصدر .

قد حذفت ، بناء على رأي مانويلسكي ، الجملة « وإلى شعوب المستعمرات » . وهنا زمجر عضو الوفد الروسي قائلاً : « حتى ولو كنتم أيها الشيوعيون الفرنسيون ، لا تفعلون أي شيء . . فلتكن لديكم على الأقل الشجاعة لتعيشوا تقاليد المصلح العظيم جان جوريس ، الذي لم يتردد أبداً في مهاجمة سياسة بلاده الاستعمارية » . كما اتهم مانويلسكي الشيوعيين الفرنسيين بالفشل في خلق جبهة مشتركة بين العمال البيض والملونين ، التي أوصى بها المؤتمر السابق . وأخيراً ضرب مانويلسكي « مثلاً » بالجزائر على ضعف البروليتاريا أمام « المستغلين »[104].

وفي وجه هذه الاتهامات المباشرة بالانحراف ، والجبن ، والأخطاء غير المصححة ، حاول الشيوعيون الفرنسيون أن يدافعوا عن أنفسهم . وفي إجابتهم لمانويلسكي أعلن الممثل الفرنسي ، سيلي ، أن جزبه قد حرر مجلة مصورة ، معادية للعسكرية ، بالإضافة إلى جرائد شيوعية بالعربية كانت توزع في الجزائر من مناطق المغرب العربي . وقد اقترح سيلي على المؤتمر عقد « اتفاق » بين الشيوعيين الفرنسيين ، والانكليز ، والبلجيكيين للقيام بدعاية مشتركة في أفريقيا والمناطق الأقيانوسية[105].

ونفس الموقف الدفاعي تولاه الشيوعي الفرنسي مارسيل كاشان بعد نهاية المؤتمر . فقد كتب في « لوهيومانيتي » (28 سبتمبر 1924) يشجب السياسة الفرنسية الرأسمالية في المستعمرات . ودافع عن شعوب الهند وأفريقيا الشمالية ، ومصر والصين ، التي « تناضل بحماس شديد وتطالب بحريتها » . وأكد كاشان تضامن الكومينتيرن والبروليتاريا العالمية مع « الشعوب المضطهدة »[106] .

أما في المؤتمر الخامس للكومينتيرين فان المشكل الجزائري قد حصل على بعض الدعم ، الذي لعله كان نتيجة لشعور الحزب الشيوعي الفرنسي « بالذنب » من ناحية ، واتهامات مانويلسكي من ناحية أخرى . فقد خلق المؤتمر « لجنة عن

---

(104) نفس المصدر ، ص 150 ـ 160 ـ 161 ـ 176 .

(105) « الحركة الشيوعية العالمية ضد فرنسا ومستعمراتها » في « كوريسباندان » (10 ماي ، 1925) ، ص 336 .

(106) نوشي ، ص 58 .

الاستعمار » مركزها السري في جنيف . وكانت مهمة هذه اللجنة مضاعفة الدعاية في المستعمرات وتنظيم الثورات القومية . وقد اشتملت هـذه اللجنة على أعضـاء من الجـزائر ، وروسيـا (بافلوفيتش ومـانويلسكي) ، وبـريطانيـا ، وفـرنسـا ، والهنـد الصينيـة ، والهند ، وايـرلندا ، وأمـريكا . وهنـاك عضوان جـزائريـان انتخبا لهـذه اللجنة ، ربما لأول مرة ، هما عبد القادر ، وسيدي بلسجال محمد[107] .

ولكن المشكل الجزائري لم يحصل على أي انتباه تقريباً من الشيوعيين في « مؤتمر كولونيا » الذي انعقد أيضاً سنة 1924 . ورغم أن الحزب الشيوعي الفرنسي قد مثل الجزائر باعتبارها مقاطعة من فرنسا ، فان الوفود قد منحت تأييدها الى الهند ، والصين ، والمغرب ، وسورية ، والسودان . وقد وافقت هذه الوفود على لائحة تعبر فيها عن « تضامنها الكامل مع الشعوب المستغلة والمضطهدة والمستعمرة في حركاتها القومية التحريرية » . أنه يبدو أن الشيوعيين الأوروبيين قد وقعوا تحت تأثير رفقائهم الفـرنسيين الذين كـانوا يعتقـدون أن المشكل الجـزائري مشكـل فـرنسي ، وليس استعمارياً . وقد نجحوا أيضاً في التأثير على أعضاء الكـومينتيرن قبـل ذلك لنفس الفكرة[108] .

أما المؤتمر السادس للكومينتيرن ، الذي سيعقد سنة 1925 ، فقد تأجل الى سنة 1928 نتيجة للصراع من أجل السلطة ، الذي نشب في روسيا بعد وفاة لينين ، بين ستالين وتروتسكي . ولكن انعقدت ، بدلاً من ذلك ، ندوة في موسكو من 21 مارس الى 6 أبريل ، 1925 ، وحضرتها وفود مختلفة ، من بينها وفـد الشيوعيين الفرنسيين . وقد أعدت هذه النـدوة وأشرفت عليهـا « اللجنة التنفيـذية المـوسعة » للحركة الشيوعية العـالمية ، وجلس في منصـة الندوة الـرئاسيـة كل من ستـالين ، وبوخارين ، وزينوفييف ، وهذا الأخير هو الذي كان رئيساً للندوة .

---

(107) « البولشيفية والعمل الإستعماري الفرنسي » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 534 ، نقلاً عن برقية « الجورنال » من موسكو (12 أوت ، 1924) . ويبدو أن عبد القـادر هو نفس حـاج علي عبد القادر الذي أسس بعد سنتين ، مع جزائريين آخرين نجم أفريقية الشمالية أما الجزائري الثاني فلا نعرف عنه الآن شيئاً .

(108) نفس المصدر ، ص 532 ـ 533 . جمع هذا المؤتمر الأحزاب الشيوعيـة الأوروبية والمنـظمات النقابية المتحالفة معها فقط .

وقد مدح زينوفييف الحزب الشيوعي الفرنسي لتخلصه من ضعفه ، ولكنه تأسف على أن الجبهة المشتركة المقترحة بين الشيوعيين والقوميين الثوريين في المستعمرات مازالت في حاجة الى تنظيم . وجواباً له قال الممثل الشيوعي الفرنسي ، تران ، انه متفق على ذلك ، ولكنه أكد أن حزبه قد حقق « بعض التقدم » بخصوص المشكل الاستعماري . ثم انشأت الندوة لجنة عن المشكل الاستعماري ، ومنحت تأييدها لثورة المغرب ، معتبرة الأمير عبد الكريم « أعظم زعيم لجميع الشعوب المضطهدة في العالم(109) » . وهكذا نجد أن الكومينتيرن قد أيد ثورة يقودها وطني ـ بورجوازي ، لأن الأمير عبد الكريم لم يكن عضواً في البروليتاريا المغربية . ونفس الموقف اتخذه الحزب الشيوعي الفرنسي بخصوص الأمير خالد الجزائري خلال نفسه العهد .

ولكن الكومينتيرن قد اتخذ موقفاً واضحاً بخصوص الجزائر خلال مؤتمره السادس الذي انعقد سنة 1928 . ان الجزائر في ذلك الوقت قد انقلبت من المرحلة الاصلاحية التي كان يمثلها الأمير خالد وحزبه الاصلاحي الى المرحلة الثورية ، التي كان يمثلها نجم أفريقيا الشمالية . وان سياسة الحزب الأخير قد أعلنت في مؤتمر عالمي انعقد في بلجيكا سنة 1927 . فقد حضر زعيم النجم عندئذ ، السيد مصالي ، المؤتمر السادس للكومينتيرن وشرح سياسة حزبه أمام المؤتمرين .

وعندما وجد الكومينتيرن أن نجم أفريقيا الشمالية يتبع سياسة وطنية ، لم يعجب بموقفه . لذلك أوصى المؤتمر السادس بأن على الشيوعيين أن « يعملوا داخل كل المنظمات الوطنية عندئذ . . لتحويل نجم أفريقيا الشمالية من حزب مغلق الى كتلة مناضلة تضم منظمات ثورية مختلفة ، مع انضمام جماعي الى الاتحادات التجارية . . واتحادات الفلاحين(110) » . ويبدو أن الصراع بين فكرة الحزب الوطني الثوري المغلق وفكرة الحزب الشيوعي الثوري المفتوح يعود تاريخه في الجزائر الى هذه الفترة . . وفي وسط الثلاثينات انتهى هذا الصراع وسوء التفاهم بين الوطنيين والشيوعيين بقطيعة نهائية .

---

(109) بورسنر ، 187 ، 190 .

(110) نفس المصدر ، ص 266 ـ 267 .

وفي نفس الوقت نجد أن لائحة هامة وافق عليها مؤتمر الأحزاب الشيوعية العربية سنة 1928 جديرة بالملاحظة هنا . فقد انتقد العرب الشيوعيون رفقاءهم في الجزائر وتونس لعدم استطاعتهم أن يقوموا بتمثيل حقيقي لقضية التحرير لدى الجماهير . فاتهموا الشيوعيين الجزائريين (مثلاً : الحزب الشيوعي الفرنسي) بعدم اتخاذ موقف ضد الامبريالية ، رغم قرار الكومينتيرن الشجاع والواضح بخصوص ذلك .

ولذلك نادى العرب الشيوعيون بالتعاون بين الأحزاب الشيوعية العربية لكي يحققوا « وحدة » الحركة و « فصل » أحزاب المغرب العربي الشيوعية ، في المستقبل ، عن الحزب الشيوعي الفرنسي وجعلها « وحدات مستقلة[111] » . ان الاقتراح الخاص بفصل أحزاب افريقية الشمالية الشيوعية عن الحزب الشيوعي الفرنسي اقتراح مهم . ولكن نلاحظ أن الحزب الشيوعي الجزائري لم يولد الا سنة 1935 .

فخلال العشرينات ، لم يلفت المشكل الجزائري الوطني انتباهاً كبيراً من الكومينتيرن . فهذه المنظمة الشيوعية العالمية ركزت أولاً على أوروبا وشعوب الشرق ، تاركة المشكل الاستعماري الجزائري الى الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد لفتت زيارة ميليران الى الجزائر و « القصة المدهشة » التي قام بها فرع سيدي بلعباس للحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر ، بعض الانتباه من الكومينتيرن ، ولكن لم يقدم أي علاج . وقد مرت الدعوات بتكوين جبهة مشتركة والنظام الصارم ، وغير ذلك من الشعارات دون اصغاء .

ومن جهة أخرى فشل الكومينتيرين في التعرف على أن المشكل الجزائري كان أكثر تعقيداً من مجرد مشكل « استعماري » عادي . فبينما عامل هذا المشكل عموماً على أنه استعماري ، نسي ان الحزب الشيوعي الفرنسي كان يعتبره مشكلاً قومياً

---

(111) سبيكتر ، ص 129 ـ 140 . يقول المؤلف أن هذه اللائحة كانت قد نشرت باليابانية في جريدة « ماركسيزم » (طوكيو ، مارس 1928) . وهذا يعني أن اللائحة قد صوت عليها سنة المؤتمر السادس للكومينتيرن ، الذي بدأ الوطنيون الجزائريون خلاله يظهرون سياسة مستقلة عن الحزب الشيوعي الفرنسي .

(مثلاً : فرنسياً) . ورغم أنه كان هناك بعض النقد من الوفود الروسية ، والتونسية والعربية الأخرى ، فان الكومينتيرن قد فشل في « معاقبة » عضوه الفرنسي ، وأخيراً قبل منطقه ووجهة نظره عن المشكل الجزائري .

ثم ان الكومينتيرن قد فشل في خلق حزب شيوعي جزائري ، تاركاً تمثيل الجزائر في أيدي الحزب الشيوعي الفرنسي ، مما يعني أنه قد قبل بالفكرة القائلة ان الجزائر كانت جزءاً من فرنسا . ثم أنه عندما خلق الوطنيون الجزائريون منظمتهم الثورية الخاصة من أجل الاستقلال عن فرنسا ، شك فيهم الكومينتيرن واتهمهم بالوطنية الضيقة . كما أنه قد حاول أن يوجه وأن يتسلط على هذه المنظمة لصالح الحركة الشيوعية لا لصالح الحركة الوطنية .

ولعل الأسوأ من ذلك هو موقف الحزب الشيوعي الفرنسي . فبدلاً من نشر الحركة الثورية ضد الاستعمار في الجزائر ، بناء على توصية الكومينتيرن ، لم يستطع الشيوعيون الفرنسيون أن يخلصوا أنفسهم من الادعاء الاستعماري القديم القائل ان الجزائر تمثل جزءاً مكملاً لفرنسا . لكنهم لم يتوقفوا عند ذلك ، بل حاولوا فرض أفكارهم على الوطنيين الجزائريين بدعوتهم الى « التآخي » بين البروليتاريا الجزائرية والفرنسية ، وهي طريقة جديدة لابقاء الحكم الفرنسي في الجزائر ، ولكن تحت الشيوعية الفرنسية هذه المرة بدلاً من الاستعمار الفرنسي القديم . غير أن موقف الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر يستحق دراسة معمقة خاصة .

5. الحركة الوطنية الجزائرية والحزب الشيوعي الفرنسي :

نظراً للعلاقة الاستعمارية الخاصة بين الجزائر وفرنسا ، فان الأفكار والأيديولوجيات الأوروبية قد وجدت طريقها بسهولة كبيرة الى الأهالي الجزائريين . فالصحافة الفرنسية ، والصراع السياسي ، والمناقشات البرلمانية ، والكتب ، والكتابات الدعائية لمختلف الأحزاب والجماعات تسربت عادة الى الجزائر بدون صعوبة . ولكن الأمية لدى الجماهير الجزائرية كانت حاجزاً قوياً بينهم وبين الأيديولوجيات الأوروبية . ومع ذلك فقد كان هناك مثقفون ونصف مثقفين استطاعوا ، باتصالهم المباشر مع الفرنسيين ، أن يدركوا ويهضموا بعض هذه الأيديولوجيات .

من بين جميع المذاهب الجديدة التي تسربت الى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى ، كانت الشيوعية أقواها ، على الأقل سطحياً . والحق أن الشيوعيين والمشاغبين الفرنسيين هم الذين كانوا مسؤولين على ادخال الفكرة الشيوعية الى الجزائر . وهناك أحزاب وجماعات فرنسية أخرى جاءت بالاشتراكية ، والفاشية ، والإنسانية ، بل نكاد نقول كل المدارس والمذاهب الفكرية التي ظهرت في أوروبا . أما رد الفعل الجزائري على بعض هذه المذاهب فانه سيدرس في الفصل الخاص بالأحزاب والجماعات الوطنية .

منذ سنة 1919 بدأت السلطات الفرنسية والكتاب العاديون في الجزائر يتهمون الشيوعيين بنقل المعركة الأيديولوجية بين الاستعمار والشيوعية الى الجزائر . ان بعض هذه الاتهامات كانت صحيحة ، ولكن أكثرها كان مجرد مبالغة ، وسوء فهم للحركة الوطنية ، ودعاية موجهة ضد الحركة الشيوعية عامة . ونحن سندرس الى أي مدى كان الشيوعيون نشيطين في الجزائر خلال العشرينات وأي نوع من العلاقة كان بينهم وبين الوطنيين ، أما رد فعل الكولون على ذلك فإننا سندرسه في نهاية هذا الفصل .

وبناء على رأي المعاصرين ، فان الفكرة الشيوعية قد بدأت تتسرب الى الجزائر منذ نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد كتب مارتينيير منذ سنة 1922 ، أن منشورات الانضمام الى الحركة الشيوعية العالمية قد عثر عليها في منطقة القبائل . وهذه المنشورات ، التي كانت مطبوعة في مرسيليا ، كانت مدحاً للينين ونظامه . وفي عنابة وقع أحد المعلمين اعلانات ضد زيارة الرئيس ميليران الى الجزائر . وفي وهران نادى عمال الموانىء بالاضراب احتجاجاً ضد السياسة الفرنسية نحو روسيا السوفياتية . وفي قسنطينة قام عمال القطار بعمليات تخريب ذات « نتائج مهلكة » .

وقد جاء المشاغبون الشيوعيون أيضاً الى الجزائر من المغرب ، وتونس ، والشرق الأدنى . وقص مارتينيير أن جندياً جزائرياً سابقاً ، كان قد سكن المدينة المنورة ، قد زار الجزائر قادماً من سورية مع جواز سفر أسباني وتجول هذا المحارب السابق في الجيش الفرنسي في الجزائر من مركز ديني إلى آخر ، متصلاً بالمرابطين ، قاصاً عليهم « أكاذيب » ودعاية غامضة . وأخيراً اعتقلته السلطات

الفرنسية[112] .

ومن الواضح أن مارتينيير كان يحاول أن يظهر العلاقة بين البولشيفية وحركة الجامعة الاسلامية في الجزائر . كان هذا موضوعاً شعبياً في ذلك الوقت لأن الفرنسيين اتهموا الحركتين بالتعاون للقضاء على الحكم الفرنسي هناك . وقد عبر الكاتب الانكليزي وورثام عن رأي مشابه في أوائل سنة 1922 . فقد أكد أن هناك عدة أمثلة تدل على التعاون الشيوعي ـ الاسلامي في الجزائر . وبعد أن ذكر شواهد كان قد أشار اليها مارتينيير ، أضاف وورثام أن بعض التلاميذ الجزائريين اتبعوا البولشيفية ، وان « بروليتاريات أفريقية الشمالية » قد أرسلت مندوبين الى المؤتمر الشيوعي الذي انعقد في مدينة تور . وأنهم قد انضموا الى الحركة الشيوعية العالمية[113] .

ان أعداء الشيوعيين قد اتهموهم بإستغلال الدين والوطنية في الجزائر . وحسب رأي مارتينيير ، فإن الشيوعيين قد التجأوا إلى العواطف الدينية والفكرة الوطنية لإثارة الأهالي . كما أنهم قد استعملوا فكرة الصراع الطبقي لخلق الحقد بين المجموعتين . فهم لم يبشروا بالماركسية هكذا ، ولكن بنوع من المذهب الديني والوطني . وذكر مارتينيير أنه في مؤتمر شعوب الشرق الذي انعقد في باكو أعلن عضو في وفد شرقي أن الثورة ستنتشر ببطء إلى الجزائر والمغرب[114] .

وفي أول ماي ، سنة 1920 ، جرى اضراب عام في أهم المدن الجزائرية . وكان هذا الاضراب الذي جاءت أوامره من باريس ، سياسياً في ملامحه وأهدافه ، ولكن كان له أيضاً نتائج اقتصادية[115] . ففي الجزائر العاصمة وحدها شارك بين

---

(112) مارتينيير ، «ر.د.م.» ، م 8 مارس ـ أبريل ، 1922 ، (ص 662 ـ 663). وقد أضاف المؤلف أن هذا المشاغب كان يتحدث الروسية .

(113) وورثام ، « مشاكل فرنسا » ، في « الأطلنطي الشهري » (فيفري ، 1922) ، ص 558 . ليس هناك ما يدل على أن هذه النشاطات الشيوعية التي أشار إليها المؤلفان قد قام بها الجزائريون فقط . ويبدو من الواضح أن معظم المشاركين في هذه النشاطات كانوا فرنسيين .

(114) مارتينيير، «ر.د.م.» ، م 8 (مارس ـ أبريل ، 1922) ، ص 664 .

(115) يجب أن يتذكر الإنسان أن الجزائر قد جربت خلال 1920 ـ 1921 مجاعة قاسية .

1200 إلى 1500 شخص في استعراض صاخب تميز بانشاد نشيد الحركة الشيوعية العالمية . وفي وهران حدث استعراض كبير « اضطر » زعماؤه ، بناء على رأي الكاتب ديمونتي ، إلى أن يتكلموا بالعربية في خطبهم أمام الجماهير ، مما يدل على أن كثيراً من المشاركين كانوا جزائريين . أما في سوق اهراس فقد أخذت المظاهرات والاستعراضات شكلاً عنيفاً[116] . ان هذا التكتيك كان جديداً في الجزائر . وقد قام الجزائريون قبل وخلال الحرب بالمظاهرات ، ولكن بمبادرتهم وتحت شعاراتهم الخاصة . أما الآن فإن هذه النشاطات المشاغبة كانت مؤيدة ومنظمة من فرنسيين ، ولكن بالطبع لأسباب مختلفة.

أثناء سنة 1922 كتبت جريدة فرنسية محافظة افتتاحية قالت فيها ان الشيوعيين « قد اختاروا الجزائر كحقل تجربة لهم » . وقد اختار الحزب الشيوعي الفرنسي النائب فاليان ـ كوتوريي ممثلاً له في افريقية الشمالية . وبعد أن أوضح كوتوريي في تقريره إلى حزبه كيف يمكن استغلال الجزائر ، أعلن أن « الثورة الشيوعية في الجزائر . . لها نوعان من الخصوم . الزعماء السياسيون ـ الدينيون (الجزائريون) . . . والكولون الأغنياء ، طغاة الجزائر . ويجب على الحزب أن يعمل ضد هاتين الطبقتين المستغلتين »[117] .

وقد أكدت إحدى المجلات الفرنسية المحافظة والموالية للاستعمار أن الشيوعية قد جنت بعض الثمار عندما تظاهر زعماؤها مع الجزائريين ضد منظمة رسمية ، وهي المجلس المالي ، تحت شعار : « يسقط الموتى ! »[118] . وفي ربيع سنة 1922 زار كوتوريي قسنطينة حيث عقد مؤتمراً حضره بعض الجزائريين . وقد أعلن مورينو ، وهو نائب فرنسي محافظ من قسنطينة ، أنه أثر مؤتمر كوتوريي ذهب أحد الجزائريين إلى السوق وأخبر جيرانه « اننا سنأخذ أراضي الكولون »[119] . وكان هدف مورينو الاشارة إلى أي مدى كان الجزائريون بسطاء في فهم « خطر » الشيوعية.

---

(116) ديمونتي ، « الجزائر » في « أ. ف. » (جوان ، 1920) ، ص 210 ـ 211 .

(117) « الخطر الشيوعي » في « أ. ف. » (جوان ، 1922) ص 269 ـ 270 .

(118) نفس المصدر .

(119) « الأزمة التونسية والحركة الشيوعية » في « أ. ف . » (جويليه ، 1922) ، ص 327 .

وخلال سنة 1924 قام الحزب الشيوعي الفرنسي بنشاطات حثيثة في الجزائر ، فبعد « القصة المدهشة » لفرعه في سيدي بعلباس سنة 1922 والهجومات الرعدية عليه من بوضنقة التونسي ومانويلسكي الروسي سنة 1923 و 1924 ، كان الحزب قد دفع إلى أن يفعل بعض الشيء حتى يكذب الاتهامات الموجهة ضده بالانحراف وباتباع سياسة استعمارية في الجزائر . لذلك خلق أولاً « فيدرالية الجزائر » للحزب الشيوعي التي كان مركزها مدينة الجزائر ، وهي خطوة نحو خلق الحزب الشيوعي الجزائري ولكن ذلك لم يتحقق الا بعد عقد كامل منذئذ.

وقد أصدرت الفيدرالية جريدة تحت اسم « لالوت سوسيال » (الصراع الاجتماعي) . ولم يكن لها سياسة مستقلة في الجزائر ، فقد كانت تتبع الأوامر من الأعلى ، وتعامل المشكل الجزائري داخل المشاكل « الفرنسية » الداخلية ، وليس باعتباره مشكلاً « وطنياً » جزائرياً . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الفيدرالية قد شغلت نفسها بالعمال الفرنسيين في المدن الرئيسية ، مهملة الجزائريين الذين كانوا عادة يعيشون في الأرياف[120].

وثانياً ، بدأ الحزب الشيوعي الفرنسي حملة « لتجنيد » الجزائريين ، وغيرهم من أهالي افريقية الشمالية ، إلى صفوفه . ومن بين أولئك الجزائريين حاج علي عبد القادر ومحمد بن الأكحل . كان الأول ، وهو « بلا سوابق » ، قد عينه الحزب الشيوعي الفرنسي لدخول انتخابات سنة 1924 عن منطقة باريس . أما الثاني فقد كان قد أدين من السلطات الفرنسية (3 جوان ، 1924) بخمس سنوات أشغالاً شاقة ، ولكن الحكم كان قد خفف في شهر أوت . وكان ابن الأكحل عاملاً في باريس . وليس هناك أدلة على الاتهامات ضده . وقد وصفته جريدة « لوهيومانيتي » بأنه كان « مناضلاً شجاعاً » من البروليتاريا المستعمرة التي كانت تحارب لتحرير نفسها « في اطار الحركة العالمية الثورية » [121] وكل من عبد القادر وابن الأكحل

---

(120) نوشي ، ص 61 .

(121) أشير إلى ذلك في « البولشيفية » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 531 . في هذا العدد وصف ابن الأكحل بأنه كان « جندياً » ولكن هذا الوصف تغير في العدد التالي إلى « عامل » . أنظر نفس المصدر (نوفمبر، 1924) ، ص 579 .

سيشتركان في تأسيس الحزب الثوري ، نجم افريقية الشمالية سنة 1926 .

ان الحزب الشيوعي الفرنسي لم يقرر فقط تجنيد الجزائريين وغيرهم من أهل أفريقيا الشمالية في صفوفه ، ولكنه قرر أيضاً منح تأييده المعنوي والفعال إلى الوطنيين في تلك المنطقة . فالأمير عبد الكريم المغربي كان قد حصل على تأييد الحزب الشيوعي في كفاحه ضد اسبانيا . (ولم تكن فرنسا قد دخلت بعد الحرب ضد الأمير عبد الكريم). كما اتخذ الحزب بعض الإجراءات للدخول في صلات مع حركة الأمير خالد في الجزائر وحزب الدستور في تونس(122).

واتباعاً لهذا الخط منح الحزب الشيوعي الفرنسي تأييده أيضاً للمؤتمر الأول لأهالي أفريقيا الشمالية ، الذي انعقد في باريس في نهاية سنة 1924 . وقد حضر المؤتمر النائب الشيوعي دوريو وحيّاه الحاضرون « بتصفيق جنوني » . وقد وعد دوريو بتأييد حزبه للشعوب المضطهدة . وطالب ، أمام وفود أفريقيا الشمالية ، بالجلاء عن المغرب ودعا إلى « الصداقة » بين البروليتاريا الفرنسية والشمال الافريقية . وأنهى دوريو خطبته الى المؤتمر بهذه الكلمات :

« ليحيى تحرير الشعوب المضطهدة ! تسقط الامبريالية الفرنسية ! »(123).

وبعد مؤتمر افريقيا الشمالية مباشرة ، كتب دوريو مقالاً في جريدة « لوهيومانتي » لسان الحزب الشيوعي الفرنسي علق فيه على أهمية المؤتمر المذكور . وردد فيه قرار الكومينتيرن خلال نفس السنة الخاص بانشاء « جبهة متحدة » بين الشيوعيين والوطنيين.

وقد كان المؤتمر ، في نظر دوريو ، ناجحاً ، فقد كان الأول من نوعه ، واحتوى برنامجه على « مطالب سياسية واقتصادية لعمال أفريقيا الشمالية في فرنسا وفي بلادهم ». وهو يرى أن المتكلمين قد أظهروا « استيعاباً حياً » لتناول المشاكل التي أمامهم . كما أظهروا « روح الصراع الطبقي بوضوح » في نقاشهم وقراراتهم . بالإضافة إلى ذلك ، فإنهم عبروا عن « حماس كبير » نحو الثورة الروسية ،

---

(122) أشار إلى ذلك هيريو ، رئيس الوزارة الفرنسية أثناء مناقشة في مجلس النواب . أنظر « البولشيفية » في (أ. ف.) (ديسمبر ، 1924) ، ص 623 .

(123) « البولشيفية » في «أ. ف.» (ديسمبر ، 1924)، ص 624 ـ 625 .

والحركات الوطنية المصرية ، والمغربية وغيرها . وقد وصف دوريو المؤتمر بأنه كان مفيداً باعتباره « وسيلة للاتحاد بين الشعوب المضطهدة » ، وتنبأ بأنه سيكون له « نتائج هامة » في كامل أفريقيا الشمالية . وأخيراً قال أن « الجبهة الواحدة » ، التي أوصى بها الكومينتيرين ، بين البروليتاريا الفرنسية والشعوب المستعمرة قد تحققت نتيجة لهذا المؤتمر[124] .

وخلال سنة 1925 طارد الحاكم العام الاشتراكي فيوليت الوطنيين والاشتراكيين على السواء . فباحيائه لنظام الاحتجاز السري ، وتعاونه مع وزير الداخلية البير سارو ، ومع الكولون ، حاول فيوليت أن يتخلص من معارضة الحكم الفرنسي في الجزائر ، ناظراً إلى كل لون على أنه أحمر (شعار الشيوعيين) وإلى كل ظل على أنه شبح شيوعي .

وكانت هذه الاجراءات متفقة مع دخول فرنسا للحرب إلى جانب اسبانيا ضد الأمير عبد الكريم في المغرب ، ومع اجراءات مشابهة اتخذها الفرنسيون ضد الوطنيين التونسيين . وخلال فترة قصيرة نجح فيوليت في نفي ، واعتقال ، وتجريد الجزائريين المشتبه في أمرهم من السلاح بحجة أنهم كانوا شيوعيين أو متعاونين معهم . ولا شك أنه عرقل النشاطات الشيوعية في الجزائر ، على الأقل بعض وقت ، ولكنه قد ضرب أيضاً الحركة الوطنية بشدة ؛ وهكذا ألزم فيوليت الأخيرة على أن تقوم بنشاطها سرياً في الجزائر أوأن تلتجىء إلى فرنسا نفسها .

ولم يستأنف الشيوعيون نشاطاتهم إلا سنة 1927 ، وهو أيضاً تاريخ تعيين حاكم عام جديد بدلاً من فيوليت . وفي جريدتهم العربية ، « الراية الحمراء » ، التي كانت موجهة إلى أهالي أفريقيا الشمالية ، وإلى السوريين ، واللبنانيين ، أيد الشيوعيون الخط العام الذي اختاره الوطنيون . ففي أحد أعدادها يقرأ المرء ما يلي : « ان الاستعمار ، باغتصابه أفضل أراضي الأهالي ، قد تسبب في فقرهم . يسقط الاستعمار ! ليحيى استقلال الجزائر ! » .

كما يجد المرء صورة ساخرة (كاريكاتير) في هذه الصحيفة تظهر الفلاحين الجزائريين سائرين وراء العلم الشيوعي ، مع المطرقة والمنجل ، ضد الكولون

(124) نفس المصدر ، ص 625 ، نقلاً عن (لوهيومانيتي) (8 ديسمبر ، 1924) .

والجيش الفرنسي . ويقرأ المرء تحت هذا العلم ما يلي : « لكي يحصل الجزائريون على حريتهم واستقلال بلادهم ، وانهاء الاستعمار فليس هناك أكثر فائدة لهم من أن ينظموا أنفسهم وأن يتوحدوا مع العمال الفرنسيين الثوريين » . وهناك صورة ساخرة أخرى تظهر أسرة جزائرية تموت جوعاً على قارعة الطريق[125] .

وفي نفس الوقت استعمل الشوعيون المناشير والاعلانات ، بالإضافة إلى الصحافة ، لنشر أفكارهم بين الجزائريين . فخلال نفس السنة (1927) وزع منشور بالعربية والفرنسية بين الأهالي يدعوهم إلى الانضمام الى حركة « الشباب الشيوعي » « لتحقيق » مطالبهم العاجلة ، كما ظهرت الاعلانات في « كل المدن الرئيسية » الجزائرية داعية الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي « أن لا تطلقوا النار على اخوانكم الذين يناضلون من أجل استقلال الجزائر » ثم طالب الأهالي من جديد بالانضمام إلى حركة « الشباب الشيوعي »[126] .

وتمشياً مع توصيات الكومينتيرن ، أصدر الحزبان الشيوعيان الفرنسي والايطالي نداء مشتركاً إلى أهالي أفريقيا الشمالية خلال نفس السنة . وقد حث النداء شعوب المنطقة ، بما في ذلك الليبيون ، على توحيد العمل لاستقلال الجميع . وقد ذكرهم أن الاستعمار والامبريالية كانا عدويهم . ودعا جنود المغرب العربي أن لا يحاربوا ضد اخوانهم الجنود الفرنسيين والإيطاليين. كما دعا النداء الشيوعي المشترك البروليتاريا الفرنسية والايطالية في أفريقيا الشمالية أن تعمل متحدة مع الأهالي المحليين . وانتهى بالشعارات التالية : « ليحيى استقلال طرابلس (ليبيا) وتونس ، والجزائر ، والمغرب ! لتسقط الحرب الامبريالية ! لتحيى الثورة العالمية »[127] .

وقد أعطى الاحتفال المئوي بالاحتلال الفرنسي للجزائر (سنة 1930) فرصة رائعة للحزب الشيوعي الفرنسي لمهاجمة الامبريالية الفرنسية وللمناداة بالتآخي

---

(125) أنظر ريني تيري « الهجوم الشيوعي ضد أفريقية الشمالية » في « أ.ف. » (ماي 1927) ، ص 182 ـ 184 . ويبدو أن جريدة « الراية الحمراء » قد ظهرت حوالي سنة 1926 ، وليس هناك ما يدل على مكان ولا أوقات صدورها . ويحمل عنوانها الفرعي عبارة « جريدة شيوعية » . وغالباً ما غيرت اسمها .

(126) « الحملة الشيوعية ضد أفريقية الشمالية » في « أ.ف. » (جوان ، 1927) ، ص 234 .

(127) ريني تيري ، « الهجوم الشيوعي » في « أ.ف. » ماي ، (1927) ، ص 183 .

والصداقة بين البروليتاريا الجزائرية والفرنسية . وقد سبق أن أشرنا إلى بعض حملات الشيوعيين بخصوص هذا الموضوع . وعند وصول رئيس الجمهورية الفرنسية الى الجزائر لحضور الاحتفال المئوي ، وضعت الاعلانات المصورة بالعربية والفرنسية ، على جدران المدن الجزائرية مستنكرة هذه المناسبة بطرق شتى .

ومن بين هذه الاعلانات واحد يمثل الشعب الجزائري مقيداً ، حاملاً عبئاً ثقيلاً ، بينما يهدده سوط وصليب وسيف . وتحت هذه الصورة يقرأ الانسان بالعربية ما يلي : « قرن من الاستعباد تحت الاستعمار الفرنسي في الجزائر » . ويصور اعلان آخر معمراً فرنسياً جسمه في فرنسا ويداه ممتدتان عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الجزائر والمغرب . ويقرأ الانسان تحت الصورة بالفرنسية ما يلي : « بمساعدة الحركة الشيوعية العالمية الحمراء ، ناضلوا ضد الإمبريالية الفرنسية »[128] .

ان الحزب الشيوعي الفرنسي كان يعمل في الجزائر خلال عقد كامل ، ولكن نتيجة نشاطاته كادت تكون لا شيء بخصوص الحركة الوطنية الجزائرية . ويعود هذا الفشل من جهة إلى برامجه ومن جهة أخرى إلى الواقع الجزائري . فبالنظر إلى أنه كان متعاوناً مع الكومينتيرن ، اضطر إلى أن يتخذ بعض المواقف بخصوص الحركة الوطنية الجزائرية . وقد شملت هذه المواقف « التحالف » بين الشيوعيين والجماعات الوطنية الثورية ، وخلق « جبهة متحدة » ، و « تجنيد » الجزائريين إلى صفوفه ، وتعاون وثيق مع نجم افريقيا الشمالية . كل هذه الأهداف حاولها الحزب ولكن كانت بلا نتيجة .

فبالإضافة إلى هدفه غير المحدد بخصوص مستقبل الجزائر ، كان الحزب قد وقع في مأزق التوفيق بين أيديولوجيته العالمية وأعماله القومية . وكعضو في الكومنتيرن ، متحدثاً باسم الجزائر ، كان من المفروض أن يحمل هجومه على الاستعمار والامبريالية الفرنسية الى أقصى حد ، حتى ولو أدى ذلك إلى تمزيق الامبراطورية الفرنسية . وقد كان الحزب مستعداً أن يهاجم ، ولكن ليس إلى ذلك الحد ، ولا سيما بالنظر إلى الجزائر التي لم يفتأ أبداً يعتبرها جزءاً من فرنسا . وأن

---

(128) ج . لادربي دي لاشاريير ، « الجزائر » في « أ . ف . » (أبريل ، 1930) ، ص 218 ، 219 .

قصة فرعه في سيدي بلعباس ، وعدم خلق فيدرالية شيوعية جزائرية الا سنة 1924 بدلاً من انشاء حزب مستقل ، وسيطرة الفرنسيين على هذه الفيدرالية بدلاً من الشيوعيين الجزائريين ، وموقف الحزب من نجم أفريقيا الشمالية ـ كل هذه تظهر المأزق الذي وقع فيه الحزب الشيوعي الفرنسي بالنظر إلى المذهبين المتعارضين في ذلك الوقت : القومية والعالمية.

ولكن جزءاً من فشل الحزب الشيوعي الفرنسي خلال العشرينات يعود إلى الواقع الجزائري . فقد كان هناك ثلاثة اتجاهات وطنية رئيسية في الجزائر خلال العقد الذي ندرسه : اتجاه المعتدلين الموالين لفرنسا ، ويدعى أحياناً باتجاه النخبة . واتجاه المصلحين الذي كانت تمثله حركة الأمير خالد من ناحية وقوة العلماء قبل تأسيس جمعيتهم من ناحية أخرى . ثم الاتجاه الثوري لنجم أفريقيا الشمالية . ولم يستطع الحزب الشيوعي أن يجذب إليه أياً من هذه الاتجاهات.

فمن 1922 إلى 1925 حاول الحزب أن يؤيد حركة الأمير خالد لخلق « جبهة متحدة » مع البورجوازية الوطنية . ولكن الأمير خالد ، الذي كان في حاجة إلى تأييد الشيوعيين لأغراض استراتيجية لم يكن الزعيم المثالي في نظر الشيوعيين . لقد كان وطنياً ، أو اسلامياً ، وبالطبع برجوازياً . أما مؤسسو جمعية العلماء ، بما في ذلك ابن باديس، فقد كانوا مصلحين وطنيين في الميدان الثقافي، وليس على المستوى السياسي . وإلى جانب ذلك ، فإن قيمتهم كقوة لم يكتشفها الشيوعيون إلاّ في الثلاثينات . كما أن العلماء كانوا مصلحين اسلاميين وعروبيين (مثلاً : رجعيين في نظر الشيوعيين) ، وهو اتجاه لم يكن الشيوعيون ليرحبوا به إلا لأسباب تكتيكية.

أما نجم افريقية الشمالية ، الذي أخذ أغلب تكتيك الشيوعيين ، فقد اتهم بالوطنية الضيقة لا من الشيوعيين فحسب ، ولكن من الكومينتيرن أيضاً . ورغم حاجتهم إلى التأييد الشيوعي ، فإن زعماء النجم ، الذين واجهوا ضغطاً لا يطاق للسيطرة عليهم، فقد اضطروا إلى أن يسحبوا من التعاون مع الشيوعيين وأن يتبعوا طريقهم الوطني الثوري الخاص . وقد بدأ سوء التفاهم بين الفريقين منذ مؤتمر بروكسل المنعقد سنة 1927 ، ثم ازداد حدة سنة 1929 حين حلت السلطات الفرنسية النجم.

ومع ذلك فقد جنت الحركة الوطنية الجزائرية بعض الثمار من نشاطات.

الشيوعيين في الجزائر . أولاً : ان هذه النشاطات كانت احدى العوامل التي فتحت ، كما سبقت الاشارة ، آفاقاً جديدة أمام الجزائريين خلال العهد المدروس : ثانياً : ان بعض الجزائريين قد وجدوا ملجأ في الحزب الشيوعي الفرنسي لكي يتقوا تعسف قانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية التي كانت موجهة ضدهم . وقد أيدت وسائل اعلام الحزب الوطنيين في مطالبهم بالمساواة في الحقوق ، وإعادة توزيع الأراضي ، وغير ذلك من الاجراءات الاجتماعية والاقتصادية.

ثالثاً : ان مهاجمة الشيوعيين للاستعمار عموماً جذبت اليهم أنظار كثير من الجزائريين ، رغم أن هدف الطرفين كان مختلفاً . رابعاً : ان الجزائريين قد تعلموا تكتيكاً جديداً من الشيوعيين في معارضة الحكم الفرنسي مثل النظام الصارم ، والمناورات السياسية ، وشعارات مختلفة عن الثورة ، والاستعمار ، والامبريالية ، والبورجوازية ، وما شابه ذلك . ولكن على المرء أن يتذكر أن كلا من الشيوعيين والوطنيين كان في حاجة إلى الآخر خلال العشرينات . فقد كان الأولون يحتاجون الأخيرين كجسر يتسربون منه إلى الجزائر . وكان الوطنيون في حاجة إلى الشيوعيين للوسائل التي يملكونها وللتأييد الذي كان في استطاعتهم أن يمنحوه في وجه الضغط من الادارة الفرنسية.

ليس في نيتنا دراسة كل مواقف الأحزاب السياسية الفرنسية نحو الحركة الوطنية الجزائرية . لقد سبق لنا أن أشرنا إلى موقف فيوليت الاشتراكي . وحوالي سنة 1930 أصدر نفس فيوليت كتاباً بعنوان « هل ستعيش الجزائر ؟ » كما أصدر جان مليا ، وهو اشتراكي فرنسي آخر ، حوالي نفس الوقت كتابه « الحالة المحزنة للأهالي المسلمين في الجزائر » . وقد كان للحزب الاشتراكي الفرنسي أيضاً فيدرالية في الجزائر تضم ، بناء على قول لوسيان لوريان الزعيم الاشتراكي الفرنسي ، 400 عضو يدفعون الاشتراكات ، سنة 1928 ، بعضهم جزائريون[129] . وقد اتبعت أحزاب فرنسية أخرى نفس التقليد في الجزائر ، ولكن علاقتها بالحركة الوطنية الجزائرية بقيت محافظة وغير واقعية.

ان العلاقة بين الحركة الوطنية الجزائرية والشيوعية قد درست لسببين :

---

(129) أنظر « النيويورك تايمس » (26 أوت ، 1928)، قسم 2 ، ص 8 .

أولاً ، لأن الشيوعيين قد عزوا لأنفسهم ، ولا سيما منذ الثلاثينات ، دوراً كبيراً في المشكل الجزائري .

ثانياً ، لأن الكولون ومعظم الرسميين الفرنسيين خلال العهد المدروس قد عزوا النشاطات الوطنية الجزائرية إلى الشيوعية . وقد أوضحنا أن دور كل من الكومينتيرن والحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر كان ضئيلاً ، بل لا يكاد يذكر رغم أن كثيراً من الضوء قد سلط ، فيما يبدو ، على أهمية كليهما . وقد درسنا من قبل ردود فعل الرسميين الفرنسيين في الجزائر ويبدو من المناسب الآن أن ندرس رد فعل الكولون لما كان يجري في الجزائر .

6. رد فعل الكولون :

منذ حرب الاستقلال الجزائرية ، اتجه الكتاب ، سواء كانوا جزائريين أو فرنسيين ، نحو وضع اللوم على كاهل الكولون من أجل العواقب السيئة الحظ للسياسة الفرنسية في الجزائر . ونظراً لذلك ، ولكون الكولون كانوا تقريباً هم المسيطرين الحقيقيين على الشؤون الجزائرية ، فإنه يبدو مستحسناً أن ندرس وجهة نظرهم ، ولا سيما نحو قضية الحركة الوطنية الجزائرية . والحق أن المرء لا يستطيع أن يفهم روح الجزائر خلال العشرينات إلّا إذا فهم رد فعل الكولون للقضايا المطروحة عندئذ .

ومن بين هذه القضايا ظهور حركة وطنية في الجزائر بزعامة الأمير خالد . فخلال الانتخابات البلدية سنة 1919 خسرت جماعة النخبة المعركة الانتخابية لأنهم كانوا ينادون بالاندماج مع فرنسا . أما الأمير خالد ، الذي جمع حوله جماعة نشيطة ، فقد ربح الجولة لوقوفه ضد الاندماج ، والتجنيس . وقد فرح الكولون لهذه النتيجة . فهم لم يرضوا عن سياسة النخبة نحو الاندماج لأنها قد تقود إلى وجود أغلبية جزائرية في المجالس المحلية ، تأخذ المبادرة والقرارات الأخيرة من يد الكولون . ولكن هؤلاء كانوا حذرين مما كانوا يسمونه بظهور التعصب الاسلامي ، أي اتجاه الأمير خالد الذي رفض الاندماج[130].

---

(130) أجرون ، « سياسة جزائرية » في (ر.هـ.م.ك.) ، م 6 (أبريل ـ جوان ، 1959) ، ص 147 .

وحين قدم الأمير خالد برنامجه الاصلاحي الى رئيس الوزارة الفرنسية سنة 1924 ، أخذ الكولون يدعون أن الأمير خالد كان عميلاً للشيوعيين . فقد اتهموه بأنه قد أبرم « اتفاقاً » مع الحزب الشيوعي الفرنسي ، وسخروا من خططه ، وأشاروا بهزء إلى أنه بعد فشله في أن يكون خليفة الاسلام في أفريقية ، حاول أن يكون « المهدي المنتظر للبولشيفية في أفريقيا الشمالية » . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الكولون سموا الأمير خالد « مرابطاً » يريد أن يقود أتباعه إلى « زاوية لينين » . فقد كان الأمير خالد ، في نظرهم ، شخصاً خائب الأمل يحمل معه مطامح لم تتحقق[131].

وفي عنفوان الثورة المغربية ، سنة 1925 ، اتهم الكولون الأمير خالد بالتواطؤ مع الأمير عبد الكريم ، ومع الشيوعيين مرة ثانية . وقد دعوه « بالأمير الأحمق » الذي تقلد لقبه (الأمير) « بدون حق » . ووصفوه بالأنانية والتكبر نظراً لوضع عائلته وقالوا عنه انه كان يبشر بالشيوعية وسط أهالي افريقية الشمالية في فرنسا كآلة في يد الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد امتدت هذه الدعاية في الحط من قيمة الأمير خالد ، بسبب نشاطاته الوطنية ، إلى درجة اتهامه « بالتآمر ضد فرنسا »[132].

ولم يكتف الكولون برفض برنامجه الاصلاحي وبالسخرية من شخصه ، بل حاولوا أن يقاوموا حركته باقتراح برنامج آخر كانوا يهدفون منه إلى تأكيد سيادتهم في الجزائر . وقد قدم هذا البرنامج الجديد مورينو ، نائب قسنطينة وأحد زعماء الكولون البارزين . فكان يضم : رفض سياسة الاندماج في الجزائر ، وتطبيق مبدأ اللامركزية هناك ، وزيادة عدد الكولون ، وتدعيم الجيش الفرنسي ، وتنظيم فعال للأمن لسلامة الأشخاص والأملاك ، واصلاحات حكيمة ومتثبتة . وقد حاول مورينو أن يقنع زملاءه المتحفظين في مجلس النواب بباريس بقوله ان « الكولون هم أخلص أصدقاء الأهالي (الجزائريين) . فهم يعاملونهم كما يجب أن يعاملوا ، فكروا في ذلك جيداً »[133].

وحين نظم أهالي أفريقية الشمالية مؤتمرهم الأول في باريس ، خلال ديسمبر سنة 1924 ، كان رد فعل الكولون عليهم سريعاً وساخراً . فقد سموا ذلك « مؤتمر

---

(131) « البولشيفية » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 .

(132) ريني تيري ، « إعتداء الريفيين » في « أ. ف. » (سبتمبر ، 1925) ، ص 469 .

(133) نص على ذلك نوشي ، ص 57 .

بني سيدي »[134] . أما الوفود التي شاركت في هذا المؤتمر فقد أطلقوا عليهم اسم « جنود الجيش الأحمر » ، مشيرين بذلك إلى التأثير الشيوعي بينهم . كما أطلقوا عليهم اسم « انكشارية (مرتزقة) الحزب الشيوعي » الفرنسي ، الذي لا تحتمل أمخاخهم مقاومة « مهيجات السحر الثوري » التي يقوم بها الشيوعيون[135].

وقد رد الكولون بعاطفة على مؤتمر بروكسيل المعادي للاستعمار ، سنة 1927 حيث مثل الجزائر نجم أفريقيا الشمالية . فأطلقوا على هذا المؤتمر اسم « الاجتماع الألماني البولشيفيكي »[136] . وكتب فرنسوا مارسال ، الذي كان رئيساً للوزارة الفرنسية سابقاً ، في جريدة « لوموند نوفو » (15 مارس 1937) ، أن مؤتمر بروكسل كان « تواطؤاً ألمانياً وروسياً وثيقاً »[137] . وقد نشر الكولون هذه الفكرة وهاجموا المؤتمر لمحاولته تحطيم الحكم الفرنسي في أفريقيا الشمالية .

وخلال سنة 1928 طالب الكولون بوضع حد للصحيفة الوطنية ، « الاقدام » . لقد وقفت هذه الجريدة ، التي ظهرت سنة 1919 . تدافع عن برنامج الحزب الاصلاحي الذي كان يديره الأمير خالد . وحين نفي هذا ، أصبحت الجريدة في يد نجم أفريقيا الشمالية . فكانت تنشر مطالبه ، وبياناته ، وسياسته العامة . ولكن الكولون ، الذين وجدوا هذه الصحيفة غير مريحة لهم ، اتهموها بكونها خطراً وشيوعية . وطالبوا الحكومة الفرنسية بعدم التسامح مع هذه الجريدة « لأنها تسمم الرأي العام لرعايانا ومحميينا أهالي أفريقيا الشمالية وتوجههم ضد الوطن[138] » .

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن رد فعل الرسميين الفرنسيين على نشاطات الشيوعيين في الجزائر . أما الكولون فقد شعروا بخطر الشيوعية وقرروا أن يبقوا هذا

---

(134) في المغرب العربي كلمة « سيدي » تعني عادة الإحترام والأدب . وفي إطلاق ذلك الإسم على المؤتمر، حاول الكولون أن يقللوا من تأثيره. ففي نظرهم لم يكن المؤتمر سوى إجتماع جماعة من الناس لكي يقولوا لبعضهم « سيدي » فلان الخ . كما يفعلون في المناسبات الإجتماعية .

(135) « البولشيفية » في «أ. ف. » (ديسمبر ، 1924) ، ص 624 ـ 625 .

(136) « الحملة الشيوعية » في «أ. ف. » (جوان 1927) ، ص 226 .

(137) « أصداء » في « أ. ف. » (أبريل ، 1927) ، ص 149 ـ 150 .

(138) « الدعاية الشيوعية » في « أ. ف. س. » (أكتوبر ، 1928) ، ص 655 . ظهرت (الإقدام) أولاً بالفرنسية بعد دمج جريدتي (الإسلام) و (الرشيدي) . ثم صدرت باللغتين منذ 1920 .

« الخطر » بعيداً عن المستعمرة « الهادئة » . وفي سنة 1922 نشرت جريدة استعمارية محافظة افتتاحية افتخرت فيها بأن الكولون قد نجحوا في القضاء على تسرب فكرة الجامعة الاسلامية الى أفريقيا الشمالية ، وقاوموا بفعالية أي تأثير أتى من مثال الحكم الذاتي المطبق في الهند ومصر ، وليبيا ، ثم قالت الجريدة ان الشيوعية الآن « تعلن الحرب على أفريقيا الشمالية الهادئة » . فالكولون اذن قرروا أن يوقفوا هذا الخطر الجديد . وبناء على هذه الجريدة ، فان الشيوعيين كانوا يستغلون « ضعف مخ » الجزائريين « بغموضهم » الماركسي . وأضافت أن المفكرين الماركسيين كانوا يصبون « كحولهم الدعائي المزيف » في عقول الجزائريين[139] .

وبعد الاشارة الى خطر الشيوعية في الجزائر والمستعمرات ، طالب الكولون ، سنة 1924 ، بأن تأخذ الحكومة الفرنسية اجراءات مناسبة لانقاذ مصالحهم من « الخطر » الشيوعي . وقالوا ان المحافظة على المستعمرات ضد المصل الانتخابي لا يكفي . ولذلك اقترحوا :

1 ـ يجب على الحكومة الفرنسية أن تصر ، في مفاوضتها مع السوفياتيين من أجل الإعتراف بنظامهم ، على أن لا يقوموا بخلق أي اضطراب « للسلام المعنوي الذي تتمتع به مستعمراتنا » وأن لا يبعثوا القناصل السوفياتية الى الجزائر ، أو تونس ، أو الرباط .

2 ـ مراقبة تامة « للمناشير الملتهبة والعملاء ذوي النظرات المشبوهة » الذين كانوا يحاولون استغلال سخط الأهالي في المستعمرات .

وحث الكولون كذلك على وجوب تخليص الأهالي الجزائريين، الذين كانوا قد انقذوا من « الخطر الألماني » من البولشفية أيضاً ، التي ستكون بالنسبة اليهم مثل أفكار « المهدي الثوري[140] » . وقد بعثت لجنة أفريقية الفرنسية أيضا عريضة تحتوي على اقتراحات مشابهة الى رئيس الوزارة الفرنسية ، والى وزير الداخلية ، والى وزير المستعمرات[141] .

---

(139) « الخطر الشيوعي » في «أ.ف.» (جوان ، 1922) ، ص 269 ـ 270 .
(140) « البولشيفية » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 534 .
(141) نفس المصدر ، (نوفمبر ، 1924) ، ص 575 .

وفي سنة 1925 خلق الكولون « لجنة للدعاية والعمل لأفريقيا الشمالية » ، وكان من أهداف هذه اللجنة دراسة كل المسائل المتعلقة بالابقاء على النظام ، ومساعدة تطور الصناعة والتجارة ، والزراعة الاستعمارية في أفريقيا الشمالية ، بكل الوسائل ، ثم مواصلة العمل الاستعماري ، الخ . وكان على هذه اللجنة أن تقوم « بدعاية نشيطة واسعة لصالح أفريقيا الشمالية (الفرنسية) في فرنسا وخارجها ، في جميع البيئات ، في كل الميادين ، بكل الوسائل » .

وقد ضمت الهيئة الادارية شخصيات سياسية ، ومالية ، وزراعية ، وصناعية ، وأدبية ، كانت لها مصالح في القضايا الاستعمارية . وكان صباتي ، الرئيس السابق للمجلس المالي في الجزائر الذي كان تحت سيطرة الكولون ، هو الذي انتخب رئيساً لهذه اللجنة . أما الحاكم العام في الجزائر والمقيمان العامان في المغرب وتونس فقد انتخبوا أعضاء شرفيين لها . ومن الحقائق الهامة عن هذه اللجنة أنها تحصلت على تعضيد رئيس الجمهورية الفرنسية عندئذ[142] . وكان السبب الظاهري لخلق هذه اللجنة هو محاربة الشيوعية ، ولكن السبب الحقيقي كان القضاء على الحركة الوطنية . فلو أن الكولون أرادوا حقاً وقف الشيوعية في الجزائر لحاربوها في فرنسا نفسها (مثلاً : داخل الحزب الشيوعي الفرنسي) .

وقد استمرت حملة الكولون ضد الشيوعية في الجزائر طيلة العشرينات . وبناء على رواية مجلة « لافريك فرانسيز » ، فان الكولون غالباً ما رددوا « المعادلة المشهورة » التي فاه بها البير سارو ، وزير الداخلية الفرنسي عندئذ ، حين أعلن في خطبة له ألقاها في قسنطينة : « الشيوعية ، ذلك هو العدو ! » .

وفي سنة 1927 مدح الكولون الحاكم العام الاشتراكي فيوليت لاعتقاله أعضاء بعثة الريغي . ونادوا بمنع دخول الصحف ، والمنشورات ، والاعلانات « وما شابهها من المطبوعات » الى أفريقيا الشمالية . وأصر الكولون على ضرورة « حماية » الجماهير الجزائرية من « سموم » النظريات الشيوعية . أما بخصوص أعضاء النخبة ، فان الكولون قد شعروا أن ليس هناك خطر عليهم من الشيوعية لأنهم كانوا أذكياء

(142) « لجنة للدعاية والعمل من أجل أفريقية الشمالية » في « أ.ف. » (جوان ، 1925) ، ص 267 - 268. كان المقر الرسمي لهذه اللجنة في باريس .

واعين وعالمين « بأننا قد أنقذنا أفريقية الشمالية من حالتها المتوحشة[143] » . ولم يكن الكولون ضد القومية والشيوعية فقط ، بل كانوا أيضاً ضد مبادىء ويلسون الديموقراطية. فقد أعلنوا أن أفكار ويلسون عن تقرير المصير قد زعزعت « السلام المعنوي » الذي حققته فرنسا قبل وخلال الحرب العالمية الأولى . وادعوا أن مبادىء ويلسون جعلت الانكليز يغيرون سياستهم في الشرق الأدنى بالنسبة الى القومية ، ولا سيما في مصر . وقد انتشرت هذه المبادىء ، بناء على الكولون ، في أفريقية الشمالية أيضاً ، وبذلك أحدثت اضطراباً لفرنسا هناك[144] . ومن رأي الكولون أن الحركة الوطنية الجزائرية قد أثيرت وشجعت بمبادىء ويلسون والمذهب الشيوعي معاً . وسواء كان الكولون يهاجمون الحركة الوطنية مباشرة أو غير مباشرة (من خلال الشيوعية) ، فانهم في الحقيقة قد حاولوا أن يوقفوا تياراً لا يمكن وقفه .

خلاصة

عند النظر من بعيد ، نجد أن الجزائر كانت بعيدة عن كونها « منطقة هادئة » خلال العشرينات . حقا اننا لا نجد ثورة عسكرية هامة قد حدثت خلال هذا العقد ، كما حدث ذلك غالباً في العقود السابقة . ولكن تجربة فترة النهضة والحرب العالمية الأولى قد جعلت الحركة الوطنية الجزائرية تنمو أكثر نضجاً وأكثر حكمة بعد الحرب .

ان التركيز الآن قد أصبح على التنظيم السياسي أكثر من العمليات العسكرية . وقد كان التسرب الى الجماهير ، بتبسيط ونشر البرنامج الرئيسي خاصية أخرى خلال هذا العهد . والخاصية الثالثة كانت عالمية المشكل الجزائري ، التي بدأت في الواقع خلال الحرب . ولكن اللجوء الى النشاطات السياسية داخل الاطار الشرعي لم يمنع فرنسا من مواصلة نفس السياسة القديمة نحو الحركة الوطنية الجزائرية .

وقد ناضلت الجزائر لتؤكد شخصيتها الخاصة في وجه قوات كبيرة : القومية ، والشيوعية ، والاستعمار ، فخلال عقد واحد مرت الحركة الوطنية الجزائرية

---

(143) « الحملة الشيوعية » في « أ. ف. » (جوان ، 1927) ، ص 231 ـ 234 .

(144) « البولشيفية » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 529 .

بمرحلتين : مرحلة المطالبة بالمساواة ثم اعلان الانفصال . وخلال المرحلة الأولى ، ألحت الجزائر على ضرورة الاصلاحات التي تلغي الحواجز بين المجموعتين الجزائرية والفرنسية . وعندما عرقلت هذا عدة عوامل ، اتجهت الحركة الوطنية نحو مرحلة الانفصال تحت شعارات ثورية ، ذلك أن « مهازل » سنة 1930 قد فتحت جروح الماضي ، وذكرت الجزائريين بهزيمتهم ، وشجعت الوطنيين على مواصلة سيرهم نحو اليسار .

ورغم أن الاستعمار كظاهرة عالمية كان في تدهور ، فان الكولون في الجزائر وبعض الرسميين الفرنسيين قد حاولوا بيأس أن يبقوا عليه حياً . وحين وجد هؤلاء الفرنسيون أنفسهم تحت هجوم الحركة الوطنية من جهة والشيوعية من جهة أخرى ، فقدوا السيطرة على أعصابهم وشرعوا في حملة تهدف بالدرجة الأولى الى قمع الحركة الوطنية . وفي أثناء ذلك كثيراً ما ديس القانون ، وصدرت بسهولة اجراءات خاصة ضد الوطنيين ، وغالباً ما ضحى بالمبادىء الديمقراطية .

وبدلاً من مكافحة الشيوعية على الجبهة المحلية (في فرنسا) ، حاول أولئك الفرنسيون أن يكافحوها في الجزائر ، ناسين أن ما كان يحدث هنا لم يكن الا صدى لما كان يحدث في فرنسا . وتحت ستار مكافحة الشيوعية ، حاول الكولون ومؤيدوهم بنشاط أن يحافظوا على الحالة الراهنة في الجزائر في وجه مطالبة الوطنيين بالتغيير . وقد كانت النتيجة المباشرة لذلك هي مضاعفة أعمال الحركة الوطنية . ولم تحن سنة 1930 حتى تحولت هذه الحركة بسرعة من مرحلة المساواة ـ الاصلاحية الى مرحلة الانفصال ـ الثورية .

والشيوعية ، التي أدخلها الفرنسيون أنفسهم الى الجزائر فشلت في تحقيق أهدافها . ورغم الأضواء الكثيرة التي سلطت عليها من هذه البلاد ، فإن نشاطاتها قد بولغ فيها وان وقعها لا يكاد يذكر . ولم يكن لا الكومينتيرن ولا الحزب الشيوعي الفرنسي قد عامل الجزائر ككيان منفصل عن فرنسا . فالكومينتيرن قد قبل « الأمر الواقع » واعترف بالحزب الشيوعي الفرنسي كممثل شرعي للجزائر أيضاً . وحين ينظر المرء الى أعمال مختلف المؤتمرات التي عقدها الكومينتيرن خلال العهد المدروس ، فانه سيجد أن المشكل الجزائري كان غالباً غائباً من جدول أعمال ، ولوائح ، ودعايات هذه المنظمة .

أما الحزب الشيوعي الفرنسي فانه لم يستطع أن يخلص نفسه من ايديولوجيته القومية ـ الاستعمارية . فطيلة العشرينات عامل هذا الحزب الجزائر كمقاطعة فرنسية . وهذا الموقف هو الذي كان العامل الرئيسي في الطلاق النهائي للشيوعيين والوطنيين الجزائريين . بالطبع ، ان الشيوعيين الفرنسيين قد شجبوا الامبريالية الفرنسية في كتاباتهم ونادوا بالتآخي بين البروليتاريا الجزائرية والفرنسية ، ولكن هذا كان خدمة للثورة العالمية ، وليس للحركة الوطنية الجزائرية .

وهناك ايديولوجيات أخرى ظهرت في الجزائر أيضاً خلال العشرينات فمبادىء ويلسون ، التي تبناها البريطانيون في الشرق الأدنى ورفضها الفرنسون ، قد وجدت صدى قوياً بين الوطنيين الجزائريين . وهناك جماعة أخرى منهم قد اعتبروا مبدأ تقرير المصير أفضل طريقة للجزائريين لكي يستطيعوا التعبير عن أنفسهم . كما أن أكثر أعضاء النخبة والبورجوازية الأهلية قد قبلت بالديمقراطية في شكلها الغربي .

أما حركة الجامعة الاسلامية فقد تلقت صدمة كبيرة بسقوط الخلافة سنة 1924 . فحتى الى ذلك التاريخ كانت الخلافة ترمز لوحدة لعالم الاسلامي ، واذا كان العرب في الشرق قد وجدوا في القومية العربية شعارهم الجامع ، فان الجزائريين كان لهم شعور مختلط . فقليل منهم فقط كانوا مثقفين بالعربية ، بينما كانوا جميعاً مسلمين محافظين . ورغم الإحياء الثقافي الذي بدأه العلماء ، فان الجزائريين حتى الى سنة 1930 كانوا ما يزالون ميالين بقوة نحو حركة الجامعة الاسلامية أكثر من ميلهم الى القومية العربية .

ان سجل تاريخ الجزائر خلال العشرينات يبين أن الكولون لم يكونوا الجماعة الوحيدة التي تلام على سوء تصرف السياسة الفرنسية في الجزائر . فاليوم نجد أكثر الكتاب يعتبرون الكولون هم المسؤولون على كل أخطاء فرنسا في « مقاطعتها » الافريقية . ولكن التاريخ سيروي أنه لا كليمانصو ، ولا ميليران ، ولا هيريو ، ولا فيوليت ، ولا ستيغ ، ولا بوانكاريه ، ولا بورد كان من الكولون . فهناك رسميون فرنسيون آخرون ، وصانعو السياسة ، والمشرعون ، والكتاب يتحملون أيضاً المسؤولية مع الكولون . ان استعمال الكولون ككبش فداء لانقاذ الآخرين أمر ليس واقعياً ، وليس على طول المدى تاريخياً . ولا يمكن لمؤرخ أن ينكر التأثير القوي الذي كان يمارسه الكولون ، باعتبارهم جماعة ضاغطة ، على مصير السياسة الفرنسية .

في الجزائر ، ولكن وضع اللوم عليهم وحدهم لا يستند على منطق .

وحتى الآن كنا نشير الى الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية الجزائرية بالاسم فقط في أغلب الأحيان ، مع اعطاء معلومات قليلة عن مذاهب أصحابها ، وأهدافهم ، وقيادتهم ، ومناوراتهم ، وقوتهم . فدعنا نـدرس الآن هذه المنـظمات الوطنية بالتفصيل .

* * *

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل السابع

من المساواة إلى الانفصال

1919 - 1930

مسح الفصل السابق كل القوى التي كانت تعمل في الجزائر خلال العشرينات ، وهذه القوى ، التي كانت تشمل القومية ، والاستعمار ، والشيوعية ، والديموقراطية وحركة الجامعة الاسلامية ، قد فتحت آفاقاً جديدة أمام الحركة الوطنية الجزائرية . ونفس القوى قد ساهمت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، في انضاج ، وتكتيك ، وتحديد اتجاه الحركة الوطنية . وباختصار فانها قد ساعدت على صقل وتوجيه كل مستقبل الجزائر.

وسواء كانت مرئية أو غير مرئية ، فإن الحركة الوطنية التي وجدت الى جانب تلك القوى ، كانت هي نفسها في زخم مستمر كبير . وقد عبرت عن نفسها في اتجاهات مختلفة . وكانت بعض هذه الاتجاهات تطالب بمساواة معتدلة مع الفرنسيين ، بينما تطالب أخرى بانفصال ثوري عنهم . وسيحاول هذا الفصل أن يتتبع اتجاهات الحركة الوطنية الجزائرية خلال العشرينات .

1. الحزب الليبرالي :

من الوجهة الرسمية ، كان هذا الحزب يدعى « فيدرالية المسلمين الجزائريين المنتخبين » ، وكان قد تأسس في 11 سبتمبر 1927 في الجزائر العاصمة . وبين 1919 و 1927 لم يكن هناك منظمة رسمية تمثل مصالح هذه الجماعة . فكما كان في عهد النهضة ، لم يكن هناك سوى كتلة فضفاضة تدعى جماعة النخبة . وكان أعضاء هذه الكتلة ، في أغلب الأحيان ، مختارين من الادارة الفرنسية ثم يوافق عليهم أو ينتخبهم قسم انتخابي جزائري صغير.

وليس لدينا من سبب في تسمية هذه الجماعة بالحزب الليبرالي ، بدلاً من فيدرالية المسلمين الجزائريين المنتخبين ، سوى توضيح الفكرة . ولكن سنرى أن

معظم أعضاء هذا الحزب كانوا يعتقدون في التعاون مع فرنسا وكانوا أيضاً معتدلين في مطالبهم السياسية والاجتماعية . وفي نفس الوقت ، كانوا مؤيدين متحمسين للاندماج وللثقافة الفرنسية.

ان ميلاد هذا الحزب يربطه بعض الكتاب بانتخابات سنة 1919 . ففي ذلك التاريخ انقسمت كتلة النخبة ، التي كانت قبل الحرب فضفاضة ، إلى جناحين سياسيين : يناديان بأهداف مختلفة على طول المدى . فالليبراليون الذين كانوا يشكلون قسماً كبيراً من النخبة ، نشدوا دمج الجزائر في فرنسا عن طريق التجنيس الجماعي ، بقطع النظر عن القضية الدينية . ونادوا بالتعليم الفرنسي واتباع طريقة الحياة الفرنسية ، وبالمساواة التامة مع الفرنسيين ، وببرنامج معتدل لبعض الاصلاحات الأساسية . ولكن نظراً لموقفهم الموالي للفرنسيين ، خسر الليبراليون الانتخابات . وبتعبير آخر ان الحزب كان « ليبرالياً » فقط لموقفه من الحالة الراهنة التي كان ينادي بها الكولون . وقد رفض الحزب الليبرالي التطرف كطريقة عمل والوطنية كهدف.

وبعد هزيمة سنة 1919 ثم 1922 ، بدأ الليبراليون في التقهقر . فالزعامة كان قد أخذها منهم الجناح اليساري من النخبة ، الذي سنطلق عليه من الآن الحزب الاصلاحي ، والذي كان تحت قيادة الأمير خالد . وقد بدأ الليبراليون يبحثون عن طريق آخر بعد أن وجدوا أنفسهم محل شك من الأهالي الجزائريين ، ومحل خوف من الكولون ، ومتروكين من فرنسا ، ومهاجمين من الاصلاحيين.

وقد اجتمع بعضهم حول جريدة « التقدم » المؤثرة ، التي كان يحررها الدكتور ابن التهامي ، وانضم آخرون منهم إلى جماعة ذات ثقافة أوروبية عالية تسمي نفسها « المستضعفون » ، وهم الذين كانوا يصدرون مجلة « لافوا دي هامبل » أو « صوت المستضعفين » . وكانت هذه الجماعة تنادي « بتحرير » الجزائر « بالمدارس » و « الدفاع عن المساواة في الحقوق » . ولكن جميع الليبراليين كانوا يأملون في فرصة يظهرون خلالها من جديد لكي يستأنفوا دورهم السياسي والاجتماعي النشيط ويربطوا « المسافة » التي تفصل بين الجزائر وأوروبا[1].

وقد حانت الفرصة اللامعة بالنسبة إليهم سنة 1923 . ففي هذا التاريخ نفت

(1) عباس ، ص 120 ، 126 .

فرنسا الأمير خالد وبعض الزعماء البارزين من حزبه . أما الكولون فقد قاموا بانتخابات بلدية مشكوك فيها (1924) حيث ألغوا جميع قائمة الاصلاحيين لصالح الليبراليين . وهكذا فان الليبراليين ، الذين خسروا تأييد الكولون سنة 1919 و 1922 ، وجدوا أنفسهم مباركين بهم سنة 1924 .

أما الفرصة اللامعة الأخرى بالنسبة للحزب الليبرالي ، فقد كانت تعيين « رجل يساري » ، وهو فيوليت ، سنة 1925 ، كحاكم عام للجزائر . وقد ظن الليبراليون أن فيوليت سيستعمل مناسبة الاحتفال المئوي كنقطة انطلاق نحو سياسة واقعية وإنسانية ، بدلاً من استعمارية ، في الجزائر . حتى أنهم تصوروا أن فيوليت كان قد تخلى عن منصبه سنة 1927 لأن الكولون لم يحبوه لسياسته الموالية للجزائر(2).

وبالإضافة إلى الدكتور ابن التهامي ، كان الليبراليون يضمون بعض المثقفين الآخرين مثل : بلحاج ، والزناتي ، والفاسي ، وطاهرات ، والليشاني ، وفرحات عباس ، والدكتور ابن جلول . وقد لعب الأخيران دوراً نشيطاً عاماً خلال الثلاثينات . أما خلال العشرينات فإن كليهما كان ما يزال غامضاً ، باحثاً له عن مكان في المستقبل.

ولد فرحات عباس سنة 1899 في بلدية الطاهير المختلطة ، ومارس تعليمه الابتدائي في مدينة جيجل ، وتعليمه الثانوي في قسنطينة ، والجامعي في جامعة الجزائر . وقد تخرج منها صيدلياً . وفي سنة 1926 انتخب رئيساً لجمعية الطلبة المسلمين الجزائريين في الجزائر العاصمة.

وتحت الاسم المستعار ، كمال ابن سراج ، كتب عباس سلسلة من المقالات خلال العشرينات كانت عموماً تعكس اتجاه الحزب الليبرالي ومن المهم أن نعرف أن كل ، أو على الأقل جل ، هذه المقالات كانت قد نشرت في جريدة « التقدم » التي كان يحررها الدكتور ابن التهامي . وفي سنة 1931 جمع عباس هذه المقالات ونشرها في كتابه « الشاب الجزائري » الذي أثار جدلاً .

وبناء على رأي أحد الكتّاب ، فإن « الشاب الجزائري » قد سجّل مرحلة خاصة

---

(2) نفس المصدر ، ص 123 ـ 124 .

في تطور النخبة الجزائرية . وقد استقبله الكولون على أنه يمثل وجهة نظر منعزلة ، أما أعضاء النخبة فقد نظروا إليه على أنه خطوة جديدة في تطورهم[3] . والواقع أن ظهور هذا الكتاب يجب أن يرتبط أيضاً « بمهازل » سنة 1930 ، لأن عباس ، بعد ذلك ، بدأ يشارك في حركة طلاب أفريقيا الشمالية . ان ظهور « الشاب الجزائري » ، مثل انشاء جمعية العلماء ، كان شهادة أخرى على أن أحداث سنة 1930 كانت هامة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية .

وهناك زعيم آخر سيؤثر في حياة الحزب الليبرالي ، وهو الدكتور ابن جلول . ولد ابن جلول في منطقة الأوراس سنة 1894 وواصل تعليمه الثانوي بقسنطينة حيث كان يحصل باستمرار على منح دراسية ، ثم تلقى تعليمه الجامعي في جامعة الجزائر حيث نال شهادة الدكتوراه في الطب حوالي سنة 1924 . وبعد ذلك قام ببعض النشاطات في الانتخابات المحلية والصحافة . وقد أعجب ابن جلول ، الى حد ما ، بالأمير خالد أكثر من اعجابه بالدكتور ابن التهامي[4]. وباعتباره عضواً في جماعة النخبة جذب ابن جلول ، بعد قمع حركة الأمير خالد والتطور التدريجي للحزب الليبرالي ، الى برنامج هذا الحزب . وسوف يكون ، خلال الثلاثينات ، زعيم الليبراليين ، مع برنامج شبيه بذلك الذي وضعه الأمير خالد خلال العشرينات.

ان برنامج الليبراليين كان في ملامحه معتدلاً وعليه طابع المساواة . وبناء على عضو منهم ، فإن مطالبهم القصوى هي :

1 ـ احترام الحضارة الاسلامية.
2 ـ التخلي عن نظرية الامتياز العنصري .
3 ـ المساواة في الحقوق السياسية .
4 ـ تحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع حديث عن طريق جماعة النخبة لا عن طريق الفرنسيين .

---

(3) جوليان ، « أفريقية الشمالية » ، ص 115 . وساراسان ص 74 ـ 75 .
أنظر أيضاً عن نشاط فرحات عباس الطلابي والسياسي في كتابنا (الحركة الوطنية الجزائرية) الجزء 3 ، ط 3 .

(4) ل . موهندس ، « الهجوم » في « أ.ف. » « فيفري ، 1935 » ، ص 93 ـ 94 . أنظر عنه أيضاً كتابنا (الحركة الوطنية الجزائرية) جـ 3 . ط 3 .

5 ـ ان الجزائريين ، كاليابانيين ، يطمحون إلى وضع أنفسهم في المدارس الأوروبية دون أن يفقدوا حضارتهم الخاصة.

أما دور فرنسا فقد كان ، بناء على وجهة نظر الليبراليين يتمثل في مساعدتهم على تحقيق هذه المهمة . وكانت رسالة الليبراليين هي اقناع فرنسا أن تجعل من الجزائر وباريس ملتقى المثقفين العرب حتى تساهم في نهضة العالم الاسلامي[5] . ولكن عندما ظهر أن هذا البرنامج لم يكن سوى حلم ، أصبح الليبراليون راضين ببرنامج « عملي » يحقق التعليم على الطريقة الغربية ، والأمن ، والعدل الاجتماعي .

ان الليبراليين قد كافحوا من أجل وضد عدد من القضايا خلال العشرينات . ومن بين القضايا الهامة التي وقفوا ضدها إجحاف الكولون والخاصة الأبوية للحكم الفرنسي . فهم ، كطبقة مثقفة ، كانوا أكثر وعياً من سواهم بما يجب أن يكون . لقد هزمهم تناقض القانون الفرنسي بالنسبة إلى الجزائريين . فحين يقول الجزائري انه عربي ، يجيبه القضاة الفرنسيون : « لا ، انك فرنسي » . ولكن حين يطالب بحقوق المواطن الفرنسي ، يجيبه نفس القضاة : « لا ، انك عربي »[7].

لذلك نادى الليبراليون بوضع حد لهذا التناقض بمنح الجزائريين كل الحقوق السياسية والمدنية مثل المواطنين الفرنسيين . وقد هاجموا أسطورة الامتياز العنصري ، والنظام الأبوي ، والاستعمار ، والظلم . ونادوا بالتآخي بين المجموعتين الجزائرية والفرنسية . ولم يطالبوا لا بالوطنية الجزائرية ولا بمذهب انفصالي عن فرنسا . بل انهم لم يعترضوا على أن تصبح الجزائر مقاطعة فرنسية . حتى أن بعضهم قد ادعى بأنه ليس في القرآن ما يمنع المسلم من أن يصبح فرنسياً »[8].

كان تحديد هجرة الجزائريين إلى فرنسا سنة 1924 قد خلق رد فعل عاطفي

---

(5) عباس ، ص 121 ـ 122 . وقد عبر المؤلف عن هذا الرأي في مقال نشره سنة 1927 في جريدة « التقدم » الناطقة باسم الحزب الليبرالي .

(6) نفس المصدر ، ص 123 .

(7) نفس المصدر ، ص 110 .

(8) جوليان ، « أفريقية الشمالية ، ص 110 .

كبير بين الليبراليين . فرغم تمسكهم بفرنسا ، لم يستطيعوا أن يتحملوا هذا القيد الجديد من التمييز ضد الجزائريين ، لذلك وجهوا احتجاجات مختلفة من المجالس المحلية ضد هذا الاجراء « الظالم » مطالبين بالغاء القيد الجديد . كما وجهوا « نداء » باسم المنتخبين الجزائريين في المجالس المحلية كان قد نشر في الصحافة . وأعلنوا أن القيد الجديد كانت له صيغة عنصرية (لأنه كان ضد هجرة الجزائريين فقط) ، وأنه لم يراع الحالة الاقتصادية للجزائر ، وأنه كان ضد قانون 14 جويليه ، 1914 الذي أنهى مثل هذا القيد . وقد أنذر نداء الليبراليين أن هذا الاجراء سيكون له « عواقب وخيمة وأنه يمكن أن يحطم السمعة الفرنسية في الجزائر »(9).

ومن بين الأحداث الهامة في حياة الليبراليين خلق منظمتهم الرسمية ، فيدرالية المسلمين الجزائريين المنتخبين . ففي 11 سبتمبر 1927 اجتمع في العاصمة حوالي 150 شخصاً منهم تحت رئاسة بومدين ، الذي كان عضواً في بلدية الجزائر ، لغيبة الدكتور ابن التهامي . وقد أوضح بومدين أن الليبراليين كانوا يحاولون تقليد زملائهم الفرنسيين الذين نظموا جمعية لهم للدفاع عن مصالحهم . وكان هدفهم ، بناء على رأيه ، ايجاد تفاهم مشترك بينهم وبين زملائهم الفرنسيين . وأضاف أن الليبراليين ، الذين تثقفوا في المدارس الفرنسية ، سيبقون مخلصين لفرنسا التي جاءت لهم بالحضارة . وفي هذه المناسبة وعد الليبراليون بالاحترام للسلطات الفرنسية في الجزائر ، وبعثوا ببرقيات الى رئيس الوزارة الفرنسية ، ووزير الداخلية ، والحاكم العام ، وإلى بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائر في المجلس الوطني الفرنسي . وعينوا وفداً من ثلاثين عضواً لشرح برنامجهم الى الحكومة الفرنسية في باريس(10) .

وإذا أخذنا في الاعتبار الوقت والظروف ، نجد برنامج الليبراليين جديراً بالاهتمام : كانت صحيفتهم « التقدم » هي التي تعلن مطالبهم . ومن بين هذه المطالب : التمثيل النيابي للجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي ، والمساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الخدمة العسكرية . والمساواة في المعاملة وفي التعويض

---

(9) مير ، « هجرة العمال الجزائريين » في « أ.ف.س. » (مارس ، 1925) ، ص 96 . كان هذا النداء قد وقع من تسعة منتخبين جزائريين .

(10) « الجزائر » في « أ.ف. » (نوفمبر ، 1927) ص 463 ـ 464 .

عن العمل. والغاء القيود المعرقلة لهجرة الجزائريين الى فرنسا. والغاء قانون الأهالي. وتطوير التعليم للجزائريين واصلاح تعليمهم المهني. وتطبيق القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائر، وإعادة النظر في نظام الانتخابات[11].

ومن الملاحظ أن جميع هذه المطالب لم تكن أساساً جديدة. فقد كانت تقريباً هي نفس المطالب التي نادى بها الجزائريون قبل الحرب العالمية الأولى ثم كررها الأمير خالد منذ 1919. ويبدو منها أن الليبراليين كانوا ما يزالون «محافظين» في مطالبهم. ان الوقت لم يعلمهم أنهم كانوا متأخرين أكثر مما ينبغي. ولكن إذا أخذنا في الاعتبار تدهورهم منذ الحرب وغياب الحزب الاصلاحي عن المسرح، فإن موقف الليبراليين الجماعي سنة 1927 كان يبدو نقطة انطلاق هامة. وعندئذ سيتولون دور الاصلاحيين. وسوف نرى أن هؤلاء كانوا مضطهدين أو مضطرين إما إلى أخذ موقف معتدل بمشاركة الليبراليين أو موقف ثوري بالانضمام إلى نجم أفريقيا الشمالية.

وعلى أية حال فإن وفداً من ثلاثين ليبرالياً قد غادر الجزائر متوجهاً إلى فرنسا في 14 نوفمبر 1927، لكي يضع مطالب الفيدرالية مباشرة أمام الحكومة الفرنسية. كان رئيس الوفد هو صالح م. سي هني. وقد قابل الوفد وزير الداخلية البير سارو. ثم أصدر هذا بياناً عقب الزيارة جاء فيه أنه قد استقبل الوفد بسرور وأنه قد عين «لجنة من العدول» لكي «تدرس المشكل المعقد» الذي نتج عن مطالب الجزائريين. ويبدو أن الوفد كان قد عاد إلى الجزائر دون أية نتيجة ايجابية[12].

وفي أقل من سنة بعد خلق الفيدرالية، كان الليبراليون متورطين في قصة هامة مع الادارة الفرنسية في الجزائر. فبعد مناقشة ساخنة عن الاستعمار (اغتصاب الأراضي) في المجلس المالي، تقدم الأعضاء الجزائريون فيه، برئاسة السيد سيسبان، بلائحة (14 جوان 1928) تنص على أن الاستعمار قد أصبح شيئاً من

---

(11) نفس المصدر. أنظر أيضاً نوشي، ص 63. توينبي، «مدخل» (1937)، م 1، ص 514.

(12) «الجزائر» في «أ. ف.» (نوفمبر، 1927)، ص 465، بالإضافة إلى رئيسه، كان الوفد يضم شكيكن، قائد محمود، مصطفى تامزالي، زروق محيي الدين، الخ. وقد قابل أعضاء الفيدرالية أيضاً الحاكم العام فيوليت وطلبوا منه أن يعيد النظر في استقالته. أنظر ص 464 من نفس المصدر.

المـاضي ، وأعلنت أن تـأميم الأراضي من قبـل الفـرنسيين كـان ضـد مصـالـح الجزائريين . وقد حثت اللائحة الحاكم العام على أن « ينهي بطريقة خاصـة . . . تأميم الأراضي كوسيلة للاستعمار »[13].

ولكن الجزء الهام من القصة لم يكن اللائحة في نفسها ، بل ما تلاها ، ففي 20 من جوان بدأت مناقشة حادة بخصوص اللائحة ، أدت إلى تدخل الحاكم العام بورد، شخصياً . وقـد أعلن بورد أن الجـزائريين كـانوا مضللين من أنـاس معادين للاستعمار في باريس وغير مطلعين على الوضع في الجزائـر ، وبناء على الحـاكم العام ، فإن هؤلاء الناس قد صوروا الاستعمار على أنه ضد مصالح الجـزائريين . وأخيراً سأل الأعضاء الجزائريين أن يعيدوا النظر في اللائحـة . وكان هـذا يعني ، بطريقة غير مباشرة ، أن بورد يريد من هؤلاء الأعضاء أن يسحبوا لائحتهم.

وهنا كان الليبراليون ممـزقين بين امكـانيتين متعـارضتين: أن يصروا على أن الاستعمار كان شيئـاً غير حميـد ، فيتخذوا بـذلك مـوقفاً صلبـاً قد لا يسـر الادارة الفرنسية ، أو أن يتراجعوا مفضلين الموقف الناعم ، وأخيراً اختاروا هذا الموقف . فبعد اعادة النظر ، قرروا سحب اللائحة[14] . ولا شك أن هذه القصة تشير أيضاً إلى اعتدال ونعومة الليبراليين نحو الحكم الفرنسي في بلادهم.

ومنذ سنة 1927 شن الليبراليون حملة من أجل تمثيل الجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي . وقد امتدت هذه الحملة لا إلى الجزائـر فحسب بل إلى فـرنسا نفسها أيضاً[15] . ونتيجة لذلك ، عين ألبير سارو وزير الداخلية لجنة أخرى في 6 سبتمبـر 1928 ، لكي تدرس « تمثيـل أهالي الجـزائـر وأهـالي المستعمـرات في المجلس الوطني (الفرنسي) » . وبنـاء على رأي أحد الكتـاب الفرنسيين ، فـإن الجزائر قد احتلت « مكاناً هاماً » في اللجنة الجديدة[16].

(13) « الجزائر » في « أ.ف. » (جويليه ، 1928) ، ص 298 .

(14) نفس المصدر .

(15) تعقيباً على هذه الحركة التحررية كتبت « التايمز » (21 نوفمبر 1927) أن « مـلاحظين جـادين » يعتقدون أن الجزائريين « لم يكونوا بعد مستعدين لتحمل هذه المسؤوليات » .

(16) كانت اللجنة الأولى قد عينها البير سارو بعد إجتماعه بوفد جزائري في باريس خلال السنة السابقة . وكان هدفها دراسة مطالب الليبرالين ، التي كانت تتضمن مشكلة التمثيل النيابي أيضاً .

ولكن قضية التمثيل النيابي لم تكن بسيطة كما يبدو . فقد كانت تعني أيضاً الجواب عما إذا كان الجزائريون سيكتفون بقسم انتخابي واحد مع الفرنسيين أو سيبقون على نظام القسمين . ويبدو أن الليبراليين قد قبلوا مبدأ الإبقاء على قسم انتخابي منفصل في المجلس الوطني الفرنسي مثل ما كان الحال في المجالس المحلية في الجزائر . وهذا الرأي قد عبرت عنه خصوصاً جريدة « التقدم » . ولكن الليبراليين قد غيروا رأيهم بالنسبة الى الصلاحية الانتخابية . فحتى سنة 1928 كانوا يؤمنون بأن الجزائريين المتجنسين فقط هم الذين لهم صلاحية التصويت إذا أصدرت فرنسا قوانين تعطيهم الحق في انتخاب النواب الى المجلس الوطني الفرنسي .

وقد تحول الليبراليون عن ذلك نتيجة ضغط شديد قام به العلماء . « فالشهاب » ، التي كانت تتكلم باسم هؤلاء ، عبرت عن الرأي بأن لكل الجزائريين ، سواء كانوا متجنسين أو غير متجنسين ، الحق في انتخاب النواب إلى المجلس الوطني[17] . ولكن رغم مضاعفة الحملة في الجزائر وتعيين لجان الدراسة الخاصة في فرنسا ، فإن قضية التمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي لم تتحقق قبل سنة 1947 .

والليبراليون ، مثل بقية الجزائريين ، قد هزتهم وأنذرتهم « مهازل » سنة 1930 . فرغم أن بعضهم قد تحدث في تلك المناسبة في صالح الرسالة الحضارية الفرنسية في الجزائر ، فإن الرياح كانت تهب في اتجاه آخر . أن فشلهم في تحقيق برنامجهم المعتدل في التعليم ، والتجنيس ، والتمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي ، قد حط من قيمتهم في أعين الأهالي . ومن جهة أخرى تسببت لهم استقالة فيوليت ، الذي كان ينادي بسياسة اندماجية في الجزائر شبيهة بسياستهم ، في أن يخسروا أحد مؤيديهم البارزين . وكان ظهور نجم أفريقيا الشمالية على رأس الاتجاه الوطني - الثوري وظهور العلماء على رأس الاتجاه الوطني - الثقافي قد ساهما أيضاً في تدهور الليبراليين . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن فرنسا قد عزلتهم بخيبات الأمل المتواصلة ، ولا سيما بحوادث سنة 1930 .

وهكذا كان الليبراليون في نهاية العقد قد خسروا قوتهم الفعالة . لقد كانوا في

---

(17) مارسيل لارنود ، « الجزائر » في « أ. ف. » (ديسمبر ، 1928) ، ص 526..

وضع شبيه كثيراً بذلك الذي كانوا عليه سنة 1919 . ولكي يستعيدوا فعاليتهم كان عليهم أن يقوموا ببعض التغييرات . وقد كان صدور « الشاب الجزائري » سنة 1931 ، وظهور الدكتور ابن جلول وفرحات عباس على المسرح السياسي النشيط ، والملهاة المعروفة باسم « برنامج فيوليت » ، إشارة إلى أن الليبراليين كانوا يتحركون نحو الاتجاه الجديد . ولكن هذه الظواهر تخص حقبة أخرى خارجة عن نطاق هذا الكتاب.

وفي نفس الوقت ، كانت هناك حركة وطنية قوية في الجزائر يقودها الأمير خالد . وبين سنة 1919 ، وحوالي 1925 كانت هذه الحركة ، التي أسميناها في هذا الكتاب بالحزب الاصلاحي ، ذات سمعة كبيرة في السياسة الجزائرية . وبعد نفي زعيمها ، لم تختف ، ولكنها انقسمت إلى جناحين : ثوري ومعتدل ، ذاب كلاهما في الأحزاب السياسية المحلية خلال تلك الفترة : النجم والحزب الليبرالي . ولكن الحزب الاصلاحي يحتاج إلى دراسة أكثر عمقاً .

2. الحزب الاصلاحي:

ان قصة الأمير خالد وحركته مثل ثابت في العلاقة بين الحركة الوطنية الجزائرية وفرنسا منذ الحرب العالمية الأولى . لقد رأى خالد نجمه يعلو عند نهاية الحرب لاعتبارات تعود الى أنه كان من نسل الأمير عبد القادر ، وأنه كان عارفاً بالحضارة الإسلامية والأوروبية ، وأنه كان محارباً قديماً قضى زمن الحرب على الجبهة الأوروبية.

واعتماداً على ذكرى جده الأمير عبد القادر التي لا تنسى ، وعلى أخبار عمه الأمير عبد المالك المثيرة في المغرب وعلى الحركات القومية في أوروبا والشرق الأدنى ، ثم على وجود فراغ في القيادة بالجزائر ، قرر الأمير خالد أن يدخل المعركة السياسية وأن يصبح المتحدث الرسمي باسم الحركة الوطنية الجزائرية وزعيماً ليس في الجزئر فقط بل في العالم الاسلامي أيضاً . وعندما وجدت فرنسا أن الأمير خالد وحركته غير مريحين ، حاربته أولاً عند صناديق الانتخابات ، ثم نفته وقمعت حركته . ولم يكن ذلك سوى نموذج بدأ ، في الحقيقة ، مع حركة حمدان خوجة ولم ينته إلاّ عندما تحقق الاستقلال للجزائر.

ولكن ظهور الأمير خالد لم يكن ظاهرة غريبة في السياسة الجزائرية ، فقبل الحرب كانت كتلة النخبة تحت قيادة الدكتور ابن التهامي ، الذي بالرغم من اختفائه أثناء الحرب ، استأنف زعامته للكتلة عندما انتهت الحرب . أما كتلة المحافظين فقد كانت تحت قيادة رجلين : ابن موهوب وابن سماية ، وكلاهما كان اصلاحياً وغير سياسي . وكلاهما أيضاً اختفى أثناء الحرب . وبعد سنة 1919 بقي الاتجاه الوطني المحافظ بدون زعامة بخلاف كتلة النخبة(18).

ولكن حركة الأمير خالد لم تكن دينية ، بل كانت سياسية وطنية . وفي الحقيقة أن هذه احدى الحالات التي يختلط فيها الدين والوطنية :

أولاً ، بناء على القانون الفرنسي ، فإن الجزائريين ، رغم أنهم كانوا رعايا فرنسيين ، لا يستطيعون أن يكونوا فرنسيين حقيقيين إلا إذا تخلوا عن حالتهم الشخصية كمسلمين . وبرفضهم لذلك (باستثناء قسم صغير من جماعة النخبة) ، دعم الجزائريون الفكرة الانفصالية (الوطنية) بينهم وبين الفرنسيين ، رغم أن هذه الفكرة كانت في الحقيقة مستندة على الدين . فعندما طلب الأمير خالد أن يسمح للجزائريين أن يصبحوا فرنسيين داخل أحوالهم الشخصية كمسلمين ، لم يكن يتحدث باسم الدين ، بل باسم الديموقراطية ، التي تعني حرية العقيدة والتفكير . ان القانون الفرنسي ، بالنسبة الى القضية الجزائرية ، كان معادياً للديموقراطية وغير متسامح .

ثانياً ، ان الأمير خالد ، بتربيته وثقافته ، ينتمي إلى جماعة النخبة ، وليس إلى كتلة المحافظين ، التي كانت تضم عناصر دينية . كانت ثقافته أساساً فرنسية ، وقد خدم في الجيش الفرنسي برتبة قبطان سبائحي خلال الحرب . وفي استجواب مع الجريدة الايطالية « لانازيون » (10 جوان 1922) أشار خالد إلى أنه لم يكن زعيماً دينياً ، فقد قال عندئذ : « ان حركتنا ليست دينية ، ولكنها بالقوة حركة سياسية ، لأن القضية هي قضية استقلال جميع الأقطار الاسلامية »(19) . ولكن المرء لا يستطيع أن

---

(18) أنظر قائمة المراجع الجديدة للتعرف على أحدث الدراسات عن حياة ونشاط الأمير خالد .

(19) نص على ذلك ديبارمي من « ليكودالجي » (27 جوان ، 1922) في مقالة « القادة » في « أ . ف . » (جانفي ، 1931) ، ص 11 . إذا صح ما نسب إلى الأمير خالد فانه يكون قد لمح بإستقلال الجزائر لأنها تدخل ضمن « جميع الأقطار الإسلامية » .

ينكر بأن الأمير خالد قد ركز على قضية الدين في مطالبه الوطنية.

وباعتباره معارضاً لادماج الجزائريين بالتجنيس، فصل الأمير خالد نفسه عن جماعة النخبة سنة 1919. فقد كتب في جريدة «الاقدام» أن الجزائريين لا يستطيعون قبول المواطنة الفرنسية داخل أي اطار غير اطارهم الخاص. وقال انه «حلم» فقط أن نسأل الفرنسيين تغيير شرطهم لأنه أولاً شرط «لا تريده الجماهير»، وثانياً أن فرنسا نفسها «لن تصدر أبداً قراراً بالتجنيس الجماعي»، لأنها تخشى أن ترى الكولون تحت سيطرة خمسة ملايين جزائري. وختم الأمير خالد تحديه إلى جماعة النخبة بقوله: «وإذن لا تتحدثوا عن الاندماج»[20]. وقد برهنت الحوادث التالية على أنه كان مصيباً، لأن فرنسا لم تغير أبداً قانونها الخاص بالتجنيس المشروط بالنسبة للجزائريين.

وبين سنة 1919 و 1921 نادى الأمير خالد ببرنامج اصلاحي قائم على فكرة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين. فقد كان في صالح تمثيل نيابي للجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي، ووقف القوى العقابية الخاصة التي كانت لحكام البلديات المختلطة، وخلق جامعة جزائرية، والتعليم الاجباري بالعربية والفرنسية، وتطبيق القانون العام على كل سكان الجزائر دون تمييز، والمساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الوظيف، الخ.

وقد جذب هذا البرنامج إليه مختلف الطبقات الجزائرية. فقد أرضى أغلبية جماعة النخبة لاعتماده على فكرة المساواة بين المجموعتين وأرضى المحافظين بنغمته المعادية للاندماج. كما جذب اليه الفلاحين بتركيزه على وقف القوى العقابية لحكام البلديات المختلطة. ولكن الكولون ومؤيديهم الذين رأوا حزب الأمير خالد منتصراً في الانتخابات سنة 1919، لم يعودوا قادرين على قبوله. ففي السنة التالية، بينما كان حزب الأمير خالد فائزاً في الانتخابات البلدية للجزائر العاصمة، قرر مجلس رؤساء العمالات الغاء الانتخابات وأعلن عدم كفاءة مرشحي هذا الحزب[21].

---

(20) أشار إلى ذلك أجرون، (سياسة جزائرية) في «ر. هـ. م. ك.»، م 6، (أبريل - جوان، 1959)، ص 147.

(21) نفس المصدر. أنظر أيضاً نوشي، ص 55.

واغتنم الأمير خالد فرصة زيارة الرئيس ميليران للجزائر في ربيع 1922 ، وخطب أمامه باسم جميع السكان الجزائريين ، وبناء على رأي كاتب معاصر ، فقد استمع كل من الجزائريين والكولون الى خطبة الأمير خالد « بهدوء وانتباه عظيمين » . وقد قال الأمير خالد لميليران أن زيارته التي جاءت عشية مرور مائة سنة على الاحتلال كانت هامة . كما أنها هامة لأنها حدثت عندما كان العالم كله يشهد « جائحة بدون سابقة » لتحقيق التوازن الأخلاقي . وأضاف خالد مخاطباً ميليران أن الجزائريين يطالبون « في الحال » ، بالحريات المدنية من فرنسا والترخيص لهم بتقلد جميع المراتب في العائلة الفرنسية بدون شرط.

وقد ذكر الأمير خالد الضيف الفرنسي بأن الجزائريين ، ايماناً منهم « بالتقاليد الشريفة » للأمير عبد القادر ، « حاربوا دفاعاً عن الحق والحرية » بجانب فرنسا زمن الأخطار . وقال بأن الجزائريين يجب أن يحصلوا على تمثيل نيابي في المجلس الوطني الفرنسي لكي يعبروا عن أنفسهم إلى « أم الوطن » . وبلغة مفعمة بالترغيب والترهيب أشار خالد إلى أن أيدي وقلوب الجزائريين متجهة نحو فرنسا وأنه يأمل أن لا تدفع الى اتجاه آخر . ثم أخبره « انكم قد تجدون (في الجزائر) شعباً متخلفاً ، (ولكنكم لن تجدوا) شخصاً واحداً ضد الفرنسيين » وقد ختم خطبته بهتافه « لتحيا فرنسا ! لتحيا الجزائر ! »[22].

ورغم اعتدال مطالبه ، فان الرسميين الفرنسيين كانوا مشتبهين في حركة الأمير خالد ، والحق أن ما طالب به الأمير خالد لم يكن جديداً . فنفس المطالب كانت قد قدمت إلى السلطات الفرنسية في الجزائر وفي فرنسا منذ أواخر القرن الماضي من جهات جزائرية مختلفة . وكل ما فعله الاصلاحيون بقيادة الأمير خالد هو التركيز على قضية « التعويض » .

وقضية التعويض قد أثارها في الأصل جماعة النخبة بين سنة 1900 و 1914 ، حين قبلوا مبدأ الخدمة العسكرية إذا كانت فرنسا مستعدة ، « لتعويضهم » بمنح الجزائريين كل الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون . وفي سنة

---

(22) « رحلة الرئيس » في « أ . ف'. س. » (ماي ، 1922) ، ص 131 - 132 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 56 .

1922 لم يكن خالد سوى مجدد لمطلب قديم . ولكن ميليران لم يكن أكثر تفهماً من زملائه : فيرى ، وكليمانصو وبوانكاريه من قبله . وبناء على رأي كاتب فرنسي ، فان ميليران وستيغ ، الذي كان حاكماً عاماً عندئذ ، ودافيد ، الذي كان نائب كاتب وزارة الداخلية ، كانوا قد أصيبوا « بمرارة » من مطالب الأمير خالد[23] . وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أن ميليران قد رد على الأمير خالد بأن اصلاحات سنة 1919 كانت « عظيمة » وان السير « بسرعة كبيرة » قد يؤدي إلى عواقب « وخيمة » .

وعندما أصبحت السلطات الفرنسية قلقة من نشاطات خالد الوطنية ومن اصراره على التعويض ، قررت سنة 1923 نفيه من الجزائر ، كان هذا القرار قد أوصت به بصفة خاصة « فيدرالية رؤساء البلديات والنواب » التي اتهمت الأمير خالد بالقيام بنشاطات معادية لفرنسا[24] . وعندما جرت الانتخابات للمجلس المالي في ربيع سنة 1923 ، أعلنت المجلة الاستعمارية « لافريك فرانسيز » إلى قرائها « فشل الحزب المتطرف » في الجزائر . وقالت ان ذلك كان نتيجة « لتقاعد (الأمير خالد) عن السياسة » وميل الرأي العام الجزائري نحو « المعتدلين »[25] وهكذا أصبح برنامج المساواة الذي نادى به الأمير خالد « متطرفاً » في نظر الكولون ومؤيديهم ، وكان على صاحبه أن يطرد .

ولكن جواب النفي من الرسميين الفرنسيين والاجراءات الاستفزازية من الكولون قد دفعت الأمير خالد ومؤيديه إلى موقف أكثر راديكالية . فبعد نفيه من بلاده ، نقل الأمير خالد معركته إلى فرنسا نفسها . وهناك قام بعقد عدة مؤتمرات واتصالات مع المهاجرين الجزائريين ، وعمال أفريقيا الشمالية ، واليساريين الفرنسيين ، والمنفيين السياسيين من المستعمرات . وقد عقد خلال جوييه ، 1924 ، مؤتمرين في باريس تحت رعاية الاتحاد العالمي ، وهو منظمة يسارية كانت تؤيد القضية الجزائرية .

وفي هذه المؤتمرات احتج الأمير خالد ضد « الأعمال غير الإنسانية

---

(23) بوشي ، ص 58 .

(24) عباس ، ص 117 .

(25) « الجزائر » في « أ.ف. » (ماي ، 1923) ، ص 259 . ان « المعتدلين » هنا هم الذين اسميناهم بالليراليين في هذا الكتاب .

للاستعمار ، والحالة المأساوية للجزائريين ، والفساد الإداري ، والأكاذيب الامبريالية . وبناء على هذا التقرير ، فان الأمير خالد كان قد أعلن هذه السياسة أمام « آلاف » من الجزائريين وأهالي الغرب الهندي (أمريكا الجنوبية) ، والهند الصينية ، والسود الافريقيين . ثم أعلن خالد انضمامه إلى الاتحاد العالمي المذكور وطالب أعضاءه بالدخول في حركة نشيطة للكفاح من أجل تحقيق مطالبهم . وقد أخبر الأمير خالد الآسيويين ، والافريقيين ، وأهل أمريكا اللاتينية في الاتحاد المذكور بأن « لا تؤلفوا منظمات ذاتية قائمة على السلالات (القوميات) ، ولكن تعاونوا مع اخوتكم الفرنسيين في النقابات والأحزاب التي تدافع عن قضيتكم ! »[26] .

ولكن الأمير وأنصاره كانوا ما يزالون معتدلين ويؤمنون بفكرة المساواة . فهم لم يعلنوا الاستقلال ، أو ينادوا بالعنف والثورة . على أن لغتهم قد أصبحت أكثر حدة ومباشرة . وقد كان مجيء هيريو إلى رئاسة الوزارة سنة 1924 تحت شعار « اتحاد اليسار » فرصة أمل للاصلاحيين في التغيير . لذلك بعث الأمير خالد البرقية التالية من منفاه (جوان ، 1924) إلى رئيس الوزارة « اليساري » : (ان توليكم الحكم يجعلنا نستبشر في أن نرى . . عهداً جديداً لأهالي الجزائر وهو دخولهم في طريق التحرر ، والغاء القوانين الاستثنائية ، والتمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي ، والعفو السياسي العام ، وحرية التعليم ، والمساواة في المسؤوليات العسكرية ، لأن الواجبات تعني الحقوق . اننا نأمل ذلك من روحكم الليبرالية)[27] .

---

(26) « البولشيفية » في « أ.ف.» (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 ـ 531 . كانت مؤتمرات الأمير خالد تنشر في الجزائر في جريدة « تري دينيون » التي تقوم بطبعها في كتيبات توزع في كامل افريقيا الشمالية حتى مصر ، حسبما يروي هذا المصدر . وكان ابن الأكحل ، الذي كان من مؤسسي نجم افريقية الشمالية ، هو الذي ترأس مؤتمر الأمير خالد في 19 جويلية، 1924.ويقول عباس ان هؤلاء الشمال افريقيين الذين حضروا هذه المؤتمرات كانوا يهتفون : « ليحيى استقلال افريقية الشمالية» . أنظر عباس ، ص 135 .

(27) أشير إلى ذلك في «البولشيفية» في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 503 . وبناء على هذا المصدر ، فان النقاط التي أشار إليها الأمير خالد في برقيته كانت هي نفس المطالب التي تقدم بها الزعيم المصري سعد زغلول إلى الانكليز خلال العهد نفسه .

وبعد حوالي شهر ، بعث الأمير خالد رسالة ـ برقية إلى رئيس الوزارة الفرنسية أيما نشرتها جريدة « لوهيومانيتي » (3 جوييه ، 1924) . وفي هذه الرسالة عبر خالد عن نفسه باعتباره « أحد » المدافعين عن القضية الجزائرية الذي كان قد نفي لدفاعه الصريح عن « المصالح الحيوية » لمواطنيه . ودعا النقاط التي تضمنتها رسالته « برنامج مطالبنا الأساسية » .

وقد احتوى هذا البرنامج على المطالب الآتية :

1 ـ تمثيل الجزائر في المجلس الوطني الفرنسي بنسبة مساوية لنسبة عدد الكولون .

2 ـ الغاء كامل القوانين الاستثنائية والاجراءات المتخذة ضد الجزائريين فقط ، والغاء المحاكم الرادعة . والمحاكم الجنائية ، ونظام المراقبة الادارية (وهو الاسم الفرنسي الجديد للاحتجاز السري ـ ليتر دي كاشي) ، مع عودة كاملة وصريحة إلى العمل بالقانون العام .

3 ـ المساواة في المسؤوليات والحقوق مع الفرنسيين بخصوص الخدمة العسكرية .

4 ـ دخول الجزائريين إلى كل المراتب المدنية والعسكرية دون تمييز غير تمييز الجدارة والقدرة .

5 ـ تطبيق قانون اجبارية التعليم وحرية التعليم على الجزائريين .

6 ـ حرية الصحافة والاجتماع .

7 ـ فصل الإسلام عن الدولة الفرنسية .

8 ـ اعلان العفو العام .

9 ـ تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية الفرنسية على الجزائر .

10 ـ الحرية المطلقة للجزائريين للعمل في فرنسا .

وختم الأمير خالد رسالته ـ البرقية إلى هيريو بقوله ان هذه المطالب لا تتناقض مع « البرنامج الليبرالي لوزارتكم وحزبكم » . وأضاف بأن لديه أملاً مؤكداً في أن هذه « الأماني الشرعية » ستلقى عناية عالية من الحكومة الفرنسية[28] .

---

(28) نفس المصدر . يحتوي هذا المصدر على النص الكامل لرسالة الأمير خالد إلى هيريو ، إلى جانب =

. ومرة أخرى نلاحظ أن هذا البرنامج لم يكن لا ثورياً ولا متطرفاً . فالاصلاحيون كانوا ما يزالون « يأملون » في أن « اتحاد اليسار » يغير سياسته الاستعمارية في الجزائر باعطاء سكانها نفس الواجبات والحقوق التي للفرنسيين . فالاستقلال أو ما يعادله ، مثل الشخصية والكيان الوطني ، لم يشر إليه حتى الآن في وثائق الاصلاحيين .

ولكن الفرنسيين الذين كانوا ما يزالون غير مستعدين أن يسمعوا عن المساواة في الجزائر ، فما بالك بالاستقلال ، ضاعفوا من اجراءاتهم المعادية للديمقراطية ضد الاصلاحيين . ففي سنة 1925 أثاروا ضجة كبيرة حول بعثة الريفي التي كان الهدف منها ، كما اعتقدوا ، خلق جمهورية جزائرية . وكان اسم الأمير خالد قد ارتبط بهذه البعثة وبثورة المغرب تحت قيادة الأمير عبد الكريم . ورغم انتخاب خالد غيابياً إلى بلدية الجزائر العاصمة ، فان اسمه كان قد حذف من قائمة الفائزين من مجلس عمالة العاصمة (15 جويلية ، 1925) بحجة أنه كان غير مقيم (كان قد نفي) . وبالرغم من احتجاج أنصار الأمير خالد ، فان المجلس المذكور لم يبال وحمل قراره إلى نهايته[29] .

والحق أنه منذ ربيع نفس العام نشرت في الجزائر رسالة كان من المفروض أنها ممضاة من الأمير خالد من منفاه . وبناء على هذه الرسالة ، فان خالد قد أخبر الجزائريين أنه لم يعد مهتماً بالسياسة . ولكن خالد ، بعد الاطلاع على الرسالة ، بعث بجوابه من الاسكندرية في مصر (11 ماي ، 1925) ونشره في جريدة الليبراليين « التقدم » . وقد أكد في هذا الجواب أنه كان وسيظل « مخلصاً وخادماً أميناً » للقضية الجزائرية التي من أجلها « ضحيت بجسمي ونفسي »[30] . ولعله كان بفضل هذا الجواب ، وبفضل نشاطات حزبه الاصلاحي ، فاز في الانتخابات البلدية ، رغم أنه كان غائباً ، ورغم معارضة الكولون الذين قرروا أخيراً ازالة اسمه من قائمة الفائزين . ومهما يكن الأمر فبعد هذه الانتخابات المشكوك فيها وبعد

= نص البرقية ، أنظر نوشي ، ص 56 ـ 57 . وعباس ، ص 116 ـ 117 . أنظر أيضاً ملحق رقم 5 .

(29) « الجزائر » في « أ. ف. » (جويلية ، 1925) ، ص 333 .

(30) نفس المصدر .

الاعتقالات التي جرت عقب بعثة الريغي ، أعلن فيوليت الحاكم العام أن انتخابات سنة 1925 ، قد جرت « بانسجام » في الجزائر .

ولكن اضطهاد الفرنسيين للحركة الوطنية لم يقف عند هذه النقطة . فقد حوكم الأمير خالد في الاسكندرية من قبل المحكمة القنصلية الفرنسية في أوت 1925 . وكان قد اتهم بحمل جواز سفر مزور ومحاولة الهروب من منفاه إلى أوروبا . وبناء على تقارير ذلك الوقت ، فان الأمير خالد كان قد اعتقل في مدينة بنها في مصر في طريقه إلى بورسعيد ومنها إلى ايطاليا . وكان خالد قد حصل على جواز سفره من السلطات المصرية وأذن له القنصل الايطالي بدخول ايطاليا . وقد اعترف خالد أثناء المحاكمة بذلك ، ولكنه قال انه كان نتيجة لحالته ولحالة أسرته السيئة . وقال ان مرتب التقاعد الذي كان يتلقاه من فرنسا منذ منفاه سنة 1923 قد توقف وان عائلته كانت في حالة ضنكة . ولكن المحكمة أصدرت حكمها بسجنه خمسة شهور[31] .

لم يسمح لخالد أبداً بدخول الجزائر من جديد . فقد قضى بقية حياته في المنفى ، حيث توفي في دمشق فاتح سنة 1936 . وليس من همنا هنا أن نتتبع نشاطه بعد سنة 1925 ، لأنه ، بعد هذا التاريخ ، لم يعد عاملاً هاماً في الحركة الوطنية . وسوف نرى أن شعار معركته قد تقلده نجم أفريقية الشمالية الذي سنخصص له دراسة مستقلة .

وبناء على الوثائق الموجودة ، فقد كان أيضاً للأمير خالد بعض المطامح السياسية أبعد من الجزائر . وقد أشرنا من قبل إلى أنه تنبأ ، سنة 1914 عندما كان على الجبهة الأوروبية ، ان كل العرب سيثورون ضد مضطهديهم الأتراك . وما دامت الجزائر ، في ذلك الوقت ، لا ترتبط بأية علاقة مع تركيا ، فانه يبدو أنه كان يشير بذلك إلى العرب الذين كانوا ما يزالون تحت السلطة العثمانية . ومن ترجمته الشخصية لا يجد المرء أية اشارة إلى أنه كان مصلحاً إسلامياً أو قومياً عربياً ، رغم

---

(31) ر . تيري ، « اعتداء الريفيين » في « أ.ف. » (سبتمبر ، 1925) ، ص 469 . نقل المؤلف ذلك من « لوطان » (18 سبتمبر ، 1925) . وبعد استئناف الحكم ، أطلقت سراحه محكمة « ايكس ـ أون بروفانس » على أساس أنه كان ذاهباً إلى بلاد غير فرنسيّة وانه كان قد حصل على جواز سفره بعلم من السلطات المصرية وبرضى القنصل الايطالي ، أنظر نفس المصدر . (أكتوبر ، 1925) ، ص 540 .

أنه كان عربياً ومسلماً[32] . وكل الدلائل تشير إلى أنه كان عضواً بارزاً في جماعة النخبة الجزائرية . فتربيته ، وخدمته العسكرية ، وكتاباته بالفرنسية ، ومؤتمراته السياسية في الجزائر العاصمة وباريس ، التي كان يلقيها بالفرنسية ، كل ذلك جعله يظهر أكثر قرباً إلى الحضارة الأوروبية منه إلى الحضارة الإسلامية .

ولكن عدم وجود زعامة في الجزائر بعد الحرب ، وتراث وسمعة جده ، والحالة في الشرق الأدنى ، ولاسيما في مصر ، وسورية وتركيا ، منذ سنة 1919 ، كلها جعلت الأمير خالد يتيقن أن هناك حظاً له لكي يلعب دوراً قيادياً في العالم الإسلامي . ولكي يفعل ذلك ، كان عليه أن يصبح معروفاً في الجزائر باستنكاره للاندماج الذي يتعارض مع الدين ، وأن يتبنى فكرة الجامعة الإسلامية كمذهب يجمع حوله به افريقية الشمالية والعالم الإسلامي كله .

ففي الاستجواب السابق الذكر الذي خص به الجريدة الإيطالية ، « لانازيون » والذي كان قد أعيد نشره في جريدة الكولون « ليكودالجي » سنة 1922 ، أوضح الأمير خالد أن الحرب العالمية الأولى « قد خلقت ضميراً إسلامياً » . واعترف أيضاً بأن كل العالم الإسلامي كان موجهاً من « لجنة سرية »[33] . وبعد أن أشار إلى الحركة الوطنية التي كانت تجتاح آسيا وأفريقيا ، أعلن الأمير خالد أن السلطات الاستعمارية المحلية لن تستطيع السيطرة على هذه الحركة لأنها كانت موجهة من « زعماء كبار غامضين » كانوا يعملون في صمت لتحقيق « خطة سوف تتطور مع الظروف » .

ولا شك أن الأمير خالد قد أدخل نفسه في نادي « الزعماء الكبار الغامضين » الذين كانوا يوجهون الحركة الوطنية في آسيا وأفريقيا . وقد ختم استجوابه بالتأكيد على أن « حركتنا ليست دينية ، ولكنها أساساً حركة سياسية ، لأن القضية هي قضية استقلال جميع أقطار العالم الإسلامي »[34] . فإذا فهم المرء أن الجزائر كانت أيضاً

---

(32) من الثابت الآن ان الأمير خالد قد دعي إلى حضور المؤتمر العربي الذي انعقد بباريس سنة 1913 وانه أرسل إليه رسالة اعتذار وتأييد .

(33) في سنة 1921 ، أثناء مؤتمر الكومينتيرن الثالث ، قدم زينوفييف الروسي السيد مكحول بك كخطيب ضيف يتكلم باسم « لجنة المسلمين الثوريين » . فهل كان الأمير خالد يشير إلى هذه المنظمة ؟ أننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نؤكد ذلك .

(34) أشار إلى ذلك ديبارمي ، « القواد » في « أ. ف. » (جانفي ، 1933) ص 11 .

داخلة في هذا الاستجواب ، فان استعمال كلمة « الاستقلال » بالذّات قد ذكرت لأول مرة ، بناء على الوثائق الموجودة .

ان نشاطات الأمير الخاصة بمطامحه السياسية وحركة الجامعة الإسلامية قد ظهرت في قضية الخلافة . ففي 1924 ، بادر إلى الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي لمناقشة هذه القضية . وقد اقترح في دعوته أن تكون أفغانستان هي مكان المؤتمر لأنها بناء على رأيه ، كانت البلاد الإسلامية الوحيدة المستقلة . ولكن المؤتمر انعقد نهائياً في مصر . وقد حضره شخصياً ويبدو أنه كان يطمح إلى أن يلعب فيه دوراً قيادياً . ولا شك أنه كان في ذهنه سمعة جده في الشرق الأدنى حين حاول طلب القيادة . كما ركز على نقطة أخرى وهي أنه كان منحدراً من قبيلة هاشم التي انحدر منها النبي محمد أيضاً . ولكن نفيه من فرنسا ، وكونه غير معروف كثيراً للزعماء المسلمين ، وضعفه في البيان العربي ، قد خيب أمل الأمير خالد ليس فقط بفشل المؤتمر في الاعتراف بزعامته ، ولكن أيضاً بفشل الزعماء المسلمين في أن يتفقوا على ايجاد حل لقضية الخلافة[35] .

وبناء على رأي كثير من الكتاب ، فان الأمير خالد قد أعطى للجزائر قيادة جديدة وفعالة خلال العشرينات ، رغم أنه في النهاية قد فشل في تحقيق أهدافه . فالكاتب الفرنسي ر . كوزون قد قال ان الأمير خالد قد حاول أن يوحد جماعة النخبة والجماهير ، وهو جهد نجح فيه بعض الوقت ، ولكنه فشل في النهاية ، لأنه كان يفعل ذلك لدوافع شخصية فقط[36] .

أما ديبارمي ، فيعتبر الأمير خالد الزعيم الذي كان مقتنعاً بفكرة تقرير المصير ومبدأ الديمقراطية الويلسونية لتحقيق تعويض سياسي من فرنسا لبلاده . ويشير ديبارمي إلى أنه عندما تيقن الأمير خالد أن مطالب المساواة التي نادى بها كانت بلا جدوى ، نشد الاستقلال الفوري للجزائر . ويتفق ديبارمي أيضاً على أن الأمير خالد قد فشل في مهمته ولكن لأسباب تختلف عن تلك التي ذكرها كوزون . وبناء على

(35) البولشيفية في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 .

(36) أشار إلى ذلك عباس ، ص 226 من « مائة سنة على الرأسمالية في الجزائر » (1930) . كان كوزون يعتقد أن الحل الوحيد للجزائر هو الاتحاد بين الجماهير وجماعة النخبة .

رأي ديبارمي ، فان الأمير خالد قد فشل لأنه عزل عنه الكولون والجزائريين معاً . فهو قد هاجم بصراحة السيادة الفرنسية والمحافظين الجزائريين ، وكان على الأمير خالد ، بناء على رأي ديبارمي ، أن يكسب ود الفرنسيين وأن يعد الجزائريين لبرنامجه الوطني . فكان فشله يعود إلى الفرنسيين المخاصمين وإلى الجزائريين غير المستعدين[37] .

وقد أشرنا من قبل إلى موقف الكولون والرسميين الفرنسيين من الأمير خالد وحزبه الاصلاحي . ان الصحافة الاستعمارية غالباً ما صورت الأمير خالد على أنه « شخصية ضجيجية » وعلى أنه انسان قد شوش « السلام المعنوي » الفرنسي في الجزائر . وتتفق هذه الصحافة على أنه كان يقود الحزب الاصلاحي وأنه كان يدعي التحدث باسم كل الجزائريين . وتعترف بأنه كان خطيباً فصيحاً يتمتع الإنسان بالاستماع إليه . وبناء على رأي بعض الصحافة الفرنسية الاستعمارية ، فان مقارنة الأمير خالد بالأمراء « الشرقيين الحمقى » ، الذين كانوا يقومون بمشاغبات في أوطانهم أو يتحدثون في كواليس جمعية الأمم ، تثبت أنه كان أكثرهم « أصالة »[38] . وقد أكد ديبارمي أن الأمير خالد لم يكن أميراً غامضاً لأنه كان معروفاً للرأي العام الجزائري ، ولكنه كان غامضاً في نظر الفرنسيين بسبب « جهلنا باللغة ولامبالاتنا المغرورة التي نؤمن بها نحو الحركات التي تمثل رأي الجماهير الأهلية العام »[39] .

إن حركة الأمير خالد لم تمت نتيجة نفيه ، واعتقال أصحابه ، وعزل حزبه . فقد استمر الأمير خالد ، سواء في باريس أو في الشرق الأدنى ، في ايقاد شعلة نار الحركة الوطنية والوحي إلى اتباعه بحملها إلى الامام . ولم ينتظر أتباعه طويلاً . ففي ربيع سنة 1926 أنشأوا حزباً ثورياً انفصالياً هو نجم أفريقية الشمالية الذي كان مقدراً له أن يلعب دوراً خطيراً في تقرير مصير وتوجيه الحركة الوطنية الجزائرية . وكان

---

(37) ديبارمي ، « مساهمة في تاريخ الجزائر المعاصر » في « أ. ف. » (جويلية ، 1937) ، ص 353
ويعتبر جوليان الأمير خالد أول زعيم جزائري يعمل لصالح استقلال الجزائر قبل سنة 1926 . انظر كتابه «أفريقية الشمالية » ص 111 .

(38) « البولشيفية » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 .

(39) ديبارمي ، « القواد » في « أ. ف. » (جانفي ، 1933) ، ص 11 .

مذهب النجم أساساً هو نفس مذهب الحزب الاصلاحي للأمير خالد . ولكن شيئاً فشيئاً طور النجم برنامجاً خاصاً تستحق جدته ولونه دراسة مفصلة .

نجم أفريقيا الشمالية :

بين 1919 و 1925 أتبعت فرنسا في الجزائر سياسة قمعية ضد القوات الوطنية الناهضة . ونتيجة لذلك كان على الحركة الوطنية إما أن تعمل في الخفاء وإما أن تخرج من الجزائر وتلتجىء إلى فرنسا نفسها . وقد أصبحت باريس خصوصاً جنة للوطنيين الجزائريين خلال هذا العهد . وحين وجد هؤلاء الوطنيون أعضاء نشيطين من بين العمال الجزائريين كانوا هناك منذ العقود السابقة ، بالاضافة الى عدد من الجنود المسرحين ، ومشجعين من الأحزاب اليسارية الفرنسية ومن اللاجئين السياسيين الأجانب ، ومتمتعين بحرية أكثر مما في وطنهم ـ قاموا بسلسلة من الحملات ضد الحكم الفرنسي في الجزائر.

وبالتعاون مع الزعماء الآخرين لأفريقيا الشمالية ومع الأوروبيين العاطفين على المشاكل الوطنية ، نظم الجزائريون في فرنسا تجمعات سياسية ، وشكلوا المنظمات الاجتماعية والمدنية ، وخلقوا ووزعوا الصحف الوطنية ، وعقدوا المؤتمرات الصحفية . وعندما نفي الأمير خالد من الجزائر سنة 1923 ، رحب به أتباعه في فرنسا حيث بقي بعض الوقت . وكان أول اجتماع هام تحقق هو انعقاد « مؤتمر الشمال أفريقيين » في ديسمبر 1924 . وكل من حزب الأمير خالد الاصلاحي ومؤتمر الشمال أفريقيين أعطى نجم أفريقية الشمالية نموذجاً وقاعدة.

أنشىء النجم في مارس 1926 في باريس على يد جماعة من أهالي أفريقيا الشمالية ، وكان أكثرهم من الجزائر . وقد أعلن عن الأمير خالد رئيساً شرفياً له . ولكن شيئاً فشيئاً فقد النجم أعضاءه التونسيين والمغاربة وأصبح منظمة جزائرية خالصة . وكان هدفه الصريح هو الدفاع عن المصالح المعنوية والمادية لأهل أفريقيا الشمالية وتثقيف أعضائه . وكان جل أعضائه من العمال ، والجنود السابقين ، وطلبة أفريقيا الشمالية الذين كانوا يعيشون في فرنسا.

وحتى 1930 كان اتصال النجم بالجماهير في الوطن محدوداً جداً . وكان

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

يتمتع بعطف اليساريين الفرنسيين والأوروبيين والمنظمات المعادية للاستعمار . وكان الهدف الحقيقي للنجم هو تحقيق استقلال أفريقيا الشمالية كلها . وكان أعضاؤه الجزائريون في الادارة هم محمد جفال ، وحاج علي عبد القادر ، ومصالي الحاج ، وأحمد بلغول ، ومحمد بن الأكحل ، وعمار ايماش . وكانت نشاطات النجم تتمثل في المنشورات ، والصحافة ، والمؤتمرات ، وكانت طريقته ثورية ومباشرة . وفي سنة 1928 ، كان لهذا الحزب حوالي 3500 عضواً عاملاً[40]. لقد أعطى النجم لأهالي أفريقيا الشمالية في فرنسا أملاً لامعاً ، حيث وجدوا من خلاله معلومات عن الوطن ، ونقطة انطلاق لمطالبهم ، ووعداً بالحرية وبالحياة الأفضل .

ونظراً للقيود التي اتخذتها السلطات الفرنسية ضد أعضائه في الجزائر ، اعتمد النجم بشكل خاص على الصحافة في الاتصال بالجزائريين ، سواء في الوطن أو في فرنسا . وهناك صحيفتان خدمتا النجم جيداً خلال الفترة المدروسة . أولاهما هي « الاقدام » التي كان قد أنشأها الأمير خالد في الجزائر سنة 1919 . وعندما نفي خالد وفرقت السلطات الفرنسية حزبه ، توقفت « الاقدام » عن الصدور . ثم أعاد النجم اصدارها في فرنسا تحت اسم « الاقدام الباريسي » (الاقدام دي باري)[41] . وكانت هذه الصحيفة شهرية وباللغتين ، مع عنوان فرعي بالعربية يقرأ هكذا : « من أجل الدفاع عن مسلمي أفريقيا الشمالية »[42] . وفي أول فيفري سنة 1927 منعت السلطات الفرنسية توزيع هذه الجريدة لأن الكولون اشتكوا من أنها كانت « خطيرة » على هدوء أفريقية الشمالية . ولكن النجم قد أعاد اصدارها تحت اسم : « الاقدام الشمالي افريقي » ، أو « الاقدام نور أفريكان »[43] .

---

(40) « تونس » في « أ . ف . » (جانفي ، 1928) ص 36 . اعد السيد عبد الحميد زوزو دراسة مفصلة ، تحت اشرافي عن نشاط المهاجرين الوطني في فرنسا ، وخصوصاً منظمة النجم . أنظر قائمة المراجع الجديدة .

(41) هذا دليل على تأثير الأمير خالد على النجم . (جوان ، 1927) ، ص 227 . وكان مركز (الاقدام الباريسي) هو 38 شارع لافرانج أوبيل .

(42) « الحملة الشيوعية » في « أ . ف . » (جوان ، 1927) ص 227 . يحتوي هذا المصدر على صور للعنوان العربي « للاقدام » .

(43) « تونس » في « أ . ف . » (جانفي ، 1928) ، ص 36 .

وبعد أن حلت السلطات الفرنسية النجم سنة 1929 ، أصدر زعماؤه ، سنة 1930 ، جريدة جديدة بعنوان « الأمة » وهي التي يقرأ عنوانها الفرعي العربي هكذا : « جريدة وطنية وسياسية للدفاع عن حقوق مسلمي أفريقيا الشمالية » . وكان مديرها السياسي هو مصالي الحاج ، الذي كان عندئذ هو المتحدث باسم النجم . أما مديرها ومحررها فقد كان عمار ايماش عضو الهيئة الادارية للنجم . وعلى يمين عنوان « الأمة » يجد الإنسان صورة هلال ونجمة مع الآية الكريمة : « واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرقوا » .

وفي سنة 1933 دعا النجم كل أهالي أفريقيا الشمالية أن يقرأوا « الأمة » لأنها : « تدافع عنكم ، وتعلمكم ، وتثقفكم . انها ستكشف جميع الخونة ، وكل المتعاونين ، وكل أعداء وطننا وقضيتنا . أنها ستقودكم إلى الاتجاه الصحيح دون خوف ودون هزيمة . أنها ستصلكم ، بمعلوماتها ، بكل العالم الإسلامي ، فاجعلوها تعيش ، وساعدوها ، واحموها ، وحثوا غيركم على قراءتها ، وانشروها في كل مكان لكي تصبح الراية والمركز الذي تجتمع من حوله جميع القوى الحية في أفريقيا الشمالية المسلمة »[44] .

وبالاضافة إلى كونها لسان دعاية للنجم ، فان « الأمة » كانت أحد مصادره المالية الرئيسية . فخلايا هذا الحزب كانت تشتريها وتشجع التجار والطلبة ، والمسافرين الجزائريين وغيرهم من أهل أفريقية الشمالية على شرائها . وكان النجم يجمع النقود أيضاً من المهاجرين الجزائريين في فرنسا ، ولا سيما من التجار . وبناء على أحد المصادر الفرنسية ، فان النجم كان يتلقى أيضاً « هدايا هامة » من النقود عن طريق « قناة أجنبية واصلة »[45] .

وكانت بطاقة الاشتراك في النجم تحتوي على ما يلي : « أيها الاخوة المسلمون : اشتركوا وحثوا جميع أصدقائكم على الاشتراك . ان النقود هي عصب

---

(44) نص على ذلك موهندس ، « الهجوم » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1934) ، ص 576 . كان مركز « الأمة » في باريس يقع في 19 شارع داغير . وكانت توزع سنة 1932 ، 12,000 نسخة ، أما في سنة 1934 فقد كانت توزع 44,000 نسخة . أنظر ص 577 من نفس المصدر . أنظر أيضاً رسالة زوزو .

(45) نفس المصدر .

العمل . وهذا العمل ، الذي قد بدأ بكثير من الصعوبات ، يجب أن يتطور ليشمل كل أفريقيا الشمالية . يجب أن نواصل أكثر من أي وقت مضى نضالنا من أجل نيل مطالبنا والحصول على تحررنا . اننا أقوياء ، ولكن وسائلنا المالية ضعيفة في الوقت الراهن . . ساعدوا حركتنا الوطنية معنوياً ومالياً لكي نحقق واجباتنا كمسلمين أصلاء . إلى الأمام ، ان الله معنا »[46] وكانت البطاقة أيضاً تحتوي على نفس الهلال والنجمة مع الآية الكريمة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . كما كانت تضم الشعار التقليدي : « حي على الفلاح » .

أما بطاقة العضوية في النجم فقد كانت شبيهة ببطاقة الاشتراك . وكانت تحتوي على نفس الآية الكريمة والأثر التقليدي في جانب ، أما على الجانب الآخر فيقرأ المرء ما يلي : «أيها المسلمون، جزائريون، ومغاربة، وتونسيون، فلنتحد. لنكون كتلة متضامنة حول نجم أفريقيا الشمالية للدفاع عن مصالحنا وعن تحررنا . **ان الاتحاد فقط هو الذي يصنع القوة** »[47] . ورغم أن النغمة الدينية والوطنية في هذه الكتابات واضحة ، فان الفرنسيين كانوا يتهمون النجم بالبولشيفية وبكونه آلة في يد الحزب الشيوعي الفرنسي .

إن مؤسسي وزعماء نجم أفريقية الشمالية كانوا عموماً من العمال الجزائريين ، والجنود السابقين ، والعصاميين الذين كانوا يعيشون في فرنسا . وكانت اتصالاتهم بأوروبا أكثر تأثيراً على عقولهم وحركاتهم ، من الوجهة العملية ، من اتصالاتهم بوطنهم . ولم يبقهم على الاتصال بالحياة الاجتماعية الجزائرية سوى ماضيهم العائلي ، وذكريات طفولتهم ، التي كانت عادة مرة وسيئة . ولم تكن لهم تجربة مع الحياة العائلية المنتظمة والصحية ، ولا مع تربية فعالة .

وكمهاجرين قبل ، وخلال ، وبعد الحرب ، فان هؤلاء الجزائريين وجدوا أنفسهم في أوروبا التي كانت نفسها تمر بتطورات جذرية . وقد تبنوا طريقة الحياة الأوروبية ، وتعلموا ، من بين أشياء أخرى ، الشعارات السياسية ، والمناورات الحزبية ، والنظام والتكنيك الثوري ، وقد وجدوا أيضاً في أوروبا حرية أكثر في

(46) نص على ذلك في نفس المصدر .

(47) منقولة في نفس المصدر . والتسطير اصلي .

التعبير كما أكتسبوا هناك أصدقاء لتأييد قضيتهم أكثر مما وجدوا في الجزائر .

وخلال العشرينات كان زعماء النجم ما يزالون منعزلين عن الوطن . كان تأثيرهم فعالاً فقط بين المهاجرين في فرنسا وغيرهم من بلدان أوروبا . ولم يستطع هؤلاء الزعماء أن يحملوا برنامجهم بفعالية إلى الجزائر الا خلال الثلاثينات ، نظراً لانقطاعهم عن الوطن بظروف مختلفة ولمعارضة الكولون . وقد أضاف حل نجم أفريقيا الشمالية سنة 1929 ، عشية احتفال الفرنسيين المئوي بالاحتلال ، صعوبات جديدة إلى زعماء النجم .

ورغم أنه كان للنجم عدد كبير من الأعضاء المؤثرين ، فان مصالي الحاج قد أصبح تدريجياً أحسن متحدث رسمي معروف باسم الحزب ولا سيما منذ فاتح الثلاثينات . ولد مصالي في تلمسان ، المدينة التقليدية ، سنة 1898 وحصل على تعليم بسيط في سنواته الأولى(48) . وكان قد جند خلال الحرب العالمية الأولى في الجيش الفرنسي وحارب على الجبهة الأوروبية . وبعد التسريح بقي في فرنسا كعامل . وبين 1919 و 1925 أصبح مصالي مهتماً بالسياسة ، وسرعان ما انجذب إلى حركة الأمير خالد وإلى النشاطات الوطنية لأهالي شمال افريقية في فرنسا . وقد شرع أولاً في تنفيذ برنامج لتثقيف نفسه بحضور المحاضرات في السوربون وكوليج دي فرانس . كما تعلم لعبة الأحزاب السياسية بملاحظاته عن كثب ، بل لعل بمشاركته ، في بعض الأحزاب السياسية الفرنسية التي كان أغلبها يمثل الجزائر أيضاً(49) .

كان مصالي عضوا في اللجنة التنفيذية لنجم أفريقيا الشمالية عندما أنشىء هذا الحزب في مارس سنة 1926 وحوالي سنة بعد ذلك (فيفري ، 1927) ، مثل هو والشاذلي خير الله التونسي ، النجم في المؤتمر المعادي للاستعمار الذي انعقد في بروكسل . ورغم حل السلطات الفرنسية للنجم سنة 1929 ، فان مصالي قد حضر مؤتمر الكومينتيرن ، أو الحركة الشيوعية العالمية ، الذي انعقد في موسكو سنة

(48) بالاضافة إلى ذلك تلقى مصالي تعاليم الطريقة الدرقاوية ، وهي التعاليم التي كان لها تأثير عميق على مستقبل شخصيته . انظر بنجامين ستورا : (مصالي الحاج ، 1898 - 1974) ، 1982 .

(49) يصر بعض الكتاب الفرنسيين على ان مصالي قد بدأ عمله السياسي في الحزب الشيوعي الفرنسي . أنظر أرون ، ص 64 وساراسان ، ص 99 .

1930[50] وعندما أصدر النجم جريدة « الأمة » خلال نفس السنة ، أصبح مصالي ، كما أشرنا من قبل ، مديرها السياسي .

ولم يتهم الفرنسيون فقط بعض زعماء النجم بالشيوعية ، بل كل المنظمة وقد كتبت مجلة « لافريك فرانسيز » المحافظة ، سنة 1928 ، تقول ان النجم كان « جماعة من الدعاة الثوريين الذين يأخذون تعليماتهم من الحزب الشيوعي الفرنسي[51] . ويقول كاتب فرنسي ان النجم له أصل شيوعي[52] . ويؤكد كاتب فرنسي ثالث أيضاً بأن النجم قد أنشىء في ظل الحزب الشيوعي الفرنسي[53] .

لقد درسنا من قبل العلاقة بين النجم ، والكومينتيرن ، والحزب الشيوعي الفرنسي . وليس هناك من شك في أن الوطنيين كانوا في حاجة إلى تأييد الشيوعيين . وكان هؤلاء من جانبهم يحاولون استغلال العواطف الوطنية لمصالحهم الشيوعية الخاصة . وبالاضافة إلى ذلك ، فان تناقضات الحزب الشيوعي الفرنسي بين مناوراته الاستعمارية والمعادية للاستعمار بخصوص المشكل الجزائري قد أقنعت الوطنيين بأن التعاون بينهم وبين الشيوعيين يجب أن يكون قائماً على التكتيك لا على المذهبية .

وقد سبقت الاشارة أيضاً إلى أن الكومينتيرن قد قرر في مؤتمره السادس ، سنة 1928 ، أن يجعل نجم أفريقيا الشمالية خاضعاً للحزب الشيوعي الفرنسي وأنه قد نصح هذا بمنع النجم من أن يصبح منظمة وطنية . وكان الكومينتيرن ، الذي لعله كان مقتنعاً بوجهة النظر المتناقضة للشيوعيين الفرنسيين ، يريد من النجم أن يكون جبهة مكافحة ضد الأمبريالية الفرنسية في أفريقيا الشمالية تحت راية الشيوعية العالمية لا راية الوطنية[54] . ولكن النجم قد أخذ تدريجياً تكتيك الشيوعيين . ولم

---

(50) فافرو ، ص 66 ـ 67 . وقد سبق القول بأن مصالي قد حضر المؤتمر السادس للكومينترن بموسكو سنة 1928 . أنظر سابقاً .

(51) « تونس » في « أ. ف. » (جانفي ، 1928) ، ص 36 .

(52) أرون ، ص 63 . وقد أشار المؤلف إلى ان الحاج علي عبد القادر ، أحد مؤسسي النجم ، كان عضواً في اللجنة الادارية للحزب الشيوعي الجزائري . والحق انه لم يكن هناك حزب من هذا النوع في ذلك الوقت .

(53) جوليان ، « افريقية الشمالية » ، ص 117 .

(54) غوتيرو ، «البولشيفية» في «المستعمرات والامبريالية الحمراء » كما أشار إليه موهندس ، « الهجوم » =

تحن سنة 1930 حتى كانت العلاقة قد بدأت تبرد بين الشيوعيين والوطنيين . ولم يأت منتصف الثلاثينات حتى كان الأولون يتهمون الأخيرين بالفاشية والنازية .

وعندما وجد النجم نفسه محاطاً من كل جانب بجو معاد للوطنية ، الكولون عن اليمين والشيوعيون عن اليسار ، ناضل وناور لكي يؤكد مذهبه الوطني المستقل . وكان أول انتصار حققه النجم هو مشاركته في مؤتمر بروكسل ، الذي كان قد عقد بين 10 و 15 فيفري 1927 . وقد حضرت هذا المؤتمر ، الذي نظمته « الجمعية المعادية للاضطهاد الاستعماري » ، وفود من آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا ، وأميركا . ومن الشخصيات التي حضرته نهرو عن الهند ، وحتا عن أندونيسيا ، وكان المؤتمر قد عقد في قصر دوغمون بالعاصمة البلجيكية . وهكذا فان النجم ، الذي مثله مصالي الحاج ، كان قد أعطى فرصة هامة لاعلان مطالب الجزائريين أمام التجمع العالمي الذي كان الأول من نوعه[55] .

والحق أنه ليس كل مطالب النجم كانت جديدة . فان أكثرها كان عبارة عن النقط الرئيسية المعروفة التي تقدمت بها إلى الفرنسيين وفود مختلفة خلال فترة النهضة (1900 ـ 1914) ، وحزب الأمير خالد الاصلاحي خلال العشرينات ، ولكن كانت هناك بعض الجدة في الخمس عشرة نقطة التي تقدم بها النجم إلى مؤتمر بروكسل . ولا شك أن القارىء يستطيع بسهولة تمييز المطالب الجديدة .

ويمكن تلخيص كل البرنامج فيما يلي :

1 ـ الاستقلال الكامل للجزائر .

2 ـ جلاء الجيش الفرنسي .

3 ـ انشاء جيش وطني .

4 ـ مصادرة الأملاك الزراعية الكبيرة للكولون والشركات الاقطاعية .

5 ـ احترام الممتلكات المتوسطة والصغيرة للفرنسيين .

6 ـ ارجاع الأراضي والغابات التي أخذتها الدولة الفرنسية إلى الجزائر .

= في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1934) ، ص 576 .

(55) « الحملة الشيوعية » في « أ.ف. » (جوان ، 1927) ، ص 226 ـ 229 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 61 ـ 62 .

7 ـ الالغاء الفوري لقانون الأهالي وجميع القوانين الاستثنائية الأخرى .
8 ـ العفو العام عن الجزائريين الذين كانوا قد سجنوا، أو نفوا ، أو كانوا يعيشون تحت الرقابة الفرنسية .
9 ـ حرية الصحافة ، والاجتماع ، والتجمع ، ومنح الحقوق السياسية والنقابية كتلك التي منحت للفرنسيين في الجزائر .
10 ـ احلال مجلس وطني جزائري منتخب بطريقة التصويت العام محل المجلس المالي .
11 ـ انشاء مجالس بلدية منتخبة بطريقة التصويت العام .
12 ـ حق الجزائريين في التمتع بجميع مستويات التعليم .
13 ـ خلق المدارس باللغة العربية .
14 ـ تطبيق جميع القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائر .
15 ـ زيادة القروض الفلاحية الى الفلاحين الجزائريين الصغار[56] .

ومن الواضح أن بعض هذه المطالب كان ثورياً . وكان يمثل نقطة انطلاق جديدة في طريق تحرير الجزائر . لا شك أن استقلال البلاد ، وجلاء القوات الأجنبية ، وتكوين جيش ومجلس وطني ، والانتخابات عن طريق التصويت العام كانت أكثر الأمثلة وضوحاً على نقطة الانطلاق الجديدة . انه من جراء هذه الاندفاعة الوطنية الواضحة أصبح الشيوعيون على حذر من النجم . وبعد سنة واحدة من اعلان برنامجه أوصى الكومينتيرن ضده بالتوصيات المشار اليها سابقاً . كما أن الفرنسيين قد أصبحوا على حذر من مطالب النجم التقدمية . على أنهم لم ينتظروا طويلاً . فقد بدأوا أولاً ، كما أشرنا سابقاً ، بمشاغبة زعمائه ومنشوراته ، ثم في سنة 1929 قرروا حل المنظمة كلية .

وعلى أية حال ، فان وفد نجم أفريقيا الشمالية الى مؤتمر بروكسيل قد عقد اجتماعاً في باريس وقدم تقريراً مفصلاً عن نشاطاته الى مهاجري أفريقيا الشمالية .

---

(56) كان هذا البرنامج قد نشر في « الراية الحمراء »، الجريدة العربية التي كان يصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد أشار اليهُ ريني تيري « الهجوم الشيوعي » في « أ . ف . » (ماي ، 1927) ص 184 . أنظر أيضا نوشي ، ص 61 ـ 62 .

وقد أخبرهم الوفد أن المؤتمر كان خطوة « واضحة وهامة » نحو الهدف الوطني ، وأنه قد وافق على كل مطالبهم . ثم حيا الحاضرون الزعماء المنفيين للحركة وهم الأمير خالد ، وأخوه الأمير عز الدين[57] ، والأمير عبد الكريم الخطابي المغربي ، والشيخ عبد العزيز الثعالبي التونسي .

ومن جهة أخرى أوضح الوفد أن النجم كان مصمماً على وضع برنامجه موضع التنفيذ . وقال ان حركة الحزب ليست « قصيرة الأجل » كحركة الأمير خالد ، وليست « حركة متعاونة » مثل حركة الدكتور ابن التهامي (زعيم الحزب الليبرالي في الجزائر) وقلاتي (زعيم الحزب الاصلاحي في تونس) . ولكن حركة النجم « حركة عميقة تقوم على كاهل الجماهير المستغلة والمضطهدة» التي أصبحت واعية لقوتها وارادتها في الاستقلال . ثم نادى الوفد كل جماهير أفريقية الشمالية أن تنضم الى الحزب « قبل فوات الأوان[58] » .

ولكي يعمق ويوسع من عمله ، شرع النجم سنة 1927 و 1929 في تحقيق برنامج لاعداد الجماهير وتوهين الحكم الفرنسي في الجزائر خاصة ، وافريقية الشمالية عامة . ففي جوان سنة 1927 وزع منشوراً تحت عنوان « الى اخوتنا في المغرب ، والجزائر ، وتونس » ، دعا فيه المغاربة الى استئناف الحرب بين القوات الريفية والقوات الفرنسية والاسبانية . والى أن يبقوا يقظين ومتحدين لتحرير بلادهم .

أما الجزائريون والتونسيون فقد طالبهم المنشور بما يلي : «أعلنوا حقوقكم . . ناضلوا لكي تحصلوا على حريتكم السياسية ، وعلى تحسين أوضاعكم . . وناشدوا اخوتكم الذين يعملون في الجيش (الفرنسي) أن لا يحاربوا (ضد) اخوتهم المغاربة . . ليحي أبطال استقلال المغرب العربي ! ليحي نضال كل مسلمي أفريقية الشمالية للتحرر ![59] » .

وخلال سنة 1928 نشر النجم بياناً في جريدته « الاقدام » (عدد جوان ـ

---

(57) المعروف أن للأمير خالد أخاً يدعى مصطفى ، ولا نعرف الآن عن الأمير عز الدين شيئاً .

(58) « الحملة الشيوعية » في « أ . ف . » (جوان ، 1927) ، ص 230 .

(59) نفس المصدر «جويليه» (1927) ، ص 281 ـ 282 . ويجد القارىء النص الكامل للمنشور في هذا المصدر . والمنشور مطبوع في باريس .

جويليه) تحت عنوان : « من أجل استقلال أفريقية الشمالية ، » وكان هـذا البيان شبيهاً في نغمته بالمنشور السابق . وقد حذر الجزائريين من أن يكونوا آلات في يد الامبريالية الفرنسية في المغرب . أما الجنود الجزائريون الذين كانوا يحـاربون في الجيش الفرنسي بالمغرب فقد طلب منهم أن يتركوا « العدو المشترك » ويبقـوا في الجزائر . وناشد الأهالي أن « أعدوا أنفسكم لتحتفلوا بمرور مائة عام على احتلال بلادكم بطريقتكم الخاصة ، وذلك بتنظيم حركة واسعة ضد الامبريالية » . وقد مدح البيان المحاربين المغاربة ودعاهم بابـطال الاستقلال ، ونـاشدهم أن يكـافحوا في « جبهة واحدة » .

كما طالب بيان النجم جميع أهالي أفريقيا الشمالية أن ينشئوا « جبهة واحدة معادية للامبريالية » . ولكنه هاجم حزب الدستـور التونسي على « سيـاسة الصمت (التي) هي بعيدة كل البعد عن خدمة القضية الوطنية (والتي) تشجع الامبريالية على هجومها ضد التونسيين » . وبناء على هذا البيان ، فان الحزب الوطني التونسي قد التجأ الى الصمت منذ سنة 1925 ولكن هـذا الموقف لم يفشـل النجم الذي سيواصل ، حسب وعد البيان ، جهوده لخلق « حزب وطني جماهيري .. للحصول على استقلال تونس[60] » .

وكان تحضير الفرنسيين للاحتفال باحتلالهم للجزائر قد أوحى للنجم في أن يضاعف من حملته المعادية للاستعمار . وخلال نفس الصيف أصدر النجم منشوراً باللغتين عن هذه القضية ، وهو الذي أشرنا اليه سابقاً . وكان عنوان المنشور الجديد « النضال ضد الامبرياليـة الفرنسيـة » . وقد شجب الاحتـلال واعتبره عمـل جيش متعطش للدم والنهب ، أدى الى أسر الجزائريين في قانون الأهالي . وهذا القانون ، بناء على المنشور ، لم يستعمل حتى من قبل الاقطاعيين ، الذين يزعم الكولون أنهم قد قضوا عليهم . وأصر المنشور على أنه لسوء الحظ أن قانون الأهالي يطبق باسم « الوجه النفاقي للحضارة » .

(60) « الدعاية الشيوعية » في « أ . ف . س . » (أكتوبر ، 1928) ، ص 654 ـ 655 . كان زعيم الحزب الدستوري التونسي هو الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي يبدو أن اعتداله قد جعل من الصعب عليه ان يتخذ الطريق الثوري الذي كان يسلكه النجم. والمعروف ان الثعالبي كان عندئذ منفياً من تونس.

وقد خص النجم بالهجوم « الخونة والموالين المبيعين » من الجزائريين ، الذين كانت الامبريالية الفرنسية الفاسدة تستعملهم لتنفيذ « سياستها الاستعبادية » في الجزائر ، وكان من هؤلاء الدكتور ابن التهامي وشكيكن ، وكلاهما كان عضواً في الحزب الليبرالي . ثم طالب النجم الجماهير « لكي نحسن أحوالنا ، يجب توحيد الجهود والنضال ضد الامبريالية الفرنسية «لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتحقيق أهداف الحزب . وقد دعا المنشور الجزائريين الى « أن ينضموا جماعياً الى نجم أفريقية الشمالية ! ليحي استقلال الجزائر[61] » .

وعشية الاحتفال بالاحتلال ، ونظراً لاندفاعه النشيط ضد الاستعمار ، قررت السلطات الفرنسية أن تحل النجم. والواقع أنه لم يكن هناك أية اتهامات محددة ضد هذه المنظمة . ففي 20 نوفمبر 1929 اتخذت محكمة جنح السين ذلك القرار ، الذي ألغته هي نفسها في 4 جويليه 1935 بحجة أن ما أصدرته أولاً كان غير شرعي . وهكذا فانه نتيجة لقرار سنة 1929 اضطهد زعماء النجم ومنعت جريدته من الصدور .

بناء على رأي بعض الكتاب ، فان حل النجم قد وقع نظراً لدعايته « الخطيرة » المعادية لفرنسا[62] . وقد قال نوشي ان الحكومة قد وجدت نشاطات هذا الحزب مضرة بالسيادة الفرنسية في أفريقيا الشمالية[63] . وأشار مصدر فرنسي آخر الى أن النجم قد حل لتعاونه مع جمعية طلبة أفريقيا الشمالية ، ومع ودادية حماية الشمال أفريقيين بفرنسا ، ومع منظمة المساعدة العالمية الحمراء اليسارية التي كانت أيضاً في فرنسا[64] . ويعزو مصدر جزائري حل النجم الى الضغط الذي قامت به فيدرالية رؤساء البلديات في الجزائر ونواب الكولون في فرنسا[65] . ومهما يكن ذلك القرار ، فانه كان غير ضروري وغير شرعي باعتراف القضاء الفرنسي نفسه .

---

(61) نفس المصدر ، ص 653 .

(62) ج . ل . دي لاشارير ، « غرائب نجم أفريقية الشمالية » في « أ . ف » (أوت ، 1935) ، ص 488 .

(63) نوشي ، ص 62 .

(64) موهندس ، « الهجوم » في « أ . ف . » (أكتوبر ، 1934) ، ص 577 .

(65) عباس ، ص 136 .

ولكن زعماء النجم لم يبقوا مكتوفي الأيدي . فقد لجأوا الى النشاطات السرية . فخلقوا سنة 1930 جريدة « الأمة » التي أصبحت هي نفسها برنامجاً ونقطة انطلاق . وفي سنة 1932 أعادوا تكوين الحزب تحت اسم جديد هو « نجم أفريقيا الشمالية المجيد » . وبعد سنة واحدة نشروا دستورهم الرسمي . وعندما حكمت عليهم نفس المحكمة المذكورة (محكمة جنح السين) ، سنة 1934 ، بالسجن ودفع غرامة نقدية بحجة اعادة خلق منظمة صدر قانون بحلها ، رد هؤلاء الزعماء بخلق حزب الشعب الجزائري ، فاتح سنة 1937 ، الذي لعب دوراً هاماً في الحركة الوطنية منذئذ(66) . وهكذا فان قرار حل النجم سنة 1929 كان قراراً غير حكيم وبلا فائدة .

ان ميلاد نجم أفريقيا الشمالية كان أحد الأحداث العظيمة في التاريخ السياسي للجزائر . فقد ساهم بنطاقه ، واتجاهه الثوري ، وأمده ، في تدعيم وتوجيه الحركة الوطنية الجزائرية بشكل فعال . والنجم ، الذي ولد من رماد كثير من المحاولات الوطنية في العقود السابقة ، والذي كان يشجعه تأييد اليساريين الأوروبيين ، وتطورات الشرق الأدنى ، حاول أن يدخل عناصر جديدة في السياسة الجزائرية ، ولكن مساهمة النجم خلال الفترة المدروسة لم تكن مدهشة كثيراً لانه قد واجه عقبات مختلفة من السلطات الفرنسية وكان محارباً من الشيوعيين لموقفه الوطني الضيق ، وكان يقوم بنشاطه خارج الوطن . وقد ساعد على تثقيف الجماهير سياسياً ، ولا سيما المهاجرون الجزائريون في فرنسا وأوروبا ، بالاضافة الى الطلبة . كما جعل القضية الجزائرية معروفة عالمياً . ولم تحن سنة 1930 حتى بدأ النجم يتسرب الى الجزائر أيضاً .

ومنذ النهضة (1900 ـ 1914) حاولت معظم الجماعات والأفراد الوطنيين أن يوجهوا رسالتهم الى بعض المثقفين والى البورجوازية الجزائرية القليلة . ونفس المذهب طبقه الليبراليون والاصلاحيون خلال العشرينات. وفي هذا المعنى يمكن أن

---

(66) في أكتوبر ، 1934 حكمت هذه المحكمة على زعماء النجم بستة شهور سجناً ، و 2000 فرنك غرامة . ولكي يتقوا السجن فر بعضهم الى سويسرا . انظر ج . ل . دي شاريير « الغرائب » في « أ . ف . » (أوت ، 1935) ، ص 488 .

نقول ان المساهمة الرئيسية للنجم تتمثل في التحول من التركيز على بعض أعضاء النخبة والطبقة الوسطى الى الفلاحين ، والعمال ، والطلبة ، ولكن هذه السياسة كانت الى العهد المدروس ما تزال « تركيزاً » فقط لأن نتائجها الايجابية لن تصبح معروفة الا في العقود اللاحقة .

ورغم أن برنامج النجم لم يكن كله جديداً ، فانه قد ضغط على ثلاث أفكار هامة : فكرة الوطنية باعلانه الاستقلال الكامل للجزائر ، وجلاء الفرنسيين عنها . وفكرة الاشتراكية بالدعوة الى تأميم الأراضي والممتلكات الكبيرة التي أخذها الكولون . وفكرة العروبة بالمناداة بالتعليم العربي ، واسترجاع مكانة اللغة العربية . ولكن المرء يلاحظ عدم التركيز على فكرة الجامعة الاسلامية في برنامج نجم أفريقيا الشمالية ، بل حتى فصل الدين (الاسلام) عن الدولة (فرنسا) الذي سبق أن نادى به الحزب الاصلاحي قد أهمله زعماء النجم خلال العهد المدروس.

وإلى جانب الليبراليين ، والاصلاحيين ، والنجميين ، ظهرت جماعة أخرى ، هي العلماء الذين بالرغم من أنهم كانوا ما يزالون بدون منظمة رسمية خلال العشرينات فانه كان لهم برنامج مشترك جدير بالدراسة . لقد كان العلماء ثمرة للحركة العقلية والاصلاحية الوطنية ، بالإضافة إلى حركتي الجامعة الاسلامية والقومية العربية العاملتين في الشرق الأدنى. ورغم أن العلماء لم يكونوا جماعة سياسية ، فإنهم قد عملوا بقصد على توهين الحكم الفرنسي في الجزائر بتعليمهم العربي ، وتبشيرهم بالفكرة الاسلامية الجديدة ، وبثهم لمبدأ الاصلاح الاجتماعي الشامل . ونظراً لتأثير العلماء العميق على الحركة الوطنية الجزائرية ، فإن مذهبهم ، وطريقتهم ، وشخصياتهم تستحق منا دراسة أشمل .

4. ظهور العلماء:

غالباً ما تعني عبارة « العلماء » ، اليوم في أوروبا وفي الشرق الأدنى رجال الدين ، والمتخصصين في الشئون الدينية ، ومفسري القانون الاسلامي[67] !. ولكن

---

(67) نشر هذا الفصل بالانكليزية في (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 2 (يوليو 1974) ص 138 ـ 150 ، والمجلة تصدر بتونس .

هذه العبارة تحمل في الجزائر معنى مختلفاً نوعاً ما . فعبارة العلماء هنا تعني أولئك الجزائريين المثقفين الذين ، بالرغم من تعليمهم العربي وتوجيههم الاسلامي ، أصبحوا هادفين بشكل واضح سياسياً ووطنياً . وهذا التحول من وجهة نظر دينية محضة إلى التدخل السياسي قد حتمته سياسة فرنسا نحو الثقافة والشخصية الجزائرية . فالفرنسيون قد أهملوا ، واضطهدوا هذين المظهرين.

ان تجنيد العلماء قد توقف تقريباً في الجزائر ، كما لاحظ دي توكفيل حوالي منتصف القرن الماضي ، منذ الاحتلال . وقد لاحظنا أن هؤلاء العلماء ، الذين كانوا مهملين ومضطهدين ، قد هاجروا إلى الشرق الأدنى والى الجارتين تونس والمغرب ، وبقي آخرون منهم في الجزائر ولكنهم نموا شاكين في الادارة الفرنسية . وما دام بعض العلماء غرباء في وطنهم ، وطموحين من أجل المعرفة والزعامة ، فانهم قد أصبحوا واعين سياسياً ، ومصلحين ليبراليين دينياً . وعندما سمعوا بحركة الجامعة الاسلامية في أواخر القرن الماضي انجذب بعضهم إلى المذهب الجديد وحاول أن يستعمله من أجل أهداف اصلاحية في الجزائر (أي من أجل يقظة البلاد السياسية والوطنية) . وهكذا فإن الجزائر خلال عهد النهضة كانت تقاد باتجاهين هامين : أحدهما اتجاه جماعة النخبة والآخر اتجاه العلماء وأنصارهم.

وترجع فكرة انشاء منظمة للعلماء الجزائريين الى فترة ما قبل الحرب . وبناء على قول ديبارمي فان هؤلاء المثقفين قد انجذبوا إلى فكرة التعليم والنظام في القرن العشرين وتخلوا عن فكرة حرب العصابات التي كانوا قد تعلموا بها ضد فرنسا في القرن التاسع عشر . وقد أضاف ديبارمي بأن هذا « الضمير الجديد » قد ظهر عندما تعلم العلماء من الزمن أن جهودهم الوطنية في الماضي كانت بلا ثمرة . لذلك بدأوا يعدون من أجل « معركة فاصلة » بينهم وبين الفرنسيين ، معركة تقوم على مناورات جديدة . ويقول أحد مؤسسي جمعية العلماء سنة 1931 أن العلماء الجزائريين كانوا قد تحدثوا عن قضية خلق منظمة لهم قبل الحرب عندما كانوا مقتنعين أن تدهور الجزائر الاجتماعي والديني أصبح منذراً بالخطر . فمنذ حقبة ما قبل الحرب إذن كان العلماء يناقشون ، بناء على هذا المصدر ، دورهم الفعال في قيادة الشعب الى حياة أفضل[68].

---

(68) ديبارمي ، « القواد » في « أ . ف . » (جانفي ، 1933) ، ص 14 ـ 15 نقلاً عن جريدة « البلاغ الجزائري » .

لقد سبق لنا أن تحدثنا عن بعض زعماء العلماء مثل ابن الموهوب، وابن سماية، والمجاوي . وعشية الحرب العالمية الأولى غادر الجزائر جماعة من العلماء الشبان متوجهين إلى تونس والمغرب ، والشرق الأدنى . ولعل هدفهم كان اتقاء الخدمة العسكرية التي سنتها السلطات الفرنسية اجبارياً للجزائريين . ولعله كان أيضاً الحصول على بعض الثقافة العربية والتوجيه الاسلامي ، اللذين لا يكادون يجدونهما في الجزائر . وقد شملت موجة المهاجرين الشبان زعماء المستقبل لجميعة العلماء : عبد الحميد بن باديس ، ومحمد البشير الابراهيمي ، والطيب العقبي . وقد سبق لنا الحديث عن العلاقة بين ابن الموهوب وابن باديس قبل الحرب الأولى.

وتحت تأثير روح الاصلاح في الجزائر وحركة الجامعة الاسلامية في الشرق الأدنى ، قضى هؤلاء الزعماء المستقبلون كل فترة الحرب (باستثناء ابن باديس) خارج وطنهم . ولما كانوا مهاجرين خلال أكثر العهود انقلابية في هذا القرن ، فانهم قد تعلموا ليس فقط الأفكار النظرية عن الحضارة الاسلامية ، بل أيضاً التصورات العامة عن مشاكل وقوى العالم كله . وعندما وضعت الحرب أوزارها ، رجع نفس المهاجرين الى وطنهم بنظريات معادية للفرنسيين وشرعوا في وضع برنامج اجتماعي وثقافي يستهدف توهين أسس فرنسا في الجزائر.

ان الكتاب الفرنسيين يكادون يتفقون على ارجاع أصل الفكرة الاصلاحية لدى العلماء الى الحركة الوهابية والجامعة الاسلامية في الشرق الأدنى[69] . وعندما أصبحت القومية العربية قوة هامة خلال الثلاثينات ، اعتاد نفس الكتاب أن يشيروا الى العلماء على أنهم ناشروها أيضاً . والحق أن العلماء أنفسهم لم ينكروا علاقتهم بهذه الحركات . فالشيخ الابراهيمي ، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لجمعية العلماء ، قد اعترف بأنه كان هناك تأثير كبير من حركة الجامعة الاسلامية على الحركة الإصلاحية الجزائرية . وخص بالمدح زعيمين للجامعة الإسلامية : محمد عبده ، ورشيد رضا . واعتاد أن يسمي الأول « الامام » الذي كان شخصاً « فذا » و « أول من نادى بالاصلاح

---

(69) أنظر ساراسان ، ص 106 ، وديبارمي ، « المظاهرات » في « أ . ف . » (سبتمبر ، 1934) ، ص 538 . أنظر أيضاً لاشاريير ، غضبة المغرب الفرنسي » في « أ . ف . » (مارس ، 1928) ، ص 100 . والحركة الوهابية هي التي قام بها محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت تهدف الى تطهير وأحياء الإسلام .

الديني والعقلي في العالم الاسلامي »[70].

ونفس الرأي عبر عنه الابراهيمي بالنسبة الى مساهمة الشيخ رشيد رضا . وبناء عليه ، فإن رضا ، بتحريره لمجلة « المنار » وكتابته ترجمة شخصية لمحمد عبده ، قد أدخل « فكرة جديدة » الى العالم الاسلامي . وأضاف الابراهيمي أن رضا قد ركز جهوده ضد « المستغلين من المسلمين والمتعصبين من المسيحيين » . والابراهيمي ، الذي كان قد تقابل شخصياً مع رضا في سوريا في طريق عودته إلى الجزائر بعد الحرب ، قال ان جمعية العلماء مدينة بالكثير لرضا ولمجلة « المنار » . وأكد أيضاً أن جهود الجمعية لها « جذور عميقة في مبادىء وأعمال رضا »[71] . وهكذا فإن العلماء الجزائريين قد اعترفوا أن لهم « جذوراً عميقة » في الحركة الاصلاحية التي كانت تنمو في نفس الوقت في الشرق الأدنى .

وعند عودتهم الى الجزائر اثر الحرب ، بدأ العلماء ـ الذين كانوا مفعمين بالمطامح والأفكار المعادية للفرنسيين ، والذين وجدوا زملاءهم في الوطن في حالة سبات ، يائسين ، معزولين والذين اكتسبوا تجارب غنية وطوروا وعياً سياسياً ـ جهودهم الاصلاحية في خلق الصحافة ، والمدارس ، والنوادي الثقافية . وهكذا عادت إلى الظهور بينهم فكرة انشاء منظمة تعكس تفكيرهم وتوجه جهودهم .

وبناء على رواية الابراهيمي ، فإن ابن باديس قد زاره في سطيف ، سنة 1924 ، وأخبره بخطته في خلق جمعية للعلماء في قسنطينة ، تحت اسم « جمعية الاخاء العلمي » . وأضاف ابن باديس الى مضيفه ، أن هذه الجمعية ستوحد جهود العلماء الجزائريين وطلابهم ، وانها ستساعد على ربطهم جميعاً ببرنامج مشترك . وقد شجع الابراهيمي الفكرة . ثم عمل الرجلان على وضع خطة تتضمن الدستور ، ومكان الاجتماع ، والمديرين ، بالإضافة إلى خطوات أخرى ، لاعداد الاجتماع التأسيسي ، وعاد ابن باديس الى قسنطينة واستشار زملاءه ومساعديه ، الذين بناء على رأي الابراهيمي ، رحبوا بالفكرة وتبنوا الدستور المؤقت . ولكن ظروفاً جديدة طرأت

---

(70) محمد البشير الإبراهيمي (محرر) « سجل المؤتمر الخامس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين » . (1935) ، (قسنطينة) ، المطبعة الإسلامية الجزائرية ، 1935 ، ص 34 ـ 35 .

(71) نفس المصدر ، ص 36 ـ 38 .

فأخرت المشروع ست سنوات[72].

ولكن العبارة السحرية « لجمعية الاخاء » انتشرت في كل مكان في الجزائر . فقد استعملها الكتاب في الصحافة . والخطباء في الاجتماعات العامة ، بالاضافة إلى استعمالها في المحادثات الخاصة . وبناء على رأي الابراهيمي ، فان العبارة ، قد جذبت أنظار المثقفين في البلاد كلها . ومع ذلك فان زعماء المشروع قد شعروا أن خلق مثل هذه المنظمة قد يؤدي الى انقسام الطبقة المتعلمة ، اذا لم يسبق ذلك اعداد محكم .

وبناء على رأي الابراهيمي ، فقد كان هناك نوعان من المتعلمين في الجزائر . فقد استعملها الكتاب في الصحافة ، والخطباء في الاجتماعات العامة ، بالاضافة الى استعمالها في المحادثات الخاصة . وبناء على رأي الابراهيمي ، فان العبارة ، قد جذبت أنظار المثقفين في البلاد كلها . ومع ذلك فإن زعماء المشروع قد شعروا أن خلق مثل هذه المنظمة قد يؤدي الى انقسام الطبقة المتعلمة ، اذا لم يسبق ذلك اعداد محكم .

وبناء على رأي الابراهيمي ، فقد كان هنك نوعان من المتعلمين في الجزائر خلال العشرينات : الأول ، العلماء ، أي أولئك المثقفون الذين كانوا واعين سياسياً ولهم اتجاه اصلاحي ، والثاني قليلو الثقافة الذين لهم اتجاه ديني والذين تخرجوا من الزوايا المحلية وغيرها من المراكز الدينية ، وأضاف الابراهيمي بأنه كان في امكان العلماء تأسيس « جمعية للاصلاح الديني » ، ولكنهم لم يريدوا عزل زملائهم المحافظين . لذلك كان العلماء الاصلاحيون مقتنعين أن أية منظمة ناجحة يجب أن تضم المحافظين أيضاً[73] . ولم تتحقق هذه الخطة سوى في سنة 1931 عندما ولدت جمعية كانت تمثل علماء الجزائر من أصحاب الاتجاهين .

وبينما كان العلماء الاصلاحيون ينتظرون فكرة انشاء منظمة مشتركة حتى تنضج ، كان عليهم أن يختاروا بين شيئين في تناولهم للاصلاح . الاختيار الأول هو

---

(72) نفس المصدر ، ص 46 ـ 47 . لم يشرح الإبراهيمي هذه الظروف ، ولكنه أشار إلى أن الفكرة قد تكون ما زالت غير ناضجة ، وأن الشعب ما زال غير محضر لها .

(73) نفس المصدر ، ص 48 ـ 49 .

التركيز على التعليم، بهدف خلق زعماء جدد ذوي مؤهلات عالية لمواجهة تحدي خصوم الاصلاح . والاختيار الثاني هو مواجهة الوضع حالياً وبصراحة ، دون خوف أو رأفة ، حسب تعبير الابراهيمي ، وذلك بمهاجمة المستغلين للبلاد . وكانت وسيلة الاختيار الثاني هي الاتصال المباشر مع الجماهير لايقاظها ضد مستغليها . ورغم أن الابراهيمي كان في صالح الاختيار الأول فإن الاختيار الثاني هو الذي انتصر لأن ابن باديس كان في صالحه . وسوف نرى أن ابن باديس قد استعمل أولاً سلاحين : الصحافة والمدرسة لكي يهاجم أعداءه ، ولكي يعد الأرض لخلق منظمة وطنية للعلماء[74] . ولكن كان للعلماء تصوراتهم الخاصة عن بداية وتطور الحركة الاصلاحية في الجزائر.

فهم يرون أن الشكل الحديث للحركة الاصلاحية في الجزائر قد ولد بعد الحرب العالمية الأولى . وقد كانت هناك عوامل كثيرة ساهمت في هذا التطور :

أولاً ـ كان هناك تأثير الشيخ عبده (حركة الجامعة الاسلامية) ., ولا سيما فكرته عن الاجتهاد .

ثانياً ـ تأثير مجلة « المنار » وكتب المصلحين الدينيين ، مثل ابن تيمية ، وابن القيم ، والشوكاني (وهؤلاء كلهم محل اعجاب الوهابيين أيضاً) .

ثالثاً ـ « الثورة التعليمية » التي أحدثها ابن باديس بعد عودته من تونس والمشرق.

رابعاً ـ الوقع النفسي للحرب على الجماهير الجزائرية ، الذي أدى الى تدهور الاعتقادات الخرافية ، بالإضافة إلى تدهور المبادىء « المقدسة » في أعين هذه الجماهير.

خامساً ـ عودة بعض « أبناء (الجزائر) المخلصين المؤمنين « من الحجاز » منبت الاسلام ومركز النهضة الاصلاحية ، بعد أن تعلموا فكرة الاصلاح الناضجة[75] .

ولكن خلق جمعية لكل علماء الجزائر سنة 1931 قد سبقته يقظة عامة للبلاد .

---

(74) نفس المصدر ، ص 43 ـ 45 .

(75) نفس المصدر ، ص 40 ـ 42 . من الواضح أن الإبراهيمي كان يتحدث عن العوامل « الخارجية » التي ساهمت في الحركة الإصلاحية .

وبين 1919 و 1931 غطت هذه اليقظة كل مظهر من مظاهر الحياة الجزائرية . ففي الحقل الاقتصادي كانت هناك منافسة مع الفرنسيين . وفي الميدان الثقافي كان هناك انشاء النوادي ، والجمعيات ، بالإضافة إلى الهجرة للدراسة . وفي ميدان الدين ، كان هناك خلق المساجد الحرة ، بأموال الشعب في المدن والقرى . وفي النطاق النفسي ، كان هناك تفكير جاد ومباشر ، وثقة لدى الأهالي ، بالإضافة إلى اعتقاد راسخ بوجود « الأمة » . وفي الحياة السياسية ، كان هناك شعور خاص نحو الاسلام واللغة العربية . وبناء على رأي العلماء ، فإن هذه التطورات قد جعلت خلق جمعيتهم ممكناً وضرورياً لأن الفكرة كانت ناضجة والأمة كانت مستعدة(76) .

ورغم أن الفكرة كانت ناضجة ، فإن خلق جمعية للعلماء الجزائريين كان سيبقى حلماً لولا قيادة ابن باديس الحيوية والديناميكية . ولعله من الممكن أن نقول انه لا وجود لشخصية في العصر الحديث أثرت على كامل المجتمع الجزائري كما فعل ابن باديس ، ومن جهة أخرى فان حياة ابن باديس تعتبر نموذجاً لأولئك المثقفين الجزائريين الغرباء في بلادهم والذين كان يسميهم بعض الكتاب الفرنسيين « النخبة الأخرى »(77) .

ولد ابن باديس سنة 1889 في قسنطينة ، المدينة ذات المقارنات الكثيرة ، من عائلة تنتمي الى الطبقة الوسطى . وقد حصل على تعليمه الابتدائي في مدرسة قرآنية على يد الشيخ محمد بن المداسي . كما درس العلوم العربية والاسلامية على الشيخ حمدان الونيسي ، الذي سبق أن أشرنا إليه . ويقال ان ابن باديس الشاب قد أخذ عليه أستاذه عهداً بأن لا يقبل منصباً من الادارة الفرنسية . ويقال أيضاً انه هو نفسه كان يطلب من طلابه أن يفعلوا نفس الشيء(78) .

وعندما هاجر أستاذه الونيسي إلى الحجاز سنة 1908 ، ذهب ابن باديس الى تونس للتعلم . حدث هذا عندما كانت الجزائر تعيش في فترة الزخم الكبير .

---

(76) نفس المصدر ، ص 50 .

(77) بوسكي . « و . أ . » ، 3 (1954) ، ص 57 .

(78) حمزة بوكوشة ، « مع ابن باديس في ذكراه » في « المعرفة » أبريل ، 1964 ، ص 13 . منذ تاليف هذا الكتاب ظهرت عدة أبحاث عن ابن باديس وحركة العلماء . أنظر قائمة المصادر .

ولعل ابن باديس كان مدفوعاً بروح النهضة التي كانت تعيشها بلاده عندما دخل جامع الزيتونة بتونس حيث حصل على شهادة التحصيل سنة 1912 ، وخلال نفس السنة رجع الى قسنطينة وبدأ برنامجاً للتعليم ، والاصلاح في جامع سيدي الأخضر للكبار مساء ، وفي جامع سيدي قموش للصغار نهاراً . وكان هدفه الآني هو تعليم اللغة العربية والقرآن إلى الجزائريين ومكافحة الخرافات والأمراض الاجتماعية بينهم ، ولكن هدفه البعيد المدى كان وطنياً وسياسياً[79] .

وعشية الحرب العالمية الأولى ، غادر ابن باديس قسنطينة مرة أخرى الى تونس والشرق الأدنى . وقد يكون فعل ذلك لكي يتقي التجنيد الاجباري ، الذي كان قضية تشغل الرأي العام عندئذ ، ولكي يزيد من تجربته العلمية . وقضى جزءاً من الوقت كطالب ـ معلم في جامع الزيتونة ، وجزءاً منه مسافراً ، وحاجاً ، وطالب معرفة في الشرق الأدنى . وخلال زيارته للحجاز ، زار أستاذه الونيسي ، ويقال انه قد جدد له عهده السابق . وفي طريقه من الحجاز الى أفريقيا الشمالية ، استقبل بحفاوة كبيرة من شيخ جامع الأزهر محمد بخيت ، الذي يقال انه قد أجازه[80] . وفي هذا المجال يجب أن يتذكر المرء أن الحركة الوطنية التونسية التي كانت ، قبل الحرب ، تحت زعامة علي باش حانبه ، وثورة العرب سنة 1916 ضد الأتراك قد تركتا طابعاً دائماً على حياة ابن باديس المستقبلة .

وفي سنة 1935 اعتبر الشيخ علي المغربي ابن باديس أبا النهضة الجزائرية ، وبناء على رأي المغربي ، فان الجزائر ، قبيل سنة 1912 كانت تعاني من التخلف والجهل . ولكن ابن باديس ظهر في ذلك العهد ليفتح لها عهداً جديداً . وقد بدأ يقود البلاد في الطريق الذي تتطور فيه الأمم . فابن باديس اذن جاء ليحمي الروح الوطنية ، ويعلم الشباب ، وينشيء المدارس العربية ، ويحطم الجهل والكسل ، ويخدم دينه ووطنه[81] .

---

(79) نفس المصدر ، أنظر أيضاً ديبارمي ، « مساهمة » في « أ . ف . » (جويليه ، 1937) ، ص 354 .

(80) في ذلك الوقت يستطيع أستاذ مشهور أن يمنح ، بعد تقييم دقيق ، سلطته العلمية والشخصية الى الطلاب الذين يرى فيهم مستقبلاً واعداً. أنظر بوكوشة ، « المعرفة » (أبريل ، 1964) ، ص 13 .

(81) علي المغربي ، « سجل المؤتمر الخامس لجمعية العلماء » (تحرير البشير الإبراهيمي) ، (قسنطينة ، المطبعة الإسلامية الجزائرية ، 1935) ، ص 184 .

ولو أن هذه الشهادة لم يؤكدها الكتّاب الجزائريون والأوروبيون ، لاعتبرت رأياً عاطفياً من أحد أتباع ابن باديس . ففي سنة 1933 كتب ديبارمي يقول ان الجزائريين كانوا يسمون بان بـاديس « مرشد الأمة » و« امام البلاد » ، وأبا النهضة[82] . وفي الجزائر المستقلة ، يعتبر ابن باديس أحد المساهمين الرئيسيين في الحركة الوطنية الجزائرية ويطلق اسمه على مختلف المؤسسات العامة[83] .

ولكن ابن باديس لم يكن وحده في الميـدان . فقد كـان يساعـده أشخاص مخلصون يتقاسمون معه الرأي ، والوسيلة ، والهـدف . ومن هؤلاء محمد البشيـر الابراهيمي ، الكاتب الذي خلفه في رئـاسة جمعيـة العلماء . والـطيب العقبـي ، الخطيب ، الذي شغل عدة أعمال ، بما في ذلك نيابة رئاسـة الجمعية . ومبـارك الميلي ، المؤرخ الذي عمل كأمين للمال . والأمين العمودي ، الذي كان يحسن العربية والفرنسية والذي تقلد منصب الكاتب العام . وغيرهم . وليس من هدفنا أن نقدم قائمة بأسماء الأعضاء البارزين من العلماء الذين لم يصعد بعضم الى مكان هام الا بعد الفترة التي ندرسها . على أن نظرة سريعة إلى الزعماء الذين سـاهموا في الحركة خلال العشرينات قد تساعد على القاء الضوء على أصول هذه الطبقة المثقفة الوطنية .

وهنـاك شخصيتان شـاركتا ابن بـاديس كثيراً من المـزايـا . أولاهمـا الـطيب العقبي . فقد ولد بسيدي عقبة الـواقعة قـرب بسكرة سنـة 1889 . ولـم يكد يبلغ الخامسة من عمره حتى هاجـرت أسرتـه كلها الى الحجـاز (سنة 1895) . وفي المدينة المنورة حفظ القرآن الكريم ودرس المعارف المتداولة عندئذ وبدأ ينظم الشعر ويكتب في الصحف وهو صغير السن . وبعد الثورة العربية نفاه الأتراك الى الروم ايلي فالأناضول ثمَ أزمير ، بحجة انتمائه الى فكرة القومية العربية . وعند نهاية الحرب عاد

---

(82) ديبـارمي ، «مصلح معـاصـر في الجـزائـر» في « أ . ف . » (مـارس ، 1933) ، ص 149 ـ 155 . بناء على الكاتب ، فإن خصوم أبن باديس كانوا يسمونه حليف المسيحية والغرب .

(83) توفي أبن باديس في 16 أبريل ، 1940 ، في مسقط رأسه ، قسنطينة . وقد سـال حبر كثيـر في الحديث عن أبن باديس ، ولكن حياته ما زالت لم تدرس ، وليس هناك في الواقع ترجمة شخصية وافية له . ولعل أفضلها ما كتبه علي مراد عنه . أنظر قائمة المراجع .

العقبي الى مكة . وقد عهد اليه الشريف حسين بإدارة جريدة (القبلة) والمطبعة الأميرية .

وفي مارس سنة 1920 عاد العقبي إلى الجزائر ربما لعدم استتباب الأمن في الحجاز . وكان السبب الظاهر لرجوعه هو الاعتداء الذي وقع كما يقول ، على أملاك عائلته في مسقط رأسه . ولذلك عزم على الرجوع الى الحجاز متى استقرت فيه الأحوال واتضح الموقف . وقد ظل العقبي في بسكرة ومنها كان يبث أفكاره عن النهضة العربية والجامعة الاسلامية والاصلاح الديني والاجتماعي . والتف حوله جماعة من الأدباء والمصلحين مثل الشاعر محمد العيد آل خليفة . وقد اشتركوا في انشاء جريدة (صدى الصحراء) سنة 1926 في مدينة بسكرة ، ثم انفرد العقبي بتأسيس جريدة (الاصلاح) سنة 1927 في المدينة نفسها[84] . وكان العقبي ممثلاً للعلماء في الجزائر العاصمة قبل خلق جمعيتهم ، حيث أصبح معروفاً بأنه أكثرهم تأثيراً خطابة[85] .

أما الشخصية الثانية التي صاحبت ابن باديس في العشرينات فهو البشير الابراهيمي . وقد ولد في قرية سيدي عبد اللّه (أولاد براهم) نواحي سطيف سنة 1889 . وهناك وفي زاوية شلاّطة مارس تعليمه الابتدائي ، وفي سنة 1912 هاجر إلى الحجاز حيث درس وقوى معارفه وأصبح من المدرسين ، وبعد الثورة العربية توجه (سنة 1917) إلى سورية حيث استقر ودرس وتخرج على يديه تلاميذ . وقبل عودته إلى الجزائر حصل الإبراهيمي على معرفة واسعة بالأدب العربي والحضارة الإسلامية . ولا شك أنه تأثر بعمق بحركة الجامعة الإسلامية التي كانت عندئذ في الحجاز وفي الشام قوة سياسية وثقافية هائلة . وبالإضافة إلى ذلك تأثر الإبراهيمي بالحركة السلفية التي كانت تدعو إلى العودة إلى المنابع الصافية للإسلام وهي القرآن

---

(84) ترجم العقبي لنفسه في كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) لمحمد الهادي السنوسي . أنظر جـ 1 ، تونس 1926 ، ص 124 ـ 130 . وقد ترجم له محمد علي دبوز في (نهضة الجزائر) ـ أنظر قائمة المراجع ، وذكر السيد ساراسان أن الجريدة التي أدارها العقبي في الحجاز جريدة سعودية أنظر ص 109 . وهو رأي غير صحيح .

(85) أنظر غوتي ، « أخطار » في ر . ب . (أول سبتمبر ، 1934) ، ص 45 ـ 46 : أنظر أيضاً ديبارمي ، « مساهمة » في « أ . ف . » (جويليه ، 1937) ، ص 354 .

والحديث وتقاليد السلف الصالح .

وبعد عودته إلى الجزائر (1920)، لم يبدأ الابراهيمي بنشر الاصلاح، كما فعل ابن باديس والعقبي . فقد كان عندئذ أديباً أكثر منه مصلحاً نشيطاً. ولكن شيئاً فشيئاً، أثر عليه ابن باديس ، فدخل ميدان المصلحين . ولعل فشله في جذب جمهور أدبي في بلاد كالجزائر تغلب عليها الأمية كان له دور أيضاً في هذا التحول. وتحت تأثير ابن باديس عين الابراهيمي ممثلاً لحركة الاصلاح في تلمسان . والحق أن مساهمته في هذه الحركة كانت ضعيفة خلال العشرينات . ولكنه سيلعب دوراً هاماً في العقود اللاحقة[86].

ولكن الحركة الاصلاحية الجزائرية لا يمكن أن تفهم أو تقدر دون الاشارة الى شخصية أحمد بن عليوة . ولد ابن عليوة في مدينة مستغانم (موطن السنوسيين) وتلقى تعليمه الدينيّ على أستاذه الشيخ بوزيد الذي كان ينتمي الى الطريقة الدرقاوية . وبعد وفاة الشيخ بوزيد ، سنة 1909 ، هاجر ابن علوية أيضاً الى الشرق الأدنى . وقد تنقل طويلاً بين مصر ، وسورية ، وإيران ، والهند ، وهي الرحلة التي دامت عشر سنوات . وابن عليوة ، كزملائه ، وجد نفسه خارج وطنه أثناء أكثر العهود انقلابية في هذا القرن . ولكن خلافاً لهم ، يبدو أنه سافر أكثر وتورط بعمق في قضايا الساعة ، ولا سيما قضية الدين.

وبعد الحرب عاد ابن عليوة أيضاً الى الجزائر وشرع في حملة واسعة لبث أفكاره . فأوجد أولاً جريدة « البلاغ الجزائري » ، التي كانت من أكثر الجرائد العربية الأسبوعية انتشاراً في ذلك الوقت ، والتي حملت أفكاره ليس فقط داخل الجزائر ، ولكن أيضاً في كامل أفريقيا الشمالية ، والشرق الأدنى ، وانكلترا ، والأمريكيتين[87] . ويسمي أوغسطين بيرك ابن عليوة « مبشراً حديثاً » يجمع الى الثقافة الاسلامية الانضباط الأوروبي .

---

(86) ساراسان ، ص 109 ـ 110 . ظهرت منذ تأليف هذا الكتاب عدة دراسات عن الإبراهيمي ودوره في الحركة الإصلاحية والوطنية . أنظر قائمة المصادر .

(87) أ . بيرك ، « رجل غامض حديث : الشيخ ابن عليوة » في « ر . أ . » . م 79 (1936) ، ص 761 .

وعلى أية حال فان ابن عليوة قد انفصل عن زاويته الدرقاوية وخلق زاوية خاصة به. وبينما كان العلماء الآخرون ما يزالون يفكرون في انشاء منظمة، أسس ابن عليوة زوايا لا في الجزائر فقط ، ولكن في فرنسا أيضاً . وقبل وفاته في 14 جويلية 1934 ، كان لابن عليوة أتباع في تونس ، والمغرب ، وليبيا ، واليمن ، وسوريا ، بالإضافة إلى الجزائر . وزيادة على كتاباته الصحفية ومحاضراته التوجيهية ، كان ابن عليوة ينظم الشعر ، ويكتب في الفلسفة ، والدين ، وقد نشر بعض أعماله ، أثناء حياته ، في تونس وسوريا . ويصفه بيرك بأنه سيد القلم والحرف ، وبأنه كان خطيباً مؤثراً[88]. أما معاصروه الجزائريون ، وخصوصاً العلماء ، فقد أكدوا أن ابن عليوة كان أمياً وأن ما نسب إليه من كتابات كان من انشاء أتباعه.

ويبدو أن ابن عليوة كان مؤمناً بفكرة الجامعة الإسلامية ، تحت غطاء جزائري . وبدلاً من طرح مذهبه خلال منظمة اجتماعية ـ دينية ، كما فعل الاصلاحيون ، استعمل ابن عليوة الطريقة الجزائرية القديمة : خلق جمعية (طريقة) باسمه الخاص مع زاوية ، وطقوس غامضة ، ودرجات كهنوتية .

وبناء على رأي بيرك فان ابن عليوة قد نادى بالوحدة الاسلامية بغض النظر عن السلالة أو الشيع . وقد أبقى صلات وثيقة مع زعماء الجامعة الاسلامية والقومية العربية . وكانت جريدته تحتوي على بعض المقالات لهؤلاء الزعماء ، بما في ذلك مقالات من عبد العزيز الثعالبي التونسي ، والأمير شكيب أرسلان السوري . وشجب معاملة الفرنسيين للجزائريين كسلالة ناقصة ، واضطهادهم للنظم العربية . وقد هاجم كلاً من البعثات التبشيرية المسيحية والشيوعية في الجزائر . كما هاجم الحضارة الأوروبية المادية والخطة الفرنسية لتجنيس الجزائريين.

كان ابن عليوة يعتقد أنه يستطيع أن يحارب الحكم الفرنسي بالطريقة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر (أي بالطرقية، والصلات السرية ، والنظم الدينية) . بينما كان العلماء الآخرون يعتقدون أن وقت الطرقية قد انقضى، وأن طريقة التنظيم الحديث قد أصبحت ضرورية[89] . ولكن ابن عليوة قد نما شيئاً فشيئاً محافظاً ، بينما كان

---

(88) نفس المصدر ، ص 692 .

(89) نفس المصدر . للحصول على معلومات أكثر ، أنظر ص 691 ـ 776 حيث يعطي بيرك تفاصيل عن =

العلماء يحاولون أن يسايروا الزمن.

فإذا استبعدنا حركة ابن عليوة ، فاننا نجد أن للعلماء برنامجاً بثلاث زوايا : دينية ، واجتماعية ، وسياسية ، رغم أن الزاوية الأخيرة لم تكن صريحة لديهم . فتحت قيادة ابن باديس ، عملوا من أجل نشر الاسلام بحرية (بطريقتهم الاصلاحية الخاصة) ، وفصل الدين عن الدولة ، والقضاء على الطرقية ونظمها الغامضة « المرابطية » .

وعلى المستوى الاجتماعي والثقافي، أسسوا المدارس العربية الحرة ، والنوادي الثقافية والمجلات الأدبية ، وحاربوا الأمراض الإجتماعية، مثل الخرافات الغليظة . وأما على المستوى السياسي ، فان العلماء قد وقفوا في صالح كيان (أمة) جزائري ينفصل في النهاية عن فرنسا ، ودعوا الى القومية العربية والجامعة الاسلامية ، وعارضوا بشدة تجنيس ودمج الجزائر في فرنسا[90] . ولكن العلماء لم يكونوا ثوريين في تناولهم لهذا الموضوع . كانوا يعتقدون في عدم العنف ويفضلون طريقة الاغراء والاقناع على طريقة الارهاب والثورة.

وتنص المادة الأولى من دستور العلماء على أن الجمعية لن تتدخل في الشؤون السياسية بأية حال . وتصف نفس المادة الجمعية بأنها منظمة ارشادية وأخلاقية . وتحدد المادة الثانية أهداف هذه المنظمة بأنها تحارب الأمراض الاجتماعية ، مثل الخمر ، والقمار ، والبطالة ، والجهل ، وكل شيء يمنعه الشرع الاسلامي ، ويحرمه العقل الانساني وتشجعه الممارسة العامة . وأضاف الدستور أن الجمعية ستحقق هذا البرنامج بكل الوسائل التي تراها مناسبة ومفيدة ، والتي هي غير محرمة بالقانون .

حياة أبن عليوة ومذهبه الإصلاحي بالإضافة إلى صورته . كان أبن عليوة متهماً من قبل العلماء المعاصرين له بأنه يؤمن بمذهب الحلول ويدعو إلى التقارب المسيحي ـ الإسلامي ، وأن ذلك هو الذي جعل بعض غير المسلمين ينضمون إلى فكرته . كما اتهموا أتباعه بمحاولة إغتيال الشيخ أبن باديس في قصة معروفة .

(90) أنظر ، « العلماء الجزائريون المصلحون » في « ن . ر ف . أ . » م 7 ، 8 (جويليه ، 1955) ، ص 332 ـ 336 . أنظر أيضاً « دستور ومذهب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » (قسنطينة ، المطبعة الإسلامية الجزائرية ، حوالي 1937) ، ص 3 ـ 4 . أنظر أيضاً ديبارمي ، « مساهمة » في « أ . ف . » (جويليه ، 1937 » ، ص 355 .

فمهمتها تتمثل في القيام بحملات توعية وارشاد في كامل البلاد، وفي عقد اجتماعات عامة ، وفي انشاء فروع وهيئات اصلاحية ، ونواد ثقافية ، بالإضافة إلى المدارس الحرة.

وفي سنة 1934 ، حددت « الشهاب » مجلة العلماء غير الرسمية ، في عددها الصادر في ماي ، هدف الجمعية ، فقالت انه يتمثل في : « **اصلاح الشعب الجزائري العربي من الوجهة الدينية، والوطنية، والأدبية والعلمية** »[91] (تسطير أصلي) . والعلماء ، بناء على رأي كاتب فرنسي ، لهم هدفان هامان : أحدهما فوري ، والثاني طويل المدى . فالأول كان يتمثل في تجميع كل القوى المثقفة ، بما في ذلك المحافظون ، مثل ابن عليوة ، تحت راية الاصلاح الاجتماعي . أما الثاني فقد كان يتمثل في فصل الجزائر عن فرنسا تحت علم الوطنية[92].

ان المذهب الديني للعلماء ، الذين كانوا يدعون اليه منذ ظهورهم أوائل العشرينات ، لم يكن صعباً كثيراً على الفهم . فابن باديس الذي كون ونشر هذا المذهب ضمنه دستور الجمعية عند انشائها . ونظراً لأهمية هذا المذهب الوثائقية ، فسوف نذكره في الملحقات . أما حالياً فيكفي أن نعطي فكرة عامة عنه .

اعتقد العلماء وعلموا أن :

1 ـ الاسلام هو دين الله بعث به بواسطة الرسل الذين كان آخرهم محمد.

2 ـ الاسلام هو دين الانسانية قاطبة.

3 ـ القرآن هو كتاب الاسلام .

4 ـ السنة الحقيقية هي تفسير للقرآن .

5 ـ البدعة هي كل شكل من العبادة التي ليس لها أصل في السنة .

6 ـ المصلحة هي ما يحتاجه الناس للتوفيق بين التعاليم الاسلامية والحياة الاجتماعية .

7 ـ محمد هو أفضل الخلق .

8 ـ التوحيد هو أساس الدين .

---

(91) نص على ذلك ديبارمي ، « المظاهرات » في « أ . ف . » (سبتمبر ، 1934) ، ص 538 .

(92) أنظر « العلماء الجزائريون » في « ن . ر . ف . أ . » م 7 ، 8 (جويليه ، 1955) ، ص 331 .

9 ـ الخلاص هو بالعمل الصالح وحده .

10 ـ المرابطية بدعة وهي تعني استغلال الانسان وقتل العقل .

11 ـ في حالة الخطر كل المسلمين عليهم أن يتحدوا وأن ينسوا خلافاتهم[93].

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن العلماء ، قد اعتقدوا أن الاسلام سيصبح عالمياً وأنه « ليس في حاجة الى دعاية » . فقد ادعت احدى الجرائد « النجاح » (27 ماي 1932) ، أنه بعد مائة سنة ، سيصبح العالم كله مسلماً لأن الاسلام « لا يعارض أي تقدم »[94].

وإذا كان المذهب الديني للعلماء يبدو محل جدل ، فإن عملهم التعليمي والاجتماعي يبدو محل جاذبية ونجاح . فعلى المستوى التعليمي ، كان المبدأ الرئيسي الذي علمه العلماء لطلابهم وأتباعهم هو « الجزائر وطني ، والاسلام ديني ، والعربية لغتي » . وتحت هذه الراية بدأ ابن باديس ومؤيدوه يدعون إلى أفكار وطنية ـ ومذهبية كانت تجتذب انتباهاً كبيراً من الأهالي ، ولا سيما من الجيل الجديد والطبقة الوسطى التي كانت واعية سياسياً . وكانت هذه الحملة الدعائية قد تحققت بعناية خلال سلسلة من المدارس ، والجرائد ، والنوادي الثقافية ، ثم خلال الوعظ والارشاد في المساجد.

وكان المظهر الرئيسي لهذه الحملة الموقظة تأسيس المدارس العربية التي لم تكن تحت سيطرة الفرنسيين . وكانت المساجد في البداية تستعمل لكل من الارشاد والتعليم . وكان فتح المدارس ، مؤيدة بأموال شعبية حرة ، هو صراخ المعركة لدى العلماء بعد الحرب العالمية الأولى . ولكن المساجد بقيت لتعليم الكبار ، كما بقيت ميداناً للوعظ والارشاد الديني . ومن بين مدارس العلماء الرائدة « مدرسة التربية والتعليم » التي أنشأها ابن باديس في قسنطينة في أوائل العشرينات . وقد تخرج من هذه المدرسة جيل جزائري كامل تحت ارشاد ابن باديس.

وكانت الصحافة أيضاً مظهراً هاماً لحملة العلماء من أجل الاصلاح . فقد أنشأ

---

(93) أنظر « الدستور » ، ص 9 ـ 14 وملحق رقم 6 .

(94) أشار إلى ذلك ديبارمي ، « المقاومة » في « أ . ف . » (ماي ، 1933) ، ص 366 ـ 267 . كانت (النجاح) حتى الى ذلك التاريخ في صف العلماء ثم اختارت طريقاً آخر .

ابن باديس (سنة 1925)[95] جريدة عربية أسبوعية باسم « المنتقد » . ولم يظهر من هذه الجريدة سوى ثمانية عشر عدداً قبل أن تمنعها السلطات الفرنسية من الصدور . ومن بين المساهمين فيها المؤرخ مبارك الميلي ، الذي نشر فيها مقالاً بعنوان : « العقل الجزائري في خطر » . وهناك مساهم آخر فيها هو الطيب العقبي . الذي نظم شعراً بعنوان « الى الدين الخالص » .

وبعد منع « المنتقد » من الصدور ، أنشأ ابن باديس، سنة 1925 أيضاً « الشهاب »[96] ، التي كانت من أكبر المجلات الجزائرية تأثيراً خلال عقدين ، والتي كنا قد أشرنا إليها سابقاً . وقد بدأت « الشهاب » تصدر أسبوعية ثم أصبحت شهرية . وكانت تنشر للكتاب والشعراء الجزائريين ، بالإضافة إلى النشر للمفكرين في العالم العربي . ولم تكن « الشهاب » الجريدة الرسمية للعلماء ، حتى بعد خلق جمعيتهم ، ولكنها كانت ميداناً لكل المؤيدين المهتمين بالاصلاح الاجتماعي في الجزائر[97] .

ومن المظاهر الهامة أيضاً انشاء العلماء للنوادي والمراكز الثقافية ، ففي سنة 1934 كتبت جريدة « لالوت سوسيال » (الصراع الاجتماعي) ، (عدد 1 ـ 15 جوان) تقول انه لا يوجد مكان في الجزائر لم ينشىء فيه العلماء ، « منظمة ، بطريقة أو بأخرى »[98] . وقد قال رحالة عراقي مجهول ، سبق أن أشرنا إلى رسالته ، أن طلاب ابن باديس في قسنطينة قد أنشأوا سنة 1928 ، منظمتين : « الجمعية الخيرية الاسلامية » و « جمعية النيابة العربية » . وأضاف أنه كان قد زار « نادياً عربياً » في العاصمة حيث تنعقد المؤتمرات الثقافية وتوجد الصحف العربية القادمة من الشرق الأدنى[99] .

(95) ضبط الشيخ حمزة بوكوشة تاريخ صدورها بـ 2 يوليو 1925 . أنظر مقالته (الشيخ الهادي السنوسي) في مجلة (الثقافة) عدد 24 ، ديسمبر ـ يناير 1975 ص 100 .

(96) صدر عددها الأول بتاريخ 12 نوفمبر 1925 . وتحمل الشعار التالي : « جريدة وطنية تعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية » .

(97) بوكوشة ، « المعرفة » (أبريل ، 1964) ، ص 14 . ديبارمي ، « مساهمة » في « أ . ف . » (جويليه ، 1937) ص 354 .

(98) أشار الى ذلك ديبارمي ، « المظاهرات » في « أ . ف . » (سبتمبر ، 1934) ، ص 538 .

(99) « الإفتراءات ضد أفريقية الفرنسية » في « أ . ف . س . » (فيفري ، 1929) ، ص 164 .

ولا شك أن هذا « النادي العربي » الذي يشير اليه هو « نادي الترقي » الذي أنشأه أنصار الاصلاح سنة 1927 . وكان ابن باديس يعقد المؤتمرات ويلقي المحاضرات في هذا النادي كلما زار الجزائر العاصمة . كما أن النادي كان مركز لقاء الطبقة الجزائرية المثقفة ، والزائرين الأجانب ولا سيما من الشرق الأدنى . ولعله من المهم أن نلاحظ أن جمعية العلماء قد ولدت في هذا النادي[100].

لاحظ المعاصرون الفرنسيون أن العلماء قد أدخلوا «بيداغوجية وطنية» جديدة في حملتهم التعليمية . وبناء على رأي ديبارمي ، فإن ابن باديس قد استعمل هذه « الطريقة » الجديدة في محاضراته في الجامع الأخضر ، لكي يعد طلابه لمسؤولياتهم الوطنية . فقد علمهم ابن باديس « المحفوظات العربية » و « الأناشيد الوطنية » وكان الطلاب يحفظون ذلك وينشدونه في المناسبات الاجتماعية والدينية ، مثيرين بذلك روح الوطنية ، والتضامن الإسلامي ، والحرية . ويؤكد ديبارمي أن هذه الطريقة لم تكن معروفة في الجزائر قبل الحرب[101].

ولما كانت عمليات التعليم تجري في أماكن مختلفة بما في ذلك المساجد ، والمدارس ، والنوادي ، فقد كان على العلماء أن يبحثوا عن طرق خاصة لاصلاح هذا التعليم طبقاً للمكان الذي يعطى فيه . كانوا ينتقدون النظام القديم على أنه ضحل وغير عملي . لذلك اتبعوا في المساجد طريقة « السلف الصالح » لتعليم القرآن ، والسنة . وكانوا يدعون الى تناول عملي ومتحرر في تفسير هذين المصدرين الاسلاميين .

أما في المدارس فقد طبق العلماء طريقة سهلة وحديثة في تعليم العربية ، فقد حاولوا أن يطهروا اللغة من الدخيل والاستعمالات الهجينة . كما كانوا يعلمون القرآن

---

(100) بوكوشة ، « المعرفة » (أبريل ، 1964) ، ص 15 . افتتح النادي رسمياً بتاريخ 18 يوليو 1927 ، وحضر ابن باديس حفلة الإفتتاح وخطب فيه أحمد توفيق المدني . أنظر تفاصيل ذلك في مقال محمد العاصمي في « الشهاب » (4 أوت ، 1927) ص 8 ـ 11 . عن نادي الترقي : تاريخه ونشاطه وأهدافه أنظر (تقويم المنصور) لأحمد توفيق المدني ، السنة الخامسة ، (1348 ـ هـ 1929) ص 294 ـ 303 .

(101) ديبارمي ، « الوطنية في مدرسة الأهالي » في « أ . ف . » (أبريل ، 1935) ، ص 229 ـ 230 ، وساراسان، ص 172 . أنظر أيضاً أ . بيرك « أسرى القداسة : المرابطون والعلماء » في « ر . م . » ، (جويليه ـ أوت ، 1951) ، 426 ـ 427 .

في هذه المدارس ، ولكن بتفسير حديث . وأما التعليم في النوادي الثقافية فقد كان العلماء يهدفون منه إلى التربية على الشجاعة، والخطابة، والنظرة العملية. وكانت كتبهم المقررة تختار لفائدتها ، وسهولتها ، وحداثتها . وكان الطلاب يعلمون أفضل الطرق في البحث ، وقراءة التاريخ ، والأدب ، وعلم الاجتماع ، وتراجم أولئك الذين ساهموا في التراث الانساني[102].

ومن المساهمات الهامة التي قام بها العلماء خلال العشرينات خلق وبعث التاريخ الوطني . فبفضلهم نشر الماضي الجزائري وعرفه الطلاب ، وكانوا يدعون الجزائريين إلى اليقظة من سباتهم الطويل[103] . وفي نفس الوقت أدخل العلماء تدريس تاريخ العرب الحديث إلى الجزائر . كانوا يعلمون طلابهم أن جميع سكان أفريقيا الشمالية من أصل عربي . وكانوا ينشرون القول بأن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا وأنهم كانوا أول من حاول الطيران . وكانوا يمجدون الفتوحات ويتذكرون بحزن وشوق انجازات المسلمين في العصر الذهبي للاسلام . وكان العلماء يشعرون بتأخر الجزائريين بالمقارنة إلى الانجازات الأوروبية العلمية ، ولكنهم كانوا يدعون إلى العودة إلى القرآن ، الذي يقولون انه يحتوي على مفتاح التقدم وانه يحث جميع المسلمين على الاكتشاف والبحث[104] .

وفي هذا الصدد فإن ظهور مبارك الميلي كأول مؤرخ جزائري حديث لم يكن محل استغراب . والميلي ، الذي كان هو نفسه تلميذ ابن باديس ، قد حاول أن يعيد كتابة تاريخ الجزائر على أساس وطني . وقد ظهر الجزء الأول من كتابه (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) سنة 1928[105] . وباعتبار الميلي عضواً من العلماء ، فقد ركز على فكرتي الإصلاح والوطنية في تاريخه. وقد أهدى كتابه إلى

---

(102) الابراهيمي ، « السجل » ، ص 57 ـ 60 .

(103) ديبارمي ، « ميلاد » في (جويليه ، 1933) ، ص 387 ـ 388 .

(104) ديبارمي ، « تايخ العرب والعلماء الجزائريون » في « أ. ف» (ماي ، 1934) ، ص 274 ـ 281 .

(105) ظهر الجزء الثاني سنة 1932 . وأنهى الميلي كتابه بالقرن السادس عشر . ورغم أنه عاش الى سنة 1943 فإنه لم يصل بكتابه الى العصر الحاضر . غير أن ابنه ، محمد الميلي ، قد أكمله بعد استقلال الجزائر باصداره الجزء الثالث مبنياً على ما وجده من مخطط وأوراق والده .

شعب الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة ، بالاضافة إلى « الشباب المفكر ورجال العمل » في المنطقة .

يعرف الميلي التاريخ بأنه « مرآة الماضي ، ومصعد الحاضر ، وشهادة حياة الأمة ، وسجل أعمالها الشريف ، وتذكار عبقريتها ، ورباط وحدتها ، وميزان تقدمها » . وقد تأسف على أن الجزائريين في وقته كانوا يجهلون كل شيء عن تاريخهم ، بينما كانوا يعرفون الكثير عن تاريخ البلاد الأجنبية . وتأسف أيضاً على أن بعض الجزائريين كانوا ينظرون إلى تاريخ بلادهم على أنه قائمة أسماء ما قبل التاريخ ، واعتبروا أجدادهم وحوشاً ، ولكنهم مع ذلك يناقشون مستقبل الجزائر[106] .

كان الميلي يرى أن التاريخ يعني الجنسية والوطنية . فقد كتب قائلاً : « عندما يدرس أبناء أمة تاريخهم ، سيعرفون واقعهم ، واذن سيعرفون أن القومية الموجودة (أي القومية الفرنسية) سوف لا تبتلع قوميتهم » . وبناء على رأيه ، فان هذا الواقع التاريخ هو « فهم مجد ماضيهم ونبالة أجدادهم »[107] .

ولكن تاريخ الميلي ليس عملاً اختصاصياً . فموضوعه الرئيسي هو تمجيد الماضي الجزائري . وكان هدفه أن يظهر أن للجزائريين ، رغم الحكم الأجنبي ، تاريخاً يجب أن يكونوا فخورين به . وبناء على رأي كاتب فرنسي ، فإن الميلي قد عامل الماضي كذكريات من « الشهامة الوطنية » ، التي قد تساعد ، اذا بعثت، على أن تجعل الجزائريين ينهضون من حالتهم التى يرثى لها . وإذن فإن هدف هذا التاريخ كان سياسياً ووطنياً[108] . ولكن الجزائريين استقبلوا عمل الميلي باعجاب . فقد اعتبر بعضهم الميلي المؤرخ الذي بعث الأمة الجزائرية[109] . وقد كتبت جريدة « النجاح » (2 أكتوبر ، 1932) أن مؤرخي الجزائر الجديدة « نفضوا الغبار عن

---

(106) ديبارمي « ميلاد » في « أ. ف. » (جويليه 1933)، ص 388 .

(107) نص على ذلك نوشي ، ص 67 .

(108) ديبارمي ، « ميلاد » في « أ. ف. » (حويليه ، 1933) ص 388 .

(109) علي المغربي «السجل»، ص 185. وقد احتفل الجزائريون بصدور الجزء الثاني من كتاب الميلي. وقد عثرنا في أوراق أحد علماء قسنطينة على دعوة له لحضور حفلة تكريم أقامتها الجمعية الخيرية للمؤلف هناك وتاريخ الحفلة هو 9 يوليو ، 1932

تاريخ أجدادنا . . وبعثوا الحياة في بقايا أجدادنا لكي يجعلوهم يخبروننا بأنفسهم عن ماضيهم العظيم والمجيد[110] » .

وقد شن العلماء أيضاً حملة على المستوى الاجتماعي لم تكن أقل أهمية من الحملة التعليمية والثقافية . فطيلة العشرينات بادر العلماء أو شاركوا بآرائهم في عدد من القضايا التي شغلت الحياة الجزائرية عدة سنوات . وهذه القضايا تضم التجنيس ، والمرابطية والتمثيل النيابي ، والاحتفال الفرنسي بالاحتلال المئوي ، والقوانين الاستثنائية ، وما شابه ذلك . ولعله من المناسب أن نتتبع باختصار موقف العلماء من هذه القضايا خلال عقد من أدق العقود حرجاً في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية .

وأهم قضية عارضها العلماء بشدة هي المرابطية . كانوا يعتبرون الجمعيات الطرقية معارضة للدين والتقدم . وبناء على رأي أحد العلماء ، فإن المرابطية جاءت نتيجة لتدهور الاسلام وانتشار الغموض . وكان زعماء الجمعيات الطرقية قد اتهموا بجهل القرآن ، واستغلال الشعب وخدمة الاستعمار . فقد كتب الابراهيمي ذات مرة قائلاً : « انّ المرابطية هي الاستعمار في معناه الحديث المكشوف ، وهي الاستعباد في صورته الفظيعة[111] » . لذلك أعلن العلماء الحرب على المرابطية تحت راية « لا غموض في الإسلام » لأنها « هي سبب الفساد والأمراض » والانحراف الديني ، والجهل ، والاهمال في الحياة ، والالحاد بين الشباب[112] » . ولهذا السبب عارضوا الموسيقى الصوفية ، والرقص في الاحتفالات الدينية ، وزيارة القبور ، والزنا ، وهدايا النقود إلى رؤساء الجمعيات الطرقية[113] .

وفي نفس الوقت هاجم العلماء بقوة محاولة فرنسا تجنيس الجزائريين . فقد كانوا ينظرون إلى التجنيس على أنه خطة فرنسية لمحو الاسلام وعروبة الجزائر . وكان أولئك الجزائريون الذين قبلوا التجنيس غالباً محل سخرية وشفقة من العلماء . فقد نشرت « لافوادي هامبل » (4 سبتمبر 1930) شكوى من رئيس جمعية

(110) أشار الى ذلك ديبارمي ، في ميلاد « أ . ف . » (جويليه 1933) ، ص 388 .

(111) الابراهيمي « السجل » ، ص 26 ـ 27 .

(112) نفس المصدر ، ص 31 ـ 54 .

(113) نفس المصدر ، ص 61 ، 67 ، وساراسان ، ص 118 .

الجزائريين المتجنسين تخص الحالة التي كان يعيشها أعضاء الجمعية . وقد أصر على أن المجتمع الفرنسي كان يرفضهم « بسبب التمييز العنصري » بينما كان يعتبرهم الجزائريون « ملعونين » وطبقة خارج المجتمع[114] .

وقد اغتنم العلماء فرصة هذا الضعف ، وهاجموا في « الشهاب » (أكتوبر 1930) المتجنسين ناظرين إلى شكواهم السابقة على أنها دليل على « الستار الذي يخفي الحقيقة علينا » ، أي أن التجنيس لم يكن شيئاً حميداً للجزائريين . وهناك جريدة اصلاحية أخرى ، وهي « المغرب » (23 ديسمبر 1930) قد أجابت أيضاً تلك الطبقة الجزائرية الخارجة عن المجتمع . وبناء على رأي هذه الجريدة ، فأن الجزائريين كانوا فخورين بتراثهم الاسلامي . وقد هاجمت أولئك الذين كانوا « يسبحون بحمد أوروبا[115] » .

أما بخصوص قضية التمثيل النيابي ، فإن العلماء قد أيدوا الفكرة القائلة ان الجزائريين يجب أن يكونوا ممثلين بكفاية وبفعالية في كامل المجالس ، بما في ذلك المجلس الوطني الفرنسي . وقد كان ذلك بالطبع أبعد مما يأذن به اصلاح سنة 1919 . ومن جهة أخرى بينما كان الليبراليون يؤمنون بأن الجزائريين المتجنسين فقط هم الأهل للتصويت ، أصر العلماء على أن كل جزائري يجب أن يكون له حق التصويت . وفي النهاية غير الليبراليون كما سبقت الاشارة ، وجهة نظرهم وأيدوا فكرة العلماء ، التي كانت في نفس الوقت فكرة نجم أفريقيا الشمالية[116] .

ان العلماء قد أعطوا أهمية خاصة لتعليم وحماية الشباب الجزائري . فقد اصطدموا ، باعتبارهم رجال دين واصلاح ،بانتشار الالحاد بين الشباب . وبناء على وجهة نظرهم ، فإن الالحاد قد انتشر نظراً للتعليم المادي ، والمرابطية ، وتقليد الفرنسيين الأعمى ، واهمال الآباء ، وسياسة الفرنسيين القائمة على التفرقة . كان العلماء يعتبرون الشباب « عصارة الأمة » ، ولذلك أخذوا على عاتقهم « حمايته » من

---

(114) أشار الى ذلك ديبارمي ، « المقاومة » في أ.ف. (ماي، 1933) ص 267 .

(115) نفس المصدر ، ص 267 ـ 268 . صاحب جريدة (المغرب) عندئذ هو الصحفي الشاعر أبو اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى .

(116) مارسيل لارنود ، « الجزائر » في « أ.ف.» (ديسمبر ، 1928) ، 526 . ويشير المؤلف الى رأي العلماء عن التمثيل النيابي من مجلة « الشهاب» .

السقوط في الالحاد واللامبالاة ، عن طريق التعليم الديني ـ العربي والبرامج الإجتماعية الإصلاحية(117) .

وقد رحب الجيل الجزائري الجديد ، من جهته بأفكار العلماء . فأعجب بتفسيرهم الليبرالي للدين وثورتهم على الخرافات وغيرها من الإعتقادات المتأخرة . وما دام هذا الجيل يشترك معهم في الحلم بخلق مجتمع جديد ، فانه قد انجذب إلى تناولهم التقدمي للمشاكل الإجتماعية التي كانتِ تواجه الجزائر في ذلك الوقت(118) .

أما رد فعل العلماء على احتفالات الفرنسيين بإحتلال الجزائر ، فقد سبق أن أشرنا اليه . فعشية هذا الحدث ، دعت صحافة العلماء « نخبة الأمة » إلى اليقظة وانقاذ شعبهم ، « الذي تسير بقصته الحزينة الركبان في كل مكان » . واستنفرتهم إلى أن يظهروا للعالم « انكم قادرون على تكوين كتلة من الوطنيين للدفاع عن وجود الأمة(119) » . ونفس الصحافة أطلقت على الاحتفالات اسم « مهازل » سنة 1930 ورددت العبارة القائلة ان الفرنسيين « لن يحتلفوا بثاني » عيدهم(120) .

ولا شك أن مساهمة العلماء في الحركة الوطنية الجزائرية ، خلال عقد ، كانت عظيمة .

أولاً : لقد أعطوا للشعب الجزائري فكرة الاستمرار ببعثهم وتركيزهم على بعض القيم الإجتماعية والثقافية التي لولاهم لكانت في طي النسيان .

ثانياً : انهم كافحوا ضد الأمية وأعطوا كثيراً من وقتهم وطاقتهم لتحقيق برنامج عن التعليم الوطني ، الذي أساء الفرنسيون معاملته .

ثالثاً : انهم شنوا حملة بلا مساومة ضد المرابطية ، والخرافات ، والإستغلال للجماهير باسم الدين من الجمعيات الطرقية التي كانت عادة مؤيدة من فرنسا .

---

(117) الابراهيمي ، « السجل » ص 62 ـ 64 .

(118) ساراسان ، ص 118 .

(119) أشار الى ذلك ديبارمي ، «المقاومة» في « أ.ف. » (ماي ، 1933) ، ص 265 نقلاً عن جريدة « المغرب » (23 جوان ، 1930) .

(120) ديبارمي ، « مساهمة » في « أ.ف. » (جويليه ، 1937) ، ص 355 .

رابعاً : أنهم بدعوتهم إلى التفسير الديني والتقدمي للمصادر الإسلامية ، قد مهدوا الطريق أمام الوطنيين الآخرين ، ومن أجل الملاءمة بين الوطنية في مفهومها الحديث وبين الأفكار الدينية والإجتماعية التي كانت غالباً ما اعتبرت عقبات في طريق نجاح الوطنية .

خامساً : ان العلماء أعلنوا « جزأرة » الشعب بخلق أو بعث تاريخ الجزائر الوطني ، وأدبها ، وتعليمها واتجاهها .

وبالمقارنة إلى الأحزاب السياسية، كان للعلماء الخاصة المتميزة. ولكنهم كانوا، إلى سنة 1931 ، بلا منظمة تمثل برنامجهم وتقرر اتجاههم . ان العلماء لم يكونوا لا ثوريين مثل أصحاب نجم أفريقية الشمالية ، ولا موالين للفرنسيين مثل الليبراليين ، (النخبة) . لقد كانوا قبل كل شيء مصلحين وطنيين . فأيدوا تعليم المرأة ، ولكن رأيهم عن وضعها الاجتماعي قد بقي محافظاً وغير واضح . وكانوا في صالح الأفكار الأوروبية ، ولكنهم قد أعطوا الأولوية للتعليم العربي الإسلامي . وكانوا قد عارضوا بشدة دمج الجزائر في فرنسا ، خلافاً لموقف جماعة النخبة .

لقد وجه العلماء دعوتهم مباشرة إلى الجماهير بقطع النظر عن الطبقة الإجتماعية ، لأن برنامجهم كان يهم تقريباً كل واحد في المجتمع . أما الليبراليون فقد اعتادوا أن يحصروا أنفسهم ، بحكم تعليمهم واتجاههم ، في جماعة النخبة . ومن جهة أخرى ، فإن نجم أفريقيا الشمالية ، الذي توجه أيضاً إلى الجماهير ، كان ما يزال ، إلى سنة 1930 ، محدوداً في عدد الأعضاء ، الذين كانوا غالباً عمالاً ، ومحدوداً في ميدان النشاط الذي كان في غالب الأحيان فرنسا ، ومحدداً في الحركة لأنه كان رسمياً منحلاً منذ سنة 1929 . ومع ذلك فإن وجود هذه الإتجاهات السياسية ، والإجتماعية ، والثقافية جميعاً قد أعطى قوة دفع كبيرة للحركة الوطنية الجزائرية .

خلاصة

تكاد جميع الاتجاهات السياسية والايديولوجية الموجودة في الجزائر اليوم تعود الى العشرينات من هذا القرن . فقد ظهرت جماعات وأحزاب مختلفة ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، كان مقدراً لها أن تقود الحركة الوطنية الى انفصالها النهائي عن فرنسا سنة 1954 . حقاً ان الزعماء قد ماتوا أو غيروا من آرائهم ومناوراتهم ، ولكن الايديولوجيات الأساسية التي ظهرت في العشرينات قد بقيت تقريباً هي نفسها الى الوقت الحاضر.

على أن مؤسسي هذه الحركة في العقد المذكور لم يبدأوا من لا شيء . فقد كان وراءهم تراث عظيم من عهد النهضة (1900 ـ 1914) ، ومن القيم الاجتماعية والعقلية ، ثم من تجربة غنية جاءت نتيجة طريق طويلة من المحاولة والخطأ. ان زعماء العشرينات قد اكتسبوا آمالهم الرئيسية من هذا الماضي . ولم تكن الايديولوجيات العالمية المحيطة بهم سوى مساعد لهم ، وليس مصدر وحي . فكثير من هؤلاء الزعماء كانوا يلتفتون الى العقود السابقة ليتذكروا حمدان خوجة وحملته ضد الوجود الفرنسي ، والأمير عبد القادر وحربه الطويلة ، والمقراني وبوعمامة ومحاولتهما التحريرية ، والنهضة وزخمها الثقافي ، وأخيراً حرب العصابات التي وقعت بين 1914 و 1918 وعواقبها . فالأرض التي كانت تقف عليها الحركة الوطنية كانت ، غنية جداً ، قادرة على أن توحي للزعماء الجدد أن يحددوا أهدافهم ويقيموها على قاعدة ثابتة.

ولكن عندما بدأ هؤلاء يحددون أهدافهم ، واجهوا كل أنواع العقبات التي وضعتها فرنسا في طريقهم . ومن النماذج المشهورة في السياسة الجزائرية ، أن أولئك الذين كانت لهم الشجاعة أن يعارضوا الحكم الفرنسي اما اعتقلوا واما نفوا ، وكانت منظماتهم اما حلت واما بعثرت ، وكانت صحافتهم اما منعت من الصدور واما أزعجت . فقد نفي زعيم لحزب الاصلاحي ، الأمير خالد ، من الجزائر وتخلص الفرنسيون من حزبه في الانتخابات المحلية . وكان زعيم الحزب الثوري ، نجم أفريقيا الشمالية ، مصالي الحاج ، قد اعتقل مع أعضاء آخرين من جماعته ، وكان حزبه قد حل اعتباطاً . أما ابن باديس ، زعيم العلماء ، فرغم أنه لم يتورط مباشرة

في السياسة ، فانه كان هدفاً لمضايقة متواصلة . ولكنه لم يعتقل ولم ينف بسبب مطالبه غير السياسية ، وبسبب خدمة والده في المجالس المحلية ، التي كانت تحت سيطرة الادارة الفرنسية ، ثم بسبب زعامته التي كادت تكون شخصية لأن العلماء لم يكن لهم منظمة رسمية إلاّ سنة 1931 .

وقد كانت الصحافة الوطنية ، مثل الأحزاب السياسية وزعمائها ، تحت اضطهاد متواصل . بالإضافة إلى المراقبة النظامية ، فإن أيدي المراقبة الفرنسية قد امتدت الى منع أو حجز الصحف لا لسبب سوى أنها كانت خطيرة على أمن البلاد . وعلى هذا الأساس منعت السلطات الفرنسية الجريدة الاصلاحية « المنتقد » من الصدور . ونفس الاجراء كان قد اتخذ ضد الجريدة الوطنية « الاقدام » ، التي كانت أولاً لسان حال الحزب الاصلاحي في الجزائر وأخيراً لسان حال نجم أفريقية الشمالية في فرنسا . وقد كانت « الإقدام » قد منعت لا من الجزائر فحسب ، ولكن أيضاً من تونس والمغرب « لإثارتها للفوضى »[121] . لذلك كان من الواضح أن الوطنيين قد وضعوا حرية الصحافة ضمن مطالبهم الأساسية من فرنسا.

وكانت نتيجة هذه الحملة القمعية ضد الحركة الوطنية أن الأخيرة قد اضطرت اما أن تعمل في الخفاء وإما أن تعمل في الخارج . كان الليبراليون الموالون لفرنسا ، والعلماء الذين كانوا ما يزالون بدون منظمة رسمية والذين كانوا قد أعلنوا عدم التدخل في السياسة ، هم فقط الذين سمح لهم بالعمل جهرة على الأرض الجزائرية . أما حركة الأمير خالد فقد اضطرت في الأول الى أن تنقل مكان نشاطها الى فرنسا نفسها . ثم نفي خالد الى الشرق الأدنى ، بينما تبنى نجم أفريقيا الشمالية أفكاره الأساسية . والنجم ، الذي ولد في فرنسا ، قد اضطر الى أن يحصر نشاطه بين المهاجرين الجزائريين هناك . أما اتصاله بالشعب الجزائري فلم يسمح به الفرنسيون . ولكنه ، بالرغم من وجوده في فرنسا ، لم يسلم من مصير الحل واعتقال زعمائه.

ومن الممكن أن يلاحظ المرء أن معظم الزعماء الجزائريين خلال العشرينات

---

(121) لادري دي لاشايير ، « الدفاع عن السلام الداخلي في المغرب » في « ا.ف.» (جانفي ، 1928) ، ص 16 . أنظر أيضاً نفس المصدر (28 ماي ، 1927) ، ص 230 .

كانوا قد عاشوا خارج الجزائر أو أنهم كانوا قد تثقفوا في بلاد أخرى غير الجزائر . ان هذه الظاهرة جديرة بالملاحظة لأنها تلقي الضوء على حياة الحركة الوطنية من ناحية وعلاقتها بفرنسا من ناحية أخرى . فقد لاحظنا سابقاً أن ابن باديس ، والابراهيمي ، والعقبي ، وابن عليوة ، كانوا جميعاً قد تثقفوا بطريقة أو بأخرى خارج الجزائر . أما الأمير خالد ، زعيم الحزب الاصلاحي فقد عاش أيضاً خارج الجزائر ، واشتغل في الجيش الفرنسي ، وكان قد تثقف في الشرق الأدنى مِثل أكثر أفراد أسرته ثم في فرنسا . ومن جهة أخرى فإن زعماء نجم أفريقيا الشمالية قد عاشوا أيضاً نفس التجربة ، لأن معظمهم كانوا من الجنود السابقين والعمال ، الذين بقوا في فرنسا ، بعد انتهاء عملهم العسكري . ان هذه الظاهرة تدل على حقيقتين هامتين احداهما : ان الجزائريين لم يجدوا لا التعليم ولا الحرية في وطنهم . وثانيهما ، أن فرنسا كانت دائماً متشككة في الجزائريين « الخارجين » الذين لم يتثقفوا عندها.

لكن هؤلاء « الخارجين » لم يأتوا معهم بأيديولوجيات غريبة الى المجتمع الجزائري . فقد كانوا واعين لقيمة ما تعلموا في الخارج وما ورثوه في وطنهم . لذلك كانت رسالتهم ، على المستوى الاجتماعي ، هي الاصلاح وليس الثورة . فقد أخذوا في اعتبارهم الوضع الاجتماعي الثقافي والسياسي الخاص في الجزائر . فالعلماء نادوا ببعث ، وتطهير ، وعقلنة تفسير التراث الوطني ، ولكنهم لم يرفضوه أو ينتقدوه على أساس ايديولوجي . ونفس الموقف اتخذه الحزب الاصلاحي ، ونجم أفريقيا الشمالية الثوري . مثلاً ، ان الأخير قد رفض الايديولوجيات الأجنبية بدون تعديل ينسجم مع الأوضاع المحلية . وقد قبل النجم موقف العلماء بشأن الاصلاح الاجتماعي . وفي الثلاثينات أصبح النجم بطل فكرة القومية العربية ، والجامعة الاسلامية ، بالإضافة الى الوطنية ، مثله في ذلك مثل العلماء . ولكن النجم قد أدخل الفكرة الاشتراكية الى الجزائر باعتبارها العلاج الوحيد ضد تسلط الكولون خاصة .

ومن الظواهر الهامة للحركة الوطنية الجزائرية خلال هذا العهد أنها تطورت تدريجياً من الاعتدال إلى الثورية. فبعد الحرب بدأت الحركة تتحدى فرنسا مباشرة باصرارها على الاصلاح . وكانت هذه الخطوة قد اتخذت لاقناع الفرنسيين أن التعويض عن مشاركة الجزائريين في الحرب مع فرنسا كان الثمن الوحيد الذي يرضي الوطنيين .

ومع ذلك فان هذه الخطوة لم تؤخذ باسم الوطنية بل لأسباب انسانية وديموقراطية. ونتيجة لذلك ، فإن أولئك الذين كانوا يلحون من أجل الاصلاح لم يطالبوا بفصل الجزائر عن فرنسا ، ولكن بمساواة أهلها بالفرنسيين . وقد طالب الليبراليون ، والاصلاحيون ، والعلماء ، بدرجات مختلفة ، بالمساواة مع الفرنسيين . ولكن عندما فشلت هذه المرحلة في حوالي منتصف عقد العشرينات ، رفع نجم أفريقيا الشمالية ثم العلماء راية انفصال الجزائر عن فرنسا . فبحلول سنة 1930 حلت الحملة الثورية والانفصالية محل الاعتدال والمساواة.

والظاهرة الأخرى ، الجديرة بالملاحظة هي غياب أي ثورة عسكرية ، خلال العشرينات كتلك التي طبعت تاريخ المقاومة الجزائرية لفرنسا منذ 1830 . وكان آخر هذه النشاطات العسكرية قد انتهى سنة 1919 . ويبدو أن الجزائريين عندئذ قد فهموا أن التنظيم السياسي ، ونشر التعليم ، وايقاظ الجماهير كانت أفضل بديل عن النشاط العسكري في مفهومه القديم ، فقد تعلموا من الأحزاب السياسية الأوروبية لعبة المساومة ، والمناورة ، وتكتيك المنظمات الجماهيرية المنظمة باحكام ، بدلاً من ثورات عسكرية غير ناضجة وسيئة التنظيم ، يقودها في العادة مرابطون وشخصيات منعزلة . وفي هذا الخصوص لا شك أن عطف بعض الأحزاب السياسية الأوروبية على الحركة الوطنية الجزائرية قد ساعد أيضاً على توجيه هذه الأخيرة نحو المقاومة السياسية ، لأن الحركة الوطنية لم تعد في حالة يأس كما كانت في الماضي . وقد سخر هؤلاء الأوروبيون العاطفون صحافتهم ونوابهم ، ومحاميهم للدفاع عن الوطنيين وقضيتهم.

وقد لاحظنا في مناسبات مختلفة أن مطالب الحركة الوطنية في العشرينات لم تكن تختلف كثيراً عن مطالب العقود السابقة . ان الذين سيحكمون بجدة هذه المطالب هم فقط أولئك الذين يغضون النظر عن نشاطات ما قبل الحرب . بل حتى المطالبة بالاستقلال وجلاء القوات الفرنسية عن الجزائر لم تكن ظاهرة خاصة بالعشرينات . فالواقع أن الذي طالب بذلك أولاً هو حمدان خوجة وأنصاره . ثم طالب به الأمير عبد القادر وغيره من الزعماء الذين رفعوا السلاح ضد فرنسا . كما أن المطالب الأخرى ، مثل الغاء الاجراءات الاستثنائية ، والمساواة أمام القانون ، وحرية التعبير والتعليم كانت في أعلى القوائم التي تقدمت بها الوفود والشخصيات

الجزائرية الى جول فيري ، وكليمانصو ، وبوانكاريه ، وغيرهم.

ولكن الجديد خلال عقد العشرينات كان المتحدث باسم تلك المطالب . ففي الماضي كان هذا المتحدث شخصاً أو جماعة ، عادة كانت خاضعة للادارة الفرنسية . أما في العشرينات فان المطالب الوطنية كانت تقدم الى الفرنسيين ليس فقط من أشخاص أو وفود ، ولكن أيضاً من منظمات كانت تماماً مستقلة عن الادارة ومستعدة للضغط وللتحدي ، وللدفاع عما تعتبره مطالب شرعية.

وسواء كانت الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية الجزائرية معتدلة أو متطرفة ، فان جميعها قد شعر بصدمة من جراء الاحتفالات بمرور مائة سنة على الاحتلال الفرنسي للجزائر ، سنة 1930 . وكانوا جميعاً قد استنتجوا من ذلك عدة نتائج . ولكن وقع هذا الحادث على الحركة الوطنية يخص عهداً آخر ، لا يدخل في نطاق هذا الكتاب . على أن رد الفعل الجزائري عندئذ كان حاضراً . فبعد خلق فيدراليتهم ، ونتيجة لهجوم نجم أفريقيا الشمالية عليهم ، تحول الليبراليون نحو برنامج اصلاحي يعتبر أكثر رادكالية من برنامجهم السابق . وفي سنة 1930 أرسلوا وفداً الى باريس برئاسة الدكتور ابن جلول ليضغط من أجل الاصلاح ، ولكن شوطان ، الذي كان عندئذ وزيراً للداخلية ، رفض مقابلة الوفد[122] . وقد تعلم الليبراليون من هذه الصفعة أن الوقت قد حان للعمل الموحد والتحول نحو الوسط على الأقل . وفي الحقيقة أن ظهور ابن جلول ، الذي أصبح زعيم الليبراليين خلال الثلاثينات ، يرجع الى رحلته الفاشلة الى فرنسا . وبعد سنة واحدة نشر فرحات عباس ، أحد زعماء الليبراليين المستقلين ، كتابه « الشاب الجزائري » الذي أثار كثيراً من الجدل.

ورغم أن نجم أفريقيا الشمالية كان رسمياً منحلاً ، فانه قد عارض بكل قوة الاحتفال بالاحتلال ، وضاعف من نشاطاته السرية . ففي سنة 1930 خلق جريدة « الأمة » التي كانت من أكثر الصحف تأثيراً كما أن اسمها كان يدل على برنامج كامل . وخلال أقل من سنتين بعد ذلك أعاد تنظيم نفسه تحت اسم « نجم أفريقيا

---

(122) فافرو ، ص 67 .

الشمالية المجيد » الذي أصبح منذ فاتح سنة 1937 يسمى « حزب الشعب الجزائري ».

أما العلماء فقد أطلقوا ، من جهتهم ، على الاحتفال الفرنسي اسم « مهازل » سنة 1930 . وبعد أن استنكروا هذا الحادث ، بدأوا في تنظيم أنفسهم في جمعية محددة ورسمية . وقد نجحوا سنة 1931 في خلق منظمتهم الخاصة التي كان مقدراً لها أن تؤثر على حياة الثقافة الجزائرية لعدة عقود.

وهكذا فان سنة 1930 كانت هامة لعواقبها بعيدة المدى على الحركة الوطنية الجزائرية . ولكن دراسة هذه العواقب تعتبر خارجة عن نطاق هذا الكتاب .

الخاتمة

بعد أن وصلنا إلى هذه النقطة من الكتاب ، يجب أن نقف قليلاً للنظر في بعض القضايا . لقد اخترنا الفترة 1900 ـ 1930 ، لأنها غالباً ما كانت مهملة . فرغم ادعاء بعض المؤرخين أن الجزائر كانت هادئة وراضية خلال هذه الفترة ، فقد أصبح واضحاً أنها كانت تعيش ثقافياً نهضة نشيطة نسبياً ، وتعيش سياسياً في زخم كبير . فسنة 1900 سجلت انتصار المتطرفين المؤيدين للجزائر « الفرنسية » ، الذين احتفلوا اذ ذاك بالنظام المعروف « بالحكم الذاتي المالي » للكولون . أما سنة 1930 فقد سجلت فشل الجزائريين المنادين بالمساواة وظهور الانفصاليين الذين كانوا مشجعين بالصدمات ، والخيبات التي تقلوها في العقود السابقة وشعروا بالإهانة البالغة من جراء الإحتفال المئوي بالإحتلال .

ولكن قضية المساواة مع الفرنسيين قد قادت بعض الكتاب إلى أن يزعموا أن الجزائريين لم يكونوا « وطنيين » عندما طالبوا بذلك من فرنسا .

ولكن هذا الزعم مضلل ، لأنه يتجاهل عاملين هامين :

1 ـ ملامح الحكم الفرنسي .

2 ـ معنى المساواة التي نادى بها الجزائريون .

بخصوص النقطة الأولى ، يجب أن يتذكر المرء أن الجزائر قد أعلنت ، بقانون الحاق اعتباطي ، مقاطعة من فرنسا ، وليست محمية ، أو حتى مستعمرة . فقانون سنة 1865 المعروف بساناتوس ـ كونسولت قد جعل الجزائريين رعايا فرنسيين ، وليسوا مواطنين . وبالإضافة إلى ذلك ، فإنهم كانوا خاضعين ، منذ السبعينات من القرن الماضي ، إلى قوانين استثنائية تعرف في مجموعها بإسم « قانون الأهالي » .

وإذا كان الجزائريون قد التجأوا إلى السلاح خلال القرن التاسع عشر ، فانهم بحلول سنة 1900 لم يعودوا قادرين على أن يفعلوا ذلك للأسباب الآتية :

1 ـ مضي سبعين سنة من العزلة ، والبعثرة ، واضطهاد المقدسات الوطنية .

2 ـ مضاعفة وتدعيم الاستعمار منذ السبعينات من القرن الماضي .

3 ـ حضور أكثر من نصف مليون معمر (كولون) .

4 ـ زيادة الجيش الفرنسي بعد أن أصبحت الجزائر قاعدة للتوسع الفرنسي في شمال وغرب أفريقيا .

5 ـ عدم وجود قيادة وطنية مثقفة نتيجة لإضطهاد النظم الجزائرية .

6 ـ غياب أية قوة دولية ثالثة لمزاحمة فرنسا ومنافستها على الظفر بالجزائريين ايديولوجياً ، أو سياسياً ، أوغيرذلك .

وأمام هذه الحالة ، كان لدى الجزائريين أربع امكانيات لمقاومة الحكم الفرنسي :

(أ) رفع السلاح ، ولكن هذا كان غير ممكن طبيعياً وسياسياً (رغم وقوع بعض الثورات) .

(ب) الهجرة ، وقد فعل بعضهم ذلك .

(جـ) الانغماس في الغموض (المرابطية) ، والقدرية ، والعزلة ، وقد فعل بعضهم ذلك أيضاً .

(د) المطالبة بالمساواة مع الفرنسيين .

وخلال هذا العهد نجد ان حركة وطنية انفصالية قائمة على المعارضة السياسية كانت غير ممكنة اطلاقاً تحت الأوضاع التي وصفناها سابقاً . وعندما طالب الجزائريون بالمساواة ، فعلوا ذلك في الحقيقة لكي يسلحوا أنفسهم ضد قانون الأهالي . فالمساواة في الواقع كانت وسيلة لتحقيق بعض الأهداف السياسية التي كان الحصول عليها غير ممكن بدون ذلك .

وفي هذا الاطار طالب أعضاء النخبة الجزائريون بالإندماج لكي ينالوا الحقوق السياسية الكاملة كمواطنين ـ ولكنهم أصروا على أن هذا المطلب يجب أن يتحقق بدون شرط ـ أي بدون أن يطلب منهم التخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين ، كما كان ينص القانون الفرنسي . وبرفض جماعة النخبة تعديل موقفهم إزاء هذه

القضية الحيوية ، كانوا في الحقيقة «وطنيين » أقوياء ، لأن الإحتفاظ بأحوالهم الشخصية كان يعني ، قبل كل شيء ، المحافظة على « الكيان الجزائري » . وقد فهم المشرعون الفرنسيون هذا التناقض ، ورفضوا رفع اشتراط التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية كشرط مسبق للإندماج .

ورغم أن الكتاب المعاصرين يؤرخون للحركة الوطنية الجزائرية ابتداء من عقود متأخرة ، فإن هذه الدراسة ، قد أظهرت أن الحركة الوطنية ترجع الى الثلاثينات من القرن الماضي . فهؤلاء الكتاب لم يتجاهلوا فقط حركة حمدان خوجة ، ودور الأدب الشعبي والجمعيات الإخوانية ، والمقاومة النموذجية للأمير عبد القادر والفلاحين ، وعدم الاستقرار الدائم ، ولكنهم أيضاً أهملوا العهد الذي أطلقنا عليه في هذا الكتاب حقبة النهضة . وفي نفس الوقت أهمل هؤلاء الكتاب وضع الحركة الوطنية الجزائرية خلال الحرب العالمية الأولى ، بالإضافة إلى دور الأحزاب السياسية والمنظمات الإجتماعية خلال العشرينات .

وهناك شكلان من أشكال الحركة الوطنية الجزائرية تناولتهما هذه الدراسة فالأول عولج بإختصار في الفصل التمهيدي . وقد سمي بالشكل القديم ، الذي كان قد تميز (باستثناء حركة حمدان خوجة) بتصور محلي للمحافظة على الذات ، مستعملاً السلاح العسكري والنظم الغامضة لمعارضة الحكم الفرنسي . كما كانت الهجرة إلى الخارج ميزة أخرى من هذا الشكل . ولكن بآخر القرن الماضي ولدت حركة جزائرية شابة نتيجة لظهور طبقة مثقفة بالفرنسية (النخبة) وليقظة بعض المثقفين المحافظين (العلماء) . وقد أدى هذا إلى ميلاد وطنية جديدة قائمة على التصور الأوروبي للتنظيم السياسي ، والإنضباط ، والضغط الإجتماعي . وتميز هذا الشكل بنهضة ثقافية ـ سياسية أوقفتها الحرب ، ولكنها أستأنفت نشاطها سنة 1919 . ومن الممكن أن نقول أن هذه الدراسة تركز على الشكل الثاني من الحركة الوطنية الجزائرية ، الذي لعب خلاله كل من العلماء والنخبة دوراً هاماً .

ورغم أصالتها ، فإن الحركة الوطنية الجزائرية كانت قد تأثرت بايديولوجيات مختلفة ، بما في ذلك حركة الجامعة الإسلامية ، والشيوعية ، والإشتراكية ، والديموقراطية . فكل من هذه المذاهب قد جذب إليه الجزائريين بطريقة أو بأخرى لكي يشكلوا آراءهم عن كيفية مقاومة الحكم الفرنسي . ولكن دور هذه

الايديولوجيات لم يكن حاسماً . غير أنها قد أمدت الجزائريين بعوض يخفف عنهم من الضغط الإستعماري وذلك بمنحهم درعاً ايديولوجياً .

ان مؤرخ حركة الجامعة الإسلامية والقومية العربية يمكنه أن يجد أصول الحركتين في الجزائر ، فهذه ، باعتبارها جزءاً من العالم الإسلامي والعربي ، كانت أول جزء تحتله أمة أوروبية ، ونتيجة لذلك ، فإن الجزائريين كانوا أول من نادى بالوحدة وبالتضامن العربي الإسلامي . ويمكننا أن نقول أن حمدان خوجة يعتبر رائد الوطنية بمفهومها الحديث في العالم العربي - الإسلامي . وفي هذا المجال لا بد أن ننوه بالمساهمة الهامة التي قام بها الأمير عبد القادر ، وابن الموهوب ، وابن باديس في حركتي القومية العربية والجامعة الإسلامية . ولكن نتيجة لإعتبارات استعمارية وقلة المعلومات ، فإن دور الجزائريين في هاتين الحركتين قد أهمله الكتاب .

هناك اتجاه بين الكتاب الفرنسيين اليوم . يتبناه بعض الجزائريين أيضاً ، يضع اللوم على سوء التصرف الفرنسي في الجزائر، على كاهل الكولون فقط. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هؤلاء كان بأيديهم قوة هامة باعتبارهم جماعة ضاغطة ، ولكن مسؤولية فشل السياسة الإستعمارية في الجزائر يجب أن توضع على كاهل الفرنسيين الآخرين أيضاً ، فهم الذين كانوا ، بإعتبارهم قواداً عسكريين ورجال دولة ، مسؤولين على الإحتلال ، والاستعمار ، وسن قانون الأهالي ، والخ . كما أن الرأي العام الفرنسي قد فشل أيضاً في اتخاذ موقف ضد هذه الحالة . ولم يكن هناك سوى جماعة صغيرة من الإنسانيين ذوي الضمائر الحية ، ومن أعضاء المجلس الوطني ، ومن الصحفيين ، أعلنوا معارضتهم لذلك الوضع .

والفرنسيون « المنتصرون » كما يسمون أنفسهم ، قد أعلنوا ، عشية ظهور الحركة الوطنية الجزائرية كظاهرة عالمية ، أن الجزائر « جزء مكمل » لفرنسا وجعلوا همهم الدائب وقف تيار هذه الحركة . وهكذا أنكروا وجود الأمة الجزائرية قبل وبعد الإحتلال ، وقضوا على حركة المقاومة ونفوا زعماءها ، كما قضوا بدون رحمة على الثورات العسكرية وأطلقوا على زعمائها اسم المجرمين وعملاء الدول الأجنبية ، وبعثروا الجمعيات الاخوانية والمنظمات الإجتماعية وأبقوها مشغولة ببعضها مطبقين نحوها مبدأ « فرق تسد » ، واضطهدوا الثقافة الوطنية .

ونفس المصير قد لحق الحركة الوطنية خلال العشرينات . فبإستعمال نظام

الاحتجاز السري (ليتردي كاشي) ، وقانون الأهالي ، أجبر الفرنسيون هذه الحركة أن تعمل خفية أو تهاجر مرة واحدة من البلاد . وهكذا قمعوا حزب الأمير خالد ونفوه هو شخصياً ، وحلوا نجم أفريقيا الشمالية واعتقلوا وحاكموا زعماءه ، ومنعوا جرائد العلماء وضايقوا ابن باديس نفسه . ولعلها حقيقة هامة بالنسبة للمؤرخ وهي أن كل زعماء الحركة الوطنية الجزائرية تقريباً كانوا قد تثقفوا خارج وطنهم ، وان كلهم تقريباً ، كانوا قد نفوا ، أو اعتقلوا ، أو كانوا هدفاً للمضايقة .

ان حوادث سنة 1930 ، وخلق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 ، وإعادة تنظيم نجم أفريقيا الشمالية بإسم حزب الشعب الجزائري سنة 1937 ، ومجيء الجبهة الشعبية ، قد أدى الى ميلاد مرحلة ثالثة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية . ولعل هذه المرحلة ستكون موضوعاً هاماً لبحث جديد .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الملاحق

ملحق (1)

بيان فرنسا إلى الجزائريين عشية الإحتلال سنة 1830

إلى القضاة ، والعلية ، والعلماء ، وشرفاء المشايخ ، ومشاهير الناس المحترمين . . أن ملك فرنسا ، قد عينني (كونت دي برمونت) قائداً أعلى . . أن الباشا (الداي حسين) ، حاكمكم ، قد أهان علم فرنسا الجدير بكل احترام ، وبسبب هذا الفعل غير الحكيم قد تسبب في أن تعانوا كل أنواع المصائب والمصاعب ، بما في ذلك الحرب معنا . . (ولذلك) ، فإنه من الضروري أن الباشا يلاقي المصير الذي يستحقه لعماه ولسوء تقديره ، أنه هو الذي قد استدعى الثأر المهول على نفسه .

(ولكن) ثقوا بأني لم آت لمحاربتكم ، فابقوا راضين ومسالمين حيث أنتم . اعملوا عملكم المعتاد بثقة . اني أضمن لكم بأنه ليس منا من ينوي مضرتكم ، لا في ممتلكاتكم ولا في عائلاتكم . انني أضمن لكم أيضاً بأن بلادكم ، وأراضيكم ، ومزارعكم ، ودكاكينكم ، وكل شيء ينتمي اليكم ، صغيراً أو كبيراً سيبقى على ما هو عليه . ليس هناك من سيتدخل ، بأية وسيلة في شيء من شؤونكم . ان شؤونكم ستبقى دائماً تحت أيديكم ثقوا بوعدي .

اننا نضمن لكم أيضاً ، معطينكم وعداً شريفاً وصريحاً لا يقبل التغيير ولا التفسير ، بأن جوامعكم ومساجدكم ستكون محترمة ، فهي لن تبقى مفتوحة فقط الى العابدين كما هي الآن ولكن ستصلح أيضاً . ونضمن بأن لا أحد منا سيتدخل في شؤونكم الدينية ، لأن هدف وجودنا في بلادكم ليس لشن الحرب عليكم ولكن على مسؤولكم ، الداي . .

انه من الواضح أن هذا الباشا يخطط لتخريب بلادكم ، وممتلكاتكم ، وحياتكم . ان كل أحد يعلم أنه يريد أن يجعلكم منكوبين ، فقراء ، مضطهدين

ومتألمين . . فيا للعجب كيف أنكم غير متفطنين بأن هذا الباشا لا يسعى سوى من أجل مصالحه الخاصة .

يا أصدقاءنا . . ان الله لم يسمح للباشا الظالم أن يرتكب أفعاله السوداء الاّ لكي يجعل من سقوطه نهاية لاضطهادكم ومصاعبكم . . لذلك ، سارعوا واغتنموا (فرصة وجودنا) . افتحوا أعينكم على ضوء الرخاء والخلاص المبعوث اليكم من عند الله . اعرفوا أين تقع مصالحكم . استيقظوا لكي تتركوا الباشا وتتبعوا طريقنا ، التي ستقودكم الى الخير والسعادة . .

ولكن ، اذا اخترتم أن تحاربوا وأن تقاومونا ، فإنكم ستكونون مسؤولين على كل شيء قد يحدث لكم . وفي هذه الحالة ، لا تلومونا ، بل لوموا أنفسكم . . فإذا عارضتمونا ، فإنكم ستفنون عن آخركم[1] الخ .

(1) هـذه مقتطفـات من البيان الـذي عنوانـه « نداء الى الشعب الجـزائري من القـائد الأعلى للجيش الفرنسي » . وقد ظهرت الطبعة الأولى للنص العربي الأصلي ، مع ترجمة حرفية فرنسية ، في مجلة « ريفيو أفريكان » ، م 6 (1862) ، ص 147 ـ 153 .

(ونود أن يلاحظ القارىء بأن النص الذي بين يديه ليس مأخوذاً مباشرة من النص العربي ، ولكنه مترجم عن النص الانكليزي كما ظهر في الأطروحة) .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

ملحق (2)
الاتفاق الجزائري الفرنسي، 5 جويليه 1830

المادة 5 :

1 ـ النص العربي :

ان الدين المحمدي سيبقى معمولاً به كما كان سابقاً . انه سيبقى على ما هو عليه ، وان حرية أهل البلاد ، مهما كانت طبقتهم ، ستبقى محترمة ، وان دين هذا الشعب ، وممتلكاته ، وتجارته ، وصناعته ، بالإضافة إلى نسائه ستبقى محترمة أيضا ، الخ .

2 ـ النص الفرنسي :

ان العمل بالدين المحمدي سيكون حراً ، وحرية السكان ، مهما كانت طبقاتهم ، ودينهم ، وممتلكاتهم ، وتجارتهم ، وصناعتهم لن تخرق ، وأن نساءهم ستحترم ، الخ[1].

(1) نشر النصين الأصليين ميشيل هابار، «حقائق وأكاذيب 5 جويليه، 1830» في « نوفمبر » ، م 10 (أبريل ـ ماي ، 1964) . أما المواد 1 ، 2 ، 3 ، 4 فإنها تناقش كيفية احتلال الفرنسيين لبعض الحصون في عاصمة الجزائر وسلامة الداي .

ملحق (3)
رسالة حمدان خوجة الى « اللجنة الافريقية » سنة 1833

(نتيجة للضغط المتواصل من حزب المقاومة بزعامة حمدان خوجة ، عينت الحكومة الفرنسية اللجنة المعروفة ، « باللجنة الافريقية » لكي تحقق في الوضع بالجزائر معاينة . وقد ظن خوجة ان هذه الحركة تعني النصر للانسانية والعدل ، بالإضافة الى حرية واستقلال الجزائر ، فبعث بنسخة من كتابه « المرآة » و « مذكرة » طويلة الى أعضاء اللجنة ، وقد أضاف الى هاتين الوثيقتين الرسالة التالية أيضاً ، عبر فيها عن الأمل في أن فرنسا ستعامل الجزائر كما عاملت اليونان وبلجيكا) .

باريس في 26 اكتوبر 1833 . .

أيها السادة :

كصديق للانسانية وجزائري ، فان لدي معرفة عميقة بالمشكل الجزائري ، وبأصول عيوبه ، وبسبب الحرب ، وبالوضع الحقيقي للبلاد قبل وبعد الاحتلال الفرنسي .

وبعد أن تنقلت في أوروبا ، وقدرت فضيلة الدول المتحضرة الحرة، وفائدة الصحافة ، وبعد أن أعجبت بمبادىء الكرم والانسانية التي تشكل ملامح الانسان الفرنسي ، فاني لا أخشى أن أنبه فرنسا الى مصالحها الحيوية ، ففي المدخل التاريخي (المرآة) ، الذي يوضع اليوم أمام الرأي العام ، شرحت الوضع الحقيقي في الجزائر ، واني سأعتبر نفسي أسعد انسان اذا كانت الأمة (الفرنسية) العظيمة ، التي أخاطبها بثقة كبيرة ، ستنظر بحب وعطف الى مواطني المنكوبين.

اذا كان ما يجري في الجزائر منذ ثلاث سنوات سيستمر ، فان الشرف الفرنسي سيكون في خطر ، ووعياً لذلك بعثت حكومة جلالة ملك الفرنسيين (لويس فيليب) لجنة تتكون من رجال شرفاء ليختبروا عن قرب الحالة معاينة . ان الانسان لينتظر من هذه اللجنة انتصار العدل والانسانية . اذن ، فاني أجرؤ على ارسال نسخة من عملي

(المرآة والمذكرة) الى هذه اللجنة ، لا ادعاء للتأثير على تقريرها وأعمالها ، ولكن لاني مقتنع تماماً بأن ملاحظاتي حول الأخطاء التي ارتكبت في الجزائر قد تساعد اللجنة على رأب الصدع ، وخصوصاً على معرفة الحقيقة .

انه من المؤلم أن نقول ، بل أكثر ايلاماً أن نفكر ، بأن الادارة الفرنسية قد وقفت ثقيلة ، كحمل من الرصاص ، على هذه البلاد (الجزائر) ، فماذا كانت النتيجة ؟ ان حاجزاً لا يمكن اجتيازه قد أقيم في الجزائر بين الشعبين اللذين لا يمكن أن يتكلما نفس اللغة ، ولا يعتنقا نفس الدين ، ولا يلبسا نفس الثياب ، ولا يمارسا نفس طريقة الحياة ، ولا يمكن اليوم استرجاع الروح التي لم تزدها سنوات العناء الا صلابة قوية .

كل شيء يحدثني بأن أعضاء هذه اللجنة ، نظراً لما اتخذوه من الوسائل لازالة الحمل عن مواطنينا المنكوبين ، متشبعون بعواطف الانصاف ، والأمانة ، والعدل الصحيح ، كل شيء يحدثني أيضاً بأن لهم قلوباً فرنسية ، وان شرفهم الوطني هو في مكان الصدارة لأفعالهم . انه لهؤلاء الأشخاص المعروفين بمشاعرهم (الانسانية) قد قمت بعملي ، وليس لأصحاب الصالونات الذين لا يشعرون بشيء والذين ليسوا تقريباً دائماً قادرين على استيعاب أي شيء .

اني حين أفكر بأن اليونانيين مدينون باستقلالهم الى الفرنسيين وان البلجيكيين مدينون بحريتهم اليهم . وان كل الشعوب الفخورة والمنكوبة قد وجدت دائماً منهم أعظم عاطفة كريمة ، فاني أهنىء نفسي على الخطوة الشريفة التي خطوتها . لا ، (أيها السادة) ، ان الجزائريين لا يستحقون أن يرمى بهم خارج المجموعة (العالمية) ، انهم جزء من العائلة الانسانية . وان الدم الذي يجري في عروقهم ، أيها السادة ، له نفس الحرارة التي في دمكم .

فهل ستشفقون على حالتهم ؟ ليس هناك أي حل سوى تغيير الوضع لاستعادة النظام وميلاد ثقة جديدة في الجزائر ، ان مساعدتكم المتنورة قد أصبحت ضرورية ، وان الجزائريين واضعون كل ثقتهم فيكم .

لذلك أرجو أن تحققوا آمالهم التي هي أيضاً آمالي[1] . (عبارات ختامية) .

---

(1) نقلها جورج ايفير « سي حمدان بن عثمان خوجة » ، في « ر. أ. » ، م 7 (1913) ، من « أرشيف حكومة الجزائر » ، ي ، 61 .

ملحق (4)
مطالب الجزائريين من فرنسا سنة 1912

(كانت الجزائر خلال الفترة 1907 ـ 1912 في شغب كبير نتيجة تخطيط الفرنسيين لتطبيق قوانين التجنيد العسكري الاجباري على الجزائريين لأول مرة. وعندما وافق المجلس الوطني الفرنسي رسمياً على قانون التجنيد، عارضه الجزائريون بالكتابات الصحفية، والهجرة الجماعية، والفرار الى الجبال. وأمام هذه الحالة، ألف زعماء الطبقة المثقفة (النخبة) وفداً وقدموا الى الحكومة الفرنسية في باريس (بياناً) طويلاً. وقد احتوى هذا البيان على المطالب الآتية :

ان قرار 3 فيفري 1912 الخاص بتطبيق قانون التجنيد العسكري الاجباري على الأهالي الجزائريين قد أثار مشاعر سخط عظيمة في كل أنحاء البلاد. انها مشاعر تهدد بالاستمرار اذا لم يوضع حد سريع للقرار الذي كان السبب في اثارتها.

وأمام هذه الحالة، فان الأعيان الممضين أسفله، المعبرين عن رأي الأغلبية من مواطنيهم يعتقدون أنه من المفيد أن يقوموا بتوضيح الوضع الى الحكومة (الفرنسية) في باريس وذلك باطلاعها على رغبات المسلمين (الجزائريين) الذين يشعرون بأن هذا الحمل الجديد (قانون التجنيد) الذي أضيف الى أحمال أخرى سابقة ثقيلة، يجب أن يصحبه، بالمقابل تحسين لأحوالهم.

وان أعضاء الوفد، بوحي من عدد ضخم من العرائض التي كتبت في جميع أنحاء الجزائر، وباقتناع منهم بأن جميع أبناء فرنسا يجب أن يستجيبوا، دائماً لندائها، يعلنون أن أهالي الجزائر مستعدون للقيام بكل واجباتهم، كأبناء مخلصين، نحو أم الوطن.

ولكنهم من جهة يعتبرون الأمور التالية ضرورة :

(أ) ان الخدمة العسكرية يجب أن تخفض الى سنتين (بدل ثلاث)، على قدم المساواة مع الفرنسيين الآخرين.

(ب) أن يكون سن التجنيد واحداً وعشرين ، بدل ثمانية عشر ، لأن المجندين في هذا العمر (18) لم يتكونوا جسمياً بصفة كاملة.

(جـ) ان مقابل الخدمة يجب وقفه ، لأن العائلات (الجزائرية) ستكون فخورة أن ترى أبناءها يعملون في صفوف الجيش الفرنسي بدون تعويض مالي.

وهم ، من جهة أخرى يطالبون بالحصول على تعويض فعال ممثل في التالي :

1 ـ تغيير الاجراءات الاضطهادية.

2 ـ تمثيل نيابي جاد وكاف في المجالس الجزائرية والباريسية .

3 ـ تطبيق عادل للضرائب .

4 ـ توزيع متساو لمواد الميزانية بين العناصر المختلفة من سكان الجزائر .

1 ـ الاجراءات الاضطهادية :

ان الأهالي (الجزائريين) يخضعون بخصوص الجرائم والهجمات ، والاعتداءات لقوانين استثنائية يبدو من الواضح أنها لا تراعي القانون العام . وهكذا فان المسمى (بقانون) الأهالي قد خلق بالنسبة اليهم مخالفات خاصة لا تحكم فيها التشريعات العادية ولكن يحكم فيها رجال من النظام الاداري المحلي ، وهي حالة تشكل خرقاً لمبدأ الفصل بين السلطات.

ومن جهة أخرى فإن الأهالي يشكون من المحاكم المسماة بالرادعة ومحاكم الجنايات التي لا تضمن طريقتها التحقيقات العادية . ودعنا نلاحظ ان هذه القوانين والمحاكم الاستثنائية ليس لها أصل في عهد الاحتلال . لقد خلقت فقط منذ سنة 1881 (قانون الأهالي) وسنة 1903 (المحاكم الرادعة والمحاكم الجنائية).

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هناك عقوبة خاصة (لا) تطبق (الا) على الأهالي ، وهي الاحتجاز السري (ليتر دي كاشي) الذي لم ينص عليه أي قانون (شرعي) والذي لا يتبع تطبيقه أية طريقة قضائية . وفي الحقيقة فإن أمراً من الحاكم العام كاف لاعتقال أي انسان ، حتى ولو كان من أكابر الأعيان ، وأبعاده عن عائلته دون السماح له بشرح وضعه والدفاع عن نفسه ، ثم يؤخذ لمدة غير محددة الى معتقل خاص أو الى جهة بعيدة عن مسكنه وعمله وتسلط عليه الاقامة الجبرية . (لذلك) فان الأهالي الجزائريين يطالبون بتغيير كامل لهذه الحالة.

2 ـ التمثيل النيابي للأهالي :

ان في الجزائر مجالس من المفروض ان الأهالي ممثلون فيها. فالقانون يسمح لهم بالحصول على ربع المقاعد في المجالس البلدية (البلديات ذات الصلاحيات الكاملة) . ولكن دون أن يتجاوز عدد ممثليهم ستة . أما في المجالس العامة (العمالية) فإن عدد ممثلي الأهالي قد حدد بستة دون استثناء . وأما بخصوص المجلس المالي (العام) الذي يبلغ أعضاؤه 69 عضواً فإن ممثلي الأهالي فيه يشغلون 21 مقعداً فقط : منهم 15 ينتخبون انتخاباً عن العمالات الثلاث (الشمالية) و 6 عن منطقة (الجنوب) العسكرية يعينهم الحاكم تعييناً . وأما فيما يتعلق بالمجلس الأعلى (للحكومة) الذي يضم 59 عضواً منتخبين أو معينين فانه لا يوجد فيه أكثر من 7 أعضاء أهليين ، من بينهم 4 ينتخبهم المجلس المالي ، و 3 يعينهم الحاكم العام عن المنطقة العسكرية.

ومن الواضح أن الأهالي لا يتمتعون بتمثيل فعال ومفيد في المجالس المحلية . فالعدد القليل لم يسمح لممثلي الأهالي المنتخبين أن يشكلوا في كل مجلس سوى أقلية صغيرة لا تستطيع أن تمارس أي تأثير عند التصويت . وبالإضافة إلى ذلك ، فانه نظراً الى أن هؤلاء النواب الجزائريين لا يسمح لهم القانون بانتخاب لا رؤساء البلديات ولا مساعديهم ، فانهم لا يستطيعون أن يقوموا بأي عمل في توجيه ادارة البلدية.

أما بخصوص طريقة الانتخاب فان ممثلي الأهالي قد جاءوا من قسم انتخابي مقيد جداً لا يأذن لهم بأي ضمان في أن يكونوا مستقلين . والحق ان القانون الانتخابي الخاص بالأهالي قد تضمن الشروط التالية :

(أ) بخصوص المجالس البلدية : الموظفون ، والمتقاعدون ، والملاكون لأملاك فلاحية ومالية ، والحاملون لوسام الشرف (ليجون دونور) أو لأي ميدالية تذكارية (هم فقط الذين لهم صلاحيات الترشح) ، أما التجار والصناع وأصحاب المهن الحرة ، مثل الأطباء والمحامين ورجال الأعمال ، فانهم جميعاً مستثنون من حق الترشح للانتخاب.

(ب) وأما بخصوص المجالس العامة فان القانون الانتخابي قد حصر المنتخبين في

أفراد الأهالي المستشارين والمساعدين في المجالس البلدية . ولكن نظراً إلى أن كل هؤلاء المساعدين موظفون مسؤولون مباشرة لعامل العمالة ، ونظراً إلى انهم يشكلون الأغلبية في كل الدوائر الجزائرية الانتخابية ، فانه لا يمكن لمرشح غير مؤيد من الادارة أن يفوز . وهذا أيضاً يفسر لماذا نجد تسعة من عشرة من ممثلي الأهالي في المجالس العامة وفي المجلس المالي ، من الموظفين، نتيجة لتبعيتهم الكاملة للادارة . والحق أن ممثلي الأهالي في المجالس العامة ما زالوا ، كما كانوا في الماضي ، يعينون من الادارة.

هذا هو واقع التمثيل النيابي بالنسبة للأهالي . (لذلك) فإن السكان المسلمين (الجزائريين) يطالبون بما يلي :

1 ـ توسيع قانون الانتخاب الخاص بالأهالي لكي يضمن فعالية وصلاحية التصويت .

2 ـ زيادة عدد ممثلي الأهالي في المجالس الجزائرية بنسبة خمسي عضويتهم .

3 ـ يجب توحيد قانون اجراء الانتخابات لكل المجالس الجزائرية . وفي ضرورة اجراء انتخاب من الدرجة الثانية لانتخاب المستشارين العامين وأعضاء المجلس المالي ، يجب اعطاء حق التصويت الى المستشارين المنتخبين في المجالس البلدية واستثناء المساعدين الأهليين .

4 ـ يجب أن يكون للمستشارين الأهليين في البلديات حق انتخاب رؤساء المجالس البلدية ومساعديهم .

5 ـ يجب أن تكون النيابية غير متناسبة مع وظيفة القياد والمساعدين الأهليين .

6 ـ يجب تمثيل الأهالي في المجلس الوطني الفرنسي ، أو في مجلس (خاص) يخلق في باريس حيث يمثل الأهالي نواب ينتخبونهم بأنفسهم .

7 ـ يجب أن يكون لأولئك الأهالي الذين يقبلون الخدمة العسكرية اجبارياً ، أو بطريقة التجنيد ، أو التطوع ، الحق في اختيار الجنسية الفرنسية ، بناء على طلب بسيط ، دون اللجوء الى الطرق الحاضرة (المعقدة) .

3 ـ اصلاح الضرائب :

ان (الجزائريين يطالبون) بتعديل النظام المالي تعديلاً مبنياً على مبدأ المساواة في تعويض الأثمان .

4 ـ توزيع الموارد المالية :

ان المجموعة الفرنسية (الكولون) التي تتمتع وحدها في الوقت الحاضر بتمثيل نيابي جاد وفعال في المجالس المحلية في الجزائر وفي المجلس الوطني الفرنسي في فرنسا ، هي الوحيدة التي تستطيع أن تتصرف في الميزانية . وهكذا فإن معظم الموارد المالية تصرف بطريقة تكاد تكون تامة على مصالح العناصر الأوروبية (الكولون) . ان أعظم حاجات الأهالي الحاحاً لم يظفر بأية ترضية تقريباً ، بل ان نفقات كبيرة قد خصصت لكثير من البلديات ، بينما بقيت أعمال في الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة للأهالي المسلمين تعاني (الاهمال) .

ان هذه الحالة بصفة خاصة ، غير عادية ، وذلك لأن الميزانية العامة ، بالإضافة الى الميزانية البلدية والعمالية ، تمول في أغلب الأحيان من ضرائب يدفعها الأهالي . وان إحداث نظام تمثيلي جاد للأهالي هو الذي سيسمح بخلق توازن في التعويضات من الموارد المالية.

هذه هي الرغبات التي صاغها أعضاء الوفد الأهلي الممضين أسفله ، الذين تملأهم الثقة في روح عدل وكرم وحكومة الجمهورية . وأن في تحقيق هذه الرغبات عظمة وخير كل من فرنسا والجزائر[1] .

باريس ـ جوان 1912

---

(1) طبع هذا النص ، دون امضاءات ، في كتاب الشريف بن حبيلس « الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي » ، (الجزائر : أوريانتال ، 1914) . وهذه ترجمة عن النص الانكليزي كما ظهر في الأطروحة . وكل كلام بين قوسين في هذا النص من وضعي الخاص .

ملحق (5)
رسالة الأمير خالد إلى م. هيريو، 1924

برنامج الحزب الاصلاحي

سيادة الرئيس،

ان الجزائريين ينظرون الى توليكم الحكم على أنه طالع سعد، وعهد جديد لدخولهم في طريق التحرر . وباعتباري أحد المدافعين المتواضعين عن قضية أهالي الجزائر ، منفياً لأنني دافعت عن مصالحهم الحيوية بصراحة ، فإن لي الشرف أن أقدم الى رئيس الحكومة الفرنسية الجديدة برنامج مطالبنا الأساسية :

1 ـ تمثيل (الجزائريين) في المجلس الوطني الفرنسي بنسبة متعادلة مع الأوروبيين الجزائريين .

2 ـ إلغاء كامل ونهائي للقوانين والاجراءات الاستثنائية ، وللمحاكم الجنائية ، وللرقابة الادارية (ليتردي كاشي) ، مع العودة التامة البسيطة الى القانون العام .

3 ـ نفس الواجبات ونفس الحقوق (للجزائريين) مثل الفرنسيين بخصوص الخدمة العسكرية .

4 ـ ترقي الجزائريين إلى كل الدرجات المدنية والعسكرية دون أي تمييز ما عدا الجدارة والقدرات الشخصية .

5 ـ تطبيق كامل لقانون التعليم الاجباري على الجزائريين ، مع حرية نشر التعليم .

6 ـ حرية الصحافة والاجتماع .

7 ـ تطبيق قانون الفصل بين الكنيسة والدولة بالنسبة للدين الاسلامي .

8 ـ العفو العام .

9 ـ تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على الجزائريين .

10 ـ الحرية المطلقة للعمال الجزائريين ، مهما كانت مراتبهم ، في الذهاب الى فرنسا .

وبالتأكيد ، ليس هناك تناقض بين هذه (المطالب) وبين البرنامج الليبرالي لوزارتكم وحزبكم . فدعونا إذن نحمل أملاً راسخاً في أن رغباتنا الشرعية ، المشار إليها سابقاً ، ستحظى بتقدير عال . وأرجو أن تتفضلوا ، سيادة الرئيس ، بقبول فائق تقديري[1] .

الأمير خالد، من المنفى

---

(1) المصدر : « البولشيفية والعمل الفرنسي الاستعماري » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 ، نقلاً عن جريدة « لوهيومانيتي » (3 جويليه ، 1924).

ملحق (6)
القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومبادئها الاصلاحية(1)

الفصل الأول : تأسست في عاصمة الجزائر جمعية ارشادية تهذيبية تحت اسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » الخ .

الفصل الثالث : لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتداخل في المسائل السياسية .

الفصل الرابع : القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل .

الفصل الخامس : تتذرع الجمعية للوصول الى غايتها بكل ما تراه صالحاً نافعاً لها غير مخالف للقوانين المعمول بها ، ومنها أنها تقوم بجولات في القطر في الأوقات المناسبة .

الفصل السادس : للجمعية أن تؤسس شعباً في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي .

الفصل الثاني عشر : الأعضاء العاملون هم الذين يصح أن يطلق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائري بدون تفريق بين الذين تعلموا ونالوا الاجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية والذين تعلموا بالمعاهد الاسلامية الأخرى .

الفصل الثالث عشر : الأعضاء المؤيدون والأعضاء المساعدون يشملون كل

---

(1) يحتوي القانون الأساسي على ثلاثة وعشرين فصلاً . وقد اكتفيت هنا ، كما فعلت في الأطروحة بالفصول التي تمثل اتجاه مبادىء الجمعية . أما الفصول المحذوفة فلا تكاد تخرج عن المسائل المالية والادارية . وأود أنْ أذكر بأ ن هذا النص مأخوذ مباشرة من النص العربي ، اذ لا حاجة الى ترجمته من النص الانكليزي ما دام أصله بالعربية موجوداً .

من راق له مشروع الجمعية من غير الطبقة المبينة بالفصل المتقدم وأراد أن يساعدها بماله وأعماله على نشر دعوتها الاصلاحية .

دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها[2] :

1 ـ الاسلام ـ هو دين اللّه الذي وضعه لهداية عباده ، وأرسل به جميع رسله ، وكمله على يد نبيه محمد الذي لا نبي من بعده .

2 ـ الاسلام ـ هو دين البشرية الذي لا تسعد الا به وذلك لأنه :

أولاً : كما يدعو الى الأخوة الاسلامية بين جميع المسلمين ، يذكر بالأخوة بين البشر أجمعين .

ثانياً : يسوي في الكرامة البشرية والحقوق الانسانية بين جميع الأجناس والألوان .

ثالثاً : لأنه يفرض العدل فرضاً عاماً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز .

رابعاً : يدعو الى الاحسان العام .

خامساً : يحرم الظلم بجميع وجوهه وبأقل قليله من أي أحد على أي أحد من الناس .

سادساً : يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير .

سابعاً : ينشر دعوته بالحجة والاقناع لا بالختل والاكراه .

ثامناً : يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون .

تاسعاً : شرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال .

عاشراً : يدعو إلى رحمة الضعيف فيكفي العاجز ويعلم الجاهل ويرشد الضال ويعان المضطر ويغاث الملهوف وينصر المظلوم ويؤخذ على يد الظالم .

حادي عشر : يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه .

ثاني عشر : يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس .

3 ـ القرآن : هو كتاب الاسلام .

---

(2) هذا النص من الأصل العربي مباشرة أيضاً . وقد أوردناه ، بدون حذف .

4 ـ السنة « القولية والفعلية » الصحيحة تفسير وبيان للقرآن .

5 ـ سلوك السلف الصالح « الصحابة والتابعين وأتباع التابعين » تطبيق صحيح لهدى الاسلام .

6 ـ فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الاسلام ونصوص الكتاب والسنة .

7 ـ البدعة: كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم فعله . وكل بدعة ضلالة .

8 ـ المصلحة : كل ما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم مما تقره أصول الشريعة .

9 ـ أفضل الخلق هو محمد صلى اللّٰه عليه وسلم لأنه :

أولاً : اختاره اللّٰه لتبليغ أكمل شريعة الى الناس عامة .

ثانياً : كان على أكمل أخلاق البشرية .

ثالثاً : بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته .

رابعاً : عاش مجاهداً في كل لحظة من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة .

10 ـ أفضل أمته بعده هم السلف الصالح لكمال أتباعهم له .

11 ـ أفضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم الأولياء ، والصالحون فحظ كل مؤمن من ولاية اللّٰه على قدر حظه من تقوى اللّٰه .

12 ـ التوحيد أساس الدين فكل شرك « في الاعتقاد أو في القول أو في الفعل » فهو باطل مردود على صاحبه .

13 ـ العمل الصالح المبني على التوحيد ، به وحدة النجاة والسعادة عند اللّٰه فلا النسب ولا الحسب ولا الحظ بالذي يغني عن الظالم شيئاً .

14 ـ اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع اللّٰه في شيء ما ، شرك وضلال ومنه اعتقاد الغوث والديوان .

15 ـ بناء القباب على القبور ، ووقد السرج عليها والذبح عنها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ومضاهاة لأعمال المشركين . فمن فعله جهلاً يعلم ومن أقره ممن ينتسب الى العلم فهو مضل .

16 ـ الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناهـا كلها على الغلو في الشيـخ والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ الى ما هنالك من استغلال واذلال لأهل الاذلال . . والاستغلال . . ومن تجميد للعقول واماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور .

17 ـ ندعو الى ما دعا اليه الاسلام وما بيناه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدى السلف الصالح من الأئمة ، مع الرحمة والاحسان دون عداوة أو عدوان .

18 ـ الجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة .

19 ـ المعاندون والمستغلون أحق الناس بكل مشروع مـن الشدة والقسوة .

20 ـ عند المصلحة العامة من مصالح الأمة ، يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة . ويتحتم التآزر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتـزول الشدة بـإذن اللّٰه ثم بقـوة الحق وادراع الصبـر وسـلاح العلم والعمـل والحكمة .

قل هذه سبيلي : أدعو إلى اللّٰه على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان اللّٰه وما أنا من المشركين .

عبد الحميد باديس

بقسنطينة بالجامع الأخضر

اثر صلاة الجمعـة 4 ربيع الأول 1356

ملحق (7)

برنامج نجم أفريقيا الشمالية ، 1933

ان برنامجنا السياسي لنجم أفريقيا الشمالية ، بعد أن درسته بعناية وحللته بعمق اللجنة الإدارية المؤقتة السابقة ، قد قدم وقرىء ، وصودق عليه من كل الأعضاء المنضمين إلى منظمتنا ، الذين اجتمعوا في جلسة عمومية ، يوم 28 ماي ، 1933 ، على الساعة الرابعة ، في 49 شارع دي بريتانو ، باريس (3) .

وان محتوى مواده بسيط ، ومفهوم جداً . وهو ، بالخصوص ، يستجيب كلية إلى آمال الشعب الجزائري .

وانه من المؤكد ان نوصي بأن يقرأه الشعب الجزائري باهتمام ، وأن يفهمه ، وأن ينفذه ويجب أن نعتبره نحن حلفاً وطنياً ، رابطاً جامعاً لكل الأهالي المسلمين الجزائريين ، عاملاً بإخلاص وتضحية من أجل الدفاع عن مصالحنا ، ومطالبنا العاجلة ، واستقلال بلادنا .

ومن أجل خلاصنا ، ومن أجل مستقبلنا ، ولكي نحتل مكاناً جديراً بسلالتنا في العالم ، فلنقسم جميعاً على القرآن وبالإسلام أن نعمل حتى النهاية لتحقيقه (البرنامج) ولانتصاره الأخير .

القسم الأول

1 ـ محو قانون الأهالي البغيض في الحال والغاء جميع القوانين الإستثنائية.

2 ـ العفو العام عن كل أولئك الذين كانوا قد سجنوا ، أو وضعوا تحت الرقابة الخاصة ، أو نفوا لارتكابهم شيئاً ضد قانون الأهالي أو قاموا بجرائم سياسية .

3 ـ الحرية المطلقة في السفر إلى فرنسا وإلى غيرها من البلاد الأجنبية .

4 ـ حرية الصحافة ، والإجتماع ، والتجمع ، وتوفير الحقوق السياسية والنقابية .

5 ـ احلال مجلس وطني جزائري منتخب عن طريق التصويت العام محل المجلس المالي ، الذي لا ينتخب الّا عن طريق التصويت المحدود.

6 ـ الغاء البلديات المختلطة والمناطق العسكرية وإحلال محلها مجالس بلدية منتخبة عن طريق التصويت العام .

7 ـ حق الجزائريين في تقلد جميع الوظائف العامة دون أي تمييز ، مع المساواة في العمل وفي المعاملة للجميع .

8 ـ التعليم الإجباري للغة العربية . وحق (كل الجزائريين) في التعليم على جميع المستويات . وخلق مدارس عربية جديدة . كل الأعمال الرسمية يجب نشرها بالعربية والفرنسية في نفس الوقت .

9 ـ بخصوص الخدمة العسكرية (من الجزائريين في الجيش الفرنسي) ، يجب الإحترام الكامل للآية الكريمة « ومن يقتل مؤمناً متعمداً . . » .

10 ـ تطبيق القوانين الإجتماعية والعمل « على الجزائريين أيضاً) . وحق العائلات الجزائرية في الجزائر في الحصول على المساعدة من جراء البطالة ، وفي المنح العائلية . الغاء تام للتأمينات الإجتماعية .

11 ـ زيادة القروض الفلاحية الى الفلاحين الصغار . وتنظيم أكثر عقلانية لنظام الري . وتطوير وسائل المواصلات ، والمساعدة الحكومية ، غير المعوضة ، إلى ضحايا المجاعات الدورية .

القسم الثاني

1 ـ استقلال الجزائر الكامل .

2 ـ جلاء تام لجيش الاحتلال

3 ـ تكوين جيش وطني .

حكومة وطنية ثورية :

1 ـ مجلس تأسيسي منتخب عن طريق التصويت العام .

2 ـ التصويت العام في كافة الدرجات . وصلاحية (الترشح) إلى كل المجالس بالنسبة لجميع سكان الجزائر .

3 ، ستكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية .

4 ، تسليم جميع الممتلكات إلى الدولة الجزائرية ، بما في ذلك البنوك ، والمناجم ، والطرق الحديدية ، والموانىء ، والمؤسسات التي اغتصبها المحتلون .

5 ـ تأميم الأملاك الكبيرة التى اغتصبها الإقطاعيون ، حلفاء المحتلين ، والكولون ، والشركات الرأسمالية ، وتسليم الأراضي المؤممة إلى الفلاحين . واحترام الأملاك المتوسطة والصغيرة . وإعادة الأراضي والغابات التي أخذتها الدولة الفرنسية إلى الدولة الجزائرية .

6 ـ حرية التعليم بالعربية واجباريته على جميع المستويات .

7 ـ تعترف الدولة الجزائرية بحق تشكيل الإتحادات ، والتحالفات ، وحق الاضراب ، وهي تتعهد بمناقشة القوانين الاجتماعية .

8 ـ المساعدة العاجلة للفلاحين بتخصيص قروض للفلاحة دون فائدة من أجل شراء الآلات ، والبذار ، والسماد ، وتنظيم الري ، وتحسين وسائل المواصلات ، الخ[1].

---

(1) نقله ل . موهندس ، « الهجوم على أفريقية الشمالية الفرنسية » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1934) ، ص 575 ـ 576 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

المصادر والفهارس

ملاحظة عن المصادر(*)

ليس هناك مصادر جيدة حديثة عن الجزائر . هناك العمل الكبير الذي قام به السير لامبيرت بليفير ، « مصادر عن الجزائر من حملة شارل الخامس سنة 1541 إلى سنة 1887 » ، الذي نشرته في انكلترا الجمعية الملكية الجغرافية (دون تاريخ) ، مع « ملحق إلى مصادر عن الجزائر من أقدم العصور إلى سنة 1895) المطبوع سنة 1898 . وفي سنة 1930 نشرت وزارة الحرب الفرنسية مصادر عسكرية بعنوان « أفريقيا الشمالية الفرنسية » خصصت منها الجزأين الأول والثاني إلى الجزائر من 1830 إلى 1926 .

وفي سنة 1925 كتب الفرنسي شارل تيار عمله بالمصادر المعلق عليها بعنوان « الجزائر في الأدب الفرنسي » الذي نشرته في باريس المكتبة القديمة . وهناك عمل فرنسي هام هو « بسطة عن وضع المؤسسات الفرنسية في الجزائر » الذي بدىء نشره سنة 1838 عن طريق وزارة الحرب الفرنسية . ويحتوي كتاب شارل اندري جوليان ، « تاريخ الجزائر المعاصرة » ، م 1 ، 1827 ـ 1871 (باريس : طبعة صحافة فرنسا الجامعية ، 1964) على مصادر قيمة عن الجزائر خلال القرن التاسع عشر (81 صفحة) .

وهناك أيضاً أعمال أقل أهمية عن الجزائر خلال القرن العشرين ولعل أفضلهما عمل ج . د . بيرسون ، « الفهرس الإسلامي : 1906 ـ 1955 » (انكلترا : و . هيفر وأبناؤه ، 1958) . فهو يحتوي على مقالات تعالج مظاهر مختلفة عن الجزائر مأخوذة من دوريات متعددة . وفي سنة 1962 جمع المكتب الجزائري في نيويورك « مصادر عن الجزائر » (وثائق رقم 62 ـ 3) من سبع صفحات على الآلة الكاتبة .

(*) أنظر المختصر .

وخلال نفس العام أعد الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (فرع امريكا) قائمة « بخلاصة المصادر » (بالفرنسية) عن الجزائر تضم ثلاث عشرة صفحة على الآلة الكاتبة أيضاً . كما أعدت نفس المنظمة قائمة منسقة حسب الموضوعات بعنوان « كاتالوغ المكتبة » (بالانكليزية) من ثماني عشرة صفحة عن نفس الموضوع. وفي سنة 1957 جمعت السيدة هيلين ف . كونوفر قائمة بالمصادر المختارة والمعلق عليها باسم « شمال وشمال ـ شرق أفريقيا : 1951 ـ 1957 » (واشنطن : 1957).

من الكتابات الانكليزية التي انتقد أو علق أصحابها على المصادر الفرنسية عن الجزائر ما يلي : مقال مانفريد هالبيرن ، « الكتب الحديثة عن العلاقات بين المسلمين والفرنسيين في الجزائر » الذي نشره في « مجلة الشرق الأوسط » ، م 3 (أبريل ، 1949) ، ص 211 ـ 216 ومقال كتبه اندرو هيغوي ، « مصادر التاريخ الجزائري خلال القرن التاسع عشر : مقالة نقدية » المنشور في مجلة « العالم الإسلامي » م 54 (أكتوبر 1964) ، ص 292 ـ 299 . ثم مقال دوغلاس جونسون ، « الجزائر : بعض مشاكل التاريخ الحديث » المنشور في « مجلة التاريخ الإفريقي » م 5 (1964) ، ص 221 ـ 242 .

ان المجلات والجرائد الآتية قد ساعدت مساعدة هامة على كتابة هذا العمل ، وهي في نفس الوقت ذات أهمية خاصة كمصدر للتاريخ ، الجزائري. وهي : « ريفيو أفريكان » ، و « لافريك فرانسيز » ، و« سوسيتي دي جيوغرافي دالجي أي دي لافريك دونور » و« التايمز » (لندن) ، و« النيويورك تايمس » ، و« الشهاب » ، و « الاقدام » ، و« لوطان » .

ان هذه المصادر لا تضم الا المواد التي اعتقدنا أنها ذات قيمة لزيادة التعمق في القراءة عن موضوع الحركة الوطنية الجزائرية . وقد فكرنا أولاً في تقسيمها إلى مصادر أولية ومصادر ثانوية ، ولكننا عدنا عن هذه الخطة لطبيعة الموضوع والمواد . فباستثناء بعض الأعمال القليلة العامة ، فإنه يمكن أن نقول ان جل هذه المصادر يدخل في قسم المصادر الأولية . وقد شعرنا بأنه قد يكون أكثر مناسبة أن نقسم المصادر إلى « دراسات خاصة » تناقش القضايا الوطنية السياسية الجزائرية ، وإلى « أعمال عامة » تعالج بعض المظاهر المتعلقة بتلك القضايا ، مثل الأحوال الإقتصادية ، والفن والمرأة ، والتعليم ، وشؤون أفريقيا الشمالية ، الخ . .

المصادر العربية

(أ) الاطروحات والوثائق ، والكتب :

الابراهيمي، محمد البشير (محرر) :
سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . قسنطينة ، المطبعة الجزائرية الاسلامية ، 1935 .

الابراهيمي، محمد البشير :
عيون البصائر. مصر، دار المعارف ط1 ، 1963 .

ابن أبي طالب ، أبو بكر أحمد :
روضة الأخبار ونزهة الأفكار. الجزائر، 1901 .

ابن باديس، عبد الحميد :
القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومبادئها الاصلاحية. قسنطينة، المطبعة الجزائرية الاسلامية ، 1937 .

ابن رويلة، قدور :
وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب . تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم . الشركة الوطنية الجزئرية ، الجزائر ، 1968 .

ابن سليمان، يحيى شريف أحمد :
جواب الى لجنة الشيوخ عن المسألة الجزائرية سنة 1891 . سطيف ، مطبعة روكة ، 1891 .

ابن عبد القادر ، محمد (الأمير) باشا :
تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، جزآن في مجلد ، المطبعة التجارية ، الاسكندرية، 1903 .

ابن عبد الكريم، محمد:
حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته. دار الثقافة ، بيروت ، 1972 .
ابن الموهوب ، المولود:
خطبة قبول منصب الفتيا بخطه، سنة 1908 .
اوزقان ، عمار:
الجهاد الأفضل . دار الطليعة ، بيروت ، 1962 .
أيوب ، عبد الله جندي:
الاستيطان الفرنسي في الجزائر 1830 ـ 1919 . رسالة دكتوراه ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، 1969 (مخطوطة).
الباروني، سليمان:
صفحات خالدة من الجهاد ، جمع وترتيب زعيمة سليمان الباروني. القاهرة ، 1964 .
بفايفر ، سيمون:
مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر . ترجمة أبو العيد دودو . الشركة الوطنية الجزائرية ، 1974 .
بـوعزيز، يحيى:
« دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871 » . اطروحة ، كلية الآداب . جامعة الجزائر . (طبعت).
بيرم، محمد (الخامس):
صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، الجزء الرابع ، ط. مصر 1303هـ.
تشرشل، شارل هنري:
حياة الأمير عبد القادر . ترجمة أبو القاسم سعد اللّه . الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1974 . ط. 2، الجزائر ، 1982 .
التميمي، عبد الجليل:
بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، 1816 ـ 1871 . الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1972.

الجزائري ، أحمد:

كيف دخل الفرنسيون الجزائر . نشر وتقديم صلاح الدين المنجد . دار الكتاب الجديد . بيروت 1962 .

الجيلالي ، عبد الرحمن:

ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب . الجزائر ، 1933 .

الجيلالي، محمد بن العابد:

تقويم الأخلاق . المطبعة الجزائرية، 1927 .

الحاج ابراهيم، أبو اليقظان:

سليمان الباروني باشا في أطوار حياته ، جزآن ، الجزائر ، 1957 .

الحاجري ، محمد طه:

جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر . معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، 1968 .

الحداد، عزيز، والحداد، محمد:

اعلان الى العلماء والاخوان وكبراء الأعراش (باسم والدهما الشيخ محمد امزيان بن الحداد) . مطبعة مارل ، قسنطينة ، 1290هـ.

الحشائشي، محمد بن عثمان:

رحلة الحشائشي الى ليبيا . تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراتي. دار لبنان ، بيروت ، 1965 .

خرفي ، صالح:

شعراء من الجزائر (الحلقة الأولى) . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1969 .

الخضر حسين، محمد:

السعادة العظمى، جمع وتحقيق علي الرضا التونسي. دمشق، 1973. فيه فصل عن (الرحلة الجزائرية).

الخطيب، عدنان:

الشيخ طاهر الجزائري ، رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من خريجي مدرسته . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1971 .

خوجة ، حمدان :
اتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء . تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم. الشركة الوطنية الجزائرية، الجزائر ، 1968 .
خوجة، حمدان :
المرآة . ترجمة وتقديم وتعليق محمد بن عبد الكريم ، بيروت ، 1972 . وللعربي الزبيري ترجمة لنفس الكتاب.
دبوز، محمد علي :
اعلام الاصلاح في الجزائر، جـ 1 ، الجزائر ، 1974 .
دبوز، محمد علي :
نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة . ثلاثة أجزاء :
جـ 1 : مصر 1965 .
جـ 2 : الجزائر 1971 .
جـ 3 : الجزائر 1969 .
رابح ، تركي :
الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم (1900 - 1940) . الجزائر ، الشركة الوطنية الجزائرية ، 1969 .
زوزو، عبد الحميد :
« دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919 - 1939 » اطروحة ، (كلية الآداب - جامعة الجزائر - 1974) . (طبعت) .
الربيري، محمد العربي :
مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة . الشركة الوطنية الجزائرية ، الجزائر ، 1973 (ترجمة) .
سعد الله ، أبو القاسم :
تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1970 . ط. 3 ، الجزائر 1982 .

سعد اللّه، أبو القاسم:

محمـد الشاذلي القسنـطيني ، 1807 ـ 1877 . دراسـة من خـلال رسـائله وشعره ـ الشركة الوطنية الجزائرية ، 1974 .

سعد اللّه ، أبو القاسم:

محمد العيد آل خليفة ، رائد الشعـر الجزائـري الحديث . دار المعـارف . مصر ، 1961 . ط 2 . 1976 .

سعيد (الأمير) بن عبد القادر الجزائري:

تاريخ حياة طيب الذكـر الأمير علي بن الأميـر عبد القادر ، مطبعـة الترقي ، دمشق ، 1918 .

سعيد، الأمير محمد:

مذكرات . دار مكتبة الشركة الجزائرية ، ط 2 ، دمشق ، 1968 .

السنوسي، محمد الهادي:

شعراء الجزائر في العصر الحاضر . جزآن . تونس ، 1926 ، 1927 .

سيف الاسلام، الزبير:

تاريخ الصحافة في الجزائر . الشركة الوطنية الجزائرية ، الجزائر ، 1971 .

شريط ، عبد اللّه ، الميلي ، محمد:

الجزائر في مرآة التاريخ . قسنطينة، 1965 .

الشريف، صالح ، والصفائحي، اسماعيل:

التسجيل على فرنسا في قطر تونس والجزائر : بيان توحش فرنسـا في القطر التونسي والجزائـري والاستنجاد إليه . (بدون مكان نشر ولا تاريخ ، ولعله سنة 1916) .

الطالبي، عمار:

ابن باديس، حياته وآثاره . مكتبة الشركة الجزائرية ، أربعة أجزاء (أنظر الجزء الأول منه) 1968 .

عباس، فرحات:

ليل الاستعمار ، تعريب أبو بكر رحال . المحمدية ، المغرب ، 1962 .

عبد القادر ، نور الدين :
صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ، كلية الآداب ، جامعة الجزائر ، 1965 .
العقاد، صلاح :
المغرب العربي . مكتبة الانجلو المصرية ، ط 2 ، القاهرة ، 1966 .
فارس، محمد خير :
تاريخ الجزائر الحديث ، من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي . دمشق ، 1969 .
الفاسي، علال :
الحركات الاستقلالية في المغرب العربي . طنجة (بدون تاريخ) .
فريد، محمد بك :
من مصر الى مصر (رحلة محمد فريد الى ايطاليا وتونس والجزائر وطرابلس الغرب ومالطة) . ط. مصر سنة 1902 .
كحول، محمود :
التقويم الجزائري ، سنوات 1911 ، 1912 ، 1913 .
كوران ، أرجمند :
السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827 ـ 1847) . ترجمة عبد الجليل التميمي . ط 2، تونس، 1974 .
ماكماهون (المارشال) :
فتح الجزائر (مذكرات المارشال ماكماهون) . ترجمة حامد مصطفى . بغداد ، بدون تاريخ .
المدني، أحمد توفيق :
كتاب الجزائر. ط 2، دار المعارف ، القاهرة ، 1963 .
المدني ، أحمد توفيق :
هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957 .
المشرفي، أبو حامد العربي :
طرس الأخبار بما جرى. . . للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار (مخطوط) .

المقراني، بـومزراق، وقطرانجي عبد الرحمن:
القول الناصح في مجادلة المائن الكاشح. في الرد، باسم فرنسا، على رسالة ظهرت في اسطانبـول بعنوان (المسلمـون في الجيش الفرنسـاوي بالحـرب الحاضرة ـ الحرب العالمية الأولى) بدون تاريخ ولا مكان طبع.

مواعدة، محمد:
محمد الخضر حسين، حياته وآثاره. الدار التونسية للنشر، 1974.

الميلي، مبارك:
تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ثلاث أجزاء (أنظر منه الجزء الثالث). مكتبة النهضة الجزائرية، 1964.

ناصر، محمد:
«المقالة الصحفية الجزائرية». اطروحة مخـطوطة، كليـة الآداب ـ جامعـة الجزائر، 1972. (طبعت).

نجم، ماري:
«الابراهيمي في حياته وبعض آثاره المنشورة والمخطوطة». رسالة دبلوم لم تناقش، كلية الآداب، جامعة الجزائر، الجزائر، 1972.

يحيى، جلال:
السياسة الفرنسية في الجزائر 1830 ـ 1959. القاهرة، 1959.

(ب) المقالات:

ابن أبي شنب، سعد الدين:
«النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة. **مجلة كلية الآداب** (جامعة الجزائر). العدد الأول، السنة الأولى، 1964. ص 44 ـ 66.

ابن باديس، حميدة:
«الى لجنـة الشيوخ» (سنة1891). تقرير نشـره عبـد الحميـد بن بـاديس في (**الشهاب**)، ابريل 1937. ص 62 ـ 71.

ابن قدور، عمر (الجزائري):
« الخدمة العسكرية الفرنسية والرفض الأخير » . مقال نشره المؤلف في جريدة (**الحضارة**) بالأستانة (8 أوت 1911) ونقله صالح خرفي في مجلة (**الثقافة**) ، عدد 3، السنة الأولى ، يوليو ، 1971 . ص 126 ـ 132 .
أوزفان، عمار:
الجهاد الأفضل ، مراجعة مجلة (**المعرفة**) الجزائرية ، ديسمبر 1963 . ص 52 ـ 61 .
بوعزيز، يحيى:
« ثورة محمد المقراني والشيخ ابن الحداد » **الاصالة** العدد 2، ماي 1971 . ص 22 ـ 29 .
بوكوشة، حمزة:
« شيخ الجماعة عبد القادر المجاوي » . **الثقافة** ، العدد 10 ، السنة 2 ، سبتمبر 1972 . ص 6 ـ 14 .
بوكوشة، حمزة:
« مع ابن باديس في ذكراه » ، في **المعرفة الجزائرية** ، (أبريل، 1964) ، ص 13 ـ 22 .
« تاريخ المقاومة الجزائرية » . **المعرفة الجزائرية** ، عدد 16 ، السنة 2 ، (نوفمبر 1964) ص 5 ـ 15 .
التميمي، عبد الجليل:
« التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر » . **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد 1 جانفي ، 1974 . ص 12 ـ 24 .
ثابتي ، مصطفى :
« الجنود الجزائريون والحرب » في (**ريفو افريكان**) م 60 (1919) . ص 509 ـ 520 . شعر بالعربية نشرة محمد صوالح مع ترجمة فرنسية .
الجيلالي، عبد الرحمن:
« جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي والثقافي » . الأصالة ، العدد 13 (السنة 3) . مارس ـ أبريل 1973 . ص 199 ـ 212 .

حموتن، حسن:
« لالا فاطمة نسومر ، 1830 ـ 1863 ». **الأصالة** ، عدد 16 (سبتمبر ـ اكتوبر ، 1973) . ص 161 ـ 165 .
حرفي، صالح:
« أبو اليقظان رائد الصحافة العربية الجزائرية . في (**المعرفة**) الجزائرية (أوت ، 1964) . ص 22 ـ 32 .
حرفي، صالح (إعداد وتعليق):
« المهاجر ، جريدة أصدرها الجزائريون في الشام قبل الحرب العالمية الأولى » . **الثقافة** ، عدد 5 ، نوفمبر 1971 . ص 108 ـ 121 .
الرافعي، عبد الرحمن (المحامي):
« فرنسا في الجزائر» . مجلة **المنهاج** (جـ 7 ، م 1) ، رجب ، سنة 1344هـ) . ص 394 ـ 402 . والمقال منقول عن مجلة (الهداية) .
الركيبي، عبد الله:
« جذور الفكر الاشتراكي في الجزائر» . **المجاهد الثقافي** ، عدد 11 (1970) . ص 47 ـ 53 . وعدد 12 (1970) . ص 33 ـ 37 .
سعد الله، أبو القاسم:
« الأستاذ جوليان والتاريخ الجزائري » . مجلة **المعرفة الجزائرية** ، عدد 19 . السنة 2 ، (ماي ـ جوان ، 1965) . ص 10 ـ 23 .
سعد الله، أبو القاسم:
« أول بيان فرنسي للشعب الجزائري ، ظروفه ونصه ، سنة 1830 » . **المعرفة الجزائرية** ، عدد 17 . السنة 2 ، مارس 1965 . ص 5 ـ 13 .
سعد الله، أبو القاسم:
« مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي : 1830 ـ 1954 » **في مجلة معهد البحوث والدراسات العربية** (مصر) : عدد 9، 1978 ص 43 ـ 79 .
سعد الله، أبو القاسم:
« منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر» . **الأصالة** ، عدد 14، و 15 ، 1973. ص 7 ـ 26.

سعد الله، أبو القاسم:
« وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب » . **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد 1 ، جانفي ، 1974 ، ص 52 ـ 69 . (مع صور).

العاصمي ، محمد :
« نادي الترقي بعاصمة الجزائر » . **تقويم المنصور** ، السنة الخامسة ، 1348هـ . ص 294 ـ 303 .

العدوي، ابراهيم أحمد:
« التطور التاريخي للحركة الوطنية الجزائرية » . **المجاهد الثقافي** . عدد 14 و 15 ، يوليو، 1970 . ص 81 ـ 95 .

قنانش، محمد:
« الايديولوجية الثورية في الحركة الوطنية الجزائرية » . **الأصالة** العدد 11 ، نوفمبر ـ ديسمبر 1972 . ص 25 ـ 30 .

قداش، محفوظ:
« الأمير خالد ونشاطه السياسي بين 1919 و 1925 » . **مجلة تاريخ وحضارة المغرب** ، عدد 4 ، يناير 1968 . ص 19 ـ 39 .

قداش، محفوظ:
« انتفاضة 1871 : مقاومة شعب يحركه الايمان » **الأصالة** ، العدد 2 ، ماي 1971 ص 16 ـ 21 .

قداش، محفوظ:
« صور من حياة الأمير خالد في شبابه» . ترجمة حنفي بن عيسى . **الثقافة** ، عدد 13 ، فيفري ـ مارس، 1973 . ص 11 ـ 22 ، (مع صورة الأمير في شبابه).

المدني، أحمد توفيق:
« أضواء على التاريخ الاسلامي في الجزائر » . **المعرفة الجزائرية** ، عدد 5 ، السنة الأولى ، (اكتوبر 1963) . ص 4 ـ 17 .

المدني، أحمد توفيق:
« الأمير خالد الهاشمي » . **المجاهد الأسبوعي** ، عدد 3 ، يوليو 1966 .

المدني، أحمد توفيق :

« الثورات الجزائرية عبر التاريخ » . **المعرفة الجزائرية** ، عدد 6، السنة الأولى (نوفمبر 1963) . ص 3 ـ 14 .

ناصر، محمد:

« الصحافة العربية الجزائرية والاستعمار الفرنسي » . **الثقافة** ، العدد (19 ، السنة 4) . فيفري ـ مارس ، 1974 . ص 67 ـ 74 .

المصادر الأجنبية

1 - دراسات خاصة

أ - كتب ووثائق ونشرات :

ABBAS, Farhat. - *Le Jeune Algrien.* Paris: Parque, 1931. 2éd. 1981.

La Nuit coloniale, Guerre et Révolution d'Algérie. Paris: Julliard, 1962.

AZAN, Colonel Paul.- *L'Emir Abd El Kader.* Algiers? Hachette, 1925.

BENHABILES, Chérif.- *L'Algérie française vue par un indigène.* Algiers: Orientale, 1914.

BEN MAWHUB, Mohamed Al-Mawlud. - «Speeches and Conferences» as printed in *Ibid.,* 144-195.

BANNABI, Malik. - *Discours sur les conditions de la renaissance algérienne.* Algiers: Editions algériennes. 1949.

BUDARBA, Ahmed. - «Mémoire» published by George Yver under «Mémoire de Bouderba» in *R.A.* LVII (1913); 218-244.

EMERIT, Marcel. - *L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader,* Paris, Larose 1951.

FACI, S. - *L'Algérie sous l'égide de la France contre la féodalité algérienne.* Toulouse, 1936.

THE FRANCO. - Algerian Convention of July 5, 1830 as printed by Michel Habart. «Vérités et mensonges du 5 Juillet 1830, Novembre. I (April-May, 1964), 16-17».

HAMIT (Hamid), Ismail. - *Les Musulmans de l'Afrique du Nord.* Paris: 1906.

JULIEN, Charles-André. - *L'Afrique du Nord en marche.* Paris: Julliard 1952.

KHALID, Emir (Amir). - La situation des Musulmans d'Algérie. Algiers: 1924.

- «Letter - program» to M. Herriot as printed in *A.F.* (October 1924), 530.

KHUJA, Hamdan. - *«Mémoire»* as published by George Yver, R.A., LVII (1913), 122-138.

- Letter to the *Commission d'Afrique. (1833) in Ibid.*

- *«Manifeste du peuple Algérien»*, (1943) as printed in Paul-Emille Sarrasin.

La Crise algérienne. Paris: Du Cerf, 1949, 174-192.

«Note» of 1912, containing the demands of Algerians from France as printed in Chérif Benhabiles, *L'Algérie française.* Algers: Orientale, 1914, 117-121.

NOUSCHI, André. - *La naissance du nationalisme algérien.* Paris: De Minuit, 1962.

La nouvelle critique. (January, 1960). Special issue on the Alge-rian culture.

«The ordinance of march 7, 1944», on french reforms in Algeria as published in *Free France* (March 15, 1944), 227.

«Proclamation» of France to the Algerians on the eve of occupa-tion 1830 as published in Arabic and French by R.A. VI (1862), 147-156.

SARRASIN, Paul-Emile. - *La crise algérienne.* Paris: Du Cerf, 1949.

SAVARY, Alain.- *Nationalisme algérien et grandeur française,* Paris: 1960.

SERVIER, André. - *Le nationalisme musulman en Egypte, en Tunisie, en Algérie.* 3ème Edition, Constantine: Boet. 1913.

Statute of l'Etoile Nord Africaine as printed in *A.F.* (October 1934), 575-576.

Text of the french reform of 1919 as printed in A. Bernard, *L'Afrique du Nord pendant la guerre.* Paris: Presses Universitaires de France, 1927?, 97-106.

YACINE. Kateb. - *Abdelkader et l'indépendance algérienne.* Algiers: Editions algériennes, 1949?

ب ـ مقالات عن دراسات خاصة :

AGERON, Charles - Robert. - *«Jules Ferry et la question algérienne en 1892»*, R.H.M.C.,X (April-June, 1963), 127-146.

- *«Une politique algérienne libérale sous la Troisième République* (1912-1919) *Etude historique de la Loi du 4 Février 1919»*, .H.M.C., VI (April-June, 1949), 121-151.

- *«L'Algérie algérienne sous Napoléon III»*, Preuves (February, 1961), 3-13.

- *«Jaurès et les socialistes Français devant la question algérienne* (1895-1914) ,» M.S. (January, 1963), 3-29.

«Le nationalisme algérien: de l'Islam à la révolution», R.S. (July, 1956), 126-134.

A.L.C. - *«Les Musulmans Algériens au Maroc et en Syrie»*, R.M.M., II (March-July, 1907), 499-512.

BERNARD , Augustin . - *«Les événements de Margueritte»*, Q.D.C., XI (May 15, 1901), 617-621.

- *«Le Sabara français pendant la guerre»*,A.F.S.,(January,1920),3-9.

BERQUE, Augustin. - *«Esquisse d'une histoire de la Seigneurie algérienne»*, R.M., VII (January-February, 1949), 18-34; (March-April, 1949), 168-180.

- *«Les Capteurs de Divin: Marabouts, Ulémas»*, R.M., X,XI (May-June, 1951), 286-302; (July-August, 1951), 417-429.

- *«Un mystique moderniste: le Cheikh Benalioua»*, R.A., LXXIX (1936), 691-776.

- *«La bourgeoisie algérienne»*. Hespéris XXXV (1948), 1-29.

- *«Les intellectuels Algériens»*, R.A. XCI (1947), 123-151.

BERQUE, Jacques. - *«Cent-vint-cinq ans de sociologie maghrébine»*, Annales (July-September, 1956), 296-324.

- *«La sainteté au Maghreb»*, Annales (July-September, 1955), 367-371.

BILLY, Edward de. - *«Notes sur la politique indigène»*, A.F.S., (March, 1914), 89-112.

«Le bolchévisme et l'œuvre coloniale française», A.F., (october, 1924), 529-535.

BOUVREUIL, A.G. - *«Agitation politique et religieuse chez les Musulmans d'Algérie»*, A.F. (november, 1936), 580-590.

«La campagne communiste contre l'Afrique française», A.F. (June, 1927), 226-235.

CASTELLI, Fausto. - *«Il nazionalismo algerino»*, R. S .P.I. , XXVI (1959), 77-86.

CHARLES ROUX, François. - *«Ferdinand de Lesseps et Abd-el-Kader»*, R.M., XV (november-december, 1955), 568-584; (january-february, 1956), 3-23; (march-april, 1956), 115-132.

DEMONTES, Victor. - *«Les procés de Margueritte»*, A.F. (March, 1903), 105-112.

DEPONT, Octave. - *«Une insurrection en Algérie pendant la guerre»*, R.A.N., I (october, 1921), 5-19.

- *«Les troubles en Afrique du Nord et les franchises indigènes en Algérie»*, R.P.P. CLXIV (1945), 70-95.

DESPARMET, J. - *«Quelques échos de la propagande allemande à Alger»*, S.G.A., XX (1915), 46-73.

- *«L'œuvre de la France en Algérie jugée par les indigènes»*, S.G.A., XV (1910), 167-186, 417-436.

- *«La turcophilie en Algérie»*, S.G.A., XXI, XXII (1916), 1-45; (1917), 1-83.

- *«La réaction linguistique en Algérie»*, S.G.A. XXXVI (1931), 1-33.

- *«Les réactions nationalitaires en Algérie»*, S.G.A. XXXVII (1932), 173-184, 437-456.

-*«La chanson d'Alger pendant la grande guerre»*, R.A. LXXIII (1932), 54-83.

- *«Un réformateur contemporain en Algérie», A.F.* (March, 1933), 149-156. On Ben Badis.

- *«Les Oulémas Algériens et la propagande italienne«*, A.F. (May, 1938), 210-214.

- *«Le panarabisme et l'Algérie»*, A.F. (June, 1936), 321-317.

- *«L'Histoire des Arabes et les Oulémas d'Algérie»*, A.F. (May, 1934) 274-281.

- *«La Résistance à l'Occident»*, A.F. (May, 1933), 265-269.

- *«Naissance d'une histoire nationale de l'Algérie»*, A.F. (July, 1933), 387-392.

- *«Deux manifestes indigènes»*, A.F. (December 1933), 780-783.

- *«Les guides de l'opinion indigène en Algérie»*, A.F. (January, 1933), 11-16.

- *«Contribution à l'histoire contemporaine de l'Algérie»*, A.F. (July, 1937), 352-358; (August, September, 1937), 423-428; (November, 1937), 523-527; (December, 1937), 557-561.

EMERIT, Marcel, - *«L'Etat d'esprit des Musulmans d'Algérie de 1847-70»*, R.H.M.C., VIII (April-June, 1960), 103-120.

- *«L'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830»*, R.H.M.C., I (July-September, 1954), 199-212.

- *«Le problème de la conversion des Musulmans d'Algérie sous le Second Empire»*, R.H. CCXXIII (January-March, 1960), 63-84.

FEKAR, Benali. - *«La représentation des Musulmans Algériens»*, R.M.M., VII (January-April, 1909), 1-22.

GALISSOT, René - *«Abdelkader et la nationalité algérienne»*, R.H., (April-June, 1965), 339-368.

GAUTIER, E.-F. - *«Menaces sur l'Afrique»* R.P., (September 1, 1934), 38-56.

GAUTHIER, Robert. - *«De l'exode de Tlemcen à la Loi Jonnart,* 1912-1919: *Un premier dérapage de la politique algérienne»*, M.D., (January, 1964), No page number.

HABART, Michel. - *«Vérités et mensonges du 5 Juillet 1830»*, Novembre I (Aprit-May, 1964), 11-20.

HAMIT, (Hamid), Ismael. - *«Les Musulmans de l'Afrique du Nord»*, R.M.M., XXII, XXIII, (March-June, 1913), 280-295.

HALPERN, Manfred. - *«The Algerian uprising of 1945»*, The Middle East Journal, II (April, 1948), 191-202.

- *«Recent books on moslem - French relations in Algeria»*, The Middle East Journal, III (April, 1949), 211 - 215.

ISNARD, Hildebert. - *«Aux origines du nationalisme algérien»*, Annales, IV (October, December, 1949), 463-474.

JARAY, Gabriel-Louis. - *«La politique indigène en Algérie: conflits récents et causes profondes»*, M.F. (November 1, 1938), 566-585.

JOHNSON, Douglas. - *«Algeria: Some problems of modern history»*, The Journal of African History, V (1964), 221-242.

KIVA. - *«Un Marabout Algérien: bou Amama»*, R.I. V (1889), 701-709.

LACHERAF, Mostefa. - *«Réflexions sociologiques sur le nationalisme et la culture en Algérie»*, T.M. (March, 1964), 1629-1660.

- *«Le Nationalisme Algérien: Sens d'une Révolution»,* T.M. (September-October, 1956), 214-255.

- *«L'Avenir de la culture algérienne»,* T.M. (October, 1963), 720-745.

- *«Constantes politiques et militaires dans les guerres coloniales d'Algérie»,* (1830-1960), T.M. (December, 1960, January, 1916), 727-800.

MARCHAND, H. - *«L'Exode des Musulmans Algériens»,* Q.D.C., XXXIII (January 16, 1912), 86-94.

MARTINIERE, H. de la. - *«Avant le voyage du Président: La question indigène en algérie au lendemain de la guerre»,* R.D.M. (March-April, 1922), 326-351, 659-684.

MERAD, Ali. - *«L'enseignement politique de Mohamed Abduh aux Algériens (1903)»,* Orient, XXVIII (1963), 75-123.

- *«La formation de la presse musulmane en Algérie* (1919-1939)», I.B.L.A. XXVII (1964), 9-29.

MIGOT, Robert. - *«Sur le nationalisme indigène»,* M.F. (October 15, 1933), 436-440.

MILLET, Philippe. - *«Les jeunes Algériens»,* R.P. XX (November 1, 1913), 158-180.

- *«France and her Algerian problem»,* The Nineteenth Century and After, LXXIII (April, 1913), 729-740.

MONHANDIS, L. - *«A l'assaut de l'Afrique française du Nord»,* A.F. (September, 1934), 518-534; (October, 1934), 574-580. A documentary account on the nationalist movement.

- *«A l'assaut de l'Afrique française du Nord»,* A.F.S. (April, 1935), 19-25.

MONTAGNE, Robert. - *«Evolution in Algeria»,* trans, G.K. Agnew, International Affairs (January, 1947), 42-21.

- *«Les Musulmans français et la guerre»,* R.M.M., XXIXXXX (December, 1914- 1915), 173- 174, Arabic and French text related to the Algerian's reaction to the war.

PICQUET, Victor. - *«Les réformes en Algérie et le statut des indigènes»,* R.P. (November, 1918), 421- 448.

PROBSTER G. - *«Abdalqadir und die Eroberung Algeriens»,* W.I., XXII (1940), 132- 148.

- *«Le projet de loi sur l'accession de indigènes Algériens aux droits politiques»*, A.F.S. (July- August, 1918), 114- 120.

RAYNAUD, B. - *«Les réformes algériennes de 1918»*, R.E.P., XXXIII (1919), 66- 70.

- *«Le régime de l'indigénat: la loi du 5 juillet 1914»*, A.F. (August December, 1914), 345- 347.

- *«La révolte de Margueritte»*, A.F. (May, 1901), 141- 145.

RICHEMONT, F. de. - *«L'Islam et la nationalité française»*, R.P.P. (October, 10, 1937), 9- 24.

SABATIER, E. - *«Les droits electoraux des indigènes musulmans d'Algérie»*, R.D.M., XLIV (March, 1938), 197-206.

SEIGNOURET, E. - *«L'Algérie et les indigènes pendant la guerre»*, R.P.P., XCVIII (1919), 285-303.

SOUALAH, Mohamed. - *«Nos troupes d'Afrique et l'Allemagne»*, R.A., LX (1919), 494-520.

THIERRY, René. - *«L'offensive communiste contre l'Afrique française»*, A.F. (May, 1927), 181- 187. On l'Etoite's activities.

- *«Les Ulémas Algériens réformistes»*, N.R.F.O. VII- VIII (July, 1955), 328- 337.

VOINOT, L. - *«La menace de Oulad Sidi Cheikh contre le Tell algérien et les dangers de leur intrigues au Marco»*, (1870-1871),R.A., LXI (1920), 62- 133.

WORTHAM, H.E. - *«France's problems in North Africa»*, The Atlantic Monthly (February, 1922), 549- 558.

YVER, George. - *«Si Hamdan Ben Othman Khodja»*, R.A., LVII (1913), 96- 138.

2 ـ دراسات عامة

أ ـ كتب ونشرات :

AGERON, Charles- Robert. - *Histoire de l'Algérie contemporaine*, 1830- 1964. Paris: Presses Universitaires de France, 1964.

ALAZARD J. and Others. - *Iinitiation à l'Algérie*, Paris, Amérique et Orient, 1957.

ALFASSI, Allal. - *The independence movement in Arab North Africa*, trans. H.Z. Nuseibeh. Washington, D.C., 1954.

ARON, Robert and Others. - *Les origines de la guerre d'Algérie*, Paris: Fayard, 1962.

BARBOUR, Nevill (ed.). - *Survery of North West Africa (The maghrib)*. London: Oxford University Press, 1962, 2 ed.

BARTELS, Albert (Si Hermann). - Mein Krieg auf eigne faust. Leipzig: Hase and Koehler, 1925.

BECKER, Carl H. - *Deutschland und de Islam*, Berlin Deutsche berlags, 1914.

BERNARD, Augustin. - *L'Afrique du Nord pendant la guerre*, Paris, Presses Universitaires de France, 1927.

- *L'Algérie in histoire des colonies françaises et de l'expansion de la France dans le monde.* II, (éd.), G. Hanotaux, Paris, 1930.

BERQUE, Jacques. - *Le Maghreb entre deux guerres*, Paris, Seuil, 1962.

BOERSNER, Demetrio. - *The bolscheviks and the national and colonial question*, 1917 - 1928, Paris, Minard, 1957.

LA DELEGATION GENERALE. - *L'organisation de l'enseignement de la langue arabe en Algérie*, Algiers, Officiell, 1961.

DEPINCE, Ch. (éd.). - *Congrès de l'Afrique du Nord*, 2 vol., Paris, 1909.

DUPUY, Aime. - *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, Paris, Editions Universitaires, 1956.

FAVROD, Charles Henri. - *La révolution algérienne*, Paris, Plon, 1959.

GABERIELI, Francesco. - *The Arab revival*, New York, Random House, 1961.

GERMAIN, Roger. - *La politique indigène de Bugeaud*, Paris, 1955.

GILLESPIE, Joan. - *Algeria rebellion and revolution*, New York, Praeger, 1960.

GORDON, David, C. - *North Africa's french legacy*, 1954- 1962. Massachusetts, Harvard University Press, 1962.

GOUTOR, Jacques R. - *Algeria and France*, 1830- 1963, Indiana, Ball States University, 1965.

HAHN, Lorna. - *North Africa, nationalism to nationhood*, Washington, D.C.: Public Affairs Press, 1960.

HAIM, Sylvia, (éd.). - *Arab nationalism, an anthology*, California, University of California Press, 1962.

JEANSON, C. and F. - *L'Algérie hors la loi*, Paris, 1955.

JULIEN, Charles- André. - *Histoire de l'Algérie contemporaine*, 1830- 1870, Paris, Presses Universitaires de France, 1964.

KIRK, George. - *Survey of international affairs* 1939- 1946. *The Middle East in the war*, ed. Arnold Toynbee, London, Oxford University Prss, 1954.

KOHN, Hans. - *Nationalism: Its meaning and history*, New York, Van Nostrand, 1955.

LACOSTE, Yves and others. - *L'Algérie, passé et présent*, Paris, Editions socialistes, 1960.

LE TOURNEAU, Roger. - *Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane*, 1920- 1961, Paris, Colin, 1962.

LIEBESNY, Herbert J. - *The goverment of the French North Africa*, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 1943.

LUETHEY, Harbert. - *France against herself*, New York, Praeger, 1955.

MANSELL, Gerand. - *Tragedy in Algeria*, London, Oxford University Press, 196.

MARTIN, Claude. - *Histoire de l'Algérie française*, 1930- 1962, Paris, Aymon, 1963.

MAUGHAM, Robin. - *North African notebook*, London, Chapman, 1948.

MELIA, Jean. - *L'Algérie et la guerre*, 1914- 1918, Paris, Plon 1918.

- *La Patrie algérienne*, Algiers, Maison des Livres, 1952.

MERLO, M. - *L'organisation administrative de l'Algérie*, 2 éd. Algiers, Ferraris, 1953.

MINER HORACE, M. and DE VOS, George. - *Oasis and Casbah: Algerian and personality in change*, Ann. Arbor, University of Michigan, 1960.

«North Africa», *Current History*, (April, 1954), (January, 1963). Special issues on this area.

NIOUSHCHI, André - *Correspondance du Dr. A. Vital avec I. Urbain* (1845- 1974). Algiers, Imbert, 1958.

ROGER, Jean- Jacques. - *Les Musulmans Algériens en France et dans les pays islamiques*, Paris, Les Belles Lettres, 1950.

RINN, Louis. - *Histioire de l'Insurrection de 1971 en Algérie*, Algiers, Jourdan, 1891.

RUHL, Alfred. - *Von Wistschaftsgeist im Orient*, Leipzig, Meyer, 1925. On the role of Islam in Algeria.

SHAFER, Boyd, G. - *Nationalism, myth and reality, New York, Harvest Book, 1955.*

SPECTOR, Ivar. - The Soviet Union and the Muslim world, 1917-1958. Seatle: University of Washington Press, 1959.

TAILLIART, Charles. - *L'Algérie dans la littérature française*, Paris, Ancienne, 1925.

TILLION, Germaine. - *Algeria the realities*, trans. Roland Matthew. New York, Alfred Knopf, 1958.

TOYNBEE, Arnold. - *Survey of international Affairs*. 1925, I, *The Islamic World. London*: Oxford University Press, 1927.

- Survey, 1937, I, 1938.

VIOLETTE, M. - *L'Algérie vivra-t-elle?* Paris: 1931.

WAHL, M. - *L'Algérie*. Paris: Ancienne, 1903 4ème éd.

- *A world on the move*: a history of colonialism and nationalism in Asia and North Africa from the turn of the century to the Bandung Conference. Amsterdam, 1956.

ب ـ مقالات عن دراسات عامة :

AGERON, Charles- Robert. - *«Brève histoire de la politique d'assimilation en Algérie»*, R.S. (March, 1956), 225- 236.

BALCH, T.W. - *«French colonization in North Africa»*, The American political science review. III (November, 1909), 539- 551.

BANDA, Michael. - *«Marxism and the Algerian Revolution»*, Labour Review. (London), (March - April, 1958), 37 - 44.

BEN SHANAB, SAADEDDINE. - *«Le théâtre arabe d'alger»*. R.A. LXXVII (1935), 72- 85.

BAZIN, René. - *«Charles de Foucauld et les Musulmans»*, R.D.M. (December 1, 1924), 481- 506.

BARBOUR, Nevil. - *«Variations of Arabe national feeling in French North Africa»*, The Midle East Journal, VIII (Summer, 1954), 308- 320.

BERNARD, Augustin. - *«L'Allemagne et l'Afrique du Nord»*, A.F. (April, 1915), 88- 90.

BERNARD, Paul. - *«L'Enseignement primaire des indigènes musulmans de l'Algérie»*, R.M.M. I (November- February, 1906- 1907), 5- 21.

BOUSQUET, George H. - *«Les élites gouvernantes en Afrique du Nord depuis la conquête française»*, W.I., III (1954), 15- 33.

BOUTHOUL, Gaston. - *«Le malaise algérien»*, R.P. (July 1, 1935), 118- 134.

BROWN, Garl Leon. - *«The Islamic reformist movement in north Africa»*, The journal of modern african studies. II (March, 1964), 55- 63.

BUGEJA, Marie. - *«A travers l'Algérie, impression sur la femme musulmane», S.G.A., XXIV (1919), 70- 86.*

- «Vers la renaissance des arts algériens», S.G.A. XXVIII (1923), 379- 399.

BUSSON, Jonssens Le G. - «L'indépendance du culte musulman en Algérie», R.J.P.U.F. (July- September, 1951), 305- 339.

CAHNMAN, Werner. - *«France in Algerian - A problem of culture contact»*, The review of politics, VII (July, 1945), 333- 357.

C.E.S. - *«Politics and economics in Algeria», The world today, IV (February, 1948), 83- 92.*

CHADWICK, *M.C.* - *«Africa, the Arabs and France»*, Dublin review (July, 1927), 71- 92.

COLLIEZ, A. - *«La politique de prestige et les colonies»*, R.P. (January 15, 1938), 367- 389.

COLOMBE, Marcel. - *«Islam et nationalisme arabe à la veille de la première Guerre mondiale»*, R.H. CCXXIII (January- March, 1960), 85- 98.

CORRIERAS, J. - *«De l'enseignement des indigènes en Algérie»*, Q.D.C., XXVII (1910), 591- 611.

COWAN, Gray. L. - *«The new face of Algeria: political and administrative development»*, Political Science Quarterly, LXVI (September-December, 1951), 340- 365; 507- 531.

DAVID, Robert. - *«L'alarme nord africaine»*, R.F., XIV (December, 1934), 428- 440.

DEBON, Lieutenant- colonel. - *«Troupes indigènes et révolte de Fez»*, R.P. (September 15, 1912), 292- 302.

DEMONTES, Victor. - *«l'Algérie pendant ces 18 mois de guerre»*, S.G.A., XX (1915), 1- 45.

DEPINCE, Ch. - *«Le re'gime de l'indigénat algérien»*, R.P.P., LXXII (1912), 288-311.

DEPONT Octave. - *«Les berbères en France»*, A.F.S. (September, 1925), 429- 448.

DE SADE. - *«Report on the situation in Algeria»* delivred before the chamber, M.U., (April 29, 1834), 1063 - 1066.

DESPARMET, J. - *«Le II^e^ Congrès de Etudiants Musulmans Nord Africains», A.F. (October, 1932), 572- 575.*

Desthieux, J. - *«Les Elites de l'Afrique du Nord»*, M.F. (July, 1939), 161 - 164.

ERMONT, Louis. - *«Afrique du Nord et Proche- Orient»*, A.F. (April, 1933), 197- 205.

FALCK, F. - *«L'Algérie Pendant la guerre»*, J.E. LX (1918), 314-329.

F.R. - *«Les arts indigènes algèriens en* 1924», S.G.A., XXX (1925), 152-156.

FERRY, Jules.- *«Organisation et attributions du gouvernement général de l'Algérie»*, J.O., Senat, Documents, 1892, 491- 498.

FURLONG, Charles Wellingtoon. - *«The white fathers of North Africa»*, Scribers Magazine, XLI (February, 1907), 140- 151.

GAUTIER, E.- F. - *«La famine en Algérie»*, R.P. (June 1, 1921), 624- 646.

«Le Général Voirol et la Commission d'Enquête de 1833», S.G.A., XII (1907), 79- 188.

GENIAUX, Charles. - *«En Kabylie, les Pères Blancs pendant la guerre»*, R.D.M., CCLIV (1916), 399- 425.

- *«Nos écoles indigènes d'Algérie et la paix française»*, R.P. (Décenbre 15, 1916), 857-877.

GIBSON, H. - *«Mission of Algeria»* Month,' LIX (March, 1887), 379- 392: LX (June, 1887), 213- 227: (July, 1897), 363- 374.

GODCHOT, Colonel. - *«Moscou et l'Afrique du Nord»*, J.E. (May, 1926), 196- 204; (June, 1926), 328- 341; (July, 1926), 51- 62.

GOUBEAU, Capitaine F. - *«L'nfanterie indigène en Algérie »*, R.P. (September 15, 1911), 425- 488.

- *«Great Britain and France in northern Africa»*, The round table. XIX (December, 1928- September, 1929), 717- 738.

H.E.M. - *«A Saint in Algeria»*, The month and catholic review, XXIX (February, 1877), 225- 236: (March, 1877), 286- 300 On Missionary activities.

EL- HACHAICHI, SI Mohamed. - *«Chez les Senoussis et les Touaregs»*, trans, from Arabic by Victor Serres and Mohamed Lasram, R.P. (August 15, 1901), 678- 709; (September 15, 1901), 408- 422.

HANOTAUX, G. - *«L'Algérie: son rôle actuel et futur»*, R.D.M. (October 15, 1932), 767- 793.

HEGGOY, Alf Andrew. - *«The sources of nineteenth century algerian history: a critical essay»*, Muslim world, LIV (October, 1964), 292- 299.

HOWE, Sonia. - *«Charles de foucauld, explorer of Morocco and knight Errant of Christ»*, Muslim world, XVIII (April, 1928), 124- 146. Foucauld was killed during the hoggar revolt of 1916- 1919.

«La III^e Internationale contre la France et les colonies», correspondant (May 10, 1925), 321- 339. Under the title (Documentation soviétique).

JULIEN, Charles- André. - *«France and Islam»*, Foreign Affairs. XVIII (1939- 1940), 680- 699.

KAID- HAMMOUND, M. - «*La France et l'Islam dans le Nord de l'Afrique*», R.A.N., I (January- April, 1922), 246- 252.

KNIGHT, M.M. - «*The Algerian revolt: Some underlying factors*», The Midle East Journal, X (Autumn, 1956), 355- 367.

LARCHER, E. - «*Les imperfections de la législation algérienne*», R.P.P., LXXXVI (1916), 61- 73.

LEROY- BEAULIEU, Paul. - «*La colonisation de l'Algérie, Européens et indigènes*», R.D.M., LIII (1882), 758- 792.

- «*La France dans l'Afrique du Nord, indigènes et colons*», R.D.M. CIXCV (1906), 45- 83.

- «*La France dans l'Afrique du Nord*». R.D.M. CCXXX (1912), 815- 858.

LE TOURNEAU, Roger. - «*North Africa: Rigorism and Bewilderment*», in Unity and variety in Muslim civilization. Ed. G.E. Von Gruneboum, Chicago: 1955.

LORIN, H.- «*Dix ans d'autonomie financière, l'Algérie depuis 1901*», R.D.M., CCXXV (1911), 415- 444.

- «*Nos sujets indigènes: Etudes de politique coloniale*», R.P.P., XXXV (1903), 367- 384.

- «*L'évolution de l'Afrique du Nord*», Q.D.C., XXVIII (1909), 321- 331.

LUETHEY, Harbert. - «*Cross- Tides of North African Revolt*», Commentary, XIV (November, 1952), 433- 449.

LUTAUD, Charles (Former Governor General). - «*L'Algrie pendant la guerre*», A.F.S. (June- July, 1915), 105- 122.

- «*La situation générale de la colonie*», A.F. (April, 1917), 144- 148. A report to the financial delègations.

MACHEFER , Philippe . - «*Autour du problème algérien en* 1936- 1938: *La doctrine algérienne du P.S.F.: le P.S.F. et le Projet Blum-Violette*», R.H.M.C., X (April- June, 1963), 147 156.

MAITROT, Commandant. - «*Les Allemands au Maghreb*», S.G.A., XXVI, XXVII (1921), 441- 471; (1922), 556- 573.

MARÇAIS, George. - «*Nostalgie de Fellahs*», R.P. (October 15, 1919), 788-807.

MARAÇAIS, Philippe W. - «*Peoples and cultures of North Africa*», The Annals, trans. G. Horner and M. Karp, (March, 1955), 21- 29.

MERCIER, Gustave. - *«Les indigènes nord- africains et la guerre»*, R.P. (july 1, 1918), 203- 222.

MESSIMY, A. - *«Ressources militaires de l'Afrique du Nord»*, R.P., (November 15, 1910), 333- 346.

MEYNIER, Général. O. - *«La guerre sainte des Senoussya dans l'Afrique française* (1915-1918)», R.A., LXXXIII (1939), 227-275, 323-357.

Largely on the Hoggar revolt and relation between the Senoussya fraternity and the Central Powers.

- *«La guerre sainte des Senoussya en Afrique,* (1914- 1918)», R.M.F. (May, 1932), 176- 204; (December, 1932), 432: (January, 1933), 121- 144; (February, 1933), 244- 254; (March, 1933), 391- 402; (October, 1933), 120- 142; (December, 1933), (337- 353) February, (1934), 214 - 237, (This protion is written by Commandant Filio); (March, 1934), 399 - 426.

MILLIOT, L. - *« L'Exode des travailleurs Algériens vers la Métropole»*, A.F.S. (March, 1925), 94- 97.

MONTAGNE, R. - *«French policy in North Africa and in Syria»*, International Affairs (March, 1937), 263- 279.

MONTEIL, Vincent. - *«L'arabisation culturelle de l'Algérie»*, Preuves. (January, 1964), 31- 35.

«Nationalism in North Africa», The Round Table (March, 1938), 279- 296.

NIESSEL, Général. - *«Panislamisme et panarabisme»*, R.D.M. (March, 1938), 295 - 305.

O'CONNOR, R.F. - *«The French conquest of Algeria»*, The American catholic quarterly review. (July, 1906), 457- 485..

PAYSANT, M.L. - *«Le service militaire obligatoire pour les indigènes en Algérie»*, R.A., LII (1908), 115- 148.

PINON, René - *«La séparation des églises et de l'Etat en Algérie»*, R.D.M., (Décembre 15, 1907), 866- 896.

«Le problème militaire nord africain», Correspondant (June 25, 1925), 801- 816.

«La propagande d'Abd-el-Krim dans l'Afrique du Nord», A.F., (January , 1926), 15- 17.

R.F. - *«Nationalism and the trade unions in french North Africa»*, The World Today (June, 1952), 249- 257.

ROGER, Jean-Jacques. - *«Les Musulmans algériens en France et dans les pays islamiques»*. R.M. (March- April, 1950), 169- 190.

RAYMOND, A. - *«La situation des indigènes et le crédit agricole en Algérie»*, R.D.M., (May 1, 1912), 116- 139.

«Le régime de l'Algérie au début du XXe siècle», R.D.M. (April. 1, 1903), 610- 643; (April 15, 1903), 867- 904; (May 1, 1903), 150- 190.

RICHEMONT, F. de. - *«Une politique agraire pour l'Afrique du Nord»*, R.P.P. CLXXIV '(1938), 257- 263.

RINN, Louis. - *«Les grands tournants de l'histoire de l'Algérie»*, S.G.A., VIII (1903), 1- 24.

RIVLIN, Benjamin. - *«Cultural conflicts in French North Africa»*, The Annals (July, 1956), 4- 9.

- *«Context and sources of political tensions in French North Africa»*, Ibid. (March, 1955), 109- 116.

ROBERT - RAYNAU . - *«La propagande communiste dans l'Afrique du Nord»*, A.F.S. (January, 1926), 14 - 48.

ROUIER, M. - *«Les indigènes Algériens»*, R.D.M. (January 15, 1909), 410- 441: (April 1, 1909), 615- 649.

- *«Les colons de l'Algérie»*, R.D.M. (September 15, 1901), 339- 374- 865- 904.

ROUSSEL, Ch. - *«La naturalisation des indigènes en Algérie»* R.D.M. (August 15, 1875), 895 - 921.

SABATIER, Camile. -*«Du recrutement des indigènes Algériens»*, R.P.P. LIX (1909), 25 - 39.

SABATIER, E. - *«Les grands problèmes Nord Africains»*, R.D.M. (March, 1939), 156- 181.

SHARP, William. - *«Cardinal Lavigerie's Work in North Africa»*, The Atlantic Monthly, LXXIV (August, 1894), 214- 227.

SHINAR, Pessah, - *«Abd Al-Qadir and Abd Al-Krim»*, Studies in Islam, I (July, 1964), 135- 164.

STEEG, F. (Former Governor General). - *«La situation de l'Algérie»*, A.F.S. (June, 1923), 211- 215.

TEBBAL. - *«Afrique et Syrie»*, A.F.S. (September, 1921), 198- 206.

TOURNADE, H. - *«Souvenirs d'Algérie, l'insurrection du Sud Oranais de 1881»*, N.R., LXVIII (1923), 25- 37, 153- 163.

VALBERT, G. - *«La question algérienne et le rapport de M. Jules Ferry»*, R.D.M., CXVI (1893), 197- 208.

VAN GENNEP, Arnold. - *«La mentalité indigène en Algérie»*, M.F., CVI (1931), 673- 699.

VIOLLETTE, M. (former Governor General). - *«La situation générale de l'Algérie»*, A.F., (November, 1926), 537- 542.

- *«La situation générale de l'Algérie»*, A.F.S. (April, 1927), 141-145.

- *«La situation de l'Algérie»*, A.F.S., (July, 1925), 335- 339.

«Le voyage du Président de la République dans l'Afrique du Nord», A.F.S. (May, 1922), 121- 142. On Millerand's visit to Algérie.

WARREN, G. Edward de. - *«L'opinion publique française et le Monde Musulman Africain»*, R.P.P., LXXIV (1912), 473- 493.

YACONO, X. - *«Peut-on évaluer la population de l'Algérie vers 1830?»*, R.A., IXCVIII (1944), 277- 307.

ZIADEH, N.A. - *«Cultural trends in North Africa»*, Journal of World History VII (1962). 109- 133.

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

(مختصر عناوين المجلات والجرائد غير الانكليزية)

(تشمل هذه القائمة مختصر عناوين المجلات والجرائد غير الانكليزية التي يحتوي عنوانها على أكثر من كلمة واحدة) .

A.F.	L'Afrique française	أفريقية الفرنسية	«أ. ف.»
A.F.S.	L'Afrique Française-sup.	أفريقية الفرنسية ـ اضافي	«أ. ف. س»
I.B.L.A.	Institut de Belle-Lettres Arabes	معهد الآداب العربية	«أ. ب. ل. أ»
J.E.	Journal des Economistes	جريدة الاقتصاديين	«ج. أ.»
J.O.	Journal Officiel	الجريدة الرسمية	«ج. أ.»
M.D.	Le Monde Diplomatique	العالم الديبلوماسي	«م. د.»
M.F.	Mercure de France	عطارد فرنسا	«م. ف.»
M.S	Le Mouvement Social	الحركة الاجتماعية	«م. س.»
M.U.	Le Moniteur Universel	المرشد العالمي	«م. و.»
N.R.	Nouvelle Revue	المجلة الجديدة	«ن. ر.»
N.R.F.O.	La Nouvelle Revue Française d'Outre-Mer	المجلة الجديدة الفرنسية لما وراء البحار	«ن. ر.»
Q.D.C.	Questions Diplomatiques et Coloniales	المشاكل الديبلوماسية والاستعمارية	«ك. د. ك.»
R.A.	Revue Africaine	المجلة الافريقية	«ر. أ.»
R.A.N.	Revue de l'Afrique du Nord	مجلة أفريقية الشمالية	«ر. أ. ن.»
R.D.M.	Revue des Deux Mondes	مجلة العالمين	«ر. د. م.»
R.E.P.	Revue d'Economie Politique	مجلة الاقتصاد السياسي	«ر. أ. ب»
R.F.	Revnue dc France	مجلة فرنسا	«ر. ف.»
R.H.	Revuc Historique	المجلة التاريخية	«ر. هـ.»

R.H.M.C.	Revue Historique Moderne et Contemporaine	«ر. هـ. م. ك» مجلة التاريخ الحديث والمعاصر
R.I.	Revue d'Infanterie	«ر. أ.» مجلة المشاة
R.J.P.U.F.	Revue Juridique et Politique de l'Union Française	«ر. ج. ب. و.» المجلة العدلية والسياسية للاتحاد الفرنسي
R.M.	Revue de la Méditerranée	«ر. م.» مجلة البحر الأبيض المتوسط
R.M.F.	Revue Militaire Française	«ر. م. ف» المجلة العسكرية الفرنسية
R.M.M.	Revuc du Monde Musulman	«ر. م. م» مجلة العالم الاسلامي
R.P.	Revue de Paris	«ر. ب.» مجلة باريس
R.P.P.	Revue Politique et Parlementaire	«ر. ب. ب.» المجلة السياسية والبرلمانية
R.S.	Revue Socialiste	«ر. س.» المجلة الاشتراكية
R.S.P.I.	Rivista di studi politici Internazionali	«ر. س. ب. أ.» مجلة الدراسات السياسية العالمية
S.G.A.	Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord	«س. ج. أ» الجمعية الجغرافية للجزائر (العاصمة) وأفريقية الشمالية
T.m	Les Temps Modernes	«ت. م.» الأزمنة الحديثة
W.I.	Die Welt des Islams	«و. أ.» عالم الاسلام

***

إحصاءات

1 ـ عدد الادانات في الجزائر، 1905 ـ 1907 — 107

2 ـ محاضرات نظمتها الجمعية التوفيقية، 1911 — 138

3 ـ محاضرات نظمتها الجمعية الرشيدية، 1907 — 140

4 ـ قروض للتعليم العام في الجزائر، 1902 ـ 1908. — 142

5 ـ عدد الجزائريين في الحرب العالمية الأولى، 1914 ـ 1918 — 199

6 ـ هجمات الجزائريين ضد فرنسا، 1916 ـ 1918 — 222

فهرس الجرائد والدوريات والكتب

الأحياء: 115 .
الأخبار: 126، 248 .
أخبار الحرب: 248 .
الاسلام: 134، 177 .
الاسلام في الجيش الفرنسي: 245 .
الاصلاح: 393 .
أفريقيا: 313 .
الاقدام: 277، 296، 307، 342، 362، 373، 380، 408 .
الاقدام الباريسي: 373 .
الاقدام الشمالي الأفريقي: 373 .
ألمانيا والاسلام (سلسلة): 241 ـ 242 .
الأمة: 286، 374 +هـ، 377، 383، 411 .
ليكو دالجي: 369 .
ايكو دي باري: 104، 113 .
البلاغ الجزائري: 394 .
بيتي جورنال: 267 .
التايمز: 229، 304 .
تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر: 137 .
تريبونا: 228 .
تصفير أفكيار: 228 .
تعريف الخلف برجال السلف: 137 .
التقدم: 296، 352، 353، 356، 367 .
التّونسي: 171 .
الجزائر: 134 .
الحضارة: 149 .
الحق: 135، 177 .
ديبا: 55 .
ديبيش دي كونستانتين: 157، 169 .
ذو الفقار: 115 .
الراية الحمراء: 335 .
الرشيدي: 135، 177 .
الشاب الجزائري: 353 ـ 354، 360، 411 .
الشرق الجديد: 288 .
الشهاب: 296، 397، 399، 404 .
صدى الصحراء: 393 .
العراق: 316 .
غازيت دي فوس: 228 .
الفاروق: 135 .
فرنسا الاسلامية: 127، 248، 256 .
فيجي ألجريان: 77 .
القبلة: 393 .
كونستيتو سيونيل: 51 .
لافابريك: 314 .
لافرانس اسلاميك: 134، 232 .
لافريك فرانسيز: 222، 344، 364، 377 .
لافوادي هامبل: 352، 403 .

لالوت سوسيال: 333، 399.
لانازيون: 361، 369.
لوطان: 91، 235، 259.
لوماتان: 113.
لوموند نوفو: 342.
لو هيومانيتي: 324 ـ 325، 333 ـ 334.
المبشر: 126، 248.
المجلة الأهلية: 259.
مذكرات حمدان خوجة: 137.
المرآة: 32 ـ 33.
المشير التونسية: 149.
المصباح: 134.
المغرب: 115، 135، 308، 404.
مجلة المغرب: 209، 270.
المنار: 387، 389.
المنتقد: 296، 399، 408.
المهاجر: 121.
المؤيد: 121.
النجاح: 296، 398، 402.
النهضة: 313.

***

فهرس الأعلام

- أ -

آل خليفة (محمد العيد): 393.
آيت قاسي: 138.
الابراهيمي (محمد البشير): 386 ـ 389، 392 ـ 394، 403، 409.
ابن أبي شنب (محمد): 76هـ، 135.
ابن اسماعيل (الجزائري): 76، 112، 118.
ابن الأكحل (محمد): 313، 315، 333، 373.
ابن باديس (عبد الحميد): 147، 155، 294، 338، 386 ـ 387، 389 ـ 394، 396 ـ 401، 407، 409، 416 ـ 417.
ابن بريهمات: 66هـ، 137، 139 ـ 140، 182هـ ـ 183هـ، 288، 290، 292، 352 ـ 354، 361، 380، 382.
ابن تيمية: 389.
ابن جلول: 353 ـ 354، 360، 411.
ابن الحاج (يعقوب): 100.
ابن حبيلس: 139.
ابن ددوش: 183هـ.
ابن رحال: 140، 148، 175.
ابن زكري (سعيد): 140، 147.
ابن سحنون: 30هـ.
ابن سراج (كمال): 353.
ابن سماية (عبد الحليم): 140، 147، 148 ـ 150، 188، 294، 361، 386.
د. ابن العابد: 139هـ.
ابن عثمان: 183هـ.
ابن علال: 45.
ابن علاوة: 183هـ.
ابن عليوة (احمد): 394 ـ 396+هـ،409.
ابن عمار: 136.
ابن عمر: 31هـ.
ابن عمر (كانتولي س.): 104هـ.
ابن قتال: 140.
ابن قدور (عمر): 5، 133هـ، 135، 149 ـ 150+هـ.
ابن قينة (عمر): 6.
ابن القيم: 389.
ابن كوراط ـ فرقة: 154.
ابن المداسي (محمد): 390.
ابن مريم: 136.
ابن مصطفى (ابراهيم): 31هـ.
ابن الموهوب (المولود): 118، 135، 139، 144، 147 ـ 148، 150 ـ 157، 188، 294، 361، 386، 416.

ابن نوى (ابن علي): 216، 219هـ .
أبو ضنقة (الطاهر): 323 ـ 324، 333 .
أبو اليقظان: 6 .
أجرون (شارل): 12، 176 .
أحمد ـ الأمير: 127 .
أحمد باي ـ باي قسنطينة: 43، 48 ـ 50 .
أحمد الجزائري: 127 .
أرسطو: 41 .
أرسلان (شكيب): 5، 395 .
أرون (روبير): 17هـ ، 63، 73، 184هـ .
أريب: 139 .
الاسكندر الأكبر: 153 .
الأشرف (ع): 140 .
الأصرم (محمد): 221هـ .
سي الأعلى: 54 ـ 56 .
الأفغاني (السيد جمال الدين): 109، 115، 156 .
أفلاطون: 41 .
الأكويني (توماس): 141 ـ 142 .
البيدي: 104 .
ألود: 142 ـ 143، 160 .
أندرسون (و.ف.): 196 ـ 197 ـ 198، 247 .
أنور باشا: 316 .
أولاد سيدي الشيخ: 54 ـ 56+هـ، 57 .
ايستر هازي (و.): 25 .
ايفير (ج.): 60، 137 .
ايماش (عمار): 315، 373 ـ 374 .
ايميري (م.): 43، 48 ـ 50، 60، 71، 158هـ .

ـ ب ـ

باربور (نيفيل): 29، 51، 75 ـ 76 .
بارتيل (أ.): 227هـ .
باروكان (ف.): 133هـ .
الباروني (سليمان): 245+هـ ـ 246 .
باش حنبة (علي): 209، 391 .
باش حنبة (محمد): 171 ـ 172هـ ، 208+هـ ـ 209، 229 .
بافلوفيتش: 322، 326 .
باندا: 49 .
بانيستر (س.): 39، 72 .
بايزيد: 125 .
بحري (يونس): 317هـ .
بخيت (محمد): 391 .
بدوي: 66هـ .
برانتكي: 138 .
براوني (ج.): 72، 92 .
بربور (ن.). انظر: باربور (ن.).
بروسار: 42 .
بريان: 264، 266 ـ 267 .
البسكري (محمد): 221هـ .
بسمارك: 52 .
بسطانجي ـ فرقة: 154 .
بلحاج: 140، 353 .
بلغول (احمد): 373 .
بلسجال (محمد): 326 .
بلوم (ليون): 299هـ .
بوانكاري (ر.): 183 ـ 185، 190، 258، 261، 347، 364، 411 .
بوايبي (بيير): 43هـ ، 48 ؛
بوبغلة: 45 ـ 46، 50 ـ 52 .
بوثلجة: 66 ـ 67هـ .
بوجو: 21+هـ، 22، 30، 42، 44، 45 ـ 46، 51، 58، 72 .
بوخارين: 326 .

بوديكور: 29.
بورد: 259، 305، 347، 358.
بورداري (ب.): 259.
دي بورمونت: 18، 306هـ.
بوزيان: 50 ـ 52.
الشيخ بوزيد: 394.
بوسكي (ج.هـ.): 59، 65، 73، 143، 160.
بوضربة (احمد): 31+هـ.
بوضربة (عمر): 180هـ، 182+هـ.
بوعزيز (يحيى): 5.
بوعمار (الشريف): 51.
بوعمامة: 55 ـ 56، 77، 100، 112، 407.
دي بولينياك: 17.
بوليو (ب.ل.): 60، 71، 97، 160.
بومدين: 354.
بومزراق: 54+هـ ـ 55.
بومعزة: 45 ـ 46، 50 ـ 51.
بونابارت (بيير): 50+هـ.
بيربروغر (أ.): 18هـ.
بيرك (أ.) 60، 64، 394.
بيرنار (أ.): 59، 193، 251، 276، 289، 295.
بيكر (كارل): 241 ـ 243.
بيلتي: 138.
دي بيللي: 171.
بيليسي: 23، 25.

ـ ت ـ

تامزالي (مصطفى): 355هـ.
تران: 327.
تروتسكي (ليون): 319، 326.
تريزل: 42.
التميمي (عبد الجليل): 34هـ.
التواتي (محمد): 221هـ.
دي توكفيل (أليكسيس): 60 ـ 61، 76، 120، 385.
توينبي (ا.): 257، 260، 276، 310 ـ 311.
تيرمان (لويس): 141.
تيليون: 12.
تيير: 48، 72.

ـ ث ـ

الثعالبي (عبد العزيز): 380 ـ 381هـ، 395.

ـ ج ـ

جان دارك: 51.
جفال (محمد): 373.
جودي: 183هـ.
جوريس (جان): 27 ـ 28هـ، 91، 161 ـ 162، 259، 325.
جوليان (ش. اندرى): 12، 276.
جونار: 83هـ، 106 ـ 107، 113، 130، 176، 263، 267 ـ 268، 270، 299.
جونسون (دوغلاس): 12.
جيد (شارل): 90+هـ ـ 91، 210.
جيروم: 23.
جيناب (أ. فان): 141.

ـ ح ـ

حاج سعيد (مختار): 163، 169، 183هـ.
الشيخ الحداد: 5، 53، 54، 118.
حسين (محمد الخضر): 209هـ.

الحشائشي (محمد): 221هـ .
الحفناوي: 66هـ .
الحفناوي (أبو القاسم): 137 .
الحفناوي (ب.): 140 .
حفيظ ـ مولاي: 245 ـ 246 .
حمدان آغا: 31هـ .

- خ -

خالد ـ الأمير: 94، 224، 229هـ، 235، 278، 289 ـ 291، 293 ـ 294، 300، 302 ـ 304، 312 ـ 313، 315، 317هـ، 327، 334، 338، 340 ـ 342، 352 ـ 355، 360 ـ 363، 364، 365 ـ 376، 378، 380، 407 ـ 409 .
خالد الجزائري: 127 .
خرفي (صالح): 6 .
الخطابي (عبد الكريم): 227، 231، 235، 302 ـ 303، 312 ـ 314، 322، 327، 334 ـ 335، 341، 367، 380، 410 .
خوجة (حسن): 31هـ، 33 ـ 34+هـ .
خوجة (حمدان): 21هـ، 29 ـ 35+هـ، 39، 44هـ، 49هـ، 58، 60، 69، 70، 75+هـ، 100+هـ، 118، 137، 150، 155، 173، 407، 415 ـ 416 .
خوجة (عثمان): 30 .
خوجة (علي): 31هـ .
خوجة (لويس): 175+هـ .
خير الله (الشاذلي): 376 .

- د -

دافيد: (364).
دغيز (حسونة): 32هـ .
دندان (الصادق): 134 .
دورليان ـ دوق: 66، 72 .
دوريو: 334 ـ 335 .
دوفوفي: 72 .
دوفيفي: 47 ـ 48 .
دومال ـ دوق: 45، 71هـ .
ديبارمي (جـ.): 37، 76، 195، 207، 210، 244، 251، 254، 288، 298، 304، 370 ـ 371، 385، 392، 400 .
ديبون: 205 ـ 206، 214 ـ 215، 221 .
ديرلون (درويث): 20، 42 .
الديسي (عبد الرحمن): 6 .
ديشتال: 38 .
ديمونتي: 108، 119، 123، 332 .
ديميشال: 41 ـ 42+هـ، 48، 72 .
دينو: 218، 221 .

- ر -

راسم (عمر): 134 .
راندون: 23، 51 .
رضا (رشيد): 109، 147، 156، 386 ـ 387 .
ركيبي (عبد الله): 5 .
روزى (ا.): 91، 104، 259 .
روسو (والديك): 102 ـ 103 .
روى: 12 .
ريجس (ماكس): 27هـ .
الريسوني: 227 .
الريفي: 302 ـ 303، 312، 367 .

- ز -

زغانة (مقدم): 216 .

زغلول (سعد): 365هـ .
الزناتي: 353 .
زوزو (عبد الحميد): 5 .
زينوفيف: 322، 326 ـ 327 .

- س -

سارتر (جـ . بول): 12 .
سارو (ألبير): 303 ـ 304، 344، 355، 357 ـ 358 .
السائح العراقي. انظر: بحري يونس
سبيلمان (ف.): 297هـ ، 303 .
ستالين: 319، 326 .
ستيغ: 347، 364 .
سعد الله (علي): 13 .
سعيد ـ حاج. انظر: حاج سعيد (مختار).
السعيد (محمد): 112 .
سلطان (أحمد): 202 .
سي سليمان: 54، 56 .
سليمان القانوني: 125 .
سنايدر: 68هـ.
السنوسي (محمد بن علي): 221هـ .
سودرون (جـ .): 73 .
سوران (جول): 74 .
سيرفي (اندرى): 98، 157، 161 .
سيريس (فيكتور): 221هـ .
سيسبان: 355 .
سيفان (ايمانويل): 5 .
سيلوس: 227هـ ، 231 .
سيلي: 325 .
سينيوري: 198هـ ـ 199، 218 ـ 219 .

- ش -

الشاذلي (محمد): 152هـ .
شارل العاشر: 17 .
شرشالي: 66هـ .
الشريف (صالح): 209 .
الشريف حسين: 205، 211، 235 ـ 236، 254 ـ 256، 393 .
شطة (محمد): 126هـ .
شكسبير: 152 ـ 153 .
شكيكن: 355هـ ، 382 .
الشنكيطي: 227 .
شوتان: 301 .
الشوكاني: 389 .

- ص -

دي صاد: 18هـ ، 35هـ ، 59هـ .
صالح باي: 138 ـ 139، 145، 150 ـ 151، 153 ـ 154 .
صباتي: 344 .
صوالح (محمد): 138 .

- ط -

طاهرات: 353 .
طيبال: 116، 124، 210، 240 ـ 241، 259 .

- ع -

عباس (فرحات): 5، 17هـ، 58، 143هـ ، 277، 353، 354، 360، 411 .
عبد الحميد الثاني: 76، 109، 112، 114، 121 .
عبد السلام ـ الشيخ: 220 .
عبد القادر ـ الأمير: 22 ـ 23، 36، 38، 40 ـ 48+هـ ـ 49 ـ 52، 54، 57، 64، 67، 69 ـ 70، 72، 75، 110، 118، 125، 127، 137، 194، 211،

223 ـ 225، 228، 234 ـ 235،
243 ـ 244، 246، 289، 306،
316، 360، 407، 410، 415ـ
416.
عبد القادر (حاج علي): 313، 315،
326+هـ،333 ، 373 .
عبد المالك ـ الأمير: 127هـ ، 194،
223 ، 224 ـ 231، 234 ـ 236،
243 ـ 244، 246، 251، 312،
322، 360.
عبده (محمد): 105، 109، 115، 126،
135، 147، 149، 156، 386ـ
387، 389.
عربان (اسماعيل): 23+هـ ـ 24هـ ـ 25،
35، 38 ـ 39، 74.
سي عزيز: 53 ـ 54 ـ 55.
العقبي (الطيب): 386، 392 ـ 393،
399، 409.
علي باشا ـ الأمير: 172هـ ، 194، 224 ـ
225، 228 ـ 229، 244 ـ 246.
علي ـ الأمير: 126هـ .
الحاج عمار: 183هـ .
عمر ـ الأمير: 127، 194، 211، 225 ـ
226.
العمودي (الأمين): 392.

ـ غ ـ

غافاريل (بول): 71.
الغبريني: 136.
غوتي (أ. ف.): 27، 59، 78.
غوتي (ر.): 256، 277، 297.
دي غول (شارل): 74.
دي غيدون (ادميرال): 26.

ـ ف ـ

فادالا (ر.): 124، 126.
الفاسي: 353.
فاطمة نسومر: 51، 52هـ .
فافرو (هـ.): 22هـ .
دي فاكتو: 83.
فالري: 60.
فاللي: 44.
فتاح: 140.
فخار: 66هـ .
فخار (العربي): 134.
فرانس (أناتول): 22هـ .
فلاندان: 104، 263، 264.
فوارول (م.): 89.
دي فوكو: 220.
فولتير: 152.
فونتانة (بيير): 135.
فيتال: 38 ـ 39،71+هـ، 74.
فيثاغورس: 41.
فيري (أ.): 91.
فيري (جول): 27، 77، 98، 174 ـ
175، 185، 190، 259، 261،
411.
فيصل ـ ملك العراق: 316.
فيليب (لويس): 31، 32، 46 ـ 47.
فيوليت: 299+هـ، 301 ـ 303 ، 312 ـ
313، 318هـ ، 335 ، 339، 347،
353، 355هـ ، 359 ـ 360.

ـ ق ـ

قارة (علي): 183هـ .
قاسمي: 138 .
قاضي ـ كولونيل: 256.

قائد (محمود): 355هـ .
قداش (محفوظ): 5 .
قطرانجي (عبد الرحمن): 353هـ.
قلاتي (حسن): 313 .
قندوز: 140 .

- ك -

كاترو: 73 .
كاروبير: 51 .
كاشان: 325 .
دي كاشي (ليتر): 88 .
كامبون (جول): 77 .
كامفماير (جـ .): 241 ـ 243 .
كحول (محمود): 139، 144 .
كريميو: 26 .
الكزبري (أحمد): 244 .
كلوزيل: 21هـ ، 42 .
كليمـــانصـو (جـ .): 182 ـ 185، 190، 258، 261، 263 ـ 270، 320، 347، 364 ، 411 .
كمال (مصطفى ـ باشا): 321 .
كوتوريي (فاليان): 332 .
كورتيي (فاليان): 302هـ.
كورنر: 67+هـ .
كوزون (ر.): 370 .
كونستانت (بنجامين): 75هـ .
كوهن (هانز): 68 .
دي كي (ر.): 103 .

- ل -

لارشي: 98 .
لاكوست: 12 .
لامورسيير: 46، 67، 306 .
لندنديري ـ اللورد: 47 ـ 48 .
لوبي (م.): 89 ـ 90، 103 .
لوبيك: 318 .
لـوتـو: 200 ـ 201، 216، 240 ـ 241، 248 ـ 251، 255، 268 .
لوريان (بوسيان): 339 .
لويس الرابع عشر: 153 .
ليغ: 91، 259، 263 ـ 270 .
د. ليكليرك: 18هـ .
لينين: 318 ـ 320، 322، 326، 330 .
ليوتي: 230 .

- م -

مارتينيير: 292، 298، 330 . 331 .
مارسال (ف.): 342 .
مارسي (ج.): 59، 159 .
مارسي (و.): 122 .
مارشاند (هـ .): 98 .
مازيني: 69 .
ماكماهون: 22، 24، 219هـ.
مانويلسكي: 324 ـ 326، 333 .
المجاوي (عبد القادر): 135، 140، 144، 147 ـ 148، 188، 294، 386 .
محساس (أحمد): 5 .
محمـــد النبـي ـ ﷺ: 109، 152، 249 ـ 250 370 ، 397 .
محمد باشا: 137 .
محمد علي: 40، 49، 75، 111، 235 .
محمد الفاتح: 125 .
محمود الثاني: 75هـ .
محيي الدين ـ والد الأمير عبد القادر: 40 .
محيي الدين ـ ابن الأمير عبد القادر: 52 .
محيي الدين (زروق): 355هـ.
المختار (عمر): 315 .
المدني (أحمد توفيق): 5، 313 .

مصالي الحاج (أحمد): 5، 315، 327، 373 - 374، 376، 378، 407 .
مصباح (محمد شفيق): 6 .
معاشو: 138 .
المغربي (علي): 391 .
المقراني (بومزراق): 253هـ .
المقراني الحاج (محمد): 5، 53 - 55، 407 .
مكحول: 322 .
المهدي - السوداني: 112 .
موتي: 259، 270 .
موريل: 264 .
مورينو: 332، 341 .
موسوليني: 315 .
الحاج موسى: 182هـ - 183هـ، 290 .
مونيس: 263 .
مونتانياك: 46 .
ميرسي: 197 - 198 .
ميسمي: 91، 104 .
ميشلان: 27 .
ميفيل (اندرى): 104، 113 .
ميكيوفيتش (آدم): 69 .
ميلكا (روبيرل.): 13 .
ميلي (فيليب): 91+هـ - 92 - 93، 98، 149، 259 .
الميلي (مبارك): 392، 399، 401- 402 .
ميليا (جان): 251، 339 .
ميليران (الاسكندر): 299 - 300، 322 - 323، 328، 347، 363، 364 .
مينيي (جبلير): 108هـ .

- ن -

نابليون الثالث: 22 - 25+هـ، 30، 38، 46 - 48، 60، 67هـ، 89، 99، 103، 173، 239 .
ناصر (محمد): 6 .
نوري بك التركي: 316 .
نوشي (أ .): 12، 77، 176، 276، 382 .

- هـ -

هاردي (ج .): 160هـ .
هارولد (س. دويتش): 13 .
هاريس: 226، 229 - 230 .
هالي (الحفناوي): 13 .
هانوتو: 25 .
هني (صالح محمد): 355 .
دوهوتبول: 60 .
هوغو (فيكتور): 152 .
الهيبة: 227 .
هيرتز (ف .): 68 .
هيريو: 334هـ، 347، 365، 366.
الورتلاني (الحسين): 136 .
الوزاني (محمد الحسن): 5 .
ولد عيسى (مصطفى): 140 .
الونيسي (حمدان): 118، 147، 294، 390 - 391 .
وورثام: 99 - 100، 102، 105، 290 - 291 - 292، 304، 331 .
ويلسون: 208، 210، 233، 285، 345، 347 .
ويليامز (و .): 283 .
ويليام الثاني - قيصر: 208، 239، 248 .
وينبرينر: 55 .

فهرس الأماكن والبلدان

- أ -

آسيـا: 90، 266، 319، 322، 369، 378 .

آسيا الصغرى: 244 .

الأخضر - جامع: 391 .

اذربيجان: 319 .

أرمينيا: 320 .

أزمير: 413 .

الأزهر - جامع: 116، 391 .

اسبـانيـا: 38، 67، 227، 230 - 231، 245، 312، 313، 334 - 335 .

اسطنبول: 30، 33، 39، 49، 100+هـ، 113، 124 - 125، 149، 169، 196، 202، 205، 211 - 212 - 228، 246، 248 .

الأسكندرية: 46، 137، 367 .

افريقيا: 90، 100، 212، 302هـ، 319، 322، 325 - 369، 378.

افريقيا الشمـالية: 18، 56هـ، 59هـ 80، 94، 100، 105، 109، 115، 118، 124 - 125، 193، 196 - 197، 202، 204، 209 - 211، 224، 229 - 230، 233، 234، 235، 241 - 242، 245 - 247، 250 - 251، 255، 286، 289، 293، 295 - 296، 301، 307 - 311، 315، 317، 319 - 320، 325، 327، 328، 331 - 335 - 338، 339، 341 - 345، 354، 357، 359، 364، 368، 369، 371، 372+هـ، 373، 377، 379، 380 - 384، 391، 394، 401، 404، 406، 408 - 411، 417.

افغانستان: 370 .

الألزاس: 21هـ، 27هـ، 303 .

ألصوم: 198 .

ألمارن: 198 .

ألمانيا: 105، 188، 190، 194 - 196، 202 - 203، 205، 208 - 210، 212 - 214، 225 - 226، 228 - 230 - 239، 244، 247 - 253، 309 .

امبواز - قصر (سجن): 46 - 47 .

أمريكا: 11، 67، 326، 378، 401.

أمريكا الجنوبية: 365 .

أمريكا اللاتينية: 365 .

أناضوليا: 124 .

اندونيسيا: 378 .

أنقرة: 288 .

انكلترا: 35، 43، 67، 397، 394 .
الأوراس: 50، 53، 216، 218 ـ 223، 233، 252، 256، 269، 305، 354 .
أوروبـا: 17، 19، 22، 30 ـ 31، 34، 35، 39، 45، 52 ـ 53، 59، 68 ـ 69، 72، 76، 90، 94 ـ 96، 110 ـ 111، 128، 136، 199+هـ، 205، 211 ـ 212، 215، 220، 234، 240، 242، 252 ـ 253، 257، 266، 280، 285، 306، 309، 318 ـ 320، 328، 330، 352، 360 368، 375، 378، 383، 384، 404 .
أولاد براهم: 393 .
إيران: 124، 319 ـ 320، 394 .
إيرلندا: 259، 326 .
إيزلي ـ واد: 45 .
إيـطاليـا: 116 ـ 117، 188، 221+هـ، 297، 315، 368 .

ـ ب ـ

باتنة: 50، 179، 217 ـ 219 .
با دي كالي: 128 .
بـاريس: 19، 24، 26، 31، 33، 52، 86، 100، 127 ـ 129، 180هـ، 182، 194، 210، 219، 225، 258، 261هـ، 263، 265، 267 ـ 269، 275، 277، 287، 293، 302هـ، 313 ـ 314 ـ 315، 331، 333 ـ 334، 355 ـ 356، 358، 364، 369، 372، 379، 411.
باكو: 320، 331 .
باندونغ: 211هـ .
بايزيد ـ جامع: 126 .
بجاية: 117، 214 .
البحر الأبيض المتوسط: 85، 100، 109، 182، 200، 263 .
البرتغال: 38 .
برشلونة: 246 .
برلين: 113، 118، 202، 211 ـ 212، 228، 229، 239، 244 ـ 246، 248، 288، 309 .
بروكسل: 342، 376، 379.
بريطانيا: 17، 92هـ، 239، 316، 326 .
بريقو (المحمدية): 214 .
بريكة: 208، 216 .
بسكرة: 196، 221هـ، 392 ـ 393 .
بغداد: 40، 101، 310 .
بلجيكا: 35، 327 .
البلقان: 30 .
بللازمة: 216 .
البليدة: 180 .
بنها: 369 .
بنو شقران: 214 .
بوخورشفة: 44 .
بورسعيد: 368.
بوغار: 43 .
بولندا: 35، 210، 256 .

ـ ت ـ

تازة: 227 ـ 228 .
تاغدامت: 43
التافنة: 42+هـ، 44.
تامارين: 217 .

تامنراست: 220 .
تبسة: 214 .
تركستان: 319 .
تـركيا: 114، 126، 130، 161، 194، 208، 209 ـ 211، 213 ـ 214، 228 ـ 230، 239 ـ 240، 242، 247، 248، 250، 259، 319، 320 ـ 322، 368.
تشيكوسلوفاكيا: 210، 256 .
تطوان: 230 .
تلمسان: 59، 122 ـ 123، 159، 178، 376، 394 .
تنس: 215 ـ 216 .
توات: 221هـ .
تور: 331 .
تورين: 123 .
تـونس: 38، 39، 53، 60، 76، 90، 100، 112، 116، 124، 129، 157، 171، 188، 194، 203، 208 ـ 209، 213، 243، 246، 296، 299، 311، 313+هـ، 316 ـ 317، 321 ـ 322، 328، 330، 334، 336، 344، 380 ـ 381، 385 ـ 386، 389 ـ 391، 395، 408 .
التيطري: 20هـ، 41 .

- ج -

جانت: 220 .
جدة: 255 .
الجزائر: (1 . . . . . . 416) .
الجـزائر ـ العـاصمـة: 27هـ، 64، 73هـ، 104، 107، 115، 128، 139، 142، 146، 196، 250، 290 ـ 291، 301، 306، 321هـ، 331، 333، 353 ـ 354، 356، 367، 369.
الجسيرة: 105، 188، 225 .
جنيف: 202، 206، 209، 212، 228 ـ 229، 233، 246، 270، 326 .
جورجيا: 319 .
جيجل: 353 .

- ح -

الحجاز: 40، 205، 211، 316، 389 ـ 393 .
الحضنة: 216 .

- د -

الدار البيضاء: 228 .
الدردنيل: 221 .
دمشق: 40، 47، 225، 368.
دوغمون ـ قصر: (378) .

- ر -

الرباط: 310 .
روفيقو: 177 .
الرمشي: 123 .
روسيا: 215، 249، 319، 321، 326، 330 .
رومة: 169 .
الريف: 227، 230 ـ 231، 286، 302 ـ 303، 310، 313 .

- ز -

الزعاطشة: 51 .
الزيبان: 50 .
الزيتونة ـ جامع: 116، 391 .

الساقية: 214 .
سبدو: 123 .
سطيف: 123، 179، 387، 393 .
سعيدة: 43 .
سكيكدة: 108، 213، 241.
السودان: 112، 326 .
سوريا: 46، 110 ـ 111، 123 ـ 125، 211، 225، 256، 308، 310 ـ 311، 316، 326، 369، 387، 394.
سوق أهراس: 214، 332 .
سيدي إبراهيم: 45 ـ 46 .
سيدي بلعباس: 323 ـ 324، 328، 333 .
سيدي عبد الله: 392 .
سيدي عقبة: 392 .
سيسيليا: 124 .
السين ـ محكمة: 382 ـ 383 .
سين ـ أي ـ واز: 102 .

ـ ش ـ

شارلروا: 198، 221 .
شارلي ـ قلعة: 220 .
الشام: 48، 393 .
شامبانيو: 198 .
شبه الجزيرة العربية: 124، 235 .
الشرق الأدنى: 30، 47، 69، 76، 90، 96، 106، 109 ـ 112، 114 ـ 116، 119، 121، 123 ـ 130، 137، 146 ـ 147، 149 ـ 150، 156، 187، 194، 200، 202، 205، 209 ـ 211، 213، 225، 228 ـ 229، 234، 239 ـ 240، 244 ـ 248، 256 ـ 258، 266، 280، 285 ـ 286، 299، 316 ـ 317، 330، 345، 347، 360، 369 ـ 370، 371، 383 ـ 384، 385 ـ 387، 391، 394، 400، 408 ـ 409.
الشرق الأوسط: 194 .
شمال افريقيا: 48، 271، 294، 314 ـ 315، 334، 414 .

ـ ص ، ط ، ظ ـ

صافوي. 20هـ .
صبرة. انظر: تورين .
الصحراء (جنوب الجزائر): 27، 36هـ، 45 ـ 46، 53 ـ 57، 219 ـ 220، 229هـ .
الصين: 319، 325 ـ 326 .
الطاهير: 353 .
طرابلس الغرب: 49هـ، 197، 246، 322 .
طنجة: 44، 194، 226، 228، 251 .
الظهرة: 46 .

ـ ع ، غ ـ

العراق: 316 .
عنابة: 117، 213 ـ 214، 241، 330 .
عين بسام: 104 ـ 105، 107 ـ 108، 111 .
عين التركي: 89، 100، 102 ـ 103، 108، 113، 239 .
عين التوتة: 216 ـ 217 .
عين مليلة: 219 .
غرداية: 220 .

- ف -

فاس: 227 ـ 228 .
فاشودا: 239 .
فرنسا: (5 . . . . . . 417) .
فغيغ: 56هـ .
فلاندر: 243 .
فلسطين: 124، 311 .
فوارول: 89 .
فيردان: 198 .

- ق -

القاهرة: 8، 113، 149، 249، 288 .
القبائل (منطقة): 23، 29، 45 ـ 46، 51، 53، 196، 212، 215 ـ 216 .
القرم: 39+هـ، 76 .
القسطنطينية: 113، 171 .
قسنطينة: 18هـ، 20هـ، 38، 42 ـ 43، 48 ـ 50، 60 ـ 61هـ، 99، 104، 107، 123، 136، 138، 145، 148، 150، 155، 169، 205، 215، 291، 304 ـ 306، 330، 332، 353 ـ 354، 387، 390، 391، 398 ـ 399 .
قموش ـ جامع: 391 .

- ك ، ل -

كاليدونيا الجديدة: 54هـ .
كورسيكا: 20هـ .
كوريا: 319
كولونيا: 326 .
لبنان: 5، 111، 124، 303هـ .
لندن: 239، 302هـ.
اللورين: 27هـ.
لوزان: 208 .
ليبيا: 116، 130، 188، 194، 219، 221هـ، 243، 245، 297، 310 ـ 311، 315 ـ 316، 322، 395 .
ليون: 324 .

- م -

مارغريت: 101هـ، 104هـ .
متيجة: 113 .
مجانة: 53 .
المحمدية: 214 .
مدغشقر: 98 .
المدينة المنورة: 40، 112، 209، 330، 392 .
مرسيليا: 43، 128، 330 .
مستغانم: 221هـ، 394 .
المشرق العربي. 10 .
مصر: 5، 40، 46، 75، 92هـ، 111، 115، 124، 161، 171، 211، 235، 242، 250، 256، 295، 297، 311، 315، 321 ـ 322، 325، 367 ـ 370، 394 .
المغرب الأقصى: 33، 44 ـ 46، 56، 90، 100 ـ 101، 105، 107، 113، 123 ـ 124، 130، 176، 178، 188، 194، 223، 226 ـ 228+هـ، 230، 234 ـ 235، 239، 243، 245، 246، 251، 259، 296، 302، 308، 310 ـ 313، 321 ـ 322، 326 ـ 327، 330، 331، 334 ـ 335، 360، 380 ـ 381، 385 ـ 386، 395، 408 .

المغـرب الـعــربي : 243 ـ 245، 251، 288، 309، 312 ـ 314، 317 ـ 318، 325، 328، 380، 402 .
المقطع ـ معركة : 42 .
مـكــة : 40، 106، 117، 126، 235 ـ 236، 248، 254 ـ 256، 392 .
مليانة : 44، 101، 123 .
مليلة : 123، 224 .
مــوســكــو : 287، 319 ـ 324، 326، 376 .
موغادور : 44 .
مونستاري : 165 .
ميزاب : 205، 220 .
مينيا بوليس : 14 .
مينيسوتا ـ جامعة : 13 ـ 14 .

ـ ن ـ

نارة ـ واحة : 51 .
ندرومة : 123، 179 .
نفطة : 52 .
نوجون ـ سير ـ مارن : 253 .

ـ هـ ـ

الهقـار : 55، 205، 216، 219 ـ 220، 223، 233، 256 .
الهند : 124، 249 ـ 250، 321، 325 ـ 326، 378، 394 .
الهند الصينية : 90، 112، 326، 365 .
هولندا : 67 .

ـ و ـ

وادي ايزلي : 44 .
ورقلة : 220 .
وهران : 18هـ، 40، 41 ـ 42، 45، 55، 107، 135، 196، 212، 214 ـ 215، 332 .
وونسدوين ـ زوسن : 244 .

ـ ي ـ

اليمن : 395 .
اليونان : 35، 153 .

***

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

المحتوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثالثة	5
مقدمة الطبعة الثانية	7
مقدمة الترجمة (للطبعة الأولى)	9
مقدمة الأصل الانكليزي	11
الفصل الأول: أصول الحركة الوطنية 1830 ـ 1900	15
1 ـ سياسة فرنسا في الجزائر	17
2 ـ رد الفعل السياسي والعاطفي	29
3 ـ مقاومة الأمير عبد القادر	40
4 ـ ثورات الفلاحين	50
5 ـ البيئة الثقافية	57
6 ـ مظاهر ومشاكل الحركة الوطنية	67
خلاصة	79
الفصل الثاني : الزخم الكبير 1900 ـ 1914	81
1 ـ وراء الستار الفرنسي	83
2 ـ ميلاد حركة « الجزائر الفتاة»	94
3 ـ الغليان الدائم	99
4 ـ الجامعة الاسلامية والحركة الوطنية الجزائرية	109
5 ـ الهجرة الجزائرية : أسبابها ودورها الوطني	119
خلاصة	130

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث: النهضة 1900 ـ 1914 ... 131

1 ـ اكتشاف الجزائر من جديد ... 133
2 ـ كتلة المحافظين ... 145
3 ـ جماعة النخبة ... 159
4 ـ المقاومة الجديدة: العرائض والوفود ... 173
خلاصة ... 187

الفصل الرابع : نهاية أسطورة 1914 ـ 1918 ... 191

1 ـ ولاء أو ارهاب ... 193
2 ـ سقوط الستار الفرنسي ... 203
3 ـ الجبهة الأخرى: ثورات واضطهادات ... 212
4 ـ قصة الأمير عبد المالك ... 224
خلاصة ... 231

الفصل الخامس : أعداء وأصدقاء 1914 ـ 1918 ... 237

1 ـ أيادي القيصر والسلطان ... 239
2 ـ فرنسا الاسلامية ... 248
3 ـ ذر الرماد في العيون ... 257
4 ـ الاصلاحات غير المرغوب فيها ... 272

الفصل السادس : آفاق غير محدودة 1919 ـ 1930 ... 281

1 ـ المستعمرة « الهادئة » ... 283
(أ) وقع الحرب ... 284
(ب) ظهور الأحزاب السياسية ... 288
(حـ) قضايا وأفكار جديدة ... 295
2 ـ فرنسا المعاندة ... 299

الموضوع	الصفحة
3 ـ من الرباط الى بغداد	310
4 ـ ظل الكومنتيرن : الوطنية الجزائرية والحركة الشيوعية العالمية	318
5 ـ الحركة الوطنية الجزائرية والحزب الشيوعي الفرنسي	329
6 ـ رد فعل الكولون	340
خلاصة	345
الفصل السابع : من المساواة الى الانفصال 1919 ـ 1930	349
1 ـ الحزب الليبرالي	351
2 ـ الحزب الاصلاحي	360
3 ـ نجم أفريقيا الشمالية	372
4 ـ ظهور العلماء	384
خلاصة	407
الخاتمة	413
الملاحق	419
1 ـ بيان فرنسا الى الجزائريين عشية الاحتلال سنة 1380	421
2 ـ الاتفاق الجزائري الفرنسي 5 جويليه 1830	423
3 ـ رسالة حمدان خوجة الى «اللجنة الافريقية» سنة 1833	424
4 ـ مطالب الجزائريين من فرنسا سنة1912	426
5 ـ رسالة الأمير خالد الى م. هيريو 1924	431
6 ـ القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومبادئها الاصلاحية	433
7 ـ برنامج نجم أفريقيا الشمالية 1933	437
المصادر	441
ملاحظة عن المصادر	443

الموضوع	الصفحة
المصادر العربية	445
(أ) الأطروحات، الوثائق، الكتب	445
(ب) المقالات	451
المصادر الأجنبية	456
1 ـ دراسات خاصة	456
(أ) كتب ووثائق ونشرات	456
(ب) مقالات عن دراسات خاصة	458
2 ـ دراسات عامة	463
(أ) كتب ووثائق ونشرات	463
(ب) مقالات عن دراسات عامة	466
مختصر عناوين المجلات والجرائد غير الانجليزية	473
قائمة احصاءات	474
فهرس الجرائد	475
فهرس الأعلام	477
فهرس الأماكن والبلدان	485
المحتـــوى	491

General Org ...

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الحركة الوطنية الجزائرية

تأليف
أبو القاسم سعد الله

الجزء الثالث

دار الغرب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة (منقحة)

1992

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

تختلف هذه الطبعة عن سابقتها في العديد من التنقيحات والإضافات كما جاءت خالية او تكاد من الأخطاء الشنيعة التي احتوتها الطبعة الثانية . ونود ان نؤكد على ان الكثير من المراجع التي نقحنا واضفنا على ضوئها ذكرناها في التعاليق ولم نذكرها في قائمة المصادر . كما احتوت هذه الطبعة على ثبت بالأعلام والأماكن ونحوها وهو ما افتقدته الطبعة الثانية.

كان المخطط لهذه الطبعة ان تصدر سنة 1982 مع الجزء الثاني من الحركة الوطنية ، ولكني اخرت تقديم هذا الجزء (الثالث) إلى الآن طمعاً في اضافة فصول جديدة كنا وعدنا بها في الطبعة الأولى ، وتغطية الفترة التي تمتد من 1945 إلى 1954 . ولكن السنوات قد مرت ولم استطع ان احقق ما كنت اصبو إليه من اكمال هذا الجزء رغم شدة الحاجة إلى ذلك.

ان أجهزة بلادنا رغم ما عندها من امكانيات وطموح ووعود ، لا تقدم إلا القليل من اجل البحث . وكم تمنيت اكمال هذا الجزء في طبعته الثالثة حتى أصل إلى بداية الثورة التحريرية ، ولكني عجزت هذه المرة أيضاً كما عجزت في الثانية ، واكتفيت ، كما قلت ، بالتنقيح والتصحيح والإضافة ، وعسى أن يكون في هذه فائدة كبيرة لمن يريد مواصلة البحث ، متمنياً ان احقق ما كنت أصبو إليه في الطبعة الرابعة أن شاء الله.

أبو القاسم سعد الله

مدينة الجزائر في 4 يناير 1986

* * *

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

مقدمة الطبعة الثانية

نفدت الطبعة الأولى من هذا الجزء في أقل من عام ولذلك لم نستطع أن نفي بما نبهنا عليه في مقدمة الطبعة الأولى من مشاريع ، فما تزال النقط المشار إليها هناك غير مستكملة ، كما أن الفترة من 1945 إلى 1954 ما تزال غير مدروسة ، وبالإضافة إلى قصر المدة بين الطبعتين فإن عملي المستمر لإنجاز كتابي « تاريخ الجزائر الثقافي » والأبحاث الصغيرة المتخصصة جعل إكمال هذا الجزء من الحركة الوطنية مستحيلاً في الوقت الراهن.

ورغم ذلك فقد تمكنت من تنقيحه وأبديت فيه وأعدت ، مستفيداً من قراءاتي المستمرة حول الموضوع ومن نقد واقتراحات الأصدقاء ، وهكذا أضفت فقرة إلى الفصل الرابع وصححت بعض الأخطاء في الفصل الخامس أرشدني إليها السيد محمد قنانش مشكوراً ، كما نبهت في الهامش على مصادر جديدة ، استفدت منها في التنقيح ، مثل دراسة السيدة جانيت زاقورا (بالانكليزية) عن حزب الشعب وزعمائه ، ودراسة السيد صالح مثلوثي (بالفرنسية) عن الحركة المصالية ، وكتاب السيد محمد حربي (بالفرنسية) عن أصول جبهة التحرير الوطني الجزائري ، وكتاب السيد جاك جيركي (بالفرنسية) عن الحزب الشيوعي والثورة الجزائرية ، وبحث السيد شارل روبير أجرون (بالفرنسية) عن فرحات عباس والتطور السياسي للجزائر خلال الحرب العالمية الثانية . وغير ذلك من الأبحاث والدراسات والآراء التي استفدت منها منذ ظهور الطبعة وجميعها تدل على أن البحث العلمي في تقدم مستمر وأن جهد الإنسان مهما كان قوياً ومعززاً بالوسائل لا يمكنه الإحاطة بكل شيء وملاحقة التطورات بدون عثرات ، ولاسيما إذا كان الموضوع حديثاً بل معاصراً كالموضوع الذي يعالجه هذا الجزء.

وفي الأخير أود أن أشكر جميع الذين استقبلوا هذا الكتاب عند ظهوره بالتعريف والتنويه ، أو النقد والتوجيه ، وعساني أن أكون بإعادة طبعه قد عممت فائدته وبتنقيحه قد استفدت من اقتراحاتهم وخدمت الحقيقة التي هي ضالتنا جميعاً.

أبو القاسم سعد الله
معهد العلوم الاجتماعية ـ جامعة الجزائر
القاهرة 3 أبريل 1976 م .

* * *

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

مقدمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب هو مشروع الجزء الثالث من سلسلة الحركة الوطنية الجزائرية . وهو يغطي الفترة الواقعة بين سنوات 1930 و1945 ، والواقع أن التصميم الأول الذي كنت قد وضعته لهذه الحركة منذ بداية الستينات يتوزع كما يلي :

الجزء الأول من سنة 1830 إلى سنة 1900 .

الجزء الثاني من سنة 1900 إلى سنة 1930 .

الجزء الثالث من سنة 1930 إلى سنة 1945 .

الجزء الرابع من سنة 1945 إلى سنة 1962 .

وكنت عندئذ قد جمعت مادة هامة للفترات الأربع ، ولكن التزامي باعداد الدكتوراه جعلني أركز على الفترة الثانية للأسباب التي ذكرتها في مقدمة الجزء المطبوع[1] . وبذلك ظلت المادة التي تغطي السنوات الواقعة بين 1930 و1945 مجمدة ، وقد انشغلت بعد ذلك بأعمال أخرى في تاريخ الجزائر الثقافي والدراسات الجزئية ، منتظراً الفرصة أن تحين لكي أستأنف العمل في بقية أجزاء الموضوع .

وعندما وصلتني دعوة معهد البحوث والدراسات العربية لإلقاء محاضرات على طلاب قسم البحوث والدراسات التاريخية عن الحركة الوطنية الجزائرية ، خطر لي أول مرة أن أحاضر في موضوع الجزء المطبوع (أي الثاني) ، ولكني ترددت كثيراً في ذلك لأني لا أميل إلى التدريس أو الكتابة في موضوع سبق لي نشره . وبعد تفكير ونظر في أوراقي ومشاريعي العلمية عزمت على كتابة محاضراتي في الفترة الواقعة بين

---

(1) أنظر كتابي الحركة الوطنية الجزائرية ، دار الآداب ، بيروت 1969 ، 519 صفحة ، وهو ترجمة عن الإنكليزية للأطروحة التي تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه . في التاريخ من جامعة مينيسوتا ، بالولايات المتحدة ، سنة 1965 وقد طبع الكتاب بعد ذلك عدة طبعات .

1930 و 1945 في شكل مشروع الجزء الثالث . ولم أستطع أن انتهي بالكتاب إلى سنة 1954 التي تمثل نهاية هذا الجزء لأن ما لدي من مراجع وبطاقات لا يكفي في الوقت الراهن للكتابة عن الفترة المذكورة . وأتمنى أن تتاح لي الفرصة قريباً لإكمال موضوع هذا الجزء على النحو الذي يقتضيه البحث ويجعله قريباً في منحاه من الجزء المطبوع(2) . كما أتمنى أن يسعدني الحظ بالقدرة على إكمال الجزء الأول الذي جمعت أيضاً كثيراً من مادته . أما الجزء الرابع أو مرحلة الثورة فأعتقد أن الوقت مازال لم يحن بعد لكتابته كتابة علمية بعيدة عن المزالق ، ومع ذلك فإني لا أتردد في جمع وثائقه ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

والواقع أن الكتابة التاريخية لا تخلو من المزالق حتى عند تناول الفترة السابقة للثورة . وأن بلداً كالجزائر تعرضت إلى امتحانات ، وشخصياته إلى هزات ، ومفاهيمه إلى تعديلات جذرية لا يمكن كتابة تاريخه المعاصر بدون خطأ أو تخطئة . وكنت وما أزال أعتقد أن المؤرخ الحق يجب أن يترك للزمن يعمل عمله في الأحداث التاريخية قبل تناولها بالدرس والتحليل ، فالبعد الزمني عنصر أساسي للوصول إلى الموضوعية المنشودة ، والنظرة الزمنية القصيرة للمؤرخ ، ولا سيما إذا كانت من مواطن عاش الأحداث وشارك فيها ، ستزج به في متاهة التفسير الشخصي ، والحكم الذاتي .

غير أن هناك عوامل شجعتني على الكتابة في هذه الفترة رغم قربها منا ومن ذلك :

1 ـ أن الثورة الجزائرية قد وضعت حداً فاصلاً بين عهدين من المفاهيم والرجال والأحزاب ، خلافاً للنظم السياسية الأخرى في بعض البلاد العربية التي تواصلت فيها تقريباً نفس المفاهيم والرجال والأحزاب التي كانت سائدة فيها قبل حركة الثورة أو الاستقلال : فقد برهنت الثورة الجزائرية سنة 1954 م على عدم صلاحية الأرضية التي قامت عليها مثلاً حركة المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936 ، والبيان الجزائري سنة 1943 ، والدستور الجزائري سنة 1947 .

---

(2) وردت على المؤلف دعوة من المعهد لإلقاء محاضرات فيه خلال سنة 1975 ، في موضوع الحركة الوطنية الجزائرية ، فترة 1945 ـ 1954 .

2 ـ أن الرجال الذين ساهموا في صياغة تلك المفاهيم قد انسحبوا اليوم من المسرح السياسي إما بالموت مثل ابن باديس ومصالي والعقبي والإبراهيمي وسعدان والعمودي ، وإما بالسن مثل عباس وابن جلول وأوزقان[3] . ولو ظل هؤلاء وأمثالهم في الحكم أو في أماكن النفوذ والتأثير لصعب على المؤرخ النفاذ إلى بعض الحقائق ولواجه صعوبة حتى في إصدار أحكامه.

3 ـ أن الأحزاب المذكورة في الكتاب قد أنتهت بتشكيلاتها القديمة منذ الثورة أيضاً . فمثلاً كان وجود جبهة التحرير التي احتكرت النضال المسلح ضد الإستعمار الفرنسي قد جعل وجود الأحزاب السياسية القديمة لا معنى له ، بل اعتبر استمرارها خيانة للثورة . وكون الأحزاب القديمة لم تلد بعد الاستقلال هو أمر يساعد المؤرخ على البحث في موضوعه بدون ضغط حزبي ، بالرغم من استمرار بعض الرواسب الحزبية لدى الأفراد المعاصرين أيضاً.

4 ـ أن الجزائريين قد تركوا للأجانب ، ولاسيما الفرنسيون ، يكتبون تاريخهم . ومن الغرابة والعجب أن ينجح الجزائريون في تصفية الاستعمار وآثاره من بلادهم ، بينما يعجزون حتى الآن عن وضع تاريخ شامل لها ، ولست أدري لماذا تصبح الأعمال الموجهة التي كتبها « مؤرخون » فرنسيون عن الجزائر مراجع تتسم بالموضوعية بينما توصف المحاولات التي يقوم بها أحياناً بعض الجزائريين باللاعلمية والتعصب الوطني والديني . فالجزائريون اليوم يعودون لمعرفة تاريخهم إلى كتابات الفرنسيين ، رغم اعترافهم في قرارة أنفسهم بأنها كتابات متحيزة وموجهة كما ذكرنا . ولا غرابة بعد ذلك أيضاً أن يعود العرب إلى هذه الكتابات عن الجزائر ويعتبروها مصادر أساسية عن هذا البلد .

5 ـ أن هناك اتجاهاً جديداً في العالم يأخذ بكتابة التاريخ المعاصر القريب من المؤلف اذا توفرت وثائقه ، على أساس أن التاريخ لا يمكن أن يكتب دفعة واحدة أو يكتبه مؤرخ واحد ، وإنما هو عملية مستمرة يتناولها المؤرخون كل حسب رؤيته

---

(3) منذ كتابة هذه المقدمة توفى أيضاً ابن جلول واوزقان . وقد إلتحق بهم فرحات عباس أيضاً يوم 24 ديسمبر 1985 .

ووسائله ووثائقه وزمنه . وعلى هذا الأساس قام مؤرخون فرنسيون بكتابة تاريخ المقاومة الفرنسية ضد الألمان ودرسوا شخصياتها . وكتب مؤرخون سوفيات عهد ستالين ، وأرخ الأمريكان عهد روزفلت وترومان . ووصل المؤرخون الإنكليز بتاريخهم إلى مشارف الستينات. فلماذا لا يؤرخ الجزائريون لفترة الأربعينات وبداية الخمسينات ؟ حقاً إن المؤرخين الأوروبيين والأمريكان تحميهم قوانين ، وتشدهم تقاليد ، ويعززهم استقرار سياسي ، وهي جميعاً خصائص قلما تتوفر لمؤرخي بلدان العالم الثالث التي تمتاز بالتقلب السياسي والتعرض للضغط والتوجيه وتفتقر الى التقاليد العلمية والمنهجية. إن المؤرخ الأوروبي والأمريكي هو سيد نفسه وضميره وأدواته، أما مؤرخ العالم الثالث فهو غالباً ما يكون عبد السلطة التي لا تكاد تثبت على حال.

غير أني أود أن أشير هنا إلى بعض الأمور التي لابد من الإشارة إليها وهي :

1 ـ أن معظم مادة هذا الكتاب قد جمعت وسجلت على بطاقات اثناء وجودي بالولايات المتحدة الأمريكية .

2 ـ أن هناك جوانب كان المخطط يشملها ولكن الوقت لم يكف لكتابتها وهي فصول عن موقف الأحزاب الفرنسية المختلفة من القضية الجزائرية خلال الفترة المدروسة ، وموقف الجزائريين من قضايا الوطن العربي خاصة والقضايا الدولية عامة ، والنشاط الثقافي وتصويره لخصائص الحركة الوطنية . كما أنني لم أتمكن من كتابة فصل عن الحزب الشيوعي الجزائري لعدم توفر المادة له في الوقت الراهن .

3 ـ أن بناء الكتاب على الشكل الذي هو عليه الآن يعتبر مؤقتاً وقابلاً للتغيير متى اكتملت خطته ومواده المختلفة . ومع ذلك فقد أقمت هذا البناء على فصول رغم ما قد يبدو بينها من عدم الترابط أحياناً .

4 ـ أن بعض الفصول قد كتبت في الجزائر وبعضها كتبت في القاهرة أثناء إقامة قصيرة كنت خلالها أعمل ليل نهار في الفندق الذي نزلت به من أجل إنجازها في الوقت المحدد . ولعل ذلك قد أثر على روح بعض الفصول فجعل أسلوبها يميل إلى العرض أكثر من التحليل .

5 ـ لقد ألحقت بالكتاب بعض الملاحق التي رأيتها هامة لأنها من الوثائق

الأساسية في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية وهي غير معروفة في اللغة العربية حسب علمي ، وقد قمت بترجمتها بنفسي ، مع التنبيه على مصادرها . كما وضعت قائمة مبوبة بالمصادر ، وهي لا تضم كل ما ورد في التعاليق من كتب ونحوها . وعلى من يريد الاستزادة أن يعود إلى هذه التعاليق وإلى قائمة مصادر الجزء الثاني من الحركة الوطنية .

ولعله لولا دعوة المعهد لي بإلقاء المحاضرات لظلت بطاقاتي وأوراقي محجبة في الصناديق التي وضعتها فيها منذ 1967 م ، وهو تاريخ عودتي من الولايات المتحدة . فهذه الدعوة الكريمة هي التي بعثت الحياة في بطاقاتي وأوراقي كما بعثت فيّ الحماس بالعودة إلى مشروعي القديم الذي مضى عليه أكثر من عشر سنوات . لذلك فإنه لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر إلى السادة القائمين على المعهد على دعوتهم ، راجياً أن يكون في استطاعتي إكمال ما بدأت لكي يخرج هذا الجزء كما اتمنى وكما يقتضي البحث التاريخي ، ولكي يسد في المكتبة التاريخية العربية عن الجزائر ثغرة طالما شكا منها العرب والجزائريون على السواء[4] . ولا يفوتني أن اشكر أيضاً الأستاذ محمد قنانش الذي أمدني بوثائق هامة عن نجم أفريقية الشمالية وحزب الشعب الجزائري .

أبو القاسم سعد الله
ـ جامعة الجزائرـ

(4) كتبت هذه المقدمة في الجزائر بعد عودتي من مصر .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الأول

مشاريع فرنسا في الجزائر

لخص أحد الجزائريين مشاكل فرنسا خلال الثلاثينات هكذا : عدم الاستقرار الوزاري ، والأزمة المالية الخانقة وانهيار السوق المالية وانحفاض سعر الفرنك حتى اضطرت الحكومة إلى تخفيض قيمته ، وتصدع الجبهة الشعبية التي كانت تمثل الأغلبية في البرلمان ، أما مشاكل السياسة الخاصة فهي قضية ألمانيا ـ تشيكوسلوفاكيا ومشكل إيطاليا ، والحلف مع إنجلترا ، والحلف مع روسيا[1] ، وإذا كانت هذه هي مشاكل فرنسا الداخلية ، والخارجية ، فما تكون مشاكلها بالجزائر التي تعتبر بحكم التشريعات الإستعمارية جزءاً من فرنسا تابعة لوزارة الداخلية في باريس .

إن التركيب الإداري للجزائر ظل (كما تركناه في الجزء الثاني من الحركة الوطنية الجزائرية) يعتمد أساساً على السلطة المدنية التي سنتها الجمهورية الثالثة منذ 1871 . وتقتضي هذه السلطة أن يكون هناك حاكم عام مدني يمثل فرنسا ، تابعاً في تصرفاته واختصاصاته إلى وزارة الداخلية بدل وزارة الحربية كما كان الحال قبل 1871 عندما كان الحكم عسكرياً . والحاكم العام كان يساعده مجلس الحكومة ومجالس مالية . وكانت مهمة هذه المجالس استشارية لا تشريعة . وهي تناقش ميزانية- الجزائر التي أصبحت منذ 1900 تتمتع بالحكم الذاتي في الشؤون المالية فقط . ويمثل السلطة المدنية في الولايات الثلاث (العاصمة وقسنطينة ووهران) ولاة مدنيون معينون تعييناً ، وفي كل ولاية نوعان من البلديات : بلديات كاملة الصلاحيات حيث يكثر المستوطنون الأوروبيون ، وهذه تنتخب رئيس البلدية ومجلس البلدية بالطريقة التي كانت متبعة في فرنسا. أما الجزائريون فكانوا لا يشتركون في انتخاب رئيس البلدية (الذي كان دائماً فرنسياً) ، ولا مساعديه . وأما النوع الثاني

---

(1) الشهاب ، ماي 1938 .

فهـو البلديات غيـر كاملة الصـلاحيات أو المختلطة ، وهي تكـون حيث لا يوجـد المستوطنون من الأوروبيين إلا بنسبة ضئيلة . وهذه يديرها حاكم إداري يعين تعييناً .
وكانت نسبة سكان البلديات الكاملة والمختلطة كما يلي :

بلديات كاملة الصلاحيات 42٪ من السكان .

بلديات مختلطة (أو أهلية) 58٪ من السكان (منها مراكز بلديـة 4٪) من مجموع السكان الكامل[2] .

وتخضـع بقية البـلاد إلى النظام العسكـري ، وهي المناطق الصحـراويـة أو المجاورة لها من بلاد التل . ولم تكن تتمتع بأي ظل من الحياة الديموقـراطية ولا التقاليد المدنية ، بل كانت في شبه عزلة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً .

وقد اعتبر الفرنسيون سنة 1930 بداية عهد جديد من الانتصارات في الجزائر . ودخلوا القرن الثاني من احتلالها وهم في غمرة من النشوة والـزهو معتقـدين أنهم سيظلون فيها إلى الأبد . ورفع غلاتهم شعارات معادية للعرب والإسلام معلنين أنهم قد افتتحوا الجـزائر عنـوة ، وأنهم أفتكوهـا من الحضارة الإسـلامية وأعـادوها إلى الحضارة الرومانية التي ينتسبون إليها ، وكانوا في خلال ذلك يضربون بيد من حديد على محاولات التنظيم السياسي بين الجزائريين معتبرين كل محاولة من هذا النوع كفراناً بنعمة فرنسا على الجزائر ، واصفين من يقوم بها بالخيانة أو التبعية لدولة أجنبية أو بالاجرام ، وهكذا خنقوا حركة الأمير خالد في مهدها ، وحلوا منظمة نجم شمال أفريقيا ، وأجبروا النواب المستقلين على طأطأة الرؤوس ، وخلقوا من حولهم صنائع اشتهرت في تاريخ الجزائر السياسي بجماعة بني وي ـ وي . ووسط هذا الفراغ من المعـارضة السيـاسية للـنظام الإستعماري ظـل المعمرون (الكـولون) هم السلطة الحقيقية في البلاد يؤثرون بعددهم ونفوذهم على الحاكم العـام والأجهزة الاداريـة والمالية في الجزائر ، ويؤثـرون بنوابهم ودعـايتهم واموالهـم في كـواليس البرلمـان الفرنسي وأجهزة الإعلام وحتى في مجلس الوزراء في فرنسا نفسها .

ولـم تكد تدخل سنة 1931 حتى بدأ ميزان القوى يتغير لصالح الحركة الوطنية رغم الضغوط العديدة ، فمن جهة واجهت فرنسا أزمة اقتصادية حادة (كبقية أوروبا

---

(2) الجزائر في نصف قرن ، أنظر المدخل، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر .

الغربية وأمريكا) كشفت كثيراً عن نواحي ضعفها في المستعمرات ودخلت في متاهات المشاكل الداخلية والخارجية التي أشرنا إليها في البداية . ومن جهة أخرى استمر نجم أفريقية الشمالية في نشاطه رغم حله ، وأخذ أسماء جديدة شرعية وغير شرعية حتى أصبح منذ 1937 يدعى حزب الشعب الجزائري ، وأصبح صوته قوياً في الجزائر وفي فرنسا ولا سيما منذ 1936 . كذلك ولدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 وقد أحدثت تحولات عميقة في الذهنية الوطنية وهزة كبيرة في المجتمع الجزائري . بالإضافة إلى أن جماعة النخبة من النواب ونحوهم أخذوا يستقلون تدريجياً بآرائهم ويلحون بشدة أحياناً في مطالبهم القائمة على المساواة في الحقوق والواجبات مع الفرنسيين ، وقد كونوا لهم أيضاً أحزاباً وجمعيات وصحافة ونوادي للضغط على السلطات الفرنسية . وهكذا تغير وجه الجزائر السياسي خلال الثلاثينات رغم أن النموذج الإستعماري القديم ظل في ظاهرة على ما كان عليه .

وخلال ذلك كانت فرنسا تستعمل تارة الإغراء وتارة الإرهاب . فمن جهة لوحت بعدة مشاريع إصلاحية كمشروع فيوليت ، ووعدت بشتى الوعود لا سيما على لسان الجبهة الشعبية ، ومن جهة أخرى أصدرت منشور ميشال وقرار رينيه ، ودبر ممثلوها اغتيال المفتي كحول وزجوا بزعماء الحركة الوطنية في غياهب السجون .

وسنحاول فيما يلي تتبع مشاريع فرنسا وتدابيرها إزاء الحركة الوطنية. غير أن النتيجة كما سنرى ستكون سلبية ، ومن الممكن القول بأن سياسية فرنسا الجزائرية سنة 1939 كانت هي نفسها سنة 1930 . وهذا لا يعني بالطبع أن الحركة الوطنية ظلت أيضاً على نفس الخط . فهناك دلائل كثيرة تشير إلى تصاعد هذه الحركة وفعاليتها ، ولكن النظرة الفرنسيين كانت قصيرة ، وقد برهنت التقارير والكتابات اللاحقة أن الفرنسيين كانوا يتحركون نصف قرن متأخرين .

كتب الشيخ الإبراهيمي سنة 1936 ما يلي عن فيوليت: لم يظفر سياسي بمثل ما ظفر به من حب الجزائريين وتقديرهم وامتلاك قلوبهم ، كل ذلك لكلمة خير قالها فيهم وسعي صالح سعاه في مصلحتهم ، على ما يتطرق ذلك السعي من شكوك واحتمالات ، وعلى أنه لم ينجز من سعيه قليل ولا كثير[3] . ورأى الإبراهيمي يمثل

---

(3) الإبراهيمي (الشهاب) جويلية (يوليو) 1936 ص 197 ـ 198 .

خلال الثلاثينات وجهة نظر عدد كبير من الجزائريين في هذا السياسي الفرنسي . كان موريس فيوليت حاكماً على الجزائر خلال العشرينات وهو ينتمي إلى الحزب الإشتراكي الفرنسي، وقد أصبح عضواً في مجلس الشيوخ وساهم في الحياة السياسية الفرنسية لا سيما فيما يتعلق بالمستعمرات ، وبالأخص الجزائر . وفيوليت هو الذي اضطهد الحركة الوطنية أثناء عهد إدارته في الجزائر وطارد ممثليها ، ولكن تجربته في الجزائر ومعاصرته لذكرى الإحتلال وحرصه على ألا تضيع الجزائر من يد فرنسا ، جعلت منه خبيراً في الشؤون الأهلية ، لذلك فإن الجبهة الشعبية في فرنسا عيّنته سنة 1936 عضواً في حكومتها مختصاً بالشؤون الجزائرية .

وكان مشروعه الذي سنتحدث عنه قد سيطر على الحياة السياسية الجزائرية خلال الثلاثينات ، رغم فشله في النهاية كما أشار إلى ذلك الشيخ الإبراهيمي .

ففي سنة 1931 ، عقب الإحتفال بذكرى الإحتلال ، ترأس موريس فيوليت لجنة من مجلس الشيوخ الفرنسي عهد إليها بدارسة الأوضاع الجزائرية وتقديم توصيات عن الإصلاحات التي يجب ادخالها . وفعلاً قدمت اللجنة مشروع إصلاحات أصبح منذئذ يعرف « بمشروع فيوليت » . وتقوم حجة فيوليت في هذه الوثيقة على أن فرنسا سترتكب خطأ كبيراً إذا لم تتحرك لإجراء تغييرات في الوضع بالجزائر ، وقد انتقد السياسة الفرنسية في الجزائر واتهمها بالظلم، وقال بأنها إذا استمرت بدون تغيير فستشكل « خطراً قاضياً على مستقبل إمبراطوريتنا الافريقية »[4] .

وقد احتوى مشروع فيوليت على ثمانية فصول وخمسين مادة . وأهم ما اقترحته فيه هو إصلاح مستوى التعليم والقيام بإصلاح زراعي ، وتأمين نفس الحقوق والواجبات التي للفرنسيين لبعض الجزائريين ، وإلغاء المحاكم الخاصة بالجزائريين وزيادة حقوق الجزائريين لانتخاب ممثلين عنهم في مجلس الشيوخ ، وزيادة تمثيلهم في المجالس المحلية ، كما اقترح المشروع إنشاء مجلس استشاري في باريس يتكون من تسعة جزائريين (معدل ثلاثة على كل ولاية) وإنشاء وزارة لشؤون أفريقية يدخلها جزائريون . أما عن الجنوب الجزائري (المناطق العسكرية) فقد اقترح

---

(4) أنظر (افريقية الفرنسية ـ الملحق) ديسمبر 1931 ص 731 ـ 737 .

إعطاء بعض أجزائه الحالة المدنية في شكل بلديات مختلطة على غرار ما كان واقعاً في الشمال[5] .

نشرت وسائل الإعلام مشروع فيوليت على أسماع الجزائريين والفرنسيين على السواء ، وبدأت مناقشته في البرلمان الفرنسي وطالت إلى سنة 1935 حين رفض بعد التصويت . وسنعرف أن النخبة الجزائرية قد رحبت به أشد الترحيب ورأت فيه خلاصها وخلاص الجزائر من حالة الأهلية (الانـدجينا) ، ورفضه نجم أفريقية الشمالية لأنه يربط الجزائر بفرنسا إلى الأبد باسم الاندماج ، كما رفضه المعمرون الفرنسيون بالجزائر (الكولون) لأنه في نظرهم سيجعل من الجزائريين أغلبية في المجالس المحلية تفوقهم عدداً ونفوذاً . أما العلماء فقد وقفوا منه موقف المتحفظ . ولعل كلمات الإبراهيمي عنه تعبر أصدق تعبير على موقفهم منه . فقد قال ان فيوليت صاغ مشروعه ، على اعتبارات سياسية دقيقة ، ووضعه في ألفاظ استهوت خاصة الجزائريين (النخبة) وشبابهم . ولكنه انطوى على « معان غامضة . . ويحتمل وجوها كثيرة من الاحتمالات والتفسيرات ، ومنها ما يعد في الاعتبار النفسي الجزائري من الشعريات »[6] ورغم رفض المشروع في البرلمان فإن الجبهة الشعبية قد أحيته وأدخلت صاحبه ضمن اعضاء الحكومة . وقد ظل المشروع بين جزر ومد إلى سنة 1938 حين وضع السيد دلادييه رئيس الحكومة الجديدة ، حدا له تحت ضغط المعمرين بالجزائر .

ولكن قبل هزيمة المشروع سنة 1935 ألقى فيوليت خطبة في البرلمان الفرنسي (21 مارس) حذر فيها زملاءه من مغبة بقاء الحالة الراهنة في الجزائر . وقد وضع أمامهم اختيارين : الأول منح حق الانتخاب لكل الجزائريين مع بقائهم في هيئة انتخابية خاصة حتى لا يتنافسوا مع المعمرين الفرنسيين . الثاني منح حق الانتخاب لعدد قليل منهم ، وهم جماعة النخبة ، وجعلهم ضمن الهيئة الانتخابية الفرنسية كما لو كانوا متجنسين بالجنسية الفرنسية ، مع إبقائهم على أحوالهم الشخصية كمسلمين . وقد أوضح فيوليت لزملائه أنه يفضل الاختيار الثاني لسببين : إنه سيمنح

(5) (التايمز) أول أغسطس ، 1931 ، ص : 10 .
(6) الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 ص 205 .

حق الانتخاب لأشخاص جدد ضمن نظام موجود من قبل ، وإن خلق هيئة انتخابية واحدة سيساعد على تحقيق دمج الجزائريين في المجتمع الفرنسي وهو الأمر الذي تقوم عليه السياسة الفرنسية . أما خلق هيئتين انتخابيتين (كما يقترح الاختيار الأول) فهو يشجع الوطنية والإنفصال . وبناء على اختياره الثاني فإن الجزائريين سيزداد عددهم تدريجياً حسب المؤهلات التي يحملونها والتي فصلها المشروع[7] ، ورغم ما استعمله فيوليت من لهجة الإقناع وما كان لديه من تجارب حول الموضوع فإن البرلمان رفض مشروعه .

وبالإضافة إلى المشروع نشر فيوليت كتاباً بعنوان مثير هو « هل ستعيش الجزائر؟» وقد ضمنه أهم نقط المشروع، ولكنه فصل فيه ما أوجزه هناك. وتناول فيه موضوعات محببة إليه وإلى معاصريه كالإستعمار ، وحالة الجزائريين وإدارة الجزائر الفرنسية ، وعلاقة المعمرين الفرنسيين بالجزائريين . ودعا في الكتاب ، كما في المشروع ، إلى أن على فرنسا أن توسع الهيئة الإنتخابية وأن تمنح الحقوق السياسية إلى الجزائريين الذين هم على استعداد للاندماج في المجتمع الفرنسي . وقد أثار الكتاب أيضاً تعاليق ضافية ، وأصبح مصدر إلهام لعدد من النخبة الجزائرية . ولكنه هيج المعمرين ضد صاحبه حتى لقد وصفه أحدهم بأن عنوانه «مثير ومؤسف»[8] وسنعرف في فصل آخر ردود الفعل التي أثارها المشروع والكتاب .

غير أن مشروع فيوليت لم يكن المشروع الفرنسي الوحيد الذي طرح لحل مشاكل الجزائر خلال الثلاثينات . بل هناك على الأقل ثلاثة مشاريع أخرى ، منها مشروع فيرنوت الذي نوقش أيضاً في مجلس الشيوخ . ومع ذلك فإن مشروع فيوليت اكتسب شهرة أكثر من زميله . وهناك برنامج أو مشروع كوطولي نائب ولاية قسنطينة في برلمان فرنسا ، غير أنه « لم يلق في الأوساط الجزائرية أدنى اعتبار» ، بالإضافة إلى مشروع دوروكس نائب ولاية العاصمة (الجزائر) ، لكن « كان حظه قريباً من حظ صاحبه»[9] ولكن كل هذه المشاريع لم ينل أي منها شهرة ما قدمه موريس فيوليت،

---

(7) توينبي ، مدخل ، سنة 1937 ، ص 515 ـ 517 .

(8) (إفريقية الفرنسية) ديسمبر 1931 ص 731 ـ 737 .

(9) الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 ص 205 .

على الأقل بين الجزائريين ، لاقتراحه دمج النخبة الجزائرية في المجتمع الفرنسي مع بقاء أصحابها على الشريعة الإسلامية . ومن ناحية أخرى نلاحظ أن كل هذه المشاريع قد فشلت في النهاية لأنها لم تجد حكومة قوية تستطيع أن تفرض أحدها على المعمرين في الجزائر . ولعل معارضة التيارات الوطنية الأخرى ، كنجم شمال إفريقية وحزب الشعب الجزائري ، وتحفظات جمعية العلماء ، قد أدت إلى سحب كل المشاريع من الميدان عشية الحرب الثانية(10) .

وكما درس الفرنسيون مشاريع الإصلاح التي بقيت بدون تطبيق ، سنوا قوانين الإضطهاد التي دخلت فوراً حيز التنفيذ . فعلى اثر قيام العلماء بنشاطهم الديني والتعليمي انزعجت الإدارة الفرنسية لما يجده هذا النشاط من صدى بين الناس فعزمت على وقفه في الحين . وقد أوحت إلى الموالين لها من الجزائريين ، سواء كانوا من الطرقية أو من رجال المجالس المحلية ، بأن يطالبوا بوضع حد لنشاط العلماء ، وسنعرف في فصل آخر إن الإدارة حاولت الإستيلاء على جمعية العلماء ، بواسطة أتباعها من الجزائريين في الاجتماع الثاني للجمعية . وعندما فشلوا في ذلك أسسوا جمعية معارضة لها سموها (جمعية علماء السنة) سنة 1932 ، ولم تكد تدخل سنة 1933 حتى بادرت الإدارة الأهلية باصدار منشورين ضد نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ففي السادس عشر والثامن عشر من شهر فبراير من السنة المذكورة وقع السيد ميشال المنشورين المذكورين ، والسيد ميشال كان يشغل مهمة الشؤون الأهلية والكاتب العام لولاية الجزائر العامة ، والمنشوران عبارة عن تعليمات إدارية موجهة إلى رجال الأمن والإدارة الفرنسية في شتى النواحي بمراقبة العلماء والتضييق عليهم ومنعهم من أداء مهمتهم الدينية ومن تعليم اللغة العربية بدعوى أنهم يبثون المبادىء الوهابية والمذهب الشيوعي ، وأنهم يقومون بأعمال مضادّة للوجود الفرنسي في قفاز الدول الأجنبية(11) .

ونص المنشور على أن الإدارة الفرنسية قد علمت أن السكان الجزائريين قد

---

(10) لاحظ أن لجنة فرنسا الحرة قد حاولت تطبيق مشروع فيوليت سنة 1944 ، لكن دون ذكره بالإسم ، أنظر الملحق الخامس .

(11) النص الكامل للمنشور في « إفريقية الفرنسية » ، ابريل 1933 ص 239 ، 240 .

انزعجوا من الدعاية التي يقوم بها أنصار الحركة الوهابية ، ومن الحجاج الجزائريين الذين يبثون أفكار الجامعة الإسلامية ، ومن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين تربطهم علاقات مع حزب الدستور التونسي . ورغم أن الدعاية المذكورة تهدف في ظاهرها إلى نشر المبادىء الوهابية بين الجزائريين ضد استغلال الطرقية والمرابطين للأهالي ، فإنها في الواقع ترمي إلى هدف سياسي وهو الإضرار بالوجود الفرنسي . ولاحظ المنشور أن أغلب الطرق الأخوانية وعائلات المرابطين تؤيد بقاء فرنسا في الجزائر وأنهم جميعاً أصبحوا يشعرون بأنهم مهددون من جراء الإنضمام اليومي للشباب الجزائري المتخرج من المدارس القرآنية لهذه الحركة ، ووصل المنشور إلى المقصود بالذات فقال السيد ميشال ان هذا الوضع يقتضينا اليقظة التامة ، لأنه لا يمكن التسامح مع هذا النشاط المعادي الذي يحمل في ظاهره الطابع الثقافي بينما يخفي وجهه السياسي .

لذلك دعا كل من يعنيهم الأمر إلى ملازمة اليقظة والانتباه لمراقبة جميع الإجتماعات والمحاضرات التي تنظمها جمعية العلماء تحت زعامة ابن باديس والعقبي، والعمل على ابعاد المدارس القرآنية عن نشاط هذه الجمعية. إن هذه الجمعية تقوم في نظره، بدعاية شبيهة بدعاية الشيوعيين، وكلاهما يهدف الى التشكيك في الولاء لفرنسا ، وهذا يستلزم رقابة دائمة لنشاطهم ولا سيما في المدن الصغيرة والقرى والأسواق العامة . ويجب عدم التردد في كتابة محضر لكل اجتماع من هذا القبيل ولا سيما ذلك الذي يأخذ طابعاً تخريبياً مضاداً لفرنسا . وقد طلب ميشال من معاونيه أن يوافوه فوراً بكل التفاصيل عما يقومون به في هذا الصدد[12] وبالإضافة إلى ذلك طلب ميشال منهم منع العلماء من دروس الوعظ في المساجد « الرسمية » وهي التي تشرف عليها الإدارة مباشرة ، ومنعهم أيضاً من فتح المدارس الحرة ومن تعليم اللغة العربية ، ومصادرة الصحافة العربية التابعة للجمعية[13] .

وبناء على ذلك قامت السلطات المحلية الفرنسية بحملة دقيقة ضد العلماء

(12) نوشي ، ص 69 ـ 70 وفيه أيضاً النص الكامل للمنشور .

(13) نفس المصدر ، ص 73 ـ 74 وكذلك على مراد « الإصلاح الإسلامي في الجزائر » 1925 ـ 1940 ، موتون ، باريس ولاهاي 1967 ص 149 وما يليها .

فأوقفت صحفهم مثل (السنة) ، (الشريعة) ، و (الصراط) وأغلقت لهم مدارسهم في عدد من المدن ، وعرضت أساتذتهم للتغريم وحتى للسجن ، واعتبرت الصحافة العربية في الجزائر صحـافة أجنبية (أي لا تتمتع بقانون حرية الصحافة المعمول به في فرنسا) ومنعت زعماء الحركة من القيام بدروس الوعظ والإرشاد في المساجد وأصبحت اجتماعاتها مراقبة وأشخاصها عرضة للاضطهاد ، وسمعتها مجالاً للدعاية السيئة ، بالإضـافة إلى أن الإدارة قـد أطلقت على الجمعية ألسنـة أتبـاعهـا في المجالس المحلية ، والجمعيات الطرقية ، والصحافة المضادة لهم ، وحتى ألسنة خريجي المدارس الفرنسية ودعاة التجنس بالجنسية الفرنسية .

ولكن هذه الإجراءات لم تفت في عضد الجمعية، بل زادتها تصميماً. وكانت ردود الفعل الوطنية الشعبية قد شجعت الجمعية أيضاً على المضي في رسالتها . فقد تلت الإجراءات الفرنسية احتجاجات صارخة ، حسب تعبير أحد الكتاب[14] وجرت من أجل ذلك مظاهرات واجتماعات واضطرابات ، وذهب المتـظاهرون في مـدينة الجزائر إلى مقر الولاية وطالبوا بحرية الضمير والعقيدة والتعليم . وقد لاحظ أحـد الكتاب أن هذه هي أول مرة يستعمل فيها الجزائريون الديموقـراطية الأوروبيـة من أجل أهدافهم الثورية مثل القيام بالمظاهرات في الشوارع واللجوء إلى الاحتجاجات الشعبية . كما لاحظ أن هذه المظاهرات قد افتتحت عهد الاضطرابات وأظهرت كيف أن رجل الشارع بدأ يشارك في التعبير عن نفسه ، بالإضافة إلى أنها أعطت الفرصة لظهور عدد من القادة ليلعبوا دوراً جديداً يقتضيه الموقف . وقد تكررت الاحتجاجات الشعبية وراجت في المدينة والضواحي ولم تهدأ إلا عندمـا استعمل الـوالي قوات الشرطة ، وقوات الجيش ، وجنود الصبائحية (الفـرسان) ، والـرماة السنغـاليين ، وحتى الدبابات[15] ولم يقتصر احتجاج الأهالي على الإجراء الإداري في العاصمة وضواحيها « ففي قسنطينة انعقد اجتماع شعبي حضره ابن باديس والدكتور ابن جلول صدر عنه احتجاج على منشور ميشال . أما نجم شمال أفريقية فقد كان منحلاً من

(14) نوشي ، ص 73 ـ 74 أنظر أيضاً شارل أندري جوليان « افريقية الشمالية الزاحفة » باريس 1952 ، ص 116 .

(15) ديبارمي « المظاهرات » (افريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 538 ـ 539 .

السلطات الفرنسية منذ 1929 . ورغم أن جريدة (الأمة) لسان حال النجم كانت تصدر في باريس ، فإن السلطات هناك قد صادرتها[16].

ورغم الإضطهاد الذي سلطه منشور ميشال على العلماء وصحافتهم ومدارسهم وعلى الحرية الدينية والصحفية وتعليم العربية ، فإنه جاء بنتيجتين : الأولى يقظة العلماء إلى ما تبيته لهم الإدارة ، والثانية إنشاء لجنة مختلطة في باريس تضم أعضاء من مختلف الوزارات وتهتم بدراسة أحوال الجزائر والمستعمرات ، أما النتيجة الأولى فسندرسها عند حديثنا عن جمعية العلماء ، وأما النتيجة الثانية فهي موضوع هذا الفصل . فبعد أن استعملت فرنسا الجنود والدبابات لإرهاب الجزائريين وقمعهم أراد مسؤولوها أن يذروا الرماد في العيون بالحديث عن المشاريع الإصلاحية وإنشاء اللجان الدراسية وإرسال الشخصيات للتحقق من الأوضاع .

ففي حوالي نصف مارس 1934 أصدرت اللجنة المختلطة المذكورة بياناً من باريس أعلنت فيه أنها قد درست الوضع بالتفصيل في الجزائر وتأكد لديها وجود اضطرابات هزت بعض المدن الجزائرية ، لذلك قررت إرسال السيد ج . مونتبني إلى الجزائر للبحث في « أصول هذه الاضطرابات وعواقبها » كما قررت استدعاء الحاكم العام ، السيد كارد ، إلى باريس للمثول أمامها وتقديم تقرير لها عن الوضع . وحتى لا تعزل الجزائريين عن نشاطها قامت اللجنة ببعض التطمين لهم حين لمحت إلى أنها قد تستدعي وفداً عنهم إلى باريس إذا لم يؤد التحقيق إلى معلومات كافية « وكانت اللجنة تشير بذلك إلى مدى ما تركه رفض استقبال الوفد الجزائري من أثر في نفوس النواب بالذات . لذلك أكدت في بيانها على أنها قد تستدعي وفداً من المنتخبين الأهالي إذا كان ذلك « ضرورياً » لكي يقدم للجنة تقريراً عن الأحداث « السياسية » التي سادت الجزائر منذ 1933 »[17] .

وبدل أن تتخذ اللجنة المذكورة إجراءات موضوعية لتهدئة النفوس وتجاوز الأحداث قررت « قمع الدعاية المضادة التي تضر بسمعة فرنسا في الجزائر وتحاول فصل الأهالي عنها »[18] . وبالإضافة إلى ذلك وافقت اللجنة على إجراءات استثنائية

---

(16) نوشي ، ص 73 ـ 74 .

(17) س . هيروتي « حوادث 12 فبراير وعواقبها » (أفريقية الفرنسية » أبريل 1934 ، ص 212 ـ 213 .

(18) ديبارمي « المظاهرات » (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 546 .

ضد حرية الجزائريين بالذات ، وكأنها بذلك قد باركت منشور ميشال وتعسف والي الجزائر . ولكن موقف اللجنة كان غير حكيم ، لأنه ما كاد يعلن في الناس حتى قاومه الجزائريون بكل الوسائل الممكنة لديهم . وأهم أثر لهذا الموقف هو تقارب العلماء والمنتخبين الجزائريين (النواب) من جهة ، والعلماء والشيوعيين من جهة أخرى . فقد انعقد اجتماع في قسنطينة حضره ابن جلول وابن باديس للاحتجاج على قرار اللجنة . كما أعلن الشيوعيون استنكارهم له في اجتماع عام بعد اتصال بينهم وبين العلماء[19] ومن جهة أخرى تكونت في نادي الترقي بالعاصمة « لجنة الدفاع عن حرية المسلمين » مهمتها مقاومة اثر قرار اللجنة المذكورة .

وبعد زيارة وزير الداخلية ، السيد رينيه ، التي سنتعرض لها بعد قليل واثر الإضطرابات التي شهدتها الجزائر خلال 1934 و1935 ، قرر الفرنسيون توسيع اللجنة المختلطة بإضافة عدد من الجزائريين إليها ، منهم بعض النواب كالدكتور ابن جلول[20] . غير أن حياة هذه اللجنة كانت قصيرة . وقد وجدت أن الأحداث قد تجاوزتها بعد مجيء الجبهة الشعبية وانعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936 ، وعودة الروح إلى مشروع فيوليت ، الذي أخذ أسماً جديداً وهو « بلوم - فيوليت» ، ولكن سنة 1935 ما زالت تخبىء للجزائريين بعض المفاجات من الفرنسيين .

ففي الثالث من شهر مارس 1935 توجه السيد رينيه وزير الداخلية الفرنسي إلى الجزائر لقضاء أسبوعين فيها يدرس خلالها « حالة الإضطراب » التي تسودها . وقد رافقه في هذه الزيارة الدراسية مساعداه : صاباتي وجوفر ، بالإضافة إلى السيد أوغسطين برنار أستاذ اللغة العربية بالسوربون ونصير الإستعمار ، وقد سبقت هذه الزيارة استعدادات جرت على قدم وساق ، منها استقبال الوفود وعقد الاجتماعات مع مختلف المسؤولين . ويبدو أن السيد رينيه كان مقتنعاً بشيئين تعاني منهما الجزائر عندئذ هما الأزمة الاقتصادية والأزمة السياسية . لكن الشجاعة التي لم تعوزه في الاعتراف بالأولى قد خانته في الثانية . فعند مغادرته مرسيليا أذاع بياناً أعلن فيه أن

---

(19) نفس المصدر ، ص 545 .

(20) (أفريقية الفرنسية) ، أكتوبر 1935 ، ص 597 .

الجزائر تعاني من الأزمة الاقتصادية التي كان يعاني منها العالم كله ، ووعد من أجل ذلك بإيجاد حلول ملائمة بإسم الحكومة . ولكن السيد رينيه رفض الإجابة عندما سئل عن الاضطرابات السياسية في الجزائر[21] .

ولعله كان يخشى ردود فعل المعمرين والجزائريين لو عبر على رأيه حول هذه النقطة ، ذلك أن الجزائريين كانوا يتوقعون من هذه الزيارة رفع الضيم الذي أوقعه بهم منشور ميشال وأكدته اللجنة المختلطة ، وكان النواب منهم يأملون من هذه الزيارة دفعة جديدة لمشروع فيوليت الذي كان ما يزال على بساط البحث في البرلمان . أما المعمرون الفرنسيون فقد كانوا يـأملون من هذه الـزيارة القضـاء على شبح الأزمـة الاقتصادية والضرب على « المشوّشين » الجـزائريين دعـاة الوهـابية والشيـوعية في نظرهم . لذلك لا نستغرب أن يرفض رينيه التعليق على السؤال المتعلق بالوضـع السياسي في الجزائر بالإضافة إلى أن ميشال باريس ، نائب ولاية وهران الفرنسي قد أنذر وزير الداخلية « بالأخطار التي تنجم عن مثل هذه الـزيارة بـالنظر إلى الـواقع النفسي الذي تحدثه على السكان المسلمين (الجزائريين) ولا شك أن باريس كان يرهب رينيه ضد طرح أفكار سياسية بين الجزائريين كالوعود بدمج النخبة أو الإعتراف لهم بالحريات المدنية التي يتمتع بها الفرنسيون وما إليها[22] وقد وقف أيضاً السيد كوطولي نائب المعمرين في قسنطينة ، ورفقاؤه موقف المحتجين ضد أية إصلاحات قد يعد بها وزير الداخلية . وأكدوا له جميعاً أن على فرنسا أن تبقى على « الهيمنة الفرنسية » وتحقق خلاص « ممتلكاتنا في أفريقية الشمالية »[23] .

وتحت هذه الضغوط أعلن رينيه أنه ضد إدخال أيـة إصلاحـات جديـدة في الجزائر وهدد من يطالب بها بأقصى العقوبات. فقد أجاب الجزائريين المتطلعين إلى رأيه بأنه يعتقد أن إصلاحات سنة 1919 كانت كريمة جداً وأن طلب المزيد عليها غير مقبول . وأضاف أن فرنسا قد بذلت ما في وسعها وهي غير مستعدة أن تضيف جديداً

---

(21) (التايمز) ، 4 مارس 1935 ، ص 13 .

(22) نفس المصدر ، وأيضاً 9 مارس 1935 ، ص 13 ، أنظر كذلك جان مينو « عن رحلة رينيه إلى الجزائر » (أفريقية الفرنسية) مارس 1935 ، ص 148 .

(23) نوشي ، ص 76.

إلى إصلاحات عام 1919 . أما عن الجزائر نفسها فقد وجدها « في غاية الجمال والقوة والصحة لكنها مضطربة قليلاً على السطح » وهذا مفهوم . لكن العبارة التي أثارت إعجاب مستمعيه من الكولون وانتزعت تصفيقهم واستحسانهم هي قوله أن فرنسا ستستعمل القوة إذا لزم الأمر للمحافظة على هيمنتها في الجزائر[24] وفي الثلاثين من مارس من نفس العام أصد رينيه قراره المشهور الذي التصق بإسمه وأصبح (كليشيه) الصحافة المعاصرة وحديث الساسة والمعلقين ، وسوط الإدارة الفرنسية الذي تلوح به كل حين لإرهاب الوطنيين والمطالبيْن بالإصلاحات .

يحتوي قرار رينيه على ثلاث مواد . وتنص المادة الأولى منه على ما يلي : « كل شخص ، سواء كان من المستعمرات (الفرنسية) أو من المحميات ، أو من الأجانب المقيمين في الجزائر ، يثير الشغب ، في أي مكان وبأية وسيلة ، ضد السيادة الفرنسية بإحداث الفوضى أو المظاهرات ، أو يقوم بمقاومة إيجابية أو سلبية ضد تطبيق القوانين والمراسيم والتنظيمات وأوامر السلطات العامة ستسلط عليه عقوبة تتراوح بين ثلاثة أشهر وعامين سجناً ، وبين خمسمائة وخمسة آلاف فرنك غرامة »[25]هذه إذن نتيجة زيارة رينيه للجزائر. فقد جاءها لدراسة أوضاعها وإيجاد الحلول لمشاكلها ورجع منها متهدداً متوعداً للجزائريين ومعجباً مجاملاً لإنجازات المعمرين ، محافظاً على الحالة الراهنة متجاهلاً كل الأصوات والحركات التي كانت تطالب برفع الضيم والحيف ، وتنذر بالعواقب الوخيمة إذا تجاهلتها السلطات . ولم يكتف رينيه بعدم الإهتمام بالرأي العام الجزائري ، بل إنه قد ساعد على قتل مشروع فيوليت الذي كان ما يزال في الأخذ والرد في البرلمان الفرنسي .

وإذا كانت سنة 1933 تشكل عهد المصارعة ضد منشور ميشال ، وسنة 1934 ترمز إلى فترة الإضطرابات المحلية[26] ، ولا سيما حوادث قسنطينة بين المسلمين واليهود ، وسنة 1935 قد اشتهرت بقرار رينيه ، فإن سنة 1936 تعتبر عهد الجبهة

---

(24) نفس المصدر ، 77 .

(25) النص الكامل في نفس المصدر . أنظر أيضاً (التايمز) ، 6 أبريل 1935 ، ص 11 وكذلك جوليان ص 125 ـ 126 .

(26) أنظر فصل التوتر الإجتماعي .

الشعبية . والجبهة الشعبية تعني أشياء كثيرة بالنسبة للجزائريين ، ونحن وإن كنا سندرس نشاط كل منظمة في عهد الجبهة الشعبية فإنه يجدر بنا هنا أن نسجل صورة عامة عما كانت تعنيه لهم . فالجبهة كانت تجمعاً من أحزاب اليسار الفرنسية بل إن نجم شمال أفريقيا كان من بين المساهمين في التجمع الشعبي الذي مهد للجبهة . وقد رأى فيها الجزائريون عهد الخلاص من ربقة القوانين الإستثنائية التي كانت مسلطة عليهم ، ومن الأزمة الاقتصادية التي كانوا يتخبطون فيها ، ومن اللامساواة التي كانت تشكل العمود الفقري في السياسة الفرنسية ، ومن الاستغلال البشع الذي كان المعمرون يقومون به نحوهم . وقد استقبلها شعراؤهم ونوابهم وعلماؤهم وشبابهم ورجال السياسة منهم استقبال فجر بعد ظلمة وصحو بعد غيم ، ولو جمع المرء ما قاله الجزائريون عن الجبهة الشعبية لملأ به مجلداً ضخماً .

وقد وصف المعاصرون مقدار ما وضعه الجزائريون من آمال في الجبهة الشعبية . فالشيخ الإبراهيمي أوضح أن احزاباً كثيرة قامت في فرنسا فلم ير منها الجزائري خيراً ولا رحمة ، بل لم ير منها سوى مضاعفة الإرهاق والاستغلال ، ولكن ظهور الجبهة الشعبية جعل الجزائريين يعلقون عليها آمالاً عراضاً ويضعون فيها ثقتهم حتى ان بعض الناس فسروا ذلك منهم بأنه « اتجاه حقيقي نفساني نحو الإشتراكية المتطرفة أو الشيوعية ، وهو تفسير خاطىء » لأن الجزائريين برهنوا طوال العصور على تمسكهم بدينهم ومبادئهم ، ولكن من طبع الجزائري الشكر على الفضل « عند ظهور مخايله » فعندما قامت الجبهة الشعبية وظهرت بمبادئها الإنسانية وأعلنت على صحفها برنامجها للشعب الجزائري من إصلاح سياسي واجتماعي ، ودلت الدلائل على أن وعود الجبهة الشعبية غير وعود ما سبقها من الأحزاب والتجمعات ـ « كان من المعقول أن يكون هوى المسلمين الجزائريين مع الجبهة الشعبية ، ذلك أن هذه الوعود قد صدرت من أحزاب اليسار الفرنسية التي طالما نادت بالاعتراف بحقوق الجزائريين وأهليتهم للحياة الكريمة[27] .

أما السيد فرحات عباس فقد لاحظ أن الجزائريين فرحوا بالجبهة الشعبية وعلقوا عليها آمالهم . فعندما أعلنت الجبهة في فرنسا « طار الجزائريون بالفرحة » حسب

---

(27) الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 ، 196 ـ 197 .

تعبيره . ولم يشهد هو وزملاءه النواب وأمثالهم ، الجزائريين وقد أجمعوا على الترحيب بهذه الجبهة ووضعوا فيها كل آمالهم[28] وتحت شعار هذا التحول عقد الجزائريون اجتماعات التأييد ، وأيدوا ، بإستثناء النجم ، مشروع فيوليت الذي تبنته الجبهة ، وعقدوا المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي هو أول تجمع من نوعه في البلاد ، وانطلقت صحافتهم ونواديهم تلهج بالعهد الجديد ، وسنعرف كم كانت خيبتهم مريرة عندما قلبت لهم الجبهة الشعبية ظهر المجن وعادت إلى اضطهادهم بنفس الأسلوب الذي جاءت تستنكره .

فعند الحملة الانتخابية التي ولدت بعدها الجبهة اكثر الاشتراكيون وغيرهم من احزاب اليسار الفرنسي ، الحديث عن المساواة في الحقوق بالنسبة للجزائريين ووعدوهم بالحرية[29] واستنكروا أمام الرأي العام الاستعمار والامبريالية وكل أشكال الإضطهاد والتمييز ، ووقفوا ضد الرأسمالية الكبيرة التي كان على رأسها في الجزائر المعمرون (الكولون) والشركات الإحتكارية . وكان كتاب اليسار الفرنسي قد نشروا الكتب والمقالات عن وضع الجزائريين البائس ودعوا إلى وجوب إحداث تغيير أساسي في العلاقات الفرنسية الجزائرية . ومن ذلك كتاب فيوليت الذي أشرنا إليه ، وكتاب جان ميليا (الوضع البائس للأهالي المسلمين في الجزائر) وكتابات شارل أندري جوليان ، ونحوهم . وفعلا فقد بدأت البشائر تدل على تنفيذ الجبهة لما وعدت به نظرياً . فقد أطلقت سراح المساجين الجزائريين ، وأوقفت جزئياً العمل بقانون الأهالي الاستثنائي ، وطبقت بعض القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائريين ، مثل العمل بأربعين ساعة في الأسبوع ، ودفع الأجور أيام العطل ، والتنظيم النقابي ، والسماح بتنقل العمال الجزائريين بين فرنسا والجزائر[30] .

وأهم ما طرحته الجبهة الشعبية في سوق السياسة الجزائرية هو إحياء مشروع فيوليت ، وتبني السيد بلوم رئيس الوزراء الفرنسي له ، حتى شاع التعبير عندئذ عن « مشروع بلوم ـ فيوليت » ، وقد سبقت الإشارة إلى أن فيوليت قد دخل وزارة بلوم

---

(28) فرحات عباس ، الليل الإستعماري ، باريس 1962 ، 128 .

(29) (النيويورك تايمز) 6 ديسمبر 1937 ، ص 9 .

(30) نوشي ، 87 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

بعنوان وزير دولة مكلف بشؤون الجزائر . وبهذه الصفة استطاع فيوليت أن يجند إلى جانبه رئيس الوزراء نفسه وبعض أصدقائه ، ورغم ما قيل وكتب عن هذا المشروع فهو في الواقع لا يخرج عن تنفيذ خطة دمج الجزائر في فرنسا بصورة تدريجية . وبدل حديث الفرنسيين عن هذا الدمج بصورة نظرية أراد فيوليت أن يقع الدمج فعلاً عن طريق النخبة الجزائرية المتخرجة من المدارس الفرنسية والموالية لفرنسا موالاة مطلقة دون مطالبتها بالتنازل عن أحوالها الشخصية الإسلامية كما كان الحال منذ 1865 ، ولو نجح مشروع بلوم ـ فيوليت لأصبح حوالي 21,000 جزائرياً يتمتعون بالجنسية الفرنسية ولهم نفس الحقوق التي للفرنسيين وعليهم بالطبع نفس الواجبات[31] ويقتضي المشروع أيضاً أن تستمر هذه الطريقة تدريجياً كلما توفرت الشروط ، وبذلك تذوب النخبة الجزائرية في المجتمع الفرنسي ، ويظل « الأهالي » رعايا فرنسيين عليهم الواجبات (الضرائب ، الجندية ، الخ) لكن ليس لهم أية حقوق .

وعلى أساس الوعود السابقة تجمع الجزائريون لأول مرة في تاريخهم في مؤتمر إسلامي انعقد بالعاصمة بتاريخ 7 يونيو 1936 ، وشاركت فيه تقريباً كل القطاعات الاجتماعية والسياسية الوطنية وهو المؤتمر الذي سنفرد له فصلاً خاصاً . وحسبنا هنا أن نشير إلى أن هذا المؤتمر كان قد انعقد في غمرة الفرح الذي عم جميع الأوساط بتولي الجبهة الشعبية الحكم في فرنسا ، كما علقت عليه آمال كبيرة كانت بدون شك أحلام يقظة كما برهنت الوقائع التي تلته . وقد شعر المتحمسون له أن الجبهة الشعبية قد أعطتهم الضوء الأخضر لهذا التنظيم الذي خيل إليهم أنه فتح لهم عهداً جديداً في العلاقات مع فرنسا، ولعل الذي ضاعف من حماسهم نحو الجبهة هو ما كان يقاسيه الجزائريون قبلها تحت القوانين الإستثنائية . فكأن مجيء الجبهة الشعبية قد شكل عقبة جديدة في العلاقات الجزائرية ـ الفرنسية أو علاقة المستعمر بالمستعمر .

ولكن الأحلام غير الواقع . وإذا كانت الأحلام هي انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري والحماس الشديد له والثقة البعيدة المعلقة على الجبهة الشعبية ، فإن الواقع هو العقيدة الإستعمارية نفسها ، ذلك أن الجزائريين عندئذ كانوا يعيشون تحت سلطة إستعمارية متداعية ولكن ما زال لها أيد تبطش بها وقوانين ترعب بها وممثلون

---

(31) باربور ، (مدخل) ، ص 222 وكذلك جوليان ، (أفريقية الشمالية) ص 126 .

يتحركون بانتظام كلما حزبهم أمر . ان معمري الجزائر ما كادوا يعرفون عن المداولات التي كانت تجري حول (مشروع بلوم - فيوليت) حتى تحركوا بسرعة معارضين كل تغيير في الواقع الجزائري ، وهو الواقع الذي جعلهم سادة البلاد سياسياً واقتصادياً وثقافياً . فقد تجمع في مدينة الجزائر بتاريخ 14 يناير 1937 حوالي 300 شيخ بلدية فرنسي وصادقوا على لائحة قدموا بها استقالاتهم الجماعية ، وعارضوا فيها المشروع المذكور (باستثناء صوتين) إذْ قالوا صراحة بأن أعداء فرنسا هم المؤيدون له[32] وكان خوف هؤلاء المعمرين يتمثل في ضياع امتيازاتهم بتمتع النخبة الجزائرية بنفس الحقوق التي يتمتعون بها ، ولا سيما حق التمثيل في المجالس المحلية .

غير أن الضغط على الجبهة الشعبية لم يكن عائداً كله إلى العوامل الخارجية (مثلاً موقف المعمرين) ، بل كان يعود أيضاً إلى عامل داخلي وهام ، وهو أن الجبهة قررت عدم تحمل مسؤولية نهاية الامبراطورية الفرنسية على يديها ، فقد كانت مستعدة لتقديم بعض التسهيلات إلى مختلف الاتجاهات الوطنية الناشئة في الامبراطورية ، وللنظر بعطف على آمال الشعوب التي تنشد الحرية وتحاول الخلاص من نير الاستعمار ، ولكنها كانت غير مستعدة ، ولا نقول غير قادرة ، للتخلص نهائياً من روح الهيمنة الاستعمارية . ولعل الوقت لم يتسع أيضاً للجبهة الشعبية : فقد حكمت بضعة أشهر فقط ، وهي مدة لا تكفي حتى لوضع البرامج وسن القوانين والتعرف على مشاكل السلطة ، ومن جهة أخرى هناك فرق بين الوعود وبين تنفيذها ، فمن السهل أن تعد الجبهة الشعبية وهي خارج الحكم ، ولكن من الصعب أن تنفذ ما وعدت به وهي تمسك بزمام السلطة ، وقد يكون تعليق إحدى الصحف الامريكية في محله عندما قالت « أكثر الاشتراكيون والشيوعيون من الحديث ، خلال الحملة الانتخابية ، عن الحرية والمساواة في الحقوق للجزائر . وقد استنكروا الاستعمار . ولكن اليساريين بدأوا عندما تولوا الحكم ، يدركون أهمية المستعمرات الفرنسية . فحكومة بلوم غيرت من وجهة نظرها ، ولم تشأ أن تكون مسؤولة عن تجزئة الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية »[33] .

---

(32) جوليان ، ص 127 ، وباربور ، 222 . وكذلك توينبي ، ص 518 .

(33) (النيويورك تايمز) ، 6 ديسمبر 1937 ، ص 9 .

وقد ظهر تراجع الجبهة الشعبية عن وعودها ومواقفها في عدة أشكال ومناسبات . من ذلك حل حركة نجم إفريقية الشمالية بتاريخ 26 يناير 1937 ، إثر إنعقاد مؤتمر المعمرين المذكور[34] . وعلى أثر استقالة حكومة بلوم خلال مارس 1937 تصعبت الحكومة الفرنسية الجديدة في مواقفها نحو الجزائريين . من ذلك أن السيد أبو ، وكيل وزارة الداخلية زار الجزائر في ربيع نفس العام وأعلن أن فرنسا ستحتفظ بالجزائر ، وأن فيها كثيراً من الدعاية المضادة لفرنسا ، وأنه لا بد من اتخاذ إجراءات « استثنائية قاسية . . . للقضاء على المشاغبين » كما صرح بأن « الساعة حرجة . . . وأن القضية قضية صلابة وشدة »[35] ونتيجة لذلك أعلنت الحكومة الجديدة زيادة قواتها العسكرية في الجزائر . ورغم أن لجنة للبحث قد أرسلت من جديد إلى الجزائر لمعاينة الوضع ، فإن رأي السيد أبو هو الذي ساد العلاقات الجزائرية الفرنسية حتى 1939 ، وهو الرأي الذي ينادي باستعمال القوة والصلابة في وجه من سماهم بالمشاغبين[36] .

أما السيد ألبير صارو الذي كان وزير دولة مكلفاً بلجنة تنسيق شؤون إفريقية الشمالية ، فقد أعلن أمام البرلمان الفرنسي أن المشاكل التي كانت فرنسا تعانيها في شمال أفريقية عامة تعود إلى عملاء دولة أجنبية مأجورين بسخاء ليقوموا بخلق المتاعب وضعضعة الإخلاص لفرنسا[37] ولكن إذا كانت الجبهة الشعبية قد اعترفت بمحركي المشاكل الحقيقية وحاولت كسبهم عن طريق الوعود على الأقل ، فإن الحكومة التي ورثتها لم تجد الشجاعة حتى في الاعتراف بمحركي هذه المشاكل ، بل عزتها على لسان الوزير صارو إلى مأجورين لدول أجنبية .

والواقع أن الحكومة الفرنسية الجديدة قد عادت إلى أسلوب ما قبل عهد الجبهة الشعبية في موقفها من الجزائريين ، فالخوف من وجود عملاء أجانب (وهم هنا الوهابيون ـ العلماء ـ الشيوعيون ـ حركة النجم ـ الخ) جعلها تصدر قوانين جديدة

---

(34) عباس ، ص 198 ـ 199 ، ونوشي ، ص 93 .

(35) نوشي ، ص 93 نقلاً عن صحيفة (الماتان) .

(36) عباس ، ص 129 يذكر هذا المصدر أن اللجنة كانت برئاسة النائب المارتينيكي السيد لاقروسيير .

(37) (التايمز) ، 2 ديسمبر ، 1937 ، ص 13 .

لاضطهاد حرية الفكر والتعليم في الجزائر وحرية السفر إلى فرنسا . ففي مارس سنة 1938 صدر عن حكومة السيد شوطان قراران يضيقان الخناق بصفة شديدة على المسلمين الجزائريين ، حسب رأي (الشهاب) وهما : إضافة عقوبات ضد كل من يباشر التعليم العربي والديني بدون رخصة في حين امتناع الحكومة عن إعطاء الرخص ، وتضييق حرية السفر إلى فرنسا في وجه العمال باشتراط بطاقة الخدمة العسكرية مع بقية الأوراق الضرورية(38) ولا شك أن هذين القرارين قد أثارا سخط الجزائريين، ولا سيما جمعية العلماء وأنصارها من جهة ، وبعض أعضاء المجالس المالية من جهة أخرى(39) .

ولم تكد الحرب الثانية تبدأ حتى صدر قانون جديد بتاريخ 28 أغسطس سنة 1939 يعطي للإدارة الفرنسية بالجزائر الحق في مراقبة جميع المطبوعات ، كما يمنحها حق وقف أو منع جميع المطبوعات . وأصبح على كل من يخرج جريدة أو نحوها أن يحصل على رخصة(40) . ولكن إذا كانت الحرب تبرر مثل هذه الإجراءات فما مبررات إجراءات ميشال ، ورينيه ، وشوطان ؟ وما مبررات حل النجم سنة 1937 واضطهاد قادته وتشريدهم أيدي سبا ؟ وما مبررات التدخل في شؤون المؤتمر الإسلامي باتهام زعمائه بالقتل ونصب المحاكمات لهم وتشويه سمعة العلماء لدى العامة ، والانتصار لخصوم الإصلاح ؟

إن التساؤلات عن مبررات مواقف فرنسا خلال الثلاثينات قد تطول بلا نهاية ، ولعله يكفي أن نذكر هنا أن الضعف الداخلي والخطر الخارجي قد جعل الفرنسيين يفقدون الرؤية البعيدة لمصالحهم في الجزائر . فقد كانت هناك أحداث كبيرة تؤثر على سير الحركة الوطنية الجزائرية خلال الثلاثينات كاستقلال العراق وحوادث السويس ، وصراع الشام مع الفرنسيين ، وأحداث فلسطين ، وتطورات تونس والمغرب ، ونضال الهند وأندونيسيا وغيرهما من البلدان الإسلامية ، ومع ذلك كان الفرنسيون يرفضون الحركة الوطنية الجزائرية ويتجاهلون مطالبها وآمالها ، ويلجأون

---

(38) (الشهاب)، مايو 1938 .
(39) (افريقية الفرنسية) يوليو 1938 ، ص 304 .
(40) نفس المصدر ، أكتوبر - نوفمبر 1939 ، 248 .

باستمرار إلى القمع والتهديد والقوة ، طبقاً للمبدأ الذي كانوا يعملون به منذ الاحتلال ، وهو أن العربي لا يخضع إلا للقوة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحركة الوطنية قد اكتسبت صلابة على مر السنين وعاشت تجارب مختلفة ، ونضجت محاولات الفشل والنجاح ، وانتشر الوعي الوطني لدى مختلف الطبقات . وبرزت على المسرح عناصر جديدة لم تكن واضحة خلال العقود السابقة ، وتشكلت هيئات وأحزاب جديدة ، وحدثت حركة المؤتمر الإسلامي . وكل هذه العوامل الداخلية والخارجية جعلت مواقف ومشاريع فرنسا في الجزائر تبدو خارج الزمن الذي وضعت فيه.

* * *

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الثاني

التوتر الاجتماعي

خلال عقد الثلاثينات عرفت الجزائر توترات اجتماعية وسياسية هامة . وتشهد هذه التوترات، أنه بالرغم من تجربة الاستعمار الطويلة في الجزائر فإن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يسيطروا على الموقف ، وأن التيار الوطني كان أقوى من وسائل المقاومة التي استخدموها ضده . وسنحاول في هذا الفصل إبراز بعض التوترات الاجتماعية تاركين الحالة السياسية إلى الفصول التي نعالج فيها الأحزاب والتجمعات الوطنية .

وتؤكد الوثائق المعاصرة أن حالة التوتر التي لم تهدأ منذ الاحتلال قد ازدادت حدة منذ 1930 ، وهي السنة التي احتفل فيها الفرنسيون بذكرى الاحتلال المئوي للجزائر[1] . فمنذ هذا التاريخ بدأ الجزائريون يطبقون مقاطعة البضائع الفرنسية اتباعاً لمذهب غاندي في الهند . وقد دعا أحد الشعراء الجزائريين على صفحات جريدة محلية الى الاستمرار في هذه المقاطعة لأنها في نظره جهاد القرن العشرين الذي يحقق نتائج فعالة بدون مشقة كبيرة[2] . وعلى هذا المنوال أصبح الجزائريون يجاهرون بمشاعرهم الوطنية ويتعصبون لها . وقد اعتاد بعض الكتاب الأوروبيين ، وحتى الجزائريين المعتدلين ، اتهام الوطنيين الثابتين على المبدأ بالتعصب وكره الفرنسيين كجنس ومعاداة الحضارة الغربية . وكان هدفهم من ذلك توهين القوى المقاومة وتفتيت العزائم المتصلبة في الدفاع عن المبادىء الوطنية . ويذكر بعض الكتّاب في هذا الصدد أن أحد الجزائريين أكّد بأنه إذا كان التعصب

---

(1) حول هذه النقطة أنظر الحركة الوطنية الجزائرية ، ط 3، الجزائر 1983 .

(2) جوزيف ديبارمي « المظاهرات » في أفريقية الفرنسية (سبتمبر ، 1934) ص 532 نقلاً عن جريدة (النجاح) العربية (6 ديسمبر 1931) .

يعني « حب ديني وجنسي وبلادي فإني إذن من أشد المتعصبين »[3] . وبعد أن أغلقت السلطات الفرنسية مدرسة سيدي بلعباس العربية الحرة وطردت معلمها ، أعلن هذا بجرأة وثقة بأن البعض يلومونني بكوني جزائرياً ، حسناً انني جزائري من آباء جزائريين كانوا منذ أربعة عشر قرناً خداماً أوفياء للجزائر ، كما كانوا المدافعين المخلصين عن الإسلام والعربية[4] .

فما أسباب التوترات التي شهدتها الجزائر خلال الثلاثينات ؟ وما دوافع شعور التحدي الذي تميّز به الجزائري ؟ ان العالم بأسره شهد أزمة اقتصادية صعبة في بداية الفترة المذكورة ، ولكن هل تعود التوترات إلى هذه الأزمة أو إلى أسباب أخرى أيضاً ؟ الواقع أننا سنرى العديد من « التكهنات » في الوثائق المعاصرة ، فبعضها تؤكد أن الأسباب اقتصادية ، وأخرى أنها سياسية ، وثالثة أنها عرقية ؛ وهكذا . فجريدة (النيويورك تايمز) ترى أن الوضع في الجزائر قد أصبح يثير القلق نتيجة تصاعد التيار المعادي للفرنسيين ، غير أنها تستدرك على ذلك بأن السبب لا يعود إلى الوطنية أو العرقية ولكن إلى الوضع الاقتصادي . ومع ذلك لاحظت أن جريدة (ليبرتي) قد نشرت مقالاً بعنوان « هل ستصبح الجزائر فرنسية أو عربية ؟ » ، وهذا المقال كاف في نظر الجريدة الأمريكية للإشارة إلى الاتجاه الذي ستسير فيه الجزائر[5] .

ولكن أحد الفرنسيين المعاصرين يرى أن الشعور الوطني كان وراء تلك التوترات . ويستدل على ذلك بمقاطعة الجزائريين الاحتفالات والمناسبات الفرنسية . فقد ذكر أن أعيان قسنطينة رفضوا خلال 14 يوليو 1933 حضور « العيد الوطني » الفرنسي وأعادوا بطاقات الدعوة ، ومن جهة أخرى انسحب الجزائريون من الجمعيات الرياضية الفرنسية وبدأوا ينافسون الرياضيين الفرنسيين في الملاعب بجمعياتهم الخاصة . وكان المشاهدون الجزائريون يشجعون لاعبيهم بهذه العبارات « إلى الأمام أيها الأخوان ! . . أروهم من نحن، إننا شعب من ستة ملايين »[6] .

---

(3) أندري نوشي (ميلاد الوطنية الجزائرية) باريس 1962 ، ص 68 .

(4) نفس المصدر .

(5) النيويورك تايمز (6 سبتمبر 1933) ص 15 .

(6) ديبارمي ، « المظاهرات » أفريقية الفرنسية (سبتمبر 1934) ، ص 541 .

ويرى كاتب آخر معاصر أيضاً أن أصل القلق يعود إلى تأثيرات خارجية في ثوب محلي . والتأثير الخارجي في نظر هذا الكاتب ليس مباشراً كما يعتقد الفرنسيون اثر الحرب العالمية ، ولكنه غير مباشر . ولم تعد القضية في نظره قضية الجزائر وحدها ولكن قضية أفريقيا الشمالية بأسرها . ذلك أن حركة الجامعة الإسلامية أو الوهابية الجديدة ، التي يعود إليها في نظره السبب في الشعور المعادي للفرنسيين لا تتردد في قبول المساعدات الأجنبية ، لتدعم نضالها ضد الفرنسيين . وهذه الحركة ليست على اتفاق لا مع الشيوعية ولا مع أي قوة أجنبية ، ولكنها تقبل التأييد مهما كان مصدره ، وهي تخطط على أنها بعد الانتصار على الفرنسيين ستختار حلفاءها . وقد ابتدأ هذا التيار في نظر الكاتب منذ سنوات خلت[7] ، وهو بلا شك يعني العلماء الذين ابتدأوا حركتهم في العشرينات وأسسوا جمعيتهم سنة 1931 .

وعندما نتناول بعد قليل أحداث قسنطينة سنة 1934 سنرى أن بعض الكتاب يعيدون أسبابها وأسباب ما تلاها من تطورات إلى معاداة السامية ، وأحياناً إلى الدين ، وأخرى إلى كره الفرنسيين ، وحسبنا الآن أن نذكر أن الأسباب مختلطة ومتشابكة ، ولعل أبرزها خلال الفترة المدروسة هو اليقظة الثقافية والسياسية التي عرفتها الجزائر والتي أدت في النهاية إلى الشعور بالذات الوطنية واكتسبت صلابة في معاداتها للحكم الفرنسي الذي تغير الزمن ولم يغير هو من أساليبه .

ومهما قيل عن أسباب التوتر الذي ساد الجزائر في الثلاثينات ، فإنها قد عانت كثيراً من سوء الأوضاع الاقتصادية ، حتى أن بعض الكتاب كان عندئذ يتحدث عن « شبح المجاعة » الذي أصبح يهدد السكان[8] وقد لخصت الصحيفة البريطانية (التايمز) أساس عدم الاستقرار في المصاعب الاقتصادية ، معتمدة على تقارير السلطات الفرنسية التي تشير إلى الانخفاض الحاد في أسعار المواد الفلاحية ، وانهيار سوق الحبوب ، وسقوط قيمة الأجور ، وتعطل المشاريع العامة التي ابتدىء فيها منذ سنة 1921 ، بالإضافة إلى الزيادة الكبيرة في نسبة البطالة[9] .

---

(7) ل . مهندس « الهجوم » أفريقية الفرنسية ، (أكتوبر 1934) ، ص 574 ـ 575 .

(8) الشهاب ـ أغسطس 1932 .

(9) التايمز (لندن) فبراير 1935 ، ص 13 .

وقد تجاوز عدد الجزائريين عندئذ الستة ملايين نسمة ، ومعظمهم كانوا يعيشون على الفلاحة سواء كانوا ملاكاً صغاراً أو عمالاً فلاحيين لدى المعمرين الفرنسيين والأجانب . ولم تكن مساحة الأرض ولا بدائية الوسائل الفلاحية تسمح للفلاح الجزائري بالقيام بشؤون أسرته . بالإضافة إلى انخفاض مستوى المعيشة العام الذي كان يعاني منه الفلاحيون أكثر من غيرهم للأسباب المذكورة ، ومن جهة أخرى كان الفلاح غير حر في التصرف في منتوجاته ، لأن الشركات الاحتكارية كانت تشتري منه بثمن بخس وتبيع نفس الإنتاج بأرباح طائلة . وتكاد الوثائق المعاصرة تجمع على أن حالة الخماس (أو العامل الفلاحي بخمس الإنتاج) كانت حالة تعسة . وفي مناطق تربية المواشي عانى الفلاحون من نقص المياه[10] . ومن هنا كثرت الهجرات من الريف إلى المدن من جهة ، ومن الجزائر إلى فرنسا من جهة أخرى ، طلباً للعيش وهروباً من وضع اقتصادي يسود فيه الفقر والإستغلال . ففي سنة 1932 وجه السيد موريس فيوليت عضو مجلس الشيوخ الفرنسي ، وحاكم الجزائر سابقاً، رسالة إلى وزير الداخلية يسأله فيها عما بلغه من أن مستخلصي الضرائب الفرنسيين بالجزائر بلغت بهم القسوة إلى درجة أنهم كانوا «يأخذون قهراً من الرجل البرنس الذي يكتسي به » .

وارتباط الاقتصاد الجزائري بالاقتصاد الفرنسي جعل الأمر يزداد سوءاً بالنسبة للجزائريين . ورغم أن الجزائر كانت تتمتع بميزانية خاصة منذ 1900 فإن العجز الذي أصاب هذه الميزانية جعل الحاكم العام يقترض من فرنسا مباشرة ثلاثة ملايير وثلاثمائة مليون فرنك خلال سنة 1932 لسد ذلك العجز ومواجهة الأزمة الاقتصادية التي كانت تمر بها الجزائر . غير أن الميزانية المذكورة كانت تحت تصرف وسلطة المعمرين الفرنسيين الذين طالبوا بها ، لذلك لا نتوقع أن يستفيد الجزائريون من القرض المذكور لأنه بلا شك استعمل في مشاريع لاتهم مباشرة إلا هؤلاء المعمرين . كما أننا لا نستغرب أن نجد مجلة (الشهاب) تأمل أن يوزع القرض توزيعاً عادلاً على كل المشاريع الجزائرية وعلى جميع السكان لا فرق بين أجناسهم وأديانهم . وقد أشارت إلى أن حالة الجزائريين « في وقت هذه الأزمة العصيبة »

(10) أنظر « الجزائر خلال نصف قرن » تقارير سرية أعدتها مصالح الإستخبارات الفرنسية ، يناير 1954 .

أصبحت « أقرب إلى اليأس منها إلى الرجاء ؛ وأن الكثير من أهل البادية والقرى الصغيرة لم يعودوا يتحصلون على ما يسد الرمق ، حتى صار شبح المجاعة الرهيب يهددهم كل صباح وكل مساء ، وطالبت المجلة أيضاً باستخدام العمال الجزائريين في المشاريع المحلية بدل استخدام اليد العاملة الأجنبية من أسبان وطليان وغيرهم[11] .

ولم يكن الوضع الاقتصادي للجزائريين دائماً مثار شفقة ، بل كان أحياناً مثار دعاية واتخاذ مواقف سياسية معينة . ففي سنة 1938 أعلن الحزب الشعبي الفرنسي اليميني أن الجزائريين كانوا ينضمون إلى الحزب الشيوعي بدافع اليأس من تدهور الوضع الاقتصادي . ذلك أن الموظف الجزائري حسب تقرير هذا الحزب كان يأخذ راتباً أقل من راتب الموظف الفرنسي في مثل عمله وطبقته ، وأن العامل الجزائري كان يأخذ أجراً أقل من أجر مثله الفرنسي والأجنبي ، وأن أغلب الجزائريين كانوا يعيشون دون خبز ، ولا سقف ، بينما تغدق الحكومة الفرنسية المليارات على الروس والبولنديين والرومانيين ، ولاحظ التقرير من جهة أخرى أن الجزائر في حاجة إلى مآت من الأطباء ، ولكن لا يوجد فيها إلا حوالي مائة طبيب فقط ، لأن السلطات الفرنسية لا تمنح المرتبات الكافية ، كما أن المستشفيات والمستوصفات قليلة وفقيرة[12] .

ورغم العجز الكبير في ميزانية الجزائر واستغلال المعمرين للفلاحين (الخماسة) الجزائريين ، وتدهور الأوضاع الإقتصادية ، فإن بعض الكتاب يلومون الفلاحين أنفسهم على مصيرهم أو يلومون الدين الإسلامي ، فبينما يعترف هؤلاء الكتاب بضرورة القضاء على الفقر والبطالة لتوفير الأمن نراهم يذكرون من أسباب المصاعب الاقتصادية زيادة حجم السكان الملحوظ كما يتهمون الجزائريين بالخرافة ، ورجال الدين خاصة بالشعوذة واستعمال الدين كدعاية سياسية ،

---

(11) الشهاب ، أغسطس 1932 ص 429 بالإضافة إلى القرض المذكور حصلت الجزائر من فرنسا أيضاً على قرض خاص بمناطق الجنوب التي كانت تخضع للحكم العسكري ومقدار هذا القرض مائة مليون فرنك . وقد طالبت المجلة أيضاً باستخدام الجزائريين في مشاريع الجنوب .

(12) نفس المصدر نوفمبر 1938 قدم هذا التقرير وصودق عليه أثناء انعقاد مؤتمر الحزب في عاصمة الجزائر خلال العام المذكور .

وتمسكهم بقشور الإسلام لا بلبابه ، وهم يرون أن فكرة التزمت عند المسلمين أكبر عائق في وجه التطور ، وبالإضافة إلى ذلك فانهم يشيرون إلى أن جهل المرأة المسلمة جعلها « حارسة التقاليد » . وبدل أن يدعو هؤلاء إلى تحرير الجزائريين من ربقة الجهل والفقر والمرض والاستعمار دعوا إلى تأييد المرابطين والزوايا التقليدية لأنها في نظرهم عامل استقرار وأمن بدليل مهاجمتها من العناصر المعادية لفرنسا(13) .

ولكن المجتمع الجزائري لم يكن كله من الفلاحين أو عمال الأرض . فقد نمت تدريجياً منذ الحرب العالمية الأولى جماعة العمال الذين هاجروا أصلاً من الريف إلى المدن الجزائرية أو إلى فرنسا . وأصبح هؤلاء العمال هم العمود الفقري لنجم شمال أفريقية وحزب الشعب الجزائري وحتى الحزب الشيوعي . وسندرس نشاطهم في فصل آخر . وبالإضافة إلى العمال هناك الأسر الكبيرة والمرابطون والقواد والباشاغوات ، وشيوخ العرب وما إليهم من الطبقة الثرية التقليدية التي اكتسبت ثروتها إما بالوراثة وإما بموالاتها للفرنسيين . وسنتعرض إليهم فيما بعد . غير أن هناك فئة أخرى يعبر عنها أحياناً بالنخبة وأحياناً بالشبان وتارة بالمثقفين ، وهؤلاء كانوا أصلاً من أبناء الأثرياء ، وقليل منهم من انحدر من أصل فقير ، وقد تلقوا ثقافتهم في المدارس الفرنسية ونموا في أحضان الحضارة الغربية فتأثروا بتصوراتها ومبادئها ووسائلها . وسندرس نشاطهم في فصل النخبة والنواب . وبقي من أصناف المجتمع الجزائري العلماء المصلحون . وقد انحدر معظم هؤلاء من محتد فقير ، وقل منهم من كان ينتسب إلى عائلات ثرية ، وتلقوا ثقافتهم العربية الإسلامية في المدارس القرآنية بوطنهم، ثم تابعوا دراساتهم في المعاهد المجاورة، كالزيتونة والقرويين أو في الأزهر ، وحتى في الحرمين الشريفين ، ثم عادوا إلى وطنهم لينشروا مبادىء الإصلاح واليقظة القومية(14) . وسندرس هؤلاء بالإضافة إلى الحركة الطلابية الناشئة

---

(13) « الجزائر في نصف قرن » .

(14) ادعى أحد الكتاب أن العلماء المصلحين ينتمون إلى الطبقة البورجوازية القديمة ، ورغم أنهم يظهرون ثوريين في المسائل الدينية فإنهم في الواقع محافظون في القضايا الإجتماعية . أنظر « العلماء الجزائريون المصلحون » في المجلة الفرنسية الجديدة عدد 7 ـ 8(يوليو، 1955) ص 331 .

في فصل خاص .

وقبل أن نتناول نشاط كل صنف ومواقفه ومبادئه علينا أن نتابع مجال التوترات التي سادت الجزائر خلال الثلاثينات . والواقع أنه منذ 1932 أخذت الأمور تتضح والمواقف الوطنية تتبلور . ففي فرنسا أعلن النجم المنحل عن برنامجه الثوري الذي يتضمن استقلال الجزائر وتكوين حكومة وطنية(15) . وفي نهاية 1932 قررت جمعية العلماء التي تأسست كما عرفنا سنة 1931 ، أن تخاطب الجماهير مباشرة باستعمال المساجد للوعظ والإرشاد والدعوة إلى الإصلاح الديني والإجتماعي ، بالإضافة إلى تأسيس المدارس العربية الحرة لتعليم اللغة العربية وتاريخ الإسلام ، وانتدبت لذلك أكفأ رجالها وأشدهم حماساً للفكر الإصلاحي ، ومنهم الشيخ الطيب العقبي الذي عينته لعاصمة الجزائر التي ظلت إلى ذلك الحين معقلاً للمعمرين الفرنسيين والسلطة الإدارية الإستعمارية ، والأفكار المعادية للإصلاح من جهة وللعروبة والإسلام من جهة أخرى . ولكن حملة العقبي في الجامع الجديد وفي نادي الترقي على الجهل والخرافات ودعوته إلى الإصلاح بقوة بيانه المؤثر وصراحته النافذة أزعجت السلطة الفرنسية وأثارت المحافظين الجزائريين . وقد تحرك هؤلاء ضد التيار الإصلاحي فكونوا لأنفسهم جمعية سموها (جمعية علماء السنة) . وبالتضامن مع بعض أعضاء المجالس المالية طلبوا من الحكومة الفرنسية اتخاذ إجراءات ضد خصومهم المصلحين بدعوى أن هؤلاء يدعون إلى السياسة تحت لواء الدين . وكانت « السياسة » عندئذ احتكاراً على الفرنسيين . أما الجزائريون ، ولا سيما رجال الدين منهم، فلا يجوز لهم دخول حرمها لأنه أخطر من الكفر(16) .

وبناء على ذلك قامت السلطات الفرنسية بغلق مدارس العلماء المصلحين في تلمسان ، وسيق ، وسيدي بلعباس ، وطردت معلميها ، كما غلقت أبواب المساجد في وجه دعاة الإصلاح في هذه المناطق ، وفي مدينة الجزائر أيضاً حيث الشيخ الطيب العقبي « الذي كان موقفه المعادي للفرنسيين » ، يهدد بخلق الاضطرابات

(15) أنظر ملاحق كتاب (الحركة الوطنية) ، ج2 ، ط 4 .

(16) أنظر « الجزائر » في (أفريقية الفرنسية) أبريل 1933 . ولاشك أن السلطات الفرنسية هي التي أوحت إلى أتباعها باتخاذ هذا الموقف من علماء الإصلاح .

ضد الأمن العام ، كما اتهم العقبي بأنه « داعية وهابي » وقد أثارت هذه الإجراءات موجة من السخط شملت أنحاء البلاد ، كما أدّت إلى قيام المظاهرات العامة المعادية لتدخل السلطات الفرنسية في شؤون الدين . بالإضافة إلى أنها حركت النواب الجزائريين الذين بدأوا سلسلة من الاتصالات برجال فرنسا في باريس ، ففي العاشر من فبراير 1933 استنكر الشيخ ابن باديس إجراء غلق المساجد والمدارس في وجه العلماء في خطبة له في نادي الترقي بالعاصمة . ومن 24 منه إلى الثالث من شهر مارس جرت مظاهرات عنيفة بالعاصمة ضد منع الشيخ العقبي من إلقاء درسه في الجامع الجديد ، وتدخل الحكومة في الشؤون الدينية . وقد استعملت السلطات قوات الشرطة والرماة السينيغاليين ، وقناصة أفريقية ضد المتظاهرين ، واعتقلت كثيراً منهم . ولم تهدأ المظاهرات حتى وعدت السلطات بالسماح للعقبي باستئناف دروسه[17].

ولكن قرار فبراير بغلق المدارس الحرة والمساجد في وجه العلماء المصلحين لم يثر فقط رجال جمعية العلماء والشعب ، بل أثار أيضاً النواب الجزائريين في مختلف المجالس المحلية . لذلك توجه منهم وفد خلال يونيو 1933 إلى باريس ليشتكوا من الوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي كانت تعيشه الجزائر وليحتجوا لدى الحكومة الفرنسية على إجراءات غلق المساجد والمدارس القرآنية . ولكن وزير الداخلية ، السيد شوطان ، رفض استقبال الوفد بدعوى أنه (أي الوفد) غير مختص وليس له مؤهل للقيام بهذه المهمة . فرجع الوفد خائباً ، « خيبة مريرة » زادت الشعب تحمساً لمطالبه[18] ورغم استقبال الوفد في باريس من بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائريين الذين كانوا « يعيشون وضعاً سيئاً تحت نير فرنسا العظيمة » واستقباله من الحاكم العام بعد رجوعه إلى الجزائر ، فإن الشعب كان يردد بسخرية عبارة «فاقوا! فاقوا ! »[19].

وبعد الفشل الذريع الذي لقيه الوفد في باريس عاد إلى الجزائر وقدم استقالته

---

(17) نفس المصدر ، ص 240 .

(18) محمد البشير الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 ، ص 195 ـ 196 .

(19) ديبارمي « المظاهرات » (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 539 ـ 540 .

من مهامه . كما دعا جميع الجزائريين العاملين في المجالس المحلية إلى الاستقالة الجماعية احتجاجاً . وقد حدث هذا خلال الثالث من يوليو 1933 عندما قدم حوالي ألف وستمائة شخص استقالتهم في ولاية قسنطينة وحوالي مائة في ولاية الجزائر ، ومثلها في ولاية وهران[20] . وأمام هذا الوضع دعا الحاكم العام السيد كارد ، النواب إلى استرداد استقالتهم واعداً إياهم بعدة إصلاحات منها تحسين الوضع الاجتماعي للجزائريين ، وإعادة النظر في قانون الغابات وتوزيع الإعانات على الفلاحين ، وإعادة فتح المساجد في وجه العلماء المصلحين ، وحرية التعليم ، وإلغاء قرار والي مدينة الجزائر ضد الشيخ العقبي . وهذه الوعود الخلابة جعلت السيد شكيكن الذي تزعم هذه الحركة سنة 1933 يدعو زملاءه إلى سحب استقالتهم لأنه يثق في كلمة الحاكم العام[21] .

وفي هذا الإطار أنشأ الحاكم العام المذكور بتاريخ 24 فبراير 1934 لجنة مهمتها تقديم مقترحات تتعلق بتحسين الأوضاع التي تراها مناسبة لرفع المستوى المادي والمعنوي للسكان الجزائريين . وقد ضمت هذه اللجنة بعض المنتخبين والمعينين تعييناً من السلطة الفرنسية[22] لكن إنشاء هذه اللجنة كان مثار سخط مختلف التيارات الأهلية في الجزائر ، من أقصى اليسار (مثل النجم بفرنسا) إلى اليمين (مثل جماعة المتجنسين) ، وتبرهن توصيات هذه اللجنة على أنها كانت محافظة أكثر من اللازم لأنها منحت السلطات المحلية الفرنسية حق التصرف والتدخل في حرية الصحافة العربية خلافاً للقانون ، وحق غلق المساجد والمدارس القرآنية ، وحق المحافظة على النظام بكل ما تراه من الوسائل . فمن أول شهر مايو إلى التاسع منه عقدت هذه اللجنة جلسة انتهت بالتوصيات التالية :

1 ـ تأييد القرار الإداري بغلق المساجد في وجه الوعاظ غير المرخص لهم ، محافظة على الأمن والنظام .

---

(20) نفس المصدر ، نقلاً عن صحيفة (المرصاد) العربية بتاريخ 25 ـ 8 ـ 1933 .

(21) نفس المصدر ص 540 ـ 541 نقلاً عن (الدييبش الجيريان) بتاريخ 23 أغسطس 1933 .

(22) أنظر . م . س . « تحسين الأوضاع المادية والمعنوية » (أفريقية الفرنسية ، الملحق) مارس 1934 ، ص 93.

2 ـ رغم أن قانون 29 يوليو سنة 1881 يشمل حرية الصحافة حتى في الجزائر ، فإن الصحافة الأهلية لم تكن قد وجدت عند صدوره ، لذلك فإن على الإدارة أن تتخذ بعض الإجراءات لمراقبة « الصحافة التخريبية » الأهلية وتمنع دخول الصحافة الفرنسية التي تحتوي على مواد مثيرة من الخارج.

3 ـ أما بخصوص التعليم العربي الحر فإن اللجنة قد أوصت باتخاذ إجراءات لمراقبة مؤسساته ما دامت تبث من خلاله الدعاية السياسية[23].

ومن الواضح أن هذه التوصيات تساير اتجاه الإدارة التي سبق لها أن اتخذت الإجراءات المنصوص عليها بدون انتظار توصيات اللجنة المذكورة . ولم تكن التوصيات في الواقع سوى خاتم شمع تختم به الإدارة على تصرفاتها غير القانونية . وكانت اللجنة هي الأداة التي ظنت الإدارة أنها ستسكت بها أصوات المعارضين لتلك الإجراءات . ومع ذلك فإن أصوات المعارضة لم تسكت، بل ازدادت حدة وارتفاعاً . فقد انعقدت اجتماعات الاحتجاج في مختلف أنحاء البلاد . وتلا ذلك « وابل » من البرقيات على السلطات الفرنسية في باريس والجزائر احتجاجاً على الإجراءات والتوصيات المؤيدة لها والمؤمنة عليها . وكان بعض هذه البرقيات معتدلاً ، ولكن بعضها كان ثائراً حتى أن أصحابها نادوا بإرسال وفد آخر إلى باريس للاحتجاج ، مذكرين بفشل وفد السنة السابقة عندما رفض وزير الداخلية استقباله ، وقد وصف هؤلاء لجنة الحاكم العام بأنها « غير مؤهلة » وليس لها « تفويض » شعبي . وأصدرت صحيفة (صوت الأهالي) عدداً خاصاً حملت فيه على هذه اللجنة ووسمتها بالتدخل في شؤون التعليم العربي والوعظ الإسلامي وحرية الصحافة الجزائرية[24] . وظهرت منشورات في العاصمة تدعو الناس إلى وقف كل نشاط وغلق الدكاكين والمؤسسات احتجاجاً على خنق حرية الصحافة الأهلية والتدخل في شؤون التعليم العربي والدين الإسلامي . وقد اشترك الشيوعيون أيضاً في حملة الاحتجاج[25].

---

(23) مهندس « في الجزائر » (أفريقية الفرنسية) يونيو 1934 ، ص 347 .

(24) نفس المصدر ، وتاريخ (صوت الأهالي) 18 مايو 1934 .

(25) نفس المصدر ، نقلاً عن صحيفة (لوهيومانيتي) التي تصدر بباريس بتاريخ 28 مايو 1934 .

أما في قسنطينة ، مبعث الحركة الإصلاحية ، فقد عقد اجتماع كبير لنفس الغرض . ويلاحظ أن النواب في هذه المرة تضامنوا مع المصلحين . فقد ذكر الدكتور ابن جلول رئيس النواب في ولاية قسنطينة بالإهانة التي لحقت بالوفد الجزائري في باريس خلال السنة السابقة واحتج ضد توصيات اللجنة . وقد فرق ابن جلول بين فرنسا في بلادها وفرنسا في الجزائر حيث تنسى في هذه الحالة « المصالح العليا . . من تحرير الشعوب » وشارك قدماء المحاربين الجزائريين في هذا الاجتماع أيضاً وذكروا فرنسا بوعودها التي قطعتها لهم خلال حرب 1914 ، وطالبوا « باحترام حريتنا الدينية ، وزيادة حقوقنا[26] ، وهكذا كانت حادثة التدخل في شؤون الدين واللغة سبباً في توتر شديد أخذ أحياناً درجة العنف . وقد استمر هذا التوتر في الانخفاض تارة والارتفاع تارة أخرى حسب أهمية الأحداث التي سنتعرض إليها.

ففي سيدي بلعباس وقعت مظاهرة سنة 1933 شارك فيها العمال العاطلون وأنشدوا خلالها نشيد الأممية . وقد يكون العمال الفرنسيون شاركوا في هذه المظاهرة . ولكن الظاهر أنها كانت هامة حتى إن إحدى الصحف وصفتها بأنها « تكاد تكون أول مظاهرة من هذا النوع في الجزائر[27]» ، وفي نفس السنة حدثت في سيدي بلعباس أيضاً وفي تلمسان ومستغانم وعين تموشنت مظاهرات نادى أصحابها بسقوط فرنسا وحياة هتلر . حتى أن الكاتب جوزيف ديبارمي وصفها بأنها كانت مظاهرات تخفي وراءها كراهية الفرنسيين[28] وقد أكد ديبارمي أن المظاهرات كان في ظاهرها عداء اليهود ولكن في باطنها عداء الفرنسيين . وهذا نفسه هو ما أكده مراسل (النيويورك تايمز) الأمريكية ، السيد ب .ج . فيليب الذي قال بأن الحركة الأهلية في الجزائر كانت من ناحية ضد اليهود ومن ناحية أخرى ضد الفرنسيين[29] .

وكلا الكاتبين كان يشير في الواقع إلى الأحداث التي جرت في قسنطينة خلال

---

(26) ديبارمي (المظاهرات) (أفريقية الفرنسية) ، سبتمبر 1934 ، ص 546 .

(27) التايمز (7 يونيو 1933) ، ص 7 .

(28) ديبارمي (المظاهرات) (أفريقية الفرنسية) ، سبتمبر 1934، ص 341 .

(29) النيويورك تايمز ، 24 فبراير 1935 ، من الكتابات المعاصرة للحادثة أنظر كتيب (حوادث قسنطينة 5 أغسطس 1934) لأنق فالي . بدون تاريخ ، كما ظهرت أخيراً عنها دراستان احداهما للكاتب الفرنسي شارل روبير أجرون والثانية للجزائري محفوظ قداش .

صيف 1934 ،وهي الأحداث التي وصفت بأنها معادية لليهود وضـد السامية ، والتي حار في أسبابها المعلقون والمؤرخون ، بعضهم ربطها بأحداث فلسطين ، وآخرون ربطوها بتصاعد الحركة الوطنية وتحديها لكل ما هـو فرنسي (وكـان يهود الجـزائر فرنسيين بالجنسية) ، وذهب آخرون إلى أنهـا تعود إلى معـاداة الساميـة المنتشرة عندئذ في أوروبا ، وهناك أيضاً من أعادها إلى أسباب اقتصادية . وحوادث قسنطينة كتب عنها الكثير وأخذت حظها من اهتمام الكتاب ، ويهمنا منها هنا كونها حلقة في سلسلة الأحداث التي جرت بالجزائر خلال الثلاثينات والتي سببت توترات في العلاقات بين الجزائر والفرنسيين .

فما هي أحداث قسنطينة ؟ وما أسبابها ونتائجها ؟ إن الروايات كثيرة في هذا الشأن . فقد قيل ان جندياً يهودياً يدعى إيلي خليفة ، جرح شعور المسلمين عندما دخل الجامع الأخضر أثناء صلاة الجمعة الموافقة 3 أغسطس 1934 . وتـلا ذلك اضطراب ومشادة لكن بدون ضحايا ، وتدخل الجيش والشرطة لإعادة الأمن والنظام . وانتهى ذلك اليوم بدون أحداث أخرى . وفي اليوم التـالي توجـه أعيان المسلمين واليهود الى مقر الوالي الفرنسي وعبروا له عن أسفهم لما حدث وتواصوا بضـرورة حفظ النظام وتصفية الجو . وكان من المقرر أن يعقد اجتماع يوم الأحد الخامس من أغسطس يخطب فيه الدكتور ابن جلول ، وانعقد الاجتماع فعلاً وانتظر الناس ابن جلول ولكنه لم يحضر . وبدأت الإشاعات ، منها أن اليهود قتلوه . وفي نفس الوقت قتل أحد الجزائريين في قلب المدينة برصاصة ، أطلقها عليه يهودي من منزله في حي اليهود . وهذه التطورات أدت إلى قيام المسلمين بمظاهرة شارك فيها أكثر من عشرة آلاف واصطدموا فيها مع يهـود المدينـة . فكانت النتيجـة قتل 23 يهـودياً وأربعـة جزائريين ، وأسر عدد كبير بالإضافة الى جرح العشرات من الطرفين وإتلاف عـدة ملايين قدرها بعضهم بخمسين مليون فرنك(30).

بعض الكتاب حمل الجزائريين مسؤولية ما حدث ، واتهمهم بالوحشية ، ويعود ذلك في نظره الى التنافس القديم بين المسلمين واليهود ، وإلى السخط من الوضع

---

(30) نوشي ، ص 74 ـ 75 والنيويورك تايمز ، 24 فبراير 1935 ، وديبارمي ، (المظاهرات) في أفريقية الفرنسية ، سبتمبر 1934 ، ص 547 .

الاقتصادي ، كما يعود إلى حسد المسلمين اليهود في قدرتهم التجارية[31] وأعلنت الاتحادية الإسرائيلية في المغرب بأن حادثة قسنطينة « قد نظمت مسبقاً تنظيماً دقيقاً »[32] وأكد كاتب آخر الإعداد المسبق للحادثة فقال أن الجزائريين المسلمين كانوا قد احتلوا الطرق ونشروا فيما بينهم « كلمة السر » وروجوا أخباراً خيالية في المدن المجاورة حتى وصلت المغرب الأقصى وأنهم أعلنوا الجهاد. وأضاف هذا الكاتب أن السيد زناتي مدير جريدة (صوت الأهالي) قد أشرف على اجتماع في (نادي الاتحاد الإسلامي) بقسنطينة قبل الاجتماع العام الذي كان مقرراً يوم الأحد ، 5 أغسطس . وقد دعا السيد زناتي عندئذ إلى تحرير الجزائر الكامل[33] أما السيد ديبارمي فقد حمل الحركة الاصلاحية مسؤولية ما حدث . فقد قال أن العلماء وأتباعهم كانوا مسؤولين عن « هذه النكبة » وأنهم كانوا قد أعدوا لها منذ سنتين سابقتين . واستدل على ذلك بأن « النكبة » ، كما يسميها قد حدثت في مدينة قسنطينة بالذات مبعث الحركة الإصلاحية[34] وهناك كاتب آخر حمل النخبة الوطنية والنواب والأعيان الجزائريين ما حدث في قسنطينة لأنهم منذ مدة طويلة كانوا ينازعون السلطات المحلية حق تمثيل الجزائريين في المجالس النيابية ، وأنهم كانوا يستغلون جهل الفلاحين وإثارتهم ضد الفرنسيين[35] .

ومهما يكن الأمر فإن ممثلي الرأي العام الجزائري في قسنطينة قد تدخلوا لوقف موجة العداء وعبروا عن أسفهم لما حدث . ولا يوجد في خطبهم ولا في كتاباتهم الصحفية ما يدل على أنهم كانوا يدعون إلى حركة انتقامية أو إلى إثارة مواطنيهم ضد اليهود الفرنسيين ، حقاً إن تجنيس اليهود سنة 1871 قد أثار بعض الحساسية بين الطائفتين لأنه جعل يهود الجزائر الذين كانوا من قبل مستضعفين ، مساوين للفرنسيين في الحقوق والواجبات ، بينما ظل الجزائريون على دينهم مستضعفين ليس لهم حقوق الفرنسيين . وتثبت إحدى الوثائق التي تعود إلى سنة 1871 ان أعيان

(31) التايمز ، 8 أغسطس 1934 ، ص 15 .
(32) مهندس (الهجوم) (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 520 ـ 522 .
(33) ديبارمي (المظاهرات) ـ أفريقية الفرنسية ـ سبتمبر 1934 ، ص 547 .
(34) نفس المصدر .
(35) مهندس (الهجوم) (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934، ص 542.

قسنطينة ، ومنهم جد الشيخ ابن باديس رأس الحركة الإصلاحية ، وجد ابن جلول زعيم النواب عندئذ ، قد أعلنوا عدم اعتراضهم على تجنيس اليهود الجزائريين بقرار كريميو المعروف[36] .

وهناك من حمل السلطات الفرنسية مسؤولية ما حدث . فلو أن هذه تدخلت في الوقت المناسب ولم يكن لها هدف وراء ما جرى لما تطورت الأمور على ذلك الشكل . وكان السيد ميو ، مدير الشؤون الأهلية قد أعلن عند توليه ، أن النظام الذي يتبناه هو « قبل كل شيء أمر يهم الشرطة والأمن » . لذلك ألقى نجم شمال أفريقية التبعة على عاتق السلطات الفرنسية لأنها أهملت الأمور لكي تبرر تدخلها ضد ما كانت تسميه « بالخطر الجزائري » . وكذلك وقف فرع الحزب الشيوعي الفرنسي في قسنطينة فقد ألقى المسؤولية على الإدارة الفرنسية أيضاً . ونفس الرأي أبداه السيد زناتي صاحب جريدة (صوت الأهالي)[37] وبعد أن لام السيد مهندس السلطات الفرنسية في الجزائر أيضاً على ما حدث قال أن رخاوة موقف البرلمانيين الفرنسيين في باريس ومناقشاتهم السياسية ومناوراتهم قد شجعت الجزائريين على ما حدث في قسنطينة[38] .

وتبادلت الأحزاب والصحف الفرنسية المتعارضة التهم في مسؤولية حوادث قسنطينة ، فبينما لامت (جورنال دي ديبا) الشيوعيين لأن صحيفتهم (لوهيو مانيتي) قد لامت التوسع الفرنسي ، نرى صحيفة (البوبلير) الاشتراكية تنفي التهم عن الشيوعيين وتحملها الفاشيستيين الذين كانوا في نظرها مسؤولين على المظاهرات ، ولا سيما منظمة (أكسيون فرانسيز) ومنظمة (كروادي فو) اليمينيتين اللتين تثيران الجزائريين بدعايتهما[39] .

والحديث عن الفاشيستية يؤدي الى الحديث عن آثار هتلر في الموضوع . ذلك أن الصحافة الفرنسية في الجزائر أشارت إلى أصابع الألمان أيضاً . فمنذ 27 مايو

---

(36) نشرت هذه الوثيقة مجلة (أفريقية الفرنسية) نوفمبر 1937 ، ص 683 والوثيقة مؤرخة في 20 يونيو 1871 .

(37) نوشي ، ص 75 ـ 76 .

(38) مهندس (الهجوم) (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 524 ـ 525 .

(39) النيويورك تايمز ، 8 أغسطس 1934 ، ص 4 وكذلك 9 أغسطس 1934 ، ص 11 .

1933 لفتت صحيفة (الديبيش الجيريان) أنظار المسؤولين إلى آثار « الهتلرية في الجزائر » وفي نهاية يوليو سنة 1934 ، أي قبل أحداث قسنطينة بأيام قليلة ، كانت في قسنطينة فرقة مسرحية ألمانية ، وأن مظاهرات جرت في الأحياء الشعبية آنئذ حمل أصحابها الصليب المعقوف ونادوا بحياة هتلر . وقد أكدت هذه العلاقة بين أحداث قسنطينة المعادية لليهود وبين الدعاية الألمانية ، صحيفتان أخريان إحداهما تصدر بآفسيينة (التلغراف) والثانية في مدريد[40] (الهيرالدو) .

ومن الغريب أن المصادر التي أشارت إلى ربط ما حدث في قسنطينة بالقضية العربية العامة قليلة ، فمراسل النيويورك تايمز مثلاً أشار إلى أن القومية العربية تعتبر إحدى العوامل التي أدت إلى ذلك . فالجزائريون كانوا ساخطين على « المحتل » وكانوا يعيشون في فقر مدقع[41] . بينما أشار عدد من الكتّاب إلى العامل الاقتصادي ، كما أكّد آخرون على العامل الديني وروح التعصب[42] .

ومهما كانت الأسباب فإن السلطات الفرنسية قد أعلنت حالة الطوارىء في المدينة وأوقفت حركة المرور ابتداء من الثامنة ليلاً ، وأغلقت مقاهي الجزائريين في المدينة وضواحيها ، وبالإضافة إلى حامية قسنطينة العسكرية وشرطتها ، فإن السلطات استقدمت الرماة السينيغاليين من سكيكدة لتدعيم القوات العسكرية في المدينة سيما الرماة وجنود الزواف . وأرسلت سلطات مدينة الجزائر فيلقاً من الرماة أيضاً بالإضافة إلى فرقة من اللفيف الأجنبي ، وفرقة من الدرك . وهكذا غصت المدينة بالقوات العسكرية التي تمركزت في كل شارع . وقد أرسل مورينو ، نائب رئيس بلدية قسنطينة ، طلبات مستعجلة إلى الحاكم العام تشتمل على ما يلي : استنفار جميع الفرنسيين لحمل السلاح في حالة تفاقم الوضع ، ويسري هذا الاستنفار على كل قادر على حمل السلاح بما في ذلك البالغون ستين سنة ، إرسال خمسمائة طيارة عسكرية من فرنسا إلى الجزائر . وليس غريباً بعد هذا أن يقارن أحد

(40) مهندس (الهجوم) (أفريقية الفرنسية) ديسمبر 1934 ، ص : 700 ـ 707 .

(41) هـ . ل . ماثيوز (النيويورك تايمز) 12 أغسطس 1934 .

(42) أنظر بهذا الصدد مقالة السيدة أنيتة بريز مراسلة (النيويورك تايمز) 12 أغسطس 1934 ، فقد لخصت فيها أهم الدوافع وفي نظرها أن الحادثة لم تكن منعزلة وأن السخط قديم لدى الجزائريين .

الكتّاب ما جرى في قسنطينة عام 1934 بما جرى فيها عام 1837 تاريخ احتلالها عنوة من طرف الفرنسيين[43] . ولا شك أن اقتراب الذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة جعله يعقد هذه المقارنة ، ولا شك أيضاً أنه لم يكن وحده في تذكر هذه المناسبة.

ورغم تدخل القوات العسكرية الفرنسية فإن الحوادث قد انتشرت من قسنطينة إلى غيرها من المدن المجاورة مثل عين البيضاء ، وتبسة ، والحامة ، وغيرها ، كما أرسلت الصحافة العالمية مراسليها لتغطية « الأحداث » . ولم تمض سوى بضعة أشهر حتى حدثت اضطرابات خطيرة في سطيف ومستغانم والجزائر ووهران وسيدي بلعباس . . ففي الأول من فبراير سنة 1935 حدثت مظاهرة في سطيف اشترك فيها المدنيون والجنود الجزائريون الذين كانوا في الجيش الفرنسي والذين خرجوا من ثكناتهم رغم معارضة ضباطهم . وذكرت الصحافة عندئذ أن المتظاهرين كانوا يهتفون بحياة ابن جلول وحياة هتلر . وقد عاقبت السلطات الفرنسية عدداً من الجنود الجزائريين قدرت بعضهم بأربعة عشر جندياً . ونادت الصحافة الفرنسية ونواب الجزائر الفرنسيون باستبدال الجنود الجزائريين بجنود من السينغال.

إن أحداث سطيف فاقت ، كما كتبت إحدى الصحف ، أحداث قسنطينة لأن الجنود شاركوا فيها المدنيين . وقد ربطها بعضهم بحوادث قسنطينة من كونها كانت أيضاً معادية لليهود . ومهما يكن الأمر فإن المتظاهرين قد احتلوا مركز الشرطة بالمدينة ، وعاقوا تقدم قوات الأمن ، ولولا إرسال قوات النجدة لظلّت المدينة في أيدي المتظاهرين . وفي الأخير احتلت المدينة عسكرياً وأعلنت فيها حالت الطوارىء وكانت النتيجة أكثر من ثلاثة أشخاص قتلى من الجانبين وجرح خمسة واعتقال عدد غير معروف . وتشير التقارير إلى أن السبب في هذه المظاهرات يعود إلى أن أحد الجنود الجزائريين كان يكثر من شرب الخمر في إحدى المقاهي فتقدم منه شرطي فرنسي لإلقاء القبض عليه فحاول الجندي طعنه بسكين فما كان من الشرطي إلّا أن أطلق عليه الرصاص فأرداه قتيلاً . وتذهب رواية أخرى إلى أن السبب لم يكن كثرة الشرب ولكن مشاجرة حدثت بين بعض الجنود الجزائريين فجاء الشرطي لفك المشاجرة التي انتهت كما انتهت الرواية السابقة . ولكن تقارير أخرى تعطي

---

(43) مهندس (الهجوم) (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 521 ـ 523 .

لمظاهرات سطيف طابعاً عنصرياً شبيهاً بذلك الذي كان في قسنطينة[44] والواقع أن أحداث سطيف كأحداث قسنطينة كانت سياسية في تطورها وأهدافها، رغم أن سببها المباشر قد يكون غير سياسي ، فالجزائريون في منتصف الثلاثينات كانوا واعين لوجودهم السياسي ومدركين طريق حريتهم عن طريق الأحزاب والمنظمات الإصلاحية والصحافة الوطنية . ولكن الفرنسيين اعتادوا أن يفسروا تصرفات الجزائريين تفسيراً غير سياسي في مختلف المناسبات .

وخلال نفس الشهر (فبراير 1935) حدثت أيضاً اضطرابات « خطيرة » في الجزائر ومستغانم . ففي الأولى جرت مظاهرات عنيفة في الميناء والشوارع قام بها عمّال الموانىء احتجاجاً على البطالة . وقد اشترك فيها على الأقل ثلاثة آلاف شخص . أما في مستغانم فقد جرت أيضاً مظاهرات ضد البطالة سادها الاضطراب والفوضى وجرح خلالها رئيس البلدية ونائب الوالي وعقيد فرنسي . وصادفت هذه الاضطرابات في المدينتين زيارة وزير الداخلية الفرنسي السيد رينيه ، الذي كان قادماً لتفقد الأوضاع ومقابلة السيد ابن جلول الذي رفضه من قبل في باريس . ومن بين الأسباب الأخرى التي ساعدت على تفاقم الاضطرابات ، ارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الضرائب ، والاقتراح بسحب الجنود الجزائريين وتعويضهم بجنود سينيغاليين[45] أما الاضطرابات التي حدثت في مدينة وهران وسيدي بلعباس فالظاهر أنها كانت بين الفرنسيين أنفسهم . ففي التاسع من أغسطس سنة 1935 جرت مشادات بين اليهود والأوروبيين . وحدث نفس الشيء في وهران ولكن بين الشيوعيين واليمينيين من الفرنسيين . ولا شك أن بعض الجزائريين قد اشتركوا في هذه الاضطرابات ، ولكن المحرضين عليها كانوا فرنسيين[46] .

ان الأحداث التي عرفتها الجزائر بين 1930 و1935 قد جعلت بعض الفرنسيين لا يصدق أن الجزائريين الذين كانوا في نظره هادئين وموالين لفرنسا سنة

---

(44) حول هذا الموضوع أنظر (النيويورك تايمز) 3 ، 4 فبراير 1935 وكذلك (التايمز) اللندنية ، 4 فبراير ، 1935 ص 11 .

(45) أنظر (النيويورك تايمز) 27 فبراير 1935 ، ص 13 ، و (التايمز) 27 فبراير 1935 ، ص 14 .

(46) (التايمز) 9 أغسطس 1935 ، ص 9 ، و (النيويورك تايمز) 11 أغسطس 1935 ، ص 21 .

1930 يصبحون بعد خمس سنوات يشكلون خطراً داهماً . وقد رأى هذا الكاتب أن الجزائر لم تعرف مثل هذه « الساعة الحرجة » (يعني سنة 1935) منذ ثورة عين التوتة سنة 1915 وماكماهون سنة 1916 . ورغم أن الكاتب عزا هذا الخطر إلى الأزمة الاقتصادية وأحداث الشرق العربي والتعصب الديني فإن الجيش وحده في نظره هو الذي يستطيع أن يضع حداً لذلك الوضع . أما السلطات المدنية الفرنسية في الجزائر فقد عجزت في نظره على وقف التيار(47).

ومنذ تولي الجبهة الشعبية الحكم في فرنسا سنة 1936 عرفت الجزائر تطورات واضطرابات أخرى استمرت آثارها في الواقع إلى سنة 1939 . من أبرز ذلك انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري. ثم تدخل السلطات الفرنسية لتفتيت الجبهة الوطنية بشتى الوسائل. وكانت الاضطرابات التي جرت في العاصمة ووهران وسيدي بلعباس وقسنطينة لا تخرج عن الصدام بين اليمين واليسار سواء بين الجزائريين أو بين الفرنسيين . ومن بين هذه الاضطرابات ما جرى سنة 1937 بين أعضاء حزب الشعب الجزائري والشرطة الفرنسية في العاصمة . فقد تجمع الجزائريون قرب الجامع الكبير للاجتماع لكن الوالي منعهم فهاجموا الشرطة التي أرسلت لتفريقهم مما نتج عنه حوالي خمسين جريحاً(48) . وسنعرض في أحد الفصول إلى موقف الإدارة الفرنسية من التوترات الجزائرية.

وحسبنا هنا أن نختم بحادثة أثارت كثيراً من التوتر وكثيراً من التعاليق في حياة الجزائر في نهاية عقد الثلاثينات ، ونعني بها اغتيال المفتي محمود كحول المعروف بابن دالي، وما تلاها من عواقب. ففي قمة نجاح المؤتمر الإسلامي الجزائري في صيف سنة 1936 اغتال شخص يدعى عكاشة، المفتي المذكور ، كما زعمت المصادر الفرنسية عندئذ . وكان يمكن أن تنتهي الحادثة عند ذلك الحد ، ولكن الأمور تطورت وأخذت منعطفاً سياسياً . فالمفتي كحول كان من المعارضين لحركة المؤتمر والموالين المخلصين لفرنسا في ظاهر الأمر . وقد ادّعى عكاشة القاتل أن الذي حرضه على فعله هو الشيخ الطيب العقبي الرجل الثاني في جمعية العلماء

---

(47) (أفريقية الفرنسية) فبراير 1935 ، ص 69 ـ 71 .

(48) (التايمز) 25 سبتمبر 1937 ، ص 12 .

ومروض مدينة الجزائر كما كانوا يسمونه . فما كان من السلطات الفرنسية إلا أن اعتقلت العقبي أيضاً ومعه أحد أنصار الجمعية المذكورة وهو السيد عباس التركي . وفي اعتقال العقبي قضاء على شخصه وسمعته وبالتالي على نشاطه (أو هكذا تصورت الإدارة ومن وراء ذلك تشويه سمعة الجمعية والإساءة إلى الحركة الإصلاحية ،وزعزعة حركة المؤتمر الإسلامي الجزائري التي لعب فيها العقبي دوراً بارزاً.

وتفاصيل هذه الحادثة قد نعرضها في الحديث عن العلماء ولكن ما أردناه هنا هو أن القضية ظلت بدون حل حتى شهر جوان (يونيو 1939) ، أي قبل بضعة أسابيع فقط من اندلاع الحرب العالمية الثانية . وأثناء هذه المحاكمة التي هي الثانية من نوعها لنفس الأشخاص حضر خلق كثير وأخذت الحكومة الفرنسية كل الاحتياطات فأحضرت إلى المحكمة ثلاث فرق من الحرس المتجول وفرقتين من جنود الزواف ومائتي شرطي ، « وجلبت المحاكمة انتباهاً شديداً : لأنه لا أحد حتى الآن استطاع أن يحدد لها دافعاً مناسباً »[49] ، وأخيراً انتهت المحاكمة بالأشغال الشاقة المؤبدة لشخصين والسجن عشرين سنة لشخص واحد ، وإطلاق سراح الشيخ العقبي وزميله لعدم وجود أدلة ضدهما.

ان هذه المحاكمة ، وإن انتهت بإطلاق سراح العقبي قد نجحت في الواقع في القضاء عليه ، ذلك أنه عندما اجتمعت جمعية العلماء للتداول في النقطة المطروحة عندئذ على جدول الأعمال ، وهي الموقف من تأييد فرنسا في الحرب كانت الأغلبية مع الشيخ ابن باديس الذي اختار الصمت . أما العقبي فلم ير رأي اخوانه ، فاختار الخروج من إدارة الجمعية حفاظاً لها ، مقدماً نفسه كبش الفداء .

لقد انتهى عقد الثلاثينات والتوتر على أشده بين الجزائريين والفرنسيين . فالحكومات الفرنسية المتعددة كانت منشغلة بالمشاكل الداخلية والقضايا الدولية ولم توجد حكومة واحدة قوية استطاعت أن تنفذ إلى صميم المشكل الجزائري، فالمشاريع كثيرة وأهمها مشروع فيوليت ، والتهديدات كثيرة أيضاً ، والوعود كانت بلا حساب ، ووسط ظلام الاضطهاد المتواصل برزت الجبهة الشعبية فعلق عليها الجزائريون آمالاً أكثر من الواقع ، ولذلك لم تحقق لهم أي شيء مما كانوا يطمحون

(49) نفس المصدر ، 21 ، 30 يونيو 1939 ، ص 15 .

فيه وعاملتهم في النهاية كما عاملتهم بقية الحكومات الفرنسية لأن أساس النظرة الاستعمارية واحد.

وهكذا دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية وزعماء الجزائر في السجون وآمال الشعب اختفت في السراب ، ووضع الجزائريين الاقتصادي كان يسير من سيء إلى أسوأ ، واللقاء النفسي بين المجموعة الجزائرية والمجموعة الفرنسية أبعد ما يكون عن التحقيق .

* * *

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الثالث

جماعة النخبة وهيئة النواب

سبق أن تناولنا نشأة وتطور ومعنى النخبة الجزائرية إلى سنة 1930 ، والمطلب الرئيسي ، وهو المساواة في الحقوق مع الفرنسيين ، ظل الشغل الشاغل للنخبة أيضاً خلال الثلاثينات . غير أن نهاية الثلاثينات قد شهدتْ تحولاً لدى النخبة، بعد اليأس من وعود فرنسا ، على يد فرحات عباس وأنصاره . وكما كان هناك نوعان من النخبة قبل 1930 ، النخبة التي تربط مصير الجزائر بفرنسا والنخبة التي تربطه بالعالم العربي الإسلامي (المصلحون من العلماء) فكذلك كان هناك نخبتان بعد 1930 : تلك التي تعلقت بمبدأ المساواة مع الفرنسيين كما وضعه مشروع فيوليت ، وتلك التي تعلقت بمبدأ العروبة والإسلام كما وضعته جمعية العلماء (الإسلام ديني ، العربية لغتي ، الجزائر وطني) . أما النجم وخلفه حزب الشعب وكذلك الشيوعيون فقاعدتهم كما عرفنا ، كانت جماهير العمال سواء في الجزائر أو فرنسا . وكان من أعضاء النخبة المستغربة نواب ومدرسون وأصحاب مهن حرة وصحافيون وموظفون في مختلف القطاعات . ولكن النواب لم يكونوا كلهم من النخبة . بالعكس فقد كانت هناك مجموعة من النواب « التقليديين » من أصحاب العائلات الكبيرة والتجارة والأرض وقدماء المحاربين في الجيش الفرنسي . . . الخ ، وهؤلاء هم الذين كانت فرنسا قد مكنت لهم في المال والجاه ، وفي مقابل ذلك خدموها بالنفس والنفيس . وسنرى أن المعركة كانت حامية أحياناً حتى بين النخبة والنواب التقليديين .

وإذا كانت نخبة العقد الأول من هذا القرن برزت أثناء النقاش الذي صحب قرار التجنيد الإجباري ، وإذا كانت نخبة العشرينات قد انتعشت بإصلاحات 1919 وحركة الأمير خالد ، فإن نخبة الثلاثينات قد تعلقت بأذيال مشروع فيوليت والتفت حوله ووضعت فيه كل آمالها وكأنه كان بالنسبة إليها هدية من السماء إلى الأرض. وقد تكللت جهود النخبة والنواب بانعقاد المؤتمر الإسلامي سنة 1936 وتوجه الوفود

منهم إلى باريس. ولذلك كانت خيبة آمالهم مريرة عندما فشل المشروع[1] وتعلموا بالطريقة الصعبة أنهم كانوا يجرون وراء سراب بقيعة حسبوه ماء وما هو بالماء. وخلافاً لنخبة العقد الأول فإن نخبة عقد الثلاثينات استطاعت أن تكسب إلى جانبها العلماء أو النخبة التقليدية (الإصلاحية) ولا سيما أثناء المؤتمر الإسلامي[2] وبالإضافة إلى ذلك فإن النخبة ـ ومعها بعض النواب ـ لم تستطع أن تكون حزباً سياسياً أو حتى جمعية في مستوى العلماء، ولم تكن كتلة أو وحدة النواب سوى تجمع مرتخ غير متماسك . ومن ثم لم يكن في مقدوره أن يكون رأياً عاماً في البلاد . وهكذا كانت جماعة النخبة والنواب خلال الثلاثينات عبارة عن تيار عام ليس له تنظيم قوي يعتمد عليه ولا صوت زعيم ينطق باسمه .

وأخطر شيء كان يواجه هذه الجماعة حينئذ هو الضياع والخضوع للتأثيرات الخارجية ، ومن ثمة فقدان سلاح المبادرة . وقد صدق من قال ان هذه الجماعة قد رفضها المجتمع الفرنسي وخيب آمالها مشروع فيوليت، وهي توجد وسط محيط من الأهالي ، ملعونة من العلماء كمجموعة من الملحدين والكفرة[3] . وكان الحبل الرقيق الوحيد الذي يمسكهم إلى الحضارة العربية الإسلامية هو الدين بمفهومه التقليدي . ولذلك حاولوا ، طيلة عقود ، مقاومة المغريات التي تعدهم وتمنيهم بكافة الحقوق المدنية والسياسية لو تخلوا عن أحوالهم الشخصية الإسلامية . وقد قال أحدهم « ان روح الكتاب الفرنسيين قد قدمت لنا التفسير العلمي والعقلي لتراثنا الذي تلقيناه عن الآباء والتقاليد ومع ذلك فإن الاسلام قد ظل يمثل إيماننا الخالص والعقيدة التي تعطي معنى لحياتنا . فالإسلام هو وطننا الروحي[4].

وهذا التأرجح بين الإسلام وفرنسا هو الميزة الواضحة لدى هذه الجماعة. فقد كتب أحدهم وهو السيد محمد كسوس سنة 1931 ، بأن احتفال فرنسا المئوي كان مهيناً. ولكنه لم يقترح الثورة ولا المناداة بالاستقلال ولا حتى المعاملة الإنسانية، بل

---

(1) أرون ، ص 63 .

(2) من المعروف أن ذلك مجرد تحالف مؤقت لأن العلماء كانوا كثيري النقد للنخبة كما سنرى .

(3) جوليان ، ص 128 .

(4) أرون ، ص 67 .

اعترف «بأن جيلنا فرنسي فكرياً، رغم أنه يحتفظ بدينه ولغته وعاداته، ومع ذلك فإنه لا يتصور أي شكل سياسي غير الشكل الذي تمثله فرنسا »[5] وسنرى هذا التذبذب بين فرنسا والإسلام عند فرحات عباس أيضاً . وحتى تلك النخبة التي اختارت التجنس بالجنسية الفرنسية (التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية) لم تجد لها مكاناً بسهولة بين الفرنسيين ، فقد روى السيد الفاسي الذي طلب الجنسية الفرنسية ، الصعوبة التي واجهها عندئذ . ذلك أن الموظف الفرنسي أجابه هكذا : « كيف ! أنت من الأهالي، ألا يكفيك ذلك ؟ وهل تعتقد أنه لا يوجد فرنسيون كفاية بدونك »[6] .

ومنزلة البين بين هذه التي يمثلها جماعة النخبة والنواب جعلتهم أيضاً يقفون موقفاً وسطاً في القضايا العامة ويحاولون ترضية الطرفين أحياناً والثورة عليهما معاً أحياناً أخرى ـ فهم مرة يهاجمون الكولون (المعمرين) ويمدحون فرنسا، وأخرى يذمون تعصب المسلمين ويشيدون بالتسامح الأوروبي ، ثالثاً نجدهم يدافعون عن الإسلام وحضارته وينقمون على العناصر الفرنسية التي تثبط من آمالهم وتقف بينهم وبين التحرر عن طريق نيل الحقوق . فهذا السيد ابن الحاج رئيس (نادي الإخاء) يعلن في مدينة الجزائر سنة 1933 في خطبة الافتتاح أن النادي مفتوح لكل من يريد أن يعمل «في سلام واتفاق وإخاء ـ ذلك الإخاء الذي يجب أن يوحد كل أبناء فرنسا »[7].

وأضاف ابن الحاج « أننا جميعاً قبل كل شيء فرنسيون . فوطننا هو فرنسا ، والعلم الذي نعيش تحته هو العلم المثلث » (مهاجماً بذلك رجال الإصلاح الذين اتهمهم بالتعصب والعداء)، وكان ابن الحاج مدرساً وهو يمثل هذا النوع من النخبة التي لا ترى الضوء خارج الإطار الفرنسي . ومن الغريب أنه كان يخاطب حوالي 750 من رجال الدين الموظفين لدى فرنسا عندما تكلم اليهم بالفرنسية هكذا « إن الجزائريين فرنسيون سواء كانوا يتمتعون بالحقوق المدنية ام لا ، وسواء كانوا متعلمين أم أميين . . . فديننا لا دخل له في جنسيتنا التي هي ولا يمكن أن تكون سوى

---

(5) نوشي ، ص 63 ـ 64 نقلا عن (كتاب كسوس : الحقيقة عن حالة القلق الجزائري) .

(6) جوليان ، ص 31 نقلاً عن الفاسي (مذكرات معلم جزائري من أصل أهلي) سنة 1931 .

(7) ديبارمي « بيانان » (افريقية الفرنسية) ، ديسمبر ، 1933 ، ص 782 .

فرنسية » ، وهذه الفكرة تذكر برأي السيد فرحات عباس حين نفى وجود أمّة جزائرية في التاريخ ، الذي سنتعرض له ، وسنعرف أن ابن الحاج أصبح من زعماء النخبة أثناء المؤتمر الإسلامي سنة 1936 وذهب ضمن الوفد إلى باريس . وبعد أن حذر مستمعيه بأن لا يستمعوا إلى الدعاية الشفوية أو المكتوبة عن « الوطنية الدينية أو القومية الإسلامية » لأنه لم يسمع قط « بالقومية الكاثوليكية أو البروتستانتية أو غيرهما » ، طلب منهم أن يعملوا بتضامن وتآخ مع الذين يعيشون معهم (مثلاً المعمرين) وأن لا يعملوا للعيش مع أولئك المسلمين البعيدين عنهم . وختم خطابه بضرورة التعليم بالفرنسية لأنه الأداة الوحيدة للحياة العصرية[8] .

ورغم هذا التمسح الذليل بالأعتاب فإن فرنسا لم تحقق لهؤلاء ما كانوا يطمحون إليه ، فقانون الأهالي والإجراءات الاستثنائية ومطاردة زعماء الجماهير الجزائرية في فرنسا (النجم) وفي الجزائر (العلماء) ظلت وسيلة الضغط الاستعماري الفرنسي على الجزائر . ولكن جماعة النخبة والنواب كانوا كما ذكرنا ينظرون إلى فرنسا لا إلى الجماهير لأنهم كانوا يعتقدون أنهم طبقة ممتازة تطفح على سطح بحر من الغوغاء والمشاغبين والمتعصبين والجهلة . وقد نبههم أحد الكتاب الفرنسيين ، وهو السيد كوزون سنة 1930 ، بأن خلاص الجزائر سيكون في اتحاد النخبة مع الجماهير[9] ومع ذلك لم يعملوا برأيه خلال الفترة المدروسة ، ولم تكد تحل سنة 1937 حتى كتبت جريدة النخبة والنواب (لانتانت) أن الفرنسيين لم ينجزوا أي شيء بل أنهم ضحكوا على الجزائريين « وكل الوعود التي صدرت عن الحكومة والإدارة وكل الخطب الرنانة التي فاه بها رجال البرلمان لم يكن لها أية نتيجة ملموسة[10] .

اتبع النواب والنخبة خلال الثلاثينات سياسة المطالبة بالمساواة في الحقوق مع الفرنسيين مع الاحتفاظ بأحوالهم الشخصية كمسلمين . ومعنى هذا أنهم كانوا

---

(8) نفس المصدر ، أما فرحات عباس فقد هاجم أنانية المعمرين (الكولون) وحملها مسؤولية فشل سياسية المساواة في الحقوق أنظر ص 131 .

(9) عباس ص 225 ـ 226 نقلاً عن كتاب كوزون (مائة سنة من الرأسمالية في الجزائر) .

(10) ريشمون (الإسلام) في (المجلة السياسية والبرلمانية) 1938 ، ص 15 .

يرحبون بفكرة الاندماج عن طريق الحقوق لا عن طريق التجنس . فالأول يجعل منهم فرنسيين مسلمين أما الثاني فيجعل منهم فرنسيين مسيحيين أو لا دين لهم . وهذا المأزق الذي وضعهم فيه القانون الفرنسي هو الذي حاولوا أن يخرجوا منه عن طريق مشروع فيوليت تارة والمؤتمر الإسلامي تارة والتقرب إلى فرنسا تارة ثالثة . غير أن جميع المحاولات قد فشلت[11] وكانت وسيلة النواب والنخبة إلى نيل الحقوق ، تكوين وحدات نواب في الولايات المحلية الثلاث وتأسيس الصحف والنوادي وإرسال الوفود إلى فرنسا ، والمشاركة في الانتخابات المحلية ومهاجمة تصلب المعمرين وتعصب المسلمين . والالتفاف حول مشروع فيوليت والمشاركة في المؤتمر الإسلامي . وكانوا محليين في نظرتهم منغلقين على أنفسهم فيما يتعلق بأوروبا (غير فرنسا) والعالم العربي والإسلامي . وقصارى جهدهم وطموحهم أن يكونوا كفرنسيين مسلمين كما أصبح بعض مواطنيهم فرنسيين يهودا. ولكن عدوهم الألد في تحقيق هذا المطمح ليس هم المصلحين ولا رجال النجم بل المعمرين الفرنسيين الذين رأوا في ذلك خللاً في التوازن الاجتماعي والسياسي الذي يجعل منهم قوة غير منازعة في الجزائر وأغلبية قاهرة باسم الاحتلال والحضارة والعنصر[12] .

خلال سنة 1931 كتب السيد جورج هاردي (وهو مؤلف ومدير للعلوم والمعارف بالمغرب الأقصى) مقالاً : في جريدة (الطان) عن النخبة الأهلية . وقد قسم هاردي النخبة إلى نخبة ماجدة بالوراثة وهي التي تقود العامة ، ونخبة عامية جديدة ، تثقفت بالفرنسية . وهذه الأخيرة هي التي رفضها الأهالي كما رفضها الغرب ، ودعا السيد هاردي المعمرين الفرنسيين بالجزائر إلى التسامح مع القسم الأخير من النخبة التي بدأت كما قال ترفع رأسها[13] ولا شك أن السيد هاردي كان يمسك بزمام نفس الموضوع الذي تناوله موريس فيوليت في كتابه المشهور « هل ستعيش الجزائر ؟ » أثناء نفس الفترة .

---

(11) (فرنسا الحرة) جزء 5 ، 15 أبريل 1944 ، ص 292 ـ 293 .

(12) باربور (مدخل) ص 223 . عباس ص 130 . جوليان ص 131 .

(13) (الشهاب) أكتوبر 1931 .

والملاحظ أن النخبة سارعت إلى التعليق والترحيب بالكتاب الأخير كما اهتمت بمقالة جورج هاردي . فقد ترجم السيد أحمد بن جمعة مقالة هاردي إلى العربية ونشرتها (الشهاب) لسان حال الحركة الإصلاحية . ومن الغريب أن هذه المجلة علقت على المقالة بهذه العبارات : إن الإسلام لا يعارض المدنية وأن ما تطالب به النخبة هو أن يسمح الكولون للجزائريين بالمساواة مع بقاء كل عنصر ، الفرنسيون والمسلمون ، على حدة ، وأن على فرنسا أن تطبق مبادئها في منح الحقوق[14] . أما كتاب فيوليت فقد راجعه عبد القادر تامزالي، وهو من النخبة، في جريدة (الإقدام) وأشاد بصاحبه وشكره على موقفه من المسلمين . والمعروف أن فيوليت وقف مع النخبة وطالب بنبذ التفرقة وبالتعاون بين الفقراء والأغنياء . والملاحظ كذلك أن (الشهاب) قد نشرت المراجعة بالعربية على يد المترجم المذكور بخط كبير[15] .

والنخبة الوراثية التي أشار إليها السيد هاردي هي التي كانت محل هجوم من النخبة الجديدة التي رأت فيها حجر عثرة في طريقها . فبعد انتخابات سنة 1931 شنت (الإقدام) أيضاً حملة على النواب الجهلاء الذين لا يعرفون حتى توقيع أسمائهم والذين صعدوا إلى المناصب عن طريق الرشوة وتأييد الإدارة الفرنسية . واستشهدت الجريدة على ذلك بأن أحد المترشحين في وهران أقسم أن يفوز على خصمه في الانتخابات ولو كلفه ذلك مليون فرنك . وتأسفت « على فشل الأطباء والمحامين والتجار وغيرهم من المثقفين أمام هؤلاء الجهلاء والأغنياء الأغبياء وشيوخ الزوايا ، وذلك منشأ الويل لدعوتنا الشريفة » لأنهم يؤخرون دعوتهم إلى الإصلاح عشرات السنين ويعطلون المطامح الاقتصادية والاجتماعية التي تريد النخبة تحقيقها ، هكذا إذن بدأت المعركة بين النواب الجهلاء « بني وي - وي » وبين النخبة الجديدة . وقد تجرأت (الشهاب) أيضاً على توجيه اللوم إلى الطرفين فوافقت (الإقدام) على ما ذهبت إليه بشأن النواب الجهلاء ولكنها انتقدت النخبة أيضاً عندما تصل إلى المناصب . وبعد أن استشهدت على ذلك بعدة وقائع اتهمت النواب المثقفين (النخبة) بالخوف وموالاة النواب الفرنسيين . لذلك طالبت « بتوحيد القوى

---

(14) نفس الصدر .

(15) نفس المصدر ، سبتمبر 1931 أما (الإقدام) فقد نشرت المراجعة في يوليو من نفس العام .

لطلب التسوية في عدد النواب في المجالس على الأقل »[16] .

وقد استمرت المعركة بين النواب الموظفين (النخبة الوراثية) وبين النواب المثقفين (النخبة الجديدة) طيلة الثلاثينات ولكن لا هؤلاء ولا أولئك استطاع أن يؤلف حزباً سياسياً قوياً يدخل به الانتخابات . فالقسم الأول كان خاضعاً لأوامر موظفيه لا يحيد عن تعليماتهم قيد أنملة ، أما القسم الثاني فقد كان كثير الشكوى ولا يستند على قوة ، لا قوة الإدارة ولا قوة الشعب . فكان يعيش على أمل ضئيل وهو أن يغير الكولون ذات يوم موقفهم من النخبة أو تفرض فرنسا إرادتها على مستوطنيها في الجزائر ، إرضاء للنخبة أيضاً . ولكن ذلك لم يحدث .

والواقع أن انتخابات 1931 كانت محكاً لموقف النواب عامة لأنها جاءت بعد الاحتفال المئوي وكان الناس ينتظرون من ممثليهم أن يعبروا عن إرادتهم لدى الفرنسيين . وبهذه المناسبة كتب أحدهم بتوقيع (كاتب كبير) في مجلة (الشهاب) بعنوان « موقف الناخبين » توجه فيه باللائمة إلى النواب الجزائريين سواء كانوا مثقفين أو جهلة ، واتهمهم بالجبن والفوضى ، وتساءل صاحب المقال عن عجز النواب الجزائريين عن تأسيس حزب سياسي مثل الأحزاب الفرنسية له برنامج محكم ومبدأ لا يحيد عنه ، ثم يؤسس قسم آخر حزباً سياسياً آخر وهكذا حتى يعرف الناخب والنائب والحكومة مواقف الجميع . قال إن في الجزائر من تتوفر فيه هذه الشروط ولكن تنقصه « الشجاعة الأدبية » ثم أنه لا يريد أن يظهر من هذه الفوضى في الانتخابات حتى يظل غير مقيد « بمبدأ حزبي ولا بفكرة شعبية » وحتى يسهل عليه « التلون والتملص، إذا دعت ذلك المصلحة الخاصة »[17] .

وإذا كان المصلحون قد هاجموا النواب بقسميهم فإن هؤلاء كانوا غير منسجمين فيما بينهم . فخلال سنة 1932 اشتدت النخبة الجديدة على النخبة الوراثية حتى أطلقت عليها اسم « كلاب فرنسا » ورموهم بألقاب الهوان والضعة . فعندما عينت فرنسا خمسة من القياد ونحوهم لكي يشتركوا كمستشارين في اللجنة الوزارية

(16) نفس المصدر نوفمبر 1931 .

(17) نفس المصدر أكتوبر 1931 تحدي الكاتب النواب أن يخيبوا ظنه ويؤسسوا أحزاباً سياسية بها (حياة الجزائر الفرنسية ونجاح قضيتها ونيل مطالبها الطبيعية المعقولة) .

المختلطة للشؤون الأهلية بباريس، هاجمهم المثقفون ، واعتبروهم موظفين فقد الشعب الجزائري أمله فيهم . فهم الذين مدحوا عمل فرنسا في الجزائر سنة 1930 ومشوا الخيلاء ببرانيسهم الحمراء وأوسمة الولاء والإخلاص لفرنسا[18] .

وكان مجلس الوفود المالية موضع هجوم المصلحين سنة 1932 فقد أظهر « عجزاً واضحاً وقصوراً فاضحاً » ؛ عند مداولات ميزانية سنة 1933 وهو عند الناس أصبح آلة عاطلة لا تقوم بأي خدمة لصالح المجتمع . وما الفائدة في استمرار هذا المجلس إذن ؟ ولاحظ الكاتب أن المجلس (الذي يتكون أساساً من مجلس المستوطنين ـ درجة أولى ـ ومجلس الأهالي ـ درجة ثانية) لم يعد يحقق أية فائدة . فالأهالي فيه يعتبرون « كمية مهملة ليست في العير ولا في النفير » لذلك طالب الكاتب بتغيير هذا المجلس « على قاعدة التساوي بين المسلمين والفرنسيين وتحرير نظامه من الأساس حتى يصبح قادراً على التفكير والابتكار والإنتاج »[19] وقد اشتكى العلماء بمرارة من لائحة السيد ابن علال الذي كان نائباً في المجلس المالي والتي دعا فيها الإدارة الفرنسية إلى منع العلماء من استعمال المساجد للوعظ والإرشاد وقصرها على موظفي فرنسا[20] .

وكما هاجم العلماء بعض النواب والنخبة هاجمهم هؤلاء أيضاً ، ونعني بهم خريجي المدارس الفرنسية . والواقع أن الذين بدأوا الهجوم هم الخريجون المذكورون على لسان السيد ابن الحاج الذي سبق ذكره . وكان هذا مدرساً ومحامياً . وقد وصفه الفرنسيون المعاصرون بأنه « من أفضل العناصر المتخرجة من مدارسنا ، فهو ذكي . . . يعيش عصره ويحسن فهم الأوضاع التي يعيشها مواطنوه وكان معتنقاً للفكر الليبرالي وأول فرد في النخبة يدعو إلى ضرورة التسامح في أرض التعصب وقد رفض الفكرة الإسلامية ، وخاطب المستمعين الذين كانوا من رجال

---

(18) ديبارمي (القادة) في (أفريقية الفرنسية) يناير 1933 ، ص 13 ـ 14 عينت فرنسا المستشارين المذكورين خلال يونيو 1932 .

(19) (الشهاب) ديسمبر 1932 .

(20) ديبارمي (المظاهرات) في (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 537 نقلاً عن جريدتي (الدفاع) و (الثبات) .

الدين بالفرنسية ولم تترجم خطبته ، ودعا مواطنيه أن يتجهوا إلى فرنسا وهاجم العلماء المصلحين والقومية الدينية » ، وكان ذلك في افتتاح نادي الإخاء الذي أقامته (جمعية علماء السنة) في أول يونيو 1933[21] وكانت المعركة قد بدأت منذ 1931 عندما أعلنت (جمعية قدماء التلاميذ) في جريدة (لابريس ليبر) إن ابن باديس يشكل خطراً وأن العلماء رجعيون يفتخرون بالجامعات القديمة ويعلمون التعصب والافتخار بالنسب . وقد صرح رئيس هذه الجمعية أن قدماء التلاميذ « سيحاربون بكل الوسائل كل تعصب وكل النظريات التخريبية التي تقف في طريق تطورنا الفكري والمادي » على الطريقة الفرنسية[22] .

ورغم هذه اللهجة فإن النخبة قد ظلت تعمل وتفكر في إطار الإسلام . وهناك عدة أحداث تثبت أنها (النخبة) قد عادت إلى نفس الطريق التي سار عليها العلماء سواء عن اقتناع شخصي أو عن تحالف مصلحي . وتذكر بعض المصادر أن الإسلام قد تغلغل حتى في قلب الشيوعيين الجزائريين ، رغم جهلهم بمحتواه . ويذكر هذا المصدر أنه شاهد سنة 1943 رئيس الحزب الشيوعي الجزائري يؤدي صيام رمضان[23] . وهناك أحداث أخرى تدل على تقارب وجهات النظر بين النخبة والعلماء . وقد عرفنا أن هؤلاء يعتبرون أنفسهم على رأس النخبة العربية الإسلامية في الجزائر.

وهناك شخصيتان لعبتا دوراً بارزاً باسم النواب والنخبة خلال الثلاثينات هما الدكتور محمد صالح بن جلول والصيدلي فرحات عباس . وقد بدأ نجم الأول يصعد منذ فشل حركة الأمير خالد في الجزائر ، في الوقت الذي ظهر فيه على أنقاضها أيضاً نجم أفريقية الشمالية في باريس بزعامة مصالي الحاج . وكانت نقطة الانطلاق لحركة ابن جلول هي سنة 1930 وما تلاها من تنظيم العلماء أنفسهم في جمعية (1931) ومن تكوين اتحاد شيوخ البلديات الفرنسيين في الجزائر ومن إنشاء فرع للحزب الشيوعي الفرنسي بالجزائر . ويذكر السيد فرحات عباس أن ابن جلول قد دخل

---

(21) نفس المصدر (مظاهرتان) ديسمبر 1933 ، ص 782 ـ 783 .

(22) نفس المصدر (مصلح) مارس 1933 ، ص 153 ـ 154 .

(23) جورج بوسكي (النخبة) في (عالم الإسلام) ص 28 ، 29 . وكان إذاك هو السيد عمار أوزقان .

المسرح سنة 1933 كرئيس لكتلة النواب في ولاية قسنطينة[24] . وخلال سنة 1934 (أكتوبر) جرت انتخابات المستشارين العامين فأحرزت فيها كتلة النواب على أغلبية ومن بين الأسماء التي ظهرت خلال ذلك فرحات عباس (عن سطيف) والدكتور سعدان (عن بسكرة) وقاهرية الزين (عن سوق اهراس) وخلاف (عن جيجل) والدكتور الأخضري (عن قالمة) وابن عبود (عن عين البيضاء) وبوصوف (عن ميلة) وسراوي (عن الخروب) وشرعت هذه الكتلة ، التي تضم في صفوفها أكثرية من النخبة حاملة الشهادات من المدارس الفرنسية ، تلعب دوراً هاماً في الحياة الجزائرية ولا سيما على المستوى المحلي[25] .

وإلى جانب ظهوره على مسرح الانتخابات وتزعمه حركة النواب شارك ابن جلول في عدة مناسبات جعلت منه الشخصية المرموقة بعض الوقت . وقد سلطت عليه الأضواء كثيراً بين1933 ـ 1939 فلعب دوراً في أحداث قسنطينة التي جرت خلال أغسطس 1934 حتى أن بعضهم عزا سبب المظاهرات التي جرت عندئذ إلى الإشاعات التي راجت من أن اليهود قد قتلوه ، وشارك في السنة الموالية في اللجنة الوزارية المختلطة المكلفة بالشؤون الأهلية والتي كان مقرها في باريس ، ورأس عدة وفود إلى هناك تأييداً لمشروع فيوليت أو تقديماً لمطالب النواب . وخلال سنة 1936 أصبح ابن جلول الشخصية الأهلية الأولى في الجزائر عندما قدمه المؤتمر الإسلامي ليكون رئيساً له وليترأس وفد المؤتمر إلى باريس ، غير أن حادثة اغتيال الشيخ كحول وفشل مشروع فيوليت من جديد قد جعل ابن جلول يغير من مساره ويعيد النظر في علاقاته وإمكانياته . ولم تكد تحين سنة 1938 (يوليو) حتى تخلى ابن جلول عن المؤتمر الإسلامي وكون هيئة جديدة خاصة به سماها (التجمع الفرنسي ـ الإسلامي الجزائري) بينما انفصل نصيره وزميله فرحات عباس عنه وكون هو بدوره هيئة خاصة

---

(24) وفي هذه السنة توجه ابن جلول إلى باريس على رأس وفد ، ولكن وزير الداخلية عندئذ رفض استقباله ، كما سبق أن أشرنا .

(25) عباس ص 127 جرت عدة انتخابات خلال 1934 ـ 1935 شاركت فيها النخبة والنواب بقسط وافر ، من ذلك انتخابات أكتوبر المذكورة وانتخابات مجلس المالية يناير ـ فبراير 1935 والانتخابات البلدية (المستشارون) والجماعة خلال أبريل ـ مايو 1935 أنظر جان مينانت (الانتخابات البلدية الجزائرية) في (أفريقية الفرنسية) يونيو 1935 ، ص 353 .

به سماها (الاتحاد الشعبي الجزائري)[26] وعندما دقت أجراس الحرب الثانية كان ابن جلول من أوائل المتطوعين فيها يؤدي (واجبات) العلم الفرنسي بينما لم تعترف له فرنسا (بالحقوق) التي طالما رفع عقيرته مطالباً بها باسم الجزائريين.

ولم يقم ابن جلول بما قام به دائماً بمبادرات شخصية . فقد كان إلى جانبه ، بالإضافة إلى فرحات عباس الذي سنتكلم عنه ، عبد الحميد بن باديس الذي كان من نفس المدينة ، وكما كان ابن باديس في حاجة إلى ابن جلول كان هذا في حاجة إليه . وإذا كان العلماء بحكم مبادئهم وتكوينهم بعداء عن السياسة فإن ابن جلول كان أحياناً هو صوتهم الذي ينطقونه في المناسبات ، لأن تكوينه وشخصيته ووظائفه الرسمية تؤهله لذلك . وتثبت وثائق المؤتمر الإسلامي (انظر فصلاً آخر) أن ابن باديس هو الذي رشح ابن جلول لرئاسة المؤتمر وكان يحضر معه في قسنطينة التجمعات الشعبية . وإذا صدقنا بعض الروايات الشفوية فإن كلاً من عباس وابن جلول قد أثرا على ابن باديس في اعتداله وعدم تطرفه تطرف العقبي مثلاً قبل حادثة الشيخ كحول . ومن جهة أخرى أثر ابن باديس في الرجلين فجعلهما يؤيدان أحياناً الحركة الإصلاحية ويتبنيان مطالبها ويتحالفان معها ضد المرابطين والنواب الرجعيين وغيرهم من خصوم الجمعية . بل ان العلماء على يد ابن باديس قد جعلوا الرجلين المذكورين يعتنقان في الظاهر على الأقل، مبدأ العروبة والإسلام (وابن جلول أقل من صاحبه) على غرار ما فعل الأمير شكيب أرسلان مع مصالي[27].

وهذا الاتجاه الذي اعتنقه ابن جلول هو الذي جعل بعضهم يتهمه بأنه كان يمثل اليسارية الإصلاحية بالجزائر ، فبعد انتخابات أكتوبر البلدية سنة 1934 فاز (حزب ابن جلول) حسب تعبير الوقت في مدينتي قسنطينة وعنابة ووسم حزبه « بالإصلاحي » كما كان العلماء التقدميون يوسمون « بالمصلحين »،بل إن بعضهم أضاف بأن حزب ابن جلول كان يقوم على ثلاثية واضحة وهي أفكار « روسو وابن سعود ، ولينين » ومهما كان في هذا التعبير من تناقض ومبالغة فإنه يعكس روح

---

(26) أرون ، ص 74 .

(27) أنظر رسالة شكيب ارسلان عن مصالي في جريدة (تونس الفتاة) عدد ممتاز ، أبريل 1939 مع صورة لمصالي وصوة أخرى لعلم نجم شمال أفريقية (أخضر كله مع نجم أحمر في ظل أبيض) .

الوقت ونظرة المعاصرين لشخصية ونفوذ ابن جلول . فروسو يمثل حركة التنوير والليبرالية الفرنسية وابن سعود يراد به الحركة الوهابية الإصلاحية (التي ألصقت بالعلماء أيضاً » ولينين يرمز إلى الثورة البولشفية والاعتماد على الجماهير ، غير أن هذا المصدر يعترف بأن حزب ابن جلول غير ثوري ولا أيديولوجي[28] .

وكما اقترب ابن جلول من العلماء باعتناق فكرة الإصلاح اقترب أيضاً من نجم أفريقية الشمالية بمطالبته بإلغاء القوانين الاستثنائية . فأثناء انتخابات الوفود المالية في فاتح 1935 طالب ابن جلول بإلغاء قانون الأهالي ، وقانون الغابات ، وبالمساواة في الخدمة العسكرية، ونحو ذلك من المطالب التي تمهد لفكرة المساواة العزيزة على النخبة ، وقد اتهم ابن جلول السلطات الفرنسية المحلية أيضاً بتدبير اضطرابات قسنطينة في أغسطس 1934 عندما أغلقت المساجد صبيحة الخامس من الشهر المذكور (وهو يوم الاضطراب)[29] ونتيجة لتوالي الاضطرابات التي تلت منشور ميشال اقترح ابن جلول في بداية 1935 أن يترأس وفداً إلى باريس ليطلع السلطات هناك عن كثب على الوضع السائد في الجزائر .ولكن وزير الداخلية رينيه، رفض ذلك مما حز في نفس ابن جلول وجعله يقترب أكثر من العلماء ويزداد انتقاداً للإدارة الفرنسية في الجزائر[30] .

وقد اختلفت الآراء حول دور وشخصية ابن جلول . فصحيفة (الثبات) ذات الميول الاصلاحية وصفته « بغاندي الجزائر » و « زغلول الجزائر » أما جريدة (الأمة) لسان نجم أفريقية الشمالية التي كانت تصدر في فرنسا ، فقد وصفته بأنه الحلقة التي تربط الشعب الجزائري بفرنسا[31] وأما الكولون (المعمرين) فقد وصفوه حسب

---

(28) مينو (الانتخابات الأهلية) في (أفريقية الفرنسية) فبراير 1935 ص 78 ـ 80 وخلال 1934 أرسل ابن جلول برقية (نشرتها جريدة الدفاع الإصلاحية) إلى الحكومة الفرنسية باسم كتلة النواب يرفضون رواية الحاكم العام السيد كارد لأنها محابية، عندما ذهب هذا إلى باريس لشرح الموقف في الجزائر ، وطالبوا بدلاً منه أن ترسل الكتلة وفداً عنها إلى باريس لعرض وجهة النظر الأهلية، ولكن ألبير صارو رفض (وهو وزير المستعمرات عندئذ) واكتفى بعرض الحاكم العام ، وبذلك صدم ابن جلول من جديد ، أنظر ديبارمي (المظاهرات) في (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ص 547 .

(29) مهندس (الهجوم) في (أفريقية الفرنسية) فبراير 1935 ، ص 93 .

(30) (التايمز) ، 19 فبراير ، 1935 ، ص 13 .

(31) مينو (عن رحلة رينيه إلى الجزائر) في (أفريقية الفرنسية) مارس 1935 ص 154 .

المناسبة ، فإذا رأوا ابن جلول قد انجذب أكثر نحو التيار الوطني قالوا عنه إنه قد دخل زاوية الإصلاح سخرية به ، وإذا رأوه قد مال أكثر نحو الولاء لفرنسا مدحوه بالشجاعة ونحوها . وهكذا نعتوه يوم أن كان في باريس يحضر اجتماعات اللجنة الوزارية المختلطة في بداية 1936 . فقد دعاه أعضاء النجم هناك لشرح برنامجه أمامهم فرفض بينما قبل دعوة (نادي الفوبورق) حيث تحدث عن موقف كتلة النواب المسلمين من مشاكل الجزائر ، بما في ذلك مشكلة اليهود ، وقضية الولاء لفرنسا . وكان هذا الموقف منه قد استحق عليه مدح المعمرين[32] .

وأثناء أحداث قسنطينة لعب النواب ورئيسهم ابن جلول ، دوراً هاماً . فقد سعوا أولاً إلى منع حدوث ما حدث ثم سعوا إلى تخفيف التوتر الذي حل بالمدينة والمطالبة بالرأفة في معاملة مواطنيهم الذين اتهموا بتدبير الحوادث ، وكان الهدف من تلك المساعي أيضاً تبرئة أنفسهم أمام الإدارة حتى لا ينقض عليهم سيف الاتهام . فقد أعلن حوالي ثلاثين شخصية من أعيان ونواب قسنطينة إلى الحاكم العام وممثله والى قسنطينة، على احترامهم لفرنسا (بلادنا) واحترامهم للنظام. وأبدوا استعدادهم لتأييد جهودها في إعادة النظام والأمن . ويلاحظ أن من بين الشخصيات الموقعة على الوثيقة: ابن جلول وابن باديس الأب والإبن[33] .

والنخبة التي تعلقت بفرنسا تعلقاً وثيقاً رفضت خلال الثلاثينات الاعتراف بوجود أمة جزائرية ، وقد رأينا كيف عالج السيد ابن الحاج هذا الموضوع . أما ابن جلول فقد نفى أن تكون هناك وطنية جزائرية وكل ما هناك في رأيه، هو الوطنية الفرنسية . فقد كتب في جريدته (لانتانت) أنه من الخرافة الحديث عن الشعب وعن الجامعة الإسلامية في الجزائر لأن كل الأعمال والكتابات التي تصدر عن الشبان (النخبة) الجزائريين هي أعمال وكتابات فرنسية : « الشيوعية ، الجامعة الإسلامية ألم نرفض

---

(32) مهندس (دفاعاً عن إفريقية الشمالية) في (أفريقية الفرنسية) مارس 1936 ، ص 148 ويقال ان السيد سليمان بن سليمان التونسي قد تدخل معترضاً على ابن جلول في مناداته بدمج الجزائر في فرنسا ، وكان ابن سليمان يتحدث باسم النجم .

(33) مهندس (الهجوم) في (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 524 ويلاحظ أن ابن باديس الأب كان عضواً في مجلس الوفود المالية مثل ابن جلول ولذلك لا نستغرب العلاقة بين هذا والحركة الإصلاحية، ومن بين الموقعين أيضاً مامي إسماعيل مدير جريدة (النجاح) اليمينية .

ألف مرة هاتين الفكرتين المتناقضتين . . وإذا كان لدينا وطنية أفليست هي فرنسية لحماً ودماً ؟ »[34].

وأثناء نفس المدة أعلن السيد فرحات عباس رأياً أكثر وضوحاً وصراحة حول هذه النقطة عندما كتب مقالة بعنوان « فرنسا هي أنا » وفي هذا المقال أنكر عباس وجود وطن جزائري قائلاً « إن الوطنية عاطفة تدفع شعباً من الشعوب إلى العيش معاً داخل حدود معينة وهي التي أدّت إلى قيام سلسلة الأمم الحاضرة . ولو أني اكتشفت وجود أمة جزائرية لكنت وطنياً . إن الوطنيين يكرمون لأنهم يموتون من أجل فكرة وطنية ، ولكني غير مستعد أن أموت من أجل وطن جزائري لأن هذا الوطن لا وجود له . فقد بحثت عنه في التاريخ فلم أجده . نعم وجدت الدولة العربية والدولة الإسلامية اللتين شرفتا الإسلام وشرفتا جنسنا ، ولكنهما ولدتا لعصر غير عصرنا ولأناس ليسوا أناسنا . وليس هناك من يفكر جدياً في وطنيتنا . فالذي يهم بالدرجة الأولى هو التحرر الاقتصادي والسياسي لجماهير الجزائر . إن هذا التحرير ضرورة لأن فرنسا هي أنا[35].

وفرحات عباس يعتبر الشخصية الثانية لجماعة النخبة والنواب خلال الثلاثينات . وإعلانه السابق يمثل من جهة تمزق النخبة بين الانتماء للحضارة العربية الإسلامية التي تمثل الجزائر وجهها الحقيقي والانتماء للحضارة الفرنسية التي ملأت عليهم وجودهم . ومن جهة أخرى يمثل رأي النخبة في الوطنية الجزائرية . وهو الرأي الذي ما زالت رواسبه موجودة إلى اليوم . ورغم أن فرحات عباس قد عدل رأيه فيما بعد وتحول إلى الوطنية الجزائرية ، فإنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن يئس من الوطن الفرنسي. ويكشف عن هذا التدريج في موقفه قول الكاتب الفرنسي جان لاكوتير الذي قال بأن كل حياة فرحات عباس « هي تاريخ البحث عن وطن في فرنسا »[36] . وكان فرحات عباس يعتبر النزاع القائم بين الجزائريين وفرنسا هو نزاع

---

(34) ديبارمي (مساهمة) في (أفريقية الفرنسية) أغسطس ـ سبتمبر 1937 ، ص 424 وقد أعلن ابن جلول ذلك في 27 فبراير 1936 .

(35) نفس المصدر وكذلك ساراسين ، ص 169 ـ 171 وجوليان ص 111 وقد نشر عباس مقاله في جريدة (لانتانت) 23 فبراير 1936 .

(36) نقله أرون ص 66 .

داخل عائلة واحدة . ولذلك كان شديد الهجوم على المعمرين والعنصريين الفرنسيين الذين حالوا دون التفاهم بين النخبة الأهلية وبين فرنسا الحقيقية في نظره . وفي رده على مجلة (أفريقية اللاتينية) العنصرية كتب عباس مرة يقول : « إننا مسلمون وفرنسيون وأننا أهليون وفرنسيون »[37] وقد كان فرحات عباس لا يتكلم باسم شخصه فقطه ، بل باسم أصدقاء ابن جلول السياسيين أيضاً .

وبعد قيام الثورة دافع فرحات عباس عن آرائه خلال الثلاثينات . وقد سمى ذلك « مواقف » ؛ حاول الاستعماريون استغلالها لكي يبرهنوا على أن الوطنية الجزائرية لا جذور لها . وقال انه كان في هذه المواقف واقعياً ، وأن الشعب الجزائري « قد وجد » كحقيقة ، ولكن القضية كانت هل الواجب المطالبة أولاً بدستور للجزائر قائم على الشكل الوطني أو الواجب محاولة إنقاذ الشعب مادياً ومعنوياً من التدهور الذي كان يعانيه ، وقد اختار هو الحل الثاني ، ذلك أن النشاط السياسي ليس هو بالضرورة استعادة السلطة بالقوة فقط ، بل إنه في نظره ، النضال من أجل تحسين وتنظيم العلاقات الإنسانية[38] .

وقد لخص عباس أسباب فشل النخبة الجزائرية عندئذ فيما يلي :

1 ـ الاعتقاد بأن زعماء فرنسا الذين اجتمعوا بهم كانوا يمثلون الثورة الفرنسية ويتزعمون تحرير الشعوب المستعمرة .

2 ـ كون النخبة قد وحدت صراع الشعوب المستعمرة من أجل الحرية مع صراع البروليتاريا الفرنسية ، ولكن عندما نالت هذه كثيراً من حقوقها لم تتضامن مع الشعوب المستعمرة .

3 ـ عزلة المعمرين من النخبة مما جعل الأولين يتعاونون مع القياد والباشغوات والمرابطين ضد النخبة[39] .

---

(37) نفس المصدر ص 67 ، عن تطور تفكير عباس السياسي والوطني أنظر مقالة شار روبير آجرون « فرحات عباس والتطور السياسي للجزائر المسلمة خلال الحرب العالمية الثانية » في (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 4 يوليو 1975 ، ص 125 ـ 144 .

(38) عباس ص 129 ـ 130 .

(39) نفس المصدر ص 191 ـ 192 .

وكانت سنة 1937 بداية الشعور بالمرارة والفشل لدى النخبة ، فالآمال العريضة المعلقة على الجبهة الشعبية ومشروع بلوم ـ فيلويت قد تبعثرت . وقد عبر عباس عن هذه المرارة والفشل في رده على السيد هنوز الذي كتب مقالة في جريدة (لافواديز نبل) بعنوان «في خدمة الذين يعانون»، وجاء في رد عباس أن هنوز «رجل اشتراكي قبل أن يكون أهلياً وأنا رجل أهلي قبل أن أكون اشتراكياً . . . وهو يناقش ويعرض المشكل كما لو كنا في أوروبا وبين أوروبيين ، أما أنا فأعرضه كما يجب أن يعرض في مستعمرة»[40] . والشعور بالأهلية وبكونه في مستعمرة يمثل بداية التحول عند فرحات عباس وجماعة النخبة من أمثاله . ولذلك فهم لم ينتظروا طويلاً حتى عبروا عن هذا التحول في أشكال جديدة ولكنهم مع ذلك ظلوا يعيشون على الأمل الضعيف شأن المعتدلين المترددين .

ففي السنة الموالية أي سنة 1938 أنشأ عباس حزباً بزعامته ، منفصلاً عن تيار ابن جلول الذي قاد إلى طريق مسدود، وقد أطلق عباس على حزبه الجديد اسم (الاتحاد الشعبي الجزائري) وهو عنوان ضخم يمثل في حد ذاته الانطلاقة الجديدة لعباس وأنصاره ، كما يمثل بداية اتجاه النخبة إلى الشعب . ولعل هذه الطائفة قد ذاقت طعم دور الجماهير ابتداء من سنة 1936 أثناء المؤتمر الإسلامي ورأت مدى نفاذ كلمة العلماء وسط الطبقات الشعبية . وقد رأى عباس نفسه سنة 1936 كيف حملت الجماهير مصالي الحاج على الأكتاف يوم الثاني من أغسطس وشعر ببداية تسرب النجم إلى المدن . ومن جهة أخرى شهدت سنة 1937 ميلاد (حزب الشعب الجزائري) فلماذا لا يشكل هو (عباس) حزباً سياسياً جديداً يمثل اتجاهه ويعبر عن النظرة الجديدة للنخبة القائمة على الاعتماد على الشعب بدل الاتصال رأساً بالفرنسيين ؟

ومهما يكن من أمر فإن الحزب الجديد أنشىء بهدف « نيل حقوق الإنسان والمواطنة » وقد أعلن عباس عندئذ بأن « وعوداً قد أعلنت ولكن لم يتحقق شيء منها. . . فتحرير الإنسان الأهلي سيكون مهمة الإنسان الأهلي نفسه، ولكي يتحقق ذلك لا بد من تحرك الجماهير : لذلك فإن واجبنا يتمثل في شعار ـ بالشعب من أجل

---

(40) ريشمون (الإسلام) في (المجلة السياسية والبرلمانية) 1937 ، ص 12 .

الشعب ـ فالأسواق والمقاهي العامة والدواوير يجب أن تكون هي ميادين العمل . ونحن نأمل أن تعتمد الجزائر على الديمقراطية الفرنسية ولكن تحتفظ بذاتها وبلغتها وبعاداتها وبتقاليدها »[41] وأعلن عباس عندئذ أنه في صالح ارتباط الجزائر بفرنسا لا في دمجها فيها.

والواقع أن ظهور أبن جلول وفرحات عباس وغيرهما من زعماء النخبة يعود أساساً إلى مشروع فيوليت . ونحن لا نريد أن نعود إلى تحليل هذه الوثيقة ولكن نريد معرفة موقف النخبة منها ، وهو الموقف الذي لا يفهم على حقيقته إلا إذا قورن بموقف المعمرين منها أيضاً . ذلك أن المشروع كان يهدف بالدرجة الأولى إلى إدماج النخبة في المعمرين . بينما رفض هؤلاء ذلك الإجراء بكل شدة بل قاوموه ، لأنه يجعل منهم أقلية في مستقبل الأيام . فطرفا القضية (المشروع) إذن هما النخبة من جهة والمعمرون (الكولون) من جهة أخرى . فكيف تجاذباها ؟ ومن انتصر في النهاية ؟ يروي عباس أن وزير الداخلية الفرنسي البير صارو ، قد أعلن له سنة 1937 أنه (الوزير) قد حاول إقناع المعمرين بصلاحية المشروع وخاطب وطنيتهم وعقولهم وقلوبهم ولكنه اقتنع في النهاية بأنهم لا يملكون «وطنية ولا عقولاً ولا قلوباً ، وكل ما عندهم هو الجهاز الهضمي »[42] .

مثلت النخبة والنواب في تبني مشروع فيوليت (كتلة النواب المنتخبين) . وهي منذ بدأ الحديث عن المشروع وقفتْ إلى جانبه وأيدته بحماس شديد . وكان موقفها خلال المؤتمر الإسلامي لا يحتاج إلى توضيح . وعندما بدأ الضغط على الجبهة الشعبية لكي تتراجع عادت التحركات . وكان قرار الجبهة بحل النجم خلال يناير 1937 إيذاناً بأن التيار كان ضد الوطنيين . لذلك تحركت كتلة النواب في وهران في بداية الشهر المذكور . وإثر اجتماع عقد لهذا الغرض أصدروا لائحة بعثوا بها إلى الوزير الأول ليون بلوم، وإلى السيد فيوليت، وإلى وزير الداخلية، وإلى الحاكم العام استنكروا فيها الأعمال التي لا يمكن السكوت عنها لبعض شيوخ البلديات (الفرنسيين) بالجزائر ، وأعلنوا تأييدهم المطلق للمشروع لأنه « يحقق الآمال

---

(41) أرون ص 75 وكذلك نوشي ص 95 ـ 96 .

(42) عباس ، ص 131 ـ 132 .

المشروعة للمسلمين الفرنسيين ولانه يتماشى مع سياسة فرنسا في الجزائر القائمة على فكرة الاندماج ، وكذلك أصدرت كتلة النواب في قسنطينة والجزائر لائحتين في نفس المعنى . الأولى بتاريخ 15 يناير ، والثانية بتاريخ 12 منه[43] .

ونشط النواب خلال نفس العام من أجل الدفاع عن المشروع فكثرت المؤتمرات والتجمعات واللوائح والوفود . من ذلك أن وفداً برئاسة السيد ابن جلول قد توجه إلى باريس بتاريخ 5 مارس . وقد استقبله هناك السيد وزير المستعمرات ولكن النتيجة كانت مجموعة من الوعود . وشعر النواب والنخبة بضغط الكولون على الحكومة الفرنسية الجديدة (التي خلفت حكومة الجبهة) فاستعملوا طريقة كان المعمرون قد هددوا بها وهي الاستقالة الجماعية . ولذلك استقال حوالي ثلاثة آلاف نائب جزائري قبل نهاية العام احتجاجاً على تأخير مناقشة المشروع في البرلمان. وعاد ابن جلول وعباس على رأس وفد إلى باريس وقابلهما وزير الداخلية البير صارو وانتظرا هناك الموافقة على المشروع ووعدا في مقابل ذلك بسحب استقالة النواب إذا نجح المشروع . وبدأت مناقشة المشروع بل إن إحدىٰ مواده قد تمت الموافقة عليها[44] .

ولكن ذلك كان بمثابة ناقوس الخطر بالنسبة للمعمرين . فجندوا صحافتهم وممثليهم في البرلمان الفرنسي (ولم يكن للجزائريين ممثلون هناك) وأموالهم لمنع الموافقة على المشروع . وقد استعملوا ضغطاً آخر وهو الاستقالة الجماعية من الوظائف العامة ، كما حدث عندما استقال حوالي 300 شيخ بلدية ، في 8 مارس 1938 ، ثم تعاقبت الاستقالات . وكانت اتحادية شيوخ البلديات في وهران قد

---

(43) توينبي (مدخل) جـ 1 ، 1937 ، ص 518 وكانت لائحة وهران بتاريخ 8 يناير 1937 وقد وقعها سبعة أشخاص ونصت أيضاً على أن السيادة الفرنسية في الجزائر لن تتأثر نتيجة لتطبيق المشروع . أنظر أيضاً جريدة (لوطان) 9 يناير 1937 وقد أعلن تأييده للمشروع أيضاً مؤتمر الطرق الإخوانية الذي عقد بالعاصمة في 7 فبراير 1937 .

(44) توينبي (مدخل) جـ 1 ، 1937 ، ص 518 ، يعلل أرون لحماس النواب والنخبة للمشروع بالضغط الذي كان قرار رينيه قد مارسه عليهم . أنظر ص 73 ويقتضي المشروع حصول حوالي 27 ألف جزائري على الجنسية الفرنسية بدون التخلي عن الحالة الشخصية الإسلامية ، أنظر توينبي (مدخل) جـ 1 ، 1937 ، ص 517 .

أصدرت لائحة في 5 يناير 1937 تضمنت ما يلي :

معارضة لجنة المؤتمر الإسلامي بوهران لأنها تصور (شيوخ البلديات) كأعداء للجزائريين . معارضة مشروع فيوليت لأن عواقبه وخيمة على مستقبل الوطن الفرنسي . كون هذا المشروع لا يؤيده سوى الثوريين المتطرفين في الجزائر وهم الذين يعملون على إنشاء أمة جزائرية تهدف إلى الانفصال عن فرنسا ، تحذير جميع النواب الفرنسيين من العواقب الخطيرة التي قد تنجم من الموافقة على المشروع . وقد قامت اتحادية شيوخ البلديات في قسنطينة بحركة مماثلة أيضاً[45] . وأمام هذه الضغوط والتهديدات قررت حكومة السيد دلاديه الجديدة (ابريل 1938) وضع حد للمشروع ، كما سبقت الإشارة .

ولكن الجذب والدفع بين النخبة والمعمرين قد تواصل حتى عشية الحرب الثانية ، فقد حاول السيد البير صارو وزير الداخلية بعد فشل مشروع فيوليت ـ أن يتقدم بمشروع قرار إلى البرلمان يعطي لحوالي 27 ألف جزائري نفس الحقوق التي للمعمرين . ولكن هذه الخطوة أثارت سخط هؤلاء من جديد وقدم شيوخ المدن استقالاتهم . وكان هدف صارو من ذلك ، حسب رأي صحيفة بريطانية ، « منع المثقفين المسلمين (الجزائريين) من الانجذاب نحو حركة الجامعة الإسلامية أو القومية العربية »[46] أما النخبة والنواب فقد استردوا استقالتهم التي كانوا قدموها احتجاجاً . وقد علقت على ذلك مجلة (الشهاب) بأن السلطات الفرنسية قد تكون قد طمأنتهم بأن مشروع فيوليت قد مات ، وأن احتجاجهم لم يعد له معنى[47] .

وكثرت وفود النواب والنخبة على باريس سنة 1939 رغم فوز الاتجاه الوطني

---

(45) (لوطان) 7 يناير 1937 ، بينما الشيوخ مجتمعون كان الجزائريون يهتفون بحياة الجبهة الشعبية وبعضهم بحياة موريس فيوليت ، وكانت صحف (صدى وهران) و (وهران الصباح) و (الدبيش الجبريان) من أشد الصحف عداء للجزائريين ـ النخبة والنواب خاصة . أنظر نوشي ، ص 91 ـ 92 وعباس ، ص 127 ـ 130 . وليس صحيحاً أن الثوريين المتطرفين كانوا يؤيدون المشروع . لأننا عرفنا أن النجم كان ضده ، وكذلك خلفه حزب الشعب .

(46) (التايمز) 9 مارس 1938 ، ص 13 . وكان ذلك هو الخوف الذي ساور فيوليت أيضاً صاحب المشروع .

(47) (الشهاب) مايو 1938 .

في الجزائر الذي يمثله حزب الشعب ، فقد كانوا يترددون هناك على السلطات الفرنسية المعنية (مثلاً وزير الداخلية) مطالبين بالإبقاء على الوعود في إنجاز الإصلاحات ورفع الضيم . فذهب هناك ابن جلول رئيس كتلة النواب بقسنطينة ورجع بوعود أخرى . وعاد مرة ثانية إلى باريس برفقة فرحات عباس وتامزالي وجماعة أخرى من النواب، وكان هدف هذا الوفد «الجديد والنهائي» الحصول على إلغاء قرار رينيه الذي خنق الحريات (1935) وإصدار العفو العام على المحكوم عليهم نتيجة ذلك القرار ، وإلغاء قراري 13 يناير 1938 و 8 مارس من نفس العام الراميين إلى الحد من نشاط النوادي ومحاربة التعليم العربي الحر ، ورفع عدد النواب المسلمين بالمجالس المحلية المنتخبة بنسبة 3 ـ 5 ، وتنفيذ مشروع فيوليت بقرار حكومي بدل إصداره عن طريق البرلمان(48) ويمكن أن تسمى هذه النقط برنامج النخبة في ذلك الوقت . وهو برنامج متواضع قاصر على مصالح خاصة بطبقة معينة ، ولا يكاد يتعرض إلى القضايا الأساسية التي كان المجتمع الجزائري ـ مجتمع الطبقات المحرومة ـ يعاني منها أو يتطلع إليها .

ولكن رد المسؤولين الفرنسين على وفد النواب كان سلبياً . فالحكومة كانت غير مستعدة أن تعود إلى مشروع أثار كثيراً من الضجيج والاحتجاج من المعمرين . لذلك كان رد البير صارو وشوطان واضرابهما هو أن يعود الوفد إلى الجزائر ويحاول التفاوض مباشرة مع المعمرين والاتفاق معهم على مشروع قابل للتنفيذ من الحكومة . وقد أبرزت (الشهاب) أهم نقط المشروع الجديد فقالت بأن الدلائل تشير إلى أن الاتفاق الجديد الذي تم خلال أحد اجتماعات الوفود المالية نص على التخلي عن مشروع فيوليت من النخبة وتعويضه بمشروع آخر لا يعارضه الكولون معارضة كبيرة ولا يتحمس له النواب كثيراً ، وهو أن النخبة الأهلية ـ حملة الشهادات العلمية ـ وأصحاب الأوسمة والموظفين الإداريين يفقدون تماماً حالتهم الشخصية الإسلامية ويصبحون إجبارياً فرنسيين كلية مثل يهود الجزائر 1871 . ولهؤلاء

---

(48) نفس المصدر . وكذلك (افريقية الفرنسية) ، مايو 1939 ، ص 145 وقد نعتت هذه المجلة زيارة وفد النخبة والنواب إلى باريس بأنها « خطوة غامضة » وقد قابل الوفد أيضاً السيد شوطان المكلف بالشؤون الأهلية .

المتجنسين حقوق وواجبات الفرنسيين . أما بقية المسلمين فلهم حرية البقاء على الحالة الإسلامية . وهم بذلك يؤلفون كتلة انتخابية خاصة بهم ولهم الحق في إرسال مَن يمثلهم في مجلس النواب الفرنسي على نسبة عدد الممثلين الفرنسيين . وقد لاحظت (الشهاب) أن هذا المشروع الجديد هو نفسه برنامج الأمير خالد سنة 1918 . ويقتضي المشروع أيضاً زيادة عدد ممثلي الجزائريين بالمجالس المحلية بنسبة 2 ـ 5(49) .

وبدل أن يهتم الفرنسيون بمطالب النخبة المتحمسة لهُم عن علم، اهتموا بطائفة أخرى كانت مرتبطة بهم عن جهل . وهذه الطائفة هم القياد ورجال المخزن والموظفون الإداريون والأغوات . . . وقد تزعم هذه الطائفة السيد عزيز بن قانة الملقب بشيخ العرب . وبوحي من السلطات الفرنسية وأمام دقات طبول الحرب الثانية اجتمع حوالي أربعين شخصاً من هؤلاء الرجال وأسسوا جمعية باسم (أحباب فرنسا أو الميعاد الخيري) وقد سافر أعضاء هذه الجمعية إلى باريس أيضاً لا ليطلبوا من فرنسا تطبيق الإصلاحات كما فعل النواب والنخبة ، ولكن ليعلنوا ولاءهم وولاء أتباعهم لفرنسا(50) .

وكما سارع رجال المخزن والزوايا والطرقية (وكذلك المفتيون والأيمة والأعيان) إلى الإعلان عن تأييد فرنسا في وجه أخطار الحرب الداهمة سارع أيضاً رجال النخبة والنواب ، رغم أنهم لم ينالوا شيئاً مما كانوا يطلبون ، وقد خابت كل آمالهم، فقد تطوع إبن جلول وفرحات عباس والدكتور الأخضري وأضرابهم لخدمة العلم الفرنسي دفاعاً عن « الوطن » المهدد ، وأعطوا بذلك المثل لأنصارهم . وعبروا عن ولائهم لفرنسا « أم الوطن » . وأصدر إبن جلول زعيم النخبة والنواب خلال الثلاثينات بياناً إلى الجزائريين جاء فيه « أيها الإخوان الأعزاء في كل مكان ، في

---

(49) (الشهاب) يونيو 1939 .

(50) نفس المصدر ، مارس 1939 وقد علقت هذه المجلة بأن فرنسا إذا كانت تعتبر ابن قانة هو الشعب الجزائري فهي على خطأ لأن ذلك لا يخدع الستة ملايين جزائري ولا الرأي العام العالمي ، وإذا كانت فرنسا تريد الحصول على ولاء الجزائريين فعليها أن تراعي المصلحة المشتركة لأن الجندي الجزائري لا يدافع عن فرنسا إلا إذا شعر أنه يدافع عن حريته وحقوقه أنظر أيضاً (أفريقية الفرنسية) سنة 1939 ، ص 105 ـ 106 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

المدن وفي الدواوير ، قد أجبتم ـ حاضرون ! ـ لنداء الوطن » . وقد ذكر الجزائريين بأن أجدادهم ، وهم أنفسهم ، قد قاموا بواجبهم نحو فرنسا : سنة 1870 و 1914 . وأضاف بأنهم « سينصرون السلام والحرية والديموقراطية . وبالتالي سيخدمون الإنسانية ، بتحقيق انتصار فرنسا »[51] .

وهكذا دخلت النخبة الحرب إلى جانب فرنسا ناصرة إياها على الجزائريين من جهة وعلى الألمان والطليان من جهة أخرى . فماذا كان الجزاء ، إن فرنسا نفسها لم تثبت أمام تقدم النازية . وسيكون لسقوطها سنة 1940 عواقب على نخبة الجزائر . وسنعالج ذلك في محله .

---

(51) (أفريقية الشمالية والحرب) في (أفريقية الفرنسية) أغسطس ـ سبتمبر 1939 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الرابع

جمعية العلماء وجمعية الطلبة

تأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) يوم الخامس من مايو سنة 1931 بالعاصمة . وقد ضمت 72 عالماً جزائرياً جاؤوا من مختلف أنحاء القطر ومن مختلف الاتجاهات الدينية ، فكان فيهم المتطرفون وهم المصلحون عندئذ . . وفيهم «الرجعيون» وهم غير المصلحين من رجال الدين الجزائريين. وقد تكونت في العاصمة (لجنة تأسيسية) برئاسة السيد عمر اسماعيل ووجهت الدعوات للحضور وحددت تاريخ ومكان (نادي الترقي) الاجتماع. وتألف المجلس الإداري من ثلاثة عشر عضواً على رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس الذي لم يحضر إلاّ في اليوم الثالث والأخير للاجتماع . فكان انتخابه غيابياً . وأغلب الأعضاء كانوا من المصلحين . ويبدو أن دخول رجال الدين من القطاعات الأخرى كان مجرد « تكتيك » ويظهر ذلك من أن المناصب الهامة قد تولاها المصلحون.

ولعل هذه المرونة في جمع الكلمة وتوحيد الصفوف هي التي جعلت الإدارة الفرنسية تسارع إلى الإعتراف بالجمعية وتوافق على قانونها الأساسي بعد خمسة عشر يوماً فقط من تقديمه[1] وكان تأسيس الجمعية على هذا النحو يعتبر « شهر عسل » بالنسبة لرجال الدين عامة وهو الشهر الذي استمر عاماً فقط كما سنرى لأن أهداف

---

(1) الشهاب يونيو 1931 . نشرت (الشهاب) و(النجاح) و(البلاغ) أخبار الاجتماع التأسيسي للجمعية رغم أن الثانية تمثل الموالين للإدارة والأخيرة الطريقة العلوية . أما الأولى فهي مجلة ابن باديس وليست لسان حال الجمعية . وأعضاء اللجنة الدائمة هم : عمر إسماعيل (رئيس) ومحمد المهدي (كاتب) آيت سي أحمد عبد العزيز (أمين مال) محمد الزمرلي ، الحاج عمر العنق (عضوان) . يدعى السيد توينبي (مدخل) سنة 1937 ص 501 أن جمعية العلماء ولدت نتيجة المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بالقدس سنة 1931 .

الجميع لم تكن واحدة . ومهما كان الأمر فقد تقبل الرأي العام تأسيس الجمعية بغبطة . واستبشر بها الوطنيون لأنها ولدت بعد الاحتفال المئوي بالاحتلال فكانت تمثل سطعة الأمل بعد ظلام اليأس.

ولم يكن رئيس الجمعية ولا معظم أعضائها يقيمون بالعاصمة . لذلك عين ابن باديس لجنة دائمة مقرها العاصمة وتتكون من خمسة أعضاء يرأسهم السيد عمر اسماعيل أيضاً ، مهمتها التنسيق بين جميع الأعضاء وحفظ الوثائق والميزانية والتحضير للاجتماعات الدورية للمجلس الإداري . وقد يتساءل المرء عن السبب الذي دفع الأعضاء إلى جعل العاصمة هي مقر الجمعية مع أن رئيسها من قسنطينة وحركته نبعت من هناك ، ومعظم تلاميذه كانوا متوزعين في الشرق الجزائري . والظاهر أن اختيار العاصمة يعود أساساً إلى كونها مقر السلطة الإدارية العامة وكونها مقر (نادي الترقي) الذي ولدت فيه الجمعية والذي كان أعضاؤه من دعاة تأسيسها ومن مؤيديها مادياً (وهو عامل كبير) ولعل إبن باديس نفسه أراد أن يبعد عنه احتكار الحركة الإصلاحية والجمعية فرضى أن يكون مقرها في العاصمة حتى تكون فعلاً في الظاهر على الأقل ممثلة لجميع علماء القطر وليس للمصلحين فقط . ومن أجل ذلك أشار في خطبة قبوله رئاسة الجمعية إلى كونه كرس حياته للتعليم وكونه من دعاة التفاهم بالحكمة والموعظة الحسنة سواء مع رجال الدين غير المصلحين أو الإدارة الفرنسية[2] .

والواقع أن حركة الإصلاح لم تبدأ بجمعية العلماء . فالحركة كما عرفنا في الجزء الثاني تعود إلى العقد الأول من هذا القرن ثم تبلورت ونضجت على يد ابن باديس وتلاميذه وأنصاره خلال العشرينات . فخلال هذا العقد نشأت الصحافة الإصلاحية وتأسست النوادي ونبتت المدارس الحرة ومساجد الوعظ والإرشاد في كثير من القرى الجزائرية ومدنها . وكان ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة

---

(2) نفس المصدر،وكذلك حمزة بوكوشة (المعرفة) الجزائرية ، أبريل 1964 ص 12 وبوكوشة من الذين حضروا تأسيس الجمعية . ومن أهم الأسماء في المجلس الإداري ما يلي : الإبراهيمي ، العقبي ، الميلي ، بيوض ، الحافظي ، وكما شكر الشيخ باديس السيد عمر إسماعيل وشيوخ الدين شكر أيضاً السيد (ميرانت) المستشرق المكلف بالشؤون الأهلية في الولاية العامة .

بشخصه وقلمه ولسانه وتلاميذه وسمعته . ولم يكن ميلاد جمعية العلماء ميلاداً للإصلاح كما يتوهم البعض . بل لعل ميلادها على النحو الذي تأسست به كان خدمة للاتجاهات الأخرى غير الإصلاحية التي كانت تشعر بأنها أصبحت خارج التيار الاجتماعي فأرادت أن تستعيد نفوذها عن طريق الجمعية . كما أن الإدارة الفرنسية كانت تطمع من وراء الجمعية إلى ملء الفراغ الذي كان الأهالي يحسون به ولا سيما بعد القضاء على حركة الأمير خالد وحل نجم افريقية الشمالية . وما يضير الادارة أن تتأسس جمعية دينية تجمع كلمة رجال الدين في الجزائر ؟ فمن كان منهم معها فأمره واضح ومن كان منهم « حراً » فأمره سهل إذ سرعان ما يتغلب الموالون على الأحرار وتكون هي الرابحة في النهاية . وقد كان المصلحون من جهتهم عارفين بهذه النوايا ، ولذلك أخفوا في البداية أهدافهم البعيدة وسالموا خصمهم إلى أن لم يعد هناك مجال للمسالمة.

وإذا تكلمنا عن جمعية العلماء خلال الثلاثينات فالكلام في الواقع عن ابن باديس . ومن الممكن أن يزعم المرء أنه لولا ابن باديس لما تأسست جمعية العلماء . ولا يمكن عكس هذه القضية فيقال مثلاً أنه لولا جمعية العلماء لما كان ابن باديس . ورغم أن هناك عوامل أخرى ساعدت على تأسيس الجمعية كوجود نادي الترقي وشخص عمر اسماعيل[3] فإن شخصية ابن باديس هي التي وحدت كلمة المؤسسين وجمعت شملهم على تمزق . ولم يكن ابن باديس لشخصه وعلمه فقط ولكن لعناصر أخرى جعلته جديراً بالثقة التي منحها له المجتمعون رغم غيابه عنهم . فقد كان أولاً من عائلة عريقة من جهة وموالية للفرنسيين من جهة أخرى . وبهذه الصفة كان ابن باديس في حماية من اضطهاد الإدارة الفرنسية . وكان ابن باديس ثانياً من قسنطينة وهي عاصمة جهوية كبيرة فكان له فيها أنصار إذا خذله الآخرون ومفاخرة إذا اقتضى الأمر ذلك . وأخيراً كان ابن باديس معتدل الأحكام متسامحاً مع خصوم الإصلاح ، كما أنه كان هو نفسه ، حسب بعض المصادر ، طرقياً في بداية

---

(3) يذكر المرحوم أحمد توفيق المدني انه كان أيضاً من دعاة تأسيس جمعية العلماء بل يذهب إلى انه كان هو المؤسس لها وهي دعوى لم يسلم بها المعاصرون انظر مذكراته (حياة كفاح) جـ 2 ، 1977 ، ص 172 .

أمره ، وفي هذا الإطار اعتنى بكتب التصوف ونحوه[4] . وهذه الخصائص لم تكن متوفرة في رجال الإصلاح الآخرين أمثال العقبي والإبراهيمي ، لذلك اختير ابن باديس رئيساً للجمعية ومنح ثقة المصلحين والمحافظين على السواء.

وليس من هدفنا إعادة ما كتبناه عن أهداف الجمعية ووسائلها ومذهبها وعلاقاتها في الجزء الثاني[5] فنحن نعتقد أن ما تناولناه هناك عن هذه القضايا كاف ، وهو يغطي أيضاً عقد الثلاثينات ، ولذلك فإننا سنقصر حديثنا هنا على ما استجد من القضايا وعلى موقف العلماء منها ، وعلى بعض التغييرات التي قد تكون حدثت في علاقات الجمعية وتكتيكها حسبما أملت عليها الظروف الجديدة.

وقد كتب الكثير عن أهداف جمعية العلماء . وبعضهم قصرها على التعليم العربي ومحاربة الخرافات وتصفية الإسلام مما علق به من الشوائب خلال القرون المتأخرة . وبعضهم قرنها بالنشاط السياسي ومعاداة الاستعمار وبفكرة تكوين الدولة الجزائرية . بينما آخرون نظروا إلى العلماء على أنهم مجموعة من أنصاف المثقفين وردوا على الجزائر من الخارج يحملون معهم مذاهب هدامة وأفكاراً أجنبية عن المجتمع الجزائري . وقد لخص أحد أعضاء الجمعية سنة 1935 أهدافها فيما يلي : إحياء الإسلام بإحياء القرآن والسنة ، وإحياء اللغة العربية وآدابها ، وإحياء التاريخ الإسلامي وآثار قادته[6] .

أما السيد فرحات عباس الذي لم يكن من العلماء فقد ذكر أن أهدافها كانت تجديد الإسلام ، والصراع ضد المرابطين أداة الاستعمار ، وتكوين إطارات الثقافة العربية[7] بينما السيد جوزيف ديبارمي رأى سنة 1932 أن أهداف جمعية العلماء تتمثل في فهم لغة القرآن ، والعودة إلى الثقافة الإسلامية القديمة ، واعتبار المغرب العربي كقلعة للعبقرية الشرقية في وجه الغرب ، وتنقية وتبسيط الدين الإسلامي .

---

(4) نشر ابن باديس كتاب (العواصم من القواصم) لابن عربي وكذلك (المنظومة الرحمانية) وكتب في جريدة (النجاح) قبل أن يستقل برأيه وصحافته . أنظر مقالتنا « مراسلة غريبة بين ابن باديس واحد علماء سوف » في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة) ، الجزائر 1984 .

(5) أنظر (الحركة الوطنية الجزائرية) ط 3 ، الجزائر ، 1982 ، ص 407 .

(6) محمد خير الدين ، السجل ص 160 .

(7) عباس ص 126 .

وقد لاحظ نفس الكاتب أن كلمة السر لدى العلماء هي « تعلموا . . . توحدوا » ونقل نفس الكاتب عن (الشهاب) أنها حددت أهداف العلماء في : إيقاظ الجزائريين من نومهم لكي يطالبوا بحقوقهم ويأخذوا مكانهم في الحياة الكريمة ، وتخليص الدين من الخرافات(8) ولم يخرج شارل أندري جوليان عن نفس الخط تقريباً فالعلماء في نظره كانوا يعملون لتطهير الإسلام وتكوين كيان جزائري قائم على الثقافة العربية الإسلامية(9) .

وفكرة الكيان الجزائري قد طرحها ابن باديس خلال الثلاثينات، فبالرغم من أن معظم الكتّاب متفقون على أن العلماء كانوا بعيدين عن السياسة ، فإنهم متفقون أيضاً على أن هدف العلماء البعيد كان سياسياً سواء أرادوا ذلك صراحة أو لم يريدوه . وقد خضع العلماء خلال الثلاثينات والأربعينات إلى نفس المعاملة التي خضع لها السياسيون من جانب الإدارة الفرنسية التي اعتبرتهم خطراً على الوجود الفرنسي كما اعتبرت أولئك ، وزجت بزعمائهم في السجون ووجهت إليهم مختلف الاتهامات وحكمت عليهم أحكاماً قاسية . وكانت مشاركة العلماء في المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936 قد جَلبت عليهم نقمة الخصوم والإدارة معاً بدعوى أنهم قد « انحرفوا عن هدفهم الديني » كأن الدين عند هؤلاء هو العبادات فقط . وكان موقف إبن باديس من قضية الأمة الجزائرية سنة 1936، أيضاً قد جعل أصابع السياسة تتحرك متهمة الجمعية بأنها تخوض فيما لا يعنيها . فعندما نفى السيد فرحات عباس كما سبق ، وجود أمة جزائرية في التاريخ رد عليه ابن باديس بأنه قد نظر في الماضي والحاضر ووجد أن الأمة الجزائرية قد تكونت عبر العصور ، وأن لهذه الأمة تاريخها ودينها ولغتها وثقافتها وخصائصها ، وأن هذه الأمة ليست فرنسية ولا تستطيع أن تكون فرنسية ولا تريد أن تكون فرنسية(10) .

وهناك مواقف أخرى عبرت فيها الجمعية خلال الثلاثينات على رؤيتها السياسية

---

(8) ديبارمي (القادة) في (أفريقية الفرنسية) يناير 1933 ، ص 15 ـ 16 .

(9) جوليان (أفريقية الشمالية) ص 114 .

(10) نفس المصدر ص 114 ـ 115 ونقلاً عن (الشهاب) عدد أبريل 1936 وكذلك سارسين (الأزمة الجزائرية) ص 173 نقلاً عن نفس المصدر . أنظر كذلك نوشي ص 89 .

على الأقل على لسان رئيسها ابن باديس . فقد قال مرة بأن الاستقلال حق طبيعي لكل شعب على الأرض . وعارض هو وأنصاره الاندماج بشدة واعتبره خطراً على وجود الكيان الجزائري . وكثيراً ما تحدث تلاميذه عن حادثتين ينسبونهما إليه . الأولى في نطاق الجمعية عندما رفض مجلسها الإداري سنة 1938 الإعلان عن تأييد فرنسا في صورة ما إذا نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا ، والثانية في النطاق الشخصي . فهم يتحدثون عن « فكرته العظيمة » لو طال به الأجل ، ويعنون بذلك أنه كان يخطط لإعلان استقلال الجزائر خلال الحرب الثانية عندما كانت فرنسا في أحرج الساعات من تاريخها ، ولكن الموت عاجله سنة 1940 ، ولذلك فهم لا يستبعدون أن تكون وفاته غير طبيعية[11] .

والواقع أن حركة العلماء كانت متعددة الأهداف إذا نظرنا إليها نظرة المعاصر الذي يوزع المسؤوليات على أصحاب الاختصاص . فالمعاصرون وزعوا أحمال الوطنية الجزائرية على هيآت معينة ، وخصوا كل هيئة بحمل . فأعطوا النخبة صفة الاعتدال وتأييد الإندماج ، وأعطوا النجم صفة الثورية والانفصالية عن فرنسا ومعاداة الفرنسيين . وأعطوا العلماء صفة الدفاع عن العروبة والإسلام وإصلاح الدين والمجتمع . فإذا خرجت هيئة عن اختصاصها في عين المعاصر فهي منحرفة عن أهدافها غير وفية لمبادئها . ولكن الحقيقة هي أن العلماء كانوا مصلحين بالمعنى الشامل للإصلاح . والإصلاح بالمعنى الشامل قد يبدأ بالثقافة أو بالدين أو بالمجتمع . ولكنه في نهاية الأمر يغطي كل مظاهر الحياة في مجتمع ما ، بما في ذلك السياسة . وهذا بالضبط ما حدث للإصلاح في الجزائر . وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض المعاصرين كانوا يفرقون بين الحركات العربية والإسلامية، فالوهابية مثلاً كانت في نظرهم حركة أجنبية عن الجزائر وكذلك العبدوية (نسبة إلى محمد عبده) والأفغانية وغيرها بينما الواقع أن هذه الحركات تنبع من أصل واحد هو الفكر الإسلامي ومن حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية . وعلماء الجزائر كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً من هذا الفكر وهذه الحضارة وممثلين لهما في الجزائر وليسوا

---

(11) من أحاديث شخصية ما يزال أصحابها أحياء ولا يريدون الإعلان عن أسمائهم ما داموا على قيد الحياة .

غرباء أو أجانب عنهما .

وإذا جاز لمصلحي مصر أو تونس أن لا يهتموا بالسياسة فإن ذلك لا يجوز لمصلحي الجزائر ، فالإسلام كما هو معروف دين ودولة . ولا يمكن أن نتحدث عن الإصلاح في الإسلام مجرداً عن معنى الدولة ، وهذا حتماً هو عين السياسة ، ومن جهة أخرى فإن مصر كانت تتمتع تحت الاستعمار الإنجليزي بكيان سياسي محلي وكذلك تونس تحت الاستعمار الفرنسي بينما الحال لم تكن كذلك في الجزائر . ففرنسا كانت تحكم حكماً مباشراً وهي لا تحكم باسم الدين الإسلامي ، ولذلك جردت الدين من محتوى الدولة وصيرته تعبدياً فقط . فعلماء مصر وتونس في هذه الحالة كان يكفيهم أن يصلحوا ، إذا أرادوا ، الجانب التعبدي من الإسلام ، ولكن ذلك لا يكفي للعلماء المصلحين في الجزائر . فقد كان عليهم أن يصلحوا الجانب التعبدي والجانب السياسي أيضاً ، وهذا ما جعلهم يصطدمون بالإدارة الفرنسية لأول وهلة كما صيرهم في نظر البعض لا يختلفون عن حزب سياسي يتدخل في كل القضايا التي تهم الشعب الجزائري .

ومهما يكن من أمر فإن مواقف العلماء السياسية ستظهر أكثر خلال وبعد الحرب العالمية الثانية وستكون لنا فرصة أخرى نتناول فيها هذا الموضوع عندئذ . وحسبنا الآن أن نذكر أن العلماء خلال الثلاثينات قد وجدوا أنفسهم أحياناً وسط العواصف السياسية فلم يسعهم إلاّ ركوبها إمّا لأنهم كانوا يبحثون عن حلفاء داخل التيارات المحلية ، وإما لأن الإدارة ضيقت عليهم الخناق ـ كما رأينا ـ فلم يبق أمامهم سوى الصراع المباشر ، وإما لأن الفرصة كانت مواتية كما حدث في المؤتمر الإسلامي عامة فأرادوا أن يجربوا حظهم ويخوضوا أحداث الوقت مع الخائضين ، وإذا كان العلماء عامة قليلي التجربة بالسياسة ، بل وتعوزهم العقلية السياسية ، فإن شخصية إبن باديس والعقبي كانت تتوفر على كثير من عناصر القدرة والذكاء والتجربة والطموح وهي جميعاً من مقومات رجل السياسة . وقد لخص ابن باديس مبادىء وأهداف الجمعية سنة 1935 فيما يلي «القرآن إمامنا، والسنة سبيلنا، والسلف الصالح قدوتنا، وخدمة الإسلام والمسلمين وإيصال الخير لجميع سكان الجزائر غايتنا»[12] .

---

(12) عبد الحميد ابن باديس (السجل) ص 76 .

ولكن إذا كانت مبادىء وأهداف العلماء لم تتغير في جوهرها ، فإن وسائلهم قد خضعت للظروف . ويمكننا القول أن هذه الوسائل ظلت أيضاً في جوهرها واحدة وهي المسجد والمدرسة والنادي والصحافة . فالمسجد كان للوعظ والإرشاد بطريقة العلماء الجديدة في فهم الدين ودوره في الحياة . والمدرسة كانت لتربية وتعليم النشىء الجديد وتخريج إطارات الثقافة العربية الإسلامية . والنادي كان للتوعية والتوجيه الوطني بالخطب والمحاضرات والمسامرات والمسرحيات والأشعار والأناشيد . والصحافة كانت لنشر المبادىء والأهداف والدعوة إلى اليقظة ، والدفاع عن الجمعية ضد خصومها سواء كانوا من الإدارة الفرنسية أو من قطاعات المجتمع الأهلي .

وقد أضيفت إلى ذلك خلال الثلاثينات وسائل أخرى كانت في الواقع بنت المناسبات . من ذلك الاحتجاج ، والمقابلات وإرسال الوفود ، والرحلات والمشاركة في التجمعات العامة ونحوها . فمنشور ميشال وقرار رينيه أثارا موجة من الاحتجاج لدى الجمعية قابلتها بالسخط في صحافتها واجتماعاتها وبالبرقيات والرسائل إلى المسؤولين ، وكان أعضاء الجمعية يقابلون المسؤولين الفرنسيين على الشؤون الأهلية ويبدون لهم تذمر الجمعية من الإجراءات التي تتخذ ضد حرية التعليم والصحافة والوعظ في المساجد . وكانت آخر مقابلة في هذا الشأن مع الوزير رينيه نفسه عند زيارته للجزائر في ربيع سنة 1935 ، وقام ابن باديس وأنصاره برحلات في مختلف أنحاء الجزائر يبثون دعوتهم وينشرون الوعي لدى الجماهير ويتصلون برجال العلم والإصلاح بالمناطق النائية ويستثيرونهم لتحمل مسؤولياتهم الدينية والاجتماعية . وخلال سنة واحدة قاموا بزيارة أكثر من خمسين مدينة[13] أما المشاركة في التجمعات العامة وإرسال الوفود فيتضح من حركة المؤتمر الإسلامي . فقد شارك فيها العلماء بنشاط كبير وذهب منهم وفد فيه رئيس الجمعية والعقبي والابراهيمي إلى باريس واجتمع هناك برجال دولة فرنسا وبالصحافة الفرنسية وبرجال نجم أفريقيا

(13) نفس المصدر ، استخدمت الجمعية أيضاً الخطب والمناشير والمظاهرات للتعبير عن سخطها من مضايقات الإدارة الفرنسية . حول هذا الموضوع أنظر ديبارمي (المظاهرات) في (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 545 ـ 546 .

الشمالية . وكانت هذه بدون شك فرصة لهم لإطلاع الساسة الفرنسيين والرأي العام على ما يجري في الجزائر وعلى ما يهدفون إليه من حركتهم وعلى ما تعانيه دعوتهم من اضطهاد ومضايقات.

وكانت الجمعية في سيرها تمشي على حبل رقيق . فهي تأمل وتحتج ، تسخط على إدارة فرنسا في الجزائر وتثق في ديمقراطية فرنسا في أوروبا ، وتطالب بالحرية وبالاستقلال للجزائر ولكن عن طريق فرنسا ، وتثور على رجال الدين ، الذين تستعملهم فرنسا ، وتدعو إلى وحدة رجال الدين ولو كانوا من المحافظين الموالين لفرنسا ، وتحذر النواب والنخبة من مغبة الإندماج والمطالبة بالمساواة في الحقوق وتستنجد بهم ضد منع الإدارة صحفها وعلماءها[14] ومساجدها من ممارسة نشاطها . ولا تتردد الجمعية إذا ما اقتضت الضرورة أن تتحالف ، كما زعم بعضهم ، حتى مع الشيوعيين والفاشيستيين واليهود ، ضد الإدارة الفرنسية بالجزائر . ولعل هذا (التكتيك) هو الذي جعل الجمعية أحياناً محل نقد ممن لم يفهموا حقيقة خطتها . ولا نستبعد أن تكون الإدارة الفرنسية قد حلت الجمعية وقضت عليها في مهدها لو لم تختر هذا الطريق المحفوف بالأخطار والمزالق ، وقد كان ابن باديس في الواقع هو (بسمارك) الجزائر خلال الثلاثينات فكان يدير لعبة الدين كما كان بسمارك يدير لعبة السياسة ، وكلاهما نجح في خطته ما دام على قيد الحياة ، وبقي لرجال الأخلاق أن يحكموا على قيمة عمل كل منهما.

وفي التقرير الذي قدمه لمؤتمر الجمعية الخامس صور ابن باديس طريقة الجمعية في معالجة قضايا الساعة وهي الطريقة التي تجمع الاحتجاج إلى الثقة والشكوى المرة إلى التعلق بحبل الأمل . فقال يخاطب زملاءه في الاجتماع « لقد أبدت الجمعية أمل الأمة وألمها من ناحيتها الخاصة بها بما نشر لها وبما أبرقت من برقيات وما أرسلت من كتب . وقد أبدت ما لها من أمل يوم قابل رجالها وزير فرنسا م . ريني وسمعت منه ما قوى ذلك الأمل . وكم كان يسرني لو استطعت أن أذكر لكم اليوم شيئاً من تحقيق ذلك الأمل ، لكن بغاية الأسف لا أستطيع أن أقول لكم إلّا أنه

---

(14) روبير آرون (أصول حرب الجزائر) باريس 1962 ، ص 76 ـ 77 ، أنظر أيضاً ديبارمي (المظاهرات) في (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ، ص 538 ـ 539 .

لم يتحقق شيء منه، فالمساجد ما تزال موصدة الأبواب في وجوه الوعاظ والمرشدين، والمكاتب (المدارس) العربية ما زالت تلقى العراقيل الشديدة، وصحيفة الجمعية ما تزال في نطاق المنع والتحجير، وما يزال رجال من أشخاص الجمعية البارزين تحت الرقابة والشدة بغير ذنب . غير أننا لا نقطع حبل الرجاء ما دام على رأس الإدارة رجل عالم خبير يقدر العلم وأهله ربما انفسح أمامه المجال للعمل في عهد الولاية الجديدة . ومع ذلك فانى إبقاء لصوت الحق أرفع بإسم جمعكم هذا إلى المراجع العليا الاحتجاج على بقاء هذه الحالة التي يحال فيها بين علماء الإسلام ومساجد الإسلام ويحال فيها بين الأمة وتعلم دينها في أماكن دينها ويعرقل فيها المسلمون على تعليم أبنائهم لغة وعقائد وآداب دينهم ويخنق فيها صوت جمعية دينية علمية فيحال بينها وبين الصحافة التي هي الأداة المشروعة والمعترف بها لكل جمعية لنشر دعوتها والدفاع عن نفسها »[15] .

ولو تتبعنا خطوات الجمعية خلال الثلاثينات لوجدناها لا تخرج عن هذا الإطار، حقاً أن أحد أنصار ابن باديس روى أن الشيخ كان يفرق بين ما يقوم به باسم الجمعية وما يقوم به باسمه الشخصي . فهو في الحالة الأولى كان لا يخرج عن دائرة القوانين والتشريعات الجارية عندئذ . ولكنه في الحالة الثانية كان لا يتردد في استعمال لهجة العنف والاحتجاج ضد الإدارة الفرنسية[16] . . ولكن من الصعب وضع حد فاصل بين النقطتين (فالشهاب) التي كانت تمثل وجهة نظره الشخصية أكثر من وجهة نظر الجمعية كانت كثيراً ما تحتوي على مجاملات قد ينظر إليها غير المعاصرين على أنها مفرطة في المجاملة، من ذلك نشرها لصور الوالي العام وتهنئته وتعزيته ووصف بعض رجال الإدارة بالعلم والخبرة ونحو ذلك[17] وهناك مواقف رواها ابن باديس نفسه لا تخلو من غرابة .

---

(15) ابن باديس (السجل) ص 75 .

(16) بوكوشة (المعرفة) الجزائرية أبريل 1964 ، ص 17 .

(17) من ذلك نشر صورة السيد بيير بورد الوالي العام مع التعزية الحارة بمناسبة فيضانات حدثت في فرنسا ودعوة الجزائر للتبرع لذلك الغرض أنظر (الشهاب) أبريل 1930 ص 178 ـ 176 وفي عدد نوفمبر من نفس المجلة صورة الوالي الجديد السيد كارد مع تهنئته والحديث عن مزاياه باعتباره رجلاً « جزائرياً قسنطينياً » (ولد في قسنطينة سنة 1874) .

فقد كتب مرة تقريراً عن جولاته في بعض جهات القطر سنة 1932 روى فيه الطريقة التي كان يقوم بها عند كل بلدة يزورها . فأول من كان يزوره هو المسجد توجيهاً للناس إلى أهميته في مدينتهم أو قريتهم . ومنه كان يزور ممثل الحكومة (الفرنسية) في البلدة من بريفي (والي) أو سوبريفي (نائبه) أو متصرف . ثم يزور ممثل الأمة الفرنسية والعربية وهو المير (شيخ البلدية) وبعد ذلك يلقي درساً في المسجد(18) وروى نفسه أيضاً حادثة وقعت له يوم حاول بعض خصوم الجمعية الاستيلاء عليها بدل المصلحين أثناء أول اجتماع لتجديد المكتب الإداري .

فعند وقوع الهرج في نادي الترقي استدعى ابن باديس الشرطة للمحافظة على الأمن، وقد قدح في ذلك من قدح ولامه على استدعاء الشرطة (الفرنسية طبعاً) لفض تنازع العلماء ولكن ابن باديس دافع بحرارة عن الشرطة ومدحها . وقال بهذه المناسبة « إن ارتباط الجزائر بفرنسا اليوم صار من الأمور الضرورية عند جميع الطبقات فلا يفكر الناس اليوم إلّا في الدائرة الفرنسية ولا يعلقون آمالهم إلّا على فرنسا مثل سائر أبنائها ، ورغبتهم الوحيدة هي أن يكونوا مثل جميع أبناء الراية المثلثة في الحقوق كما هم مثلهم في الواجبات، وأضاف على ذلك شكره « فضل الحكومة ورجالها » في الجزائر وشكر الصحافة الفرنسية على تغطية أخبار تنقلاته »(19) .

ومن هنا يتضح أن موقف العلماء لم يكن سهلاً . فقد كانوا يمشون على البيض كما يقول المثل الأجنبي ، فهم من جهة كانوا يريدون تحقيق مبادئهم وأهدافهم بأية وسيلة مشروعة، ومن جهة أخرى كانوا واقعين تحت طائلة إجراءات استثنائية مستعدة لعرقلة سيرهم ، بل لوضعهم في قفص الاتهام . لذلك كانوا يناورون ما وسعتهم الحيلة والمناورة ويجاملون ولكنهم لا يتنازلون عن مبادئهم . ومن أجل ذلك اصطدموا مرات بالإدارة.

من ذلك موقفهم من منشور ميشال الذي سبق أن تحدثنا عنه . فقد كان رد فعلهم على هذا المنشور سريعاً وصارخاً ، فاحتجوا بالقلم واللسان ونظموا المظاهرات والاحتجاجات وأبرقوا إلى ما من يهمهم الأمر . وأرسلوا وفداً منهم إلى

---

(18) (الشهاب) أغسطس 1932 .

(19) نفس المصدر أنظر نوشي ص 66 .

باريس ، لكن رفض وزير الداخلية عندئذ استقباله . واستنجدوا بالنواب في المجالس المحلية وبكل القوى التي تمثل الرأي العام لتقف إلى جانبهم في المطالبة بحرية التعليم العربي والوعظ والإرشاد في المساجد وحرية الصحافة العربية . ونفس الموقف وقفه العلماء من قرار رينيه سنة 1935 (20) وقد شكوا من شكاوي مريرة ظلوا يرددونها في كل مناسبة حتى فازت الجبهة الشعبية في فرنسا ، وفتحت معهم عهداً جديداً . ولعل فرحة العلماء بالخصوص بفوز الجبهة الشعبية يعود إلى معاملة الإدارة للجمعية منذ تأسيسها ، ولذلك وقعت للعلماء خيبة أمل كبيرة بعد أن غيرت الجبهة من موقفها تجاه الجزائريين ، فقد كتب ابن باديس إلى رئيس المؤتمر الإسلامي السيد ابن جلول سنة 1937 معبراً له عن يأسه من الحكومة الفرنسية آنذاك . وأضاف بأنه لا يعتقد أن الحكومة ستحقق أي شيء من مطالب المؤتمر ولا من وعودها السخية لوفد المؤتمر (الذي كان فيه ابن باديس) على لسان رئيس الوزراء(21) .

والحقيقة أن الحكومات الفرنسية لم تهمل فقط مطالب المؤتمر بل عادت إلى سن القوانين الاستثنائية الجائرة ، مستهدفة بالخصوص ضرب جمعية العلماء ، ففي الثامن من مارس سنة 1938 أصدرت السلطات الفرنسية قراراً بمنع فتح المدارس القرآنية بدون رخصة مسبقة منها خلافاً للقوانين الجارية عندئذ . وقد أثار هذا القرار عاصفة من الاحتجاج لم تقتصر على الجمعية. فبالإضافة إلى ابن باديس الذي طالب بحرية التعليم العربي كالتعليم الفرنسي وحرية استعمال المساجد للوعظ والإرشاد ، وحرية الصحافة العربية ، هناك أعضاء الوفود المالية خصوصاً سيسبان وابن جلول والسائح . ذلك أن هؤلاء الأعضاء صادقوا على لائحة ألّحوا فيها على ضرورة فتح المدارس الإسلامية الحرة لكي تعلم اللغة العربية والدين والعلوم الإسلامية(22) ولعل توتر العلاقات بين العلماء وبين الإدارة الفرنسية في نهاية الثلاثينات هو الذي يفسر لنا الموقف الذي اتخذوه عشية الحرب الثانية حين رفضوا الإعلان عن تأييد فرنسا ضد ألمانيا.

---

(20) نوشي ص 70 ـ 71 .

(21) أنظر ريشمونت في (المجلة السياسية والبرلمانية) 1937 ص 15 ـ 16 .

(22) أنظر حول هذه النقطة مهندس (أفريقية الفرنسية) نوفمبر 1938 ص 387 وكذلك ج.ل.ل. نفس المصدر يوليو 1938 ص 305 وأيضاً فانسان مونتاي (بروف) يناير 1964 ص 33 .

وخصوم العلماء ، كما عرفنا ، كثيرون فبالإضافة إلى الإدارة الفرنسية هناك المرابطون والنخبة والنواب أحياناً والمبشرون . ورغم أننا سنتعرض إلى جانب آخر من خصوم العلماء فإنه لا بد من الإشارة هنا إلى أن مهاجمة العلماء للبدع والخرافات والشعوذة وعدد آخر من الأمراض الاجتماعية قد أثار ضدها رجال الطرقية والمحافظين عامة . كما أن تركيزها على اللغة العربية والدين الإسلامي قد أورثها عداوة النخبة وخريجي المدارس الفرنسية في الجملة وكذلك بعض النواب الذين كانوا ساخطين عليها خاصة من أجل موقفها من التجنيس . أما المبشرون فقد كانوا ضدها لأنها تدعو إلى الإصلاح الإسلامي واليقظة الشعبية وتهاجم التبشير وتربط بينه وبين الاستعمار . وقد تحالفت الجمعية في بعض المواقف حتى مع خصومها الأصليين ، ولكن لغرض مؤقت ولغاية قصيرة المدى كما وقع أثناء المؤتمر الإسلامي .

وقد حاول خصوم العلماء معارضتها والوقوف ضدها ولكن فشلوا لأن العلماء كانوا يعتمدون على الجماهير ويتصلون بها اتصالاً مباشراً . وأول خصوم العلماء هم المرابطون ورجال الزوايا الذين ظلوا على عقائدهم القديمة وفي عزلة من تقلبات العصر وتجدد الفكر الإنساني . وأسباب عزلة هذه الفئة من الناس كثيرة وكنا قد درسناها في الجزء الثاني . والذي يلاحظ هو أن المرابطين ورجال الزوايا قد ازدادوا جموداً وبعداً عن واقع الشعب ومعاناته اليومية ،فأصبحوا عن وعي أو غير وعي أداة في يد السلطة الفرنسية لإبقاء الجماهير خامدة جامدة سهلة على الاستغلال والسيطرة الاستعمارية . وعندما جاء العلماء يطالبون بالإصلاح واليقظة ويشيرون إلى أن الدين ليس عبادات وطقوس خرافية وتوسلات للأشباح والتعايش مع الإدارة الفرنسية ولكنه قبل كل شيء طريق إلى العيش الكريم والحرية العقلية والسياسية ، ثارت ثائرة الخصوم .

ولا شك أن رجال السلطة الفرنسية قد ساعدوا على خلق التوتر بين الفريقين لأن مصالح فرنسا لم تكن بالطبع مع فريق المصلحين. ولكن في الأخير نجح العلماء. وقد لاحظ المعاصرون أن بعض الخصوم لجأوا إلى المقاومة السلبية ضد العلماء وبعضهم حاول تقليد العلماء بخلق منظمة معارضة أسموها (جمعية علماء السنة) وبعضهم انضم إلى العلماء أنفسهم[23] . والعلماء قد غلبوا خصومهم في

---

(23) توينبي (مدخل) جـ 1 ، 1937 ، ص 506 .

هذا الميدان بالعمل . فبينما كان المرابطون يجمعون المال من الأوقاف والزيارات وغيرها ويوزعونه على أتباعهم أو يعيشون به عيشة رغدة، كان العلماء يجمعون الأموال من الشعب ويبنون بها المساجد والمدارس وينشرون بها الصحف والكتب ويدفعون منها أجور المعلمين والوعاظ ونحوهم[24] .

وكما اصطدم العلماء بالمرابطين اصطدموا أيضاً بخريجي المدارس الفرنسية وبالنواب . فالأولون كانوا ينظرون إلى العلماء على أنهم رجال دين أكثر منهم رجال ثقافة . والمعروف أن معظم العلماء كانوا من فقراء الريف والمدن وأن بعضهم قد بدأ حياته تلميذاً وطالباً في زاوية من زوايا البلاد . وانتهى به المطاف إلى الزيتونة أو القرويين أو الأزهر . وهكذا كانت ثقافة العلماء في الحقيقة ثقافة تقليدية دينية في أساسها . ولم تكن فكرة الإصلاح ، في نظر الخصوم ، سوى قشرة رقيقة لا تستطيع أن تخفي ما وراءها من ركام التقاليد وضيق الأفق والتعصب الديني. أما المتطرفون من خريجي المدارس الفرنسية (النخبة) فقد كانوا ينظرون إلى ثقافتهم على أنها هي ثقافة العصر ، وإن الحياة تقتضي الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة وتقليد الفرنسيين ولو بواسطة الاندماج والتجنس . ولذلك وقع التصادم أحياناً وإن كان تصادماً أقل وقعاً من التصادم الذي حدث بين المرابطين والمصلحين . لأن هناك أرضية تجمع هؤلاء والنخبة ولا سيما فكرة التجديد والانفتاح على الحضارة الحديثة[25] .

أما النواب فقد وقف منهم العلماء موقفاً متقلباً فهم مرة يتحالفون معهم ، ويعتبرونهم ممثلي الأمة ويستنجدون بهم إذا ما ضيقت السلطات الفرنسية الخناق عليهم ، ومرة كانوا يهاجمونهم وينظرون إليهم بسخرية لركونهم إلى التأثير الفرنسي ، وينتقدونهم نقداً لاذعاً بدعوى أنهم يجرون في البداية وراء أصوات الناخبين ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً من أجل الناخبين بعد فوزهم في الانتخابات ، بالإضافة إلى أن بعض النواب كانوا محافظين أصلاً جاء بهم الفرنسيون لكراسي النيابة اعترافاً بخدماتهم ، أو كسباً لأنصارهم أو نحو ذلك . وهؤلاء كانوا بطبعهم ضد العلماء المصلحين . وقد وقف أحد هؤلاء سنة 1932 في مجلس الوفود المالية وقدم

---

(24) أرون ص 182 .

(25) ديبارمي « بيانان » (أفريقية الفرنسية) ديسمبر 1933 ص 78 .

لائحة تطالب الإدارة الفرنسية في الجزائر بمنع العلماء من القيام بالوعظ والإرشاد في المساجد وقصر الأماكن الدينية على رجال الدين الذين عينتهم السلطة فقط ، وهذه اللائحة هي التي كانت تمهيداً لمنشور ميشال البغيض سنة 1933 [26] .

وكان العلماء ينظرون إلى النواب عامة على أنهم واقعون كثيراً تحت طائلة الإدارة يأتمرون بأمرها ويتحركون بإشارتها . وفي هذا الصدد عابوا عليهم سنة 1939 حماسهم لمسلمي ألبانيا ونسيانهم عرب ومسلمي فلسطين ، لأن الإدارة الفرنسية هي التي كانت وراء ذلك. فعند اعتداء إيطاليا على ألبانيا المسلمة احتج الجزائريون على ذلك ونظموا المظاهرات في كل مدينة، وكان النواب هذه المرة على رأس المظاهرات حيث قادوها وخطبوا في جماهيرها واستنكروا موقف إيطاليا . ولكن الرأي العام الجزائري قد استاء أيضاً من أحداث أخرى في المشرق العربي والمغرب ، مثل أحداث فلسطين غير أن النواب لم يحركوا ساكناً . وهذا في نظر العلماء دليل على أن النواب لم يكونوا يتحركون إلّا بوحي من الإدارة الفرنسية . ذلك أن مظاهرات ألبانيا تسر فرنسا عدوة إيطاليا الفاشستية، أما مظاهرات فلسطين فقد كانت تغضب فرنسا لأنها حليفة انكلترا [27] .

ومن خصوم العلماء البارزين أيضاً رجال التبشير المسيحيين . والعلماء كانوا يعرفون دور الكنيسة في الجزائر حيث كانت رفيقة جيش الاحتلال منذ اللحظة الأولى وكانت تبارك تحويل المساجد إلى كنائس ، وكان رجالها يقدمون الخدمات الجليلة إلى الإدارة الاستعمارية بما لديهم من كفاءة لغوية وعلمية وفنية ، وكان العلماء يذكرون ما قامت به الكنيسة من تنصير لأطفال المسلمين أثناء مجاعة سنوات 1867 ـ 1869 ودور الكاردينال لافيجري ورجاله (الآباء البيض) في المس بكرامة المسلمين والتشكيك في دينهم وقيمه ومحاولة تمسيح الجزائريين بفتح المراكز في القرى النائية في الجبال والصحاري . وهم لا ينسون دور المستشرقين الفرنسيين في الجزائر حيث

---

(26) أنظر ديبارمي « مصلح » (أفريقية الفرنسية) مارس 1933 ص 154 والنائب الذي قدم اللائحة هو السيد مبارك بن علال .

(27) (الشهاب) أبريل 1939 وقد كان العلماء في صالح المظاهرات للاحتجاج ضد إيطاليا أيضاً لأنها اعتدت في نظرهم على بلد إسلامي ولكنهم كانوا يريدون حرية المبادرة من جانب النواب .

كانوا دائماً ضد العربية والإسلام ومع التسلط الاستعماري والغزو الحضاري .

إن هذا التاريخ لم يكن يغيب عن أنظار العلماء وكانت حركتهم في الواقع تسعى لوقف هذا التيار . ولذلك اعتبروا المبشرين آلات للسياسة ورواداً للاستعمار[28] وفي سنة 1939 انعقد بالجزائر المؤتمر الأفخارستي ، وقد لاحظت (الشهاب) أن المؤتمرين خلطوا بين السياسة والدين ، بل لقد غلبت السياسة على الدين عندهم ، وأنهم قاموا مرتين على الأقل بإحياء الجرح القديم الذي يحز في نفوس المسلمين بالجزائر وهو الاحتفال باختفاء الدولة الإسلامية الجزائرية : الأولى كانت سنة 1930 بمناسبة الاحتفال المئوي والثانية سنة 1939 عند انعقاد المؤتمر المذكور ، وقد وصفت المجلة ذلك بالبشاعة والشناعة وقالت بأن منظر تمثيل وزوال السلطة الإسلامية وانتصاب السلطة المسيحية محلها في الجزائر هو منظر « يسود وجه القائمين به ولا يمس شرف ولا سمعة الذين وقع القيام به في بلادهم »[29] .

وقف العلماء من قضايا التقدم موقف المعتدل ، فهم بالنسبة للمرابطين مجددون مصلحون ، وهم بالنسبة للنخبة محافظون تقليديون . وقد آمنوا بتقدم العلم وسيادة العقل وحرية الاجتهاد . ومن أجل ذلك شجعوا على التعليم العملي سواء بنشره في مدارسهم أو بإرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية . ونادوا بتعليم المرأة ولكن لم يصلوا إلى درجة الدعوة إلى مساواتها بالرجل في كل شيء لأن الجو الاجتماعي لم يكن يساعدهم على ذلك. ولعل هذا ما جعل بعضهم يعيب عليهم كونهم تركوا المرأة في وضع أدنى في السلم الاجتماعي[30] .

على أن العلماء كانوا يركزون على الثقافة العربية والآداب الإسلامية . فتكوين الجيل على هذه الأسس هو ضالتهم وهو رسالتهم . وماذا يمكن أن يكونوا غير ذلك في فترة سادت فيها الحضارة الفرنسية وغطت فيها الدعوة إلى الاندماج كل مجالات

---

(28) الإبراهيمي (السجل ص 65 ـ 66) يذكر ديبارمي (القادة) في (أفريقية الفرنسية) 1933 ص 15 ان (الشهاب) قد هاجمت جمعيات الدعاية التبشيرية مثل الجمعيات البروتيستانتية والآباء البيض في الجزائر .

(29) الشهاب مايو 1936 .

(30) أرون ص 182 .

الحياة في الجزائر وأصبحت البلاد مهددة بضياع شخصيتها وتاريخها ولغتها ؟ إن العلماء لم يتجمدوا بالدعوة إلى التعليم الديني فقط واللغة العربية فحسب بل نادوا بتعليم كل العلوم وجميع اللغات الحية ، ولكن على أساس أنها مكملة لتعاليم الإسلام والثقافة العربية[31].

وقد نادى بعض أعضائها سنة 1935 بتقليد الأوروبيين في مناهج التربية وبترجمة آثارهم لأنهم كانوا أيضاً قد ترجموا من العربية واستفادوا منها[32] ، كما دعا آخر إلى حرية الفكر ونبذ التقليد لأن ذلك هو طريق الثقدم الحقيقي « إن كل أمة ابتليت بداء التقليد . . أضاعت رشدها . . وتركت أعظم ميزة منحها الإنسان ألا وهي العقل فيطرقها الخلل في أعمالها المادية والأدبية فتصبح مملوكة للغير . . فما علينا إلا أن نطلق للفكر سراحه يصول ويجول (وعلى) دعاة الإصلاح العاملين على إنقاذ الأمة الجزائرية من ربقة التقاليد أن تكون أول نقطة في الإصلاح هي العمل لحرية الأفكار »[33] وبالإضافة إلى ذلك اهتم العلماء بمشاكل الساعة كمحو الأمية ، وقضية العمال ، والمرأة والمهور في الزواج ، وأخطار الكحول ، والمساهمة في حركة النقد والأدب ، وكتابة التاريخ الوطني ، وقضايا الشرق العربي والعالم الإسلامي ، والحياة السياسية في الجزائر ونحو ذلك .

وقد استقبل العلماء كأغلب الجزائريين مجيء الجبهة الشعبية بغبطة لا تخلو من تحفظ ، وشاركوا في المؤتمر الإسلامي الجزائري مشاركة غير متحمسة . ورغم أننا سنعرض لهذا المؤتمر بالتفصيل في مناسبة أخرى فإننا نود أن نشير هنا إلى موقف العلماء منه ومن الجبهة الشعبية باختصار، إن الحكومات اليمينية التي سبقت الجبهة الشعبية قد اضطهدت ، كما رأينا ، العلماء ونغصت عليهم حياتهم فكان مجيء الجبهة مع ما سبقها ورافقها من دعاية وتهويل ، قد اعتبر فجراً جديداً بالنسبة للعلماء ومعظم الجزائريين ، وقد أبدوا ثقتهم في عدل فرنسا وروح الديمقراطية التي كانت الدعاية تصورها بها . وابن باديس نفسه كتب بهذه المناسبة يعبر عن ثقته في تحسين

(31) عباس ص 126 .

(32) سعيد صالحي (السجل) ص 188 .

(33) علي بن سعد (السجل) ص 199 ـ 200 .

الأوضاع على يد الجبهة الجديدة[34].

وقد قال شاعر الإصلاح محمد العيد يخاطب فرنسا في هذه المناسبة :

فاز فيك اليسار فاليوم لا عسر ... أليس اليسار فالا حميدا

....

صرخ الشعب فيه صرخته الكبرى ... وناداك يسترد الفقيدا

يا فرنسا ردي الحقوق علينا ... وأقلي الأذى وكفى الوعيدا[35]

ولعل فرحة العلماء بالعهد الجديد هي التي شجعتهم على المشاركة في المؤتمر الإسلامي في جوان (يونيو) 1936 . وعندما عيب عليهم مشاركتهم في مؤتمر سياسي يطالب بالحقوق السياسية وتتحالف وتصارع فيه الأحزاب، دافعوا عن أنفسهم بأنهم لا يخافون من هذا « الغول الموهوم غول السياسة لأن العلماء من الأمة في الواقع والحقيقة . يمثلون الوصف الذي ما كانت الأمة أمة إلّا به وهو الإسلام ولسانه» وأضافوا أن مطالب المؤتمر الإسلامي كانت محصورة في أربع نقاط : الدين والاجتماع والسياسة والاقتصاد . وإذا كان في الجزائر من هو كفء لدراسة القضايا السياسية والاقتصادية « فمن للمطالب الدينية وما يتبعها من اللغة العربية غير العلماء »[36] . وفي هذا الصدد ساند العلماء مشروع بلوم ـ فيوليت ، ولكن بتحفظ أيضاً[37].

ورغم النجاح الذي كسبه العلماء على المستوى الجماهيري فإنهم واجهوا أزمتين حادتين على مستوى القيادة كادتا تحطمان جمعيتهم ، الأزمة الأولى كانت يوم أن اتهمت السلطات الفرنسية الشيخ الطيب العقبي بتدبير اغتيال المفتي الشيخ محمود كحول المعروف بابن دالي، واقتادته الى السجن والمحاكمة. فعلى أثر نجاح المؤتمر الإسلامي اغتيل المفتي المذكور . لماذا ؟ ادعت السلطات الفرنسية أن العلماء هم الذين دبروا اغتياله لأنه كان معارضاً للمؤتمر ومعارضاً لإرساله وفداً إلى باريس لتقديم المطالب المتفق عليها إلى الحكومة الفرنسية ، فبهذه المناسبة أرسل

---

(34) نوشي ص 81 .

(35) (الشهاب) يوليو 1936 ص 217 ـ 218 يشير بكلمة (فيه) إلى المؤتمر الإسلامي .

(36) الإبراهيمي (الشهاب يوليو ، 1936 ص 213 .

(37) أرون ص 70 ـ 71 .

المفتي برقية إلى الحكومة الفرنسية ادّعى فيها أن الوفد لا يمثل سوى مجموعة من الغوغائيين الذين يريدون إثارة الفوضى والإضطراب وأنهم لا يمثلون الرأي العام في الجزائر . ولعل إتهام العقبي بالذات كان مقصوداً . أليس هو الذي استطاع أن يروّض العاصمة ويجعلها معقلاً للفكر الإسلامي بشخصيته المؤثرة وخطبه النارية وشجاعته النادرة ، بعد أن كانت العاصمة مركزاً للمعمرين وأنصار الإدارة من الجزائريين ؟ ، ثم إن العقبي هو الذي قاوم بشدة منشور ميشال سنة 1933 وقرار رينيه سنة 1935 فاتهامه بالقتل في قمة نجاح التجمع الشعبي الكبير (المؤتمر الإسلامي) يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول المثل ، فمن جهة يضعف ، إن لم يحطم ، المؤتمر ومن جهة أخرى يسيء إن لم يزعزع، سمعة جمعية العلماء التي يعتبر العقبي الرجل الثاني فيها بعد ابن باديس[38] .

والواقع أن هذا الحادث قد نجح في إضعاف المؤتمر والتأثير على الشيخ العقبي رغم أنه لم ينجح في الإساءة إلى العلماء عامة . فعلى اثر ذلك وافق ابن جلول على اتهام العلماء بالاغتيال واستقال من رئاسة المؤتمر . ووقعت أزمة بين النواب والعلماء . كما انحلت الجبهة الشعبية في فرنسا التي كان ينظر إليها بعين الأمل ، ومات مشروع بلوم ـ فيوليت الذي كان نقطة الإنطلاق في حركة 1936 . أما العقبي فقد أثّر السجن والمحاكمات المتتالية أمام الرأي العام ، مع ما كانت تكتبه الصحافة من صور وأخبار ، على معنوياته ، ورغم أن العلماء قد وقفوا إلى جانب زميلهم فقد أحس العقبي أن الجمعية لم تقم بكل ما يجب عليها نحوه في وقت المحنة، وأن بعض زملائه قد تخلوا عنه عند الشدة، لذلك بدأت العلاقات تفتر قليلاً منذ 1937 .

ومهما يكن الأمر فإن العقبي قد برأته المحكمة بتاريخ 28 جوان 1939 عشية الحرب الثانية ، بعد أن لم تثبت لديها التهم التي وجهت إليه . وقد خرج العقبي من السجن والمحاكمة منتصراً « مكللاً بغار الشهداء » حسب تعبير أحد الكتاب[39]

(38) اتهم فرحات عباس السيد ميو مسؤول الشؤون الأهلية بالجزائر بتدبير الاغتيال للإساءة إلى العلماء ، أنظر عباس ص 137 ولم يبرىء أرون ص 72 الإدارة الفرنسية أيضاً . أنظر كذلك نوشي ص 86 . وهناك من يشير بإصبع الاتهام إلى الحركة الصهيونية أيضاً ، بهدف منع العقبي من تعبئة الرأي العام مع فلسطين ضد اليهود .

(39) أرون ص 72 نقلاً عن شارل أندري جوليان .

واغتبطت لبراءاته صحافة العلماء وأنصارهم ومدح زملاؤه شجاعته (رغم أنه كان قد استقال من مجلس الجمعية الإداري كما سنرى) أمام المحكمة ووصفوه بأوصاف التمجيد فقالت (الشهاب) ان العقبي رأس شامخ من رؤوس الجمعية وعمدة من أعظم عمد الإصلاح والنهضة الدينية الإسلامية الجزائرية ، وشبهته بالسيد المسيح بين صالبيه لأن السلطة الفرنسية وضعته وسط المجرمين والمحكوم عليهم . ونوهت بسموه وهو يقف في قفص الاتهام[40] .

أما الأزمة الثانية التي واجهتها جمعية العلماء فهي الخلاف الذي نشب على مستوى المجلس الإداري سنة 1938 حول الموقف من فرنسا. فعشية الحرب الثانية سعت فرنسا إلى الحصول على تضامن من الجزائريين معها. فقام المخلصون لها من رجال الزوايا والقواد والأغوات بإرسال برقيات التضامن معها ضد أعدائها في العالم . وقد اجتمعت جمعية العلماء بدورها في 23 ـ 25 سبتمبر 1938 في جلسة عادية، وكان من بين النقط المعروضة في جدول الأعمال برقية التضامن مع فرنسا . وخلال الاجتماع اقترح العقبي (الذي كان ما يزال تحت طائلة الاتهام بالتحريض على قتل المفتي كحول) إرسال البرقية حتى لا تتعرض فرنسا لنشاط الجمعية وتمنعها من ممارسة أعمالها . ولكن ابن باديس اقترح عرض الموضوع على التصويت في المجلس الإداري . وعندما أخذت الأصوات كانت النسبة 12 إلى 4 ضد إرسال البرقية . وقد احتفظ ابن باديس بصوته وأعلن في الاجتماع العام أنه لن يرسل البرقية وأن فرنسا لا تستطيع أن تنال من روح المصلحين وإن كانت تستطيع أن تزج بهم في السجون وأن تقتلهم إذا شاءت . وأضاف أنه قرر الاحتفاظ بالصمت ولو قطعوا رأسه ، على حد تعبير أحد أنصاره[41] . وعند ذلك استقال العقبي من المجلس الإداري محتفظاً بعضويته فقط في الجمعية ، كما أشيع عنه أنه أسس (جمعية الإصلاح الإسلامي) وجعل لسان حالها جريدته القديمة (الإصلاح) .

---

(40) (الشهاب) يوليو 1939 كان مع العقبي في المحاكمة نصير الإصلاح بأمواله السيد عباس التركي وقد برأته المحكمة أيضاً وحكمت بأحكام مختلفة على المتهمين الآخرين في المسألة واعتبرت (الشهاب) المحاكمة موجهة للمسألة الإسلامية الجزائرية في شخص العقبي . عن هذه المحاكمة أنظر أيضاً ج.ل.ل. (أفريقية الفرنسية) يوليو 1939 ص 200 ـ 204 .

(41) بوكوشة ص 20 ـ 21 أنظر أيضاً مهندس (أفريقية الفرنسية) نوفمبر 1938 ص 387 ـ 388 .

والحقيقة أن الوثائق ما تزال تعوزنا عن هذه الأزمة ، فمحضر الجلسة غير منشور والآراء متضاربة حول دوافع الرجلين . ولا شك أن أنصار ابن باديس هم الذين ما يزالون اليوم أغلبية . وقد ساعدت التطورات التاريخية على ترجيح كفة ابن باديس. فقد توفي في قمة شعبيته (أبريل 1940) رغم ظروف الحرب ، واستعصت الحركة الوطنية على فرنسا بعد الحرب ، ولم يعد هناك حاجة إلى المجاملة والتقية اللتين استعملتهما الجمعية خلال الثلاثينات (وابن باديس هو مهندس ذلك) . ولعل هذه الحادثة توضح مدى قوة الرجلين ، فالعقبي كان متهماً تطارده الشرطة وتحصي عليه أنفاسه ، وابن باديس كان طليقاً . والعقبي كان وحيداً معتمداً على شخصه وإيمانه ولسانه . وابن باديس كان ، بالإضافة إلى ذلك ، معتمداً على حماية والده له ومكانة أسرته ، والعقبي كان ابن قرية نائية وابن باديس كان ابن عاصمة كبيرة فيها الحمية والأنصار ، فلا غرابة أن يخاف الأول ويتشجع الثاني في وقت كان من أحرج الأوقات ليس فقط على الأشخاص ولكن على المبادىء وهو وقت الحرب .

ولعل أفضل رأي نطمئن إليه في هذا الصدد ، وحتى تظهر الوثائق ، هو رأي الشاعر محمد العيد الذي كان صديقاً حميماً للرجلين. فقد قال بأن كليهما كان مصيباً فيما ذهب إليه[42]، ويقال ان العقبي قد استقال من منصبه الإداري مضحياً بنفسه في سبيل الجمعية التي عاش لها حوالي عقدين . فما مدى صحة هذا الرأي ؟ ستكشف الأيام عن خطئه أو صوابه. أما الآن فحسبنا أن نقول بأن الحادثتين (قضية كحول، أو قضية البرقية ـ كما أصبحت تعرف) فقد أثرتا على الجمعية ، ولكنهما لم تهدداها . ولا ندري ماذا كان سيحدث للجمعية لو لم تعاجلها الحرب الثانية .

في أحد التقارير السرية التي كتبها المسؤولون الفرنسيون في أوائل الخمسينات جاء أن العلماء كانوا يمثلون أكبر الخطر على الفكرة الفرنسية في الجزائر . فشعب (جمع شعبة) مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية ، والإسلام الذي يمارسونه هو مدرسة حقيقية للوطنية ، وأنهم يجدون تأثيرهم الأكثر عمقاً لدى الأثرياء والعائلات الكبيرة وأصحاب المال ، وأن أكثر من 40٪ من السكان معهم[43]. وإذا كشف هذا

---

(42) من حديث خاص أجريته معه سنة 1972 .

(43) (الجزائر في نصف قرن) الجزء الخاص بالعلماء . مخطوط .

عن شيء فإنما يكشف عن مدى تأثير العلماء على الجماهير الجزائرية . وان عقد الثلاثينات يعتبر العصر الذهبي لجمعية العلماء. وقد كانوا في غياب النجم الذي كان ما يزال يمارس نشاطه في فرنسا ، المحرك الحقيقي للضمير الوطني ، عن طريق الدرس والصحيفة والخطبة والموعظة والسلوك . وكانوا محل احترام وثقة حتى من أولئك الذين لا يتفقون معهم في المشرب والاتجاه . وقد لاحظ بعضهم أنهم (العلماء) كانوا ثوريين في القضايا الدينية ولكنهم كانوا محافظين في معالجة المسائل الاجتماعية[44] ولعل هذا يعود إلى طبيعة المجتمع الجزائري نفسه . فهو أساساً مجتمع محافظ . وكان العلماء وهم خبراء هذا المجتمع ، يعرفون داءه ودواءه ، وقد كانوا في القضايا الدينية مصلحين لا ثوريين . والإصلاح قد يعني الثورة على بعض المفاهيم كالمرابطة وبعض صور الولاية والعقيدة في الأشياخ ونحو ذلك . وقد تحدث الكثير عن أثر العلماء في المجتمع الجزائري وفي مختلف الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية[45] .

ولم يقتصر نشاط وتأثير العلماء على الجزائريين في الجزائر بل لاحقهم في فرنسا نفسها حيث آلاف العمال منهم . فمنذ توجه ابن باديس إلى باريس ضمن الوفد الإسلامي سنة 1936 بدأ الاتصال بين العلماء وقادة العمالة هناك . وتذكر بعض المصادر أن هؤلاء قد نظموا له لقاء تداولوا فيه الحديث عن قضايا المؤتمر وعن أحوال العلماء الجزائريين في فرنسا[46] وخلال سنة 1937 ضاعف العلماء نشاطهم في باريس والضواحي فأنشأوا النوادي والمدارس أيضاً لتعليم وتوعية العمال . ووجد العلماء مساعدات طيبة من بعض العاطفين على الجزائريين في فرنسا حيث أنشأوا (الجمعية الفرنسية الإسلامية للثقافة والتعاون) وكان من أعضائها موريس

---

(44) أنظر مقالة « العلماء الجزائريون المصلحون » (المجلة الفرنسية الجديدة) ، عدد 7 ـ 8 (يوليو ـ أغسطس 1955) ، 331 .

(45) نذكر من هؤلاء ديبارمي (المظاهرات) في (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ص 546 وجوليان (أفريقية الشمالية) ص 111 ـ 112 وديبارمي أيضاً (القادة) في (أفريقية الفرنسية) يناير 1933 ص 15 ـ 16 وكذلك توينبي (مدخل) 1937 ص 505 .

(46) من بحث أعده عبد الحميد زوزو بإشرافي عن (دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية) ، كلية الآداب . جامعة الجزائر . 1974 وهو الآن منشور في كتاب بنفس العنوان .

فيوليت[47] ولكن حياة العلماء في باريس لم تكن مقتصرة على العمال بل تجاوزتها إلى الطلبة أيضاً . وسنلاحظ في الفقرات التالية مدى التجاوب الذي كان بين الحركة الطلابية لشمال أفريقية وبين جمعية العلماء بالرغم من أنه لم يكن هناك برنامج موحد مدروس.

* * *

ظهرت في الجزائر خصوصاً والمغرب العربي عموماً عدة منظمات شباب وطلبة وكشافة، وكانت تضم زعماء المنطقة في المستقبل، وكانت حركة طلاب المغرب العربي المكونة في فرنسا من ممثلين عن الأقطار الثلاثة من أنشط المنظمات خلال الثلاثينات . وقد لعبت دوراً بارزاً في الدفاع عن القضايا الوطنية المصاغة عندئذ في قالب ثقافي واجتماعي كالدين والتعليم واللغة وحرية المرأة والعدالة الاجتماعية وغيرها . وهذه كانت نقطة الالتقاء بين جمعية العلماء والحركة الطلابية على نطاق الجزائر والمغرب العربي .

ففي سنة 1918 تأسست (الجمعية الودادية للتلامذ (كذا) المسلمين في أفريقية الشمالية) في الجزائر ، وكانت تضم طلاباً من جامعة الجزائر التي كانت تخضع لنظام الجامعات الفرنسية . ويعود سبب تأسيسها إلى أن جمعية الطلبة الفرنسيين التي تأسست سنة 1885 في الجزائر قد طردت الطلبة المسلمين من صفوفها . فكان ذلك حافزاً لهؤلاء على إنشاء منظمة خاصة بهم ، ويعود الفضل في تأسيس الجمعية الودادية إلى السيد ابن حبيلس الذي تولى رئاستها منذ أنشائها ، ثم خلفه في ذلك السيد فرحات عباس الذي استمر في رئاستها أكثر من أربع سنوات ، وتوالى على رئاستها عدد من جماعة النخبة ، ومنهم السيد علي الزاوش الذي كان على رأسها سنة 1931 بينما كان عباس رئيساً شرفياً لها .

وقامت هذه الجمعية بنشاط طيب يعبر عن مطامح الشباب المثقف في وطنه ومجتمعه ومصيره. وقد أصدرت سنة 1927 (نشرية) أبرزت فيها معالم حياة المنظمة منذ تأسيسها إلى ذلك الحين غير أنها ، لأسباب مادية ، عدلت عنها إلى إنشاء مجلة

---

(47) هيريل (الشمال الافريقيون في باريس) في (أفريقية الفرنسية) يوليو 1937 ، ص 364 ـ 365 وبناء على هذا المصدر فإن نادي العلماء كان يقع في 7 مكرر . سيتي بيسون ، 20 ، باريس .

(التلميذ) سنة 1931 وقد جاء في أحد أعدادها أن من أغراض الجمعية التعاون بين الطلاب المسلمين (الجزائريين) ونشر العلم والثقافة العربية الإسلامية في الجزائر وتعلم الثقافة الغربية .

وكانت (التلميذ) مجلة شهرية تصدر العربية والفرنسية وكانت تهتم أيضاً بقضايا الإصلاح . ويشارك فيها كتاب سياسيون مستقلون أمثال أحمد توفيق المدني . وتنقل هي المقالات والأشعار عن كتاب وشعراء من المشرق العربي . وهي حسبما جاء فيها « لسان حال الجمعية الودادية للتلامذ (كذا) المسلمين في أفريقية الشمالية » بالإضافة إلى أنها « مجلة شهرية أدبية انتقادية أخلاقية »[48] .

منذ فاتح الثلاثينات بدأت تظهر في الجزائر موجة من حركات الشباب لفتت أنظار الملاحظين. . فقد كتب أحدهم أن في الجزائر «حزباً شاباً» نشيطاً طموحاً لا يتردد في إظهار استعداده لتولي مصير بلاده ، وكانت طريقة هذا الحزب الجديد إثارة الرأي العام وعقد الاجتماعات وإقامة المظاهرات وإرسال برقيات الاحتجاج إلى باريس ولا يظهر أصحابه العداء لفرنسا بل كانوا يعلنون أنهم هم أصدقاء فرنسا الحقيقيون[49] .

وحوالي سنة 1933 تأسست في تونس (جمعية الجزائريين الزيتونيين) ، وكان تأسيسها نتيجة لتكاثر الطلبة الجزائريين في جامع الزيتونة بحيث أصبح عددهم سنة 1936 حوالي مائتي (200) طالب ، بينما كان عددهم لا يزيد عن خمسين قبيل ذلك . ويظهر أن تكاثر الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة كان نتيجة الدعوة الإصلاحية التي نهضت بها جمعية العلماء في القطر الجزائري . ومن المعروف ان كثيراً من أعضاء الجمعية كانوا هم أنفسهم من خريجي جامع الزيتونة وان ابن باديس كان يوجه تلاميذه إلى هذا الجامع[50] .

---

(48) كان مقرها بنادي الترقي أنظر (التلميذ) عدد 2 ، ديسمبر سنة 1931 وعدد 5 ـ 6 ، مارس ـ أبريل سنة 1933 .

(49) ديبارمي (الوطنية في مدرسة الأهالي) في (أفريقية الفرنسية) فبراير 1934 ص 104 .

(50) أنظر (البصائر) عدد 44 ، 20 نوفمبر 1936 وفي هذا العدد قائمة بأعضاء المجلس الإداري لجمعية ـ الطلبة الجزائريين الزيتونيين مؤلفة من أربعة عشر عضواً، منهم احمد حماني ، والشاذلي المكي ، والأخضر السائحي ، واحمد قصيبة .

وعقب انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936 تكونت بالإضافة إلى منظمة الطلبة التي ذكرناها (شبيبة المؤتمر الإسلامي الجزائري) وكان على رأسها السيد الأمين العمودي (وهو من العلماء). وخلال عدة أسابيع أصبحت هذه المنظمة تضم حوالي عشرين شعبة وأربعة آلاف عضو . وكانت تقوم بنشاط عام ، بما في ذلك دروس في العربية والفرنسية يقوم بها الأعضاء أنفسهم . وكانت منظمة منضبطة كأنها عسكرية وبزي شبه عسكري موحد . وكانت قريبة من العلماء وأصبحت محل تأثيرهم في المستقبل[51] .

ولم تكد تحل سنة 1939 حتى انعقد بالعاصمة المؤتمر الكشفي الجزائري الأول برئاسة السيد محمد بوراس . ويغلب على الظن أن من شبابه عناصر من جمعية العلماء[52] وكل هذه المنظمات الشابة كانت تضم نخبة البلاد المستقبلة وتطمح إلى تولي المسؤوليات السياسية وتتدرب على ذلك بالإجتماعات والمؤتمرات والمشاركة في الحياة العامة ، ولما كانت منظمات الشباب غير سياسية في مظهرها فقد التقت في كثير من النقاط من برامجها مع خطط وبرامج جمعية العلماء .

وفي ديسمبر سنة 1927 تأسست في باريس (جمعية طلبة شمال أفريقية المسلمين بفرنسا) وكان من بين أعضائها ، عدد من زعماء المغرب العربي في المستقبل ، بعضهم ما يزال على قيد الحياة . وساهم بفعالية في الحياة السياسية والثقافية لبلاده ، وقد اتخذت هذه الجمعية عدة مواقف من التجنس واللغة والتعليم والمرأة جديرة بالتأمل والدرس . وكانت تعقد مؤتمراتها سنوياً في إحدى مدن المغرب العربي ، وقبل أن تعقد مؤتمرها الأول سنة 1931 قررت عدم قبول المتجنسين من أبناء المغرب العربي في صفوفها نظراً إلى أنها جمعية تعاونية والمتجنسون فرنسيون ، ولأنها إسلامية وهم ليسوا مسلمين . والملاحظ أن العلماء رحبوا بهذه الفكرة واعتبروها انتصاراً لمبدئهم[53] .

---

(51) أرون ص 77 .

(52) أحمد بوزيد قصيبة (النشرة الداخلية لجامعة الكشافة الإسلامية بالجزائر) العدد الأول ـ سبتمبر 1946 .

(53) (الشهاب) أبريل 1930 وكان رئيسها سنة 1928 هو سالم الشاذلي (من تونس) أنظر نشرة الجمعية ط . تونس ، 1929 .

وأول مؤتمر لهذه الجمعية انعقد بتونس من 20 إلى 22 أبريل 1931 وكان الاجتماع بالمدرسة الخلدونية . وقد شارك فيه سبعة أعضاء من الجزائر برئاسة السيد فرحات عباس ، وكانت موضوعات المؤتمر تتناول حالة التعليم العربي بشمال أفريقية والتعليم العالي والتعليم الصناعي وتعليم المرأة . وتبادل المؤتمرون الرأي حول قضايا أخرى لا تخرج عن نطاق التعليم والحياة الثقافية والاجتماعية ، ونظموا عدة جولات . وفي نهاية المؤتمر اتفقوا على أن يعقد المؤتمر الثاني بعاصمة الجزائر وكلفوا لذلك لجنة تحضيرية[54] وقد أوصى المؤتمر الأول بتدريس اللغة العربية وتاريخ الإسلام وتاريخ المغرب العربي في مدارس أفريقية الشمالية.

ويهمنا من هذه المؤتمرات بالدرجة الأولى المؤتمر الثاني الذي انعقد بالجزائر من 25 إلى 29 أغسطس سنة 1932 بنادي الترقي. وكان رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر هو السيد قدور ساطور كاتب عام (جمعية طلبة شمال أفريقية بالجزائر) التي كان يرأسها السيد علي الزاوش ، أما المؤتمر نفسه فقد ترأسه السيد فرحات عباس الذي كان رئيساً شرفياً لجمعية طلبة الجزائر كما أشرنا . وكانت الموضوعات التي اتفق عليها في مؤتمر تونس وأقرتها اللجنة التحضيرية هي تعليم اللغة العربية والتاريخ والتربية بشمال أفريقية وفتح الأبواب أمام المتخرجين من الجامعات[55] وقد انعقد المؤتمر في جو من التفاؤل والثقة واحتضنه في الواقع العلماء واعتبروه من دعامهم . وسنرى أن توصيات المؤتمر وقراراته كانت تنسجم تماماً مع روح جمعية العلماء ومع أهدافها . فقد أقام لهم نادي الترقي حفلة سمر ألقيت فيها المحاضرات وجمعت التبرعات ، وأثناءها ألقى شاعر الإصلاح محمد العيد قصيدة مؤثرة . وساهم فيه الشاعر مفدي زكريا بعدة قصائد ، وخطب الشيخ الطيب العقبي في المؤتمرين مرتين على الأقل ووجههم باعتبارهم يمثلون جيل المستقبل . ولعب الأستاذ توفيق المدني

---

(54) (نشرة جمعية الطلبة) لسنة 1931 ـ 1932 وكذلك ديبارمي (المؤتمر الثاني) في (أفريقية الفرنسية) أكتوبر 1932 ص 572 أنظر أيضاً فافرو (الثورة الجزائرية) ص 67 .

(55) كان عدد الطلبة الجزائريين في فرنسا 21 طالباً سنة 1932 من بين مجموع 202 طلاب من المغرب العربي أنظر (نشرة الجمعية) لسنة 1931 ـ 1932 وفي مجلة (التلميذ) مقال مطول عن المؤتمر كتبه أبو سعيد عدون بن بكير ، كاتب اللجنة التحضيرية للمؤتمر أنظر عدد 9 ، 10 للمجلة سنة 1932 .

في المؤتمر دوراً بارزاً باقتراحاته إلى اللجان ولا سيما فيما يتعلق باللغة العربية . وخطب أيضاً في المؤتمرين . وعندما مر المؤتمرون بقسنطينة خطب فيهم الشيخ عبد الحميد بن باديس وودعهم حتى محطة القطار.

وقد تجول الشباب الضيوف في مدينة الجزائر، وسجلت الصحافة عندئذ أنهم استاءوا لزوال معالم الحضارة العربية الإسلامية منها (خلافاً للمغرب وتونس) على يد الفرنسيين الذين حولوا المساجد إلى كنائس وحطموا بقيتها . . . الخ . وخطب فيهم السيد محمود شكيكن ، نائب مدينة الجزائر ، بالفرنسية معتذراً لهم عن جهله بلغة أجداده العربية ، حاثاً لهم على التمسك بالحضارة الإسلامية ، وتبرع لهم بالمال. وتجولوا في مدينة البليدة ومضيق الشفة، وفي البليدة خطب فيهم الدكتور بشير في حفل أقيم لهم هناك ، كما خطب غيره . ولعب السيد فرحات عباس دوراً فعالاً في المؤتمر . فبالإضافة إلى رئاسته كان يتدخل في اللجان ويوفق بين وجهات النظر . وقد نادى باحترام اللغة العربية . واستقبل الوفود عند مرورها بمدينة سطيف وخطب فيهم هناك في حفل أقيم لهم بهذه المناسبة . أما في قسنطينة فبالإضافة إلى الشيخ ابن باديس أقام لهم (نادي الاتحاد الإسلامي) هناك حفلاً كبيراً خطب فيه الدكتور ابن جلول ومامي اسماعيل[56] .

وقد رحبت الصحافة الجزائرية بالمؤتمر الثاني واعتبرته حدثاً هاماً في تاريخ المنطقة . فبالإضافة إلى صحافة العلماء التي كانت كلها تنويهاً به ، رأت فيه (النجاح) « يوماً عظيماً في تاريخ نهضة المغرب العربي » وهو في نظرها ليس اجتماعاً سياسياً للنقاش والبيان ولكنه اجتماع « يشجعنا ويوقظنا » إلى ما فيه خير المنطقة . وكتبت (البلاغ) أن المؤتمر كان يهدف إلى وحدة شمال أفريقية ، وأن هذا اللقاء بين الشباب تحت راية الإسلام يهدف إلى الوحدة التي مزقتها السياسة، وجمعها الدين[57] وإن استعراض بعض أسماء المشاركين في المؤتمر الثاني من الأقطار الثلاثة يبرهن على أهمية هذا اللقاء . فمن المغرب جاء عبد الخالق الطريس والسيد بنونة ، والشرايبي، ومن تونس جاء المنجي سليم وصالح المهيدي وعلي البلهوان

(56) أنظر (نشرة المؤتمر الثاني) الجزائر 1932 طبع تونس .

(57) ديبارمي (المؤتمر الثاني) في (أفريقية الفرنسية) أكتوبر ص 575 نقلاً عن الصحيفتين المذكورتين .

والحبيب ثامر . بالإضافة إلى عدد آخر ، غير من ذكرنا ، من الجزائريين مثل السيد رشيد مصطفاي خريج المدرسة الثعالبية .

أما توصيات المؤتمر الثاني فتمثل اتجاه المستقبل في أفريقية الشمالية ، كما توضح الخط الرابط بين أهداف جمعية الطلبة وجمعية العلماء خلال الثلاثينات . وسنقصر هنا الحديث عن بعض التوصيات المتعلقة باللغة العربية والتاريخ والتعليم وفتح المجالات أمام الخريجين ، فبالنسبة للعربية طالب المؤتمر الثاني بجعلها رسمية في مواد امتحان الشهادة الابتدائية ، وزيادة المدرسين بالمساجد الجزائرية ، ووضع برامج عصرية لهم ، وإجراء امتحان خاص لمن يتولى التدريس في المساجد ، وتكوين لجنة حكومية للنظر في إصلاح التعليم بالمدارس الرسمية ، والاعتراف بالشهادة النهائية الثعالبية كالباكالوريا بجزئيها ، وحث الأمة على فتح المدارس العربية الحرة ، ومطالبة جمعية العلماء بوضع برنامج علمي للمدارس الابتدائية الأهلية والمعاهد الثانوية ، وحث الحكومة على تنشيط المدارس الأهلية بإعانتها مادياً[58] .

وبشأن التاريخ أوصى المؤتمر بتغيير برنامج التاريخ العربي الذي وضعه المستشرقون ، وتوسيع نطاق تدريسه باللسان العربي وتوحيد كتبه في المدارس الابتدائية وفي الزيتونة والقرويين والمدارس الثلاث (الحكومية) بالجزائر وفي المدارس الثانوية التي تتبع الحكومة ، ومطالبة وزارة المعارف الفرنسية بالحث على علم التاريخ الاسلامي والمغربي ، بشتى الوسائل ، ودعوة الجمعيات العلمية بشمال أفريقية إلى تكثير المسامرات التاريخية ونشرها ومنح جوائز لطلاب التاريخ الممتازين ، وإقامة ذكرى العظماء والأبطال في تاريخ المغرب العربي . وبخصوص التعليم العربي بالمدارس الابتدائية أوصى المؤتمرون بما يلي : جعله إجبارياً مع توحيد برامجه ، واعتبار العربية فيه لغة أصلية ، وإعطاؤها المكانة اللائقة بها في المدارس الحكومية ، واجباريتها في امتحانات ترشيح المعلمين ، والعناية بالتعليم الديني ، وإعطاء الحرية لفتح المدارس ، وحرية التعليم . . . الخ . أما عن فتح مجالات العمل أمام الخريجين «فالتوصية على حث الأمة على العناية بالتعليم العالي

---

(58) لاحظ أن هذه التوصيات قدمها السيد أحمد توفيق المدني وهي التي أقرت بعد التصويت عليها .

وضـرورة المساواة بين الخريجين المغاربة والفرنسيين في الرتبة والأجور والتقاعد ، وتحريض الشباب على اختيار المجالات العلمية والاقتصادية والاجتماعية في التعليم العالي »[59] .

وخلال أكتوبر من سنة 1934 انعقد المؤتمر الرابع لجمعية الطلبة في المدرسة الخلدونية بتونس أيضاً . وكان المؤتمر هذه المرة برئاسة السيد المنجي سليم ، وقد مثل الجزائر فيه الشيخ سعيد الزاهري عن العلماء ، والشاعر مفدي زكريا . وألقى الشيخ الزاهري تقريراً في الجلسة الأولى عن حالة التعليم الحر بالجزائر، وهو تقرير مفيد ومركز . وبعد مناقشة التقارير في جلسات متعددة أوصى المؤتمر بخصوص الجـزائر بمـا يلي : على جمعية العلمـاء أن تضع بـرنامجـاً للتعليم الحر ، وعلى الحكومة الفرنسية التوقف عن منع الجزائريين من تأسيس المدارس الحرة ومطالبتها بمنحهم الحرية الدينية لتأسيس المدارس القـرآنية ، وفتـح الكتاتيب التي أغلقتهـا السلطات الفرنسية عموماً في الجزائر (إشارة إلى منشور ميشال) على إنشاء المدارس الحرة . ولاشك أن أثر العلماء في هذه التوصيات واضح . وقد كان جدول أعمال المؤتمر يحتوي أيضاً على دراسة الحالة المادية لطلبة التعليم الاسلامي ، والتعليم الثانوي الحديث ، الخ[60].

وانعقد المؤتمر الخامس في تلمسان من 6 إلى 15 سبتمبر سنة 1935 ، ونحن نعرف أن هذه السنة كانت فترة توتر في الجزائر ، ولا سيما بعد زيارة الوزير رينيه . ومهما يكن الأمر فقد افتتح المؤتمـر الشيخ البشيـر الإبراهيمي نـائب رئيس جمعية العلمـاء وممثلها في الغـرب الجزائـري . وساد المؤتمـر حماس شـديد واستبشـار بالمستقبل، ورغم أننا لا نعرف الآن عن عدد الحاضرين ولا عن الموضوعات الرئيسية المطروحة للنقاش فيه ، فإن التوصيات تعطي صورة واضحة عن مـدى اهتمامـات الطلبة في ذلك العهد ، وقد لاحظ الكتّاب المعاصرون بأن الطلبة كانوا يستمعون إلى

(59) (نشرة المؤتمر الثاني) الجزائر 1932 طبع تونس . وذكر لي قنانش ان المؤتمر الثالث قد انعقد في باريس سنة 1933 وحضره السيد علال الفاسي ومسيرو النجم .

(60) (نشرة أعمال المؤتمر الرابع) تونس 1934 ويذكر أرون ص 65 ـ 66 أن مؤتمر 1934 قد انعقد في شهر يناير ولعله كان على خطأ ، وقال أيضاً بأن المؤتمر وضع برنامجاً ضد فرنسا ووافق المؤتمرون على مبدأ الاستقلال الكامل لبلادهم واعتبار المغرب العربي أمة واحدة .

صوت الأجداد ، وصموا آذانهم عن المنطق العقلي الذي تعلموه في المدارس الفرنسية وفتحوها على المنطق الصوفي الغامض الذي يدغدغ العواطف[61] . ولاحظ كاتب آخر أن المؤتمر لم يكن مؤتمر طلاب ولكن كان مؤتمر وطنيين وإسلاميين ، فقد كانوا يخطبون ويتحدثون باللغة العربية رغم حضور شيخ بلدية تلمسان الفرنسي الذي احتج بشدة على ذلك . وقد اتهم هذا الكاتب المؤتمر بأنه كان ينشر « الحقد الأعمى » ضد فرنسا[62] .

ومن بين التوصيات التي أصدرها المؤتمر الخامس ما يلي : جعل العربية رسمية في المدارس الابتدائية وإجباريتها ، وانشاء فرع في مدرسة ترشيح المعلمين بالجزائر لإعداد المعلمين بالعربية ، وحث الشعب الجزائري على الاستمرار في إنشاء المدارس العربية الحرة ، ومطالبة الحكومة الفرنسية بجعل العربية رسمية أيضاً في المدارس الثانوية (الليسيات) وتدريس الأدب العربي على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية ، وتعليم العربية وعلومها في جامعة الجزائر . كما أوصى المؤتمر بوضع برنامج « تربية وطنية » على مستوى المغرب العربي ، وتحرير المرأة وتعليمها ، ومحو الأمية ، والعودة إلى التقاليد الإسلامية ، وتدريس تاريخ المغرب العربي في جميع المستويات ، وتحسين أوضاع أساتذة اللغة العربية ومدارسها وخريجيها[63] .

أما المؤتمر السادس لجمعية الطلبة فقد كان من المقرر أن ينعقد بفاس (المغرب) يوم 7 سبتمبر سنة 1936 برئاسة السيد المنجي سليم من تونس . وبعد مراسلات بين اللجنة التحضيرية والسلطات الفرنسية في المغرب اقترح المقيم العام انعقاده في الرباط تحت رئاسته هو . ولكن اللجنة قبلت عقده في الرباط ورفضت رئاسة المقيم العام بحجة أن ذلك يخرجه عن كونه مؤتمراً طلابياً إلى مؤتمر سياسي ، وبعد حضور المؤتمرين إلى الرباط في الموعد الجديد وهو 12 اكتوبر ، أعلن المقيم العام (بيروطون) تأجيل المؤتمر إلى أجل غير مسمى .

وبعد ذلك أعلنت جمعية الطالب المغربية على لسان رئيسها عبد الخالق الطريس ، عن دعوة المؤتمر للانعقاد في مدينة تطوان الخاضعة عندئذ لاسبانيا . وقد

---

(61) ديبارمي (المؤتمر الخامس) في (أفريقية الفرنسية) ديسمبر 1935 ص 719 .

(62) مهندس ، نفس المصدر .

(63) ديبارمي . نفس المصدر .

اشتمل البرنامج المعلن على النقاط الآتية . .

- رفع المستوى الثقافي في شمال أفريقية .
- تدعيم الصلات بين الأقطار الثلاثة من جهة وبينها وبين البلاد العربية والإسلامية من جهة أخرى .
- توحيد مراحل التعليم بشمال أفريقية .
- دراسة الأمراض الاجتماعية في الأقطار الثلاثة والبحث عن علاجها.
- وضع كتاب تاريخ واحد للأقطار الثلاثة.
- فصل الأوقاف الإسلامية عن الدولة.

وبناء على الدعوة فإن المؤتمر كان سينعقد بتاريخ 21 ـ 27 أكتوبر ، سنة 1936 . وقد حضر حفلة الافتتاح خليفة السلطان بتطوان وممثلو السلطات الإسبانية[64] . ولا نعرف الآن أي شيء عن توصياته ولا عن الحاضرين فيه . ولكننا نعرف أن منع انعقاد المؤتمر في المغرب (الفرنسي) قد أثار ضجة في الصحافة المعاصرة وفي أوساط الطلبة . وقد اشتركت (البصائر) في هذا الاحتجاج ونشرت ما كان يصلها من قيادة المؤتمر حول هذا الموضوع[65] .

ومن الأسف أننا لا نعرف الآن أيضاً ما حدث لهذه المنظمة سنوات 1937 ـ 1939 والذي لا شك فيه هو أنها ظلّت تعمل بنشاط في فرنسا ، وعلى مستوى المغرب العربي . وقد بدأ خريجوها تتوزعهم الحياة السياسية في بلادهم ، كما بدأت الأحزاب المحلية تجتذبهم إليها فدخل بعضهم في الأحزاب والهيئات الموجودة عندئذ ، وكون آخرون أحزاباً وهيئات خاصة بهم ودخلوا جميعاً في معركة الحرية ضد الاستعمار . ونلاحظ بالنسبة للجزائر أن معظم مثقفي الطلبة كانوا في برامجهم الثقافية يدورون في فلك العلماء ، أما في حياتهم السياسية فقد كانوا من النخبة ومن عناصر حزب البيان فيما بعد ، وقليل منهم فقط انضموا للنجم وحزب الشعب الجزائري الذي خلفه .

---

(64) أنظر (أفريقية الفرنسية) أكتوبر ، 1936 ، ص 564 .

(65) أنظر (البصائر) عدد 8 ، 18 سبتمبر 1936 ، وكذلك عدد 16 أكتوبر 1936 ففيهما تفاصيل هامة حول الموضوع . من بين الدراسات التي تناولت تاريخ الحركة الطلابية كتاب ، غي بيرفييه (الطلبة الجزائريون في الجامعات الفرنسية ، 1880 ـ 1962) باريس ، 1984 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الخامس

نجم أفريقيا الشمالية وحزب الشعب الجزائري

أعلن السيد مونسو ممثل فرنسا في سورية إلى السيد فارس الخوري ذات مرة بأن على فرنسا أن لا تسير في سورية كما سارت في الجزائر وتونس لأن السوريين أذكياء ولهم جمعيات سياسية راقية[1] . ورغم ما في هذا التصريح من تبرير يناقض سياسة فرنسا في المستعمرات والمحميات والمندوبيات ، فإنه يعبر عن بعض الحقيقة . فالجزائر لم تعرف الأحزاب السياسية بالمعنى الذي يقصده السيد مونسو إلا في الثلاثينات . أما ما سبق ذلك من هيئات وجمعيات وحركات فقد كان يغلب عليه الطابع الاجتماعي والثقافي .

وكانت حركة الأمير خالد قصيرة المدى ولم تتخذ بعداً سياسياً واضحاً (كالمناداة بالاستقلال وشمول الدعوة للقطر كله) ، وعندما خلفها نجم أفريقية الشمالية لم يستطع في بداية الأمر أن يكون منظمة سياسية وطنية بالمعنى المتعارف عليه ، فقد ظهر النجم في فرنسا لا في الجزائر ، وكان منظمة مدنية عمالية أكثر منها منظمة شاملة لكل قطاعات المجتمع ، ومن جهة ثالثة كان النجم منظمة شمال أفريقية لا منظمة جزائرية وطنية . ولذلك قلنا أن في كلام السيد مونسو ، الذي كان قد فاه به سنة 1931 ، بعض الحقيقة ، ولعل ما يؤكد كلامه ما نشرته الصحف المحلية سنة 1931 أيضاً من أن المترشحين الأهليين في الانتخابات المحلية كانوا يعتمدون في نجاحهم على المال والرشوة والجهل وليس لهم لا حزب سياسي ولا فكرة يعتمدون عليها ، بخلاف المترشحين الفرنسيين الذين كانوا في نفس الوقت يتقدمون إلى الانتخابات معتمدين على أحزاب سياسية وايديولوجيات محددة[2] .

---

(1) الشهاب ، نوفمبر 1931 .

(2) نفس المصدر ، ديسمبر 1931 نقلاً عن جريدة (الإقدام) ولكن (الشهاب) انتقدت أيضاً من =

حقاً أن بعض الكتاب يسمي الفترة التي تبدأ بسنة 1930 بفترة تثبيت الجزائريين حقهم في أن يكونوا أمة[3] ويعود بعضهم بحركة المعارضة للوجود الفرنسي في الجزائر إلى ظهور الأمير خالد الذي مثل ، في نظر هذا الكاتب ، الطبقة الأرستقراطية المحلية . وقد مثل الدكتور إبن جلول ، بناء على رأي هذا الكاتب أيضاً ، الطبقة البرجوازية ، بينما مثل فرحات عباس (ابتداء من الحرب الثانية) جماهير الشعب رغم أنه كان برجوازياً[4] بقي علينا أن نضيف إلى هذا التصنيف الذي ليس صحيحاً على علاته ، أن جمعية العلماء والنجم ثم حزب الشعب الجزائري كانوا يمثلون العمال والفلاحين والمثقفين الفقراء ، فالنجم الذي نتناوله في هذا الفصل كان بحق يمثل صوت الطبقات العاملة سواء أثناء ميلاده في باريس أو عندما انتقل نشاطه إلى الجزائر نفسها . وقد ظلت هذه النظرة إلى النجم ثم حزب الشعب من طرف الأحزاب والجمعيات المعاصرة ثابتة حتى عشية الثورة. فقد كانوا ينظرون إليه على أنه يمثل الغوغاء والعامة والصغار والجهال ونحو ذلك من ألقاب التعالي والطبقية . وكانت تلك الأوصاف يطلقها عليه أحياناً حتى بعض رجال جمعية العلماء ممن كانوا ينتمون إلى عائلات كبيرة أو ممن جعلتهم الثقافة والمسؤولية في مقام البرجوازيين . وهكذا كان النجم وخلفه حزب الشعب يمثلان ، باستمرار تقريباً ، في حياة السياسة الجزائرية التيار المتطرف في الميدان الايديولوجي والطبقة العاملة في الميدان الاجتماعي.

وقد أتينا في الجزء الثاني على نشأة النجم وموقفه وبرامجه حتى سنة 1933 تقريباً . ويهمنا الآن أن نواصل نفس الخط خلال الثلاثينات مع الإشارة إلى بعض المعلومات الاضافية التي دلت عليها الوثائق الجديدة . فالنجم الذي كان الأمير خالد رئيسه الشرفي ، ولد في باريس سنة 1926 ، وكان رئيسه الفعلي هو السيد حاج علي عبد القادر الذي كان جزائرياً وعضواً في اللجنة الإدارية للحزب الشيوعي الفرنسي

= أسمتهم بحملة الشهادات (النخبة) على تلونهم في الانتخابات واغترارهم بقشور المدنية (الفرنسية) .

(3) باربور (مدخل) ص 215 .

(4) ساراسين ، ص 77 .

ورئيس خلية شيوعية في فرنسا. ولعل هذا هو ما جعل معظم الكتاب يقولون بأن النجم ولد في ظل الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد عرفنا أن النجم كان يضم ممثلين عن الأقطار الثلاثة ، وكان له هدفان : بعيد وهو تحقيق الاستقلال الكامل بالوسائل الثورية ، وقريب وهو الدفاع عن مصالح ومطامح عمال شمال أفريقيا في فرنسا ، وأن السلطات الفرنسية التي لم يكن يغيب عنها ذلك منعت النجم من ممارسة نشاطه في أقطار المغرب العربي وقصرته على فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية ، ولعل ميلاد النجم في حضن الحزب الشيوعي الفرنسي قد شفع له أحياناً وحماه من بعض الاضطهادات المحققة . أما العلاقة بين المنظمتين (النجم والحزب الشيوعي) فسنتعرض إلى تطورها فيما بعد[5] .

ورغم أن النجم قد ولد شمال أفريقيا فإنه ، ابتداء من سنة 1927 بدأ أعضاؤه التونسيون والمغاربة يفضلون الانضمام إلى منظماتهم المحلية التي كان مسموحاً بها في بلادهم خلافاً للجزائر ، وتثبت تقارير الشرطة الفرنسية أن أعضاءه قد وصلوا سنة 1927 إلى 3 000 عضو ، لكنهم ازدادوا على مر الأيام ، كما سنرى ، كما ازداد عدد أنصاره من العاطفين عليه . وتتهم السلطات الفرنسية النجم بأنه كان يتعاون خارج فرنسا مع (لجنة سوريا ـ فلسطين) التي كان على رأسها الأمير شكيب أرسلان ، وأنه كان يتلقى المساعدات المعنوية والمادية من المنظمة الشيوعية الدولية (الكومنترن) ومن الدعاة الألمان في البلاد الإسلامية مثل (لجنة الدفاع عن المغرب العربي) و (الجمعية الألمانية ـ الإسلامية) و (اتحاد التحرر الإسلامي) . أما في فرنسا نفسها (بما في ذلك الجزائر) فالرقابة على نشاطه كانت شديدة ، وكانت أيضاً كافية حسب تعبير بعض الوثائق[6] .

وكان النجم يقوم على أسس واضحة لإدارة نشاطه ، وتتمثل هذه الأسس في :

---

(5) أنظر (مذكرة سرية عن نجم شمال أفريقية) أعدتها ولاية وهران 31 أوت (أغسطس) 1936 وهي مخطوطة على الآلة الراقنة. كان مقر النجم بباريس 29 نهج دي بروطاني وظل السيد عبد القادر رئيساً له إلى سنة 1927 حين تولاه السيد مصالي الحاج . على أن هناك من يرى بأن تاريخ النجم هو سنة 1924 ، وبذلك أرخت السيدة جانيت زاقورا في اطروحتها عن حركة النجم (بالانكليزية).

(6) (مذكرة ولاية وهران) . أنظر أيضاً أطروحة السيد صاح مثلوثي عن (المصالية) جامعة باريس ، سنة 1974 .

1 ـ الجمعية العامة وهي تعقد اجتماعاتها سرياً ، وتعتبر الهيئة العليا والأساسية له ، فهي صاحبة السيادة .

2 ـ اللجنة الإدارية ، وتسمى أحياناً اللجنة المركزية وأحياناً اللجنة التنفيذية . وكانت تضم في الغالب خمسة وعشرين عضواً .

3 ـ المكتب التنفيذي ويتكون من خمسة إلى ستة أعضاء ، وهو ينتخب من الجمعية العامة ويعتبر مسؤولاً لديها . والمكتب التنفيذي هو المسؤول على الفروع وعلى جريدة (الأمة) وعلى إدارة العلاقات مع الجمعيات والمنظمات الأخرى ، وعلى الدعاية والنشر . وإذا اقتضى الأمر فإنه يحل محل الجمعية العامة عندما تحول الحوائل دون انعقادها، كقرار منع الاجتماع من السلطات الفرنسية الذي كثيراً ما حدث(7) . وكان أعضاء المكتب التنفيذي بالذات من رجال قليلي الثقافة والوسائل ولكنهم كثيرو الإيمان والحماس ، وقد تحملوا في سبيل مبدئهم الوطني السجن والتغريم والمضايقات والإبعاد والايقاف عن العمل.

من هؤلاء السادة مصالي الحاج ، وعيماش عمار ، وراجف بلقاسم ، وشبيلة الجيلالي ، وبانون اكلي . ولا شك أن مصالي قد تزعم الحركة خلال الثلاثينات والأربعينات بلا منازع ، وأثبت ، رغم ما قيل عنه ، أنه كان مؤمناً بهدف واضح ، وهو الاستقلال الكامل للجزائر ، لم يخضع لقسوة الظروف أحياناً ولا للضغوط الشديدة التي كانت عليه ، سواء على المستوى الإداري أو على المستوى الايديولوجي ، وكان بذكائه ودهائه وشخصيته القوية قد استطاع أن يسيطر على زمام الحركة (النجم ثم حزب الشعب) مدة طويلة ، حتى أصبح هو في حد ذاته معلم مدرسة في الوطنية والتضحية والمناورات السياسية والصبر على المكاره والثبات على المبدأ. ولعل ثقافته العمالية البسيطة قد جعلته أحياناً قاسياً مباشراً في أحكامه يسلك سلوك الأبوة مع رفاقه لا سلوك الأخوة(8) . وليس غرضنا هنا وضع ترجمة للسيد مصالي ، وكل هدفنا ابراز

---

(7) كولو دراسة عن نجم أفريقية الشمالية (مخطوطة) .

(8) ليس هناك حتى الآن ترجمة كاملة للسيد مصالي الحاج . وتوجد في كتب التطور السياسي للجزائر بعض السطور عنه هنا وهناك. ومن ذلك ترجمة السيد (كولو) له في دراسته المذكورة . أنظر أيضاً دراستي زاقورا ومثلوثي المشار اليهما . وقد صدرت (مذكرات مصالي) وفيها اضواء هامة على =

بعض النقط عنه فقط . وسنتعرض لنشاطه ومواقفه خلال الثلاثينات عندما نتناول مواقف الحزب من قضايا الفترة.

وبالإضافة الى السيد مصالي هناك عيماش عمار . فقد كان عيماش هو الكاتب العام للنجم، والمسؤول عن جريدة (الأمة) التي تأسست سنة (1930)، من شهر مايو 1933 إلى ديسمبر 1935 . وكان خطيباً مؤثراً وداعية جذاباً . وقد سجن وغرم عدة مرات ثم أطلق سراحه في عهد الجبهة الشعبية (1936) وكان قد حضر مع مصالي مؤتمر مسلمي أوروبا الذي انعقد بجنيف (سبتمبر 1935) والتقى هناك ، مع زملائه ، بالأمير شكيب أرسلان . وكان عيماش من مدينة تيزي وزو . أما راجف بلقاسم فقد كان أمين مال النجم ، وهو من عين الحمام ، وقد سجن وغرم أيضاً سنوات 1933 ـ 1935 وظل في السجن الى 1936 كزميله عيماش .

ومن شخصيات النجم كذلك شبيلة الجيلالي الذي كان الكاتب العام عندما صدر قرار الحل عام 1929 ولكنه فارق النجم منذ 1933 . وفي شهر أكتوبر 1930 ، تولى سي الجيلاني محمد السعيد امتياز جريدة (الأمة) ثم سجن وغرم ، كذلك سنة 1935 بعد أن كتب مقالاً في الجريدة يدعو فيه العمال إلى التبرع لإنقاذ عائلات زعماء النجم المساجين . وقد ظل سي الجيلاني صاحب امتياز الجريدة المذكورة حتى اعتقاله خلال جويلية سنة 1938.[9] ان هؤلاء الرجال ، بالإضافة إلى عدد آخر ، قد تحدوا جميع العقبات التي وضعت في طريق منظمتهم ، واستطاعوا في النهاية أن ينتزعوا اعتراف السلطات الفرنسية بها بعد حلها عدّة مرات . وسنعرف أكثر عن نشاطهم بعد قليل.

اعتمد النجم ، وخلفه حزب الشعب ، على وسائل متعددة ، وأهمها الاحتجاج والتظاهر والصحافة والتجمع . فلا تكاد تمر مناسبة وطنية أو عربية تستدعي اتخاذ

حياته ، ولكنها لا تتجاوز سنة 1938 . كما أصدر بنجامين ستورا كتاباً بعنوان (مصالي الحاج ، 1898 ـ 1974) ، مايان ، 1982 .

(9) نفس المصدر ، كذلك (حياة بانون أكلي) عضو النجم ، دراسة على الآلة الراقنة ـ و (مذكرة) ولاية وهران . ويذكر السيد كولو أن سي الجيلاني قد مات في الجزائر سنة 1967 . وهناك فرق بين شبيلة الجيلالي ، وسي الجيلاني محمد السعيد . ذلك أن الأول قد خرج من النجم منذ 1933 حين قرر النجم عدم جمع أعضائه بين عضويته والعضوية في حزب آخر .

موقف إلا سارع النجم باثبات وجوده ، ورفع صوته احتجاجاً على تصرفات الإدارة محلياً وتدخل الجيش الفرنسي في سوريا ولبنان والمغرب ، واضطهاد الوطنية في تونس وعرقلة الحركات الاستقلالية في مصر . وكانت الاجتماعات على مستوى الهيئات الرسمية والفروع ، سرية وعلنية ، إحدى الوسائل الهامة في يد النجم يتبادل خلالها الرأي وتناقش الخطط المقبلة ، وتعطى دروس التوعية والتوجيه السياسي وتستنكر فيها المواقف المضادة للوطنية حسب البرنامج المسطر ، وتحدد فيها العلاقات مع المنظمات والأحزاب الفرنسية وغيرها.

أمّا الصحافة بمعناها الواسع فقد كانت وسيلة للدعاية والتعريف والتوجيه والتنوير ، كما كانت وسيلة لجمع المال . وعلى هذا الأساس أصدر النجم (الاقدام) وهو اسم الجريدة التي كان الأمير خالد قد أصدرها في الجزائر ـ وتقول بعض التقارير أن أعدادها الأولى كانت عبارة عن دعوة للثورة ضد فرنسا . ثم أصدر (الإقدام الباريسي) عندما منعت السلطات الفرنسية الأولى من الصدور . وفي شهر فبراير 1927 منع هذا أيضاً ، فأصدر النجم (الإقدام الشمالي الافريقي) وكان أيضاً عنيف اللهجة ضد فرنسا . وقد حل النجم سنة 1929 ، ولكن إصدار الصحف لم يتوقف . وكانت الصحيفة أحياناً هي نفسها تمثل برنامجاً ومركز انطلاق . وهذا ما حدث لجريدة (الأمة) التي أصدرها النجم باللغة الفرنسية في باريس في أكتوبر 1930 ، أثناء فترة حله من السلطات الفرنسية[10].

أعلنت (الأمة) منذ ظهورها بأنها جريدة تدافع عن مصالح التونسيين والجزائريين والمغاربة . وكانت تطبع عدة آلاف من النسخ . ورغم أن السلطات الفرنسية قد منعتها من دخول أفريقية الشمالية فإن القائمين عليها كانوا يوزعونها سرياً ، وقد ازدادت انتشاراً حتى بعد قرار المنع . وكانت تحمل أخبار الحركة الوطنية ورجالها ومواقف السلطات الفرنسية من الشؤون الأهلية ومطالب الجزائريين وأخبار الحركات الوطنية في العالم ، ولا سيما أخبار الوطن العربي والعالم الإسلامي ، وكان مديرها السياسي هو السيد مصالي الحاج ، وصاحب امتيازها هو السيد سي الجيلاني كما ذكرنا . وقد بلغ ما كانت تطبعه أربعة وأربعين ألف نسخة سنة 1934 . وكانت

---

(10) (مذكرة) ولاية وهران . ولم تظهر إلى الآن دراسة مستقلة عن جريدة (الأمة) .

(الأمة) تحمل شعارات النجم ، وقد استمرت في الظهور في ظروف مختلفة حتى 1939 . ففي شهر يونيو (جوان) من نفس العام هاجمت الشرطة الفرنسية في باريس مقر الجريدة واحتجزت نسخها وصادرت وثائق أخرى ادّعت بأنها هامة[11] أمّا في الجزائر فقد أصدر حزب الشعب الجزائري سنة 1939 جريدة أخرى بالفرنسية باسم (البرلمان الجزائري) كانت قصيرة الأجل لأن الحرب الثانية سرعان ما منعتها من الصدور . وتدّعي بعض المصادر أن الذين أصدروها هم مناضلو حزب الشعب من سجن الحراش[12] وهكذا كانت الصحافة (بما فيها المناشير ، والإعلانات والجرائد نفسها) إحدى الوسائل الهامة لنشاط النجم وحزب الشعب خلال الثلاثينات .

حلت فرنسا نجم أفريقية الشمالية سنة 1929 كما عرفنا ، متهمة إياه بمضادة فرنسا والدعوة إلى الثورة . ولكن المنظمة ظلت تعمل في الخفاء إلى سنة 1933 وتعتبر هذه السنة حاسمة في تاريخ المنظمة . فقد كانت بدون برنامج واضح سوى ما أعلنه ممثلوها سنة 1927 في مؤتمر بروكسل من التصريح بالاستقلال[13] . كما أن علاقتها بالحزب الشيوعي الفرنسي وبحركة (الكومنترن) لم تكن قد اتضحت حتى ذلك الحين . غير أنه خلال شهر مايو سنة 1933 انعقد اجتماع هام لمنظمة النجم أسفر عن وضع البرنامج الذي نشرنا خلاصته في الجزء الثاني ، كما أسفر عن تعيين اللجنة المركزية من ثلاثين عضواً ، وتعيين اللجنة التنفيذية (المكتب) من ثلاثة أشخاص . ومن جملة ما اتخذ في هذه المناسبة منع أعضاء النجم من الانتماء إلى أية منظمة أو حزب آخر . وبذلك خرج من النجم كل من كان قد دخله لأغراض أخرى غير الوطنية[14] ومن جهة أخرى (تجزأر) هيكل النجم أكثر فأكثر ، وأصبح يعمل أساساً لصالح القضية الجزائرية ولم يعد اهتمامه بقضايا المغرب العربي الأخرى سوى

---

(11) ج.ل.ل. (أفريقية الفرنسية) ، يونيو 1939 ، ص 174 .

(12) عباس ، ص 201 وقد أصدر الحزب أيضاً جريدة بالعربية عنوانها (الشعب) ، وكان يحررها الشاعر مفدي زكريا ، والسيد محمد قنانش ، وذلك سنة 1937 .

(13) اطلعت على نسخة من هذا البرنامج عند السيد قنانش .

(14) (حياة بانون اكلي) وكذلك (مذكرة) ولاية وهران ، انتقل النجم من العنوان المذكور سابقاً إلى 29 شارع دقير ، بباريس .

اهتمام ثانوي .

ولكن هذا النشاط الذي ظهر بـه النجم ، رغم قرار حلّه ، جلب إليـه أعين الرقابة . وعندما تيقّن قادته من المتابعة والمحاكمة بتهمة إعادة تنظيم ممنوع ، غيّروا اسمه إلى (نجم أفريقية الشمالية المجيد) مع إبقاء البرنامج والهياكل والوسائل كما كانت[15] . لكن القضاء الفرنسي تدخل سنة 1934 واتهم النجم بالقيام بنشاط باسم منظمة منحلة قانونياً . وكانت هذه حقاً سنة صعبة على أعضاء النجم . فقد قُبض على قادته الواحد بعد الآخر ، واقتيدوا إلى السجن ، وفرضت عليهم غرامات متنوعة[16] فقد قبض على رئيس النجم ، السيد مصالي خلال نوفمبر بتهمة إثارة العسكـريين الجزائريين في الجيش الفرنسي وتحريضهم على العصيان . وخلال شهر ديسمبر من نفس العام أُلقي القبض على راجف بلقاسم . وكذلك على عيماش عمار وغيرهما . وفي 24 يناير 1935 حكمت محكمة باريس على مصالي بالسجن لمدة ستة أشهر وتغريمه مائتي فرنك وعلى عيماش بأربعة أشهر سجناً وتغريمه مائتي فرنك أيضاً ، وعلى راجف بثلاثة أشهر سجناً ومائتي فرنك .

ولم يسع قادة النجم إلاّ أن يغيروا من عنوانهم من جديد ويؤسسوا منظمة جديدة تحمل روح النجم ولكن بغطاء آخر . ففي شهر فبـراير من نفس العـام (1935) أصبح النجم يدعى (الاتحاد الوطني لمسلمي شمال أفريقية) وصاغوا لذلك لوائح جديدة أرسلوها إلى محافظة شرطة باريس بمذكرة مؤرّخة في 27 فبراير 1935[17] . وقد نصت المادة الثانية من اللوائح المذكورة على العمل علـى التحـرير المـادي والمعنوي لمسلمي شمال أفريقية ، ونصّت المادية الثالثة على أن الاتحاد يجمع كل مسلمي شمـال أفريقيـة وأنه سيقـوم بتربيتهم الـوطنية والاجتمـاعية ، ويـدافـع عن مصالحهم الوطنية ، المادية والمعنوية ، والاجتماعية والسياسية . أما المادة الرابعة فقد أضافت بأن الاتحاد سيستعمل كل وسيلة لديه لتحقيق أهدافه وأنه سيقوم بالدعاية

---

(15) يدعى السيد مهندس أن النجم المجيد قد ولد سنة 1932 (أفريقيـة الفرنسيـة) أكتوبـر 1934 ، 587 .

(16) في هذه السنة أيضاً وقعت حوادث قسنطينة التي تعرضنا لها .

(17) نفس المصدر .

الضرورية لنفس الأهداف[18]. وبينما الشرطة تنظر في الأمر، قررت محكمة باريس خلال شهر أبريل 1935 أن الحل الأول للنجم (سنة 1929) كان غير قانوني لأنه لم ينفّذ في الوقت المحدد . لذلك أعيدت الشرعية للنجم لممارسة نشاطه . ولكن عام 1935 هو عام قرار رينيه الذي ضيق الخناق على كل الحركات الوطنية ووضع الشبهات حول جميع التصرفات حتى ولو كانت بريئة . وعلى كل حال فإن السيد مصالي وبعض رفاقه (عيماش وبانون مثلاً) قد توجهوا خلال سبتمبر سنة 1935 إلى جنيف لحضور مؤتمر مسلمي أوروبا الآنف الذكر .

ورغم ملاحقات القضاء والشرطة والسياسة فإن قادة النجم كانوا دائماً يجدون العطف من جهات مختلفة . ومن أبرز الأشخاص الذين عرفوا بالدفاع عن هؤلاء القادة المحامي جان لونقى ، الذي كان نائب منطقة باريس . وقد ذكر في عدّة مناسبات أنه كان مستشاراً أيضاً للسيد مصالي . ومن المحامين العرب عنهم السيد الحاج الذي كان من أصل سوري وكان داعية إسلامياً[19] وكذلك السيد محمود سالم باي الذي كان قاضياً دولياً من مصر ، وكان يسكن باريس . وهو صاحب مبادرة المؤتمر الإسلامي الأوروبي الذي انعقد سنة 1935 . وكان سالم باي يعمل واسطة بين قادة النجم والأمير شكيب أرسلان منذ 1932[20] ولعله كان السبب أيضاً في جذب قادة النجم نحو الاتجاه العربي الإسلامي بدل الاتجاه الشيوعي الدولي الذي سار فيه النجم منذ ميلاده .

كانت القاعدة الأساسية للنجم هي الفروع سواء في فرنسا أو في الجزائر وكانت الفروع تخضع لتعليمات المكتب الإداري . تقوم بنشاطها المحدد كالدعاية وسط العمال ، وتوزيع جريدة (الأمة) والمناشير التي يصدرها الحزب ، وجمع التبرعات وعقد الاجتماعات الدورية ، والدفاع عن حقوق العمال في المنطقة . ومنذ سنة 1934 بدأ نشاط النجم يتسرب إلى الجزائر أيضاً وأفكاره تنتشر فيها ، ولم تكد تحل

---

(18) (مذكرة) ولاية وهران ، والواقع أن النص على ضم جميع مسلمي شمال أفريقية كان نظرياً فقط .

(19) أفادني الأستاذ قنانش أن السيد الحاج كان مسيحياً وشيوعياً وأنه قد قتل أثناء احتلال ألمانيا لفرنسا . ولست الآن متأكداً من الحقيقة .

(20) (حياة بانون أكلي) وكذلك (مذكرة) ولاية وهران ، ويذكر السيد جوليان أن علاقة مصالي بأرسلان جعلت الأول يقترب في اتجاهه من العلماء . ص 121 .

سنة 1936 (عام الجبهة الشعبية) حتى أخذ نشاط النجم منعطفاً جديداً في الجزائر حيث تكونت الفروع وألقيت الخطب وعرف الناس قادتهم وأفكارهم عن كثب. ويقال ان أعضاء النجم سنة 1936 قد بلغوا 7000 شخص . ولم يزد اضطهاد الشرطة النجم إلاّ انتشاراً وقوة[21] .

صيغ البرنامج الأساسي للنجم خلال شهر مايو سنة 1933 ، وقد ظل هو البرنامج الأساسي لحزب الشعب أيضاً، وكان ذلك في اجتماع عقد في باريس. وكنا قد تعرضنا لهذا البرنامج بالتفصيل في الجزء الثاني ، ويلاحظ عليه أنه اشتمل على ثلاث نقط : فمن الناحية الدينية ركز على ضرورة وحدة الإسلام والعالم الإسلامي مؤكداً ذلك في برنامج المؤتمر الإسلامي الأوروبي الذي انعقد في جنيف في 12 سبتمبر 1935 ، وتعاطفه مع مطالب العلماء أثناء انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري في سنة 1936 . ومن الناحية الاجتماعية استنكر النجم القوانين الاستثنائية التي يتضمنها (قانون الأهالي) المشهور، وطالب بعودة الأرض التي اغتصبها الكولون إلى الجزائريين والقضاء على الإقطاع في الجزائر ، أما على المستوى الوطني فقد نص على ضرورة اعتبار اللغة العربية لغة رسمية ، وإنشاء جيش وبرلمان وطني ، وتحقيق الاستقلال الكامل للجزائر[22] ولعل تباعد الشقة بين النجم والشيوعيين قد ظهر من هذا البرنامج الذي يكتسي طابعاً وطنياً أكثر من الطابع الثوري الدولي الذي أراده له (الكومينترن) . وقد أحست السلطات بخطر الوطنية في الجزائر عليها فأجرت خلال هذه السنة (1933) عدة اتصالات مع ممثليها لدراسة الوضع وكيفية التغلب على التيار الجديد ، ولا شك أن سفر السيد كارد ، الحاكم العام ، إلى باريس عندئذ كان يدخل في هذه الاتصالات[23] .

والواقع أن سنة 1934 كانت فترة نشاط غير عادي في تاريخ النجم ، وتمثل

---

(21) كولو ، وكذلك عباس ص 200 ـ 201 .

(22) جوليان ، ص 121 ويذكر هذا المصدر أن الاجتماع الذي أسفر عن البرنامج المذكور قد جري بتاريخ 18 مايو بدل 28 كما تذكر المصادر الأخرى ، أنظر أيضاً أرون ، ص 64 ، وكذلك نوشي ، ص 71 .

(23) (التايمز) 23 يونيو ، 1933 ، ص 13 .

هذا النشاط في عقد الاجتماعات، والكتابات الصحفية، والمناشير، والمشاغبات. وكانت صحيفة (الأمة) تعكس كل هذا النشاط وتصوره خير تصوير ، ففي الثاني عشر من فبراير من نفس العام جرت مظاهرتان صاخبتان في باريس إحداهما كانت بدعوة من المنظمة العمالية الفرنسية (س. ج. ت.) والثانية كانت « عربية » . وقد شارك في الأولى من 30 إلى 40٪ من الجزائريين وأنشدوا نشيد (الدولية). أما في الثانية التي نظمها العرب فقد كانت أكثر « عنفاً وإرهاباً » وقد حمل الجزائريون خلالها العلم الوطني (علم أخضر يحوطه هلال) ودامت هذه المظاهرات ثلاثة أيام . ولم تقف إلّا عند استعمال القوة ، واعتقال وتغريم عدد من المشتركين[24].

وقد دافعت (الأمة) عن المظاهرة المذكورة دفاعاً حاراً واتهمت الفرنسيين بمحاولة المحافظة على امبراطوريتهم القديمة بكل الوسائل . وقالت بأن الفاشيستيين كانوا وراء القمع الذي استعملته السلطات ضد المتظاهرين : « لقد اخترنا طريقنا وهو توحيد قوانا مع القوى العاملة للنضال ضد الفاشيستية لكي نحصل على حرية الصحافة وحرية الاجتماع والعمالية ، ولكي نصل إلى تحررنا الكامل » وطلبت (الأمة) من جميع أهالي شمال أفريقية أن يعبروا عن سخطهم ضد قانون الأهالي ، والقوانين الاستثنائية ، والفقر ، وأن يطالبوا بحقوقهم السياسية والتعليم والحرية[25].

أما عن استعمال العنف والنهب والاغتيال ، فقد رفضت (الأمة) أن يكون المتظاهرون الجزائريون قد مارسوها : « إننا وطنيون ولا نوافق على اللجوء إلى النهب ولا الاغتيال ولا الحرائق » غير أنها اعترفت بأن الجزائريين قد حملوا العلم الوطني ، واعتبرت ذلك حقاً من حقوقهم لأنهم ليسوا فرنسيين بل عرباً « أما بخصوص رفع العلم الأخضر ، فالحق أن المتظاهرين كانوا عرباً ، فنحن هناك عن حق ومنطق» وقد عاب الفرنسيون على النجم وصف مدينة الجزائر « بالعربية » بدل « الفرنسية » ولكن (الأمة) استغربت من ذلك وقالت أن المدينة عربية منذ أمد طويل ، واعتبارها

---

(24) ديبارمي (المظاهرات) في (أفريقية الفرنسية) سبتمبر 1934 ص 543 ، كانت المظاهرة الأولى رداً على مظاهرة اليمين الفرنسي التي جرت 6 فبراير . وقد رمى النجم بثقله مع اليسار الفرنسي وانضم للجبهة الشعبية عند تكوينها ، كما كان عضواً في لجنة أسترداد لنفس الهدف .

(25) نفس المصدر نقلاً عن جريدة (الأمة) عدد مارس 1934 .

فرنسية عن طريق العنف والظلم والقهر لا يبرر ذلك عندها ، « كيف ؟ مدينة الجزائر فرنسية !؟ لا واللّه وألف لا ! فهي مدينة عربية ولكن القانون الفرنسي قد حولها فرنسية قهراً وعدواناً ! »[26] .

وخلال شهر أبريل من نفس العام عقد النجم اجتماعاً انتهى باستعمال عبارات جادة ضد فرنسا ، ففي 28 من الشهر المذكور عقد أكثر من ستمائة جزائري اجتماعاً بباريس عبروا أثناءه عن سخطهم على فرنسا ونادوا برفض الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي . وكانوا في انتظار الساعة التي يبدأون فيها بالعمل المباشر ضد فرنسا . وقد وقفوا ، حسب رواية أحد الكتاب ، أمام العلم الجزائري وصرخوا مهددين بالأيدي ، بعبارة : « الموت لفرنسا ! » و« أيها الفرنسيون أخرجوا من تونس والجزائر والمغرب ! » و« دعونا نأخذ أرضهم ! دعونا نرمي بهم في البحر »[27] وقد استغربت (الأمة) كيف يتكلم زعماء فرنسا عن تضحيات محاربيهم من أجل أمتهم بينما يعيبون على الجزائريين كونهم وطنيين ، متهمين إياهم بالحماقة « إنهم يعبرون عن وطنيتهم وحبهم العظيم لأمتهم . . فلماذا يتهموننا بالحماقة عندما نعبر عن نفس الارتباط بوطنيتنا أليست العواطف والمشاعر مشتركة بين كل الناس[28]؟» .

وكثيراً ما حاول النجم عقد الاجتماعات فمنعته السلطات ، ولكنه كان يعود الى عقدها سرياً ، من ذلك ما حدث في باريس في نهاية ربيع 1934 . وقد انتهى الاجتماع السري بلائحة هامة خصصت لها (الأمة) عدداً ممتازاً . ورغم السرية فقد حضر الاجتماع « بضعة آلاف شخص » وقد استنكرت اللائحة تقوية قانون الأهالي بتوصيات اللجنة الوزارية المختلطة واحتجت ضدها . وطالبت اللائحة بما يلي :

1 ـ احترام البند الخامس من اتفاق 5 يوليو 1830 (اتفاق حسين باشا والكونت دي بورمون) الذي نص على الممارسة الحرة للدين الإسلامي .

2 ـ إلغاء قانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية .

---

(26) نفس المصدر . وتؤكد هذه العبارات النزوع نحو العروبة الذي بدأ به النجم عهده الجديد .

(27) أرون ، ص 64 ـ 65 .

(28) جان مينو « عن زيارة السيد رينيه للجزائر » (أفريقية الفرنسية) مارس 1935 ، ص 154 نقلاً عن (الأمة) عدد 20 نوفمبر 1934 .

3 ـ حل اللجنة الوزارية المختلطة المذكورة .

4 ـ حرية الصحافة والتعبير والاجتماع .

كما احتجت اللائحة ضد منع الصحف العربية في المغرب ، وطالبت أهالي شمال أفريقية بأن يأخذوا حريتهم بالقوة[29].

ويُظهر أحد المنشورات التي صدرت عن النجم خلال هذه السنة (1934) تقارب وجهات النظر بينه وبين العلماء . فقد جاء فيه أن سياسة المصادرة والاستغلال التي اتبعها الفرنسيون في الجزائر قد أدّت إلى الأزمات الاقتصادية والاضطهاد السياسي للجزائريين سواء كانوا في فرنسا أو في بلادهم « إن عائلاتنا وإخواننا يموتون جوعاً وبرداً» ، وأن الأطفال الجزائريين يمسحون أحذية المعمرين وليس لهم مكان في المدارس ، وأن الاستعمار يجد مساعدة القياد والباشغوات ضدنا « غير أن الشعب العربي لا يستطيع ترك الأمور تسير على هذا المنوال فهو يحتج ويعبر عن سخطه بقوة» وقد لجأ الحاكم العام كارد، لكي يصد الجزائريين عن واجبهم الوطني ويبرد غضبهم إلى إنشاء لجنة لتحسين الأوضاع . « إنها لملهاة » ! فلم يبق إذن سوى التنظيم، لأنه الطريق الوحيد للخروج من هذا الوضع السيىء، إلى عهد يضمن حرية الصحافة ، والاجتماع والتجمع والكلام . وفي نهاية المنشور دعوة إلى حضور اجتماع بهذه الصيغة : «هلموا جميعاً إلى اجتماع ينظمه نجم شمال أفريقية المجيد من أجل الحصول على الحريات المدنية والثقافية في الجزائر ومن أجل التعليم الإجباري باللغة العربية وإعادة الأوقاف إلى الشعب ، إن النجم هو منظمتكم الوطنية »[30].

وفي بيان له بتاريخ 5 أغسطس دعا النجم مسلمي شمال أفريقية إلى عمل مشترك يضمن لهم الحياة السعيدة والحرية . وبعد أن وصف الوضع الدولي بأنه مهدد بالخطر ، وأن الامبريالية الأوروبية تريد أن تستفيد من الأزمة السائدة عندئذ عن طريق الحرب، نادى النجم أهالي شمال أفريقية بالتضامن وبالوحدة والحذر واليقظة. «فيا مسلمي شمال أفريقية إن الاستعمار قد احتل بلادكم وأرضكم وخيراتكم . لقد أهان

---

(29) مهندس « الهجوم » (أفريقية الفرنسية) يونيو 1934 ، ص 340 عن « الأمة » بدون تاريخ .

(30) نفس المصدر ، أكتوبر 1934 ، ص 578 ومن السهل أن يلاحظ المرء علاقة هذه النقط بمطالب العلماء من جهة وعلاقة المنشور بمنشور ميشال من جهة أخرى .

دينكم واضطهد جميع حرياتكم . لقد أصبحتم عبيداً له بعد أن كنتم الأسياد في أرضكم » وفي الأخير دعاهم إلى الانضمام جماعياً إلى النجم الذي يحمل « حياتهم السعيدة وآمالهم وحب بلادهم» وحثهم على النضال من أجل الحرية السياسية وإلغاء قانون الأهالي ، وحرية السفر والمساواة في الخدمة العسكرية . ومن أهم ما جاء في هذا البيان دعوة مسلمي الجزائر إلى التوحد والعمل على إحلال برلمان جزائري محل الوفود المالية التي تعمل تحت إمرة الفرنسيين[31] .

وقد ضاعف النجم نشاطه في صيف وخريف 1934 . وكانت مناسبة الصيف هي حوادث قسنطينة خلال شهر أغسطس، ومناسبة الخريف هي الانتخابات الأهلية. وبالمناسبة الأولى عقد النجم اجتماعات وأصدر مناشير، وكتب قادته مقالات في الصحافة وظهر من كل ذلك علاقة النجم بالشيوعيين من جهة ، وتفسير أحداث قسنطينة من جهة أخرى . ففي اجتماع عقد يوم 19 أغسطس في باريس حضره أكثر من 3500 شخص وخطب فيه زعماء النجم ، صدرت لائحة استنكرت « تدخل الامبريالية الفرنسية التي دبّرت مسرحية قسنطينة الدموية » وأعلنت اللائحة تضامنها مع « ضحايا الاضطهاد » وأشادت بموقف الجزائريين من هذا التدخل في مسجد إسلامي (إشارة إلى بول اليهودي في الجامع)«وإهانة المؤمنين ونبينا عليه الصلاة والسلام»كما أشادت بالأبرياء الجزائريين الذين قدّروا بالمئات والذين اعتقلتهم السلطة الفرنسية ، وطالبت بإطلاق سراحهم حالاً ، وإزالة حالة الطوارى من المدينة . واختتمت اللائحة بسلسلة من الجمل التي هي في ذاتها تعبّر عن روح الفترة مثل « يسقط قانون الأهالي الفظيع ! يحيا النضال التحرري لمسلمي شمال أفريقية ! ويعيش الإسلام ! » أما جريدة (الأمة) فقد استنكرت التمييز الذي خضع له الأهالي بهذه المناسبة. فاليهودي الذي كان السبب فيما حدث حكم عليه بيومين سجناً وستة عشر فرنكاً غرامة ، أما المسلمون الأبرياء فقد قالت انهم سجنوا بدون محاكمة من سنتين إلى ست سنوات .

---

(31) نفس المصدر . ويلاحظ المرء أن هذا الاجتماع الذي أسفر عن البيان المذكور قد انعقد يوم حوادث قسنطينة 1934 . ومن أهم أعضاء النجم الذين كانوا نشطين خلال هذه السنة ، حسبما نشرتهم الأمة : ربوح ، ابن اشنهو حسين ، ابن اشنهو مصطفى ، رويفد (؟) عبد القادر ، محمد أو عاشور ، سي صالح ، معاوية ، مولاي ، وفرحات ، بالإضافة إلى مصالي ، وراجف وعيماش . الخ .

واعتبرت الجريدة ذلك ظلماً وحيفاً وطالبت بتحرير « إخوتنا »[32].

وحضر الشيوعيون الفرنسيون وغيرهم الاجتماع المذكور للتعبير عن موقفهم تجاه أحداث قسنطينة . وقد أعلنت جريدة الحزب الشيوعي عندئذ (لو هيو مانيتي) أن الاجتماع أسفر عن إقامة « جبهة موحدة » بين النجم والحزب الشيوعي وجمعية مضادة الامبريالية ، والمساعدة الحمراء ، ومنظمة العمل ونحوها من المنظمات . وتكلم ممثل الحزب الشيوعي السيد (فيرا) بأنه يؤيد بكل قواه حركة الشعب الجزائري المعادية للامبريالية من أجل الخبز والأرض والحرية ! غير أن (الأمة) ردّت على جريدة الحزب الشيوعي «بأن حضور السيد فيرا كان عادياً مثل حضور غيره» وأن الاجتماع نظمه النجم وليس الحزب الشيوعي ، وأن النجم هو الذي دفع أجرة المكان وهو الذي وجه الدعوات . وقد كانت هذه مناسبة يعلن فيها النجم استقلاله أكثر فأكثر عن الحزب الشيوعي حتى أن بعض الكتّاب لاحظ أن النجم قد بدأ منذ 1934 « حركة جديدة » بمبادرته في شمال أفريقية وفي باريس تقوم على « الجهاد والوطنية». ولكن نفس المصدر لاحظ أن النجم، مع ذلك، كان يقبل المساعدة من الأحزاب اليسارية ، لا سيما « الجبهة المشتركة »[33].

وهناك منظمات أخرى شاركت بدورها بمناسبة أحداث قسنطينة ، وكان المحرك الأساسي وراءها هو النجم . من ذلك الاجتماع الذي دعت إليه (جمعية العمال الجزائرية) في ليون من أجل «التضامن الوطني بتأييد من رئيس نجم شمال أفريقية المجيد » في يوم 26 أغسطس . وكان هدف الاجتماع واضحاً ، فهو للتضامن مع « اخوانكم بقسنطينة » والاحتجاج ضد الاضطهاد والامبريالية ، والمجازر وحالة الطوارىء وتدخّل الجنود السينغاليين. وقد لام المجتمعون الاستعمار الفرنسي و« مخابراته » على تشجيع الجنود اليهود على إهانة المسلمين أثناء أدائهم الصلاة بالبول في المسجد . كما لاموا الصحافة الاستعمارية على موقفها ومشاركتها في هذه المؤامرة . لقد كان هدف الحكومة الفرنسية ، حسب رأي المجتمعين ، هو إبعاد نظر الحركة الوطنية عن هدفها لكي تضع هي يدها على الدين الإسلامي .

---

(32) نفس المصدر، نقلاً عن « الأمة عدد سبتمبر ـ أكتوبر 1934» .

(33) نفس المصدر، ص 580 .

وفي نفس اليوم أضرب التجار الجزائريون في ليون عن العمل فأغلقوا متاجرهم ومقاهيهم احتجاجاً أيضاً. وكان السيد مصالي قد توجّه بنفسه لشكر أولئك الذين أضربوا وخصوصاً الذين أصبحوا منهم أعضاء في النجم[34].

وبالإضافة إلى هذه التحركات التي أبداها النجم بمناسبة أحداث قسنطينة هناك الاجتماعات المتعددة التي عقدها في خريف نفس العام ، والموقف الذي عبّر عنه من الانتخابات الأهلية ، وكانت بعض تلك الاجتماعات تنتهي بالمنع أو في مركز الشرطة . ولكن ذلك لم يفت في عضد قادته . أما عن الانتخابات الأهلية فقد شنت (الأمة) حملة قاسية ضد « بني وي وي ، والخونة وعملاء الفرنسيين والمتجنسين ، والقياد ، والأغوات وكل خدام الامبريالية » وأعلنت بأن هؤلاء يجب أن يبقوا جانباً . وناشدت الجريدة الناخبين أن يطالبوا المترشحين بالالتزام بتحرير سجناء أحداث قسنطينة ، وجميع المساجين السياسيين ، كما طلبت منهم أن « يصوتوا وطنيين ! » ذلك أن منصة المجالس الجزائرية بالنسبة (للأمة) ليست وسيلة لقول «نعم. . . ولكن للدفاع خطوة خطوة عن مصالح وطننا وعرض مشاكل شمال أفريقية أمام الرأي العام والحديث مباشرة إلى الشعب العربي وإرشاده إلى واجبه الوطني »[35] .

ونظراً لهذا النشاط الملحوظ الذي قام به النجم خلال سنة 1934 فإن المحاكم الفرنسية عادت لمطاردته . ففي أكتوبر اتهمت محكمة السين قادة النجم بإعادة تنظيم حزب منحل شرعياً . ورغم احتجاج بعض العاطفين على الجزائريين أمثال لونقي وفيوليت، وجول موش، فإن القرار كان نافذاً. ولكن الجزائريين جمعوا ألفي توقيع «خلال ساعات» للاحتجاج وجمع التبرعات. وعمت هذه الحركة جميع المقاطعات الفرنسية بالإضافة إلى باريس، كما ساندت صحيفة (لوهيو مانتي) موقف النجم هذه المرة ودعت إلى اجتماع احتجاج (22 نوفمبر) بمساعدة الحزب الاشتراكي ،

(34) نفس المصدر « ص 579 وقد أرسل النجم كذلك لجنة دفاع وتحقيق إلى قسنطينة ، من بين أعضائها المحامي لونقي وطالب بشير . وجرى أيضاً اجتماع في باريس حضره ممثلون عرب ويهود انتهى بارسال لجنة تحقيق ومساعدة . كما تأسست في باريس « لجنة العمل والتضامن من أجل المسلمين الجزائريين ضحايا اضطهاد قسنطينة » وهي اللجنة التي نشرت جريدة باسم (الشعب الجزائري) لسان حال « جمعية الدفاع عن المسلمين الجزائريين » وهي جريدة معادية لفرنسا .

(35) جان مينو « الانتخابات الأهلية » في (أفريقية الفرنسية) ، فبراير 1935 ، ص 81 .

والحزب الشيوعي والحزب الراديكالي الاجتماعي ، والجمعية المعادية للامبريالية ، و (س. ج) وجمعية حقوق الإنسان والشباب اللائكي وغيرها(36).

ورغم عدم الشرعية في نظر القانون الفرنسي فإن النجم قد قام بنشاط واسع خلال سنة 1935 أيضاً . ففي فبراير قدم إلى محافظة شرطة باريس القانون الأساسي لمنظمة جديدة باسم (الاتحاد الوطني لمسلمي شمال أفريقية) الذي تحدثنا عنه . ونلاحظ هنا أن محافظة الشرطة قد رفضت ذلك ، لعلها قد فهمت أن مراد قادة النجم كان الحصول على الشرعية ، وأن روح المنظمة الجديدة تتفق تماماً مع روح النجم.

ومهما يكن الأمر فإن (جمعية الدفاع عن المسلمين الجزائريين) بباريس قد قامت بحملة كبيرة على لسان جريدتها (الشعب الجزائري) ضد التعسف الفرنسي . ومن ذلك أيضاً أن وفداً من هذه الجمعية على رأسه السيد أحمد المنصوري ، رئيسها ، والسيد آيت علي نائب الرئيس ، والسيد فضيل العربي ، الكاتب العام قد استقبل من بعض أعضاء البرلمان الفرنسي أمثال موتي ، وفيوليت ، ولونقي وغيرهم من اليساريين ، بالإضافة إلى نواب من السينغال والمارتينيك . وكان من مطالب الوفد المذكور إطلاق سراح السيد مصالي رئيس النجم ورفاقه(37).

وكانت محكمة باريس قد أصدرت أحكاماً مختلفة ضد رئيس النجم ورفاقه . ففي 14 مايو من نفس العام حكمت على مصالي بسنة سجناً وغرامة مائتي فرنك بتهمة تحريض الجنود الجزائريين على العصيان «بهدف دعاية فوضوية»، كما صدر حكم ضد عيماش عمار وراجف بلقاسم بستة أشهر سجناً ومائة فرنك غرامة لكل منهما ، لنفس السبب ، بتهمة التحريض على القتل . أما زميلهم سي الجيلاني فقد حكم عليه (أثناء شهر أغسطس) بثلاثة أشهر سجناً ومائة فرنك غرامة لفتحه استكتاباً لجمع التبرعات بهدف تخليص زملائه من الغرامة المفروضة عليهم(38) . وبذلك

(36) مهندس « الهجوم » (أفريقية الفرنسية) . فبراير 1935 ، ص 91 : ادعى السيد مهندس أيضاً أن قوبلز الألماني قد اتصل بقادة النجم في باريس عن طريق واسطة ، وعرض عليهم النقود والتأييد المعنوي ، وادعى أيضاً أن مصالي الحاج قد اعترف في اجتماع بذلك وأقر بأن المانيا ستمده بالسلاح أيضاً في حالة حرب . نفس المصدر ، ديسمبر ص 1934 ص 702 .

(37) نفس المصدر ، الملحق أبريل 1935 ، ص 22 . كانت الجمعية المذكورة تمثل التجار وأصحاب الأعمال الجزائريين ، والظاهر أنها لم تكن دائماً على علاقة طيبة مع النجم .

(38) (مذكرة) ولاية وهران ، وكذلك أرون ، ص 64 .

واجه قادة النجم أوقاتاً صعبة ، وأصبحوا مهددين بالملاحقات المستمرة . ويقال إنه خلال هذه الأثناء فر السيد مصالي وبعض زملائه إلى جنيف .

وأثناء عدم شرعية النجم ومطاردة القانون الفرنسي لقادته ، أصبحت جريدة (الأمة) هي قطب الرحى الذي يلتف حوله الأنصار . وقد قامت هذه بحملة لجمع التبرعات وكسب الأعضاء والدعاية لمبادىء النجم ، من ذلك بيع صورة تجمع مصالي ـ عيماش وراجف وعليها كتابة بالعربية تقرأ هكذا « من أجل الوطن والدين الإسلامي ، والحرية ، والاستقلال الكامل ، والدفاع عن زعمائنا المساجين بدون سبب وكل جريمتهم دفاعهم عن حقوق شعبنا المضطهد ـ شجعوا حركتنا بشرائكم هذه الصورة والله يجازي المحسنين. إن المال قوام الأعمال»، وعليها كتابة بالفرنسية تقرأ هكذا « أيها المسلمون الشمال أفريقيون ! . . . من أجل حقوقكم وحرياتكم السياسية، وللتعبير عن تضامنكم مع إخوانكم المعتقلين والمساجين، وهم مصالي، وموساوي وصابر ، وعيماش ، وراجف ، وبوجناح ، وابن ضيف ، وبوخرط : اشتركوا جماعياً ! وشكلوا في كل مكان لجان الدفاع ملتفين حول (الأمة) التي تناضل من أجل تحريركم . وليسقط قانون الأهالي الفظيع »[39].

ولكن الحظ ابتسم قليلاً للنجم عندما أعيدت له الشرعية بقرار من محكمة السين في الثالث من يوليو سنة 1935 . فقد حكمت ، كما سبق أن أشرنا بأن قرار حل النجم بتاريخ 20 نوفمبر 1929 كان غير شرعي لأنه لم ينفذ . وبهذه الغفلة التي قد تكون مقصودة من القضاء الفرنسي أصبح وجود النجم شرعياً من جديد ، وأصبح من حقه ممارسة نشاطه المعتاد علنياً والخروج من العمل السري والتعرض لمطاردة رجال الشرطة . وكانت نتيجة هذا القرار إصدار العفو عن مصالي وانفجار حماس قادة النجم بالعمل والاجتماعات والتجمعات وإنشاء الفروع وكسب الأعضاء . وهكذا انعقد في الفترة ما بين شهري مايو ـ أغسطس 1935 حوالي أربعين اجتماعاً حضرها أكثر من 800 شخص لكل اجتماع . وكذلك أنشئت فروع جديدة للنجم في باريس نفسها . وفي الضواحي وفي الأقاليم[40] وبهذه المناسبة نظم النجم يوم 14 يوليو

---

(39) مهندس «الهجوم» (أفريقية الفرنسية) الملحق أبريل 1935 ، ص 24 .

(40) (مذكرة) ولاية وهران .

(العيد الوطني الفرنسي) مظاهرات في باريس والأقاليم الفرنسية دعا فيها إلى تحرير شمال أفريقية الكامل ، وعزل الحاكم العام كارد ، وعزل القياد الجزائريين . وقد رفع المتظاهرون لافتة كتبت عليها هذه العبارة « يا شعب فرنسا ! ساعد شعب شمال أفريقية ليحطم الأغلال كما حطمتها أنت ! »(41) .

وسرعان ما تنبهت السلطات إلى خطر النجم إذا استمر في نشاطه بدون قيود . فتدخلت خلال ديسمبر 1935 عن طريق القضاء لحل النجم من جديد بحجة عدم تطبيقه القرارات والقوانين الخاصة بالجمعيات . وقد أعلنت عن ذلك محكمة السين أيضاً . ثم بدا لها أن الموضوع قد تجاوزها فأحالت القضية إلى وزير الداخلية لإصدار القرار . لكن حملة صحفية وتدخُّل بعض رجال السياسة لدى الحكومة والظروف الدولية والداخلية أدّت إلى التأثير على الوزير فلم يتخذ قراراً في الموضوع . ومن جهة أخرى أيّدت الجبهة الشعبية عندئذ شرعية النجم . وقد كتبت جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي (8 ديسمبر 1935) ضد حلّه كما كتبت لسان حال الاشتراكيين (البوبيلير - 13 يناير 1936) ضد منع نشاطه أيضاً . وفي التاسع عشر من نفس الشهر اجتمع العمال الجزائريون وبعض الفرنسيين وعبروا عن احتجاجهم ضد محاولة المنع ، ولذلك قررت المحكمة في السابع عشر منه إحالة القضية على الحكومة لأنها (المحكمة) لم « تجرأ على اتخاذ قرار الحل حسب تعبير أحد الكتّاب »(42) .

كان قيام الجبهة الشعبية في فرنسا فرصة لاستئناف النجم نشاطه بدون تحفظ . ومنذ حملة تنظيم التجمع الشعبي الذي قاد إلى الجبهة المذكورة دخل النجم الحلبة السياسية وانضم إلى الجبهة مع الأحزاب اليسارية الأخرى . ولعل انضمامه وقبول الجبهة له كان لسبب تكتيكي من الطرفين . ومهما يكن الأمر فإن النجم قدم مطالبه إلى الجبهة خلال شهر فبراير 1936 ، وهي المطالب التي وصفها « بالآنية » أو المستعجلة ، ولم تكن مطالب تهم الجزائر فحسب ، بل تغطي كل مصالح أهالي

---

(41) ج.ل.ل. دي لا شايير فضائح نجم أفريقية الشمالية (أفريقية الفرنسية) أغسطس 1935 ، ص 489 .

(42) مهندس « دفاعاً عن شمال أفريقية » في (أفريقية الفرنسية) مارس 1936 ص 147 وكذلك (مذكرة) ولاية وهران .

شمال أفريقية . فقد اشترك في وضعها ، بالإضافة إلى النجم ، لجنة الدفاع عن الحريات في تونس ، ولجنة الدفاع عن الحريات المغربية . ويلاحظ المرء أن النجم رغم أنه كان أساساً منظمة شمال أفريقية ، قد أصبح بهذه المناسبة منظمة جزائرية ما دامت اللجنتان الأخريان قد تولتا الدفاع عن مصالح تونس والمغرب .

واشتملت قائمة مطالب النجم من الجبهة الشعبية على العناوين الآتية :

مطالب سياسية ، مطالب اجتماعية ، مطالب اقتصادية ومالية ، إصلاحات مختلفة وخاتمة . وتضمنت المطالب السياسية العامة أو الخاصة بالجزائر ما يلي : العفو العام عن كل المحكوم عليهم بالنفي أو بالسجن السياسي وإلغاء جميع الإجراءات الاستثنائية والقوانين الخاصة بالجزائريين كقانون الأهالي ، وقوانين الغابات ، وكذلك حرية الصحافة وحرية الاجتماع وحرية التفكير والحرية النقابية والمساواة في الخدمة العسكرية .

ونصت المطالب الاجتماعية على إجبارية التعليم ومجانيته في الابتدائي وإصلاح التعليم الثانوي وإتاحة الفرص لدخول التعليم العالي ، وزيادة المنح وقروض الشرف للنابغين من الطلاب ، وجعل اللغة العربية إجبارية في كل المستويات ، وبالإضافة إلى ذلك تطبيق قوانين حماية العمال على عمال شمال أفريقية وتطبيق قانون الضمان الاجتماعي والمساعدات الاجتماعية ، وزيادة منحة البطالة للعاطلين عن العمل وزيادة المنحة العائلية للعاطلين أيضاً ، وخلق مشاريع محلية لامتصاص اليد العاملة العاطلة وإنشاء مطاعم شعبية في المدن والقرى مع المطالبة بتطبيق مبدأ الأربعين ساعة في الأسبوع وكذلك تطبيق مبدأ : تَسَاوِي الأجْر عند تَسَاوِي العمل. أما عن الصحة فقد طالب النجم بزيادة المراكز الصحية وتأسيس مراكز الولادة للنساء الأهليات في المدن وتحسين الملاجىء بالطرق العصرية وكذلك حماية الطفولة باتخاذ إجراءات تحمي الأطفال الجانحين أو المهملين وإنشاء محاكم خاصة بالأطفال في شمال أفريقية .

أما المطالب الاقتصادية والمالية وغيرها مما جاء في القائمة فتدور أيضاً على نفس النسق . فقد نص على ضرورة فتح وزيادة القروض الفلاحية للفلاحين وإنشاء نظام جمركي يحمي المنتجات والصناعات المحلية لشمال أفريقية وعدم اللجوء إلى المصادرة، وتعيين لجنة تحكيم تتولى تقدير التعويضات إذا وقعت

المصادرة . وفي القائمة أيضاً فقرة عن (الإصلاحات المختلفة) الأخرى ، مثل إنهاء نظام المقاطعات العسكرية في الجنوب وتعويضه بنظام مدني ، وقف الدعاية الدينية (التبشير) في شمال أفريقية ، عدم مساعدة الحكومة للكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية ، وإصلاح نظام السجون في شمال افريقية ، والتفريق بين الجرائم السياسية وجرائم القانون العام ، والإبقاء على نظام الأوقاف باعتبارها مصدراً للمساعدة ، وطالب النجم أيضاً بإلغاء الوفود المالية (في الجزائر) وتعويضها بمجلس تمثيلي (برلمان) منتخب عن طريق الاقتراع العام ، وببلديات منتخبة أيضاً بنفس الطريقة ، وتطبيق مبدأ الفصل بين السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية . أما في الخاتمة فقد عبّر المطالبون عن ثقتهم في الروح الإنسانية والليبرالية للجبهة الشعبية ، وانتقدوا سياسة فرنسا الاستعمارية في شمال أفريقية حتى ذلك الوقت لأنها في نظرهم كانت تقوم على العنصرية والظلم مما يتنافى والروح الديموقراطية ، كما عبّروا عن ثقتهم في أن حكومة الجبهة الشعبية ستتولى تلافي ما وقعت فيه الحكومات الفرنسية السابقة من أخطاء . وكانت قائمة المطالب تحمل توقيع المنظمات الثلاث المذكورة[43] .

المتطرفة التي جاءت في برنامجه لعام 1933 . فلم يكن في هذه المطالب النص على استقلال الجزائر ، ولا إنشاء جيش وطني ودولة ، ولا سحب القوات الأجنبية وتوزيع أراضي المعمرين الفرنسيين . ولعل السبب في ذلك هو أن النجم كان « واقعياً » هذه المرة يخاطب جبهة شعبية اشترك هو في تحالفها . وكان يعرف مدى قوتها وضعفها . فلم يطلب منها المستحيل عليها واكتفى بالممكن في نظر قادته . وكان متأكداً أن الجبهة إذا منحته تلك المطالب فقد سهّلت عليه الطريق للنقط الأخرى . وسنعرف كم كانت خيبة النجم مريرة عندما قلبت له الجبهة ظهر المجن وتراجعت عن وعودها واعتقلت رجاله وانتهت بحله كمنظمة تماماً .

ومهما يكن الأمر فإن مصالي قد استفاد من العفو العام الذي أصدره وزير الداخلية[44] في شهر مايو 1936 فدخل فرنسا من جديد (كان في سويسرا)

---

(43) (مذكرة) ولاية وهران ملحق ، 2 .

(44) هو السيد صارو .

واستأنف نشاطه . وكان زملاؤه المحكوم عليهم قد استوفوا الفترة التي حكم عليهم بها وعادوا هم أيضاً إلى نشاطهم المعتاد. وقد واتتهم الظروف بتكوين حكومة الجبهة الشعبية ، فاجتمعوا وقدموا لها بعض المطالب ، منها قائمة المطالب السابقة « الآنية » ومنها مطالب أخرى خاصة بالجزائريين المقيمين في فرنسا . ففي العشرين من يونيو ذهب وفد من النجم يرأسه السيد مصالي مصحوباً بالمحامي روبير لونقي ، إبن النائب الاشتراكي لونقي ، لمقابلة كاتب الدولة للداخلية للشؤون الجزائرية . وقدموا له قائمتين من المطالب إحداهما الآنية التي لخصناها سابقاً ، والثانية الخاصة بالجزائريين المقيمين في فرنسا .

ومما جاء في الأخيرة المطالبة بإلغاء قانون الأهالي والقوانين الاستثنائية التي كانت تطبق على الجزائريين فقط في إقليم باريس ، وحرية السفر داخل فرنسا وإلى الخارج، وحرية الصحافة والاجتماع والتجمع ، وتطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على أبناء شمال أفريقية العاملين بفرنسا ، وإلغاء مصلحة حماية ومراقبة الشمال أفريقيين بشارع لوكنت ، وإلغاء إرسال مرضاهم إلى المستشفى الإسلامي في بوبيني خاصة ، وإدخالهم بدلاً من ذلك إلى المستشفيات الموجودة في أحيائهم . وبعد المقابلة أصدر الوفد المذكور تصريحاً للصحافة جاء فيه «أن الاستقبال كان حاراً وإنسانياً وديموقراطياً، وأن الوفد قد تأثر بهذه الحفاوة وأنه يأمل أن تعمل حكومة الجمهورية على تحقيق أمل الشعب الجزائري . وإذا تحقق ذلك فسيكون له تأثير على نفوس وقلوب الشعبين اللذين ربطهما القدر التاريخي من أجل عمل مشترك »(45) ويذكر مصدر آخر أن كل ما في الأمر هو أن المسؤول الفرنسي المذكور قد وعدهم بتقديم مطالبهم إلى وزير الداخلية(46).

وكان صيف عام 1936 مليئاً بالنشاط والحماس لهذه المنظمة . ففي الرابع عشر من يوليو نظمت مظاهرة بباريس شارك فيها ثمانون ألفاً وهتفوا بشعارات التضامن مع العمال الفرنسيين ومعاداة الاستعمار في الجزائر ، ورفعوا أثناءها العلم الوطني .

---

(45) نفس المصدر . انظر أيضاً أطروحة زاقورا التي أشرنا إليها .

(46) (حياة بانون أكلي) ، ويذكر هذا المصدر أن الوفد كان يتكون من أربعة أشخاص ، دون ذكر أسمائهم ، باستثناء مصالي .

وأثناء ذلك انعقد المؤتمر الإسلامي الجزائري، الذي سنتعرض له في مناسبة أخرى ، ولم يشترك فيه النجم رسمياً . وعندما جاء وفد المؤتمر إلى باريس لتقديم المطالب إلى الحكومة الفرنسية حاول النجم الاتصال بأعضائه فنظم لهم استقبالاً حضره مصالي نفسه وتحادثوا في شأن « مطالب الجماهير » ، وفي الاجتماع الثاني الذي اتفق على أن يكون بعد مقابلة وزير الداخلية الفرنسية لوفد المؤتمر لم يحضر من أعضاء الوفد سوى ابن باديس وفرحات عباس وطاهرات . وكانت نقطة النقاش الحادة عندئذ هي النقطة الخاصة بدمج الجزائر إدَارِياً في فرنسا التي تضمنت مطالب المؤتمر وعارضها النجم . وكان من رأي عباس وطاهرات أثناء النقاش أن تلك النقطة هي الطريق الوحيد لنيل الجزائريين الحقوق . غير أن ابن باديس ، حسب هذا المصدر عارض رفقاءه أعضاء الوفد واقتنع بعد الاستماع إلى رأي قادة النجم بأنه كان على خطأ في تأييدها[47] .

وكان يوم الثاني من أغسطس يوماً مشهوداً في الجزائر لا بالنسبة للجزائر عامة ، ولكن بالنسبة إلى النجم أيضاً . فقد اجتمع آلاف الجزائريين في الملعب البلدي لمدينة الجزائر للاستماع إلى تقرير وفد المؤتمر الإسلامي عن مهمته بباريس بعد استقبال وزير الداخلية له وتقديم مطالب المؤتمر . والذي يعنينا هنا من ذلك كله هو أن زعيم النجم السيد مصالي قد حضر الاجتماع بدون أن يكون في جدول المتكلمين ، وألقى خطاباً شعبياً في الجزائر لأول مرة في حياته وحياة منظمته . وكان خطاباً حماسياً جامعاً تعرض فيه بالدرجة الأولى إلى مبادىء النجم وأهدافه . ثم انتقل إلى شرح وجهة نظر المنظمة في مطالب المؤتمر وبيّن لماذا عارضها ولا سيما مطلب إلحاق الجزائر بفرنسا والتمثيل البرلماني . وطالب مصالي في خطبته بإلغاء مجلس الوفود المالية ، وإلغاء منصب الولاية العامة ، وبإنشاء برلمان جزائري منتخب عن طريق الاقتراع العام بدون تمييز بالأصل أو الدين . ومن الواضح أن هذه المطالب الأخيرة لم تتضمنها مذكرة النجم إلى قادة الجبهة الشعبية التي قدمت لهم قبل ذلك في باريس .

كانت الخطبة فتحاً كبيراً للنجم في الجزائر ، وقد حُمل مصالي على الأكتاف

---

(47) نفس المصدر .

وطيف به في شوارع المدينة واستقبله أنصاره[48] استقبال الفاتحين، وظل خلاله ثلاثة أشهر أو تزيد يطوف البلاد ويتصل بالأهالي ويؤسس الفروع للنجم ويوزع المناشير . وقد طالب أحد المناشير بإنشاء (حزب دستوري وطني جزائري) وذكّر منشور آخر الجزائريين بمعاهدة حسين ـ بورمون سنة 1830 مشيراً إلى أن الحزب الجديد سيمثل الجزائر أمام الحكومة الفرنسية . وقد كون النجم له فرعاً رئيسياً في مدينة الجزائر له صلاحيات ونفوذ على كامل أفريقية الشمالية . أما الفروع الأخرى فقد تكوّنت في الأماكن الآتية حسب الولايات الثلاث (ولاية الجزائر) : الحراش ، برج الكيفان ، بوفاريك ، البليدة ، (ولاية وهران) : وهران ، مستغانم ، سيدي بلعباس ، تلمسان ، (ولاية قسنطينة) : قسنطينة ، عنابة ، جيجل ، سطيف ، مع إمكانية تأسيس فروع أخرى في مدن جديدة مثل تيزي وزو[49] وقد وقف النجم موقفاً معارضاً لمشروع بلوم ـ فيوليت ، هاجمه مصالي على أنه « أداة استعمارية تستعملها فرنسا لتقسيم الشعب الجزائري بفصل النخبة عن الجماهير»[50] .

والحق أن الظروف كانت إلى جانب النجم « فعلى المستوى الجزائري هناك الرأي العام الذي خلقه المؤتمر الإسلامي والذي وجده النجم جاهزاً ناضجاً ، فاستفاد منه واستقطبه ، دون أن يكون له يد في تهيئته . فجمع اللجان وعقد الاجتماعات التحضيرية وانعقاد المؤتمر نفسه وصياغة المطالب ، وإرسال الوفد إلى باريس وتحضير اجتماع الثاني من أغسطس ـ كل ذلك لم يشترك النجم في إعداده ، ومع ذلك استفاد منه واقتطف ثمرته[51] . وبالإضافة إلى ذلك هناك اغتيال المفتي كحول

---

(48) ادعى السيد اكلي بأن أول فرع للنجم في الجزائر تكون في مدينة بوفاريك سنة 1933 على يد السيد حبار اكلي ، وأغلب أعضائه كانوا من العاصمة وأضاف بأن السيد مصطول هو أول من اتصل عام 1934 بإدارة النجم بباريس . أما (مذكرة) ولاية وهران فأشارت إلى أن عمل النجم في الجزائر كان قبل 1936 « سريا » دون تحديد تاريخ ولا نوع العمل .

(49) مذكرة ولاية وهران وحياة بانون اكلي . وعباس ص 137 ـ 138 ، وأرون ، ص 66 ونوشي ، ص 87 ، وكولو .

(50) أرون ص 73 .

(51) يؤكد السيد قنانش أن وفداً عن تلمسان وآخر عن مستغانم قد اشتركا في المؤتمر باسم النجم ، فإذا صح هذا فإن المشاركة تكون غير رسمية .

وما ترتب عليه من اعتقال الشيخ العقبي وإثارة العلماء للرأي العام بهذه المناسبة . أما على المستوى الأجنبي فهناك الحرب الأهلية الأسبانية ، ودخول بعض العناصر المغربية حركة فرانكو ، بالإضافة إلى الحالة المضطربة في فرنسا وفي أوروبا عامة، فهذه كلها كانت مادة خصبة استفاد منها النجم خلال السنة المذكورة وما تلاها من السنوات .

واغتنم قادة النجم هذه الفرصة وظهروا أمام الجماهير كالأبطال المنقذين . ذلك أن هذه الجماهير كانت إلى سنة 1936 مجهولة تقريباً ومعزولة عن الأحداث الوطنية ولا تكاد تشارك أو يطلب منها أن تشارك في الحياة العامة للبلاد ، وقد وزع النجم مناشير خلال هذه الأثناء أيّد فيها مطالب المؤتمر (التي هي في الواقع مطالبه في جملتها التي قدمها للجبهة وللتجمع الشعبي) باستثناء التمثيل النيابي وإلحاق الجزائر بفرنسا إدارياً . كما وزّع منشوراً آخر يحتج فيه مع المحتجين ، على اعتقال الشيخ العقبي ، وقامت جريدة (الأمة) بنشر خطبة مصالي في اجتماع الثاني من أغسطس في عدد خاص ، بالإضافة إلى أنها أصبحت هي توزع في الجزائر بأعداد كبيرة . ورغم أن النجم والعلماء لم ينسقوا سياستهم رسمياً ، فإنهم كانوا فعلياً يعملون لغاية واحدة رغم اختلاف الطرق ، وهناك نقطة التقاء بينهما وهي أنهم كانوا جميعاً يعتمدون على مخاطبة الجماهير لا النخبة(52).

لكن شهر العسل بين النجم والجبهة الشعبية لم يستغرق طويلاً . فلا النجم استطاع أن يخفي مطالبه الأساسية (الاستقلال ، البرلمان الوطني ، الجيش إلخ) ولا الجبهة كانت مستعدة ، كما قال البعض ، أن تشرف على حل الامبراطورية الفرنسية بالتسليم باستقلال الجزائر . ولذلك أخذت العلاقات تفتر بين الطرفين تدريجياً إلى أن حلّت الجبهة النجم ، وكان للشيوعيين دور في هذا الإجراء ، حسب مصدر النجم . ففي آخر سنة 1936 عاد مصالي إلى باريس وقدم تقريراً عن رحلته في

---

(52) (مذكرة) ولاية وهران . وكذلك دراسة السيد كولو . أما العلاقة بين النجم والشيوعيين فقد أخذت في البرود . انظر أيضاً سارسين ، ص 155 . وقد أشار هذا المصدر إلى أن النجم رغم ذلك استعمل تكتيك الشيوعيين كتنظيم الخلايا ، والتحالف مع الخارج ضد فرنسا في الجزائر ، واستعمال التخريب (السابوتاج) .

الجزائر لأعضاء النجم . وخلال هذا الاجتماع تدعم وضع الهيئة المركزية بجعلها مقصورة على من يعرف القراءة والكتابة باقتراح من السيد راجف . وبذلك خرج منها بانون أكلي وعبد القادر ابن مسعود(53) .

وفي 26 يناير سنة 1937 أصدرت الجبهة الشعبية قراراً بحل النجم . وتزعم بعض المصادر أن القرار يعود إلى حادث وقع عند اجتماع عقده المؤتمر الإسلامي في 23 من الشهر المذكور في مدينة الجزائر وتدخل أثناءه أعضاء من النجم ، فاقترحت السلطات الفرنسية في الجزائر على الحكومة حل النجم فاستجابت هذه للاقتراح(54) . أما مصادر النجم فترى أن الحل كان بالاتفاق مع الشيوعيين الذين حقدوا على النجم لأنه رفض الموافقة على إرسال جزائريين إلى الحرب الأهلية الأسبانية بدون تعهد من حكومة الجمهورية الاسبانية بمنح الاستقلال للريف المغربي . وكان الشيوعيون ساخطين أيضاً على النجم لأنه أخذ منهم العمال الجزائريين كما استعمل وسائلهم في تجنيد الأنصار ومواجهة السلطة(55) . ورغم ذلك فالعلاقات بين النجم والشيوعيين ظلت متصلة ، ولكن ببرودة وشكّ . وقد ذكر السيد مصالي سنة 1947 في حديث صحفي أن الشيوعيين قد « حاربونا بقسوة » واتخذوا ضد النجم « اضطهاداً شديداً » بعد قرار الجبهة بحله في 26 يناير 1937 . وأضاف بأنه لا ثقة له في الشيوعيين(56) .

أما السلطات الفرنسية فقد كان لها رأي آخر في حل النجم ، فالسيد ر. أوبو نائب وزير الداخلية قد اتهم النجم بالوقوع تحت تأثيرات خارجية (يعني إيطاليا وألمانيا) . واتهم مصالي بالذات بالتخلي عن تضامنه وتعاونه مع الجبهة الشعبية ،

---

(53) حياة بانون اكلي .

(54) كولو . لكن المؤلف لم يشرح مضمون « الحادثة » التي حدت بالسلطات الفرنسية إلى ذلك الاقتراح ، والظاهر أن الكولون قد ضاقوا ذرعاً بنشاط النجم خلال صيف وخريف 1936 ، فتحرشوا به . انظر بهذا الصدد (مذكرة) ولاية وهران التي أعدتها مصالح المخابرات الفرنسية والتي اتهمت النجم بالعلاقة مع إيطاليا عن طريق الأمير أرسلان .

(55) حياة بانون اكلي ، ويضيف هذا المصدر أن العمال الجزائريين في الاجتماع مزقوا أوراق انخراطهم في الحزب الشيوعي والنقابات عند سماع قرار الحل من الجبهة الشعبية .

(56) (النيويورك تايمز) ، 29 أبريل ، 1947 ، ص 15 . وكذلك جوليان ، ص 119 .

واحتج على ذلك بأنه « حتى الحزب الشيوعي قد قطع علاقته مع مصالي ، منذ مؤتمر الحزب في مونتراي »[57].

لكن موجة من الاحتجاج حدثت من مختلف الجهات ضد قرار الحل . ففي مؤتمر الحزب الدستوري التونسي الجديد الذي انعقد في 31 يناير 1937 استنكر الحزب قرار الحل ، وأتهم الجبهة الشعبية بالوقوع تحت تأثير المستعمرين بفعلها ذلك . وأثناء مؤتمر عقده السيد الحبيب بورقيبة ، الكاتب العام للحزب المذكور في باريس أكد للسيد مصالي تعاون وتضامن حزبه . وقد أدلى السيد مصالي بحديث بهذه المناسبة كذّب فيه أن يكون قد قام بعمل مضاد لفرنسا وقال بأنه « على العكس . أراد تعاوناً وثيقاً بين الشعبين الجزائري والفرنسي قائماً على تحرير الجزائر » أما السيد بومنجل ، الذي كان حاضراً ذلك المؤتمر ، فقد « احتج بشدة » ضد قرار الحل باسم المؤتمر الإسلامي الجزائري[58].

ومهما كان الأمر ، فإن مصالي قد عاد إلى الجزائر في جوان (يونيو) 1937 وبدأ حملة من النشاط تهدف إلى تقوية (حزب الشعب الجزائري) وقد ملىء الفراغ أولاً بالإلتفاف حول جريدة (الأمة) وتدعيم جماعة (أصدقاء الأمة) التي بدأت توزع المناشير المعادية للجبهة الشعبية وتدعو لتضامن أنصار النجم المنحل . ومن هذه المناشير واحد بعنوان « إلى الشعب الجزائري المسلم » وقد جاءت فيه الاتهامات الآتية للجبهة :

1 ـ كونها خيّبت آمال الشعوب المستَعمرة فيها .
2 ـ اتّبعت نفس السياسة التي اتّبعها السيد لافال ، والسيد تارديه ، وأمثالهما .
3 ـ أنها كانت تعمل بوحي من الفاشيستيين والاستعماريين .
4 ـ أنها اضطهدت « الآمال الشرعية الحقيقية للجزائر» .

وقد وعد أصحاب المنشور بأنهم سيواصلون النضال ضد الاضطهاد والفقر والاستعمار « رغم كل العراقيل وكل الخيانات » ووعدوا بأن « الوطنية ستنتصر » لا محالة[59] .

---

(57) مهندس « عن تونس » (أفريقية الفرنسية) ، فبراير 1937 ، ص 94 ـ 95 .
(58) نفس المصدر .
(59) مهندس « اضطرابات شمال أفريقية » (أفريقية الفرنسية) أكتوبر 1937 ، ص 460 .

ولم يمض شهر على هذه الارهاصات حتى ولد (حزب الشعب الجزائري) . فقد ولد هذا الحزب يوم 11 مارس سنة 1937[60] وكان قرار إنشائه قد تم بالاتفاق مع اعضاء فرع الجزائر للنجم وأعضاء اللجنة المركزية الذين منهم مصالي ، وعيماش ، وراجف ، وموساوي رابح ، وكحال محمد أرزقي . وكانت أهدافه لا تختلف في جوهرها عن أهداف النجم بعيدة المدى وهي : إنشاء حكومة وطنية ، وبرلمان ، واحترام الأمة الجزائرية ، واحترام العربية والإسلام . وقد شبهه بعض الكتاب عند ميلاده بالحزب الدستوري التونسي أو بكتلة العمل المغربية[61] .

وباسم الحزب الجديد اشترك أعضاؤه لأول مرة في الانتخابات المحلية بالجزائر التي جرت في شهر جوان (يونيو) 1937 . حقاً ان الحزب قد فشل في الحصول على الأصوات اللازمة في الانتخابات البلدية لمدينة الجزائر ولكنه من جهة أخرى حصل على نجاح كبير لأنه أصبح معروفاً في الأوساط الجزائرية ، وأصبح فوزه قضية وقت فقط . ويعزو بعض الكتّاب فشل الحزب في الانتخابات المذكورة إلى خصومة الحزب الشيوعي[62] . وعلى كل حال فإن مصالي وأنصاره قد قاموا بحملة واسعة ضد الإدارة الفرنسية . وقد أنشأ الحزب أول جريدة له بالعربية في الجزائر بعنوان (الشعب) بالإضافة إلى جريدة (الأمة) التي كانت تصدر بالفرنسية في باريس . وكانت (الشعب) جريدة نصف شهرية يديرها أيضاً مصالي الحاج ويرأس تحريرها أولاً السيد مفدي زكريا ثم خلفه عليها السيد محمد قنانش . وقام الحزب الجديد بمظاهرة كبيرة يوم 14 يوليو 1937 تحت العلم الجزائري مميزاً نفسه عن مظاهرة الجبهة الشعبية التي جرت في نفس الوقت .

ولكن السلطات كانت لهم بالمرصاد ، ففي السابع والعشرين من أغسطس اعتقلت زعماء حزب الشعب بتهمة القيام بحملة معادية لفرنسا واعادة العمل بحزب منحل[63] ولا شك أن هذا الاتهام كان بناء على قرار رينيه السابق الذي يهدد بالسجن

---

(60) يذكر توينبي ، (المدخل) جـ 1 ، 1937 ، ص 503 أن الحزب ولد بتاريخ 20 مارس لملء الفراغ الذي كان سيملؤه الشيوعيون وأنه اختلف معهم على أساس الدين .

(61) عباس ، ص 199 .

(62) أرون ، ص 76 .

(63) عباس ، ص 199 ـ 200 ، ونوشي ، ص 94 ، وحوليان ، ص 122 . من بين المعتقلين مصالي ، =

والتغريم كل من يمس السيادة الفرنسية . وقد حكم على مصالي خاصة بالسجن سنتين وكذلك على خمسة آخرين من أتباعه ، وأثار قرار الاعتقال موجة احتجاج أخرى من العلماء وأنصار فرحات عباس . وتظاهر أنصار حزب الشعب أمام سجن بربروس حيث مصالي وزملاؤه الخمسة ، وانعقدت عدة اجتماعات احتجاج (في نادي الترقي) واضطروا في العاصمة إلى منع مظاهرة كان سيقوم بها أتباع الحزب يوم 19 سبتمبر ، ولكن المظاهرة مع ذلك وقعت ، وحدثت خلالها عدة اشتباكات مع الشرطة ، وكانت مظاهرة عنيفة حسبما وصفها المعاصرون . وأعلن المعتقلون الإضراب عن الطعام ، ولكن السلطات الفرنسية لم تغير رأيها ، بل قدمت مصالي للمحاكمة .

وأثناء الاستجواب الذي قام به رجال الشرطة والقضاء في الثاني من سبتمبر أعلن مصالي عن الفرق بين النجم وحزب الشعب . فالأخير ، بناء على رأيه يطالب « باحترام ديننا ، وأرضنا ونسائنا » فهو حزب قد ولد جزائرياً ونشاطه يجري في الجزائر بخلاف النجم . وبينما طالب النجم بالاستقلال الكامل لشمال أفريقية جميعاً وبنزع الأراضي من المعمرين وانشاء جيش وطني ، نجد حزب الشعب لا يضم سوى الجزائر في برنامجه ، غير أن الأخير(حزب الشعب) يطالب أيضاً باستقلال الجزائر لكن « في نطاق الشرعية وتحت رمز السيادة الفرنسية ، مع برلمان يتألف من فرنسيين وجزائريين منتخبين » في شكل شبيه بما حدث في مصر مع بريطانيا وسورية مع فرنسا[64] ووقف مصالي أمام المحكمة في مدينة الجزائر خلال نوفمبر 1937 ، وهناك أعلن أن الهدف الأساسي لحزبه هو إحلال برلمان جزائري محل مجلس الوفود المالية ، وانتخاب البرلمان المذكور بطريقة الاقتراع العام .

وحذر مصالي فرنسا في شمالي أفريقية من مغبة الخطر الفاشيستي ، وتساءل (هل يعد ضد فرنسا من يطالب بنفس الاستقلال للجزائر ؟ وألسنا هنا في وطننا في الجزائر ؟ » وقال بأن حزبه سيعمل على تحقيق حرية الجزائر بمساعدة فرنسا .

وحسين الأحول ، وخليفة بن عمار ، وغرافة ابراهيم ، ومسطول محمد ، ومفدي زكريا ، ورابح موساوي ، ومعروف بومدين ، وكحال أرزقي (الذي مات في السجن) وهرقة عبد القادر ، وحيواني الأخضر ، ومحمد عبد الرحيم ، وعمار بن دحمان ، وبومعزة علاوة . أنظر أيضاً مهندس (الاضطرابات) « أفريقية الفرنسية » أكتوبر 1937 ، ص 460 .

(64) مهندس « الاضطرابات » (أفريقية الفرنسية) أكتوبر ، 1937 ، ص 460 .

وأضاف بأن « لدينا حضارتنا، وديننا، وكل ما نريده هو أن نكون شعباً مستقلاً »[65] ورغم كل هذه التوضيحات ، وحتى التنازلات ، فإن المحكمة قد أصدرت حكماً بالسجن سنتين على مصالي ورفاقه الخمسة ، كما سبق أن أشرنا . وكان الحكم مصدر فرح وغبطة للمعمرين الفرنسيين بالجزائر .

ورغم أن كثيراً من أعضاء حزب الشعب كانوا معتقلين ، فإن بعض أعضائه قد حققوا نجاحاً في انتخابات أكتوبر سنة 1938 ، ولكن هذه السنة كانت في الواقع فترة همود بالنسبة لنشاط حزب الشعب . ذلك لأن الإدارة الفرنسية قد لاحقت أعضاءه حتى حققت نوعاً من « الهدوء والاستقرار » كما طالب بهما المعمرون[66] .

غير أن السنة الموالية كانت أكثر نجاحاً . فقد فاز مرشح الحزب وهو السيد محمد دوار في انتخابات أبريل 1939 ، وأنشأ الحزب جريدة بعنوان (البرلمان الجزائري) التي كانت في حد ذاتها تعبر عن فكرة أساسية من أفكار الحزب[67] وأصبح أعضاؤه في الجزائر عشية الحرب الثانية حوالي 3000 شخص . وكان نجاح السيد دوار مثار تعاليق المعاصرين . (فالشهاب) علقت على ذلك بقولها ان السيد دوار قد فاز على خصميه : ممثل الحزب الشيوعي، وممثل النواب، لأن الشعب قد مل من سياسة الإدارة وأصبح يميل إلى ممثلي الوطنية . فالسيد دوار لم يكن معروفاً كمنافسيه . وكان برنامجه يقوم على « فكرة الوطنية الجزائرية » باسم المضطهدين المسجونين من إخوانه فالإدارة قد أخذتهم « بلا شفقة ولا رحمة أخذ منتقم جبار » وقد اتجهت جماهير النخبة أفواجاً لانتخاب السيد دوار ، رغم « التهديد والوعيد » من الإدارة ولم يكن ذلك لشخصه ولكن لأنه كان يمثل فكرة جديدة وبرنامجاً ضد سياسة اليأس من عدالة فرنسا (إشارة إلى وعود فرنسا أيام المؤتمر الإسلامي) . ومعنى هذا في نظر المجلة ، أن الشعب قد نفض يديه من دعاة الإصلاح السياسي كالنخبة

---

(65) نفس المصدر ، ديسمبر 1937 ، ص 566 نقلاً عن جريدة (البوبيلير) .

(66) لاشاريير، « الاستقرار الجزائري » في (أفريقية الفرنسية) ابريل 1939 ، ص 105 .

(67) يقول السيد عباس ، 201 ، أن هذه الجريدة كانت تصدر من سجن الحراش حيث المعتقلون من حزب الشعب . وكانت أسبوعية وبالفرنسية . لكني رأيت منها العدد الثاني وهو بتاريخ 3 جوان (يونيو) 1939 . وكتب عليه أنها تصدر كل خمسة عشر يوماً ، وأن المراسلات توجه باسم السيد أحمد بودة ، وأنها « جريدة وطنية نصف شهرية تدافع عن حقوق الجزائر العربية» .

والنواب والشيوعيين، وكأنه قال لفرنسا، «دونك الآن الشعب مباشرة»[68] .

وخلال صيف سنة 1939 ، ومع تلبد سحب الحرب العالمية الثانية . سيطر الخوف على الفرنسيين وقضوا على حركة حزب الشعب تماماً ، على الأقل باسم القانون . ففي يونيو اتخذت إجراءات في باريس ضد جريدة (الأمة) لأنها نشرت مقالاً هاجمت فيه « وحدة التراب الوطني وسلطة فرنسا في المناطق التي تمارس فيها هذه السلطة » لذلك صودرت هذه الجريدة في مقرها وحجزت وثائق هامة هناك[69] . ورغم أن مصالي قد أطلق سراحه ، بعد استيفاء المدة المقررة ، في 25 أغسطس سنة 1939 فإنه سرعان ما اعتقل من جديد (أكتوبر 1939) ، كما صدر قرار بحل حزب الشعب نفسه ومنع جريدة (الأمة) من الصدور (سبتمبر 1939)[70] .

وهكذا عندما وقعت الحرب الثانية كان حزب الشعب منحلاً ، وقادته في السجن وصحفه ممنوعة في الجزائر التي كان القانون الفرنسي يعتبرها « جزءاً لا يتجزأ » من فرنسا الديمقراطية !

---

(68) الشهاب ، مايو 1939 كان مرشح النواب والإدارة هو السيد زروقي محي الدين ومرشح الإصلاح (اتجاه العلماء) هو السيد الأمين العمودي ، وممثل الشيوعيين هو السيد فرشوخ عمارة . ويذهب السيد عباس ، ص 201 أن السيد دوار قيد إلى السجن رغم نجاحه في الانتخابات ، وأنه مات في سجنه .

(69) ج.ل. «الجزائر» في (أفريقية الفرنسية) يونيو 1939 ، ص 174 .

(70) عباس ، 137 ونوشي ، ص 95 ، وأرون ، ص 76 ، وجوليان ، ص 123 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل السادس

المؤتمر الاسلامي الجزائري

يعتبر المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد بالعاصمة في السابع من يونيو سنة 1936 أول تجمع من نوعه في الجزائر ، فلم تعرف الجزائر طيلة أكثر من قرن تجمعاً تشترك فيه كل الاتجاهات وتمثل فيه مختلف الطبقات وتبرز خلاله وحدة الصف والكلمة على مطالب معينة مثل ما حدث في المؤتمر المذكور .

وقد كانت العوامل التي أدت إلى انعقاده متعددة ، فالجزائر منذ فترة النهضة وهي تشرئب إلى حركة جماهيرية ، فكانت حركة رد الفعل على التجنيد الإجباري (1906 ـ 1914) ولكنها لم تبلغ مرحلة النضج المتمثل في التنظيم وتحديد الرؤية وتنسيق الجهود ، ثم كانت حركة الأمير خالد التي تولدت عن وضع جديد سمح به قانون 1919 ، ولكن السلطات الاستعمارية سرعان ما قضت عليها ، بالإضافة إلى أنها كانت حركة محدودة في الزمان والمكان ومرتبطة بشخص الأمير . وكانت ردود الفعل علي الاحتفال المئوي سنة 1930 متنوعة ولكنها لم تؤد إلى تجمع شعبي واسع النطاق ، وظلت مقصورة على مقالات الصحف وأحاديث المجالس الخاصة ، ولعل أول تجمع بالصفة التي نقصدها كان تأسيس جمعية العلماء سنة 1931 فقد كان ذلك مناسبة اجتمع فيها عدد كبير من الأشخاص من مختلف التيارات الدينية ، ولكن تأسيس الجمعية كان حدثاً دينياً ثقافياً لا سياسياً . وكان بالإضافة إلى ذلك محدود الهدف كما كان لا يمثل جميع التيارات الاجتماعية والسياسية في البلاد . أما المؤتمر الإسلامي فقد كان يختلف عن جميع تلك المحاولات .

كثرت المؤتمرات الإسلامية خلال العشرينات والثلاثينات . من ذلك مؤتمر الخلافة الإسلامية الذي انعقد بالقاهرة ، والمؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس، ومؤتمر مسلمي أوروبا الذي انعقد بجنيف. وكانت أوضاع فلسطين وأحوال القارة الهندية بالخصوص تدعو المسلمين إلى هذه اللقاءات التي كانوا يتناقشون

أثناءها في مشاكلهم ومستقبلهم . ورغم أن علماء الجزائر لم يشتركوا مباشرة في المؤتمر الإسلامي بالقدس[1] فإن صحافة العلماء قد اهتمت بوقائعه ونقلت أخباره بل أن أحد دعاة هذا المؤتمر وهو الأمير شكيب أرسلان ، قد دعا العلماء خلال شهر مايو سنة 1931 (وهو الشهر الذي ولدت فيه الجمعية) إلى الاهتمام أكثر بالحركة الإسلامية والدفاع عنها[2] وقد سبق أن أشرنا إلى أن أحد الكتّاب (وهو توينبي) قد ادعى بأن المؤتمر الإسلامي الجزائري قد جاء نتيجة للمؤتمر الإسلامي بالقدس . ورغم أن الصلة بعيدة بين المؤتمرين زمنياً فنحن لا نستبعد أن تكون الفكرة قد اختمرت في ذهن بعض القادة الجزائريين عندئذ . والذي يطالع مجلة (الشهاب) بين 1930 ـ 1936 يجد فيها مجموعة من الآراء الداعية إلى التجمع ، وتكوين الأحزاب وعقد اللقاءات وتنظيم الشعب على نطاق جديد لمجابهة التطورات الجديدة في الجزائر .

ومهما يكن من أمر فإن فكرة الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي جزائري تنسب إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس . ففي حديث له إلى صحيفة (الدفاع) التي كان يديرها السيد الأمين العمودي بالفرنسية والتي كانت لسان الحركة الإصلاحية ، دعا ابن باديس إلى اجتماع جميع الأحزاب الجزائرية في مؤتمر إسلامي (أو جبهة وطنية) لوضع قائمة من المطالب التي يطلبها الجزائريون من فرنسا[3] وكان تاريخ هذه الدعوة هو يناير 1936 .

وقد علق أحد الجزائريين على ذلك بأن لابن باديس آراء بعيدة النظر في السياسة الجزائرية تقوم على أن « المرجع في مسائل الأمة هو الأمة والواسطة لذلك هي المؤتمرات » فابن باديس إذن هو « أول من فكر في عقد المؤتمر قبل فوز الجبهة الشعبية بأشهر »[4] ويفهم من العبارة الأخيرة أن المؤتمر كان سيعقد حتى لو لم تتول

---

(1) مثل الجزائر في هذا المؤتمر المهاجر الجزائري إبراهيم اطفيش نزيل القاهرة عندئذ .

(2) نوشي ، ص 65 ـ 66 . يذكر هذا المؤلف أن رأي أرسلان المذكور نشرته (الشهاب) عدد مايو سنة 1931 .

(3) ديبارمي « مساهمة » في (أفريقية الفرنسية) أغسطس ـ سبتمبر 1938 ، ص 427 .

(4) الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 . ص 198 .

الجبهة الشعبية الحكم في فرنسا . كما يفهم منه أن ابن باديس لم يطرح موضوع المؤتمر بدافع من الجو الجديد الذي ساعدت عليه الجبهة . بل أنه فعل ذلك أيام كان قرار رينيه ما يزال كالسيف المصلت على الحريات المدنية . غير أن فرحات عباس يذكر أن المؤتمر الإسلامي قد انعقد كعلامة على الفرحة بقيام الجبهة الشعبية في فرنسا ، وأن كتلة النواب المنتخبين هي التي ولّدت هذا المؤتمر[5] ولكن الإبراهيمي صاحب الرأي السابق احتاط للأمر فذكر أن من رأيه أنه لولا الجبهة الشعبية ما كان المؤتمر لينجح رغم اقتناعه بصواب رأي إبن باديس .

انطلقت الدعوة إلى المؤتمر الإسلامي من قسنطينة ومن ابن باديس باعتباره رئيساً لجمعية العلماء ومحمد الصالح بن جلول رئيس كتلة النواب بها . ويصر أنصار هذا الرأي على أن الشعب الجزائري كان قد استجاب لدعوة الرجلين لأنهما يمثلان هيئتين يثق فيهما « ثقة واسعة الحدود » . فجمعية العلماء علّمته المطالبة بحقه والاستجابة لدعوة الحق . وكتلة النواب علمته معنى النيابة[6] وإذا صدّقنا هذا الرأي فإن الذين يقولون ان العلماء قد شاركوا بأشخاصهم فقط في المؤتمر هو رأي قابل للنقاش[7] وعلى كل حال فإننا سنتعرف أكثر على موقف العلماء من المشاركة في هذا الاجتماع الكبير . أما الآن فحسبنا أن نذكر أن الدعوة سرعان ما عمت البلاد واستجاب لها النواب في بقية الوطن . كما لباها العلماء والاشتراكيون الشيوعيون وقدماء المحاربين والشباب والفلاحون[8] أما النجم فقد كان موقفه غير واضح وسنعرف عنه أكثر بعد قليل . ولم يكن بين الدعوة إلى المؤتمر وانعقاده سوى بضعة أيام .

وكانت النقطة التي التف حولها الجميع هي مشروع فيوليت . والأمور المغرية لهم في هذا المشروع هي منحه الجنسية الفرنسية لبعض المثقفين الجزائريين بدون التخلي عن أحوالهم الدينية (التجنس) واحترام حقوق الجزائريين الآخرين في

---

(5) عباس ، 128 ـ 129 .
(6) الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 ، ص 198 ـ 199 .
(7) بوكوشة (المعرفة) أبريل 1964 ، ص 18 ـ 19 .
(8) عباس ، ص 128 ـ 129 .

العيش بروح القرآن ونصوصه ، وإلغاء قانون الأهالي الذي كان مطلب الجزائريين منذ سنٍّ في أواخر القرن الماضي[9] ورغم أن الشائع الآن هو أن مناقشات المؤتمر كانت تدور حول مشروع فيوليت، فإن الشيخ الإبراهيمي الذي كان معاصراً ومشاركاً في الأحداث قد ذكر غير ذلك . فالمشروع المذكور في نظره ليس سوى واحد من أربعة . وقد تساءل الناس بناء على رأيه عن أي من هذه المشاريع يصلح كقاعدة للمطالب الجزائرية . وهو يعترف بأن الرأي العام عند الشباب (يعني النخبة المثقفة) وعند الخاصة كان مشروع فيوليت معروفاً بشهرة صاحبه وليس عن معرفة دقيقة بمحتواه ، وكان من رأي الابراهيمي عندئذ هو عدم الانحياز إلى أي من المشاريع الأربعة لأنها جميعاً قد صيغت في وقت تجاوزته الأحداث. بالإضافة إلى أن حكومة الجبهة الشعبية قد أبدت استعدادها لمنح حقوق أكثر إلى الجزائريين . لذلك كان الأفضل ، حسب رأيه ، وضع برنامج مستقل مستوحي من الظروف الجديدة ومن حاجة الشعب . وقد تحادث بذلك مع نواب وهران الذين اجتمعوا في تلمسان واقتنعوا به، كما وجدوا النواب الآخرين في مدينة الجزائر على نفس الرأي فكانت النتيجة « أن قرار المؤتمر عدم تقييد المطالب ببرنامج معين . وعدم بنائها على أساس برنامج مخصوص » وبذلك تفادى المؤتمر ، في نظره أيضاً ، « أعظم مشكلة » كانت تجلب خلافاً شديداً لو تركت[10] ورغم وضوح هذا الرأي وقوته فإن أحداث المؤتمر ومطالب الوفود المتعاقبة بعده تدل على أن النخبة بالذات كان متعلقة بمشروع فيوليت خاصة ، مما يؤيّد رأي السيد فرحات عباس.

انعقد المؤتمر بالملعب البلدي بالعاصمة يوم الأحد 7 يونيو 1936 واعتبر بعضهم هذا اليوم « يوم الجزائر المشهود » الذي استعادت فيه نفسها وتبيّنت فيه طريقها . وقد خاطب الشاعر محمد العيد الذي يعتبر أفضل معبّر عن أحداث عصره ، فرنسا بهذه المناسبة بقوله :

يا فرنسا ردّي الحقوق علينا   وأقلي الأذى وكفى الوعيدا
نحن رغم الطغاة في الدين أحرا   ر وإن خالنا الطغاة عبيداً

---

(9) أرون ، ص 72 ـ 73 وكذلك عباس ، ص 128 ـ 129 .
(10) الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 ، ص 206 .

أما عن المؤتمر نفسه فقد سمّاه (مهرجان الشعب) وعيده ، وقال عن الجزائر أثناءه :

أجمعت أمرها لمؤتمر الشعب   فوفته مهرجاناً وعيداً[11]

تداول على منصة الخطابة عدد من النّواب والنخبة والعلماء وأحد الفرنسيين الضيوف وغيرهم . فقد افتتح المؤتمر الدكتور تامزالي بالفرنسية مرحباً بالمؤتمرين بإسم مدينة الجزائر ، وتلاه الدكتور ابن جلول الذي وضّح أغراض المؤتمر وأهميته . وتوالى بعد ذلك الدكتور ابن التهامي والدكتور عبد الوهاب ثم الصيدلي فرحات عباس . وقد عبّروا على قيمة هذا اللقاء الذي جمع بين النواب والنخبة وغيرهم من أهل الرأي في البلاد . وهناك خطباء آخرون ينتمون إلى القطاعات الاجتماعية الأخرى . ومن الذين تكلّموا في هذه المناسبة السيد سكوت الفرنسي ، مندوب فرع الحزب الاشتراكي الفرنسي، وهو شيء «من أبهج ما ترى وألطف ما تسمع» حسب تعبير الإبراهيمي الذي كان حاضراً هذا المؤتمر . ومن الخطباء رجال من العلماء البارزين أمثال ابن باديس والعقبي والإبراهيمي . فتكلم الأول كلاماً أثر في النفوس وبيَّن للحاضرين أهمية المطالب الدينية والأخرى التي تخص اللغة العربية ، وربط بين هذه المطالب الإسلامية والمطالب العامة . أما العقبي فقد هز المشاعر وأشعل الحماس وندد خاصة بالقوانين الاستثنائية التي كان يخضع لها الجزائريون ، ومنها منشور ميشال الذي لم يذكره الخطباء الآخرون ، وهو المنشور الذي نصَّ على غلق المساجد في وجوده العلماء وحل الجمعية الدينية بالعاصمة . وتحدث الإبراهيمي عن أهمية هذا الحدث وعن اللغة العربية والتعليم الديني في الجزائر . وإثر ذلك أقرَّ المؤتمر « بالإجماع » المطالب الذي ذكرت على أنها مطالب الأمة[12] .

لم يسبق هذا اللقاء الكبير تحضير يتناسب مع أهميته . فلم يكن هناك متسع من الوقت بين الدعوة للمؤتمر وانعقاده. وكان الغرض من الاستعجال كسب الوقت والخوف من تغييرات قد تحدث في فرنسا ومن دبيب الوهن بين المتحمسين

---

(11) نفس المصدر ص 217 ومن المناسب أن نذكر بأن عنوان هذا الشعر هو (صوت في المؤتمر الإسلامي الجزائري العام) والإبراهيمي هو الذي أطلق على هذه المناسبة « يوم الجزائر المشهود » .

(12) نفس المصدر ، ص 202 ـ 203 .

للمؤتمر. ومع ذلك فقد سبق هذا المؤتمر تحضير في الولايات الثلاث أهمها اجتماعات في العاصمة وقسنطينة وتلمسان باشراف لجان تحضيرية شارك فيها ، بالإضافة إلى النواب والعلماء ، الشبان (النخبة) والعمال ورجال الصنائع والفلاحون وقدماء المحاربين . وكان هدف هذه التحضيرات جمع الكلمة حول نقاط المطالب التي يمكن أن تصدر عن المؤتمر بعد انعقاده . وعشية المؤتمر (يوم السبت) اجتمع بنادي الترقي عدد من المندوبين عن لجان الولايات الثلاث . وانضم إليهم نواب آخرون جاءوا من تيارت وتلمسان ومستغانم وبعلباس ، كما اشترك معهم الدكتور سعدان نائب بسكرة ، أما من العلماء فقد حضر ابن باديس والإبراهيمي وخير الدين ، على معنى المشاورة وإعطاء الرأي في كل ما يتعلق من المطالب بالدين واللغة العربية . وتعددت الاجتماعات أيضاً في النادي الرياضي وفي بقاعه (قبوتبل). وخلال هذه الاجتماعات التي دامت حتى الثانية صباحاً درسوا مختلف القضايا المعروضة واتفقوا على أن يكون المؤتمر من النواب والعلماء والشبان . كما اتفقوا على كيفية التمثيل البرلماني في فرنسا ، وعلى جدول أعمال المؤتمر ، وعلى إسناد رئاسة المؤتمر إلى السيد ابن جلول . وفي إحدى المرات انفصل النواب عن البقية للتداول في مسائلهم الخاصة ، كما تألفت لجنة مؤقتة من تسعة أشخاص ، ثلاثة من النواب وثلاثة من العلماء وثلاثة من الشبان[13] .

شاركت في المؤتمر إذن كل التيارات السياسية والاجتماعية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار (النواب والعلماء والشبان والشيوعيون والاشتراكيون والمرابطون) باستثناء النجم الذي كان ما يزال إلى ذلك الحين في فرنسا مقراً ونشاطاً . وقد جمع المؤتمر لذلك كثيراً من المتناقضات لا في التخطيط فقط ولكن في الأهداف الاستراتيجية أيضاً . فالذي كان يهم النواب والنخبة هو تطبيق مشروع فيوليت الذي وضع في الحقيقة من أجلهم . وكان العلماء مشاركين بنصف حماس وبطريقة غامضة. وكانت مطالبهم منحصرة في تحرير الدين الإسلامي من سيطرة الدولة

---

(13) نفس المصدر ، 199 ـ 201 من النواب ابن جلول ، بوطالب ، بوكردنة ومن العلماء خير الدين والعقبي والإبراهيمي ، ومن الشبان ابن الحاج وبوشامة والعنابي . استعمل مصطلح « الشبان » للدلالة أيضاً على الشيوعيين .

الفرنسية وتعميم التعليم العربي الحر بواسطة أبناء الشعب أنفسهم. أما الشيوعيون والاشتراكيون فكان يهمهم بالدرجة الأولى جمع قوى الشعب الجزائري وراء الجبهة الشعبية التي كانوا مشتركين فيها والتي جعلت من شعاراتها محاربة الاضطهاد والظلم في المستعمرات ، لذلك كانت صياغة قائمة موحدة من المطالب عملاً عسيراً ، لأنها تقتضي تناسي كثير من الخلافات وتقديم كثير من التنازلات، ومن ثمة لا تستغرب أن ينهار المؤتمر عند أول عاصفة تهب عليه كما سنرى . ولعل الرأي التالي يصور حقيقة هذا الجمع الذي أريد له أن يصل إلى غاية واحدة بطرق مُختلفة . فقد قال أحد الكتّاب عن ذلك « ان هذه هي إحدى الحالات التي عمل فيها الضغط الجماعي للرأي العام إلى جانب المعتدلين بدل العمل إلى جانب المتطرفين كما حدث بالنسبة للخصومة التي وقعت حول التجنيس[14] ».

ورغم الحماس للمؤتمر واعتباره من الأحداث البارزة في تاريخ الجزائر فإن قراراته كانت متواضعة . ويمكن تلخيصها فيما يلي : ثقة المؤتمرين في حكومة الجبهة الشعبية ، إلغاء جميع القوانين الاستثنائية ، منح المسلمين جميع الحقوق التي للفرنسيين مع التمتع الكامل بالميزات الإسلامية وإدخال إصلاحات عليها ، منح الجزائريين حق التمثيل النيابي في البرلمان الفرنسي ، انتخاب مشترك بين المسلمين والفرنسيين (يعني إلغاء النظام الثنائي في الانتخابات) والتأكيد على المحافظة على الأحوال الشخصية الإسلامية ، تأسيس لجنة تنفيذية للمؤتمر.

وبالإضافة إلى ذلك قدم الشيخ ابن باديس نقطتين تتضمنان مطالب العلماء . وقد وافق عليهما المؤتمر أيضاً بالإجماع وضمتا إلى (ميثاق المؤتمر) وهما :

اعتبار اللغة العربية كالفرنسية لغة رسمية على أن تكتب بها جميع المناشير الرسمية وتعامل صحافتها كالصحافة الفرنسية مع إعطاء الحرية لتعليمها في المدارس الحرة ، وتسليم المساجد إلى المسلمين وتخصيص ميزانية لها على أن تتولى جمعيات دينية أمرها مؤسسة حسب قانون فصل الدين عن الدولة ، وتأسيس كلية لتعليم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد ، وتنظيم القضاء على يد

---

(14) توينبي ، ص 159 . أنظر أيضاً جوليان ، ص 131 ، وقد زعم جوليان أن حزب الشعب الجزائري قد اشترك في المؤتمر بينما الواقع أن هذا الحزب لم يتكون إلا سنة 1937 . أنظر كذلك نوشي ، ص 75 ، فهو أيضاً يقول بمشاركة الحزب المذكور .

هيئة إسلامية تنتخب بإشراف الجمعيات الدينية المذكورة ، وإدخال إصلاحات على مدارس تخريج رجال القضاء[15].

قدم إبن باديس النقطتين السابقتين (اللغة والدين) باسم العلماء ولكنه قدم قائمة أخرى باسمه الشخصي لا تخرج في أساسها عن مطالب النواب والشبان السابقة أيضاً ، منها الغاء المعاملات الخاصة بالجزائريين (الانديجينا) والمجالس العسكرية وأعطيات الجندية ، وتسوية نواب الجزائريين بنواب الفرنسيين في جميع المجالس ، وتوحيد النيابة البرلمانية بكلا المجلسين (مجلس الجزائريين ومجلس المعمرين) والمساواة في الحقوق والواجبات[16] .

ومن المطالب التي أخذت طابعاً فردياً : إلغاء الولاية العامة (منصب الحاكم العام) والبلديات المختلطة ،وظائف القياد ومجلس الوفود المالية والمجلس الأعلى للحكومة وإلغاء المحاكم العسكرية والعفو عن المحكوم عليهم في حوادث قسنطينة (1934) وتكريم الرجال الذين عملوا لخير الجزائر كالأمير خالد وفيوليت وموتي وروزي ، وعقد المؤتمر على نفس المبادىء والأهداف عند كل مناسبة .

وبناء على إحدى التوصيات تكوّنت إثر المؤتمر (لجنة تنفيذية) كانت مهمتها تتلخص في السهر على تنفيذ مطالب المؤتمر وطبعها في كراس خاص وتقديمها للسلطات الفرنسية في باريس بواسطة وفد من النواب أو بما تراه اللجنة صالحاً من الوسائل . واتفق أيضاً على أن تكون في كل قسم من الولايات الثلاث هيئة تسمى (لجنة المؤتمر) مؤلفة من ممثلين عن النواب والعلماء والشبان . ومهمة هذه اللجان الدعاية للمؤتمر في الأوساط الشعبية والتوعية العامة والإعداد لاجتماع اللجنة التنفيذية بعد شهر (5 يوليو)،على أن تنتخب كل لجنة من لجان المؤتمر الفرعية المنبثقة في أنحاء القطر ممثلاً عنها في اللجنة التنفيذية حتى تكون هذه لجنة وطنية بكل معنى الكلمة . وهذه الأخيرة هي التي كان عليها أن تطبع القرارات الصادرة عن المؤتمر

---

(15) الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 . ص 210 ـ 211 .

(16) نفس المصدر ص 204 أضاف جوليان أن المؤتمر قد قرر المطالبة بمساعدة الفلاحين ، والمساواة في الأجور عند المساواة في الأعمال . وأضاف بأن المؤتمر قد عبر عن تعلق الجزائريين بفرنسا . أنظر ص 131 ـ 132 أنظر أيضاً أرون ص 71 .

باللغتين وهي التي تشكل الوفد الذي يسافر إلى باريس باسم المؤتمر لتقديم مطالبه إلى الحكومة الفرنسية .

وقد اشتغلت لجان المؤتمر حسب البرنامج المتفق عليه ما عدا لجان قسنطينة التي كان قد تَكَفَّلَ بها ابن جلول . ومع ذلك حضر ممثلو اللجان المذكورة وعددهم 34 ممثلاً . ومن بين هؤلاء انتخب 21 شخصاً أصبحوا هم اللجنة التنفيذية (بمعدل 7 لكل ولاية 3 عن النواب و 3 عن العلماء وواحد عن الشبان) وجرت الانتخابات في نادي الترقي . وتحددت مهمة اللجنة التنفيذية التي أصبحت السلطة العليا في المؤتمر في : انتخاب المكتب ، وتعيين وفد باريس ، والتصويت على كل ما يعرض عليها من قضايا . أما بقيّة الـ 64 فلهم حق المناقشة لا التصويت . وباقتراح من الشيخ ابن باديس أصبح ابن جلول (النواب) هو رئيس اللجنة التنفيذية ونائبه الأمين العمودي (العلماء) وابن الحاج (الشبان) كاتباً عاماً. وبوكردنة (النخبة) أمين المال[17] .

من أبرز شخصيات المؤتمر : ابن جلول وابن باديس ثم مصالي . وسنتحدث عن الرجلين الآخرين بعد قليل . أما ابن جلول فقد كان غامضاً في تصرفاته ، فرغم أنه تصدر منصة المؤتمر ، وبرز في نشاط الإعدادات له فإنه يبدو أن إيمانه به كان دون المستوى . ويبدو أيضاً أن ابن باديس هو الذي كان يحركه ويدفعه فهو الذي اقترحه لرئاسة المؤتمر ولرئاسة اللجنة التنفيذية وبذلك وضعه في الواجهة لأن رئيس اللجنة التنفيذية هو الذي يترأس الوفد إلى باريس . وهو الذي يعود إلى الجزائر بتقرير عن وفادته .

ومع ذلك فنحن لا نجد ابن جلول يتصرف باقتناع وحماس لهذه المهمة . فعندما توزع النواب مهمة تأسيس اللجان الفرعية للمؤتمر في الولايات الثلاث قام زملاؤه في وهران والعاصمة بما عهد إليهم به في وقته. بينما لم يقم هو بهذه المهمة رغم أنه كان رئيس المؤتمر ـ حتى أن ابن باديس أحرجه عندما وضع المسؤولية على عاتقه في اجتماع اللجنة التنفيذية فاعتذر ابن جلول بأنه كان منشغلاً بأعمال مجلس الوفود المالية في الجزائر ، وادعى بأن قسنطينة متهيأة بطبيعتها لذلك الدور ، فقبلوا عذره ولكنهم طلبوا منه العمل على تأسيس اللجان في ولايته اقتداء بما فعل بقية

---

(17) الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 ص 230 .

زملائه . وعند اجتماع أعضاء الوفد الرسمي لوضع الترتيبات الأخيرة قبل السفر إلى فرنسا ، اعتذر ابن جلول عن حضور الاجتماع رغم أنه رئيس الوفد ورئيس اللجنة التنفيذية ورئيس المؤتمر(18) . وسنعرف أن مواقفه الغامضة هذه وشخصيته الغريبة قد ساهمت في انهيار المؤتمر يوم أن اتهم ابن جلول حلفاءه العلماء ، بالتورط في قتل المفتي كحول .

ومع ذلك فهذا الرجل الغامض الأدوار هو الذي ذهب على رأس الوفد إلى باريس لتقديم أهم مجموعة من المطالب الجزائرية التي صيغت لأول مرة في شكل جماعي كالذي حدث في المؤتمر الإسلامي . فقد اجتمعت اللجنة التنفيذية يوم 6 يوليو 1936 وكانت نقط جدول أعمالها : تحديد مهمة الوفد ، وعدد أفراده وتاريخ سفره . وقد تقرر تقديم مطالب المؤتمر على أنها مطالب « الأمة الإسلامية الجزائرية » دون أن يضيف عليها الوفد شيئاً . وإذا واجهت الوفد صعوبات فعليه أن يعود إلى الجزائر للمشاورة ، كما تقرر عدم التساهل بالمطالب وضرورة التمسك بالوحدة وتعيين متكلم خاص باسم الوفد حتى لا تصدر عنه أخبار متناقضة . أما عدد أعضاء الوفد فقد اتفق على أن يكون من ستة عشر عضواً هكذا : 10 (عشرة) من النواب (ثلاثة لكل ولاية ونائب واحد عن المناطق العسكرية الثلاث) و 3 من العلماء و 3 من الشبان ، كما تحددت أسماء الوفد ، والتاريخ المقرر للسفر إلى فرنسا وهو يوم 20 يوليو 1936 . وقبل سفره قابل الحاكم العام السيد لوبو أعضاء الوفد يوم 9 يوليو بحفاوة ، حسب أخبار ذلك الوقت وتقرر بالإضافة إلى ذلك أن يقوم الوفد بجولة في القطر بعد رجوعه من فرنسا لتنوير الرأي العام واطلاع الشعب على النتائج(19) .

وفي باريس قابل الوفد رئيس الوزراء السيد ليون بلوم وعدداً آخر من المسؤولين . واستقبلهم السيد أوبو المكلف بالشؤون الأهلية وكذلك السيد ريجس نائب مدينة الجزائر وسلموهم نسخة من « كراس المطالب » التي وافق عليها المؤتمر ، وكان ذلك في الثاني والعشرين من يوليو . أما في اليوم التالي فقد

---

(18) نفس المصدر ص 232 ومن ثمة لا نتفق مع أرون ص 71 من أن ابن جلول أراد أن يوحد كل الأحزاب الإسلامية في برنامج واحد ، فدور ابن جلول في هذه المناسبة كان غامضاً .

(19) الإبراهيمي (الشهاب) يوليو 1936 231 ـ 233 وعباس ص 129 .

استقبلهم ليون بلوم رئيس الوزراء موريس فيوليت وجول موش وغيرهم . وخلال المقابلة عبر ابن جلول رئيس الوفد على ثقة الجزائر في الجبهة الشعبية وحكومتها والحاكم العام السيد لوبو (رغم أن أحد المطالب نادى بإلغاء منصب الحاكم العام) وفي نهاية المقابلة أصدر مكتب ليون بلوم تصريحاً جاء فيه أن رئيس الوزراء قد « شكر الوفد على كلمته وعلى الفرحة التي غمرته عندما استقبل فرنسيون فرنسيين آخرين وديمقراطيون ديمقراطيين آخرين وقد ذكر الوفد بأن الحكومة قد شرعت فعلاً في اتخاذ عدة إجراءات لصالح الجزائر وأوضح أنها ستنفذ إجراءات أخرى »[20] .

يعتبر ابن باديس الشخصية الرئيسية في المؤتمر رغم أنه لم يضع نفسه في الصدارة . فهو الذي دعا إليه من البداية ، وهو الذي كان موضع ثقة الجميع مهما اختلفت اتجاهاتهم ، وهو الذي كان يقترح عليهم الأسماء لمهام معينة فيقبلون عن رضى . وقد طلبوا منه عدة مرات أن يقدم اليهم اقتراحات العلماء بشأن الإصلاح الديني والثقافي فلم يتردد أن قدم إليهم ما اعتبره باسم الجمعية وما رأى أن يتحمل مسؤوليته بنفسه . وعندما كان الوفد في باريس لم يتردد ابن باديس في أن يتصل بزعماء النجم هناك رغم مخالفة زملائه له حتى قيل انه غير رأيه في بعض النقط . وابن باديس هو الذي تكلم يوم المؤتمر للجماهير بلغتها وخاطبها في عواطفها (عن الدين) وكان بمظهره المؤثر وقدرته على الخطابة واقتناعه الشخصي بما كان يدعو إليه مناط التقدير والثقة من الحاضرين . وقد عبر ابن باديس شخصياً عن دوره في المؤتمر ونظرته إليه في اجتماع اللجنة التنفيذية في الخامس من يوليو سنة 1936 عندما خاطب زملاءه قائلاً إنه يعتز في حياته بعملين هما جريدة (المنتقد) ومجلة (الشهاب) من جهة وجمعية العلماء من جهة أخرى وقد انضاف إليهما عمل ثالث (ونسبه لنفسه) وهو أعظمها وأكثر فائدة منها وذلك هو المؤتمر الإسلامي الجزائري لأنه يعتقد أن هذا المؤتمر هو « أعظم حادث وقع في الجزائر الإسلامية في تاريخها الحديث » ومن ثمة وعد زملاءه في اللجنة بالدفاع عن مبادىء المؤتمر ومقاومة من يقاومها[21] .

---

(20) (أفريقية الفرنسية) يوليو 1936 ص 403 ونوشي ص 85 ـ 87 .
(21) (الشهاب) يوليو 1936 ص 236 ـ 227 .

وقد أرخ ابن باديس لعلاقته بالسياسة الفرنسية في الجزائر منذ العشرينات إلى انعقاد المؤتمر وأوضح أنها تقوم على هذه الفكرة « **المساواة في الحقوق السياسية مع المحافظة التامة على جميع الذاتية** »[22] ذلك أن مجلة (الشهاب) كانت منذ تأسيسها ترفع شعار « **الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات** » ومعنى هذا أن الجزائر قد قامت لفرنسا بكل الواجبات (ضرائب ـ خدمَة عسكرية ـ خوض الحرب معها . . الخ) فمن الحق والعدل أن تحصل منها على جميع الحقوق . لكن يجب إبقاء الجزائريين على ما عندهم من مقومات أساسية (دين ـ لغة وقيم أخرى) . ويلاحظ أن ابن باديس كان قبل المؤتمر يستعمل عبارة (الحقوق) بصفة عامة أما خلال المؤتمر فقد استعمل عبارة « الحقوق السياسية » للجزائريين وهو تحول كبير في عقليته لأن العلماء كانوا دائماً يتفادون كلمة « سياسة » في قاموسهم اليومي ، ولم يخف ابن باديس أنه قاوم مع أنصاره العلماء مشروع فيوليت ، رغم أنه أطلق على صاحبه وصف « الرجل العظيم الذي لا ننسى فضله » والسبب في هذه المقاومة يعود في نظرهم إلى أن المشروع يفتقر إلى « التسوية (المساواة) في الحقوق » لا بين الجزائريين والفرنسيين ولا بين طبقات الجزائريين أنفسهم ، كذلك رفضوه لأنه يتضمن « تهيئة الطبقة المثقفة للاندماج مع السكوت التام عن الدين واللغة » أما خلال المؤتمر فقد وضع ابن باديس قائمة المطالب الآنفة الذكر ولخصها في الجملة أعلاه وهي « **المساواة في الحقوق السياسية مع المحافظة التامة على جميع الذاتية** »[23] .

ومن حق المرء أن يتساءل هل كان المؤتمر الإسلامي الجزائري مؤتمراً سياسياً ؟ إن الظروف التي انعقد فيها وكثيراً من الذين شاركوا فيه والمطالب التي صدرت عنه كلها تجعل منه مناسبة اجتماعية أكثر منها سياسية . والتأمل في ميثاق المطالب يكشف أن واضعيه كانوا يحاولون اتقاء العبارات السياسية ما أمكن ، فإذا استثنينا مطالب مثل حق التمثيل البرلماني وإلغاء منصب الحاكم العام ونحوهما فإننا نجد أن المؤتمر قدم قائمة مظالم لا مطالب. والواقع أن الذي حدا بنا إلى طرح هذه

---

(22) يجب ان نلاحظ أن هذه الجملة تمثل أيضاً خلاصة مطالب الأمير خالد .

(23) ابن باديس (الشهاب) يوليو 1936 ص 214 ـ 215 ويلاحظ أن العبارات المنصوص عليها كتبت في الأصل بحروف بارزة ووضعت تحتها سطور إشعاراً بأهميتها .

القضية هو ما تكرر عند الكتاب من أن العلماء مثلاً قد شاركوا في مؤتمر سياسي وبذلك انحرفوا عن مبادئهم الأصلية أو أنهم كشفوا بذلك النقاب عن أهدافهم الحقيقية الخفية . وفي نظرنا أن المؤتمر كان عبارة عن تجمع شعبي سمحت به الظروف المواتية (تولي الجبهة الشعبية الحكم) . فجمع أغلب التيارات والطبقات في البلاد ، وقدم مجموعة من المطالب المتواضعة والمظالم للسلطات الفرنسية لعلها تتحرك في الاتجاه الصحيح ، فلم تفعل .

ومهما يكن من أمر فإن مشاركة العلماء في المؤتمر قد أثارت تعاليق كثيرة فالكاتب أرنولد توينبي يذكر أن العلماء قد تحالفوا مع النخبة والمرابطين على ما بينهم من خلاف لتأييد برنامج فيوليت . وقد عرفنا أن العلماء كانوا متحفظين من هذا البرنامج (المشروع) وأوردنا ما قاله فيه ابن باديس وما أخذه عليه من نقص ، ثم ما انتقده عليه الإبراهيمي ولكن توينبي اعترف بأن العلماء ، ومن باب أولى المرابطون ، كانوا غير راضين عن برنامج فيوليت لأنه يهدد بإزالة إحدى العقبات الرئيسية في طريق الاندماج[24] ويرى كاتب آخر أن برنامج العلماء بالرغم من أنه غير سياسي فقد وجدوا أنفسهم « متورطين » في مؤتمر سياسي سنة 1936 نظراً لحرصهم على قضية التعريب والدين الإسلامي[25] ولاحظت افتتاحية إحدى المجلات المعاصرة أن مشاركة العلماء في المؤتمر تدل على « سذاجتهم » وعلى « الفوضى » التي تسود الجزائر عندئذ ، فهم (العلماء) بحكم تكوينهم ووجودهم ، يقفون ضد الفرنسيين ، ومع ذلك سمحوا لأنفسهم بالتحالف مع المثقفين (النخبة) الذين هم مع فرنسا ويرغبون في الحصول على حق المواطنة الفرنسية[26] .

أما أنصار العلماء فيقولون بأن مشاركتهم لم تكن باسم الجمعية لكن باسم الأفراد الذين كانوا يعبرون عن وجهات نظرهم الخاصة . وقد دافعوا عن ذلك بأن مشاركة العلماء قد منعت الجزائر من الاندماج لأن معظم المشاركين في المؤتمر كانوا

---

(24) توينبي ص 517 .

(25) أرون ص 70 .

(26) « تمزق الشمال الأفريقي » في (أفريقية الفرنسية) يوليو 1936 - ص 370 ولاحظت هذه المجلة أيضاً أن وفد المؤتمر إلى باريس كان يضم أناساً يريدون البقاء خارج السياسة .

من أنصاره . وهذا ما جعل المتحمسين للاندماج ينتقدون العلماء بأنهم قوم لا يعرفون السياسة عندما قصروا مطالبهم على فصل الدين عن الدولة ، واسترجاع أوقاف المسلمين إلى جمعيات دينية منهم ، وحق تعليم اللغة العربية بحرية واحترام الشريعة الإسلامية والإبقاء على الأحوال الشخصية للجزائريين(27) ولعل الذي سبب كل هذه التعاليق حول مشاركة العلماء هو شخصية ابن باديس . وكثير من الناس لم يفرقوا بين ابن باديس رئيس العلماء وبين ابن باديس الرجل المواطن ، فكل حركة أو رأي له في نظر الناس كانت تفسر على أنها تعكس الاتجاه الإصلاحي ومن ثمة اتجاه جمعية العلماء . وقليل هم الذين يفرقون بين الجمعية وشخص ابن باديس .

وكما كثر الحديث حول مشاركة العلماء كثر أيضاً حول موقف نجم أفريقية الشمالية من المؤتمر . وقد عرفنا أن النجم كان غير موجود بالجزائر سيما قبل شهر أغسطس 1936(28) . ولعل المنظمين للمؤتمر قد اعتبروه منظمة موجودة خارج الجزائر أكثر مما راعوا تطرفه ، ولو كانت القضية قضية يمين ويسار لما اطمأنوا إلى الشيوعيين والاشتراكيين ورفضوا التعاون مع النجم ، الذي هو أقرب إليهم في الأهداف من المذكورين . ومن جهة أخرى فرجال النجم قد أكثروا من المناورات في هذه الظروف . فهم لم يشتركوا في الإعداد للمؤتمر ولا في تحمل المسؤولية السياسية ومع ذلك اشتركوا في النقد وفي محاولة قطف الثمار حين آن وقت اقتطافها . ولولا التجمع الذي نظمه المؤتمرون لما استطاع مصالي أن يلقي خطبته الشهيرة يوم الثاني من أغسطس . فقد وجد الطريق ممهدة والنفوس معدة والجمع حافلاً . ولم يزد على أن ارتقى المنصة (ولم يكن في جدول الأعمال) وخطب في الناس معبراً عن وجهة نظر النجم ومنتهزاً هذه الفرصة الثمينة لدعوة الشعب للانضمام إلى حزبه . وكانت هذه مناورة سياسية ولكنها كانت ناجحة من هذه الزاوية فقط لأنه استطاع أن يستل البساط من تحت أقدام أنصار المؤتمر ، كما يقول المثل .

---

(27) بوكوشة « مع ابن باديس » (المعرفة) أبريل 1964 ص 18 ـ 19 وقد كان بوكوشة من العناصر العاملة في صفوف العلماء عندئذ .

(28) مع العلم ان بعض المذكرات التي صدرت بعد الاستقلال تزعم ان النجم قد بدأ يكون الخلايا السرية في الجزائر منذ 1933 .

كان مصالي إذن هو الشخصية الثالثة في هذه الظروف ، بعد ابن جلول وابن باديس . فقد عاد من فرنسا إلى الجزائر على متن باخرة في نفس اليوم الذي انعقد فيه التجمع الشعبي للمؤتمر لكي يستمع إلى تقرير الوفد عن رحلته إلى باريس . ولذلك وصل مصالي متعباً وعليه وعثاء السفر ، وطلب الكلمة من رئيس الجلسة فأذن له ، رغم معارضة البعض . ولكن حرص المنظمين للمؤتمر على أن تكون كل الاتجاهات ممثلة وشعوراً بمبدأ الديمقراطية جعله يحصل على حق الكلام . ألقى مصالي خطبته العامة التي تعتبر في حد ذاتها وثيقة تاريخية من وثائق السيأسة الجزائرية المعاصرة. وقد افتتحها باللغة العربية التي عبر بها عن فرحته لعودته إلى أرض الوطن بعد غربة دامت اثني عشر سنة ، وقال إنه يفتخر بالحديث اليوم بالعربية ويعتز لأنها لغته الوطنية ، وحمل إلى الحاضرين تحيات 200 ألف عامل شمال أفريقي بفرنسا باسم النجم .

وبعد هذه المقدمة العاطفية دخل مصالي في الموضوع الأساسي متحدثاً باللغة الفرنسية . وأول ما أعلنه إلى الحاضرين أنه جاء شخصياً « ليربط النجم بهذه المظاهرة الكبيرة ـ المؤتمر » . وهذا التصريح في حد ذاته يعتبر اعترافاً منه بانضمام حركته إلى حركة المؤتمر . ثم أضاف بأن قادة النجم وأعضاءه بفرنسا قد سمعوا بالمؤتمر الذي انعقد في السابع من يونيو « فأيدوه رغم ضعفه وسرعته » وعبر بعد ذلك على تأييد النجم للمؤتمر والموافقة على قراراته وحيا منظميه واعتبره حدثاً « تاريخياً فاصلاً في الجزائر » ، ولكنه استثنى بعض نقاط الخلاف التي سنشير إليها.

وأعطى مصالي صورة كاملة للحاضرين عن نشاط النجم في فرنسا منذ عشر سنوات من أجل الجزائر وشمال أفريقية عامة . فقال أن النجم عانى من اضطهاد الحكومات الرجعية الفرنسية . ومن ثمة تعرض زعماؤه ، ومصالي على رأسهم ، من جراء هذا الاضطهاد إلى السجن والنفي والتغريم ، وطرد العمال من مصانع (ستروين) و (رينو) لأنهم كانوا أعضاء في النجم ، وأن هؤلاء العمال الذين هاجروا إلى فرنسا من أجل « الخبز والحرية » قد وجدوا أنفسهم في فرنسا كأنهم يعيشون في بلدية مختلطة يحكمها قائد من موظفي فرنسا ومعه الشواش والزبائن . وهذا الاضطهاد والمعاملة القاسية لم تفارق العمال حتى على عهد الحكومة الشعبية . ومن أوجه التفرقة العنصرية التي عانى منها العمال في فرنسا أن العرب يرسل بهم إلى

مستشفى بوبيني كأن بهم جرباً يعدي الإنسانية قاطبة . ونظراً لنشاطهم الوطني كان العمال محل اتهام من خصومهم بالشيوعية تارة ، والوهابية تارة ثانية ، والتبعية لألمانيا أو لموسكو مرة ثالثة ، ومع ذلك صمموا وعملوا على إسماع صوت الجزائر للعالم ، كما عمل زعماء النجم على تقديم قائمتين من المطالب في فرنسا إلى ممثل حكومة الجبهة الشعبية(29).

ولكن مصالي لم يوافق ، باسم النجم ، على كل مطالب المؤتمر. فقد أعلن أنه يوافق على أنّ المؤتمر يعتبر حداً فاصلاً في تاريخ الجزائر وأنه يؤيده ويوافق على انعقاده ولكن مطالبه تحتاج منه إلى صراحة وتفسير جديد . فهو يؤيد المطالب الآنية التي تقدم بها المؤتمر لفرنسا لأنها مطالب شرعية ومتواضعة ولأنها تساعد على التخفيف من شقاء الشعب . ولكنه أعلن « بصراحة » أنه لا يوافق على «ربط بلادنا بفرنسا وعلى التمثيل البرلماني» ذلك أن الجزائر في الواقع مرتبطة بفرنسا ، وهو ارتباط جاء نتيجة احتلال قاس وليس عن اختيار وإرادة . أما الارتباط الجديد الذي دعا إليه المؤتمر فهو في نظره أمر طوعي وبارادة ، وعلى المؤتمر إذن أن يراعي هذه النقطة ما دام يتحدث باسم الشعب الجزائري بأكمله لأن عواقب ذلك الارتباط ستكون وخيمة ، فالنجم لا يوافق على « ربط بلادنا ببلد آخر» أما المطالبة بالغاء مجلس الوفود المالية والحكومة العامة وبانشاء برلمان جزائري منتخب عن طريق الاقتراع العام بدون تمييز بالعرق أو الدين فالنجم يوافق عليها أيضاً . ذلك أن هذا البرلمان الوطني الجزائري هو الذي سيعمل باسم الشعب ومن أجل الشعب بعيداً عن ضغوط الإدارة الفرنسية كما هو الحال عندئذ بالنسبة للمجالس المذكورة . وقد ختم مصالي خطابه التاريخي بالدعوة إلى اليقظة والوحدة والانضمام إلى صفوف النجم لأنه المنظمة التي تدافع عن حقوق الشعب وتعمل على تحرره من الاستعمار . لذلك نادى في النهاية بسقوط قانون الأهالي وجميع القوانين الاستثنائية والعنصرية وبحياة الشعب الجزائري وأخوة الشعب وحياة النجم(30) .

---

(29) أنظر الفصل الخاص بالنجم ، والقائمتان واحدة تخص الجزائريين بفرنسا والثانية تخص الشعب الجزائري عامة . وكان الذي قابلهم هو السيد راؤول أوبو ، وكيل وزارة الداخلية .

(30) خطبة السيد مصالي في وثيقة مرقونة في أربع صفحات عند السيد قنانش وهي بتاريخ 2 أغسطس =

إن هذه الخطبة التي حول فيها مصالي أنظار الحاضرين من الاعتدال إلى التطرف ومن الرضى بالقليل إلى المطالبة بالكثير ومن الدعوة إلى المساواة عن طريق الاندماج إلى نقد الاحتلال والدعوة إلى التحرر هي التي جعلت الناس يستقبلونه بحفاوة ويتحمسون له حتى حملوه على الأكتاف كما سبقت الإشارة . ويلاحظ المرء على هذه الخطبة أن مصالي لم يذكر فيها كلمة الاستقلال الوطني التي جاءت في وثائق النجم سنة 1927 وفي برنامجه سنة 1933 ، وأن مطالبه (أي مصالي) من الجبهة وخطبته لا تعبر عن التطرف والثورية التي تميز بها النجم في السياسة الجزائرية قبل ذلك . فهل كان ذلك مراعاة منه لموقف الجبهة الشعبية أو كان منه مراعاة للمشاركين في المؤتمر (الذي أعلن الانضمام إليه) حتى لا يخرج (المؤتمر) عن النطاق المرسوم له من البداية وهو الاعتدال في المطالب والعمل داخل المحيط الشرعي حتى لا تتفتت جبهة المؤتمر بخروج العناصر المؤيدة لفرنسا منها ؟ .

وعلى كل حال فإن مشاركة مصالي بشخصه وبتصريحاته في المؤتمر جعلت الحكم على موقف النجم من المؤتمر غير يسير . فبعض الكتاب اعتبر ذلك مشاركة صريحة باسم النجم في أعمال المؤتمر[31] . ولكن رفضه لفكرة ربط الجزائر بفرنسا (الاندماج) والتمثيل البرلماني جعله يدخل في نزاع مع الشيوعيين . بينما رأى الآخرون أن النجم لم يشارك رسمياً في المؤتمر وأن مصالي لم يأت إلا لتحذير المنظمين للمؤتمر من مغبة ما هم مقدمون عليه باسم الشعب . ومن جهة أخرى كانت ميول قادة النجم تختلف تماماً عن ميول قادة المؤتمر . فأولئك كانوا يدعون إلى برلمان وطني وحكومة وطنية وإلى استقلال الجزائر عن فرنسا ، وهؤلاء يدعون إلى المساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والفرنسيين والرضى بالعيش تحت العلم الفرنسي إذا تحقق ذلك الشرط ، بالإضافة إلى الإبقاء على الأحوال الشخصية الإسلامية . وكان موقف الجبهة الشعبية من النجم في فاتح سنة 1937 فرصة لأن

= 1936 وباللغة الفرنسية . وقد اعترف الإبراهيمي كذلك بأن المؤتمر قد انعقد « بسرعة » رغم خطورة المطالب الصادرة عنه ، ولكنه علل لذلك بسرعة الحوادث والخوف من انحلال العزائم . الخ أنظر (الشهاب) يوليو 1936 ، ص 199 .

(31) نوشي ص 85 وجوليان ص 131 .

يكشف النجم، وبعده حزب الشعب، عن هويته الحقيقية في الجزائر، وهي الهوية التي ظل يخفيها طيلة عهد الجبهة . وكان خروج العلماء من المؤتمر وتعلق النواب والنخبة بمشروع فيوليت حجة أخرى في يد النجم على عدم جدوى سياسة الاعتدال والوعود التي كان يصر عليها أنصار المؤتمر الأولون.

حقق مصالي إذن نجاحاً كبيراً في الجزائر لشخصه ولحزبه في صيف سنة 1936 ، وقد قضى عدة أسابيع يجوب البلاد ويؤسس الفروع ويخطب في الناس ويجتمع بهم حتى ضج من نشاطه المعمرون فناقشوا نشاطه في وهران خلال أكتوبر من نفس العام ومنعوه من التوجه إلى هذه المدينة فذهب إلى تلمسان (مسقط رأسه وحيث أنشأ فرعاً للنجم) ولكنهم منعوه من الخطابة فيها وأثاروا حوله الشبهات والتهم ، فقالوا إن له يداً أيضاً في اغتيال المفتي كحول . وإنه يدعو إلى الثورة والتمرد والكراهية ويهدد مستقبل الجزائر الفرنسية . لذلك نادوا بحل النجم وطرد مصالي من الجزائر . فوعدهم والي وهران عندئذ بأنه يراقب نشاط النجم ومصالي رقابة شديدة. . أما حل المنظمة فهو أمر يعود إلى الحكومة نفسها ، ومع كل هذه التحرشات والمضايقات والتخوفات فإن النجم قد وضع قدمه في الجزائر. وبدأ قادته يخططون لمستقبله وانتشار دعوته[32].

ورغم جهود المنظمين للمؤتمر الاسلامي فإن وحدته سرعان ما تضعضعت . وكان هناك عوامل خارجية وعوامل داخلية أدت الى ذلك . فمن الناحية الخارجية سعت الإدارة الفرنسية في الجزائر ـ وقد رأت شبه الإجماع الذي عليه الجزائريون في موقفهم من فرنسا ـ الى إحداث ثغرة داخل صفوفه فعمدت حسب مختلف الروايات المعاصرة واللاحقة الى تدبير اغتيال المفتي كحول . ومن ثم تشويه سمعة العلماء الذين كانوا عنصراً رئيسياً في حركة المؤتمر . أما من الناحية الداخلية فان تمسك النخبة والنواب بمشروع فيوليت وتحفظ العلماء منه ، وغموض وذبذبة شخصية ابن جلول الذي لم يَنْفِ دور العلماء في حادثة أغتيال كحول، وحل نجم أفريقية

---

(32) عن هذا الموضوع أنظر (مذكرة) ولاية وهران السرية التي كتبت خلال هذه الظروف ، وكذلك ل . مهندس « قلق شمال أفريقية » في (أفريقية الفرنسية) ديسمبر 1936 ص 649 ـ 560 وكذلك نفس المصدر سبتمبر 1935 ص 464 .

الشمالية الذي أعلن عن تأييده لمعظم مطالب المؤتمر، ودخول هذه المنظمة (النجم) في خصام حاد مع الحزب الشيوعي ، وهو أيضاً مشارك في المؤتمر - كل ذلك أدى في نظرنا إلى تدهور سمعة المؤتمر ورجاله . ويمكن أن نضيف إلى ذلك سقوط حكومة الجبهة الشعبية، وعدم تمكن الوفد الجزائري من الحصول على شيء إيجابي من الحكومة الفرنسية بشأن مطالب المؤتمر.

ومع ذلك فإن حركة المؤتمر لم تمت نهائياً الا عشية الحرب الثانية . فقد اجتمعت لجنته التنفيذية خلال يناير 1937 وأعلنت عن تأييدها من جديد لمشروع فيوليت . وفي هذه الأثناء حلت الجبهة الشعبية نجم أفريقية الشمالية وتصلبت في موقفها من قضايا المستعمرات . وبين التاسع والحادي عشر من يوليو سنة 1937 انعقد المؤتمر الاسلامي الثاني في مدينة الجزائر وكان ذلك في وقت خرجت فيه الجبهة الشعبية من السلطة . وقد أعلن المؤتمر الثاني تمسكه بمطالب المؤتمر الأول باعتبارها حداً أدنى ، وطلب المؤتمرون من الشعب الجزائري أن يظل يقظاً ، ومن النواب الجزائريين أن يستقيلوا جماعياً من وظائفهم إذا لم يوافق البرلمان على مشروع فيوليت ، وعبروا عن ثقتهم في الحكومة الفرنسية وفي التجمع الشعبي الذي انبثقت عنه الجبهة الشعبية ، كما طلبوا من الشعب الفرنسي اتقاء الانقسام الخطير بين الجزائريين والفرنسيين . وتزعم بعض الوثائق أن المؤتمرين رفضوا قبول حزب الشعب في هذا المؤتمر[33] .

وعلى أية حال فإن المؤتمر الإسلامي الثاني قد فقد حرارة المؤتمر الأول وشعبيته ، وتوزع زعماؤه الرأي وأصبحوا في حذر حتى من بعضهم البعض . وكان تهديد المعمرين وفشل مشروع فيوليت وتضعضع الجبهة الداخلية قد جعل المؤتمر الثاني نسخة مشوهة لما كان قد حدث في صيف 1936 . ولعل ظروف حركة المؤتمر الإسلامي كلها تظهر في أنها قامت على الآنية في الجزائر وعلى قيام حكومة الجبهة

---

(33) ديبارمي « مساهمة » (أفريقية الفرنسية) ديسمبر 1937 ، ص 560 وكذلك نوشي ص 93 - 94 وأيضاً جوليان 133 . من نشاط المؤتمر الإسلامي أيضاً أن وفداً منه توجه إلى باريس اثر اغتيال الشيخ كحول للتعبير للحكومة الفرنسية عن الولاء المطلق إليها ولشرح الموقف لها والطلب منها بعدم استعمال هذه المناسبة لتأخير الإصلاحات . أنظر نوشي ص 88 .

الشعبية في فرنسا . وهو بالطبع قيام مؤقت عندما نذكر تساقط الحكومات الفرنسية عندئذ .

غير أن أملاً جديداً قد لاح في الأفق لدعاة حركة المؤتمر الإسلامي عندما عادت الجبهة الشعبية إلى الحكم لمدة قصيرة خلال مارس 1938 . وقد صارح ليون بلوم الوفد الجزائري الذي توجه اليه باسم المؤتمر بأنه من « المستعجل الانتظار ! » ثم سقطت حكومة بلوم من جديد وخلفتها حكومة السيد دلادية الذي غمرته قضيّة ميونيخ فلم يفعل أكثر مما فعل سلفه ، وهو بذل الوعود السخية والدعوة العاجلة إلى الانتظار . وعلى أية حال فإن أنصار حركة المؤتمر الاسلامي قد أرسلوا وفداً آخر عنهم إلى باريس . وخلال مقابلة الوفد لرئيس الوزراء دلادية أجابهم هذا بأن « البرلمان معارض لمشروع فيوليت ولا يظهر عليه أنه يعتبر المواطنة الفرنسية تتناسب مع الحالة الشخصية الاسلامية . وأمام هذا الوضع فإنني لا أستطيع أن أقول أي شيء إنني أسألكم أن تعينوني على الإبقاء على النظام ، ولا تضطروني إلى استعمال القوة التي تملكها فرنسا لأن فرنسا أمة قوية » وقد رد عليه عباس ، فيما يقال ، بأن الحكومة الفرنسية تتحمل مسؤولياتها أمام التاريخ وأن احترام حق الفرد أكثر أهمية من أفضل الأسلحة . أما ابن باديس فقد رد فيما يقال أيضاً على رئيس الوزراء الفرنسي بما يلي «ليس هناك سلطة ولا قوة سوى سلطة وقوة اللّه . فقضيتنا عادلة ، وسنواصل الدفاع عنها ضد كل من يقف في طريقها »[34] .

عندئذ عاد فرحات عباس إلى الشعب فكون حزبه الذي سمّاه (حزب الاتحاد الشعبي) وانفصل ابن جلول وكون حزباً دعاه (التجمع الفرنسي ـ الإسلامي) وخاب أمل ابن باديس في ديمقراطية فرنسا ، فرفض باسم جمعية العلماء الإعلان عن تأييد فرنسا في الحرب العالمية المقبلة . أما مصالي فقد قيد إلى السجن هو وعدد من رفاقه . وهكذا فشلت حركة المؤتمر الإسلامي التي كانت تعبيراً أيضاً عن فشل سياسة فرنسا في الجزائر[35] .

---

(34) عباس ص 132 ـ 133 .

(35) يمكن أن نذكر هنا من إيجابيات المؤتمر الإسلامي أنه جعل القيادات السياسية تتضح بالجزائر ، وقد تشجع النخبة على خوض المعركة السياسية إذا اقتضى الأمر وتوحيد الصفوف مؤقتاً بين اتجاهات كانت تبدو متناقضة » . أنظر بهذا الصدد أيضاً أرون ص 71 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل السابع

الجزائر والحرب العالمية الثانية
1939 - 1942

. عندما بدأت الحرب العالمية الثانية في نهاية صيف عام 1939 كانت فرنسا ضعيفة في بلادها وفي الجزائر . فلا حكومة قوية ولا جيش على أهبة الاستعداد معنوياً . ورغم التحصينات على الحدود الشرقية فإنها لم تجد فتيلاً أمام تقدم قوات هتلر الخاطفة . كما لم يجد فرنسا تحالفها مع بريطانيا التي كانت هي الأخرى ضعيفة سياسياً قبل تولّي تشرشل الحكم . أما في الجزائر فإن فرنسا لم تستطع أن تجد حلاً لمشاكلها أيضاً ، فالأحوال الاقتصادية كانت تنذر بالمجاعة ومطالب الوطنيين بالمساواة في الحقوق وإلغاء القوانين الاستثنائية لم تجد أذناً صاغية في البرلمان الفرنسي . كما فشلت مشاريع الإصلاح التي تقدم بها بعض الفرنسيين مثل مشروع فيوليت .

لذلك واجهت فرنسا الحرب بالجزائر وهي أبعد ما تكون عن الولاء الحقيقي ، فقادة حزب الشعب الجديد كانوا في السجون ، وحزبهم قد صدر قرار بحلّه ، كما صدر قرار بحلّ منظمة الشيوعيين . وجمعية العلماء بالرغم أنه لم يصدر قرار بحلّها ـ لأنها في الظاهر غير سياسية ـ فإنها رفضت الإعلان عن تأييد فرنسا في الحرب . واندفع النواب والنخبة بحكم وظائفهم الرسمية إلى تأييد فرنسا « الديمقراطية » ضد ألمانيا «النازية» ، فتطوع زعماؤهم لخدمة الحرية والديمقراطية اللتين درسوهما في المدارس الفرنسية ولكنهم لم يعرفوهما في التطبيق . وهل نحن في حاجة إلى التذكير بأن رجال الدين الرسميين قد أعلنوا عن ولائهم لفرنسا أيضاً ؟ فقد جاءت البرقيات ، بوحي من السلطة الفرنسية طبعاً ، تعلن فتوى رجال الدين (المفتيون ـ القضاة ـ العدول ـ المرابطون . . إلخ) الرسميين بوجوب الحرب مع فرنسا شرعاً ! وكان هذا هو عربون الولاء الذي حصلت عليه فرنسا من الجزائر .

وقد اعتاد الفرنسيون أن يعلنوا ـ كلما حزبهم أمر ـ (مثلاً حرب 1870 ، حرب

1914 . . الخ) أن الجزائريين مخلصون لهم ، مستشهدين على ذلك بما يردهم من تأييد من بعض الأسر الكبيرة ورجال الدين الرسميين ، وأصحاب الأوسمة والشهادات ، وقدماء المحاربين ، وطائفة القياد والباشاغوات وشيوخ العرب . وهؤلاء هم الذين كانوا الواسطة بين فرنسا والشعب ، وهم الذين يمثلون أيضاً الحاجز بينها وبين الجماهير . ولا يستثني الفرنسيون من ذلك إلا بعض المشاغبين (الذين هم الوطنيون) وهؤلاء يكفي لإسكاتهم ، في نظر الفرنسيين ، وضعهم بالسجن وإلصاق تهمة عداوة فرنسا بهم . وهذا ما حدث سنة 1939 . فالمجندون الجزائريون حملهم الفرنسيون إلى الجبهة الأوروبية لأنهم لا يثقون في بقائهم في الجزائر نفسها ، وتطوعت النخبة والنواب وقدماء المحاربين وأعلن الموظفون الرسميون تأييدهم لفرنسا، أمّا الوطنيون فقد زج بهم في غياهب السجون. وهكذا ادّعى الفرنسيون أنه بمجرد وصول أخبار دخول فرنسا الحرب أجاب الجزائريون « جماعياً وبإخلاص » عن استعدادهم للدفاع عن فرنسا . وبهذه المناسبة ألقى السيد لوبو ، الحاكم العام ، كلمة بالراديو الجزائري وجهها إلى سكان الجزائر وصف فيها عملية الاستنفار بأنها «مثيرة للإعجاب » معلناً عندئذ « ان عملية الاستنفار في جزائرنا تجري بطريقة تثير الإعجاب في نظامها وانضباطها »[1] .

ورغم ضعفها فإن فرنسا كانت ما تزال خلال 1939 ـ 1940 تثير عند بعض الجزائريين الإعجاب والاحترام ، وعند البعض الكراهية والإنتقام . ذلك أن عيوب ضعفها لم تكن قد ظهرت للعيان ، فهي في الميدان تحارب ولها حلفاء ومستعمرات وتقنية. وهي اقتصادياً ما تزال بمواردها وأسواقها سيما في عهد حكومة بول رينو. ومع كل هذه الإيجابيات الظاهرية في هذه المدة، فإن ردود فعل الجزائريين كانت محل خلاف بين الكتّاب . فالسيد فرحات عباس الذي كان معاصراً للأحداث ، يشهد بأن الجزائريين كانوا « قلقين » من جرّاء ما كان يحدث في فرنسا ـ ولا سيما عندما عرفوا أن حكومة السيد بول رينو أعربت عن استعدادها سنة 1940 للتنازل عن تونس في مقابل حياد إيطاليا[2] ويذكر كاتب آخر أن الجزائر كانت تبدو هادئة عند بداية

---

(1) ج . ل . ل . «شمال أفريقية والحرب» (أفريقية الشمالية) أغسطس ـ سبتمبر 1939 ص 412 قارن كلمة لوبو بكلمة لوتو أثناء الحرب الأولى .

(2) عباس ، ص 137 .

الحرب ، وكانت شبه خالية من الجنود ، ولكن مستقبلها كان « غير واضح » .

وعلى كل حال فإن الجنود الجزائريين قد انضموا إلى وحداتهم بدون أي حادث يذكر . ومن جهة أخرى تطوع فرحات عباس كصيدلي احتياطي دفاعاً عن الحرية . أمّا مصالي فقد كتب مقالاً في جريدة (الأمة) هاجم فيه الاستعمار الفرنسي ووعد بأنه سيستمر في عدائه لفرنسا لأن شمال أفريقية ليس له شيء مشترك مع فرنسا . ومن أجل ذلك أعيد إلى السجن بعد أن كان خرج منه[3] أما السيد جوليان فيقول ان كلاً من حزب الشعب والعلماء كانوا ينادون بالاستقلال عندما إندلعت الحرب . ولكنهم لم يستطيعوا وضع برنامج موحّد . أما النخبة المتطورة فقد خابت آمالها في الإصلاحات ، ولكنها ظلت في انتظار الساعة التي تنهزم فيها فرنسا لتستأنف مطالبها حسب الوضع الجديد . وكان المعمرون هم الذين عرقلوا إدماج الأهالي بطريقة سلمية ونظامية . وبذلك سهلوا الطريق أمام الوطنية الجزائرية التي ستأخذ منعرجاً جديداً[4] .

لكن سقوط فرنسا أمام ضربات ألمانيا في يونيو 1940 قد أدّى إلى تعرية كثير من الحقائق وتوضيح الغوامض في العلاقات بين الجزائريين والفرنسيين . فقد سقط مع ذلك جدار الورق الذي طالما أحاطت به فرنسا نفسها حتى توهّم الجزائريين بأنها لا تغلب وأن جيشها معزز بالعناية الإلهية ! ، وكان ذلك كفيل لإيقاظ بقية الجزائريين الذين كانوا ما يزالون يعتقدون في فرنسا . بالإضافة إلى أن الدعاية التي كانت الجزائر مسرحاً لها سواء من المحور (ألمانيا ـ إيطاليا) أو من الحلفاء (روسيا ـ بريطانيا ـ ثم أمريكا) قد أدّت أيضاً إلى إيقاظ الغافلين وإقناع المترددين .

حقاً إننا إلا نجد ثورة شعبية أو حركة منسّقة من الجزائريين خلال عهد حكومة فيشي (المارشال بيتان) فالحكام العامون عندئذ وهم : ويقان ، أبريال ، شاتيل ، قد استعملوا تأثير المرابطين والعائلات الكبيرة والموظفين الرسميين لتنويم الجماهير[5]. وهناك من يرجع هذا التنويم إلى شخصية بيتان، رغم أنهم يعترفون بأن

---

(3) مارتن ، ص 290 ـ 291 ، وكذلك أرون ص 78 ، يقول هذا المصدر أن عباس كان برتبة (سرجان) في المصلحة الصحية .

(4) جوليان ص 137 ، أنظر أيضاً نوشي ص 126 ـ 127 .

(5) جوليان ، ص 280 .

« خبر هزيمتنا قد وقع موقع الصاعقة » في الجزائر . فالمرشال بيتان زعيم حكومة (الثورة القومية) في فرنسا المنهزمة كان في نظر هؤلاء كما كان نابليون الثالث في نظر الجزائريين . فهو بطريقته الأبوية وبروحه البرويتانية قد جلب إليه تضامن الأغلبية معه في الجزائر ، لذلك تمتع بين سكان الجزائر (جزائريين وفرنسيين) « بشعبية حقيقية »[6] غير أنه إذا صح هذا بالنسبة إلى الجماهير فإنه لا يصح مع قادة الرأي من الجزائريين الذين سنعرف بعد قليل أنهم وقفوا منه غير ذلك الموقف.

ومهما تكن شعبية بيتان وسط الجماهير الجزائرية ، فإن الذي لا شك فيه هو أن الفوضى التي حلّت بالفرنسيين عقب وقف القتال مع الألمان وتبديل الحكام العامين في الجزائر (ثلاثة في ظرف سنة) والدعايات المتضاربة كانت كلها لا تدل على حالة الاستقرار ولا على ثقة متبادلة . ففي السابع عشر من يونيو 1940 أذاع بيتان على الراديو بنود وقف القتال ، ولم يوضح ما إذا كان ذلك سيطبق على الجزائر وشمال أفريقيا أيضاً . وفي اليوم التالي وجّه ديغول ، زعيم لجنة فرنسا الحرة ، نداء ضد وقف القتال . أما الصحافة المحلية الفرنسية ، فقد أشارت إلى أن الحرب مستمرة ضد ألمانيا وإيطاليا في شمال أفريقية بقيادة الجنرال نوقيس . ولكن هذه الحالة من الفوضى قد انتهت عندما أوضحت باريس أن الجزائر داخلة في منطقة وقف القتال، وأرسلت من أجل ذلك الأدميرال أبريال ليحل محل لوبو ، كحاكم عام على الجزائر باسم بيتان[7] . وقد عقد أبريال ندوة صحفية في الجزائر أعلن فيها أن ولاء الجزائر لحكومة بيتان لا يحتاج إلى بيان ، وأنها (الجزائر) لا علاقة لها بالمتمردين (يعني أنصار ديغول) ، وأن الجزائريين والمعمرين متعايشون بدون شعور عنصري[8].

ولكن أبريال سرعان ما طلب التقاعد بحجة وفاة والده وترك مكانه للجنرال ويقان الذي أصبح يحمل لقب « ممثل عام للحكومة في أفريقية الفرنسية » بالإضافة

---

(6) أرون ، ص 78 ـ 79 .

(7) نوشي ص 126 .

(8) (النيويورك التايمز) 9 فبراير 1941 ، ص 9 من مراسلها في الجزائر جي آلان ، وكان ابريال يبلغ 62 سنة . وكان من ضباط فرنسا في دينكرك وقائد قواتها الشمالية خلال يونيو 1940 ، وقد أصبح حاكماً عاماً على الجزائر في 18 يونيو 1940 .

إلى منصب حاكم عام الجزائر . والمعروف أن ويقان كان مسؤولاً على ضياع سورية من فرنسا ، وقد جاء إلى الجزائر ليحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الإمبراطورية الفرنسية ، ولذلك لا نستغرب أن يركّز الفرنسيون ، بعد ضياع سورية من أيديهم على الجزائر خوفاً من انهيار سمعتهم تماماً ، سيما بعد أن كانت الصحافة الفرنسية في باريس والرأي العام هناك ينتقد بشدة موقف الحكومة من سورية ، وهو الموقف الذي فسّر بأنه نتيجة ضعف الدفاع عنها[9] . وكان مساعد الجنرال ويقان في إدارة الجزائر هو السيد شاتيل ، الذي أصبح بدوره حاكماً عاماً ابتداءً من نوفمبر 1942[10] .

وقد اعترف ويقان في مذكراته بأن الجزائر كانت خلال عهده مسرحاً للدعاية الألمانية وغيرها من الخارج والدعاية الإسلامية من الداخل ، ورغم أنها كانت محمية من تونس والمغرب (الفرنسيتين) فإن الأعداء كانوا يقومون بدعاية تخريبية ضد الوجود الفرنسي ، بما في ذلك بعض الفرنسيين الذين لهم مصالح خاصة في لعبة الأوراق السياسية . أما الألمان فقد أطلقوا سراح الجنود الجزائريين وأرسلوهم ، حسب رأيه، إلى الجزائر للدعاية لهم بعد أن دربوهم على ذلك. وقد وجد هؤلاء الجنود « الأرض الصالحة » لهذه المهمة في الجزائر . وكانت الدعاية الداخلية ، حسب رأيه أيضاً ، تتمثل في قيام الأحزاب الإسلامية « المتطرفة » وغيرها من جماعات المسلمين الذين كانوا يشكون من القوانين الاستثنائية التي سلطتها ضدهم فرنسا[11] .

والحديث عن الدعاية الألمانية ودول المحور عامة خلال هذه الفترة غير مقصور على الجنرال ويقان . فقد ذكر السيد ـ غازانيو أن الألمان قد خصصوا حصصاً بالعربية في راديو برلين وراديو باريس الدولي ، وأن الأهالي كانوا حريصين على الاستماع إليها . وقد أعلنوا في إذاعة باريس بالذات التي افتتحوها في العشرين من يوليو 1940 « إن أصوات المسلمين في شمال أفريقية التي طالما خنقتها فرنسا سيكون في مقدورها منذ الآن أن تكون مسموعة من باريس عاصمة فرنسا نفسها ، ويذكر نفس

---

(9) نفس المصدر 17 يوليو 1941 ، ص 3 .
(10) نوشي ، ص 126 ـ 127 .
(11) م . ويقان ، (مذكرات) فلاميرون ، 1950 ، ص 372 .

المصدر أن دول المحور قد أحرزت على سمعة كبيرة وسط الأهالي بما حققته من نجاح . وهذه السمعة التي تمتعوا بها هي التي جعلت الأهالي يتسترون على الجنود الألمان ويخفونهم مدة سبعة أشهر أحياناً بدون الوشاية بهم إلى السلطات الفرنسية ، كما حدث في جهة عنابة وجهة المنصورة[12].

وأثناء عهد حكومة فيشي انتشرت في الجزائر أيضاً الدعاية لدول المحور من الفرنسيين أنفسهم ، لا سيما المعمرون . فقد ظهرت صحائف ذات اتجاه جديد بين 1940 ـ 1942 ، كانت في نغمتها تدعو بالنصر لقوات المحور ، وتشيد « بالنظام الجديد » الذي يمثله هتلر ، وتستنكر أعمال « الديموقراطيات الرأسمالية » (بريطانيا وأمريكا) الضالعة في ركاب « البولشيفية » . ومن صحافة المعمرين في الجزائر خلال هذا العهد (لا ديبيش الجيريان) ، (ديرنيير نوفيل) و (روفيه بونوا) ، (لافوا دي كولون)،وكانت هذه الصحف وغيرها تنشر أخباراً بارزة عن الألمان وبيتان وشعارات الدولة الفرنسية وتنتقد اليساريين والإنكليز . ومن جهة أخرى أخفى المعمرون في الجزائر الحروف التي ترمز « للجمهورية الفرنسية » (ر. ف.) وعلقوا صور المارشال بيتان في البلديات[13] . ويذكر فرحات عباس أن 80٪ من المعمرين الفرنسيين في الجزائر كانوا موالين لحكومة فيشي (والألمان) وكان همهم الوحيد عندئذ ، كما كان في السابق ، الاحتفاظ بالجزائر تحت سلطتهم ، وكانوا يستقبلون أعضاء لجنة وقف القتال بالشامبانيا في الفنادق والفيلات . وقد ظهر منهم أغنياء حرب خلال هذا العهد ، كما ظهرت فيهم روح التمرد على حكومة باريس حتى أن الحاكم العام ، لوبو ، منع مقالاً لهم من الظهور سنة 1940 جاء فيه « لقد ارتكبت فرنسا أخطاء ، وعليها وحدها أن تدفع الثمن . ولسنا على استعداد لدفعه بدلها »[14].

ورغم أن خطة تقسيم الجزائر على الدول الأوروبية كانت مطروحة ، فإن

---

(12) أرون ، 155 ـ 156 أنظر أيضاً ساراسين ، ص 199 .

(13) نوشي ، ص 126 ـ 128 وكذلك (النيويورك تايمز) ، 4 نوفمبر 1946 ، ص 16 وعباس ، ص 133 . وتذكر الجريدة المذكورة أن ملاك الجرائد الموالية للألمان وبيتان دافعوا عن أنفسهم بعد الحرب بأنهم ظلوا يصدرونها بعد نزول الحلفاء في الجزائر، وقالوا بأنهم ضد الشيوعية ولذلك صودرت جرائدهم وأنهم لذلك ليسوا خونة .

(14) عباس ، ص 138 ـ 144 .

حكومة فيشي قد قامت في الجزائر ببعض الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية جديرة بالذكر . فقط طرح الألمان فكرة تقسيم الجزائر هكذا : منطقة قسنطينة مع تونس تعطى لإيطاليا ، ومنطقة وهران تعطى لإسبانيا ، أما منطقة الجزائر العاصمة فتحتفظ بها فرنسا . ومع ذلك احتفظت حكومة فيشي بـ 45000 جندي في الجزائر . وكان هذا العدد كافياً للإبقاء على الأمن والنظام . ووضعت خطة أيضاً لتصنيع شمال إفريقية بمشاركة ألمانيا، وشرعت في البحث عن البترول في الصحراء وعن الفحم. وكانت هناك محاولات لزراعة القطن ومد خط حديد عبر الصحراء يربط سهل نهر النيجر بالبحر الأبيض . وأخطرت الحكومة بنك الجزائر أن يرفع العملة الورقية التي يصدرها من ثلاثة إلى عشرة مليارات فرنك[15] .

ومن جهة أخرى ألغت حكومة فيشي قرار كريميو (الوزير الفرنسي اليهودي الذي جنس يهود الجزائر دفعة واحدة سنة 1871) ورجع يهود الجزائر بذلك كما كانوا، رعايا فرنسيين كالمسلمين الجزائريين . وقد رحب معظم المعمرين بهذا الإجراء ولا سيما أولئك الذين كانوا يعتبرون من أعداء السامية مثل السيد إيميل مورينو ، نائب شيخ بلدية قسنطينة ، الذي وافق بدون تحفظ على ذلك ، رغم أنه كان مدة طويلة ينجح في الانتخابات بواسطة أصوات يهود قسنطينة[16] . أما بالنسبة للأهالي فسنرى أن حكومة فيشي قد اضطهدت زعماءهم وحرمتهم من المواد الاقتصادية الأولية التي تنتجها بلادهم . لذلك دخلت البلاد في أزمة اقتصادية حادة . قد ألغت هذه الحكومة نظام الانتخابات الذي كان جارياً في الجزائر كما وضعت كل مشاكل السياسة الداخلية المتعلقة بها على الرف ، بما في ذلك مشكل التمثيل البرلماني للأهالي[17] .

---

(15) نفس المصدر ، ص 138 ومجلة « اكونوميست » 21 نوفمبر 1942 . ص 636 و (مدخل ـ الشرق الأوسط في الحرب 1939 ـ 1946) . ص 407 .

(16) عباس ، 138 ـ 139 ويرى المؤلف أن هذا الإجراء كان « رجعياً » و « غير عادل » أنظر أيضاً نوشي ، ص 129 ، وبناء عليه فإن هذا الإجراء قد جعل تلاميذ وطلاب يهود الجزائر يعانون ، وقد اتخذ قرار الإلغاء بتاريخ 8 أكتوبر 1940 ، أي بعد أقل من أربعة أشهر من حكم فيشي .

(17) أنظر نشرة (فرنسا الحرة) بالانكليزية ـ جـ 5 ، عدد 8 (أبريل 1944) ، ص 293 .

لم تكن حكومة الثورة القومية لفيشي على علاقة طيبة مع روسيا الشيوعية ولذلك اضطهدت أيضاً الشيوعيين في الجزائر واتهمتهم بالعمل المضاد لها . فقد حلت الحزب الشيوعي رسمياً ، لذلك كان نشاط أعضائه ضعيفاً خلال 1940 ـ 1942 ، وقد لجأ الشيوعيون إلى العمل السري . ولكنهم كانوا في الجزائر خاصة ، « شديدي الاحترام للقانون » حسب تعبير أحد الكتاب[18] ورغم ذلك فقد اعتقلت حكومة فيشي بعض الشيوعيين وأحضرتهم أمام المحكمة العسكرية بتهمة محاولة تنظيم هيئة منحلة ، ومضادة الاتجاه الذي تقوم هي عليه[19] ولم يستأنف الشيوعيون نشاطهم إلا في نهاية سنة 1942 ، بعد نزول قوات الحلفاء ، رغم أن الوطنيين الجزائريين لم يسمح لهم بذلك .

من هؤلاء أعضاء حزب الشعب الجزائري الذين اضطهدتهم الإدارة الفرنسية في الجزائر سواء كانت إدارة حكومة الجمهورية الثالثة أو حكومة فيشي . فخلال 1939 ـ 1940 قرر الجنرال نوقيس ، قائد القوات الفرنسية في شمال إفريقية سجن أعضاء الحزب ومنهم مصالي ، لقيامهم بنشاط مكشوف معاد لفرنسا. ومن ذلك حسب هذا المصدر ، أنهم كانوا يندسون في الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي ويعملون على إضعاف روحهم المعنوية ويحرضونهم على العصيان وعدم المشاركة في الحرب ضد السوريين في الشام . ويذكر مصدر آخر أسماء عدد من أعضاء الحزب الذين ألقي عليهم القبض في الرابع من أكتوبر 1939 وهم مصالي وبومدين معروف ، وعمار بوجريدة وخليفة بن عمار ، ومفدي زكريا ، والشاذلي المكي ، ومحمد فليته ، وقدور التركي ، ابن العقبي ، ومحمد خيضر ، وبومعزة علاوة ، وميمشاوي محمد . وكانت هذه المتابعة من الإدارة كافية بأن تجعل حزب الشعب ينقل نشاطه من العلنية إلى السرية ، بالإضافة إلى أن السلطات الفرنسية كانت قد أعلنت عن حل الحزب منذ بداية الحرب كما أشرنا[20] .

---

(18) ساراسان : 126 ـ 127 .

(19) (النيويورك تايمز) ، 30 أغسطس 1941 ، ص 3 .

(20) أنظر ساراسين ، ص 151 وكذلك (مدخل 1939 ـ 1946) ص 405 كما نقله جورج كير ، الذي أضاف بأن أعيان الجزائر كانوا ينادون بفرنسا بينما هذه كانت تعامل الوطنيين باضطهاد . أنظر أيضاً عباس ، ص 201 ـ 202 وقد أضاف عباس بأن الفرنسيين أطلقوا في بداية الحرب بعض أعضاء =

أما حكومة فيشي فقد حاولت في أول الأمر أن تسلك سياسة الوفاق مع حزب الشعب. وعندما لم تنجح لجأت إلى المعاملة القاسية لأعضائه، فقد جرت اتصالات مرتين بمصالي « أحداهما في نوفمبر 1940 ، والثانية في مارس 1941 » لمحاولة التفاهم معه على أساس « التعاون على قدم المساواة بين الفرنسيين والمسلمين بشرط أن يتخلى عن المطالبة بالاقتراع العام والبرلمان الجزائري . . . » وغيرها من مطالب الحزب الأساسية . وعندما رفض مصالي هذا العرض قدم للمحاكمة العسكرية . وبدلاً من مصالي اختار الفرنسيون أربع شخصيات من أعيان الجزائر وعينوهم بقرار في 25 مايو 1941 ليكونوا في المجلس الوطني الإستشاري ، الذي كان يتبع حكومة فيشي[21] . ويزعم أحد الكتاب أن السلطات الفرنسية كانت على علم بنشاط حزب الشعب السري ولكنها عاملت أعضاءه على أنهم أناس مخدوعون . فاكتفت بسجنهم لأنها لم تكن تعتقد في أنهم يشكلون خطراً عليها[22] . ولسنا ندري ماذا يعني الكاتب بالخطر ولكن الذي لا شك فيه هو أن حكومة فيشي لو لم تشعر بخطورة حزب الشعب لما حاولت التفاهم معه ولما لجأت إلى سجن أعضائه والحكم على رئيسه أحكاماً قاسية، كما سنرى .

وعلى أية حال فإنه نتيجة نشاط أعضاء حزب الشعب وأمثالهم من الوطنيين حدث تمرد في ضاحية الحراش ، قرب العاصمة ، يوم 25 يناير 1941 ، قام بهذا التمرد فرقة الرماة التابعة لفيلق المشرق الذي يضم ، حسب تعبير أحد الكتاب عناصر معروفة بالصلابة والعناد[23] . ورغم أن ظروف هذا التمرد وتفاصيله ما تزال غامضة فإن محاكمات أعضاء حزب الشعب بعد ذلك بقليل تدل على أنه قد يكون لهم ضلع فيه . وقد أسفر التمرد عن مقتل عدد من الفرنسيين تجاوز العشرة . ويذكر مصدر آخر أن التمرد قد أدى إلى تقديم تسعة جنود ومدني واحد إلى المحكمة العسكرية

حزب الشعب ولكن بعد « عملية غسل المخ » . ومن أخبار الشاذلي المكي أنه كان رئيساً (لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين) ، بتونس سنة 1936 . أنظر جريدة (البصائر) ، عدد 44 ، نوفمبر 1936 .

(21) مدخل ، 1939 ـ 1946 ، ص 409 .

(22) ساراسان ، ص 151 .

(23) أرون ، ص 79 .

وإصدار أحكام قاسية ضدهم بتهمة المشاركة في الاضطرابات التي أدت إلى تظاهر الجنود وقتل ستة أشخاص . لكن هذا المصدر قد لاحظ أن أسباب التمرد لم يعلن عنها من الفرنسيين[24] ونعتقد أن هذه المحاكمة كانت للمشاركين في تمرد الحراش رغم الخلاف في نتائج الحادث . والمعروف انه قد حدثت عندئذ أزمة حادة في حزب الشعب . فقد رأى بعض أعضائه ضرورة التعاون مع الألمان لتحرير الجزائر ، ولكن مصالي عارض ذلك بشدة لأنه لم يكن يثق في الألمان أيضاً . وكانت النتيجة فصل المنشقين من الحزب .

وبعد شهر فقط من تمرد الحراش ، وفشل محاولة التفاهم الثانية مع مصالي قدم هذا للمحاكمة أمام محكمة عسكرية في الجزائر ، وقد صرح مصالي أمام القضاة بأن حزبه « يرغب في المساواة المطلقة واحترام تقاليدنا ، ولغتنا ، وديننا ونحن لا نريد الإنفصال عن فرنسا ولكن نريد التحرر باعانتها في إطار السيادة الفرنسية ، وأعلن عن أمله في إحداث تغييرات جديدة وعلاقات جديدة مع فرنسا » وختم مقالته بهذه العبارة « وإن ما نرغب فيه هو خلق تعاون حقيقي » بين الجزائر وفرنسا . ومع ذلك حكمت عليه المحكمة بست عشرة سنة سجناً مع الأشغال الشاقة، وعشرين سنة نفياً من الجزائر ، وثلاثين مليوناً من الفرنكات غرامة ، مع مصادرة أملاكه الشخصية[25] . وقد شملت المحاكمة أيضاً بعض أعضاء الحزب الذين ذكرنا أسماءهم .

وكانت ردود الفعل على محاكمة مصالي وأعضاء حزبه سريعة ومكشوفة رغم ظروف الحرب التي كانت تبرر كل إجراءات التعسف بواسطة الشرطة العادية التي أضيف لها الأمن العسكري ، واستعمال السجن والمحتشدات ، والإقامة الجبرية في المنازل ، ونحوها . وأول رد فعل هو مضاعفة أعمال الحزب السرية وإنشاء إدارة

---

(24) (النيويورك تايمز) 4 فبراير 1941، ص 4 في نفس هذا العام أعدم السيد محمد بوراس، وهو أحد الجزائريين الذين اتهمتهم مصالح الفرنسيين بإعطاء وثائق سرية إلى الألمان أنظر جوليان ، ص 280 .

(25) أرون ص 79 وكذلك عباس ، ص 137 ـ 138 ، 202 ويذكر عباس أن تاريخ المحاكمة كان 28 مارس 1941 بينما يذكر جوليان ، ص 277 أنها كانت في 17 مارس ، كما يذكر عباس أن الذي تولى الدفاع عن المتهمين هو السيد بومنجل .

جديدة سرية أيضاً له لكي تسير الأمور في تلك الظروف الصعبة . ذلك أن الزعماء البارزين للحزب أصبحوا لا يستطيعون القيام بنشاطهم العادي لأن الشرطة تعرفهم أو لأنهم في السجون والمنافي . ومن الأسماء التي ظهرت في التنظيم السري الجديد : أحمد مزغنة ، وأحمد بودة ، وحسين عسلة ، والدكتور الأمين دباغين ، ومقري حسين ، ومحمد طالب[26] .

وكان الحزب خلال ذلك يقوم بدعاية واسعة وسط الجنود ، والأهالي ، والمناضلين المساجين . وكان يوزع سرياً عدة وثائق ونشرات من بينها نشرتا : العمل الجزائرية (لاكسيون الجيريان) و (صوت الأحرار)[27] وكان أنصار الحزب يلصقون بالجدران العبارات المعادية لفرنسا والمطالبة بتحرير مصالي وغيره من أعضاء الحزب مثل « الجزائر للجزائريين ! ويعيش مصالي ! وهذه الموجة من ردود الفعل المنسقة هي التي جعلت وإلى إقليم الجزائر يكتب هكذا ، « إن الحكم على مصالي قد مس أخيراً قدماء المناضلين في حزب الشعب الجزائري . . . والمستقبل وحده هو الذي سيحكم ما إذا كان قرار المحكمة سيعطي المصاليين مجداً جديداً ببلورة شعور المرارة والغضب لدى أعضاء حزبه ضد الفرنسيين[28] ». وقد دامت معاملة حكومة فيشي لحزب الشعب معاملة سيئة استعمل فيها كل طرف ما عنده من وسائل : الحكومة استعملت المنع الإداري والمحاكمة والسجن والنفي والإقامة الجبرية وغيرها ، والحزب استعمل الدعاية المضادة لفرنسة والدعوة إلى العصيان وإضعاف الروح المعنوية لدى الجنود الجزائريين وتنظيم الجبهة الداخلية[29] .

ولكن عهد فيشي ، بالرغم من أنه كان عهد اضطهاد وأزمة اقتصادية وعدم تأكد من مستقبل الجزائر ، كان أيضاً عهد مخاض سياسي بالنسبة للحركة الوطنية ومرحلة انتقالية لها . ذلك أن فترة سيطرة المعمرين وحكم فرنسا الديمقراطية القوية قد ولى وحل محله تذبذب المعمرين بن بيتان وديغول وتضعضع سمعة فرنسا التي أصبحت

---

(26) عباس ص 202 ، 204 .

(27) نوشي ، ص 130 .

(28) أرون ، ص 79 .

(29) في 24 أبريل 1942 أخرج مصالي من السجن ووضع تحت الإقامة الجبرية في قصر الشلالة . وفي 30 أبريل 1945 نفي إلى برازافيل (الكونغو الشعبية) ، أنظر جوليان ص 277 .

محتلة من جيوش النازية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك دعاية قوية من الحلفاء انفتحت عليها الجزائر ، فقد كان التحالف البريطاني الأمريكي ثم الروسي وظهور فكرة الميثاق الأطلسي ، وصوت فرنسا الحرة المنطلق من بريطانيا ، وكل هذه كانت تدور في اتجاهات متناقضة . لذلك أصبحت أحاديث الناس في السجون والمقاهي ، في الأسواق والملاهي ، في المعاهد والثانويات ، تدور حول هذه التطورات . وكان الوطنيون المنبثون في كل مكان يتناقشون ويخططون ، يتتصرون لهذا أو لذاك ويدرسون طريق المستقبل . وقد بدأت في الظهور أسماء جديدة وسط تيار الحركة الوطنية كان أصحابها ما يزالون في مرحلة الدراسة والعمل داخل صفوف حزب الشعب. منها أسماء محمد يزيد، وسعد دحلب، وابن خدة بن يوسف، وعبان رمضان . وهكذا بدأ التوازن القديم يختل في العلاقة بين المستعمر والمستعمر ، وبالخصوص منذ 1941[30] .

ففي العاشر من أبريل سنة 1941 ظهر فرحات عباس من جديد على المسرح السياسي عندما أرسل رسالة في شكل برنامج عمل إلى المارشال بيتان ، مقترحاً عليه فيها مجموعة من الإصلاحات التي رآها ضرورية في الجزائر، وقد عرفنا أن عباس كان قد تطوع عند اندلاع الحرب دفاعاً في نظره، عن الديموقراطية والحرية معتقداً أن فرنسا رمز لهما. ولكنه عاد إلى السياسة عندما وجد التفرقة العنصرية في الجيش الفرنسي، فقد كان لا يعطى نفس الخبز الذي يعطاه زملاؤه الصيادلة الفرنسيون في هذا الجيش ، وكان يعامل كاهلي لا كمواطن . ورغم أن عباس لم يقف موقف المعارض لنظام فيشي كما فعل مصالي وأعضاء حزب الشعب فإنه قد بدأ منذ ربيع 1941 يحدد معالم طريق جديدة ستقوده بعد حوالي سنة فقط إلى وضع (البيان الجزائري) المشهور .

تحدث عباس في رسالته إلى بيتان عن جزائر الغد كما كان يتصورها وانتقد بشدة النظام الإستعماري الذي خضعت له الجزائر منذ أكثر من قرن ، واقترح لذلك مجموعة من الاقتراحات رآها كفيلة بتصحيح الأوضاع . ويلاحظ على لهجة هذه الرسالة أنها كانت أكثر حدة من لهجة المطالب التي تقدم بها المؤتمر الإسلامي والوفود التي عبرت البحر باسمه إلى فرنسا . ومما جاء في هذه الرسالة أن فرنسا قد

---

(30) عباس ، ص 135 ، 203 .

طورت الجزائر بادخال النظم الحضارية ولكنها أهملت الأمر الضروري في عملية التحديث والتطوير وهو الشعب ، فإلى جانب الأراضي الأوروبية التي تعمل عليها إطارات أوروبية في الجزائر يعيش ستة ملايين جزائري مسلم (شرقيين) لم يستفيدوا من الحضارة الحديثة .

ولكي تتم عملية تطوير وتحديث الشعب الجزائري اقترح عباس قائمة من الإصلاحات من بينها : إنشاء بنك للفلاحين تشرف عليه لجان زراعية مهمتها مساعدة الفلاحين الجزائريين ، وتأميم الشركات الكبيرة وتوزيع الأراضي التابعة لها على الفلاحين، وتطوير التربية ونشرها لأن بدونها لا يمكن تحقيق إصلاحات جدية ، وإصلاح نظام البلديات بجعله قائماً على الدوار (نقطة سكنية أهلية) وإلغاء النظام العسكري في الجنوب ، والمساواة في الخدمة العسكرية ، والمساواة في معاملة الموظفين الجزائريين ، وخلق وسائل العمل للعمال الزراعيين ، وزيادة عدد الولايات (كانوا ثلاثة فقط) وفروعها ، والغاء الحكومة العامة في الجزائر . لكن رد بيتان على هذه الرسالة كان غامضاً ولم يعد صراحة بإدخال الإصلاحات المذكورة[31] .

كانت الحركة الوطنية خلال 1940 ـ 1942 تفتقر إلى قيادة . فقد مات ابن باديس الذي كان محل تقدير الجميع تقريباً . ودخل مصالي السجن والمنفى ، وفقد الناس الثقة في ابن جلول الذي كان غامضاً متذبذباً في مواقفه خلال الثلاثينات ، وتطوع عباس في الجيش ، وهو لم يكن قد صعد بعد إلى منصة المسؤولية ، ومن ثمة لم يكن معروفاً على المستوى الوطني أو كان معروفاً شخصياً ولكنه لم يدخل امتحان القيادة . لذلك كان الجزائريون في حاجة إلى من يقودهم ويعبر عن رغباتهم خلال هذه الفترة الحرجة التي ساد فيها الفراغ السياسي ، فلا تجمعات ولا أحزاب ولا قادة ، بل ولا حتى جريدة أو مجلة يلتفون حولها.

وقد توفي ابن باديس في وقت اشتدت فيه الحاجة إلى صوت قائد يمثل الشعب. كان إبن باديس قد رفض في بداية الحرب تأييد فرنسا ضد إيطاليا وألمانيا وكان يخطط للقيام بحركة ضدها عندما تواجه صعوبات سياسية ، وكان قد خاطب الأصدقاء ومحل

---

(31) نوشي ، ص 130 ، وأرون ، ص 80 ـ 81 ، وجوليان ، ص 279 ـ 280 . وقد نشر عباس هذه الرسالة بنصها في الطبعة الثانية من كتابه (الشاب الجزائري) . باريس 1981 .

ثقته بأنه سيعلن الثورة ضد فرنسا عندما تحين الفرصة[32] وقد شعر الفرنسيون بخطورته فحددوا إقامته في قسنطينة منذ بدء الحرب . ولكنه أصيب بمرض أودى بحياته في السادس عشر من أبريل 1940 . وتذهب الإشاعات إلى أنه قد يكون مات مسموماً ، ولكن الشاعر محمد العيد الذي يعتبر قريباً له بالمصاهرة وصديقاً شخصياً وموضع ثقته أخبرني أنه كان مصاباً بمرض عضال، لعله السرطان، لا يعرفه إلا أقاربه وخاصة أصدقائه[33] . وقد ترك ابن باديس فراغاً كبيراً لا على مستوى حركته الإصلاحية ولكن على مستوى الوطن ، فلم يكن هناك في وقته ولا بعد وفاته شخص تمتع بنفس التقدير والاحترام اللذين تمتع بهما ابن باديس ، فقد كان رجال الدين يحترمونه لتديّنه وسلفيته وعمق معارفه ، وكان رجال السياسة يثقون في صراحته وذكائه وإخلاصه لوطنيته . وكان رجال الإدارة أيضاً يحترمونه لمرونته وحكمته . أما النخبة وشبيبة الجيل الجديد فقد كانت تثق في إيمانه بالتقدم والعلمية ونظرته المتفائلة إلى المستقبل ولا يكاد يوجد لابن باديس أعداء ، حتى الذين وقفوا ضده من الطّرقيين كانوا يخشون حركته وأفكاره ولكنهم كانوا يكبرون شخصه وعلمه وإخلاصه.

وهذه المزايا هي التي أكسبت حركته صلابة يوم كان حياً وخلوداً يوم أن رحل عنها . فرغم أن الفرنسيين قد اعتقلوا ونفوا رؤوس جمعية العلماء لأنها لم تعلن تأييدها لهم في الحرب ، فإن الحركة قد واصلت سيرها ، مع ضعف طبعاً . ومن الذين اعتقلتهم فرنسا وأبعدتهم في بداية الحرب الشيخ البشير الإبراهيمي نائب رئيس جمعية العلماء. ففي خلال شهر أبريل 1940 نفته إلى (آفلو) في صحراء إقليم وهران ، ودام اعتقاله حوالي ثلاث سنوات . وكانت الدعوى التي تذرّعت بها فرنسا لاعتقال أمثاله هي أنهم خطر على الأمن العام في البلاد.

والظاهر أن ابن باديس لم يوص بالرئاسة لأي أحد عند وفاته ولم تكن ظروف الحرب تسمح بالاجتماع للتداول في مستقبل الجمعية وإدارتها ، وكان هناك اثنان مرشحان لرئاسة الجمعية هما الشيخ الطيب العقبي الذي كان قد استقال من مجلسها

---

(32) بوكوشة ، ص 21 ، وبذلك حدثني أيضاً الشيخ محمد ابراهيم الكتاني المغربي أنظر مجلة (الثقافة) عدد 18 ، 1973 .

(33) في حديث خاص سنة 1971 ، وكان المرض عبارة عن دملة في الشرج .

الإداري أثناء أزمة 1938 والشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان نائباً للرئيس أثناء حياته . وكانت استقالة الأول قد تركت الباب مفتوحاً أمام الثاني يوم أن مات ابن باديس . والظاهر أن أعضاء الجمعية اعتبروا استمرارية الوضع السابق للجمعية وراعوا ظروف الحرب فوضعوا ثقتهم في الابراهيمي إلى أن تضع الحرب أوزارها وينجلي غبار المعارك[34] ومهما يكن الأمر فإن شخصية ابن باديس وعلمه وتفانيه جعلت كل من يخلفه لا يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركه وألا يكون محل ثقة الجميع كما كان . ومع ذلك واصل رجال الجمعية نضالهم من أجل الإسلام واللغة العربية والنهضة العلمية بالبلاد حتى أثناء الحرب ، رغم المضايقات الشديدة[35] . حقاً إن التجمعات والنوادي ودروس الوعظ والإرشاد قد خفّت ، ولكن حركة التعليم والتوجيه قد استمرت . لذلك يمكن القول أن نشاط جمعية العلماء لم ينقطع خلال الحرب ، ولكنه كان هادئاً كالجدول الصغير لا هادراً كالنهر الكبير.

والفراغ السياسي الذي وصفناه جعل بعض المعلقين يحكمون على أن الجزائر عندئذ كانت « هادئة » سياسياً عن طيب خاطر ، فقد كتبت إحدى الجرائد الإنجليزية خلال الحرب عن الوضع العام في الجزائر خاصة وشمال أفريقية عامة ما يلي : « إن ما يلفت الانتباه في شمال أفريقية منذ وقف القتال سنة 1940 ، هو الهدوء السياسي الذي يتمتع به، والسبب في أن الحركات الوطنية هناك لم تحاول أن تستغل هزيمة فرنسا لكي تثور ضدها يعود في رأي هذا الكاتب إلى ما يلي : كره الوطنيين للايطاليين ، وعلاقتهم الودية السابقة مع اليسار الفرنسي ، ووقف ألمانيا وإيطاليا لدعايتهما هناك بدعوى أنهما قد أمنتا حدود (أورافريكا) . بالإضافة إلى أن حكم اليد القوية قد ازداد خلال عهد فيشي[36] » ولعل السبب الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة لأننا عرفنا أن فرنسا قد اضطهدت قادة الحركة الوطنية في الجزائر بالذات ومن ثم شلّت أية حركة قد تقوم بها الجماهير ضدها ، وقد كانت هذه الجماهير أحوج ما

---

(34) جاء في حديث أدلى به المرحوم الإبراهيمي إلى مجلة (المصور) المصرية بعنوان (من أنا ؟) أن رفاقه انتخبوه بعد وفاة ابن باديس ـ أنظر ماري نجم (الإبراهيمي في حياته) ص 105 ـ 106 (مخطوط). وقد أكد ذلك رجال الجمعية في أحاديثهم ومذكراتهم .

(35) عباس ، ص 204 .

(36) مجلة (الايكونوميست) ، 28 نوفمبر 1942 ، ص 668 .

تكون إلى قيادة حكيمة واعية تستقطب آمالها وتحقق مطامحها .

لكن النخبة (مأمل القيادة) رغم نموها ونضجها ، فهي لم تكن سوى حفنة من الناس لا يكادون يمثلون قوّة مهددة ، ولا اتجاهاً خطيراً ، فهي كما قال أحد الكتّاب لم تكن سوى طبقة ثلج خفيفة فوق جبل ضخم لا تكاد الشمس تشرق عليه حتى يكشف عمّا وراءه من صخور وأشجار وكهوف مظلمة، وليست هذه الأشياء في الواقع سوى الجماهير الضخمة التي تحجبها النخبة قليلة العدد ضعيفة التجربة . وكانت هذه الجماهير تمثل التسعة والتسعين في المائة من السكان الذين ظلّوا محرومين من المعرفة ومن الثروة الطبيعية . وقد كانوا في المدن وفي الريف يمثلون البروليتاريا الوطنية التي ستحمل السلاح سنة 1954 ، وكانت الحرب من جهة ومعاملة ممثلي حكومة فيشي من جهة أخرى قد عرضت الجزائر لخراب اقتصادي خطير ، أضيف إليه مرض التيفوس الذي هاجم البلاد وقضى على عدد ضخم من سكانها ، لذلك كانت أحوال الجزائر الاقتصادية خلال الحرب (سنوات 1940 ـ 1942 بالخصوص) موضع تعاليق الجميع . وبالإضافة إلى العوامل المذكورة هناك المجاعات وضعف المحاصيل وزيادة عدد السكان[37] .

وتوجد أوصاف كثيرة للحياة الاقتصادية المزرية في الجزائر حتى خلال الحرب ، نكتفي ببعض النماذج منها . من ذلك ما ذكره أحد الكتاب المعاصرين من أن كل شيء في هذه البلاد من المواد الغذائية وغيرها كان مقدراً ومقنناً بدقة ، كما كانت « السوق السوداء تغطي كافة إنتاج الجزائر » وكانت سنة 1941 بالخصوص سنة صعبة على السكان من الوجهة الاقتصادية ، رغم أن الجزائر كانت بلاداً غنية بالمواد الأولية والاستهلاكية ، وكان يمكنها أن تعيش على الاكتفاء الذاتي لو لم ترسل كل منتجاتها إلى الخارج لتغذي بها الأوروبيين والفرنسيين خاصة ، فمخازن الجزائر أفرغت من محتوياتها بحجة تغذية أم الوطن (فرنسا) أولاً « ورغم هذا كلّه فإن المارشال بيتان يخاطب الجماهير الجزائرية بلغة الاستسلام للقضاء والقدر ، وأنه لا بد من تكفير الذنوب التي ارتكبها الإنسان الجزائري في حق الإله »[38] .

---

(37) توينبي (مدخل 1939 ـ 1946) ، ص 424 .

(38) فوسيت ـ بيير ، ر . (مؤامرة في مدينة الجزائر) ، نيويورك ، 1945 ، ص 3 ، 4 ـ 6 .

ورغم انتشار الفضائح المالية والسوق السوداء على حساب الجماهير البائسة فإن الإدارة الفرنسية قد لعبت دوراً في خلق المضاعفات الجديدة . ففي بعض مناطق الجزائر لم توزع الحبوب بالتقسيط أكثر من ستة أشهر ، وكان الناس يموتون جوعاً . وكان بعض الإداريين الفرنسيين قد أساءوا استعمال سلطاتهم بالسماح في استمرار الأسواق السوداء ، واستعمال بطاقات التقتير في المواد الغذائية للضغط السياسي ، أو منع دفع البطاقات إلى أصحابها أصلاً بدعوى أن ذلك يعتبر عقوبة لهم . وقد ضبطت عدّة حالات من الغش قام بها الإداريون الفرنسيون خلال الحرب ، مثل بيع القمح والتموين ، والضرائب الجمركية ، ونحو ذلك[39] . فإذا أضفنا ذلك إلى الكوارث الطبيعية (الجفاف) تصورنا كيف كانت معاناة التسعة والتسعين في المائة من جماهير الشعب الجزائري .

وهناك وصف حي كتبه طبيب عن حالة الجزائر خلال الحرب . ورغم أن هذا الوصف قد كتب سنة 1945 فإن صاحبه ، الذي عاش طويلاً في مدينة الجزائر ، كان يتحدث فيه عن سنوات الحرب وليس عن سنة بعينها ، باستثناء جفاف 1944 ـ 1945 الذي خصّه بالتركيز . لذلك فضلنا إيراده في هذا المكان . قال الدكتور ج . توماس الذي عمل طويلاً في مستشفى مدينة الجزائر ما يلي : « لقد عشت في مدينة الجزائر فترة طويلة . وقد رأيت فرقاً من الأطفال في أسمال بالية يجنون قوت يومهم ، ابتداء من سن الخامسة ، ببيع الجرائد ومسح الأحذية ، ورأيت أعشاش القصدير في الأحياء العربية ، وهي أماكن تعتبر عاراً على الحضارة ، وأثناء جني الكروم التقيت بعمال المزارع يمشون مسافة مئات الأميال بحثاً عن العمل ينامون في الليل في الحفر ويتغذون ببضع حبات من التمر أو العنب . . . لقد كنت خجلاً من كوني فرنسياً . إنني كنت في الجزائر سنة 1945 في وقت المجاعة عندما كان آلاف الناس يموتون جوعاً خلال سنة من الجفاف . وقد شاهدت القمع المروع الذي نتج عنه موت ستين ألف شخص . وشاهدت أطفالاً عمرهم سنة واحدة يأكلون التراب ، كما شاهدت مائتي شخص يموتون من الملاريا في بضعة أيام بغرداية ، فكيف لا نحصد الثورة

---

(39) أرون ص 151 ـ 153 .

عندما نكون قد زرعنا خلال هذه المدة الطويلة الحقد والإهانات والبؤس[40].

هكـذا كانت الجزائر خلال الحرب وعهـد فيشي خاصـة : بؤس في الحياة الاقتصادية ، وفراغ في الحياة السياسية الوطنية ، واضطهاد وقمع من جانب الإدارة الفرنسية . وتشهد الوثائق أن سنة 1942 كانت أيضاً سنة صعبة على السكان ، كما كانت السنة السابقة لها[41] . ويذكر المعاصرون الجزائريون عندئذ أن المواد الغذائية كانت مفقودة ، وأن الأهالي كانوا يأكلون الأعشاب ويشربون من الآبار العفنة ، ويكاد كبارهم يكونون عراة ، أما صغارهم فكانوا يتركون على الطبيعة حفاة عراة . وكان الأحياء من الناس يشاهدون أطفالهم وذويهم يموتون بالملاريا في لحظات.

ولكن سنة 1942 كانت أيضاً نقطة احتلال الجزائر على يد الحلفاء الإنكليز والأمريكان ومعهم أنصار فرنسا الحرة (جماعة ديغول) . وقد بدأت الجزائر منذ 8 نوفمبر 1942 (تاريخ نزول الحلفاء) عهداً جديداً من الحياة السياسية الوطنية ، رغم أن الأوضاع الاقتصادية قد زادت سوءاً ، أما الإدارة فقد تغيّرت عدة مرات ، ولكنها ظلّت فرنسية على كل حال . وهذه هي النقط التي نود أن نتناولها في الفصل التالي .

---

(40) ميشيل باندة « الماركسية والثورة الجزائرية » (مجلة العمل) ، مـارس - أبريـل 1958 ، ص 38 وكذلك جريدة (فرانس أوبسور فاتور)، أكتوبر 1956 .

(41) أرون ، ص 81 .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل الثامن

الجزائر بين الحلفاء ولجنة فرنسا الحرة

1942 - 1945

منذ 8 نوفمبر دخلت الجزائر مرحلة جديدة من تطورها السياسي سيطر فيها الحلفاء من جهة ولجنة فرنسا الحرة من جهة أخرى ، واستمرت هذه المرحلة إلى نهاية الحرب وحوادث 8 مايو 1945 ، وقد تميزت هذه المرحلة من الجانب الوطني بمحاولة ملء الفراغ على يد فرحات عباس وجماعة النخبة والنواب الذين كانوا يتحركون بشيء من الحرية رغم ظروف الحرب . أما أعضاء حزب الشعب وجمعية العلماء فقد كانوا مقيدين أو مبعدين عن المسرح السياسي، وتميزت الفترة أيضاً باطلاق العنان للشيوعيين الذين استأنفوا نشاطهم في غياب منافسيهم أعضاء حزب الشعب الجزائري .

وهكذا تنقلت الحركة الوطنية من محاولة كسب تأييد الحلفاء (بالخصوص الأمريكان والانكليز) إلى محاولة التفاهم مع لجنة فرنسا الحرة ، إلى الانفصام بعد تجربة حوادث 8 مايو . وقد ظهر خلال ذلك تيار وسط مثله (البيان الجزائري) الذي كان في حد ذاته يمثل طفرة كبيرة في تفكير النخبة ـ ولكنه ظل يمثل التفكير المعتدل القائم على الطبقية والمصلحة الخاصة ومراعاة الظروف. ولم تحدث خلال هذه الفترة ثورة عارمة مسلحة ولا حركة سياسية قوية تهدد الاستعمار الفرنسي وتفرض على الحلفاء الاحترام والاستماع إلى مطالب الشعب الجزائري . ومن ثمة يمكن القول بأن الحركة الوطنية الجزائرية خلال الجزء الأخير من الحرب الثانية كانت ضعيفة ممزقة فقيرة في القيادة فلم تفرض وجودها على أحد .

وكانت الجزائر خلال عهد حكومة فيشي موضعاً لدعاية المحور ودعاية الحلفاء على حد سواء ، حقاً ان المحور قد خففوا من ندائهم للوطنيين بالثورة على الوجود الفرنسي ولكنهم فعلوا ذلك بعد أن رددت صحفهم وإذاعاتهم دعاية أخرى في صالح العالم الإسلامي والحركات التحررية . وتذكر المصادر أن المحور قد استطاع أن يجذب

اليه بعض الجزائريين ، وكان الألمان بالخصوص قد رموا بثقلهم وراء بعض المتمردين الجزائريين في باريس منهم السيد محمد المهدي ، الضابط القديم في الجيش الفرنسي الذي كان يبحث عن تأييد ألمانيا له كي تضغط على فرنسا لتتنازل عن ممتلكاتها وتمنح الاستقلال لسكان شمال أفريقية . ومن هؤلاء من أنشأ في باريس جريدة باسم (الرشيد) وكون جماعة عاملة في باريس أيضاً ضد فرنسا . ومنهم أيضاً السيد محمدي سعيد الذي كان في الجيش الفرنسي ثم انْضَمَّ إلى الجيش الألماني لعدائه الكبير لفرنسا[1] ورغم توقف دعاية المحور في الجزائر أثناء عهد فيشي ، فإنهم استأنفوها بعد نزول الحلفاء . وكانت أمواج إذاعاتهم تدعو العرب للثورة وتعد الوطنيين بتحقيق مطالبهم إذا ثاروا على فرنسا[2] .

ولم تكن الجزائر مسرحاً لدعاية المحور فقط ، بل كانت أيضاً مسرحاً لدعاية الحلفاء . فإلى جانب فرنسا الحرة التي كانت تبث دعايتها من لندن ضد الحكم النازي وحكومة فيشي ، كان هناك راديو موسكو وواشنطن ولندن. وجميعهم أكثروا من الحديث عن الحرية والاستقلال ، وتقرير مصير الشعوب والمساواة في الحقوق والواجبات ، واستنكار الفاشيستية والاضطهاد والظلم . وهذه الدعاية الموجهة قد ساهمت في زرع مبادىء الديموقراطية وتنبيه الشعوب سياسياً ، وإيقاظ الروح القومية لدى شعوب أفريقية وآسيا المستعمرة . وكانت مبادىء الميثاق الأطلسي التي كانت فيما بعد أساس ميثاق الأمم المتحدة تتردد في كل مكان ، يجد فيها القادة وسيلة لمطالبهم وتجد فيها الشعوب دغدغات لعواطفها وآمالها ، وبدأ الجميع يتساءلون عما سيحدث بعد ذلك، ومن ثمة رحب الناس بنزول الحلفاء في الجزائر في الثامن من نوفمبر 1942 على أساس أنه يمثل علامة التحرر لتحقيق مبادىء الميثاق

---

(1) مارتن ، ص 302 ولعل اسم الجريدة هو (الرشيدي) لأنه اسم قديم لجريدة جزائرية كانت تصدر بجيجل قبل الحرب العالمية الأولى وكانت ذات اتجاه وطني . أما السيد محمد المهدي فلا نعرف عنه الآن شيئاً ، لكن السيد محمدي سعيد أصبح من العناصر البارزة في الثورة الجزائرية وتولى مسؤوليات كبيرة فيها كما تقلد مناصب حكومية بعد الاستقلال . يجب أن نذكر هنا بأن عبد الرحمن ياسين (التونسي الأصل) كان من أبرز العناصر المغربية النشيطة في التعاون مع الألمان خلال الحرب العالمية الثانية . وكان من خريجي كلية الحقوق بجامعة الجزائر .

(2) أنظر (الايكونوميست) 27 نوفمبر 1942 ص 669 .

الأطلسي[3] . وكلا الطرفين (المحور والحلفاء) كشف عن ضعف القوة الاستعمارية في نظر الشعوب المضطهدة وساهم في يقظتها وتمسكها بحقها ومصيرها .

ورغم الدعاية السابقة فإن موقف أمريكا الرسمي من الجزائر وشمال أفريقية منذ ربيع 1942 أي قبل نزول الحلفاء بعدة شهور كان يقوم على احترام السيادة الفرنسية على شمال أفريقية ومن ثمة عدم الاعتراف بالحركة الوطنية . وهناك مراسلات جرت بين وزارة الخارجية الأمريكية وممثلها في شمال أفريقية تؤيد هذا الموقف . فمنذ 7 يناير 1942 كتب السيد دوليتل، القنصل الأمريكي بتونس ، إلى وزارة الخارجية الأمريكية يخبرها بأن زعماء تونس قد اجتمعوا به وعبروا له عن رغبتهم في التخلص من الحكم الفرنسي وإقامة « دولة عربية مستقلة ذاتياً تحت الحماية الانكلو ـ سكسونية » . وأضاف القنصل الأمريكي بأن الحركة التونسية كانت متحالفة مع حركات مشابهة في المغرب والجزائر بالإضافة الى أن لها علاقات بالدول العربية في الشرق الأدنى[4] .

لكن رد وزارة الخارجية الأمريكية على قنصلها كان واضحاً في أنها لا ترغب في المس بالسيادة الفرنسية في المنطقة لأن الحركة الوطنية العربية هناك قضية ثانوية بالنسبة إليها . ففي 14 أبريل 1942 كتب السيد ب. هـ الانغ رئيس قسم الشرق الأدنى بالوزارة (الذي يضم أيضاً شمال أفريقية) إلى القنصل دولتيل ما يلي : إن وزارة الخارجية لا تؤيد «حدوث ثورة داخل القصر» (أي ثورة ضد فرنسا) «وأي حركة تؤدي إلى جعل السكان العرب يتحولون ضد فرنسا ستعتبرها وزارة الخارجية خطراً من الدرجة الأولى » وأن « سياستنا في شمال أفريقية الفرنسي هي كسب ثقة السلطات الفرنسية هناك» ، وأخيراً أكد أنه بينما المشاعر العربية في المنطقة تثير « بعض الاهتمام » لدى أمريكا فان « الوضع الفرنسي كان أكثر أهمية » لها[5] . واذا كان هذا الموقف لا يدع مجالاً للشك في أن الأمريكان كانوا مهتمين بالدرجة الأولى بالفرنسيين لا بالوطنيين ، فان الوقائع التالية تؤيده أيضاً .

---

(3) عباس ص 139 .
(4) وثائق وزارة الخارجية الأمريكية (العلاقات الخارجية) جـ 2 (1942) عن أوروبا ، ص 226 .
(5) نفس المصدر ، ص 281 .

ذلك أن السيد روبرت مورفي الممثل الشخصي للرئيس روزفلت في الجزائر قد اتصل بالجنرال جيرو ، قائد القوات الفرنسية المؤيدة للحلفاء في الجزائر ، قبل عملية النزول بستة أيام فقط ، وحدد له أهداف سياسة أمريكا في شمال أفريقية « الفرنسي » وهي بناء على ذلك : (1) استعادة استقلال فرنسا في أوروبا وفي ما وراء البحار . (2) إعادة السيادة الفرنسية في جميع المناطق التي سبق للعلم الفرنسي أن رفرف عليها سنة 1939 سواء في فرنسا نفسها أو في المستعمرات. (3) في حالة القيام بعمليات عسكرية في المنطقة (في فرنسا أو في المستعمرات ، والجزائر تعتبر جزءاً من فرنسا وليس حتى مستعمرة) ، فإن السلطات الأمريكية لن تتدخل بأية طريقة في هذه القضايا لأنها تعتبرها من اختصاصات السيادة الفرنسية والإدارة القومية (الفرنسية) . وقد قبل الجنرال جيرو ، الذي كان روزفلت يميل إليه أكثر من ديغول ، هذا العرض ، وبذلك انفتح الطريق أمام نزول القوات المتحالفة في الجزائر[6] . ويتضح بذلك موقف أمريكا من الحركة الوطنية التي لم ترد أصلاً في بنود العرض المذكور.

وإذا كان موقف أمريكا من الحركة الوطنية من الوضوح بحيث لا يدع مجالاً للشك ، وقد جاء على لسان ممثلين من وزارة خارجيتها ، فإن موقف حليفتها بريطانيا ، كان غير واضح ، ذلك أن هذه كانت ، حسبما تدعى بعض المصادر ، وفية لاتفاق الوفاق الموقع منذ 1904 بينها وبين فرنسا . ومعنى ذلك أن بريطانيا لا تتدخل في الشؤون الاستعمارية الفرنسية[7].

ومنذ بداية 1943 توجه سفير روسيا في فرنسا عندئذ ، السيد الإسكندر بوغومولوف، إلى الجزائر بكامل رجال سفارته حيث أصبح سفير بلاده لدى لجنة فرنسا الحرة التي مثلها حينذاك ديغول ، ولم يكن موقف السفير الروسي من الحركة الوطنية واضحاً أيضاً غير أنه كممثل لبلاد حليفة كان يتبع تعليمات مقر قيادة الحلفاء في

---

(6) نفس المصدر ، ص 416 .

(7) توينبي (مدخل 1939 ـ 1946) ص 412 ، وكانت الصحافة البريطانية متحفظة أيضاً في تعرضها للحركة الوطنية في الجزائر وشمال أفريقية عامة . وكان هارولد ماكميلان من حزب المحافظين ، هو ممثل بريطانيا في الجزائر .

الجزائر التي يرأسها أيـزنهاور ، مثله في ذلـك مثل مـورفي (أمريكـا) وماكميـلان (بريطانيا) . وبفضل تدخلات بوغومولوف حـدث تقارب بـل تحالف بين ديغـول والشيوعيين أولاً في الجزائر ثم في فرنسا[8] أما عن الحركة الوطنية الجزائرية فلا نكاد نجد للسفير الروسي موقفاً خاصاً في الوقت الحاضر.

ومهما يكن الأمر فقد اجتمع ممثلو الحلفاء ، في شرشال يوم 27 أكتوبر سنة 1942 وخططوا لعمليات نزول الجنود . وقد حضر عن الجانب الفرنسي الجنـرال جيرو وبعض أنصار ديغول والجمهوريين والملكيين وغيرهم ممن كانوا يمثلون قطاع المقاومة الفرنسية للاحتلال النـازي ونظام فيشي ، وحضـر من الجانب الأمـريكي الدبلوماسي روبرت مورفي والجنرال كلارك وضباط آخرون ، كما حضر السيد هارولد ماكميلان وبعض الضباط عن بريطانيا ، ولا نـدري من كان ممثـل روسيا في هـذا الاجتماع . وكان جدول الأعمال يشمل دراسة كيفية نزول الحلفاء بنجاح . أما موقف الشعب الجزائري وزعماء الحركة الوطنية فلم يكن في الحسبان[9] . وكان الحلفاء فيما يبدو مطمئنين لولاء السكان لأن دعايتهم السابقة قد جعلت منهم أبطالاً محررين يهدفون إلى تخليص الشعوب من ربقة الظلم والاضطهاد . وكانت التقارير الأمريكية تشير الى أن السكان المسلمين قد برهنوا على صداقتهم وولائهم للحلفاء[10] ولعل ذلك هو السبب في عدم أخذ السكان في الاعتبار يوم الاجتماع الذي وقع فيه وضع الاستراتيجية لنزول قوات الحلفاء ، بالإضافة الى أن قيادة الحركة الوطنية كانت شبه مفقودة في هذه الأثناء (خريف 1942) .

وقبـل عملية النـزول قام الأمـريكيون بحملة دعـاية إعـلامية ونفسيـة لكسب الفرنسيين إلى جانبهم . من ذلك أن الرئيس روزفلت أخبر الفرنسيين بأن أمريكا تنوي النزول في شمال أفريقية قبل أن يفعل ذلك المحور وأن هدف أمريكا من ذلك هو « منع المحور من احتلالها (شمال أفريقيـة) والحفاظ على السيـادة الفرنسيـة في

---

(8) روبرت مورفي (دبلوماسي بين متحاربين) 1964 ، ص 106 ـ 107 .
(9) نوشي ، ص 130 ـ 131 .
(10) توينبي (مدخل 1939 ـ 1946) ص 413 .

الجزائر »[11] . وفي الثاني والعشرين من سبتمبر 1942 أمر روزفلت ممثله الشخصي السيد مورفي بأن يتصل بواسطة مساعديه في الحرب المعنوية، بأولئك المواطنين الفرنسين الذين يعتبرهم جديرين بالثقة وأن يخبر هؤلاء بأن هدف الجنود الأمريكان سيكون منع المحور من احتلال الجزائر و«الحفاظ على السيادة الفرنسية في الجزائر . وأن ليس هناك تغيير سيحدث في الإدارة المدنية الفرنسية الموجودة» من جانب الولايات المتحدة .

وقد طلب الرئيس روزفلت في نفس الوقت من ممثله المدني لدى قيادة إيزنهاور ، أن يقدم له ما يراه صالحاً للموافقة عليه ، مثل : (1) توصيات بشأن السياسة التي على أمريكا أن تسلكها في المنطقة . (2) مسودة المنشور الذي يوزع على السكان في المناطق التي سيحتلها الحلفاء . (3) مسودة المنشورات أو الرسائل التي سيوجهها الرئيس إلى الدولة الفرنسية والرسميين الفرنسيين في « شمال أفريقية الفرنسية »[12]ويتضح من هذا أنه بينما كان روزفلت يلتزم باحترامه للسيادة الفرنسية في الجزائر كان يوكل إلى ممثله الشخصي تقديم ما يراه صالحاً له لكي يتخذ بشأنه الإجراء المناسب ، فماذا فعل مورفي في نطاق هذه التعليمات ؟ ذلك ما سنعرفه بعد قليل .

وعشية نزول الحلفاء أذاعوا منشوراً وزعوه بالطائرات على فرنسا وعلى شمال أفريقية . وكان إيزنهاور الذي أذاع المنشور قد أعلن أن هدفهم هو إيقاع الهزيمة بالإيطاليين والألمان وتحرير فرنسا كما حدث سنة 1917 . وهذا واضح في أن مبادىء الميثاق الأطلسي غير واردة بالنسبة للشعب المستعمر . ومن الملاحظ أن إيزنهاور خاطب بعد ذلك «فرنسيي شمال أفريقية» قائلاً « إننا سنترك بلادكم عندما يذهب عنها خطر العدوان الألماني - الإيطالي. وأن سيادة فرنسا على المناطق الفرنسية ستظل بدون تغيير »[13] . ورغم ضعف فرنسا في أعين الحلفاء والوطنيين معاً[14] ، فإن الأولين لم يجرؤوا على تغيير الأوضاع القائمة قبل 1940 أو حتى الوعد بذلك ،

---

(11) مورفي ص 106 .

(12) وثائق وزارة الخارجية الأمريكية ، العلاقات الخارجية جـ 2 (1942) (أوروبا) ص 379 - 380 .

(13) (التايمز) 9 نوفمبر 1942 ص 3 وفيها نص المنشور المذكور .

(14) أرون ص 156 .

تمشياً مع المبادىء التي طالما رددوها على الشعوب لتخوض معهم الحرب باسم الديموقراطية والحرية .

وفي 12 من نوفمبر 1942 وقع الجنرال كلارك (أمريكا) والأميرال دارلان (فرنسا) على اتفاق جديد لم يُشيرا فيه إلى قضية مصير شمال أفريقية وإنما ركزا فيه على السيادة الفرنسية على المنطقة. وتحددت في هذا الاتفاق عبارات (شمال أفريقية التي تشمل الجزائر والسلطة الفرنسية) التي تعني الطرف الفرنسي الحليف . كما أوضح الاتفاق أنه في حالة الخطر على « الوضع الداخلي » فإن على السلطة الفرنسية أن تتخذ الإجراءات الضرورية بالتنسيق مع القائد العام للجيش الأمريكي[15] ومما يلاحظ أن الاتفاق نص على إطلاق سراح جميع مساجين الأمم المتحدة (الدول الحليفة عندئذ والقابلة بمبادىء الميثاق الأطلسي) في الجزائر ، ولكن لم يتعرض إلى المساجين السياسيين الجزائريين .

وتكشف كل الوثائق السابقة عن الموقف الحقيقي للحلفاء بزعامة أمريكا وبريطانيا. وقد لخص أحد الكتاب أهداف الحلفاء في الجزائر، بالإضافة إلى المحافظة على السيادة الفرنسية ، فيما يلي :

(1) إيجاد إدارة مستقرة ناجحة .

(2) إعادة الحياة الاقتصادية المخربة .

(3) إعادة قرار كريميو إلى اليهود .

وهذه الأهداف إذن تعمل لصالح الفرنسيين واليهود بتأييد من الحلفاء، أما بقية السكان فللحلفاء رأي آخر فيهم. فالمراسل العسكري للجريدة الأمريكية الواسعة الانتشار (النيويورك تايمز) كتب يقول عن عرب الجزائر « إنهم ما زالوا يعيشون في عالم إقطاعي . وهم في حالة بؤس ينهشهم المرض والفقر والانحطاط . ورغم أن دعايتنا قد جعلت كثيراً من عرب شمال أفريقية باردين (نحو المحور) ، فإن دعاية المحور لم تنجح في جمع شملهم وخلق قوة موحدة منهم[16] .

---

(15) وثائق وزارة الخارجية الأمريكية (العلاقات الخارجية) جـ 2 ، 1942 (أوروبا) ص 453 ـ 457 .

(16) توينبي (مدخل 1939 ـ 1946) ص 411 ـ 412 نقلاً عن الجريدة المذكورة .

وبدل أن يكون الأمريكان أوفياء لمبادىء الميثاق الأطلسي وغيره من الأفكار التي جاءت نتيجة الحرب، انحازوا ضد الجزائريين (وأهل شمال أفريقيـة) إلى الفرنسيين بدعوى أن العرب ما يزالون غير جديرين بالحرية، وأصبحوا يرددون أن رسالتهم هي حفظ الأمن والنظام والإبقاء على شمال أفريقية فرنسياً. ولعل هذا يعود إلى تأثير الدعاية الفرنسية عليهم . ذلك أن الأمريكيين قاموا في البـداية بحملة دعـاية بـاسم تقريـر المصيـر للشعوب تـزعّمها روزفلـت وممثله مـورفي . وقد قيـل أن هذا قـد اشتهر « بالخطابية غير الحذرة » . كما نشـرت مصالـح الاستخبارات الأمـريكية نصـوص الميثاق الأطلسي بالعربية على نطاق واسع ورددت عبارات مغرية للحرية[17] . ومع ذلك لم يحصل أي شيء في ميدان التطبيق ، بل رأينا الرسميين الأمريكيين يكثرون من عبارات التودد للفرنسيين على حساب الشعوب الخاضعة لهم .

وتعترف المصادر الأمريكية بأن الوطنيين الجزائريين قد اتصلوا بممثلهم السيد مورفي ، وعبروا لـه عن رغبتهم في مساعـدة الحلفاء على حصـول الجزائـر على الاستقلال . وكان زعيم هذا الاتصال هو فرحات عباس نفسه . فقد اتصل عدة مرات بالسيد مورفي قبل نزول الحلفاء ، وكان ذلك في مكتب الأخير بمدينة الجزائر ، وآخر اجتماع بينهما كان يوم 7 نوفمبر 1942 أي قبل يوم واحد من نزول القوات المتحالفة في الجزائر . ويقول السيد مـورفي ان هذا الاجتمـاع كان بـدون استدعـاء وبدون أن يتوقعه أيضاً . وقد وصف مـورفي عباس عنـدئذ بـأنه « وطني عـربي جزائـري متحمس » وأن له حركة في مقدورها أن تسبب « مصاعب شاقة أمام نزول القوات لو استعملها » . وقال عنه أيضاً انه وجد فيه رجلاً «معتدلاً ومتعقلاً» وأنه كان يحضر إليه « لمناقشة استقلال الجزائر » وفي المرة الأخيرة التي اجتمعا فيها أراد عباس أن يعرف رأي الحكومة الأمريكية (وكان مورفي عائداً من زيارة لواشنطن) نحو إقـامة دولـة جزائرية مستقلة ذاتياً (أو تونوم) ، لكن مورفي أخبره كما أخبره سابقاً ، إن أمريكا تتعاطف مـع كـل رغبات الاستقلال ، ولكنها في الوقت الراهن قد حددت هدفها في هزيمة النازية . ورجاه أن يبذل « أصدقاؤنا » كل ما في وسعهم للإنتصـار في هذه الحرب[18] ونحن لا ندري إن كان هذ رأيـاً شخصياً لمـورفي أو هو رأي الـرئيس

(17) نفس المصدر .

(18) مورفي ، ص 123 .

روزفلت الذي كان قادماً من عنده والذي كان قد طلب إليه أن يعرض عليه كل شيء عن المنطقة لكي يصدر رأيه فيه .

وكان يمكن لمورفي باسم دولته أن يطلب من عباس مساعدة الجزائريين للحلفاء في مقابل مساعدة أمريكا للجزائر على الاستقلال ، بعد الحرب على الأقل . وإذا كانت أمريكا حريصة على كسب الحرب من أجل انتصار الديموقراطية والحرية فما فائدة الجزائر من كسب حرب تبقيها تحت كابوس السيادة الفرنسية ؟ ولا ندري بالضبط ماذا تواعد عليه الطرفان (عباس ومورفي) ، ولكن الذي لا شك فيه أن انطلاقة عباس بعد ذلك في إعداد وثيقة البيان الجزائري كانت من وحي هذه الاتصالات .

وتذكر مصادر أخرى أن الذي شجع الحركة الوطنية على التحرك هو بعض الوعود التي أطلقها الحلفاء هنا وهناك . ويذهب أحد الكتاب إلى أن السيد فرحات عباس قد يكون اجتمع بالرئيس روزفلت أثناء مرور الأخير بالجزائر[19] وأن عباس كان متحمساً لفكرة حضور مؤتمر سان فرانسيسكو معتمداً على الوعد الصادر عن الحلفاء من أن « الشعوب المستعمرة سيكون لها الحق في مؤتمر السلام أن تعبّر عن نفسها »[20] .

وقد شجعت هذه الوعود والتحركات بعض الجزائريين على أن كسب الحرب إلى جانب الحلفاء سيحقق رغبتهم في الحرية والاستقلال الذاتي . بالإضافة إلى أن نهاية سنة 1942 قد شهدت إطلاق الحرية للحزب الشيوعي الجزائري . لكن أعضاء حزب الشعب ظلوا في السجون رغم نزول الحلفاء[21] مما يبرهن على أن الإدارة الفرنسية كانت هي المسيطرة على الوضع الداخلي ، كما يبرهن على خشية الحلفاء من الوطنيين الاستقلاليين ، ولا يمكن أن نفهم لماذا يطلق الحلفاء سراح الشيوعيين ويبقون على الوطنيين في السجن ، في الوقت الذي كانوا يطالبون فيه الجزائريين بتأييدهم لكسب الحرب ضد النازية والفاشيستية . أليس موقف الحلفاء من الوطنيين

---

(19) أرون ، ص 156 . وفي علمنا أن عباس لم يشر إلى هذه المقابلة فيما كتب .

(20) ساراسين ، ص 76 .

(21) أرون ، ص 81 .

الاستقلاليين هو بذلك موقف حكومات فرنسا الاستعمارية وموقف حكومة فيشي ؟ لقد وقف الحلفاء إلى جانب إعادة قرار كريميو إلى اليهود ، تحت ضغط يهود أمريكا ، وإلى جانب إطلاق سراح الشيوعيين ، تحت ضغط موسكو ، ولكنهم لم يقفوا إلى جانب الوطنيين الاستقلاليين لأنه لا أحد يضغط عليهم سوى المبادىء التي أعلنوها باسم الحرية والديموقراطية وتقرير المصير ، وهذه أمور يتحكم فيها الضمير لا المادة والمصالح السياسية.

عندما نزل الحلفاء مدينة الجزائر كان ممثل السلطة العسكرية الفرنسية فيها هو الأميرال دارلان وممثل السلطة المدنية هو السيد شاتيل . ولم يجد الحلفاء مقاومة تذكر في مدينة الجزائر ولكنهم واجهوا مقاومة شديدة ، رغم أنها كانت مؤقتة ، في [illegible] ووهران وقسنطينة[22] وقد أعلن الممثلان الفرنسيان دارلان وشاتيل تأييدهما للحلفاء ووقع دارلان على وثيقة وقف القتال مع الجنرال كلارك (الأمريكي) ولكن ولاء دارلان كان موضع شك من أنصار المقاومة الفرنسية . وقد أغتيل دارلان في ظروف غامضة في 24 ديسمبر 1942 ، وما زال مقتله موضع دارسة مؤرخي المقاومة الفرنسية.

وعلى كل حال فإن الذي يهمنا هو أن دارلان قد دعا خلال أيامه الأخيرة بالجزائر جميع السكان الجزائريين إلى تأييد فرنسا والحلفاء معاً لكسب الحرب ، كما أنه يهمنا أن نعرف أن موت دارلان قد مهد الطريق أمام ظهور الجنرال جيرو ، منافس الجنرال ديغول في قيادة المقاومة الفرنسية . وقد سبق لنا أن ذكرنا أن الحلفاء كانوا منقسمين حول زعامة المقاومة الفرنسية . فبينما كان روزفلت يميل إلى الجنرال جيرو ، كان تشرشل يؤيد الجنرال ديغول في عزل صاحبه . وقد سيطر جيرو على الموقف مدنياً وعسكرياً في الجزائر إلى أن جاء ديغول في أول يونيو سنة 1943 . ومما يذكر أنه قد جاء في نداء دارلان إلى المسلمين الجزائريين يوم 11 ديسمبر 1942 « إن فرنسا لن تتخلى عن واجباتها نحوكم »[23] ولكن هذه « الواجبات » كانت

---

(22) [illegible] ، ص [illegible] ـ 132.

(23) نفس المصدر . كان دارلان ممثل حكومة فيشي في شمال أفريقية ، مقره الجزائر ، لكنه تحول إلى الحلفاء وهذا ما جعل المقاومة الفرنسية تشك في ولائه بل إن الحلفاء لم يكونوا مطمئنين إليه .

غير واضحة فالجزائريون كانوا يطمعون في إصلاحات سياسية ووعود صريحة على الأقل بأن الدخول في الحرب إلى جانب فرنسا يؤدي إلى حصول الجزائريين على حقوقهم السياسية المشروعة .

ونفس النداء قد وجهه إليهم الجنرال جيرو خليفته ، دون أن يلتزم نحوهم أيضاً بأي شيء . وأول ما فعله جيرو هو تعيين السيد بيروتون حاكماً عاماً على الجزائر خلفاً لشاتيل . وقد ظل بيروتون في هذا المنصب إلى أن عين الجنرال ديغول السيد كاترو بدله ، كما سنرى . والذي يهمنا الآن هو أن جيرو كان يرفض المناقشة مع الجزائريين في المسائل السياسية بدعوى أنه جاء الجزائر « ليحارب » لا « ليتناقش في السياسة » وأنه لا يريد أن يسمع شيئاً عن « الإصلاحات » . . «لأنـه يريد جنوداً»، وصرف عنه بذلك الوفد الجزائري الذي جاء يناقشه في الإصلاحات السياسية[24] .

ولكن جيرو لم يكن صادقاً فيما قال : فقد جاء ليتخذ مواقف سياسية أيضاً إلى جانب المواقف العسكرية . ذلك أنه أسرع بإطلاق سراح الشيوعيين ورفض إطلاق سراح الجزائريين الوطنيين ، وهو موقف سياسي لا غبار عليـه . وعارض في نفس الوقت عودة قرار كريميو إلى يهود الجزائر بحجة أنه يثير المسلمين الجزائريين . وهذا أيضاً عمل سياسي لا يحتاج إلى بيان . فقد أطلق سراح سبعة وعشرين شيوعياً من سجن الحراش ، بينما ترك في نفس السجن ممثلي حزب الشعب الجزائري . فقام الشيوعيون بدعاية واسعة مغتنمين فرصة غياب منافسهم (حزب الشعب) وأعادوا إلى الظهور جريدتهم (ليبرتي) وأقاموا دعايتهم على تعميم التعليم للجزائريين ومنحهم الحرية والمساواة في الأجور بينهم وبين الفرنسيين وبزيادة الحقوق السياسية لهم . ولكنهم كانوا ضد المناداة بالدولة الجزائرية المستقلة وضد كبار المعمرين الفرنسيين (ملاك الأرض الشاسعة) . ونجح الشيوعيون في تعيين اثنين منهم في (لجنة فرنسا الحرة) التي كانت تدير المقاومة الفرنسية إلى جانب الحلفاء[25] . ولا شك أن ذلك كان بضغط من سفارة روسيا الجديدة في الجزائر ، وبذلك أصبح لهم شأن فيما يتعلق بمستقبل الجزائر.

---

(24) أرون ص 81 وجوليان ص 283 .

(25) ساراسين ص 127 وجوليان ص 277 .

وسواء أراد جيرو ، وبيروتون ، أم لم يريدا فإن نزول الحلفاء قد شجع الجزائريين على التفاؤل وجعل قادتهم يكثرون من الاتصال فيما بينهم ـ رغم القيود ـ ومع الحلفاء . حقاً إن الفراغ السياسي الذي تحدثنا عنه كان ما يزال هو الخاصية البارزة في الحركة الوطنية الجزائرية في هذه الأثناء ، ولكن ذلك لم يمنع من الاتصالات السرية والعلنية بين أهل الرأي في الجزائر . وتشير وثائق الحلفاء إلى أن المثقفين الجزائريين (النخبة ـ القادة) كانوا يطمحون إلى تحقيق الاستقلال لبلادهم تحت نوع من الحماية الأمريكية أو الانكليزية خشية الانهيار الاقتصادي بعد الحرب[26] أما وثائق فرنسا الحرة فتعترف بأن نزول الحلفاء وإعلان الميثاق الأطلسي قد أعطى دفعة جديدة إلى المطامح السياسية للجزائريين ، ومن ثم لم يعد المشكل السياسي في الجزائر عندئذ يُطْرَح على أنه هو التطور داخل النظام الفرنسي مع الإبقاء على الأحوال الشخصية (كما كان الحال عشية الحرب) ، ولكنه أصبح يطرح هكذا : هل ستبقى الجزائر داخل النظام الفرنسي أو ستخرج منه تماماً[27] .

ولا شك أن قادة الحلفاء والمقاومة الفرنسية كانوا يعرفون مدى نشاط الوطنيين الجزائريين السري والعلني . وإذا كان فرحات عباس وجماعة النواب في مجلس الوفود المالية يستطيعون التحرك بشيء من الحرية للحصانة التي لديهم باعتبارهم موظفين رسميين ، وإذا كان الشيوعيون قادرين على النشاط العلني لأنهم كانوا مع الحلفاء تبعاً لموقف روسيا ، فإن أعضاء حزب الشعب وجمعية العلماء كانوا ممنوعين من هذا التحرك إما لأنهم سياسيون ثوريون (حزب الشعب) وإما لأنهم غير سياسيين أصلاً (جمعية العلماء) . ولذلك التجأ الطرفان الأخيران إلى النشاط السري الذي لم يكن ليغيب على السلطات الجديدة في الجزائر.

وتدّعي بعض المصادر أن أعضاء حزب الشعب قد ضاعفوا من نشاطهم لكسب ثقة الحكومات الانكلو ـ ساكسونية إلى جانبهم، وأنهم كانوا يقيمون مخازن الأسلحة

---

(26) (النيويورك تايمز) 21 يناير 1944 ص 3 . تذكر الجريدة أغلبية « المثقفين » الجزائريين كما تذكر أن قادة الحلفاء قد لاحظوا هذا الإتجاه في الحركة الوطنية ، ولكنهم مع ذلك كانوا مصممين على عودة شمال أفريقية إلى فرنسا بعد الحرب .

(27) (فرنسا الحرة) جـ 5 عدد 8 (15 أبريل 1944) ص 293 .

في مختلف أنحاء الجزائر، ولكن سلطات فرنسا في الجزائر لم تمنعهم من هذا النشاط لعدة أسباب منها ، حسب هذا المصدر ، أنها كانت تعاني من مشاكل داخلية وخارجية كثيرة ، وأنها أرادت أن تبرهن للحلفاء على إرادتها الحسنة نحو الجزائريين الانفصاليين ، وأنها كانت لا تملك القوة لمعارضة سلطة الأنكلو- ساكسون(28) . والواقع أن التناقض في هذه التبريرات واضح ، فالذي لا يملك القوة لا يقال فيه أنه يفعل كذا لوجه الإرادة الحسنة ، والذي يواجه مشاكل داخلية وخارجية هو أعجز من أن يكون لديه القوة لا لمواجهة الوطنيين ولا لمجاملة الانكلو- ساكسون . والذي يمكن أن نخرج منه هو أن الحلفاء، ربما بتأثير من الشيوعيين، هم الذين لم يريدوا إخراج مصالي من السجن ولم يكن بقاؤه في السجن بإرادة فرنسا وحدها ، كما يزعم هذا المصدر.

ومهما يكن الأمر فإن نزول الحلفاء ومشاكل فرنسا قد سمحت للوطنيين الجزائريين بالاتصال العلني والسري كما سبق أن أشرنا . فمنذ 8 نوفمبر 1942 وقع اتصال بين أفراد من حزب الشعب وبين السيد فرحات عباس . وكان موضوع المناقشات هو شروط الجزائر لدخول الحرب إلى جانب الحلفاء(29) ولا ندري الآن بمن اتصل فرحات عباس أيضاً من العلماء . فابن باديس كان قد مات ، والابراهيمي الرئيس الجديد للعلماء كان في المعتقل بآفلو . ولعل عباس قد اتصل بأعضاء من المجلس الإداري مثل الشيخ محمد خير الدين والشيخ العربي التبسي ، وكلاهما كان على صلة بالابراهيمي . ولا نستبعد أن يكون الحديث قد وصل أيضاً إلى السيد مصالي الحاج الذي كان معتقلاً . وبعد هذه الاتصالات الوطنية من جهة والاتصالات بين عباس والسيد مورفي وأوغسطين بيرك (مسؤول الشؤون الأهلية الفرنسي في الجزائر) من جهة أخرى ، قدم الجزائريون مذكرة إلى الحلفاء ، بما فيهم الفرنسيون ، باسم « ممثلي الجزائريين المسلمين » بتاريخ 22 ديسمبر 1942 ، وقد وقّع على المذكرة ممثلون عن الولايات الثلاث (الجزائر ، وهران - قسنطينة) ووجهت المذكرة إلى

---

(28) ساراسين ص 101 ـ 102 وهذا ادعاء فيه نظر لأن المؤلف يريد مسبقاً أن يلصق بحزب الشعب تهمة التخطيط للثورة يوم 8 مايو 1945 التي سنتحدث عنها .

(29) عباس ، ص 204 من الأسماء التي ذكرها عباس نجد الدكتور الأمين الدباغين وحسين عسلة .

ممثلي الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة والحكومة العامة الفرنسية في الجزائر.

وقد طلبت المذكرة كشرط للتضحية التي طلبها الحلفاء (المشاركة في الحرب) عقد مؤتمر ينتج عنه « دستور سياسي واقتصادي واجتماعي جديد للجزائر » . ومما جاء فيها أيضاً أنه « إذا كانت هذه الحرب ، كما أعلن رئيس الولايات المتحدة تحرير الشعوب ، والأفراد ، بدون تمييز بينها في العرق والدين فإن المسلمين الجزائريين يقفون بكل قواهم وكل تضحياتهم إلى جانب هذه الحرب التي تؤدي إلى التحرر». ويكفي أن نذكر بأن الشعب الذي يمثلونه (أي النواب) هو الآن مجرد من كل الحقوق الأساسية والحريات التي يتمتع بها السكان الآخرون (المعمرون) في هذه البلاد . لذلك فإنهم (النواب) يطالبون ، قبل دعوة الجماهير الإسلامية (الجزائرية) للمشاركة في الحرب ، بانعقاد مؤتمر يضم المنتخبين والممثلين المؤهلين لجميع الهيئات الإسلامية . وتكون مهمة هذا المؤتمر وضع دستور سياسي واقتصادي واجتماعي للمسلمين الجزائريين . وهذا الدستور القائم على العدل الاجتماعي هو وحده الكفيل بجعل المسلمين في هذه البلاد واعين وعياً كاملاً لواجباتهم الحاضرة[30].

لكن « السلطات » رفضت استقبال المذكرة الجزائرية . فقد رفضها الأمريكان والانكليز بدعوى أنها تخص الفرنسيين ، ورفضها هؤلاء بحجة أنها تجرأت على تجاوزهم واعتبرت غيرهم (الأميركان والانكليز) شركاء لهم في حكم الجزائر . وهكذا واجه الجزائريون أول امتحان دبلوماسي . وبدل أن يكون هذا مدعاة لهم على التفطن لخيوط اللعبة كاملة ، خضعوا للأمر الواقع وتوجهوا بمذكرة معدّلة إلى الفرنسيين مباشرة.

وعلى كل فإن هذه الحادثة كشفت من جديد عن موقف الأمريكان والانكليز من الحركة الوطنية، التي اعتبروها أمراً داخلاً في نطاق السيادة الفرنسية التي طالما أعلنوا أنهم جاءوا لحمايتها، كما أنها كشفت عن ضعف الحركة الوطنية نفسها، لأنها لم

---

(30) ساراسين ص 174 وفيه نص المذكرة ، وبناء عليه فإنها قدمت إلى السلطات المعنية بتاريخ 20 ديسمبر 1942 وليس 22 منه . أنظر أيضاً أرون ، ص 81 وجوليان ص282 وفيه أيضاً تاريخ 29 ديسمبر ، وتوينبي (مدخل 1939 ـ 1946) ص 419 .

تف بالشرط الذي جاء في المذكرة وهو وجوب تحقيق المطامح السياسية الوطنية أو على الأقل الوعد الصريح بها ، قبل دعوة الجزائريين للمشاركة في الحرب ، ومعنى ذلك كله أن الحلفاء (غير الفرنسيين) قد تخلوا عن التطبيق، عن فكرة تأييد الشعوب المستعمرة ورموا بالجزائريين بين فكي فرنسا من جديد . وبنصيحة من مورفي ومن بيرك أعاد فرحات عباس صياغة المذكرة وقدمها إلى « السلطات الفرنسية » بالجزائر . وقد تضمنت ما يلي : (1) عقد مؤتمر يضم جميع الممثلين المسلمين (2) المشاركة في تحرير فرنسا بشرط أن تعد هذه بالإصلاحات (3) إنجاز دستور جزائري يتضمن النّص على كل القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالجزائريين (4) ضمان جميع حقوق وحريات كل الجزائريين[31] وقد وقّع على هذه المذكرة معظم النواب أيضاً.

وجد الجزائريون أنفسهم وجهاً لوجه من جديد مع الفرنسيين ، وكان هؤلاء في موقف الضعيف نظراً لسقوط سمعتهم بالاحتلال النازي لبلادهم الأم ، واحتلال الحلفاء للجزائر وشمال أفريقية ، بالإضافة إلى انقسام الفرنسيين على أنفسهم بين أنصار فيشي وأنصار المقاومة ، ولم يكن المقاومون منهم على رأي واحد أيضاً حول الزعيم الذي يقودهم ، فبعضهم كان وراء ديغول وبعضهم كان وراء جيرو . ومع ذلك فإن الفرنسيين كانوا متفقين بشأن الجزائر ، وهي أن تظل فرنسية وأن لا يحصل أهلها على أية حقوق سياسية . وإذا كانت هناك ترضيات تفرضها ظروف الحرب فلتكن في الميادين الاجتماعية والاقتصادية وليس السياسية . ومنذ ديسمبر 1942 كانت الإدارة الفرنسية في الجزائر بين جيرو كمسؤول أعلى لدى الحلفاء وبيروتون كحاكم عام على الجزائر خاصة ، وبيرك كمسؤول على الشؤون الأهلية في الحكومة العامة ، وهو منصب لم يتأثر بالهزات التي حدثت منذ أواخر الثلاثينات في الجزائر[32].

---

(31) جوليان ص 282 . الظاهر أن المذكرة الأولى كانت بتاريخ 20ـ 12 ـ 1942 والمذكرة الثانية المعدلة كانت بتاريخ 22 ـ 12 ـ 1942 .

(32) يعتبر بيرك من خبراء الشؤون المغربية عامة وقد ظل في منصبه قرابة عشرين سنة . وله تآليف عن مجتمع المغرب العربي . وهو والد جاك بيرك المستشرق الفرنسي المعاصر .

وبعد أن رفض جيرو مقترحات الوفد الجزائري الذي قابله في فاتح سنة 1943 وأجابه بأنه مسؤول عن الحرب وليس عن السياسة ، عمد الجزائريون إلى حركة جديدة للضغط على الفرنسيين لكي يتخذوا موقفاً واضحاً من مطالبهم . ففي العاشر من فبراير من السنة المذكورة كتبوا « بياناً » ضمّنوه عرضاً مفصلاً عن الاستعمار وعن فشل الإصلاحات الفرنسية في الجزائر وعن مسؤولية المعمرين في توسيع الشقة بين الشعبين ، كما ضمّنوه مطالب جديدة ، وقدّموه إلى السلطات الفرنسية . وتوجه وفد منهم إلى الحاكم العام نفسه، السيد بيروتون، بتاريخ 31 مارس 1943 لتقديم نسخة من البيان إليه . وقد وعدهم بأخذه في الاعتبار وقبوله من حيث المبدأ . وأرسل الجزائريون أيضاً نسخاً من البيان المذكور إلى ممثلي أمريكا وبريطانيا وروسيا في الجزائر ، كما أرسلوا منه نسخة إلى الجنرال ديغول الذي كان ما يزال عندئذ في لندن ، وإلى الحكومة المصرية بالقاهرة[33] وفي الثالث من أبريل عيّن الحاكم العام لجنة « لدراسة المسائل الاقتصادية والاجتماعية للمسلمين » الجزائريين (وليس المسائل السياسية) . ومن الواضح أن تعيين الفرنسيين للجان أثناء الحرب يدل على أنهم كانوا يهدفون من ورائها إلى كسب الوقت وتذويب الحماس الوطني وخلق انقسامات داخل الحركة الوطنية التي تجمعت حول البيان.

أعدّ البيان السيد فرحات عباس بعد مشاورات مع قادة الرأي في البلاد الذين أمكن الاتصال بهم ، من زعماء النخبة والعلماء والنواب والطلبة وحزب الشعب ـ وقد أقام عباس البيان على الوثائق الجزائرية السابقة (مطالب النخبة، وميثاق المؤتمر الإسلامي ومبادىء حزب الشعب . . الخ) وعلى روح الميثاق الأطلسي وأفكار الثورة الفرنسية . لذلك كان البيان وثيقة رومانتيكية أكثر منها واقعية ، ولذلك أيضاً طلب الفرنسيون فيما بعد تقديم (ملحق) مفصّل للبيان . وبعد أن استعرض البيان العلاقات الجزائرية الفرنسية منذ سنة 1830 وانتهى إلى أنها علاقات تقوم على الاضطهاد والتفرقة والسلبية وحرمان الجزائريين من الحقوق الأساسية، قال بأن احتلال فرنسا من الألمان واحتلال الجزائر من الحلفاء قد ترك المعمرين (الكولون) هم الأسياد ، وأن كل العناصر الأخرى (أنصار ديغول والجمهوريون والملكيون واليهود)

---

(33) عباس ص 145 .

كانت تعرض تعاونها وولاءها على الحلفاء ناسية الشعب الجزائري ، لذلك تحتم على ممثلي هذا الشعب أن يتحمّلوا مسؤولياتهم ويضعوا أمامهم مشكلة المستقبل . وقد وقع على البيان في النهاية اثنان وعشرون من هؤلاء الممثلين.

احتوى البيان على خمسة أقسام تعرض القسم الأول (الافتتاحية) إلى الوضع بالجزائر منذ احتلالها من الحلفاء . وتناول القسم الثاني أهمية الحربين العالميتين في تحرير الشعوب باعتبار ذلك ظاهرة تاريخية . وفي القسم الثالث استعراض للعلاقات الفرنسية الجزائرية منذ سنة 1830 وعن الاستعمار والاستغلال والتفرقة العنصرية . ودرس القسم الرابع فشل الإصلاحات السابقة واندلاع الحرب الثانية وأهمية نزول الحلفاء بالجزائر ، أما القسم الخامس والأخير فتضمّن مطالب الجزائريين الأساسية .

وإذا حللنا هذه الأقسام وجدنا أن الافتتاحية تبرر تحمّل الجزائريين الواعين لمسؤولياتهم أمام اللّه وأمام الشعب ليدافعوا عن الآمال الوطنية في وقت اشتغل فيه كل فريق في الجزائر بمصالحه الخاصة . لكن الشعوب التي حملت السلاح سنة 1914 وسنة 1939 لتدافع عن حقوقها وحريتها ما زالت تواجه مآسي الظلم والاضطهاد . وهذه الحقوق والحرية ليست خاصة بالقوى الكبرى ، بل يجب أن تكون شاملة للشعوب الصغيرة التي منها الشعب الجزائري ، ورغم مقاومة الشعب الجزائري للاستعمار بالسلاح تارة والسكوت تارة أخرى والمطالب تارة ثالثة ، فإن المعمرين قد جعلوا منه في الواقع عبداً يستغلون ثرواته ويستولون على جميع وسائل إنتاجه . لذلك أصبح الشعب الجزائري فقيراً وبلاده غنية وجاهلاً وهو متعطش إلى العلم .

واعترف البيان بأن ثورة أتاتورك قد أثرت على النخبة الجزائرية فجعلتها ترغب في بناء الجزائر الجديدة على الأساليب الغربية أيضاً ، كما فعل أتراك سنة 1922 . ونتيجة لذلك الاستغلال أصبح المعمرون اقطاعيين في الجزائر فعارضوا كل إصلاح منذ الثمانينات من القرن الماضي رغم أن الجزائريين قد حاربوا عدة مرات من أجل حرية فرنسا وضحوا بأنفسهم . ومنذ استيلاء بيتان على الحكم أيده المعمرون وساروا معه في سياسته العنصرية . وبعد نزول الحلفاء الجزائر أصبح المعمرون معزولين ولكنهم بالنسبة للجزائريين ظلوا يسلُكون نفس السياسة ، غير أن السياسة الأبوية التي اتبعوها قد فشلت .

ومن هنا وجب البحث عن الخروج من هذا الوضع ، ان الاستعمار قد ترك الجزائريين والفرنسيين متباعدين ، كما أن الاستعمار لم يستطع أن يحل المشكل اقتصادياً . وقد مضى الوقت الذي كان فيه الجزائريون يرضون ببقائهم مسلمين فرنسيين فقط . إن الحل الجديد يكمن في الاعتراف بوجود كيان جزائري وجنسية لأنه هو الحل الوحيد الذي يضمن لهم الأمن والاحترام . وقد أعلن الرئيس روزفلت أن الحلفاء يضمنون حقوق جميع الشعوب في العالم الجديد سواء كانت كبيرة أو صغيرة ، وبناء على ذلك الإعلان فإن الشعب الجزائري يطلب منذ الآن وتفادياً لأي سوء تفاهم قد يحدث غداً ، ما يلي :

1 ـ استنكار الاستعمار وإزالته .

2 ـ تطبيق مبدأ تقرير المصير على جميع الشعوب .

3 ـ منح الجزائر دستورها الخاص (خارج الدستور الفرنسي) الذي يضمن حرية ومساواة جميع السكان بغض النظر عن العرق والدين ، وإنهاء الملكيات الإقطاعية باصلاحات زراعية كثيرة ومراعاة حقوق ومعاش العمال (البروليتاريا) الفلاحين ، والاعتراف بالعربية كلغة رسمية على قدم المساواة مع الفرنسية ، وحرية الصحافة وحق التنظيم والتجمع ، وحرية ومجانية التعليم لجميع الأطفال إناثاً وذكوراً ، وحرية العقيدة لجميع السكان وتطبيق مبدأ فصل الدين عن الدولة على جميع الأديان (إشارة إلى الدين الإسلامي الذي لم يبق الا هو غير مفصول عنها) .

4 ـ المشاركة الفورية والفعالة للجزائريين في حكومة بلادهم كما فعلت بريطانيا في الهند وكما فعل الجنرال كاترو في سورية وكما فعل بيتان والألمان في تونس .

5 ـ تحرير كل المحكوم عليهم والمساجين السياسيين من جميع الأحزاب .

وقد نص البيان على أن تحقيق هذه النقط سيضمن انضمام الشعب الجزائري باخلاص الى الصراع من أجل الحرية . إن الجزائر قد شاركت في الحرب العالمية الأولى ولم تحصل على شيء وهي لا ترغب أن تمر بنفس التجربة ، والبيان مؤرخ في النهاية بـ 10 فبراير سنة 1943 وموقّع من 22 شخصاً .

ولكن الفرنسيين وعلى رأسهم بيروتون الحاكم العام ، أحسوا بخطورة اللهجة التي استعملها الجزائريون وأدركوا أهمية المطالب التي يطالبونهم بها ، فتظاهروا

بقبول البيان من حيث المبدأ . وطلبوا من الوفد تقديم « خطة عمل » للإصلاح[34] . وكان الهدف من ذلك كسب الوقت أيضاً لأن فرنسا والحلفاء كانوا سنة 1943 في وقت حرج وما زالوا عندئذ لم يعبروا البحر الأبيض إلى أوروبا . ولعل وجود الحلفاء ساعد أيضاً على عدم اتخاذ الفرنسيين لموقف صارم كالذي فعله كاترو في سبتمبر من نفس العام مع فرحات عباس وعبد القادر السائح .

على كل حال ، عاد عباس ورفاقه وصاغوا خطة عمل أو ملحقاً للبيان كما أشار الفرنسيون وقدموا ذلك إليهم في 26 مايو[35] . وقد قدمت نسخة منه إلى ديغول في العاشر من يونيو . وتناول الملحق نفس النقط التي في البيان أيضاً : معنى نزول الحلفاء بالجزائر والاستعمار وعواقبه ، وفشل محاولات الإصلاح السابقة واستنكار قيام الذاتية المالية التي حصل عليها الكولون سنة 1900 . وطالب الملحق، كالبيان ، بقيام « أمة جزائرية » وتكوين دولة جزائرية قائمة على مبادىء الديموقراطية والحرية ، تضمن للجزائريين حق العيش والأمن والعظمة ، ولاحظ أن من بين أعضاء الفرقة التي كونها جيرو لتحرير فرنسا 90٪ من الجزائريين ، لذلك يجب ضمان أن التضحيات الجزائرية من أجل حرية الآخرين تؤدي إلى حريتهم هم أيضاً.

والملحق تضمن قسمين : القسم الأول عن الإصلاحات التي يمكن تأخيرها إلى ما بعد الحرب ، والقسم الثاني عن الإصلاحات التي يجب تحقيقها في الحال . ونص الأول على أنه في نهاية الحرب تصبح الجزائر دولة لها دستورها الخاص يضعه مجلس تأسيسي جزائري منتخب عن طريق الاقتراع العام من جميع سكان الجزائر.

أما القسم الثاني منه فقد تضمن ثلاثة أجزاء .

(أ) الاشتراك الفوري والفعال للممثلين الجزائريين في حكومة وإدارة الجزائر، وتحويل الحكومة العامة الممثلة لفرنسا إلى حكومة الجزائر وتتألف من وزراء بعدد متساو بين الفرنسيين والجزائريين، والتمثيل المتساوي للجزائريين والفرنسيين في جميع المجالس الجزائرية والتنظيمات الاستشارية، وتحقيق الإدارة الذاتية للدواوير

---

(34) تذهب بعض المصادر الى أن بيرك هو الذي كان وراء هذا التسويف وتمديد الحبل لعباس ورفاقه .

(35) بين تقديم البيان الأصلي والملحق أكثر من ثلاثة أشهر . ولعل المرء يتساءل عن الحاجة أو الظروف التي جعلت عباس ورفاقه لا يتقدمون بالوثيقة في أجل أقصر من ذلك .

والبلديات المختلطة، ودخول الجزائريين لكل الوظائف العمومية على أساس المساواة مع الفرنسيين، وإلغاء جميع القوانين الاستثنائية وتطبيق القانون العام على الجزائر.

(ب) المساواة أمام ضريبة الدم : إلغاء نظام التجنيد والخدمة العسكرية المعمول به تحت عنوان «أهلي» وتوحيد نظام التجنيد والمكافآت في الخدمة العسكرية (الرتب ، المعاش . . . الخ) ، ورفع العلم الجزائري في الفرق الجزائرية العاملة رفعاً لمعنوياتها .

(جـ) الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية : انشاء مصلحة للفلاحة الجزائرية لمساعدة الفلاحين. وإنشاء وزارة عمل تشرف على تطبيق القوانين الاجتماعية للعمال الجزائريين ، إنهاء التعليم المسمى بالأهلي ، ومنح الحرية في تعليم اللغة العربية ، وتوفير السكن ، وحرية الدين الاسلامي ، وحرية الصحافة باللغتين والترخيص بانشاء صحف في العاصمة ووهران وقسنطينة لتطلع وتقود الرأي العام الجزائري .

وقد لوحظ أن هذه الإصلاحات تعتبر « رمزية » ومؤقتة حتى تحرير فرنسا . عندئذ يشرع في تنفيذ ما جاء في القسم الأول. وقد كتب هذا بالجزائر بتاريخ 26 مايو 1943 وهو بدون توقيع ، لأنه تتمة للبيان[36] .

ويلاحظ على البيان وملحقه أنهما وثيقة تحتوي على مزيج من المطالب السابقة لحزب الشعب والعلماء والنخبة ، وإذا كان البيان رومانتيكياً ، بمعنى أنه يتناول القضايا عن بعد ، فإن الملحق قد لامس صميم المشكل ولكنه تلامس من وجهة نظر النخبة ، ويمكن القول بأن الملحق فيه تراجع عما جاء في البيان ، لا سيما في القسم الثاني منه ، ومع ذلك فقد تضمَّنَ كلاهما أرضية جديدة للحركة الوطنية . فالحديث عن الدولة الجزائرية ذات السيادة والأمة واللغة العربية الرسمية وفصل الدين عن الدولة والحكم على المطالب السابقة بأن الزمن قد تجاوزها ، والحديث عن توزيع الأراضي التي يحتكرها المعمرون ، كل ذلك إشارات جديدة في طريق تطور

(36) نصوص البيان والملحق في ساراسين ص 176 ـ 200 وفي عباس ص 141 ـ 147 أهم عناصرهما ، كما توجد في توينبي (مدخل 1939 ـ 1946) ص 240 وأرون ص 82 وجوليان ص 284 ـ 287 كثير من العناصر .

النخبة . وهي جميعاً تدل على أن عباس لم يكن يمثل عندئذ جماعة النواب والنخبة فقط ، ولكنه كان يتكلم أيضاً باسم حزب الشعب والعلماء .

وقد كُتب البيان والملحق من وحي التجارب الماضية للجزائريين مع الاستعمار وتظهر عليهما المرارة واليأس من فرنسا كما يظهر عليهما الثقة في الحلفاء وفي الشعب ، ولكن الحلفاء كانوا قد تركوا المسألة الجزائرية إلى فرنسا ، أما الشعب فقد كانت تنهشه الحرب من جهة والجوع من جهة أخرى . وسوف لا يغفر المعمرون للجزائريين هذه الجرأة في المناداة بالاستقلال والسيادة رغم أنهم أجلوا الإنتقام إلى ما بعد الحرب . لأن هذا التاريخ (بعد الحرب) يبدأ من 8 مايو 1945 عيد انتصار الحرية الذي احتفل فيه الفرنسيون بقتل أكثر من 45 ألف جزائري ، حسب معظم الروايات .

وبهذا الضغط الشديد الذي مارسه الجزائريون تحرك الفرنسيون نحو الإصلاح ولكن ببطء وتردد . من ذلك أن الحاكم العام أعلن أنه سيسهل على الجزائريين الحصول على الأرض ، ويرفع من أجورهم ويعتني بصناعاتهم التقليدية ويبني لهم مساكن جديدة . ويهتم بالمدارس الأهلية وبالصحة ونحو ذلك[37] ورغم أن هذه الأمور كانت مجرد وعود غير سياسية فانها تدل على أن حركة الجزائريين قد دفعت الفرنسيين إلى التفكير في فعل شيء ما ، رغم أن الهدف منه كسب الوقت كما لاحظنا . ومن جهة أخرى تحول جيرو نفسه الذي كان يرفض الاستماع الى حديث الاصلاحات ، فاقترح حسب مصادر ذلك الوقت ، إدخال إصلاحات لصالح الجزائريين وهي إصلاحات أشيع عنها أنها « ليبرالية للغاية »[38] والواقع أنه لم يتم شيء من ذلك . لأن بيروتون قد نحي عن الحكومة العامة وعوض بالجنرال كاترو في يونيو 1943 ، وجيرو قد جمده ديغول بعد وصوله إلى الجزائر في فاتح الشهر المذكور.

بدأ حكم ديغول وكاترو في الجزائر منذ يونيو 1943 . وبدأت أعمالهما تصدر باسم (لجنة فرنسا الحرة) التي كان يتزعمها الأول . وكان كاترو قد ولد في سعيدة

---

(37) (النيويورك تايمز) 23 فبراير 1943 ص 10 .

(38) (التايمز) 27 يوليو 1943 ص 3 .

بالغرب الجزائري . فكان خبيراً بشؤون الجزائر كما كان عارفاً بأحوال العرب والمسلمين. وقد تقلد مناصب متعددة في سورية وفي المغرب جعلته يشتهر بالليبرالية والتسامح حتى أن تعيينه بالجزائر قد استقبل في البداية على أنه سيكون عهد إصلاحات ليبرالية تفي للجزائريين ببعض الوعود التي كانت فرنسا قد قطعتها لهم منذ الثلاثينات . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق على يديه ، بالعكس فقد أعلن منذ البداية أنه من أنصار بقاء الجزائر فرنسية ، وأنه غير مستعد لمناقشة القضايا السياسية ، وهدد الوطنيين وسجنهم ، بينما استرد قرار كريمو إلى اليهود وأطلق الحرية للشيوعيين . وقد رفض أيضاً البيان الجزائري الذي كان سلفه قد وعد بدراسته وجعله قاعدة الإصلاحات المقبلة . ومما أعلنه كاترو أثناء حكمه أن هدفه هو ربح الحرب ، وأنه غير مستعد لمناقشة إجراءات غير ناضجة وغير مدروسة ، وأوضح أن كل المحاولات التي لا ترمي إلى الإبقاء على « الوحدة الكاملة بين الجزائر وفرنسا سيكون مآلها الرفض » لأن الجزائر « جزء لا يتجزأ من فرنسا »[39] وأصر على أن « الجزائر فرنسية وستظل فرنسية » . ولكنه خاطب الجزائريين بهذه العبارات المعسولة « إنكم أيها المسلمون لم تتمتعوا وسط المجموعة الفرنسية بالمكانة التي كان عليكم أن تتبوأوها شرعياً . وإني أعتقد ، وكنت أعتقد دائماً ، أنه حان الوقت لتحصلوا عليها »[40] .

ولكن كاترو ، الذي لم يكن مستعداً أن يغير من عقلية الجزائر الفرنسية أطلق على حركة البيان الجزائري التي ظهرت خلال سنة 1943 اسم « العاصفة » التي وعد بوقفها مهما كان الثمن . فقد اعترف في مذكراته أن الجزائريين قدموا بيانهم إلى سلفه ، وهو يتضمن المناداة بإقامة جمهورية جزائرية . ولكنه قال إن ذلك جاء نتيجة «عاصفة من التحرر هبت من الشرق ومن وراء الأطلسي فوق شمال أفريقية» ولذلك فإنه « من الحكمة وقف هذه العاصفة »[41] . وهذا ما فعله ، ولكنه لم ينجح . فالجزائريون قدموا نسخة من ملحق البيان الذي أعدوه بتاريخ 26 مايو 1943 إلى الجنرال ديغول يوم 10 يونيو وإلى ممثله كاترو يوم 11 منه . وفي 26 منه أيضاً وافقت

---

(39) جوليان ص 294 ـ 295 .

(40) (فرنسا الحرة) جـ 5 عدد 8 (15 أبريل 1944) ص 293 .

(41) كاترو « في معركة البحر الأبيض » جوليار ، باريس 1949 ص 431 .

عليه اللجنة التي عينتها الحكومة العامة كما صادق عليه مندوب الحكومة[42] . ومع ذلك فإن الفرنسيين وقفوا مواقف المتحرشين بالجزائريين . فخلال يوليو من نفس العام وقع حادث في مدينة سكيكدة ذهب ضحيته حوالي ثلاثين جزائرياً على يد الجنود الفرنسيين ، ولم تتحرك السلطات الفرنسية بأية حركة ردع أو عقاب[43] ولكن عندما رفض الجزائريون حضور جلسة الوفود المالية في 22 سبتمبر وأصروا على مراعاة ما جاء في البيان الذي قدموه إلى السلطات الفرنسية، قام كاترو بحل مجلس الوفود المالية واعتقال السيدين فرحات عباس وعبد القادر السائح ونفيهما إلى إحدى قرى جنوب إقليم وهران[44] .

إن كاترو الذي كان يعرف جيداً نفسية الجزائريين الموظفين قد قام بهذه الحركة لاشعارهم بقوة فرنسا وإعطائهم درساً . وليعرف أيضاً مدى صلابة موقفهم وتأثيرهم في الرأي العام . وقد تبين له بعد هذه الحركة القوية ضدهم أنهم غير متماسكين وأن قوتهم ظاهرية أكثر منها تنظيمية خفية . فقد تقدم اثنا عشر من الموقعين على البيان الجزائري واعتذروا للحاكم العام عما بدر منهم من مقاطعة لاجتماعات مجلس الوفود المالية . وأكدوا له « وطنيتهم وولاءهم لفرنسا » وأعلنوا له أن الإصلاحات التي نادوا بها يجب أن تكون « في نطاق الشرعية والنظام الذي تقوم عليه المجموعة الفرنسية وطبقاً لمبادىء الديمقراطية الفرنسية » ووعدوا لجنة فرنسا الحرة بتعاونهم لتحرير فرنسا وانتصار الديموقراطية[45] وهذا الموقف المتخاذل من بعض موقعي البيان قد أضعف الحركة الوطنية التي انطلقت منذ نهاية سنة 1942 ، كما يدل على نجاح الخطة الفرنسية التي أشرنا إليها والتي تقوم على كسب الوقت وإحداث ثغرة في صفوف حركة البيان . وهو أخيراً يبرهن أيضاً على عودة السيطرة الفرنسية النفسية على الموظفين الجزائريين الذين كانوا قد شعروا بقبضة فرنسا تخف قليلاً منذ سنة 1940 .

---

(42) جولیان ص 286 .

(43) عباس ، ص 148 .

(44) أرون ص 83 لم تجتمع الوفود المالية منذ 1939 وقد دعاها كاترو للاجتماع غاضاً النظر عما جاء في البيان الجزائري .

(45) نوشي ص 137 .

غير أن عملية الاعتقال وحل الوفود المالية قد أثارت ردود فعل مختلفة . فالفرنسيون دافعوا عن أنفسهم أمام الحلفاء بأن الجزائريين قاموا بحركة خطيرة لا يمكن التسامح معها زمن الحرب ، وأن عملية الاعتقال كانت في صالح الجزائر الفرنسية والحلفاء معاً . ونشرت وكالات الأنباء المعاصرة بأن الاعتقال قد حدث لأن المعنيين بالأمر قاموا بالعصيان المدني ، وحاولوا تعطيل المؤسسات العمومية (المقصود بذلك مجلس الوفود المالية) وإثارة الشعب خلال الحرب[46] وعلقت بعض الصحف عندئذ بأن الخطر كان محتملاً أكثر منه واقعياً ، وأن لا أحد من الأمريكان أو الانكليز بقادر على فهم ما جرى بالضبط لأنه لا يعرف رأي الطرف الآخر من القضية ، وأن عباس وزميله عبد القادر السائح قد تحركا لأسباب شخصية أكثر منها سياسية[47] ولكن بعد مضي الوقت وإطلاق سراحهما تبين للحلفاء بالخصوص أن ما قام به الفرنسيون كان عملاً خطيراً .

ذلك أن العواقب كانت وخيمة لدرجة أن السلطات الفرنسية تراجعت عما ارتكبته . فقد أضر ذلك بسمعة فرنسا بينما رفع من سمعة عباس . ولاحظ الأمريكان والإنكليز أن عواطفهم كانت مع الزعماء الوطنيين (بعد أن تخلوا عنهم للفرنسيين) كما لاحظوا أن الفرنسيين قد خسروا في أعين الجزائريين هيبتهم اثر العمل بقرار كريميو ليهود الجزائر . وذلك كله يدل على ضعف فرنسا في نظرهم لا عن قوتها[48] . وبالإضافة إلى إطلاق سراح النواب المعتقلين خلال ديسمبر 1943 ، كان كاترو قد عين لجنة جديدة في 14 نوفمبر من ستة عشر عضواً لدراسة إصلاحات تخص المسلمين الجزائريين. وهناك أيضاً خطبة الجنرال ديغول في قسنطينة في الثاني والعشرين من ديسمبر التي وعد فيها بالإصلاحات للجزائريين. فَحَرَكَةُ جماعة البيان في سبتمبر لم تذهب إذن سدى . وستكون سنة 1944 سنة الإصلاحات ، على الطريقة الفرنسية طبقاً .

وقبل أن ندخل في غمرة هذه الإصلاحات وما تلاها من ردود فعل نود أن نقف

---

(46) (النيويورك تايمز) 24 سبتمبر 1943 ، ص 4 .
(47) نفس المصدر ، 25 سبتمبر 1943 ص 4 .
(48) نفس المصدر 21 يناير 1944 ص 3 .

قليلاً عند عودة العمل بقرار كريميو الخاص باليهود ، فبضغط من الولايات المتحدة الأمريكية أعاد ديغول الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر بتاريخ 21 أكتوبر 1943 . وقد سبق ذلك رسالة كتبها وزير الخارجية الأمريكية عندئذ ، السيد كـورديل هـول إلى رئيس لجنة العمل اليهودية في أمريكا ، السيد أدولف هيلد ، يعده فيها بعودة العمل بقرار كريميو إلى يهود الجزائر . كذلك توقف وزير الخارجية الأمريكية هول ، في الجزائر وهو في طريقه إلى موسكو وتحدث إلى ديغول في الموضوع. وقد اتخذ القرار في غياب جيرو الذي كان سبق له أن رفضه بحجة أنه سيثير المسلمين الجزائريين . وأدى ذلك الى اتهام الأمريكيين له وللحاكم العام عنـدئذ السيـد بيروتـون بمعاداة السامية[49] .

ويلاحظ أن ديغول قد أعاد القرار باسم لجنة فرنسا الحرة مؤكداً بأن هذه الخطوة تترك الباب مفتوحاً أمام اللجنة « لتقرر أيضاً ما تراه في شأن مستقبل الأصناف الأخرى للسكان الجزائريين »[50] وهو يشير بذلك إلى الإصلاحات التي كان ينوي إدخالها على أحوال المسلمين الجزائريين ، ولذلك فإنه لم يحن شهر ديسمبـر حتى أعلن ديغول من قسنطينة عن برنامجه للمسلمين ، كما سنرى . ولم يثر هذا الإجراء (قرار كريميو) أي ردود فعل من جانب المسلمين رغم تخوف الحلفاء ولجنة فرنسا الحرة من عواقبه . غير أن الحلفاء توقعوا حسب المصادر المعاصرة أن تخطو فرنسا خطوة أخرى لإرضاء الجزائريين . ولكن بعد عـدة أشهر وبعـد إعلان ديغـول عن الإصلاحـات للمسلمين أصبحت هذه المصادر تتحدث عن العواطف القوية المعادية لليهود نتيجة قرار كريميو . لكن ما يثير الاستغراب حقاً هو أنها نسبت إلى الشيوعيين دور المصلح بين العرب واليهود حين قالت عن الشيوعيين أنهم كانوا يحاولون زرع الانسجام بين الفريقين[51] .

---

(49) مورفي ص 160 ـ 161 لام مورفي أيضاً يهود أمريكا على ضغطهم على حكومة الولايات المتحدة وجهلهم بحراجة الموقف ، وقال أن الحلفاء وكذلك حبر اليهود في الجزائر كانوا موافقين على تأخير عودة القرار لحراجة الموقف .

(50) (النيويورك تايمز) 22 أكتوبر 1943 ص 11 وكريميو هو الوزير الفرنسي اليهودي الذي منح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر بقرار وزاري سنة1871 .

(51) نفس المصدر وكذلك عدد 23 أكتوبر 1943 ص 3 وعدد 21 يناير 1944 ص 3 .

وفي الثاني عشر من ديسمبر 1943 أعلن الجنرال ديغول في خطبة له بمدينة قسنطينة عن الإصلاحات التي تنوي لجنة فرنسا الحرة تطبيقها بالنسبة للجزائريين . وقد وعد ديغول مستمعيه بأن هذه الإصلاحات تشمل : (1) المنح الفوري للجنسية الفرنسية لعدة آلاف من الجزائريين بدون الاشتراط عليهم التخلي عن أحوالهم الشخصية الإسلامية ، كما كان مطلوباً من قبل[52] . (2) زيادة نسبة عدد الممثلين الجزائريين في المجالس المحلية . (3) الاحتفاظ بعدد من الوظائف الإدارية لعدد من الجزائريين الذين تتوفر فيهم الكفاءة . ويلاحظ أن هذه النقط كانت قد وافقت عليها لجنة فرنسا الحرة مسبقاً في اجتماعها يوم 11 ديسمبر[53] .

وقد كثرت التعاليق عندئذ على هذه الإصلاحات التي جاءت متأخرة عن موعدها بحوالي ثلاثة عقود . فمنذ 1912 طالب الجزائريون (النخبة) بالمساواة مع الفرنسيين في الحقوق السياسية دون التخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين . وتكرر ذلك على يد الأمير خالد وأنصاره . ثم على يد حركة المؤتمر الإسلامي التي ارتفع فيها صوت النخبة والنواب بالخصوص ، مطالبين بتحقيق برنامج فيوليت الذي يتضمن ذلك . وقد رأت لجنة فرنسا الحرة أن هذه الإصلاحات ستزيل آخر عقبة في طريق « التطور السياسي » للجزائريين وهو أمر طال انتظاره . وعلقت على ذلك صحيفة بريطانية محافظة بقولها ان هذا الإجراء جعل المسلمين الذين سبق لهم أن طلبوا الجنسية الفرنسية وتخلوا عن أحوالهم الشخصية الإسلامية يعودون إلى « فراش موتهم »[54] وسنرى كيف استقبل الجزائريون المعنيون بالأمر هذه الإصلاحات يوم أعلن عنها رسمياً في شكل قرار .

واثر خطبة ديغول تعينت لجنة من ستة عشر شخصاً لدراسة موضوع الإصلاحات وتقديم توصيات إلى لجنة فرنسا الحرة . وقد كانت هذه اللجنة تتكون من ستة جزائريين وستة فرنسيين وأربعة من الموظفين في الإدارة الفرنسية . ومعنى ذلك أن الجزائريين كانوا بنسبة ستة إلى عشرة فرنسيين . بينما العدد الحقيقي للسكان

---

(52) كاترو ، ص 435 ـ 436 .
(53) (فرنسا الحرة) جـ 5 (15 أبريل 1944) ص 293 ـ 294 .
(54) (التايمز) 15 ديسمبر 1943 ص 3 .

كان بنسبة عشرة إلى واحد . وبالإضافة إلى ذلك فإن الستة جزائريين في اللجنة كانوا « موالين » لفرنسا ، وقد اختيروا اختياراً دقيقاً . حتى الشيخ الطيب العقبي الذي نجده في هذه اللجنة كان من مؤيدي فرنسا عَشِيَّة الحرب . وكان ذلك سبب استقالته من المجلس الإداري لجمعية العلماء قبل الحرب (1938) . أما بقية الستة فهم : تامزالي ، وابن جلول ،والشيخ القاسمي ،وفضيل ،وقاضي عبد القادر ،وابن قانة .

ولم تكن هذه اللجنة في الحقيقة سوى واجهة غير صلبة للديموقراطية الفرنسية لأن لجنة فرنسا الحرة في الواقع كانت قد توصلت إلى محتوى قرار مارس الذي سنتحدث عنه قبل اجتماع لجنة الستة عشر . وعلى كل حال فقد اجتمعت هذه اللجنة في الفترة ما بين 21 ديسمبر 1943 و 8 يوليو 1944[55] . وأثناء انعقادها توجه ديغول إلى إفريقية وألقى في يناير 1944 خطبته المشهورة في برازافيل وهي الخطبة التي أعلن فيها أن هدف السياسة الفرنسية هو جعل الشعوب المستعمرة تحكم نفسها . ولا شك أن الشعب الجزائري لم يكن في ذهن ديغول وهو يتحدث عن الشعوب المستعمرة لأن الفرنسيين كانوا يعتبرون الجزائر جزءاً من فرنسا ، وهي دائماً لها حالة خاصة[56] .

صدر أمر (أوردننس) الإصلاحات الفرنسية الخاصة بالجزائريين في 7 مارس 1944، من مدينة الجزائر حيث تحكم لجنة فرنسا الحرة وحيث عاصمة فرنسا الجديدة قبل تحرير باريس من الألمان . وقد وصفت هذه الإصلاحات بأنها « سياسية » . وجاء في البند الأول منها أن الجزائريين سيتمتعون بنفس الحقوق ونفس الواجبات التي للفرنسيين . وجاء في البند الثاني أن الجزائريين والفرنسيين متساوون أمام القانون . وأن القوانين الاستثنائية قد ألغيت. وأن المسلمين سيخضعون للشريعة الإسلامية في الأحكام .

ونص البند الثالث على أن الأصناف التالية من الجزائريين سيتمتعون بالجنسية الفرنسية ويسجلون في هيئة الإنتخاب الفرنسية (وهي غير هيئة الإنتخاب الجزائرية) : قدماء المحاربين في الجيش الفرنسي الحاصلين على شهادة من مدرسة

---

(55) نوشي ص 138 وجوليان ص 296 .
(56) أرون ص 83 .

فرنسية معترف بها (وتوجد قائمة بالمدارس المعترف بها) ، والموظفون المدنيون من طرف الدولة أو الولاية أو البلدية ، والعاملون في وظائف دائمة ، وأعضاء الغرفة التجارية والفلاحية ، والباشاغوات والقياد (ألقاب لموظفين ـ حكام باسم فرنسا) ، والأشخاص الذين مارسوا أو يمارسون وظيفة إنتخابية في المجالس المالية أو الإستشارية أو البلدية ، وحاملو أوسمة الشرف (ليجون دونور) أو القلادات الرسمية ، وأعضاء مجالس اتحاد العمال المعترف بها والذين تولوا المهمة فيها ثلاث سنوات على الأقل ، والهيئة الإدارية من عمال وفلاحين للجمعية الأهلية الخيرية وفروعها (لا سيب). ونص البند الرابع على أن هناك جزائريين آخرين سيحصلون على الجنسية الفرنسية وأن المجلس التأسيسي الفرنسي المنتظر سيضع الإجراءات الضرورية لهؤلاء.

وقد لوحظ أن كل جزائري ذكر بلغ الواحدة والعشرين أو أكثر له الحق في الإستفادة من قانون 3 فبراير 1919 فيما يتعلق بالتمثيل في المجالس المحلية (حق الإنتخاب) ولكن بشرط أن لا يزيد تمثيل الجزائريين على نسبة 2 إلى 5 من مجموع الأعضاء في هذه المجالس (والباقي للفرنسيين ـ رغم اختلاف نسبة عدد السكان الواضحة) ومما يلاحظ كذلك أن منطقة الصحراء ومنها بلاد ميزاب، لم يغير من وضعها هذا الأمر شيئاً ، بل نص بالبند السادس على أنها ستظل كما كانت في الماضي تخضع للحكم العسكري مباشرة . أما البند الخامس من الأمر فقد أكد على أن جميع الفرنسيين في الجزائر لهم الحق في الإنتخاب ، وكذلك الترشح للمجالس الجزائرية بدون قيود[57] .

ويقضي الإصلاح الجديد تجنيس من 50 إلى 70 ألف جزائري مع بقائهم على حالتهم الإسلامية ، وهذا يسمح لهم بالمشاركة في الإنتخابات للبرلمان الفرنسي بقسميه : غرفة النواب ومجلس الشيوخ كما يسمح لهم بالمشاركة في إدارة الحكومة العامة بالجزائر . كما أن القرار وسع القاعدة الإنتخابية الجزائرية ولكنه قيدها بألا يتجاوز عدد الجزائريين في المجالس المحلية خمسي الأعضاء . وبالإضافة إلى ذلك سوى هذا القرار بين الجزائريين والفرنسيين في رواتب الجندية والمنح العائلية للجنود

---

(57) أنظر النص في مجلة (فرنسا الحرة) جـ 5 عدد 6 (15 مارس 1944) ص 277 .

أيضاً ، ورواتب الموظفين في الحكومة والتجنيد العسكري والاستفادة من قوانين الضمان الاجتماعي ، وحرية الهجرة لفرنسا كما أزال القوانين الاستثنائية التي طالما شكا منها الجزائريون كقانون الغابات والمسؤولية الجماعية ومنع حمل السلاح ونحوها[58] .

وكما نظرت لجنة الستة عشر في الإصلاحات السياسية للمسلمين ، نظرت أيضاً في بعض الحالات الاجتماعية . من ذلك دراسة الأوضاع المعاشية في المدن والقرى للجزائريين والأحوال الصحية والمساعدات الطبية وتطبيق نظام الضمان الاجتماعي على العمال الجزائريين وتصنيع الجزائر ، والعناية بالصناعة التقليدية الأهلية ، وتعميم التعليم على أطفال الأهالي ، والحياة الريفية . لكن ما يلاحظ على هذه المسائل أن بعضها كان سيدخل حيز التنفيذ بعد عشرين سنة وأخرى بعد ثلاثين سنة[59] .

وقد كانت هذه الإصلاحات محل تعليق لدى غير الجزائريين . فهي أولاً جاءت متأخرة عن موعدها ، وهي ولا تعني التطبيق الفوري ، فالقانون ينص على أن الأمور ستأخذ مدة طويلة وفترة إنتقالية . والأمر وإن كان قد حاول إرضاء النخبة والنواب وقدماء المحاربين فإنه لم يحل مشكلة الجماهير الجزائرية . حقاً أنه نص على إلغاء (قانون الأهالي) والقوانين الاستثنائية الأخرى . ولكن ذلك لن يتم على عجل ، كما أن نسبة الجزائريين ظلت دائماً نسبة أدنى من عدد الفرنسيين في المجالس المحلية . وبذلك احتفظ الفرنسيون دائماً باليد العليا في الشؤون الجزائرية ولا يستطيع الجزائريون رغم أغلبيتهم في الوطن ، التأثير على مصير بلادهم . لذلك رفضه الجزائريون حتى الذين كانوا في العشرينات والثلاثينات يطالبون بأهم بنوده . أما لجنة فرنسا الحرة فقد اعتبرته دليلاً على حسن نية فرنسا في تطوير الجزائر ورفع مستوى سكانها[60] . ورحبت به الصحيفة البريطانية (التايمز) واعتبرته دليلاً على أن فرنسا ، ما زالت تعتقد في قوتها التي باستطاعتها أن تدمج الناس من كل العقائد

(58) نفس المصدر جـ 5 (15 أبريل 1944) ص 294 ـ 296 وكذلك أرون ص 83 .
(59) نفس المصدر .
(60) نفس المصدر ص 292 .

والألوان تحت وحدة شعارها المتمثل في الحرية والمساواة والاخاء . وقالت عنه أن العالم الإسلامي وأصدقاء فرنسا في كل مكان سيرحبون بـه ، ولكنها لاحـظت أنه « صيغ بدقة وحذر » وأنه لم يمنح المساواة إلا لعدد ضئيل من الجزائريين تاركـاً مصير البقية منهم إلى المجلس التأسيسي الفرنسي المقبل[61] .

أما الجزائريون فكان ردهم على أمر 7 مارس 1944 الرفض ، بـاستثناء قلة منهم تمثل الموظفين الضالعين في ركاب السلطة الفرنسية والذين لا يستطيعون أن يحركوا ساكناً في مثل تلك الظروف . حتى النخبة التي كانت معنية بالدرجة الأولى عارضته . وقد ظهر في هذه الأثناء السيد فرحات عباس ليملأ الفراغ السياسي الذي تركه غياب ابن باديس ومصالي والعقبي وابن جلول . فألف عباس عندئذ منظمة سماها أصدقاء (أحباب) البيان الجزائري ، وهي المنـظمة التي أصبحت نشيـطة تستقـطب آمال الجـزائريين على مختلف اتجـاهاتهم خـلال الحـرب ، وتعبـر عن تمسكهم برفض الأمر المذكور . وقد قامت بتعليق لافتات بالعربية في أهم المدن الجزائرية تعلن « لا للجنسية الفرنسية ، نعم للجنسية الجزائرية . وتسقط الجنسية الفرنسية ، وتعيش الجنسية الجزائرية للجميع »[62] .

وقد قام عباس بالاتصال بمصالي في معتقله بقصر الشلالـة وكذلـك بممثلي العلماء وكون معهم « جبهة متحدة » أصبح هو المتحدث باسمها . وسرعان ما ظهرت منشورات سرية تنادي الجزائريين بمقاطعة الإنتخابات البلدية التي كانت متوقعة . وأعلن عباس نفسه في يونيو 1944 أن الوضع خطير وأنه لا يمكن الإنتظار حتى تتحرر فرنسا بينما الجزائر ما تزال أرضاً فرنسية[63] وكان للأصدقاء جريدة أسبوعية بـاسم (المساواة) تأسست في 15 سبتمبر سنة 1944 وظلت تدافع عن أهدافهم . ونادوا الجزائريين بعدم تسجيل أسمائهم في هيئة الإنتخابات الفرنسية وبمقاطعة التصويت

---

(61) (التايمز) 27 مارس 1944 ، ص 5 .

(62) أرون ص 100 ، تأسس (أصدقاء البيان والحرية) في سطيف يوم 14 مارس 1944 حسب رواية جوليان ص 299 ويوم 15 منه حسب توينبي (مدخل 1939 ـ 1946) ص 422 ـ 423 .

(63) نفس المصدر لقد وزع منشور في فبراير 1945 شبيه بمنشور جبهة التحرير سنة 1954 وكان موقعاً من العلماء ومن حزب الأصدقاء . وكانت خطبة عباس في خنشلة يوم 15 يونيـو 1944 ، أنظر أرون ص 100 .

فيها . وانطلقت أصوات العلماء تنعت من يقبل بالجنسية الفرنسية بالكفر والخيانة . وكان بعض القياد يدافعون عن قرار مارس ، ولكن الحملة التي وجهها ضدهم الأصدقاء والعلماء جعلتهم يتخلون عن موقفهم . وقد وعد عباس على لسان الأصدقاء بأنهم سيعملون على توزيع الثروات على الفلاحين والبروليتاريا الوطنية ، وأنهم يقفون ضد الإقطاع والطبقات الممتازة ، وأنهم يهدفون إلى إقامة جمهورية جزائرية مرتبطة بفرنسا بعد أن تتحرر من فكرة الإستعمار والأمبريالية[64] . وبعد عشرين سنة وصف عباس قرار مارس بأن الحوادث كانت قد تجاوزته وإنه كان عبارة عن خلاصة لمشروع فيوليت ـ بلوم سنة 1936 وأن الشعب الجزائري كله رفضه باستثناء قلة من النواب التابعين للإدارة الفرنسية[65] .

وقد اعترف الحاكم العام كاترو الذي كان مسؤولاً على إصدار أمر مارس بأن الوطنيين المناضلين ، لم يقبلوا بالقرار لأنهم وجدوه غير كاف ، حسب تعبيره ، وطالبوا من أجل ذلك بالحقوق السياسية ، أما المعمرون الفرنسيون فقد قبلوه ، بناء على كاترو أيضاً ، « بدون اغتباط » باعتباره أمراً واقعاً . وقبوله من طرفهم يعد حسب رأيه ، « ثورة » في أعماقهم نظراً للأخطار التي تحدق بهم من أجله . . ومع ذلك قبلوا أمر الحكومة (حكومته) بالأخذ بيد الجزائريين في طريق « التطور »[66].

وفصل أحد المؤلفين الفرنسيين المختصين في شؤون شمال إفريقية أصناف الجزائريين في موقفهم من أمر مارس هكذا : رحب به المعتدلون ، ورفضه الإبراهيمي (العلماء) ومصالي (حزب الشعب) ، وطالب عباس بإقامة علاقة بين الشعبين (الجزائري والفرنسي) ، وطالب أوزقان (شيوعي جزائري) بزيادة الحقوق السياسية للجزائريين[67] . ولا ندري كيف يصبح عباس ـ الذي نادى بمقاطعة تطبيق الأمر وتكوين جمهورية جزائرية في ظل فرنسا متحررة من الاستعمار ، والذي كون

---

(64) جوليان ص 299 يقول جوليان أن وقوف عباس إلى جانب الطبقات المحرومة دليل على تأثير مصالي عليه .

(65) عباس ص 149 ـ 150 .

(66) كاترو ص 437 .

(67) جوليان ص 97 . من المعروف ان الشيخ الإبراهيمي قد أطلق سراحه من معتقل (آفلو) خلال ربيع 1943 .

(حزب أصدقاء البيان والحرية) ـ لا ندري كيف يوصف بأنه من أنصار العلاقة بين الشعبين ، ولا يوصف بأنه من صنف الرافضين للقرار . حقاً أن عباس قد دعا إلى فكرة (الفيدرالية) مع فرنسا. ولكن ذلك كان يمثل مرحلة جديدة فقط في تطور تفكيره السياسي ومبدئه الوطني وليس قبولاً لمحتوى إصلاحات 1944 .

ومن نتائج هذه الاصلاحات أن لجنة قد اجتمعت بالقاهرة خلال مارس 1944 واعترضت على مشروع فرنسا في الجزائر . وتذكر المصادر المعاصرة أن اللجنة كانت بقيادة رجل يدعى الأمير المختار ، كانت السلطات الفرنسية قد طردته منذ سنوات خلت ، وتضم حوالي 34 شخصاً نصفهم لم يعش بالجزائر قط ، بل هم سوريون وفلسطينيون . وكانت هذه اللجنة تعد (مذكرة) عن الجزائر لتقديمها إلى الحكومات العربية التي قبلت بالميثاق الأطلسي . ذلك أن الجزائريين في اللجنة المذكورة قد نقموا على الإصلاحات الفرنسية في الجزائر لأنها ستقود في نظرهم إلى الإندماج الذي يرفضونه[68] . والظاهر أن أعضاء هذه اللجنة كانوا من المهاجرين الجزائريين في المشرق . ولعل من بينهم مغاربة وتونسيين ، وستكون هي مقدمة (مكتب المغرب العربي) الذي سيظهر في القاهرة في 1947 .

ومهما يكن من أمر فإن فترة 1942 ـ 1944 كانت فترة مليئة بالنشاط والتجارب للحركة الوطنية الجزائرية . حقاً أنها لم تحصل على ما كانت تريد لنقاط ضعف في صفوفها لم تستطع أن تتغلب عليها أو تتخلص منها في الوقت المناسب . وما كادت سنة 1944 تنتهي حتى كانت الحركة الوطنية أكثر صلابة وأكثر وعياً وأعمق تجربة ، بالإضافة إلى أنها قد دخلت مع الفرنسيين عهداً من التحدي والمواجهة لم تعرفه من قبل ، وهو العهد الذي انتهى بمأساة 8 مايو 1945 .

---

(68) (النيويورك تايمز) 28 مارس 1944 ص 10 ، أضافت هذه الجريدة أن جريدة (البلاغ) لسان حال حزب الوفد المصري كانت تخشى أن يكون الجزائريون في الجزائر راضين عن هذه الإصلاحات . وقد جاء في كتاب (الجزائر الثائرة) للفضيل الورتلاني ، بيروت ، 1956 ، ص 284 ـ 286 ، أن الأمير مختار الجزائري كان من الأعضاء المؤسسين لعدة تنظيمات لصالح الجزائر والمغرب العربي عموماً ، منها (جمعية الجالية الجزائرية) ، و (اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر) ، ثم (جبهة الدفاع عن افريقية الشمالية) التي تأسست في القاهرة في 18 فبراير ، 1944 برئاسة الشيخ محمد الخضر حسين ، وكان الأمير مختار نائباً له ، والشيخ الفضيل الورتلاني كاتباً عاماً لها .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الفصل التاسع

حادثة 8 مايو 1945

هل كانت حادثة 8 مايو 1945 ثورة فاشلة حاولها الوطنيون الجزائريون ضد الوجود الفرنسي في بلادهم ، فاستحقوا بذلك القمع الشديد الذي عانوه والدرس القاسي الذي أخذوه ، أو كانت مجزرة دبرها الفرنسيون ضد الجزائريين الأبرياء بينما كانوا يحتفلون بعيد انتصار الحلفاء الذي كان يرمز إلى انتصار الحرية والديموقراطية؟ سؤالان لو أجيب عليهما بلا أو بنعم لانفتح اللغز المعمى وتبين السر المبهم ، ولما كنا في حاجة إلى كتابة هذه الصفحات .

لقد كتب الكثير عن هذه الحادثة ، ولكنه غير كاف ، فما زال البحث عن جواب السؤالين هو ضالة المؤرخين . وأن الصفحات التالية تعد مساهمة منا في هذه القضية . ان هناك من وجه أصبع الاتهام إلى الوطنيين وحملهم مسؤولية التخطيط لثورة شاملة اكتشفت قبل أوانها فتعثرت وفشلت . وهناك من وجهه إلى الفرنسيين (على اختلاف أصنافهم . رسميون ، معمرون ، شيوعيون الخ) وحملهم مسؤولية حوك خيوط مؤامرة ضد الحركة الوطنية النامية التي ظهرت قوية في المذكرة التي قدمها قادتها الى الحلفاء ، والبيان الذي صاغوه سنة 1943 ، وجماعة أصدقاء البيان التي ظهرت سنة 1944 فانتقم منها الفرنسيون شر انتقام .

وأصول الحادثة في الحقيقة تعود إلى إنشاء (أصدقاء البيان والحرية) في شهر مارس 1944 ، وما تلا ذلك من نشاط ودعاية ويقظة وطنية ، فقد أدى ذلك الى اتصالات علنية وسرية بين قادة الحركة الوطنية ، وإلى محاولة تكوين جبهة متحدة للوصول إلى تحقيق أهداف البيان المعلنة في ملحقه والمؤجلة إلى ما بعد الحرب . وهذا النشاط غير المعتاد في نظر الفرنسيين قد أغضبهم وأثار تخوفاتهم ، فحاولوا وقفه عن طريق اللجان التي تنظر في الإصلاح ، والوعود التي تثبط العزائم ، ولم يجرؤوا على مواجهته في الحين لأسباب منها ضعفهم العسكري والسياسي في عين

الجزائريين ، وانشغالهم بتحرير بلادهم (فرنسا) من براثن الألمان ، وعدم اطمئنانهم إلى ردود فعل الحلفاء . لذلك كتم الفرنسيون نواياهم وظلوا يتحينون الفرصة بالحركة الوطنية الجزائرية الآخذة في التحدي والتصاعد . «يكفي أن نذكر هنا بالكلمة التي قالها الجنرال كاترو الذي كان حاكماً عاماً للجزائر ساعة صدور البيان وتأليف (أصدقاء البيان والحرية) والتي قال فيها بضرورة القضاء على هذه « العاصفة » وهو يعني بذلك الحركة الوطنية.

تألف حزب (أصدقاء البيان والحرية) في شهر مارس 1944 بمدينة سطيف (التي ستقع فيها حادثة 8 مايو) وتسجل رسمياً في ولاية قسنطينة . وقد ضم أعضاء من النواب والنخبة وحزب الشعب والطلبة والكشافة والعلماء . فكان عبارة عن جبهة مكونة من متحالفين أكثر منه حزباً سياسياً متماسك الأيديولوجية والعضوية . وكان السيد فرحات عباس هو كاتبه العام وفي نفس الوقت المسؤول السياسي على جريدة (المساواة ـ ايقاليتي) الأسبوعية التي كانت تصدر بالفرنسية وتعبر عن مبادىء الحزب الجديد . وقد تشجع أعضاؤه بالنفوذ الأمريكي ـ الإنجليزي في الجزائر وبالضعف الذي كانت تعانيه فرنسا . كما تشجعوا باستعداد الشعب للتضحيات . وخلال وقت قصير انضم عدد كبير من الأتباع إلى حزب الأصدقاء ، حتى بلغ عددهم خمسمائة ألف شخص . وكان هدفه المعلن الدفاع عن المطالب التي نص عليها البيان ونشر أفكار جديدة بين الناس ، واستنكار النظام الاستعماري في الجزائر . أما وسائله فكانت مساعدة ضحايا القوانين الاستثنائية والاضطهاد[1].

والمعروف أن حزب الشعب الجزائري ، كان قد حل منذ 1939 واقتيد أعضاؤه إلى السجن ، لذلك لم يكن في وسعهم العمل العلني . فانضم عدد كبير منهم إلى الحزب الجديد سواء عن اقتناع بأهدافه أو عن جعله ستاراً يحققون من ورائه أهدافهم . كما أن العلماء كانوا يساندون حزب الأصدقاء بالرأي والمال والتأييد المعنوي . ولا نستغرب أن يكون عدد منهم قد دخل في عضويته أيضاً[2] . ويرى

---

(1) عباس ص 150 أنشئت جريدة (المساواة) في 15 سبتمبر 1944 انظر جوليان ص 200 .

(2) ساراسين ص 11 ـ 12 ، وأرون ص 95 ـ 96 وبناء على الأخير فإن جريدة (المساواة) ظهرت في 13 سبتمبر .

بعض الكتاب الفرنسيين أن الشيوعيين أيضاً قد أيدوا حزب أصدقاء البيان فساندة كاتبهم العام السيد عمار أوزقان وأيدته جريدتهم اليومية (الجزائر - الجمهورية) وجريدتهم الأسبوعية (الحرية - ليبرتي) ، وأن التعاون قد بدأ بين الأحزاب الثلاثة (بالإضافة إلى حزب الشعب) منذ طالب الشيوعيون باطلاق سراح عباس والسائح خلال سبتمبر 1943 . كما أيدته جمعية الكشافة الإسلامية الجزائرية وأحباب الديموقراطية (منظمة شيوعية)(3) وعلى أية حال فإن حزب الأصدقاء سرعان ما تضخم عدد أتباعه وأصبح له حوالي 165 فرعاً في جميع أنحاء البلاد ، وأصبحت جريدته تطبع بين 300 و 500 ألف نسخة.

كان نشاط عباس ، الذي كان طليقاً ، خلافاً للزعماء الآخرين ، باستثناء الشيوعيين، قد حد به إلى إجراء اتصالات سرية مع مصالي والإبراهيمي(3). وبفضل مساعي عباس خفف السجن على مصالي قليلاً سنة 1943 فحول من لامبيز (تازولت) إلى الإقامة الجبرية في بوغار ومنها إلى قصر الشلالة . وخلال مرور مصالي بسطيف نزل ضيفاً عند عباس حيث قضى حوالي ليلتين . والظاهر أن الزعيمين قد تناقشا في الحالة السياسية الداخلية والخارجية وكانا متفقين في الهدف مختلفين في الخطة . فمصالي كان يرى أن لا أمل في تحرير الجزائر إلا عن طريق الثورة لأن فرنسا لا يمكن أن تذعن للضغط السياسي وحده ، بينما كان عباس يرى أن فرنسا الديموقراطية قادرة على تفهم روح ما بعد الحرب الثانية ، ومن ثمة تكون مستعدة للاستجابة لمطلب الوطنيين الجزائريين.

ومهما يكن الأمر فنحن لا نعلم ماذا دار بالضبط بين الزعيمين ولا ما اتفقا عليه فعلاً ، وكل ما يمكننا أن نخمنه هو أن مصالي قد وافق على ترك عباس يحاول تجربته وعلى أن يدخل أعضاء حزبه في حزب أصدقاء البيان والحرية ، على أن يحتفظ حزب الشعب لنفسه بحرية الحركة والتنظيم الثوري وتفجير الثورة عندما يراها مناسبة بعد فشل جهود عباس . ومعنى هذا أن حزب عباس قد أصبح غطاء لأعمال حزب

---

(3) أرون ، ص 96 - 99 وساراسين ص 18 . أما السيد قنانش فيرى أن (أحباب الديموقراطية) قد أسسها حزب الشعب في سبتمبر 1944 . (أي بعد تأسيس حزب أصدقاء البيان والحرية بعدة شهور) .

(3) مكرر ، سبق القول أن الإبراهيمي قد أطلق سراحه سنة 1943 ، فرجع إلى مقر إقامته بتلمسان .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

الشعب . ويؤكد السيد عباس أن مصالي قد وافق على عمله ولكن كان لـه بعض التحفظات عليه ، وكانت نقطة الخلاف بينهما أن عباس له ثقة في فرنسا بينما مصالي لم يكن له فيها ثقة[4].

وبينما الاتصالات جـارية بين القـادة لمحاولـة تنسيق الجهود وتكـوين جبهة متحدة ، انطلقت موجة من الدعاية والاجتماعات والمناشير تستهدف إعـداد الرأي العام وخلق جو من الحماس لمطالب البيان وغيرها ، ولا سيما منذ يناير 1945 . ففي هذا الشهر انعقد في الجزائر مؤتمر لحزب الأصدقاء أسفر عن المطالبة بإلغاء نظام البلديات المختلطة والحكم العسكري في الجنوب ، وبجعل اللغة العربية لغة رسمية ، وكان من بين الأعضاء في اللجنة المديرة للمؤتمر أعضاء من حزب الشعب أمثـال حسين عسلة، ومسطول ، والشـاذلي المكي ، والأمين دباغين ، وتـلا ذلك اجتماع آخر لأصدقاء البيان خلال مارس من نفس العام طالب فيه الحاضرون باطلاق سراح مصالي وصوتوا على لائحة في صالح برلمان وحكومـة جزائـرية ، ودار فيـه الحديث ، حسب المصادر الفرنسية المتأخرة ، عن القوة العربية بداخل البلاد[5].

وكانت هناك عوامل مساعدة على اتخاذ المواقف المتطرفة في نظر من يتهمون الوطنيين . فالأزمة الاقتصادية الحادة التي كانت تعانيها البلاد كانت حطباً يزيد في اشتعال الحماس للحركة الوطنية وكره الفرنسيين ، كما أن ميلاد الجامعة العربية وما صحب ذلك من ارتفاع معنويات وربط وشائج واتضاح آمال ـ قـد ساعـد الحركـة الوطنية ، وجعلها تنشط وتبحث عن نقط اللقاء لا نقط الخلاف[6] . وخلال فبراير 1945 ألصق منشور على الجدران في مدن الجزائر فيه : « أيها الأخوة المسلمون إن حياة بلادكم في خطر . فالاستعمار قد خربها مادياً . ان الشعب الجزائري لم يتمتع

---

(4) عباس ، ص 151 .

(5) أرون ، ص 104 . والواقع أن المطالب المذكـورة كانت في البيـان وليست جديـدة ، وقد قبلهـا الفرنسيون من حيث المبدأ . ولكن الهدف من ذكر مصالي وأعضاء حزب الشعب هو إتهام الحزب الجديد بأنه وقع تحت نفوذ قيادة حزب الشعب « الثوري المتطرف » الذي كان رسمياً منحلاً . وادعى السيد عباس أن أوغسطين بيرك قد لاحظ له تسرب العناصر المتطرفة من حزب الشعب في فروع حزب الأصدقاء فرد عليه عباس بأنهم أحرار في فعل ذلك ص 205 .

(6) جوليان ، ص 300 ويذكر المؤلف أن النخبة ـ بومنجل ، عباس ، وكسوس كانوا ضد التطرف .

بالحضارة لوجود المستعمر الفرنسي . فاللغة العربية مضطهدة منذ الاحتلال ، والإسلام أصبح محل سخرية . وأن كرامتنا لا يضمن لها الاحترام إلا في إطار (كيان جزائري) وحكومة جزائرية تقوم على سيادة الشعب الجزائري وترفض أية سيادة أجنبية . ومن أجل هذا الهدف مات أخوتكم في الزنازن ، وهم يعانون في السجون والمحتشدات ، ومنهم من يناضل بحماس في إطار الشرعية أو في الخفاء » .

وبعد أن استنكر المنشور أمر مارس 1944 ، الذي استنكرته أيضاً جمعية العلماء وحزب الشعب وحزب أصدقاء البيان ، طالب الجزائريين بعدم المشاركة في الانتخابات البلدية التي كان الفرنسيون يحضرون لإجرائها، وقد جاء فيه بالخصوص، أن الوسيلة الوحيدة (لأفشال هذه المناورة الفرنسية) هي مقاطعة التصويت في هيئة الانتخابات الفرنسية ، فلا تسجلوا أنفسكم في هذه الهيئة . وإذا كان هناك من سجل نفسه فلا يصوت . إن استرداد قسائم التصويت سيكون الدليل القاطع أمام العالم على أن الشعب الجزائري يريد أن يعيش مستقلاً . فلا تنسوا أيها الاخوة المسلمون الجزائريون أن عليكم أن تلعبوا دوراً بارزاً في تحرير شعبكم ، فتضحيات أولئك الذين ماتوا والذين يعانون ، والذين يناضلون سوف لا تذهب سدى . والا فسترتكبون جريمة نحو شعبكم ونحو الله الذي سيعاقبكم عاجلاً أو آجلا . إن عدل الشعب وعدل الله لا يظلمان ولا يرحمان[7] .

وقد تضاعفت المنشورات وظهرت الصحف السرية وكلمات السر والاجتماعات خلال ربيع 1945 . من ذلك المنشور الذي أصدره حزب الشعب الجزائري المنحل والذي طلب فيه من أعضائه تسليح أنفسهم بسرعة في وجه التطورات الجديدة[8] وظهور جريدة سرية بعنوان (العمل الجزائرية) ولعلها بالفرنسية . كما كثر الحديث، عن مهزلة الإصلاحات التي وعد بها ديغول ومساعده كاترو ، والمطالبة بمقاطعة الانتخابات وحث الجزائريين على عدم الاختلاط بالفرنسيين وحتى عدم العمل عندهم، وكانت عودة الجنود الجزائريين الذين ساهموا في تحرير فرنسا وأوروبا تثير فضول الناس وتبعتها روايات كثيرة عن الحرب وأهدافها ومشاعر الشعوب فيها[9] .

---

(7) النص في ساراسين ص 63 ـ 65 نقل جزءاً منه أيضاً أرون ص 105 .

(8) أرون ص 84 .

(9) نفس المصدر ص 92 ، 99 ، 100 .

وظهرت كذلك في عدد من المدن مثل بسكرة وجيجل ، وحمام المسخوطين وغيرها عبارات على الجدران توحي بأن هناك شيئاً يستحق الاستعداد . وقد ذكر أحد المعاصرين مجموعة من هذه العبارات مثل « استعدوا فإن ساعة الصفر قد قربت . وفلنعد أنفسنا للثورة . أيها الجزائريون حاربوا من أجل الحرية ، وموتوا إذا اقتضى الأمر ، ولكن لا هوادة مع المضطهدين ، أيها الجزائريون إن الجبال تناديكم . فساعة التحرير قد اقتربت »[10] .

وجاء في أحد التقارير الرسمية أن الجو كان مشحوناً بالتوتر بين الجزائريين والفرنسيين . ففي بجاية كتب أحد المعلمين الفرنسيين جملة على السبورة « إنني فرنسي وفرنسا وطني » فكتب التلاميذ الجزائريون بدلها هذه الجملة : « إنني جزائري ، والجزائر وطني » وكان أحد المعلمين يدرس الدولة الرومانية وحالة العبيد فيها فصاح التلاميذ الجزائريون عند الحديث عن العبيد قائلين « مثلنا نحن » ومن جهة أخرى ألغيت إحدى المقابلات في كرة القدم في عنابة لأن الفريقين أحدهما جزائري محض والآخر فرنسي محض ، وكان الأطفال الجزائريون يرمون الحجارة على سيارات النقل الفرنسية . وظهر الشك في الإخلاص للفرنسيين ، وقاطع الجزائريون المقاهي الفرنسية والعمل في المنازل الفرنسية[11] .

وكل هذه المظاهر تدل على أن الحركة الوطنية قد أخذت منعطفاً جديداً منذ ميلاد أصدقاء البيان والحرية وأن الوعي قد ازداد انتشاراً رغم قيود الحرب وحل حزب الشعب الجزائري واضطهاد العلماء . وبدل أن يتفهم الفرنسيون الظروف الجديدة التي ساعدت على هذه المظاهر راحوا يتحرشون بالحركة الوطنية ورجالها . فخلال مارس 1945 عبرت المجلة الكاثوليكية (الوقت الحاضر ـ لوطان بريزان) بأن الجزائريين أصبحوا يشكلون خطراً وأن الوضع أصبح صعباً على الفرنسيين[12] وكانت حكومة كاترو ، وبعدها حكومة شاطينو ، تريد وقف العاصفة ـ حسب تعبير كاترو ، ولكن الموقف مع الانكلو ـ أمريكان منعها من ذلك مؤقتاً وجعلها تؤجل الحسم في

---

(10) نفس المصدر ، ص 160 نقلاً عن تقرير كازانيو .

(11) نفس المصدر ص 93 ـ 94 نقلاً عن تقرير توبير .

(12) ساراسين ص 13 .

الموضوع إلى ما بعد الانتصار[13] .

ولما كانت السلطات الفرنسية عاجزة عن مواجهة حزب أصدقاء البيان والحرية خلال شتاء 1944 وربيع 1945 فإنها عمدت إلى إعادة مصالي إلى السجن في بوغار ـ بعد أن كانت خففت عنه ـ وكان ذلك يوم 18 أبريل 1945 . وقد أثار هذا موجة من السخط والمظاهرات لصالح إطلاق سراحه سواء من أعضاء حزبه أو من أعضاء الحزب الجديد كما أشرنا . وبدلاً من إطلاق سراحه نقلته السلطات الفرنسية إلى قصر الشلالة (حيث زاره عباس) ثم إلى المنيعة في أعماق الصحراء ومنها إلى برازافيل بأفريقية[14] وقد اعتبر الوطنيون هذه الحركة من الفرنسيين تحدياً لهم وإثارة لمشاعرهم في وقت كانت فيه البلاد تستعد للاحتفال مع الحلفاء بانتصار الحرية والديموقرطية .

هكذا إذن كان الوضع في الجزائر عندما حدثت ثورة أو مجزرة 8 مايو 1945 : وعي وطني وانتظار لساعة الخلاص من جانب الجزائريين وتربص واستعلاء من جانب الفرنسيين . فماذا حدث بالضبط ؟ يذهب بعض الكتاب إلى أن عباس ومصالي والإبراهيمي قد اجتمعوا سراً في قصر الشلالة في نهاية شهر أبريل واتفقوا على برنامج محدود وسلبي ، وهو مهاجمة الإدارة الفرنسية والإستعمار[15] ويرى كاتب آخر أن الزعماء الثلاثة قد اتفقوا على القيام بمظاهرة عامة يوم احتفال الحلفاء بالانتصار ، وكان الهدف من هذه المظاهرة هو الضغط على الفرنسيين بإظهار قوة الحركة الوطنية ووعي الشعب الجزائري بمطالبه ، ولكن المظاهرة التي حدد لها يوم الاحتفال بعيد النصر قد اعترى الإعداد لها شيء من الفوضى نتج عن تأخر الحلفاء في تحديد اليوم الذي سيقع فيه الاحتفال ، كما أن عباس زعيم حزب الأصدقاء والشخص الذي أصبح في مواجهة الأحداث ، قد اضطرب نتيجة حرب الأعصاب بين الأحزاب الوطنية[16] .

---

(13) نفس المصدر ص 77 .
(14) عباس ص 206 ـ 207 .
(15) نفس المصدر ص 99 ـ 100 .
(16) ساراسين ص 12 .

واشتد هبوب العاصفة يوم فاتح مايو 1945 اليوم العالمي للعمال . فقد عمت المظاهرات جميع مدن الجزائر . وكانت في أغلبها هادئة سلمية . ورغم تحرير فرنسا وعودة الديموقراطية والحرية إلى أوروبا، وتحقيق أهداف الميثاق الأطلسي بالنسبة للدول الكبرى ، فإن حزب الشعب الجزائري كان ما يزال ممنوعاً من ممارسة نشاطه ، وكان رئيسه قد أبعد من الجزائر تماماً ونقل كما أسلفنا إلى برازافيل ، بينما الأحزاب الأخرى ، يميناً ويساراً ، سمح لها بالعودة إلى الحياة الطبيعية . لذلك قام أعضاء حزب الشعب وأنصاره بمظاهرات يوم فاتح مايو نادوا فيها بتحرير مصالي واستقلال الجزائر واستنكروا فيها الاستعمار والاضطهاد ، ورفعوا فيها العلم الوطني .

وقد اتخذ بعض هذه المظاهرات شكلاً عنيفاً في عدد من المدن كمدينة الجزائر وبجاية وبسكرة . وادعى الفرنسيون أنهم اكتشفوا عندئذ « مشروع ثورة » في بجاية . وقتل في مدينة الجزائر شرطيان وجرح ثلاثة عشر ، بينما جرح اثنان في بجاية . ولا شك أن عدداً من المتظاهرين قيدوا إلى السجن وجرح آخرون منهم . وكانت مظاهرات مدن سطيف ووهران وعنابة وقالمة وغيرها أقل عنفاً . وقد اشترك في مظاهرات سطيف وحدها بين أربعة وخمسة آلاف شخص . وكان على رأس هذه المظاهرات في الغالب عناصر من حزب الشعب المنحل[17] وهكذا كان الجو عاصفاً منذ الفاتح من مايو ، وهو اليوم الذي اجتمعت فيه مناسبتان كبيرتان : عيد العمال وعيد الحرية الذي لم يعلن بعد عن الاحتفال به رسمياً .

وقد بدأ الاحتفال رسمياً في السابع من مايو عندما أعلن الحلفاء عن نهاية الحرب ، وسرعان ما شرع المعمرون والفرنسيون عامة في تنظيم « مهرجان الأفراح » ، لكن الجزائريين قاطعوه ونظموا مهرجانات خاصة بهم . وكانت هتافات الجزائريين تدور حول المناداة بحرية واستقلال الجزائر وإطلاق سراح رئيس حزب الشعب . ولم تظهر فيها عبارات العداء للفرنسيين . غير أن المصادر تذكر أن العلم الفرنسي قد مزق في هذا اليوم (7 مايو) وظهرت منشورات تنادي الجزائريين

(17) أرون ص 108 ـ 109 ـ وعباس 155 يقول عباس أن مصالي كان عندئذ تحت الإقامة الجبرية . والواقع أنه كان في برازفيل منفياً .

بالاتحاد لتحقيق النجاح[18] . وكانت السلطات الفرنسية هي التي أذنت للجزائريين بتنظيم المظاهرات بهذه المناسبة والمشاركة في أفراح انتصار الحلفاء الذي يرمز إلى انتصار مبادىء الميثاق الأطلسي . وقد حدث ذلك في مختلف مدن الجزائر وليس خاصاً بسطيف .

أما اليوم الثامن من مايو (الإثنين) الذي صادف في سطيف يوم السوق ، فقد تميز بأحداث عنف بدأت في سطيف خاصة ، ثم انتشرت منها إلى مدن أخرى مجاورة وبعيدة . وفي المظاهرات التي نظمت هناك والتي ابتدأت بالقرب من الجامع الكبير اشترك فيها ما بين 7 و 8 آلاف شخص . وكانت الكشافة تتقدم المظاهرات . وكانت الهتافات تتعالى بحياة الجزائر الحرة المستقلة ، وكان أحد أطفال الكشافة يحمل العلم الوطني . وكان المتظاهرون يحملون باقة من الزهور لوضعها على قبر الجندي المجهول . وتقدمت المظاهرة نحو هدفها حتى وصلت وسط المدينة . وفجأة أطلقت رصاصة أصابت الطفل حامل العلم فأردته قتيلاً في الحين . فتقدم آخر وحمل العلم ، ولكن المظاهرة اعتراها شيء من الإضطراب فانقسمت إلى مجموعتين واحدة واصلت المسيرة إلى هدفها ووضعت باقة الزهور على قبر الجندي المجهول ، والثانية انتشر أفرادها في شوارع المدينة واشتبكوا مع من قابلهم من الفرنسيين . وقد مات نتيجة ذلك عدد من الطرفين .

لكن السؤال الذي لم يجد جواباً بعد هو : من أطلق الرصاصة أولاً ؟ هناك عدد من الروايات يناقض بعضها بعضاً . فالسيد فرحات عباس يروي أن شرطياً تقدم من حامل العلم الذي يبدو أنه لم يكن « طفلاً » وأراد انتزاعه منه ، لكن هذا رفض وقاوم . فما كان من الشرطي إلا أن أطلق الرصاص فقتل حامل العلم . وتبريراً لذلك يذكر عباس أن والي قسنطينة (ليستراد كاربونيل) كان قد أذن بالمظاهرة بشرط أن لا يرفع فيها العلم الجزائري ، فإذا رفع فإن على الشرطة أن تطلق النار . وعلى كل حال فإن عباس يعتبر إطلق الرصاص وقتل حامل العلم وجرح آخرين بداية الحادثة

---

(18) أرون ص 114 يقول المؤلف أن أحد قدماء المحاربين الجزائريين (وكان الذين اشتركوا منهم مع الفرنسيين ستة فقط) قد هتف بحياة مصالي وديغول لكن الجموع الواقفة على جنبات الطريق كانت ترد بحياة مصالي فقط .

التي تحولت إلى مجزرة . ولكن عباس يذكر أن نائب والي قسنطينة لا يعرف إلى من منح الإذن بالمظاهرة ـ وقد ادعى (نائب الوالي) أنه كان يعتقد أنه كان واحداً من حزب أصدقاء البيان والحرية . لذلك لم يطلب منه طلباً مكتوباً . أما شيخ بلدية سطيف فلم يكن يعرف شيئاً عن المظاهرة . وأضاف عباس بأن قوات الشرطة الفرنسية والجيش والمدنيين قد طاردوا الجزائريين بعد تفرقهم من المظاهرة ، وكان هناك « عدد من القتلى والجرحى »[19] .

وهناك من الفرنسيين من يحمّل الشرطة مسؤولية إطلاق الرصاص وتحويل المظاهرة إلى مذبحة . من ذلك جيرمين تيون وجوزي أبو الكير . لكن الأخير يتهم حزب الشعب وحزب الأصدقاء بتنظيم الحادثة ووضع بعض القتلة فيها . ورأى آخرون أيضاً أن الشرطة كانت مسؤولة على ما حدث . لكن التقارير الرسمية ، مثل تقرير الشرطة وتقرير وزير الداخلية وتقرير لجنة توبير ، تلوم المتظاهرين وتتهمهم باطلاق الرصاص أولاً[20] . ولكن قتل حامل العلم يؤكد مسؤولية الشرطة في الموضوع . وبالإضافة إلى ذلك فإن أوامر والي قسنطينة تقتضي (حسب الروايات الجزائرية والفرنسية) إطلاق النار عند رفع العلم الوطني أو حمل لافتات سياسية . فلم يبق إلا أن يكون الشرطي الفرنسي هو الذي أطلق النار أولاً ، غير أن احتمالاً آخر يظلّ قائماً وهو امكانية وجود شخص مجهول أطلق النار على حامل العلم . وهذا الشخص قد يكون من المعمرين الحاقدين على نشاط وقوة الحركة الوطنية. ومهما يكن من أمر فإن هذه النقطة (من أطلق الرصاص أولاً ؟) ما زالت مطروحة أمام المؤرخين .

ومن الثابت أن المظاهرات قد وقعت في مختلف أنحاء البلاد . وليس في سطيف وحدها . فقد جرت في مدينة الجزائر وبجاية وباتنة وخنشلة وبسكرة وعنابة

---

(19) عباس ، ص 155 لم يكن عباس حاضراً هذه المظاهرة التي كانت قرب مسقط رأسه بل كان عندئذ في العاصمة يهنىء الحاكم العام بعيد النصر . وبناء عليه أيضاً فإن اليوم ليس الإثنين ولكنه الثلاثاء .

(20) أرون ص 120 ـ 122 وممن يحملون الشرطة المسؤولية شارل فافرو وفرانسيس جونسون ، وممن يحملون المسؤولية بول كوطولي (من المعمرين) . أما العلماء فيحملون الشرطة والمعمرين تدبير المذبحة كما سنرى .

وقالمة وخراطة والقبائل الكبرى وغيرها . ولكنها في غير سطيف كانت أقل عنفاً . ولم ينتشر العنف إلا في قالمة وخراطة والنواحي المجاورة . وقد يتساءل المرء عن سبب انتشار العنف في سطيف ونواحيها بالذات . والواقع أن شرق الجزائر كان قد شهد سنة 1871 ـ 1872 ثورة عارمة اشتركت فيها الآلاف (حوالي مائة ألف نسمة) وكان لها نتائج وخيمة على فرنسا وعلى الجزائريين معاً . وعندما ابتدأت النهضة الجزائرية في فاتح القرن الحالي كانت قسنطينة مركز إشعاع كبير بعد العاصمة فظهرت فيها الحركة الإصلاحية ونشطت فيها كتلة النواب وعرفت تطوراً في الصحافة والنوادي والمدارس .

وكانت سطيف في مفترق الطرق بين قسنطينة والعاصمة وفي نواحيها ولد عباس والإبراهيمي ، وكان الأول هو زعيم البيان الجزائري سنة 1943 . وفيها أيضاً ولد حزب أصدقاء البيان في مارس سنة 1944 . لذلك لا نستغرب أن تكون سطيف ونواحيها ، وإقليم قسنطينة عامة مسرحاً لأحداث 8 مايو 1945 . ومن سطيف انتشر الخبر المفجع تحمله الأفواه وتشهد عليه الجروح وتصوره الكلمات والأخيلة بشتى الصور والأشكال . وقد بلغ رواد السوق من باعة ومشترين حسب بعض المصادر خمسة عشر ألف شخص . وهؤلاء وأمثالهم هم الذين تفرقوا بعد المظاهرة في المناطق المجاورة . وكانوا كلما مروا بقرية أو شخص إلا ازداد الخبر انتشاراً والمنطقة اتساعاً . وكلما صادفهم فرنسي في الطريق أو في الضيعات إلا وقعت الإهانات والاشتباكات المتبادلة فتسفر عن القتلى والجرحى .

وكان يمكن أن تنتهي المظاهرات عند ذلك الحد . كما يقع في مناسبات متعددة ، ولكن السلطات الفرنسية التي كانت تتحين الفرصة وجدت الظروف مناسبة، فتحركت لتوقف العاصفة كما سمَّاها الجنرال كاترو. وتشهد الوثائق الفرنسية والجزائرية والأجنبية الأخرى على أن القمع كان لا مبرر له وأنه كان مبالغاً فيه لدرجة أنه حير المفسرين للحادث . فبالإضافة إلى الحرس الخاص (المليشيا) والصاعقة (الكومندوز) اللذين ألفهما المعمرون ، تحرك الجيش الفرنسي بأصنافه الثلاثة ـ المشاة والبحرية والطيران ـ إلى جانب الشرطة والدرك .

واجتمع على الجزائريين أيضاً اليمين واليسار ، فبالإضافة إلى المعمرين الذين

يعتبرون من غلاة اليمين ، هناك أيضاً الشيوعيون الذين يعتبرون من غلاة اليسار . كلاهما تحالف على عقاب الجزائريين ، وتعاون مع سلطات الجيش والشرطة والدرك على قمعهم . وقد نادت صحيفة (الحرية) الشيوعية بمعاقبتهم واستنكرت مواقفهم . ومن جهة أخرى كان الجزائريون تحت رحمة السلطات الفرنسية . ذلك أنه بمقتضى قانون الأهالي الخاص وقانون الحرب لا يمكن للجزائري أن ينتقل من مكان إلى آخر إلا بإذن السلطة الفرنسية الخاضع لها ، وإذا انتقل بدون إذن اعتبر عاصياً وثائراً . ويروي بعض الكتاب أن الجزائريين المعتقلين كانوا يقتلون من طرف حراسهم على مرأى من الرسميين الفرنسيين . وقد استعمل الفرنسيون طريقة « العمليات الكاسحة » بحيث لا يتركون في طريقهم منزلاً إلا فتشوه وخربوه . وبهذه الطريقة خربوا عدداً من القرى بضربها بالقنابل من الجو بأمر من وزير الطيران السيد تيون الذي كان شيوعياً في حكومة ديغول . وضربت القوات البحرية عدداً من المدن الساحلية أيضاً . أما المشاة وفرق اللفيف الأجنبي فقد كانت تستعمل الدبابات وتدخل الديار وتقتل وتخرب وتنتهك الحرمات وتعتدي بدعوى البحث عن الثوار والأسلحة[21] .

وفي تقرير نشرته مجلة (ستارز أندستريبرز)لسان حال الجيش الأمريكي بعد الحوادث مباشرة ، إن الفرنسيين قد استعملوا عدداً كبيراً من الطائرات لضرب المدنيين الجزائريين . وقد كتب التقرير بتاريخ 28 مايو ونشر في أول يونيو . ومما جاء فيه أن قاذفات القنابل الفرنسية قد « حطمت قرى آهلة بكاملها » في منطقة الحادثة أثناء حملة دامت تسعة أيام . وقد « طار الطيارون الفرنسيون ثلاثمائة مرة في يوم واحد مستعملين القاذفات الأمريكية الثقيلة والمتوسطة . . حتى سويت الأرض بعدد من القرى والدواوير . ثم طارت الطائرات المقاتلة الفرنسية البريطانية الصنع خلف القاذفات الأمريكية لتسحق السكان الهاربين (من المنازل التي تحطمت) وترمي القنابل على المخابىء العربية في الجبال » . ووصف التقرير الثورة بأنها « ثورة طعام » أي من أجل الخبز ولأسباب اقتصادية كما سنرى . وأن هذه الثورة حسب

---

(21) نفس المصدر ص 123 ـ 128 أنظر أيضاً فافرو ص 74 ـ 75 ويذكر جوليان ص 305 أن الوطنيين كانوا ينادون بسقوط الحزب الشيوعي ويطالبون باستقلال الجزائر وبحياة انتصار الحلفاء .

التقرير قد أسفرت عن مقتل وجرح أكثر من عشرة آلاف جزائري و 97 فرنسياً معمراً[22] .

وقد اختلفت التقارير والمقادير عن عدد القتلى والجرحى نتيجة أحداث 8 مايو . فوزير الداخلية الفرنسي السيد تيكسيه ، ذكر في تقريره أن عدد الجزائريين الذين شاركوا في الحوادث قد بلغ 50,000 شخص (أي 5٪ من السكان) ونتج عن ذلك مقتل 88 فرنسياً و 150 جريحاً . أما من الجانب الجزائري فمن 1,200 إلى 1,500 قتيل (ولم يذكر الجرحى) و 2,400 معتقل أطلق سراح 517 منهم وحوكم الباقي[23] . ويلاحظ أن كثيراً من الأحكام قد صدرت بالإعدام على يد المحاكم العسكرية[24] وتتراوح التقديرات الجزائرية بين 45,000 إلى 100,000 قتيل أما التقديرات الأجنبية فتختلف أيضاً ، فبعضها يقترب من إحصاء الفرنسيين وبعضها يقترب من إحصاء الجزائريين . وهي في الغالب من 50,000 إلى 70,000[25] . وقدرت (النيويورك تايمز) بعد حوالي شهرين ونصف من الحادثة عدد القتلى من 7 آلاف إلى 18 ألفاً عندما استعمل الفرنسيين القنابل والإعدام الجماعي حسب تعبيرها[26] ويتفق المعلقون عندئذ على أن حادثة 8 مايو لم يعرف عنها العالم إلا قليلاً لأن الفرنسيين استعملوا فيها إجراءات حاسمة وسريعة وقوية .

وهناك أيضاً وسائل قمع أخرى ، غير القتل الجماعي وضرب القرى بالقنابل . فقد ألقى القبض على زعماء حزب أصدقاء البيان والحرية : فرحات عباس والدكتور سعدان وكانا عندئذ في مدينة الجزائر . وأعلنت السلطات الفرنسية حل هذا الحزب ، كما أعلنت حالة الطوارىء من جديد . وألقى القبض أيضاً على الشيخ الإبراهيمي وعلى « عشرات الآلاف من رجال الجمعية (العلماء) وأنصارها وأتباع الحركات

---

(22) (النيويورك تايمز) أول يونيو 1945 ص 5 اعتبر التقرير أو لتقرير عن حادثة 8 مايو، وكان الفرنسيون قد منعوا إرساله إلا في التاريخ المذكور وتلقاه مراسل مجلة الجيش الأمريكي المذكورة من المغرب . وقد اطلعتُ في صيف 1984 على جريدة العلم الأمريكي المسماة (ستارزاند سترايبرز) على الميكرو فيلم . وتأكدت من المعلومات المذكورة ولكن فيها اضافات هامة سنوردها في طبعة جديدة للكتاب ان شاء اللّه .

(23) نفس المصدر 2 يوليو 1945 ص 2

(24) جَوليان ص 305 ويذكر هذا الكاتب أن 95 حكماً صدرت بالموت .

(25) أرون ص 139 ـ 141 .

(26) عدد 25 ديسمبر 1946 ص 12 .

الوطنية الأخرى» . وقد وصف الإبراهيمي ما حدث في هذه الأثناء فقال أنه سبق إلى السجن العسكري بالعاصمة ليلاً يوم 27 مايو 1945 وظل في زنزانة ضيقة نحو سبعين يوماً . وبعد مائة يوم نقلوه في طائرة إلى السجن العسكري أيضاً بقسنطينة لمحاكمته ، ثم ساءت صحته فكان يؤخذ تارة إلى السجن وأخرى إلى المستشفى العسكري . ودامت تلك الحالة أحد عشر شهراً[27] .

أما عباس فقد ذكر أن الفرنسيين اتهموه بالمس بالسيادة الفرنسية داخلياً وخارجياً . وسألوه عن برنامج حزب أصدقاء البيان والحرية ، وذكر أنه ظل وحده في زنزانة أيضاً في أحد سجون قسنطينة ستة أشهر. ثم أطلق سراحه كالإبراهيمي بعد صدور العفو العام ، بتاريخ 16 مارس سنة 1946[28] . لا ندري الآن إن كان مصالي أيضاً قد أطلق سراحه في هذه المناسبة . ولا شك أن « عشرات الآلاف » التي تحدث عنها الإبراهيمي قد استفادت أيضاً من صدور العفو العام . وقد بدأت الحياة السياسية تعود إلى الجزائر تدريجياً ، ولكن الهوة بين الطرفين ـ الجزائري والفرنسي ـ قد ازدادت اتساعاً بأحداث 1945 كما ازداد الجرح عمقاً وألماً .

وكما احتار المهتمون فيمن أطلق الرصاصة الأولى احتاروا أيضاً في أسباب الحادثة نفسها وفي دوافعها . فبعضهم ينسبها إلى أسباب اقتصادية . وآخرون يعزونها إلى دوافع سياسية وهناك من يعللها بالدين أو بوقع الحرب وتأثيرها . لقد ذكرنا سابقاً رأي بعض الكتاب عن الوضع الإقتصادي الذي عاشته الجزائر منذ 1939 . ولا سيما خلال عهد فيشي . وذكرنا بالخصوص رأي الدكتور توماس عن الحالة الإقتصادية حتى نهاية الحرب . وكان طابع فترة الحرب عامة هو تجريد الجزائر من خيراتها الإقتصادية لإطعام أوروبا ، ومن ثمة معاناة الشعب من مجاعة كبيرة وأمراض قاتلة ، بالإضافة إلى أن الجزائر قد قدمت زهرة أبنائها لميدان القتال كجنود أو لمصانع الإنتاج كيد عاملة في أوروبا. وبذلك خسرت الجزائر عمال الأرض من أبنائها فتعطلت عائلات كثيرة عن حرث أراضيها لأنها افتقدت العائلين.

---

(27) الابراهيمي «من أنا» حديث أدلى به إلى (المصور) المصرية ونقلته السيدة ماري نجم في مخطوط لها بعنوان (الابراهيمي في حياته) ص 105 ـ 106 .

(28) عباس ص 158 .

ولم يكن في وسع الحلفاء الذين كانوا منشغلين بإسقاط هتلر وموسوليني والذين صارحوا الجزائريين بأنهم غير مستعدين للدخول معهم في حديث عن السياسة (ولا عن الإقتصاد) لأن ذلك هو شأنهم (الجزائريون) مع الفرنسيين ، وكان هؤلاء منهزمين مشتتين يحاولون جمع صفوفهم وقيادتهم لتحرير بلادهم الرازحة تحت أقدام الألمان والحلفاء على السواء فلم يهتموا بتوفير الضروري لغيرهم ولا بتطوير الإقتصاد المحلي . وكل مشاريعهم كانت مؤقتة أو مؤجلة إلى ما بعد الحرب . ويشهد على إضطرابات إدارتهم في الجزائر أنهم غيروا ، كما لاحظنا ، الحكومة العامة عدة مرات في ظرف قصير .

فبعد الجنرال كاترو الذي عرفنا أنه تولى في شهر يونيو 1943 جاء السيد شاطينو في شهر سبتمبر 1944 . وهذا الأخير هو الذي وقعت حادثة سطيف في عهده . ويذكر السيد عباس أن شاطينو كان رجلاً دبلوماسياً يعرف الكثير عن مشاكل الإسلام والعالم العربي وأنه كان الخليفة المباشر لموريس فيوليت في موقفه من الجزائريين[29] أما المعمرون فقد كانوا ضده (شاطينو) وقد أطلقوا عليه إسم ابن محمد شاطينو سخرية به واتهاماً له بأنه كان يتعاطف مع الجزائريين[30] . ولا ندري كيف يوصف شاطينو بذلك سواء من عباس أو من المعمرين وهو الذي أشرف على عمليات القمع سالفة الذكر ضد الجزائريين .

وهناك عدد من الكتاب ردوا الحادثة إلى أسباب اقتصادية . فتقرير مجلة الجيش الأمريكي الذي أشرنا إليه سماها « ثورة طعام » . ونفس الوصف أطلقته عليها الحكومة الفرنسية . فبعد اجتماع رسمي لها أكد الناطق باسمها (وكانت الأحداث ما تزال جارية) أن الأسباب تعود إلى النقص في وسائل التغذية ، وأنها (الحكومة) عازمة على إرسال الغذاء إلى الجزائر[31] كما ادعت مجموعة من الكتاب الفرنسيين فيما بعد إن الحادثة تعود إلى نقص الطعام وإلى المجاعة . وأن الوطنيين استغلوا ذلك لإثارة الشعب . غير أن هؤلاء الكتاب وغيرهم قد أكدوا أن المنطقة المتأثرة

---

(29) نفس المصدر ص 153 .

(30) جوليان ص 305 .

(31) (النيويورك تايمز) 12 مايو 1945 ، ص 4 .

بالحادثة كانت من أغنى المناطق . ومن جهة أخرى لاحظوا أن الثوار (إذا اعتبرناهم كذلك) لم يهاجموا أبداً مخازن التغذية ، كما أنهم عندما قتلوا المعمرين لم يأخذوا غذاءهم . وزعم الكولونيل شون أنه لم يسمع في تاريخ شمال أفريقية الحديثة بمظاهرات أو ثورات قامت فيه بسبب الجوع . ولاحظ آخر أن الوطنيين لم يستعملوا في شعاراتهم ولافتاتهم عبارات تشير إلى المجاعة والحالة الإقتصادية بل كانت كلها شعارات سياسية(32) .

وإذن هل كانت الأسباب سياسية ؟ في نفس الشهر الذي وقعت فيه الحادثة أكدت الصحيفه 'الأمريكية (النيويورك تايمز) من باريس بأن السبب كان سياسياً أيضاً ، مضيفة أن الجزائريين كانوا « يطالبون بالحقوق »(33) وأكد توبير في تقريره أن الحادثة كان لها طابع ثوري سياسي بالإضافة إلى الطابع الإقتصادي(34) . وادعى آخرون أيضاً أن السبب الأول كان سياسياً . ذلك أن السلطات الفرنسية قد تغاضت في الأول عن الحركة المنظمة التي قام بها الوطنيون ، وأن هؤلاء قد ظنوا ذلك ضعفاً منها . أما السيد كازانيو فقد لام عباس على خلقه « جواً ساخناً جداً » بدعوته إلى التضحيات من أجل إستقلال الجزائر . وذلك الجو الساخن قد أدى بدوره إلى سلسلة من الحوادث عجز عباس نفسه على السيطرة عليها . بالإضافة إلى أن الوطنيين كانوا ينشدون نشيداً منه هذا المقطع :

يـا نَشْءُ أنت رجاؤنـا　　　وبـك الصباح قـد اقترب
خـذ للحيـاة سـلاحهـا　　　وخض الخطوب ولا تهب

وبهذا النشيد وأمثاله أثار الوطنيون في الشعب روح المطالبة بالاستقلال والحرية(35) .

---

(32) أرون ، ص 165 ـ 167 وكذلك ساراسين ص 14 .

(33) (النيويورك تايمز) عدد 19 مايو 1945 ص 5 .

(34) أرون ص 166 .

(35) نفس المصدر ص 64 ـ 65 والبيتان من نشيد لابن باديس يخاطب به الشباب يبدأ هكذا :

شـعـب الـجـزائـر مـسـلم　　　والـى الـعـروبـة يـنـتـسـب
مـن قـال حـاد عـن أصـله　　　أو قـال مـات فـقـد كـذب

وكان هذا النشيد رائجاً بين الوطنيين فعلاً وينشدونه في مختلف المناسبات .

ويتصل بهذا قول بعض الكتاب أن السبب كان دينياً عنصرياً . ذلك أن الجزائريين في نظر هؤلاء كانوا حاقدين على الفرنسيين وكانوا معادين لهم ، وكان سكان الريف والمدن جاهلين بالسياسة لذلك كانوا مستعدين لنداء الجهاد عند أول إشارة . وقد زادت الحرب العالمية الثانية ودعايات الوطنيين في إيقاد روح العداء للأجنبي عند السكان . فثورة (هكذا يسمونها) 8 مايو حينئذ كان قد استغلها الوطنيون المأخوذون « بأيديولوجية عنصرية » يؤيدها كره الأجانب[36] . أما حاكم بلدة فج مزالة فقد قال في تقريره «أنني أؤكد بأن الحركة (حادثة 8) التي بدأت يوم 9 مايو في فج مزالة قد أخذت طابعاً ثورياً تحت راية الإسلام »[37] وتظهر العنصرية والدين أيضاً في محاولة الفرنسيين ربط ما كان يحدث في الجزائر بما كان يحدث في فلسطين . فقد ألغت الحكومة الفرنسية في باريس اجتماعاً عن فلسطين كان سيتكلم فيه دافيد بن غوريون ، وكان ذلك في دعواها منعاً لاصطدام الجزائريين باليهود . هذا ما جعل الصحيفة التي روت الخبر تعلن أن القضية الدينية قد أقحمت إقحاماً في المشكل السياسي الحقيقي[38] .

لكن تجمد السياسة الفرنسية وتصلبها في الإصلاح وافتقارها إلى قابلية التغيير قادا أيضاً إلى الحادثة . فقد رفض الفرنسيون الانصياع إلى نصائح بعض قادتهم وإلى ضغوط الجزائريين وإلى بعض حلفائهم في معالجة الموقف في الجزائر قبل الانفجار، وكانوا يعتمدون على مبدأ وهو أن العربي لا يحترم إلا القوة، وهو المبدأ الذي استعملوه منذ الإحتلال ونجحوا فيه إلى حد بعيد ، كما نجحوا في إخماد الحركة التي انطلقت يوم 8 مايو بنفس الوسيلة . غير أن جزائر القرن التاسع عشر ليست هي جزائر القرن العشرين . والجزائريون الذين كانوا قبل الحرب الثانية يطالبون بالمساواة أصبحوا بعدها يطالبون بالاستقلال . وكانت هناك عوامل كثيرة تساعدهم على ذلك . فهناك أولاً يأسهم من استعداد فرنسا لاستجابة مطالبهم المعتدلة . وهناك ثانياً الوعي الذي انتشر بينهم منذ المؤتمر الإسلامي سنة 1936 والذي زادته الحرب والأزمات

---

(36) ساراسين ص 15 .

(37) أرون ص 166 .

(38) (النيويورك تايمز) 12 مايو ص 4 . .

الاقتصادية والسياسية بلورة واتساعاً ، وهناك ثالثاً ضعف فرنسا السياسي والعسكري ووقوعها تحت طائلة الحلفاء والألمان . وهناك أيضاً دعاية الحرب الثانية . فالمحور كانت لهم صحفهم وإذاعاتهم وأعوانهم ، والحلفاء كانت لهم أيضاً تلك الوسائل بالإضافة إلى مبادىء الميثاق الأطلسي التي جعلت الشعوب المستضعفة تطمح إلى أن يوم خلاصها كان قريباً . وبدل أن تعي فرنسا هذا الوضع الجديد وتذعن لرغبات الشعب ، راح حكامها يلوحون بالتهديد والقوة ومعمروها يهزؤون بالعربي الجزائري كما لو كانوا في بداية 1830 ، واستأسد الجيش الفرنسي على الجزائريين المدنيين بينما جبن وانهار أمام الجيش الألماني وحتى الجيش الطلياني .

وبدل مواجهة الواقع ، وهو هنا يقظة الجزائريين وتخاذل السياسة الفرنسية ، ذهب بعض الكتاب يلتمسون السبب في التدخل الأجنبي. فمنهم من اتهم الألمان والعناصر الفاشيستية ، ومنهم من اتهم فكرة العروبة التي تمثلت في قيام الجامعة العربية ، بل أن هناك من لوح بالاتهام إلى الحلفاء انفسهم ـ وخاصة الأمريكان . وثبتت تقارير فرنسا الرسمية أن الألمان كانوا مباشرة وراء الحادثة .

فلجنة توبير أكدت أن وثائق المحاكم التي حاكمت الجزائريين في نهاية 1940 وسنة 1941 (عهد فيشي) تشير إلى أن الجزائريين كانوا يقولون « ان فرنسا قد انتهت ، فلا تدفعوا الضرائب إليها ، فنحن ندفع الضرائب للألمان » بالإضافة إلى دعاية الألمان والطليان خلال الحرب ضد فرنسا حينما حاولت إقناع الوطنيين بأنها قد انتهت كقوة مسيطرة على الجزائر . وأثبت توبير أن الجزائريين كانوا يستمعون إلى راديو ألمانيا وايطاليا في المقاهي وحتى في القرى الصغيرة[39] وأعلن الحاكم العام شاطينو أن الحادثة كان وراءها « عناصر هتلرية مسلحة » هاجمت السكان في يوم الاحتفال بعيد النصر[40] ومن رأي السيد ب . كازانيو . كاتب عام الحكومة العامة بالجزائر ، أن الألمان قاموا باعداد كل شيء للعملية . فقد قاموا بتكوين عملاء نشيطين بين العدد الكبير من أسرى أهالي شمال أفريقية في ضواحي باريس حيث 60,000 أسير مسلم ، وكان عدد من هؤلاء قد دخل إلى الجزائر ، بعنوان الهرب .

---

(39) أرون ص 154 .

(40) (النيويورك تايمز) 12 مايو 1945 ، ص 4 .

كما قام الألمان بإصدار تعليمات وتوجيهات بين العملاء الذين اختيروا من الأسرى ، ووفروا لذلك الإذاعة ، والصحافة ، والمنشورات[41] .

أما النائب الشيوعي ، ا . فاجون ، فقد أعلن في المجلس التأسيسي الفرنسي أن الحادثة بأسرها تعود إلى « مؤامرة فاشستية دبرها عملاء فيشي وهتلر» ، والمعروف أن الشيوعيين قد اشتركوا في حركة القمع ضد الجزائريين وكان وزير الطيران كما سبق ، شيوعياً ، ومع ذلك فإن النائب فاجون يعزو حركة القمع إلى عناصر « مندسة من أنصار عهد فيشي »[42] ونادت جريدة (لوهيومانيتي) لسان الحزب الشيوعي الفرنسي بتطهير الجيش من العناصر المؤيدة للشركات الكبرى والطابور الخامس » التي تهدف إلى خلق المصاعب أمام الحكومة[43] ويتهم الفرنسيون أيضاً الأمير شكيب أرسلان بأنه كان واقعاً تحت النفوذ الألماني ، وعن طريقه كان الألمان يبثون دعايتهم إلى شمال أفريقية والجزائر خاصة . وكان هذا منذ ما قبل الحرب . ومنذ 1940 أقام الألمان مراكز للدعاية في باريس ، وأنشأوا فرعاً إسلامياً ملحقاً بالقيادة العامة يضم بعض المتخصصين أمثال الدكتور بريتر. وكل هذه المحاولات كانت تهدف ، وقد نجحت ، في التأثير على الوطنيين في شمال أفريقية[44] .

وإلى جانب الألمان والفاشيستيين ، اتهم الفرنسيون الحلفاء أحياناً مباشرة وأحياناً بالتلويح . وبناء على هذا فإن الأمريكان كانوا وراء فرحات عباس في مذكرة نهاية 1942 ، وأنه كان كثير التردد على البعثة الأمريكية بالجزائر بعد ذلك[45] وأنه التقى بالرئيس روزفيلت عند مرور هذا بالجزائر . ومن جهة أخرى فإن عباس كان مقتنعاً بأنه سيحضر مؤتمر سان فرانسيسكو سنة 1945 لتقديم وجهة نظر الجزائر في الحرية والاستقلال ، ومقتنعاً بأن المؤتمر سيوافق على ذلك ، لذلك أعلن عباس في خطبة له

---

(41) أرون ص 15 في الواقع أن هذه شنشنة قديمة لدى الفرنسيين فكل حركة ذاتية جزائرية اعتادوا نسبتها إلى الألمان والعملاء الألمان أو إلى غيرهم من الأجانب ، أنظر الجزء الثاني من الحركة الوطنية وأنظر أيضاً (النيويورك تايمز) 24 مايو 1945 ص 1 .

(42) (النيويورك تايمز) 12 يوليو 1945 ص 5 .

(43) نفس المصدر 15 مايو 1945 ص 5 .

(44) أرون ص 154 ـ 155 .

(45) ساراسين ، ص 18 .

بمدينة سطيف يوم 29 أبريل 1945 بأن مؤتمر سان فرانسيسكو سيضمن حرية جميع الشعوب وأن الشعب الجزائري سيكون من بينها ، وقد كان الوطنيون الجزائريون يعتقدون حسب هذا المصدر ، أن الأمريكان سيفرضون على فرنسا بعد انتصار الحلفاء إنهاء الاستعمار في الجزائر[46] أما السيد دوكار ، من النواب الراديكاليين الإشتراكيين ، فقد عرض « بحلفائنا الذين قد يكونون مسؤولين على الحادثة »[47] غير أن تأثير الحلفاء في الحقيقة كان غير مباشر ، وما زالت صلة فرحات عباس بالسيد روبرت مورفي غير واضحة ـ ومثلها صلة عباس بالسيد أوغسطين بيرك . إن تأثير الحلفاء الحقيقي يظهر في المبادىء التي أعلنوها في الميثاق الأطلسي وغيره من وثائق الحرب ، والتي أخذها الجزائريون ، أو على الأقل الأغلبية منهم ، مأخذ الجد . أما ما عدا ذلك فهو مجرد تخمين وتكهن .

وقد صادف وقوع حادثة 8 مايو قيام الجامعة العربية ، ولا شك أن هذا كان له أثر على نفوس العرب أينما كانوا ، فقد صورت الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى قيام الجامعة العربية على أنه حادث بارز في تاريخ العرب ، ولعل الذين لم يكونوا سياسيين بالمهنة قد فهموه على أنه يعني وحدة العرب كافة ، وقوة العرب الكبيرة التي لا يقف في طريقها حائل . ومهما يكن من أمر ، فإن قيام الجامعة العربية قد حرك مشاعر كثير من الجزائريين وجعلهم يتوقعون منها العون المادي بالإضافة إلى العون المعنوي ، وينسب بعض الكتاب إلى (اللجنة العليا لتحرير شمال إفريقية) بجنيف إذاعتها لمنشور بتاريخ 12 مايو توقعت فيه الثورة في كامل المغرب العربي . كما أن (المجلس الأعلى للدفاع عن شمال إفريقية)[48] بالقاهرة وكذلك (أصدقاء فلسطين العربية) ذكرتا بهذه الناسبة على أساس أن لهما يداً في الحادثة . ويشير بعضهم

---

(46) أرون ص 106 يذكر السيد ساراسين ص 18 أن الأسلحة التي استعملت كانت إما ألمانية وزعت من تونس وإما إنكليزية اشتريت أو نسيت في مخازن شمال أفريقية .

(47) (النيويورك تايمز) 12 يوليو 1945 ص 5 .

(48) سبق أن ذكرنا بأن اسمها (جبهة الدفاع) وليس (المجلس الأعلى للدفاع) والمهم هو أن هذه الجبهة قامت بنشاط اعلامي كبير منذ تأسيسها سنة 1944 وكان هدفها المعلن هو استقلال المغرب العربي ووحدته وانضمامه الى جامعة الدول العربية . أنظر بهذا الشأن الفضيل الورثلاني (الجزائر الثائرة) بيروت 1956 ، ص 284 ، وما بعدها .

أيضاً إلى أن أحداث الجزائر خلال مايو 1945 قد يكون لها علاقة بأحداث سورية في نفس الوقت، وأنه كان هناك محاولة منسقة لتفتيت القوى الفرنسية، ويضيف بعضهم أن الوطنيين الجزائريين قد تلقوا مساعدة من أحزاب المغرب وتونس[49] أما الوثائق الفرنسية فقد عزت الحادثة أيضاً إلى « حركة عربية إسلامية » قائمة على الانفصال بين الجزائر وفرنسا[50] . وسنرى أن هذا يعني اتهام جمعية العلماء الجزائريين بزعامة هذه الحركة .

ويبدو من كل ما سبق أن الدوافع الخارجية وراء حادثة 8 مايو 1945 كانت غير موجودة تقريباً ، وأنها إذا وجدت كانت غير فعالة وغير مباشرة، وكل ما ذكر من أنه تدخل أجنبي كان مجرد تهرب من مواجهة السبب الحقيقي ، وهو أن الحركة الوطنية كانت قد أصبحت قوة متحدية ، وكان على فرنسا في هذه الحالة إما أن تتنازل لها وإما أن تواجهها بالعنف والإرهاب ، وكان أن اختارت فرنسا الحل الثاني .

والاختيار يعني تحمل مسؤولية ما وقع ، فهل كانت فرنسا مسؤولة على ما وقع؟ وإذا كانت فرنسا مسؤولة فهل كان في استطاعتها أن تفعل غير ما فعلت؟ إن بعضهم يحمل الفرنسيين المسؤولية لأنهم تركوا الأحزاب السياسية تعمل ضد فرنسا طيلة عقدين ، ولأنهم منحوا الشبان الجزائريين مبادىء الحرية فبدأ هؤلاء بالمطالبة باستقلال الجزائر[51] . ان الفرنسيين الذين كانوا خلال الحرب الثانية يحاربون الطغاة هم الذين وجهوا بنادقهم وقنابلهم ودباباتهم لتسحق المدنيين الجزائريين الذين ضحى رجالهم لتحرير فرنسا وهزيمة الطغاة ، فتحول عيد النصر ، الذي هو عيدهم أيضاً ، إلى مأساة[52] . وقد لخصت إحدى الصحف مشاكل فرنسا خلال مايو 1945 بما وصفته « بالتوتر غير العادي » بعد الحرب في فرنسا التي كانت تعاني « شعوراً قومياً ممزقاً لفرنسا التي تصارع من أجل إعادة صورتها في العالم ، والفوضى التي

---

(49) أرون ص 106 ، 157 .

(50) (النيويورك تايمز) 15 مايو 1945 ، حسب تقرير اللجنة التي عينها المجلس الاستشاري الفرنسي ، انظر أيضاً نفس المصدر ، 24 مايو 1945 ص 10 .

(51) ساراسين ، ص 18 ـ 19 .

(52) فافرو ص 76 .

جاءت نتيجة سقوط نظام قبل أن يكون النظام الجديد مستعداً لأداء مهمته »[53] .

وخلال خمس سنوات تغيرت الإدارة الفرنسية في الجزائر (1940 ـ 1945) ست مرات وتغير النظام السياسي أربع مرات . وكان ذلك من علامات ضعف فرنسا في نظر الجزائريين ، بالإضافة إلى أن الحلفاء والألمان معاً كان لهم ما يقولون في الشؤون الفرنسية الداخلية والخارجية . وهذا دليل آخر على فقدان للسلطة والنفوذ لدى الفرنسيين حتى في بلادهم . ومن جهة أخرى كان الفرنسيون منقسمين على أنفسهم أحزاباً وشيعاً ، وكانوا في الحقيقة في أشد الحاجة إلى الجزائريين بينما هؤلاء لم يكونوا في حاجة إليها . وقد كانت الإدارة الفرنسية أيضاً في حاجة إلى موظفين أكفاء بعد انتقال لجنة فرنسا الحرة والحكومة المؤقتة إلى باريس من الجزائر ، ومن ثم كانت عاجزة عن تتبع ووقف نشاط الوطنيين الجزائريين الذين نجحوا ، نتيجة ضعف الإدارة الفرنسية ، في القيام بحركة مايو[54] وكان على رأس الإدارة أشخاص يؤمنون بمبدأ الحرية الفردية ومبدأ « دعه يفعل ، دعه يمر » أمثال الحاكم العام شاطينو ورئيس لجنة الشؤون الإسلامية ج ـ ب بلوك . ولكن ابتداء من أول مايو تخلت الإدارة عن تقاعسها وضعفها وتحركت بقوة لتضع حداً لنشاط الوطنيين . فقد أرسلت الجيش لحل حزب أصدقاء البيان والحرية ، واعتقلت في ثلاثة أيام ، من 3 ـ 6 مايو حوالي مائة من المناضلين الجزائريين (عادة هم أعضاء حزب الشعب)[55] . وبذلك كشفت النقاب عن وجهها المألوف . ان الإدارة التي دبرت جريمة قتل المفتي كحول سنة 1936 هي التي دبرت « جريمة » 8 مايو ، التي كانت تهدف إلى « تصفية » حزب أصدقاء البيان[56] .

وسواء أكانت الإدارة الفرنسية هي المسؤولة أو المعمرون الفرنسيون بالجزائر فالأمر واحد ، ذلك أنه عندما يجد الجد وتتحدد المسؤوليات يصبح الإثنان (الإدارة والمعمرون) شيئاً واحداً هو فرنسا . أما في حالة الفوضى أو الغموض فكل منهما

---

(53) (النيويورك تايمز) أول يونيو 1945 ص 14 .

(54) أرون ص 152 ـ 153 ، 162 .

(55) نفس المصدر ، ص 112 ـ 113 .

(56) عباس ، ص 154 .

يختبىء في الآخر . ومهما يكن الأمر فليس عباس وحده من الجزائريين الذين يتهمون المعمرين بتدبير «الجريمة»، فالإبراهيمي الذي رأس العلماء بعد ابن باديس يقول «في يوم انتهاء الحرب دبر المعمرون مذبحة 8 مايو سنة 1945 . . وكانت قسنطينة مسرح الحوادث الدامية الفظيعة التي ارتكبتها عصابات المعمرون (كذا) مع الأهالي الآمنيين . . الحوادث التي دبرها الإستعمار وأهله »[57] .

اعتبر الجنرال كاترو المعمرين الفرنسيين مضحين تضحية كبيرة بقبولهم إصلاحات سنة 1944 . ولاحظ أنهم كانوا في أعماقهم غير راضين عنها . وكان صادقاً في الملاحظة الأخيرة لأن المعمرين الذين منعوا حركة الأمير خالد ومشروع فيوليت لم يقبلوا بإصلاحات مارس 1944 عن طيب خاطر. لذلك لا نستغرب أن يكثر حديث المعمرين عن ثورة الوطنين وتمردهم وإمكانية حدوث مذبحة منذ هذه الإصلاحات . فاتهام المعمرين « بتدبير » المذبحة ليس خالياً من الصحة . ذلك أنهم أرغموا على قبول مبدأ الإصلاحات المذكورة ولكنهم في أعماقهم وفي تصرفاتهم كانوا ضدها . لذلك حاولوا منع تطبيقها (بعد الحرب طبعاً) بأي ثمن . وتمشياً مع هذا الخط قاموا بحملة ضغط على الإدارة متهمين الوطنيين بالتخطيط لثورة ترمي الفرنسيين في البحر ، وكانوا بالخصوص ضد حزب الشعب الجزائري وضد المنظمة الجديدة ، وهي حزب اصدقاء البيان والحرية . ولما كان الأول منحلاً رسمياً فقد طالب المعمرون بحل الحزب الجديد متهمين إياه بأنه ضم عناصر ثورية من حزب الشعب المنحل ، بالإضافة إلى أن المعمرين كانوا ضد النخبة التي كسبت من إصلاحات مارس 1944 والتي ستصبح منافسة لهم في المجالس المحلية والفرنسية لو طبقت الإصلاحات فعلاً . لذلك سعى المعمرون إلى حمل الإدارة الفرنسية على حل حزب أصدقاء البيان أيضاً .

ومنذ 24 أبريل 1945، ذهب وفد مكون من ستة نواب فرنسيين إلى والي قسنطينة (الذي تدخل سطيف في نطاقه) وقدموا إليه رسالة بإسم المعمرين كانوا قد صاغوها بعد اجتماع خاص . وقد وصف له النوأب حالة الجزائر منذ 1939 وطلبوا

(57) الابراهيمي ، حديث إلى (المصور) المصرية كما جاء في بحث السيدة ماري نجم (الابراهيمي في حياته) مخطوط .

منه إعلام السلطات لكي تتخذ إجراءات مناسبة لحفظ السلام والنظام . ومما جاء في وصف الحالة العامة أن الجزائريين قد أصبحوا معاندين ومهاجمين وأنهم أصبحوا يقولون انهم « سيبقون وحدهم في بلاد أجدادهم » وأنهم يعلنون عن الاستقلال الذي تضمنه البيان الصادر سنة 1943 . وفي كل مكان أصبح المعمرون يعيشون في جو غير آمن ، وأن الشوارع تعج بالمتظاهرين ، رغم منع السلطات لذلك ، وأن المتظاهرين ينادون علانية بأن « الجزائر أرض عربية » وأن كل هذه العلامات تشير إلى « إمكانية أحداث خطيرة » قد تحدث غداً وتهدد حياة الفرنسيين الذين يعيشون في أماكن معزولة وبعيدة حيث تروج تجارة الأسلحة منذ ثلاث سنوات . فإذا أضيف هذا الوضع إلى سوء الأحوال الزراعية التي عانت منها الجزائر منذ سنوات فإن الوضع الحالي قد يؤدي إلى عواقب وخيمة . ذلك أن الجزائريين العاملين في المزارع الفرنسية قد بدأوا فعلاً يتركون أعمالهم . وأن هذا الوضع الخطير يفرض اتخاذ إجراءات عاجلة منعاً « لأحداث لا تحمد عقباها » وأن « السلام يجب تأمينه بجميع الوسائل التي تملكها السلطات الفرنسية » . « ومن الموقعين على هذه الرسالة الآتية أسماؤهم : فاليه ، ديرو ، مبير ، كوزان ، لافي ، فورنييه : وكان لافي حاضراً عن قالمة وفورنييه عن سطيف »[58] .

واستمرت هذه الحملة أيضاً عشية الحوادث . فرئيس اتحادية شيوخ بلديات المعمرين ، السيد أوبو ، اعترف في عدة مناسبات بأن الفوضى ستنتشر قريباً وأن حادثة ستقع لا محالة تضطر الجنرال ديغول إلى إلغاء إصلاحات مارس 1944 ، كما أن والي قسنطينة اعترف للدكتور سعدان (من حزب أصدقاء البيان والحرية) بأن « بعض الإضطرابات ستقع وأن حزباً كبيراً سيصدر بشأنه قرار حل »[59] .

ودور المعمرين في حادثة 8 مايو أكده تقرير السيد تيكسيه وزير الداخلية بعد الحادثة مباشرة . فقد قال عنهم بأنهم كانوا يرجون اغتنام الفرصة لمنع إنجاز

---

(58) ساراسين ص 203 ـ 206 وفيه نص الرسالة التي نقل عنها أيضاً أرون ص 110 ـ 111 وكذلك توينبي (مدخل 1939 ـ 1946) ص 425 ـ 426 .

(59) عباس ، ص 153 ، ونوشي، 140 ويذكر المؤلف الأخير أن أبو الكير والشيوعي فاجون هما اللذان أخبرا في المجلس التشريعي الفرنسي عما فاه به السيد أوبو . أنظر كذلك فافرو ص 74 .

الإصلاحات التي أعلن عنها ديغول ، سنة 1944[60] واغتنام الفرصة الذي أشار إليه وزير الداخلية وصفه عباس في الواقع بشيء من التفصيل . فقد قال بأن المعمرين نظموا أنفسهم في (ميليشيا) لمطاردة العرب كما فعل الدوق دي روفيغو والجنرال سانطارنو (كلاهما من قواد جيش الاحتلال في بداية أمره) وتولوا بأنفسهم محاكمة الجزائريين وتنفيذ الإعدام فيهم . كما شهد بذلك تقرير توبير ، وكان الجنرال دوفال والعقيد بورديلة وفرقة اللفيف الأجنبي وطوابير الجنود السينغاليين تذبح النساء والأطفال . وكان المعمرون قد أعلنوا « ساعة الإرهاب » لوقف الإصلاحات وإعدام الثوار بما في ذلك زعيم حزب الأصدقاء فرحات عباس ، وإقالة الحاكم العام شاطينو وتعيين حاكم عام آخر له بدله من المعمرين أنفسهم . وكانت صحيفة (ليكو دالجي) وبعض المنشورات هي التي تعكس هذا الاتجاه لدى المعمرين[61] . وعندما اجتمع المجلس التشريعي الفرنسي في خريف 1945 وقف نواب المعمرين يؤكدون أن حادثة 8 مايو كانت مؤامرة ضد السياسة الفرنسية . وذلك ما أكده السيد بول كوطولي نائب قسنطينة عندما قال أن الحادثة كانت ثورة معدة بعناية وموجهة بدقة ضد السيادة الفرنسية، ووافقه زميله باسكال موسلي نائب وهران عندما قال بأن الثورة لم تكن فقط في سطيف وقالمة بل كانت ستقع بالقرب من وهران أيضاً ولكنها اكتشفت في مهدها وكانت هذه الثورة ستكون شاملة للجزائر كلها[62] .

أما دور الشيوعيين فما يزال غير واضح . وتذكر المصادر المعاصرة أنه كان في الحكومة الفرنسية ساعة وقوع الحادثة وزيران : أحدهما موريس توريز الذي كان نائب رئيس الوزراء والذي كان زعيم الحزب الشيوعي لمدة غير قصيرة، والثاني شارل تيون وزير الطيران . وتذكر بعض المصادر أيضاً أن الشيوعيين قد نظموا أيضاً (ميليشيا) ضد الثوار ، وأن الخصومة بين الشيوعيين والوطنيين يرجع تاريخها الى

---

(60) (النيويورك تايمز) 12 يوليو ، 1945 ، ص 5 .

(61) عباس ، ص 156 ـ 157 وبناء عليه فإن ضحايا الفرنسيين كانوا 102 بينما ضحايا الجزائريين كانوا بعشرات الآلاف . أنظر أيضاً أرون ، ص 148 ، 149 .

(62) (النيويورك تايمز) ، في 12 يوليو 1945 ، ص 5 ولعل النائب يقصد بعبارة بالقرب من وهران بلدة تلمسان موطن السيد مصالي الحاج رئيس حزب الشعب الجزائري المنحل .

هذه الواقعة[63] . وإذا حكمنا عليهم من خلال صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي (لوهيومانتي) فإننا نجدها تصف حزب الشعب الجزائري (الذي كان منحلاً رسمياً) بأنه يمثل الطابور الخامس ، وهي تعني بذلك أنه عميل للألمان والفاشستيين وبقايا عهد فيشي[64] . والمعروف أن رئيس فرع الحزب الشيوعي قد قتل خلال الحادثة في سطيف.

لكن موقف الشيوعيين يجب أن يدرس أيضاً من خلال إصلاحات مارس 1944 فهم قد أعلنوا أنهم يعتبرونها خطوة إلى الأمام ترضي جميع الديموقراطيين[65] بينما الوطنيون (من فرحات عباس إلى العلماء وحزب الشعب) قد رفضوها كما مر بنا . ولكن المعلقين يذكرون أن موقف الشيوعيين عندئذ كان قائماً على خطة انتخابية فقط . فقد أيدوا الإصلاحات لأنها تمنح مليوناً ونصفاً من الجزائريين حق التصويت ولذلك فاز الشيوعيون بمقعدين عندما جرت الانتخابات التشريعية خلال أكتوبر سنة 1945 في الوقت الذي كان الوطنيون في السجون وأمام المحاكم ، وكان الشعار الذي رفعه الشيوعيون لكسب أصوات الجزائريين عندئذ هو المطالبة باصدار العفو العام[66] وقد اتهم أحد الشيوعيين الفرنسيين في الجزائر حزب الشعب بأنه كان وراء حادثة 8 مايو وحمله مسؤوليتها فهو (الحزب) الذي نظم مظاهرات في الأسبوع الأول من هذا الشهر للمطالبة بتحرير مصالي وأعلنوا عن وجود فرق مسلحة تقف عند الجسور والعمارات العامة والضيعات[67].

وهذا يعني أن الوطنيين هم المسؤولون عما جرى في 8 مايو 1945 ، لكننا لاحظنا أن الجزائريين قد اكتفوا حتى الآن باتهام المعمرين والاستعمار الفرنسي والسلطات الإدارية بتدبير الجريمة أو المذبحة . ولم يكتب زعماء الجزائر ولم تكشف وثائق أحزابهم ومنظماتهم ما يدل على خطة وضعت للقيام بثورة في ربيع 1945 ضد

---

(63) فافرو ، ص 76 .

(64) (النيويورك تايمز) ، 2 يونيو ، 1945 ، ص 8 .

(65) جوليان ، ص 298 .

(66) ساراسين ، 128 ـ 130 ـ يذكر هذا المرجع أن تكتيك الشيوعيين كان يقوم على أنهم مناضلون ضد ألمانيا ومعادون لفرنسا في الشؤون الداخلية ، ولذلك طالبوا بالحقوق للجزائريين دون الاستقلال .

(67) نوشي ، ص 141 .

فـرنسا . حقاً إن الحديث يـدور الآن ، بعد نجـاح ثورة نـوفمبر ، عن دور بعض المسؤولين الشباب في حزب الشعب على الحادثة ، وتشير الأحاديث حتى إلى أسماء بعض الأحياء الذين فجروا الثورة قبل أوانها إما لعدم انضباطهم وإما لأن اكتشـاف الفرنسيين لجزء من الخطة قد أفسد على الوطنيين تنفيذ بقيتها . فانفلت الزمام وضاع الخيط من يد صاحبه . وتشير الأحاديث أيضاً إلى أسماء أشخاص اختفوا أو هربوا بعد ذلك . بل ان منهم من تمكن من الفرار الى خارج الجـزائر . ولكن هـذا حديث المجالس وليس حديث الوثائق . فما تزال وثائق الوطنيين بكماء لا تجيب على هذه القضية . ولعل فشل الثورة عندئذ لم يشجع أحداً على تحمل مسؤولية ما حدث لأن العواقب ستكون سيئة على من كان السبب في إفشالها . ولو نجحت ثورة 8 مايو لكثر المدعون لزعامتها واحتضانها كما وقع لثورة أول نوفمبر.

ومهمـا يكن من شيء فإن الـوثـائق الفـرنسيـة تؤكـد مسؤوليـة الـوطنيين في الموضوع . بعضها يتهمهم بالتخطيط لثورة عامة وبعضها بالقيـام بثورة محـدودة . وهناك من الفرنسيين من يورط كل زعمـاء الحركـة الوطنيـة (مصالي والإبـراهيمي وعباس) ومنهم من يتحدث فقط عن مجموعة من الشباب المثقفين المقتنعين بالفكرة الوطنية . وتشير التقارير عن الفكرة الأولى إلى أنه منذ إبريل 1945 توجه عسكريان جزائريان إلى مدينة الجزائر بغرض إعداد « خطة عامة لثورة شاملة . . . تقوم على أعمال التخريب للسكة الحديدية وخيوط البرق والهاتف ، ومراكز الدرك والشرطة . كما كانت مهمتها تشمل تكوين فرق الصاعقة وقوات حرب العصابات وتنظيم حملة ضد المحتلين والإدارة ، وتهديد المتعاونين من الجـزائريين مـع الفرنسيين وإقـامة صندوق للمساعدات »[68] وكان هذا بعد زيارة فرحات عباس والبشيـر الإبراهيمي لمصالي في سجنه بقصر الشلالة ـ لتنسيق الجهود . وكانت الزيارة بتاريخ 19 أبريل ، غير أن رد فعل الإدارة الفرنسية على ذلك كان نقل مصالي من قصـر الشلالـة إلى المنيعة ثم برازفيـل واعتقال ثـلاثين شخصاً من قـادة الحركـة الوطنيـة[69] . فكأن السلطات الفرنسية قد شعرت أو وجدت دليلاً على أن شيئاً ما كان يعد في الخلفاء

---

(68) أرون ، ص 107 .

(69) نفس المصدر ، ص 161 نقلاً عن كازانيو كاتب عام الحكومة العامة بالجزائر .

ضد فرنسا في الجزائر ، فقامت بتلك الإجراءات الوقائية .

ولكن هل كان التخطيط ـ إذا صح ـ شاملاً لجميع الجزائر ؟ إن الحادثة لم تقتصر على سطيف وقالمة ونواحيهما ، بل لم تعم ولاية قسنطينة وحدها . فهناك مؤامرة اكتشفت في سعيدة بالجنوب الغربي ، وهناك أحداث جرت في البليدة وشرشال والبويرة . وهجمت الفرق ، حسب بعض الكتاب ، من مناطق الأوراس وجرجرة . ومن ثمة كانت الخطة شاملة . فقد انتشرت أيضاً الدعاية في جميع أنحاء الجزائر بأن الثورة قد انطلقت وأن حكومة وطنية قد شكلت وأن الجهاد قد أعلن أيضاً . وقد أشرنا سابقاً إلى أن نواب المعمرين أكدوا أن الثورة كانت مخططة بدقة وأنها كانت عامة . غير أن الذي منع من تنفيذها كما كان مقرراً هو حركة الجيش الفرنسي والشرطة التي أعطيت لها التعليمات بضرورة وضع حد للثورة قبل انتشارها . ولذلك ولدت الثورة محدودة في المكان والزمان ، ومن جهة أخرى اضطرب الوطنيون بسبب تأخير الحلفاء لإعلان يوم النصر . وقد اختار الوطنيون هذا اليوم بالخصوص لسببين :

1 ـ أن السلطات الفرنسية ستكون منشغلة بالاحتفالات .

2 ـ أنه لصعوبة الاتصالات في تفجير ثورة عامة في نقط عديدة ترك للإذاعة والصحافة الفرنسية نفسها أن تعلن عن وقوع الثورة[70] .

وبناء على ذلك فالوطنيون جميعاً مسؤولون، ولكن الاختلاف في الدرجة،فوزير الداخلية الفرنسي السيد ادريان تيكسيية . أعلن أن التحقيق قاده إلى الإعتقاد بأن الثورة كانت « بدون جدال » من عمل حزب أصدقاء البيان والحرية وفروع من حزب الشعب الجزائري غير الشرعي ، فأعضاء هذين الحزبين كانوا يقومون بانتظام بنشاط ضد فرنسا وممثليها[71] ويقر أحد الكتاب بأن دور حزب الشعب في الحادثة لم يكن فعالاً . حقاً إن بعض رجاله كانوا مسلحين ولكنهم كانوا تحت إمرة حزب أصدقاء البيان والحرية . ولم يستطع حزب الشعب أن يلعب الدور الرئيسي في هذا الوقت لأن تدخل الجيش الفرنسي منعه من ذلك[72] .

---

(70) نفس المصدر ، ص 117 ، 159 ـ 151 ، وكذلك ساراسين ، ص 11 ، 13 .

(71) (النيويورك تايمز) 2 يوليو 1945 ، ص 4 .

(72) ساراسين ، ص 102 ـ 103 .

أما لجنة توبير فتلوم أيضاً جمعية العلماء على دورها في الحادثة ، ولكنه كان دوراً في الظاهر ، غير مباشر . فالعلماء كانوا على صلة بالحركة الإسلامية خارج الجزائر ، كما كانوا على صلة وطيدة مع الدوائر الوطنية في مصر . وكانت دعايتهم لا تختلف عن دعاية حزب أصدقاء البيان والحرية يبثونها في مدارسهم وينشرونها في أناشيدهم ومنشوراتهم وحفلاتهم ومحاضراتهم، وقد بلغ من تأثيرهم أن كان التلاميذ الجزائريون يخرجون من المدارس الفرنسية ويدخلون مدارس العلماء، ورغم ذلك ، حسب تقرير اللجنة ، فان السلطات الفرنسية لم تتدخل لوضع حد لنشاطهم[73] وقد كان الإبراهيمي رئيس العلماء في هذا الوقت من المعتقلين[74] ، ويذكر السيد فرحات عباس أن أعضاء حزب أصدقاء البيان والحرية قد ظلوا هادئين أيام الحوادث ، كما أن الفلاحين وسكان المدن لم يشتركوا . وعلى الجملة فإن الشعب الجزائري ليس له دور فيما حدث من اضطراب وفوضى[75] . ولكن هذا لا ينفي وجود تنظيم على مستوى القيادة كما ادعت المصادر الفرنسية .

كتب البشير الإبراهيمي عن حادثة 8 1945 ما يلي : « لو أن تاريخ فرنسا كتب بأقلام من نور . . ثم كتب في آخره هذا الفصل المخزي بعنوان مذابح اسطيف وقالمة وخراطة لطمس هذا الفصل ذلك التاريخ كله »[76] . إن هذا قد يكون فيه شيء من المبالغة ولكنه على كل حال يعبر عن فظاعة الحادثة . والواقع أن ظروف الحادثة وحقائقها ما زالت مجهولة وستكشف الأيام عن أسرار كثيرة حولها . وقد صدق من قال بصددها بأن « هناك بعض النواحي الغامضة في الثورة من المحتمل أن لا تعرف أبداً »[77] ورغم أن هذا الكلام كتب سنة 1947 فما يزال الغموض يحيط بالحادثة . ونعتقد أنه سيظل كذلك إلى وقت بعيد . وفي سنة 1957 ، اعترف الجنرال توبير الذي قاد سنة 1945 لجنة التحقيق في الحادثة بأن « القمع الدموي

---

(73) أرون ، ص 163 ـ 164 ، عن تقرير لجنة توبير .

(74) الإبراهيمي ، حديث إلى (المصور) المصرية .

(75) عباس ص 155 ـ 156 ، أنظر أيضاً أرون ص 142 ـ 148 .

(76) الإبراهيمي ، حديث إلى (المصور) المصرية .

(77) كينث كامبل ، مراسل (النيويورك تايمز) 4 مايو 1947 ص 29 .

للإضطرابات كان غلطة كبيرة فالنزاع الحالي (يعني ثورة نوفمبر 1954) قد ولد جزئياً من هذا القمع الأعمى »[78] وروى أحد الكتاب من أفواه بعض قادة ثورة نوفمبر أنهم يعتقدون أن حادثة 8 مايو قادت إلى ثورة 1954[79] وهذا يكاد يكون محل إجماع الجزائريين اليوم أيضاً .

وقد جاءت الكتابات الفرنسية عن الحادثة مشوشة وغير منصفة ومتناقضة كما لاحظنا . فالكتابات غير الرسمية كانت تعطي وجهة نظر حزبية أو مذهبية . فالشيوعيون اتهموا الرجعية والوطنية والفاشيستية والإقطاع . والليبراليون اتهموا الشيوعية والإشتراكية والتعصب الديني . والأحزاب الأخرى اتهمت بعضها البعض أو حملت الأحزاب مسؤولية ما حدث . رالمعمرون ومن على شاكلتهم نَحَوْا باللائمة على الوطنيين الثوريين الذين أرادوا في زعمهم رمي الفرنسيين في البحر . وبذلك ضاعت الحقيقة وسط التعصب المذهبي وسياسة المصالح الإنتخابية . ولا تكاد تخرج الوثائق الرسمية المعروفة لدينا حتى الآن عن تحميل الجزائريين مسؤولية ما حدث ، ومن ثمة فهي غير منصفة أيضاً .

أما الوثائق الأجنبية فقد نقلت عن الفرنسيين ، ولكن أصحابها اشتكوا كما لاحظنا من أن الفرنسيين لفوا الموضوع في طي الكتمان واحتكروا أخبار الحادثة لأنفسهم ، ولعل لدى بعض الأجانب وثائق هامة لم تعرف بعد .

ولا نعتقد أن الوثائق الجزائرية ستظهر قريباً أيضاً ، لأن كثيراً من الأحياء كانوا موجودين وقتها ، ولهم في الحادثة دور سلبي أو إيجابي . ولدينا بعض الكتابات الوطنية لا تخرج كما عرفنا أيضاً وهو تحميل الفرنسيين تبعة قتل « ما يقارب ستين ألفاً في يوم فرح العالم بانتهاء الحرب ، خرجوا يشاركون المتفرج عزلاً مستضعفين ، فلقي العديد حتوفهم على غرة بمكيدة مدبرة . . . » كما يقول الإبراهيمي[80] .

وهكذا انتهت حادثة 8 مايو في أيام قليلة ، ولكن عواقبها لم تنته حتى على تعاقب السنين . لقد استعمل الفرنسيون جميع الأسلحة الحديثة والفتاكة للقضاء على

---

(78) نقله أرون ص 145 ـ 148 .

(79) فافرو ، ص 76 .

(80) الإبراهيمي ، حديث إلى (المصور) المصرية .

ما اعتقدوا أنه ثورة عامة منظمة ، وإذا صدقنا الرواية الأخرى فإنهم استعملوا الأسلحة للقضاء على الحركة الوطنية الصاعدة المتمثلة في حزب أصدقاء البيان والحرية . ولكنهم بذلك حفروا هوة سحيقة بين الجزائر وفرنسا . إن الذين امتدحوا الجيش الفرنسي وأعوانه (الدرك ، اللفيف الأجنبي ، ميليشيا المعمرين) على مهارته وفعاليته أثناء تلك الحادثة ، قد عضوا فيما بعد الأنامل من الندم على ما فعل هذا الجيش وأعوانه ، ولكن بعد فوات الأوان .

* * *

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

ملاحق الكتاب

ملحق رقم (1)

مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري
جوان (يونيو) 1936 م

(في السابع من شهر جوان (يونيو) 1936 انعقد في مدينة الجزائر المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي كان أول تجمع من نوعه في البلاد، وقد انتهى بالمطالب الآتية التي رفعها وفد عن المؤتمر إلى حكومة الجبهة الشعبية بباريس . وفيما يلي نص المطالب مأخوذاً من (الشهاب) عدد جويلية (يوليو) 1936 ، وهو عدد خاص بالمؤتمر ، ص 236 ـ 237) .

* * *

أولاً : إلغاء سائر القوانين الإستثنائية التي لا تنطبق إلا على المسلمين .

ثانياً : إلحاق الجزائر بفرنسا رأساً ، وإلغاء الولاية العامة الجزائرية ، ومجلس النيابات المالية ، ونظام البلديات المختلطة .

ثالثاً : المحافظة على الحالة الشخصية الإسلامية . مع إصلاح هيأة المحاكم الشرعية بصفة حقيقية لروح القانون الإسلامي ، وتحرير هذا القانون .

ـ فصل الدين عن الدولة بصفة تامة ، وتنفيذ هذا القانون حسب مفهومه ومنطوقه .

ـ إرجاع سائر المعاهد الدينية إلى الجماعة الإسلامية لتتصرف فيها بواسطة جمعيات دينية مؤسسة تأسيساً صحيحاً .

ـ إرجاع أموال الأوقاف لجماعة المسلمين ليمكن بواسطتها القيام بأمور المساجد والمعاهد الدينية والذين يقومون بها .

ـ إلغاء كل ما اتخذ ضد اللغة العربية من وسائل استثنائية ، وإلغاء إعتبارها لغة أجنبية .

ـ الحرية التامة في تعلم اللغة العربية . وحرية القول للصحافة العربية .

رابعاً : الإصلاحات الإجتماعية : التعلم الإجباري للبنين والبنات ـ الشروع بسرعة في بناء المدارس الكافية لتعميم التعليم الإجباري .

ـ جعل التعليم مشتركاً بين المسلمين والأوروبيين .

ـ الزيادة في معاهد الصحة من مستشفيات ومستوصفات ، وفي معاهد الإغاثة : كالمطاعم الشعبية . إنشاء خزينة خاصة للعاملين من العمال .

خامساً : الإصلاحات الإقتصادية : تساوي الأجر إذا تساوى العمل ـ تساوي الرتبة إذا تساوت الكفاءة ، توزيع إعانات الميزانية الجزائرية للفلاحة والصناعة والتجارة والإحتراف على الجميع وعلى مقتضى الإحتياج دون تميز بين الأجناس .

ـ تكوين جمعيات تعاونية فلاحية ، ومراكز لتعليم الفلاحين .

ـ الإقلاع عن انتزاع ملكية الأرض .

ـ توزيع الأراضي الشاسعة البور على صغار الفلاحين والعمال .

ـ إلغاء قانون الغاب .

سادساً : مطالب سياسية ـ إعلان العفو السياسي العمومي ـ توحيد هيأة الناخبين في سائر الإنتخابات ـ إعطاء الحق لكل ناخب في ترشيح نفسه ـ النيابة في مجلس الأمة .

ملحق رقم (2)

خطبة مصالي الحاج في المؤتمر الإسلامي الجزائري
أغسطس 1936

(فيما يلي أغلب وأهم الفقرات الواردة في خطبة السيد مصالي الحاج رئيس نجم شمال أفريقية والمدير السياسي لجريدة الأمة ، وهي الخطبة التي ألقاها في الملعب البلدي بالعاصمة غداة عودة وفد المؤتمر الإسلامي من باريس ، واجتماع الناس للإستماع إلى تقرير الوفد بتاريخ 2 أغسطس 1936 . والملاحظ أن كل الخطاب كان بالفرنسية ما عدا الفقرة الإفتتاحية) .

* * *

سادتي ، إخواني ،

بإسم نجم شمال أفريقية أحييكم تحية الأخوة وأحمل إليكم تضامن 200,000 شمالي إفريقي يقيمون في فرنسا. واحتراماً للغتنا الوطنية، اللغة العربية، التي كلنا نعتز بها ونعجب بها، وأيضاً تقديراً لنبل هذا الشعب الجزائري الشجاع الكريم ، فقد أردت أن أعبر أمامكم ، بعد نفي دام إثني عشر سنة ، بلغتي الأم . . .

إخواني :

بإسم نجم شمال أفريقية قدمت للمشاركة في هذا الإجتماع الكبير ، لكي أشرك منظمتنا في هذه المظاهرة الضخمة . وأن نجم شمال أفريقية مشهور لديكم ، لذلك فإنني في غنى عن الحديث إليكم عن نشاطه وكفاحه الذي قاده منذ عشر سنوات دفاعاً عن مصالح الشعب الجزائري . ومع ذلك فإني سأغتنم هذه الفرصة

التي اجتمعتم فيها بكثرة ، بل بالآلاف ، لكي أذكر لكم بعض التفاصيل عن الدور الذي لعبه ، ومن الواجب علي أن أقول بأن المعركة كانت صعبة ومريرة .

وتحت حكومات من أكثر الحكومات رجعية ، وفي الوقت الذي كان فيه كل الناس في بلادنا صامتين ، وتحت حكم استثنائي ، كان نجم شمال أفريقية هو الوحيد الذي تجرأ على رفع الصوت للاحتجاج ضد كل سوء إستعمال للسلطة، ضد الظلم والإجحاف ، وليقول أمام العالم أن الجزائر لم تمت ، وأنها بإرادة أبنائها تريد أن تعيش حرة وسعيدة . وهذه الجرأة هي التي جرت على مناضلي النجم المشاق التي لا مثيل لها كما جرت عليهم أكثر أنواع الحقد عنصرية . . .

لقد صدرت ضدنا أحكام بالسجن لمدة سنوات ، مع التغريم بآلاف الفرنكات . وقد عرفنا النفي والتهجر ، ولم يسلم أحد خلال هذا الكفاح : وحتى اليوم ، وتحت حكومة الجبهة الشعبية ما زلنا نتعرض لسلسلة من الإجراءات الخاصة والقوانين الإستثنائية ، في قلب باريس . وهي إجراءات وقوانين لا تستعمل إلا ضدنا نحن فقط . . .

ومن أجل هذا اتهمونا أكثر من مرة بكوننا شيوعيين ، ووهابيين ، وعملاء ألمانيا ، وعملاء موسكو ، وغيرهما من البلدان . ونحن نقول لكم بأننا لم نكن عملاء لا لهؤلاء ولا لأولئك ، لأننا كنا وما زلنا وسنظل دائماً عملاء وخدمة للشعب الجزائري . لقد عزمنا على تحمل كل التضحيات من أجل أن تكون الجزائر حرة ومزدهرة ومتعلمة .

ونخبركم بأننا أيضاً كنا في وزارة الداخلية وأننا قدمنا إلى السيد راوول أُوْبُو نائب كاتب الدولة ، قائمتين بالمطالب إحداهما تخص الجزائريين المقيمين في فرنسا والأخرى تخص الشعب الجزائري . ونخبركم أيضاً بأننا علمنا وسررنا بانعقاد المؤتمر (الإسلامي) الذي انعقد في بداية جوان بالعاصمة الجزائرية وقد أيدناه رغم أننا لاحظنا عليه الضعف والتسرع .

ومنذ وصول الوفد الجزائري المنبثق عن المؤتمر (إلى باريس) سارعنا إلى تحيته والإتصال به وتبادل الآراء معه حول مشاكل بلادنا . ورغم موافقتنا وتأييدنا بل وتهنئتنا لمنظمي المؤتمر ، الذي سيكون نقطة تحول في تاريخ الجزائر ، فإننا نقول لكم بصراحة بأنه يجب علينا اليوم أن نقدم لكم توضيحات نراها ضرورية . حقاً إننا

نوافق على المطالب التي قدمت إلى حكومة الجبهة الشعبية ، وإننا سنؤيدها بكل قوانا حتى نراها منجزة . . .

وهنا التزم باسم منظمتي وأمام الشيخ الجليل ابن باديس أن أعمل كل ما في وسعي لتأييد هذه المطالب ولخدمة القضية النبيلة التي ندافع عنها جميعاً . ولكننا نقول صراحة وبشكل لا يقبل التراجع بأننا نتبرأ من ميثاق المطالب بخصوص إلحاق بلادنا بفرنسا وبخصوص التمثيل البرلماني.

والواقع أن بلادنا اليوم ملحقة بفرنسا إدارياً وهي تابعة لسلطتها المركزية ولكن هذا الإلحاق كان نتيجة غزو فظيع ، تلاه احتلال عسكري يقوم اليوم على الفيلق التاسع عشر من الجيش . لكن الشعب لم يوافق عليه أبداً . أما الإلحاق الذي نص عليه ميثاق المطالب فهو مطلوب إرادياً بإسم مؤتمر يقولون عنه أنه يمثل إجماع الشعب الجزائري . ومن ثمة فهناك فرق أساسي بين إلحاق لبلادنا حصل رغم إرادتنا وإلحاق إرادي مقبول عن طيب خاطر في المؤتمر الذي انعقد في السابع من جوان بالجزائر العاصمة . (وهو المؤتمر الذي . . . في ثلاث ساعات فقط) . إننا أيضاً أبناء الشعب الجزائري ولن نقبل أبداً أن تكون بلادنا ملحقة ببلاد أخرى رغم إرادتها . فنحن لا نستطيع مهما كانت الظروف ، أن نراهن على المستقبل الذي هو أمل الحرية الوطنية للشعب الجزائري .

إن هذا المستقبل يخص الجيل الصاعد، فهو وحده الذي يملك الحق في تقرير مصيره وقدره . ونحن أيضاً ضد التمثيل البرلماني لأسباب عديدة . إننا نؤيد إلغاء الوفود المالية ، ومنصب الحاكم العام ، ونقف مع إنشاء برلمان جزائري منتخب عن طريق الإقتراع العام بدون تمييز بالعنصر أو بالدين .

إن هذا البرلمان الوطني الجزائري الذي يتكون في عين المكان سيعمل تحت مراقبة الشعب مباشرة ومن أجل الشعب . ونحن نعتقد ، من جهتنا ، بأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح للشعب الجزائري أن يعبر عن نفسه بحرية وبصراحة بعيداً عن كل الضغوط والمناورات الإدارية[1] . . .

مصالي الحاج

رئيس نجم شمال أفريقية والمدير السياسي لجريدة (الأمة)

---

(1) المصدر : ترجمنا هذه الخطبة عن وثائق السيد محمد قنانش .

ملحق رقم (3)

مذكرة الجزائريين إلى الحلفاء
ديسمبر 1942

(بعد نزول الحلفاء في الجزائر 8 نوفمبر 1942 ، تقدم ممثلو المسلمين الجزائريين إلى الحلفاء ـ بما فيهم فرنسا ـ بهذه المذكرة التي كتبت في العشرين من شهر ديسمبر 1942) .

* * *

إن ممثلي المسلمين الجزائريين ، شعوراً منهم بالأحداث الخطيرة التي تشهدها بلادهم منذ 8 نوفمبر 1942 ، يتقدمون إلى السلطات المسؤولة بالمذكرة التالية :

إن الحرب ، بعد أن قلبت وجه كل القارات وضربت فرنسا التي هي شعلة الحضارة والثقافة ، ضربة قاضية تمتد اليوم إلى الجزائر .

فإذا كانت هذه الحرب ، كما قال رئيس الولايات المتحدة ، حرب تحرير للشعوب والأفراد بدون تمييز لا بالعنصر ولا بالدين ، فإن المسلمين الجزائريين ينضمون بكل قواتهم وبكل تضحياتهم إلى هذا الصراع التحريري . وهم بذلك يضمنون التحرير السياسي لأنفسهم كما يضمنون تحرير فرنسا في نفس الوقت .

لكن من المفيد أن نذكر بأن السكان الذين يمثلونهم هم في الواقع مجردون من الحقوق والحريات الأساسية التي يتمتع بها السكان الآخرون في هذه البلاد رغم التضحيات التي بذلوها والوعود الرسمية والعلنية التي أعطيت لهم في عدة مناسبات .

لذلك فهم يطالبون ، قبل دعوة جماهير المسلمين للمشاركة في أي مجهود

للحرب ، بانعقاد ندوة تجمع المنتخبين والممثلين المؤهلين لكل المنظمات الإسلامية . **والهدف من هذه الندوة هو وضع دستور سياسي واقتصادي واجتماعي للمسلمين الجزائريين .**

والواقع أن الشرط الوحيد الكفيل بإعطاء المسلمين في هذه البلاد الشعور العميق بواجباتهم الراهنة **هو دستور قائم على العدل الإجتماعي**[1] .

(كتب في 20 ديسمبر 1942 م ، بدون توقيعات)

(1) المصدر : ترجمنا الوثيقة عن النص الذي أورده بول ساراسين ، (الأزمة الجزائرية) ، باريس 1949 ، ص 174 .

ملحق رقم (4)

بيان الشعب الجزائري ، فبراير 1943 م

(فيما يلي ترجمة لفاتحة وخاتمة البيان الجزائري وهو الوثيقة التي قدمها باسم الشعب الجزائري مجموعة من النواب الجزائريين إلى سلطات الحلفاء بالجزائر ، بما فيها السلطات الفرنسية ، بتاريخ 10 فبراير 1943 م ، ولطول البيان اكتفينا بالمقدمة التي تصور الظروف التي صيغ فيها البيان والخاتمة التي اشتملت على مطالب النواب ، وقد احتفظنا بالتوقيعات للأهمية التاريخية) .

***

منذ 8 نوفمبر 1942 م والجزائر تعيش تحت احتلال القوات الأنكلو ـ أمريكية . ان هذا الاحتلال الذي عزل المستعمرة (الجزائر) عن فرنسا قد أحدث في وسط فرنسيي الجزائر سباقاً حقيقياً إلى السلطة . فكل فريق منهم : جمهوريون ، وديغوليون ، وملكيون ، وإسرائيليون ، يحاول من جهته أن يبذل جهده في التعاون مع الحلفاء وكل منهم يسعى إلى الدفاع عن مصالحه الخاصة .

وأمام هذا الهرج والمرج فإن كل أحد يبدو متجاهلاً حتى وجود ثماني ملايين ونصف من الأهالي . ولكن الجزائر المسلمة ، رغم أنها غير مبالية بذلك التنافس ، تظل يقظة وحذرة من أجل مصيرها .

واليوم فإن ممثلي هذه الجزائر ، استجابة منهم للرغبة الإجماعية لشعبهم ، لا يمكنهم التخلي عن الواجب وهو طرح مشكل مصيرهم .

فاذا تحقق هذا ، فإنهم لا يتنكرون للثقافة الفرنسية والغربية التي تلقوها والتي بقيت عزيزة عليهم . على العكس فإنهم ، استقاء من الثراء المعنوي والروحي لفرنسا ومن تقاليد الحرية للشعب الفرنسي ، يجدون القوة والمبررات لحركتهم الحالية .

وشعوراً من هؤلاء الممثلين بمسؤولياتهم أمام اللّه ، فإنهم يعبرون هنا باخلاص وأمانة عن الآمال العميقة لكل الشعب الجزائري المسلم.

إن هذا البيان يعتبر أكثر من عريضة دفاع ، إنه في الواقع شهادة للتاريخ وعقد إيمان .

***

. . . فعلينا إذن أن نبحث خارج أخطاء الماضي وخارج التعابير البالية عن الحل المعقول الذي يضع حداً نهائياً لهذا النزاع الطويل.

إننا في شمال أفريقية على أبواب أوروبا ، وأن العالم المتحضر يتفرج على هذا المشهد المشوش وهو ممارسة استعمار على جنس أبيض صاحب حضارة شهيرة ، ينتمي إلى أجناس البحر الأبيض المتوسط ، وله قابلية للتطور وقد أظهر رغبة صادقة في التقدم.

إن هذا الاستعمار لا يمكن أن يكون له ، سياسياً ومعنوياً ، مبدأ آخر غير وجود مجتمعين متباينين كل منهما غريب عن الآخر . فرفضه الصريح أو المقنع لإعطاء الجزائريين المسلمين حق الاندماج في المجتمع الفرنسي ، قد أفشل كل أنصار سياسة الإندماج التي تقدم بها الأهالي . وهذه السياسة قد أصبحت اليوم في عين الجميع كواقع مستحيل المنال وآلة خطيرة في يد الاستعمار.

لقد انتهى الزمن الذي كان فيه المسلم الجزائري لا يطلب سوى أن يكون جزائرياً مسلماً . فمنذ إلغاء قرار كريميو على الخصوص ، **فإن الجنسية الجزائرية والمواطنة الجزائرية هما اللتان تمنحان المسلم الجزائري الأمن الأوفر لكونه جزائرياً مسلماً** وتعطيان وضوحاً وحلاً أكثر منطقية لمشاكل تطوره وتحرره.

أما من الناحية الاقتصادية فإن هذا الاستعمار قد أظهر عجزه عن تحسين الأوضاع وحل المشاكل الكبرى التي خلقها هو . وهكذا فإن الجزائر لو أديرت إدارة محكمة وسيرت تسييراً متقناً وجهزت تجهيزاً جيداً ، لكان في استطاعتها أن توفر العيش لعشرين مليون نسمة على الأقل، في حالة رخاء، وأن تجعلهم في حالة رخاء وسلام إجتماعي . ولكن ما دامت أسيرة نظام استعماري فهي لا تستطيع أن توفر العيش ولا أن تعلم ولا أن تكسي ولا أن تسكن ولا أن تجد العلاج حتى لنصف سكانها الحاليين.

وأن تجهيز الجزائر الحالي ، الذي يكفي فقط لتأمين رفاهية طبقة لا تمثل سوى ثمن مجموع السكان ، سيظل سطحياً ومهزلة **إذا لم يكن للجزائر حكومة نابعة من الشعب وتعمل لصالح الشعب** . إن الحقيقة التاريخية تكمن هناك ولا يمكن أن تكون في غير ذلك.

لقد أعطى الرئيس روزفيلت في تصريحه باسم الحلفاء ، الضمان بأن حقوق كل الشعوب ، صغيرة كانت أم كبيرة ، ستحترم في منظمة العالم الجديد.

وانطلاقاً من هذا التصريح ، وتفادياً لكل سوء تفاهم ، ونفياً لجميع الأطماع والنوايا السيئة التي قد تنجم غداً . فإن الشعب الجزائري يطالب منذ الآن بما يلي :

(أ) **استنكار الاستعمار وتصفيته** ، **بمعنى إنهاء سياسة الإلحاق واستغلال شعب لشعب** آخر . إن هذا الاستعمار ليس سوى شكل جماعي للرق الفردي في العصور الوسطى . ومن جهة أخرى فهو أحد الأسباب الرئيسية للمنافسات والمنازعات بين الدول الكبرى .

(ب) **تطبيق مبدأ تقرير المصير لجميع البلدان** ، صغيرة كانت أو كبيرة .

(جـ) **منح الجزائر دستوراً خاصاً بها يضمن** :

1 ـ الحرية والمساواة المطلقتين لجميع سكانها بدون تمييز بالعنصر أو بالدين .

2 ـ إنهاء الملكية الإقطاعية بتطبيق إصلاح زراعي كبير ، وتأمين حق العيش للطبقة الكبيرة من العمال والفلاحين .

3 ـ الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية .

4 ـ حرية الصحافة وحق الإجتماع .

5 ـ التعليم المجاني والإجباري لجميع الأطفال ذكوراً وإناثاً .

6 ـ حرية الديانة لجميع السكان والعمل بمبدأ فصل الدين عن الدولة لجميع الأديان .

(د) المشاركة الفورية والفعالة للمسلمين الجزائريين في حكومة بلادهم ، مثلما فعلت حكومة صاحبة الجلالة البريطانية وكما فعل الجنرال كاترو في سورية ، وحكومة المارشال بيتان والألمان في تونس. وهذه الحكومة هي وحدها التي تستطيع أن تشرك ، في جو من الوحدة المعنوية الكاملة ، الشعب الجزائري في الصراع المشترك .

(هـ) إطلاق سراح جميع المحكوم عليهم والمساجين السياسيين ، مهما كان الحزب الذي ينتمون إليه .

إن ضمان وإنجاز هذه النقط الخمس سيضمنان الإنضمام الكامل والمخلص للجزائر المسلمة إلى الصراع من أجل انتصار الحق والحرية.

فمؤتمر (انفا) . بالرغم من أنه انعقد على أرض شمال أفريقية ، ظل صامتاً حول مشكلة الاستعمار . وأن الشعب الجزائري ، قد تأثر بذلك بعمق ، والقول بأن علينا أولاً أن نحارب لم يحقق بالنسبة لسلام سنة 1918 م سوى خيبة الآمال . إن هذا القول لا يمكنه أن يرضي أحداً . وأن هناك شعوباً مثل شعبنا قاست تضحيات جسيمة ، قد وجدت نفسها في نهاية الحرب العظمى مجبرة على تقديم تضحيات أخرى عسيرة ، دون أن تحصل حتى على تلك الحرية التي ذهب أطفالها ضحيتها . إن الشعب الجزائري الذي يعرف جيداً مصير الوعود المعطاة خلال الحرب ، يرغب أن يرى مستقبله مأموناً بإنجازات واضحة وفورية.

والشعب الجزائري يقبل بكل التضحيات إذا قبلت السلطات المسؤولة بحريته .

كتب بمدينة الجزائر ، في 10 فبراير 1943 م .

(التوقيعات) :

الدكتور أ . تامزالي ، مستشار عام ،
ورئيس القسم القبائلي في مجلس الوفود المالية .
أحمد غرسي ، مستشار عام ، ونائب مالي .
طالب عبد السلام ، مستشار عام ، ونائب مالي .
الدكتور ابن جلول ، مستشار عام ، ونائب مالي .
مبارك علي بن علال ، مستشار عام ، ونائب مالي .
شنوف عدة ، نائب مالي .
غراب معمر ، نائب مالي .
حاج حسن باشتارزي ، مستشار ونائب مالي .
عبد القادر السائح ، مستشار عام ،
ورئيس القسم العربي في مجلس الوفود المالية .

أ . عباسة ، مستشار عام ونائب مالي .

محفوظ ابن تونس ، نائب مالي .

شريف سيسبان ، مستشار وطني .

محمد خيار ، مستشار بلدي ، ونائب مالي .

ب . ابن شيحة ، نائب مالي ومستشار وطني .

أ . بن علي الشريف ، نائب مالي .

شريف بن حبيلس ، نائب مالي .

أ . أورابح ، مستشار عام ، ونائب مالي .

تامزالي خليل ، نائب مالي .

ريني فضيل ، نائب مالي .

تامزالي علاوة ، نائب مالي .

الدكتور الأخضري ، مستشار عام ، ونائب مالي .

فرحات عباس ، مستشار عام ، ونائب مالي(*) .

(*) (ملاحظة : حرف (أ) في بداية الاسم مترجم عن حرف (A) اللاتيني الذي قد يكون أصلاً ألفا مثل أحمد ، وقد يكون في الأصل عيناً مثل علي) .

(1) المصدر : ترجمنا هذه الوثيقة عن النص الموجود في كتاب بول ساراسين (الأزمة الجزائرية) ، باريس 1949 ، ص 176 ـ 186 ـ 192 .

ملحق رقم (5)

قانون منح المواطنة الفرنسية لبعض الجزائريين
(مارس 1944)

(فيما يلي ترجمة لنص القانون المؤرخ بـ 7 مارس 1944 ، الذي أعلنت فيه اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني برئاسة الجنرال ديغول منح بعض الجزائريين حق المواطنة الفرنسية . وهو مترجم عن الإنكليزية من نشرة (فرنسا الحرة) التي كانت تصدرها اللجنة المذكورة ، جـ 5 ، عدد 6 الموافق مارس سنة 1944) .

***

المادة الأولى : سيتمتع الفرنسيون المسلمون في الجزائر بجميع الحقوق وسيكون عليهم الواجبات التي للفرنسيين غير المسلمين . وكل الوظائف الرسمية ، سواء كانت مدنية أو عسكرية ، ستكون مفتوحة لهم .

المادة الثانية : سيطبق القانون بدون تمييز بين الفرنسيين المسلمين والفرنسيين غير المسلمين . وكل المواد القانونية المستعملة ضد الفرنسيين المسلمين تعتبر ملغاة . على أن الفرنسيين المسلمين الذين لم يعلنوا صراحة عن إرادتهم في الدخول تحت القاعدة العامة للقانون الفرنسي سيظلون خاضعين لأحكام القانون الإسلامي والعادات البربرية في كل ما يتعلق بأحوالهم الشخصية وحقوق الملكية .

المادة الثالثة : إن الفئات الآتية سيعتبر أصحابها مواطنين فرنسيين ويوضعون على نفس سجل المصوتين غير المسلمين من المواطنين الذكور البالغين 21 سنة أو أكثر وهم : قدماء المحاربين ، وحملة إحدى الدرجات الآتية :

دبلوم التعليم العالي ،' بكالوريا التعليم الثانوي ، الأهلية العليا ، الأهلية الإبتدائية ، أهلية الدراسات الإبتدائية العليا ، شهادة الدراسات الثانوية ـ شهادة

التخرج من المدرسة الوطنية الكبرى ، أو من مدرسة وطنية للتعليم المهني سواء كانت صناعية أو فلاحية أو تجارية ، وشهادة اللغة العربية والبربرية .

الموظفون المدنيون أو المتصرفون الذين توظفهم الدولة ، والولايات والبلديات ، أو المصالح المعتمدة .

الحائزون على مناصب دائمة بمقتضى تنظيمات سيحددها القانون فيما بعد .

أعضاء الغرف التجارية والفلاحية ، والباشاغوات ، والأغوات ، والقياد الذين تولوا وظائفهم ثلاث سنوات على الأقل ولم يكونوا قد عزلوا منها .

الأشخاص المنتخبون أو الذين كانوا قد انتخبوا كنواب في المجالس المالية ، أو مستشارين بلديين في البلديات كاملة الصلاحيات ، أو رؤساء للجماعة .

أعضاء النظام الوطني للجون دونور ، وأصحاب نظام التحرير ، وحملة الميدالية العسكرية ، وحملة ميدالية العمل ، وأعضاء مجالس إتحاد العمال في الاتحادات العمالية المؤسسة تأسيساً شرعياً بعد أن يكونوا قد مضى عليهم في وظيفتهم ثلاث سنوات .

أعضاء مجالس التوثيق والوكلاء الشرعيون .

أعضاء المجالس الإدارية لعمال وفلاحي (لاسيب) ـ الجمعية الأهلية للصالح العام ـ وأعضاء اللجان الفرعية لعمال وفلاحي (لاسيب) .

المادة الرابعة : وسيؤذن لفرنسيين مسلمين آخرين بالحصول على الواطنة الفرنسية . وسيحدد المجلس الوطني التأسيسي الطريقة التي يحصل بها هذا التغيير . وابتداء من هذا التاريخ فإن الفرنسيين المسلمين من هذا الصنف ، وهم الذكور البالغون 21 سنة أو أكثر ، سيتمتعون بمواد قانون 9 فبراير 1919 ، وسيوضعون في قائمة الدائرة الإنتخابية التي تنتخب النواب الخاصين للمجالس البلدية والمجالس العامة والمجالس المالية حسبما نص عليه القانون المذكور آنفاً . وسيكون هؤلاء النواب في المجالس العامة والمجالس المالية بنسبة الخمسين من مجموع عدد أعضاء هذه المجالس . أما في المجالس البلدية فسيكون أيضاً بنسبة الخُمُسَيْن ، باستثناء الحالات التي لا تصل فيها النسبة بين السكان المسلمين الفرنسيين ومجموع السكان إلى هذا العدد . وفي هذه الحالة فإنهم سيكونون بنسبة حجم السكان المسلمين .

المادة الخامسة : للفرنسيين الحق في المجالس الجزائرية بدون تمييز ومهما

كانت الدائرة الإنتخابية التي ينتمون إليها ، ولا يخضعون إلا للشروط العادية .

المادة السادسة : ستظل القوانين المعمول بها بخصوص سكان (وادي) مزاب وسكان المناطق الصحراوية المعروفة بهذا الإسم ، سارية المفعول .

المادة السابعة : ستصدر اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني مرسوماً يحدد طرق تطبيق هذا القانون .

الجزائر 8 مارس 1944 م .

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

المصادر والفهارس

أولاً ـ الوثائق والنشرات والأطروحات

ـ أحاديث شخصية مع البشير الإبراهيمي ، ونعيم النعيمي ، وعلي بن سعد ، من الأموات ، والباقون ما زالوا أحياء .

ـ (نشرة أعمال المؤتمر الرابع لطلبة مسلمي شمال أفريقية بفرنسا) ، تونس سنة 1934 م .

ـ (الجزائر في نصف قرن) تقرير سري طويل أعدته مصالح الإستخبارات الفرنسية بالجزائر ، يناير سنة 1954 م .

ـ نشرة جمعية الطلبة المسلمين بفرنسا لسنة 1931 م .

ـ (حياة بانون أكلي) حديث رواه للسيد قنانش ، يقع في 14 صفحة على الآلة الراقنة . والسيد بانون أكلي كان من الأعضاء البارزين في نجم أفريقية الشمالية .

ـ (خطبة مصالي الحاج) في أغسطس سنة 1936 . وثيقة مرقونة في أربع صفحات بالفرنسية ، عند السيد قنانش .

ـ روسينيول ب . Rossignol, P. (الأحزاب السياسية الإسلامية الجزائرية إلى سنة 1954 م) ، أطروحة في القانون ، باريس 1962 م .

ـ (النشرة الداخلية لجامعة الكشافة الإسلامية الجزائرية) ، العدد الأول ، سبتمبر سنة 1946 م .

ـ زوزو ، عبد الحميد (دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية) ، أطروحة في التاريخ أعدها الطالب تحت إشرافي ، كلية الآداب جامعة الجزائر سنة 1975 م . (وهي الآن مطبوعة في كتاب) .

ـ كولو ، كلـو ، دراسة بعنوان (نجم شمال أفريقية) ، مخطوط مرقون عند السيد قنانش .

ـ (نشرة المؤتمر الثاني لطلبة مسلمي شمال أفريقية بفرنسا) ، الجزائر سنة 1932 ،

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

طبع تونس .
ــ نجم ، ماري (الإبراهيمي في حياته) ، أطروحة دبلوم لم تناقش بعد ، فيها بالخصوص حديث الإبراهيمي لمجلة (المصور) المصرية بعنوان « من أنا ؟ » .
ــ سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، قسنطينة سنة 1935 .
ــ (مذكرة سرية عن نجم شمال أفريقية) أعدتها ولاية وهران في 31 أغسطس سنة 1936 ، مرقونة ، عند السيد قنانش .
ــ هالبيرن ، مانفريد (الفرنسيون في الجزائر سنة 1944 ـ 1947) ، بحث غير منشور لدى مدرسة الدراسات المعمقة الدولية ، سنة 1948 ـ (بأمريكا) .
ــ (فرنسا الحرة) ـ بالإنكليزية ـ الأجزاء الآتية : جـ 2 عدد 11 (أول ديسمبر 1942) جـ 3 عدد 5 (أول مارس 1943) ، جـ 3 عدد 6 (15 مارس 1943) ، جـ 5 عدد 1 (أول يناير 1944) ، جـ 5 عدد 3 (أول فبراير 1944) ، جـ 5 عدد 8 (15 أبريل 1944) .

ثانياً ـ الكتب

Abbas, Farhat, La nuit coloniale, Paris, 1962.

Aboulker, Marcel, Alger et ses complots, Paris, 1945.

Alfassi, Allal, The independence movements in Arab North-Africa, Washington, 1954.

Aron, Robert et Al, Les origines de la guerre d'Algérie, Paris, 1962.

Barbour, Nevill, A survey of North-West Africa, London, 1959.

Catroux (Général), Dans la bataille de Méditerranée (1940-1944), Paris, 1949.

Clark, K., Algeria in turmoil, New - York, 1959.

Favrod, Charles - Henri, La Révolution Algérienne, Paris, 1959.

Gillespie, Jean, Algeria rebelion and revolution, New - York, 1960.

Gosset, Pierre R., Conspiracy in Algeria (1942-1943), New - York, 1945.

Gontor, Jagues R., Algeria and France (1930-1963), Indiana, 1965.

Jeanson, C.L'Algérie hors loi, Paris, 1955.

Julien, Ch.-André, L'Afrique du Nord en marche, Paris, 1952.

Kaddache, Mahfoud, La vie politique à Alger (1919-1939), Alger, 1970.

Le Tourneau, Roger, Evolution politique de l'Afrique du Nord musulman (1920-1961), Paris, 1962.

Liebesny, Herbert J., The government of French North Africa, Philadelphia, 1943.

Martin, Claude, Histoire de l'Algérie française (1830-1962), Paris, 1963.

Merad, Ali, Le réformisme musulman en Algérie (1925-1940), Paris, 1967.

Murphy, Robert, Diplomat Among Warriors, New - York, 1964.

Nouschi, André, La naissance du nationalisme algérien (1914-1954). Paris, 1962.

Sarrasin, Paul - Emile, La crise algérienne, Paris, 1949.

Trouchet, André, L'armistice de 1940 et l'Afrique du Nord, Paris, 1961.

U.S. Department of State, Foreign relations of the United States, II, Europe 1942, Washington, 1962.

Viollette, Maurice, L'Algérie vivra-t-elle?, Paris, 1931.

Weygand (Général), Mémoires, rappelé au service, Paris, 1950.

ثالثاً ـ المقالات

Banda, Michael, «Marxism and the Algerian revolution», Labour Review, London, March-April, 1958.

Barbour, Nevill, «Variations of arab national feeling in french North Africa», the Middle East Journal (Summer, 1954).

Brown, Carl Leon, «The Islamic reformist movement in North Africa», the Journal of Modern African Studies, (March, 1964).

Bouspuet, G.H., «Les élites gouvernantes en Afrique du Nord depuis la Conquête française», Die Welt des islams, vol. 3, 1954.

Cahmman, Werner, «France in Algeria, a problem of cultural contact», the Review of Politics (July, 1945).

Eyre-Crowe, Sybill, «Algeria», The Asiatice Review (April, 1943).

Gottmann, Jean, «Nature and men in french North Africa», the Yale Review (March, 1943).

Gottmann, Jean, «Economic problems of french North Africa», the Geographical Review: (April, 1943).

Halpern, Manfred, «Recent books on moslem - french relations in Algeria», the Middle East Journal (April, 1949).

Halpern, Manfred, «The Algerian upriding of 1945», the Middle East Journal (April, 1948).

Jaray, Gabriel-Louis, «La politique indigène en Algérie», Mercurie de France (Novembre 1, 1938).

Johnson, Douglas, «Algeria: some problems of modern history», the Journal of African History, vol. V., N° 2, 1964.

Knight, M.M., «The Algeria revolt: some underlying factors», the Middle East Journal (Autumn, 1959).

Lapie, P. O., «The new colonial policy of France», Foreign Affairs (October, 1944).

Mckay, Vernon, «France's future in North Africa» the Middle East Journal (July, 1948).

Machefer, Philippe, «Autour du problème Algérien en 1936-1938: la doctrine Algérienne du PSF.- le P.S.F. et le projet Blum,- Violette», Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine (April-June 1963).

Mynard, John A.F., «Racial problems in Algeria», Social Research, vol. 10 (February, 1943).

Montagne, Robert, «French policy in North Africa and in Syria», International Affairs (March, 1937).

Montagne, Robert, «Où va l'Algérie?» Politique étranger (August, 1945).

Montagne, Robert, «Evolution in Algeria» International Affairs (January, 1947).

Murray, John, R.N., «Good-by to Algeria», Blackwoods Magazine (March, 1948).

Richemont, F. de, «L'Islam et la nationalité française», Revue Politique et Parlementaire (October 10, 1937).

«Reform or revolt», New statesmen and nations (January, 29, 1944).

«Les ulémas Algériens réformistes», la Nouvelle Revue Française d'Outre - Mer, N° 7-8 (July, 1955).

Wysner, Glora M., «Jews and moslems in Algeria», the Moslem World (October, 1943).

رابعاً - جرائد ومجلات

ـ أفريقية الفرنسية ، أعداد من سنوات : 1933 ، 1934 ، 1935 ، 1936 ، 1937 ، 1938 ، 1939 .

ـ الأيكونوميست ، 28 ـ 11 ـ 1942 .

ـ البرلمان الجزائري ، العدد 2 ، 3 جوان (يونيو) 1939 . (لسان حزب الشعب الجزائري) .

ـ البصائر ، سنة 1935 ـ 36 (لسان جمعية العلماء) .

ـ التايمز (البريطانية) ، أعداد من سنوات : 1931 ، 1933 ، 1934 ، 1935 ، 1937 ، 1938 ، 1939 ، 1942 ، 1943 ، 1944 .

ـ التلميذ (مجلة) ، اعداد من سنوات 1931 ، 1933 . (لسان حال الطلبة الجزائريين) .

ـ لوطان ، 7 ـ 1 ـ 1937 .

ـ النيويورك تايمز ، اعداد من سنوات : 1933 ، 1934 ، 1935 ، 1943 ، 1944 ، 1945 ، 1946 ، 1947 .

ـ الشهاب ، أعداد من سنوات : 1930 ، 1931 ، 1932 ، 1936 ، 1938 ، 1939 . (مجلة ابن باديس) .

ـ الشعب ، العدد 2 ، 15 أكتوبر 1937 . (لسان حزب الشعب الجزائري) .

***

فهرس الأعلام والأسماء

ـ أ ـ

آيت سي احمد (عبد العزيز): 83هـ .
آيت علي: 133 .
الإبراهيمي (محمد البشير): 10، 17 ـ 19، 28، 84هـ، 90، 111، 153 ـ 154، 155 ـ 156، 163، 167هـ، 186 ـ 187+هـ، 205، 223+هـ، 229، 233، 237، 239 ـ 240+هـ، 249، 253، 255، 256 .
ابريال ـ أميرال: 175 ـ 176+هـ، 178 .
ابن اشنهو (حسين): 130هـ .
ابن اشنهو (مصطفى): 130هـ .
ابن باديس (عبد الحميد): 10، 22 ـ 23، 25، 43 ـ 44، 50، 55، 67، 69، 71+هـ، 83 ـ 87+هـ، 89 ـ 94، 99، 101 ـ 104، 106، 109، 139، 152 ـ 156+هـ، 159، 162 ـ 165، 170، 185 ـ 187+هـ، 205، 222، 242هـ، 249 .
ابن باديس ـ الوالد 71+هـ.
ابن التهامي: 155 .
ابن جلول (محمد صالح): 10، 23، 25، 45، 47 ـ 48، 50 ـ 52، 53، 67 ـ 73+هـ، 74 ـ 76، 78 ـ 79، 94، 101، 109، 118، 153، 155 ـ 156، 159 ـ 161، 165، 168، 170، 185، 219، 222 .
ابن جمعه (احمد): 64 .
ابن الحاج ـ رئيس نادي الاخاء: 61، 62، 66، 71، 159 .
ابن حبيلس: 105 .
ابن خده (بن يوسف): 184 .
ابن دالي . انظر: كحول (محمود) .
ابن دحمان (عمار): 145هـ .
ابن سعود: 69 ـ 70 .
ابن سليماني (سليمان): 71هـ .
ابن ضيف ـ مناضل بالنجم: 134 .
ابن عبود: 68 .
ابن العقبي: 180 .
ابن علال . انظر: علي بن علال (مبارك) .
ابن عمار (خليفة) 145هـ ، 180 .
ابن قانه (عزيز) ـ شيخ العرب: 79+هـ، 219 .
ابن مسعود (عبد القادر): 142 .
أبو الكير (جوزي): 236 .
أتاتورك (كمال): 209 .
أجرون (ش. روبير): 6، 47هـ .
الأحول (حسين): 145هـ .
الأخضري ـ دكتور: 68، 79 .

أرسـلان (شكيب): 69، 119، 121، 125+هـ، 142هـ، 152+هـ، 245.
اسماعيل (عمر): 83+هـ، 84+هـ ـ 85.
الأنغ (ب. هـ.): 195.
الأمير (المختار): 224.
أوبـو (ر.): 32، 142، 160، 166هـ، 250.
أوزقان (عمار): 10، 223، 229.
ايزنهاور: 197، 198.
ايلي (خليفة) ـ يهودي: 47.

ـ ب ـ

باريس (ميشال): 26.
بانون (اكلي): 120، 125، 140، 142.
برنار (اوغسطين): 25.
بريتر: 245.
بسمارك: 91.
بشير ـ دكتور: 109، 132هـ.
البلهوان (علي): 109.
بلوك (ج. ب.): 248.
بـلوم (ليـون): 25، 29 ـ 32، 74 ـ 75، 100 ـ 101، 140، 160 ـ 161، 170، 223.
بن غوريون (دافيد): 243.
بنونه: 109.
بوجدره (عمار): 180.
بوجناح ـ مناضل بالنجم: 134.
بوخرط ـ مناضل بالنجم: 134.
بوده (احمد): 164هـ، 183.
بوراس (محمد): 107، 182هـ.
بورد (بيير): 92هـ.
بورديله ـ عقيد: 251.
بورقيبه (الحبيب): 143.
بورمون (الكونت دي): 128، 140.
بوصوف: 68.
بوغومولوف (الاسكندر): 196 ـ 197.
بوكردنه: 159.
بوكوشه (حمزه): 84هـ.
بول ـ يهودي: 130.
بومدين (معروف): 145هـ، 180.
بومعزة (علاوة): 145هـ، 180.
بومنجل (علي): 143، 182هـ، 230هـ.
بـيتـان (مـارشـال): 175 ـ 176، 178، 183 ـ 185، 188، 210.
بـيـرك (أوغسـطيـن): 205 ـ 207+هـ، 211هـ، 230هـ، 246.
بيرك (جاك): 207هـ.
بيروتون ـ حاكم عام: 112، 203 ـ 204، 207 ـ 208، 210، 213، 217.
بيوض: 84هـ.

ـ ت، ث ـ

تارديه: 143.
تـامزالي (عبـد القـادر): 64، 78، 155، 219.
التبسي (العربي): 205.
التركي (عباس): 55، 102هـ.
التركي (قدور): 180.
ترومان: 11.
تشرشل: 173، 202.
توبير: 236، 242، 244، 251، 255.
توماس (ج.): 189، 240.
توريز (موريس): 251.
توينبي (أ.): 83هـ، 152، 163، 159، 222هـ.
تيكسيه (ادريان): 239، 250، 254.

تيون (جيرمين): 236، 238.
تيون (شارل): 251.
ثامر (الحبيب): 109.

- ج -

جوفر: 25.
جوليان (ش. اندرى): 29، 87، 157هـ، 158هـ، 175، 222هـ، 238هـ.
جونسون (فرانسيس): 236هـ.
جيرو - جنرال: 196 - 197، 202 - 204، 207 - 208، 211، 213، 217.
سي الجيلاني (محمد السعيد): 121+هـ - 122، 133.

- ح -

الحاج - محامي سوري: 125.
حاج علي (عبد القادر): 118 - 119هـ.
الحافظي: 84هـ.
حبار (اكلي): 140هـ.
حربي (محمد): 6.
حسين (محمد الخضر): 224هـ.
حسين باشا - داي: 128، 140.
حماني (أحمد): 106هـ.
حيواني (الأخضر): 145هـ.

- خ -

خالد - الأمير: 16، 67 - 68، 79، 85، 117 - 118، 151، 158، 218، 249.
خلاف: 68.
الخوري (فارس): 117.
خير الدين (محمد): 156، 205.
خيضر (محمد): 180.

- د -

دارلان - اميرال: 199، 202.
دباغين (الأمين): 183، 205هـ، 230.
دحلب (سعد): 184.
دلادييه: 19، 74، 170.
دوار (محمد): 146 - 147هـ - 148.
دوروكس: 20.
دوفال - جنرال: 251.
دوكار: 246.
دوليتل - قنصل أمريكي: 195.
ديبارمي (جوزيف): 47، 49، 86.
ديرو: 250.
ديغول - جنرال: 176، 183، 190، 196 - 197، 202 - 203، 207، 208، 211، 213 - 214، 216، 219، 231، 235هـ، 238، 250، 251.

- ر -

راجف (بلقاسم): 120 - 121، 124، 130هـ، 134، 142، 144.
ربوح: 130هـ.
روزفلت: 11، 196 - 197 - 198، 200 - 202، 210، 245.
روزي: 158.
روسو (جان جاك): 69 - 70.
دي روفيغو - الدوق: 251.
رويغد (عبد القادر): 130هـ.
رينو (بول): 174.
رينيه - وزير الداخلية: 17، 25، 26+هـ، 27، 33، 53، 70+هـ، 76هـ، 90، 94، 101، 111، 144، 153.
ريني (فضيل): 219.
ريني (م.): 87.

- ز -

زاقورا (جانيت): 6، 119هـ ـ 120هـ .
الزاهري (سعيد): 111 .
الزاوش (علي): 105، 108 .
زروقي (محيي الدين): 147هـ .
زغلول (سعد): 70 .
زمرلي (محمد): 83هـ .
زناتي ـ مدير جريدة صوت الأهالي : 49 ـ 50 .

- س -

ساطور (قدور): 108 .
سالم باي (محمود): 125 .
سانطارنو: 251 .
السائح (عبد القادر): 94، 211، 215 ـ 216، 229 .
السائحي (الأخضر): 106هـ .
سراي: 68 .
سعدان ـ دكتور: 10، 68، 156، 239، 250 .
سيسبان (شريف): 94 .

- ش -

شاتيل ـ حاكم عام: 175، 177، 202، 203 .
الشاذلي (سالم): 107هـ .
شاطينو ـ حاكم عام : 232، 241، 244، 248، 251 .
شبيله (الجيلالي) : 120 ـ 121+هـ.
الشرابي : 109 .
شكيكن (محمود): 45، 109 .
شوطان: 33، 44، 78+هـ، 125، 134، 143 .
شون ـ كولونيل: 242 .

- ص -

صاباتي : 25 .
صابر ـ مناضل بالنجم : 134 .
صارو (البير): 32، 70هـ ، 75 ـ 76، 78، 137هـ .
سي صالح : 130 .

- ط ، ع -

طالب (محمد): 183 .
طاهرات: 139 .
الطريس (عبد الخالق): 109، 112 ـ 113 .
عاشور (محمد): 130هـ .
عباس (فرحات): 6، 10، 28، 59، 61 ـ 62+هـ ، 67 ـ 68، 69، 72 ـ 73+هـ ، 76، 79، 86 ـ 88، 101هـ ، 105، 109، 118، 139، 142، 153 ـ 155، 170، 174 ـ 175+هـ ، 178، 184 ـ 185، 193، 200 ـ 201، 204 ـ 205، 207 ـ 208، 211+هـ ، 213، 215 ـ 216، 222 ـ 224، 228 ـ 229، 230+هـ ، 233، 235 ـ 237، 239 ـ 242، 245 ـ 246، 249، 251 ـ 253.
عبان (رمضان): 184 .
عبد الرحيم (محمد): 145هـ .
عبد الوهاب ـ دكتور: 155 .
عبده (محمد): 88 .
العربي (فضيل): 133 .
عسله (حسين): 183، 205هـ ، 230 .
العقبي (الطيب): 10، 22، 42 ـ 45، 54 ـ 55، 67، 84هـ ، 89 ـ 90، 100 ـ 103+هـ، 108، 141، 155، 186، 219، 222 .

عكاشه : 54 .
علي بن علال (مبارك) : 66، 97هـ .
العمـودي (الأمين) : 10، 107، 147هـ ، 152، 159 .
العنق (عمر) : 83هـ .
عيسى ـ عليه السلام : 102 .
عيمـاش (عـمـار) : 120 ـ 121، 124 ـ 125، 130هـ ، 133 ـ 134، 144 .

ـ غ ـ

غازاينو : 177 .
غاندي (مهاتما) : 37، 70 .
غرافه (ابراهيم) : 145هـ .

ـ ف ـ

فاجون (ا.) : 245 .
الفاسي (علال) : 61، 111هـ .
فافرو (شارل) : 236هـ .
فاليه : 250 .
فرانكو : 141 .
فرشوخ (عماره) : 147هـ .
فليته (محمد) : 180 .
فورنييه : 250 .
فيرا ـ ممثل الحزب الشيوعي الفـرنسي : 131 .
فضيل : 219 .
فـيشـي : 175، 178، 179+هـ ـ 181، 183، 187 ـ 188، 190، 193 ـ 194، 197، 202+هـ ، 207، 240، 244 ـ 245، 252 .
فيليب (ب.ج.) : 47 .
فيـوليت (مـوريس) : 17 ـ 20، 25 ـ 31، 40، 55، 59 ـ 60، 63 ـ 64، 68، 74 ـ 75، 77+هـ، 78، 100 ـ 101، 104 ـ 105، 132 ـ 133، 140، 153 ـ 154، 156، 158، 161 ـ 163، 168 ـ 169 ـ 170، 173، 218، 223، 241، 249 .

ـ ق ـ

الشيخ القاسمي : 219 .
قاضي (عبد القادر) : 219 .
قاهريه (الزين) : 68 .
قداش (محفوظ) : 47هـ .
قصيبه (أحمد) : 106هـ .
قنانش (محمد) : 6، 12، 111هـ، 123هـ، 125هـ، 140هـ، 144، 166هـ .

ـ ك ـ

كاترو : 203، 210ـ 211، 213ـ 215+هـ ـ 217، 223، 228، 231 ـ 232، 237، 241، 249 .
كارد ـ حاكم عام : 24، 45، 92هـ، 126 .
كازانيو (ب.) : 242، 244، 253هـ .
الكتاني (إبراهيم) : 186هـ .
كحال (محمد ارزقي) : 144، 145هـ .
كحـول (محمود) : 17، 54، 68، 100، 102 ـ 103، 140، 160، 168 ـ 169هـ، 248 .
كريميو : 50، 179، 199، 202، 216 ـ 217+هـ.
كسوس (محمد) : 60، 230هـ .
كلارك ـ جنرال : 199، 202 .
كوزان : 250 .
كوزون : 58 .
كوطولي (بول) : 20، 26، 236هـ، 251 .
كولو : 120هـ .

- ل -

لافال: 143 .
لافي: 250 .
لافيجري ـ كاردينال: 97 .
لاكوتير (جان): 72 .
لاقروسيير: 32هـ .
لـوبـي: 160 ـ 161، 174+هـ، 176، 178 .
لوتو: 174هـ .
لـونـقـي (جان): 125، 132+هـ ـ 133، 138 .
لونقي (روبير): 132هـ، 138 .
لينين: 69، 70 .

- م -

ماكماهون: 54 .
ماكميلان (هارولد): 196هـ ـ 197 .
مامي (إسماعيل): 7هـ، 109 .
مثلوثي (صالح): 6، 120هـ .
ال خليفـة (محمد العيـد) ـ شـاعـر: 100، 103، 108، 154، 186 .
محمدي (سعيد): 194+هـ.
المختار ـ الأمير: 224+هـ.
المـدني (أحمـد تـوفيق): 85هـ، 106، 108، 110هـ .
مزغنة (أحمد): 183، 140هـ، 145هـ .
مسطول (محمد): 230 .
مـصـالـي الـحـاج: 10، 69+هـ، 74، 119هـ ـ 120 ـ 122، 124 ـ 125هـ، 130، 132 ـ 134، 137 ـ 138+هـ ـ 144+هـ، 146 ـ 147، 159، 164 ـ 165، 167 ـ 168، 170، 175، 180 ـ 185، 205، 222، 223+هـ، 229 ـ 230+هـ، 233 ـ 235+هـ، 240، 251هـ ـ 253، 257 .
مصطفاي (رشيد): 110 .
معاوية: 130هـ .
مفـدي (زكـريـا): 108، 111، 123هـ، 144 ـ 145+هـ، 180 .
مقري (حسين): 183 .
المكي (الشاذلي): 106هـ، 180 ـ 181هـ، 230 .
المنجي (سليم): 109، 111 ـ 112 .
المنصوري (أحمد): 133 .
المهدي (صالح): 109 .
المهدي (محمد): 83هـ، 194+هـ.
مهندس: 124هـ، 133هـ .
موتي ـ برلماني فرنسي: 133، 158 .
مـورفي (روبـرت): 196 ـ 198، 200 ـ 201، 205، 207، 246 .
مورينو (اميل): 51، 179 .
موساوي (رابح): 134، 144، 145هـ .
موسلي (باسكال): 251 .
موسوليني: 241 .
موش (جول): 132، 161 .
مولاي: 130هـ .
مونتيني (ج.): 24 .
مونسو: 117 .
ميرانت ـ مستشرق: 84هـ .
ميشـال: 21 ـ 24، 26 ـ 27، 33، 70، 90، 93، 97، 101، 111، 129هـ، 155 .
الميلي (مبارك): 84هـ .
ميليا (جان): 29 .
ميمشاوي (محمد): 180 .
ميو ـ مدير الشؤون الأهلية: 50، 101هـ .

مبير: 250 .

- ن -

نابليون الثالث: 176 .
نجم (ماري): 240هـ، 249هـ .
نوقيس - جنرال: 176، 180 .

- هـ، و، ي -

هاردي: 63 - 64 .
هتلر: 47، 50، 52، 173، 178، 241،
245 .
هرقة (عبد القادر): 145هـ .
هول (كورديل): 217 .
هيلد (ادولف): 217 .
الورتلاني (محمد الفضيل): 224هـ .
ويقان - حاكم عام: 175، 177 .
ياسين (عبد الرحمن): 194هـ .
يزيد (محمد): 184 .

***

فهرس الشعوب والقبائل

- أ -

الأسبان: 40 .
الألمان: 11، 50، 80، 119، 176 ـ 179، 194، 198، 208، 210، 219، 228، 241، 244 ـ 245+هـ، 248، 252 .
الأمريكان: 11، 190، 193، 195، 197 ـ 198، 200، 206، 216، 217، 232، 244 ـ 245 ـ 246 .
الانكليز: 11، 178، 190، 193، 206، 216، 232 .
الأوروبيون: 16، 23، 37، 53، 74، 99، 188 .
الايطاليون: 187، 198، 244 .

- ب، ت -

البولنديون: 41 .
التونسيون: 119، 122، 224 .

- ج -

الجزائريون: 16 ـ 18، 22، 24 ـ 25، 27 ـ 30، 32، 37 ـ 46، 48 ـ 49 ـ 50 ـ 55، 62، 64 ـ 65، 67، 69، 72، 76ـ 77+هـ، 79+هـ ـ 80، 83، 87، 94، 97، 99، 102، 104+هـ، 106، 111، 118، 122، 124، 126 ـ 128، 132 ـ 135 ـ 136، 138 ـ 140، 142، 145، 152 ـ 154، 157 ـ 158، 162، 167، 169، 174 ـ 177، 179، 180، 183 ـ 185، 190، 194 ـ 195، 200 ـ 204، 227 ـ 229، 231 ـ 239، 241 ـ 253، 255 ـ 256 .

- ر، س، ط -

الرومانيون: 41 .
السوريون: 117، 180، 224 .
السينيغاليون: 44، 51 ـ 52، 131، 251 .
الطليان: 40، 80 .

- ع، ف، ك -

العرب: 16، 124، 126، 165، 195، 196، 200، 214، 217، 246 .
الفرنسيون: 16 ـ 23، 25 ـ 26، 29، 33، 37 ـ 40، 42، 44، 47 ـ 48 ـ 49 ـ 53، 55، 59، 61، 63 ـ 64، 66 ـ 67، 73 ـ 79، 85، 88، 90 ـ 91، 96 ـ 97، 103، 105 ـ 106، 108، 117، 129، 135، 138، 143، 145، 147، 157 ـ 158، 161، 163،

167، 169، 173 ـ 181هـ، 183،
186، 188 ـ 189، 197 ـ 200،
203، 205 ـ 215 ـ 216، 218 ـ
220، 223 ـ 224، 227 ـ 228،
230، 245+هـ، 247 ـ 250، 252 ـ
253، 256 .
الفلسطينيون: 224 .
الكولون (المعمرون): 16، 19، 26، 29 ـ
31، 39، 41، 43، 59 ـ 63، 68،
70 ـ 75، 77 ـ 78، 101، 129،
143، 145 ـ 146، 158، 167،
169، 175 ـ 176، 178 ـ 179،
182+هـ، 203، 206، 208 ـ 209،
211 ـ 212، 219، 223، 227،
236+هـ ـ 238، 241 ـ 242، 248 ـ
251 ـ 252، 256 .

- م، ي -

المغاربة: 111، 119، 122، 224 .
اليهـود: 27، 47 ـ 49، 51 ـ 53، 78،
91، 131، 179، 199، 202 ـ 203،
208، 216 ـ 217، 243 .

***

فهرس الأحزاب والمنظمات السياسية

ـ أ ـ

الاتحاد الإسلامي ـ قسنطينة: 49، 109 .
اتحاد التحرر الإسلامي: 119 .
الاتحــاد الشعبي الجــزائــري: 69، 74، 169 .
الاتحـاد الـوطني لمسلمي شمـال افـريقيـا: 124، 133 .
الاتحادية الإسرائيلية ـ المغرب: 49 .
أحباب فرنسا: 79 .
أصدقاء الأمة: 143 .
أصدقاء فلسطين العربية: 246 .
الأمم المتحدة: 199 .
أكسيون فرانسيز ـ منظمة: 50 .

ـ ب، ت ـ

البيــان الجـزائــري: 200، 203 ـ 204، 214 ـ 215 ـ 216، 222، 228، 237 .
التجمع الشعبي للمؤتمر: 165 .
التجمع الفرنسي ـ الإسلامي الجزائري: 68، 170 .

ـ ج ـ

الجامعة الإسلامية: 21، 39، 71، 77 .
الجامعة العربية: 230، 244، 246 .
الجبهة الشعبية: 15، 17، 19، 25، 27 ـ 32، 54 ـ 55، 75، 94، 99، 121، 126، 135 ـ 137، 139 ـ 143، 153 ـ 154، 157، 166 ـ 170 .
الجبهة المشتركة: 131 .
جمعية الاصلاح الإسلامي: 102 .
الجمعية الألمانية ـ الإسلامية: 119 .
الجمعية الأهلية الخيرية (لاسيب): 220 .
جمعيـة حقوق الإنسـان والشباب الـلائكي: 133 .
جمعيـة الدفـاع عن المسلمين الجزائـريين: 133 .
جمعية الطالب المغربية: 112 .
جمعيــة الجـزائــريين الـزيتــونيين: 106، 181هـ .
جمعيـة طلبة شمـال أفريقيـا: 107 ـ 108، 111 ـ 112، 208 .
جمعية علماء السنة: 21، 43، 66 ـ 67، 95 .
جمعية العلماء المسلمين الجـزائريين: 17، 21، 33، 39، 42 ـ 44، 48، 54، 59، 62، 66 ـ 67، 70، 74، 83، 108، 110 ـ 111، 118، 140، 151، 153، 155، 159 ـ 160، 163 ـ 164، 167، 169، 173، 185 ـ 186، 193، 204 ـ 208،

212 ـ 213، 219، 222 ـ 223،
232، 239، 247، 252 ـ 255 .
جمعية العمال الجزائريين: 131 .
الجمعية الفرنسية الإسلامية للثقافة والتعاون:
104 .
جمعية قدماء التلاميذ: 67 .
جمعية الكشافة الإسلامية الجزائرية: 228 ـ
229، 235 .
الجمعية المعادية للامبريالية: 133 .
الجمعية الودادية للتلاميذ المسلمين في افريقيا
الشمالية: 105 ـ 106 .

ـ ح ـ

حزب أحباب الديمقراطية: 229 .
الحزب الاشتراكي الفرنسي: 18، 132،
155 .
حزب أصدقاء البيان والحرية: 224، 227 ـ
233، 236 ـ 237، 239 ـ 240،
248 ـ 251، 253 ـ 255، 257 .
حزب البيان الجزائري: 184، 193، 201،
215 .
حزب الدستور التونسي: 22، 143 ـ 144 .
الحزب الراديكالي الاجتماعي: 133 .
حزب الشعب الجزائري: 12، 17، 21،
54، 59، 74، 78، 113، 118 ـ
123، 125، 143 ـ 147، 167 ـ
169، 173، 175، 180 ـ 181+هـ،
182، 184، 193، 201، 203 ـ
204، 208، 212 ـ 213، 223،
228 ـ 232+هـ، 234، 236، 248 ـ
249، 252 ـ 254 .
الحزب الشعبي الفرنسي اليميني: 41، 49،
65 .
الحزب الشيوعي الجزائري: 11، 67،
143، 169، 173، 180، 201،
252 .
الحزب الشيوعي الفرنسي: 41 ـ 42، 50،
118 ـ 119، 123، 131، 133،
135، 143 ـ 144، 146.

ـ س، ش ـ

السامية ـ دعاة: 47 .
شبيبة المؤتمر الاسلامي الجزائري: 107 .

ـ ق، ك ـ

قدماء المحاربين: 219 .
كتلة العمل المغربية: 144 .
كروا دي فو ـ منظمة: 50 .
الكومنترن. انظر: المنظمة الشيوعية الدولية.

ـ ل ـ

لجنة الدفاع عن المغرب العربي: 119 .
لجنة الستة عشر: 219، 221 .
لجنة الشؤون الاسلامية: 248 .
اللجنة العليا لتحرير شمال أفريقيا: 246 .
لجنة العمل اليهودية: 217 .
لجنة فرنسا الحرة: 175، 203، 213،
217 ـ 219، 221 .

ـ م ـ

المجلس الأعلى للدفاع عن شمال أفريقيا:
246 .
المجلس التأسيسي الفرنسي: 220 ـ 222،
245 .
المساعدة الحمراء: 131 .
مكتب المغرب العربي: 224 .
منظمة أحباب البيان الجزائري: 222 .
المنظمة الشيوعية الدولية (الكومنترن):
119، 123، 126 .

المنظمة العمالية (س.ج.ت.): 127، 131.
المؤتمر الاسلامي الأوروبي: 125 ـ 126.
المؤتمر الاسلامي ـ القدس: 151 ـ 152.
المؤتمر الاسلامي الجزائري: 25، 29 ـ 30، 33، 54 ـ 55، 59 ـ 60، 62 ـ 63، 68 ـ 69، 74 ـ 75، 77، 87، 90، 94 ـ 96، 99 ـ 101، 107، 126، 139 ـ 143، 146، 151، 154، 158، 160 ـ 162، 166، 168 ـ 170، 184، 208، 218، 243.
المؤتمر الأفخارستي: 98.
مؤتمر الخلافة الاسلامية: 151.
مؤتمر مسلمي أوروبا: 151.
الميثاق الأطلسي: 185، 194 ـ 195، 204، 224، 234، 235، 239، 244، 246.
الميعاد الخيري: 79.

ـ ن ـ

نجم شمال أفريقيا، نجم أفريقيا الشمالية: 12، 16، 19، 21، 23، 27 ـ 28، 31، 33، 42، 45، 49، 59، 62، 67، 70، 74 ـ 75، 85، 90، 113، 117، 126، 128 ـ 145، 156، 164 ـ 167 ـ 168 ـ 169.
نجم أفريقيا الشمالية المجيد: 124، 131، 168 ـ 169.
النخبة ـ جماعة: 59 ـ 62 ـ 63، 65، 67 ـ 68، 71 ـ 76 ـ 77 ـ 80، 91، 95 ـ 96، 98، 113، 138، 146، 154 ـ 158، 168 ـ 173، 186، 188، 193 ـ 204، 208 ـ 209، 212 ـ 213، 218، 221 ـ 223، 228، 249.
النواب ـ كتلة: 65، 67 ـ 69، 71، 75 ـ 79، 91، 95، 101، 146، 154، 156، 158، 160، 168، 173 ـ 174، 193، 204، 206، 208، 212 ـ 213، 217 ـ 218، 221، 228، 237، 249.

ـ و ـ

الوهابية ـ الحركة: 21 ـ 22، 32، 39، 70، 88، 166.

***

فهرس الأماكن والبلدان

- أ -

آسيا: 194.
آفلو: 7، 186، 205، 223هـ.
الاخاء - نادي: 61، 67.
الأخضر - جامع: 42، 96.
اسبانيا: 113، 179.
افريقيا: 18، 176، 194، 219، 233.
أفريقيا الشمالية: 17، 26، 32، 39، 106 - 108، 110، 117، 122 - 123، 164، 168 - 169.
ألبانيا: 97.
ألمانيا: 15، 88، 94، 142، 166، 169، 175 - 176، 179، 185، 187، 194، 244.
أمريكا: 17، 175، 178، 195 - 199، 200 - 202، 208، 217.
الأمم المتحدة: 194، 217.
اندونيسيا: 33.
انكلترا: 15، 97.
الأوراس: 254.
أوروبا: 17، 48، 74، 91، 121، 125، 141، 151، 196، 211، 231، 240.
ايطاليا: 15، 97 - 98، 142، 174 - 175 - 176، 179، 187، 244.

- ب -

باتنة: 236.
باريس: 15، 18، 24، 43 - 47، 49، 53، 60، 62، 66 - 67، 70، 78 - 79، 94، 105 - 107، 118، 122، 124 - 127، 128، 130 - 134، 138 - 141، 143 - 144، 158 - 161، 165، 170، 176، 178، 194، 219، 242، 244 - 245، 248.
بجاية: 232، 234، 236.
البحر الأبيض المتوسط: 179، 211.
برازافيل: 219، 233 - 234، 253.
بربروس - سجن: 145.
برج الكيفان: 140.
برلين: 177.
بروكسل: 123.
بريطانيا: 173، 175، 178، 184، 193، 196 - 197، 206، 208، 210.
بسكرة: 68، 156، 232 - 234، 236.
بلعباس - سيدي: 38، 43، 45، 47، 52 - 53 - 54، 140، 156.
البليدة: 109، 140، 254.

بوبيني - حي بباريس: 139، 165.
بوغار: 229، 233.
بوفاريك: 140.
البويرة: 254.

- ت -

تازولت. انظر: لامبيز.
تبسة: 52.
الترقي - نادي: 43، 44، 84 - 86، 94، 108، 145.
تشيكوسلوفاكيا: 15.
تطوان: 113.
تلمسان: 43، 47، 111 - 112، 140، 154، 156، 168.
تونس: 33، 89، 108 - 109، 111 - 112، 117، 122، 128، 136، 174، 177 - 179، 195، 210، 247.
تيارت: 156.
تيزي وزو: 121، 140.

- ث -

الثعالبية - المدرسة: 110.

- ج -

الجامع الأخضر - قسنطينة: 42، 47، 96.
الجامع الجديد - الجزائر: 43.
الجامع الكبير - الجزائر: 54، 136، 235.
جرجرة: 254.
الجزائر - العاصمة: 6، 8 - 10، 15 - 27، 29 - 33، 37 - 54، 59، 61، 65 - 73، 78، 80، 85 - 86، 88 - 91، 97 - 101، 103 - 113، 117 - 123، 135 - 147، 151 - 152، 155، 157 - 158، 160، 173 - 175، 185، 187 - 190، 193 - 194، 214، 216 - 217، 219 - 222، 224، 228، 230، 232 - 237، 239 - 255، 257.
جنيف: 121، 125 - 126، 134، 151.
جيجل: 68، 140، 232.

- ح، خ -

الحامة: 52.
الحراش: 124، 140، 181 - 183، 203.
الحرمان الشريفان: 42.
حمام المسخوطين: 231.
خراطة: 236، 255.
الخروب: 68.
الخلدونية - المدرسة: 108، 111.
خنشلة: 236.

- ر، ز -

الرباط: 112.
روسيا: 15، 175، 180، 197، 203 - 204، 208.
الريف - المغرب: 142.
الزيتونة - جامع: 42، 96، 106، 110.

- س -

سان فرانسيسكو: 201، 245 - 246.
ستروين - مصنع: 164.
سطيف: 52 - 53، 68، 109، 140، 228 - 229، 234 - 237، 241، 246، 249 - 252، 254 - 255.
سعيدة: 213، 254.

سكيكدة: 51، 215 .
السوربون ـ جامعة: 25 .
سوريا: 117، 119، 122، 145، 177، 210، 214.
سوق اهراس: 68 .
السويس: 33 .
سويسرا: 137 .
سيق: 43 .
السين ـ محكمة: 134 ـ 135 .
السينغال: 52، 133 .

ـ ش ـ

الشام: 33، 180 .
شرشال: 197، 254 .
الشرق الأدنى: 195 .
الشرق العربي: 99 .
الشفة ـ مضيق: 109 .
شمال أفريقيا: 105، 107 ـ 110، 113، 117، 119، 127، 129 ـ 133، 138، 145، 164 ـ 165، 175 ـ 176، 177، 179 ـ 180، 187، 194 ـ 200، 207، 214، 223، 241، 244 ـ 245 .

ـ ص، ع ـ

الصحراء: 179، 220، 233 .
العالم الاسلامي: 63، 99، 122، 126، 130 .
العالم الثالث: 11 .
العالم العربي: 63، 122، 241 .
العراق: 33، 204 .
عنابة: 69، 140، 178، 232، 234، 236 .
عين البيضاء: 52، 68 .
عين تموشنت: 47 .
عين الحمام: 121 .

ـ ف، ق ـ

فاس: 112 .
فج مزالة: 243 .
فرنسا: 15 ـ 17، 24، 26، 28 ـ 33، 40 ـ 43، 45، 47، 51 ـ 55، 59 ـ 67، 69 ـ 74، 75 ـ 78، 80، 88 ـ 91، 93 ـ 96، 97، 99 ـ 100، 102 ـ 104، 112 ـ 113، 117، 119، 122 ـ 123، 125، 128 ـ 129، 135، 137 ـ 140، 141، 143، 144، 147، 152 ـ 156، 162 ـ 163، 165 ـ 168، 170، 173 ـ 178، 180، 182 ـ 188، 190، 193 ـ 199، 202 ـ 205، 207 ـ 208، 211 ـ 224، 228 ـ 235، 237، 244، 246 ـ 249، 254 ـ 255، 257.
فلسطين: 33، 48، 97 ـ 98، 119، 151، 243، 246.
الفوبورق ـ نادي: 71.
القارة الهندية: 151 .
قالمة: 68، 234، 236، 245، 251، 254.
القاهرة: 11، 151، 208، 224، 247 .
القبائل الكبرى ـ منطقة: 236 .
قبوتيل ـ قاعة: 156 .
القدس: 152 .
القرويين: 42، 96، 107، 110 .
قسنطينة: 15، 20، 23، 25 ـ 27، 39، 45، 47 ـ 53، 54، 68 ـ 71، 76 ـ

78، 84 ـ 85، 109، 130 ـ 132،
140، 153، 156 ـ 159، 179،
185، 202، 205، 212، 216، 218،
229، 235 ـ 237، 240، 249 ـ 252،
254.
قصر الشلالة: 222، 229، 233، 253.

- ل -

لامبيز: 229.
لبنان: 122.
لندن: 194، 208.
ليون: 131.

- م -

المارتينيك: 133.
مدريد: 51.
مستغانم: 47، 52 ـ 53، 140، 156.
المشرق العربي: 97، 101، 106.
مصر: 89، 122، 145.
المغرب (الأقصى): 33، 49، 63، 109،
112 ـ 113، 122، 128 ـ 129،
136، 177، 195، 214، 247.
المغرب العربي: 86، 97، 105، 107 ـ
108، 109 ـ 110، 112 ـ 113،
119، 123، 224+هـ.
المملكة المتحدة. انظر: بريطانيا.
المنصورة: 178.
المنيعة: 233، 253.
موسكو: 165، 194، 202، 217.
ميزاب: 210.
ميلة: 68.
ميونيخ: 170.

- ن، هـ، و -

النيجر: 179.
الهند: 33، 37، 210.
واشنطن: 194، 200.
الولايات المتحدة الأمريكية: 11، 198،
206، 217.
وهران: 15، 26، 45، 52 ـ 54، 75 ـ
77، 140، 154، 159، 163، 179،
182، 202، 205، 212، 215،
234، 251.

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثالثة	5
مقدمة الطبعة الثانية	6
مقدمة الطبعة الأولى	8
الفصل الأول : مشاريع فرنسا في الجزائر	13
الفصل الثاني : التوتر الاجتماعي	35
الفصل الثالث : جماعة النخبة وهيئة النواب	57
الفصل الرابع : جمعية العلماء وجمعية الطلبة	81
الفصل الخامس : نجم أفريقيا الشمالية وحزب الشعب الجزائري	115
الفصل السادس : المؤتمر الإسلامي الجزائري	149
الفصل السابع : الجزائر والحرب العالمية الثانية 1939 ـ 1942	171
الفصل الثامن : الجزائر بين الحلفاء ولجنة فرنسا الحرة 1942 ـ 1945	191
الفصل التاسع : حادثة 8 مايو 1945	225
ملاحق الكتاب :	259
ملحق رقم (1) مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري ، جوان (يونيو) 1936	261
ملحق رقم (2) خطبة مصالي الحاج في المؤتمر الإسلامي الجزائري أغسطس 1936	263
ملحق رقم (3) مذكرة الجزائريين إلى الحلفاء ، ديسمبر 1942	266
ملحق رقم (4) بيان الشعب الجزائري ، فبراير 1943	268
ملحق رقم (5) قانون منح المواطنة الفرنسية لبعض الجزائريين، مارس 1944	273

الموضوع	الصفحة

المصادر والفهارس : 277
أولاً : الوثائق والنشرات والأطروحات 279
ثانياً : الكتب 280
ثالثاً : المقالات 281
رابعاً : جرائد ومجلات 283
فهرس الأعلام والأسماء 284
فهرس الشعوب والقبائل 291
فهرس الأحزاب والمنظمات السياسية 293
فهرس الأماكن والبلدان 296
محتويات الكتاب 300

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM

كتب للمؤلف

أ ـ في الأدب :

* النصر للجزائر (شعر) ، ط. 3 ، 1986 .
* ثائر وحب (شعر) ط. 2 ، 1977 .
* الزمن الأخضر (ديوان سعد الله) ، 1985 .
* سعفة خضراء (قصص) ، 1986 .
* دراسات في الأدب الجزائري ، ط. 3 ، 1985 .
* شاعر الجزائر : محمد العيد ، ط. 3 ، 1984 .
* حكاية العشاق (تحقيق) ، ط. 2 ، 1983 .
* القاضي الأديب : الشاذلي القسنطيني ، ط. 2 ، 1985 .
* تجارب في الأدب والرحلة ، 1984 .
* أشعار جزائرية (تحقيق) ، 1989 .

ب ـ في التاريخ :

* الحركة الوطنية الجزائرية جزآن (ثان وثالث)، 1983 ، 1986 ، ط. 3 .
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ثلاثة أجزاء ، 1982 ، 1985 ، 1990 .
* تاريخ الجزائر الثقافي ، جزآن ، ط. 2 ، 1985 .
* الجزائر وأوروبا (ترجمة كتاب وولف) ، 1986 .
* شعوب وقوميات ، 1985 .
* حياة الأمير عبد القادر (ترجمة كتاب تشرشل) ، ط. 2 ، 1982 .
* محاضرات في تاريخ الجزائر (بداية الاحتلال)، ط. 3 ، 1982 .
* تاريخ العدواني (تحقيق) ـ (عند الناشر) .
* تراجم مشرقية ومغربية (تحقيق تاريخ عبد الحميد بيك) ـ في التحضير ـ .
* الحركة الوطنية الجزائرية ـ الجزء الأول ـ تحت الطبع .

ج ـ دراسات وأبحاث عامة :

* منطلقات فكرية ، ط. 2 ، 1982 .
* رائد التجديد الإسلامي : ابن العنابي ، ط. 2 ، 1990 .
* أفكار جامحة ، 1988 .
* قضايا شائكة ، 1989. .
* شيخ الإسلام : عبد الكريم الفكون ، 1986 .
* الطبيب الرحالة : عبد الرزاق بن حمادوش (دراسة) ، 1982 .
* رحلة ابن حمادوش (تحقيق) ، 1983 .
* منشور الهداية للفكون (تحقيق) ، 1987 .
* في الجدل الثقافي (عند الناشر) .
* رسالة الغريب إلى الحبيب لأبي عصيدة البجائي (تحقيق) ـ جاهز للطبع ـ .
* La Montée du Nationalisme Algérien, 2e éd. 1985

ALBORDJ.BLOGSPOT.COM